
كتابي
اعترافات
چان چاك روسو
خمسة أجزاء مجمعة
أوَّل ترجمة عربية أمينة كاملة
فريق
متميزون
E-BOOK
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع


كتابي
٣٩
اعترافات
جان جاك روسو
الجزء
الأول
فريق
متميزون
E-BOOK
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمي مراد


فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كتابي

العدد رقم (39)

إعترافات چان چاك روسو

الجزء الأول

إعداد: حلمي مراد



اعترافات
جان جاك روسو

الجزء الأول

(١)

حلم طالما تمنيت تحقيقه!

عزيزي القارىء..

- بصدور هذه الترجمة الكاملة « لاعترافات » جان جـاك روسو، يتحقَّق حلم من أضخم الأحلام الأدبية التي راودتني منذ عشقت الأدب، وأدركتنى حرفته!..
ويتجسَّم من أعز الأهداف التي أغرتني بإصدار سلسلة (مطبوعات كتابى) منذ زمن قريب. ولئن كانت هذه المطبوعات قد تمكَّنت من أن تبلغ هذا الهدف في مثل الزمن القصير، بعد أن ظلَّت «اعترافات» روسو منيعة «مستعصية» على النشر بالعربية طيلة نحو قرنين كاملين، تُرجمت خلالهما إلى جميع اللغـات الحية، ما عدا لغتنا العربيـة!.. فإن هذه السلسلة ما كانت لتحقق هـذا الهدف من أهـدافها لو لم تتلقّها أنت وتتعهَّدها منذ وُلدت برعايتك وإعزازك اللذين مكّناها من تذليل جميع هدف من الصعاب التي تعترض طريقها، والسير قدمًا نحو غايتها. وإذا أردت أن تعرف قيمة هـذا الكنز الأدبي الخالد الذي توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم، فإليك ما كتبه عنه المفكِّر المطلع الأستاذ سلامة موسى في عدد 19 نوفمبر عام 1955 من جريدة (أخبار اليوم).. إذ قال: « .. واعترافات جـان جاك روسو من الكتب التي كان يجب أن تُترجم إلى لغتنا قبل 100 او 150 سنة.. فلقد تغيَّرت أوربا بتأثير أفكار هـذا الأديب. ونستطيع أن نعزو أهم التطوّرات التي حدثت في هذه القارة إلى آرائه، التي يتلخَّص مغزاها في كلماتٍ معدودة، هي: أن الطبيعة حسنة، والإنسان طيب، ولكنهما يفسدان بالمجتمع السيىء.. فما أحوجنا في البلاد العربية إلى هذه الخمائر!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(ب)

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن صدقي في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ 14 فبراير عام 1939 يقول: « انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة « روسو »، وانصرف الأدباء وجهمرة القراء عن مطالعة (العقد الاجتماعي) و (أميل) و (هيلويز الجديدة)، ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته)، ذلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل، أما نجوى النفس البشرية فهي لا تتغيَّر ولا تتبـدَّل، فنحن نتعرَّف فيما نحسه في أعماقنا على غرائز رجل الكهوف.. فكم بالحرى إذا كان صاحب هذه النجوى مثـل صاحب (الاعترافات)، أقرب إلى عصرنا بثقافته، وإن كان أشبه بأهل الفطرة في صراحته، وجرأته؟! ».

والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تُقدِّم « مطبوعات كتابى » إليك اليوم أوَّل ترجمة أمينة كاملة لها باللغة العربية، والتي تعتبر من أعظم الشوامخ الخالدة في الأدب « الكلاسيكى »، هي أدقّ وأصدق مصدر لسيرة المفكِّر العبقرى « جان جاك روسو»، في الثلاثة والخمسين عامًا الأولى من حياته على الأقل.. ولقد كان من أهم الميزات التي كتبت الخلود لهذه (الاعترافات)، أنها كانت أوَّل عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه، فيظهرها على حقيقتها الكاملة دون أي زيف أو تستر.. فقد سجَّل « روسو » في هذا الكتاب أدق أحداث حياته ـ خيرها وشرها، طيبها وخبيثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة، وكأنه مؤمن صادق التوبة، يصارح إلهه بأخطاؤه برهانًا على صدق توبته، وإلتماسًا لصفحه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(جـ)

ولكن.. هل كان هذا هو الهدف الذي ابتغاه «جان جاك روسو» من وراء تسجيل اعترافاته؟

قد نجد الجواب عن هذا السؤال في مؤلفاته التي سبقت « الاعترافات »، وفي كتاب «أميل» بالذات.. فلقد أورد «روسو» في هذا الكتاب، وفي بعض مؤلفاته السابقة، صورًا من حياته، ومن الشخصيات التي صادفته وأثَّرت فيه.. ولكنه كان يسدل عليها سترًا من الزيف و «الرتوش»، شأن كل كاتب وأديب، حين توحي إليه بعض مراحل حياته وذكرياته بمادة تنساب على طرف قلمه أثناء الكتابة، فيحاول أن يحيطها ببعض المظاهر المفتعلة التي تُباعد بين هذه المادة وبين شخصيته الحقيقية في نظر القارىء!

ولكن «روسو» كان يهدف من إيراد هذه الذكريات إلى أكثر من مجرَّد رسم شخصيات، أو افتعال أحداث. كان يسعى إلى أن يُقدِّم تجاربه للناس، سيما في ميدان التربية ورعاية النشء. فلما واتته الجرأة، نزع ستر الزيف والتضليل، وساق الحديث صريحًا واضحًا، واعترف بالسرقة والانحراف - مثلًا - لينبه الآباء إلى العوامل التي قد تدفع بالأبناء بعيدًا عن جادة الصواب.. ولينبه المجتمع إلى الأشياء التي تنكبه بالمنحرفين من الأعضاء.

وهذا ما نلمسه واضحًا في بعض مواضع من «الاعترافات»: فهو يقول تعليقًا على معاملة أبيه لأخيه الأكبر: «كان من جراء الحنان الصافي الذي أسبغه أبي عليّ، أن أهمل هذا الأخ.. وتأثَّرت تربية أخي بهذا الإهمال، فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنًّا تتناسب مع إدمان الفجور!».... إلخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(د)

.. ويبين - في سياق حديثه عن المدة التي قضاها في تعلم حرفة الحفر على المعادن - كيف أن مخالطة الصغار لزملاء يكبرونهم سنًّا، ويختلفون عنهم بيئة ونشأة، يدفعهم إلى الخضوع لما يوحي به إليهم هؤلاء الكبار.. إذ تعوَّد « جان » الصغير السرقة بإيعاز من زميل له!

كل هذه الصور توحي بأن «الاعترافات» لم تكن - في غايتها - سوى دروس اجتماعية وتربوية.

الاضطهادات تلاحقه في كل مكان**!**

- ولقد تناولت « الاعترافات » حياة « روسو » حتى سنة 1765.. ومن الطريف أنه بدأ في وضعها عندما هاجـر إلى انجلترا. فإن بعض كتبه السابقة ـ « أميل » و « العقـد الاجتماعي » و « هيلويز الجـديدة » - تضمنت من الآراء والمهاجمات ما أثار غضب حكومة فرنسا، ورجال الكنيسـة، وأنصار المدارس الفلسفية في فرنسا وهولندا وجنيف، حتى لقد أُحرقت كتبه علنًا في بعض البلدان، واضطر إلى أن يهرب من فرنسا إلى جمهورية (بيرن)، ولكن مجلس شيوخها أمره بمبارحتها، فرحل إلى (مورتيير) بمقاطعة نيوشاتل - وكانت تحت حكم فردريك الثاني البروسي..

على أن «روسو» ما لبث أن أصـدر كتاب «خطـابـات الجيل»، فإذا الضجة التي أحدثها هذا الكتاب، تضطرّه إلى الرحيل إلى جزيرة (سان بيير) في بحيرة (بيين).. ولكن مجلس شيوخ جمهورية (بيرن) عـاد فأمره بمبارحة هـذه الجزيرة التي كانت تابعة للجمهورية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(هـ)

وكان « روسو » قد تلقَّى دعوة من صـديق إنجليـزى، فسافر إلى إنجلترا.. ووصل إلى هناك في يناير سنة 1766، فمكث شهرين في لندن، ثم انتقل إلى الريف في (ووتون) بسترادفوردشاير، حيث وضع الكراسات الست الأولى من « الاعترافات ». وتصادف أن نشرت الصحف في تلك الأثناء خطابًا بتوقيع ملك بروسيا، يطعن في أخلاق « روسو »، فظنّ هذا بمضيفيه وأصدقائه في انجلترا الظنون، ونزح في مايو سنة 1767 إلى (أميين)، حيث نزل بقلعة (تراى) التي كانت ملكًا للأمير دى كونتي، فأقام بها ردحًا تحت اسم « رينو »!.. وهناك استأنف كتابة « الاعترافات ». ثم رحل إلى (جرينوبل)، فما لبث أن ملّها وسئم أهلها، ومن ثَم رحل إلى (بورجوان)، بيد أن جوها لم يلائم صحته، فانتقل في سنة 1769 إلى (مونكان)، حيث أتمّ الكراسة العاشرة من اعترافاته..

وما لبث « روسو » أن عاد إلى باريس، حيث سُمح له بالإقامة، على شريطة أن لا يكتب شيئًا ضد الحكومة أو الدين. فانصرف إلى نقل « النوتات » الموسيقية، وإلى الاختلاط بعلية القوم. حتى إذا كان شهر مايو سنة ١٧٧٨، نُقل الكاتب الفيلسوف - الذي كان قد بلغ السادسة والستين من عمره - إلى كوخ في (أرمنونفيل) يمتلكه الكونت جيراردان.. وهناك، توفى فجأة في 3 يوليو من ذلك العام. وقد ذهب فريق من الناس - ومنهم مدام دى ستايل إلى أنه انتحر.. كما ذهب فريق آخر إلى أنه مات في نوبة صرع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الطبعة التي ترجمنا عنها الاعترافات

ولقد كان من عادة « روسو » أن يشرف بنفسه على إصدار طبعة واحدة من كل كتاب يضعه. على أنه كان يتدخَّل في الطبعات التي تصدر بعد ذلك، فيضيف إليها بعض الملاحظات، دون أن يحذف أو يغيّر شيئًا من موادها.

ولقد تولَّى ثلاثة من أقرب خلصائه ـ هم « دوبيرو » و « مولتون » الجنيفي، ومركيز « جراردان » فحص مخطوطاته بعد موته، ومطابقتها على ما سبق أن أفضى به إليهم.. وقد انتهت تحقيقاتهم بصدد « الاعترافات » إلى إصدار طبعة منها في (جنيف) في سنة ١٧٨٢.. على أن «دوبيرو» لم يرض عن التعديلات التي أُدخلت على الكراسات الست، فأصدر بنفسه طبعة أخرى، استند فيها إلى ما كان بين يديه من وثائق، لا سيما رسائل « روسو ».

وفى سنة ١٨٠١ صدرت طبعة ثالثة من «الاعترافات»، أُخذت عن أصول قدَّمتها مدام « روسو »، ولا تزال محفوظة في البرلمان الفرنسي.. وكان الفارق بين كل من هذه الطبعات الثلاث وبين الآخرين، لا يعدو مجرَّد تعديلات بسيطة في بعض العبارات، وليس في الوقائع.

والترجمة التي تقدِّمها لك « مطبوعات كتابى » اليوم، أُخذت عن طبعة أصدرتها دار « لوفيفر » في سنة 1859، بعد دراسة الطبعات الثلاث وتحقيقها، ومن ثم فهى تُعتبر أدق طبعة صدرت من « اعترافات جان جاك روسو ».. وقد بذل الزميل القدير المرحوم محمد بدر الدين خليل في نقلها إلى العربية كل جهد ممكن، للمحافظة على النص والروح بأمانة تامّة، لم يشبها أى اختصار، أو حذف، أو تحوير.. بل لقد بذل عناية فائقة لجعل التعبير والأسلوب أقرب ما يكونان إلى النص الذي كتبه الأديب العبقرى، بقدر ما سمحت بذلك لغتنا العربية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



وأخيرًا، فأملى أن تكون « مطبوعات كتابى »، بنقلها هذا التراث الإنساني الخالد إلى لغتنا، قد ساهمت في تزويد المكتبة العربية بأثر شامخ من شوامخ الأعمال الأدبية الباقية على الزمن..

ولهذه المناسبة، أحسبك تقرّني على أنه لم يكن من الممكن نشر كتاب يبلغ الألف صفحة تقريبًا، في جزء واحد من (مطبوعات كتابى)، ومن ثَم لم يكن بد من نشر هذه « الاعترافات » في خمسة أجزاء متتابعة، أوَّلها هذا الجزء الذي بين يديك..

وإلى اللقاء على صفحات الجزء الثاني من هذه الاعترافات.

والله ولي التوفيق

حلمى مراد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الجزء الأول

الكراسة الأولى

١ – من سنة **1712** إلى سنة **1719**

إننى مقدم على مشروع لم يسبقه مثيل، ولن يكون له نظير. إذ أنني أبغى أن أعرض على أقراني إنسانًا في أصدق صور طبيعته.. وهذا الإنسان هو: أنا!.. أنا وحدى!.. فإني أعرف مشاعر قلبى، كذلك أعرف البشر! ولست أرانى قد خلقت على شاكلة غيرى ممن رأيت، بل إننى لأجرؤ على أن أعتقد بأنني لم أُخلق على غرار أحد ممن في الوجود!.. وإذا لم أكن أفضل منهم، فإننى على الأقل أختلف عنهم!.. ولن يتسنى البت فيما إذا كانت الطبيعة قد أصابت أو أخطأت إذ أتلفت القالب الذي صاغتني فيـه، إلا بعد قراءة هـذه الاعترافات!

فإذا ما انطلقت آخر صيحات بوق البعث، عندما يقدر له أن يدوى، فلسوف أمثل أمام الحاكم العادل وهـذا الكتاب بين يدى. ولسوف أقول في رباطة جأش: « هذا ما فعلت، وما فكَّرت، وما كنت.. لقد رويت في كتابي الطيب والخبيث على السواء، بصراحة، فلم أمح أي رديء، ولا انتحلت زورًا أى طيب.. وإذا كنت قد استخدمت بعض التزويق الفارغ ـ بين وقت وآخر - فما ذلك إلا لأملأ فراغـًا نشـأ عن نقص في الذاكرة. ولربما قطعت بصدق أمر أعـرف أنه « قد » يكون صحيحًا، ولكنني قط لم أزعم صدق ما عرفته زيفًا.. لقـد صوَّرت نفسي على حقيقتها: في ضعتها وزرايتها.. وفي صلاحها، وحصافة عقلها، وسموها.. تبعًا للحال التي كنت فيها!.. لقد كشفت عن أعمق أغوار نفسي، كمـا كنت أنت تراها، أيها الخالد السرمدي.. فأجمع حولي الحشد الذي لا حصر له من أبناء جنسى، ودعهم يصغون إلى اعترافاتي، فيرثون لخستى، ويخجلون لمثالبي. ثم ادع كلًّا منهم إلى أن يكشف بدوره - وبعين الصراحة - أسرار فؤاده، عند قوائم عرشك، وليقل إن جرؤ: «لقد كنت خيرًا من ذاك الرجل»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وُلدت في (جنيف)، في عام ١٧٢١، للمواطنين « أيزاك روسو » و « سوزان برنار »، وكان تقسيم ميراث أسرة أبي ـ على قلته ـ بين خمسة عشر ابنًا وابنة، قد هبط بنصيب أبي إلى نذر لا يكاد يُذكر، فلم تكن له وسيلة عيش سوى مهنته كـ « ساعاتي » - وكان في الحق جد بارع فيها - أما أُمّي فكانت أحسن منه حالًا كانت ابنة القس البروتستانتي « برنار »، وكانت ماهرة، جميلة، وقد وجد والدي عناء في الظفر بيدها، إذ بدأ حبهما منذ طفولتهما الباكرة، وما إن بلغا الثامنة حتى اعتادا أن يتمشيا كل مساء في طريق (تريى)، أبدع طرق جنيف.. فلما صارا في العاشرة، لم يعودا يفترقان. وعزز التعاطف والائتلاف الروحي ذلك الاحساس الذي خلقته الألفة بينهما.. ولم يكن كل منهما - وقد خُلق مرهف الحس رقيق الشعور - ليرجو سوى تلك اللحظة التي يُتاح له فيها أن يكتشف عند الآخر نفس ما كان يخالجه من إحسـاس.. أو - على الأصح - كانت تلك اللحظة ترتقبهما، فأسلم كل منهما قلبه للآخر في أول فرصة.. وكأني بالقدر - حين لاح أنه يعارضهما - قد زادهما وجدًا.. وإذا بالعاشق الشاب الذي عجز عن الظفر بحبيبته - إذ أبي أهلها أن يزوجوه إياها - يذوب أسى وحزنًا، فنصحته فتـاته بالترحال، وبأن يسعى لنسيانها. فسافر، ولكن.. دون جدوى، إذ عاد مدلهًا أكثر من ذي قبل! ووجد تلك التي أحبها لا تزال وفيـة، صادقة الحب. فلم يبق لهما - بعد تلك التجربـة التي اختبرا بهـا عاطفتهما - إلا أن يظلَّا متحابين طيلة عمريهما.. فأقسما أن يفعلا ذلك، وباركت السماء تعاهدهما!

وحدث أن وقع « جابرييل برنار » - شقيق أمي - في حب إحدى شقيقات أبي، فلم توافق على خطبتـه إلا على شريطة أن يتزوّج أخوها من أختـه. وهكذا دبَّر الحب كل شيء، وعُقدت الزيجتان في يوم واحد، فأصبح خالى زوج عمتي، وقُدّر لأولادهما أن يكونوا أولاد عمومة وخؤولة لي.. وفي نهاية العام الأوَّل للزواج، رُزق كل من الفريقين بطفل، ثم تشتت

شملهما.. فقد كان خـالى مهندسًا، فعُين في خدمة الإمبراطورية ـ في المجر - تحت إمرة الأمير « يوجين »، واستطاع أن يبلى بلاءً حسنًا في معركة (بلجراد). أما أبي، فقد رحل - بعد مولد أخي الأوحد - إلى القطسنطينية، حيث استدعى ليتولى منصب « ساعاتي السلطان »! واستطاعت أمي - في غيـابـه - أن تكسب ولاء عـدد كبير من المعجبين، بفضل جمالها وذكائها ومواهبها[1]. وكان من أشدَّ هؤلاء المعجبين تهافتًا، مسيو «ديلا كلوزير»، المندوب الفرنسي المقيم. ولابد أن شغفه بها كان عارمًا، فقد رأيته شديد التأثُّر وهو يحدّثني عنها، بعد ذلك بثلاثين عامًا! على أن أمي كانت تتذرع لمقاومة كل محاولات بما هو أكثر من الفضيلة.. كانت تحب زوجها حبًّا مبرحًا. وقد راحت تلحف عليه في العودة، فترك كل شيء ورجع. وكنتُ الثمرة التعسة لهذه العودة، إذ وُلدت بعد عشرة أشهر، ضعيفًا سقيمًا. وقد كبدت أمي حياتها، وكان مولدي أول ما حاق بي من نحس وتعاسة!

ولم يقصّ على أحد قط كيف احتمل أبي هذا المصاب، ولكنى أعرف أنه لم يتعز أبـدًا، وكان يخـال أنه يرى زوجتـه في شخصى، دون أن يقـوى على أن ينسى أنني الذي حرمتـه إياها!.. أبـدًا لم يحتضني دون أن ألاحظ - من تنهّداته والاختلاجات التي كانت تعتـريه وهو يضمّني إلى صدره - أن حسرة مريرة كانت تخالط قبلاتـه، فلا تزيدها إلا حنانًا. وكان إذا قال لي: « لنتحدَّث عن أمك يا جان جاك »، أجبت: « حسنًا، لسوف نبكي إذن يا أبت! ».. وكانت هذه العبارة وحدها كفيلة بأن تبعث الدمع إلى عينيه، فكان يهتف متأوِّهًا: « آه!.. ألا ردّها إليَّ!.. كن عزائي عن فقدهـا، وأمـلأ الفراغ الذي خلّفته في نفسي!.. أفتراني كنت أحبك هذا الحب كله، لو أنك كنت مجـرَّد ابن لى؟ ».. وبعد أربعين عامًا من مصابه فيها، مات بين ذراعَيّ زوجة ثانية.. ولكن اسم الأولى كان على شفتيه، وصورتها في قرارة فؤاده!

وهكذا كان الاثنان اللذان أوجداني، ولم يورثاني - من كل النعم التي أسبغتها عليهما السماء - سوى قلب رقيق مرهف الحس.. ولقد كان قلباهما منبع سعادتهما، أما قلبي فقد كان منبع كل شقوة في حياتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد هبطت إلى الدنيا في حال تقرب من الموت، فلم يكن ثمـة أمل يُذكر في إنقاذ حيـاتي. وكنت أحمل في كياني بذور علة أخـذت تقـوى على مرّ الزمن، ولا تبارحني في بعض الأوقات، إلا لتقسو في تعذيبي بشكل آخر. وقد أولتني إحدى عمَّاتي - وكانت شابة لطيفة فاضلة - من الرعاية ما أنقـذ حياتي. وهي لا تزال حتى كتابة هذه السطور على قيـد الحياة، وقد بلغت الثمانين من عمرها، وتوفّرت على تمريض زوج يصغرها سنًّا، ولكن الافراط في الشراب أنهك قواه.. إنني لأغفر لكِ، يا عمتي العزيزة، أن أبقيتِ على حياتي. وما أعمق أسفى إذ أراني عاجزًا عن أن أرد إليكِ - في أواخر أيامكِ - تلك الرعاية السابقة التي أوليتنيهـا في أوائل أيامى![2].. كذلك لا تزال مرضعتى العزيزة العجـوز « جاكلين » على قيد الحياة، موفورة الصحة والقوة. وكأني باليدين اللتين فتحتا عيني عند مولدى، ستغمضانهما عنـد وفاتى!

ولقد تنبّه إحساسي قبل أن يتنبه فكرى.. وهو شيء يحدث لجميع البشر، ولكنني كنت أكثر من سواى خبرة به وتجربة له.. ولست أدرى ماذا كنت أفعل قبل أن أبلغ الخامسة أو السادسة. ولا أعرف كيف تعلَّمت القراءة.. وكل ما أذكره، أوّل مرة قرأت فيهـا، وما كان لها من تأثير، فقد اتخذتهـا تاريخًا لما درجت عليه من شعور مستمر بالذات.. وكانت أمي قد خلّفت بعض قصص غرامية، شرعت في قراءتها مع أبي، عقب العشاء، في كل ليلة. وكان القصد من ذلك ـ في البداية - مجرَّد تدريبي على القراءة، بالاستعانة بالكتب المشوّقة. وكان الشغف لم يلبث أن دبَّ فينا، فكنا نتناوب القراءة دون توقف، وننفق ليالي بأكملها في هذا العمل. وكنا نعجز عن التحوّل عن الكتاب حتى نفرغ منه. وكان أبي يقول أحيانًا في

استحياء، وهو يسمع العصافير تشرع في الشقشقة مع مطلع النهار: « هيًا بنا إلى الفراش.. كأني أنا الطفل ولست أنت! ».

وبفضل هذا الأسلوب الخطر، استطعت في أمد قصير أن اكتسب حذقًا بالغًا للقراءة والفهم.. ليس هذا فحسب، بل إنني أحرزت أيضًا دراية بالعواطف المشبوبة، كانت نادرة بالنسبة لطفل في سنى. فباتت جميع مشاعر الحياة العادية مألوفة لديَّ، وإن لم أكن أدرك كنهها.. كنت أحس بكل شيء، دون أن أفقه كنه أحاسيسي. فمن المؤكَّد أن هذه المشاعر المهوشة المبهمة ـ التي كنت أشعر بها واحدًا بعد آخر ـ لم تؤلف نسيجًا قوى الادراك لديَّ، لأنني لم أكن أحظى إذ ذاك بهذه القوى، ولكنها ساعدت على تشكيلها في أعماقي على نسق خاص، وأوحت إليَّ بأفكار خيالية غريبة عن الحياة الإنسانية، لم تقو التجربة وقوة التفكير على أن تبرئني تمامًا منها طيلة حياتي!

2 - من سنة **1719** إلى سنة **1723**

وفرغنا من الروايات في صيف سنة 1719، فإذا الشتاء التالي يوافينا بمادة تختلف عنها. إذ أننا لم نكد نستنفد مكتبة أمي، حتى تحوَّلنا إلى نصيبها - الذي آل إلينا - من مكتبة أبيها. وكان بها بعض كتب دسمة، لحسن الحظ. وما كان من المنتظر أن تكون غير ذلك، إذ كانت جزءًا من مكتبة جمعها قس، كان ـ في الوقت ذاته ـ عالمًا، على غرار ما كان مألوفًا في أيامه. كما كان رجلًا ذا ذوق وذكاء! وكان من هذه الكتب التي آلت الينا: « تاريخ الإمبراطورية والكنيسة » للوسيور، و « رسالة في تاريخ العالم » لبوسويه، و « حياة مشاهير الرجال » لبلوتارك، و « تاريخ البندقية » لنافى، و « التطورات » و « الأصول » لأوفيد، و « العوالم » و « حوار الموتى » لفونتنيل، وبعض مؤلفات موليير.. فنقلت كل هذه إلى غرفة أبي، وأخذت أقرؤها عليه وهو عاكف على عمله. وكنت أستوعبها في استساغة نادرة، بل لعلها كانت فذَّة بالنسبة لعمري. وأصبح « بلوتارك » - بوجه خاص - هو أحب المؤلفين إلى نفسي، فأبراني الاستمتاع بقراءة كتابه مرارًا وتكرارًا من بعض الشغف الذي كان قد تملَّكني نحو الروايات، وسرعان ما شغلت بأبطاله: وبدأت أفضل « أجيسلاوس » و « بروتس » و « أرســـتيدس » على « أورونداتيس » و « أرتامينس » و « جوبا ». وقد أدَّى هذا الإطلاع المشوِّق، والمحادثات التي كان يثيرها بيني وبين أبي، إلى تولّد روح الحرية في نفسي.. تلك الروح الأبية، المنيعة، التي لا تطيق العبودية أو الاسترقاق، والتي عذبتني طوال حياتي، في مواقف كانت بعيدة عن أن تتيح لها مجالًا.. وهكذا أصبحت أفكاري في شغل لا ينقطع بروما وأثينا، وقد دبَّت فيهما الحياة خلال سير عظمائهما. وقد أذكي حماسي أنني وُلدت مواطنًا في جمهورية، وابنًا لأب كانت وطنيته هي أشدّ عواطفه اتقادًا، فكنتُ أخال نفسى إغريقيًا أو رومانيًا - حسب شخصية العظيم الذي أقرأ سيرته - وكنت أذيب شخصيتي في شخصيته، كما كان الاسهاب في ذكر صفات الجلد والبسالة - التي كانت تستهويني - يجعل عينَيّ تومضان، وصوتى يقوى. وقد حدث ذات، أن انطلقت يوم أروي سيرة « سيكفولا » للأفراد الذين ضمَّتهم مائدتنا، فإذا بالجزع يتولَّاهم إذ رأوني في غمرة التحمّس أتقدَّم فأضمّ قبضتي على المشـواة ـ « الشوَّاية » - الساخنة، لأصوِّر عملًا من أعمال البطل!

وكان لي شقيق يكبرني بسبع سنوات، يتلقَّى عن أبي حرفته، وقد كان من جراء الحنان الضافي الذي أسبغه أبي علىَّ، أن أهمل هذا الأخ، وهي معاملة لا أقرّها ولا أحبذها!.. وتأثَّرت تربية أخي بهذا الإهمال، فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنًّا تتناسب مع إدمان الفجور. وقد عهد به أبى إلى معلم آخر، فكان لا ينفك يهرب منه، ومن البيت، حتى إننى نادرًا ما رأيته، وأكاد أقول إنني لم أكن أعرفه! على أننى لم أكف عن أن أحبه في شغف. أما هو فقد أحبّني كما يحب الشريد أي شيء!.. وأذكر أن أبي عاقبه - في إحدى المناسبات - بغلظة وغضب، فاندفعت ملقيًا بنفسي بينهما، واحتضنته.

وبذلك حجبت جسمه بجسمى، فتلقيت عنه الضربات التي كانت موجَّهة إليه!.. وظللت متشبِّثًا بهذا الوضع في عناد، حتى اضطر أبي في النهاية إلى أن يتخلَّى عن العقاب، إما لأن صرخاتي ودموعي ألانت قلبه، أو لأنه خشى أن يؤذيني أكثر مما كان يؤذي أخي. على أن حال هذا الأخ ما لبثت أن ازدادت سوءًا، ففرّ واختفى كل أثر له. وسمعنا بعد ذلك بزمن أنه كان في ألمانيا. بيد أنه لم يكتب إلينا قط، ولا تلقينا عنه نبأ على الإطلاق، ومن ثم صرت الابن الأوحد لأبي!

وإذا كان هذا البائس قد نشأ محوطًا بالاهمال، إلا أن هذه لم تكن حال أخيه.. أنا! فما كان أبناء الملوك ليحظوا بأكثر من الرعاية التي حظيت بها في سني حياتي الأولى.. كنت معبود كل المحيطين بي.. على أن هذه العبادة لم تجعل منى طفلًا مدللًا مفسودًا، كما هو المألوف في الأطفال الذين يحظون بحب أهلهم. ولم يتح لى قط - إلى أن غادرت دار أبي - أن أجرى في الطرقات مع سواى من الأطفال، ولا احتاج أحد إلى أن يشجع أو يكبح في نفسي تلك النزوات الخيالية التي تعترض حياة الأطفال، والتي تعزى - خطأ - إلى الطبيعة، وهي في الواقع من ثمار التربية.. ولقد كنت أرتكب المآخذ المألوفة لدى أقراني في السن: فكنت ثرثارًا، نهمًا، كذوبًا في بعض الأحيان.. وربما كنت أسرق بعض الفاكهة، أو الحلوى، أو المأكولات.. ولكني لم أنشد قط متعة في إيذاء الغير، أو الإضرار بهم، أو اتهامهم، أو في تعذيب الحيوانات البكماء المسكينة. وإن كنت أذكر أنني تبولت مرة في قدر أو وعاء لجارة لنا - تُدعى مدام « كلو » - بينما كانت في الكنيسة. وإني لأجهر، حتى بعد أن بلغت هذه السن، بأن ذكرى هذا الحادث تثير ضحكي.. فقد كانت مدام كلو أكثر الذين عرفتهم إمعانًا في الشكوى ولجاجة في التذمر، برغم أنها كانت طيبة فيما عدا ذلك.. وهذه - بايجاز وصدق - كبرى إساءاتي في الطفولة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكيف كان من المكمن أن أغدو شريرًا، وقد كانت عيناي لا تقعان إلا على أمثلة للطف والدماثة، ولم يكن يحيط بى سوى خير ناس في الدنيا؟.. والحق أن أبي وعمتي ومربيتي وأقاربي وأصدقائي وجيراني، لم يكونوا يخضعون لرغباتي، ولكنهم كانوا يحبونني، وكنت أنا الآخر أحبهم. وقليلًا ما كانت رغباتي تثير - أو تستحق -معارضة، حتى ليخطر لي أنني لم تكن لي أية رغبات على الإطلاق!.. وبوسعي أن أقسم على أنني ما عرفت كنه النزوات أو الشطط في الهوى، إلى أن قُدِّر لي أن أعمل في خدمة معلم. وفيما عدا الأوقات التي كنت أقضيها في القراءة أو الكتابة - بصحبة أبي - أو التي كانت مربيتى تصحبني فيها للنزهة.. فيما عدا هذه الأوقات، كنت دائمًا مع عمتي، أجلس أو أقف إلى جوارها، أرقبها وهي تطرز، أو أصغى إليها وهي تغني.. وكنت أغتبط بهذا. ولقد طبعت بشاشتها ولطفها ووجهها السمح أثرًا عميقًا، بهيجًا، في ذهني، حتى إننى لا أزال أتمثلها بخلقها ومظهرها وتصرفاتها، ولا أزال أذكر لهجتها الحنون.. وبوسعي أن أصف ما كانت ترتديه من ثياب، وكيف كانت تصفف شعرها، دون أن أنسى الخصلتين اللتين كانتا تتدليان على صدغيها، من شعرها الأسود، على غرار ما كان شائعًا في ذلك العهد.

وإنى لأعتقد بأنني مدين لها بميلي - بل ولعي - بالموسيقى، وهو الولع الذي لم يستكمل نموه في نفسي إلا بعد ذلك بزمن طويل. وكانت تعرف عددًا من الألحان والأغاني الممتازة، التي اعتادت أن تردّدها بصوتٍ جد رفيع رخيم!.. وقد كان الطرب الذي فُطرت عليه نفس هذه المرأة الرائعة، يطرد عنها وعن كل المحيطين بها الوساوس والاكتئاب. وكان السحر الذي يفرضه غناؤها على نفسي عظيمًا، حتى أن بعض أغانيها بقيت على الدوام في ذاكرتي.. بل إن كثيرًا من أغانيها التي كنت قد نسيتها تمامًا منذ أيام طفولتي، ترتد اليوم إلى ذهني - بعد أن فقدت هذه العمة، وبعد أن تقدَّم بي العمر - مصحوبة بسحر لا قِبل لي بوصفه! أفيصدق أحد أننى وقد غدوت شيخًا مخرِّفًا، تنتهبه الهموم والمتاعب، أجد نفسي

- في بعض الأوقات - منخرطًا في البكاء كالطفل، عندما أترنَّم بإحدى هذه الأغاني بصوتٍ متحشرج مهدَّم؟.. بل إن إحدى هذه الأغاني عاودتني بكل جزئية من لحنها، وإن استعصت عليَّ بعض كلماتها، برغم كل جهد أبذله لاستعادتها.. وها هو ذا مطلعها، وكل ما أستطيع أن أذكره من بقيتها:

« لست أجرؤ يا « تيرسيس » على سماع مزمارك تحت شجرة الدردار.

فقد بدأ القوم يتحدَّثون عنا في قريتنا! »

... راع،... من خطر، فالشوك دائمًا تحت الورد »[3]

وإني لأتساءل: أين السحر المؤثِّر الذي يجده فؤادي في هذه الأغنية؟.. إنها نزوة واهمة لا أستطيع أن أفهمها. ومع ذلك فمن المستحيل تمامًا أن أردِّد هذه الأغنية دون أن تقطع عليَّ دموعي الاسترسال فيها! ولقد اعتزمت مراتٍ لا حصر لها أن أكتب إلى باريس متحريًا عن بقية الكلمات، إذا كان ثمة مَن يعرفها، على أنني أكاد أكون موقنًا من أن قسطًا من الطرب الذي أشعر به إذ أتذكَّر اللحن، لن يلبث أن يتلاشى، إذا تبينت أن هناك مَن ترنَّم بهذه الأغنية غير عمتي « سوسن » المسكينة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا كانت مشاعري الأولى في بداية عهدي بالحياة.. وهكذا بدأ يتكوَّن ويتكشف في صدري ذلك القلب الأبي الشفوق وتلك الشخصية التي لا تلين ولا تنثنى برغم رقتها القريبة من الأنوثة، والتي استطاعت خلال حياتي - بتذبذبها بين الخجل والجرأة، وبين الضعف والسيطرة على النفس - أن تجعلني متقلِّبًا، والتي تسبَّبت في أن أصبحت التقوى والمتعة، واللهو والتعقّل، تفلت من قبضتي على السواء!

ثم قطع عليَّ المضي في الحظوة بهذه التربية حادث، كان لتبعاته تأثير على كل ما تبع ذلك في حياتي: فقد اشتجر أبي مع « يوزباشى » في الجيش الفرنسي يدعى « جوتييه »، كان على علاقة ببعض أعضاء المجلس الشعبي. ولقد نزف أنف ذلك « الجوتييه » - الذي كان جبانًا، وقحًا - أثناء الشجار، فأراد أن يثأر لنفسه، واتهم أبي بأنه شهر سيفه داخل أسوار المدينة. وقد تشبَّث أبي - الذي أرادوا أن يلقوا به في السجن - بأن لابد لصاحب الاتهام أن يُرسل هو الآخر إلى السجن، وفقًا للقانون. فلما عجز عن أن يحقِّق هذا، آثر أن يهجر (جنيف)، وأن ينفى نفسه من وطنه بقية حياته، على أن يتخلَّى عن أمر يتعلَّق بالشرف والحرية، كما تراءى له!

وبقيت أنا في كنف خالى « برنار »، الذي كان في تلك الحقبة يعمل في إنشاء استحكامات (جنيف). وكانت ابنته الكبرى قد ماتت، وبقى له ابن في مثل سنى. فأوفدنا معًا إلى (بوسى) لنقيم في رعاية القس البروتستانتي « لامبرسييه »، كى نتلقَّى - إلى جانب اللغة اللاتينية ـ كل تلك السفاسف الداعيـة للأسف، والتي يزج بها تحت اسم التربية والتعليم. وقد ألانت السنتان اللتان قضيتهما في القرية من خشونتي الرومانية بعض الشيء، وردّتانى طفلًا من جديد. ففي جنيف كنت أهوى المطالعة والاطلاع، إذ لم تكن ثمة مهام مفروضة عليَّ.. أما في (بوسي) فإن واجباتي جعلتني أحب الألعاب التي كانت تتيح لى الفرار من تلك الواجبات. وكان الإقليم جديدًا بالنسبة إليَّ، فلم يهن استمتاعى به، وقد تملكتنى عاطفة قوية نحوه، لم تخب منذ ذلك الحين. فكانت ذكرى الأيام الهنيئة التي قضيتها هناك تملأ نفسي حنينًا محسورًا إلى بهجتها، في كل فترات حياتي، حتى اليوم الذي قُدّر لي فيه أن أعود إلى ذلك الإقليم!

ولقد كان مسيو « لامبرسييه » لبيبًا، ذكيًا، لم يسرف قط فيما كان يفرضه علينا من

واجبات، ولم يهمل في تعليمنا. ويكفى دليلًا على أن أسلوبه في التعليم كان جيِّدًا، أننى برغم كراهيتي للقيود، لم أذكر مرة سويعات دراستى بامتعاض.. وإننى، حتى إذا كنت لم أتعلَّم كثيرًا على يديه، استوعبت في غير عناء ما تلقيته عنه، فلم أنسه أبدًا. وكانت بساطة الحياة الريفية لا تُقدَّر بقيمة في اعتباري، فقد فتحت قلبي للصداقة. إذ أنني لم أكن قد عرفت حتى ذاك الحين سوى بعض المشاعر، التي كانت - على سموها - خيالية متعلِّقة بأوهام!. على أن تعوّد العيش في وئام مع ابن خالي - وابن عمتي في الوقت ذاته - شدَّ كلًّا منا إلى الآخر بروابط من التعاطف، وسرعان ما أصبحت عواطفي نحوه أكثر مودة من تلك التي كنت أوثر بها أخي، ولم يُقدَّر لها قط أن تهن أو تضعف. وكان ابن خالي طويلًا، نحيفًا، ضعيفًا.. رقيقًا في مسلكه بقدر ما كان رقيقًا في بنيانه، لم يحاول مطلقًا أن يسيء استغلال الايثار الذي كان يلقاه في البيت بوصفه ابن الرجل الذي كان يكفلني!.. وكانت واجباتنا، وميولنا، وأذواقنا واحدة. وكنا وحيدين، وفى سن واحدة، وكل منا بحاجة إلى زميل.. فكان الفراق - في نظرنا - نوعًا من الهلاك!.. ومع أنه لم تتح لنا سوى فرص قليلة لإبداء هذا التعلّق المتبادل، إلا أنه كان تعلّقًا قويًا شديدًا، فلم يكن من العسير علينا - فحسب - أن نعيش لحظة متباعدين، بل إننا لم نكن نتصوَّر أن من المحتمل أن نفترق!

ولما كان كل منا على استعداد لأن يجنح إلى اللطف والدعة مع الآخر - في الأحوال التي .. لم يكن فيها أي قسر - فإننا كنا داومًا على اتفاق في كل شيء. وإذا كان ابن خالي قد اعتاد أن يحظى بشيء من الامتياز دونى، عندما كنا نجتمع باللذين كانا يرعياننا - نظرًا لمكانته في اعتبارهما - فإننى كنت أحظى، إذا ما خلا كل منا إلى الآخر، بامتياز عليه، مما كان يحقق التعادل بيننا.. فكنت - ونحن نستذكر دروسنا - أؤنبه إذا ما أبطأ، كما كنت أساعده إذا ما فرغت من واجباتي الدراسية.. أما في تسليتنا والعابنا، فقد كان عقلى أكثر نشاطًا من عقله دائمًا، مما كان يكفل لى الزعامة. وقصارى من القول أن شخصيتينا انسجمتا تمام الانسجام، كما أن الصداقة التي توثقت بيننا كانت من الاخلاص الصادق بحيث أننا لم نكن نفترق تقريبًا، طوال السنوات الخمس التي قضيناها معًا، سواء في (بوسي) أو في (جنيف).. ومع أننا كنا نشتجر أحيانًا، إلا أن الشجار لم يكن ليفرق بيننا، ولا كانت منازعاتنا تدوم لأكثر من ربع ساعة، ولا كان أي منا يشكو الآخر أو يتجنى عليه!.. وقد تكون هذه الملاحظات صبيانية - إن شئت أن تراها كذلك - ولكنها تضرب مثلًا قد يكون فريدًا في نوعه، مذ وجد أطفال على الأرض!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد راقت لي الحياة التي مارستها في (بوسى)، حتى أنها لو دامت أطول مما قُدِّر لها لكانت خليقة بأن تشكِّل شخصيتى.. فقد كان أساسها الحنان، والعطف، والرقة.. وكنت أؤمن بأن أحدًا من أبناء نوعنا لم يكن يبزني فيما فُطرت عليه من تحرّر من الغرور. وكنت أسمو بنفسي فأحلق عاليًا، ثم لا ألبث سراعًا أن أهوى إلى ضعفى الطبيعي واستخذائي.. كانت أكثر رغباتي الحاحًا، هي أن أكون محبوبًا لدى كل من يتصل بي عن كثب. وقد كنت ذا فطرة رقيقة، وكذلك كان ابن خالي، والشخصان اللذان وُكلت إليهما رعايتنا. ومن ثَم فإنني لم أشهد، ولا خبرت ـ خلال عامين كاملين ـ أي شعور أهوج عنيفًا، بل كان كل شيء يغذي في قلبي تلك الميول التي أودعته الطبيعة إياها. ولم أكن أعرف سعادة تسمو على أن أرى كل الدنيا راضية عنى، وعن كل شيء! ولن أنسى ما حييت أن شيئًا لم يكن يقض راحة بالى، قدر مشاهدتى أمارات القلق والاستياء على محيا الآنسة « لامبرسييه » - أخت القس - عندما كان يقدّر لي أن أتردَّد أو أتلعثم، وأنا أتلو الدرس الديني من الذاكرة في الكنيسة. كان هذا ـ في حد ذاته ـ أكثر إزعاجًا لي من أن أكشف عن عجز فيَّ أمام الملأ، على ما كان في هذا من إيلام لنفسي. ذلك لأنه وإن لم يستخفني الإطراء، إلا أنني كنت شديد التأثُّر بما يُخجل. وإني لأذهب هنا إلى القول بأن التفكير في تأنيبات الآنسة «

لامبرسييه » كان أقل ازعاجًا لي من الخوف من أن أجرح شعورها!

على أن الشدَّة لم تكن تعوز الآنسة وشقيقها، إذا دعا إليها الأمر.. ولكن هذه الشدَّة كانت عادلة في الغالب، ولم تكن قط صادرة عن انفعال أو موجدة، ومن ثَم فإنها كانت تؤلمني دون أن تثير تمردى.. كان الاخفاق في الإرضاء أقسى وقعًا على نفسي من العقاب، وكانت أمارات الاستياء أكثر إيذاءً لي من العقاب البدني.. وقد يكون من المحرج أن أمضى في الحديث عن نفسى بأكثر من هذا، ولكنني لا أجد بدًّا.. فما أشدّ ما تتغيَّر إليه معاملة المرء للصغار، إذا قُدِّر له أن يرى بجلاء مدى آثار أسلوب المعاملة المألوف، الذي ينتهج دائمًا دون ما تبصر ولا حكمة!.. وإن الدرس الهام الذي قد يستمد من مثـال واحد - شائع بقدر ما هو خطير العواقب - ليحملني على أن أروى هذا المثال:

كانت الآنسة « لامبرسييه » تكن لنا حنان الأمومة، ولكنها كانت كذلك تفرض علينـا سلطان الأم، وكانت أحيانًا تذهب في ذلك إلى حد معاقبتنا - كما يعاقب الأطفال - عندما نستحق ذلك.



كانت كذلك تفـرض علينـا سـلطان الأم ، وكانت
احيـانا تذهب فى ذلك الى حـد معـاقبتنا ..

ولقد اكتفت بعض الوقت بالتهديدات، فكان الانذار بالعقاب يبدو لي رهيبًا، إذ كان جديدًا عليّ.. على أننى تبينت - بعد تنفيذه - أن الواقع كان أقل رهبة من الترقب.. والأغرب من ذلك، أن العقاب جعلني أكثر تعلّقًا بتلك التي أنفذته فيَّ! ووجدتني بحاجة إلى أن أتذرَّع بقوة هذا التعلّق، وبكل ما أوتيت من وداعة فطرية، لأكبح نفسي عن إتيان ما قد يجعلني أهلًا لتكرار العقاب، إذ أننى كنت أشعر في الألم ـ على ما فيه من خزى - بلذة تجعلني أقل خوفًا، وأكثر رغبة في أن أحظى به مرة أخرى، من نفس اليد!.. ولا ريب في أن غريزة جنسية ما، ذات نضوج مبكر سبق أوانها، كانت تخالط هذا الشعور، لأن عين النوع من العقاب لم يكن يبدو مستحبًا إذا ما أوقعه بي شقيق الآنسة!.. على أنه لم يكن ثمة خوف من أن يحل القس محل أخته في معاقبتى، نظرًا لرقة مشاعره. وإذا كنت قد نأيت بنفسي عن أن أستحق العقاب، فما كان ذلك إلا عن خوف من أن أتسبب في استياء الآنسة لامبرسييه. ذلك لأن كرم الخلق كان أقوى تأثيرًا على نفسي من كل لذة حسية، ومن ثَم فقد كان دائمًا يسيطر على هذه الأخيرة في أعماقي!

ولقد نجم تكرّر العقاب - الذي تفاديته دون أن أخشاه - عن غير ذنب منى.. ولي أن أقول أنني أفدت منه، دون أي تبكيت من ضميري.. ولكن هذه المرة الثانية كانت هي الأخيرة كذلك، لأن الآنسة لامبرسييه ـ التي لاحظت ولا شك شيئًا أقنعها بأن العقاب لم يؤت الأثر المنشود - أعلنت أن هـذا العقاب يضنيها، وأنها لذلك اعتزمت أن تتحوَّل عنه! وكنا حتى ذلك الحين ننام في غرفتها، بل وفي سريرها أحيانًا، أثناء الشتاء. ولكنا - بعد يومين - نُقلنا للنوم في غرفة أخرى. ومنذ ذلك الوقت، حظيت بشرف المعاملة كفتى كبير، وهو شرف كنت على استعداد لأن أتخلّى عنه مغتبطًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومنذا الذي كان يصدِّق أن هذا العقاب الصبياني الذي كانت تنزله بي - وأنا لم أتجاوز الثامنة من عمري - شابة في الثلاثين، قد أثّر على ميولي، ورغباتي، ونزواتي، وعلى نفسي ذاتها، طوال بقية حياتي، وبشكل يناقض تمامًا النتيجة الطبيعية التي كان ينبغي أن يؤدي إليها؟.. فما أن اتقدت مشاعري مرة، حتى انطلقت شهواتي، وإن لم تحفل بأن تتطلّع إلى أكثر من الارضاء المحدود الذي شعرت به بالفعل في ذلك العقاب!.. على أننى برغم دمى الحار - الذي كان يتقد بالشهوة منذ مولدي تقريبًا - صنت نفسي عن كل شائبة، حتى السن التي تستيقظ فيها أبرد الطباع وأكثرها فتورًا وبطءًا!.. فقضيت زمنًا طويلًا التهم كل الحسان اللائي كنت أقابلهن بنظرات متقدة، وأنا أتعذب دون أن أدرى لذلك مسببًا!.. وكان خيالي لا يفتأ يذكرني بهن، لا لشيء إلا لأستغل أطيافهن على طريقتي الخاصة، فأجعل منهن نسخًا عديدة من الآنسة لامبرسييه!.. بل إن هذا الذوق الغريب ـ الذي ظلَّ كامنًا في نفسي على الدوام، والذي ذهب سلطانه عليَّ إلى حد أن فرض على الحرمان واستبد بي إلى درجة تثير الغيظ - أن أخلاقى، حتى بعد أن بلغت سنى النضوج، برغم أنه كان خليقًا - بطبيعته - بأن يقوّض من هذه الأخلاق!

وإذا كانت ثمة تربية عفة طاهرة، فهذه هي تربيتي يقينًا. فإن عمّاتي الثلاث لم يكن أمثلة للتقوى فحسب، بل إنهن كن متحفظات إلى درجة لم تعد مألوفة بين النساء منذ أمد طويل. وكان أبي محبًّا للهو، ولكنه كان في لهوه من أتباع المدرسة القديمة في الكياسة، فما نطق يومًا بكلمة يمكن أن تبعث حمرة الخجل إلى وجنات العذاري، ولو في حضرة نساء يؤثرهن بما لم يكن يؤثر به سواهن من حب.. ولم يكن الوقار - الخليق بأن يلتزم في حضور الصغار - موضـوع مراعاة في أسرة ما، قدر ما كان مرعيًا في أسرتي، وفي حضورى..

وقد وجدت من السيِّد لامبرسييه نفس الحرص في هذه الناحية، حتى لقد فصل من خدمته خادمًا جد بارعة، لمجرد أنها استعملت في حضـورنا تعبيرًا كان يُعتبر مستهجنًا غير

لائق!.. وقد ظللت حتى بلغت مبلغ الرجال، دون ما فكرة واضحة عن الجماع بين الجنسين.. ليس هذا فحسب، بل إن الصورة المبهمة، غير الواضحة المعالم عن الجماع، لم تكن لتخطر ببالي إلا في أقبح الأشكال وأزراها. وكنت أشعر نحو البغايا بازدراء عارم لم تخف حدَّته يومًا، وظلّ أى مشهد للفجور يملأ نفسي بالسخط، بل وبالاشمئزاز دائمًا.. وهكذا وُلد استبشاعي للفسق منذ اليوم الذي سرت فيه إلى تلال (بيتى ساكونيكس) - على غير قصد واضح منى - فشهدت على الجانبين حفرًا في الأرض، قيل لي إن تلك المخلوقات - البغايا - كن يمارسن فيها بغاءهن. وقد ظلَّ مجرَّد التفكير في أي بغى، يبعث في ذهني صورة جماع الكلاب. فكانت الذكرى وحدها كافية لأن تثير اشمئزازى!

هذا الاتجاه الذي اتجهت إليه تربيتي، والذي أدَّى - في حد ذاته - إلى تأخير الاندلاعات الأولى لطباع قابلة للالتهاب.. أقول إن هذا الاتجاه وجد - كما ذكرت - ما يعززه في الاتجاه الذي اتخذته أولى بوادر الحس الشهواني في حالتي. فإن اقتصاري في شغل خيالى على ما أحسست به بالفعل - برغم ما كان فوران دمي يسببه لي من متاعب - علَّمنى كيف أحول شهواتي نحو هذا النوع من اللهو الذي كنت آلفه، دون أن أتمادى إلى ذلك النوع الذي وجدت نفسي تبغضه، والذي كان جد وثيق الارتباط بالنوع الآخر!.. فكنت في تصوّراتى الطائشة، وفى فوراتي الجنسية المكبوتة، وفي التصرفات الهوجاء التي كانت تدفعني هذه وتلك إليها أحيانًا.. كنت في كل هذه، ألجأ في « خيالي » إلى الاستعانة بالجنس الآخر، دون أن يخطر قط ببالي أن هذا الجنس يصلح لخدمة أي غرض سوى ذاك الغرض الذي كنت أتحرق شوقًا إلى أن أستخدمه فيه. وعلى هذا النحو استطعت - برغم ما جُبلت عليه من طبيعة شهوانية هوجاء تسبق أوانها في النضوج - أن أجتاز فترة البلوغ دون شهوات، بل دون ما إدراك لأية ملذات شهوانية اللهم إلا تلك التي نبهت الآنسة لامبرسييه حسى إليها في براءة تامة، ودون أن تفطن!

فلما بلغت - مع الزمن - مبلغ الرجال، إذا بالأحاسيس التي كانت خليقة بأن تقضى علىَّ، هي ذاتها التي صانتني من الدمار.. وبدلًا من أن يختفى شعورى الصبياني القديم، إذا به يقترن بالشعور الآخر -المتسامي - بدرجة تعذَّر علىَّ معها أن أقصيه عن الرغبات التي أخذت شهواتي تذكيها في نفسي.. وكان هذا الجنون، إلى جانب ما جُبلت عليه من خجل فطرى، يجعلني دائمًا أبعد ما أكون عن أن أروق في نظر النساء، إذ كانت تعوزني الجرأة على أن أقول كل ما ينبغي أن يُقال، كما كانت تعوزني القدرة على أن أفعل كل ما ينبغي أن يفعل.. ذلك لأن النوع الذي كان يروق لي من المتعة - والذي كانت اللذة الأخرى هي الحلقة النهائية المكملة له - لم يكن مما يلجأ إليه المشوق إلى اللذة، ولا مما يخطر ببال المرأة التي تجد من نفسها استعدادًا لأن تمنح اللذة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا قضيت عمري في شوقٍ متقاعس، دون أن أنبس ببنت شفة في حضرة أولئك النساء اللواتي أحببتهن كل الحب.. على أنني أرضيت ذوقى أخيرًا - وأنا أشدّ ما أكون استحياء من المجاهرة به - في مواقف كانت تتمشى معه، وإن احتفظت في نفسي بالفكرة!.. فكان مجرَّد الاستلقاء عند قدمَى سيدة جليلة، وإطاعة أوامرها، واستغفاري إياها، أحلى متعة في رأيي!.. وكلما أذكى خيالى النشيط وقدة دمائي. ازداد ظهوري بمظهر العاشق الخجول. ومن السهل أن يتصوَّر أي امرىء أن هذا النهج في الهوى لا يقود إلى نتائج عاجلة، ولا هو جد خطير على فضيلة أولئك الذين يخضعون لسلطانه.. ومن أجل هذا، ندر أن ضاجعت امرأة، ولكنني - مع ذلك - متعت نفسي بطريقتي الخاصة.. أعني، في خيالى فقط!.. وهكذا تسنَّى لأحاسيسي المنسجمة مع طبعي الخجول وروحي الخيالية الشاعرية، أن تصون مشاعرى نقية، وأخلاقي خالصة مما يعاب، وذلك بفضل نفس النزوات التي كانت خليقة ـ إذا ما اقترنت بقليل من النزق - بأن تزج بي إلى أبشع مسلك شهوى حيوانى!

بهذا أكون اجتزت أصعب الخطوات في أظلم وأقذر الدروب في اعترافاتي. وإنه لأيسر على المرء أن يعترف بالذنب، منه بأن يقرّ بالنزق الذي يدعو إلى الخزى. ومن ثَم فإني واثق من أنني - بعد أن جرؤت على أن أقول ما قلت - لن أجفل من شيء. وفى وسع أي إنسان أن يقدِّر مدى ما كبدتني هذه الاعترافات، إذا علم أنني خلال حياتي كلها لم أجسر قط على أن أفضى بشيء من ضلالاتي لأولئك الذين أحببتهم بعاطفة هوجاء حرمتني البصر والسمع، وسلبتني مداركى، وجعلتني أرتجف في اختلاجات عنيفة.. فما استطعت يومًا أن أحمل نفسي على أن أسأل امرأة أن تمنحنى النعمة المشتهاة دون كل النعم، مهما كنت وثيق الصلة بها!.. أجل لم يحدث لي هذا سوى مرة واحدة، وكان ذلك في حداثتي، ومع فتاة من سنى.. وحتى في تلك المرة، كانت الأنثى هي السباقة إلى العرض!

وإذ أرجع بالذاكرة إلى المعالم الأولى في حياتي الداخلية، أعثر على عوامل قد تبدو - في بعض الأحيان - غير ذات بال، ولكنها مع ذلك اتحدت لتنتج في قوة أثرًا بسيطًا مهذبًا.. كما أعثر على عوامل أخرى، قد تبدو - في ظاهرها - كسابقتها، ولكنها كوَّنت اتحادات مختلفة عن تلك، بفضل تعاون ظروف معينة، دون أن يتصوَّر المرء مطلقًا أنها كانت مترابطة!.. فمثلًا، منذا الذي يعتقد أن نزعة من أقوى نزعات نفسى قد هذَّبت وذلَّلت في أعماقي النبع الذي فاض منه في دمي سيل من الشهوة ومن التخنُّث؟.. ولسوف أرسم على ضوء هذا الموضوع - ودون أن أخرج عن نطاقه - صورة أخرى مختلفة: فقد حدث ذات يوم أن كنت أستذكر درسي في عزلة في الحجرة المجاورة للمطبخ، وكانت الخادم قد وضعت أمشاط الآنسة لامبرسييه أمام المدفاة لتجف. فلما جاءت لتستعيدها، وجدت مشطًا قد تحطَّمت جميع أسنانه.. فعلى مَن كان يقع اللوم؟ لم يكن ثمة مَن دخل الحجرة سواى! فلما سُئلت، أنكرت أننى مسست الأمشاط، فشرع السيِّد والآنسة لامبرسييه في أخذى بالرفق، ثم بالضغط، ثم بالوعيد، ولكنني أصررت على إنكاري في عناد. على أن القرائن كانت جد قوية، بحيث فاقت كل احتجاجاتى - برغم أنها كانت المرة الأولى التي ظنّ فيها أننى أكذب بمثل هذه الجرأة! - فاعُتبرت المسألة خطيرة، وكانت في الواقع جديرة بذلك. وبدأ الذنب، والكذب، والعناد، خليقة كلها بأن تتطلَّب العقاب، ولكن العقوبة لم تنفِّذ بيد الآنسة لامبرسييه في هذه المرة، وإنما أُرسل خطاب إلى خالى برنار، فحضر واتُهم ابن خالي المسكين بذنب آخر خطير، لا يقل عن ذنبي، فحقَّ عليه نفس العقاب، وما كان أفظعه!.. فلو أنهم شاءوا أن يستخلصوا العلاج من الداء، وأن يقتلوا إلى الأبد أحاسيسي المكبوتة، لما فعلوا أكثر مما فعلوا في هذه المناسبة، فقد كفَّت مشاعري الشهوية عن إزعاجي أمدًا طويلًا بعدها!

ذلك أنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا منى الاعتراف المنشود. ومع أننى مثلت بين أيديهم عدَّة مرات، وتعرَّضت لمحاولات أرهقتني إلى درجة خليقة بالرثاء، إلا أنني لم أتزعزع عن موقفى. وكنت على استعداد لأن أصمد حتى الموت، وقد عقدت عزمي بالفعل على ذلك! واضطرت القوة إلى أن تتراجع أمام « العناد الشيطاني » الذي كان صادرًا عن غلام صغير - كما وصفوا ثباتى - وأخيرًا نجوت بجلدي من هذه المحاكمة القاسية وأنا محطَّم.. ولكنني كنت منتصرًا! ولقد انقضى حتى الآن خمسون عامًا منذ وقع هذا الحادث - فلست أخشى أن أُعاقب ثانية من أجله - ومن ثَم فانني أعلن على مشهد من السماء أننى كنت بريئًا من الذنب، وأنني لم أكسر المشط أو أمسه، ولا اقتربت من المدفأة، بل ولا فكرت في ذلك.. ولا جدوى من وراء سؤالي عن كيفية حدوث ما حدث، فإنني لا أدرى ولا أستطيع أن أدرى.. كل الذي أعلمه عن يقين، هو أنني لا شأن لي به!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكم أن تتصوّرا شعور غلام خجول، ومطيع في حياته العادية، ولكنه شديد الاعتزاز، مفرط الكبرياء، جامح العواطف.. غلام لم ينقد قط إلا إلى صوت العقل، ولم يُعامل إلا بالرفق، والانصاف، والتقدير، فليست لديه أية فكرة عن الظلم.. تصوَّروا غلامًا كهذا يتعرَّف

للمرة الأولى على مثل هذه الصورة الفظيعة للظلم، وعلى أيدى أولئك الذين كان يحبهم بالذات ويحترمهم أكثر من غيرهم!.. فيا لها من صدمة خيَّبت آراءه! ويا له من حادث أخلَّ باتزان مشاعره! ويا له من انقلاب ألم بقلبه وعقله وكل كيانه الذهني والمعنوي على صغره! تصوَّروا هذا إن استطعتم!.. أما أنا، فإننى أعجز عن تبين أو تتبُّع أي أثر من الآثار التي خالجتني من جرائه!.. ذلك أنه لم يكن لي من الإدراك يومئذٍ ما يمكنني من أن أرى إلى أي مدى كانت الظواهر تقف ضدي، ومن أن أضع نفسي في موقف الآخرين. لقد صمدت في موقفى، فكان كل ما شعرت به يتمثَّل في قسوة العقاب الرهيب عن ذنب لم أرتكبه.. ولم أحس بالألم الجسدي - برغم شدَّته -إلا قليلًا، وإنما كان كل شعوري ينحصر في السخط، والغضب، والقنوط.. وكذلك كان ابن خالي - الذي كانت حاله مشابهة لحالي، والذي عوقب لخطأ صدر عن غير إرادته وكأنه كان عملًا مدبرًا متعمَّدا - فقد لاذ بسخط مثل سخطى، وانساق إلى عين الانفعال الذي انسقت إليه. وإذ كنا نام في سرير واحد، فقد احتضن كل منا الآخر في ضمات تشنجية، حتى شعرنا بأننا نوشك أن نختنق. وعندما سرى عن قلبينا الصغيرين بعض الشيء - في النهاية - بدأ القلبان ينفثان غلّهما، فاستوينا جالسين في سريرنا، ورحنا نصرخ بأعلى صوتنا، مرات لا عدد لها: « أيها الجلاد!.. الجلاد!.. الجلاد! ».

إنني لأشعر - إذ أكتب هذه الكلمات - بأن خفقات قلبى تتسارع، فلسوف تظلّ ذكرى تلك اللحظات ماثلة أمامي أبدًا، ولو عشت مائة ألف سنة!.. لقد ظلَّ أوَّل شعور لي بالعنف والظلم محفورًا في نفسي إلى درجة أن كل الأفكار المتصلة به تردّني دائمًا إلى الانفعالات الأولى التي خالجتني.. وقد اشتدَّ هذا الشعور، الذي لا قيمة له في جوهره إلا لديَّ أنا وحدى، اشتدَّ في حد ذاته، واستقلّ عن كل تأثُّر أو ميل شخصى، حتى أن قلبي ليكتوى حنقًا كلما سمعت أو رأيت أي عمل من أعمال الظلم - مهما تكن فريسته أو أينما يرتكب - وكأنما ينصب تأثيره عليَّ أنا.. وعندما أقرأ عن فظائع أي جبَّار طاغية، أو منكرات أي قس لئيم، فانني لا أتردد في أن أغمد خنجرًا في قلب شقيين كهذين، وأنا مسرور.. ولو قُضى عليَّ بأن أعدم مائة مرة من أجل ذلك!.. وكثيرًا ما أنهكت نفسي - حتى يتفصد العرق منى - وأنا أطارد، أو أرمى بالأحجار ديكًا أو بقرة أو كلبًا، أو أي حيوان أكون قد رأيته يعذِّب حيوانًا آخر لمجرَّد شعوره بأنه الأقوى!.. وقد تكون هذه النزعة طبيعية بالنسبة لي - وإني لأعتقد أنها كذلك! - ولكن الأثر الذي خلَّفه الظلم الأوَّل في نفسى ظلَّ طويلًا مرتبطًا بها بقوة بالغة، إلى درجة لم يكن من الممكن معها ألَّا يقوى ويشتد!

وبوقوع الحادث الذي رويته، ولَّت طمأنينة طفولتي ووداعتها، فكففت منذ تلك اللحظة عن الاستمتاع بأية سعادة صافية، ولا أزال أشعر ـ إلى اليوم - بأن ذكرى مفاتن طفولتي، وقفت عند ذلك الحد! ولقد مكثنا بعد الحادث بضعة شهور في (بوسى)، غير أننا كنا هناك كما كان الإنسان الأوَّل فيما يصوّرونه لنا: كنا في جنة أرضية، ولكنا لم نعد نستمتع بها! صحيح أن حالنا ظلَّت في ظاهرها على ما كانت عليه، ولكنها كانت قد تغيَّرت في جوهرها تغيّرا تامًّا. فإن التعلُّق، والاحترام، والمودة، والثقة، لم تعد تربط التلميذين برائديهما. ومن ثَم فإنا لم نعد نعتبرهما من « الآلهة »! لم نعد نعتبرهما إلهين قادرين على استطلاع قلبينا. ولهذا أصبحنا أقل من ذي قبل استحياء من ارتكاب الأخطاء، وأكثر خوفًا من أن نتعرَّض للاتهام.. وبدأنا نفقد سذاجتنا، وطاعتنا، وشرعنا نلجأ إلى الكذب.. وقوَّضت كل رذائل السن التي كنا نجتازها، براءتنا، وألقت على موارد تسليتنا قناعًا قبيحًا! بل إن الريف ذاته فَقَد في نظرنا ما كان له من روعة وبساطة فاتنتين تتغلغلان في القلب، وأصبح يلوح لنا موحشًا كئيبًا. أصبح يبدو وكأنه استتر وراء قناع حجب جماله عن أعيننا. فكففنا عن فلاحة حوضينا في الحديقة، وعن غرس نباتاتنا وزهورنا.. ولم نعد نفلح الأرض في رفق ونصيح فرحًا حين نرى البذرة التي غرسناها قد بدأت تشقّ وجه الأرض. أصبحنا نكره الحياة، وأصبح الغير يكرهوننا، ومن ثَم اصطحبنا خالي معه، فافترقنا عن السيِّد والآنسة لامبرسييه وقد سئم كل فريق منا الفريق الآخر، فلم نأسف على الفراق إلا قليلًا!.. بل لقد

مكثت حوالي ثلاثين عامًا بعد مغادرة (بوسى) دون أن أستعيد فترة إقامتي بها مصحوبة بأى سرور أو ذكريات!

أما الآن - وقد تجاوزت شرخ العمر، وأخذت أدنو من الشيخوخة - فإنني أشعر بهذه الذكريات بالذات تقفز إلى بالي، بينما يتوارى سواها.. إنها لتنطبع على صفحة ذاكرتي بخطوط يتضاعف سحرها ووضوحها يومًا بعد يوم، وكأنني - إذ أشعر بالحياة وقد بدأت تتسلَّل منى - أحاول أن أمسك بناصيتها، فأغتبط بأتفه أحداث ذلك العهد، لا لشيء إلا لأنها تنتمي إلى تلك الفترة من حياتي!.. وأكاد أبصر الخادمة أو الخادم منهمكًا في تنسيق الغرفة، أو عصفورًا يمرق خلال النافذة، أو ذبابة تحط على يدى وأنا أتلو ما استذكرت من دروسى.. بل إننى لأتمثَّل الغرفة التي اعتدنا أن نقيم فيها، بكل تفصيلاتها.. وإلى يمينها غرفة مكتب السيِّد لامبرسييه، ولوحة نحاسية نُقشت عليها رسوم كل البابوات، و « بارومتر »، وتقويم (نتيجة حائط) كبير معلَّق على الجدار، وأشجار الخداش4 الكثيفة - التي كانت تنمو على بقعة جد مرتفعة من الحديقة - تواجه مؤخرة الدار، ومن ثَم فإنها كانت تنشر ظلالها على النافذة، وقد تقتحمها أحيانًا!.. وإني لأدرك أن القارىء غير راغب في الإلمام بكل هذا، ولكني مسوق إلى أن أقصّه عليه، فلماذا لا تواتيني الجرأة على أن أروى له كذلك كل الحكايات التافهة التي وقعت في ذلك العهد السعيد، والتي تهزّنى نشوة حين أتذكرها؟

إنني لأتوق إلى أن أروى خمسًا أو ستًا منها، بوجهٍ خاص.. ولكن، لنجعلها صفقة بيننا! سأنزل عن خمس منها، بيد أننى راغب في أن أروى لك السادسة، على شريطة أن تسمح لي بأن أرويها بكل تفصيل ممكن، لكي أطيل في اغتباطى!.. ولو أنني اقتصرت على ما فيه فكاهة لك، لاخترت لك قصة سقوط الآنسة لامبرسييه في المرج، وانكشاف ظهرها - أو عجزها على الأصح - لسوء حظها، حتى لقد بان بأكمله لملك (سردينيا) الذي تصادف مروره في تلك الفترة!.. ولكن قصة شجرة الجوز المطلّة على الشرفة، أكثر إمتاعًا لي، إذ قمت فيها بدور - في حين كنت مجرَّد متفرِّج في قصة السقوط في المرج! - كما أعترف بأنني لا أجد ما يدعو قط إلى الضحك في حادث أثار - برغم طرافته - خوفي على سلامة شخص كنت أحبه. فقد كنت أحب الآنسة لامبرسييه كأم، بل أكثر من أم!

والآن، أنصتوا أيها المتشوّقون إلى حكاية شجرة الجوز المطلّة على الشرفة.. أنصتوا إلى المأساة الرهيبة، وحاولوا أن تتفادوا الارتجاف إن استطعتم!.. ففى خارج باب فناء البيت، كانت تقوم إلى يسار المدخل شرفة اعتدنا أن نجلس فيها فيما بين الظهيرة والأصيل. ولما كانت في غير وقاء من الشمس مطلقًا، فقد أمر السيِّد لامبرسييه بإقامة شجرة جوز هناك، وتمَّت عملية غرسها في أكثر مظاهر الاحتفال جلالًا، إذ اختير نزيلا الدار - أنا وابن خالى اشبينين للشجرة! وبينما كان التراب ينهال في الثغرة التي أُقيمت فيها الشجرة، أسند كل منا الشجرة بإحدى يديه، ورحنا نردِّد أناشيد الانتصار والفوز!.. ولرى الشجرة، أُنشىء حول أسفل جذعها ما يشبه الحوض. وإذ رحت وابن خالى نرقب ريها كل يوم بشغف، اشتدَّ بنا الاقتناع - بطبيعة الحال - بأن من المستحسن غرس شجرة أخرى في الشرفة ذاتها، فإن هذا أفضل من أن ننشر غطاء على ما بين فروع شجرة الجوز من ثلمات.

وعقدنا العزم على أن نستأثر بما في هذا العمل من فضل، فلا نشرك معنا أحدًا.. ولهذا بادرنا فقطعنا غصنًا من صفصافة، وغرسناه في الشرفة، على مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة أقدام من شجرة الجوز الضخمة. ولم ننس أن نحفر حول شجرتنا قناة لريها شبيهة بتلك التي حُفرت حول الشجرة الأخرى، ولكن الصعوبة تمثَّلت في ابتكار طريقة لملء القناة بالماء، إذ كان الماء ينساب على مسافة من الشجرة، ولم يكن مباحًا لنا أن نهرع لاجتلابه.. ومع ذلك فلم يكن ثمة غنى عن اجتلاب قدر منه لصفصافتنا. وقضينا بضعة أيام نجرِّب كل طريقة ممكنة للحصول على ماء، حتى نجحنا إلى درجة دبَّت عندها الحياة في

الشجرة، فنبتت عليها أوراق صغيرة. وأقنعنا نموها - الذي كنا نحسبه ونقيسه في كل ساعة - بأنها لن تلبث أن تفيء علينا ظلالًا، برغم أن طولها لم يكن قد تجاوز قدمًا واحـدة!.. وإذ استأثرت شجرتنا بكل اهتمامنا حتى أننا لم نعد قادرين على تلقّى أو استذكار أي درس، وأصبحنا في غشية حجبت عن عقولنا كل شيء آخر.. وإذ شد رائدانا قبضتيهما علينا، وهما لا يدريان ما ألمَّ بنا، رأينا أن اللحظة الحاسمة التي لن نجد فيها ماءً لشجرتنا وشيكة الحلول، فطارت نفسانا شعاعًا لمجرَّد التفكير في رؤية الشجرة تذوى من العطش.. وأخيرًا، أوحت لنا الحاجة - وهي أم الاختراع - وبطريقة تجنبنا الأسى، وتجنّب الشجرة الهلاك المؤكَّد، وذلك بأن نحفر قناة تحت سطح الأرض، تسرَّب إلى صفصافتنا خفية - قسطًا من الماء الموجَّه إلى شجرة الجوز!.. على أن المشروع فشل في البداية، برغم الحماس الذي اكتنف تنفيذه. فقد حُفر النفق بطريقة بدائية، فلم يجر الماء فيه مطلقًا، إذ انهار التراب وسدَّ القناة، وامتلأ المدخل بالطين، وتلف كل شيء! ولكن شيئًا من هذا لم يثبط من عزمنا، فإن الدأب يقهر الصعاب جميعًا، ومن ثَم زدنـا المجرى عمقًا لنمكِّن الماء من الجريان، كما قطعنا قيعان بعض الصناديق إلى شرائح صغيرة ضيقة، بُسط بعضها على القاع - شريحة إثر شريحة - وأقيمت الباقية على الجانبين بميل أقام قناة مثلثة الشكل. ثم غرسـنا بضع قطع صغيرة من الخشب متباعدة لدى المدخل، فكانت أشبه بحاجز أو مصفاة تصدّ الوحل والأحجار دون أن تمنـع انسياب المـاء.. ثم غطينا مجراتنا بتراب دسّناه في حذر وعناية حتى سويناه مع سطح الأرض. وإذ انتهى كل شيء، شرعنا ننتظر - ونحن في أشدّ الانفعال من جراء الأمل والخوف ـ موعد الرى.. وحانت الساعة أخيرًا، بعد انتظار خلناه استغرق قرونًا، فجاء السيِّد لامبرسييه ليعاون في العملية كالمعتـاد، بينمـا حرصنا نحن على أن نكون خلفه لكي نحجب شجرتنا، التي كان ـ لحسن الحظ ـ يوليها ظهره!

وما أن سكب أوَّل دلو من الماء، حتى رأينا بعضه يجرى إلى قناتنا، وعند هذا المنظر فارقنا تعقلنـا، فبدأنـا نُطلق صيحات ابتهـاج حملت السيِّد لامبرسييه على أن يلتفت، وكانت هذه هي الطامة، فقد تولّاه اهتمام ضـاف وهو يرى ما كانت عليه التربة التي قامت فيها شجرة الجوز من جودة، وكيف ابتلعت الماء بشراهة. وإذ دهش لرؤيته المـاء ينساب موزعًا بين حوضين، صاح بدوره، وأنعم النظـر، فتبين الحيلة! وإذ ذاك أمر باحضار معول، وكسر بضربة واحدة شريحتين أو ثلاثًا من خشـبنا، ثم صرخ بصوتٍ جهورى: « قناة! قناة! »، وراح يكيل الضربات في كل اتجاه، دون ما رحمة، فكأنما كانت كل منها تصيب قلبينا مباشرة! وإن هي إلا لحظات حتى كانت شرائحنا الخشبية، وقناتنا، ومجراها، والصفصافة، وكل شيء، قد تقوض واجتُث من مكانه، دون أن ينبس القس خلال هذا العمل التدميري بكلمة، اللهم إلا ذلك التعجب الذي راح يكرِّره دون توقف: « قناة! ».. وهكذا راح يصرخ وهو يهدم كل شيء: « قناة! قناة! ». ومن الطبيعي أن يخطر بالبال أن المغامرة انتهت أسـوأ نهـاية بالنسبة للمهندسين الصغيرين، ولكن هذا الحدس خاطيء، فقد انقضى ذكرها بانتهاء الهدم، ولم ينبس السيِّد لامبرسييه قط بكلمة لوم، أو ينظر إلينا في استياء، كما انه لم يشر إليها بشيء مطلقًا. بل إننا لم نلبث أن سمعناه بعد قليل يقهقه مع أخته، فقد كانت قهقهته تُسمع عن بُعد.. على أن الأكثـر مدعاة للدهشة هو أننا - بعد أن زايلنـا الخوف الأوَّل - لم نشعر بأي انزعاج أو ضيق، بل أننا غرسنا شجرة ثانية في بقعة أخرى، وكثيرًا ما كنا نذكِّر نفسينا بالنكبة التي انقضت على محاولتنا الأولى، بأن رحنا نردِّد في لهجـة ذات معنى: « قناة! قناة! ».. وكانت تواتيني - حتى ذلك الوقت - نوبات من الزهو، بين آنٍ وآخـر، إذ أخـال نفسى مثـل « أريستديس » أو « بروتس » أو غيرهما من أبطال التاريخ، ولكن هذه النوبات لم تلبث أن زايلتني إذ شعرت بأوَّل نبضات الغرور واضحة ملموسة.. فقد لاح لي أن إنشاءنا قنـاة بأيدينا، وغرسنا فرعًا من شجرة لنتحدَّى به دوحة ضخمة، كان عملًا يرقى إلى ذروة المجد!.. وهكذا كنت - وأنا في العاشرة من عمري - أقدر على تمييز المجد من « قيصر » حين كان في الثلاثين!

وقد ظلَّت شجرة الجوز هذه، والقصة الصغيرة المتعلِّقة بها، حيتين في ذاكرتي، أو أنهما عادتا إليها بعد حين، حتى لقد كان من المشروعات التي وفرت لي سرورًا عظيمًا - خلال رحلتي إلى جنيف، في سنة 1754 - أن قرَّرت الذهاب إلى (بوسى) وزيارة مراتع صباي، وفي مقدِّمتها جميعًا « شجرة الجوز » التي كان عمرها في ذلك الوقت قد بلغ ثلث قرن!.. ولكني شُغلت طيلة فترة وجودي هناك، ولم يكن لي كثير سلطان على نفسي، فلم أجد لحظة أرضى فيها هذه الرغبة. وليس ثمة احتمال يُذكر في أن تسنح لي هذه الفرصة مرة أخرى، ومع ذلك فإن الرغبة لم تتلاش بتبدد الأمل في تحقيقها، بل أكاد أوقن من أنني إذا قُدِّر لي أن أعود إلى تلك البقاع الحبيبة، وأن أجد شجرة الجوز العزيزة قائمة على قيد الحياة، فلن أحجم عن أن أرويها بدموعي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد عودتي إلى جنيف، أقمت مع خالي عامين أو ثلاثة، ريثما يقرِّر أصدقائي ما ينبغي أن يتمّ بشأني. ولما كان خالي قد أراد ابنه على أن يكون مهندسًا، فقد حمله على أن يتلقَّى شيئًا عن الرسم، كما علَّمه مبادىء « يوكليد »5، فاستذكرت هذه المواد معه، وتولاني ميل إليها، وإلى الرسم بوجه خاص. وفي تلك الاثناء، كان الجدل يدور حول ما إذا كان يخلق بي أن أصبح صانع ساعات، أو من رجال القانون، أو قسًّا واعظًا!.. وكان ميلى يتجه إلى تفضيل الاحتمال الأخير منها، إذ كان الوعظ يبدو لي أمرًا بديعًا، بيد أن الدخل الضئيل الذي كان يدره عقار أمي - والذي كان يجب أن يُقسم بيني وبين أخي - لم يكن كافيًا لأن يمكنني من متابعة دراساتى. ولم تكن ثمة ضرورة عاجلة لاتخاذ قرار، نظرًا لسني في تلك الفترة، ولذلك مكثت مؤقتًا مع خالى، دون أن أفيد كثيرًا من وقتى، ودون أن أدفع مبلغًا يُذكر لقاء نفقات إقامتي، كما كان الانصاف يقتضى.. أما خالى، فمع أنه كان محبًّا للهو مثل أبي، إلا أنه كان عاجزًا عن أن يكون مثله في تقيّده بالواجب، كما أنه لم يكن يكبد نفسه كثير عناء من أجلنا. وكانت عمتي تعتبر من المنصرفات للتقوى - بحيث كانت تؤثر أن تنشد المزامير على أن تعنى بتعليمنا! - ومن ثم فقد أتيحت لنا حرية كادت أن تكون مطلقة، ولكنا لم نسيء استغلالها قط، فكنا دائمًا قانعين بصحبتنا أحدنا للآخر، إذ لم نكن نفترق قط، كما أننا لم نتعرَّض لمغريات تحملنا على أن نتخذ من أندادنا من أبناء الشارع رفاقًا، فلم نتعلَّم شيئًا من العادات المنحلة التي كان التبطل خليقًا بأن يقودنا إليها.. بل إننى لأخطىء إذ أقول إننا كنا متبطلين، فإننا لم ننحط قط إلى هذا الدرك في حياتنا، وكان من أعظم ما حبانا به الحظ أن كل الطرق التي كنا ننتهجها لتسلية نفسينا، والتي شغفنا بها على التوالي، كانت تشغلنا معًا في البيت، دون أن ننساق لغواية الخروج إلى عرض الطريق.. فكنا نصنع أقفاصًا، وصافرات « الناى »، وخذاريف (النحلات التي يلعب بها الأطفال)، وطبولًا، وبيوتًا، وقاذفات للحصى (أو مقاليع)، وأقواسًا للرماية. ولقد أتلفنا أدوات جدنا في محاولاتنا أن نصنع ساعات، كما كان يصنع هو!.. وكان لنا مزاج خاص في الإسراف في نماذج الورق، وفي الرسم، واستخدام الألوان المسائية، وتوزيع الأضواء، وإفساد الألوان. ولقد وفد على جنيف صاحب مسرح إيطالي يدعى « جامبا - كورتا »، فذهبنا لمشاهدة عرضه مرة، لم نرغب بعدها في الذهاب مرة أخرى!.. ولكنه قدَّم فيما قدَّم عرضًا للدمى (على غرار خيال الظل)، فشرعنا نصنع دمي.. ولما كانت عرائسه تمثِّل فكاهات، عقد عكفنا على إعداد مسرحيات فكهة من وضعنا. ولما كانت تعوزنا الأداة التي تُصدر ذلك الصوت المصوصو المصرصع، فقد عمدنا إلى تقليده بأصوات نصدرها من حلقينا، لكى نخرج مسرحياتنا الفكهة البديعة، التي تذرّع أقاربنا المساكين المتفضلون بالصبر كى يجلسوا وينصتوا إليها! ولكن خالي برنار قرأ على الأسرة ذات يوم موعظة بديعة من تأليفه، فإذا بنا نهجر المسرحيات الفكهة لنؤلف المواعظ!

وإني لأعترف بأن هذه التفصيلات ليست مشوقة جدًّا، ولكنها تبين كيف أن تربيتنا الأولى

كانت موجَّهة خير توجيه، كما يبدو من أننا ندر أن انسقنا إلى إساءة استغلال الفرص التي كانت متاحة لنا، برغم أننا كنا سيدي نفسينا وصاحبَيّ السيطرة على وقتنا، في تلك السن المبكرة!.. ذلك لأننا لم نكن بحاجة تذكر إلى أن ننشد رفاقًا وزملاء، حتى أننا كنا نهمل الفرص التي تقود إلى ذلك، فكنا إذا خرجنا للتريض، نظرنا، ونحن نمر بأندادنا في السن، إلى وسائل لهوهم، دون ما أدنى رغبة، بل دون مجرَّد التفكير في أن نشاركهم إياها. كانت صداقتنا المتبادلة تملأ قلبينا تمام الملء، حتى لقد كان يكفينا أن نجتمع معًا، كي نجعل من أبسط أسباب التسلية ملهاة سارة!.. وما لبثنا أن استرعينا الانتباه بتلازمنا هذا، وعدم افتراقنا، سيما وأن ابن خالي كان فارع الطول، بينما كنت أنا جد قصير، فكنا نؤلِّف ثنائيًّا غريب التكوين!.. كان قوام ابن خالي الطويل النحيل، ووجهه الصغير الشبيه بالتفاحة المسلوقة، وأخلاقه الرقيقة، ومشيته الهينة المتخطرة، تستثير سخف الأطفال، فكان يسمى في ساحة الحي « بارنا بريدانا! »، وكنا حين نغادر البيت لا نسمع سوى صيحة « بارنا بريدانا! » تحفّ بنا. وقد احتمل هو ذلك بهدوء فاق هدوئى، إذ كنت أفقد جَلدي، وأبدي الرغبة في العراك، وهذا عين ما كان ينشده الأوغاد الصغار. وقُدِّر لى أن أتشاجر مرة، فمنيت بالهزيمة. وحاول ابن خالى المسكين أن يساعدني ما استطاع، ولكنه كان ضعيفًا، فصرعته لكمة واحدة، وإذ ذاك اشتدّ هياجي. على أننى - وإن تلقيت لكمات وافرة - لم أكن الهدف الحقيقي للعدوان، وإنما كان « بارنا بريدانا » هو الهدف.. وما لبث غيظى المستعر أن زاد من استفحال الموقف، حتى أننا لم نعد نجرؤ على الخروج من الدار - فيما بعد - إلا في أويقات المدرسة، خشية أن يتعقبنا الأطفال ليسخروا منا!

ألا ترون إذن أنني أقمت من نفسي ماحيًا للمظالم!.. ولكي أصبح « بالادين »6 حقًّا، كنت في حاجة إلى سيدة، ولكنني أوتيت اثنتين! فلقد اعتدت أن أذهب - بين وقت وآخر - لزيارة أبي في (نيون)، وهي بلدة صغيرة في إقليم (فود)، استقرَّ به المقام فيها. وقد حظى بحب القوم هنـاك، وقُدّر لابنه أن يشعر بآثار ذلك، ففى الفترة القصيرة التي كنت أمكثها معه، كان الأصدقاء يتبارون في الاحتفاء بي. وقـد آثرتني سيّدة منهم ـ كانت تُدعى السيدة « دى فيلسون » - بألف قبلة، ثم توجت كل هذه الحفاوة بأن اتخذتني ابنتها عشيقًا لها!.. ومن الميسور أن تفهموا معنى « العشيق » هنا إذا تذكَّرتم أننى كنت في الحادية عشرة من عمري، في حين أن الفتاة كانت في الثانية والعشرين!.. ولكن هؤلاء الشابات الخبيثات - جميعًا! - لم يكن يتـورعن قط عن أن يلعبن أمام الملأ بدمى صغيرة - مثلي - لكي يسترن وراءها عشاقًا كبارًا، أو لكي يغوين بها هؤلاء الكبار!.. أما أنا، فلم أر شيئًا من عدم التكافؤ بيننا، فحملت المسألة على محمل الجد، وانغمست بكل قلبي ـ أو بالحرى بكل رأسي - إذ أنني لم أقبل على الحب إلا بذلك الجزء من نفسي، فتماديت إلى درجة الجنون، وكان طربى وانفعالي وخبـالي تؤدّي إلى منـاظر كافية لأن تجعل أى فرد لا يتمالك نفسـه من الضحك حتى ينشق جنباه!

ولقد ألفت نوعين صادقين من الحب يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف، فلا يكاد يكون بينهما أي تشابه، وإن كان كل منهما حارًّا مشبوبًا، كما أنهما يختلفان - كلاهما - عن الصداقة العاطفية.. بل إن عمري كله كان موزعًا بين هذين النوعين من الحب، برغم اختلافهما الجوهري، فاعتدت أن أشعر بهما معًا، وفي آن واحد.. مثال ذلك أنني في الفترة التي أتحدَّث عنها، وفي الوقت الذي كنت فيه مغرمًا بالآنسة « دي فيلسون » جهارًا وفي أنانية طاغية - حتى أنني لم أكن أطيق أن يقترب منها أي رجل! - في تلك الأثنـاء بالذات، حظيت عدَّة مرات بلقاءات قصيرة ولكنها حافلة، مع فتاة معينة ـ تُدعى الآنسة « جوتون » - فكانت تعمد خلال تلك اللقاءات إلى القيام بدور المعلمة! وكان هذا غاية الأمر. ولكن « غاية الأمر » هذه -وكانت هي « الغاية » فعلًا، بالنسبة لى - بدت في نظري منتهى السعادة.. وإذ شعرت بقيمـة الغموض، وإن لم أكن أدرى كيف استغلّه اللهم إلا في نطـاق حيل الطفولة، رحت أكيل بنفس الكيل للآنسة « دي فيلسون » - التي لم ترتب في الأمر -

جزاء دأبها على استغلالى كستار لإخفاء عشاق آخرين! بيد أن سرّى لم يلبث أن تكشَّف - ويا لعظم أسفى! - أو أنه لم يحط من معلمتي الصغيرة بمثل ما كنت أحيطه به من كتمان، ومن ثم فسرعان ما افترقنا.. وحدث بينما كنت أجتاز (كوتانس)، في طريقي إلى (جنيف) - بعد ذلك بوقت قصير - أن سمعت بعض فتيات صغيرات يهتفن متهامسات: « جوتون تيك تاك روسو »!

ولقد كانت هذه الآنسة « جوتون » الصغيرة فتاة فذَّة.. فمع أنها لم تكن جميلة، إلا أنها أوتيت وجهًا لا يسهل نسيانه، ولا أزال أتمثله في مخيلتي في كثير من الأحيان، في حنان لا يليق بشيخ أرعن!.. وما كان شكلها، ولا أخلاقها، ولا عيناها - قبل كل شيء - بالتي تتناسب مع سنها. وكان لها مظهر أشم، متسلِّط، يتفق كل الاتفاق مع دورها، كمعلمة، بل إن مظهرها هذا هو الذي أوحى إلينا - في الواقع - بأوَّل تفكير في هذا الدور.. ولكن أغرب ما كان فيها، هو امتزاج بين الرعونة والتحفُّظ، لم يكن من الهين إدراك مأتاه.. كانت تتصرَّف معي بكل حريتها، ولكنها أبدًا لم تسمح لي بأن أعاملها بأي تحرّر.. كانت تعاملني كما تعامل طفلًا فحسب، مما يوحي إليَّ بأن أعتقد أحد أمرين: إما أنها لم تعد ـ إذ ذاك ـ طفلة، وإما أنها كانت - على العكس - من الطفولة بحيث أنها لم تر في الخطر الذي كانت تعرِّض له نفسها سوى لون من التسلية واللهو!

وكنت أهب نفسى تمامًا - كما ينبغي أن يُقال - لكل من هاتين الفتاتين، فإذا ما كنت مع إحداهما، لم أفكِّر مطلقًا في الأخرى. وفيما عدا ذلك، لم يكن ثمة أي شبه - مهما يكن ضئيلًا - بين المشاعر التي كانت كل منهما تبعثها في نفسي! كان بوسعي أن أنفق كل حياتي مع الآنسة « دى فيلسون » دون أن يخطر لي أن أفارقها، ولكن اغتباطى بالقرب منها كان هادئًا وخلوًا من الانفعال. وكنت أحبها أكثر مما أحببت أيـة فتاة من فتيات المجتمع الراقي، فقد كانت الفكاهات المنبعثـة عن ذكاء لماح، والمجـون المستظرف، وما كانت تبديه من مظاهر الغيرة العابرة، تستهويني وتستأثر بشغفي. وكنت أشعر بزهو وغرور لما كانت تضفيه عليَّ من مظاهر الإيثار أمام المزاحمين الكبار الذين كانت تعاملهم في إزدراء!.. وكنت أتعذَّب، ولكنني أحببت العذاب!.. وكان التصفيق، والتشجيع، والضحك، تبعث الثقة والإلهام في نفسي.. وكانت تنتابني نوبات من الوجد المشبوب ثم تنفثيء في فكاهات جريئة.. كان الحب يحيلني شخصًا آخر، في المجتمعات.. أما في الخلوات، فكنت محرجًا، فاترًا، بل لعلني كنت ضيق الصدر. ومع ذلك فإنني كنت أشعر بعاطفة صادقة نحوها، وكنت أتألم إذا هي مرضت، بل إنني كنت أتمنى لو أهبها صحتى كى تستعيد عافيتها - برغم أنني كنت أعرف، بالتجربة، معنى المرض ومعنى العافية! - وكنت أفكِّر فيها وأفتقدها حين أغيب عنها.. أما حين أكون بالقرب منها، فإن عناقها كان يهز قلبي، دون أن يهز حواسى! كنت متعلِّقًا بها دون ما طمع يشوب حبى، فكان خيالي لا يطلب أكثر مما كانت هي تنعم عليَّ به، ومع ذلك فإنني لم أكن أطيق أن أراها تفعل مثل ذلك للغير. كنت أحبها حب الأخ لأخته، ولكنني كنت أغار عليها غيرة العاشق على معشوقته!.. وكنت خليقًا بأن أغار على الآنسة « جوتون » غيرة التركي، أو المجنون أو النمر، لو أنني توهمت مرة أنها قادرة على أن تبدى لغيرى ما كانت تبديه لى من معاملة.. ولكنها لم تكن قادرة، بل إن هـذه المعاملة كانت صنيعًا اعتدت أن أسألها إياه وأنـا جاث أمامها!

كنت أسعى إلى الآنسة « دى فيلسون » بفرح طاغ، ولكن دون ما انفعال، في حين أنني كنت لا أكـاد أرى الآنسـة « جوتون » حتى تنبهر حواسى، فلا أعود أرى سواها!..



فى حين اننى كنت لا اكاد أرى الآنســـة « جوتون »
حتى تنبهر حواسى ، فلا اعـــود ارى ســـواها !..

كنت آلف الأولى دون ما كلفة، بينما كنت في حضرة الثانية على النقيض خجولًا بقدر ما كنت منفعلًا، حتى في أقصى درجات ألفتنا. وأعتقد أنني كنت خليقًا بأن أموت لو أننى مكثت معها طويلًا، فإن خفقات قلبي كانت كفيلة بأن تخنق أنفاسي!.. وكنت أخشى أن تستاء منى الاثنتان على السواء، ولكنى كنت أغمر الأولى بمزيد من حفاوتي، وأبدى للثانية مزيدًا من خضوعي، فما كان لأي شيء في الدنيا أن يحملني على أن أغضب الآنسة « دى فيلسون »، أما إذا أمرتني الآنسة « جوتون » بأن ألقى بنفسي في اللهب، فأعتقد أنني كنت قمينًا بأن أطيعها في الحال!.. ولم يستمر حبي - أو بالحرى لقاءاتي - للأخيرة سوى وقت قصير. قصير بالنسبة لسعادة كل منا! ومع أن علاقاتى بالآنسة « دى فيلسون » لم تكن في خطورة علاقاتي بالأخرى، إلا أنها لم تخل من الخطر، بعد أن استمرت أمدًا أطول. وجدير بجميع العلاقات التي على هذه الشاكلة أن تنتهى دائمًا بطريقة شاعرية، وأن تصبح مادة لزفرات الأسى. ومع أن صلتي بالآنسة دى فيلسون كانت أقل شدَّة واضطرامًا من علاقتي بالآنسة جوتون، إلا أنها كانت أكثر توثقًا ومتانة، فلم نفترق قط دون دموع، وكان من الخليق بالعجب حقًّا، ذلك الفراغ المحيّر الذي كنت أشعر بأنني أتردَّى فيه بمجرَّد أن كنت أفارقها!.. فما كنت أتحدَّث أو أفكِّر في سواها، وكان أساى صادقًا ومحتدمًا، ولكني أعتقد أن هـذا الأسى المنطوي على البطولة لم يكن - في قراره - من أجل الفتـاة نفسها، وإنما كان للمتع التي اعتدت أن أنعم بها في قرب الفتاة، دور في خلقه، وإن لم أفطن إذ ذاك!.. ولقد اعتدنا - لنخفِّف لوعات البعاد - أن نتراسل بخطابات كنا نضمّنها من الشجون ما يذيب قلب الصخر!

وظفرت في النهاية، إذ أن الفتـاة لم تستطع أن تمضى في التجلّد، فجاءت إلى (جنيف) لتراني. وفي هذه المرة، فقدت حجاى تمامًا، فكنت منتشيًا، مجنونـًا، أثناء اليومين اللذين مكثتهما. فلما رحلت، رغبت في أن ألقي بنفسي في المـاء وراءها، وتردَّد صراخي في الهواء!.. وبعد ثمانية أيـام، أرسلت لي بعض الحلوى وقفازين. وكنت خليقًا بأن أعتبر هذا مجاملة عظيمة لولا أنني علمت - في الوقت ذاته - أنها تزوَّجت، وأن الزيارة التي راق لها أن تشرفني بها إنما دبرت في الواقع من أجل شراء ثوب الزفاف!.. ولن أحاول أن أصف حنقى، ففي الوسع تصوّره!.. وأقسمت - في غضبي السامي - ألا أرى « الغادرة » مـرة أخـرى، إذ لم أكن لأتصوَّر عقابًا أكثر قسوة عليها من هذا!.. ولكنها لم تمت من قسوتى، إذ حدث - بعد عشرين عامًا - بينما كنت أتنزه مع أبي في النهر، أثناء إحدى زياراتي له، أن سألته عن سيدتين كانتا في قارب على غير مبعدة منا، فهتف أبي مبتسمًا: « عجبًا! ألا ينبئك قلبك؟.. إنها حبيبتك القديمة، التي كانت الآنسة دى فيلسون، وأصبحت السيِّدة كريستان! ».. وأجفلت إذ سمعت الاسم الذي كاد يصبح منسيًا، وسألت النوتيين أن يحوّلا اتجاه قاربنا، فمع أن الفرصة كانت سانحة - في تلك اللحظة - لكي أثار لنفسي، إلا أننى لم أر أية قيمة لأن أعاتب امرأة في الأربعين، وأن أجدِّد خصامًا مضى عليـه عشرون عامًا!

3 ـ من سنة 1723 إلى سنة 1728

وهكذا بددت أغلى فترات صباي في الحمـاقات، قبل أن يستقرّ الرأي على مهنتي المقبلة وبعد جدل طويل بشأن ميولي الطبيعية، انعقد العزم على مهنة لم أكن أكن لهـا سوى أقل ميل. فقد عُهد بي إلى السيِّد « ماسيرون » - كاتب البلدة - لأتعلَّم على يديه مهنة المحاماة النافعة!.. وكان مجرَّد الاسم الدارج لهذه المهنة ـ « مغتصب الأجر » - بغيضًا لدىَّ غاية البغض، ولم يستهوني الأمل في كسـب عدد من « الكراونات »[7] من مهنة « وضيعة » كهذه!.. بل إن العمل ذاته بدا لي مملًا لا يطاق، فإن المطالبة المستمرة، والشعور بالعبودية أتمّا كراهيتي، فما ولجت المكتب مرة دون أن أشعر بنفور أخذ يزداد حدَّة يومًا بعد يوم! كذلك كان السيِّد ماسيرون من ناحيته ضيقًا بي، فكان يعاملني بازدراء، ولا يفتأ يرميني بالغباء والبلادة، ويردِّد على أذني كل يوم أن خالي أنبأه بأننى على قسط من المعرفة، في حين أنني كنت - في الواقع - لا أعرف شيئًا!.. وأنه بشرَّه بأنني فتى ذكي، في حين أنه

ابتلاه بجحش!.. وفُصلت أخيرًا من المكتب، موصومًا بأنني غير كفء مطلقًا، وصرَّح معاونو السيِّد ماسيرون بأنني لم أكن أصلح لشيء سوى نقل الملفات!

وإذ انتهى الأمر في تقرير مهنتي على هذه الصورة، أُرسلت لأتعلَّم حرفة.. لا لدى « ساعاتي »، وإنما لدى أحد الناقشين على المعادن8. وكان الصغار الذي عاملني به السيِّد ماسيرون قد أذل نفسي كثيرًا، فأطعت بدون تذمر. وكان معلمى الجديد - السيِّد ديكومين - شابًّا فظًّا، قاسيًّا أفلح في أمد وجيز في إطفاء كل ما كان لي في طفولتي من ذكاء، وفي تخدير طبيعتي الودود النشيطة، وفي الهبوط بي إلى مرتبة « صبي الصانع » فعلًا، سواء في العقل أو في المركز!.. وقُدِّر لما كنت قد حصَّلته من اللاتينية والتاريخ، ولما عرفته عن الأقدمين وآثارهم، أن ينسى أمدًا طويلًا.. بل إننى لم أعـد أذكر أن قد كان في الدنيا أي من الرومان! ولم يعد أبي يرى فيَّ - حين ذهبت لزيارته - معبوده القديم.. كما أنني لم أعد، في نظر السيّدات، « جان جاك » الكيِّس المقرَّب إلى قلوبهن. وأيقنت أنا نفسي، من أن الأخوين لامبرسييه ما كانا ليعرفان في شخصى تلميذهما القديم، حتى أننى خجلت من أن أزورهما، فلم أرهما منذ ذلك الحين. وحلَّت أرذل الميول وأحط مفاسد السوقة محل أسباب التسلية الساذجة، بل إنها محت كل ذكرى لها! ولابد أنني كنت قد أوتيت استعدادًا عظيمًا للانحدار - برغم أنني حظيت بنشأة أعظم ما تكون استقامة - ذلك لأن الانقلاب أصابني بسرعة عظيمة، دون أتفه عسر، فما قدر قط « القيصر » مبكر النضوج أن أصبح « لاريدون » بمثل هذه السرعة!9

ولم تكن الحرفة ـ في حد ذاتها ـ هي التي لم تصادف هوي من نفسي، إذ كان لديَّ ميل أكيد للرسم، وقد لذَّ لي العمل بآلة الحفر، ولما كان ثمة طلب محدود على الحفَّار الماهر للاستعانة به في صناعة الساعات، فقد ساورني الأمل في أن أبلغ الكمال في هذه الحرفة، ولعلّني كنت بالغًا هذه الدرجة لولا أن فظاظة معلمي الوحشية، وإفراطه في فرض القيـود عليَّ، حملاني على أن أكـره عملى! وكنت أسترق بعض ساعات العمل لأتوفر على بعض أعمال مشابهة - ولكنها كانت تفتنني بما كنت أحسه في ممارستها من حرية - فكنت أحفر الأوسمة التي ترمز إلى طبقة من الأشراف ابتكرتها لنفسي ولزملائي. وفاجأني معلمي مرة وأنا في هذا العمل المحظور، فضربني ضربًا مبرِّحًا، معلنًا أننى كنت أتدرَّب لأغدو مزيفًا للنقود، إذ أن الأوسمة التي صنعتها كانت تحمل رسم شعار الجمهورية.. وأقسم إننى لم أوت - إذ ذاك - أية فكرة عن النقود الزائفة، بل إننى لم أوت إلا أتفه فكرة عن النقـود الطيبة!.. وكان إلمامي بعملات الرومان - التي قرأت عنها في الكتب - يفوق معرفتي بنقودنا المستعملة!

وأخيرًا، أدَّت ربقة معلمي إلى أن صار العمل - الذي كنت مهيأ لأن أشغف به - شيئًا لا يطاق، وأفعمتنى برذائل كنت خليقًا بأن أكرهها لولا جبروته، مثـل الكذب، والتكاسل، والسرقة!.. ولقد علّمتني ذكرى التبدّل الذي أصابني في هذه الفترة من حياتي - أكثر من أي شيء آخر - الفرق بين تبعية الابن للأب، وبين الخضوع الذليل. ومع ما فُطرت عليه من خجل واستحياء، لم يكن ثمة عيب يجافي خصالي الطبيعية قدر بذاءة اللسان. على أنني كنت أستمتع بحرية كريمة لم تلبث أن تعرَّضت للقمع تدريجيًا - بعد ابتعادي عن أبي - حتى تلاشت تمامًا. وكنت جريئًا مع أبي، غير مكبوت مع السيِّد لامبرسييه، معتدلًا مع خالى، فصرت جبانًا مع معلمي! ومنذ تلك اللحظة أصبحت طفلًا حائرًا ضالًّا. ولما كنت قد ألفت أن أكون على قدم المساواة التامّة في اتصالاتي بمن يكبروننى، ولم أعرف ملهاة بعيدة عن متناولي، ولا رأيت صفحة طعـام لا يحق لي أن أنال منها نصيبًا، ولا رغبة لا أملك أن أعبِّر عنها جهارًا.. لما كنت قد ألفت كل هـذا، واعتدت أن يكون كل ما في قلبي على طرف لساني، فإن من الميسور تقدير ما كنت مسوقًا إلى أن أتحوَّل إليه في بيت لم أكن أجسر فيه على أن أفتح فمي، وكنت مضطرًا فيه إلى أن أغادر المائدة قبل أن أفرغ من نصف

الوجبة، وأن أبرح الغرفة بمجرَّد أن أفرغ من شأني بها.. في بيت كنت فيه مغلولًا إلى عملى باستمرار، ولم أكن أرى فيه سوى أسباب المتعة لسواي والحرمان لنفسى.. حيث كانت رؤيتي الحرية التي يستمتع بها معلمى وزملائى تضاعف من وطأة الخضوع على نفسي، وحيث لم أكن أجرؤ على أن أفتح فمى إذا ما ثار الجدل حول أمور كنت على خير دراية بها!.. وقصارى القول، حيث كان كل ما يقع عليـه بصرى يغدو هدفًا لشوقي، لمجرَّد أننى كنت محرومًا من كل شيء!

منذ ذلك الحين فارقتني وداعتي ولطفي وخفة روحي، وتلك البشاشة التي كانت ـ فيما مضى - تقيني العقاب إذا ما ارتكبت ذنبًا. كل هذه تبدَّدت. ولا أتمالك أن أضحك كلما تذكَّرت كيف أنني - ذات مساء - أُرسلت إلى الفراش، في بيت أبي، دون عشاء، لذنب أتيته.. وفيما كنت أجتاز المطبخ وفى يدى كسرة خبز تدعو إلى الأسى، رأيت قطعة لحم تقلب على السفود ـ « الشواية » - فأخذت أتنسم عبيرها! وكان كل أهل البيت وقوفًا حول النار، فاضطرّرت إلى أن ألقي على كل منهم تحية المساء، أثناء مروري، حتى إذا فرغت من تحيتهم، غمزت بعيني لقطعة اللحم التي بدت بديعة المنظر، والتي كانت زكية الرائحة، ولم أتمالك أن انحنيت لها - كما انحنيت للآخرين - وقلت بلهجة حزينة: « عمى مساء يا قطعة الشواء! ». وأطربتهم هذه الملحة الساذجة إلى درجة جعلتهم يستبقونني للعشاء. ولعلها كانت كفيلة بأن تتخذ نفس الوقع من نفس معلمي، ولكني واثق من أنها لم تخطر ببالي قط، ومن أننى ما كنت لأجد الشجاعة على أن أقولها في حضوره!

وبهذا النهج تعلَّمت كيف أكتم ما أشتهى، وكيف أنافق، وأكذب، و ـ أخيرًا - أسرق!.. وهو أمر لم يخطر ـ حتى ذلك الوقت ـ ببالى مطلقًا، ولم أستطع منذ ذلك الحين أن أبرىء نفسى منه تمامًا. ذلك لأن الاشتهاء المكبوت والضعف يقودان دائمًا إلى هذا الاتجاه، الأمر الذي يفسِّر السر في أن جميع الخدم نصّابون، وفى أن جميع الصبيان لدى أصحاب الحرف مسوقون إلى أن يكونوا كذلك.. ولكن هؤلاء يفقدون - بتقدّمهم في مدارج العمر - هذه الرذيلة المشينة، إذا أتيحت لهم المساواة في جوع وادع مأمون، يألفون فيه أن يكون كل ما يرونه في متناولهم. ولما لم تتح لي هذه الميزات، فإنني لم أملك أن أجنى نفس الفوائد!.. وأكاد أقول إن الذي يدفع الطفل إلى أن يخطو أولى خطواته نحـو الشر، هو دائمًا المبادىء الطيبة التي يُساء توجيهها. فلقد مكثت مع معلمى عامًا دون أن أفكِّر في الإقدام على أخـذ أي شيء - حتى من المأكولات - برغم ما لاقيت من حرمـان وإغراء مستمرين. وكانت أولى سرقاتي من أجل شخص سواى، ولكنها فتحت الباب لسرقات أخرى، لم يكن الباعث إليها أمرًا محمودًا!.. فلقد كان لدى معلمى عامل باليومية ـ يُدعى السيِّد « فيرا » - يقيم في دار مجاورة، وله حديقة على مسافة منها تنتج نوعـًا راقيًا من (الأسفاناخ). وخطر للسيِّد فيرا - الذي لم يكن يحصل على حاجته من المـال - أن يسرق بعض الأسفاناخ الصغيرة التي كانت أمه تستنبتها، فيبيعها لتدر عليه ما يكفى لإمداده بفطور طيب ليومين أو ثلاثة. ولما لم يكن راغبًا في أن يُقدم بنفسه على المغامرة، كما أنه لم يكن خفيف الحركة، فقد اختارني لهذه المهمة. وبعد محايلات أولية وتملقات - زاد من سهولة نجاحها في التأثير عليَّ، أنني لم أكن أدرك هدفها - عرض عليَّ الأمر كفكرة خطرت له عفو اللحظة. فعارضتها بشدَّة، ولكنه ألح. وليس بوسعي قط أن أقاوم التملق، ومن ثم فقد انصعت له، وأخذت أذهب في كل صباح فأجمع أبدع نبتات الاسفاناخ وأحملها إلى سوق (مولار)، حيث أدركت امرأة طيبة أني كنت أسرقها لتوى، فكانت ترميني بهذا الاتهام لتبخسنى الثمن. وكنت في ذعرى أقبـل أي ثمن تقدّمه، ثم أحمله إلى فيرا، فسرعان ما يتحوَّل المبلغ إلى فطور كنت أتكفل باحضاره، وكان يتقاسمه مع زميل آخر، بينما أقنع أنا ببضع لقيمات.. ولم أتذوّق قط النبيذ الذي كانا يتناولانه مع هذا الفطور!

واستمرَّت هذه الخطة عدَّة أيام، دون أن يخطر لي قط أن أسرق -بدوري، من الباطن -

السارق الأصلي، وأن أفرض « عوائد » على ما كانت تدره اسفاناخ السيِّد فيرا! بل كنت أؤدي دوري في المهمة بمنتهى الاخلاص، وليس لي من حافز سوى رغبتي في ارضاء ذاك الذي كان يحرضني. ومع ذلك، فكم من صفعات وشتائم وقسوة كنت خليقًا بأن أتلقَّاها - لو أن أمرى انفضح - بينما كان من المؤكَّد أن يبادر الوغد إلى انتحال أكذوبة تقابَل بالتصديق ومن ثَم يتضاعف عقابي إذ يُعتبر اتهامي إياه - وهو العامل وأنا الصبى - وقاحة!.. وهكذا نرى أنه ـ في كافة ظروف الحياة ـ كثيرًا ما يحدث أن المذنب القوى ينجي نفسه على حساب البريء الضعيف!.. وبهذه الطريقة تعلَّمت أن السرقة لم تكن من الفظاعة بالقدر الذي كنت أتصوّرها عليه، وأنه ليس من شيء أشتهيه يعز علىَّ، ما دام في متناول يدى. ولم أكن سيىء التغذية على طول الخط، ولكن العفة أصبحت أمرًا متعذِّرًا علىَّ وأنا أرى معلمى ينظر إليها كشيء منكر!.. ويبدو لي أن اعتياد إقصاء الصغار عن المائدة، في الوقت الذي تُحمل إليها فيه أشهى الأطعمة، هو أروع طريقة تُنتهج لجعلهم نهمين ولصوصًا!.. وسرعان ما أصبحت نهمًا ولصًّا، واستطعت أن أمضى موفقًا - بوجهٍ عام ـ فلم يُفتضح أمرى إلا في مرات نادرة كنت أفاجأ فيها!

إننى لأرتجف ـ وأضحك في الوقت ذاته ـ إذ أتذكَّر أن سرقة بعض التفاح كادت تكبدني غاليًّا! فقد كانت تلك التفاحات في قرار حجرة لاختزان المؤن، تُضاء بالنور المناسب من المطبخ خلال كوة عالية ذات شبكة حديدية. وفي ذات يوم، وقد خلت الدار إلا مني، صعدت على المعجن - حوض العجين - لألقى نظرة على الثمار الغالية في حديقة « هيسبريد »10. ولما كانت بعيدة عن متناولي، فقد أحضرت سيخًا لأحاول أن أتبيّن ما إذا كان بوسعي أن أمسّ التفاحات، ولكنه كان جد قصير. ولكي أزيده طولًا، ربطت إليه سيخًا صغيرًا، كان يُستخدم في شي الحيوانات الصغيرة، إذ كان معلمى مغرمًا بالصيد. ودفعت السيخين عدَّة مرات، دون أن أوفَّق. وأخيرًا، شعرت لعظم اغتباطى، أنني أصبت تفاحة، فتأهّبت لأن أستحوذ عليها، ولكن.. منذا الذي يستطيع أن يصف أساى، حين وجدتها أكبر من أن تمر خلال قضبان الكوة! وكم من حيل بذلتها لأنفذها خلال القضبان!.. وكان لابد لي من العثور على ما يُبقى السيخ في مكانه، والحصول على سكين ذات طول كافٍ لشطر التفاحة، وقطعة من الخشب أستعين بها على إبقاء التفاحة عاليًا. وتمكّنت أخيرًا من أن أشطرها، يحدوني الأمل في أن أستطيع أن أجتذب النصفين، واحدًا بعد الآخر، ولكنهما ما أن انفصلا حتى هويا إلى أرض المخزن! - ألا فلتشاركني أساى، أيها القارىء الشفوق! - ومع ذلك فإننى لم أفقد جَلدى مطلقًا، لكنني كنت قد ضيّعت وقتًا ليس بالقصير، فخشيت أن أُفاجأ، وأرجأت القيام بمحاولة أخرى - تكون موفقة - إلى اليوم التالي، وعدت إلى عملي في سكينة، وكأنني لم آت أمرًا، دون أن أفكِّر في الشاهدين المشطورين اللذين كانا يقبعان في المخزن!

وفي اليوم التالي، انتهزت فرصة سانحة، وقمت بمحاولة جديدة. فصعدت على مقعدى، وربطت السيخين وهيأتهما، وهممت بأن أدفعهما، ولكن « الغول » لم يكن نائمًا، لسوء الحظ. فقد فُتح باب المخزن بغتة، وخرج منه معلمى، فعقد ذراعيه، وتطلَّع إلىَّ، وقال: « تشجَّع!.. ».

إن القلم يسقط من يدى!.. على أن حساسيتى إزاء العقاب لم تلبث أن ضعفت، من جراء سوء المعاملة المستمر، فكنت أنظر إلى السرقة على أنها نوع من التعويض يخول لي الاستمرار فيها! وبدلًا من أن أستعرض ما فات وأُقدِّر ما كنت ألقى من عقاب، رحت أتطلَّع إلى الأمام وأفكِّر في الانتقام!.. ورحت أرى أننى إذا كنت أُضرب بزعم أنني لص، فإن هذا الضرب يخولني أن أتصرَّف كلص. وتبيَّنت أن السرقة والضرب أمران يسيران جنبًا إلى جنب، فجعلت منهما جانبين في صفقة عادلة.. فإذا قمت بدورى، كان علىَّ أن أدع معلمي يؤدِّي دوره! وبهذا التفكير، شرعت أمارس السرقة بنفس أكثر طمأنينة من ذي قبل. وكنت

أقول لنفسي: « ما هي النتيجة؟.. سأُضرب؟.. لا بأس، لقد تعوَّدت الضرب! ».

إننى مشغوف بالأكل، ولكني لست شرهًا.. وأنا مغرم بإرضاء نزواتى البدنية، ولكني لست نهمًا، فإن لى ميولًا كثيرة أخرى تحول دون ذلك. وما جشمت نفسي يومًا أية متاعب بشأن الطعام، اللهم إلا حين يكون قلبي خاليًا مما يشغله، وهذه حال كانت من القلة في حياتي بحيث أننى نادرًا ما وجدت وقتًا للتفكير في الأطايب اللذيذة. ولهذا السبب لم أقصر اتجاهاتي في اللصوصية على المواد الغذائية - لأمد طويل - بل سرعان ما بسطتها إلى كل شيء كان يغريني! وإذا كنت لم أصبح لصًا محترفًا، فإنما ذلك لأنني لم أجد قط في النقود إغراءً شديدًا. وكانت في الطريق إلى خارج « الورشة » العامة حجرة خاصة لمعلمي، وجدت وسيلة لأن أفتح بابها وأغلقه دون أن يفطن أحد إلى ذلك. وهناك، رحت أشاطره خير عدده وآلاته ورسومه وتجاربه.. بل كل شيء كان يجتذب ميولى، وكان هو يحرص على إبقائه بعيدًا عنى لهذا السبب!.. وكانت هذه السرقات - في قرارها - بريئة تمامًا، إذ ما كنت أستغلها إلا في خدمة معلمى. على أنني انتشيت إذ وجدت هذه التوافه في متناولي، وخُيل إلىَّ أننى كنت أسلبه مواهبه وما كان ينتج عنها! وإلى جانب ذلك، وجدت صناديق تحوى مبارد وأساور صغيرة وبعض النفائس والعملات الذهبية والفضية. وكنت حين أجد في جيبي أربع أو خمس قطع من فئة « السو »11، أعتبر نفسي غنيًا. ومع ذلك، ففضلًا عن أنني لم أمس شيئًا مما وجدته هناك، فإنني لا أذكر قط أننى رمقتها يومًا بعينين مشوقتين. وإنما كنت أنظر إليها في جزع أكثر مني في ابتهاج! وأعتقد أن هذا الاستنكار لسرقة المال والنفائس كان راجعًا - إلى حد كبير - إلى تربيتي، وإلى ما كان يقترن بها من أفكار دفينة عن العار، والسجن، والعقاب، والمشانق، مما كان كفيلًا بأن يجعلني أرتجف فرقًا لو أنني تأثرت بالإغراء.. هذا في حين أن أحاييلي كانت تبدو في نظري كمجرَّد أعمال خبيثة ـ أو « شقاوة » - لا أكثر، وأنها لا يمكن أن تفضي إلى أكثر من « علقة » طيبة من معلمى.. وكنت أعدّ نفسي مقدمًا لذلك!.. وأكرِّر أننى لم أشعر قط برغبة كافية في أن أكبح نفسي، فلم يكن ثمة ما يقلق ضميرى. وكانت قصاصة واحدة من ورق الرسم البديع أكثر إغراءً لى من نقود تكفي لأن أبتاع رزمة منه! وهذه الظاهرة الفذَّة ترتبط بإحدى ميزات خلقى وشخصيتى، وقد كان لها من عظم النفوذ على مسلكي ما يجعلها أهلًا للشرح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إننى إنسان ذو حمية بالغة، إذا ما استبدت بى سورتها، فلن يعدل اندفاعي شيء: إذ أنسى كل حكمة، وكل شعور بالاحترام والخوف والوقار، فإذا أنا أغدو شرسًا، متهوِّرًا، عنيفًا، غير هيـاب.. لا يصدني أي إحساس بالعـار، ولا يرهبني أي خطـر.. بل إنني لا أحفـل من الكون كله إلا بالغاية التي تشغل بالي فحسب! على أن هذا كله لا يستمر إلا لحظة، ثم إذا بي في اللحظة التالية أنغمس في سكون تام. أما في لحظات هدوئى، فأنا الخور والجبن ذاتهما، إذ يخيفني ويثبط همتي كل شيء: فالذبابة التي تمرّ بي وهي تطن تفزعنى.. واضطراري إلى أن أقول كلمة أو أبدى حركة، يقضّ خمولى.. وهكذا يتسلّط علىَّ الخوف والخجل إلى درجة يسرّني معها أن أستخفى عن بصر زملائى من الآدميين!.. وإذا كان علىَّ أن آتي تصرّفًا فإنني لا أدرى ماذا ينبغي أن أفعل. وإذا قُدِّر علىَّ أن أتكلم، فإنني لا أدرى ما ينبغي أن أقول. وإذا نظر أحد إلىَّ، تولاني الارتباك!.. ولقد أوفق إلى الكلمات الخليقة بأن تُقال، عندما استثار لدرجة عالية، ولكني - في الحديث العادي - لا أعثر البتة على شيء يُقال، وأغدو في حال لا تطاق، لمجرَّد أن أجدني مضطرًا إلى الكلام!.. أضف إلى ذلك أن ليس بين رغباتي المتسلِّطة ما يتجه إلى أشياء يمكن أن تُشترى. فلست أشتهى سوى المتع البريئة، غير الزائفة، وكلها مما يسممه المال ويفسده. من ذلك أنني مشغوف بمتع الطعام، ولكنني - إذ لا أحتمل عبء الجلوس في جماعة، أو الشراب في حانة - لا أملك أن أحظى بها إلا برفقة صديق.. أما إذا كنت وحيدًا، فإن خيالي يشغل إذ ذاك بأمور أخرى، فلا يعود

للأكل حظوة لديّ. وبرغم أن دمى الحار يهفو إلى النساء، فإن قلبي المشبوب أشدّ حنينًا إلى العاطفة الصادقة. ومن ثم تفقد النساء - اللاتي يشترين بالمال - كل مفاتنهن في نظري.. بل أني أرتاب في أن أجد من نفسي قابلية للإفادة منهن. كذلك شأني مع كل المتع التي في متناول يدى، فأنا أجدها غثة طالما كانت لا تكبدني شيئًا!.. وإنما أحب من المتع وأسباب اللذة ما لا يكون ملكًا لأوَّل إنسان يعرف كيف يستمرئها!

والمال.. أبدًا ما تراءى لى نفيسًا كما يُقدَّر عادة، بل إنه لم يبد لي قط ذا صلاحية خاصة، فهو عديم القيمة في حد ذاته، إذ لابد من استبداله لكي يتيسر الاستمتاع به. فالمرء مضطر إلى أن يشترى، ويساوم، ويتعرَّض للغش، ويغبن ويبهظ، ولا يخدم حق الخدمة.. وحين أنشد شيئًا جيِّد الصنف، أوقن من أنني لن أحصل بالمال إلا على صنف ردئ!.. فإذا ما دفعت نقودًا من أجل بيضة طازجة، وجدتها فاسدة.. أو من أجل ثمرة طيبة من الفاكهة، ألفيتها فجة. وقد أدفع من أجل فتاة، فإذا بها مفسودة!.. وأنا مولع بالنبيذ الجيد، ولكن أين أظفر به؟ ألدي تاجر الخمور؟ مهما أفعل فإنه لن يتحرّج عن أن يسمّنى! ولو شئت أن أحظى بخدمة طيبة حقًّا، فيا للعناء ويا للحيرة! لا بد لي من أصدقاء، ورسل، ومن أن أمنح عمولات، وأكتب، وأروح وأجيء، وأنتظر.. وغالبًا ما أكون في النهاية ضحية للغش!.. أى عناء ألقاه من مالي! إن خوفي منه لأشدّ من شغفي بالخمر الجيدة!

كم من مرات يخطئها الحصر، خرجت فيها - أثناء تعلّمي الحرفة وبعد ذلك - وأنا أعتزم شراء بعض الحلوى.. فكنتُ أقبل على حانوت صانع الحلوى، فأرى بعض النسوة عند طاولة البيع. وأخال أننى أبصرهن بالفعل وهن يتضاحكن من هذا النهم الصغير!.. فأذهب إلى الفاكهى، وأرمق الكمثرى فيغويني شذاها، ويرمقني شابان أو ثلاثة على مقربة.. وهذا رجل يعرفني، يقف أمام حانوته.. وأرى فتاة مقبلة من بُعد، أفتراها خادم الدار؟ إن قصر نظرى يهيىء لى كافة الرؤى الوهمية، فأخال المارة جميعًا من المعارف، وهكذا أجد في كل مكان من العراقيل ما يفزعني ويصدني.. وتتضاعف رغبتى بازدياد خجلي واستحيائى، ثم أعود - في النهاية - إلى البيت، كالمغفل، والشوق يضنيني، وفي جيبي الوسيلة لإشباعه ولكني لم أوت الجرأة على أن أبتاع شيئًا! ولقد أنساق إلى أكثر التفصيلات اجتلابًا للملل إذا سمحت لنفسي - وأنا أصف كيف كانت نقودي تُنفق، عن طريقي أو عن طريق سواى - بأن أشرح الارتباك، والاستحياء، والإحجام، والتململ، والازعاج، التي كنت أمرّ بها دائمًا.. على أن القارىء المتتبع لمجرى حياتي، لن يلبث - إذا ما عرف حقيقة طباعي وسجيتي - أن يفهم كل هذا دون أن أتجشم عناء روايته عليه!

ولو تسنى له فهم هذا، فسيسهل عليه إدراك ظاهرة من أبرز ظواهر التناقض لديّ: وهي اجتماع شح يكاد يكون خسيسًا، مع بغض شديد للنقود!.. فما النقود سوى قطعة من أثاث لا أجد فيها من الراحة سوى القليل، حتى أنه وحتى لا يخطر ببالي قط أن أصبو إليها عندما لا تتوفر لى.. وحتى إذا ظفرت بها، فإني أبقيها طويلًا دون أن أنفقها، عجزًا منى عن أن أدري كيف أستخدمها بطريقة تدخل السرور على نفسي. أما إذا سنحت لي فرصة ملائمة ومواتية، فإنني أُقبل على استخدام النقود حتى ليخلو كيسى منها قبل أن أفطن!.. وإلى جانب ذلك، فلا داعي لأن يتوقَّع أحد أن يجد عندى تلك الخلة العجيبة التي تتوفر في البخلاء: الانفاق، لمجرَّد التظاهر بالانفاق! بل إننى - على النقيض - أنفق في السر من أجل الاستمتاع، وبدلًا من أن أفخر بالانفاق أخفيه! ويبلغ من شدَّة شعورى بأن لا نفع للمال لديّ، أننى أكاد أخجل إذ أقتنى أي قدر منه، وأكون أشدّ خجلًا حين أستخدمه!.. ولو قُدِّر لى يومًا من الدخل ما يكفي لأن أعيش حياة مريحة، فإنني أجزم بأنني ما كنت لأكون بخيلًا، بل كنت أنفقه عن آخره، دون أن أحاول زيادته. ولكن ظروفي غير المستقرة تلزمني الحرص، فأنا أعبد الحرية، وأمقت الكبت والعناء، وأن أكون عالة على الغير! وطالما بقى المال في كيسى، فإنه يطمئنني إلى استقلالي، ويعفيني مؤونة البحث عن أعمال لتملأ

الكيس من جديد، وهي ضرورة تبعث الجزع في نفسي دائمًا.. ومن ثَم فإن الخوف من أن أرى ما لديّ من المال قد استنزف، يجعلني أكتنزه في حرص.. فالمال الذي يمتلكه الشخص هو أداة حريته، أما حين نسعى إليه ملهوفين فيكون أداة العبودية.. ولهذا أتشبَّث بما لديّ، ولا أرغب في مزيد!

ومن ثم فإن عدم شغفي بالمال لم يكن سوى تقاعس وتبلّد، فإن متعة الاقتناء لا تستحق عناء التحصيل.. وكذلك الحال بالنسبة لإسرافي، فهو ليس أكثر من تقاعس وبلادة، وعندما تحين فرصة الانفاق النافع، فإنني لا أحسن استغلالها.. فالمال أقل إغراء لي من الأشياء، إذ أن ثمة وسيطًا - على الدوام - بين المال وبين اقتناء الأشياء المنشودة، في حين أنه لا يوجد أي وسيط بين الأشياء وبين الاستمتاع بها.. فإذا ما رأيت الشيء فإنه يستهويني، وما أن أتبين وسيلة الظفر به حتى يفقد إغراءه!.. ولهذا السبب اعتدت أن أرتكب السرقات. ولا أزال ـ حتى الآن ـ أختلس التوافه التي تستهويني، والتي أوثر أن آخذها بهذه الطريقة على أن أطلبها.. ولكني لا أذكر أنى ـ سواء في طفولتي أو في كبرى - قد سلبت أي امرىء درهمًا واحدًا، اللهم إلا في مناسبة واحدة منذ خمس عشرة سنة ـ إذ سرقت سبعة « ليبرات » وعشر قطع من فئة « السو ». وهذا الحادث جدير بالذكر، لأنه يشتمل على خليط عجيب من النزق والقحة، ما كنت لأصدقه بسهولة لو أنه كان يتعلَّق بشخص سواى!

ولقد وقع هذا الحادث في باريس، إذ كنت أتمشى مع السيِّد « دى فرانسوى » في حدائق (الباليه رويال) حوالى الساعة الخامسة. فإذا به يُخرج ساعته، فيستطلعها الوقت، ثم يقول: « لنذهب إلى الأوبرا! ». ووافقت، فذهبنا. واستأجر السيِّد مقعدين في « الصالة »، وأعطاني إحدى التذكرتين، ثم مضى بالثانية يتقدَّمني، فتبعته. ودخل إلى « الصالة »، فلما هممت بالدخول خلفه، إذا بالناس يسدون الطريق. وتلفت فإذا كل فرد واقف، فظننت أن من السهل أن أتوه وسط الزحام، أو أن أوهم السيِّد « دى فرانسوى » بأنني ظللت، على أية حال. ومن ثم خرجت فاسترجعت ثمن التذكرة، وانصرفت بالنقود، دون أن يخطر ببالى أن الجميع كانوا قد اتخذوا مجالسهم بمجرَّد بلوغى الباب الخارجي، وأن السيِّد « دى فرانسوى » قد تبيَّن أنني لم أكن موجودًا![12].. وإذ لم يكن ثمة تصرّف ينافي مسلكي العادي مثل هذا التصرّف فإنني أذكره لأبين أن هناك لحظات ينبغى ألا يُحكم فيها على الرجال بأعمالهم، لأنهم يكونون في شبه ذهول أو شرود!.. ذلك لأنني لم أكن راغبًا في اختلاس النقود ذاتها، وإنما أردتُ أن أسرق وجه استخدامها، ولكن هذا التصرّف كان مشينًا بقدر ما كان بعيدًا عن السرقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولن يقدَّر لي أن أفرغ من كل هذه التفصيلات لو أننى ألمحت بكافة الدروب التي اتبعتها - أثناء تعلّمى الحرفة - في هبوطى من ذرى البطولة النبيلة، إلى درك التفاهة! ومع ذلك، فإنني لم أستمرىء رذائل المركز الذي كنت فيه، وإن مارستها. وسئمت أسباب التسلية التي كان زملائي يقبلون عليها، حتى إذا اشتدّ تقييد حريتى فجعل العمل في نظري أمرًا لا يُطاق، سئمت كل شيء!.. وجدد هذا من شغفي بالقراءة، بعد أن كنت قد فقدته زمنًا. ولكن هذه القراءة ـ التي كنت أختلس لها فترة من وقت العمل - أصبحت عيبًا جديدًا استوجب عقابي.. وإذا الميل إليها يتحوَّل - بالقمع - إلى وجد لم يلبث أن أصبح جنونًا!.. وكانت « لاتريبو » - وهي امرأة اشتهرت بإعارة الكتب - تمدّني بكتب كافة ألوان الأدب، وكانت كلها - الغث منها والنفيس - سواء عندي، إذ لم يكن لي في الأمر خيار، فأخذت أقرأ كل شيء بنفس النهم: رحت أقرأ وأنا أمام طاولة العمل، وأقرأ وأنا منطلق في بعض المهام، وأقرأ بجوار صوان الملابس، وأنسى نفسي ساعات طويلة حتى يدور رأسي لفرط القراءة.. فما كنت أملك سوى أن أقرأ! كان معلمى يراقبني، ويباغتني، ويضربني، وينتزع الكتب منى..

وكم من مجلدات مُزِّقت وأُحرقت وطوح بها من النافذة!.. وكم من مؤلفات تُركت ناقصة الأجزاء - لهذا السبب - في مكتبة « لاتريبو »!.. وكنت إذا عزت على النقود، أقدِّم للمرأة أقمصتى، وأربطة عنقي، وملابسي.. كما كانت تستولي مني في يوم الأحد من كل أسبوع على قطع « السو » الثلاث التي كنت أتقاضاها لمصروفي الخاص!

سيُقال لي هنا إن النقود باتت من الضرورات لى. وهذا حق، ولكنه لم ينطبق عليَّ إلا عندما حرمني شغفي بالقراءة، من كل نشاط. فإن انصرافي بكل نفسي إلى هوايتى، وعدم اكتراثي بغير القراءة، ألهاني عن السرقة! وهذه ميزة أخرى من الميزات البارزة في شخصيتي، ففي غمرة انغماسي في أي مسلك في الحياة، يستطيع أي أمر تافه أن يجتذبني، وأن يحولني، وأن يستأثر بانتباهي، ثم يغدو شغفًا. وإذ ذاك يصبح كل شيء منسيًا، فلا أعود أفكِّر في غير الشيء الجديد الذي يستحوذ على اهتمامي.. وهكذا كان قلبي يخفق في صبر نافذ إذا ما أحضرت كتابًا جديدًا ودسسته في جيبي، فلا أكاد أخلو إلى نفسي حتى أخرج الكتاب، ولا أعود أفكر في التنقيب في حجرة معلمي بالورشة.. ولا أكاد أصدّق أننى كنت أقدم على السرقة، ولو كانت لي أهواء تكلفنى نفقة أبهظ.. كنت في اقتصاري على الحاضر، لا أجد اتجاهًا إلى أن أدبِّر أمر المستقبل بهذه الطريقة، فقد كانت « لاتريبو » تعطيني الكتب بالنسيئة (بالتقسيط)، وكانت الدفعات صغيرة، ولكني كنت أنسى كل شيء بمجرَّد أن أطمئن إلى وجود الكتاب في جيبي. وكانت النقود التي تأتيني بطرق شريفة تذهب بنفس الأسلوب إلى يدى هذه المرأة! ولم يكن أهون عليَّ - عندما تشتدّ في الضغط عليَّ - من أن أنزل عما أمتلك. وكانت السرقة - قبل الحاجة إلى المسروق - تتطلب كثيرًا من بُعد النظر، ومن ثم لم أكن أتعرَّض لإغراء يحملني على السرقة لكي أدفع ما كانت المرأة تطلبه!.. وكان من جراء المشاجرات، والضرب، والإطلاع خفية على كتب أسيء اختيارها، أن صرت شرسًا، صموتًا، وشرد عقلى، وأصبحت أعيش منطويًا!.. على أنه إذا كان إدراكي لم يعصمنى من الكتب السخيفة والفاسدة، فإن حظى الحسن صانني من الكتب الفاحشة والنابية.. لا لأن « لاتريبو » - التي كانت امرأة لينة الجانب، من كل اعتبار - كانت تثير أي اعتراض دون إعارتي هذه الكتب، وإنما لأنها كانت تذكرها لي في لهجة مشوبة بالغموض، لكي تضاعف من قيمتها لديَّ، فإذا بهذا الغموض، يحملني على رفضها، بدافع من الاستهجان والاستحياء.. وقد ساعدني حظي على الاحتفاظ بهذا المسلك الطيب الورع، فانقضى أكثر من ثلاثين عامًا قبل أن تقع عيناي على أحد هذه الكتب الخطرة، التي ما كانت أية سيِّدة رقيقة لتجد مطالعتها مريحة، لأنها لا تُقرأ إلا بيد واحدة فقط![13].

وفي أقل من عام، كنت قد استوعبت الثروة الضئيلة من الكتب، التي كانت لدي « لاتريبو »، وأصبح افتقارى إلى ما يشغلني - خلال فراغي - أمرًا مضنيًا. وكنتُ قد أبرأت نفسى من نزواتي الصبيانية النابية، بفضل ولعى بالمطالعة. بل إني بفضل الكتب التي كنت أقرؤها - برغم أنها كانت سيئة الاختيار، وكثيرًا ما كانت رديئة - ملأت قلبي بمشاعر أنبل من تلك التي كان محيط حياتي يوحى إليَّ بها. وإذ امتلأت اشمئزازًا من كل شيء كان في متناول يدي، وشعورًا بأن كل ما كان خليقًا بإغرائي قد أُقصى عني تمامًا، لم أعد أرى ثمة ما يمكن أن يهفو إليه فؤادي. وكانت حواسى المهتاجة قد طال شوقها إلى متعة لم يكن في وسعى أن أدرك كنهها، ولو في الخيال!.. كنت نائيًا عن المتعة الواقعية، وكأننى خالٍ من الجنس.. وكنت - لاكتمال نموى وإرهاف مشاعري - أفكِّر أحيانًا في نزواتي، ولكني لم أكن أبصر مما وراءها أي شيء.. وفي هذه الحال العجيبة، أقبل خيالي المضطرب على شاغل أنقذني من نفسي وهذا من حساسيتي الشهوية النامية!.. وكان هذا الشاغل هو تعليل نفسي بالحالات والمواقف التي استرعت انتباهي أثناء مطالعاتي. وبفضل تذكرها، وتنويعها، والجمع بينها، وتصوّر أنها تمت لي حقيقة، أصبحت واحدًا من الشخصيات التي كانت تملأ خيالي، وأصبحت أرى نفسي - دائمًا - في أكثر هذه المواقف ملائمة لذوقي.. وأخيرًا، جعلتني الحال الخيالية - التي وُفقت إلى وضع نفسى فيها - أنسى حالى الحقيقية التي لم أكن

راضيًا عنها! وقد أفضى بي هذا الولع بالموضوعات الخيالية، والاستعداد الذي كنت أتوسل به إلى شغل نفسي بها، إلى الاشمئزاز من كل شيء حولي، وإلى إقرار ذلك الميل إلى الوحدة الذي لم يفارقني بعد ذلك. وسنرى - أكثر من مرة ـ في سياق الحديث، الآثار العجيبة التي ترتبت على هذا السلوك الذي كان يبدو كئيبًا، ومنطويًا، ولكنه ـ في الواقع - راجع إلى قلب مفرط العطف، ومفرط الحب، ومفرط الحنان، اضطر إلى أن يغذي نفسه بالأوهام إذ عجز عن أن يجد في الوجود أى قلب آخر يشبهه! على أننى أكتفى ـ في الوقت الحاضر - بأنني حددت أصل ومبعث هواية خففت كل نزواتي، وفرضت عليها من نفسها قيودًا، فجعلتني على الدوام بطىء التصرُّف، نظرًا لفرط تأجج شهوتى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا بلغت العام السادس عشر من عمري، وأنا قلق، غير راض عن نفسي ولا عن أي شيء، خلو من شيء من الميول التي تتوفر في مثل الحال التي كنت أعيش فيها.. خلو من ملاهي السن التي كنت أجتازها، يضنينى اشتهاء الغاية التي كنت أجهل كنهها.. فكنت أبكى دون ما داع للدموع، وأتنهد دون أن أدرى لذلك سببًا! وقصارى القول، كنت أداعب أطياف خيالى بحنان، لانني لم أكن أرى حولي شيئًا يرجحها. وكان زملائي - الذين كانوا يتعلمون الحرفة معي - يفدون في أيام الآحاد يبحثون عنى بعد الصلاة، لأذهب فأنشد بعض اللهو معهم. كنت أشعر بأنني خليق بأن أغتبط لو استطعت أن أهرب منهم، ولكني لم أكد أشترك في ملاهيهم مرة، حتى ازددت تحمسًا وتماديت إلى أبعد مما كانوا يذهبون إليه!.. هكذا كان مسلكي دائمًا، يصعب حملي على الشيء، كما يصعب إيقافي عن المضى فيه إذا ما بدأت!.. فكنت - خلال نزهاتنا خارج المدينة - أذهب إلى أبعد مما يذهب إليه أي واحد منهم، دون ما تفكير في العودة، ما لم يتذكّرها لي الآخرون!.. ولقد تورطت في هذا الصدد مرتين، إذ أُغلقت أبواب المدينة قبل أن أتمكن من العودة! فكنت - في اليوم التالي - أقابل من معلمي بما يمكن تصوّره! بل إننى أُنذرت في المرة الثانية بأن أقابل - إذا ما تكرَّر التأخر - استقبالًا جعلني أعقد العزم على أن لا أقدم على التعرّض لهذا الخطر ثانية!.. ومع ذلك، فقد قُدّر للمرة الثالثة أن تأتى، برغم بشاعتها: فقد أفسد علىَّ حرصى ضابط لعين من الحرس - كان يُدعى الكابتن مينوتولى - اعتاد دائمًا أن يُغلق « البوَّابة » التي كان يحرسها قبل أن تُغلق الأبواب الأخرى بنصف ساعة! وكنت في تلك المرة عائدًا مع زميلين، وقبل أن نبلغ المدينة بنصف فرسخ، سمعت البوق الذي يستحث العائدين، فضاعفت من خطاى.. وعدت أسمع البوق، فهرعت بكل قواى.. ووصلت وأنا مقطوع الأنفاس، غارقًا في العرق، وقد راح قلبي يخفق بعنف.. ورأيت الجنود - من بُعد - يتخذون مراكزهم، فاندفعت نحو البوَّابة وأنا أصرخ بصوتٍ كاد يخنقه التهدّج.. ولكن الفرصة كانت قد فاتت، فما أن أصبحت على بُعد عشرين خطوة من مركز الحراسة الأمامي، حتى رُفعت القنطرة الأولى! وارتعدت وأنا أرى طرفيها الرهيبين يرتفعان في الهواء، كنذير شؤم بغيض بالمصير الذي كان في تلك اللحظة يفغر فاه ليبتلعني!

وفى الفورة الأولى لأساى، ألقيت بنفسي على الأرض المنحدرة، ورحت أعضها. وبادر زميلاى لتوهما - وهما يضحكان من نحسهما - إلى تقرير ما ينبغى عليهما عمله. وقد حذوت حذوهما، ولكن قراري كان يختلف عن قرارهما. فقد أقسمت - في تلك البقعة - ألا أعود إلى معلمى قط! فلما ولجا المدينة في الصباح التالي، بعد أن فُتحت الأبواب، ودعتهما إلى الأبد، ولم أسألهما سوى أن ينبئا ابن خالى « برنارد » بقرارى، سرًّا، وبالمكان الذي يستطيع أن يراني فيه مرة أخرى!.. ولم اكن - منذ تتلمذت في الحرفة - قد رأيته إلا لمامًا، فقد ظللنا وقتًا نلتقى في يوم الأحد من كل أسبوع، ولكن كلًّا منا أخذ يتجه رويدًا إلى عادات غير عادات صاحبه، فأخذت لقاءاتنا تقل بإطراد. وأعتقد أن لأمه يدًا في هذا التحوُّل، فقد كان من أبناء الحي الراقي، بينما كنت تلميذًا فقيرًا أتلقَّى أصول الصنعة. كنت

من أبناء (سان جيرفيه) - حى الفقراء بالمدينة - فلم تعد ثمة مساواة بيننا، برغم قرابتنا، ومن ثم فقد كان من الحطة له أن يكون ذا شأن معى!.. ومع ذلك، فإن الصلات بيننا لم تنقطع تمامًا، فإن ابن خالي - بما أوتى من فطرة طيبة - كان يتبع في بعض الأحيان ما كان يمليه عليه قلبه، وليس ما كانت تمليه عليه أمه!.. فلما أنبيء بما عقدت عليه العزم، أسرع إلىَّ، لا ليحاول أن يثنيني عنه أو يشاطرنيه، وإنما ليخفف متاعب فرارى ببعض المنح البسيطة، إذ كانت مواردى لا تساعدني على الذهاب بعيدًا. وكان بين الأشياء الأخرى التي وهبنيها، سيف صغير استهواني كثيرًا، وظللت أحمله حتى بلغت (تورين)، حيث اضطرتني الضرورة إلى أن أنزل عنه. إنني كلما فكرت - منذ ذلك الحين - في التصرّف الذي انتهجه ابن خالي نحوى في تلك اللحظة الحرجة، ازددت اقتناعًا بأنه إنما أتبع تعليمات أمه، وربما أبيه أيضًا. إذ أنه من الأمور التي لا سبيل إلى تصديقها، أنه كان يقعد عن بذل أى مجهود لاستبقائي، أو يحجم عن أن يتبعني، لو أنه كان يتصرَّف من تلقاء نفسه.. ولكنه - على العكس - كان في مسلكه أقرب إلى تشجيعي على أن أمضى في خطتي، منه إلى إثنائي عنها!.. وعندما تبين أنني كنت مصممًا، تركنى دون أن يذرف كثير دمع. ولم يُقدَّر لنا أن نتبادل الرسائل أو أن يرى أحدنا الآخر، منذ ذلك الحين! وإنه لأمر يدعو للأسف، إذ كانت شخصيته بطبيعتها طيبة، وكنا قد خلقنا لكي يحب كل منا الآخر!

وقبل أن أستغرق في الحديث عن حظى وقدري، اسمحوا لى أن أحول عينى لحظة إلى الحظ الذي كان خليقًا بأن ينتظرني - بحكم طبيعة الأمور - لو أنني وقعت بين يدى معلم أفضل من معلمي هذا.. فما كان ثمة ما هو أنسب لميـولى، ولا ما هو أصلح لاسعادي، من الحياة الهادئة، المغمورة، التي يحظى بها أى صاحب حرفة محترم، لا سيما إذا كان من طبقة كطبقة الناقشين على المعادن في (جنيف).. إذ أن مثل هذا المركز - الذي يدر من الكسب ما يكفي لتهيئة معاش مناسب، ولكنه لا يكفى لتكوين ثروة ـ كان كفيلًا بأن يحد من طموحي ما تبقى لى من العمر، وبأن يفسح لي فراغًا شريفًا لكي أرعى ميولى المتواضعة، وبأن يستبقيني في المحيط المناسب لي، دون أن يتيح لى أسباب تجاوزه!.. فقد كانت موارد خيالي من الخصب بحيث تخلع جمالًا على كل المهن والأعمال وما يحيط بها، ومن القوة بحيث تنقلني - إن صح هذا التعبير - من حالٍ إلى حال، وفق إرادتي. لذلك لم يكن للمركز الذي أجد نفسي فيـه أى اعتبار مادي في الواقع. وما كان أي مكان أوجد فيه ليبعد عن أولى قلاعي التي كنت أشيدها في الهواء بمسافة تقعدني عن أن ألوذ بقلعتى دون ما عناء!.. وترتب على هذا وحده أن أبسط مهنة، المهنة التي تنطوي على أقل عنـاء، والتي تتيح أكبر قدر من الحرية الفكرية، هي التي كانت تروق لي أكثـر من سواها.. وهكذا كانت مهنتي تمامًا!.. وكان من الممكن أن أقضى حياة هادئة وادعة، كتلك التي تتطلبها ميولي، في أحضان عقيدتى، ووطني، وأسرتي، وأصدقائي.. وفي رتابة المهنة التي تلائم ذوقي، وفي الرفقة المحببة إلى فؤادي.. كان من الممكن أن أكون مسيحيًا طيبًا، ومواطنًا طيبًا، وأبًا طيبًـا لأسرة، وصديقًا طيبًا، وعاملًا طيبًا، ورجلًا طيبًا في كافة روابط الحياة.. وكان من الممكن أن أحب مركزي في الحياة، بل ولعلني كنت أمجده.. وكان من الممكن بعد أن أقضى حياة بسيطة وخاملة مغمورة، في الواقع - أو فلأقل هادئة وقورًا - أن أموت بسلام، في أحضان أسرتي.. ومع أننى كنت خليقًا بأن أغدو نسيًا منسيًا بعد قليـل - دون ما ريب - إلا أننى كنت خليقًا إذ ذاك بأن أجـد من يحزن علىَّ - على الأقل - ما بقى على قيد الحياة واحد ممن يذكرونني!

أية صورة أوشك أن أرسمها، بدلًا من هذه؟.. لنكف عن استباق شجون الحياة، فسوف أشغل قرائى بما هو فوق الكفاية من الأسى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكراسة الثانية

4 - من سنة **1728** إلى سنة **1731**

بقدر ما بدت اللحظة - التي أوحى إليَّ فيها الخوف بفكرة الفرار -حزينة، فإن اللحظة التي أقدمت فيها على تنفيذ الفكرة بدت بهيجة.. فقد كنت أهجر بلدي، وأهلي، وأسباب عيشي، ومواردي، وأنا بعد صغيرًا!.. كنت أنصرف عن حرفة - وأنا في منتصف دراستها - دون ما معرفة كافية بها، تمكنني من أن أكسب عيشى.. كنت أسلم نفسي لأهوال العوز، دون أية وسيلة لإنقاذ نفسي منها!.. كنت أعرّض نفسي - وأنا بعد في سن البراءة والضعف - لكل غوايات الرذيلة والقنوط.. كنت أنشد - في البُعد - العذاب، والخطأ، والزلات، والعبودية، والموت تحت ربقة أشد طغيانًا من تلك التي لم أطق احتمالها!.. هذا ما كنت أوشك أن أفعل، وهذا هو المستقبل المحتمل الذي كان يجب أن أقدّره!.. فما أبعد هذا عن الخيال المزوق!.. كان الاستقلال الذي اعتقدت أنني اكتسبته، هو الشعور الوحيد الذي أخذ يحرّكني.. فقد اعتقدتُ أن بوسعي - وأنا حر، سيِّد نفسى - أن أفعل كل شيء، وأن أحقق كل شيء، وليس عليَّ سوى أن أدفع نفسى فإذا بي أرقى وأحلّق في الهواء!.. لقد دخلت الدنيا الواسعة وأنا عامر القلب بالشعور بالأمان، وبأن هذه الدنيا لن تلبث أن تفعم بصيت أعمالي، وأنني سأجد في كل خطوة احتفالات، وكنوزًا، ومغامرات، وأصدقاء على استعداد لأن يخدموني، وعشيقات تواقات إلى إرضائي!.. فليس عليَّ سوى أن أظهر، فأشغل بال الدنيا بأسرها.. ومع ذلك فلم أكن راغبًا في الدنيا كلها، إذ كان بوسعي أن أستغنى عنها، إلى حد ما!.. كانت الرفقة اللطيفة تكفيني، دون أن أضني نفسي ببقية الدنيا.. كنتُ في تواضعي قد قصرت نفسي على مجال ضيق، مختار، بهيج، يكون سلطاني عليه أمرًا محققًا.. كان أقصى طموحي يتمثّل في نطاق غزو قلعة واحدة: فلو قُدِّر لي أن أكون أثيرًا لدى السيِّد والسيِّدة، وحبيبًا للابنة، وصديقًا للابن، وحاميًا للجيرة، لقنعت.. فما كنتُ راغبًا في مزيد!

وفى ارتقاب هذا المستقبل المتواضع، رحتُ أهيم حول المدينة لبضعة أيام، متخذًا مقامى لدى بعض فلاحين كنت أعرفهم. وقد استقبلوني في كرم يفوق ما كان أي امرىء من سكان المدينة خليقًا بأن يبذل لي، فقد رحبوا بي، وآوونى، و غذّونى بكرم يفوق كل ما كنت أستحق.. ولا سبيل إلى وصف عملهم بأنه « إحسان »، إذ أنهم لم يكونوا يخلعونه عليَّ بترفع أو مَن.. وهكذا رحت أتنقل وأهيم على وجهي، حتى بلغت (كونفينيون)، بمنطقة (سافوى)، على بُعد فرسخين من (جنيف). وكان مطرانها يُدعى السيِّد « دي بونفير »، وقد استرعي انتباهي هذا الاسم الذائع في تاريخ الجمهورية، وكنتُ توّاقًا لأن أشهد سلالة « فرسان الملعقة »14.

وسعيت إلى السيِّد « دى بونفير »، فتلقّاني في رفق، وتحدَّث عن زندقة (جنيف)، وعن سلطان كنيسة الأم المقدسة، ثم دعاني إلى العشاء. ولم أجد ما أرد به على حديث انتهى إلى هذه النتيجة، بل إنني خرجتُ برأى أوحى إليَّ بأن المطارنة الذين يحظون بمثل هذا العشاء، لا يقلّون صلاحًا عن كهنتنا. وكنتُ - يقينًا - أكثر معرفة من السيِّد « دى بونفير »، ولكني كنتُ لا أقل صلاحية كضيف عني كمتبحر في علوم اللاهوت، كما أن نبيذ « فرانجي » الذي قُدِّم على المائدة، والذي لاح لى بديعًا، كان موفقًا في كسب كل حجة إلى صف المطران، فقد كان خليقًا بي أن أستحيى من أن أوقف فم مثل هذا المضيف العجيب عن الكلام.. ومن ثَم فقد رحتُ أسلم بحججه، أو على الأقل - أحجم عن أن أبدى مقاومة صريحة. ولو أن أحدًا رأى ما كنتُ أبدى من حذر، لخالنى مخادعًا. ولكن هذا غير صحيح، فمن المحقق أننى إنما كنت أصدر في تصرّفى عن ملاطفة عامة، إذ أن المجاملة ولين الجانب ليسا من الرذائل دائمًا، بل إنهما كثيرًا ما يكونان من الفضائل، لا سيما لدى الشبّان.. ذلك لأن الكرم الذي يعاملنا به أى شخص، يقرّبه إلى قلوبنا، فإذا ما جاريناه في آرائه فلن

يكون ذلك عن تملّق، بغية استغلال كرمه، وإنما هو تجنّب لإغضابه، أو لمقابلة حسنته بسيئة.. إذ ما الصالح الذي كان السيِّد دي بونفير يبتغيه من وراء استقبالى، أو إكرامي، أو محاولة إقناعي؟.. لا شيء سوى مصلحتي أنا. هكذا أنبأني قلبي الشاب، فهزّنى عرفان الجميل، وتوقير مثل هذا الكاهن الطيب. وكنتُ أشعر بتفوقى عليه في المعرفة، فلم أشأ أن أجازيه عن ضيافته بأن أذهله بهذا التفوق. ومن ثم لم يكن في مسلكي شيء من النفاق، فما فكرت قط في أن أغيّر دينى، بل إننى كنتُ أبعد ما أكون عن أن أروض نفسى سريعًا على هذه الفكرة، وما نظرت إليها إلا في استنكار ساعد على أن يقصيها عنى أمدًا طويلًا. إنما كانت كل رغبتي هي أن أتفادى إغضاب أولئك الذين كانوا يحسنون معاملتى سعيًا منهم إلى تحويلي عن عقيدتي. كنتُ أبغى أن أنمى حسن نواياهم، وأن أدع لهم الأمل في النجاح، وذلك بأن أبدى لهم أنني أقل مناعة مما كنت في الواقع. وكان مسلكي في ذلك يشبه تدلل النساء ذوات المكانة المحترمة، اللائي يعرفن كيف يثرن آمالًا تفوق ما يعتزمن أن يحققنه أحيانًا في سبيل بلوغ مآربهن، دون أن يجدن بشيء، أو يتقيدن بوعد!

كان العقل، والشفقة، ومراعاة النظام، تتطلَّب من الناس أن ينقذوني من الدمار الذي كنتُ أهرع لملاقاته، وإعادتي إلى أسرتي، بدلًا من معاونتي على طيشي! هذا ما كان كل إنسان صالح صادق التقوى خليقًا بأن يفعله، أو يحاول فعله. ولكن السيِّد « دى بونفير » وإن كان رجلًا طيبًا، إلا أنه لم يكن - قطعًا - بالرجل التقى.. بل إنه كان - على النقيض - متعصبًا، لا يعرف عن التقوى سوى أنها عبادة الصور، وترديد التسابيح.. كان من ذلك النوع من المبشرين الذين لا يملك الواحد منهم أن يفكّر في شيء لمصلحة عقيدته، أفضل من كتابة الاتهامات ضد قساوسة جنيف!.. وبدلًا من أن يردّني إلى موطني، استغل الرغبة التي كنت أحس بها في الفرار من هذا الموطن، وعمل على أن يجعل العودة متعذرة علىَّ، ولو شئتها!.. ومن المحتمل أن الطريق التي وجهني إليها كانت كفيلة بأن توردنى موارد التعاسة، أو أن تجعلني إمعة لا وزن له.. ولكنه لم يكن يتطلّع إلى ذلك أو يحسب حسابه، فما كان يرى أمامه سوى نفس أُنقذت من الكفر ورُدت إلى الكنيسة. وسواء أكنت شريفًا أم وغدًا، فما قيمة ذلك ما دمت أذهب إلى القداس؟.. على أن المرء يجب ألا يعتقد أن مثل هذا التفكير مستغرب لدى الكاثوليك، بل إنه مألوف لدى كافة الأديان المتعصبة، التي يُعتبر الإيمان هو الشيء الرئيسي فيها، وليس الأعمال!

وقال لي السيِّد دي بونفير: « إن الله يدعوك، فاذهب إلى (أنيسى)، وهناك ستجد سيِّدة طيبة، محسنة، جعلها كرم الملك في مركز يمكنها من إنقاذ الأوراح من الخطأ الذي نجت هي نفسها منه! ». وكانت السيِّدة المقصودة هي « مدام دى فاران »، التي اعتنقت الكاثوليكية حديثًا، والتي اضطرها القساوسة - في الواقع - إلى أن تقتسم مع من كانوا يبيعون عقيدتهم من الدهماء، معاشًا قدره ألف فرنك كانت تتلقّاه من ملك سردينيا. وشعرت بهوان من جراء طلب المعونة من سيِّدة طيبة محسنة، فقد كنت جد تواق إلى أن أحصل على ما يفي بحاجاتي، وليس إلى أن أحظى بصدقات!.. كما أن التفرغ للدين لم يكن يستهويني. ومع ذلك فقد حملت نفسي - في شيء من العناء - على أن أسعى إلى (أنيسى) مدفوعًا بالحاح السيِّد دي بونفير، وبضغط الجوع، وبمتعة الرحيل في سبيل غاية محددة. وكان بوسعي أن أبلغ وجهتي في يوم واحد، ولكنني استغرقت في سفري ثلاثة أيام، إذ لم أكن في عجلة من أمرى. ولم أجرؤ - في تلك الأثناء - على أن ألج قصرًا، أو أقرع بابًا، فقد كنت بطبعي شديد الخجل. ولكنى كنت أغنى تحت النوافذ التي يراودني الأمل في أن يكون خلفها من يسمعني. وكنت أُصدم عندما أنهك رئتي بالجهد المتواصل، ثم لا أرى سيِّدات ولا عذاري ينجذبن إلى صوتى أو معاني أغاني، لا سيما وأنني كنت أعرف منظومات رائعة علمنيها زملائي، وكنت أغنيها في إلقاء لا يقل عن معانيها روعة!

ووصلت أخيرًا، فرأيت « مدام دى فاران ». ولقد حددت هذه الفترة من عمري شخصيتى،

فلست أقوى على أن أحمل نفسي على المرور بها مرًّا سريعًا.. كنت في منتصف العام السادس عشر من عمري، وكنت بديع التكوين، دون أن أكون ما يسمونه « فتى مليحًا ».. كنت صغير القدم، مستوى الساق، رضى الخلق، ذا قسمات معبرة، وفم صغير بديع، وشعر فاحم، وحاجبين أسودين. وعينين صغيرتين غائرتين قليلًا، ولكنهما - مع ذلك - كانتا ترسلان بقوة تلك النار التي كانت تتأجّج في دمي!.. على أننى - لسوء الحظ - لم أكن أعرف شيئًا عن ذلك، فما خطر لي قط - خلال حياتي - أن أفكِّر في مظهري الشخصي، اللهم إلا بعد أن فات أوان الإفادة منه!.. وكان الجبن المألوف في مثل سنى هذه يرتبط بوجل ناشىء عن شخصية جُبلت على الحب، فهي دائمًا في هم من خشية الإساءة إلى أحد. هذا إلى جانب أننى وإن أوتيت عقلًا حسن التكوين، نشيء على التسامح، إلا أنني لم أكن قد رأيت الدنيا، وكانت تعوزنى آداب السلوك.. وبدلًا من أن تسد معرفتي هذا النقص، فإنها لم تؤد إلا إلى مضاعفة خجلي وجبني، إذ أظهرتني على مدى حاجتي الماسة إلى هذه الآداب!

ومن ثم، فإن خوفي من أن يخفق مظهري ـ في أوَّل لقاء مع مدام دى فاران - في أن يكسب عطفها، دفعني إلى تجشم متاعب أخرى. فنظمت رسالة بديعة، في أسلوب خطابى، خلطت فيها عبارات منتقاة من الكتب، بتعبيرات مكتسبة من الزملاء العمّال، وكشفت عن كل بلاغتى، لكي أكسب رضاء السيِّدة. وأرفقت برسالتى خطاب السيِّد دي بونفير، ثم سعيت إلى المقابلة التي كنت أرهبها!.. ولم تكن مدام دى فاران في البيت، بل قيل لي أنها بارحته لتوها إلى الكنيسة، إذ كان اليوم يوم أحد السعف من عام 1728، فهرعت في أثرها، ورأيتها، فلحقت بها وخاطبتها. وخليق بي أن أذكر البقعة التي التقينا فيها، فكم رويتها بدمعى وغطيتها بقبلاتي، منذ ذلك الحين! وكم أتمنى أن أحيط هذه البقعة المباركة بسياج من ذهب. كم أود أن أجتلب إليها تمجيد العالم وخشوعه.. وخليق بكل من يحب تكريم ذكريات خلاص النفوس البشرية، ألا يقترب منها إلا وهو راكع على ركبتيه!

كانت تلك البقعة دربًا يمتد خلف منزل السيِّدة، ويصل بين جدول - إلى اليمين - يفصل البيت عن الحديقة، وسياج الفناء - إلى اليسار -ويؤدي إلى باب خلفي لكنيسة الفرنسيسكان15. وفي اللحظة التي همَّت فيها مدام دى فاران باجتياز هذا الباب، سمعت صوتى، فالتفتت خلفها.



وفى اللحظة التى همت فيها مدام دى فاران باجتيـــاز
هــذا البـــاب ، ســـــمعت صوتى ، فالتفتت خلفها

وكم أذهلني منظرها!.. كنت قد تمثلتها عجوزًا، عابسة، متعصبة في تدينها - فما كانت السيّدة التقيـة التي تعرف السيِّد دي بونفير لتعدو هذه الصورة، في رأيي! - بيد أننى رأيت بدلًا من هذه الصورة وجهًا يفيض بالسحر، وعينين زرقـاوين جميلتين - مفعمتين رقة - وبشرة تبهر البصر، ومعالم عنق فاتن.. لم يفلت شيء من النظرة السريعة التي ألقاها المريد الفتى - فقد غدوت منذ تلك اللحظة مريدًا وتلميذًا متعلِّقًا بها - وقد داخلني اقتناع بأن دينًا يبشر به حواريون من قبيل هـذه السيِّدة، لابد وأن يقـود إلى الفردوس! وتناولتُ منى المرأة، مبتسمة، الرسالة التي قدّمتها إليها بيد مرتجفة، ففضتها، وألقت نظـرة على ما كتب السيِّد دي بونفير، ثم ارتدَّت إلى ما كتبتـه أنـا فقـرأته كله، وهمَّت بأن تعيد قراءته لولا أن نبهها خادمها إلى أن الوقت قد حان لتلج الكنيسة، فقالت لي بلهجة هزَّت كيانى: « حسنًا يا صغيري.. إذن فأنت تهيم في البلاد، في مثل هذه السن؟.. إنه لأمر يستحق الرثاء حقًّا! ».. ولم تنتظر حتى أجيب، بل أردفت: « اذهب فانتظرني، وسلهم أن يقدِّموا.. لك فطورًا.. ولسوف آتي بعد الصلاة لأتحدَّث إليك ».

كانت « لويز أليـونور دى فاران » شابة تنتمي إلى آل « لاتوردى بيل »، وهي أسرة عريقـة ونبيلـة من أسرات (فيفاى) إحدى مدن مقاطعة (فودن). وكانت قد تزوَّجت وهي جد صغيرة من السيِّد دى فاران - من آل لويس - وكان الابن الأكبر للسيِّد دى فيلاردان، من (لوزان). ولم يكن هـذا الزواج ـ الذي لم يعقب ولدًا - زواجًا هنيئًا، فلم تلبث السيِّدة دى فاران - تحت تأثير حزن عائلي - أن انتهزت فرصة وجود الملك فيكتـور أماديو في (ايفيان) ؛ فعبرت البحيرة، وألقت بنفسها عند قدمَي هذا الأمير.. ومن ثم هجرت زوجها وأسرتها وبلادها، في فورة حمقاء تشبـه فورتي! - وقد وجدت متسعًا من الوقت بعد ذلك للندم، كما فعلت أنا - وإذ كان الملك مشغوفًا بأن يظهر بمظهر الكاثوليكي الغيور، فإنه أخذ السيِّدة تحت حمايته، ووقف عليها معاشًا سنويًّا قدره 1500 جنيه بييمونتى[16].. وهو مبلغ كبير يعد إسرافًا من أمير كان بطبعه غير ميال للسخاء.. على أنه علم بعد ذلك بما قيل - بسبب استقباله إياها - من أنه أحبها، فما كان منه إلا أن أرسلها إلى (أنيسي) في حماية فصيلة من حرسه، حيث نبذت العقيدة البروتستانتية في دير (الزيارة)، تحت إرشاد روحي من « ميشيل جابرييل دى برنيكس »، الأسقف الأسمى لجنيف.

وكانت قد قضت ست سنوات في (أنيسى) عندما قُدِّر لي أن أصل إليها، وكانت وقتئذ في الثامنة والعشرين من عمرها، إذ وُلدت في بداية القرن. ولقد كان جمالها من النـوع الذي يبقى مع الزمن، إذ أنه يقترن بالمحيـا أكثر منـه بالملامح والقسمات.. كما أنه كان - لديها - في باكورة تألقه. فكان لها طابع لطيف، حنون، وشكل رقيق، وابتسامة ملائكية، وفم يشبه فمي، وشعر أشهب خفيف نادر الجمال، ترسله في إهمال كان يكسبها مظهرًا أخَّاذًا. وكانت صغيرة القد، بل أنها كانت قصيرة، وإن لم يكن هذا يعيبها. على أنها أوتيت رأسًا وصدرًا ويدين وذراعين لا تملك العين أن تقع على أجمل منها.. ولقد كانت تربيتها جد عجيبة: كانت قد فقدت أمهـا عند مولدها - مثلي - وتلقَّت العلم في غير انتظام، كلما عن لها أو صادفتها الفرصة.. فأخذت قدرًا ضئيلًا من مربيتها، وقليلًا من أبيها، وقليـلًا من مدرسيها، وحظًّا وافرًا من عاشقيها، لا سيما من شخص منهم يُدعى السيِّد « دى تافيل »، كان رجل ذوق وعلم، فكان يزين المرأة التي تتجه إليها عواطفه بروائع معرفته. ولكن تعدّد أنواع المعرفة المتباينة - بهـذه الكثرة - جعل كلًّا منها يعرقل الآخر! ولما كانت السيّدة قد واصلت دراساتها دون ما نظام مرسوم، فإن إدراكها السليم - بطبعه - لم يصب أي تحسن. ومن ثم فإنها - برغم إلمامها بشيء من أصول الفلسفة وعلم الطبيعة - ظلَّت تحتفظ بما كان لأبيها من ميل إلى الطب التجريبي[17] والكيمياء، وكانت تحضر أنـواع « الإكسير » والأصباغ، والبلاسم (المراهم)، والمساحيق السامية[18]. وكانت تزعم أنها تمتلك عقاقير سرية! ولقد استغل مدعو الطب من الدجالين ضعفها. فتسلطوا عليها، وأعنتوها، وأفلسوها.. وبين البواتق والعقاقير بددوا ذكاءها، ومواهبها، ومفاتنها التي كانت خليقة بأن

تُبهر بها أرقى مجتمع!.. ومع ذلك، فبالرغم من أن الأوغاد الخبثاء أساءوا استغلال تربيتها التي لم تلق التوجيه الصالح، لكي يطفئوا ضياء عقلها، إلا أن قلبها السامي صمد للمحنة، وظلّ دائمًا على سموه.. وما تغيَّرت شخصيتها الودودة اللطيفة، ولا عطفها على التعساء، ولا طيبتها التي لم يكن لها حد، ولا خلقها البشوش، الصريح، المستقيم.. بل إنها حين عدا عليها الكبر، وأحاطت بها الحاجة والعناء والمصائب من كل الأنواع، ظلَّت سجيتها الوادعة الجميلة، محتفظة ـ حتى نهاية عمرها ـ بكل ما كان بها من بهجة في أهنأ الأيام!

ولقد كانت أخطاؤها راجعة إلى معين لا ينضب من النشاط الذي كان في حاجة مستمرة إلى شاغل. ولم تكن تبغى شيئًا من الدس كما كانت تفعل غيرها من النساء، وإنما كانت تبغى مشروعات تعنى بتوجيهها وتنفيذها. فلقد خُلقت لتسهم في الشئون الهامة. ولو أن « مدام دى لونجفيل » كانت في مكانها لكانت مجرَّد دسَّاسة تنصرف إلى المؤامرات.. أما هي، فلو أنها كانت في مكان مدام دى لونجفيل لحكمت الدولة وساست أمورها! ولكن قُدِّر لمواهبها أن تتوفر في غير المجال الصالح لها، فإذا هذه المواهب التي كانت خليقة بأن تجلب عليها الشهرة لو أنها كانت في مركز أسمى، تؤدي إلى دمارها وهي في المركز الذي عاشت فيه!.. ذلك أنها كانت - في كل ما يقع في مجال طاقتها العقلية - ترسم خطتها مكبَّرة في رأسها، فترى غايتها مضخمة، مما كان ينجم عنه استخدامها وسائل أكثر تناسبًا مع آرائها منها مع قوتها.. ولقد أخفقت بفضل أخطاء غيرها. وعندما فشل مشروعها، أفلست ولما يكد سواها يخسر شيئًا!.. على أن هذا الشغف بالأعمال التجارية - الذي أضرّ بها أبلغ الضرر - كان عظيم النفع لها من ناحية أخرى في عزلتها الرهبانية، إذ حال بينها وبين البقاء في هذه العزلة ما بقى من عمرها، كما كانت تعتزم. فما كان من المحتمل أن تليق حياة الراهبات المنتظمة المتقشفة، ولا الثرثرة المنبعثة عن الخمول والكسل، بعقل كان في حركة مستمرة، وكان يبتكر في كل يوم نظمًا جديدة، ويحتاج إلى الحرية ليكرِّس ذاته لهذه النظم!

وكان أسقف برنيكس الطيب يشبه « فرانسوا دى سال »19 في كثير من النواحي، وإن لم يعد له مهارة.. كما أن مدام دى فاران - التي كان يدعوها بابنته - كانت تشبه « مدام دى شانتال »20 في كثير من النواحي، وكانت خليقة بأن تشبهها أيضًا في اعتزالها الناس، لولا أن حياة الدير الخاملة كانت بغيضة إليها. ولم يكن عن نقص في حمية هذه السيِّدة الطيبة أن عزفت عن تكريس نفسها للعبادات البسيطة التي تتطلبها الرهبنة، والتي كانت تبدو ملائمة لمؤمنة حديثة عهد بالعقيدة، تعيش تحت إرشاد أسقف.. فمهما يكن الباعث الذي أغراها على أن تُبدِّل عقيدتها، فإنها كانت صادقة الإخلاص - عن يقين - للعقيدة الجديدة التي اعتنقتها. ومن المحتمل أن تكون قد ندمت على إقدامها على ذلك، إلا أن من الأكيد أنها لم ترغب قط في النكوص، فهي لم تمت على مذهب الكثلكة فحسب، بل إنها برهنت خلال حياتها على أنها كانت كاثوليكية صالحة. وإني لأجرؤ - وأنا الذي يعتقد أنه قد اطلع على سريرتها - على أن أؤكد أن عزوفها عن أن تبدو في ثياب التقوى علانية إنما كان ناجمًا عن استبشاعها للتصنع. كانت تقواها على درجة من الصدق كانت تأبى معها أن تظهرها للملأ.. على أن هذا ليس بمجال الحديث عن مبادئها، فلسوف تسنح لي فرص أخرى للخوض فيها.

وعلى الذين ينكرون تعاطف الأرواح أن يفسروا - إن استطاعوا - كيف أن مدام دى فاران أوحت إليَّ منذ اللقاء الأوَّل، بل منذ الكلمة الأولى، والنظرة الأولى، بثقة كاملة لم تكشف قط عما يكذبها، فضلًا عمَّا أوحت إليَّ به من مشاعر الولاء والتعلُّق، ولو سلمنا بأن أحاسيسي نحوها كانت حبًا حقيقيًا - وهو ما سيبدو موضع شك، على الأقل، لأولئك الذين يتتبَّعون تاريخ علاقتنا - فكيف تسنى أن يكون هذا الحب منذ بدايته مقترنًا بمشاعر قلَّ أن أوحى بها الهوى -وأعني بذلك طمأنينة القلب، والسكينة، والسرور، والثقة،

والاعتداد؟ - كيف تسنى أنني عندما سعيت لأوَّل مرة إلى امرأة لطيفة، مهذبة، ذات جمال باهر.. إلى سيِّدة أرفع منى مقامًا - وما كنت قد خاطبت يومًا مثيلة لها ـ وكان مصيري، بطريقة ما، يتوقَّف عليها، وفقًا لمدى ما قد تستشعره من ميل للأخذ بيدى.. أقول: كيف تسني - رغم كل هذا - أن أشعر لفوري بانطلاق، وبارتياح تام، وكأننى كنت واثقًا كل الثقة من أنني سأروق لها؟.. كيف تسنى أننى لم أحس - ولو للحظة واحدة ـ بأية حيرة، أو ارتباك، أو تحرج؟.. لقد كنت بطبيعتي خجولًا، سهل الاضطراب، لا أعرف شيئًا من الدنيا، فكيف تسني لى منذ اليوم الأوَّل، بل اللحظة الأولى، أن أتخذ معها المسلك السهل، واللغة الرقيقة، واللهجة الأليفة التي سادت بيننا بعد ذلك بعشر سنوات، عندما جعل الود الوثيق هذه الأمور طبيعية؟.. فهل من المحتمل أن يحب المرء بدون غيرة - ولست أقول بدون رغبات، فإن هذه كانت متوفرة لديَّ! - أفلا يرغب المرء في أن يعرف على الأقل، من هدف عواطفه، ما إذا كان حبه يقابل بحب مثله أم لا؟.. الواقع أنه ما خطر لي في حياتي أن أوجِّه إليها هذا السؤال، ولا أن أسأل نفسي ما إذا كنت قد أحببتها!.. كما أنها لم تبد فضولًا نحوى من هذا القبيل. كان ثمة شيء فذ في مشاعري نحو هذه المرأة الساحرة، ولسوف يصادف القاريء ـ في سياق حكايتي - عجائب غير مرتقبة!

كان الموضوع يتعلَّق بما سوف يصير إليه أمرى، وقد استبقتني السيِّدة للغداء كى نتحدَّث بشأن مستقبلي. وكانت تلك أوَّل مرة في حياتي تخلَّت عنى فيها شهيتي، حتى لقد قالت وصيفة السيِّدة ـ التي قامت بخدمتنا على المائدة - إنني كنت أوَّل قادم من سفر، في مثل سنى وطبقتي، رأته في مثل هذه الحال. ومع أن هذه الملاحظة لم تنل منى في نظر سيّدتها، إلا أنها أصابت مرمى في نفس طفيلي كبير كان يتناول الغداء معنا، وكان قد التهم وحده ما يكفى ستة أفراد! أما أنا، فقد كنت في حال من النشوة العاطفية لم تكن تدع لي سبيلًا إلى الأكل. كان قلبي يتغذَّى من شعور جديد على كل الجدَّة، وقد ملأ كل كياني، ولم يدع بنفسي ميلًا إلى أي شيء آخر!

ورغبت مدام دى فاران في أن تعرف دقائق تاريخ حياتي القصيرة، فاستعدت وأنا أرويها كل ما فقدت خلال تتلمذي في الحرفة من حماسة ومرح. وكنت كلما استثرت اهتمام تلك الروح السامية، ازدادت هي إشفاقًا علىّ مما اعتزمت أن أعرض حياتي له. ولم تجرؤ على أن تنصحني بالعودة إلى جنيف، فقد كان ذلك - بالنسبة لموقفي - عملًا ينطوي على خيانة للعقيدة الكاثوليكية، كما أنها كانت تعرف تمام المعرفة كيف أنها كانت محوطة بالرقابة، وكيف أن كلماتها كانت توزن بميزان دقيق. على أنها حدَّثتني بلهجة مؤثّرة عن أسي أبي، حتى لقد كان من السهل أن يرى المرء أنها كانت تحبذ عودتي كي أواسيه. ولم تكن تدرى كيف أنها كانت تترافع بقوة ضد نفسها، دون أن تدرى. إذ أظنني قد قلت من قبل إن عقلي كان قد استقرّ على قرار، فكنتُ كلما ازدادت كلمات السيِّدة ذلاقة واقناعًا، وكلما ازدادت تغلغلًا في فؤادي، ازددت عجزًا عن أن أفكّر في الانفصال عنها! كنت أشعر بأن العودة إلى جنيف بمثابة إقامة عوائق لا سبيل إلى تذليلها بيني وبين هذه السيِّدة، ما لم أتشبَّث بهذه الخطوة التي اتخذتها. ومن ثم ظللت صامدًا في موقفى. وإذ رأت مدام دى فاران أن جهودها غير مجدية، لم تمعن في الالحاح، حتى تتفادي إحراج نفسها، بيد أنها قالت لي وهي ترمقني في إشفاق: « أيها الصغير البائس، يجب أن تذهب إلى حيث يدعوك الله، ولكنك ستتذكر حديثي عندما تكبر! ».. وأعتقد أنها لم تكن تتصوَّر إذ ذاك مدى القسوة التي قُدِّر لهذه النبوءة أن تتحقق بها!

وكانت المشكلة عسيرة. وكيف كان بوسعي - وأنا في مثل تلك السن الصغيرة - أن أجد موردًا للعيش بعيدًا عن وطني؟.. كنت جد بعيد عن أن أتقن حرفتي وأنا لم أكد أتم نصف فترة التعلم والمران.. حتى لو أننى كنت أتقنها، فقد كنت خليقًا بأن أعجز عن كسب قوتى منها في إقليم (سافوى)، لأن الإقليم كان أفقر من أن يجد ما ينفقه على الفنون.. على أن

الطفيلي الذي كان يلتهم الأكل - نيابة عن السيِّدة وعنى - وجد نفسه مضطرًا إلى التوقّف كي يريح فكيه، فانتهز الفرصة وقدَّم اقتراحًا قال إنه مستلهم من السماء، وإن كان خليقًا - إذا حكمنا عليه بنتائجه - بأن يكون مستلهمًا من مكان آخر مضاد للسماء. وكان الاقتراح يوحي بأن أذهب إلى (تورين) حيث أجد عونًا روحيًا وبدنيًا في دار للضيافة أقيمت للوعظ والتعليم الديني، إلى أن يُتاح لي أن أنضوى تحت لواء الكنيسة، فأستطيع أن أحصل على عمل بفضل أريحية المحسنين. واستطرد صاحبي قائلًا: « أما نفقات رحلته، فإن سيادة الأسقف سيتكرَّم بلا شك بتوفيرها، إذا اقترحت السيِّدة هذا العمل الخيرى عليه. ولا مراء كذلك في أن السيِّدة « البارونة » وتابع قوله وهو ينحني على طبقه: « وهي جد محسنة، ستتوق هي الأخرى إلى المساهمة ». ووجدت فكرة الاحسان بهذا الشكل جد بغيضة، فأثقل الألم قلبي ولم أنبس ببنت شفة. أما مدام دى فاران، فقد اكتفت بأن قالت - دون أن تتحمس في قبول الاقتراح - إن كل إنسان جدير بأن يصنع الخير بقدر ما في وسعه، وأنها على استعداد لأن تتحدَّث إلى الأسقف بهذا الصدد. ولكن صاحبنا اللعين، الذى لم يكن له في الأمر شأن يذكر، والذي كان يخشى ألّا تتحدَّث السيِّدة إلى الأسقف بالطريقة التي كان يرجوها، سارع إلى دعوة المحسنين، وبذل جهده في إقناع القساوسة ببراعة.. فلما رغبت مدام دي فاران - التي كانت تخشى عليّ من الرحلة - في الحديث إلى الأسقف عنها، وجدت أن كل شيء قد دُبِّر. وأسلمها الرجل لفوره النقود التي خُصصت لنفقات رحلتي المتواضعة، فلم تجسر على الالحاح في بقائي، إذ كنت أقترب من السن التي لا يليق عندها بامرأة في عمر السيِّدة أن تعبِّر عن رغبتها في استبقاء شاب معها!

واضطررت بعد إذ دُبّرت رحلتي بهذا الشكل - إلى الانصياع، بل إننى أقدمت على الرحلة دون إحجام. ومع أن (تورين) كانت أبعد من (جنيف) - كما قدَّرت - إلا أنها، كعاصمة للاقليم، كانت أوثق اتصالًا بأنيسي من أية بلدة تابعة لعقيدة مختلفة، وفي أرض أجنبية. وإلى جانب أنني كنت مقدمًا على الرحيل إطاعة لمدام دى فاران، فإنني اعتبرت نفسى باقيًا تحت رعايتها، فكان هذا أهم عندي من أن أقيم على مقربة منها. ثم فكرة الانطلاق في رحلة طويلة أثارت شغفى بالتجوال والترحال، وهو شغف كان قد بدأ يُعلن عن نفسه، وبدا لي أن من التجارب البديعة أن أعبر الجبال - وأنا في تلك السن - وأن أرفع نفسي عن كل رفاقي بقدر ارتفاع جبال (الألب).. إن في مشاهدة مختلف الأقطار لسحرًا لا يكاد أي امرىء من أبناء (جنيف) يقوى على مقاومته. ومن ثم فقد قبلت الرحيل. وكان ذلك الطفيلي مزمعًا أن يسافر مع زوجته خلال يومين، فعهدوا بي إلى رعايته، كما عهدوا بنقودى - التي ضاعفتها مدام دى فاران - إليه. على أنها منحتني كذلك مبلغًا بسيطًا لمصروفي الخاص، وزوَّدتني بنصحها.. وفى يوم الأربعاء من « أسبوع الآلام »، بدأنا سفرنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي اليوم التالي لرحيلي، وصل أبى إلى (أنيسي) - متعقِّبًا أثرى - مع صديقه السيِّد ريفال، وهو ساعاتي مثله، موهوب بل مشحوذ الذكاء، كان ينظم أشعارًا تفوق أشعار « لاموت » ولم يكن يقلّ ابداعًا للكلام عنه بالشعر، فضلًا عن أنه كان طيبًا في كل ناحية. بيد أن ميله للأدب ـ في غير مجاله - لم يجد عليه من الثمار سوى دفع أحد أبنائه إلى اعتلاء المسرح!.. ولقد قابل السيِّدان - أبي وصاحبه - مدام دى فاران، واكتفيا بأن رثيا لحظي، بدلًا من أن يتبعاني ويستردَّاني، وهو أمر كان من اليسير عليهما أداؤه، إذ أنهما كانا يمتطيان جوادين، في حين أنني كنت أسير على قدمي! ولقد حذا خالى « برنار » حذوهما، فوصل إلى (كونفينيون)، ثم ارتدَّ إلى (جنيف) بعد أن سمع أنني كنت في (أنيسي).. وكأنما كان أهلي متحالفين مع نجمي المنحوس على أن يسلموني إلى المصير الذي كان يرتقبني. ولقد ضاع أخي بفضل إهمال شبيه بهذا، وكان ضياعه شبه نهائى، حتى أن أحدًا لم يعرف قط ما جرى له!

وما كان أبي رجلًا شريفًا فحسب، وإنما كان ذا استقامة مشهود بها، وقد أوتى نفسًا من تلك النفوس القوية القادرة على جليل الفضائل. وكان فضلًا عن ذلك أبًا صالحًا، لا سيما بالنسبة لي. فقد كان يحبني ويخصني بحنان فياض، ولكنه كان يحب مسراته كذلك، وقد اكتسب - مذ أصبحت أعيش بعيدًا عنه - ميولًا أخرى أحالت عاطفته الأبوية فاترة بعض الشيء. وكان قد تزوَّج مرة أخرى في (نيون)، ومع أن زوجته لم تكن في سن تمكنها من أن تمنحني أخوة، إلا أنها كانت ذات أقارب وأهل، مما خلق لأبي أسرة جديدة، وأهدافًا جديدة، ووسطًا جديدًا، فلم يعد يُكثر من استعادة ذكراى.. وكان قد اكتهل، وليس لديه ما يعيش عليه، ولكني وأخي كنا قد ورثنا عن أمنا ثروة بسيطة، كان من حق أبي أن يحصل على ريعها في غيابنا. ولم تواته هذه الفكرة مباشرة، ولا هي حالت بينه وبين أداء واجبه، ولكنها كانت تتغلغل خفية في نفسه، دون أن يفطن إليها! وقد خففت - في بعض الأحيان - من تحمسه الذي كان خليقًا بأن يدفعه إلى الانطلاق في تعقّب أثرى، كما حدث عقب رحيلى عن (أنيسى). وهذا - فيما اعتقد - هو السر في أنه، وإن كان قد سعى إلى (أنيسي) للبحث عني في الواقع، فإنه لم يتبعني إلى (شامبيرى)، حيث كان حريًا بأن يعثر علىَّ ولابد. وكان هذا هو السر كذلك في أنه كان يستقبلني عندما أزوره ـ كما صرت أفعل كثيرًا بعد فرارى - بعناقات الأب وقبلاته، ولكن.. دون أن يبذل أي جهد صادق لاستبقائي معه!

على أن هذا التصرّف من جانب أبي - الذي كنت أعرف حنانه واستقامته تمام المعرفة ـ قادني إلى تأملات في حالي، ساهمت بدرجة غير طفيفة في استبقاء قلبي سليمًا. فمنها استنتجت الدرس الأخلاقي العظيم، الذي قد يكون الدرس الأوحد ذا القيمة العملية: تفادي تلك المواقف التي تعترض الحياة، والتي تدفع واجباتنا إلى التضارب مع مصالحنا، والتي تبصرنا بما قد يكون لنا من نفع في مصائب الغير.. فمن المؤكَّد - في مثل هذه المواقف - أنه مهما يكن حبنا للفضيلة صادقًا، فلابد من أنه سيأخذ في الضعف، دون أن ننتبه إلى ذلك - إن عاجلًا أو آجلًا حتى يصبح ظالمًا، شديدًا في تصرفاته، وإن لم يكف عن أن يظلّ منصفًا طيبًا في أعماق قلوبنا!

هذا المبدأ الذي انطبع في قرارة فؤادي، والذي هداني - وإن جاءت هدايته متأخرة ـ في كل مسلكي في الواقع، هو أحد المباديء التي جعلتني أبدو مخلوقًا شديد الغرابة والحماقة في نظر العالم، وفي نظر معارفي قبل سواهم! ولقد عيب علىَّ أنني أحاول أن أظهر فذًّا، مغايرًا لكل مَن عداي، والحقيقة هي أنني لم أجشم نفسى قط عناء التصرُّف على شاكلة غيري من الناس، أو على نقيضهم، وإنما كنت أتوق مخلصًا إلى أن أفعل ما كنت أراه صوابًا. فكنت أبتعد - بقدر ما في وسعى ـ عن المواقف التي تجعل مصالحى متعارضة مع مصالح الغير، والتي قد توحي إلىَّ - من جراء ذلك - برغبة خفية في إيذاء الغير، ولو دون إرادة منى!.. ولقد أراد سيِّدي اللورد مارشال أن يثبت اسمى في وصيته - منذ عامين - فعارضت ذلك بشدَّة، وقلت له إننى لا أبغض شيئًا في الدنيا، قدر أن أعلم أن اسمى مثبت في وصية أحد، وفي وصيته هو بالذات. ولقد نزل أخيرًا عن رغبته، ولكنه.. أصرَّ على أن يمنحنى معاشًا مدى الحياة، فلم أعارض. ولسوف يُقال إنني كسبت بهذا التعديل، وهو قول قد يكون صحيحًا، ولكن.. أواه أيها الأب وأيها المحسن!.. إننى لأوقن بأنه إذا قُدِّر لي - لتعاستى - أن أعيش بعدك، فإنني سأفقد بفقدانك كل شيء، ولن أكسب شيئًا!

هذه - في رأيي - هي الفلسفة الحقَّة، بل الفلسفة الوحيدة التي تناسب القلب البشري في الواقع. وإني لأزداد في كل يوم تأثّرًا بمتانتها وثباتها، حتى أنني عرضتها - تحت أضواء متعددة - في كتاباتي الحديثة، ولكن الجمهور سطحى الإدراك، لا يعنى إلا بالقشور، فلم يدر كيف يستوعبها. ولو قُدر لي أن أعيش، بعد أن أفرغ من مهمتى الحاضرة، حتى أضطلع بمهمة جديدة، فإنني أعتزم أن أقدم - على غرار ما فعلت في « أميل »21 - مثالًا جذَّابًا

رائعًا لهذه الفلسفة، يضطر القارىء إلى أن يعني به. ولكن.. لنكتف بهذا القدر من تأملات المسافر، فقد آن لنا أن نواصل الرحلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجدت الرحلة أبدع مما توقّعت، ولم يكن مرافقي الطفيلي من السماجة بالقدر الذي كان يلوح عليه: كان رجلًا في أواسط العمر، له شعر أسود بدأ الشيب يدبّ في حوافه، وقد بدا كجندي من قاذفي القنابل، وأوتى صوتًا جهوريًا.. وكان عارم البشاشة، يغذ في سيره، ويسرف في أكله، ويمارس كافة أنواع الحرف، دون أن يجيد شيئًا منها. وأعتقد أنه كان يزمع إنشاء مصنع ما في (أنيسى)، ولم تتخل مدام دى فاران عن تحبيذ فكرته، وكان لابد له ـ كي يُقدم على المحاولة - من الحصول على موافقة الوزير، ولهذا كان في طريقه إلى (تورين)، مزوّدًا بالمال. وكان صديقنا هذا ذا براعة في الدس والتآمر، حريصًا دائمًا على أن يتقرَّب إلى رجال الدين، وبينما كان يبدى تلهفًا عظيمًا على أداء الخدمات لهم، استطاع أن يقتبس عن مدرستهم أسلوبًا وذلاقة ورعتين كان لا يفتأ يستغلّهما مباهيًا بأنه واعظ كبير.. بل إنه استطاع أن يحفظ آية من التوراة باللاتينية، كان لا يكف عن ترديدها ألف مرة في اليوم، فيبدو وكأنه يعرف ألفًا منها!.. ونادرًا ما كان يعوزه المال إذا ما عرف أن لدى سواه نقودًا.. كان بارعًا أكثر منه أفّاقًا، وكان عندما يردّد « كابوشينياته »22 بلهجة ضابط تدريب المجندين، يشبه الراهب بطرس23 عندما كان يدعو إلى الحرب الصليبية، ملقيًا خطبه الدينية وهو ممسك بسيف!.. أما زوجته - السيِّدة سابران - فكانت امرأة طيبة، أهدأ بالنهار منها بالليل. ولما كنت أنام في حجرتهما، فإن نومها الصاخب كثيرًا ما كان يوقظني، وكان خليقًا بأن يستبقيني ساهرًا لو أنني علمت سببه، ولكني لم أشعر بأتفه ريب، وقد أدَّى غبائي في هذه الناحية إلى وقوع عبء تعليمي على الطبيعة وحدها!

ومضيت في رحلتي مع مرافقي التقى وزميلته الصاخبة، دون أن تعكر صفو سفرى أية بادرة. كنت أسعد، بدنيًا وذهنيًا، مما كنت طيلة عمري. كنت فتى قويًا، موفور الصحة، خلوًّا من الهم، مفعمًا بالثقة في نفسي وفى الغير. كنت أستمتع بتلك الفترة الغالية - برغم قصرها - من الحياة.. اللحظة التي تنبسط فيها الحياة على سعتها، فتضخم من شعورنا بكل حواسنا وأحاسيسنا، وتجعل الطبيعة في أبصارنا، إذ تبديها تحت سحر وجودنا!.. وكان قلقى البهيج يخضع لهدف يقيّد من حدَّته، ويسكن من خيالي. كنت أنظر إلى نفسي كصنيعة وتلميذ وصديق، بل وحبيب - تقريبًا - لمدام دى فاران. كانت الأمور المؤدبة التي حدَّثتني بها، واللطف البسيط الذي خصتني به، والاهتمام الحنون الذي لاح أنها أولتنيه، ونظراتها الودية التي بدت لي وكأنها مليئة بالحب ـ إذ أنها كانت تلهمني هذا الشعور! - كل هذه الأمور شغلت أفكاري خلال الرحلة، وأغرقتني في أحلام لذيذة لم يكن يعكرها أي خوف أو شك بشأن مستقبلي. فقد رأيت أنهم - إذ أوفدوني إلى تورين - قد تكفلوا بأن يعولوني هناك، وأن يحصلوا لي على مركز مناسب. لذلك شعرت بأنني في غير حاجة إلى أن أحمل هم نفسى بعد ذلك، فقد حمله عنى سواى. ومن ثم مضيت في سفري بخطى خفيفة بعد أن تخلّصت من هذا العبء.. كان كل شيء يلوح لي وكأنه يعزّز سعادتي المبكرة. وكنت بين الجدران أصور لنفسي المآدب والحفاوات الريفية.. وفي المروج أصوِّر لنفسى الألعاب الخشنة.. وعلى ضفاف الأنهار: السباحة والنزهات وصيد السمك.. وفوق الشجر: الفواكه الشهية. وتحت ظلالها: الخلوات العاشقة.. وعلى الجبال: دلاء مترعة باللبن والقشدة، وخمول حبيب وسكينة وبساطة، ومتعة الانطلاق دون ما غاية!.. وقصارى القول أنه لم يكن ثمة ما يصادف بصرى دون أن يبعث في فؤادي شيئًا من الافتتان الممتع!.. كانت فخامة المناظر المحيطة بي، وتنوعها، وجمالها الحقيقي، تجعل تلك الفتنة أهلًا للتدبّر والتأمل. بل إن الغرور كان يطالب لنفسه بنصيب في ذلك، فقد لاح لي شرفًا يفوق ما يؤهلني له عمرى أن أزور إيطاليا - وأنا لا أزال صغيرًا - وأن أرى مثل هذا القدر من الدنيا،

وأن أقفو أثر « هانيبال » عبر الجبال!.. وكنا - إلى جانب ذلك - كثيرًا ما نقف بالفنادق الريفية الجيّدة. وكانت شهيتي متفتحة للأكل، كما كان إرضاؤها متوفرًا بكثرة. والواقع أنني لم أجد داعيًا لأن أحرم نفسي شيئًا، لا سيما وأن وجباتي لم تكن بالشيء الذي يُذكر إذا قورنت بوجبات السيِّد سابران!

ولست أذكر خلال حياتي كلها وقتًا حظيت فيه بتحرّر تام من الهم والقلق كما تحرَّرت في الأيام السبعة أو الثمانية التي استغرقتها رحلتنا! فإن مقدرة السيِّدة سابران على السير - وهي المعدَّل الذي كنا مضطرين إلى أن ننظم خطانا وفقًا له - جعلت الرحلة تجاوز نزهة طويلة على الأقدام! ولقد خلفت لي ذكرى هذه المناسبة ميلًا شديدًا إلى كل شيء كان مرتبطًا بها لا سيما الجبال والسير على الأقدام. فما سبق لي، في الأيام السالفة من عمري، أن سافرت على قدمَيّ.. فضلًا عن أن سفرى هذا كان مقترنًا بأعظم المسرّات، ذلك لأن الواجبات والأعمال وكثرة الأمتعة، اضطرّتني فيما بعد إلى أن أتخذ دور السيِّد الراقي، وأن استقل عربة في أسفاري. كما أن الهموم والارتباكات والشواغل الممضة لم تلبث أن تسرَّبت إليَّ، فغدا كل همّي في رحلاتي متجهًا إلى بلوغ غايتي، بعد أن كنت لا أكترث بشيء سوى الاستمتاع بالسفر!.. ولقد قضيت وقتًا طويلًا أحاول أن أعثر على رفيقين أوتيا مثل ميولى بحيث يقبلان أن ينفقا خمسين « لوى »[24] من مالهما، وعامًا من وقتهما، في الترحال معى على الأقدام، لنجوس خلال إيطاليا، دون أن نصحب معنا سوى غلام واحد يحمل حقائبنا. ولقد بدا على الكثيرين الافتتان بالفكرة، ولكنهم لم يكونوا يرونها - في الواقع - أكثر من وهم يطيب الحديث عنه، دون أي تفكير في تنفيذه! وإني لأذكر أن « ديديرو » و « جريم » - اللذين ناقشت معهما الفكرة بحماس ذات مرة. قد تحمسا لها في النهاية، فخيّل إليَّ أن الأمر قد استقرّ، ولكنه انتهى إلى أن قمنا برحلة على الورق، لم يجد فيها « جريم » من السرور أكثر من أن يجعل « ديديرو » يرتكب عددًا من الأخطاء الإلحادية، ثم يسلمني إلى التحقيق بدلًا منه![25].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يخفف من أسفى لسرعة الوصول إلى (تورين) سوى سروري برؤية مدينة كبيرة، والأمل في أن يُقدَّر لي أن أقوم بدور يليق بشخصى، إذ كانت أبخرة الطموح قد بدأت تتصاعد في مخي، وأصبحت أرى أننى قد سموت - إلى ما لا نهاية - فوق حالي السابقة أيام كنت أتتلمذ للحرفة.. وكنت أبعد من أن أظن ـ مجرَّد ظن ـ أنه قد كُتب لي أن أهوى، في أمد وجيز، إلى ما دون تلك الحال!.. على أن من واجبي أن أسأل القارىء الصفح، أو أن أبرِّر له - قبل أن أمضى في قصتى - تلك التفصيلات التافهة التي خضتها، أو التي سأخوضها في سياق القصة، والتي قد تبدو في نظره عديمة القيمة.. فإن المهمة التي آليتها على نفسي - إذ وعدتُ بأن أكشف نفسي للملأ على حقيقتها، دون ما تحفظ - تتطلَّب عدم إبقاء شيء يتعلَّق بي في طي الإبهام أو الخفاء، وأن أدع نفسي تحت أبصار الملأ باستمرار، حتى يصحبوني في كل هفوات قلبي، وفي كل الأركان الخفية في حياتي، فلا أغيب عن أعينهم لحظة واحدة، خشية أن يتساءلوا لو أنهم عثروا في روايتي على أضأل ثغرة، أو أتفه فراغ: « ما الذي كان يفعله خلال ذلك؟ ».. فلا يلبثون أن يتهموني بأننى غير راغب في أن أفضى بكل شيء. وأن ما أكتبه ليعرّضني لغضب الجنس البشرى بما فيه الكفاية، دون ما حاجة لأن أعرِّض نفسى - بصمتى - لمزيد!

وكان مصروفي الخاص الضئيل قد نفد، إذ كنت في ثرثرتي قد تحدَّثت عنه، فلم يتوان مرشداى عن استغلال عدم حرصي، واستطاعت مدام سابران أن تحصل منى على كل ما كان معي.. حتى على قطعة صغيرة من شريط مكسو بالفضة كانت مدام دى فاران قد منحتنيها لأزين بها سيفى الصغير. وكانت حسرتي عليها أشدّ منها على أي شيء آخر. بل إن السيف ذاته كان خليقًا بأن يبقى في حوزتهما لو أننى تهاونت في مقاومتي. ولقد تكفّلا

بنفقاتي - في أثناء الرحلة - بأمانة، ولكنهما لم يدعا لي في الوقت ذاته شيئًا.. فبلغت (تورين) بلا ثياب ولا مال ولا متاع، وغدوت مضطرًا إلى أن أدع لمواهبي وحدها شرف الحظ الذي كنت أرجو أن أحظى به!

وكنت مزوَّدًا ببعض خطابات قدَّمتها، فسرعان ما اقتدت إلى نزل الوعاظ، حيث بدأت أتعلَّم الدين الذي كان عليَّ أن أكسب به عيشى!.. ورأيت عند وصولى بابًا ضخمًا ذا قضبان حديدية، أُغلق خلفى -وأُحكم رتاجه - بمجرَّد أن اجتزته. وبدت لي هذه المقدمة منفرة أكثر منها مقبولة. وكانت قد بدأت تغذيني بالخواطر عندما اقتدت إلى غرفة رحبة الجوانب، كان كل أثاثها عبارة عن هيكل خشبي يعلوه صليب كبير - في نهاية الحجرة - وقد قامت أمامه أربعة أو خمسة مقاعد صُنعت هي الأخرى من الخشب، ولاحت كأنها مصقولة خصيصًا، في حين أنها إنما كانت تلمع من كثرة الاستعمال والمسح والاحتكاك. وفي هذه الحجرة المخصصة للاجتماعات، كان ثمة أربعة أو خمسة من الأشرار الرهيبين.. أولئك كانوا رفاقًا من الطلبة الذين لاحوا لي وكأنهم من الزبانية وليسوا من الطامعين في شرف أن يصبحوا أبناء للرب. وكان اثنان من هؤلاء الأوغاد من « السلافيين » الذين يزعمون أنهم من اليهود أو المراكشيين، وقد اعترفا لي بأنهما قضيا عمريهما في التجوال في ربوع أسبانيا وإيطاليا، وأنهما كانا يعتنقان المسيحية من آنٍ لآخر ويتقدَّمان كي يُعمدا أينما كان يحلو لهما أن يقضيا بعض الوقت!

وما لبث أن فُتح باب حديدى آخر، فشطر شرفة رحبة تمتد بطول الفناء. وأقبلت خلال هذا الباب أخواتنا. كن من التلميذات اللائي قُدِّر لهن - كما قُدر لي - أن يولدن من جديد، لا عن طريق التعميد، وإنما عن طريق نبذ عقيدتهن السابقة. وكن حقًّا أعظم أفَّاقات وأبشع متشردات لطخن زمرة رعايا الرب. على أن واحدة منهن فقط لاحت لي جميلة وجذَّابة، وكانت في حوالي عمري، أو ربما كانت تكبرني بعامين أو ثلاثة. وقد أوتيت عينين جريئتين أخذتا تلتقيان بعينَيّ أحيانًا، فألهمني هذا برغبة في التعرّف بها، ولكني وجدت خلال الشهرين اللذين قضتهما في النزل بعد وصولي - وكانت قد مكثت ثلاثة أشهر قبلهما - أن من المستحيل إطلاقًا أن أتحدَّث إليها، فقد كانت حارسة سجننا العجوز مأمورة بأن تشتد في رعايتها، كما كانت تحت رقابة دقيقة من المبشر الديني الذي كان يبذل مزيدًا من الحماس والجهد لتحويلها عن عقيدتها. ولابد أنها كانت مفرطة الغباء، وإن لم تكن تبدو كذلك، إذ أن تلقين العقيدة لم يكن يستغرق قط مثل هذا الوقت الطويل، فقد كان رجل الدين يجدها دوامًا غير متأهِّبة لإعلان خروجها عن عقيدتها السابقة. على أنها ما لبثت أن ملّت عزلتها عن العالم، فأعلنت عن رغبتها في ترك النزل، سواء صارت مسيحية أو لم تصر. واضطرّوا إلى أن يكتفوا باعلان انضوائها للكثلكة - دون أن تعى تعاليمها - خشية أن يتولاها العناد فترفض!

وعقدت الجماعة الصغيرة اجتماعًا لتكريم الداخلة الجديدة في حظيرة الدين. وأُلقي علينا خطاب قصير، وجّه إليَّ فيه الحض على أن أستجيب لفضل الله الذي أتيح لي، بينما دُعى الآخرون إلى أن يصلوا من أجلي، وأن يشجعوني بأن يكونوا قدوة لى. وعادت عذارانا - بعد ذلك - إلى معزلهن، وانفسح أمامي الوقت كى أفكِّر مذهولًا في موقفى على ضوء هوى قلبي. ثم اجتمعنا في الصباح التالي مرة أخرى لنتلقى الدرس، وإذ ذاك بدأت ـ للمرة الأولى - أفكِّر جديًا في الخطوة التي كنت مزمعًا اتخاذها، وفي الظروف التي قادتني إلى ذلك!

ولقد قلت - ولا أزال أقول، ولعلني سأظلّ أردّد وأنا أزداد كل يوم اقتناعًا - بأنه إذا كان ثمة طفل قد تلقَّى تربية معقولة سليمة، فهذا الطفل هو أنا! فقد كنت أنتمى إلى أسرة امتازت بأخلاقها عن عامة الناس، فما تعلّمت من أقاربي سوى دروس الحكمة، وكنت دائمًا أرى أمام عيني أمثلة مشرفة. فلقد كان أبى - برغم ولعه باللهو - رجلًا شديد الاستقامة، ليس هذا فحسب، بل أنه كان أيضًا على قدر كبير من الشعور الديني. كان رجلًا ذا شهامة في شئون

الدنيـا، ومسيحيًا في قرارة فؤاده، وقد بث في قلبي منذ الصغر ما كان يخالجـه من أحاسيس. وكذلك أفدت من عماتي الثلاث، اللائي كن جميعًا عاقلات فاضلات، فقد كانت الكبريـان منهن تقيتين، أما الصغرى - وكانت فتاة فياضة الحسن والذكاء والذوق - فلعلها كانت أكثر منهما تقوى، وإن لم تكن تبـدى تقواها إلا لمامًا. ومن حضانة هذه الأسرة، انتقلت إلى السيِّد لامبرسييه الذي كان واعظًا ومن رجال الدين، ومع ذلك فإنه كان مؤمنًا في قرارة قلبه ويكاد يمارس دائمًا كل ما يعظ به! ولقد عمل وأخته - بالرفق والتعليم الحكيم المتئد - على تنمية ما وجدا في فؤادي من مبادىء التقوى. ولقد استخدم هذان الشخصان الكريمان في سبيل غايتهما هـذه وسائل صادقة، حكيمة، معقولة، دون أن يملّا الوعظ والتعليم. وكنت دائمًا أتأثَّر بهذا الجهد منهما، وأتخذ قرارات طيبـة، نادرًا ما كنت أغفل تنفيذها عندما أذكرها. أما في حالة عمتى برنار، فإن تقواها كانت منفرة لي بعض الشيء، لأنها كانت تتخذ منها حرفـة وصنعة. على أننى نادرًا ما فكَّرت فيها أثناء مدة تدريبي الحرفي دون أن أغير هذا الرأي.. كذلك لم أتصل قط بأي شخص في باكورة العمر يمكن أن يفسدني، ومع أننى غدوت شريدًا، إلا أنني لم أكن قط منحلًا!

وكنت، من جراء هذا، أعرف من الدين كل ما يمكن لطفل في سني أن يعرفه. بل إنني كنت أعرف أكثر من ذلك - إذ لا جدوى من أن أكتم خواطرى! - فإن طفولتي لم تكن شبيهة بطفولتي أندادي، بل إننى كنت دائمًا أشعر وأفكِّر كما يشعر الرجل ويفكِّر! وما دخلت زمرة الأفراد العاديين الطبيعيين إلا عندما كبرت، ولكني لم أكن في طفولتي عاديًّا! ولسوف يضحك القارىء إذ يجدنى أصف نفسى -متواضعًا - كشخص ممتاز. فليكن! ولكن ليتصوَّر - إذا ما فرغ من الضحك - طفلًا في السادسة من عمره بلغ به الافتتان بالقصص الخيالية والاستساغة لها والتأثّر بها، درجة تجعله يذرف الدمع سخينًا عليها!.. إذا استطاع القارىء أن يتصوَّر هـذا، فسأشعر بأن غروري كان سخفًا، وسأعترف بأنني مخطيء! وإذا كنت أقول إننا جديرون بألّا نحدّث الأطفال عن الدين - إذا شئنا لهم أن يعتنقوا أي دين - بل إذا كنت أذهب إلى القول بأنهم غير قادرين على معرفة الله، ولو وفقًا لآرائنا فيـه، فإنما أنا قد خرجت بهذا الاعتقاد من مشاهدتي، وليس من خبرتي الخاصـة، إذ أنني أدرك أن ليس بين النتائج التي تستمد من خبرتي ما يصلح لغيرى من الأطفال. وإلا فاصنعوا منهم جان جاك روسـو كذلك الذي كنتـه في السادسة عمري، وتحدَّثوا إليهم عن الله إذا ما بلغوا السابعة، وإذ ذاك أطمئنكم إلى أنكم لن تتعرَّضوا لأية مجازفة!

وأعتقد أن من المسلَّم به أن التدين لدى الطفل - بل ولدى الرجل -يعني اتباع الدين الذي وُلد عليه. ولكن هذا الإيمان قد يتضاءل أحيانًا، ونادرًا ما يقوى.. فالإيمان الأعمى من ثمار التربية. وإلى جانب هذا المبدأ العام الذي ربطني بعقيدة آبائى الدينية، فإننى أوتيت ذلك النفور الذي امتازت به قريتنا إزاء الكاثوليكية، والذي كان يصوّرها على أنها وثنية رهيبة، ويلطخ قساوستها بأشدّ الألوان قتامة! ولقد بلغ من شدَّة هذا الشعور في نفسي، أننى - في البداية - لم أشهد قط جوف أية كنيسة، ولا قابلت قسًّا في زى الكهنوت، ولا أنصت إطلاقًا إلى جرس جنائزي، إلا وسرت في جسدي قشعريرة خـوف وفـزع، لم تلبث أن زايلتني في المدن، ولكنهـا كانت كثيرًا ما تعاودني في أبرشيات26 الريف، لأنها أكثر شبهًا بتلك التي واتانى فيها هذا الشعور في البداية. ومن الصحيح أن هـذا الأثر يتناقض - بشكل بارز - مع ذكريات العطف الذي كان قساوسة ضواحي جنيف مولعين باسباغه على أطفال المدينة. وبينما كان الجرس الذي يُعلن الراحة الكبرى - الموت - يفزعني، كان جرس القداس وصلوات الغروب تذكـرني بالفطور، واللقاء حول المائدة، والزبد الطازجة، والفاكهة، والغذاء المخلوط باللبن!.. ولا يزال عشـاء السيِّد بونفير الشهي يُحدث في نفسي أثرًا عظيمًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أننى أقصيت كل تلك الخـواطر من ذهنى، وأقبلت - وأنا أنظر إلى البابوية من ناحية

علاقتها بالتسلية وطيب الحياة فقط - على ترويض نفسى على فكرة العيش في غمرة الكثلكة، بيد أن فكرة الانضواء نهائيًا تحت لواء كنيسة روما كرجل من رجال الدين لم تخطر ببالي إلا لحظة، وكاحتمال للمستقبل البعيد. أما في الفترة التي أنا بصددها، فلم يعـد بوسعي أن أغرّر بنفسي، بل تبينت في جزع نوع القبول الذي قطعته على نفسي، وما يترتب عليه من نتائج لا محيد عنها. ولم يكن لرهبان المستقبل المبتدئين، الذين كانوا حـولى، حساب في تعزيز شجاعتي، ولا كان في طوقي أن أخفى عن نفسي أن العمل المقدس الذي اعتزمت الاضطلاع به كان في الحقيقة نوعًا من السرقة! ذلك لأنني شعرت، برغم صغر سنى إذ ذاك، بأنه أيًا كان الدين الحق بين العقائد، فإنني كنت مقدمًا على بيع عقيدتي.. وأنني وإن كنت قد اخترت عقيدة طيبة، إلا أنني كنت - في قرارة فؤادي ـ أكذب على الروح القدس وأستحق ازدراء البشر!.. ولقد كنت أزداد سخطًا على نفسي كلما ازددت تفكيرًا في ذلك، وكنت أزفر حسرة على المصير الذي ساقني إلى هذه الطريق، وكأنما لم يكن المصير من صنعى أنا! وكانت تمر بي لحظات تشتدّ فيها هذه الخواطر، إلى الدرجة التي كانت خليقة بأن تجعلني أفرّ بكل تأكيد، لو أننى كنت قد ألفيت الباب مفتوحًا لحظة! ولكن هذا كان مستحيلًا، كما أن عزمي لم يكن بالقوة الكافية. فكم من رغبات خفية صارعتها لئلا تتغلّب عليّ.. ثم أن تصميمي الثابت على عدم العودة إلى جنيف، والاستحياء، وصعوبة اجتياز الجبال ثانية، والحيرة التي انتابتني إذ وجدت نفسي نائيًا عن بلدى، بلا أصدقاء ولا موارد.. كل هـذه المشاعر اجتمعت على أن تجعلني أرى في وخزات ضميرى ندمًا جـد متأخّر. لقد كنت أتعمَّد أن ألوم نفسي على ما فعلت، لكي أجد العذر في إتيـان ما أوشك أن أفعله! وبينما كنت أضخم أخطاء الماضي، رحت أعتبر أخطاء المستقبل نتائج محتومة لها.. فبدلًا من أن أقول لنفسي « إنك لم تأتِ الفعل بعد، وفي وسعك أن تظلّ بريئًا، إذا شئت »، رحت أقول: « اندم على الجرم الذي أدانتك نفسك به، وفرضت على نفسك ضرورة تنفيذه »!.

أية قوة ذهنية خارقة كان لابد منها، في مثل سنى تلك، لأذكر كل شيء وعدت به أو رجوته إذ ذاك، من أجل تحطيم الأغلال التي فرضتها على نفسي، ولكي أعلن في جرأة أننى كنت راغبًا، مهما يبلغ ما أتكبده، في أن أظلّ معتنقًا دين آبائى!.. مثل هذه القوة لم تكن طبيعية ميسورة لامرىء في سنى، وما كان من المحتمل تمامًا أن تنجح، إذ أن الأمور كانت قد تطوَّرت إلى مدى لم يعـد معـه إخفاق هـذه القوة أمرًا يدعو إلى الخجل.. وكانت تزداد تطوّرًا كلما ازددت مقاومة، حتى عزَّ عليَّ أن أقرّها!

وكانت السفسطة التي قضت عليَّ هي ذلك المنطق الفلسفي المألوف لكثيرين ممن يشكون الحاجة إلى القوة بعد أن يكون أوان الانتفاع بهذه القوة قد فات، فالفضائل لا تغدو عسيرة المنال إلا بفضل أخطائنا، ولو أننا استطعنا أن نتمسك دائمًا بالحكمة والروية، لندرت حاجتنا إلى الجري وراء الفضائل.

ولكن الميول المنحرفة التي يسهل قهرها تتعجّل انحدارنا لأننا لا نقاومها. ونحن ننساق لغوايات طفيفـة، ازدراءً منـا لخطرها، كما أننا نقع - دون أن نفطن - في مآزق خطيرة كان من اليسير علينا أن نتوقاها، ولكنا - متى وقعنا فيها - لا نستطيع أن ننتزع أنفسنا منها دون جهد مستبسل يضنينا.. وفي النهاية نهوى إلى الدرك الأسفل، ونحن نلوم الله، ويسأله كل منا في عتاب: « لماذا خلقتني ضعيفًا بهذا الشكل؟ ».. ولكنا - على الرغم من أنفسنا - نسمع ضمائرنا تجيب بلسانه: « إنما خلقتك أضعف من أن تقوى على إنقاذ نفسك من الهوة، لأننى خلقتك أقوى من أن تسقط فيها »!

والواقع أنني لم أكن قد عقدت العزم تمامًا على أن أصبح كاثوليكيًا، ولكني استغللت الفرصة، وأنا أرى الوقت أمامي متسعًا، لكي أروّض نفسي على هذه الفكرة تدريجيًا. وكنت أتمنى في الوقت ذاته أن تحدث ظـروف غير منتظرة تنزعني من هذا المأزق. ولكي أكسب

الوقت، وقرّرت أن أتخذ خير ما كان في طوقى من أساليب الدفاع، ولكن غرورى سرعان ما أعفاني من التفكير في قراري هذا، فما أن تبيّنت أننى كنت أحيانًا أحير أولئك الذين كانوا راغبين في أن يعلّموني، حتى وجدت في هذا ما يكفي لأن أسعى إلى أن أضاعف من حيرتهم حتى أعجزهم جميعًا! بل أنني أخذت أُبدي شوقًا أهوج إلى تحقيق هذه الغاية، وبينما كانوا يحاولون التأثير عليّ، رحت بدوري أحاول التأثير عليهم! وكنت أوقن حقًا بأن الأمر لن يكبدني أكثر من أن أوفق إلى إقناعهم، فإذا هم ينقلبون إلى بروتستانتيين!.. وكان من جراء ذلك، أنهم لم يجدوا فيَّ من الانسياق لهم قدر ما كانوا يتوقّعون، سواءً من حيث معرفتى أو من حيث استعدادي ورغبتى. والبروتستانت - عـادةً - أفضل تعليمًا من الكاثوليك. وهو أمر طبيعي، لأن عقيدة الأوَّلين تدعو إلى النقاش، في حين أن عقيدة الآخرين تتطلّب الانصياع. فالكاثوليكي مضطرّ إلى أن يعتنق الرأي الذي يقدَّم إليـه، أما البروتستانتي فلا بد من أن يتعلَّم كيف يقرِّر بنفسه الرأي الذي يعتنقه!.. وقد كان هذا أمرًا معروفًا، ولكن أحدًا لم يكن يتوقّع أن يثير فتى في مثل سنى وموقفى مصاعب لأفراد ذوي خبرة وتجارب. فضلًا عن أنني لم أكن قد تلقيت أوّل « مناولة »27، ولا لُقنت التعاليم الخاصة بها. وكان هذا أمرًا معروفًا كذلك، ولكن الشيء الذي لم يعرفوه هو أنني تعلّمت على يديّ السيِّد لامبرسيبه وأختـه، وأننى - فضلًا عن ذلك - كنت أختزن ثروة لا تروق لأولئك السادة، من المعرفـة بتـاريخ الكنيسة والإمبراطورية. فقد حفظت هذا التاريخ عن ظهر قلب أثنـاء مقامي مع أبي، ثم نسيته تقريبًا بعد ذلك، ولكنه أخذ يعود إلى ذاكرتي كلما اشتدّ وطيس الجدال!

ورأس الاجتماع الأوَّل - الذي ضمّنا جميعًا - قس كبير السن، صغير الجسم، علي شيء من الوقار والمهابة. وكان هذا الاجتماع بالنسبة لزملائي درسًا في الدين، وليس مجالًا للمناقشة. ومن ثم فقد شغل القس بتعليمهم لا بمحـو اعتراضاتهم. على أن الوضع تغيَّر في حالة واحدة: فعندما حان دورى رحت أستوقف القس عند كل نقطة، ولم أعفه من أية عقبة كان بوسعي أن ألقيها في طريقه، فأطال هذا من وقت الاجتماع وجعله مملًّا للحاضرين. وأسهب قسى الشيخ في الكلام، وبدأ انفعاله يزداد، وأخـذ يشرد عن موضوعه، ويخرج من المأزق بإدعاء أنه لم يكن يجيد الفرنسية! فلما كان اليوم التالي، رؤى أن اعتراضاتي الرعناء قد تؤذى رفاقى، فوضعت في حجرة أخرى، مع قس آخر كان أصغر سنًّا من قس الأمس، وأكثر ذلاقة لسان - أعنى أنه كان يجيد التلاعب بالعبارات - وأعظم رضىً عن نفسه مما يجوز لأى مدرس!.. على أنني لم أدع نفسي تنصاع لمسلكه المتسلِّط، وما أن اطمأننت إلى أن بوسـعى - برغم كل شيء - أن أحتفظ بموقفى، حتى شرعت أجيبه في ثقة وطيدة، وأضغط عليه من كل جانب بغاية جهدي!.. وخُيّل إليه أن بوسعه أن يحيرني بذكر القديس أوغسطين، والقديس جريجوري، وغيرهما من الآباء الروحيين، ولكنه لدهشته التي فاقت كل تصوُّر، وجد أننى أجيد الجدال بشأن الآباء جميعًا بإسهاب لا يقل عن إسهابه، لا لأنني كنت قد قرأت عنهم من قبل - كما قرأ هو - وإنمـا لانني كنت أتذكّر فقـرات عديدة من كتـاب ديني عن مجاهدة النفس، فما أن كان القس يذكر فقرة منـه دون أن يتوقّف لمناقشتها، حتى كنت أجيبه بفقرة أخرى من أقوال الأب نفسه الذي نقل عنه، مما سبَّب له ارتباكًا غير قليل، في كثير من الأحيـان! ومع ذلك فقد انتهى الأمر إلى فوزه، وذلك لسببين: أوَّلهما أنه كان الأقوى جانبًا. ولما كنت أشعر بأنني تحت رحمته، فقد حكمت عن صواب - برغم صغر سنى - بأنه ليس من الصواب أن أحرجه، إذ أن هذا قد يدفعه إلى التطرّف، سيما بعد أن رأيت بجلاء أن القس الشيخ الضئيل الجسم لم يعد شديد العطف عليّ أو على تعليمي!.. والسبب الثاني هو أن القس الشاب كان متعلِّمًا، في حين أنني لم أكن متعلِّمًا، الأمر الذي جعله يستخدم في نقاشه أسلوبًا عزَّ عليّ أن أجاريه فيه، فكان إذا أحس بنفسه محرجًا تحت ضغط اعتراض غير ظاهر، يرجيء الاجتماع إلى اليوم التالي، متعلِّلًا بأنني كنت أشرد عن الموضوع. وكان في بعض الأحيان يأبى أن يصدّق ما كنت أذكره من أقوال مقتبسة، زاعمًا أنها مصطنعة زائفة، ثم يتحداني أن أرشـده إلى مواقع هـذه المقتبسات من

الكتب، وهو مطمئن إلى أنه لن يتعرَّض لكثير من الحرج، لأننى برغم علمي المستعار لم أكن ذا خبرة كافيـة للبحث في الكتب، ولم أكن من الدراية باللاتينية إلى الدرجة التي تمكنني من البحث عن فقرة في مجلـد كبير، مهما أكن متأكِّدًا من وجودها فيه!.. وكنت من ناحيتي أذهب إلى الشك في أن القس الشاب كان يعمد إلى عين ما اتهم به قساوستنا من خداع وعدم أمانة، وإلى افتراء الفقرات ليوسع لنفسه مخرجًا من مأزق أكون قد أوقعته فيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما كانت هذه السجالات العارضة حول التوافه مستمرة، والوقت يمضى في نقاش، وتمتمة وصلوات، دون ما عمل، تعرَّضت لمغامرة صغيرة مستهجنة، أوشكت تمامًا أن تسفر عن نتائج سيئة بالنسبة لي! ذلك أنه ما من نفس خبيثة، ولا قلب همجى، إلا ولصاحبهما ميل ما. وقد ساورت أحد الشقيين اللذين كانا يزعمان أنهما مراكشيان عاطفة نحـوى، فكان مشغوفًا بمتابعتي، لا يفتـأ يكلمني بلكنته الغريبة، ويؤدّى لى بعض الخدمات البسيطة، ويمنحنى في بعض الأحيان شطرًا من غذائه، بل وكثيرًا ما كان يقبلني في حـرارة كانت تغيظني! وعلى الرغم من الجزع الطبيعي الذي كان يتملكني من وجهه الأسمر المشوّه بندبة طويلة، ومن ملامحه التي كانت تبدو أقرب إلى الشراسة منها إلى اللطف، فإنني كنت أحتمل قبلاته، قائلًا لنفسي: « لقـد تملّكت المسكين صداقة طاغية نحوى، فمن الخطأ أن أصدّه! ».. ولكنه أخذ - بالتدريج - يستبيح لنفسه حرية متزايدة معى، وكان أحيانًا يعرض علىَّ اقتراحات غريبة، جعلتني أظنّه مجنونًا.. وأراد في إحدى الليالي أن يبيت معي، فرفضت قائلًا إن سريرى جد صغير، وإذا به يلح على أن أصحبه إلى سريره، ولكني رفضت من جديد، إذ كان الوغد جد قذر، تفوح منه رائحة الطباق الذي كان يمضغه، بحيث كانت نفسى تغثى منه!

وفي ساعة مبكرة من الصباح التالي كنا وحيدين في قاعة الاجتماع، فشرع يعانقني ويقبلني في حركات عنيفة لم تلبث أن أثارت خوفي. وأخيرًا، شاء أن يستبيح لنفسه أبشع تحرّر معى، وأمسك بيدي محاولًا أن يحملني على أن أستبيح نفس التحرّر معه! فأرسلت صرخة عالية، وقفزت إلى الخلف مفلتًا منه. وبدون أن أبدى غضبًا أو حنقًا - إذ لم تكن لدىَّ أتفه فكرة عما كان يسعى إليه - أعربت له عن دهشتى وازدرائى بشكل جعله يتركني حيث كنت. ولكني رأيت - بينمـا كان ماضيًا في إتمام الحركات التي كان قد بدأها - شيئًا أبيض لزجًا ينبثق منه مندفعًا في اتجاه المدفأة، ثم سقط على الأرض، فأثار مظهره معدتي، واندفعت إلى الشرفة وأنا أشدّ تأثّرًا، وأشدّ انزعاجًا، وأشدّ خوفًا مما كنت في أي يوم في حياتي، حتى لقد شعرت أننى أوشك أن أقع مريضًا!

ولم يكن بوسعي أن أفقه ما أصـاب التعس، بل اعتقدت أنه أصيب بنوبة من الصرع، أو بنوع من الجنون أقسى من الصرع! والحق أنني لا أعرف ما هو أبشع لدى أي شخص هاديء الأعصاب، من رؤية مثل هذا المسلك المشين القذر، ولا مثل تلك الملامح التي ألهبتها الشهوة البهيمية!.. وما رأيت قط رجلًا آخر في مثل هذه الحال، ولكن إذا كنا نتعرَّض لهذا المشهد ونحن مع النساء، فلابد أن نظراتهن تخضع لسحر خاص، يحميهن من أن يشمأززن منا!

وهرعت لأنبيء كل امرىء بما جـرى لى، ولكن المشرفة العجوز أمرتني بأن أعقل لساني! على أنني رأيت أن قصتي قد أثَّرت عليها بدرجة كبيرة، وسمعتها تتمتم: « يا له من كلب لعين!.. وحش كاسر! ».. ولما كنت لم أدرك الحكمة في أن أمسك لساني، فقد مضيت في إخبار كل شخص بما حدث، برغم أمرها، فإذا بأحد المشرفين يفد في ساعة مبكرة من اليوم التالي فيوجِّه إلىَّ تقريعًا مقذعًا، ويتهمني بالإساءة إلى شرف دار دينية، وبإثارة ضجة حـول حادث تافه!.. ونسج محاضرته بحيث شرح لى أشياء كثيرة كنت أجهلها، ولكنه لم

يكن يصدّق أنه كان يعرّفني بها لأوّل مرة، إذ أنه كان مقتنعًا بأنني ما دافعت عن نفسي إلا لأننى كنت غير راغب، وليس لأنني لم أكن أفقه ما ابتغاه المراكشي منى!.. ثم أنبأني - برصانة - بأن ذلك العمل محرّم، وبأنه جد بعيد عن الأخلاق، ولكن اشتهاءه ليس إهانة للشخص الذي يكون هدفًا له، ومن ثم لم يكن ثمة داع لأن أغضب من شخص اعتبرنى جديرًا بالمحبة! وأنبأني بوضوح أنه - هو نفسه - قد تقبّل في صغره هذا الشرف حين عرض له، وأنه عندما فوجيء به وهو في حال لا تمكنه من المقاومة، لم يجد الأمر مؤلمًا في حد ذاته!.. وكان من عدم الحياء بحيث أنه راح يستعمل ألفاظًا صريحة، وأخذ - وهو يتصوَّر أن مقاومتي كانت ناشئة عن خوف من الألم - يطمئنني إلى أنه ليس ثمة داع للخوف، وأنه ما كان لى أن أنزعج دون ما مبرِّر للانزعاج!

ورحت أصغى إلى ذلك التعس في ذهول ضاعف منه أنه لم يكن يروى أمرًا يخصه، وإنما بدا أنه كان ينصحني بما فيـه الخير لي. كان الموضوع يتراءى له بسيطًا إلى الدرجة أنه لم يحاول أن يتستر أو يتكتم، بل أن حديثًا انساب إلى أذنيّ طرف ثالث تمثل في رجل من رجال الكنيسة، لاح أنه لم ينزعج هو الآخر من الأمر! وأثّرت عليّ هذه الروح المتساهلة التي أبدت الأمر عاديًا، إلى درجة أننى اقتنعت بأنه - ولابد - معترف بها في العالم، وإن لم تتح لي فرصة الإلمام بها قبل ذلك الحين!.. وكان من جراء ذلك أننى رحت أصغى بدون غضب، ولكن اصغائي لم يخل من الاشمئزاز. ولقد ظلّت صورة ما حدث لي - وما رأيتـه بوجه خاص - منطبعة في ذاكرتي إلى درجة أننى لا أزال أشعر بالتقزز كلما تمثلتها!.. وبدون أن أفطن، امتـد نفوري من الشيء إلى الشخص الذي كان يبرّره، إذ لم يكن بوسعي أن أتمالك نفسي إلى الدرجة التي تحول بينه وبين مشاهدة الأثر السيء لدرسه في نفسي، ومن ثَم رماني بنظرة كانت بعيدة عن أي ود! ومنذ ذلك الوقت لم يدخر وسعًا في أن يجعل إقامتي في النزل مكروهة. ولقد وُفق في ذلك إلى درجة أنني لم أر سوى وسيلة واحدة للفرار، فبادرت إلى اتخاذهـا، بنفس التحمّس الذي كنت أتذرع به حتى ذاك الحين لتفاديها!

ولقد أمدتني هذه المغامرة بمناعة في المستقبل ضد محاولات « فرسان الكم »، فكانت رؤية أولئك المنتمين إلى مذهبهم تذكّرني بمنظر وحركات المراكشي الرهيب، فتوحي إليّ دائمًا بجزع يعز عليّ إخفاؤه! ومن ناحية أخرى، يبدو لي أن النساء ظفرن بكسب نسبى من جراء هذه المغامرة، إذ تراءى لي أننى مدين لهن بالعواطف اللطيفة وبالمجاملة كتعويض لهن عمّا يلحقه بهن أبنـاء جنسي من إهانات. وكانت أبشع مومس تصبح في نظري أهلًا للعبادة، إذا ما تذكّرت ذلك الإفريقي الزائف!.. أما هو، فلم أدر ما قيل له، ولم يظهر لي أن أحدًا ـ فيما عدا السيِّدة لورينزا - بدّل من شعوره السابق نحوه! على أنه لم يعد يلاحقني أو يتحدَّث إليّ. وبعد ثمانية أيام، تمَّ تعميده في جلال عظيم، وسربل بالبياض من رأسه إلى قدمه، رمزًا لطهر روحه التائبة! وفي اليوم التالي غادر النزل، فلم أره البتة منذ ذلك الحين. ثم حان دورى بعد شهر، فقد كان لابد من هذه المدة لأتيح لمرشدى شرف الفوز بهداية « كافر » صعب المراس، واضطرّرت إلى أن اجتـاز امتحانًا سُئلت فيـه عن جميع التعاليم، حتى يتسنى لهم أن يزدهوا باستعراض علمي الجديد!

أما وقد تعلَّمت أخيرًا - ما فيـه الكفاية - وتمّ إعدادي بالدرجة التي تُرضى أساتذتي، فقد اقتدت في موكب مهيب إلى كنيسة القديس يوحنـا الكبرى، لأعلن خروجي على عقيدتي أمام الملأ، ولأتلقّى شهادات التعميد - وإن كنت لم أعمد فعلًا، إذ كنت معمّدًا منذ مولدى - ولكن مثل هـذه الاحتفالات تنفع في إيهام الناس بأن البروتستانتيين ليسوا من المسيحيين في شيء!.. وارتديت يومذاك معطفًا رمادي اللون، مزدانًا بضفادع بيضاء، كان يُستخدم في مثل هذه المناسبات. وحف بى رجلان - من أمام ومن خلف - يحملان وعاءين من من النحاس، أخذا يضربان عليهما بمفتاحين، فكان كل امرىء يلقى في هذين الوعاءين بما يتصدَّق به، تبعًا لتقواه ولمـدى اهتمامه بالمؤمن الجديد. وقصارى القول أن شيئًا من مظاهر

عظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يُدخر، وذلك لإسباغ آيات الجلال على الحفلة في نظر الناس، وإمعانًا في إذلال نفسي. ولم يكن ينقصني سوى الرداء الأبيض، الذي كان يليق بي، والذي لم يُسمح به لي كما سُمح به للمراكشي، لأنني لم أحظ بأن أكون يهوديًّا قبل انضمامي للكنيسة!

على أن هذا لم يكن كل ما في الاحتفال، إذ اضطررت بعد ذلك إلى أن أذهب إلى ديوان التحقيق، لأتلقَّى قرار توبتى من جريمة الزندقة، ودخولى إلى حظيرة الكنيسة في احتفال كان الملك هنري الرابع ممثـلًا فيه في شخص سفيره! ولم يكن في مسلك قداسة الأب المحقِّق، ولا في مظهره، ما يمحو الرعب الخفي الذي تملكني وأنا ألج الدار. وبعد عدَّة أسئلة عن عقيدتي، ومركزى، وأسرتي، سألني فجأة عما إذا كانت أمى ملعونة؟.. وحملني الذعر على أن أكبت أوَّل مظاهر الاستنكار، واكتفيت بأن أجبت بأنني أجرؤ على أن أرجو ألَّا تكون ملعونة، وأن يكون الله قد أنار بصيرتها في ساعتها الأخيرة. وصمت الراهب، ولكنه كشر عن ابتسامة لم يبد لى أنها من أمارات الرضى في شيء! وعندما انتهى كل شيء، وفي اللحظة التي توقّعت فيها أن يمدوني بالمال الذي يلائم آمالي، إذا بهم يشيعونني إلى خارج الأبواب وفى يدى ما يزيد قليلًا على عشرين فرنكًا بالعملات الصغيرة.. وهي نتيجة الصدقات التي جُمعت لي. وزُودت بالنصح بأن أعيش مسيحيًّا صالحًا، وأن أظلّ صادق الولاء لشرف العقيدة.. ثم تمنوا لي حظًّا حسنًا، وأغلقوا الباب دونى، فلم أرهم بعد ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا تلاشت كل آمالي العظام في لحظة، وكانت النتيجة الوحيدة التي خرجت بها من الخطوة التي اتخذتها، هي الشعور بأنني كنت مرتدًّا عن ديني، وغرًّا مغفلًا، في آنٍ واحد! ومن اليسير تصوُّر أية ثورة مفاجئة أصابت آرائى عندما رأيت نفسى مقذوفًا من حالق أحلام الثراء البرَّاقة إلى البؤس المدقع! وبعد أن كنت - في الصباح - أطيل التفكير في انتقاء القصر الذي أقيم فيه، ألفيتني في المساء مضطرًّا إلى أن أنام على قارعة الطريق!..



ومن اليسير تصور اية ثورة مفاجئة اصابت ارائى عندما رايت نفسى مقذوفا من حالق أحلام الثراء البراقة الى البؤس المدقع ...

وقد يخطر بالبال أنني بدأت أستسلم لشعور من القنوط، زاده قسوة ما انتابني من حسرة رحت معها ألوم نفسي لأن نحسى إنما كان من صنع يدى. ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، إذ كنت قد مكثت سجينًا - لأوَّل مرة في حياتي - أكثر من شهرين، فكان أوَّل ما انتابني هو شعور بالفرح لاسترداد حريتي. ووجدتنى سيِّد نفسى وتصرفاتي من جديد - بعد فترة طويلة من الاستعباد - في مدينة كبيرة، وافرة الموارد، غنية بذوي المكانة الذين لا يمكن أن أخفق في أن أحظى بضيافتهم - حين أصبح معروفًا - لما كان لي من خلال طيبة ومواهب. وإلى جانب ذلك، كان الوقت متسعًا أمامي، وكانت الفرنكات العشرون القابعة في جيبى تلوح لي كما لو كانت كنزًا لا ينضب معينه! كنت أملك أن أنفقها كما أشاء، دون أن أقدم عنها حسابًا لأحد. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أملك فيها مثل هذا المبلغ. ومن ثم فبدلًا من أن تثبط عزيمتي، أو ينساب دمعي، اكتفيت بأن عدلت آمالى، دون أن يفقد قلبي الطاهر شيئًا من جراء هذا التعديل.. فما شعرت قط بمثل ما داخلني إذ ذاك من طمأنينة وثقة، إذ اعتقدت أن حظى بات أمرًا مقرّرًا، ورأيت أن من البديع حقًّا ألّا يكون لأحد - سواى - فضل في ذلك!

وكان أوَّل ما فعلته هو أن سعيت لإرضاء فضولى إلى الطواف بالمدينة، ولو لأستمتع بملاذ الحرية!.. فذهبت لمشاهدة فرسان الحرس، وهناك راقت لى الموسيقى العسكرية إلى درجة بعيدة. وتبعت المواكب، فانتشيت بالموسيقى الكنيسية التي كان يعزفها القساوسة. وسعيت لمشاهدة قصر الملك، فاقتربت منه في رهبة وخشوع، حتى إذا رأيت غيري يلجونه، حذوت حذوهم، فلم يستوقفني أحد! ولعلى كنت مدينًا بهذه الخطوة للفافة التي كنت أحملها تحت إبطي. كيفما يكن الأمر، فإنني بدأت أقيم وزنًا كبيرًا لنفسي عندما ألفيتني في القصر. بل أنني بدأت أتمثَّل نفسي مقيمًا فيه بالفعل. وما لبثت في النهاية أن سئمت الرواح والغدو، وكنت جائعًا، والجو حارًّا، فولجت حانوت لبّان، وابتعت قسطًا من جبن « الجيونكا »28 واللبن الرائب، وشريحتين من الخبز البييمونتي البديع الذي أفضله على ما عداه. وبخمس أو ست قطع من فئة « السو » حظيت بوجبة من أشهى الوجبات التي تناولتها في حياتي!

وكنت مضطرًّا إلى البحث عن مأوى. وكان من السهل أن أعثر على واحد، إذ كنت قد ألممت من اللغة البييمونتية بقدر يمكنني من أن أجعل حديثي مفهومًا. وكنت من الحكمة بحيث راعيت في اختياري ما يناسب مواردى وليس ما يلائم ذوقي. فقد أُنبئت بأن زوجة جندي في شارع « دوبو » تأوى الخدم المتعطلين مقابل « سو » واحد في الليلة. وكان لديها سرير خال، فاستأجرته. وكانت المرأة شابة حديثة العهد بالزواج، وإن كانت قد أنجبت خمسة أطفال أو ستة من قبل!.. ونمنا جميعًا في غرفة واحدة: الأم، والأطفال، والنزلاء.. (وقد ظللنا على هذه الحال طيلة إقامتي عندها!).. وفيما عدا ذلك كانت امرأة طيبة، سريعة السباب كالحوذية، تكشف دائمًا عن ثدييها، وتدع شعرها مشعثًا. على أنها كانت شفوقة القلب، بشوشًا، مالت إلىَّ، بل كانت ذات نفع لي!

وقضيت عدَّة أيام مسلّمًا نفسي لمباهج الاستقلال والفضول وحدها، فجست خلال المدينة وخارجها، متفحصًا كل مكان، متأمّلًا كل ما كان يبدو لي جديدًا أو غريبًا. وهكذا كان الشأن بالنسبة لكل شيء، لدى شاب غادر لفوره معتقله، ولم يسبق له أن رأى عاصمة. وكنت - قبل كل شيء - أتردد بانتظام على القصر، كما كنت حريصًا على أن أحضر القداس الملكي في كل صباح، فقد رأيت أن من البديع أن أكون في كنيسة واحدة مع الأمير. وحاشيته، ولكن شغفي بالموسيقى كان قد بدأ يغدو محسوسًا، وكان أكثر دفعًا لي على الحضور المنتظم من الرواء الملكي الذي ما أن يُرى بانتظام، وبنفس الشكل حتى يفقد فتنته وطرافته.. وكانت لدى ملك سردينيا في ذلك الوقت خير فرقة من المترنمين في أوروبا. وكان « سومى » و « ديجارادنه » و « بيسوتزى » هم بالتتابع نجومها اللامعين. وكان

هذا أكثر مما يلزم لاجتذاب شاب يستهويه صوت أسوأ آلة موسيقية، إذا كان العزف عليها سليمًا. وبجانب ذلك، كان الاعجاب الذي أحسست به نحو العظمة والفخفخة ـ اللتين بهرتا بصرى ـ إعجابًا خاليًا من التعقُّل، ولا يستحق أن يغبطني أحد عليه. وكان الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامى في كل رواء البلاط الملكي هو أن أرى ما إذا كانت ثمة أميرة شابة، جديرة بتكريمي، وبأن أتصل بها في مغامرة غرامية؟!.. وكنت قد أوشكت أن أبدأ مغامرة من هذا النوع، في وسط أقل رواء، ولكنها مغامرة كنت خليقًا بأن أجد فيها ـ لو اننى مضيت قدمًا - متعًا تفوق متع الغرام بالأميرات ألف مرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومع أنني كنت أعيش بأقصى درجات التقتير، إلا أن كيسى بدأ ينضب رويدًا. ولم يكن اقتصادي في النفقات نتيجة حكمة بقدر ما كان نتيجة بساطة في الذوق لم يبدلها ـ إلى يومنا هذا - تعوّدي على أن أجلس إلى موائد علية القوم. فما عرفت - بل ولا أزال بعيدًا عن أن أعرف - ما هو أبهج من الطعام الريفي. وفى وسع أي امرىء أن يطمئن إلى إكرامه لى إذا هو قدَّم لي بعض منتجات اللبن، والبيض، والخضر، والجبن، والخبز الأسمر، وبعض النبيذ المقبول.. إذ أن شهيتي تتكفَّل بما يبقى بعد ذلك. هذا في الوقت الذي لا أرتاح فيه إلى وجود كبير للسقاة وعدد من الخدم حولى، يحيطونني بتكلّفهم المزعج! وقد كنت في ذلك العهد أحظى بوجبات تتكلَّف ستة أو سبعة « سو »، وتفضل ما اعتدت بعد أن أحظى به لقاء ستة أو سبعة فرنكات!.. كنت معتدلًا، لأنني لم أتعَّرض لاغراء يبعدني عن الاعتدال، ومع ذلك فإنني أخطىء حين أقول إننى كنت معتدلًا، إذ أننى كنت أحظى في الوقت ذاته بكل الملاذ الحسية الممكنة. كانت الكمثرى، والجيونكا، وشرائح الخبز، وبضعة أقداح من نبيذ « مونفيرا » الكثيف الذي يستطيع المرء أن يقطعه إلى شرائح، تجعلني أسعد أكول! ومع ذلك، فقد دنت نهاية فرنكاتي العشرين، وكنت أزداد شعورًا بهذا يومًا بعد يوم، ومع ما كانت تتسم به سنى من خلو البال، فإن قلقى من المستقبل سرعان ما أصبح جزءًا حقيقيًا! ولم يبق لي من كل القصور التي كنت أشيدها في الهواء سوى ضرورة البحث عن وسيلة العيش، وهذا ما لم يكن سهلًا ميسورًا. وفكرت في حرفتي القديمة، ولكنني لم أكن أعرف منها ما يكفيني لأن يغرى أي معلم على أن يستخدمني، فضلًا عن أنه لم يكن ثمة كثير من المعلمين في (تورين). وأخذت أتنقل من حانوت إلى آخر، عارضًا خدماتي لحفر الشعارات والرموز على الفضة، راجيًا أن أغرى بعض العملاء برخص أجرى - ريثما يتاح لي عمل أفضل - بل أنني تركت لهم تقدير الأجر. ومع ذلك فإن هذا المشروع لم يسفر عن نجاح يُذكر، بل كنت أُطرد عادة، فكان العمل الذي أظفر به من القلة بحيث أننى نادرًا ما كسبت ما يكفي لثمن ذلك وجبتين أو ثلاث! على أننى لمحت ذات يوم، وأنا أسير في (كونترادا نوفا) في ساعة مبكرة، امرأة شابة بدت لى - خلال نافذة أحد الحوانيت - موفورة اللطف، جذابة المنظر إلى درجة أنني - برغم حيائي من النساء - دخلت الحانوت دون تردد، ووضعت مواهبي المتواضعة رهن إشارتها! ولم تصدّني في جناء، بل أجلستنى وسألتني أن أروى لها سيرتي القصيرة، فلما فعلت أشفقت عليَّ، وسألتني أن لا أبتئس، لأن المسيحيين الصالحين ما كانو ليتخلّوا عنى بالتأكيد. وبعد أن أرسلت إلى صائغ يجاورها في طلب الأدوات التي أنبأتها بأنها تعوزني، ذهبت إلى المطبخ فأعدَّت لي بيديها فطورًا.

ولاح لي أن البداية تبشّر بالخير، فلم تكذب النتيجة حدسي، إذ بدا على المرأة أنها رضيت عن العمل الذي أنجزته، وكانت أكثر رضاء عن ثرثرتي المتواضعة، عندما اطمأننت قليلًا إليها، فقد كانت ذكية، أنيقة الملبس. وعلى الرغم من مسلكها الرحيم المتلطف، فإن مظهرها أوحى لى بالهيبة والوقار. على أن كرم حفاوتها، وصوتها الشفوق، وأخلاقها اللطيفة الدمثة، لم تلبث أن سرت عني كل تحفّظ، فتبيّنت مدى توفيقى، مما ضاعف من هذا التوفيق!.. وكانت المرأة إيطالية، ذات إغراء ودلال إلى حد ما، لكنها كانت في الوقت

نفسه ذات حياء. وكنت من ناحيتي خجولًا، حتى أنه كان من العسير أن يؤدّي الموقف إلى أي شيء أبعد مما جرى بيننا! كما أن الوقت لم يتح لنا كى نمضي في المغامرة. وإني لأذكر في أقصى نشوة تلك اللحظات الوجيزة التي قضيتها إلى جوارها، وبوسعي أن أقول إننى - في بدايتها - تذوّقت أحلى وأنقى مباهج الحب!

وكانت تلك الإيطالية الحسناء سمراء البشرة، بالغة الفتنة، يزيد من تأثير حسنها ما كان يحمله وجهها الجميل من مخايل طيبة النفس. وكان اسمها مدام « بازيل »، تركها زوجها - الذي كان أكبر منها سنًا، وكان غيورًا بعض الشيء - في رعاية كاتب[29] بدا أبغض من أن يكون ذا غوايـة أو إغراء، ومع ذلك فإنه لم يكن خلوًا من خـلال مميـزة كان يبديهـا مقترنة بطبعه السيىء الذي آثرنى به، برغم أننى كنت مولعًا بأن أسمع عزفه على القيثارة التي كان يجيـد استعمالها.. وكان « إله الدمامة » الجديد يزمجر كلما رآني ألج المكان، ويعاملني في ازدراء أخذت مخدومته تردّه إليه كاملًا! بل لقد بدا لي أنها كانت تستعذب التلطف في وجـوده، لكي تثير غيظه، وكان هذا النوع من الانتقام - برغم مجافاته لذوقى - خليقًا بأن يكون أكثر استساغة، لو أنه كان في خلوة، ولكنها لم تدفع الأمور قط إلى هذا الحد، أو - بالاحرى - دفعتها، ولكن بشكل آخر! وسواء كانت قد ألفتنى جد صغير، أو أنها لم تكن تعرف كيف تقدم على المراودة، أو كانت تعتزم حقًا أن تظل عاقلة، فإنها أخذت تبـدى في ذلك الحين نوعًـا من التحفُّظ لم يكن يصدّني عنها، ولكنه كان يجعلني أهابها دون أن أدرى السر في ذلك! ومع أننى لم أحس نحوها بذلك الاحترام الحقيقي، العاطفي، الذي أحسست به نحو السيِّدة دى فاران، إلا أنني كنت أشدّ خجلًا وأقل ألفة مع مدام بازيل منى مع السيِّدة المذكورة. كنت أجدني محرجًـا، مرتبكًا، لا أجرؤ على أن أتطلَّع إليها، أو أتنفس بالقرب منها، ومع ذلك فقد كنت أشد كرهًا للبعد عنها منى للموت. كنت ألتهم بعين نهمة كل ما أستطيع أن أتطلَّع إليـه فيها دون أن يلمحنى أحد: الزهور التي تزين ثوبها، وأطراف قدميها الرشيقتين، ولمحة من ذراع بيضاء، ملتفة، كنت أراها بين قفازها وكمها.. وجزءًا من صدرها كان يتجلى أحيانًا بين طرف ثوبها والمنديل المحيط بعنقها. وكان كل شيء من هذه يعزز تأثير بقية الأشياء الأخرى!.. وكانت عيناى تضطربان من النظـر إلى ما كنت أراه - بل وما وراء ما كنت أراه - ويضيق صدرى، فتزداد أنفاسي تهدّجًا في كل لحظة، حتى لا أكاد أقوى على التنفس، بل يغدو كل ما أستطيعه هو أن أصعد زفرات متلاحقة غير محسوسة، كانت شديدة الاحراج لي في غمرة السكون الشامل الذي كثيرًا ما كنا نلفى نفسينا فيه!.. على أن مدام بازيل لم تكن - لحسن الحظ - تلاحظ ذلك، على ما كان يبدو لي، لانهماكها في عملها. ومع ذلك فإنني كنت أرى صدر ثوبها يخفق أحيانًا، وكأنها تشفق عليَّ. وكان هذا المنظر الخطر يفقدنى رشدى تمامًا، حتى إذا أوشكت أن أطلق العنان لانفعالاتى، قالت لي - بصوت هاديء - عبارة ما، ترد إليَّ إدراكي في الحال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد رأيتها عدَّة مرات في هذه الحال - ونحن وحيدان - دون ما كلمة أو إشارة أو نظرة تحمل من المعاني أكثر مما ينبغي، أو ما يوحي بأتفه تفاهم بيننا. وكان هذا الجو - على ما فيه من تعذيب لي - جد مستعذب، حتى أنني كنت لا أكاد لسذاجة قلبي أجد سببًا لما كنت أحس به من لوعة! وكان يبدو أن هذه الخلوات القصيرة كانت مستطابة لديها هي الأخرى، فإنها - على أية حال - كانت تتيح الفرص لها بكثرة!.. وإذا تساءلنـا عن النفع الذي كان هذا المسلك يحققه لها، أو لي، فمن المؤكد أنه كان على الأقـل مسلكًا خاليًا من أي ضرر!

إلى أن كان ذات يـوم، سئمت فيـه المرأة الحديث السخيف الذي انطلق فيـه الكاتب الدميم، فصعدت إلى غرفتها. وأسرعت أنا أتم المهمة البسيطة التي كنت أؤديها في الحجرة الخلفية بالحانوت، ثم تبعتهـا. وكان باب حجرتها مواربًا، فدخلت دون أن يراني أحـد. وكانت عاكفة على التطريز بجوار إحدى النوافذ، وظهرها نحو الباب، فلم يكن بوسعها أن

تراني، ولا أن تسمعنى - نظرًا لجلبة العربات في الطريق - وكانت تحرص دائمًا على أناقة ملبسها، لكنها في ذلك اليوم بالذات كانت قد أفتننت في زينة وجهها إلى درجة مغرية! وكان وضعها بديعًا، إذ كان رأسها - في انحناءته البسيطة - يكشف بياض عنقها.. وكان شعرها معقوصًا إلى أعلى في رشاقة، وقد ازدان بالزهـور. وبالاختصار، كان يرين على قوامها بأسره سحر أخذت أطيل تأمله حتى أخرجنى عن تجلدى، فإذا بي أجثو على ركبتَي لدى الباب، وأبسط ذراعى نحوها في حركات ملتاعة، وأنا واثق من أنها لم تكن تسمعنى، ودون أن يخطر ببالي أن من المحتمل أن تراني.. بيد أنه كانت ثمة مرآة على رف المدفأة وشت بي إليها! ولست أدرى أي أثر أحدثتـه نوبة جنـوني في نفسها، فإنها لم تنظر نحوى، ولم تنبس بكلمة وإنما لفتت رأسها لفتة صغيرة، وبحركة بسيطة أشارت بأصابعها إلى الحصيرة التي كانت عند قدميها. وكانت اللحظة تتطلَّب أن أرتجف، أو أصرخ أو أرمى بنفسي حيث أشارت، ولكن من العسير أن يصدِّق أحد أنني في ذلك الموقف لم أجسر على أن أحاول أكثر من الاستلقاء عند قدميها، فلم أنبس بكلمة واحدة، ولا رفعت عينَيّ إليها، بل ولا مسستها في محاولتي المضنية كي أستند إلى ركبتيها لحظة.. ومع أنني عجزت عن الكلام أو الحركة، إلا أنني كنت بعيدًا عن الهدوء والسكينة، بل كان كل شيء يشى بانفعالى، وفرحي، وعرفاني، ورغباتي الجامحة التي لم يكن لها هدف معين، والتي كان يكبحها الخوف من استياء السيِّدة، وهو أمر ما كان قلبي الشاب ليرتاح إليه!

وبدا أنها لم تكن أقل تأثُّرًا ولا أقل خجلًا منى.. وأزعجها أن تراني هناك، وحيّرها أن تكون قد اجتذبتني إلى ذلك المكان، وبدأت تشعر بعواقب الإشارة التي صدرت عنها دون أن تفكِّر فيها التفكير الواجب!.. ولكنها لم تقربني إليهـا، ولا هي صدّتني عنها، فإنها لم ترفع رأسها عن الرقعة التي تطرزها، بل حاولت أن تتصرَّف كما لو لم تكن تراني عند قدميها! على أن كل ما أوتيت من غباء ما كان ليمنعنى من أن أستنتج أنها كانت تشاطرني ارتباكى، وربما رغباتي، وأنها كانت تكبح عواطفها بنفس الحياء الذي كان يدفعني إلى أن أكبح عواطفى، وإن لم يساعدني ذلك على أن أتغلَّب على هذا الحياء!.. وإذ كانت تكبرني بخمس سنوات أو ست، فقد رأيت أنهـا كانت خليقة بأن تكون أكثر جرأة، وقلت لنفسي إنها إذا كانت لم تفعل ما يوقظ جرأتي، فلابد أنها غير راغبة في أن أبدى أية جرأة من ناحيتي! ولا أزال حتى اليـوم أرى أنني كنت مصيبًا، وأنها كانت - بالتأكيد - من الذكاء بحيث فطنت إلى أن ناشئًا مثلي كان بحاجة لا إلى تشجيع فحسب، وإنما إلى « تدريب » أيضًا!

ولست أدري كيف كان لينتهي هذا المشهد الحافل الصامت، ولا إلى أي وقت كنت سأظلّ دون حراك في وضعى المستهجن المستعذب، لولا أننا فوجئنا بما قطع علينـا الموقف! ففي اللحظة التي بلغ فيها انفعالى عنفوانه، سمعت باب المطبخ - الذي كان ملاصقًا للحجرة التي كنا فيها - يُفتح، فاستولى على مدام بازيل ذعر جائح تجلّى في كلماتها وإشاراتها وهي تقول: « انهض!.. ها هي ذي روزينا قادمة! ». وأسرعت بالنهوض، ممسكًا باليد التي بسطتها لي، طابعًا عليها قبلتين ملتهبتين، شعرت عند ثانيتهما أن هذه اليد الفاتنة تضغط شفتَيّ ضغطًا خفيفًا!.. ولست أغالي إذا قلت إننى لم أستمتع في حياتي بلحظة في مثل حلاوة تلك اللحظة. وغير أن الفرصة التي فقدتها لم تسنح قط مرة أخـرى، وكفَّ غرامنا الوليد عن النمو عند ذلك الحد! ولعل هـذا هو عين السبب في أن صورة تلك المرأة اللطيفة ظلَّت مطبوعة في أعماق قلبي بهـذا الشكل الفاتن، بل إنها ازدادت جمالًا بازدياد معرفتي بالدنيا والنساء. ولو أنها كانت قـد أوتيت قدر بسيط من الخبرة، لأقدمت على تصرّف مخالف، كى تشجّع فتى مثل الذي كنته!.. ولكن، لئن كان قلبها قد أوشك أن يضعف في تلك اللحظة، فإنه كان في الواقع مستقيمًا، وما انساقت للميل الذي جرفها إلا على غير إرادة منها، فكانت هذه - على ضوء كل المظاهر - أوَّل خيانة تفكّر فيها، ولعلني كنت خليقًا بأن أجد في مغالبة خجلها عناء يفوق ما كنت ألقاه في مغالبة حيائى! على أنني، دون أن أذهب إلى ذلك المدى، كنت أجد في وجودها سعادة لا توصف، وما عادل شيء من المشاعر

التي يخلقها نيل النساء، تلكما الدقيقتين اللتين قضيتهما عند قدمَيّ هذه المرأة دون أن أجسر على مجرَّد لمس ثوبها!.. لا، ليست هناك متعة تعدل تلك التي تستطيع أن تتيحها امرأة فاضلة يحبها المرء!.. إن كل شيء يغدو جميلًا في صحبتها.. ولقد كانت إشارة من أصبع، ويد التصقت خفيفًا بفمي، وهما كل النعم التي حظيت بها من مدام بازيل، ولا تزال ذكرى هذين الرمزين البسيطين تفتنني كلما فكرت فيهما!

وعبثًا حاولت - في اليومين التاليين - أن أنتهز فرصة لخلوة أخرى، فقد استحال علىّ أن أجد هذه الفرصة، ولم ألاحظ أي حرص من جانب مدام بازيل على أن تتيحها. ومع أن مسلكها لم يصبح أقل فتورًا عن ذي قبل، إلا أنها صارت أكثر تحفظًا من المعتاد، وأعتقد أنها كانت تتفادي نظراتى خشية أن تعجز عن أن تسيطر على نفسها سيطرة كافية! وغدا كاتبها اللعين أثقل ظلًا من أي وقت مضى، سيما وقد مضى يمزح ويداعبني قائلًا إننى خليق بأن أجد حظًّا لدى السيِّدات! وكنت أرتجف كلما فكَّرت في أنني ربما كنت قد ارتكبت حماقة. ولما كنت قبل ذلك أعتبر أن ثمة تفاهمًا بيني وبين مدام بازيل، فقد رغبت الآن في أن أتكتم الميل الذي لم يكن بحاجة إلى التكتم من قبل، فجعلني ذلك أزداد حذرًا في تحيني الفرص لإرضاء هذا الميل. ومن فرط حرصي على أن تكون هذه الفرص مأمونة، تعذر علىّ أن أعثر عليها إطلاقًا!

وكانت هذه نزوة غرامية أخرى، لم يقدّر لي قط أن أبرأ منها، وقد استطاعت باقترانها بحيائي الطبيعي أن تكذّب نبوءة الكاتب الدميم بدرجة تبعث على العجب!.. فقد كنت من الصدق في حبي بدرجة أجرؤ معها على القول بأنها لم تكن لتمكنني من أن أسعد بسهولة. فما كانت العواطف يومًا أشدّ توثبًا وأطهر طبيعة مما كانت لدىّ، ولا كان الحب يومًا أرق، وأصدق، وأبعد عن المصلحة مما كان عندي!.. كنت على استعداد لأن أضحى بسعادتي ألف مرة من أجل سعادة المرأة التي أحبها. كانت سمعتها أعزّ لدىّ من حياتي، وما كنت لأرجو البتة أن أعرّض طمأنينتها لحظة واحدة لأى خطر، في مقابل كل المباهج والمتع! وقد حملني هذا الشعور على أن أسرف في الحذر والتكتم والحيطة في مغامراتي، إلى الحد الذي لم يقدر عنده لأي منها أن تنجح!.. وما كانت حاجتي إلى أن أوفق مع النساء إلا ناجمة دائمًا عن حبي العارم لهن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولنعد الآن إلى ذلك الدميم، عازف القيثارة: كان الغريب في أمر هذا الغادر أنه كلما ازداد ثقل ظلّه، بدا أكثر لطفًا وإيناسًا!.. وكانت مخدومته - منذ اليوم الأوَّل الذي مالت فيه إلىّ - قد فكّرت في أن تجعلني نافعًا في الحانوت. وكنت أجيد الحساب، فاقترحت عليه أن يعلمني كيف أمسك الدفاتر التجارية، ولكن الجلف تلقّى الاقتراح في امتعاض، لعل مبعثه أنه خشى أن يُزحزح عن عمله! ومن ثم فقد كان كل عملي - إلى جانب حفر المعادن - يقتصر على نسخ بضعة حسابات ومذكرات، وتصحيح بعض الدفاتر، وترجمة بضع رسائل تجارية من الإيطالية إلى الفرنسية. وفجأة، عنّ لصاحبى أن يعود إلى الاقتراح الذي سبق له أن رفضه، فتطوَّع لتعليمي القيد المزدوج30، وقال إنه بات راغبًا في أن يجعلني كفئًا لأن أتقدَّم بخدماتي إلى السيِّد بازيل عند عودته. وكان في صوته ومسلكه شيء من الزيف والحقد والسخرية، لم يوح إلىّ بالطمانينة! ولم تنتظر مدام بازيل حتى أجيبه، بل قالت له في برود إننى شاكر له تطوّعه، وإنها تأمل أن يجازيني القدر في النهاية عن طيب صفائي، وإنه لأمر جدير بأعظم الرثاء لو أننى لم أغد - برغم كل مواهبى - أكثر من « كاتب » مثله!

وكانت السيِّدة قد أخبرتني، في عدّة مناسبات، بأنها راغبة في أن تقدمني إلى شخص قد يستطيع أن يساعدني. وكانت من الحكمة بحيث أدركت أن الوقت قد حان كى نفترق، إذ

أن اعترافاتنا الصامتة بالحب وقعت في يوم الخميس، فلما كان يوم الأحد التالي، أقامت مأدبة عشاء كنت ممن حضروها. وكان بين الضيوف راهب من المذهب « اليعقوبي »، حسن الطلعة، قدَّمتني إليه السيِّدة، فعاملني بحفاوة بالغة، وهنأني بانضوائى تحت لواء الكثلكة، وحدَّثني عن حياتي بطريقة نمت لي عن أن السيِّدة قد أفضت إليه بتفصيلاتها.. ثم نصحنى - وهو يربِّت على خدى بظهر يده في ود ـ بأن أتصرَّف بما يليق بكرامتي، وبأن أكون قوى الجلد وشجاعًا، وبأن أذهب لزيارته ليُتاح لنا أن نتبسط في الحديث معًا. وأدركت من الاحترام الذي كان كل امرىء يبديه له، أنه رجل ذو مكانة. كما أدركت من اللهجة الأبوية التي كان يوجِّه بها حديثه إلى مدام بازيل، أنه الراهب الذي تفضي إليه باعترافاتها! كذلك أذكر أن الألفة البالغة التي كان يبديها نحو تائبته31 كانت مشوبة بمظاهر التقدير، بل والاحترام، الأمر الذي لم يدهشني إذ ذاك قدر ما يدهشني الآن. ولو أنني كنت أذكى مما كنت إذ ذاك، لكنتُ خليقًا بأن أتيه فخرًا لمجرَّد التفكير في أننى استطعت أن أمس أحاسيس شابة كانت تلقى كل هذا الاحترام من الراهب الذي كان يتلقَّى اعترافاتها!

ولم تتسع المائدة لنا جميعًا، فرؤى إضافة مائدة أخرى صغيرة، كان من حظي أن جلست إليها، مواجهًا للكاتب..

ولم أخسر بهذا التنظيم شيئًا من الرعاية أو التلطف، فقد نقلت عدَّة صحاف من الطعام إلى المائدة الصغيرة، لم يكن صاحبي هو المقصود بها بالتأكيد! وكان كل شيء يسير كما ينبغى حتى ذلك الوقت، فكانت السيِّدات جد طروبات، والرجال مرهفي الانتباه. وكانت مدام بازيل تدعو إلى الأنخاب في مهابة فاتنة. وفي منتصف العشاء، وقفت عربة بالباب، وأقبل شخص يصعد السلم.. وكان القادم هو السيِّد بازيل. وإني لأتمثَّله الآن بنفس صورته حين دخل علينا، مرتديًا معطفًا قرمزيًا ذا أزرار مذهبة، وهو لون اعتدت منذ ذلك اليوم أن أنفر منه! وكان طويلًا، مليحًا، حسن المظهر. وأقبل في جلبة، شأن الرجل الذي يفاجيء ضيوفه، برغم أن الحضور جميعًا كانوا أصدقاء له. وألقت زوجته ذراعيها حول عنقه، وراحت تضغط يديه، وتضفى عليه ألوان الغزل والملاطفة، فتقبّلها جميعًا دون أن يلتفت، وحيا الجماعة، وجلس ليتناول الطعام.

ولم يكد الضيوف يشرعون في الحديث عن رحلته، حتى وجّه عينيه نحو المائدة الصغيرة، وتساءل في صوت جاف عمّن يكون الفتى اليافع الذي رآه جالسًا إليها، فروت له مدام بازيل كل شيء في بساطة ساذجة. فتساءل عما إذا كنت أقيم في الدار، فأجبت بالنفي، وإذ ذاك قال بصوت أجش! « ولِمَ لا؟.. ما دام يقضى سحابة النهار هنا، فمن المستحسن أن يمكث خلال الليل ». وأمسك الراهب بزمام الحديث، وبعد أن تحدَّث عن مدام بازيل بعبارات الإطراء المخلص الصادق، ذكر بضع كلمات في امتداحي، وأضاف قائلًا للزوج إن من الجدير به أن يتوق إلى المساهمة في العمل الخيري الذي أدّته زوجته الصالحة، بدلًا من أن يلومها عليه، فليس في هذا العمل ما يجاوز حدود الحكمة والكرامة. وأجاب السيِّد بازيل في لهجة غاضبة حاول إخفاءها بعض الشيء، احترامًا لوجود الراهب، ولكنها كانت كافية لأن تجعلني أشعر بأنه تلقّى أنباء عنى، وأن الكاتب قد دسَّ لي لديه!

وما أن انتهت المأدبة، حتى أقبل الكاتب مزهوًا، وقد أوفده مخدومه ليدعوني - بأمره - إلى أن أبارح البيت فورًا، فلا أضع فيه قدمي بعد ذلك! وحشا رسالته بكل ما كان كفيلًا بأن يجعلها قاسية مهينة. فانصرفت بدون أن أنبس بكلمة، ولكن بقلب طعين، لم تكن تعذبه فكرة مفارقة تلك المرأة اللطيفة، بقدر ما كانت تضنيه فكرة تركها وحيدة لزوجها المتوحش!.. ولا مراء في أنه كان على حق في رغبته أن لا تخونه زوجته، ولكنها كانت - برغم ذكائها وحسن تربيتها - إيطالية الأصل، أعنى أنها كانت مفطورة على الحس المرهف وحب الثأر. ويلوح لي أنه كان مخطئًا إذ عاملها بأكثر الطرق قابلية لأن تجلب عليه ما كان يخشاه من نحس!

هكذا كانت نتيجة مغامرتي الغرامية الأولى. ولم أغفل أن أمر بالشارع مرتين أو ثلاثًا، على أمل أن أرى ـ على الأقل ـ المرأة التي لم يكن قلبي يكف عن التحسر عليها. ولكنى رأيت - بدلًا منها - الزوج والكاتب المتربص الذي لم يكد يلمحنى حتى أشار نحوى بالشريط الخشبي الذي يُستخدم لقياس الياردة، إشارة كانت تنطوى على أكثر من مجرَّد التهديد! وإذ تبيّنت أن الرقابة شديدة، فترت عزيمتي، ولم أمرّ بالحانوت مرة أخرى. ولقد رغبت في أن أسعى إلى الراهب الذي كانت مدام بازيل قد هدتني إليه، ولكني لم أكن أعرف اسمه، لسوء الحظ، فطوفت عدَّة مرات بالدير آملًا في أن أصادفه، ولكن دون ما توفيق. وأخيرًا، عدت أحداث أخرى على ذكريات مدام بازيل البهيجة، فلم ألبث أن نسيتها تمامًا بعد وقت قصير.. بل إننى - لسذاجتي وحداثتي - لم أعد أحس بميل إلى الجميلات!

على أن كرم مدام بازيل زود صوان ثيابي إلى حد ما، وإن كانت قد راعت التواضع وبُعد النظر الذي تتصف به المرأة العاقلة التي تفكِّر في نظافة الملبس أكثر مما تفكِّر في زينته، مما نم عن أنها كانت تبغى أن تصونني من الهوان، لا أن تزينني. وكانت الثياب التي حملتها معى من جنيف لا تزال صالحة للارتداء، ومن ثَم فإنها لم تضف إليها سوى قبعة وبعض الثياب الداخلية. ولم تكن عندي قفازات، ولكنها أبت أن تمنحنى شيئًا منها، برغم أننى كنت جد تواق لذلك، فقد كانت قانعة بأن تجعلني في وضع يمكنني من أن أحتفظ بنفسي نظيف الملبس والمظهر، وهو أمر لم تكن بحاجة إلى أن توصيني بالاهتمام به، عندما كنت معها!

وبعد أيام قلائل من طردي من الحانوت، أنبأتني صاحبة البيت الذي كنت أقيم فيه - وقد ذكرت أنها مالت إليَّ - بأن من المحتمل أن تكون قد وجدت لي عملًا، فإن سيِّدة ذات مكانة قد رغبت في أن تراني. وعند هذه الكلمات، ظننت أننى أصبحت فعلًا وسط مغامرات راقية، إذ كان ذهنى يدور دائمًا حول ذلك. على أن المغامرة في هذه المرة لم تكن من البهاء كما صوّرتها لنفسي، فقد ذهبت لمقابلة السيِّدة مع الخادم الذي حدَّثها عنى، فسألتني وامتحنتني، ولم أخيّب رجاءها، فالتحقت بخدمتها لفوري، لا في مركز مقرَّب لديها، وإنما كخادم يرتدي الزي الخاص بخدمها! وكان الفارق الوحيد بينى وبين هؤلاء أنهم كانوا يلبسون أنشوطات على أكتافهم32، أما أنا فلم أكن أفعل.. ولما كانت ثياب خدمها لا تزدان بشيء من الوشى، فإنها كانت تبدو كالأزياء العادية.. وهكذا كانت النهاية غير المرتقبة لآمالي العظام!

وكانت « الكونتة دى فيرسيللي » - التي التحقت إذ ذاك بخدمتها - أرملة بلا ولد، وقد كان زوجها من أبناء (بييمونت). وكنت دائمًا أخالها من إقليم (سافوا)، فما كنت لأصدِّق أن بين أهل (بييمونت) مَن يجيد الفرنسية إلى درجة الكلام بلهجة خالية من أية لكنة. وكانت في أواسط العمر، ذات منظر ممتاز، وقد أوتيت ذهنًا مثقفًا. وكانت مولعة بالأدب الفرنسي الذي كانت على دراية واسعة به. كما كانت تكثر من الكتابة، وبالفرنسية دائمًا. وكانت لرسائلها روح، بل وروعة، رسائل « مدام دي سيفينييه »، حتى أن بعضها يخاله المرء من قلم هذه الأخيرة. وكان عملي الرئيسي من نوع لم أكن أكرهه، إذ كنت أكتب لها ما تمليه علىَّ من هذه الرسائل، فقد كانت مصابة بسرطان في المعدة، يكبدها آلامًا عظيمة تجعل من المستحيل عليها أن تكتب بنفسها!

ولم تكن مدام دى فيرسيللي ذات ذكاء عظيم، ولكنها أوتيت روحًا قوية عالية. وكنت معها أثناء مرضها الأخير، فشهدتها تتعذَّب وتموت دون أن تبدى بادرة من بوادر الضعف، ولو لحظة واحدة، دون أن تبذل أقل جهد في السيطرة على نفسها، أو تفعل شيئًا لا يليق بامرأة، بل ودون أن يخطر ببالها أن مسلكها كان مثالًا للفلسفة، وهي كلمة لم تكن قد أصبحت شائعة، ولم تكن السيِّدة تعرفها بمعناها المألوف اليوم.

وكانت قوة شخصيتها هذه، تطغى في بعض الأحيان حتى تصبح برودًا!.. كانت تبدو لي

دائمًا وكأنها لا تكن من المشاعر لسواها قدر ما تكن لنفسها. وعندما كانت تبدى كرمًا لأي تعس، فإنما كانت تصدر في ذلك عن رغبـة في إتيان الخير والعمل الصالح، أكثر منها عن شعور حقيقي بالصدقة. لقد خبرت هذا القصور في شعورها - إلى حد ما - خلال الأشهر الثلاثة التي قضيتها معها. ولقد كان الأمر يبدو طبيعيًا لو أنها قدَّرت شابًّا ذا مواهب، كانت تراه أمامها باستمرار، فإذا ما شعرت بنهايتها تدنو فكرت في أنه قد يصبح بعدها في حاجة إلى المعونة والمساعدة.. ولكنها لم تفعل شيئًا من ذلك، إما لأنها لم تعتبرني أهلًا لرعاية خاصـة، أو لأن الذين كانوا يحيطون بها لم يتيحوا لها أن تفكِّر في سواهم!

على أنني أتذكَّر جيِّدًا أنها أبدت بعض فضول إلى تعرُّف قصتى، فكانت أحيانًا توجِّه إليَّ أسئلة، وتحب أن أريها الخطابات التي كنتُ أكتبها إلى مدام دى فاران، وأصف لها مشاعري. على أنها لم تسلك -بالتأكيد ـ الطريق الصحيحة للتعرّف على هذه المشاعر، إذ أنها لم تبح لى قط بشيء من مشاعرها الخاصة! وكان قلبي يحب أن يكشف عن دخيلته على شريطة أن يطمئن إلى أنه إنما يفضي بسريرته إلى قلب آخر. أما الأسئلة الباردة الجافة، التي لا تنطوى على بادرة من رضاء أو لوم إزاء إجاباتي، فلم تكن توحي إلىَّ بشيء من الثقة. وعندما كنت لا أرى ما ينم عما إذا كان حديثي يرضيها أو يضايقها، كنت أشعر دائمًا بجزع!.. على أننى لاحظت، منذ ذلك الحين، أن هذه الطريقة الجافة في توجيه الأسئلة إلى الناس للتعرّف على شخصيتهم، حيلة كثيرًا ما تعمد إليهـا النساء اللواتي يرغبن في أن يبدون ذكيات بارعـات. فهن يخلن أنهن بإخفاء مشاعرهن يكن أكثر توفيقًا في الكشف عن مشاعرك أنت! ولكنهن يخفقن في أن يرين أنهن بهـذا العمل يجردنك من الجرأة على هذا الكشف!.. والرجل إذا ما سُئل، بادر إلى التحفّظ من أجل ذلك السبب وحده، وإذا اعتقد أن سائله إنما يريد أن يحمله على الكلام فحسب، دون أي اهتمام حقيقي بأمره، فإنه إما أن يعمد إلى الكذب، أو إلى حبس لسانه، أو يضاعف من حيطته، مفضلًا أن يظن أنه أحمق عن أن يكون تسلية للفضول! وقصارى القول، إن المرء إذا رغب في قراءة قلوب الآخرين، فإن من سوء السياسة أن يُظهر أنه يخفى ما في قلبه!

ولم يحدث لمدام دى فيرسيللي أن باحت لي قط بكلمة تعبِّر عن ود، أو شفقة، أو عطف. وإنما كانت توجِّه إليَّ أسئلة بلهجة باردة، فأجيب عليها بتحفّظ. ولابد أن إجاباتي كانت تبدو لها تافهة مضجرة. وما لبثت في النهاية أن كفَّت عن الأسئلة، ولم تعد تكلمني إلا لتصدر لى أوامرها! كانت تحكم عليَّ في ضوء ما دفعتنى إليه بمسلكها، وليس في ضوء ما كنته.. وما رأت فيَّ قط سوى مجرَّد خادم، فكانت تمنعنى من أن أبدو في غير شخصية الخادم!.. وأعتقد أنني منذ ذلك الوقت أعاني من خبث هوايـة التآمر في الخفـاء التي تدفعني إلى الانحراف، والتي أوحت إليَّ بنفور طبيعى جدًا من الأوضاع التي خلقت هذه الهواية. وكان وريث مدام دى فيرسيللى - التي كانت بلا ولد - هو ابن أخيها الكونت « ديلا روك » الذي كان مثابرًا على التقرّب إليها. وفضلًا عن ذلك، فإن رؤساء خدمها - الذين رأوا نهايتها تدنو - لم يغفلـوا مصالحهم، ومن ثم فقد كان يحيط بها كثيرون ممن يظهرون الوفاء لخدمتها، فكان من العسير عليها أن تفكِّر في شخصى. وكان على رأس قصرها رجل ماهر يُدعى السيِّد لورنزى، استطاعت زوجته - التي كانت تفوقه ذكاء - أن تتملَّق مولاتها وأن تكسب رضاها إلى درجة أنها صارت منها بمثابة الصديقة أكثر منها الخادم الأجيرة. وقد استطاعت بذلك أن تظفر لابنة أخيها بمنصب وصيفة السيِّدة! وكانت ابنـة الأخ مخلوقة ماكرة، تُدعى الآنسة بونتال، تجيد الظهور بمظهر وصيفة الشرف، وبذلك وفقت إلى مساعدة عمتها في التقرُّب إلى السيِّدة، فلم تعد هـذه ترى إلا بعيون الاثنتين، أو تعمل إلا بأيديهما! ولم يكن لي حظ إرضاء هؤلاء الأشخاص الثلاثة - السيِّد لورنزي وزوجته وابنة أخيها - فقد كنت أطيعهم ولكنى لم أخدمهم، إذ لم أفطن إلى أننى - بجانب خدمة مخدومتنا المشتركة - كنت مضطرًا إلى أن أكون خادمًا لخدمها!.. فضلًا عن أنني كنت من ذلك النوع من الخدم الذي يثير قلقهم، إذ رأوا بوضوح أنني كنت في غير المكان الذي

أستحقه، فكانوا يخشون أن ترى السيِّدة ذلك بدورها، وأن تعمد - كى تضعنى في المركز اللائق بي - إلى إجراء قد يقلِّل من حظهم من مالها!.. ذلك أن أبناء هذه الطبقة هم في العادة أشدّ جشعًا من أن يكونوا منصفين، وتراهم ينظرون إلى أية منحة لسواهم وكأنها حق استلب من مالهم الخاص! ومن ثم فإنهم تآمروا على إقصائي عن بصر السيِّدة. ولما كان غرامها بكتابة الرسائل قد صار بمثابة تسلية لها في ضعفها الصحى، فإنهم أوحوا اليها بما جعلها تكره هذه الهواية، وصرفوها عن المضى فيها مستعينين بنصح طبيبها، وبالتثبيط من عزيمتها بزعم أنها عملية جد مرهقة لها!.. ثم صوروا لها أنني لم أكن أفهم واجبى، وبذلك أقنعوها بأن تعين في مكاني خادمين لئيمين، كي يحملا مقعدها! وبإيجاز، فإنهم تعمَّدوا - ببراعة - أن لا ألج غرفتها طوال ثمانية أيام، هي الفترة التي كانت أثناءها تعد وصيتها! ومن الصحيح أننى بعد هذه المدة عدت أدخل غرفتها كعهدي من قبل، وأخذت أبدى لها من الاهتمام فوق ما كان يبديه أي شخص سواى، إذ أن الآلام التي كانت تعانيها المسكينة أخذت تُمزِّق قلبي، والجَلَد الذي كانت تتحملها به أوحى إلىَّ بأن أوقرها وأعطف عليها إلى أقصى درجة.. حتى أني كثيرًا ما كنت أذرف دموع الأسى صادقًا في غرفتي، دون أن يراني أحد!

وأخيرًا فقدناها.. ورأيتها تجود بآخر أنفاسها. وكما عاشت حياة امرأة موهوبة ذكية، فإنها ماتت ميتة الفلاسفة. وبوسعي أن أقول إنها ألهمتني تقديرًا عاليًا للعقيدة الكاثوليكية، بفضل ما كانت تبديه من إقبال على اتباع تعاليمها، دون إهمال أو تصنّع. كانت في الواقع ذات طبع حاد، وقد أخذت تبدى - في نهاية مرضها - نوعًا من الانشراح الذي كان انتظامه يوحي بأنه غير حقيقي، فما كان سوى رد فعل لحالتها الأليمة، وسوى ثمرة من ثمار العقل. ومع أنها لم تلزم فراشها إلا في اليومين الأخرين، إلا أنها ظلَّت تتحدَّث في هدوء مع كل أمرىء حتى النهاية. وأخيرًا، لم تعد تتكلّم، ولكنها في نزعات الموت صاحت بصوت مرتفع: « حسنًا!.. إن المرأة التي تستطيع أن تطلق الغازات من أمعائها، لا تموت ».. وتقلّبت في فراشها، وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها!

ولقد تركت لصغار خدمها أجور عام كامل، أما أنا فلم أتلق شيئًا، لأنني لم أكن في قائمتهم! على أن الكونت ديلا روك أمر باعطائي ثلاثين ليرة33، كما ترك لى السترة الجديدة التي كنت أرتديها، والتي أراد السيِّد لورنزي أن يأخذها منى! بل إن الكونت تكرَّم فوعد بأن يحاول إيجاد عمل لى، وأذن لي بأن أذهب لأراه، وقد ذهبت مرتين أو ثلاثًا، دون أن أتمكن من التحدّث إليه. ولما كنت سريع القنوط، فإنني لم أذهب بعد ذلك. ولسوف يتبدى - بعد قليل - أنني كنت مخطئًا.

وليتني كنت أستطيع أن أنهى، عند هذا القدر، كل ما لدىّ من قول عن فترة إقامتي لدى مدام دى فيرسيللي!.. لكن الواقع أنني لم أبرح الدار كما دخلتها، وإن ظلَّت حالي كما كانت. لقد حملت معى من الدار ذكريات باقية للجريمة، وعبئًا لا يطاق من الندم، لا يزال يُثقل ضميرى برغم مرور أربعين عامًا! وبدلًا من أن تزداد مرارته ضعفًا ووهنًا، إذا بها تقوى وتشتدّ كلما تقدَّمت بي السنون: فمنذا يصدِّق أن غلطة صبيانية تؤدّي إلى مثل هذه التبعات القاسية؟ التبعات التي كانت أفدح مما يخطر بالبال، والتي لا يجد قلبي عزاء من أجلها؟.. ذلك أنني تسبَّبت في دمار فتاة لطيفة، شريفة، جديرة بالتقدير - بل كان من المؤكَّد أنها تفوقنى جدارة - إذ دفعت بها إلى الخزى والتعاسة!

وإليك القصة: إن من الأمور التي لا مناص منها، أن تغيّر نظام بيت من البيوت خليق بأن يحدث شيئًا من الفوضى في البيت، فتضيع أشياء عديدة. ومع ذلك فإن الخدم في دار تلك السيِّدة كانوا من الأمانة - كما كان لورنزي من اليقظة - بحيث أن شيئًا لم يفتقد من دار مدام دى فيرسيللي عندما أحصى ما كان فيها. ولكن حدث أن الآنسة « بونتال » فقدت قطعة من شريط قديم باللونين الأحمر والفضى. ولقد كانت تحت يدى أشياء كثيرة تفوق

تلك القطعة في القيمة، غير أن هذه وحدها هي التي أغرتني، فسرقتها! ولما كنت لم أجشم نفسى عناء إخفائها، فإنها سرعان ما وُجدت.. وشاءوا أن يعرفوا كيف آلت إلى حوزتي، فإذا بي أرتبك، وأتلعثم، وإذا بوجهي يتضرّج.. ثم قلت - في النهاية - إن « ماريون » أعطتنيها! وكانت « ماريون » شابة من (مورييين) اتخذتها مدام دى فيرسيللي طاهية لها عندما كفّت عن إقامة الولائم فسرحت طاهيتها وأصبحت تكتفى بالحساء الجيد عن الأطعمة الشهية. ولم تكن « ماريون » هذه رشيقة فحسب، بل كانت ذات لون حاضر، لا يوجد إلا لدى أهل الجبال، كما كانت تتصف -فوق كل شيء - بنوع من اللطف والتواضع، يستحيل معه على مَن يراها أن لا يحبها!.. ثم أنها كانت فتاة طيبة، ورعة، لا جدال في أمانتها. لذلك دهش الجميع عندما ذكرت اسمها! وكان كل منا موضع ثقة، لذلك كان من المهم أن يتبيّنوا مَن منا اللص الحقيقي؟ ومن ثَم استدعيت، واجتمع نفر من القوم، بينهم الكونت ديلا روك. وعندما قدِمَت، عرض عليها الشريط.. واتهمتها في جرأة، فبُهتت، ولم تقو على أن تنبس ببنت شفة، وإنما اكتفت بأن رمقتني بنظرة كانت كفيلة بأن تُجرِّد إبليس ذاته من أسلحته، ولكن قلبي البهيمي كان منيعًا دونها! وأخيرًا، أنكرت الفتاة السرقة بلهجة جازمة، ولكن دون غضب، وخاطبتنى فناشدتني أن أفكِّر، وألَّا أشوه سمعة فتاة بريئة لم تلحق بي أي أذى. ولكني أصرّرت على قصتى، في قحة شيطانية، وأعلنت في وجهها أنها هي التي أعطتني الشريط!.. فشرعت المسكينة تبكى، ولم تقل سوى: « آه! كنت أظنّك رجلًا طيبًا يا روسو. إنك تشقيني كل الشقاء، ولكني لا أتمنى أن أكون في موقفك! ».. وكان هذا كل ما عندها لي، فقد راحت تدافع عن نفسها في بساطة وحزم، دون أن تسمح لنفسها بأن توجِّه إليَّ أقل تأنيب أو لوم! وأدَّى هذا الاعتدال - بالقياس إلى لهجتى الجازمة - إلى ضررها، فما كان من الطبيعي أن تقابل مثل هذه القحة الشيطانية من جانبي، بوداعة ملائكية من جانبها! ومع أن المسألة لم تسو نهائيا، إلا أنه بدا أنهم جميعًا مالوا إلى جانبي، ولكنهم لم يضيعوا وقتهم في التعمق في المسألة، في غمرة الفوضى التي كانت تسود الدار، واكتفى الكونت ديلا روك ـ وهو يفصلنا معًا من الخدمة - بأن قال إن ضمير المذنب خليق بأن يثأر للبرىء!.. ولقد تحققت نبوءته، بل إنها لتتحقق في كل يوم!

ولست أدرى ما جرى لضحية اتهامي الزائف، ولكن من غير المحتمل أنها استطاعت العثور على مركز طيب بعد ذلك، فقد حملت معها وصمة لطخت شرفها بقسوة من كل النواحي. لقد كانت السرقة طفيفة تافهة، ولكنها كانت - برغم ذلك - سرقة! ومما زاد الطين بلة أنها ارتكبت لإغواء شاب.. ثم إن الكذب والعناد لم يخلّفا شيئًا يرتجي من شخص اجتمعت في نفسه كل هذه الرذائل! بل إننى لا أظن أن التعاسة والنبذ هما أعظم الأخطار التي تسبَّبت بفعلتي في تعريض الفتاة لها، فإن المرء لا يستطيع أن يدرى مدى ما قد يدفع إليه القنوط والشعور بالبراءة الجريحة، فتاة في مثل سنها!.. أواه! إذا كان شعوري بالندم لا يطاق، لمجرد احتمال أنني جعلتها تعسة، ففي وسع المرء أن يقدر ما يخالجني من شعور إذ أتصوَّر أننى قد أكون دفعت الفتاة إلى أسوأ من هذا المصير!

إن هذه الذكرى تقض راحتي وتمضني في بعض الأوقات، إلى درجة تجعلني أخال - في ساعات السهاد - أن الفتاة المسكينة مقبلة لتلومني على جرمي، وكأنني ارتكبت هذا الجرم بالأمس القريب! ويخف عذاب هذه الذكرى طالما كنت أعيش في هدوء ودعة، ولكنها في غمرة الحياة الصاخبة تسلبني لذة العزاء، وتجعلني أحس بما أذكر أنني قلته في أحد كتبى من أن « الندم يهجع عندما تكون حظوظنا في ازدهار، ويجعل عذابه محسوسًا في أوقات النوائب »!.. ومع ذلك فإنني لم أقو البتة على أن أحمل نفسي على أن أفضفض عن صدرى، بأن أعترف بالقصة لأحد من أصدقائي.. فإن أوثق الود لم يصل بي يومًا إلى هذا الحد مع أي امرىء، حتى مع مدام دى فاران. كل ما استطعته هو أن اعترفت بأن عليَّ أن ألوم نفسي على عمل فظيع، ولكني لم أفصح إطلاقًا عن كنهها!. ولقد ظلَّ هذا العبء يثقل ضميرى إلى اليوم، دون أن تخف وطأته، وإني لأذهب إلى حد التأكيد بأن

الرغبة في الخلاص منه - إلى حد ما - ساهمت بدور كبير في إقدامي على كتابة هذه « الاعترافات »!

لقد كنت صريحًا أمينًا في الاعتراف الذي ذكرته، ولسوف يتضح بالتأكيد أنني لم أحاول أن أخفف قتامة جرمي. ولكنى لا أحقِّق الهدف المرجو من هذا الكتاب إذا أنا لم أعرض ـ في الوقت ذاته ـ أعمق مشاعري الدفينة، وإذا أنا تردَّدت في أن أبرز نفسى، بحقائق محضة صادقة: فما كانت النيـة الخبيثة بمنأى عنى في أية لحظة، بقدر ما كانت في تلك اللحظة القاسية. ولقد كان من الغريب - ولكن من الصحيح أيضًا في الوقت نفسه - أن صداقتي للفتاة التعسة كانت هي السبب في أننى اتهمتها!.. ذلك أنها كانت ماثلة في خاطري، فلم أر بدًّا من أن ألقي اللوم على أوَّل شخص قفز إلى فكري، فاتهمتها بفعل ما كنت أعتزم فعله.. اتهمتها بأنها أعطتني الشريط، لأني كنت أعتزم أن أعطيها إياه! فلما رأيتها أمامي - بعد ذلك - تمزَّق قلبي، لكن وجـود كل ذلك العدد من الناس كان أقـوى تأثيرًا على نفسي من التوبة!.. وما كنت خائفًا من العقاب، وإنما كنت خائفًا من العـار، فقـد كنت أرهبه أكثر من الموت، وأكثر من الجريمة، وأكثر من أي شيء آخر في الدنيا!.. وكم كنت أغتبط لو أن الأرض انشقَّت فجأة فابتلعتني وخنقتني! وهكذا تغلَّب الخوف الطاغي من العار على كل شيء، فلم يزدني إلا قحة.. إذ أن ازدياد إجرامي، وازدياد نفوري من الاعتـراف، أديا إلى انعدام خوفى من الافتراء، فما عدت أرى أمامي - إذ ذاك - سوى بشاعة الفضيحة، وهتك سترى للملأ، في حضوري، باعتبار أننى لص.. وكاذب.. ومفترا!.. ذلك ما كان الارتباك الشامل يجردني من كل شعور سواه. ولو أنهم أتاحوا لي فرصـة أسترد فيها رباطة جأشى، لما كان ثمة ريب في أنني كنت أعترف إذ ذاك بكل شيء!.. لو أن السيِّد ديلا روك انتحى بى جانبًا، وقال لي: « لا تفسد على هذه الفتاة المسكينة حياتها.. إذا كنت مذنبًا فاعترف لي »، لألقيت بنفسي في الحال على قدميه. إنى لموقن تمامًا من ذلك! ولكنى حين افتقدت التشجيع، لم ألق منهم سوى الارهاب!

ثم إن الانصاف يدعو إلى النظر بعين الاعتبار إلى سنى، فقد كنت يومئذ أقرب إلى الطفولة منى إلى الرجولة. والجرائم الحقيقية تكون في الصغر أكثر اتصافًا بالإجرام منها في الكبر، أما الجرائم التي لا تعدو أن تكون نزوات مبعثها الضعف، فلا تكون في الواقع ناجمة ـ لدى الصغار - عن روح إجرامية. ومن ثَم فإن العمل الذي ارتكبته لم يكن - في جوهره - أكثر من « مخالفة »!.. وهكذا فإن ذكراها لا تكربني لما فيها من شر، بقدر ما تكربني بسبب تبعاتها ونتائجها الشريرة. على أنها أحسنت في الواقع، إذ صانتني بقية عمرى من كل عمل يميل إلى الإجرام.. وأحسنت إلىَّ بالأثر الرهيب الذي انطبع في نفسي من جراء الذنب الوحيد الذي ارتكبته. وإني لأؤمن بأن استبشاعي الكذب إنما يرجع بدرجة كبيرة إلى ندمي على أننى استطعت أن أقدم على مثل تلك الأكذوبة المخزية!.. إنه جرم يمكن التكفير عنه، بل إننى لأجرؤ على القول بأنني قد كفَّرت عنه بكل الشقاء الذي طغى على السنوات الأخيرة من حياتي.. بأربعين عامًا من الاستقامة في أوعـر الظـروف!.. وإن « ماريون » المسكينة لتجد في الدنيا كثيرًا من المنتقمين لها، بل إنهم لمن الكثرة بحيث أننى - مهما يكن عظم ذنبى ضـدها - لم أعد أخاف أن أموت غير مستمتع بالغفران!

وهذا كل ما أود أن أقوله بهذا الصدد، فاسمحوا لي بألَّا أعود إلى الحديث قط في هذا الموضوع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكراسة الثالثة

5 - من سنة 1728 إلى سنة 1731

وإذ تركت دار مدام دي فيرسيللي في حال قريبـة من تلك التي كنت فيها حين دخلتها، عدت إلى صاحبة النزل التي كنت أقيم عندها من قبل، فقضيت معها خمسة أسابيع أو ستة، عادت خلالها الصحة والشباب والكسل إلى إشاعة الاضطراب في طباعي، فأصبحت قلقًا، شارد الفكر، حالمًـا.. صرت أبكي، وأتنهد، وأتوق إلى سعادة لم تكن لديَّ عنها أية فكرة، ولكنى - مع ذلك - كنت أشعر بأنني راغب فيها! ولا سبيل إلى وصف هـذه الحـال، بل إن الذين يستطيعون تصوّرها قليلون بين الناس، يصبو معظمهم إلى حياة تجمع بين العذاب والعذوبة، وتخلق الشعور باللذة في عنفوان الشوق. وكان دمى الفائر يملأ مخي دائمًا بالنساء والفتيات. ولما كنت جاهلًا بالعلاقات الجنسية، فقد رحت أستغل تلك الرؤى وفقًا لأفكاري المتخبطة، دون أن أدرى طريقة أخرى للإفادة منها!.. وقد استبقت هذه الأفكار مشاعري في حالة نشاط ممض، دون أن ترشدنى - لحسن الحظ - إلى طريق الخلاص من هذه الحال.. ولقد كنت إذ ذاك على استعداد لأن أجود بكل حياتى مقابل العثور على « آنسة دى جوتون » أخرى، ولو لربع ساعة! ولكن الوقت الذي كان لهو الطفولة يتخذ فيـه هذا الاتجاه - باعتباره الاتجاه الطبيعي - كان قد ولى!.. كان الشعور بالعار - وهو رفيق الضمير السيئ - قد شرع يزداد ظهورًا كلما تقدَّمت بي السنون، مما ضاعف من خجلي الفطري إلى الدرجة التي لم أعد عندها أقوى على مغالبة هذا الخجل.. فما عدت أقوَى إذ ذاك - ولا فيما بعد - على أن أحمل نفسي على محاولة غير بريئـة، اللهم إلا إذا كانت تلك التي أحاولها معها، هي التي تضطرني - بطريقة ما - إلى الإقدام، مهما أعرف أنها متهتكة، ومهما أشعر عن شبه يقين بأنها ستتلقى محاولتي بالقبول!

ولقد اشتدّ اضطرابى حتى أننى، لعجـزى عن إشباع رغباتي، أخذت أستثير هذه الرغبات بأكثر التصرفات شذوذًا.. فكنت أهيم في الأزقة المظلمة والدروب المستخفية، حيث يحتمل أن يتاح لي أن أعرض نفسي على النسوة بالشكل الذي كنت أرجو أن أكون عليه معهن!.. على أن ما كن يرينه مني لم يكن منكرًا مستقبحًا، فما خطر ببالي قط مثل هذا، وإنمـا كان ما يرينه سخفًا ونزقًـا. ولا سبيل إلى وصـف السرور الأرعن الذي كنت أستشعره من جراء عرضه عليهن!.. ولم يكن باقيًا أمامي سوى خطـوة ضرورية أخرى، ثم أكتسب خبرة واقعية بالمعاملة التي كنت أشتهيها. ولو أننى أوتيت جلدًا على الانتظار، لما كان ثمة شك في أن يمرّ بي شخص لديه من الجرأة ما يكفي لأن ينيلنى المتعة المنشودة!.. ولقد أفضت بى حماقتى إلى ورطة كانت خليقة بأن تكون مضحكة لولا أنها لم تكن مما يلائمنى!

ففي ذات يوم، اتخذت مكاني في مؤخرة ساحة قصر، كانت بها بئر اعتادت بنات الدار أن ينقلن منها المـاء. وكان في تلك البقعة منحدر بسيط يقـود إلى مخزن (كرار) خـلال مداخل عدَّة، ففحصت - في الظـلام - هـذه الدروب الممتدّة تحت مستوى الأرض، حتى إذا وجدتها طويلة ومعتمة، استنتجت عدم وجود منفذ منها إلى الخارج، وأن بوسعي أن أجـد فيها مخبأ أمينًا إذا أنا شوهدت وطوردت. وإذ اطمأننت، أخذت أعرض على الفتيات - اللاتي كن يفدن إلى البئر - منظرًا أدعى إلى الضحك منه إلى الإغواء.. فكان أكثرهن احتشامًا يتظاهرن بأنهن لم يرين شيئًا، بينما شرعت بعض الفتيات في الضحك، واستاءت أخريات فأحدثن جلبة.. وهرعت إلى مخبئي، وإذا بي أشعر بمن يتبعني، وسمعت صوت رجل - وهو أمر لم أكن أتوقعه، وقد أفزعني - فاندفعت في المسارب الممتدة تحت الأرض، معرِّضًا نفسي لأن أضل السبيل، ولكن الضجيج، والأصوات، وصوت الرجل بالذات، ظلَّت تتبعنى.. وكنت أعول باستمرار على الظلمة، وإذا بي أرى ضوءًا، فارتجفت، وأمعنت في الإيغال في الظلام، وإذا بجدار يستوقفنى، حتى إذا عجزت عن التقدُّم، اضطررت إلى أن أقبع في انتظـار مصيرى. وإن هي إلا لحظة حتى أمسك بي رجل طويل ذو شاربين كثين وقبعة

كبيرة وسيف طـويل، تحف به أربع أو خمس نسوة عجوزات، تسلحت كل منهن بيد مكنسة، وبينهم جميعًا لمحت الشقية الصغيرة التي كشفت أمرى، والتي كانت تبغى ـ دون ريب ـ أن تتشفى فيَّ وجهًا لوجه!

وسألني الرجل ذو السيف بخشونة، وهو ممسك بذراعي، عما كنت أفعل في ذلك المكان.



وسألنى الرجل ذو السيف بخشونة ، وهو ممسك بذراعى عما كنت أفعل فى ذلك المكان ..

ومن اليسير تصوُّر أنني لم أجد جوابًا حاضرًا، على أننى ما لبثت أن تمالكت جأشي، وفي غمرة اليأس الذي ألم بي في تلك اللحظة الحرجة، انتحلت عـذرًا خياليًا لقى نجاحًا، فقد توسلت إلى الرجل في لهجة ضارعة أن يرحم سني وحالي، وقلت إننى كنت شابًا غريبًا، من أصل طيب، وقد أصبت بلوثة، واضطررت إلى الفرار من أهلى لأنهم أرادوا أن يحبسوني، وأننى ضائع لا محالة إذا هو وشي بي.. أما إذا تركني أنصرف، فقد أستطيع يومًا أن أجزيه لقاء كرمه. وعلى النقيض من كل ما توقّعت، أحدثت كلماتى ولهجتى أثرها، فإذا بقلب الرجل الرهيب يلين، وبعد أن وجَّه إليَّ توبيخًا قصيرًا، تركني أنصرف في سلام، دون أن يمضى في سؤالي! وأدركت من مسلك الفتاة والعجوزات - حين رأينني انصرف - أن الرجل الذي خفت منه كل ذلك الخوف، كان عظيم النفع لى، وأنني ما كنت لأفلت بهذه السهولة لو تُركت للنسوة وحدهن! فقد سمعتهن يتمتمن بحديث لم أكد ألقي إليه بالًا، فقد كنت أشعر - ما دام الرجل وسيفه لم يتدخلا في الأمر - باعتداد، ونشاط، وقوة تمكنني من الإفلات منهن ومن هراواتهن!

وبعد أيام قلائل، بينما كنت أسير في إحدى الطرقات، مع رئيس أحد الأديرة المجـاورة، كدت أصطدم بالرجل ذي السيف!.. وعرفني الرجل، فقال يقلدني بلهجة ساخرة: « إننى أمير، إنني أمير، وإني لجبان.. ولكن، حذار من أن يعود صاحب السمو مرة أخـرى! ».. ولم يزد على ذلك، بينما نكست أنا رأسى ومضيت في طريقي دون أن أجسر على التطلّع إليه، وأنا أحمد له - في قرارة قلبي - حكمته وتسامحه. وحدست أن العجوزات اللعينات قد عيرنه بسذاجته إذ صدَّق روايتي! وكيفما كان الأمر، فإنه كان رجلًا طيبًا، برغم أنه من (بييمونت)، وما تذكرته قط إلا وشكرت له صنيعه، لأن قصتى كانت ساذجة، وكان أي امرىء في مكانه خليقًا بأن يعيرني بها، ولو رغبة في إثارة الضحك. ومع أن هذه المغامرة لم تنته إلى العواقب التي كنت أخشاها، إلا أنها جعلتني ألزم الحذر وقتًا طويلًا!

وكانت إقامتي لدى مدام دي فيرسيللي قد أكسبتني بعض المعارف الذين وثقت صلاتي بهم أملًا في أن يستطيعوا لي نفعًا. وكان بين الذين أخذت أزورهم منهم، راهب من أبناء (سافوا) يدعى السيِّد « جايم » كان معلِّمًا لأبناء « الكونت دى ميللاريد ». وكان لا يزال شابًا، وقد اعتاد أن يختلط قليلًا بالمجتمع، ولكنه كان مفعمًا بالإدراك السليم، والأمانة، والذكاء، كما كان من أشرف الرجال الذين عرفتهم. ولم يكن ذا نفع لي في الغرض الذي حملني على زيارته، إذ لم يكن لديه أي اهتمام يدفعه إلى أن يبحث لي عن منصب. بيد أنني اكتسبت منه منافع أكثر قيمة من ذلك. إذ ظل نفعها يلازمني طيلة حياتي.. اكتسبت منه دروسًا في الأخلاق القويمة ومبادىء الإدراك السليم. فلقد كنت، في ميولي وأفكاري المتقلبة، أسرف في الارتفاع أو أسف في الانحدار.. فأنا إما « أخيل » أو « ثيرسايتز »34.. كنت بطلًا في بعض الأحيان، وتافهًا - أمعة - في أحيان أخرى، وقد آلى السيِّد « جايم » على نفسه أن يردّني إلى مكاني اللائق بي، وأن يطلعني على نفسي في ألوانها الحقيقية، دون ما إسراف أو تثبيط. كان يحدّثني عن مواهبي فيوليها ما كانت جديرة به من تقدير، ولكنه كان يضيف إلى ذلك أنه كان يرى عقبات تنبعث منها وتحول بيني وبين الإفادة منها على خير وجـوه الإفادة، ومن ثم فإنها خليقة بأن تكون أقل نفعًا لى، كسلم أرقى عليها إلى الثروة والحظ، منها كأداة تغنيني عن هـذا الحظ وهذه الثروة!.. وبسط الراهب أمامي صورة صادقة للحياة الإنسانية، التي لم تكن لديَّ عنها سوى أفكار زائفة، فأراني كيف يستطيع الرجل العاقل أن يكافح من أجل السعادة - وسط تيارات القدر المعاكسة - وأن يدفع زورق حيـاته برغم الرياح المضادة، لكي يصل إليها. وبين لي كيف أنه لا وجود للسعادة الحقة بدون الفطنة والدراية، وأن هـذه الفطنة أو الدراية تتعلَّق بكل ظروف الحيـاة. وبدد محدثى إعجابي بالعظمة والأبهة الظـاهرتين، إذ أثبت لى أن أولئك الذين يتبوأون الحكم بين الناس ليسوا أسعد ولا أوفر حكمة وعقلًا من المحكومين.. كذلك أنباني بشيء، كثيرًا ما تذكرته منذ ذلك الحين: لو أتيح لكل امرىء أن يطلع على قلوب

غيره من البشر جميعًا، لاتضح أن عدد الراغبين في الهبوط يفوق عدد الراغبين في الصعود في هذه الحياة! وهذا الخاطر - الذي يذهل صدقه العقل، والذي لا ينطوي على مغالاة - ظلَّ ذا نفع كبير لي خلال مجرد حياتي، إذ ساعدني على أن أعيش راضيًا بمكاني في الحياة!.. لقد أطلعني هذا الراهب على أوّل الأفكار الصحيحة عما هو مشرف، مما لم يتح لذكائي المتضخم أن يلم به إلا في أكثر صوره مغالاة ومبالغة. فجعلنى أشعر بأن حب الفضائل السامية نادرًا ما يُرى في المجتمع.. وأن المرء إذ يحاول أن يسرف في العلو، يغدو معرَّضًا لخطر السقوط.. وأن تعود أداء الواجبات الضئيلة باستمرار، وعلى خير وجه، لا يتطلَّب مجهودًا أقل من ذاك الذي تتطلَّبه أعمال البطولة، ولكن المرء يكسب من الأولى تبجيلًا وهناءً يفوقان ما يكسبه من الأخيرة.. وأن استمتاع المرء بتقدير أبناء جلدته في جميع الأوقات، يفوق على طول الخط استمتاعه بإعجابهم في مناسبات عابرة!

وفى سبيل تحديد واجبات الإنسان، كان لابد من العودة إلى أصول تلك الواجبات.. كما أن الخطوة التي اتخذتها قبل ذلك مباشرة، والتي كانت حالي الراهنة من نتائجها، أفضت بنا إلى الحديث في الدين. ومن الممكن أن يتصوَّر القارىء عند هذا الحد أن السيِّد جايم الفاضل، هو - إلى حد كبير على الأقل - الأصل الذي قبست عنه شخصية « أسقف سافوا »35 ولم يكن يقتصد في صراحته وانطلاقه في الحديث، إلا في نقاط معينة كانت الحكمة تلزمه فيها بأن يكون أكثر تحفظًا في كلامه. وفيما عدا ذلك، كانت عظاته وأحاسيسه وآراؤه هي هي لا تتبدَّل، وكان كل شيء - حتى نصحه لي بالعودة إلى أهلى - يتسم بما صوّرته به للرأى العام منذ ذلك الحين. لذلك، فلا حاجة إلى التوسع في سرد محادثاتنا، إذ أن مادتها في متناول كل امرىء، وإنما أكتفى بأن أقول إن دروسه ـ التي لم يؤت ما فيها من حكمة ثماره في البداية - أصبحت من بذور الفضيلة والدين التي لم تذو قط في فؤادي، والتي لم تحتج إلى أكثر من رعاية يد أخرى عزيزة حبيبة، كى تثمر وتزدهر!

ومع أن تحولي إلى العقيدة الكاثوليكية لم يكن - في ذلك الحين - تحوّلًا كاملًا، إلا أن هذا لم يحرجني في شيء. وبدلًا من أن أشعر بالملل من أحاديث السيِّد جايم، وجدتنى أشغف بها لوضوحها وبساطتها، ولذلك القدر من حرارة القلب التي كنت أحس أنها تزخر بها.. ولقد أوتيت طبعًا ودودًا، وكان تعلّقى بالناس دائمًا، بسبب الخير الذي أدّوه لي، أقلّ من تعلّقى بهم من جراء الخير الذي كانوا يرجونه لي. ونادرًا ما أخطأ شعورى تقدير هذا الأخير. وكذلك كنت صادق الميل للسيِّد جايم، فكنت في الواقع تلميذه الثاني، وكان لهذا الأمر - في تلك الفترة - فائدة لا تُقدَّر، إذ حال بيني وبين الميل إلى الرذيلة التي كان تعطلى عن العمل يجتذبني إليها!

وفي ذات يوم، تلقيت استدعاء من الكونت ديلا روك، وكان هذا آخر ما أتوقعه. فإن الزيارات العديدة التي قمت بها دون أن أتمكن من الحديث إليه أيأستنى منه، فكففت عن الذهاب إلى داره، وظننت أنه نسيني، أو أنه احتفظ بفكرة سيئة عني. ولكنى كنت مخطئًا، فإنه كان قد شهد - أكثر من مرة - السرور الذي كنت أؤدى به واجباتي لعمته.. بل إنه ذهب إلى حد أن حدَّثها عن هذا السرور، كما أنه تكلَّم معى بشأنه في وقت كنت قد نسيته فيه!.. ولقد تلقّاني في رفق، وأنبأني بأنه رأى أن يدبِّر لي بالفعل منصبًا - بدلًا من أن يمنيني بوعود لا تقترن بتنفيذ - وأنه قد وُفق في مسعاه، وسيعينني في منصب يمكّنني من أن أغدو إنسانًا ذا قيمة، وأن ما بقى بعد ذلك رهن باجتهادي. فإن الأسرة التي سعى لي عندها كانت ذات نفوذ ومكانة، ولن أحتاج إلى وساطة أخرى لديها. ثم أضاف أننى - وإن كنت سأُعامل في البداية كخادم، كما كان شأني من قبل - إلا أننى خليق بأن أطمئن إلى أنهم على أتم استعداد لأن لا يستبقوني في هذا المركز إذا ما استطاع خلقى وسلوكي أن يحملاهم على أن يروا أننى أصلح لعمل أفضل. وخيَّبت خاتمة الحديث بقسوة ما أوحت

إليَّ به بدايته من آمال مشرقة، فقلت لنفسي: « ماذا؟.. أظلّ خادمًا دائمًا؟! »، وخامرني إحساس بسخطٍ مرير، لم تلبث الثقة أن محته، فقد شعرت بأنني أقل صلاحية لمثل هذا المركز من أن أخشى أن أظلّ فيه! 36

واصطحبني محدثي إلى الكونت دى جوفون رئيس ركائب الملكة، وكبير بيت « سولار » الباذخ، فإذا الروح الشماء التي اتصف بها هذا الرجل الوقور تضاعف من أثر حفاوته. وسألني في اهتمام، فأجبته في إخلاص صادق. وقال للكونت ديلا روك أن لي ملامح تروق للعين، وتبشّر بالذكاء، وأنه - في الواقع - لا يرى أننى تنقصني هذه الموهبة، ولكنها ليست كل شيء، ومن ثَم فقد كان من اللازم أن يرى ما كنت عليه في كافة النواحي الأخرى. ثم التفت نحوى وقال: « إن البداية شاقة في كل الأمور تقريبًا يا صغيري، على أن مشقتها لن تذهب - في حالتك - إلى مدى بعيد. كن أريبًا، واسع إلى إرضاء كل واحد هنا، وهذا كل ما عليك أن تفعله في الوقت الحاضر. وفيما عدا هذا، كن مقدامًا، تجد رعاية! ».. وذهب بعد ذلك مباشرة إلى المركيزة « دى بريى » - زوجة ابنه - فقدَّمنى إليها، ثم قدَّمني إلى الأب دى جوفون، ابنه.. ولاحت لى هذه البداية مؤذنة بالخير، فقد كنت من التجربة بحيث أدرك أن الخدم لا يلقون كل هذه الحفاوة. والواقع أنني لم أُعامل كواحد من الخدم، بل كنت أتناول وجباتي على مائدة وكيل أعمال الكونت، ولم أكن أرتدي الزي المخصص للخدم. وعندما أرادني الكونت دى فافريا - وهو شاب أحمق خاوى الرأس -على أن أركب في مؤخرة عربته، حرَّم جده ركوبى خلف عربة أي فرد، أو قيامي بخدمة أحد خارج الدار! على أننى كنت - في الدار - أتكفَّل بالخدمة على المائدة، وأمارس كافة واجبات الخدم تقريبًا، بيد أنني كنت أقوم بذلك متطوِّعًا إلى حد كبير، دون أن أكون ملحقًا بخدمة فرد معين. وفيما عدا كتابة بعض الخطابات التي كانت تُملى علىَّ، وتسجيل بعض الحسابات للكونت دى فافريا، فإننى كنت حر التصرُّف في وقتى طيلة اليوم تقريبًا. وكان هذا (الامتحان) الذي لم أفطن إليه، عظيم الخطورة في الحقيقة، بل إنه كان بعيدًا عن الرحمة، لأن هذا الفراغ الطويل كان خليقًا بأن يقودني إلى رذائل ما كان لي أن أقارفها. على أن هذا لم يحدث، لحسن حظى، إذ أن دروس السيِّد جايم كانت قد خلَّفت أثرًا مطبوعًا على قلبي، وقد تولّاني ميل إليها كان يدفعنى - في بعض الأوقات - إلى أن أتسلّل فأذهب للإصغاء إليها ثانية. وأعتقد أن أولئك الذين كانوا يرونني أبارح الدار سرًا، لم تكن لتخطر ببالهم أقل فكرة عن المكان الذي كنت أذهب إليه. وما كان ثمة ما هو أحكم من النصيحة التي أزجاها الراهب إليَّ بصدد مسلكي: فلقد بدأت عملي بداية تدعو إلى الاعجاب، وأبديت من الاجتهاد، واليقظة والتحمّس، ما سحر كل امرىء. فنصحنى الراهب - عن فطنة - بأن أخفف من اندفاع الشباب، خشية أن يخف من تلقاه نفسه تدريجًا، مما قد يسترعي الانتباه. وقال: « إن القاعدة بأن يُقاس تصرّفك بالقدر الذي بدأت به، فحاول أن تدبِّر أمرك بحيث يزداد جهدك بمضى الزمن، ولكن حذار من أن يقل مجهودك يومًا عنه في اليوم الذي سبقه! ».

وإذ لم يتجشَّم أحد عناء اكتشاف مواهبي المسكينة، ولما لم أكن قد اعتبرت ذا مواهب سوى تلك التي أضفتها علىَّ الطبيعة، لذلك لم يبد لي أن أحدًا قد فكَّر في أن يفيد مني، برغم ما كان السيِّد جوفون قد أنبأنى به. وما لبثت أن جدَّت أمور جعلتني منسيًا تقريبًا.. وفي ذلك الحين كان « المركيز دى بريى »، ابن « الكونت دي جوفون »، سفيرًا في فيينا. وقد وقعت أحداث في البلاط تركت آثارًا محسوسة في الأسرة، فإذا بكل فرد يظلّ في حالة انفعال لبضعة أسابيع، مما لم يدع لأحد وقتًا لأن يفكِّر في شأني. على أنني لم أكن قد خففت من حميتي في العمل ـ حتى ذلك الحين ـ إلا قليلًا. وكان ثمة أمر أفادني وأضرّ بي في آنٍ واحد: أفادني في أنه حفظني من المغريات الخارجية.. وأضرَّ بي في أنه جعلني أقلّ انتباهًا إلى واجباتي بعض الشيء!

كانت الآنسة « دى بريى » شابة في مثل سنى، بديعة التكوين، مليحة المنظر إلى حد كبير، نضرة المحيا، ذات شعر حالك السواد.. ومع أنها كانت سمراء، إلا أنها أوتيت مظهرًا رقيقًا تمتاز به الشقراوات عادةً، ولم يكن قلبي يقوى على مقاومته إطلاقًا! وكان الزي الذي ترتديه كعضو في البلاط الملكي يلائم الشباب تمامًا، ويبدى قوامها الجميل في أبهى مظاهره، ويترك صدرها وكتفيها عارية، ويجعل بشرتها أكثر فتنة، نظرًا للحداد الذي كانت تتسم به ثياب الحاشية في ذلك الوقت. وقد يُقال إنه ليس من شأن الخادم أن يلاحظ هذه الأشياء، وقد كنت مخطئًا بلا ريب، ولكني لاحظتها جميعًا مع ذلك، و لم أكن الوحيد الذي لاحظها. فقد كان كبير الخدم، والوصفاء، يتحدَّثون عنها على المائدة أحيانًا، في لهجة خشنة كانت تؤذي شعورى بدرجة قاسية. ومع ذلك فإن عقلى لم يفقد اتزانه فيوقعني في الحب بكل سهولة، بل أننى لم أنس نفسي، ولم أنس مكاني ومركزى، كما أن رغباتي لم تكن تلقى من الحرية أكثر مما ينبغي!.. وإنما كنت أحب أن أرى الآنسة دى بريى، وأن أسمعها تنطق ببضع كلمات تكشف عن ذكائها وحسن إدراكها وتواضعها. ولقد اقتصر طموحي على متعة القيام بخدمتها، فلم أتجاوز حدودى. وكنت أنتهز الفرص دائمًا - عندما تجتمع الأسرة حول المائدة - لتعزيز هذه الحدود، فإذا بارح خادمها الخاص مكانه خلف مقعدها لحظة، بادرت لفوري إلى شغل مكانه. وفيما عدا ذلك كنت أتخذ موقفي في مواجهتها، وأحدِّق في عينيها لأرى ما توشك أن تطلبه، وأرقب اللحظة المناسبة لابدال طبقها.. وأي شيء كنت أحجم عن اتيانه لو أنها تنازلت فألقت علىَّ أمرًا، أو نظرت إلىَّ، أو وجَّهت إلىَّ كلمة واحدة؟!.. ولكن، لا! كان مقضيًّا علىَّ بألَّا أكون شيئًا يُذكر لديها! بل إنها لم تكن تلاحظ وجودي! ومع ذلك فقد حدث في إحدى المناسبات أن وجَّه أخوها - الذي اعتاد أن يكلمني أحيانًا وهو جالس إلى المائدة - عبارة غير مهذبة إلىَّ، فرددت عليه بكلمات منتقاة، دقيقة التعبير، إلى درجة جعلت الآنسة تنتبه فتحوّل بصرها نحوى. ومع أن هذه النظرة كانت خاطفة، إلا أنها سحرتني!.. وفي اليوم التالي، سنحت فرصة الفوز بنظرة ثانية، فسارعت إلى استغلالها: فلقد أقيمت وليمة عشاء كبرى لمناسبة معينة، فرأيت أثناءها - لأوَّل مرة - أن رئيس الخدم كان يرتدي قبعته على رأسه، وسيفه إلى جانبه، مما أدهشني! وتحوَّل الحديث مصادفة إلى العبارة التي كان بيت « سولار » يتخذها شعارًا، والتي كانت منقوشة على الرسم الذي تألف منه رمز الأسرة وهي عبارة:

Tel fiert qui ne tue pas

ولما كان أهل (بييمونت) غير متفقهين في اللغة الفرنسية، فقد أشار واحد من الحضور إلى وجود غلطة هجائية في الشعار، وأعلن أنه يجب ألَّا يكون ثمة (T) في كلمة fiert. وهمَّ كونت دى جوفون الشيخ بأن يجيب، لولا أن لاحت منه نظرة نحوى، فرآني أبتسم دون أن أجسر على أن أقول شيئًا، فأمرني بأن أتكلَّم. ومن ثم قلت إنني لا أعتقد أن حرف (T) لم يكن ضروريًّا، إذ أن الكلمة من الفرنسية القديمة، وليست مشتقة من ferus، (ومعناها متكبِّر أو متوعد)، وإنما كانت مشتقة من ferit، ومعناها يضرب أو يجرح. ومن ثَم فإن معنى الشعار - كما بدا لي - لم يكن: كم من رجال توعدوا، وإنما.. كم من رجال ضربوا ولم يقتلوا!

والتفت أفراد الجماعة بأسرهم نحوى، ثم التفتوا إلى أنفسهم، دون أن ينبسوا ببنت شفة. أبدًا ما رأيت في حياتي مثل هذه الدهشة! ولكن أكثر ما استخف زهوى، هو أني رأيت من أسارير الآنسة « دى بريى » أنها كانت جد مسرورة. وتنازلت هذه السيِّدة الشابة المترفعة فرمتني بنظرة ثانية كانت مساوية - على الأقل - للأولى، ثم أدارت عينيها نحو جدها. وبدا أنها كانت تنتظر، في شيء من عدم الصبر، المجاملة التي كنت أستحقها، والتي قدَّمها الجد إلىَّ - في الحق - كاملة وافية، وفي مظهر من الرضى جعل الحضور يسارعون جميعًا إلى الانضمام إليه. وكانت اللحظة وجيزة، ولكنها كانت من أعذب اللحظات من جميع

الاعتبارات. من تلك اللحظات التي لا تسنح إلا نادرًا جدًّا، والتي تضع الأمور في نصابها الطبيعي وتعوض إهانات القدر، وتثأر للكفاءة التي لم تكن تلقى تقديرًا. وبعد دقائق معدودة، سألتني الآنسة دى بريي في صوت واهن مستحى - وهي كانت ترفع عينيها نحوى مرة أخرى - أن أناولها بعض الشراب. ولست بحاجة إلى أن أقول إننى لم أدعها تنتظر، ولكنى ارتجفت بعنف وأنا أقترب منها، حتى أننى أرقت بعض الماء على طبقها، بل وعليها. وسألني شقيقها - في غباء - عن السر في ارتجافي. ولم يفلح هذا السؤال في أن يرد إلىَّ جَلَدى، بينما تضرَّج وجه الأنسة دى بريى حتى طغى الاحمرار على بياض عينيها!

وعند هذا انتهت هذه المغامرة الغرامية التي يلاحظ منها - كما كان الأمر في حالة مدام بازيل وخلال بقية حياتي ـ أني لم أكن سعيدًا في ختام غرامياتي!.. وعبثًا صرت أبدى اهتمامًا بالحجرة الملحقة بمخدع مدام دى بريى ـ الأم ـ فإنني لم أحظ بأية بادرة أخرى تنم عن انتباه ابنتها إلىَّ! فقد كانت تلج الحجرة وتغادرها دون أن تنظر إلىَّ.. كما أننى - من ناحيتى - كنت لا أكاد أجسر على أن أتجه بعينَيّ نحوها. بل لقد بلغ من غبائي وارتباكي أنني عندما وقع منها قفازها وهي تمر بي ذات يوم، لم أجسر على مبارحة مكاني، بدلًا من أن أندفع لالتقاط هذا القفاز الذي كنت أتمنى أن أكسوه بقبلاتى، وتركت وصيفًا فضوليًا - كنت على استعداد لأن أخنقه بكل سرور - يلتقطه!.. ومما ضاعف انفعالي، أن تبينت أنني لم أحظ بارضاء مدام دى بريى، فلم تقتصر على عدم إصدار أوامر إلىَّ، بل إنها لم تعد تتقبَّل خدماتي البتة، وسألتني بلهجة فاترة إذ وجدتني في الحجرة الملحقة بمخدعها - في مناسبتين - عما إذا كنت لا أجد عملًا آخر يشغلني؟ ومن ثم اضطررت إلى تجنب هذه الحجرة. وقد تحسرت على ذلك في البداية، ولكن الشواغل تدخلت فسرعان ما كففت عن التفكير فيها!

وسرى عنى برود « مدام دى بريى » كرم حميها، الذي انتبه أخيرًا إلى وجودي: ففي ليلة المأدبة التي ذكرتها، تبادل معى حديثًا عقب العشاء لنصف ساعة. وبدا أن الحديث أرضاه، فطربت لذلك. كان هذا الشيخ الطيب أرق قلبًا من مدام دى فيرسيللي - وإن لم يكن موهوبًا مثلها - وقد كنت معه أحسن حالًا مما كنت معها، وقد طلب إلىَّ أن أكون خادمًا خاصًّا للأب دى جوفون - الذي كان يوليني بعض الاعتبار - عسى أن يفيدني ذلك إذا أنا أحسنت استغلاله، فيساعدني على اكتساب ما كان ينقصنى حتى يهيئنى لما كانوا يعتزمونه لي. ومن ثم أسرعت - في الصباح التالي - إلى الراهب، فلم يستقبلني كخادم، وإنما حملني على الجلوس إلى جانب المدفأة، وأخذ يسألني بأعظم لطف، فسرعان ما تبين أن تعلمي - الذي كنت قد بدأته في كثير من الأمور - لم يكن مكتملًا في أي شيء. وحين وجد أننى كنت - بوجهٍ خاص - على إلمام قليل باللغة اللاتينية، تكفَّل بتلقيني مزيدًا منها. واتفقنا على أن أذهب إليه في كل صباح، فبدأت من الصباح التالي مباشرة وهكذا كنت - بإحدى تلك المصادفات الغريبة التي ستظهر كثيرًا في مجرى حياتى - فوق مكانتي وتحتها في آنٍ واحد! كنت تلميذًا ووصيفًا في بيت واحد! وبينما ظللت خادمًا، حظيت بمدرس كان نبل محتده خليقًا بأن يجعله أستاذًا لأبناء الملوك، ولا أقل منهم!

كان الأب دى جوفون ابنًا أصغر في أسرته، أعدَّه أهله ليكون أسقفًا، ولهذا السبب فإن دراساته لم تذهب إلى أبعد من القدر المعتاد لدى أبناء علية القوم. فقد أُوفد إلى جامعة (سيينا)، حيث مكث عدَّة سنوات، عاد بعدها بجرعة قوية من العناية الدقيقة بانتقاء الألفاظ، ومن ثم فإنه كان يؤدى في (تورين) نفس الدور الذي كان يؤدّيه الأب دي دانجو37 في باريس. وقد دفعه كرهه لعلوم اللاهوت إلى دراسة الآداب، وهو أمر جد مألوف في إيطاليا لدى أولئك الذين يتعلَّمون ليشغلوا مناصب دينية. وقد قرأ إنتاج الشعراء في اهتمام ووعي، وكتب أشعارًا لاتينية وإيطالية مقبولة. وبإيجاز، كان لديه ذوق كاف لأن يشكِّل ذوقي، ويُدخل شيئًا من التنظيم على الركام المهوشي الذي كان رأسي محشوًّا به.

على أنه - إما لأن ثرثرتي أعطته فكرة زائفة عن درايتي، أو لأنه لم يكن يطبق مبادىء اللاتينية المضجرة - قد جعلني أبدأ بداية تفوق المستوى الذي كنت فيه بكثير، وما أن جعلني أترجم بضع أساطير عن « فيدروس »، حتى زجَّ بي في أشعار « فيرجيل » التي لم أكد أفقه منها شيئًا! ولقد كان مقدورًا عليَّ دائمًا -كما سيتجلّى فيما بعد ـ أن أشرع في تعلّم اللاتينيـة من جديد، أكثر من مرة، دون أن أسير في الشوط إلى غايته. على أننى، في هذه المرة، اجتهدت في حميـة، فأخذ الراهب يسبغ اهتمامه عليَّ في عطف لا أستطيع - حتى اليوم - أن أذكره دون أن يخفق قلبي تأثُّرًا!.. صرت أقضى شطرًا كبيرًا من فترة الصباح معه لأتلقَّى العلم ولأؤدّى للسيِّد الخدمات. ولم تكن هذه الخدمات شخصية، فما سمح لي البتة بأن أؤدى هذا النوع، وإنما كنت أكتب ما يمليه عليَّ وأنسخ ما يعهد به إليَّ، فكانت واجباتي كسكرتير أكثـر نفعًا لي من دراساتى كتلميذ!.. فإننى - بهذه الطريقة - لم أتعلَّم الإيطـالية في أرقى أساليب بلاغتها فحسب، وإنما اقتبست ذوقًا أدبيًا، واكتسبت بعض المعرفة بالكتب الجيدة التي كان من المستحيل الحصول عليها من مكتبة « لاتريبو »، والتي كانت عظيمة النفع لى فيما بعد، عندما شرعت في الاعتماد على نفسي في التأليف!

تلك كانت الفترة الوحيدة في حياتي التي كان من المعقول أن أطمع فيها في النجاح، دون ما مشروعات خيالية!.. وأخـذ الراهب - الذي كان جد راض عنى - يحدِّث كل شخص عن ذكائي. وأولانى أبوه تقديرًا خاصًا، حتى لقد ذكـر لي الكونت دى فافريا أنه تحدَّث عنى إلى الملك!.. حتى « مدام دى بريى » تخلَّت عن مسلكها المهين نحـوى. وبإيجـاز، أصبحت ذا حظوة في الدار، مما أثار غيرة الخدم الآخرين، الذين أدركوا - إذ رأوني أتشرَّف بتلقى الدروس على يدى ابن مولاهم - أنه لم يعد مقدرًا لي أن أبقى واحدًا منهم!

وبقدر ما أمكنني أن أحدس عن وجهات النظر التي كانت تعالج أمرى ـ من بضع كلمات كانت تُلقى إليَّ في عجلة، ولم أفكر فيها مليًا إلا فيما بعد - يبدو لي أن آل « سولار » كانوا توَّاقين إلى مناصب السفارات، وربما إلى المناصب الوزارية في المستقبل، ومن ثم فقد كانوا على استعداد لأن يتولوا - بكل سرور - تعليم شخص موهوب، جدير بالثقة، يصبح فيما بعد - لاعتماده المطلق على أسرتهم في معاشه - مستودع ثقتها، ويستطيع أن يخدمها باخلاص. وكان هذا المشروع من الكونت دى جوفون مشروعًا نبيلًا حكيمًا كريمًا، جديرًا حقًّا بأن يصدر عن رجل نبيل عظيم كريم بعيد النظر. وغنى عن الذكر أنني ـ إذ ذاك ـ لم أستطع أن أحيط بكل نطاقه، فقد كان فوق مستوى إدراكي، كما أنه كان يتطلَّب فترة طويلة من التبعيـة والانصياع. وكان طموحي الأرعن لا يرى الحظ الحسن إلا في وسط المغامرات! ولما لم يكن لأية امرأة شأن بهذا المشروع، فقد بدت لي هذه الوسيلة من وسائل النجاح بطيئة ومضنية، وكئيبـة.. في حين أنه كان خليقًا بي أن أعتبرها آمن وأشرف من أية وسيلة أخـرى، لنفس السبب الذي ذكرته، عن عدم تدخل النساء فيها، فإن ذلك النوع من الجدارة الذي تُقبل النساء على بسط حمايتهن عليه، لا يتسم بالطابع الشريف الرفيع الذي يتسـم به النـوع الذي كان مفترضًا أنني أمتلكه!

ومضى كل شيء على أبدع حال، فاكتسبت احترام الجميع أو بالأخرى انتزعته تقريبًا! وانقضت فترة الاختبار، وأصبحت مرموقًا في الدار - بوجه عام ـ كشاب يُبشِّر مستقبله بخير عظيم. ولئن كان قد قُدر له ألَّا يشغل المركز الجديد به، فإن كل امرىء كان يتوقَّع أن يرقى إلى هذا المركز. بيد أن مكاني لم يكن ذاك الذي قدَّره لي الجميع، وقد كُتب عليَّ أن لا أبلغه إلا عن طريق جد وعرة.. وهذا يفضى بي إلى خلة من تلك الخلال الشخصية التي امتزت بها، والتي لا أحتاج إلى أكثر من أن أبسطها للقارىء دون مزيد من الإسهاب.

ذلك أنه بالرغم من أن (تورين) كانت تضم كثيرين سواى ممن اعتنقوا الكثلكة حديثًا، إلا أنني لم أكن أميل إليهم، ولم أسع قط إلى لقاء أحد منهم. على أنني كنت قد عرفت - فيمن

تعرَّفت إليهم - شخصًا من أهل (جنيف) يدعى السيِّد « موسار »، ويُلقب بـ « ذي الفم الأعوج »، وكان من رسَّامي التحف الدقيقة، وذا صلة بي. وقد تبيّن أنني كنت أقيم لدى الكونت دى جوفون، فجاء ليراني مع شخص آخر من (جنيف) يُدعى « باكل »، كنت زميلًا له حين كنت أتدرَّب على الحرفة. وكان « باكل » هـذا مسليًا، شديد المرح، راويًا للفكاهات والنوادر التي كانت تبدو مستملحة لِمَن في مثل سنه. ومن ثم، فإن لكم أن تتصوّروا كيف افتتنت فجأة بالسيِّد باكل إلى درجة لم أعد معها أقوى على أن أفارقه!.. وكان قد اعتزم الرحيل عائدًا إلى (جنيف) بعد وقت قصير، فيا للخسارة التي خُيّل إليَّ أنني سأمني بها!.. وإذ تبينت مداها، رأيت أن أفيد إلى أقصى حد - على الأقل - من الوقت الباقي قبل رحيله، فلم أكن أفارق جواره إطلاقًا، أو بالأحرى أنه هو الذي لم يكن يفارقني، لأننى - في البداية - لم أبلغ من الطيش الحد الذي كان يجعلني أقضى اليوم كله معه خارج القصر دون إذن. على أنهم سرعان ما تبيَّنوا أنه كان يشغل كل وقتي؛ فحرَّموا عليـه ولوج الدار، مما أثار حنقى فنسيت كل شيء عدا صديقى باكل، ولم أعد أقترب من الراهب أو الكونت، ولم أعد أُشاهد في الدار! بل إنني لم أكترث للوم والتأنيب، فأُنذرت بالطرد.. وكان في ذلك دمارى، إذ أغراني بأن من الممكن ألَّا يرحل « باكل » دون رفيق! ومنذ تلك اللحظة لم أعد أرى مسرة، ولا مصيرًا، ولا سعادة تفوق القيام بمثل تلك الرحلة! ومما ضاعف هناءتي المرتقبة، أن مدام دى فاران لاحت لي في نهايتها، ولكن على بُعد سحيق، إذ لم يكن ليخطر ببالي قط أن أعود إلى جنيف بالذات!.. وأخذت رؤى الجبال والمروج والغابات والجداول والقرى تمر أمام ناظري في تتابع لا نهاية له، وقد تجدَّدت مفاتنها!.. وبدا أن هـذه الرحلة قد ابتلعت كل حياتي، فرحت أتذكَّر في ابتهاج كيف سحرتني هذه الرحلة وأنا قادم إلى (تورين)، فما بالك إذا ما استمتعت - إلى جانب كل سحر الاستقلال - ببهجة جديدة، تتمثَّل في صحبة صديق في مثل سنى وميولى، أوتى روحًا طروبًا.. لا سيما وأنه لن تكون ثمة قيود، ولا واجبات، ولا رقابة، ولا اضطرار إلى الذهاب أو البقاء في أي مكان، ما لم يرق لنا ذلك!.. وخُيّل إليَّ أن المرء يكون أحمق ولا ريب إذا ما ضحى بمثل هذا الحظ الطيب من أجل خطط طموحة، بطيئة، شاقة، غير مؤكَّدة التحقّق!.. خطط لم تكن - حتى إذا سلّمنا بأنها قد تتحقق يومًا ما، وبرغم كل إشراقها ومميضها - لتعادل ربع ساعة من السرور الحقيقي ومن حرية الشباب!

وإذ تملكتنى هـذه الفكرة الحكيمة! أقبلت على التصرُّف بطريقة أفلحت في حمل القوم على فصلي من خدمتهم، وإن كان هذا لم يتم في الواقع دون كثير من العنـاء. وهكذا، ذات مساء، أسلمني رئيس الخدم عند عودتي إلى الدار أمرًا من الكونت بفصلي، وكان هذا هو عين ما رجوت!.. غير أننى كنت - بالرغم من نفسي - أدرك جموح مسلكي، وقد أضفت إليه جورًا وعقوقًا حين خُيّل إليَّ بحمل القوم على طردي أستطيع أن ألقي اللوم على سواى، وأن أُنفِّذ خططي وأبرز مصيري، وكأنني كنت مضطرًّا - بالرغم منى - إلى انتهاج المسلك الذي كنت في الواقع المسئول الوحيد عنه!

وقبل أن أرحل في الصباح التالي، أرسل « الكونت دى فافريا » يدعوني لمقابلته. ولما كانـوا يرون أنني فقدت كل تعقّل، وأننى قد لا ألبي الدعوة، فقد ذكر لي رئيس الخدم أنه سيعطيني بعد تلك المقابلة مبلغًا من المـال خُصص لى، برغم أننى كنت لا أستحقه بالتأكيد، وذلك لأنهم لم يكونوا قد قرَّروا لي أجرًا، نظرًا لأنهم لم يكونوا يعتزمون استبقائي في منصب الخادم!

ومع ما كان عليه الكونت دى فافريا من صغر السن وضآلة التفكير، فإنه تحدَّث إليَّ في هـذه المناسبة بما ينم عن وعى وعطف، بل إننى لأكاد أقول إنه تحدَّث بحنان بالغ، وإخلاص صادق، وفي تلطف يهفو بالقلب، فأطلعني على عطف عمـه الراهب عليَّ، وعلى نوايا جده بشأنى. وأخيرًا.. وبعد أن عرض عليَّ بأوضح ما كان في وسعه، كل الميزات التي

كنت أضحى بها لأندفع نحو هلاكي، عرض أن يتوسط لي في البقاء على شريطة أن أتخلى عن ذلك الشاب الشقى الذي أفسدني. وكان من الجلى أنه لم يقل كل هذا من تلقاء نفسه، فقد كنت - برغم حماقتي العمياء - شديد الشعور بكل ما كان مخدومى الشيخ يكنه لي من إشفاق، وقد تأثَّرت به، ولكن رحلتي الحبيبة كانت منقوشة بخطوط غائرة على صفحة خيالي، فلم يكن في وسع أية مغريات أن تمحوها! كنت قد فقدت رشدى تمامًا، فاشتد عنادي وصلابة رأيي، وتذرَّعت بكرامتي، وأجبت - في صلف - بأنني قد تلقيت أمر فصلي من الخدمة، وأننى تقبلته، وأن أوان سحبه قد فات، وأنني قد عقدت العزم على ألّا أسمح لنفسي بأن أُطرد مرتين من بيت واحد، مهما تكن العواقب!. وإذ ذاك رماني الشاب بما أستحق من ألقاب، وقد ثار عن حق، وأمسك بكتفى فألقى بي خارج غرفته وأوصد الباب خلفى!.. فانطلقت مزهوًا وكأننى أحرزت نصرًا باهرًا! وخوفًا من أن أضطر إلى احتمال صراع ثان، تركت للخسة أن تحملني على الرحيل بدون أن أشكر للراهب كرمه!

ولتكوين فكرة عن مدى ما كان جنونى يسوقني إليه في تلك اللحظة، يجدر بالمرء أن يعرف إلى أية درجة يثـور فؤادي بسبب التفاهات البسيطة، وبأي عنف يندفع وراء الشيء الذي يستهويه، مهما يكن هذا الشيء خلوًّا من أية قيمة!.. ذلك أن أغرب الخطط، وأكثرها طيشًا صبيانيًا، وأشدّها حماقة، تتمشّى مع الفكرة التي تحلو وتعززها، حتى أقتنع بحكمة الإقبال على تنفيذها!.. أفهناك مَن يصدق أن إنسانًا ما - لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره ـ يستطيع أن يشيد آماله في العيش، ما بقى من عمره، على زجاجة فارغة؟.. إذن فاسمعوا: كان الأب دى جوفون قد أهداني - قبل ذلك بأسابيع قلائل - نافورة صغيرة من نافورات هيرو[38]، اغتبطت بها. وإذ كنا لا نكف عن اللعب بهذه النافورة، أثناء حديثنا عن رحلتنا خطر لباكل العاقل، ولي، أن في وسع النافورة أن تنفعنا في إطالة الرحلة، فأي شيء في الدنيا أغرب وأدعى لإثارة الفضول من نافورة هيرو؟.. وكانت هذه الفكرة هي الأساس الذي بنينا عليه صرح خطتنا المقبلة، فلم يبق علينا سوى أن نجمع فلاحي كل قرية حول نافورتنا، فينهال علينا الطعام وكل المشتهيات في وفرة عارمة - فقد كنا نوقن بأن المؤن لا تكلف منتجيها شيئًا، وأن عدم تزويدهم المرتحلين بها ليس سوى شر من ناحيتهم! - ومن ثم رحنا نتوقَّع أن نجد أعراسًا ومهرجانات في كل مكان مما يمكننا - دون أن ننفق شيئًا اللهم إلا أنفاسنا ومياه نافورتنا - من أن نكسب نفقات رحلتنا خلال (بييمونت) و (سافوا) وفرنسا.. بل العالم كله في الواقع!.. وعلى أثر ذلك أخذنا نرسم خططًا لا حصر لها لرحلتنا، ثم رأينا أن نتجه أوّلًا نحو الشمال، للاستمتاع بعبور الألب!

6- من سنة 1731 إلى سنة 1732

وهكذا كانت الخطة التي شرعت فيها، هاجرًا - دون ما ندم - راعيّ، وأستاذي، ودراساتي، وآمالي ومستقبلًا كان شبه مؤكد، لأبدأ حياة التشرّد المنتظم!.. وودعت العاصمة[39]، والقصر الملكي، والطموح، والزهو، والحب، والنساء الحسان، وكل المغامرات المثيرة، التي حملني الأمل في العثور عليها إلى (تورين) قبل ذلك بعام.. وانطلقت مع نافورتي وصديقي « باكل »، بكيس خفيف، ولكن بقلب مليء بالغبطة، وبال لا يفكر في شيء سوى استمرار سعادة التجوال التي قصرت عليها بغتة مشروعاتي البرَّاقة. ولقد جعلت هذه الرحلة الشاذة ملائمة بالقدر الذي كنت أتوقَّعه، وإن لم يكن ذلك بنفس الطريقة التي أردتها تمامًا، ذلك لأنه بالرغم من أن نافورتنا كانت ملهاة لصاحبات الفنادق الريفية وخدمهن لبضع لحظات، إلا أنَّا كنا نضطر - مع ذلك - إلى أن ندفع نفقات إقامتنا إذا ما هممنا باستئناف الرحيل. بيد أن هذا لم يزعجنا إلا قليلًا، ولم نفكّر في استغلال النافورة كمورد جدّى الدخل، إلا عندما بدأت نقودنا تنفد. على أن ثمة حادثًا أعفانا من العناء، فقد انكسرت النافورة ونحن على مقربة من (برامان)، والواقع أن الوقت كان قد حان، إذ كنا قد شعرنا - دون أن نجرؤ على المصارحة - بأن التعب قد بدأ يدب فينا. وقد جعلنا هذا النحس أكثر ابتهاجًا من ذي قبل، فضحكنا كثيرًا من غبائنا، إذ نسينا أن ثيابنا وأحذيتنا لن تلبث أن

تبلى، وإذ اعتقدنا أن بوسعنا أن نبتاع جديدًا غيرها بعرض نافورتنا على الأنظار!.. وهكذا تابعنا رحلتنا ونحن في مثل ما بدأناها فيه من حبور، وإن يممنا - في اتجاه مباشر أكثر من ذي قبل - شطر الغاية التي كانت مواردنا المطردة النضوب تحتم علينا بلوغها.

وفي (شامبيرى) بدأت أطيل التفكير، لا بسبب الطيش الذي أقدمت عليه ـ فليس من إنسان أقدر مني على تعزية نفسه سريعًا، وبشكلٍ كامل، فيما يتعلَّق بالماضي - وإنما بسبب الاستقبال الذي كان يرتقبني لدى مدام دى فاران، فقد كنت أتطلع إلى منزلها كما لو كان منزلي الخاص. وكنتُ قد كتبت إليها أنبئها بالتحاقي بالخدمة في دار الكونت دى جوفون، وقد عرفت مركزي هناك، وعندما هنأتني، أزجت إليَّ بعض النصائح الجليلة فيما يتعلَّق بالسلوك الذي يجب أن أنتهجه جزاء الكرم الذي أُبدى نحوى. ولقد اعتبرت السيِّدة أن مستقبلى بات مضمونًا، اللهم إلا إذا أفسدته أنا بخطأ منى.. تُرى ما الذي ستقوله حين تراني عند وصولي!.. أبدًا لم يخطر ببالي احتمال أنها قد توصد الباب دونى، ولكنى كنت أرهب الحزن الذي كنت موشكًا على أن أسبّبه لها، وكنت في خوف من تأنيباتها، التي كانت أقسى على نفسي من أعظم شقاء! فاعتزمت أن أتحمل كل هذا في صمت، وأن أبذل كل ما في وسعى لأهدىء من أساها، فما كنت أرى لي في الحياة ملاذًا سواها، وكان احتمال العيش في خزى منها أمرًا مستحيلًا!

على أن الشطر الأكبر من قلقى كان بسبب زميلي في السفر، فما كنت راغبًا في أن أثقل كاهلها به إلى جانبي، كما كنت أخشى ألَّا يسهل عليَّ التخلص منه! وقد هيأته للفراق بأن أخذت أعامله - في اليوم الأخير - بشيء من الفتور، ففهم الوغد أمرى - فقد كان طائشًا أكثر منه غبيًّا! - وقد ظننت أن تقلّبى سيخز قلبه، فإذا بي مخطيء، إذ كان اللعين لا يسمح لشيء بأن يتغلغل إلى قلبه.. فما أن أرسينا أقدامنا على أرض (أنيسى)، حتى قال لي: « ها أنتذا في بلدك »، وعانقنى مودعًا، ثم نكص على قدميه، واختفى.. فلم أسمع عنه بعد ذلك البتة! وقد دام تعارفنا وصداقتنا ستة أشهر في مجموعهما، ولكن تبعاتهما ستبقى ما حييت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولشد ما يخفق قلبي وأنا أقترب من دارها!.. لقد أخذت ساقاى ترتجفان تحتى، ورانت غشاوة على عينَيّ، فلم أر شيئًا، ولا سمعت شيئًا، وما كان بوسعي أن أعرف شخصًا!.. واضطررت إلى أن أتوقف عدَّة مرات لأتمالك أنفاسي وأسيطر على نفسي. أفكان الخوف من ألَّا أحظى بالمعونة التي كنت بحاجة إليها هو الذي أزعجني بهذا القدر؟.. وهل يبعث الخوف من الجوع مثل هذا الجزع في شخص في مثل سنى؟.. لا! هذا ما أعلنه في صدق وكبرياء، فما استطاع الاهتمام بالنفس ولا استطاعت الحاجة قط ـ في أية لحظة من حياتي - أن يفتحا قلبي أو يغلقاه!.. ففى مجرى حياتى - غير المستقيم، والذي تقترن ذكراه بكثرة تعرجاته وانحناءاته، وبكثرة ما كنت خلاله بلا مأوى ولا خبز - ظللت دائمًا أنظر إلى الثراء والفقر نظرة سواء! ولقد كان بوسعي في أوقات الحاجة أن أتسول أو أسرق - كما يفعل أي امرىء آخر - ولكني لم أكرب نفسي قط من جراء انحداري إلى هذا الدرك. وأعتقد أن قليلين هم الذين صعدوا من الزفرات قدر ما صعدت، وذرفوا من الدموع في حياتهم مقدار ما ذرفت، ولكن الفقر أو خوف الانحطاط إليه لم يقويا قط على أن أنفث زفرة، أو أذرف دمعة!.. إن نفسي - التي خُلقت في حصانة ضد الحظ، فهي لا تتأثَّر به - لم تعرف قط استكانة إلى نعمة.. وعندما لا أفتقر إلى شيء يمكن أن تمس إليه الحاجة، فذاك هو الوقت الذي أشعر فيه بأننى أشقى المخلوقات!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما أن مثلت أمام مدام دى فاران، حتى طمأننى مسلكها! وقد ارتجفت لأوَّل نبرة من صوتها، وارتميت على قدميها. وفي اختلاجات تنم عن أقوى غبطة جياشة، ألصقت شفتَيّ بيدها!

ولست أدرى هل كانت قد سمعت أي نبأ عنى، ولكن وجهها لم ينم عن كثير دهشة أو استياء، بل قالت في صوت حنون: « يا صغيري المسكين! أهذا أنت مرة أخرى؟ كنت أعرف أنك أصغر من أن تقوم بهذه الرحلة. إننى مغتبطة على أية حال لأنها لم تنته إلى ما كنت أخشاه! ».. ثم حملتني على أن أروى لها قصتى، التي لم تكن طويلة، والتي رويتها بأمانة، وإن كتمت بعض تفصيلات قليلة، دون أن أتستر على نفسي أو أستميح لها الأعذار!

وكان تدبير المكان الذي أنام فيه مشكلة، فاستشارت وصيفتها. ولم أجسر على أن أنبس ببنت شفة خلال الحديث، ولكني لم أكد أسمع أن بوسعي أن أنام في الدار، حتى كدت أعجز عن تمالك نفسي!.. ورأيت متاعي القليل يُحمل إلى الغرفة التي عُينت لي، بمثل المشاعر التي رأى بها « سان برو » محفته تُنقل إلى مأوى عربات مدام « دى ولمار »40. ومما ضاعف اغتباطي أنني علمت أن هذه الخطوة لم تكن أمرًا عابرًا، ففي اللحظة التي كان يبدو عليَّ فيها أنني أفكّر في شيء آخر، سمعت السيِّدة تقول: « دعيهم يقولون ما يشاءون، فقد عقدت العزم - مذ ردَّته العناية الالهية إليَّ ـ على أن لا أفارقه! ».

وهكذا استقرّ بي المقام أخيرًا في دارها. على أن هذا الاستقرار لم يكن بعد هو ذاك الذي أتخذه بداية لتاريخ الأيام السعيدة في حياتي، ولكنه ساعد على تعبيد الطريق إلى ذلك اليوم. فبالرغم من أن هذا الشعور المرهف في القلب - الذي يجعلنا نغتبط بأنفسنا غبطة صادقة - هو من صنع الطبيعة، وربما كان من نتاج نظامها، فإنه يتطلَّب مواقف معينة تنميه. وبدون الأسباب التي تحدث هذه التنمية، فإن الرجل الذي وُلد بحساسية قوية قد لا يشعر أو يحس بشيء، وربما مات دون أن يعرف قط حقيقة نفسه!.. ولقد كان هذا هو الشأن معى - أو ما يقرب منه - حتى ذلك الحين. وربما كنت مسوقًا إلى أن أبقى كذلك دائمًا، لو لم يُقدَّر لي أن أعرف مدام دى فاران، أو لو أننى - بعد أن عرفتها - لم أقم معها وقتًا كافيًا لأن أستمرىء حلاوة المشاعر الرقيقة الحانية التي ألهمتنيها. بل إننى لأجرؤ على القول بأن ذاك الذي لا يشعر بغير الحب وحده، لا يحس بأحلى ما في الحياة. فأنا أعرف شعورًا آخر ربما كان أقل سورة وحرارة، ولكنه أكثر من الحب متعة ألف مرة!.. وهو قد يقترن أحيانًا بالحب، ولكنه كثيرًا ما يكون منفصلًا عنه. وليس هذا الشعور هو الصداقة البسيطة، وإنما هو أشد منها عنفًا في غوايته، وأكثر حنانًا في رقته. ولست أعتقد أن من الممكن الشعور به نحو شخص من جنسك.. وعلى كل حال، فإنني عرفت الصداقة كما لم يعرفها أي رجل آخر، ومع ذلك فإنني لم أحس بهذا الشعور في حضور أي شخص من أصدقائي. وهو شعور غامض خفي إلى حد ما، ولكنه لا يلبث أن يتضح فيما بعد، وفيما ينجم عنه. فالواقع أنه ليس من سبيل إلى وصف المشاعر بدرجة مرضية، إلا عن طريق آثارها ونتائجها!

كانت مدام دى فاران تقيم في بيت عتيق، بالغ الاتساع بحيث يحتوى على غرفة بديعة تزيد عن حاجة السيِّدة، فكانت تتخذ منها حجرة للجلوس. وفي هذه الحجرة أنزلتني. وكانت تفضي إلى الدرب الذي سبق أن تكلمت عنه، والذي تمَّ فيه أوَّل لقاء بيننا، وعلى ضفة الجدول المقابلة، كانت البساتين و الريف تبدو للعين. ولم يكن هذا المنظر قليل الشأن بالنسبة للشاب الذي شغل الحجرة، فقد كانت هذه هي المرة الأولى - منذ كنت أقيم في (بوسي) - التي رأيت فيها أية خضرة أمام نافذتى! كنت دائمًا محوطًا بالجدران، وليس أمام عينَيّ سوى سقوف الدور، أو سمرة الطرقات الكالحة.. فبأي طرب شعرت بسحر التجديد الذي عزز ميلي إلى المشاعر الرقيقة الحانية!.. لقد اعتبرت هذا المنظر الفاتن كلون آخر من ألوان كرم ربة نعمتي العزيزة، ولاح لى أنها هي التي وضعت كل شيء هناك، خصيصًا من أجلى، فغرست نفسى هناك إلى جوارها، وقد امتلأت بهناءة وادعة.. وصرت أرى راعيتي في كل مكان، وسط الزهور والخضرة. كانت مفاتنها تمتزج بمفاتن الربيع أمام عينَيّ بطريقة لا يلم بها إدراكى!.. وانتفخ قلبي - الذي كان مكبوتًا حتى ذلك الحين - وامتد

في هذا الفضاء غير المحدود، وأصبحت زفراتى تجد متنفسًا طليقًا وسط البساتين!

ولم أجد لدى مدام دي فاران الأبهة التي رأيتها في (تورين)، ولكني وجدت نظافة، وأناقة، وخيرًا فيَّاضًا، لا تقترن بها الغطرسة والكبرياء قط!.. كانت تمتلك أطباقًا قليلة العدد، فلا صيني ولا خزف، ولا لحوم في مخزن المئونة، ولا خمور أجنبية في أقبية القصر!.. ولكن المطبخ وقبو الدار كانا مزوّدين بما يكفي أي امرىء. وكانت السيِّدة تُقدم في الأقداح الدلفية[41] قهوة رائعة. وكان كل مَن يزورها يدعى إلى العشاء على مائدتها. وما من عامل، أو رسول، أو عابر طريق مرَّ بالدار دون أن يأكل ويشرب. وكان خدمها يتألفون من وصيفة - على قسط من الجمال - من بلدة (فريبور) تُدعى « ميرسيريه »، ووصيف من وطنها يُدعى « كلود آنيه » - سأذكر عنه مزيدًا فيما بعد ـ وطاهية، واثنين من الحمَّالين كانا يستأجران لحمل المحفة « السيدان »[42] في المناسبات النادرة التي كانت السيدة تؤدى فيها الزيارات. وكان هذا العدد من الخدم عبئًا على معاش سنوى قدره ألفا « ليبرة »، لولا أن دخل السيِّدة الضئيل كان - إذا أحسن تدبير انفاقه - كافيًا في بلد كانت الأرض فيه سخية جدًّا، والنقود شحيحة جدًّا! ولكن الاقتصاد لم يكن لسوء الحظ من الصفات الحبيبة لدى السيِّدة، فكانت تستدين، ثم تدفع بقدر ما تستطيع. كانت النقود تذهب في كل ناحية، والأمور تسير على خير ما يمكن أن تسيرا!

وكانت الطريقة التي نظمت بها دارها هي عين ما كانت أوثره لو عهد إليَّ اختيار هذا التنظيم، ومن ثم فمن الميسور تصوّر مبلغ سرورى بالحياة معها، والإفادة منها. أما الأمر الذي كان أقل مدعاة للسرور، فهو أننى كنت مضطرًّا إلى أن أبقى جالسًا إلى المائدة وقتًا طويلًا، فقد كانت السيّدة لا تكاد تحتمل أن تشم العبير المتصاعد من الحساء وأصناف الطعام الأخرى عندما تُحمل إلى المائدة، إذ كانت الرائحة تسلمها إلى الإغماء! وقد دام هذا النفور بعض الوقت، ولكنها لم تلبث أن تمالكت نفسها تدريجًا. وكانت إذا جلست إلى المائدة انصرفت إلى الكلام، دون أن تأكل شيئًا، فلم يكن ينقضى أقل من نصف ساعة قبل أن تتناول قطعة لحم! وكان بوسعي - في هذه الفترة - أن أتناول ثلاث وجبات، ومن ثم فإنني كنت دائمًا أفرغ من طعامي قبل أن تشرع هي في الأكل بوقت طويل. وقد اعتدت - لكي أؤنسها -أن أشرع في الأكل مرة أخرى! وبهذا الوضع كنت أتناول غذاء شخصين، وما شعرت إطلاقًا بضير من ذلك. وبعبارة موجزة: أسلمت نفسى للذة الشعور بالراحة، التي كانت تخامرني عندما أكون معها، لا سيما وأن هذه اللذة التي كنت أستمرئها كانت خلوًا من أي قلق بشأن وسائل الاحتفاظ بها!.. ولما لم أكن قد أُشركت بعد - بثقة تامة - في شئون السيدة، فقد رحت أتصور أن الحال الراهنة قد تستمر على الدوام. ولقد وجدت نفسي هذه الرفاهية في دارها في أوقات أخرى بعد ذلك، ولكني كنت قد ألممت بحقيقة وضعها، وتبينت أنها كانت تستنفد معاشها قبل أن تتسلّمه، ومن ثم فلم أكن أشعر بعين الغبطة التي شعرت بها في ذلك الوقت!.. إن التطلّع إلى المستقبل يفسد دائمًا هناءتي. فليس من المفيد لي في شيء أن أتنبأ بالمستقبل، إذ أنني لم أعرف البتة كيف أتفاداه!

ولقد توطد بيني وبين مدام دى فاران - منذ اليوم الأول - أكمل ود وألفة، وقد داما خلال ما بقى من عمرها. كان اسمى لديها « الصغير »، وكان اسمها عندى « ماما »، وقد ظللنا دائمًا « الصغير » و « ماما »، حتى عندما محت السنون كل فارق بيننا تقريبًا. وإني لأرى أن هذين الاسمين يعطيان فكرة جد رائعة عن لهجة أحاديثنا، وعن بساطة الأسلوب الذي كان مرعيًا في سلوكنا، وعن العلاقة المتبادلة بين قلبينا قبل كل شيء آخر!.. كانت - بالنسبة لي - أرق أم، فلم تسع قط إلى ما فيه سرورها، وإنما كانت تسعى دائمًا إلى ما فيه الخير لي. وإذا كانت الشهوة قد خالطت يومًا تعلقها بى، فإنها لم تبدِّل من طابع هذا التعلّق، وإنما جعلته أكثر فتنة.. وأسكرتني ببهجة الظفر بأم شابة حسناء كنت أجد غبطة في أن ألاطفها[43].. « ألاطفها » بأدق ما في الكلمة من معنى، فما خطر لها قط أن تقتصد في

قبـلات الأم، أو في عناقاتها الرقيقة وملاطفاتها، ومن المؤكّد أنه لم يخطر ببـالي إطلاقًا أن أسيء استغلال ذلك. وقد يُقال إننا - في النهاية - ارتبطنا بعلاقة ذات طابع مختلف، وإني لأقرّ بهـذا، ولكنى أرى أن أتريث قليلًا، فليس في وسعي أن أروى كل شيء في التو!

كانت لحظة لقائنا الأوَّل، هي اللحظة الوحيدة التي جعلتني أشعر بها مليئة بالانفعال العاطفي الحقيقي. على أن هـذه اللحظة كانت من نتائج المفاجأة.. ولم تجسر نظراتى قط على أن تتسلل مستخفية إلى ما تحت المنديل الذي كان يحيط بعنق السيِّدة، برغم أن سوء التستر على بدانة هـذا العنق كان خليقًا بأن يجتذب النظر. ولم أكن أشعر في حضـورها بأية نزوات أو شهوات، بل كنت في حالة استجمام فاتن واستمتاع، وإن لم أدر فيم كان هـذا الاستمتاع!.. وكان بوسعي أن أقضى في هذه الحال كل حياتي الدنيوية، بل وحياتي الأخرى، دون ما لحظة من الملل والسأم، فإن مدام دى فاران هي الشخص الوحيد الذي لم أشعر معه بذلك الفتور والنضوب اللذين يتطرقان إلى الحديث فيجعلان الاضطرار إلى المضى فيه ضربًا من التضحية والاستشهاد!.. ولم يكن كلامنا الهامس في خلواتنا حديثًا بقدر ما كان ثرثرة لا ينضب لها معين، ولم تحن لها نهاية اللهم إلا إذا طرأ ما يقطع استرسالها! ولم تكن ثمة حاجة بها إلى أن تدعوني للكلام، بل كانت الحاجة إلى فرض السكوت عليَّ أكثر لزومًا. وكانت كثيرًا ما تستغرق في شرود حالم لفرط تفكيرها المستمر في مشروعاتها، فكنت أتركها لأفكارها، وأمسك لساني، وأنظر إليهـا.. وإذ ذاك كنت أسعد الرجال!.. وكنت لا أزال أحتفظ بخيـال فذ، فكنت أسعى دائمًا إلى مسامرتها دون مَن ولا تظاهر بصنيع، فقد كنت أستمرىء هذه الخلوات بشغف يتطوّر إلى جنون عندما كان الضيوف المزعجون يعكرون صفوها! فما أن يفد أحد - سواء كان رجلًا أو امرأة - حتى أغادر الحجرة وأنا أزمجر، عاجزًا عن أن أبقى في حضـور طـرف ثالث! وكنت أقبع في حجرتها الداخلية، أعد الدقائق، وألعن هؤلاء الضيوف - الذين يأبون الانصراف - ألف مرة، وأنا لا أقـوى على أن أتصور كيف كان لديهم من الحديث ما يشغل كل هذا الوقت.. فقد كان لديَّ ما يفوقه!

ولم أكن أشعر بقوة تعلقي بالسيّدة إلا عندما كنت لا أراها.. ولا كنت هانيء البال إلا حين أراها، فإذا غابت كان قلقي يصبح أليمًا. كانت حاجتي إلى العيش معها تسبِّب لي نوبات عاطفية كثيرًا ما انتهت بالدموع! ولن أنسى مطلقًا إنني في يوم عيد من الأعياد مضيت للنزهة خارج المدينة، بينما كانت هي في قداس المساء.. وشعرت أن قلبي قد امتلأ بصورتها، وبرغبة متأججة في أن أقضى حياتي معها، وكنت من الإدراك والعقل بحيث أرى أن هـذا كان مستحيلًا في وقتي الراهن، وأن السعادة التي كنت أستمتع بها كل الاستمتاع كانت قصيرة الأمد.. ولقد بعث هذا في خواطرى مسحة من الأسى، لم يكن فيها - مع ذلك - أي اكتئاب، بل كانت تخفف منها آمـال مراودة.. كان صوت الأجراس - الذي كان يهزّني دائمًا بوجه خاص - وشدو الطيور، وبهاء ضوء النهار، والمناظر الطبيعية الساحرة، والمساكن القروية المتناثرة التي كان خيالي يتخذ منها مقامًا لنا.. كل هـذه كانت تخلق في نفسي تأثيرًا قويًا، عاطفيًا، حزينًا، يهز أوتار قلبي إلى درجة أرى معها أنني أنتقل في غيبوبة حالمـة إلى ذينك الوقت والمكان السعيدين، اللذين كان قلبي فيهما يمتلك كل ما كان يصبو إليه من سعادة، فيقبل على تذوقها في انتشاء لا سبيل إلى وصفه، دون أدنى تفكير في لذة شهوية. وما أذكر البتة أننى أوغلت يومًا في التفكير في المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرني في تلك المناسبة.



وما اذكر البته أننى أوغلت يوما فى التفكير فى المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرنى فى تلك المناسبة ..

وكان أعظم ما أدهشني من ذكرى هذا الحلم بعد أن تسنى له أن يتحقق، هو أنني ألفيت الأمور تطابق تمامًا ما تصوّرته في الخيال. وإذا قُدِّر يومًا لأحد أحلام اليقظة التي تراود ذهن إنسان ما أن يكون شبيهًا برؤى النبوة، فهو حلمي هذا بالتأكيد. فما خدعني خيالي إلا في الأمد الذي تصوّرته، فقد تمثلت في الحلم أن حياتنا معًا امتدت أيامًا وأعوامًا في سكينة صافية سامية لا يعكرها شيء.. في حين أن هذه الحال لم تدم - في واقع الحياة - سوى لحظة.. ويا لحسرتي!.. فإن أبقى سعادة ظفرت بها، إنما كانت حلمًا لم تلبث اليقظة أن أعقبت تحققه في الحال!

ولن أفرغ من مهمتي إذا أنا خضت في تفصيلات كل الحماقات التي كان تذكرى لهذه الأم العزيزة يحملني على ارتكابها عندما لا أكون في حضرتها: فكم كنت أقبل سريري لأنها نامت فيه يومًا، وستائرى وكل أثاث حجرتي لأنها كانت ملكًا لها، ولأن يدها الجميلة كانت تمسها!.. حتى الأرض كنت أتقلّب عليها ما دامت هي قد خطرت فوقها!.. وكنت أحيانًا أرتكب - في وجودها - نزوات ما كان ليوحي بها سوى أعنف ألوان الحب! وقد حدث ذات يوم أن كنا نجلس إلى المائدة، وما أن وضعت قطعة من اللحم في فمها، حتى هتفت قائلًا إننى لمحت شعرة فيها، فردَّت القطعة إلى طبقها، وإذ ذاك انقضضت عليها في لهفة وابتلعتها! وبإيجاز: لم يكن بيني وبين أشد العشاق تدلهًا سوى فارق واحد - ولكنه جوهرى - يجعل حالتي فوق كل تصوّر وإدراك!

وكنت قد عدت من إيطاليا على غير ما ذهبت إليها، بل لعلني عدت منها كما لم يعد قط أي امرىء في سنى، فقد حملت معى - في عودتي - طهرى الجسدى، وإن لم أحتفظ بطهرى العقلي والخلقي! ولقد شعرت بحكم السنين، وقُدر أخيرًا لطباعي القلقة غير المستقرة أن تغدو ملموسة محسوسة، وقد سبَّب لي تجليها لأوَّل مرة ـ على غير إرادة منى - انزعاجًا بشأن صحتي، بدرجة تبين أكثر من أي شيء آخر مدى البراءة التي كنت أعيش فيها حتى ذلك الحين. وما أن اطمأننت، حتى تعلّمت تلك الوسائل الخطرة التي تعاون تلك الطباع، والتي تغرر بالطبيعة وتوفر للشبان الذين أوتوا مثل مزاجي، كثيرًا من الاضطرابات وألوان الإفراط، على حساب صحتهم وقوتهم و.. وحياتهم أحيانًا! ولهذه الرذيلة - التي يرتاح إليها الخجل والجبن -إغراء عظيم يجتذب التخيلات: ذلك هو - كما ينبغي أن يقال - حشد الجنس بأسره لإرضائها، واستغلال الجمال لملذاتها، دون ما حاجة إلى الحصول على موافقته أو رضاه!.. وتحت إغراء هذه الخلة المهلكة، جهدت في تدمير البنية البديعة التي منحتنيها الطبيعة، والتي أتحت لها الوقت لتتسق في تشكلها. أضف إلى هذه العادة ظروف مركزي الحالي، إذ كنت أقيم في دار امرأة جميلة، أداعب طيفها في قرارة قلبي، وأراها باستمرار طوال النهار، وأُحاط في الليل بأشياء تذكرني بها، وأنام في سرير عرفت أنها كانت تنام فيه!.. فأية مثيرات هذه! إن القاريء الذي يتمثلها لنفسه يرى ولا ريب أنني كنت في منتصف الطريق إلى الموت بالفعل! ولكن الأمر كان على نقيض ذلك تمامًا، فإن الشيء الذي كان خليقًا بأن يقضى علىَّ، كان عين ما أنقذني، ولو إلى حين. ففي انتشائى بسحر الإقامة معها، وبالرغبة الجامعة في أن أقضى أيامي بقربها، كنت أرى فيها دائمًا ـ سواء كانت غائبة أو حاضرة - أمًا حنونًا، وأختًا حبيبة، وصديقة لطيفة.. ولا أكثر من هذا!.. هكذا كنت أراها دائمًا، وهكذا كانت دائمًا، فلم أكن أرى سواها قط! وكانت صورتها الماثلة في قلبي دائمًا لا تدع مكانًا لأحد البتة!.. كانت لى المرأة الوحيدة في العالم، وكانت العذوبة البالغة التي اتسم بها ما كانت تلهمني من مشاعر، لا تدع لحواسي وقتًا تستيقظ فيه على غيرها، بل كانت تعصمني منها ومن كل جنسها! ومجمل القول أنني كنت عفيفًا، لأنني كنت أحبها!.. فليقل مَن يستطع ـ على ضوء هـذه النتائج التي لم أحسن وصفها - أي نوع كان تعلقي بها!.. أما أنا، فكل ما أملك أن أقول عنه هو أنه إذا كان يبدو جد غريب، فإنه سيبدو في عواقبه أغرب!

وكنت أقضى وقتى على خير وجه، وإن شغلت بأقل ما كان يروق لي من أشياء. كانت ثمة مشروعات تُدبَّر، ومذكرات تنسخ مصححة، ووصفات تُنقل، وأعشاب تُنتقى، وعقاقير تصحن وتسحق، وأنابيق (أجهزة للتقطير) تُراقب.. وفي غمرة هذا كله، كان عابرو السبيل والمتسولون والزائرون - من كافة الطبقات - لا يكفون عن الوفود زرافات، فكنا نضطر إلى أن نستضيف جنديًا وصيدليًا وكاهنًا وسيِّدة راقية وطالب مأوى.. في آنٍ واحد! وكنت أسب، وأزمجر، وألعن، وأتمنى أن يتخطف الشيطان كل هذه الشرذمة اللعينة. أما مدام دى فاران - التي كانت تتقبَّل ذلك بحسن نية - فكانت غضباتى تضحكها حتى تدمع عيناها، وكان يضاعف من ضحكها أن تراني أزداد سخطًا لأنني لم أكن أملك أن أصد الضحك!.. كانت الفترات القصار التي كنت أحظى فيها بالزمجرة، لحظات ساحرة!.. ولو أن قادمًا جديدًا من هؤلاء الضيوف الثقلاء أقبل خلال الجدال، فإن السيِّدة كانت تعرف كيف تنتزع لنفسها من ذلك تسلية، وذلك بأن تطيل الزيارة في تخابث، وهي ترميني بنظرات أود معها لو أضربها! وكانت تتمالك نفسها بعناء حتى لا تنفجر مقهقهة، إذ تراني أتجلد وأكظم مشاعرى تأدبًا، وأرمقها كشخص مسلوب النهى، في حين أنني كنت في قرارة فؤادي ـ بل ورغمًا عن نفسي - أرى الأمر كله داعيًا للضحك!

ولئن لم يكن كل هذا يسرّني، إلا أنه كان يروق لي، لأنه كان يؤلف جزءًا من نوع من الوجود كان يبهجني. ولم يكن في كل ما كان يجرى حولى - ولا في كل ما كنت مضطرًّا إلى عمله - شيء يلائم ذوقي، ومع ذلك فقد كان كل شيء يروق لفؤادي. وأعتقد أنني كنت قمينًا بأن أميل إلى الطب، لولا أن نفوري منه سبَّب تلك المناظر المضحكة التي أطربتنا كثيرًا.. ولعل هذه هي المرة الأولى التي يخلق فيها هذا الفن أثرًا كهذا. كنت أزعم أن بوسعي أن أعرف أي مركب طبي من رائحته، وكان الطريف في الأمر أننى نادرًا ما كنت أخطىء! ولقد حملتني مدام دى فاران على أن أتذوق أفظع العقاقير، ولم تكن ثمة جدوى من الفرار أو محاولة الدفاع عن نفسي، فبالرغم من مقاومتى ومن عبوسي، وبالرغم من اصطكاك أسنانى، كنت أضطر أخيرًا إلى أن أفتح فمي عند ما أرى أصابعها الجميلة - ملطخة بالعقار - بالقرب منه، فأمتصها!.. وعندما كان كل أهل دارها يجتمعون في حجرة واحدة، يسمعون جرينا وصراخنا وضحكنا، كان أي امرىء خليقًا بأن يظن أننا كنا نمثل إحدى المسرحيات، بدلًا من تحضير البلاسم والأكاسير!

على أن وقتي لم يكن وقفًا على هذه الحماقات. فقد وجدت في الغرفة التي كنت أشغلها بضعة كتب: « المتفرج »، و « بيفندروف »، « سانت ايفريموند »، والقصيدة « الهنرية ». ومع أنني لم أكن أحتفظ بجنوني القديم بالقراءة، إلا أنني كنت أقرأ قليلًا عندما لا أجد شيئًا آخر أفعله. وكان كتاب « المتفرّج » يلذ لي بوجه خاص، وقد أثبت أنه كان ذا نفع لى. وكان الأب دى جوفون قد علّمني أن أقرأ في غير إسراع، وبمزيد من التأمل، ولهذا أصبحت المطالعة أكثر فائدة لى. وعوّدت نفسي أن أفكر في اللغة والأسلوب وبلاغة تركيب العبارات، كما دربت نفسي على أن أميز الفرنسية الفصحى من التعبيرات الإقليمية. وتعلّمت كيف أصحح الكثير من الاخطاء الهجائية التي كان يشاركني في ارتكابها جميع أهل (جنيف)!

وكنت أتحدَّث إلى « ماما » أحيانًا عن مطالعاتي، كما كنت اقرأ لها أحيانًا، فأحظى بسرور عظيم، وأحاول أن أتقن القراءة، وكان هذا -بدوره - مفيدًا لى. ولقد ذكرت أنها كانت ذات عقل مصقول، كان ذلك الوقت بالذات في عنفوانه. وقد أبدى عدد من رجال الأدب شوقًا إلى الظفر بالحظوة لديها، فعلّموها كيف تحكم على المؤلفات التي تنم عن عبقرية. وكان لها ذوق « بروتستانتي » بعض الشيء - إذا جاز لي أن أقول هذا - فلم تكن تتكلم إلا عن « بايل »، وكانت تقدر القديس « ايفريموند » الذي مات في فرنسا قبل ذلك بوقت قصير. ولكن هذا لم يعقها عن أن تتعرَّف إلى أي أدب طيب، وأن تناقشه في فطنة. وكانت قد

نشأت في مجتمع رفيع، ووفدت على (سافوا) وهي بعد صغيرة. وفي الوسط البهيج الذي يعيش فيه علية القوم في هذه البلاد، فقدت طريقة أهل إقليم (فود) في الحديث، حيث تحرص النساء على التظاهر بالحصافة واللباقة، ولا يعرفن الكلام إلا بالطرائف والحكم الشعرية!

ومع أنها لم تحظ إلا بمعرفة عابرة بالبلاط الملكي، إلا أنها ألقت عليه نظرة سريعة، كانت كافية لأن تعرفه بها. وكانت تحتفظ لنفسها دائمًا بأصدقاء فيه، وعلى الرغم من الدسائس الخفية المنبعثة عن الغيرة، وبالرغم من الاستياء الذي كان مسلكها وديونها تثيره، إلا أنها لم تفقد قط معاشها. ولقد أوتيت خبرة بالدنيا، ومقدرة فكرية على الإفادة من هذه الخبرة، فكانت تؤلف أفضل موضوع في أحاديثها. وكان هذا بالذات هو الموضوع الذي أجدني في حاجة ماسة إلى الإلمام به، بالنسبة إلى آرائي الخيالية.. ولقد قرأنا كتاب « لابروبير »، فأعجبها أكثر من كتب « لاروشفوكو » الذي كان أديبًا كئيبًا ممضًا، لا سيما للشباب الذين لا يكترثون لرؤية الناس على حقيقتهم. وكانت إذا وعظت استغرقت أحيانًا في خطب طويلة، ولكني كنت أتزود لاحتمالها بتقبيل فمها ويديها من وقت إلى آخر، فلا يعود إسهابها يضجرني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم. وكنت أشعر بذلك، فكان اغتمامي بالإشفاق من أن أراها تنتهى هو الشيء الوحيد الذي عكر استمتاعي بها! وكانت « ماما » في وسط مداعباتها تدرسني، وتراقبني، وتسألني، وترسم - من أجل تقدّمى - مشروعات كنت أتجاوزها بسهولة. ولحسن الحظ أنه لم يكن كافيًا أن تعلم ميولي وأذواقى وامكانياتى، بل كان من الضروري البحث عن فرص لاستخدامها على وجه نافع أو « خلق » هذه الفرص. ولم يكن هذا بالعمل الذي يتم في يوم واحد. بل إن الأحكام الصادرة عن الهوى، والتي كانت المسكينة تتخذها إزاء مواهبي، كانت - في الوقت ذاته - سببًا في تأجيل لحظات تطبيقها بالذات، إذ كانت تجعلها تعنى عناية خاصة باختيار الوسائل. وبالإيجاز: سار كل شيء وفق رغباتي بفضل حسن رأيها فيّ. ولكن هذه الحياة كانت مسوقة إلى نهاية، إن عاجلًا أو آجلًا.. وإذ ذاك، وداعًا لكل أمل في الطمانينة!.. فقد جاء لزيارة مدام دى فاران قريب لها - يُدعى السيِّد « دوبون » - كان رجلًا عظيم الدهاء يجيد الدس، وذا عبقرية - مثل قريبته - في رسم المشروعات، ولكنه كان أبرع من أن يدع مشروعاته تقضى عليه. كان من المغامرين! وكان قد اقترح على الكاردينال « دى فليرى » مشروعًا لتنظيم « يانصيب »، بلغ من تعقده أنه لم يلق قبولًا. فجاء بعرضه على بلاط (تورين)، حيث قُبل ونُفّذ. وقد مكث هذا الرجل بعض الوقت في (أنيسي)، حيث عشق زوجة وكيل الحكومة! وكانت امرأة جد لطيفة، قريبة إلى ذوقى، حتى أنها كانت الوحيدة التي كنت أسرّ برؤيتها في دار « ماما ». ولقد رآني السيِّد « دوبون »، وحدَّثته قريبته عنى، فتكفَّل بامتحاني ليرى ما أصلح له، فاذا ما وجدنى أهلًا لشيء، بحث لى عن منصب!

وأرسلتني مدام فاران إليه في صباحين أو ثلاثة متعاقبة، بحجة بعض مهام لها، دون أن تبصرني بشيء. وأفلح الرجل في حملي على الكلام، وأبدي لي الود، وتبسط معى إلى أقصى ما أمكنه، وتحدَّث معي في مسائل غير ذات بال، وفي كافة الموضوعات.. كل ذلك دون أن يشعرني بأنه كان يراقبني، ودون أدنى كلفة، وكأنه وجد في صحبتي مسرة فرغب في التسامر معى دون ما قيود. وأعجبت به.. وكانت نتيجة ملاحظاته أننى - برغم مظهري الجذاب وملامحي الدالة على الفطنة - كنت فتى قليل الذكاء، عديم الأفكار، عديم المعرفة تقريبًا، إن لم أكن غبيًا!.. وبعبارة موجزة، كنت محدود العقل من كل الاعتبارات، وكان أرفع منصب يحق لي أن أصبو إليه، هو أن أصبح يومًا راعيًا لكنيسة إحدى القرى! هكذا كانت النتيجة التي قدَّمها عنى لمدام دى فاران، وكانت هذه هي المرة الثانية أو الثالثة التي

يُحكم عليَّ فيها بمثل ذلك. بل إنها لم تكن المرة الأخيرة. فكم من مرة عزز فيها رأى السيِّد « ماسيرون ».

وكانت أسباب هذه الأحكام ترتبط بخلقى ارتباطًا وثيقًا لا داعى معه إلى أي إيضاح هنا. ذلك لانه من المفهوم - صراحة - أنني لا أستطيع أن أقرّ هذه الآراء دون تحفّظ، وأننى ـ بكل حيدة وتجرّد عن الهوى - لا أستطيع أن أتقبَّل كل ما قاله السيّدان « ماسيرون » و « دوبون » وغيرهما على علّاته!.. فلقد اتحد في نفسي شيئان متنافران تقريبًا، بطريقة لا أملك إدراكها: طباع حادة، وعواطف محتدمة صاخبة.. وفي الوقت ذاته، أفكار بطيئة النمو، مهوشة، لا تكشف قط عن نفسها إلا بعد فوات الأوان. ومن الممكن أن يُقال إن قلبي وعقلى لا يمتان إلى فرد واحد. فإن الشعور يستحوذ على نفسي بأسرع من البرق الخاطف، ولكنه يكويني ويعشى بصري، بدلًا من أن ينيرني. فإذا بي أحس بكل شيء دون أن أرى شيئًا! إن العواطف تجرفني، ولكني بطيء التفكير، لابد لي من أن أسرى عن نفسي حدَّة الانفعالات لكي أستطيع أن أفكّر. والعجيب في الأمر هو أننى - برغم ذلك - أوتيت رأيًا مؤكّد الصواب، وبصيرة نفَّاذة، ودقة في الحكم، إذا ما أتيح لي الوقت الكافي.. وأننى لأصدر آراء عاجلة إذا تُركت وشأني، ولكني لم أفه يومًا بشيء ذي قيمة في اللحظة التي طُلب إليَّ فيها ذلك! وبوسعي أن أجيد النقاش عن طريق التراسل، بنفس النهج الذي يُقال عن الأسبان أنهم ينتهجونه في لعب الشطرنج. وعندما قرأت عن أحد دوقات (سافوا) أنه قطع رحلته وعاد ليصيح: « سأنقض على عنقك أيها التاجر الباريسي »، لم أتمالك أن أقول: « هكذا أنا »!

هذا البطء في التفكير مع فورة الشعور، لا يلازماني في الحديث فحسب، وإنما هما معى حتى في وحدتي، وعندما أعمل!.. فإن أفكاري تنسق نفسها في رأسي بعناء لا يكاد يُصدق، إذ أنها تدور فيه على غير هدى، ثم تتخمَّر وتفور حتى تحرّكني وتبعث الحرارة في كياني، فيتسارع خفقان قلبى. وفي غمرة هذا الانفعال، لا أعود أرى أي شيء بوضوح، ولا أقوى على أن أكتب كلمة واحدة، وأضطر إلى الانتظار و التريث.. ولا يلبث الانفعال العظيم أن يخف بطريقة لا أفقهها، فينقشع الاضطراب، ويستقر كل شيء في مكانه، ولكن.. في بطء، وبعد انفعال طويل مربك. أفما قُدِّر لك يومًا أن تشهد « الأوبرا » في إيطاليا؟.. ففي خلال تبديل المناظر، تسود هذه المسارح العظيمة فوضى غير مستحبة، تمتد فترات طويلة. إذ تختلط كافة الزخارف (الديكورات) بعضها ببعض، وترى الأشياء تُجذب في كل ناحية بشكل مؤلم، حتى ليخال للمرء أن كل شيء قد انقلب رأسًا على عقب! ثم لا يلبث كل شيء أن ينتظم شيئًا فشيئًا، ولا يبقى أى نقص، ويدهش المرء إذ يرى منظرًا رائعًا عقب هذه الفوضى الطويلة! هذه العملية تقرب من تلك التي تجرى في مخي عندما أرغب في الكتابة. ولو أنني تعلَّمت أن أتريّث أوَّلًا، ثم أجنى الأشياء التي ارتسمت في ذهني، صاقلًا جمالها، لما تفوق علىَّ سوى قليل من الكتَّاب!

ومن هنا كانت الصعوبة البالغة التي أجدها في الكتابة. وأن مخطوطاتي بما فيها من كشط ومحو وسطور متداخلة، وكتابة لا تكاد تقرأ، لتشهد بالعناء الذي تكبدنيه. فليس بينها ما لم أضطر إلى نسخه أربع أو خمس مرات قبل أن أستطيع أن أدفع به إلى المطبعة! وما استطعت قط أن أنتج وأنا جالس إلى منضدتى وأوراقي والقلم في يدى، وإنما اعتدت أن أكتب على صفحة ذهني بينما أتمشى وسط الصخور والغابات، أو في الليل وأنا مستلق في فراشي مستيقظًا. وفى وسع المرء أن يُقدر ذلك البطء، سيما لدى إنسان حُرم تمامًا من ذاكرة تحفظ الكلام، وما قُدِّر له في حياته أن يحفظ ستة أبيات من الشعر عن ظهر قلب!.. بل إن من عباراتي وجملي ما ظللت أقلّبه وأديره في رأسي خمس أو ست ليال، قبل أن يغدو صالحًا لأن يُسجَّل على الورق! وهنا أيضًا السر في أننى أكثر توفيقًا في أعمالي التي تتطلَّب جهدًا، منى في تلك التي تتطلَّب خفة أسلوب معينة، كالرسائل.. وهي خفة لم يُقدِّر لي قط أن أتمكن من الإلمام بها، ومن ثم فإن هذه المهمة ترهقني. فلست أكتب رسالة في

أتفه موضوع، إلا وتكبدنى ساعات من الضني.. كما أننى إذا حاولت أن أكتب فورًا ما يعن لي، لا أدرى كيف أبدأ ولا كيف انتهى. ومن ثم تكون رسالتي لغوًا طويلًا مهوشًا، يلقى المرء عناءً في فهمه إذا ما قرأها!

ولا تكبدني الأفكار عناء في تسجيلها فحسب، وإنما تكبدني العناء ذاته في تلقيها. لقد درست الناس، وأعتقد أننى قوى الملاحظة، ومع ذلك فإنني لا أملك أن أرى بوضوح شيئًا مما أشهده، وإنما أتمثّل بوضوح ما أذكره، ولا أبدى الفطنة إلا في ذكرياتي.. فمن كل ما يُقال، ومن كل ما يُعمل، ومن كل ما يجرى في حضوري، لا أشعر بشيء ولا أتغلغل ببصيرتي في شيء. وإنما الذي يؤثر فيَّ هو الظاهر وحده!.. بيد أن كل شيء لا يلبث أن يرتدّ إلى ذهني فيما بعد، فأذكر المكان، والزمان، والحال، والنظرة، والإشارة، والظروف.. لا يفوتني منها شيء. وعندئذ، أتبين مما قاله القوم أو فعلوه ما كانوا يفكرون فيه، ونادرًا ما أخطىء!.. ولو أننى سيطرت على طاقتي الذهنية قليلًا، فيما بيني وبين نفسي، ففي وسع المرء أن يحدس ما كنت أصبح عليه من براعة في الحديث، حيث يجب - من أجل الكلام في الموضوع - أن أفكر في ألف شيء في نفس الوقت والمكان. ولكن مجرَّد التفكير في التوفيق بين هذه الأشياء - التي أوقن من أننى لابد أن أنسى شيئًا واحدًا منها على الأقل - يكفي لكي يبث الخوف في نفسى! بل إننى لا أفهم كيف يجد أي امرىء الجرأة على الكلام في جماعة، حيث لا غنى له عن أن يطوف ببصره مستعرضًا الحاضرين، مع كل كلمة.. وحيث لا بد له من أن يلم بشخصياتهم وسيرهم، حتى يستوثق من تجنبه ذكر أي شيء قد يجرح شعور أحد منهم. ومن هذه الناحية، يمتاز الذين يعيشون في الدنيا44 بميزة كبرى، هي أنهم يكونون أكثر من سواهم دراية بما لا ينبغي أن يصمتوا عنه، وأشد اطمئنانًا إلى ما يقولون.. ومع ذلك، فكثيرًا ما تفلت منهم هفوات، وهنات. فما بالك بمن يسقط في وسطهم من بين السحب؟!45.. إنه ليستحيل عليه تقريبًا أن يتكلّم لدقيقة دون خوف من الزلل!.. وهناك مضايقة أخرى في المسارة - أي عندما أتحدَّث مع شخص ما في خلوة - أجدها أنكى مما سبق: تلك هي ضرورة الكلام باستمرار. فإذا وُجه إليك الحديث، كان عليك أن تجيب.. وإذا لم توجد كلمة تقال، كان عليك أن تحيى الحديث من جديد. هذا الاضطرار الذي لا يطاق، هو وحده الذي ينفرني من المجتمع. ولست أجد ضيقًا أفظع من الاضطرار إلى الحديث عفو الخاطر وباسترسال. ولا أدرى ما إذا كان لهذا أي شأن من كراهيتي المميتة لكل قهر، من أي نوع. بيد أنه يكفيني أن أكون مضطرًا إلى الكلام، لكي أنطلق في لغو لا محيص منه.

أما ما يفوق هذا شناعة، فهو أننى بدلًا من أن أستطيع أن أمسك لساني عندما لا أجد شيئًا يقال، إذا بي أجد نفسي - في هذا الوقت بالذات - أكاد أجن شوقًا إلى الكلام، لأرد الدين بأسرع ما أستطيع!.. فأبادر إلى إطلاق عبارات متلعثمة خالية من أية فكرة، وتشتد سعادتي إذا كانت لا تعنى شيئًا على الإطلاق. وإذ أحاول أن أغالب أو أن أخفى غبائى، فإنني نادرًا ما أخفق في إظهاره! ومن ألف مثال أستطيع ذكرها، أختار واحدًا لا يمت إلى أيام الصبا، وإنما إلى وقت كان خليقًا بي أن أكون قد اكتسبت عنده يسرًا في القول - إن كان هذا ممكنًا - بعد أن عشت سنوات عديدة بين الناس. ففي ذات مساء، كنت أجلس بين سيدتين عظيمتين ورجل يحق لي أن أذكر اسمه، وهو السيِّد الدوق « دى جونتو ». ولم يكن ثمة سوانا في الحجرة، وقد رحت أجاهد في سبيل ذكر بضع كلمات - يعلم الله ماذا كانت - خلال حديث كان يدور بين أربعة أشخاص، كان بينهم ثلاثة في غير حاجة - بالتاكيد - إلى تعقيبي. وأمرت ربة البيت بإحضار دواء كانت تتناوله مرتين يوميًا لعلاج معدتها. وإذ رأت السيِّدة الأخرى وجهها يتغضن - اشمئزازًا من الدواء - قالت ضاحكة: « أهذا الدواء من لدن السيِّد ترونشان » فأجابتها الأولى بنفس اللهجة: « لا أظنه! ».. وهنا عقب روسو الذكي في تأدب: « أظن أنه لا يفوقه في شيء! »46. وبقى الجميع واجمين، فلم يفه أحد بأتفه كلمة أو بأضأل ابتسامة. وبعد لحظة: اتخذ الحديث اتجاهًا آخر. وما

كانت هذه الفلتة لتبدو - في أي مجلس آخر - سوى فكاهة، أما وقد وُجهت إلى امرأة كانت من رقة الشعور بحيث لا تحب أن تجعل نفسها مادة للحديث، ولم تكن لديّ - بكل تأكيد - أية رغبة في مس شعورها، فقد بدت شنيعة، وأعتقد أن الشاهدين - الرجل والمرأة - عانيا كثيرًا لكي يكبحا الضحك. هذا مثال لفلتات الذكاء التي تمنعنى من الرغبة في الكلام عندما لا أجد شيئًا يُقال.. ولن أنسى بسهولة هذا الحادث، لا لأنه - في ذاته - مما يعلق بالذاكرة، وإنما لأنه يجول بخاطري أنه كانت له عواقب تدفعه إلى ذاكرتي كثيرًا.

وأعتقد أن هذا يكفي لبيان كيف أننى وإن لم أكن غبيًا، إلا أننى كثيرًا ما ظُن بي ذلك، حتى من جانب أناس لهم ما يمكنهم من الحكم الصحيح. ومما يضاعف سوء حظى أن ملامحي وعينَىّ توحى بفكرة أفضل، وأن خيبة هذا الحدس تبدى هذا الغباء للغير بشكلٍ أبشع!.. وهذا الإسهاب في شرح الفكرة، الذي تولَّد عن مناسبة خاصة، ليس خاليًا من النفع بالنسبة لما سيأتي فيما بعد. فهو يتضمن ما يجلى غوامض كثير من الأمور الشاذة التي شوهدت منى، والتي تعزى إلى طباع وحشية غير اجتماعية، ليس لديّ في الواقع شيء منها! فلقد كنت خليقًا بأن أحب المجتمع كأى فرد آخر، لو لم أكن متأكدًا من أن ظهوري فيه ليس في صالحي، فضلًا عن أنني أبدى نفسى شخصًا آخر غير ما أنا حقيقة. ومن ثم فإن الوضع الذي اتخذته وأنا أكتب وأعيش في عزلة، هو عين الوضع الذي يناسبني تمامًا. وأينما أكون حاضرًا لا سبيل إطلاقًا إلى تقدير قيمتي، ولو تخمينًا. وهذا ما جرى لمدام « دوبان »، برغم أنها كانت امرأة ذكية، وبرغم أنني كنت أعيش في دارها لسنوات عدّة. ولقد صارحتني - هي نفسها - بذلك كثيرًا منذ ذلك الحين. ومع ذلك، فإن لهذه القاعدة استثناءات، سأعود إليها فيها بعد47.

أما وقد استقرّ مجال مواهبي عند هذه الحدود، فقد تعيّن الوضع المناسب لي واتضح للمرة الثانية، ولم يبق من سؤال سوى: كيف أملأ مكاني؟.. وكانت الصعوبة تتمثَّل في أننى لم أستكمل دراستي، ولم أكن أعرف - كذلك - من اللاتينية ما يكفي لكي أصبح قسًّا. وكانت مدام دى فاران قد فكرت - في بعض الأوقات - في أن أتعلّم في المعهد الديني، وتحدَّثت إلى رئيسه، وكان راهبًا لازاريًا48 - يُدعى السيِّد « جرو » - طيبًا، ضئيل الجسم، أوشك أن يفقد ابصار إحدى عينيه، كما كان هزيلًا، أشيب الشعر. وكان أعظم لازارى عرفته ذكاء، وأقلّهم غطرسة.. وما هذا القول بكثير عليه في الحقيقة!

وكان يتردَّد أحيانًا على دار « ماما »، فكانت تحتفى به، وتداعبه، وتعاكسه كذلك، وتحمله أحيانًا على أن يربط لها مشدّاتها (الكورسيه)، وهي مهمة كان يُقبل عليها راضيًا! وبينما يكون منهمكًا فيها، تأخذ في الجرى -



وتحمله أحيانا على أن يربط لها مشداتها (الكورسيه) ،
وهي مهمة كان يقبـــل عليهـــا راضـــيا !..

في الغرفة ـ من جانب إلى آخر، لتفعل شيئًا هنا، وشيئًا هنـاك، والسيِّد الرئيس يتبعها - مشدودًا إلى الخيط - وهو يزمجر ولا ينفك يقول: « ولكن، اثبتى يا سيّدتى! ».. وكان هذا موضوعًا طريقًا جديرًا بالتصوير!

وتقبَّل السيِّد « جرو » مشروع « ماما » بتحمس قلبى، فقنع بأجر متواضع لإقامتي، وتكفَّل بتعليمي، ولم يشترط سوى موافقة الأسقف، الذي لم يمنح هذه الموافقة فحسب، وإنما رغب في دفع نفقات إقامتي، كما سمح بأن أظل في زيي المدنى إلى أن يقضى لي بالنجاح المنشود، بعد امتحان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أي تحوّل هذا!.. وكنت مضطرًّا إلى الانصياع، فذهبت إلى المعهد الديني وكانني ذاهب إلى عقوبة أليمة! فيا للمعهد من مأوى حزين كئيب، لا سيما لمن بارح لتوه دار امرأة حبيبة.. ولم أحمل معى سـوى كتاب واحـد، رجوت « ماما » أن تعيرنيه، وكان مصدر عزاء كبير لي. ولن يتصوَّر أحد أي كتاب كان ذلك!.. لقـد كان كتابـًا في الموسيقى!.. فبين المواهب التي تعهدتها « ماما » في نفسها، لم تكن الموسيقى منسية. إذ كان لها صـوت عذب، وكانت تجيد الغنـاء، وتعزف - إلى حد ما - على « البيانو ». وقد تفضّلت بتلقينى بعض دروس في الغناء، وكان لابد لها من أن تبدأ من الأصول الأولى، إذ أننى كنت لا أكاد أدرى شيئًا من موسيقى مزاميرنا. وكانت ثمانية أو عشرة دروس على يدى امرأة - وهي دروس لم يكن سبيل إلى استمرارها دون ما يعكر جوها ويقطع استرسالها - أقل بكثير من أن تمكنني من السلم الموسيقى، أو من الإلمام بالعلامات الموسيقية. على أنني كنت من الشغف بهذا الفن بحيث رغبت في أن أحاول المران بنفسي. ولم يكن الكتاب الذي اصطحبته من الكتب السهلة - في ذاته - فقد تضمن أغاني « كليرامبو ». ومن الممكن تصوّر مدى إقبـالي وعنادي، عندما أقول إننى وُفقت - دون دراية ولا تبديل - إلى أن أترجم وأغني، دون خطأ، اللحن الأول من أغنيـة « الفيه واريثيز » وكلماتها.. وإن كان هـذا اللحن - في الواقع - موزونًا بحيث لا يستلزم أكثر من إلقاء الشعر مع مراعاة المسافات والوحدة، لكي يكسب وقع اللحن!

وكان في المعهد « لازارى » لعين تعهدنى، فجعلني أكـره اللغة اللاتينية التي أراد أن يلقنني إياها. وكان له شعر ناعم، أسود، ينضح بالدهن، ووجه كرغيف من خبز الزنجبيل49، وصوت كصوت الجاموس، ونظرة كنظرة البومة، ولحيـة كذقن التيس!.. وكانت ابتسامته ساخرة، وأطرافه مخلخلة كأطراف الدمية!.. ولقد نسيت اسمه البغيض، ولكن وجهه المخيف، ذا اللطف المتكلِّف، ظلّ باقيًـا في ذاكرتي، لا أكاد أذكره دون أن أرتجف. ولا أزال أتصـور أننى ألقـاه في الردهات، رافعًا في جلال قلنسوته المربعة المتسخة، مشيرًا لى بدخول حجـرته، التي كانت أبغض لـديَّ من غرفة السجن!.. فتصوَّر - على سبيل المقارنة - أستاذًا كهذا لتلميذ راهب كان ينتمي إلى البلاط الملكي!

ولو قُدّر لي أن أمكث شهرين تحت رحمة هـذا الوحش، فإنى موقن من أن رأسي ما كان ليحتمل ذلك. ولكن السيِّد جرو الطيب لاحظ أنني كنت حزينًا، وأنني لم أكن أقبل على الأكل، بل كنت ممعنًا في الهزال، فأدرك سر أساي - إذ لم يكن هذا بالأمر العسيرا - وأنقذني من براثن هذا الحيوان!.. وبتناقض آخر، شديد الغرابة هو الآخر، أسلمني إلى ألطف الرجال: وكان راهبًا شابًا من (فوسيينى)50، يُدعى السيِّد « جاتييه »، كان موشكًا على الفراغ من الدراسة في المعهد، وقد شاء - بدافع من الرغبة في إرضاء السيِّد جرو، وبدافع من الإنسانية على ما أعتقد - أن يسلب دراساته الوقت الذي وهبـه لتلقينى دروسى. والحق أننى أبدًا ما رأيت أسارير أكثر تأثيرًا في النفس من أسارير السيِّد جاتييه!.. فقد كان أشقر، تميل لحيته إلى الحمرة، وله الهيئة المألوفة لدى أهل إقليمه الذين يخفون تحت مظهرهم

الثقيل ذكاءً وافرًا. على أن ما كان يميزه حقًّا هو روح لطيفة، رحيمة، مفعمة بالود. وكان في عينيه الزرقاوين الواسعتين خليط من الرقة والحنان والأسى، تجعل من المستحيل على أي شخص أن يراه دون أن يميل إليه.. وكان من الممكن أن يُقال، من نظرات هذا الشاب المسكين ومسلكه، أنه كان على علم بمصيره، وأنه كان يشعر بأنه وُلد ليكون شقيًّا!

ولم تكذب شخصيته مظهره، فقد كان يتميز بالصبر وحب الإرضاء، مما جعله يبدو أقرب إلى الاستذكار معي منه إلى التدريس لي!.. وكان هذا وحده أكثر من أن يكفى لأن يحملني على حبه.. ومع ذلك، فعلى الرغم من كل الوقت الذي منحنيه، وعلى الرغم من كل التحمس القلبي الذي وجَّهه كل منا إلى دراساتنا، ومع أنه سار على خير نهج، فإنني لم أحظ من اجتهاده الجم إلا بتقدُّم بسيط! ومن الغريب أننى، بما أوتيت من إدراك واسع، لم أتعلَّم شيئًا من الأساتذة - فيما عدا أبي والسيِّد لامبرسييه - أما القليل الذي عرفته فوق ما علمنيه هذان، فقد حصّلته بنفسي، كما سيتجلّى فيما بعد. فإن روحي التي لا تصبر على أى نوع من النير، لا تقوى على الرضوخ لحكم اللحظة. بل إن الخوف من عدم التعلّم يحول دون أن أنتبه، كما أننى، خوفًا من أن أجعل الشخص الذي يتحدَّث إليَّ يفقد صبره، أتظاهر بالفهم، ومن ثم يمضى قدمًا في حديثه، دون أن أعي شيئًا! فلا بد لعقلي من أن يحدد الوقت الذي يروق له للعمل، ولا يستطيع أن يخضع للوقت الذي يحدده له الغير!

وحان وقت تنصيب معلمى « شماسًا »، حسب الطقوس الدينية المألوفة، فعاد إلى إقليمه، وحمل معه حسراتى، ومحبتي، وعرفاني. وقد قدَّمت من أجـله نذورًا لم تتقبل بأكثر مما تُقبلت به النذور التي قدَّمتها من أجل نفسي. ولقد علمت بعد ذلك ببضع سنوات، أنه بينما كان نائبًا لأبرشية، أنجب طفلًا من فتاة كانت هي الوحيدة التي أحبها، برغم قلبه المسرف الرقة. وكانت هذه فضيحة شنيعة في أبرشية كانت تخضع لأنظمة شديدة. فإن القساوسة - نظرًا لخضوعهم لنظم طيبة - ينبغى لهم ألَّا ينجبوا أطفالًا إلا من نساء متزوجات!!.. ومن ثم فإن القس الشاب سُجن لانتهاكه قانون العفة هذا، وفُضح، وجُرِّد من رتبته. ولست أدرى ما إذا كان قد استرد مركزه فيما بعد، ولكن الشعور بسوء حظه نقش بخطوط عميقة على قلبي، وقد عاودتني قصته عندما كتبت « اميل »، فمزجت شخصيتَيّ السيِّد جاتييه والسيِّد جايم، وجعلت من هذين القسين الفاضلين الشخصية الأصلية لأسقف سافوا، وإني لأغبط نفسي لأن الشخصية التي خلقتها لم تنل من قدر الشخصيتين الأصليتين!

وفي أثناء وجودي في المعهد الديني، كان السيِّد دوبون قد اضطر إلى مبارحة (أنيسى).. فقد خطر للسيِّد « كورفيزى » وكيل الحكومة أن يستاء من غرامه بزوجته! وكان هذا أشبه بما جرى لكلب البستانى51.. ذلك لأنه بالرغم من أن مدام كورفيزي كانت ذات جمال يهفو بالقلوب، إلا أن زوجها - الوكيل - كان يعيش معها على شقاق، إذ أن الأهواء التي ورثها عن أهل الجبال النائية جعلت زوجته غير ذات نفع له، فكان يعاملها بوحشية أثارت مسألة الانفصال بينهما. وكان السيِّد كورفيزي رجلًا شريرًا، أسود كالفأر الجبلى، خطّافًا كالحدأة، وقد انتهى به استغلاله سلطاته إلى طرده من منصبه. ويُقال إن أهل الريف يتشفّون في أعدائهم بالأغاني، أما السيِّد دوبون فقد تشفَّى بمسرحية هزيلة. وقد أرسل هذه التمثيلية إلى مدام دى فاران، التي أطلعتني عليها فأعجبت بها، وتولدت لديَّ نزوة تأليف مسرحية أخرى، لأرى ما إذا كنت قد ظللت « بهيمًا » كما وصفنى يومًا! على أنني لم أحقّق هذا المشروع إلا في (شامبيرى)، حيث كتبت « عاشق نفسه »! (ومن ثم فإنني عندما قلت في مقدمة هذه المسرحية إنني كتبتها في الثامنة عشرة من عمرى، إنما كنت أكذب، إذ أنني تجاوزت عن بضع سنوات!).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفى حوالى ذلك الوقت، وقع حادث كان قليل الأهمية في حد ذاته، ولكنه كان ذا عواقب

بالنسبة لي، كما أنه أحدث ضجة في العالم عندما نسيته. فلقد كنت أحرص على التماس الإذن بالخروج من المعهد مرة في كل أسبوع، ولست بحاجة إلى أن أذكر كيف كنت أفيد من ذلك. وفي يوم من أيام الآحاد، كنت لدى « ماما » عندما شبَّ حريق في إحدى بنايات « الرهبان السمر »، وكان ملاصقًا لدار مدام دى فاران. وكان هـذا المبنى - الذي أقيم فيه فرن الرهبان - مليئًا بالوقود الجاف، فسرعان ما أصبح كله شعلة من النار، وأصبحت دار السيِّدة في خطر عظيم، وقد لفها اللهب الذي حملته إليها الريح. وصار من الواجب نقل الأثاث بسرعة من الدار، وحمله إلى الحديقة التي كانت مواجهة لنوافذ حجرتي القديمة، حيث كان يجرى خلفها الجدول الذي تحدَّثت عنه. وكنت من الاضطراب بحيث رحت ألقى من النافذة بدون وعى كل ما كان يقع تحت يدي، ولو كان حجرًا كبيرًا من أحجـار الجدار كنت ـ في الأوقات الأخـرى ـ لا أكاد أقوى على رفعه.. بل إننى أوشكت أن ألقى كذلك بمرآة كبيرة، لو لم يردّني شخص ما عن ذلك! ولم يقبع الأسقف الطيب - الذي كان في زيارة « ماما » في ذلك اليوم - خاملًا، بل إنه انتقل بها إلى الحديقة، حيث شرع يصلى معها، ومع كل مَن كانوا هناك.. حتى إذا وصلت إلى الحديقـة بعد ذلك بقليل، وجدت الجميع جاثين على ركبهم، فحذوت حذوهم. وفي أثناء صلاة الرجل التقى، تغيَّر اتجاه الريح فجأة، وفي اللحظة المناسبة، فإذا ألسنة اللهب التي كانت تحوط الدار والتي أخذت تسعى إلى النوافذ، تتجه إلى الجانب الآخر من الفناء، فلم يصب البيت بأي سوء!

وبعد ذلك بعامين - وكان السيِّد دى برنيكس، الأسقف، قد توفى - شرع الرهبان الانطونيون، وهم زملاؤه السابقون، في جمع الأنباء التي يمكن استغلالها في تطويبه[52]. واستجابة لرجاء الأب « بوديه » أضفت إلى تلك الأنباء شهادة بالواقعة التي ذكرتها، والتي كنت فيها على صواب. ولكني أخطأت إذ قدَّمتها على أنها معجزة! فلقد رأيت الأسقف وهو يصلى، ورأيت الريح تتبدَّل أثناء صلاته، وفي اللحظة المناسبة تمامًا.. وكان ينبغى أن أذكر هذا وأشهد به. أما أي الأمرين كان سببًا للآخر، فهذا ما لم يكن ينبغي لي أن أشهد به، لأننى لم أكن أملك أن أعرفه. ومع ذلك فإنني - بقدر ما أستطيع أن أذكر آرائى يومئذٍ - كنت كاثوليكيًا مخلصًا، ومن ثم فقد كنت صادق الإيمان، ولكن حب الغرائب الخارقة - وهـو طبيعي في فؤاد البشر - وتوقيرى لهـذا الراهب الوقور والزهو المستتر بأنني ربما كنت قد ساهمت بنفسي في المعجزة، ساعدت على تضليلي. أما الشيء المؤكَّد فهو أنه إذا كانت تلك المعجزة نتيجة للصلاة الحارة، فقد كان من حقي أن أطالب لنفسي بنصيب فيها!

وعندما نشرت « رسائل الجبل » - بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عامًا - نقب السيِّد « فريرون » بطريقة ما عن هـذه الشهادة، واستغلها في تعليقاته. وجدير بي أن أعترف بأن هذا الكشف كان موفقًا، وقد بدا لي إذ ذاك أن إعلانه في تلك المناسبة كان أمرًا سارًا.

وكان مقدرًا لي أن أكون طريد كل المهن. فمع أن السيِّد دى جاتييه رفع عن تقدُّمي في الدراسة تقريرًا اعتبرته أقل ما كان بوسعه أن يقدّمه، من حيث إساءته إلىَّ، إلا أنه رؤى أن تقدّمي لم يكن متناسبًا مع مجهوداتى، وأن هذا لم يكن مشجعًا على المضي في دراستي. ومن ثم فإن الأسقف ورئيس المعهد فصلاني وردَّاني إلى مدام دى فاران كشخص لا يصلح ولو لأن يكون مجرَّد قس، وإن كان - فيما عدا ذلك - فتى طيبًا، وخلوًا من أية رذيلة، كما قالا. وكان هذا هو السبب في أنها لم تنبذني، برغم تعدد الأحكام المثبطة ضدى!

وأعدت إليها - مزهوًا - كتابها الموسيقى الذي أفدت منه. وكان لحن « ألفيه وأريثيز » هو كل ما تعلَّمت - تقريبًا - في المعهد الديني. ولقد أوحى إليها ميلى الملحوظ إلى هـذا الفن، بأن تجعل منى موسيقيًا! وكانت الفرصة مواتية، فقد كانت الموسيقى تُعزف في دارها مـرة في الأسبوع على الأقل. وكان رئيس فريق الكاتدرائية الموسيقى يدير هـذه الحفلات الصغيرة، وقد اعتاد أن يتردَّد كثيرًا على الدار. وكان باريسيًا يُدعى السيِّد « لوميتر »، بارعًا في التلحين، كثير النشاط، مرحًا جدًّا، لا يزال شابًّا، على قسط كبير من الملاحة،

ونصيب قليل من الذكاء.. لكنه كان - في مجموعه - طيبًا. وقد عرّفتنى به « ماما »، فملت إليه، كما أنه لم ينفر منى. وبحث أمر الأجر، وتمّ الاتفاق. وبإيجاز، ذهبت إلى داره، حيث قضيت أحب شتاء لديّ، إذ أن الدار لم تكن تبعد أكثر من عشرين ياردة عن منزل، « ماما »، فكان بوسعنا أن نكون إلى جانبها في أية لحظة، وكثيرًا ما تناولنا عشاءنا معها.

ولابد أنكم أدركتم أن الحياة في دار « لوميتر » - بما فيها من غناء دائم، ومن صحبة الموسيقيين والأطفال المنشدين « الكورس » - قد راقت لي أكثر من حياة المعهد الديني مع رهبان القديس لازار. على أن هذه الحياة، وإن كانت أكثر حرية، إلا أنها لم تكن أقل نظامًا. فقد رُوضت على حب الاستقلال دون أن أنسى استغلاله البتة. ففي ستة أشهر كاملة، لم أخرج مرة واحدة إلا لأذهب إلى بيت « ماما » أو إلى الكنيسة، ومع ذلك فإنني لم أشعر بشوق إلى الخروج. كانت تلك إحدى فترات حياتي التي عشت خلالها في أعظم دعة، والتي أذكرها بأعظم اغتباط. فمن بين الأوضاع المتباينة التي وجدت نفسي فيها، أوضاع امتازت بشعور من السكينة والدعة يجعلني - حين أذكرها - أتأثر بها وكأنني ما أزال فيها. فلست أذكر الأوقات والأماكن والأشخاص فحسب، وإنما أذكر كل الأشياء التي كانت تحيط بي، وحرارة الجو، وعبير الوسط، ولونه، وأي طابع محلى لا يوجد إلا هناك، بحيث تردنى ذكراه الحية إلى هناك من جديد!.. مثال ذلك أن كل ما كان يتردد في دار رئيس الفريق الموسيقى، وكل ما كان الفريق يترنم به، وكل ما كان يحدث هناك، وزى الشمامسة الجميل، ومسوح القساوسة، وتيجان المرتلين، ووجوه الموسيقيين، ونجار أعرج طاعن في السن كان يعزف على الكمان الكبير « الكونترباس »، وراهب صغير أشقر يعزف على الكمان العادي، والرداء الكنسى المهلهل الذي كان السيِّد « لوميتر » يرتديه فوق لباسه المدنى بعد أن ينزع عنه سيفه، والقميص الاكليروسي البديع، الرقيق النسيج، الذي كان يستر به الرداء البالي عندما يسعى إلى فرقة المرتلين، والزهو الذي كنت أسير به ـ وأنا ممسك بصافرتي الصغيرة ـ لأتخذ مكاني مع العازفين على المنصة، لأشترك في ختام مقطوعة صغيرة لحنها السيِّد « لوميتر » خصيصًا من أجلي.. ثم الغداء الطيب الذي كان ينتظرنا بعد ذلك، والشهية الملحوظة التي كنا نقبل بها عليه.. هذا التتابع الحافل، الذي أتمثله، قد فتنني - في ذكره - أكثر مما فتنني في الحقيقة مائة مرة! ولقد احتفظت دائمًا بميل عاطفي للحن معين من « كونديتور آلمى سيديرم » يرافق شعرًا من بحر الغمب53، لأننى سمعته مرة - في يوم أحد الصوم الكبير - وأنا مستلق في فراشي، وكان يُرتل على درج الكاتدرائية قبيل انبثاق النهار، وفقًا لعادات تلك الكنيسة. ولقد كانت الآنسة « ميرسيريه » - وصيفة « ماما » - على دراية بقسط من الموسيقى. ولن أنسى البتة أرجوزة دينية صغيرة كان السيِّد « لوميتر » يحملني على أن أغنيها معها، فكانت سيدتها تصغى إليها في طرب عظيم. وقصارى القول أن الجميع، حتى الخادم الطيبة « بيرين » - وهي فتاة ساذجة اعتاد الفتية المرتلون أن يثيروا غيظها - هؤلاء جميعا يمثلون للخاطر من بين ذكريات تلك الأيام الهنيئة البريئة، التي كثيرًا ما تتراءى لى لتطربني وتحزنني!

وعشت في (أنيسى) زهاء عام دون ما لوم ولا تثريب، فقد كان الناس كلهم راضين عنى، فإننى - مذ غادرت تورين - لم أرتكب حماقة، وما كان لي أن أرتكب ما دمت تحت بصر « ماما »، فقد كانت ترشدني، وكانت دائمًا تحسن إرشادي، وأصبح تعلقى بها هو عاطفتي المشبوبة الوحيدة. ومما يدل على أنها لم تكن عاطفة رعناء، أن قلبي كان يكون عقلى وإدراكي. ومن الصحيح أن ثمة إحساسًا واحدًا كان يبتلع - كما ينبغي أن يقال - كل مقدراتي وكفاءاتي، فجعل في غير استطاعتي أن أتعلّم شيئًا، حتى الموسيقى، بالرغم من أننى بذلت كل جهدى. على أنه لم يكن ذنبى!.. فقد كانت العزيمة الطيبة متوفرة على أتم وجه، كما كانت المثابرة موجودة. ولكني كنت شارد الذهن، حالمًا.. فكنت أتنهد: ما الذي أملك أن أفعله؟ لم يكن ينقص تقدّمى شيء من الأشياء المتوقفة علىَّ أنا، ولم أكن أحتاج - لكي أرتكب حماقات جديدة - إلى غير موضوع أو شخص « ملهم » يوحى إلىَّ بهذه

الحماقات!.. ولقد ظهر هذا الموضوع، إذ تولت المصادفة تدبير الأمور، وعرف رأسى الغبي كيف يستغل ذلك، كما سترى مما يلي:

ففي إحدى أمسيات شهر فبراير البارد، سمعنا طرقًا على الباب الخارجي، بينما كنا نحيط بالمدفأة، وحملت « بيرين » مصباحها، وهبطت ففتحت الباب، وإذا بشاب يدخل، ويصعد معها، ويقدِّم نفسه في غير كلفة، ويوجِّه إلى السيِّد « لوميتر » تحية قصيرة، لبقة، ويعلن أنه موسيقي فرنسي دفعه سوء حالته المالية إلى أن يعرض خدماته على كنائس الابرشيات ليحصل على ما يمكنه من مواصلة الانطلاق في طريقه. وإزاء هذه الكلمات من « الموسيقى الفرنسي »، خفق قلب « لوميتر » الطيب، فقد كان يتدله في حب بلده وفنه. واحتفى بالمسافر الشاب، وعرض عليه مأوى لليلته، وهو ما كان يبدو في أمس الحاجة إليه، ومن ثم فقد قبله دون كثير كلفة. وأخذت أتفحصه وهو يتدفأ ويسمر في انتظار العشاء. كان قصير القامة، عريض المنكبين. وكان ثمة عيب ـ لم أدر كنهه ـ في قوامه، دون ما نقص معين أو تشويه محدد. كان - إذا صح التعبير - ذا ظهر محدودب، مع استواء لوحى الكتفين، كما أظن أنه كان يعرج قليلًا في مشيته وكان في ثوب أسود أبلاه الاستعمال المستمر أكثر مما أبلاه القدم، فتهلهل.. وقميص من نسيج ثمين ولكنه جد متسخ، به زوائد ذات حواف دقيقة الوشى تزين صدره، وطماقين54 كان بوسعه أن يدس ساقيه معًا في أي منهما!.. كما كان يتقى الصقيع بقبعة صغيرة يستطيع أن يدسها تحت إبطه!.. ومع هذا الزي المضحك، فإنه كان على شيء من النبل لم تكن هيئته تكذبه. كانت طلعته رقيقة بشوشة، وكان يتكلم بطلاقة ولباقة، ولكن في تواضع جم.. كان كل شيء فيه ينم عن شاب ماجن - وإن كان طيب التربية - لم يكن يستجدى كالمتسولين، وإنما كالمجانين! ولقد أنبأنا بأنه يدعى « فينتور دى فيينيف »، وقد وفد من باريس، وضل الطريق.. وأنه نسى، إلى حد ما، دوره كموسيقى. وأضاف أنه كان ذاهبًا إلى (جرينوبل) ليقابل قريبًا له عضوًا في البرلمان.

وأثناء العشاء دار الحديث حول الموسيقى، فأجاد الكلام عنها. كان يعرف كبار العازفين جميعًا، وكافة المؤلفين الذائعي الصيت، وكل الممثلين، وجميع الممثلات، وحسان النساء طرًا، والسادة العظماء بأسرهم! كان يبدو ملمًا بكل شيء يُقال، ولكن ما أن يثار موضوع، حتى يحول عنه الانتباه ببعض الفكاهات التي تبعث على الضحك وعلى نسيان ما يُقال!.. وكنا في يوم السبت، ومن المقرر أن نعزف في الكاتدرائية في اليوم التالي، فاقترح عليه السيِّد لوميتر أن يشترك في الغناء هناك « عن طيب خاطر! ».. فسأله عن طبقة الصوت.. « الطبقة العليا »، ثم مضى يتحدَّث عن شيء آخر!.. وقبل الذهاب إلى الكنيسة، قدَّم إليه دوره ليطلع عليه، فلم يلق عليه نظرة. وأذهل تصرفه هذا « لوميتر »، فهمس في أذني: « لسوف ترى أنه لا يعرف علامة واحدة من العلامات الموسيقية! ».. فأجبته: « شد ما أخشى أن يكون كذلك ». ورحت أرقبه في قلق، حتى إذا بدىء الغناء، خفق قلبي في قوة كبيرة، فقد كنت شديد الاهتمام به. وسرعان ما تبينت ما طمأننى، إذ أنه غنى قطعتيه بأداء صحيح وبكل ذوق سليم يمكن تصورهما، وفوق ذلك، بصوتٍ بالغ الجمال. أبدًا لم ألق مثل هذه المفاجأة المستحبة! وبعد القداس، تلقَّى السيِّد فينتور التهاني، جزافًا من الكهنة والموسيقيين، فكان يجيب عنها متفكهًا، ولكن في كثير من الكياسة دائمًا. وعانقه السيِّد لوميتر بحرارة، وكذلك فعلت أنا، وقد أبصر أننى كنت مغتبطًا، فبدا أن هذا سره!

وإني لواثق من أن القاريء سيقرّني على أننى وقد أولعت بالسيِّد باكل - الذي لم يكن برغم كل شيء سوى قروى جلف - كنت حريًا بأن أشغف بالسيِّد فينتور الذي أوتي ثقافة وتربية ومواهب وذكاء وخبرة بالدنيا، والذي كان من الممكن أن يوصف بأنه ماجن مستحب!.. وكان هذا عين ما حدث لي، وما أظن أنه كان حريًا بأن يحدث لأي شاب آخر في مكاني. بل إن سهولة حدوثه كانت خليقة بأن تزداد كلما كان المرء أسلم رأيًا في إدراك الكفاءة،

وكلما كان أشد استعدادًا لأن يفتتن بها. فليس من شك في أن « فينتور » قد أوتى كفاءة، وكفاءة نادرة في مثل سنه، تلك هي عدم الاندفاع إلى الكشف عن كل ما اكتسب من معرفة وتجربة وخبرة. ومن الصحيح أنه كان يتمشدق بأشياء كثيرة لم يكن على علم بها، ولكنه لم يكن يقول شيئًا عن الأشياء التي كان على إلمام طيب بها، والتي كانت كثيرة العدد.. وإنما كان ينتظر حتى تحين مناسبة لعرضها، فإذا ما حانت انتهزها دون تلهف واندفاع، فكان هذا يُحدث أكبر الأثر. ولما كان يقف عقب كل موضوع، فلا يحدث عما عداه، لذلك لم يكن من سبيل إلى التكهن بالوقت الذي يفرغ عنده من عرض كل ما كان لديه.. كان في حديثه مداعبًا، مرحًا، لا ينضب له معين، ذا جاذبية خلابة.. يبتسم دائمًا ولا يضحك ابدًا، ويتكلم بأرق لهجة عن أشد الموضوعات جفافًا، فيجعلها مستساغة!.. حتى أشد النساء حياءً كن يذهلن لما يتحملنه منه، وكم شعرن بأن من الخليق بهن أن يظهرن له الغضب، فلم يجدن القدرة على ذلك!.. ولم يكن ينشد من النساء سوى المومسات. ولست أعتقد أنه خُلق ليكون ذا ثروة وجاه، ولكنه خُلق ليثير إيناسًا ومرحًا لا حد لهما في مجالس أولئك الذين أوتوا الجاه والثراء! وكان من العسير أن يبقى محصورًا في وسط الموسيقيين طويلًا وهو الذي يملك مثل هذه المواهب المستحبة، في بلاد تقدِّرها وتحبها!

ولقد كان ميلي إلى السيِّد « فينتور » أكثر رشدًا في أسبابه. وأقل انحرافًا عن الصواب في نتائجه، بل وأكثر حرارة وأطول بقاءً من حبي للسيِّد باكل!.. فلقد أحببت أن أراه، وأن أسمعه، وكان كل ما يفعله يبدو لي رائعًا، وكل ما يقوله يبدو لى آيات منزلة، ولكن افتتاني به لم يذهب إلى الدرجة التي لا أطيق معها فراقه. فلقد كان لي في الجيرة وقاءً عاصم من هذا الشطط55. وإلى جانب ذلك شعرت بأن مبادئه، وإن كانت جد صالحة له، إلا أنها لم تكن تصلح لى، فلقد كنت أهفو إلى نوع آخر من المتع لم تكن لديه أية فكرة عنه، بل أنه كان حريًا بأن يسخر منى من أجله! ومع ذلك، فلقد وددت أن أربط هذا الود، بذاك الذي كان يسيطر عليّ. فتحدَّثت عنه إلى « ماما » في وجد وحرارة، كما أن « لوميتر » حدَّثها عنه في إطناب، فرضيت بأن يحضر إلى دارها. ولكن هذا اللقاء لم يكن موفقًا على الاطلاق، إذ أنه وجد « ماما » متحذلقة، بينما وجدته هي ماجنًا، وخشيت عليّ من مثل هذه المعرفة السيئة، فلم تكتف بأن حرَّمت عليّ إحضاره إلى الدار مرة أخرى، بل أنها راحت تبين لي - بوضوح قوى - الأخطار التي أتعرَّض لها مع هذا الشاب، حتى أنني ازددت تحفظًا في اندفاعى نحوه، ولحسن حظ أخلاقي وإدراكي، لم تلبث أن افترقنا بعد قليل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان للسيِّد « لوميتر » ما لأبناء فنه من ميول، فكان يحب النبيذ.. على أنه كان يزهده إذا ما جلس إلى المائدة، أما أثناء عكوفه على العمل في مكتبه، فقد كان لابد له من أن يشرب. وكانت خادمته تعرف ذلك تمامًا، فكان إذا ما أعد ورقه للتأليف، وحمل كمانه، لحقت به قنينة الشراب والكأس بعد لحظة!.. وكانت تستبدل بها قنينة أخرى مليئة بين آن وآخر، فقد كان يكثر من النبيذ دون أن يثمل. وكان هذا في الحق شيئًا يدعو للرثاء، إذ أن « لوميتر » كان فتى طيبًا بفطرته، وطروبًا، حتى أن « ماما » لم تكن تدعوه إلا بـ « قطى الصغير »!.. وكان - لسوء الحظ - مشغوفًا بموهبته الموسيقية، فكان يسرف في العمل، وبالتالي في الشراب. وقد أثَّر هذا على صحته، ثم على طباعه في النهاية، فكان في بعض الأوقات كثير الهواجس، سهل الاستثارة. وكان عاجزًا عن أية خشونة أو غلظة، عاجزًا عن أن يقصر في منح كل إنسان حقه من الاحترام، فما قال يومًا سبَّة، ولو لصبي من المرتلين. وكذلك لم يكن أحد ليقصر في احترامه وتقديره، وكان هذا عدلًا!.. ولكن سوء حظه تمثَّل في أنه كان قليل الذكاء، لا يميز بين التصرفات ولا بين الشخصيات، ومن ثم فكثيرًا ما كان يتوهم الإساءة لغير ما سبب!

ولقد فقد مجمع أساقفة جنيف القديم - الذي كان كثير من الأمراء والأساقفة يتشرَّفون

بدخوله - بهاءه القديم، في مهجره، ولكنه احتفظ بكرامته وكبريـائه. فلابد دائمًا - للانضمام إليه - من أن يكون المرء من السادة، أو من حاملي درجة الدكتوراه من « السربون »، وإذا كان ثمة فخر مبـاح بعد ذاك المستمد من الكفاءة الشخصية، فذاك هو الفخـر المستمد من المولد. هذا إلى جانب أن كل القساوسة الذين أوتوا رجالًا مدنيين في خدمتهم، كانوا يعاملونهم عادة بكثير من الترفّع والتعالى. وهكذا كان رجال الكنيسة يعاملون « لوميتر » المسكين في كثير من الأحيان، لا سيما المرتل الذي كان يُدعى السيِّد الأب دي فيدون، والذي كان في كافة النواحي الأخرى موفور الأدب ولكنه شديد الزهو بنبل أصله، فقد كان لا يولى « لوميتر » دائمًا حقه من التقدير الذي تؤهله له مواهبه، ولم يكن هذا ليحتمل راضيًا الغض من شأنه. ولقد وقع بينهما في « أسبوع الآلام » - من ذلك العام - نزاع أشدّ احتدامًا من ذي قبل، بسبب ترتيب الحضور في مأدبة عشاء اعتاد الأسقف أن يقيمها لرجال الكنيسة، وكان « لوميتر » يُدعى إليها دوامًا. فقد أبدى له المرتل بعض الازدراء الصريح، ووجّه له كلمات قاسية لم يستطع أن يتحملها. ومن ثم فقد عقد العزم لفوره على أن يفر في الليلة التالية. ولم يستطع شيء أن يثنيه، برغم أن مدام دى فاران ـ التي ذهب إليها ليودعها - بذلت قصارى جهدها لتحوله عن عزمه. فما كان بوسعه أن ينزل عن لذة الثأر لنفسه من طغاته، بأن يوقعهم في مأزق في عيد الفصح ؛ وهو الوقت الذي كانت تمس فيه الحاجة إليه. على أن ألحانه كانت أشدّ بواعث حيرته، فقد أراد أن يحملها معه، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة، لأن الألحـان كانت تملأ صندوقًا كبيرًا وعظيم الثقل، بحيث لا يمكن حمله تحت الذراع.

ولقد فعلت « ماما » ما كان ينبغي أن تفعله - وما كنت أنا الآخر أفعله لو أنني كنت في مكانها - فبعد كثير من الجهـود غير المجدية لحمله على البقاء، رأت أنه قد صمم على الرحيل مهما يحدث، فتحوَّلت إلى التطوّع لمساعدته في كل ما يمكن أن يعتمد عليها فيه. وإني لأجرؤ على القول بأن هذا كان واجبًا عليها نحوه، إذ كان « لوميتر » قد وقف نفسه - كما ينبغي أن يقال - لخدمتها. وكان رهن إشارتها تمامًا، سواء فيما يتعلَّق بفنه، أو فيما يحتاج إلى عنايته. وكان التحمس القلبي الذي اعتاد أن يبديه في أداء رغباتها، يضاعف من قيمة حرصه على إرضائها. ومن ثم فإنها - بما أبدته من رغبة في مساعدته - إنما كانت تؤدي لصديق، في مناسبة حرجة، ما يقابل كل ما فعله من أجلها في مناسبات كثيرة متفرقة - خلال ثلاث أو أربع سنوات - وإن كانت قد أوتيت نفسًا لا تحتـاج، لكي تؤدي مثل هذه الواجبات، إلى مَن يذكرها بأنها التزامات عليها. لذلك استدعتني، وأمرتني بأن أرافق السيِّد « لوميتر » حتى (ليون) على الأقل، وأن أظلّ ملازمًا له أطول وقت يكون فيه بحاجة إليّ. ولقد اعترفت لي فيما بعد بأن الرغبة في إقصائي عن « فينتور » كانت ذات شأن كبير في هذا الإجراء. وتشاورت مع « كلود آنيه » - خادمها الأمين - بصدد نقل الصندوق، فكان من رأيه أننا بدلًا من أن نستأجر دابة لحمله من (أنيسي) - مما قد يعرّضنا للافتضاح - يجب أن نتولّى نحن حمل الصندوق إذا ما جن الليل، إلى مسافة معينة، ثم نستأجر حمارًا من إحدى القرى لنقله إلى (سيسل)، حيث نصبح على أرض فرنسية فلا نكون معرضين لأي خطر. وقد أخذنا بهذه النصيحة، فرحلنا في الساعة السابعة من مساء اليوم ذاته، وأتخمت « ماما » كيس نقود « « القط الصغير » المسكين، بمبلغ لم يكن عديم النفع له، بحجة دفع نفقاتي. وحمل كلود آنيه والبستاني وإياي الصندوق - بقدر ما استطعنا - حتى أوَّل قرية، حيث أعفانا منـه حمار.. وبلغنا (سيسل) في الليلة ذاتها.

وأعتقد أننى أشرت من قبل إلى أن ثمة أوقاتًا لا أشبه فيها نفسي في شيء، حتى لأبدو شخصًا آخر، ذا شخصية مخالفة لشخصيتي. وها كم مثالًا لذلك: فإن السيِّد « ريديليه » - راعي كنيسـة سيسل - كان من قساوسة كنيسة القديس بطرس، ومن ثم كان يعرف « لوميتر »، كما كان من الذين ينبغي على هذا أن يتوارى عنهم. ولكني رأيت نقيض ذلك، فنصحت بأن نذهب فنُقدِّم نفسينا إليه بحجة ما، ونسأله مأوى لليلتنا، وكأننا في (سيسل)

بموافقة من « المجمع »! واستساغ « لوميتر » هذه الفكرة التي تجعل ثأره ساخرًا، لاذعًا، ومن ثم سعينا متجلدين إلى دار السيِّد « ريديليه » الذي أحسن استقبالنا. وذكر له « لوميتر » أنه كان في طريقه إلى (بيلاى) بناء على طلب من الأسقف، ليدير موسيقاها في عيد الفصح، وأنه يتوقَّع أن يعود بعد أيام قلائل. أما أنا فقد كان عليَّ - لكي أدعم هذه الأكاذيب - أن أسكب مائة أكذوبة أخرى، بشكل طبيعي، حتى أن السيِّد « ريديليه » - إذ رآنى فتىً جميلًا - أبدى لي الود وعانقني ألف مرة. وحظينا بحفاوة طيبة، وبمضجعين مريحين. ولم يدر السيِّد « ريديليه » إلى أي حد رفع قدرنا، وافترقنا كأحسن أصدقاء في العالم، بعد أن وعدناه بأن نمكث وقتًا أطول في عودتنا. ولم نكد نقوى على الانتظار حتى نخلو إلى نفسينا لنطلق العنان لقهقهتنا. وأصارحكم أني ما أزال أفعل الشيء ذاته كلما فكرت في تلك الحيلة، فلست أتصوَّر البتة حيلة ماكرة أكثر إحكامًا ولا أسعد مصيرًا منها. وقد كانت جديرة بأن تنعش نفسينا طيلة الرحلة، لولا أن « لوميتر » - الذي لم يكف عن الشراب وعن التنقل بين حانات الريف - أصيب مرتين أو ثلاثًا بنوبات كادت تقضى عليه، وكانت شديدة الشبه بالصرع. وقد زجَّ بي هذا في مآزق أفزعتني، وحملتني على التفكير في الخروج من الأمر كله بقدر استطاعتي!

وذهبنا إلى (بيلاى) لنقضي عيد الفصح، كما قلنا للسيِّد ريديليه، ومع أن أحدًا لم يكن يتوقَّع حضورنا، إلا أننا لقينا من رئيس موسيقيى الكنيسة ترحيبًا، كما احتفى بنا الجميع بسرور بالغ. فقد كان للسيِّد لوميتر صيت ذائع في فنه، وكان يستحقه عن جدارة. ولقد تاه رئيس موسيقيى (بيلاى) فخرًا بعرض أبدع ألحانه عليه، وسعى للحصول على تقريظ ناقد مثله، فقد كان لوميتر خبيرًا، وكان إلى جانب ذلك منصفًا دائمًا، متحرِّرًا من الغيرة، بعيدًا عن الرياء. كان أرفع مكانة من كل رؤساء فرق المرتلين الإقليمية، وقد كانوا يدركون ذلك كل الإدراك، حتى أنهم كانوا ينظرون إليه كرئيس لهم، أكثر منه كزميل!

وبعد أن قضينا أربعة أو خمسة أيام - على خير حال - في (بيلاى) استأنفنا الرحيل، ومضينا في طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التي ذكرتها من قبل.



طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التي ذكرتها من قبل ..

وإذ بلغنا (ليون)، نزلنا في فندق « نوتردام دى بيتييه » وفيما كنا ننتظر وصول الصندوق - الذي استطعنا بفضل أكذوبة أخرى أن نرسله على مركب في نهر (الرون) بمعونة راعينا الطيب: السيِّد ريديليه - ذهب السيِّد لوميتر لزيارة معارفه، ومنهم الأب كاتون، (أحد الرهبان السمر، وسوف يرد ذكره فيما بعد)، والراهب دورتان، كونت دى ليون. وقد تلقَّاه

الاثنـان في إكرام، ولكنهما غدرا به فيما بعد، كما سيتبين القارىء في الحال. فلقد نفد حسن حظه في دار السيِّد ريديليه!

بعد يومين من وصولنا إلى (ليون)، كنا نجتاز شـارعًا صغيرًا، بالقرب من فندقنا، وإذا لوميتر يصـاب بـإحـدى نوبـاته، وكانت من العنف بدرجة أفزعتنى، فرحت أصيح وأصرخ مستنجدًا، وذكرت اسم الفندق، راجيًا نقله إلى هناك. وبينما التف الناس حوله، متحمسين لمعونة رجل سقط في الطريق فاقد الوعى وقد أخذ الزبد يفور على فمه، إذا به يمنى بهجر الصديق الوحيد الذي كان من حقه أن يعتمد عليه. إذ أننى انتهزت اللحظة التي لم يكن فيها أحد يفكّر في أمرى، وتسللت حول ركن الشـارع، ثم اختفيت. وإني لأحمد السماء إذ أدليت بهذا الاعتراف الأليم الثالث. ولو كان لديَّ كثير من هذا النوع، لهجرت هذا المؤلف الذي بدأته.

لقد بقيت آثار من كل الذي ذكرته حتى الآن، في الأماكن التي عشت فيها، ولكن الذي سأورده في الكراسة التالية، يكون مجهولًا تمامًا.. إنها أعظم حماقات حياتي، وقد كان من حسن الحظ أنها لم تفض إلى نهايات أسوأ مما انتهت إليه. ولكن رأسي كان قد فقد اتزانه، ثم استرده من تلقاء ذاته، وإذ ذاك كففت عن الحماقات، أو أنني لم أعد أرتكب منها سوى ما هو أكثر ملاءمة لطبيعتي! وهذه الفترة من شبابي هي إحدى الفترات التي تضطرب ذكراها في رأسي، إذ أنه لم يمرّ بي خلالها من الأحداث شيء مشوق لقلبي بدرجة تكفى لأن أحتفظ له بذكرى واضحة. ومن ثم فمن العسير ألّا أرتكب بعض أخطاء أخلط فيها بين الأزمنة أو الأماكن، أثناء مثل هذه الروحات والغدوات، وفي خلال التطوّرات العديدة المتتابعة.. إنني أكتب معتمدًا على ذاكرتى تمـامًا، دون ما مذكرات، ودون ما مواد تعينني على التذكّر.. وفى حيـاتي أحداث لا تزال حاضرة وكأنها وقعت لتوها، ولكن هناك كذلك ثغرات وفراغات لا أملك أن أملأها إلا بروايات مهوشة كتلك الذكريات المتبقية لها. ومن ثم فإنني معرَّض للخطأ أحيـانًا، كما أننى قد أرتكب الخطأ ثانية - في مسائل غير مهمة - إلى أن يحين الوقت الذي أملك فيه عن نفسى معلومات أوثق. أما في كل ما له أهمية حقيقية من الموضوعات، فإنني مطمئن إلى دقتي وأمانتي، اللتين سأحرص عليهما دائما في كل شيء.. والقارىء أن يثق من ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما أن غادرت السيِّد لوميتر، حتى استقرّ عزمى، فكررت عائدًا إلى (أنيسي). وكنت قد شغلت بسبب غموض رحيلنا إلى درجة كبيرة، من أجل سلامة إقامتنا. وقد صرفني هـذا الانشغال - الذي استغرق كل اهتمامى - أيامًا عن التفكير في العودة. على أن الشعور بالسلامة لم يكد يعفيني من القلق، حتى عاد وجـدي إلى سيطرته وسلطانه، فلم يهف بقلبي أو يغريني شيء سوى أن أعود إلى « ماما ». كان صدق تعلقى بها ورقته قد اجتثا من فؤادي كل حماقات الطموح، ولم أعد أرى سعادة إلا في العيش معهـا، ولا سرت خطوة دون أن أشعر بأنني كنت أبتعد عن هنائي. ومن ثم عدت إليها بأسرع ما كان ممكنًا. وكان سفرى متعجلًا، وذهني شاردًا، إلى درجة أنني وإن كنت أذكر بكثير من السرور رحلاتي الأخرى، فلست أملك أتفه ذكرى لهذه الرحلة، اللهم إلا مغادرتي ليون ووصولي إلى (أنيسي).. ومنذا الذي يتصوَّر أن تخبو هذه الأخيرة من ذهني!.. فعند وصولي، لم أجد مدام دى فاران.. كانت قد رحلت إلى باريس!

ولم يُقدَّر لي قط أن أعرف سر هذه الرحلة.. ولقد كانت هذه السيِّدة خليقة بأن تذكره لي، لو أننى ألححت، فهذا ما أثق منه كل الثقة. ولكن أحدًا لم يكن قط أقل منى فضولًا إزاء أسرار الأصدقاء، إذ أن قلبي لا يفهم بغير الحاضر، وهو يمتلىء به تمامًا، فلا يبقى فيه ركن خال لأي شيء من الماضي، فيما عدا المتع السالفة، التي تؤلف بعد ذلك لذتي الوحيدة!..

على أن الذي أتخيله - من القليل الذي أنبأتنى به « ماما » - هو أن الثورة التي قامت في (تورين) بسبب نزول ملك سردينيا عن عرشه، جعلتها في خوف من أن تغدو منسية، فشاءت - بفضل حيل السيِّد دوبون - أن تسعى للحصول على نفس ما كان لها من امتيازات، من بلاط فرنسا الذي كانت كثيرًا ما تقول لي أنها تفضله على بلاط ملك سردينيا، لأن المرء - في غمرة الشئون الهامة الكثيرة التي ينشغل بها ذاك البلاط الفرنسي - لا يظل تحت رقابة صارمة.. وإذا كان الأمر كذلك، فمن الغريب حقًّا أنها لم تقابل - عند عودتها - بوجوه عابسة، وأنها ظلَّت تستمتع بمعاشها باستمرار، ودون انقطاع. ولقد اعتقد كثير من الناس أنها كانت مكلفة بمهمة سرية: إما من قبل الأسقف - الذي كانت له بعض شئون في البلاط الفرنسي - وإما من قبل شخصية أعظم سلطانًا، كانت تعرف كيف تضمن لها عودة سعيدة!. والمؤكد - إذا كان الأمر كذلك - أن اختيار مدام دي فاران كرسول، لم يكن بعيدًا عن الصواب، فقد كانت تملك كل المؤهلات اللازمة لإنجاح أية مفاوضات، سيما وأنها كانت لا تزال شابة.. وجميلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6 - من سنة **1731** إلى سنة **1732**

وصلت فلم أجدها، فتصوّر مدى دهشتي وأساى!.. إذ ذاك، بدأ ندمي على التخلُّص من السيِّد « لوميتر » يتخـذ شكلًا محسوسًا، لم يلبث أن ازداد حدَّة عندما سمعت بما أصابه من نحس، فإن الصندوق الموسيقى الذي كان يحتوى على كل ثروته.. هذا الصندوق الثمين الذي أُنقذ بكثير من العناء، انتُزع منـه عند وصوله إلى (ليون)، بناء على أمر الكونت « دورتان » الذي كتب إليه مجمع القساوسة يطلعه على التهريب.. وعبثًا طالب « لوميتر » بثروته، بوسيلة معاشه، بنتاج عمله طيلة العمر! وكانت ملكيـة الصندوق تستحق أن تكون موضوع نزاء قضائي على الأقل، بيد أن شيئًا من هذا لم يحدث، فقد حُسم الأمر في الحال - بحكم قانون الأقوى! - وبهذا فقد « لوميتر » المسكين ثمرة مواهبه.. جهد شبابه ومعين شيخوخته!

ولم يكن ينقص الضربة التي تلقيتها شيء كي تصبح مضنية، ولكني كنت في سن ليس للأحزان فيها قبضة تذكر، فسرعان ما ابتدعت لنفسي أسباب العزاء.. فرحت أتوقَّع أن أتلقى عما قريب أنباء من مدام « فاران »، برغم أنني لم أكن أعرف عنوانها، كما كانت هي تجهل أننى رجعت. أما بصدد التخلّى عن السيِّد « لوميتر »، فإنني بعد التأمل في هذا الأمر لم أجد فيه ذنبًا بالغًا، فلقد كنت نافعًا له فراره، وهذه هي الخدمة الوحيدة التي كانت تتوقَّف عليَّ. ولو أنني بقيت معه في فرنسا لما شفيته من علته، ولما أنقذت صندوقه، ولما فعلت سوى أن أضاعف نفقاته دون أن أملك له نفعًا.. هكذا رأيت الأمر، إذ ذاك، وإن كنت أراه اليـوم على النقيض. فإن التصرّف الخسيس لا يكربنا عند ارتكابه، وإنما يصبح مصدر هم عندما نذكره بعد وقت طويل، لأن ذكراه لا تخمد قط!

وكان الدور الوحيد الذي استطعت أن أقوم به للحصـول على أنباء « ماما »، هو أن أنتظر، وإلا فأين كنت أبحث عنها في باريس، وبأى نفقات كنت أقوم بالرحلة؟ لم يكن ثمة مكان أكثر ضمانًا من (أنيسي) لمعرفة مقرها، إن عاجلًا أو آجلًا. ومن ثم فقد مكثت بها، ولكني أسأت التصرّف إلى حد كبير، إذ أنني لم أذهب إطلاقًا لزيارة الأسقف الذي كفلني من قبل - والذي كان بوسعه أن يكفلني من جديد - فإن راعيتي لم تعد على مقربة منه، وقد خشيت اللوم منـه على ذلك الهرب. وكذلك لم أعد أذهب إلى المعهد الديني، إذ أن السيِّد « جرو » لم يعد هناك.. ولم أر أحدًا من معارفى، وإن كنت قد تمنيت أن أذهب لزيـارة زوجـة وكيل الإدارة، لولا أنني لم أجرؤ قط!.. بل إننى ارتكبت ما هو أسوأ من كل هذا، فقد سعيت إلى السيِّد « فينتور »، الذي لم أفكر فيه البتة منذ رحيلي، برغم شغفى به، فوجدته متألقًا مكرمًا في (أنيسى) بأسرها، والنساء يتزاحمن عليه! وقـد أفقدني هـذا التوفيق حجاى تمامًا، فلم أعد أبصر سوى السيِّد « فينتور »، بحيث أوشك أن ينسيني « مدام دى فاران ». ولكي أفيد من دروسه بمزيد من اليسر، عرضت عليه أن يشركني معه في مسكنه، فوافق. وكان يسكن لدى إسكافي لطيف مهذار، لم يكن يطلق على زوجته - بلهجته الريفية - سوى « العاهرة »، وهـو اسم كانت أهلًا له! وكانت له معها مشاجرات اعتاد « فينتور » أن يسعى لإطالتها وهو يتظاهر بالرغبة في أن يفعل العكس. إذ كان يوجِّه إليهما - بلهجـة هادئة، وبلكنته الإقليمية - كلمات تُحدث أعظم أثر وكانت تلك مناظر تجعل المرء يقع مغشيًا عليه لفرط الضحك!.. وهكذا كانت فترات الصباح تنقضى دون أن يفطن إليها المرء. فإذا كانت الساعة الثانية أو الثالثة، تناولنا لقمة، ثم يذهب « فينتور » إلى الأوساط التي كان يغشاها، حيث يتناول عشاءه.. أما أنا فكنت أتمشى وحيدًا، مفكِّرًا في براعته البالغة، وأنا أعجب بمواهبه الفذة وأغبطه عليها، لاعنًا طالعي المنحـوس الذي لم يكن يفضى بي إلى مثل هذه الحياة الهانئة!.. آه! ما أقل ما كنت أعرفه عن الحياة الهانئة! إن حياتي بالذات كانت خليقة بأن تكون أكثر بهجة مما كانت مائة مرة، لو أنني كنت أقل غباء، ولو

عرفت كيف أستمتع بهذه الحياة على نحو أفضل!

ولم تكن مدام دى « فاران » قد صحبت معها سوى « أنيه »، بينما تركت « ميرسيريه » وصيفتها التي تحدَّثت عنها من قبل، والتي وجدتها تشغل مخدع سيِّدتها. وكانت الآنسة « ميرسيريه » فتاة تكبرني قليلًا، ليست بالجميلة، ولكنها مقبولة الشكل.. فتاة طيبة من بنات (فريبورجوا) بريئة من الخبث، ما عرفت لها من عيب سوى أنها كانت - في بعض الأحيـان - تعصى سيدتها. فأخذت أكثر من زيارتها، إذ أنها كانت من المعارف القدامى، وكان مرآها يذكرني بمن كانت أعز منها لدىَّ، وبمن أحببتها من أجلها. وكانت لها صديقات عديدات بينهن آنسة تدعى « جيرو »، من بنات (جنيف)، شاءت أن تهوانى، برغم نقائصى. فكانت تلح دائمًا على « ميرسيريه » أن تصطحبني إلى دارها. وقد تركتها تفعل لأنني كنت أحبها - أعني ميرسيريه - ولأنني كنت أجد هناك فتيات أخريات أرتاح إلى رؤيتهن. أما عن الآنسة جيرو - التي كانت تبدى لى كل ألوان المضايقات - فلم يكن لدى إنسان ما يفوق النفور الذي كنت أحسه نحوها!.. كنت أجد عناء - إذا ما قرَّبت من وجهي أنفها الأعجف الأسود الملوث بالسعوط - في أن أكبح نفسي عن البصق عليه! بيد أننى تشبثت بالصبر، إذ كنت إلى جوارها أنعم كثيرًا بالوجود وسط هؤلاء الفتيات اللائي كن يتبارين في الاحتفاء بي، إما بدافع التملق للآنسة جيرو، أو التقرب إليَّ شخصيًا. ولم أكن أرى في كل هـذا صداقة. ولقد تراءى لى فيما بعد أنه كان في وسعى أن أرى ما يزيد على الصداقة، ولكن هـذا لم يخطر ببالي، ولا أنا أوليته أي تفكير!

وإلى جانب ذلك، فإن الحائكات والوصيفات وعاملات المتاجر لم يكن يستهويننى البتة، وإنما كنت أصبو إلى الآنسـات الراقيات!.. إن لكل امرىء أحلامه الخيالية، وقد كانت تلك أحلامى دوامًا. ولست أرى في ذلك ما رآه « هوراس ». على أنه من المؤكد أن أبهة المكانة والمنصب لم تكن هي التي تجتذبني، وإنما كانت تفتننى بشرة مصونة بعناية، ويدان جميلتان، وزينة بديعة، وجو من الرقة والطهر يشمل الشخص بأكمله، وذوق ضـاف في الحركة والقـول، وثـوب غال بديع الصنع، وحذاءان صغيران، وأشرطة و « دانتيلا » وشعر أنيق التصفيف.. وقد اعتدت دائمًا أن أفضِّل مَن أوتيت كل هذا، ولو كانت أقل الفتيات جمالًا!.. والواقع أنني أنا نفسي أرى في هذا التفضيل أمرًا يدعو إلى الضحك، ولكن قلبي يهفو إليه على الرغم منى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حسنًا!.. لقد سنحت لي هـذه الميزات مرة أخـرى، ولم يكن علىَّ سوى أن أستغلها. لكم أحب أن أقع - من آنٍ إلى آخر - على اللحظات البهيجة في شبابي!.. ما كان أحلاها لى، وما كان أقصرها وأندرها!.. ولقد استمتعت بها بأبخس الأثمان!.. آه! إن مجرَّد تذكرها يثير من جديد في قلبي نشوة طاهرة أنا في مسيس الحاجة إليها لتجديد جرأتي، ولدرء الهجوم عن بقية سني حياتي!

ففي ذات صباح، بدا لي الفجـر من الجمال بحيث أننى ارتديت ثيابي في عجلة، وأسرعت إلى الخلاء لأشهد شروق الشمس. واستمرأت هذه المتعة بكل فتنتها، وكان ذلك في الأسبوع التالي لعيد القديس يوحنا، والأرض في أبهى زينتها، وقد كساها العشب والزهور.. وكانت البلابل قد أوشكت على نهاية تغريدها، فبدا أنها كانت تستعذب الإمعان في إطلاق أصواتها.. بل إن الطيور جميعًا راحت تشدو مودعة الربيع، متغنية بمولد يوم بديع من أيام الصيف.. يوم من تلك الأيام الجميلة التي لم يعد المرء يراها في سني هذه، والتي لا يراها المرء إطلاقًا في هذه البلاد الكئيبـة التي أقيم فيها اليوم[56].

وابتعدت عن المدينة دون أن أشعر. واشتدّت حرارة الشمس، فرحت أسير تحت ظلال أشجار واد صغير على ضفة غدير. ثم سمعت خلفى وقع حوافر جياد، وصوت فتاتين بدا

أنهما كانتا في محنة، وإن راحتا تقهقهان من أعماقهما. والتفت، فإذا نداء باسمى ينبعث، فاقتربت.. ووجدت فتاتين من معارفى، هما الآنسة دى « جرافينرييه » والآنسة دى « جالى »، اللتان لم تعرفا كيف تحملان جواديهما على عبور الغدير، لأنهما لم تكونا فارستين ماهرتين. وكانت الآنسة « دى جرافينرييه » شابة من (بيرن) ذات ملاحة طاغية، وقد طُردت من موطنها من جراء بعض الطيش الذي تتسم به سنها، فحذت حذو مدام دى « فاران » - التي كانت تتردّد على دارها لمامًا - على أنها لم تكن ذات مورد للعيش، فلم تملك سوى أن تغتبط بأن تربط نفسها بالآنسة دى « جالى » التي شعرت بمودة نحوها، فأغرت أمها على السماح لهذه الرفيقة بأن تقيم معها ريثما تجد عملًا. وكانت الآنسة دى جالى تصغر زميلتها بعام، كما كانت تفوقها حُسنًا. كانت على قدر من الرقة والترفّه لا قِبل لي بوصفه، وكانت في الوقت ذاته دقيقة القسمات، بديعة القوام، أوتيت من الفتنة أكبر قسط يمكن أن تحظى به فتاة!.. وكانت كل منهما مشغوفة بالأخرى حبًّا، ولم تكن طيبة نفسيهما إلا عاملًا على تمكين هذا الود من أن يبقى طويلًا، دون أن يقوى أي عاشق على تعكيره!

وقالت لي أنهما كانتا تقصدان (تون)، القصر العتيق الذي كانت تمتلكه السيدة جالي - والدة الفتاة - ثم طلبتا مساعدتى في حمل الجوادين على عبور الجدول، الأمر الذي لم تقويا عليه. وهممت بأن أسوط الجوادين، ولكن الفتاتين أشفقتا عليَّ من الركلات، وعلى نفسيهما من الوقوع.. لذلك عمدت إلى حيلة أخرى، فأخذت بمقود جواد الآنسة دى جالي، ثم جررته خلفي، وخضت الجدول الذي وصل ماؤه إلى ركبتَي. وإذ ذاك تبعنا الجواد الآخر دون عناء. وإذ تم ذلك، هممت بأن أحيى الآنستين ثم أمضي في طريقي كأى أحمق، ولكنهما تبادلتا بضع كلمات بصوتٍ خفيض، ثم خاطبتنى الآنسة دى جرافينرييه قائلة: « لا، لا.. ما هكذا يفلت المرء منا! لقد أصابك البلل وأنت تؤدى لنا خدمة، فأصبح من واجبنا - نحو ضميرنا - أن نعني بك حتى تجف.. فخليق بك - إذا تكرمت - أن تأتى معنا، إذ أنك أسيرنا! ».

وخفق قلبي، وتطلَّعت إلى الآنسة جالي، فأضافت وهي تضحك لما بدا عليَّ من ارتباك: « أجل، أجل.. أسير حرب! اركب خلفها، فنحن مسئولتان عنك! ».. فقلت محتجًا: « ولكن، يا آنسة.. إننى لم أحظ بشرف التعرُّف إلى أمك، فماذا ترينها قائلة إذا ما رأتني؟ ».. وأجابت الآنسة دى جرافينرييه: « إن أمها ليست في (تون)، فقد جئنا وحدنا، وسنعود في المساء، وبوسعك أن تعود معنا! ».

وما كان للكهرباء أن تُحدث في كياني تأثيرًا أسرع مما أحدثته هذه الكلمات.. فقفزت إلى صهوة جواد الآنسة دى جرافينرييه وأنا أرتجف غبطة. وكنت كلما اضطررت إلى أن أحيط خصرها بذراعَيّ لأحفظ توازنى، خفق قلبي بعنف لم تلبث أن لاحظته، فقالت إن قلبها - هو الآخر - كان يخفق، لأنها كانت في خوف من الوقوع!.. وكان قولها - في مثل هذا الموقف - بمثابة دعوة لي كي أتحرى بنفسي صدقه، ولكني لم أجرؤ قط!.. ولقد ظلَّت ذراعاى - طيلة الرحلة - تحيطان بها إحاطة الحزام المشدود، ولكنه حزام لم يتزحزح عن موضعه لحظة!.. وكم من امرأة ممن يقرأن هذا، تحس من نفسها رغبة في أن تعرك أذني.. ولن تكون مخطئة في ذلك!

وأطلق بهاء الرحلة وثرثرة الشابتين لسانى، فلم نسكت حتى المساء. بل إننا لم نصمت لحظة طيلة وجودنا معًا! ولقد استطاعتا أن تسريا عنى الحرج، فإذا لساني لا يقلّ نشاطًا عن عينَي، وإن اتخذ أسلوبًا غير أسلوبهما. ولم يكن الحديث يتوتر قليلًا إلا في بضع لحظات كنت أجد نفسي فيها على انفراد مع إحدى الشابتين، ولكن الغائبة كانت سرعان ما تعود، دون أن تسمح لنا بوقت نتحرى فيه سبب ارتباكنا!

وما أن بلغنا (تون)، وجفَّت ثيابى، حتى تناولنا الفطور. وكان لابد بعد ذلك من الانصراف إلى المسألة الهامة: مسألة إعداد الغداء. فكانت الشابتان تتوقفان من حين إلى آخر - وهما

عاكفتان على الطهو - لتقبّلا أبناء حارسة المزرعة.. بينما كان غاسل الأطباق المسكين ـ أنا! - يحملق فيهما ويكبح جماح نفسه! وأرسلتا إلى المدينة في طلب المؤن وكل ما يكفى لغداء شهى، لا سيما الحلوى. ولكنهما نسيتا النبيذ لسوء الحظ! ولم يكن هذا النسيان بمستغرب من فتاتين لا تشربان الخمر قط، بيد أنني استأت إذ كنت أعول على معونته في استمداد الجرأة. ولقد استاءتا هما الأخريان كذلك، ولعل استياءهما كان لنفس السبب، وإن كنت لا أظن ذلك. وكان مرحهما العارم الفاتن هو البراءة ذاتها! وإلا فماذا كانتا تملكان أن تفعلاه فيما بينهما؟!.. ولقد أرسلتا في البحث عن نبيذ في كافة البقاع المجاورة، فلم يُعثر على شيء منه البتة، إذ كان أهل تلك المقاطعة فقراء لا يقربون الخمر. وإذ راحتا تعربان لى عن أسفهما، قلت لهما أن لا داعي لأن تتجشما هذا العناء، وإنهما لم تكونا بحاجة إلى نبيذ لكي تسكرانى!.. وكانت هذه هي المجاملة الوحيدة التي جرؤت على قولها طيلة النهار. على أننى أعتقد أن الماكرتين قد شهدتا بجلاءٍ كاف أن هذه المجاملة كانت صادقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتناولنا غداءنا في مطبخ المزرعة، وقد جلست الصديقتان على مقعدين طويلين (دكتين) إلى جانبي المائدة، وضيفهما بينهما، على مقعد مخفض ذي ثلاث قوائم. ويا له من غداء!.. أية ذكرى طافحة بالمفاتن! ولماذا يسعى المرء وراء ملاه أخرى، إذا كان بوسعه أن يحظى بمسرات في طهر هذه وصدقها، بأبخس الأثمان!؟.. أبدًا ما قُدِّر للوجبات في منازل باريس الصغيرة أن تداني هذه الوجبة. ولست أقول هذا عن بهجتها فحسب، ولا عن طربها فحسب، بل أقوله عن نشوتها الحسية كذلك!

وعمدنا بعد الغداء إلى شيء من الاقتصاد، فبدلًا من أن نحتسي القهوة التي تبقَّت من الإفطار، احتفظنا بها لنتناولها مع القشدة والفطائر التي أحضرتها الفتاتان معهما. ولكي نرضى شهيتنا، ذهبنا إلى البستان لنتخذ من « الكريز » حلوى نختتم بها وجبتنا. فتسلقت الشجرة ورحت ألقى للفتاتين بعناقيد من الثمار، بينما كانتا تردّان إلىَّ البذور (النويات) خلال الأغصان. وحدث في إحدى المرات أن بسطت الآنسة جالى مرولتها، وطوَّحت برأسها إلى الخلف، وثبتت في مكانها، فما كان منى إلا أن أحكمت الرماية وأنا ألقي بعنقود من الكريز، فهوى في صدرها!.. وانطلقت الضحكات!.. وقلت لنفسي: « ليت شفتَيّ كانتا من الكريز!.. لكم أنا على استعداد لأن أرمى بهما إلى نفس المكان عن طيب خاطر! ».

وهكذا انقضى النهار في مرح استرسلنا فيه بأقصى تحرّر، مع التزام أقصى حدود الاحتشام على الدوام!.. فما من كلمة مبهمة تحتمل تأويلًا، ولا ملحة (نكتة) شاردة.. ولم يكن هذا الاحتشام يثقل علينا البتة، بل إنه كان ينساب من تلقاء نفسه، وكنا نصدر في أفعالنا وأقوالنا عن إيحاء قلوبنا!.. وقصاري القول أنه بلغ من حيائي - الذي قد يسميه الغير غباء! - أن أقصى مغازلة أفلتت منى هي أن قبّلت يد الأنسة جالي مرة واحدة! والحق أن الظروف أسبغت على هذه النعمة قيمة خاصة، إذ كنا وحيدين، وكانت أنفاسي تنبعث في تهدج، كما كانت عيناها منكستين.. وبدلًا من أن يجد فمي قولًا، إذا به يلتصق بيدها التي لم تلبث الفتاة أن سحبتها في رفق - بعد أن انطبعت عليها القبلة - وهي ترمقني بنظرة لم تنم عن أي انفعال.. ولست أدرى ما كنت خليقًا بأن أقوله للفتاة، لولا أن أقبلت صديقتها على الغرفة، فلاحت لي - في تلك اللحظة - بالغة الدمامة!

وأخيرًا، فطنت الفتاتان إلى أنه لا ينبغي التريث في العودة إلى المدينة حتى يهبط الليل. ولم يكن قد تبقى من النهار سوى الوقت الذي يمكننا من العودة، فأسرعنا بالرحيل، بنفس النظام الذي كنا عليه في المجيء. ولو أننى وجدت جرأة، لكنت قد غيّرت هذا النظام، إذ أن نظرة الآنسة جالي كانت قد أثارت فؤادي.. بيد أنني لم أجسر على أن أقول شيئًا، ولم يكن مما يليق بها أن تقترح هي هذا التغيير! ورحنا نقول - خلال انطلاقنا - إن اليوم قد

انقضى سراعًا، ولكنا بدلًا من أن نشكو من قصره، أجمعنا على أننا أوتينا معجزة إطالته بفضل أسباب اللهو التي عرفنا بها كيف نملؤه!

وفارقتهما عند البقعة التي التقطتاني عندها، تقريبًا.. ولكن، بأية حسرة افترقنا! وبأي سرور رسمنا الخطة للقاء آخر!.. إن الاثنتي عشرة ساعة التي قضيناها معًا بدت لنا قرونًا لفرط الألفة! وإن الذكرى العذبة التي اقترنت بذلك اليوم لم تكبد الشابتين اللطيفتين شيئًا، ولكن الوحدة الحنون التي ربطت بين ثلاثتنا كانت تعادل في قيمتها متعًا أكثر بهجة واحتدامًا.. متعًا لم يكن لها بقاء في ظلال تلك الرابطة. فلقد تحاببنا في غير ما استخفاء ولا استحياء، وكنا راغبين في أن نتحاب دائمًا بهذا الشكل. وإن لسذاجة الخلق لنشوتها التي تعادل تمامًا أية نشوة أخرى، لأنها لا تعرف راحة، ولا تفتأ تحتدم باستمرار!

أما بالنسبة لي، فإني أدرك أن ذكرى مثل هذا اليوم أكثر تأثيرًا في نفسي، وفتنة لى، وترددًا على فؤادي من ذكرى أية متعة تذوّقتها في حياتي! وما كنت أدرى تمامًا ما الذي كنت أبتغيه من الفتاتين الساحرتين، ولكنهما أطربتانى معًا كل الطرب. ولست أقول إن قلبي كان خليقًا بأن ينقسم بينهما قسمة عادلة، لو قُدِّر لي أن أسيطر على أمورى، فقد أحسست بشيء من الإيثار والتفضيل: كان يسعدني أن أحظى بالآنسة جرافينرييه عشيقة، ولكنني لو خُيرت لآثرت - فيما أعتقد - أن أتخذها صديقة حميمة! وسواء كان هذا أو ذاك، فقد بدا لي إذ فارقتهما أنني لم أعد أقوى على الحياة بدونهما معًا. فمن كان منبئى بأنه لم يكن مكتوبًا لي أن أراها في حياتي مرة أخرى، وأن هذه كانت نهاية حبنا الذي لم يعمر سوى يوم واحد!

إن الذين يقرأون هذه السطور لن يتمالكوا أنفسهم من الضحك من مغامراتي الغرامية، وملاحظة أن أكثرها تطوّرًا كانت تنتهى - بعد كثير من التمهيدات - بقبلة على اليد!.. ولكن، لا تغتروا يا قرائى! فلعلنى نعمت من تلك الغراميات - التي كانت تنتهى بهذه القبلة على اليد ـ بمتعة تفوق كل ما سيتاح لكم في غرامياتكم التي قد تبدأ بمثل هذه القبلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعاد « فينتور » إلى البيت بعد عودتي بقليل، إذ كان قد تأخر كثيرًا في الذهاب إلى مضجعه في الليلة السابقة. وفي هذه المرة، لم أشعر بسرور لرؤيته كمألوف عادتي، كما أننى كتمت عنه النهج الذي قضيت عليه يومى. فإن الآنستين كانتا قد تحدَّثتا إلىَّ عنه شيء من الازدراء، وبدا لي أنهما استاءتا إذ علمتا أننى كنت في مثل هذه الرعاية السيئة. فنال هذا من مكانته لدىَّ، سيما وأن كل ما كان يشغلني عن التفكير فيهما بدا لي غير مستحب. على أن فينتور ما لبث أن ردَّني إلى نفسي وإليه، بأن أخذ يتكلّم عن موقفي، إذ غدا أحرج من أن يستمر. فمع أنني لم أكن أنفق غير القليل جدًّا، إلا أن كيسى بدأ يفرغ، ولم يكن لي مورد.. ولم يكن ثمة نبأ عن « ماما »، فلم أدر ماذا أفعل، وشعرت بانقباض شديد إذ رأيت صديق الآنسة جالي يهبط إلى مستوى المتسولين!

وأنبأني فينتور بأنه قد تحدَّث عنى إلى الضابط القضائى57، وأنه اعتزم أن يصطحبني لتناول العشاء عنده في اليوم التالي، وأن هذا الرجل كان في مركز يمكنه من أن يخدمني عن طريق أصدقائه.. فضلًا عن أنه كان من خيرة مَن يحسن التعرّف إليهم، كان ذكيًّا وأديبًا، ذا طباع جد ملائمة. وكان موهوبًا، بقدر المواهب لدى الغير. ثم أطلعني - وهو يمزج التوافه بالخطير من الأمور، جريًا على عادته - على مقطع بديع من الشعر، وصل من باريس، وكان يردد في لحن بإحدى « أوبرات » وريه، ذاع في ذلك العهد. ولقد أعجب السيِّد سيمون ـ وهو اسم الضابط القضائي ـ به، فأراد أن ينظم مقطعًا آخر، على نفس النغمة، ردًّا عليه.. وطلب إلى فينتور أن ينظم مقطعًا هو الآخر، فتملكته نزوة أوحت إليه بأن يحملني على أن أنظم بدوري واحدًا، حتى تترى هذه المقاطع تباعًا - حسب قوله - في

اليوم التالي، كما كانت المحفات تتتابع في « القصة المضحكة »58.

وإذ عزَّ عليَّ النوم - في تلك الليلة - نظمت المقطع بقدر ما استطعت. وكان لا بأس به، إذا قدَّرنا أنه كان أوَّل ما نظمت من الشعر! بل أنه كان أفضل ـ أو على الأقل، أرق - مما كنت خليقًا بأن أنظم في اليوم السابق، إذ أن موضوعه دار حول موقف عاطفي كان قلبي قد تفتح له. وأطلعت فينتور - في الصباح - على مقطعي الشعري، فرآه بديعًا، ودسَّه في جيبه دون أن ينبئني بما إذا كان هو قد نظم مقطعه.. وذهبنا نتناول العشاء في دار السيِّد « سيمون »، الذي أحسن استقبالنا. وكان الحديث طليًا، وما كان من الممكن أن يكون غير ذلك، وقد دار بين رجلين ذكيين واسعى الاطلاع.. أما أنا، فقد قمت بدوري المعتاد، إذ رحت أصغى وأنا ممسك لساني. ولم يقل أحد منهما شيئًا عن أي مقطع شعري، وكذلك لم أقل أنا شيئًا.. ولم يرد ذكر - على قدر ما عرفت - للمقطع الذي نظمته!

وبدا على السيِّد سيمون أنه ارتاح إلى مسلكي، وكان هذا قصارى ما عرفه - تقريبًا - عنى في هذا اللقاء. وكان قد رآني من قبل عدَّة مرات بدار السيِّدة « دى فاران »، دون أن يوليني اهتمامًا يذكر. ومن ثم فإنني أحسب معرفتي به منذ ذلك العشاء.. المعرفة التي لم تكن ذات نفع للموضوع الذي كان يشغل بالي، ولكني أفدت منها - فيما بعد ـ منافع أخرى، تجعلني أذكر السيِّد سيمون بسرور. وما ينبغي أن أرجىء الحديث طويلًا عن شكله الذي يستحيل على أي امرىء أن يكوّن فكرة عن الرجل ما لم أتحدَّث عنه، سيما إذا راعينا ما كان للسيِّد سيمون من سلطة إدارية وروح طيبة كان يفخر بها..

لم يؤت السيِّد الضابط القضائي - بالتأكيد بالتأكيد - من الطول قدمين59. وكانت ساقاه مستقيمتين، نحيلتين، وطويلتين في نفس الوقت، وكانتا خليقتين بأن تبدياه طويلًا، لو أنهما كانتا راسيتين، ولكنهما كانتا منفرجتين كساقيّ فرجار (برجل) مفتوح على سعته،! أما جسمه، فلم يكن قصيرًا فحسب، وإنما كان نحيلًا وضئيلًا بدرجة لا سبيل إلى وصفها. ولابد أنه كان يبدو - إذا ما تجرَّد من ثيابه - كالجرادة! أما رأسه - الذي كان عادي الحجم، وله وجه مليح التكوين، وقسمات نبيلة، وعينان بديعتان - فقد كان يبدو كرأس زائف أقيم على أرومة تبقَّت من جذع شجرة!.. ولابد أنه كان يقتصد كثيرًا من نفقات الكساء، إذ كانت قلنسوة الشعر المستعار وحدها تكسوه تمامًا من رأسه إلى قدمه!

وكان له صوتان مختلفان تمام الاختلاف، يختلطان معًا باستمرار كلما تكلَّم، ويتباينان بشكل يبدو - في أوَّل الأمر - طريفًا، ولكنه لا يلبث أن يغدو كريهًا! وكان أحدهما جهوريًا عميقًا، وهو صوت رأسه، إن جاز لي أن أقول هذا. أما الآخر فكان واضحًا، حادًا نفَّاذًا، وكان صوت جسده! وكان - إذا ما التزم الحذر - تكلَّم بتحفظ بالغ، ونظم تنفسه، فيستطيع أن يتكلَّم باستمرار بصوته العميق.. ولكنه لا يكاد يتحمس قليلًا، ويتكلم بلهجة أكثر حّدة، حتى يشبه صوته صفيرًا منبعثًا من نغم عال.. وكان يجد عناءً بالغًا في العودة إلى الطبقة الخفيفة من الصوت!

ومع هذا المظهر الذي وصفته، والذي لا مغالاة فيه إطلاقًا، كان السيِّد سيمون مؤدبًا. راويًا للطرائف، شديد العناية بلباسه إلى درجة الحذلقة. ولما كان راغبًا في أن يبدو في أعظم مظاهره، فقد كان يحلو له أن يعقد مقابلاته في الصباح وهو في السرير، لأن الذي كان يرى رأسًا بديعًا على الوسادة، لم يكن يتصوَّر أن هذا كل ما لديه من حسن! وكان هذا يؤدي - في بعض الأوقات - إلى مناظر مضحكة، أعتقد أن (أنيسي) لا تزال تذكرها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تُرى كيف أُبعد « روسو » عن الفتاتين الفاتنتين: جرافينرييه وجالي؟.. وما الحيلة الماكرة التي دبَّرتها الآنسة جيرو - العجوز الشوهاء - لإقصائه عنهما؟ وما المتاعب والمغامرات التي خاضها حتى استطاع أن يلتقى بمدام دى فاران مرة أخرى؟ وكيف قبلت « أمه! » هذه أن تصبح عشيقته؟

إن « روسو » يحدِّثنا عن كل هـذا، في الكراسات المقبلة من اعترافاته، التي تُقدمها « مطبوعات كتابى » في الجزء الثاني من « الاعترافات » - كما يحدثنا عن نزواته وأهوائه وتجاربه، ثم عن ذهابه إلى باريس حيث بدأ نجمه فى التألق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم الجزء الأوَّل بحمد الله وتوفيقه

ويليه الجزء الثاني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك الانضمام الى الجروب **– Group Link**

لينك القنـــاة **– Link**

فهرس الجزء الأول..

فهرس الجزء الأول..

Notes

[←1]

كانت مواهبها تفوق مكانتها الاجتماعية بكثير.. فإن أباها القس كان يحبها الى درجة العبادة، وقد بذل في تعليمها وتربيتها عناية فائقة، ومن ثم فإنها كانت تجيد الرسم، والغناء، والعزف على آلة تشبه العود. كما كانت كثيرة الاطلاع، وكانت تنظم أشعارًا لا بأس بها. وقد حدث ـ أثناء غياب زوجها وأخيها - أن خرجت للنزهة مع زوجة اخيها، فصادفتا شخصًا ذكَّرهما بالغائبين، واذا هي تقول على الفور شعرًا هذا معناه:

وهذان السيِّدان الغائبان.. عزيزان علينا من كل جانب، فهما صديقانا وحبيبانا، وهما زوجانا وشقيقانا.. وهما والدا طفلينا!

[←2]

كانت هذه العمَّة تُدعى مدام جونسيرو. وقد رتّب لها - منذ مارس سنة 1767 - معاشًا قدره مائة جنيه، كان يدفعه إليها دائمًا، وفي مواظبة دقيقة، حتى في أشدّ أوقات ضيقه.

[←3]

لا تزال هذه الأغنية معروفة في باريس، وشائعة بين طبقات العمّال فيها، وهذه هي تتمة الكلام الناقص:

القلب اذا ما اشتبك بحبٍ راع، لا ينجو من خطر »

« فالشوك دائمًا تحت الورد »

[←4]

.الخداش » نبات متسلِّق ذو ثمار حمراء، يشبه العليق »

[←5]

كان « يوكليد » عالمًا رياضيًّا عاش في الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد وضع أصولًا ـ أو مبادىء - للعلوم الرياضية في 13 مجلدًا، خصَّ الهندسة منها بتسعة مجلدات.

[←6]

رمز للبطل الذي يدافع عن الحق ويدفع الجور عن المظلومين.

[←7]

الكراون » عملة تعادل ثلاثة فرنكات ».

[←7]

الكراون » عملة تعادل ثلاثة فرنكات ».

[←8]

حفَّار يصنع الأختام و « الميداليات » بالحفر على المعادن.

[←9]

أستعير هذا الاسم من « لافونتين » الذي أطلقه على الكلاب المنحطة، في أسطورة بعنوان: « التربية »، اذ قال: « أواه! كم من قياصرة أصبحوا لاريدونات؟ ».

[←10]

هيسبريد: اسم لواحدة من عذارى ورد ذكرهن في أساطير الإغريق على أنهم كن يحرسن شجرة تثمر تفاحات ذهبية.

[←11]

«السو» عملة فرنسية صغيرة تعادل 5 سنتيمات، أو جزءًا من عشرين من الفرنك.

[←12]

ذكرت جورج صاند في كتابها: « تاريخ حياتي »، أن السيِد دي فرنسواى ـ وكان جدها ـ اعتاد أن يفكِّر دائمًا في صدق هذه القصة.

[←13]

يقصد روسو الكتب المثيرة، التي كان يبلغ من عنف إثارتها للقارئ أن تغريه على ممارسة العادات السيئة.

[←14]

كان هؤلاء الفرسان الكاثوليك من رعايا دوق سافوى، وكانوا يؤلفون عصبة في جنيف، في عهد الاصلاح، وقد أطلق عليهم لقب « فرسان الملعقة » لأنهم كانوا يفخرون بأنهم « أكلوا أعداءهم بالملعقة »!.. ومن ثم فقد كانوا يحملون ملعقة مدلاة من أشرطة حول أعناقهم. وكان يرأسهم فارس من آل « دى بونفير ».

[←15]

أصحاب الحبال: وهم أفراد طائفة دينية أنشأها القديس فرانسيس الأسيسي في سنة 1223. وقد أُطلق هذا الاسم فيما بعد على جماعة أنشأها « دانتون » و « مارا » و « ديمولان » - زعماء الثورة الفرنسية - في سنة 1790. وكانت تعقد اجتماعاتها في دير الفرنسيسكان العتيق بباريس.

[←16]

نسبة الى ولاية (بييمونتي) - وتكتب بالحروف اللاتينية (بييد مونت) ولكن التاء تُغفل في النطق - وتقع على حدود فرنسا وسويسرا، في الشمال لإيطاليا.

[←17]

الطب التجريبي هنا يُقصد به ذلك الطب الذي تُكتسب معرفته بالممارسة والتجربة، وهو ما يُعرف لدى العامة بطب « البركة ».

[←18]

المساحيق السامية مساحيق كانت تعزى إليها ميزات عالية.

[←19]

أسقف جنيف (1567 – 1622).

[←20]

سيِّدة امتازت بتقواها، وهي التي أسَّست نظام راهبات « الزيارة »، وقد أقرّ رهبنتها البابا كلمينت الثالث عشر.

[←21]

يقصد بهذه الإشارة ما أورده في الخطاب العشرين، بالجزء الثالث من قصته الطويلة « هيلويز الجديدة ».

[←22]

خطب وعظات دينية غثة، كتلك التي كان يلقيها الرهبان « الكابوشان ».

[←23]

يُعتبر بطرس الراهب أهم محرِّض على شن الحملة الصليبية الأولى، وكان يطوف بقرى أوروبا على ظهر بغلة، ويخطب في الناس ممسكًا سيفًا، ويتخذ من الغيرة الدينية وسيلة لتحريك الأحقاد.

[←24]

«اللوى» عملة فرنسية قديمة كانت تساوى عشرين فرنكًا.

[←25]

يقصد روسو أن الرحلة لم تخرج عن نطاق الورق والقلم والانطلاق في الخيال، بحيث غدت قصة وهمية.

[←26]

الدوائر التابعة للكنائس الريفية.

[←27]

فريضة « المناولة » أو فريضة « الاشتراك في العشاء الرباني » هي من أهم الفرائض والأسرار المقدسة التي تركها المسيح لتلاميذه وأتباعه، لكي يذكروه بها كلما مارسوها. وهي تقوم على تناول خبز مكسور، رمزًا الى جسد المسيح المصلوب، وعلى تناول جرعة من عصير عنب مختمر، رمزًا لدم المسيح المسفوك على الصليب. وكل الكنائس المسيحية تمارس « المناولة » الى وقتنا الحاضر.

[←28]

جبن « الجيونكا » نوع من الجبن الطازج الذي يُنقل الى السوق في حصير.. كالجبن المعروف في مصر باسم « القريش ».

[←29]

CLERK. كاتب » هنا بمعنى موظف كتابى، أي «

[←30]

طريقة قيد الحسابات التجارية، بتسجيل كل عملية في الجانب الدائن والجانب المدين: « منه » و « له ».

[←31]

تقضى التقاليد الدينية لدى الكاثوليك بأن يعترف الشخص إلى قس الكنيسة التي يتبعها، فيعظه القس ويصلى من أجله، ويكون اعترافه دليل التوبة، فهو بهذا الوضع تائب.

[←32]

حبال مجدولة (اسبلايت) أو شارات مما يوجد على أكتاف بعض السعاة.

[←33]

الليرة: عملة قديمة كانت قيمتها تتباين بتباين الأزمان والأماكن، وقد أُطلق الاسم على « الفرنك » في بعض الأوقات.

[←34]

أخيل » بطل أغريقي، هو الشخصية الرئيسية في « إليـاذة » هوميروس. « وكان من أشجع وأجمل أبطال الاغريق، وقد اشترك في حرب طروادة. أما « شيرسايتز » فكان أقبح أبطال هذه الحرب وأكثرهم شراسة وجدالًا، وقد قتله أخيل. والذي يقصده « روسو » من عبارته هنا أنه كان لا يعرف اعتدالًا في تلك الفترة من حياته، فهو إما مسرف في الشجاعة ونبل النفس، وإما مسرف في بشاعة الروح وشراسة الخلق والرغبة في الجدال عن حق أو عن باطل!

[←35]

أسقف سافوا هو أحد شخصيات كتاب روسو المعروف: « أميل ».

[←36]

يقصد أن قلة صلاحيته لمنصب الخادم كانت كفيلة بأن لا يتقن مهامه إتقانًا يُرضى مخدوميه، وهذا يؤدّى الى إحدى نتيجتين: إما أن يسرّحوه، وإما أن يقدِّروا أن مواهبه تؤهله لمنصب أرقى.

[←37]

الأب دى دانجو كان من أعضاء المجمع اللغوى الفرنسي - الأكاديمي فرانسيز ـ في منتصف القرن السابق على تلك الفترة، وقد ألَّف رسائل في قواعد اللغة الفرنسية.

[←38]

نافورات صغيرة الحجم، كاللعب، اخترعها مهندس من أبناء الاسكندرية يدعى « هيرو ».

[←39]

.(كانت (تورين) يومئذ عاصمة إمارة (بييمونت

[←40]

سان برو » و « مدام دی ولمار » من شخصيات قصة روسو الطويلة: « »
هيلويز الجديدة ».

[←41]

.الأقداح الدلفية: أقداح من خزف مصنوع في هولندا

[←42]

السيدان » هي محفة مؤلفة من مقعد ذي مظلة، يحمله رجلان، وكانت من » مركبات ذلك العصر.

[←43]

الملاطفة هنا يقصد بها التحسس والقبلات والغزل.

[←44]

يقصد الذين يختلطون بالناس ويغشون المجتمعات.

[←45]

يقصد الذي يعيش بعيدًا عن المجتمع، في أحلامه الخاصة، ثم يقدَّر له أن يتكلم وسط الناس.

[←46]

كان الدواء حبوبًا لتليين المعدة. ومن هنا ندرك أنه لم يكن من اللياقة أن يتدخَّل رجل في حديث السيّدتين اللتين لم تكونـا سـوى: مدام دى لوكسمبورج ـ وهي ربة البيت ـ ومدام دى ميربوا، اللتين سيرد ذكرهما في الكراسة العاشرة.

[←47]

سنشهد أحد هذه الاستثناءات فيما سيذكره روسو في الكراسة الرابعة عن زيارته لمجلس الشيوخ في (برن) مع كبير الأساقفة.

[←48]

من أتباع مذهب القديس لازار في الرهبنة.

[←49]

نوع من الخبز يُخلط دقيقه بالزنجبيل.

[←50]

مقاطعة صغيرة في دوقية (سافوا).

[←51]

الظاهر أن روسو يشير بهذا الى قصة كانت شائعة بين أبناء عصره.

[←52]

التطويب في المسيحية هو أن يعلن البابا - أو البطريرك لدى الأرثوذكس - بأن شخصًا قد حظى بالتمجيد في السماء، فأصبح في عداد القديسين - إذا كان ميتًا - أو اقترب من القداسة، إذا كان على قيد الحياة.

[←53]

بحر من الشعر الأعجمي تكون القافية فيه مؤلفة من كلمات ذات مقطعين.

[←54]

الطماق » وقاء يعلو الحذاء وبعض الساق، وقد اشتهر باسمه الأعجمي « جيتر » أو « طزلك ».

[←55]

يقصد مدام دى فاران، إذ كان بيتها مجاورًا لدار السيِّد لوميتر.

[←56]

كان « روسو » وهو يكتب هـذا الجـزء من اعترافاته يعيش في (ووتون) بمقاطعة (سترافورد شاير) بإنجلترا.

[←57]

كان موظفًا في مركز هام، يُطبق العدالة باسم الملك (OUGEMAGE).

[←58]

أروع مؤلفات « ROMAN COMIQUE) منظر في الفصل السابع من سكارون ».

[←59]

كتب « روسو » في مخطوطات الطبعة الأولى أن طول سيمون كان قدمين، ثم ضرب عليها بالقلم وكتب « ثلاثة أقدام ».. ولكنه لم يثبت هذا التعديل في النسخة الثانية من المخطوطات، وهي التي استخدمت في طبعة جنيف.


كتابى
٤٠
اعترافات
چان چاك روسو
الجزء الثانى
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد
فريق
متميزون
E-BOOK

سلسلة كتابي

(العدد رقم **40**)

إعترافات چان چاك روسو

الجزء الثاني

إعداد: حلمي مراد


اعترافات
چان چاك روسو
الجزء الثانى

الجزء الأوَّل.. في سطور

وُلدت في (جنيف) ـ في عام 1712 - لأب كان يعمل في صناعة الساعات، ولأم توفيت عند مولدي. وبدلًا من أن يكرهني أبي لذلك، فإنه أسرف في حبي، لأنني كنت شديد الشبه بأمي.

تنبه احساسى قبل أن يتنبه فكرى، ثم عمد أبى إلى أسلوب خطر، إذ أشركني في قراءة الروايات والكتب الدسمة.

اضطر أبي إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى. فبقيت في كنف خالى « برنار »، الذي كان متزوِّجًا من عمتي، والذي أرسلني مع ابنه إلى (بوسي) لنقيم في رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه »، ونتلقى العلم على يديه ويدى أخته التي نبَّه عقابها إياي، المشاعر الحسية والشهوانية في كيانى!

على أثر عقاب ظالم، لذنب لم أرتكبه، كرهت الظلم، وولت طمأنينة طفولتي.. وألحقني خالي بمكتب موثق للعقود، فلم أستسغ هذا العمل. ومن ثم ألحقني كصبي - أو تلميذ صانع - لدى حفَّار ينقش على المعادن. وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبرونني، وتعلَّمت السرقة، سيما وأن معلمى كان يقسو علىّ بالعقاب والحرمان. ومع ذلك فإنني لم أكن أسرق حبًّا في المال أو الحيازة.. وإلى جانب هذا، اشتد إقبالي على القراءة حتى أصبح تهوسًا.

واضطرّتني قسوة معلمي، ونفوري من حياتي، إلى الهرب من (جنيف).. وانتهى بي المطاف إلى سيِّدة محسنة في (أنيسي)، كان ملك سردينيا قد خصَّها بمعاش، لأنها اعتنقت الكاثوليكية.. تلك هي « مدام دى فاران »، التي أشفقت علىّ، وأرسلتني إلى دير نبذت فيه عقيدتي البروتستانتية، وأصبحت كاثوليكيًّا.

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال، وعانيت الفاقة والمتاعب. ثم انتهيت إلى العودة إلى مدام دي فاران، التي رحبت بى، وأنزلتني من نفسها منزلة الابن، وأفردت لي غرفة في دارها، وراحت تنفق على تعليمي الموسيقى، برغم انكماش مواردها.. وتعلّقت بهذه السيِّدة تعلقًا ملك علىّ كل حواسى وعقلي.. وبمرور الأيام صرت أدعوها «ماما»!

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم. فقد أوفدتني « ماما » مرة لأعاون السيِّد « لوميتر »، الذي كان رئيسًا لفرقة الموسيقى بكنيسة (أنيسى)، والذي اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم.. وقد رافقته إلى (ليون)، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع، لفرط إسرافه في الشراب، ففررت منه في إحدى هذه النوبات، وعدت إلى (أنيسي).. وإذا بي أفاجأ بأن « ماما » قد رحلت في بعض شئونها، ولم أدر لها مقصدًا أو مقرًّا!

وأقمت فترة مع « فينتور »، وهو شاب كنت أعرفه من قبل، كان يزعم أنه موسيقى موهوب. وكان لبقًا، أنيقًا، مرحًا، يستهوى الإناث.. وعرَّفني « فينتور » بالضابط القضائي - السيِّد سيمون - الذي أبدى ارتياحًا لصحبتي.. وكان مشوه الجسم، شديد القصر، كبير الرأس، لذلك كان يحلو له أن يعقد مقابلاته في الصباح، وهو في السرير، حيث تبدو رأسه ذات القسمات الجميلة، ولا يبدو جسده المشوه!

والآن.. تابع قراءة هذا الحادث الذي بدأ به « روسو » الكراسة الرابعة من اعترافاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي ذات صباح، بينما كان ينتظر في سريره - أو بالأحرى، على سريره - أصحاب

الشكايات، وقد ارتـدى قلنسوة بيضاء بديعة، مزدانة بزائدتين عريضتين من شريط وردي اللون، وصل أحد الريفيين وطرق الباب. وكانت الخادم قد خرجت، فما أن سمع السيِّد سيمون الطرقات، حتى صاح مجيبًا: « ادخل! ».. وهو إذا لفظ الكلمة بشيء من القوة، انبعثت بصوته الحاد. ودخل الرجل، فبحث عن مصدر هذا الصوت النسوى، وما أن رأى في السرير قلنسوة وشريطًا، حتى همَّ بالخروج ثانية، وهو يقدِّم « للسيِّدة » اعتذارات بالغة! فغضب السيِّد سيمون، ولم يزدد إلا صراخًا، فتأكد الريفي من فكرته، ورأى أنه قد أهين، فأغرقه بالشتائم، وقال له - لها: « لستِ سوى فاجرة »، وإن السيِّد الضابط القضائي لا يضرب بحياته المنزلية مثلًا طيبًا! واشتدَّ بالسيِّد سيمون الغضب، فلم يجد في متناول يده سوى الوعاء الذي يقضى فيه حاجته في المخدع، فأوشك أن يلقى به على رأس الرجـل المسكين، لولا أن وصلت مدبرة بيته!

وإذا كان هذا القزم الضئيل قد شوهت الطبيعة جسمه، فإنه لقى تعويضًا في الناحية العقلية التي كانت بطبيعتها مقبولة، والتي كان يعني بتحسينها. ومع أنه كان يقال عنه إنه كان مستشارًا قضائيًا موفقًا، إلا أنه لم يكن يحب مهنته. فألقى بنفسه في غمار الأدب، واستطاع أن يوفق. ولقد اكتسب - فوق كل شيء - تلك اللباقة السطحية، تلك الموهبة التي تبعث في المجتمع طرافة، سيما مع النساء!.. كان يعرف عن ظهر قلب دقائق المأثورات(1) وما إليها، وقد أوتي فن إبرازها، وربطها بالمناسبات، وإحاطتها بجو غريب، وكأن الذي حدث مثلًا منذ ستين عامًا، حكاية وقعت بالأمس! وكان ملمًا بالموسيقى، يحسن الغناء - بدرجة مقبولة - بصوته الآدمى. وقصارى القول أنه أوتى مواهب أجمل مما يحتاج إليه مستشار قضائي. وكان بحكم مجاملته لنساء (أنيسى) قد أصبح « موضة » بينهن، فكن دائمًا يسحبنه وراءهن وكأنه « نسناس » صغيرا!.. حتى لقد راح يزعم أنه كان محظوظًا لدى النساء، فكان ذلك يطربهن كثيرًا. وكانت سيدة منهن - تدعى « مدام ديبانى » - تقول إن أقصى ما يشتهيه هو أن يقبِّل امرأة في ركبتها(2)!

ولما كان مطلعًا على كتب الأدب الراقي، ومشغوفًا بالحديث عنها، فإن كلامه لم يكن ممتعًا فحسب، وإنما كان مفيـدًا أيضًا. وعندما اكتسبت - فيمـا بعد - ميلًا إلى الدروس، أنميت معرفتى به، فأفدت من ذلك نفعًا عظيمًا. وكنت أسعى في بعض الأحيان من (شامبيرى) - حيث كنت إذ ذاك - لكي أزوره. وقد أذكي هو فيَّ هذا الميل وشجعه، وكان يقدِّم لي بعض الإرشادات في مطالعاتي، فكنت كثيرًا ما أنتفع بها. ولسوء الحظ، كانت تعمر هذا الجسد الواهن نفس مرهفة الحس. وقد قُدِّر له - بعد ذلك بسنوات - أن يرتكب ذنبًا لا أدريه، مما أحزنه، فلم يلبث أن قضى نحبه. ويا لها من خسارة! لقد كان - يقينًا - رجـلًا طيبًا، ضئيل الجسم، يبدأ المرء بالضحك منه، ثم ينتهي بأن يحبه!.. ومع أن حياته لم تكن مرتبطة بحياتي في شيء، إلا أنني أخذت عنه بعض دروس نافعة، فرأيت - بدافع من العـرفـان - أن أخصه بحيز من ذكرياتى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما أن انصرفت من لدن السيِّد سيمون، حتى هرعت إلى الشارع الذي كانت الآنسة جالى (3) تقيم فيه، ممنيًا نفسى بأن أرى شخصًا ما، داخلًا أو خارجًا، أو فاتحًا إحدى النوافذ، على الأقل!.. ولكن شيئًا ما لم يلح لى، ولا هـرة! بل إن البيت ظلَّ - طيلة مكثى هناك - مغلقًا تمامًا، وكأنه لم يُعمّر قط بسكان. وكان الشارع صغيرًا ومقفرًا، فكان وجود إنسان كفيلًا بأن يستلفت الأنظار.. وبين الحين والحين، كان يعبره مار، ما بين داخل أو خارج من البيوت المجاورة. وقلقت من أجل نفسي، فقد تراءى لي أنهم كانوا يحدسون سر وجودى هناك. وأمضتني هـذه الفكرة، فقد اعتدت دائمًا أن أقـدم شرف وطمأنينة أولئك الأعزاء لديَّ، على مسرَّاتي الخاصة.

وأخيرًا، مللت لعبة العاشق الأسباني(4)، ولما لم يكن ثمة « جيتار » معي، فقد اعتزمت

الكتابة إلى الآنسة دى جرافينرييه. وكنت أفضل أن أكتب لصديقتها، ولكني لم أكن أجسر، فضلًا أنه كان من الأليق أن أبدأ بالتي كنت مدينًا لها بمعرفة الأخرى، والتي كنت معها أكثر ألفة ومودة. وما أن أتممت رسالتي، حتى حملتها إلى الآنسة « جيرو »(5)، وفقًا لما اتفقت عليه مع الآنستين عندما افترقنا، وكانتا هما اللتان اقترحتا هذه الطريقة للتراسل. ذلك أن الآنسة « جيرو » كانت تحترف تنجيد الأثاث، وقد عملت حينًا في دار السيِّدة جالي، ومن ثم فقد كان دخول الدار مباحًا لها. والحق أن اختيار هذه الوسيطة لم يبد لي موفقًا، ولكني خشيت ألَّا ترشح الفتاتان سواها، إذا أنا أثرت أى اعتراض. كما أنني لم أجرؤ على القول بأنها كانت تعمل لحسابها الخاص.. وكنت أشعر بالضعة لمجرَّد أنها كانت تجرؤ على أن تظن نفسها - في نظرى - منتمية إلى نفس جنس الآنستين! على أننى ارتضيت في النهاية هذه الوسيلة لنقل رسالتى، نظرًا لعدم وجود سواها، فأقدمت عليها برغم كل النذر!

واكتشفت « جيرو » سرى منذ الكلمة الأولى، فما كان هذا بالأمر العسير. وإذا كانت الرسالة الموجهة إلى فتاة شابة لا تشي بحقيقة الأمر، فإن ارتباكي واضطرابي كانا كفيلين بأن يكشفا سرى! وقد يخطر بالبال أن هذه المهمة لم تبعث في نفس الفتاة أي سرور، ولكنها في الواقع تكفَّلت بها، وأدَّتها بأمانة. وفي الصباح التالي هرعت إليها، فوجدت الرد المنشود. وما كان أسرعني في الخروج من دارها، لأقرأه وأقبله دون حرج!.. وليست بي حاجة إلى أن أفيض في هذا، ولكن الذي يحتاج إلى إسهاب، هو مسلك الآنسة جيرو، فقد وجدت فيه من الرقة والاعتدال فوق ما كنت أتوقَّع. كانت من الحكمة بحيث رأت أنها - بسني عمرها السبع والثلاثين، وبعينيها الشبيهتين بعينَيّ الأرنب، وبأنفها الملوث بالسعوط، وبصوتها الحاد الرفيع وبشرتها السوداء - لا يمكن أن تبارى فتاتين شابتين، مليئتين بالحسن، وفي كل أبهة الجمال.. ومن ثم لم تشأ أن تغدر بهما، كما لم تشأ أن تخدمهما.. بل إنها آثرت أن تفقدني على أن تساعدهما على الظفر بي. (كما سيبدو فيما بعد).

7 - سنة 1732

وكانت « ميرسيريه » قد بدأت تفكر - منذ فترة - في العودة إلى (فريبور)، إذ أنها لم تتلق أي نبأ من سيّدتها، وما لبثت الآنسة جيرو أن حملتها على أن تقرِّر ذلك، بل إنها ذهبت إلى أبعد من هذا، فأدخلت في روعها أن من المستحسن أن يرافقها أحد إلى دار أبيها، ورشحتني لذلك(6) ورأت ميرسيريه الصغيرة - التي لم أكن بغيضًا إليها - أن الفكرة صالحة، فإذا بهما تحدثاني عنها، في نفس اليوم، وكأنها أمر مفروغ منه! ولما لم أجد ما يضيرني في البعد بهذه الطريقة، فقد وافقت، وأنا أحسب أن الرحلة لن تعدو ثمانية أيام على الأكثر. ولكن جيرو لم تحسب مثل هذا الحساب، وتولّت تدبير كل شيء. واضطررت إلى أن أكشف حالتي المالية، فسرعان ما دبَّرت لي الموارد، إذ تكفَّلت « ميرسيريه » بنفقاتي. وتعويضًا عن الخسارة التي تكبّدتها بذلك، وافقت الفتاة - تحت الحاحي - على أن تُرسل متاعها البسيط مقدمًا، بينما نقطع نحن الرحلة على الأقدام، متمهلين.. وهذا ما حدث!

ولكم يؤسفني أن أتحدَّث عن فتيات عديدات كن يحببنني.. على أنني لا أجد مبرِّرًا لأن أزهو بما خرجت به من كل هذه الغراميات.. ومن ثم أرى أن بوسعي أن أقول الحق دون تمويه، فإن الآنسة « ميرسيريه » - التي كانت أصغر سنًا وأقل دهاء من جيرو - لم تبدِ قط نشاطًا كالذي كانت هذه تبديه لإغرائي، وإنما كانت تقلّد لهجتي وصوتي وإلقائي، وتُردد كلماتي، وتوليني من الاهتمام ما كان ينبغي أن أوليها إياه.. كما كانت تحرص دائمًا على أن ننام في حجرة واحدة، إذ كانت شديدة الخوف..! وهي ألفة نادرًا ما تقف عند هذا الحد، في رحلة تجمع بين شاب في العشرين وفتاة في الخامسة والعشرين!.. ولكن هذا هو عين ما جرى، في هذه المناسبة. فبالرغم من أن « ميرسيريه » لم تكن دميمة، فإن سذاجتي لم تقف عند حد أنني لم أعمد - خلال الرحلة بأسرها - إلى النطق بأتفه مغازلة فحسب، وإنما

بلغت السذاجة أنني لم أفكّر - مجرَّد تفكير - في شيء من هذا القبيل على الإطلاق!.. بل إنه لو خطرت لي هذه الفكرة، لعجزت لغبائي عن أن أفيد منها! فما كنت لأتصوَّر كيف تنام فتاة وشاب في فراش واحد.. وكنت أخال أن الاستعداد لمثل هذا الأمر الرهيب يتطلَّب قرونًا من الزمن!.. وإذا كانت ميرسيريه البائسة قد طمعت - حين تكفَّلت بنفقاتي - في جزاء من هذا القبيل، فقد خاب حدسها، لأننا بلغنا (فريبور) بنفس الحال التي غادرنا بها (أنيسى) تمامًا!

وعندما مررنا بجنيف، لم أسع لزيارة أحد، ولكني أوشكت أن أصاب بمرض من فرط انفعالي وأنا أعبر جسور المدينة. أبدًا ما أقبلت على هذه المدينة، ولا ولجت أبوابهـا دون أن أحس بقلبي يغوص وقد أثقلته الانفعالات الطاغية!.. فبينما كانت صورة الحرية النبيلة تسمو بروحي، كان التفكير في المساواة والاتحاد ورقة الخلق يؤثِّر في نفسي إلى الدرجة التي تدمع عندها عيناي، ويبعث فيَّ حسرة محتدمة على كونى قد حُرمت من كل هذه النعم!.. وكم كنت مخطئًا! - ولكن، كم كان هذا الشعور طبيعيًّا، كذلك! - لقد كنت أخال أننى أرى كل هذه النعم في وطني، لأننى كنت أحملها في سويداء قلبي!

واضطررنا إلى أن نمر بمدينة (نيون).. فهل كنت أجتازها دون أن أرى أبي الشيخ!؟ لو أنني فعلت، لكنت خليقًا بأن أموت - بعده - كمدًا!.. ومن ثم تركت ميرسيريه في الفندق وذهبت لأراه، برغم كل الاعتبارات. آه، ما كان أشد خطئي إذ أوجست من لقائه!.. فما أن اقتربت منه، حتى تفتَّح قلبـه لعواطف الأبوة العارمة.. وكم بكى عندما تعانقنا!.. ولقد ظن - بادىء الأمر - أنني عدت إليه، فأنبأته بقصتى وبخطتى.. وعارض في وهن، وراح يبصرني بالأخطـار التي كنت أعرِّض نفسي لها، قائلًا إن أقصر النزوات والحماقات هي أفضلها!.. وفيما عدا ذلك، لم يداخله أي ميل إلى غصبي على البقـاء، وأرى أنه كان في ذلك على حق، ولكن من المؤكد أنه لم يبذل كل ما كان في وسعه لاستبقائي، إما لأنه كان يرى - في تقديره - أن من واجبي ألَّا أعود إليه، وإما لأنه كان في حيرة.. ولعله لم يكن يدرى ما الذي يفعله بي في مثل تلك السن التي بلغتها!.. ولقد علمت فيما بعد أنه كوَّن لنفسه عن زميلتي في الرحلة فكرة كانت جد ظالمة وجد بعيدة عن الحقيقة، ولكنها - على أيـة حال - كانت طبيعية!.. وكانت زوجة أبي امرأة طيبة، على شيء من الدهاء والقول المعسول، فقد تظاهرت بالرغبـة في استبقائي للعشاء.. ولكني لم أمكث، وإن وعدتهما بأن أبقى معهما وقتًا أطول عند عودتي، وعهدت إليهما بحزمة متاعى الصغيرة، التي كنت قد أرسلتها في مركب، والتي كنت حائرًا فيما أفعله بها. وفي اليوم التالي رحلت مبكرًا، وأنا جد مغتبط بأنني رأيت والدي، وأنني وجدت الجرأة على أن أؤدّي واجبى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووصلنا بسلام إلى (فريبور)، وكانت مغازلات الآنسة ميرسيريه قد خفَّت عندما اقتربت نهاية الرحلة. حتى إذا وصلنا، لم تعد تبدى لي سوى الفتور، كما أن أباها - الذي لم يكن غارقًا في الرخاء - لم يولنى حفاوة بالغة، فاضطررت إلى أن أقضى ليلتي في إحدى الحانات.. وزرتهما في اليوم التالي، فدعواني إلى العشاء، وقبلت الدعوة.. ثم افترقنـا دون ما دموع، وعدت في المساء إلى حانتي. وفي اليوم التالي رحلت، دون أن أدرى وجهة أقصدها!

وكانت تلك فرصة أخرى أرادت فيها العناية أن تمنحنى ما كنت أبتغيه لكي أنفق أيامي في هناء.. فلقد كانت فتاة ميرسيريه فتاة جد طيبة، ولئن لم تكن بالذكية ولا بالجميلة، فإنهـا لم تكن - كذلك - بالدميمة، كما أنها كانت على شيء من النشاط وكثير من الرزانة. وكانت تتعرَّض أحيانًا لنوبات قصيرة عابرة، تقضيها في بكاء، ولكن هذه النـوبات لم تكن تفضى قط إلى عواقب عاصفة. ولقد كانت الفتاة صادقة الميل نحوى، فكان بوسعي أن أتزوّجها دون عناء، وأن أحترف مهنة أبيها(7) - إذ أن ميلي للموسيقى كان كفيلًا بأن يجعلني أحب

هذه المهنة - وأن أستقر في (فريبور)، وهي بلدة صغيرة، قليلة الجمال، ولكنها تضم قومًا طيبين. وكنت بذلك سأحرم بلا شك من متع عظيمة، ولكني كنت خليقًا بأن أعيش في سلام إلى آخر لحظة في حياتي. ولقد كنت جديرًا بأن أعرف - أكثر من أي امرىء آخر - أنه لم يكن ثمة ما يبرِّر التردّد لحظة واحدة إزاء صفقة كهذه!

وعلى أثر رحيلي من (فريبور) لم أرجع إلى (نيون)، وإنما اتجهت إلى (لوزان)، فقد شئت أن أتملى بمنظر البحيرة الجميلة التي تُشاهد هناك في أكثر أجزائها اتساعًا. ولم تكن أغلب البواعث الخفية التي تُقرِّر مسلكي، بواعث جامدة.. فإن المناظر التي تُشاهد عن بُعد، نادرًا ما كانت من القوة بحيث تحفّزني على العمل، كما أن المستقبل غير المضمون كان يجعلني أنظر دائمًا إلى المشروعات التي يتطلّب تنفيذها أجلًا طويلًا، نظرتي إلى حيل خادعة!.. وأنا بطبعي، أنغمس في الآمال كغيرى، طالما كانت لا تكبدني شيئًا، أما إذا كانت تتطلّب رعاية مستمرة فإنني لا أمضى وراءها.. وأن أقل متعة صغيرة تعرض لي، وتكون في متناول يدى، لأكثر إغراء لي من مباهج الفردوس.. على أننى أستثنى من ذلك، المتعة التي يعقبها ألم، فهي لا تغريني قط، لأنني لا أحب سوى المسرات النقية الخالصة، وهذه لا يحظى بها المرء إطلاقًا عندما يعرف أنه إنما يهيئ نفسه للندم!

وكنت بحاجة ماسة إلى بلوغ أي مكان.. فكان أقرب الأماكن هو أفضلها! ولما كنت قد ضللت طريقي، فقد ألفيتني - ذات مساء - في (مودون)، حيث أنفقت القليل الذي كان قد تبقى معى، ما عدا عشرة « كروتزرات »(8) لم تلبث أن تبددت في الغذاء، في اليوم التالي.. حتى إذا بلغت - في المساء - قرية صغيرة على مقربة من (لوزان)، دخلت إحدى الحانات وليس في جيبى دانق أدفعه لقاء مبيتى، بل إنني لم أكن أدرى ما قد يكون من أمرى! وكنت جد جائع، فتجلّدت وطلبت عشاءً، كما لو كنت أملك أن أدفع ثمنه!.. ثم أويت إلى مضجعي دون أن أحمل همًّا، فاستغرقت في نوم هادىء. وبعد أن أفطرت - في الصباح التالي - وحاسبت مضيفي، أردت أن أترك له صديرى رهنًا، لقاء السبعة « باتزات »9، التي بلغتها نفقاتى. ولكن الرجل الطيب أبي، وقال إنه - والحمد للسماء - لم يجرِّد أحدًا قط من ثيابه، وأنه ما كان ليشرع في ذلك لقاء سبعة « باتزات »، ومن ثم فقد بات في وسعى أن أحتفظ بصديري، على أن أدفع له حقه متى استطعت. وقد تأثّرت لطيبته، ولكن بدرجة أقل مما كان ينبغي، وأقل مما صرت أشعر كلما تذكّرت الأمر بعد ذلك. وقد بادرت بارسال المبلغ إليه فيما بعد، شاكرًا، مع رجل ائتمنته.. على أننى بعد خمس عشرة سنة، مررت بلوزان، في عودتي من إيطاليا، فشعرت بأسف صادق لكوني نسيت اسم الحانة واسم الرجل، وإلا لذهبت لرؤيته، ولحظيت بسرور حقيقى وأنا أذكّره بالخير الذي أسداه، وأثبت له أنه لم يضعه في غير موضعه!.. وكم من خدمات أكثر أهمية، بلا شك - ولكنها بُذلت بكثير من التفضل والمن - بدت لي أقل استحقاقًا للعرفان من العمل الإنساني البسيط الذي بذله هذا الرجل الطيب في غير زهو!

وفيما كنت أقترب من (لوزان)، رحت أتأمل الضيق الذي وجدتنى فيه، والوسائل التي أستطيع بها أن أنتزع نفسي منه دون أن أطلع زوجة أبي على تعاستي!.. وأخذت أقيس نفسى - في سفري على الأقدام - بصديقي فنتور عندما وصل إلى (أنيسي)، فإذا بهذه الفكرة تبث الدفء في نفسي، حتى أننى اعتزمت أن أكون « فنتور » صغيرًا في (لوزان)، دون أن يجول بخاطري أنني لم أوت لطفه ولا مواهبه.. وقرَّرت أن أقوم بتدريس الموسيقى التي لم أكن على علم بها، وأن أزعم أننى وفدت من باريس - التي لم أزرها قط! - وبناء على هذا المشروع البديع، شرعت في السؤال عن فندق صغير أستطيع أن أجد فيه مقرًّا مريحًا بأبخس النفقات. إذ لم تكن ثمة مدرسة للشمامسة أستطيع أن أعرض عليها معونتي، كما أنني لم أكن من الغباء بحيث أندس وسط أهل الفن!.. ودلني البعض على شخص يُدعى « بيروتيه » كان يؤجِّر غرفًا في داره. وتجلّى لي أن هذا الـ « بيروتيه

» كان خير رجل في العالم، وقد أحسن استقبالي. وإذ رويت له أكاذيبي الصغيرة - كما دبَّرتها - وعدني بأن يذكرني لدى الناس، وأن يسعى ليأتيني ببعض التلاميذ. وقال لي إنه لن يسألني أجرًا إلا بعد أن أكتسب نقودًا. وكان أجر المنزل خمسة دنانير بيضاء10، وهو أجر زهيد بالنسبة للمكان، ولكنه كان باهظًا بالنسبة لي. ولقد نصحنى « بيروتيه » بأن أكون في البداية « نصف نزيل »، أي أن أستمتع بالإقامة، وبغداء يتألَّف من حساء دسم - لا أكثر - وبعشاء طيب في المساء.. فوافقت. كان هذا الـ « بيروتيه » المسكين يقدِّم لي كل هذه الميزات عن طيب خاطر، وعن خير نية في الدنيا. ولم يكن يدخر وسعًا كى يساعدنى!

تُرى لماذا قُدِّر لي - وقد وجدت كل هؤلاء الناس الطيبين في صباى - ألا أجد منهم في كبرى إلا القليلين؟.. أيكون نوعهم قد انقرض؟.. لا، ولكن الطبقة التي أضطر إلى البحث عنهم فيها اليوم، لم تعد عين الطبقة التي كنت أعثر عليهم فيها من قبل! ذلك لأن نداء الأحاسيس الفطرية يزداد ترددًا وانبعاثًا لدى الناس الذين لا يُسمع التمشدق بالعواطف العظمى بينهم إلا قليلًا!.. أما بين أبناء الطبقات الراقية، فإن المشاعر الفطرية تختنق تمامًا، فلا يعلو سوى صوت المصلحة أو الغرور!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكتبت لأبي من (لوزان)، فأرسل حزمة متاعي، وخصني بنصائح رائعة، كان خليقًا بي أن أفيد منها.. وكنت قد لاحظت أنني أصبحت أتعرَّض لفترات من الشرود لم أدر مأتاها، بل كنت لا أشعر خلالها بنفسي - وهنا أيضًا بادرة من البوادر التي تستحق الملاحظة! - ولكي تدرك إلى أي مدى كنت أفقد رأيي، وإلى أي مدى « فنترت » نفسى - أي تشبهت بفنتورا، إن صح هذا القول - يكفي أن نرى كم من الأعمال الجنونية كنت آتيها معًا، وفي آنٍ واحدا: فها قد غدوت مدرسًا للغناء دون أن أعرف كيف أفك رموز أى لحن! - إذ أن الشهور الستة التي قضيتها مع « لوميتر » لم تكن بالكافية، حتى إذا كنت قد أفدت منها! - ثم أنني كنت قد تعلَّمت على يدى أستاذ، وكان هذا كافيًا لأن يجعلني لا أكترث بالدراسة(11)!

وإذ صرت باريسيًا من (جنيف)، وكاثوليكيًا في بلد بروتستانتي، فقد رأيت أن علىَّ أن أغيّر اسمى كما غيّرت عقيدتي ووطني، إذ كنت أحاول دائمًا أن أصبح أقرب ما أكون إلى المثل العظيم الذي اتخذته. وقد كان يسمى نفسه « فنتور دى فيلنيف »، لذلك قلبت اسم « روسو » إلى « ووسور »، أو « فوسور »، وأسميت نفسى « فوسور دى فيلنيف »! ولقد كان « فنتور » على معرفة بالتلحين، وإن لم يقل شيئًا عن ذلك... أما أنا، فبدون معرفة بالتلحين، رحت أفتخر ببراعتي أمام العالمين.. وبدون أن أستطيع تمييز أبسط أغنية دارجة، جعلت من نفسي ملحنًا!.. ولم يكن هذا كل ما في الأمر، فقد قدمت إلى السيِّد دى تريتوران - وكان أستاذًا في القانون، أحب الموسيقى واعتاد أن يقيم حفلات موسيقية في داره - فشئت أن أعرض عليه « عينة » من براعتي، وعكفت على وضع لحن لإحدى حفلاته في جرأة بالغة، وكأنني كنت أعرف كيف أؤدى المهمة!.. وواظبت على العمل خمسة عشر يومًا في إعداد هذا اللحن الجميل، وفي نسخ صورته، وفي تقسيم أجزائه، وفي توزيعها باطمئنان بالغ، وكأن اللحن تحفة متناسقة. وأخيرًا - الأمر الذي لا يكاد يُصدق، ولكنه الحقيقة الخالصة - أردت أن أتوّج هذا الإنتاج الراقي بشكل يليق به، فأضفت في النهاية أغنية بديعة كانت تتردد في الطرقات، ولعل الناس أجمعين لا يزالون يذكرونها، وهذا نصها:

« يا للفجور.. ويا للجحود.. ماذا؟!

هل غدرت حبيبتك كلاريس بأهلك؟!.. إلخ ».

وكان فنتور قد لقننى هذا اللحن - الذي يُعزف على أوتار الطبقة الثانية - مع كلمات أخرى

بذيئة، تذكرته بفضلها. ومن ثم أضفت في نهاية لحنى هذا المقطع وأنغامه الخفيضة، وقدَّمت الجميع على أنها من ابتداعي، في اعتداد، وكأنني كنت أخاطب قومًا من سكان القمر!

واجتمعت الفرقة لعزف لحنى، فشرحت لكل فرد نوع الحركة، وطريقة الأداء، وعلامات تكرار الأجزاء، وانهمكت في ذلك كل الانهماك.. فقضى العازفون خمسًا أو ست دقائق - بدت لي كخمسة أو ستة قرون! - في تنسيق أصواتهم وآلاتهم، حتى أصبحوا أخيرًا على تمام الأهبة، فوقعت الضربات الخمس أو الست إشارة الانتباه، على منضدة القيادة، بأنبوبة بديعة من الورق، فساد الصمت، وبدأت أوقع الوقت في عظمة وجد.. وبدأ العزف! - لا، فمنذ ظهور « الأوبرا » الفرنسية على قيد الحياة، لم تُسمع مثل تلك « الضوضاء »! - ومهما يكن قد خالج القوم بصدد براعتي المزعومة، فإن الأثر كان أسوأ من أي شيء توقعوه!.. وكتم المستمعون ضحكهم، بينما فتح المستمعون عيونهم عن آخرها، وكانوا على استعداد لأن يسدوا آذانهم، ولكنهم لم يعرفوا لذلك وسيلة. وعمـد العازفون القساة ـ رغبة في السخرية - إلى العزف بشدة كافية لأن تخرق طبلة أذن الأصم(12)!

وأوتيت من الجَلَد ما يكفي لأن أستمر في دوري دون توقف، وإن راح عرقي يتصبب غزيرًا في الواقع.. فقد منعنى الحياء، فلم أجرؤ على الهرب، بينما كان الجميع جالسين.. وعلى سبيل العزاء، سمعت المساعدين المحيطين بي يتهامسون بعضهم في آذان بعض، أو - بـالأحـرى - في أذني.. فقـال أحدهم: « ليس في هذا ما يطاق! ».. وقال آخـر: « يا لها من موسيقى جنونية! ».. وقال غيره: « يا للحن الشيطاني ».. مسكين أنت يا جان جاك، فما طمعت - في تلك اللحظة - في أن تنتزع أنغامك هذه يومًا، وفي حضرة ملك فرنسا وحاشيته بأسرها، تمتمات الدهشة، وتصفيق الإعجاب.. وأن تتهامس النسوة الفاتنات، في المقصورات المحيطة بك: « يا لها من نغمات ساحرة!.. أية موسيقى فاتنة!.. كل هذه الأنغام تنفذ إلى القلب! ».

على أن الذي ردَّ القوم إلى رضاهم، هو ذاك المقطع الذي أضفته في النهاية.. فما أن عُزفت بضع نغمات منه، حتى سمعت القهقهات تتصاعد من كل جانب.. وأخذ كل امرىء يهنئني بذوقي الجميل، ويؤكد لي أن هـذا المقطع كفيل بأن يذيع اسمى، وأننى جـدير بأن تُردد أنغامي في كل مكان. ولست بحاجة إلى أن أصف غمى، ولا إلى أن أعترف بأنني كنت أستحقه!

وفي اليوم التالي، جاء أحد العازفين- وكان يدعى « ليتولد » - ليراني، وكان من الأمانة بحيث أنه لم يهنئني بنجـاحى.. فإذا شعوري العميق بحماقتي، وبالخجل والندم واليأس من جـراء الحال التي انحدرت إليها، واستحالة إبقاء قلبى مغلقًا على هذه الآلام الجسيمة.. إذا شعورى هذا يحملني على أن أفتح قلبي له، وأن أطلق العنان لدموعي.. وبدلًا من أن أكتفى بأن اعترف له بجهلي، أفضيت إليه بكل شيء، وسألته أن يكتم سرى، فوعدني بذلك، وبرَّ بوعده على النحو الذي يمكن تصوره.. فما أن حلَّ مساء اليوم ذاته، حتى كانت (لوزان) بأسرها قد عرفت حقيقتى!.. وكان أعجب ما في الأمر، أن أحدًا لم يطلعني على أنه قد عرفها، ولا « بيروتيه » الطيب، الذي لم يحجم، برغم ذلك كله، عن إيوائي وإطعامي!

وقُدِّر لي أن أعيش، ولكن في حزن غامر. وكان من جراء موقف كهذا، أن لوزان لم تعد بالنسبة لي مقامًا مستحبًا، فلم يقبل التلاميذ زرافات. بل أنني لم أظفر بتلميذة واحدة، ولا بأحد من أبناء المدينة.. كل الذين ظفرت بهم كانوا اثنين أو ثلاثة من الألمان الذين كانوا من الغباء بقدر ما كنت من الجهل، وكانوا يضايقونني إلى درجة الموت، كما أنهم لم يصبحوا - على يدي - ولو عازفين غير منتظمين!.. ولم أدع إلا إلى بيت واحد، كانت فيه فتاة صغيرة - كأنها الحية - أخـذت تتلهى باطلاعي على كثير من القطع الموسيقية التي كنت عاجزًا عن

قراءة « نوتاتها »، ثم كانت تنطلق في الغناء - بعد ذلك - أمام مدرس الموسيقى لتريه كيف يجب أن يؤدي اللحن!.. وكنت لا أكاد أستطيع أن أقرأ أي لحن من أوَّل نظرة، حتى أنني - في الحفلة الباهرة التي تحدَّثت عنها - كنت عاجزًا عن أن أتتبع العزف لحظة لأتبين ما إذا كان العازفون يحسنون توقيع ما كان تحت بصرى، وما كنت قد ألفته بنفسي!، أم لا!

وفي غمرة هذا الهوان، وجدت عزاء في الأنباء التي كنت أتلقاها بين وقتٍ وآخر، من الصديقتين الفاتنتين.. فلقد اعتدت دائمًا أن أجد طاقة مرفهة عظيمة في الجنس الآخر، فليس ثمة ما يواسى أحزاني - في المصائب - أكثر من أنثى لطيفة تعنى بي!.. على أن هذا التراسل لم يلبث أن انقطع بعد ذلك بقليل، ولم يُقدَّر له أن يُستأنف قط ..غير أن ذلك كان في الواقع ذنبي، إذ أنني عندما غيَّرت محل إقامتي، أغفلت أن أبعث إليهما بعنواني، ثم نسيتهما تمامًا، إذ كنت مضطرًا - بحكم الضرورة ـ إلى أن أفكر في نفسي باستمرار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد انقضى وقت طويل دون أن أتحدث عن « ماما »(13) المسكينة. على أن المرء يكون جد مخطىء إذا ظن أنني نسيتها هي الأخرى، فإنني لم أكف عن التفكير فيها، وعن الشوق إلى العثور عليها ثانية، لا لحاجتي المادية فحسب، وإنما لما هو أكثر من ذلك.. لحاجتي القلبية!. كان تعلقي بها - برغم ما كان عليه من حرارة وحنان - لا يحول بيني وبين أن أحب غيرها، ولكن على غير شاكلة حبى لها! فإن النساء جميعًا كن - على السواء - مدينات بعاطفتي لمفاتنهن.. أما هي، فكانت لها مكانة فريدة، دونها مكانات الأخريات، فلم تكن مفاتنهن تعدو عليها.. بل لقد كان من المحتمل أن تهرم « ماما » وأن تصبح دميمة، وأنا مقيم على حبها، دون أن يقل شغفي بها!.. كان قلبي قد نقل إلى شخصها كل التمجيد الذي استشعره من قبل نحو جمالها، فما كانت عواطفى نحوها لتتغير قط - مهما يكن التغيُّر الذي يتعرَّض مظهرها له - طالما ظلَّت في جوهرها هي بذاتها!.. وكنت أدرك تمامًا أنني مدين لها بالفضل، ولكني لم أفكر في ذلك قط، في الواقع.. بل كان ما فعلته وما لم تفعله من أجلى سواء عندي، إذ أنني لم أحببها عن شعور بالواجب أو بالمصلحة الذاتية، ولا عن خضوع وامتثال، وإنما أحببتها لأنني خُلقت كى أحبها!.. وكنت عندما أقع في هوى أية امرأة أخرى، أشغل بها - كما ينبغي أن أعترف - فيقل تفكيرى في « ماما ».. ولكنى كنت إذا ما عدت للتفكير فيها، أفكر بنفس المتعة. وما شغلت بها قط - سواء كنت على حب أو لم أكن -دون أن أشعر بأنني لن أجد سعادة حقيقية قط في الحياة طالما كنت بعيدًا عنها!

ومع أنني لم أسمع عنها منذ أمد طويل، إلا أنني لم أعتقد قط بأنني فقدتها تمامًا، ولا خطر لي أن من الممكن أن تكون قد نسيتني. وكنت أقول لنفسي: « إنها لن تلبث أن تعلم - طال الوقت أو قصر - بأننى شريد وحيد، فتبعث إلىَّ بما يطمئنني إلى أنها على قيد الحياة. ولسوف ألقاها ثانية، بكل تأكيد. وفي انتظار ذلك، كان من بواعث البهجة أن أعيش في مسقط رأسها، وأن أجتاز الطرقات التي سارت فيها من قبل، وأمر بالبيوت التي كانت تقيم فيها.. كل هذا بالحدس والتخمين، فقد كان من نزواتي الحمقاء أنني كنت عاجزًا عن أن أحمل نفسي على الاستعلام عنها، بل عن ذكر اسمها، ما لم تكن ثمة ضرورة ماسة.. كان يبدو لي أنني بذكر اسمها أشى بكل ما كانت تلهمني إياه من مشاعر، وأن فمي يفضح سر قلبى، وأنني أحرجها بطريقة ما! كذلك خُيّل إلىَّ أن تحرجي عن ذكر اسمها كان يمتزج بشعور ما كان يوحى إلىَّ بأن أحدًا قد يذكرها أمامي بسوء! فقد كان الناس يكثرون من الحديث عن الخطوة التي اتخذتها، ويمسون سلوكها بعض الشيء. لذلك آثرت ألا أسمع أي شيء يُقال عنها - على الاطلاق - خوفًا من أن يقال لي ما لا أتوق إلى سماعه!

ولما لم يكن تلاميذي يشغلونني كثيرًا، وكان مسقط رأسها لا يبعد عن (لوزان) بأكثر من أربعة فراسخ، فقد قض ثلاثة أيام أو أربعة أتمشى هناك، دون أن يفارقني أعذب شعور عرفته. كان لمنظر (بحيرة جنيف) وضفافها البديعة سحر يأسر عينَيَّ دائمًا، ولا قِبل لي

بوصفه.. سحر لم يكن ينحصر في جمال المنظر فحسب، بل كان يشتمل أيضًا على شيء أكثر جاذبية، وأقدر على التأثير عليّ، والسيطرة على مشاعري. وفي جميع المرات التي كنت أقترب فيها من مقاطعة (فود)، كان يخامرنى شعور ينطوي على ذكرى « مدام دى فاران » - التي ولدت هناك - وأبي، الذي عاش هناك، والآنسة دى « فيلسون » التي استمتعت بأولى ثمـار حب صباي، وكثير من الرحلات البهيجـة التي قمت بها في طفولتى.. وسبب آخر - فيما يبدو لي - كان أكثر إثارة، وأشدّ غموضًا، وأقوى سلطانًا من كل هذه مجتمعة!.. كانت الرغبة المتأججة في هذه الحياة الهانئة الوادعـة - التي كانت تفر منى برغم أنني ولدت لها - تتجه دائمًا إلى مقاطعة (فود)، على مقربة من البحيرة، ووسط الريف الفتان.. كنت أصبو إلى أن يكون لي بستان على شاطىء هذه البحيرة دون سواها، وإلى أن يكون لي صديق أمين، وامرأة لطيفة، وبقرة، وزورق صغير.. ولن أنعم بسعادة كاملة على الأرض، إلا إذا تحقق لي كل هذا! وإني لأضحك من السذاجة التي كانت تحـدو بى إلى زيارة هذه البلاد مرارًا، لمجرَّد البحث عن هذه السعادة الخيالية! وكنت أدهش دائمًا إذ كنت أجد سكانها - لا سيما النساء منهم - على النقيض مما كنت أنشد.. لكم كان يهولني هذا التناقض!.. أبدًا لم يلح لي أن كلًّا من المقاطعة وأهلها قد خُلق من أجل الآخر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفى خلال الرحلة إلى (فيفـاى)[14]، أطلقت نفسى - وأنا أتمشى على شاطىء البحيرة الجميلة - للشجون العذبة، فإذا بقلبي يندفع في شوق إلى آلاف من المفاتن البريئة، وأترعت نفسي بالانفعالات، فرحت أتنهد وأبكي كالطفـل!.. كم من مرة توقفت لأبكى ما شاء لى البكاء!.. وكنت أجلس على حجر كبير، أتسلى بتأمل دموعي وهي تتساقط في الماء!

وفي (فيفاى)، أقمت في (لاكليه). وفي خلال اليومين اللذين أقمتهما هنـاك دون أن أرى أحدًا، تملكني نحو هـذه المدينـة حب ظلّ يلاحقني في كل رحـلاتي، وحملني - في النهاية - على أن أقيم فيها معبدًا لأبطال خيالي القصصى. وإني لأقول - عن طيب خاطر - لأولئك الذين أوتوا ذوقًا وحسًّا مرهفين: « اذهبوا إلى فيفاى.. وجوسوا خلال ريفها، وتأملوا المواقع، وتمشوا على ضفاف البحيرة، وقولوا ما إذا كانت الطبيعة لم تخلق هذا البلد الجميل لجوليا وكلير وسان برو[15].. ولكن، لا تتوقعوا أن تجدوهم هناك! ».. على أني أعود الآن إلى قصتى:

ولما كنت كاثوليكيًا، وقـد اعترف بى كذلك، فقد رحت أمارس جهارًا، وبدون إحجـام، العقيدة التي اعتنقتهـا.. وكنت - في أيام الأحد ذات الجو المعتدل ـ أحضر الصلاة في (أسين)، على مبعدة فرسخين من (لوزان)، فكنت أقطع المسافة عادة في صحبة غيرى من الكاثوليكيين، أذكـر منهم بالذات شخصًا كان يحترف التطريز الباريسي، وفد غاب عني اسمه. ولم يكن الرجل باريسيًا على شاكلتي، وإنما كان باريسـيًّا صميمًا، من باريس. وكان تقيًا مؤمنًا، ذا فطرة طيبة كأبناء (شامبانى)، وقد بلغ من حبه لوطنه أنه لم يسمح لنفسـه البتة بالارتياب في أنني باريسي مثله، خوفًا من أن يضيع على نفسه فرصة الحديث عن باريس. وكان لدى السيِّد « دى كروزا » - مساعد الحاكم - بستانى من باريس كذلك، ولكنه كان أقل طيبـة، وكان يرى أن من المساس بكرامة بلده أن يجرؤ أي إنسان على أن ينتمي إليها دون أن يكون له حق في هذا الشرف!.. لذلك راح يمطرني بالأسئلة، وهو يبتسم في خبث، بلهجة الواثق من أنه لن يلبث أن يكتشف غلطة! ولقد سألني مرة عن أبرز معالم (مارشيه نيف)، فأجبته اعتباطًا وتخبطًا، كما يستطيع المرء أن يحدس. وجدير بي اليوم - وقد أقمت في باريس عشرين عامًا - أن أكون على دراية بها، ومع ذلك، فلو أن أحـدًا وجَّه إليّ سؤالًا كهذا السؤال، لما كان ارتباكي في الإجابة أقل منه يومئذ، ولأستنتج أى امرىء - من هذا الارتباك - أنني لم أقطن باريس قط!.. إلى هذا الحد يكون المرء معرضًا للاعتماد

على ظواهر خداعة، ولو صادف الحقيقة!

وليس بوسعي أن أذكر تمامًا مدة إقامتي يومئذ في (لوزان)، فإنني لم أحمل من هذه المدينة ذكريات حية. كل ما أدريه هو أنني حين وجدت نفسي عاجزًا عن كسب عيشي فيها، نزحت منها إلى (نيوشاتيل) حيث قضيت الشتاء. ولقد كنت في هذه المدينة أكثر توفيقًا، إذ كان لدىَّ تلاميذ، كما أننى كسبت منها ما مكنني من الوفاء بديني لصديقي الطيب « بيروتيه »، الذي كان من النبل بحيث أرسل إلىَّ - في الماضي - حزمة متاعي الصغيرة، برغم أننى كنت مدينًا له بمبلغ كبير!

ولقد تعلَّمت الموسيقى - دون قصد منى - خلال تدريسى إياها. وكانت حياتي على قدر لا بأس به من الدعة. كانت حياة تكفى لأن يقنع بها أي رجل عاقل، ولكن قلبي القلق كان يصبو إلى شيء آخر.. وكنت في أيام الأحد والأيام الأخرى التي أخلو فيها من العمل، أرتع في الريف والغابات المجاورة، دون أن أكف عن التجوال، والتأمل، والتنهد. وكنت إذا ما خرجت من المدينة، لا أعود إليها قبل المساء. وفي ذات يوم، كنت في (بودرى) فولجت فندقًا لأتناول الغداء، وإذا بي أرى رجلًا طويل اللحية، ذا حلة بنفسجية على النمط اليوناني، وقلنسوة من الفرو، وقد أوتى مظهرًا ينم عن نبل. وكان يجد عناء - في أكثر الأحيان - في أن يجعل القوم يفهمون ما كان يبغى، إذ كان لا يكاد ينطق بغير لهجة ركيكة لا سبيل إلى تمييزها تقريبًا، ولكنها كانت شديدة الشبه باللغة الإيطالية، ولا لغة غيرها. وفهمت كل ما كان يقول تقريبًا، وكنت الوحيد الذي فهم. ولم يجد الرجل بوسعه أن يوضح ما يبغى إلا بتبادل الإشارات مع صاحب الفندق ومع أبناء المنطقة، فوجهت إليه بضع كلمات بالإيطالية، فهمها تمامًا، فنهض وعانقني في ابتهاج. وسرعان ما تعارفنا، ومنذ تلك اللحظة عملت مترجمًا له، وكان غداؤه شهيًّا، في حين أن غدائي كان أقل من المتوسط، فدعاني إلى أن أشاركه طعامه، فلم أبد تمنعًا يُذكر. وبينما كنا نشرب ونتكلم، وثقنا من تآلفنا، فلم ينته الغداء حتى أصبحنا لا نطيق افتراقًا!..



ـما كنا نشرب ونتكلم ، وثقنا من تآلفنا ، فلم ينته الغـداء حتى
لا نطيق افتراقا ! ..

وروى لي أنه كان قسًّا يونانيًا، و « أرشيمندريت » لبيت المقدس، وقد أوفد لجمع اكتتابات من أوربا لتجديد كنيسة المهد المقدس. وأطلعني على شهادات بديعة من القيصرة والإمبراطور، كما كان لديه كثير غيرها من ملوك آخرين. وكان جد راض عما جمع حتى ذلك الحين، ولكنه كان قد صادف في ألمانيا صعوبات لا تخطر بالبال، إذ أنه لم يكن يفقه كلمة واحدة من الألمانية أو اللاتينية أو الفرنسية، فكان مضطرًا إلى الاقتصار على لغته اليونانية، وعلى اللغة التركية، واللغة الفرنجية، مما لم يسعفه كثيرًا في البلدان التي لم يكن ملمًا بألسنتها. لذلك عرض عليَّ أن أصحبه فأكون له سكرتيرًا ومترجمًا. وإلى جانب أن حلتي البنفسجية المتواضعة - التي كنت قد ابتعتها حديثًا - لم تكن تنسجم مع مركزي الجديد، فإنني لم أوت من أناقة المظهر سوى قسط بسيط، مما جعله يعتقد أن الظفر بي أمر غير عسير. ولم يكن في ذلك مخطئًا، فسرعان ما تم اتفاقنا، إذ أنني لم أطلب شيئًا، في حين أنه وعد بالكثير.. وبدون احتياط، ولا ضمان، ولا معرفة، أسلمته قيادي.. وهكذا رحلت من الغد في طريقي إلى بيت المقدس!

وبدأنا رحلتنا بمقاطعة (فريبور)، ولم يخرج منها بطائل، إذ أن كرامته الكنيسية لم تكن لتسمح له بأن يقوم بدور المتسول، ولا بجمع الاكتتابات من خاصة القوم. على أننا عرضنا مهمته على مجلس الشيوخ، فمنحه مبلغًا صغيرًا. ومن هناك يممنا شطر (بيرن)، وهبطنا في فندق « أوفوكون »، وكان في ذلك العهد نزلًا طيبًا، يؤمه وسط طيب. وكانت المائدة حافلة، ومحفوفة بالعناية. وكان قد انقضى وقت طويل اضطررت فيه إلى النزول بالفنادق الرخيصة، ومن ثم فقد كان لزامًا عليَّ أن أهيىء نفسى لتعويض ما فاتني، وكانت الفرصة سانحة، فاستغللتها. ولقد كان السيِّد « الأرشمندريت » نفسه رجلًا طيب المعاشرة، مشغوفًا بالمائدة، مرحًا، يجيد الحديث مع مَن كانوا يفهمونه. ولم تكن تنقصه المعرفة، وكان يجيد عرض بلاغته اليونانية بكثير من البراعة. وحدث ذات يوم أنه أصاب أصبعه بجرح عميق، بينما كنا نكسر بندقًا عقب الغداء، فلما انساب الدم دافقًا، عرض أصبعه على الحضور وهو يقول ضاحكًا: « ألا أبدوا إعجابكم يا سادة.. إنه دم بيلا سجى! »16

ولم تكن خدماتي له قليلة النفع في (بيرن)، فلم أخرج منها بنتيجة سيئة كما كنت أخشى، وإنما كنت أكثر جرأة وأبلغ حديثًا مما لو كنت أعمل لنفسي!.. على أن الأمور لم تجر بالبساطة التي جرت بها في (فريبور)، بل كان لا بد من مؤتمرات طويلة وعديدة من كبار رجال الدولة، كما أن فحص شهادات « الأرشيمندريت » لم يكن بالمسألة التي تتم في يوم واحد. وأخيرًا، عندما تمت الإجراءات اللازمة، كان علينا أن نعرض الأمر على مجلس الشيوخ. فذهبت مع « الارشمندريت » بوصفى مترجمًا له، فطلب إليَّ أن أتكلم، وكان هذا آخر ما توقعت، فما خطر ببالى أن ثمة ضرورة - بعد المحادثات الطويلة مع الأعضاء فرادي - إلى مخاطبة المجلس مجتمعًا، وكأنما لم يدر من قبل أي حديث!.. فتصوّروا ارتباكى!.. تصوّروا رجلًا خجولًا مثلى، يُطالب بأن يتكلّم لا أمام ملأ من الناس فحسب، وإنما أمام مجلس شيوخ (بيرن) بالذات.. وأن يتكلم ارتجالًا، وليست أمامه مذكرة واحدة معدَّة.. كان هذا ما أوشك أن يقتلني!.. ومع ذلك فإنني لم أجبن، وإنما عرضت في وضوح وإيجاز مهمة الارشيمندريت، وأطريت تقوى الأمراء الذين ساهموا في الاكتتاب الذي جاء لجمعه، ولكي أثير حمية مثل هؤلاء السادة الفخام، قلت إنه من غير المتوقع إزاء كرمهم المألوف أن يكونوا أقل من أولئك.. ثم حاولت أن أثبت لهم أن مثل هذا العمل الخيرى يهم المسيحيين جميعًا، دون ما تمييز بين مذاهبهم.. وانتهيت بأن وعدت كل مَن يساهم فيه ببركات من السماء!

ولن أقول إن خطابي كان مؤثّرًا، بيد أنه صادف - بالتأكيد - هوى لدى المستمعين. وعند مغادرة الاجتماع، تلقى « الارشيمندريت » تبرعًا سخيًا مشرِّفًا، فضلًا عن إطراءات لذكاء سكرتيره، نعمت بمهمة ترجمتها إليه، وإن لم أجسر على أن أنقلها بنصها! وكانت هذه هي

المرة الوحيدة في حياتي التي تكلمت فيها على الملأ وأمام صاحب سلطان، ولعلها أيضًا المرة الأولى التي تكلَّمت فيها بلباقة وإجادة. فأي تحول في تصرفات نفس الرجل!.. لقد ذهبت أخيرًا - منذ ثلاث سنوات - إلى (ايفردون) لأزور صديقي القديم السيِّد « روجان »، فاستقبلت وفدًا جاء يشكرني إذ أهديت مكتبة البلدة بعض الكتب.. والسويسريون خطباء بارعون، ومن ثم انطلق هؤلاء السادة في الخطابة لي، ووجدتني مضطرًا للرد، ولكني ارتبكت بدرجة كبيرة حين شرعت في ذلك، واضطربت أفكاري إلى درجة جعلتني أوجز وأجعل نفسي موضع السخرية!.. وعلى الرغم من أننى خجول بطبيعتي، إلا أنني كنت جسورًا في بعض الأحيان - في شبابي - ولكني لم أكن كذلك قط في كبرى.. فكلما ازددت تعرفًا على المجتمع، قلَّت قدرتي على أن أكيف نفسى وفقًا لأساليبه في الحديث!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذ غادرنا (بيرن)، ذهبنا إلى (سولير)، إذ ارتأى الارشيمندريت أن يجتاز ألمانيا ثانية، عائدًا عن طريق المجر أو بولندا، وهي رحلة بالغة الطول. ولكنه لم يخش طولها، إذ كان كيسه خليقًا بأن يمتلىء خلال الطريق بدلًا من أن يفرغ!.. أما أنا، فكان سواء لديَّ أرحلت على جواد أو على قدمي، فما كنت لأبتغى أفضل من الترحال بهذا الشكل، طيلة العمر.. ولكن كان مكتوبًا لي ألَّا أمضى في ترحالي بعيدًا!

كان أوَّل ما فعلناه عند وصولنا إلى (سولير) هو الذهاب لتحية السيِّد سفير فرنسا. وكان هذا السفير - لسوء حظ أسقفى - هو « المركيز دى بوناك » الذي كان سفيرًا لدى الباب العالي، والذي قُدِّر له أن يكون على معرفة وافية بكل ما يتعلَّق بكنيسة المهد المقدس. وقضى الارشمندريت ربع ساعة في المقابلة التي لم يُسمح لي بحضورها، لأن السيِّد السفير كان يفهم لسان الفرنجة ويعادلني - على الأقل - في إتقان الحديث بالإيطالية. وعندما خرج صاحبي اليوناني، هممت بأن أتبعه، ولكني استوقفت، إذ حان دوري لمقابلة السفير، فقد تقدَّمت على أننى باريسى، ومن ثم تحت ولاية صاحب السعادة! وسألني السفير عمَّن أكون، وناشدني أن أقول الحقيقة، فوعدت بذلك، ورجوت بأن يأذن لي بأن أخلو إليه، فأذن لي، وصحبني إلى مكتبه، وأغلق الباب.. وإذ ذاك ارتميت على قدميه، وبررت بوعدى وما كنت خليقًا بأن أضن بالكلام، ولو لم أعد بشيء، إذ كانت الرغبة المستمرة في أن أفضى بما في صدري تدفع قلبي إلى شفتَيّ في أية لحظة.. وإذا كنت قد كشفت حقيقتى دون تحفظ للموسيقى « ليتولد » فما كان من المحتمل أن ألجأ إلى التكتم أمام المركيز دي «بوناك!».

وبدا عليه الاقتناع بقصتى القصيرة، وبالصراحة التي فضفضت بها عن صدرى، فأمسك بيدي وقادني إلى السيِّدة زوجة السفير، فقدَّمني إليها، وأوجز لها قصتى، فتلقتنى السيِّدة دى بوناك في رفق، وقالت إنني يجب ألَّا أُترك مع ذلك الراهب اليوناني. ومن ثم تقرَّر أن أبقى في الدار حتى يريا ما يمكن أن يُفعل من أجلى. ووددت أن أذهب فأودع ارشيمندريتى المسكين الذي كنت أشعر بميل نحوه، فلم يؤذن لي، وإنما أُوفد إليه مَن أنبأه بأنني قد احتجزت.. وإن هو إلا ربع ساعة، حتى كانت حزمة متاعي الصغيرة قد وصلت. وعُهد بي إلى السيِّد دى لامارتنيير - سكرتير السفارة - فقال وهو يريني الغرفة التي أُعدت لي: « لقد شغل هذه الحجرة - في عهد كونت دي لوك ـ رجل مشهور كان له نفس اسمك17، وعليك وحدك أن تملأ مركزه من جميع الاعتبارات، حتى يقال: روسو الأول، وروسو الثاني! ».. وما كان لهذا التشابه - الذي لم أعلق عليه أملًا إذ ذاك - أن يستهوى مطامعى، لو قُدِّر لي أن أطلع على المستقبل فأرى الثمن الذي كان مقدَّرًا على أن أدفعه من أجله يومًا!

ولقد أثار قول السيِّد « دى لامارتنيير » فضولي، فقرأت مؤلفات ذلك الذي شغلت غرفته. وإزاء المجاملة التي وُجهت إلىَّ، واعتقادًا منى بأننى أوتيت موهبة الشعر، نظمت أغنية في

مدح السيِّدة دى بوناك، كمحاولة أولى، على أن هذه النزوة لم يطل أمدها.. ولقد اعتدت أن أنظم الشعر جزافًا ـ بين وقتٍ وآخر - فهو مران لا بأس به لتدريب المرء على الرشاقة في تكوين العبارات، ولتحسين الأسلوب النثري، ولكني لم أجد في الشعر الفرنسي قط جاذبية كافية لأن تجعلني أتفرغ له!

ورغب السيِّد دى لامارتنيير في أن يرى أسلوبى، فسألني أن أكتب عين القصة التي رويتها للسيِّد السفير، فكتبت له رسالة طويلة سمعت - أنها الآن في حوزة السيِّد دي مارتان، الذي ظلَّ زمنًا طويلًا ملحقًا بالسفارة في عهد المركيز دى بوناك، والذي خلف السيِّد دى لامارتنيير في عهد تولى السيِّد دى كورتي السفارة! - ولقد رجوت السيِّد دي ماليشيرب أن يسعى للحصول لى على نسخة من هذه الرسالة.. وإذا قُدِّر لى أن أظفر بها بوساطته، أو بوساطة سواه، فسوف توجد في المجموعة التي ستلحق باعترافاتى.

وأخذت الخبرة التي بدأت أحظى بها، تخفف من جموح مشروعاتي الخيالية شيئًا فشيئًا. فلم أقتصر - مثلًا - على عدم الوقوع في هوى السيِّدة دى بوناك فحسب، بل إنني رأيت لتوى أنني لن أجد مجالًا كبيرًا للرقى في دار زوجها، إذ كان السيِّد « دى لامارتنيير » راسخًا في منصبه، وكان السيّد دي ماريان متربصًا ليخلفه، مما كان لا يدع لي مجالًا للأمل - مهما يكن الحظ - في أكثر من منصب مساعد السكرتير، الذي لم يكن يستهويني كثيرًا. ومن ثم فإنني حين استشرت فيما يُطلب أن أفعل أبديت رغبة شديدة في الذهاب إلى باريس. واستساغ السيِّد السفير هذا الرأي، الذي بدا خليقًا بأن يخلصه منى على الأقل!.. وقال السيِّد دي مرفييه، السكرتير المترجم للسفارة، إن صديقه السيِّد جودار - وكان ضابطًا سويسريًا برتبة كولونيل، في خدمة فرنسا - كان يبحث عن شخص يعهد إليه برعاية ابن أخيه، الذي التحق بالخدمة وهو بعد صغير السن، ومن ثم فقد رأى أننى خليق بأن أروق له. وبناء على هذه الفكرة، التي قبلت في تسرع، تقرَّر سفرى.. فطار قلبي فرحًا، إذ رأيت أمامي رحلة تنتهى بي إلى باريس!.. ومنحوني بعض خطابات للتوصية، ومائة فرنك للانفاق على الرحلة، تصحبها نصائح طيبة.. ثم رحلت!

وقضيت في هذه الرحلة خمسة عشر يومًا، أعدّها بين الأيام السعيدة في حياتي. وكنت شابًا، موفور الصحة، وكان معى مال كاف، وآمال وافرة، وقد انطلقت في الرحلة على قدمي. وكنت أسافر وحيدًا، وقد يعجب المرء - إن لم يكن قد ألّم بطباعي - إذ يراني أعتبر ذلك ميزة، فقد كانت تصوّراتى الناعمة تؤنسني، ولم يكن بوسع الواقع أن يتمخض عن أروع من هذه التصوّرات التي كان يوحي إلىّ بها خيالي المتأجّج.. وهكذا كنت إذا عرض علىّ امرؤ مجلسًا في عربة، أو اقترب مني شخص في الطريق، أعبس خشية أن يهدم الصرح الذي كنت أبنيه في خيالي أثناء سيرى!.. على أن أفكاري كانت في هذه المرة « عسكرية » صرفة، فقد كنت موشكًا أن أكون مرافقًا لرجل عسكرى، وأن أصبح عسكريًا أنا الآخر، إذ كانت التدابير قد اتخذت لكي التحق بالمدرسة العسكرية. ورحت أتمثَّل نفسي في زي ضابط، وقد حملت ريشة بيضاء بديعة، فأفعم قلبي بهذه الفكرة الرفيعة. وكانت لدىَّ بعض معلومات باهتة عن هندسة التحصينات، فقد كان خالي مهندسًا، ومن ثم فقد اعتبرت نفسى- بطريقة ما - عسكريًا بالفطرة!.. وكان قصر نظرى عقبة، ولكنها عقبة لم تزعجني، فقد عولت على أن أعوض هذا العيب بالجَلَد والشجاعة. وكنت قد قرأت أن الماريشال (شومبيرج) كان قصير النظر، فلماذا لا يكون الماريشال روسو على شاكلته؟.. وهكذا رحت أتدفأ على حرارة هذه الأوهام حتى أنني لم أعد أرى سوى فرق من الجند، ومتاريس، وسلال الطوابي[18]، والمدفعيات، وشخصى وسط النار والدخان، أصدر الأوامر في هدوء، وأنا أمسك بمنظار الميدان عن في يدى!.. ومع ذلك، فإنني عندما كنت أجتاز المناطق الريفية الجميلة، كنت أرى الأدغال والجداول، فيجعلني هذا المنظر الفتَّان أتنهد حسرة، وأشعر في غمرة ابتهاجي بالمجد أن قلبي لم يُخلق لمثل هذا الضجيج، وسرعان ما

كنت أتمثَّل نفسى وسط خرافي الحبيبة -دون أن أدري كيف انتقلت إليها - نابذًا إلى الأبد أعمال مارس19!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كم كذبت مشارف باريس الفكرة التي كانت لديَّ عنها!.. كانت المناظر التي رأيتها تزين ظاهر مدينة (تورين)، وجمال طرقاتها، وتناسق صفوف بيوتها، قد جعلتني أطمع في مزيد من ذلك كله في باريس، فكنت أتمثلها مدينة لها من الجمال بقدر ما لها من الاتساع، وقد أوتيت أبهى حسن.. لا يرى المرء فيها سوى شوارع رائعة، وقصور من مرمر وذهب!.. فلما دخلتها عن طريق ضاحية (سان مارسو)، لم أر سوى شوارع صغيرة قذرة قميئة، وبيوت بشعة سوداء، وجو من الدنس والفقر، ومتسولين، وحوذيين، وتجار للثياب القديمة، ومنادين يعلنون عن العلاج بالركة وعن القبعات القديمة!.. كل هذا صدمني منذ البداية، إلى درجة أن كل العظمة الحقيقية التي رأيتها في باريس - بعد ذلك - لم تقو على أن تقضى على هذا الأثر الأوَّل، ومن ثم ظللت أكن دائمًا نفورًا خفيًّا من الإقامة في هذه العاصمة!.. وأستطيع أن أقول إن المدة التي عشتها فيها - بعد ذلك - لم تُشغل بأكملها إلا في السعى وراء موارد تمكنني من العيش بعيدًا عنها!

هكذا تكون ثمار الخيال البالغ النشاط، الذي يتمادي إلى ما وراء مبالغات البشر، والذي يطمع دائمًا في أن يرى أكثر مما يقال له!.. فكم امتدحت لي باريس، حتى أننى صوّرتها لنفسي على غرار بابل القديمة، التي كان من المحتمل - لو قُدِّر لى أن أزورها - أن أجد فيها الكثير الذي لا يتفق مع الصورة التي أكون قد رسمتها لها في خيالي!.. ولقد حدث لي الشيء نفسه عندما زرت دار « الأوبرا »، التي سارعت إلى مشاهدتها في اليوم الذي أعقب وصولي.. ثم وقع لى الشيء ذاته - فيما بعد - عندما زرت (فرساى)، ثم حين شهدت البحر للمرة الأولى. ولسوف يظلّ الأمر ذاته يراودني كلما رأيت شيئًا أكون قد سمعت عنه إطنابًا بالغًا.. ذلك لأنه من المستحيل على البشر، ومن العسير على الطبيعة ذاتها، التفوق على خصب خيالى!

وخُيل إلىَّ - من الطريقة التي استقبلني بها كل أولئك الذين حملت إليهم رسائل التوصية - أن حظى قد اكتمل. وكان الشخص الذي تلقى أكبر قسط من التوصية، والذي استقبلني بأقل قسط من الحفاوة، هو السيِّد دي « سوربك » الذي كان قد اعتزل العمل وعاش متفلسفًا في ضاحية (بانيو)، حيث زرته مرارًا، وحيث لم يقدم لي كوب ماء قط!.. ولقد حظيت باستقبال أوفر من مدام دى « مرفييه » - زوجة أخ المترجم - ومن ابنهما، وكان ضابطًا في الحرس. فإن الأم وابنها لم يتلقياني في حفاوة فحسب، بل أنهما دعواني إلى مائدتهما، فاستغللت هذه الدعوة مرارًا أثناء إقامتي في باريس. ولاح لي أن مدام دى « مرفييه » كانت حسناء يومًا ما، فقد كان شعرها ما يزال ذا سواد بديع، وكانت تنسقه في حلقات على جبينها، وفقًا للنمط القديم. وكانت محتفظة بما لا يخبو حين تخبو المفاتن الشخصية.. وأعني بذلك: عقلًا لا بأس به. وقد بدا أنها استساغت فكرى، وأخذت تبذل كل ما في وسعها لمساعدتي، ولكن أحدًا لم يؤازرها.. وما لبثت أن تبينت بجلاء الاهتمام العظيم الذي تولاها نحوى. على أن من واجبي إنصاف الفرنسيين، فإنهم لا يغالون في الاحتجاجات - كما يقال - بل إن ما يبدونه منها يكون صادقًا على الدوام. على أن لهم في التظاهر بالاهتمام بك أسلوبًا أكثر خداعًا من زخرف القول!

أما المجاملات الضخمة المأثورة عن السويسريين، فلا تجوز إلا على الحمقى! إن طباع الفرنسيين ليست بالغة الإغراء والفتنة إلا لأنها بالغة البساطة.. وقد يلوح أنهم لا يقولون لك كل ما يودون أن يفعلوه، لكي يستطيعوا أن يقدِّموا لك مفاجآت مستحبة. بل إننى لأذهب إلى القول بأنهم ليسوا كاذبين في مظاهرهم، فهم بطبيعتهم بشوشون، عطوفون،

محبون للخير.. بل إنهم - مهما يقال - أكثر صدقًا في عواطفهم من أبناء أية أمة أخرى.. بيد أنهم نزقون، سريعو الملل والتقلّب. إنهم يشعرون في الواقع بالعواطف التي يبدونها لك، ولكن هـذه العواطف سرعان ما تذهب كما جاءت.. وهم حين يحدثونك ينصرفون إليك بجماع أنفسهم، ولكنهم ينسونك بمجرَّد أن تغيب عن أبصارهم.. فلا دوام لشيء في قلوبهم، بل إن كل شيء لديهم ابن لحظته!.

ومن ثم فقد حظيت بكثير من المجاملات وقليل من النفع.. وظهر أن ذلك الكولونيل « جودار » - الذي أوفدت لابن أخيه - كان شيخًا وغدًا شحيحًا، ما أن رأى ما كنت فيه من محنة، حتى طمع في أن يظفر بخدماتى دون مقابل، برغم أنه كان يتقلّب في الذهب! فلقد أرادني على أن أكون لابن أخيه بمثابة وصيف بدون أجر، أكثر منى رائدًا ومربيًا حقيقيًا! ولما كنت مرافقًا إياه باستمرار، ومعفى من الخدمة لذلك، فقد كان لزامًا أن أعيش على مرتبى كطالب عسكري - أو بالأحرى، كجندى - وكاد التعس لا يوافق على منحى حلة عسكرية، إذ كان يريد أن أقنع بحلة الخدمة التي تقدمها الكتيبة للجندي العادي. ولقد حالت مدام دى مرفييه نفسها بيني وبين قبول هـذه المقترحات، إذ استنكرتها.. وكذلك أبدى ابنها عين الشعور. ودار البحث عن عمل آخـر لي، فلم يسفر عن شيء. وبدأت في تلك الأثناء أحس بحاجة ماسة إلى المال، فما كانت الفرنكات المائة التي أنفقت منها على رحلتي لتكفيني فترة أطول. على أنني - لحسن الحظ - تلقيت من لدن السيِّد السفير منحة صغيرة أخرى. كانت عظيمة النفع لى. وأعتقد أنه ما كان ليتخلى عنى لو أنني كنت قد أوتيت مزيدًا من الصبر، ولكن التقاعس، والانتظار، والاسترحام أمور مستحيلة بالنسبة لي.. فانصرفت عن هذه الأسرة ولم أعد أتردد عليها!

ولم أكن قد نسيت « ماما » المسكينة، ولكن كيف كان لي أن أعثر عليها؟ أين كان لي أن أبحث عنها؟.. وكانت « مدام دي مرفييه » - التي عرفت قصتى - قد ساعدتني في هـذا البحث فترة طويلة، دون جدوى.. وأخيرًا، علمت أن « مدام دى فاران » قد غادرت باريس منذ شهرين، ولكن أحـدًا لم يدر هل ذهبت إلى (سافوى) أم إلى (تورين)، بل إن بعض الناس قالوا إنها عادت إلى سويسرا. وما كنت بحاجة إلى أن أضيع وقتًا في عقد العزم على الانطلاق في أثرها، وأنا واثق من أن البحث عنها - أيًّا كان مكانها - سيكون في الأقاليم أيسر من كل ما قُدِّر لي أن أقوم به في باريس!

وقبل أن أرحل، مارست براعتي الشعرية الجديدة في رسالة إلى الكولونيل جودار، نلت منه فيها بأقصى ما استطعت! ولقد عرضت هذا الهذيان على مدام دى « مرفييه »، فبدلًا من أن تلومني - كما كان ينبغي أن تفعل - ضحكت كثيرًا من سخرياتي، وكذلك فعل ابنها الذي لم يكن يحب السيِّد جودار، على ما أعتقد - وخليق بي أن أعترف بأنه لم يكن أهلًا للحب! - وهكذا ألفيتني ميالًا إلى إرسال القصيدة إليه، بعد أن وجدت تشجيعًا على ذلك، فحزمت الصفحات، وكتبت عليها عنوانه. وإذ لم يكن في باريس خدمة داخلية للبريد - يومئذ - فقد وضعت الخطاب في جيبي، وأرسلته من (أوكسير) عنـدما مررت بها. وما زلت أضحك أحيانًا عندما أفكر في الامتعاضات التي لا بد أن يكون الكولونيل قد أبداها وهو يقرأ هذه القصيدة التي وصفته أدق وصف، والتي بدأت هكذا:

أظننت أيها الكهل الآثم، أن نزوة حمقاء «

توحى إلىَّ بالشـوق إلى تربيـة ابن أخيك؟! »

ولقد كانت هذه القصيدة الصغيرة ركيكة في الواقع، بيد أنها لم تكن تفتقر إلى الطلاوة، كمـا كانت تنم عن استعداد طيب لفن « الهجـاء ».. على أنها كانت الهجو الوحيد الذي انساب من قلمي، فإن قلبي لم يحو من الخبث ما يمكنني من استغلال موهبة كهذه، وإن كنت أرى أن المرء يستطيع أن يحكم - من بعض المجادلات القلمية التي أكتبها من وقتٍ

إلى آخر، دفاعًا عن نفسي - أنني لو كنت قد أوتيت روح الصراع، لعزَّ على مَن يهاجمونني أن يضحكوا عقب النزال!

إن أكثر ما آسف عليه من تفصيلات حياتي التي قُدر لها أن تضيع من ذاكرتي، هو أنني لم أكتب يوميات عن أسفارى. فما قُدِّر لي قط أن أكون أكثر تفكيرًا، وأكثر استمراء لوجودي وحياتي، وأكثر قربًا من حقيقتي - إذا جاز لي أن أقول هذا - مما كنت في تلك الرحلات التي كنت أقوم بها سيرًا على قدمى. ففي المشي شيء ينعش نشاطي ويسمو بأفكاري. وأنا لا أكاد أفكِّر عندما أكون ساكنًا، لا بد لجسمى من أن يكون في حركة حتى يتحرَّك عقلى. إن رؤية الريف، وتتابع المناظر الممتعة، والخلاء، والشهية المتفتحة والصحة الطيبة اللذين أكتسبهما بالمشي، والحياة الحرّة في الفنادق الريفية.. وغياب كل ما يجعلني أحس بأنني عالة على غيري، وكل ما يذكرني بمركزي، وكل ما يفكرني بحالي.. كل هذا يُطلق روحي من عقالها، ويمنحنى جرأة بالغة في التفكير، ويُلقى بي - كما ينبغي أن يقال - في بحار الكائنات الشاسعة لكي أجمعها وأفرزها وأنسقها كما يحلو لي، دون ما حرج أو خوف!.. كنت أتصرَّف في الطبيعة بأسرها، وكأننى المسيطر عليها.. فكان قلبي في تنقله من شيء إلى شيء يتحد مع تلك الأشياء التي تروق له ويميزها عن سواها، ويحيط نفسه برؤى فاتنة، وينتشى بأحاسيس عذبة. وإذا كنت - في سبيل تسجيل هذه الأحاسيس وإثباتها - أستعذب وصفها في نفسي، فأية خطوط قوية، وأية ألوان بهيجة، وأية تعبيرات متألقة أضفيها عليها!.. وقد يُقال إن هذه كلها قد وُجدت في مؤلفاتي وإن كانت قد كُتبت في سني أفولي.. آه! ليت أحدًا قد رأى ما كتبت في صدر شبابي، وما ألفت في رحلاتى، وما أنشأت من أفكار لم أكتبها إطلاقًا!.. وقد تقولون: لماذا لم تكتبها؟ وأجيب أنا: ولماذا أكتبها؟.. لماذا أحرم نفسي السحر الواقعي للذة، لكي أقول للغير إنني استمتعت بهذه اللذة؟.. وفيم يعنيني القراء، والجمهور، والأرض بأسرها، ما دمت أحلِّق في السماء؟.. ثم، أفتراني كنت أحمل ـ في رحلاتي - ورقًا وأقلامًا؟.. لو أننى كنت قد فكرت في كل هذا، لما وافاني شيء مما كان جديرًا بالتسجيل.. إنني لم أكن أتنبأ بموعد الأفكار، وإنما كانت تواتيني عندما تشاء هي، وليس حين أشاء أنا!.. وكانت تمتنع عن موافاتي، أو تأتى زرافات فتطغى عليَّ بقوتها وعددها.. وما كانت عشرة مجلدات في اليوم بكافية لتدوينها! فمن أين لي الوقت الذي أكتبها فيه؟!.. كنت إذا بلغت بلدًا، لا أفكر إلا في غداء شهى. وإذا بارحت بلدًا، لا أفكر إلا في سير سريع، فقد كنت أحس بأن ثمة نعيمًا جديدًا على الأبواب، فلا أفكر إلا في السعى إليه!

وما شعرت بكل هذا يومًا قدر ما شعرت به في رحلة العودة، التي أتحدَّث عنها.. ففي طريقي إلى باريس، كانت خواطرى محدودة بما كنت ذاهبًا لعمله هناك، إذ كنت قد انصرفت إلى الحياة العملية التي ظننت أنها كانت تنبسط أمامي، والتي كنت خليقًا بأن أخوضها بكثير من الفخر. ولكن هذه الحياة كانت غير تلك التي دعاني قلبي إليها، وقد آذت مخلوقات الواقع كائنات الخيال.. كان الكولونيل جودار وابن أخيه لا يتسقان مع بطل مثلي. أما الآن، فقد تخلصت من هذه العقبات، بفضل السماء، وأصبح في مقدوري أن أغوص وفق هواي في عالم الأوهام، إذ لم يبق أمامي سوى هذا العالم!.. ولقد همت فيه تمامًا، حتى أننى ضللت طريقي عدة مرات فعلًا، ولكني كنت خليقًا بأن أغتم لو أنني سلكت طريقًا أكثر اتجاهًا إلى مقصدي. ذلك لأنني توهمت أني لن ألبث أن أجد نفسي على الأرض من جديد، لدى وصولى إلى (ليون)، فوددت ألا أبلغها أبدًا!

وفى يوم من الأيام، انحرفت عن طريقي عمدًا، لأتأمل عن كثب مكانًا تراءى لي جديرًا بالإعجاب.



م من الايام ، انحرفت من طريقى عمدا ، لاتأمل عن كثب مكانا
جديرا بالاعجاب .

وبلغ من ابتهاجي به أني أكثرت من الدوران حوله، حتى ضللت تمامًا في النهاية!.. وبعد عدة ساعات من السير على غير هدى، وقد أنهكنى التعب وبرح الجوع والعطش، دخلت لدى فلاح لم تكن داره جميلة المظهر، ولكنها كانت الوحيدة التي رأيتها فيما حولي. وكنت أخال أن الأمر كما في جنيف أو في سويسرا عمومًا، حيث يخف جميع السكان الميسوري الحال إلى إظهار كرمهم. وسألت هذا الفلاح أن يمنحنى ما أتناوله غداء، عارضًا عليه أن أدفع الثمن. فقدّم لي لبنًا خثرًا وقطعة من خبز الشعير الخشن، قائلًا إن ذلك كان كل ما لديه. فشربت اللبن جذلًا، وأكلت الخبز، بقشه و « ردته »! بيد أن هذا لم يكن قوتًا كافيًا لرد النشاط إلى رجل أنهكه التعب.. وأدرك الفلاح - الذي تفرّس فيّ عن كثب - صدق قصتى، بما تجلّى له من شهيتي، فصارحني بعد ذلك فورًا بأنه استطاع أن يتبين أنني كنت شابًا طيبًا وأمينًا[20]، وأنني لم آت كى أبتز منه مالًا.. ثم فتح باب مخزن صغير - بالقرب من المطبخ - وهبط منه، وعاد بعد دقيقة برغيف بديع من خبز القمح المحمص، وقطعة شهية من لحم الخنزير، وإن تُوخى التقتير في حجمها، وزجاجة نبيذ أنعش مرآها فؤادي أكثر من كل ما عداها!.. وأضاف إلى ذلك قطعة سميكة من العجة، فحظيت بغداء لم يحظ بمثله قط عابر سبيل!.. وعندما حان وقت الدفع، عاود الرجل قلقه وخوفه، فأبى أن يأخذ شيئًا من نقودي، ورفضها في انزعاج غير عادي. والطريف في الأمر أنني لم أستطع أن أتصوَّر ما كان يخيفه. وأخيرًا، أطلق هذه الكلمات الرهيبة وهو يرتجف: « محصلو العوائد » و « جرذان القبو »[21] !.. وأفهمني أنه كان يخبيء نبيذه بسبب العوائد، وكان يخفي خبزه بسبب الضرائب (العشور)، وأنه يغدو رجلًا ضائعًا لو ارتاب هؤلاء في أنه لم يكن يتضور جوعًا!.. ولقد ترك كل ما قاله الرجل عن هذا الموضوع ـ الذي لم تكن لديَّ أتفه فكرة عنه - أثرًا لن يمحى، كان بمثابة « بذرة » الكراهية التي لا تخبو، والتي راحت تذكو في قلبي - منذ ذلك الحين - ضد المظالم التي كانت تحيق بالشعب التعس، وضد الطغاة. كان هذا الرجل لا يجرؤ - برغم يسر حاله - على أن يأكل الخبز الذي كسبه بعرق جبينه، ولم يكن يملك أن يتفادى خرابه إلا بأن يبدي نفس الشقاء الذي كان يسيطر على من حوله!.. وغادرت داره وأنا موزع بين السخط والتأثر، أرثى لحظ تلك البلدان الجميلة التي لم تسبغ الطبيعة هباتها عليها إلا لتجعلها فريسة لمحصلي الضرائب المتوحشين!

هذه هي الذكرى الواضحة الوحيدة التي تبقت لي من كل ما حدث خلال تلك الرحلة. ولست أذكر إلى جوارها سوى أنني حين اقتربت من (ليون)، شعرت بميل إلى أن أطيل طريقى كي أسعي إلى مشاهدة ضفاف (اللينيون)، فقد كان بين القصص التي قرأتها مع أبي، قصة لم أنسها، بل كثيرًا ما عادت إلى ذاكرتي.. تلك هي « استريه »[22]!.. فسألت عن الطريق إلى (فوريز). وبينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع صاحبة أحد الفنادق، علمت أن تلك المنطقة كانت ذات موارد طيبة للعمال، وأن فيها كثيرًا من المسابك، وأن القوم يجيدون صناعة الحديد. فهدأ هذا القول من جموح خيالي في الحال، إذ أدركت أن من غير الملائم أن أسعى للبحث عن أمثال « ديانا » و « سيلفاندر »[23] بين قوم من الحدادين!.. ولا بد أن المرأة الطيبة - التي شجعتني على هذا النحو ـ ظنتني صانع أقفال مرتزق!

ولم يكن ذهابي إلى (ليون) دون ما غرض على الإطلاق، فما أن وصلت إليها حتى سعيت إلى جهة (شاسوت) لزيارة الآنسة « دى شاتيليه »، صديقة مدام « دي فاران » التي كانت قد أعطتني رسالة لها عندما ذهبت مع السيِّد « لوميتر ».. ومن ثم فقد كان ثمة تعارف بيننا. وأنبأتني الآنسة « دى شاتيليه » بأن صديقتها « مدام دى فاران » كانت قد مرَّت - فعلًا - بليون، ولكنها تجهل ما إذا كانت قد واصلت رحلتها حتى (بييمونت).. بل أنها عند رحيلها لم تكن مستقرة الرأي على ما إذا كانت ستعرج على (سافوا) أم لا.. وأضافت الآنسة أنها على استعداد لأن تكتب في طلب الأنباء، إذا شئت، وأن خير ما ينبغي أن أفعله هو أن أنتظر في (ليون). وتقبّلت الاقتراح، ولكني لم أجرؤ على أن أقول للآنسة دي شاتيليه إنني كنت ملهوفًا على الجواب المرتقب، وأن كيسي الصغير الناضب لم يكن يتيح لى الانتظار

طويلًا! ولم يكن ما صدني عن المصارحة أنها أساءت استقبالى، فهي - على النقيض - قد أبدت لي كثيرًا من المجاملات، وعاملتني في مساواة جرّدتني من الجرأة على أن أخفى عنها حالي، وأن أهبط من مكانة الزميـل المقبول، إلى مكانة المستجدى التعس!

ومع أننى ألتزم تسلسل الحوادث التي أوردتها في هذا الكتاب، فإنني أعود بالذاكرة إلى رحلة أخرى إلى (ليون) قمت بها في عين تلك الفترة، وإن لم يكن بوسعي أن أحدد زمانها بالضبط، وقد وجدت نفسي خلالها في ضائقة شديدة. وثمة حادث صغير - من العسير أن أرويه - لا يتيح لى قط أن أنساها: فقد كنت ذات مساء أجلس في (بيلكور)، بعد عشاء جد خفيف، أفكر في وسيلة أنتزع بها نفسي من ضيقى، وإذا برجل له مظهر أولئك المشتغلين بالحرير، الذين يدعون في (ليون) باسم « القماشين ».

ووجَّه إلىّ الخطاب، فرددت عليه. ولم نكد نسترسل في الحديث نحو ربع ساعة، حتى عرض علىّ ـ بنفس الهدوء الذي كان يلازمه، وبدون أي تغيّر في لهجته - أن نلهو معًا في الريف. وانتظرت أن يبين نوع اللهـو، ولكنه شرع ـ دون أن ينبس بكلمة أخرى - يصوِّر لي مثلًا لهذا اللهو[24]. وكنا متلاصقين تقريبًا، ولم تشتد ظلمة الليل بعد بدرجة تحول دون رؤيـة العمل الذي تهيأ له. ولم يكن له مطمع في شخصي، فما من شيء نم - على الأقل - عن هذا القصد، كما أن المكان لم يكن ملائمًا لذلك.. فهو لم يكن يبغى - كما قال لي - سـوى أن يلهو، وألهو أنا الآخر، كل منا على حدَّة. وقد بدا له هذا أمرًا بسيطًا، حتى أنه لم يخطر بباله أنني قـد لا أنظر إلى الأمـر نظرته!.. ولقد جزعت لهذه القحة، حتى أنني نهضت مسرعًا - دون أن أرد عليه - وهربت بأقصى ما أسعفتنى ساقاى، وأنا أتوهم أن ذلك الشقى كان في أثرى! وكنت من الاضطراب بحيث أنني بدلًا من أن أقصد إلى مأواى عن طريق (سـان دومينيك)، انطلقت أعدو بجوار أرصفة الميناء، فلم أقف حتى كنت قد عبرت الجسر الخشبي، وأنا أرتجف وكأنني عائد لتوى بعد ارتكاب جريمة!.. ولقد كنت فريسة لتلك الرذيلة من قبل، ولكن هذا الحادث أبرأني منها زمنًا طويلًا!

وقد صادفت - في أثناء الرحلة الثانية - مغامرة من نفس النوع تقريبًا، ولكنها عرَّضتني لخطر عظيم. وإليك قصتها: كنت قد أحسست بأن مواردي أوشكت أن تنضب، فأخذت أقتصد في إنفاق المبلغ الضئيل المتبقى، بحيث أصبحت لا أتناول وجباتي في فندق إلا لمامًا.. ثم لم أعد أتناول منها شيئًا هناك على الإطلاق، إذ كان بوسعي أن أحظى في الحانة، لقاء خمسة أو ستة « سو »، بشبع يفوق ما كنت أحظى به في الفندق لقاء ستة وعشرين!.. وإذ لم أعد أتناول طعامي في الفندق، لم أدر كيف كان لي أن أظل أبيت هناك، إذ أننى خجلت من أن أشغل حجرة دون أن أتيح لصاحب الفندق مجالًا كافيًا للربح. وكان الفصل بديع الجو، لكن الحر اشتدّ في إحدى الأمسيات، فقرَّرت أن أقضى الليل في الميدان العام. وما أن استلقيت على مقعد عريض هنـاك، حتى مرَّ راهب، فرآني نائمًا على هذا النحو، وإذ ذاك اقترب فسألني عما إذا لم يكن لى مأوى. وأفضيت إليه بحالي، فبدا عليه التأثُّر، وجلس إلى جواري، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث، وكان حديثه مناسبًا، إذ كان كل ما قاله يوحى إلىّ بخير فكرة عن الناس. ولما رآني أنست إليه، قال لي إنه لم يكن يملك مسكنًا فخمًا واسعًا، بل كان مسكنه يتألف من حجرة واحدة، ولكنه ما كان - يقينًا - ليدعنى أنام في الميدان العام. ولما كان الوقت متأخرًا، ولا سبيل إلى البحث عن مأوى لي، فقد عرض علىَّ نصف سريره في تلك الليلة. وقبلت العرض، وقد خالجني الأمل في أن أكون قد عثرت على صديق قد يستطيع أن يكون ذا نفع لي. وذهبنا إلى مسكنه، فأشعل ضوءًا تراءت حجرته لي على هديه مناسبة، برغم صغرها. وأخذ مضيفي يكرمني في أدب جم، ثم أخرج من وعاء زجاجي بعض الكريز الذي كان منقوعًا في النبيذ.. فأكل كل منا اثنتين، ثم أوينا إلى السرير.

وكانت لهذا الرجل نفس ميول صاحبي اليهودي الذي كان في دار الضيافة بالدير[25]، ولكنه

لم يبدها بمثل وحشية ذاك، إما لأنه أدرك أن بوسعي أن أصل بصوتي إلى الأسماع، فخشى أن يضطرني إلى الدفاع عن نفسي.. وإما لأنه كان في الواقع ضعيف التثبّت من خططه، فلم يجرؤ على أن يقترح بصراحة تحقيقها، وإنما حاول استثارة انفعالاتي دون أن يستثير شكوكي! ولما كنت قد تعلّمت من التجربة الأولى، فإنني أدركت سراعًا مقصده، فارتجفت.. ولم أكن أعرف في أي منزل ولا بين أي يدين كنت، فخشيت أن أدفع حياتي ثمنًا لأية ضجة أحدثها!.. فتظاهرت بتجاهل ما كان يبغيه مني، ولكني أبديت استياءً شديدًا من ملاطفاته، وإذ عقدت العزم على ألا أتقبل أي تماد منه، فقد تصرَّفت بحيث اضطررته إلى أن يكبح نفسه. ثم تحدَّثت إليه بكل ما أوتيت من لطف، وحزم.. وبدون إبداء أي ارتياب في شيء، اعتذرت له بتجربتي السابقة عن القلق الذي أبديته نحوه، ورحت أبالغ في رواية تلك التجربة بعبارات مفعمة بالاستبشاع والاشمئزاز، بحيث أثرت اشمئزازه - على ما أعتقد - ومن ثم عدل عن غايته القذرة تمامًا.. فقضينا ما تبقى من الليل في هدوء. بل أنه ذكر لي كثيرًا من الأمور الطيبة الرقيقة، فما كان - بالتأكيد - خلوًا من الميزات، برغم أنه كان وغدًا كبيرًا!

وفي الصباح، لم يشأ السيِّد الراهب أن يبدو مستاء، فتحدَّث عن تناول الإفطار، وسأل إحدى ابنتي صاحبة الدار - وكانت جميلة - أن تحضر لنا فطورًا، فقالت له أن لا وقت لديها لذلك. ووجّه الرجاء إلى أختها، فلم تتفضل عليه برد!... وظللنا ننتظر، ولا أثر لفطور!.. وأخيرًا انتقلنا إلى حجرة الآنستين، فإذا بهما تستقبلان الراهب بنذر ضئيل من التلطف. ولم يكن لي أن أطمع في استقبال أفضل: فإن كبرى الفتاتين داست - وهي تستدير - طرف قدمى بكعب حذائها المدبب. وكانت في قدمي بثرة (كاللو) شديدة الايلام - اضطرتني من قبل إلى أن أقطع طرف حذائي - أما الفتاة الأخرى فقد جذبت من خلفي فجأة مقعدًا كنت أهم بالجلوس عليه.. بينما كانت أمهما تلقى من النافذة بعض الماء الذي أغرق وجهي!.. وعلاوة على ذلك كن، أينما جلست، يقصينني للبحث عن شيء ما!.. أبدًا لم ألق في حياتي مثل هذه « الحفاوة »!.. وكنت أرى في نظراتهما المهينة الساخرة سخطًا مكتومًا، كنت من الغباء بحيث لم أفقهه. وفي ذهولي ودهشتى، أوشكت أن أخال أن الشيطان قد استولى عليهن جميعًا، فبدأت أشعر بجزع شديد. وفي تلك الأثناء، أدرك الراهب - الذي كان يتظاهر بأنه لم يكن يرى أو يسمع - أن لا أمل في فطور، فقرَّر مبارحة الدار.. وأسرعت خلفه وأنا مغتبط بالافلات من الشيطانات الثلاث!

وفي أثناء سيرنا، عرض عليَّ أن نذهب فنفطر في مقهى. وعلى الرغم من أننى كنت شديد الجوع، إلا أنني لم أقبل هذه الدعوة التي لم يصرّ عليها بعد ذلك، ومن ثم افترقنا بعد أن اجتزنا ثلاثة شوارع أو أربعة، أما أنا فقد كنت مبتهجًا إذ غاب عني منظر كل ما كان يمت إلى تلك الدار اللعينة.. وأما هو فكان مرتاحًا - فيما أعتقد - إذ ابتعد بي عنها حتى لا يسهل عليَّ أن أعرفها.. وإذ لم تكن قد عرضت لي من قبل أمثال هاتين المغامرتين، سواء في باريس أو سواها، فإنها لم تخلفا في نفسي أثرًا طيبًا عن أهل (ليون)، بل ظللت دائمًا أعتبر هذه المدينة مثالًا للمدينة الأوربية التي يسودها أفظع فساد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولا تساعد الظروف التي انحدرت إليها في تلك المدينة، على الاحتفاظ عنها بذكريات طيبة. ولو كنت قد خُلقت على غرار سواى: لو أوتيت مثلًا موهبة الاقتراض، أو أن أكون مدينًا لفندقي، لسهل عليَّ أن أنتزع نفسي من الحرج، ولكن مقدرتي على هذا الأمر كانت تعادل نفوري منه. ولكي تتصوّروا إلى أي مدى بلغ عجزى ونفوري، يكفي أن تعرفوا أنني بعد أن قضيت حياتي كلها - تقريبًا - في الفاقة، وكنت أوشك في كثير من الأحيان على ألّا أجد القوت، لم أتلق يومًا من دائن مطالبة بنقود إلا أجبتها في اللحظة عينها. وما عرفت الطريق إلى القروض قط، بل كنت دائمًا أوثر العناء على الديون المالية!

ولقد كان من العذاب حقًّا أن أهبط إلى درك قضاء الليل في الشارع، الأمر الذي حدث لي مرارًا في (ليون)، فلقد آثرت أن أستغل الدراهم القليلة التي بقيت لي في دفع ثمن خبزى، بدلًا من دفع أجر مأوى.. فقد كان خطر النوم في العراء أقل من خطر الموت جوعًا!.. والعجيب في الأمر أنني لم أكن - في تلك الظروف القاسية - قلقًا ولا حزينًا! لم يكن لديَّ أدنى قلق بصدد المستقبل، بل رحت أنتظر - مطمئنًا - الرد الذي كان لا بد أن تتلقَّاه الآنسة « دى شاتيليه ».. وكنت أنام في العراء، مستلقيًا على الأرض، أو على مقعد عريض، مستغرقًا في النعاس وكأنني في سرير من الورود!.. وأذكر - بوجه خاص - أننى أنفقت ليلة ممتعة خارج المدينة، على أرض طريق ممتدَّة إلى جانب نهر (الرون) أو (الساؤن) ـ فلست أذكر أي النهرين كان! - وكانت تحف بالجانب الآخر للطريق حدائق أُقيمت على ارتفاع فوق مستوى الأرض. وكان الحر قائظًا في نهار ذلك اليوم، ولكن الليل كان بديعًا، وقد روى الندى الأعشاب الظامئة.. ولم تكن ثمة ريح، إذ كانت الليلة ساكنة، والنسيم رقيقًا، خلوًا من الرطوبة.. وقد خلّفت الشمس وراءها - بعد الغروب - أبخرة حمراء في السماء، أحال انعكاسها الماء إلى لون الورد!.. وكانت أشجار الحدائق العالية عامرة بالبلابل التي راحت تتجاوب بالشدو. وأخذت أتمشّى في نشوة، مسلمًا حواسى وفؤادي لهذه المتعة الضافية، فلم تداخلني سوى حسرة - تمثلت في زفرة - لأنني كنت مضطرًا إلى استمراء هذه المتعة وحدي.. وواصلت السير إلى ساعة متأخرة من الليل، وأنا مستغرق في تأملاتي الناعمة، دون أن أفطن إلى أن التعب قد أدركني.. ولكني انتبهت إلى ذلك أخيرًا، فألقيت بنفسي - في اغتباط - على قاعدة « كوة » أو باب زائف نُحت في جدار سياج الحدائق، وقد تعانقت الأفنان مؤلفة شبه « سقف » فوق سريرى.. كما جثم بلبل فوق رأسي مباشرة، وراح يغرِّد لي.. حتى نمت.

وكان نعاسى لطيفًا، كما كان استيقاظي ألطف.. فقد كان الصباح رائعًا، ووقعت عيناى - حين فتحتهما - على الماء والخضرة، وريف بديع!.. ونهضت من مرقدي، فتمطيت، وإذ شعرت بالجوع انطلقت طروبًا صوب المدينة، وقد عقدت العزم على أن أنفق على فطوري القطعتين الفضيتين اللتين بقيتا من نقودي!.. وكم كنت مبتهجًا، حتى أنني أخذت أردد إحدى أغاني « باتيستان » التي كنت أحفظها عن ظهر قلب، وكان عنوانها: « حمام ثوميرى ».. ألا فلتبارك السماء « باتيستان » الطيب وأغنيته، فقد أتاحا لي فطورًا أفضل مما كنت أنتوى، وغداء أكثر امتاعًا - وهما وجبتان لم تكونا في الحسبان قط! - فبينما كنت سائرًا أغنى - على خير حال - سمعت شخصًا خلفي، فالتفت، وإذا بأحد « الأنطونيين »[26] يتبعني، وقد لاح أنه كان ينصت إلى غنائي في طرب. وبادأني بالحديث، فحياني، وسألني عما إذا كنت على إلمام بالموسيقى، فأجبت: « بعض الشيء »، بلهجة توحى إليه بأنني كنت أعرف الكثير.. وتابع سؤالي، فرويت له شطرًا من قصة حياتي، وإذ ذاك سألني عما إذا لم يكن قد سبق لي أن نسخت « نوتات » موسيقية، فقلت له: « كثيرًا » - وكان هذا صدقًا، إذ كان معظم ما تعلمته من الموسيقى عن طريق النسخ - فقال: « حسنًا! تعال معي، ففي وسعي أن أشغلك بضعة أيام، لن يعوزك خلالها شيء على شريطة ألَّا تغادر الحجرة قط! ».. ووافقت عن طيب خاطر، فتبعته!

وكان هذا الانطواني يدعى السيِّد « روليشون »، وكان يحب الموسيقى ويحذقها ويغني في الحفلات الصغيرة التي كان يقيمها مع أصدقائه. ولم يكن في هذا سوى كل ما هو برىء وشريف، ولكن هوايته كانت تنحدر - كما اتضح لي - إلى تهوس كان مضطرًا إلى التستر عليه بعض الشيء!.. وقادني إلى حجرة صغيرة نزلت بها، فوجدت فيها كثيرًا من القطع الموسيقية التي نقلها هو، كما أعطاني سواها لكي أنقلها، وكانت من بينها الأغنية التي كنت أرددها، والتي كان مزمعًا أن يغنيها بعد أيام.. وقضيت ثلاثة أيام أو أربعة وأنا عاكف على النسخ طيلة الوقت، باستثناء وقت الطعام - فما كنت في أي يوم من أيام حياتي أكثر شهية ولا أفضل غذاء مما كنت خلال تلك الأيام! - وكان الرجل يحمل الطعام إليَّ بنفسه

من المطبخ، ولا بد أن طعام القوم كان طيبًا شهيًا، إذا صح أن ما كان يُقدم لي كان من طعامهم العادي!.. ولقد كنت طيلة عمري لا أجد في الأكل متعة، وجدير بي أن أعترف كذلك بأن هذه الوجبات جاءت في الوقت المناسب تمامًا، إذ أنني كنت جافًا كالخشب. ورحت أعمل بنفس الإقبال الذي كنت آكل به، وهو إقبال لم يكن بالقليل!.. على أنى، في الواقع، لم أكن دقيقًا في عملي بقدر ما كنت سريعًا. وقد حدث بعد ذلك ببضعة أيام أن قابلني السيِّد روليشون في الطريق، فأنباني بأن منسوخاتي جعلت العزف الموسيقى مستحيلًا، لأنها وُجدت مليئة بالشطب والتكرار والتحريف. ومن الواجب أن أعترف بأنني اخترت المهنة الوحيدة التي كنت أقل الناس استعدادًا لها، لا لأن علاماتي الموسيقية لم تكن جميلة أو لأنني لم أكن دقيقًا في النقل، وإنما لأن الملل من عمل جد طويل، كان يشتت بالي إلى درجة أننى كنت أقضى في المحو وقتًا أطول مما كنت أقضى في الكتابة. وإلى درجة أن منسوخاتي لم تكن صالحة للتنفيذ - بالعزف - ما لم أبد عناية فائقة بمراجعتها.. وهكذا أسأت إنجاز عملى، في الوقت الذي كنت أسعى فيه لأدائه على خير وجه.. وبدلًا من أن أسرع، إذا أتخبط! على أن هذا لم يمنع السيِّد روليشون من أن يحسن معاملتي إلى النهاية، ومن أن يمنحنى كذلك - عند انصرافي - دينارًا لم أكن أستحقه البتة، وإن كان قد أنقذني من ضائقتي.. وإن هي إلا أيام قلائل، حتى تلقيت نبأ من « ماما » - التي كانت في (شامبيرى) - مصحوبًا بنقود، كى ألحق بها، الأمر الذي أسرعت إلى تحقيقه مسرورًا. ومنذ ذلك الحين حتى اليوم، كثيرًا ما أوشكت مواردي المالية على النفاد، ولكنها لم تذهب في نضوبها قط إلى الدرجة التي اضطررت معها إلى الصوم. وإني لأذكر تلك الفترة من حياتي بقلب شديد الشعور بالعناية الإلهية، فلقد كانت تلك آخر مرة في حياتي أشعر فيها بالتعاسة والجوع!

ولقد مكثت في (ليون) سبعة أيام أو ثمانية، في انتظار بعض مهام كانت « ماما » قد عهدت بها إلى الآنسة « دي شاتيليه ». وفي أثناء هذه الفترة كنت أكثر مثابرة على زيارة الآنسة من ذي قبل، فرحت أنعم بالحديث إليها عن صديقتها، ولم أعد مثقل البال إلا بتلك الأفكار القاسية التي كانت تعاودني عن مركزي، وإلا بمحاولة إخفاء هذا المركز. ولم تكن الآنسة « دى شاتيليه » بالشابة، ولا بالجميلة، ولكنها لم تكن تفتقر إلى الملاحة، وكانت رقيقة الأعطاف، ودودة، كما كان ذكاؤها يضفي بهاء على هذا الود. ولقد أوتيت ذلك الشغف بالتأمل الخلقي الذي يقود إلى دراسة الشخصيات، وإليها أدين بأوَّل حافز أصلي دفعني إلى هذا الاتجاه. وكانت مشغوفة بقصص « ليساج »، لا سيما قصة « جيل بلا » التي حدَّثتني عنها وأعارتنيها، فقرأتها في استمتاع، ولكني لم أكن قد نضجت بعد بحيث أفقه هذا النوع من القراءة، إذ كنت أنشد القصص الحافلة بالأحاسيس الرفيعة. وهكذا قضيت وقتى إلى جوار مدفأة الآنسة « دى شاتيليه » في استمتاع وانتفاع، ومن المحقق أن الأحاديث الطريفة ذات الطابع الفكري ـ التي تصدر عن امرأة موهوبة - أصلح لتكوين الشاب من كل ما في الكتب من فلسفة متحذلقة!.. ولقد تعرَّفت بين المقيمين في (شاسوت) وأصدقائهم ـ إلى فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، تُدعى الآنسة « سير »، لم أبد لها إذ ذاك اهتمامًا عظيمًا، ولكنى شغفت بها حبًا بعد ذلك بثماني أو تسع سنوات.. وكنت على حق في تدلهى بها، فقد كانت فتاة ساحرة27.

وفي غمرة انشغالي بتوقع رؤية « ماما » الطيبة - عما قريب - أهملت أوهامي قليلًا، إذ عوضتني الهناءة الحقيقية التي كانت في انتظاري، عن السعي وراء الخيالات.. فإني لم أعثر على « ماما » مرة أخرى فحسب، وإنما وجدت في قربها، وبوساطتها، ظرفًا مواتيًا، إذ أشارت في رسالتها إلى أنها عثرت لي على عمل كانت تأمل أن يروق لي، كما أنه لم يكن ليقصينى عنها. ولقد أرهقت حدسي في التكهن بنوع ذلك العمل، بيد أنه كان لابد للمرء من أن يصبح نبيًا حتى يصيب الحدس!.. وكان لديَّ من المال ما يكفي لأن أقوم برحلة مريحة. وقد رغبت الآنسة « دي شاتيليه » في أن استأجر جوادًا، ولكني لم أكن أملك أن أوافقها،

وكنت على حق. ولولا ذلك لفقدت متعة آخر رحلة على الأقدام في حياتي. فلست أستطيع أن أصف النزهات التي كثيرًا ما كنت أقوم بها في الضواحي المجاورة أثناء إقامتي في (موتيير)، بأنها رحلات على الأقدام!

ومن الأمور العجيبة أن خيالي لا يحلِّق قط راضيًا إلا عندما تكون حالي غير مرضية، كما أنه ـ من ناحية أخرى - يغدو أقل ما يكون ابتسامًا عندما يبتسم كل ما حولي!.. فإن رأسي النكد لا يستطيع أن يتكيف مع الأشياء، فهو لا يقنع بتجميل الأمور، وإنما يصبو إلى الخلق والابتداع.. كما أن الأشياء الحقيقية لا تبدو له إلا كما هي في الواقع، فهو إنما يجيد تنميق الأشياء الخيالية فحسب. وعلى هذا القياس، لابد لي من أن أكون في الشتاء، إذا شئت أن أصور الربيع. وإذا رغبت في وصف جمال مناظر الطبيعة، وجب أن أكون داخل الجدران.. ولقد قلت مائة مرة إنه لو كان قد قُدِّر لي يومًا أن ألقي في غياهب (الباستيل)، لكنت قد رسمت أبدع صورة للحرية!

وعندما بارحت (ليون)، لم أكن أرى أمامى سوى مستقبل باسم.. ولقد كنت سعيدًا، وكان لي الحق في ذلك، بعد أن حُرمت هذه السعادة وأنا أغادر باريس.. ومع ذلك فإني لم أنعم خلال هذه الرحلة بتلك الخواطر البهيجة التي كانت ترافقني في الرحلة الأخرى. كان قلبي جذلًا، ولكن هذا كان غاية ما في الأمر. ورحت أقترب في اشتياق نحو تلك الصديقة الرائعة التي كنت أسعى لرؤيتها من جديد، وأتذوق مقدمًا حلاوة العيش بالقرب منها، ولكن في غير نشوة سكرى، إذ كنت دوامًا أتوقَّع ذلك، فكأنما لم يكن فيما أنا مقبل عليه شيء جديد!.. ولقد خامرني القلق بصدد ما كنت مقدمًا على عمله، وكأنما كان في ذلك ما يدعو إلى الاشفاق.. وكانت أفكاري ساكنة وادعة، وليست « سماوية »، تسلب الروح والعقل. وكانت الأشياء المادية تجتذب نظرى، فكنت أولى مناظر الطبيعة اهتمامي.. كنت ألاحظ الأشجار والدور والجداول، وأحدِّث نفسى عند ملتقيات الطرق، فقد كنت في خوف من أن أضل، ولكني لم أضل على الاطلاق.. وبإيجاز: لم أعد أحلق بين السحب، وإنما كنت دائمًا حيث كنت.. فلم أبعد قط عن الواقع!

وأنا في الحديث عن رحلاتى، تمامًا كما أنا في أدائها، لا أتعجَّل بلوغ غايتي.. وهكذا كان قلبي يخفق طربًا وأنا أقترب من « ماما » العزيزة، ولكني لم أغذ السير إليها، فإنني أحب السير كما يروق لي، ولا أتوقف إلا حين يحلو لي.. فحياة التجوال هي التي تلائمني، والسفر على الأقدام، في وقت بديع، وفي بلد جميل، دون ما تعجل، ونحو غاية مرغوبة، هو أكثر أساليب العيش طرًا ملاءمة لذوقي! وفيما عدا ذلك، فإن ما أعنيه « بالبلد الجميل » أصبح معروفًا: فما من بلاد مبسوطة الأديم بدت لعينَي جميلة، مهما يكن جمالها.. بل لابد لي من سيول، وصخور، وأشجار صنوبر، وغابات سوداء، وجبال، وطرق منحدرة أتسلقها أو أهبطها، ومهاوى من حولي تثير رعبي! ولقد أتيحت لي هذه المتعة، واستمرأتها في أروع سحرها، وأنا أقترب من (شامبيرى).. فغير بعيد من جبل شديد الانحدار - يُسمى (با دى لاشيل) - كان ثمة نهير يجرى تحت طريق واسعة منحوتة في الصخر، عند البقعة المسماة (شايى). وكان نهيرًا قصيرًا، يندفع جامحًا عبر مهاوى سحيقة بدا أنه حفرها خلال آلاف السنين.. وكان ثمة سياج على حافة الطريق لتفادي النكبات، مما مكنني من أن أطلّ على الأعماق، وأن أحظى بالدوار وفق هواى!.. ذلك لأن من الأمور الطريفة في مزاجي أنني أميل إلى الأماكن السحيقة الانخفاض، التي يدور لها رأسى، وأنني أحب هذا الدوار كثيرًا ما دمت مطمئنًا إلى سلامتى.. ومن ثم انحنيت في اطمئنان فوق السياج، ومددت أنفى في الفضاء، وظللت هكذا ساعات طويلة، أتأمل ـ بين وقتٍ وآخر - الزبد والماء الأزرق الذي كنت أسمع هديره وسط صراخ الغربان وصيحات الطيور الجارحة التي كانت تُحلق من صخرة إلى صخرة، ومن دخل إلى دغل، على بعد مائة فرسخ تحتى.. وفي البقاع التي كانت الأرض تنبسط عندها في انحدار شديد، حيث لم تكن الأشجار من الكثافة بحيث

تحـول دون مروق الحصى، رحت أجمع أكبـر ما استطعت حمله من الأحجار، ووضعتها على السياج، ثم أخذت أطوح بها واحدة بعد أخرى، مستعذبًا رؤيتها وهي تمرق، ثم ترتطم فتتهشم إلى ألف قطعـة، قبل أن تبلغ قاع الهاوية!

وإذ ازددت قربًا من (شامبيرى)، رأيت منظرًا مشابهًا، ولكنه من نوع مخالف: كانت الطريق تمتد عند أقدام صخرة كانت أبدع مسقط مائي شهدته في حيـاتي. وكان الجبـل منحدرًا إلى درجة تجعل الماء يندفع في الفضاء، ثم يهبط بعيدًا في قوس كبير، بحيث يستطيع المرء أن يمر بين الماء والصخرة دون أن يبتل أحيانًا! ولكن كان من السهل أن يخدع الإنسان إذا لم يكن حذرًا في حسابه. ذلك لأن الماء - عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق ـ ينشق ويسقط في رشـاش.. فإذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ، اخضل بالمـاء في لحظة، دون أن يفطن ـ في بادىء الأمر ـ إلى أنه قد ابتل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووصلت أخيرًا.. ورأيتها من جديد!.. ولم تكن وحيدة، فقد كان المدير العام للاقليم لديها في اللحظة التي دخلت فيها عليها. وبدون أن أتكلم، تناولت يدى وقدَّمتني إليه بذلك اللطف الذي كان يفتح لها كل القلوب: « ها هو يا سيِّدي هذا الشاب المسكين، فتكرّم برعايته طالما استحق الرعاية، ولن أشعر بعد ذلك بقلق من أجله، بقية حياته! ».. ثم وجَّهت إليّ الخطاب قائلة: « إنك الآن يا بني في خدمة الملك.. اشكر السيِّد المدير، إذ هيأ لك أسباب العيش! ».. وفتحت عينَي الواسعتين دون أن أقول شيئًا، ودون أن أدرى فيم ينبغي أن أفكِّر، إذ أن طموحي المطرد النمو أدار رأسي، فتصوَّرت نفسى للتو مديرًا صغيرًا!.. ومن المؤكَّد أن حظى لم يرق إلى التألق الذي أوحت به إلى خيالي هذه البداية، بيـد أنه كان يكفيني إذ ذاك أن أعيش فحسب، وقد كان ما دُبّر لي أكثر مما رجوت.. وها كم جلية الأمر:

خطر للملك « فيكتور آماديه » - على ضوء الحـروب السابقة، وحالة الميراث الذي آل إليه عن آبائه - أن هـذا الميراث لن يلبث أن يفلت منه يومًا، ومن ثم فقد سعى إلى استنزاف موارده. ولما كان قد قرَّر - قبل ذلك بسنوات قلائل - أن يخضع الأشراف لضريبة العشور، فإنه أمر بإجراء تقدير عام لجميع الأراضي، لتعيين مساحتها وقيمتها، ليتسني بعد ذلك فرض الضريبة العقارية، وإعادة تنسيقها بمزيد من المساواة. وكان هذا العمل قد بدأ في عهد الأب، واستؤنف في عهد الابن.. واستخدم لهذه المهمة مائتان أو ثلاثمائة شخص ممن يتولون مسح الأرض - وكانوا يدعون مهندسين - ومن الكتَّاب الذين أُطلق عليهم لقب السكرتيرين. وقد حصلت لي « ماما » على منصب بين هؤلاء الأخيرين. ومع أن المنصب لم يكن عظيم المورد، إلا أنه كان يدر ما يكفي للعيش عن سعة في تلك المنطقة. وكان السيىء في الأمر أن هذا التعيين كان مؤقتًا، ولكنه جعلني في وضع يمكنني من البحث عن منصب أفضل وارتقاب الحصول عليه. وكان من بصيرة « ماما » أن تعمدت الظفر لي برعاية خاصة من المدير، حتى أتمكن من الانتقال إلى منصب أرسخ مكانة، إذا ما حانت نهاية عملي في المنصب الأوَّل.

ودخلت الخدمة عقب وصولي بأيام قلائل. ولم يكن في هذا العمل شيء من العناء، فسرعان ما خبرته. وهكذا قُدِّر لي للمرة الأولى - بعد أربع أو خمس سنوات قضيتها في التجوال، والطيش، والعذاب، منذ بارحت (جنيف) - أن أبدأ في كسب عيشى بعمل مشرف!

ولقد تبدو هذه التفصيلات المسهبة عن باكورة صباى، أمورًا صبيانية.. ولكني غير مستاء لذلك، فعلى الرغم من أنني وُلدت رجلًا - لاعتبارات معينة - إلا أنني ظللت طفلًا لأمد طويل، ولا أزال كذلك لاعتبارات كثيرة أخرى.. وأنا لم أعد بأن أقدِّم للرأى العام شخصية عظيمة، وإنما وعدت بأن أصف تلك الشخصية التي أوتيتها. ولابد - لكي تعرفوني في كبرى

- من أن تلموا إلمامًا كافيًا بصباى، ذلك لأن الأشياء المادية - بوجه عام - أقل انطباعًا في نفسي من ذكرياتها، كما أن جميع أفكاري تتخذ شكل صور خيالية.. في حين أن الأحداث الأولى التي طبعت نفسها على صفحة ذهني ظلَّت باقية، ولم تملك الأحداث التي انطبعت بعدها سوى أن تندمج فيها، بدلًا من أن تطغى عليها!.. وهناك مجموعة متعاقبة من العواطف والآراء التي تطغى على كل ما يأتي بعدها من عواطف وأفكار، ولابد من التعرّف على الأولى لكي يتسنى الحكم على الأخيرة. وقد اعتدت - في جميع الأحوال - أن أعني بالأسباب الأولى، حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوسًا.. وإني لأرجو أن أستطيع - إلى حد ما - أن أعرض نفسي شفافة أمام عينَي القارىء، ومن أجل هذا أسعى إلى أن أطلعه عليها تحت جميع الأضواء، وأن أعرضها من جميع النواحي، وأن أستيقن من أنه لن تغيب عن ملاحظته أية حركة من حركاتها، حتى يكون قادرًا في النهاية على أن يحكم بنفسه على المبادىء التي انتهجتها.

وإذا كنت ألقى على نفسى مسئولية النتيجة، وأقول للقارىء: « هذه هي شخصيتي »، فقد يُخيل إليه أننى إذا لم أكن أخدعه هو، فإنني - على الأقل - أخدع نفسى. أما عندما أكتفى بتفصيل كل ما جرى لى، وكل ما فعلت، وكل ما خطر ببالي، وكل ما خالجني من مشاعر، فإنني لا أستطيع أن أغرر به - بمحض رغبتي على الأقل - بل إننى لو أردت لما وجدت الأمر سهلًا.. ومن ثم فإنني أترك له عبء تجميع هذه العناصر، وتقرير نوع المخلوق الذي تؤلفه، إذ يجب أن تكون النتيجة من صنعه هو، حتى إذا أخطأ بعد ذلك، كان الخطأ كله من ذنبه. على أنه لا يكفي - من أجل هذه الغاية - أن تكون قصصى صادقة، وإنما يجب كذلك أن تكون دقيقة. وليس لي أن أحكم على أهمية الوقائع، وإنما يقتضيني الواجب أن أرويها جميعًا، ثم أترك له مهمة فرزها. وهذا ما حرصت عليه - حتى الآن - بكل ما أوتيت من شجاعة، ولن أحيد عنه فيما يلى. غير أن ذكريات أوسط العمر، تكون دائمًا أقل تألقًا من ذكريات باكورة الصبا. ولقد بدأت بأن اقتبست عن هذه أفضل قسط استطعت اقتباسه. فإذا واتتني الذكريات الأخرى بنفس الوضوح، فإن القراء الذين ملّوا الأولى، ربما ازدادوا مللًا.. أما أنا - بالذات - فلن أكون مستاء من عملي، وليس لدىَّ ما أخشاه في هذا المشروع سوى أمر واحد: وليس هذا الأمر هو الإسراف في القول، أو سرد الأكاذيب، وإنما هو ألّا أقول كل شيء، أو أن أخفى الحقائق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكراسة الخامسة

(من سنة 1732 إلى 1736)

كان ذلك في سنة 1732 - على ما يبدو لي - إذ وصلت إلى (شامبيرى)، كما ذكرت، وبدأت عملي في مسح الأرض، في خدمة الملك. وكنت قد تجاوزت عامي العشرين، ودنوت من الحادي والعشرين. وكنت - من الناحية العقلية - وافي التكوين بالنسبة لسنى، ولكن المقدرة على الحكم على الأمور لم تكن متوفرة لي، بل كنت في مسيس الحاجة إلى الأيدي التي وقعت بينها، لأتعلَّم كيف أتصرَّف. ذلك لأن سنوات التجارب القليلة لم تقو على أن تبرئني تمامًا من خيالاتي الشاعرية. وعلى الرغم من كل البأساء التي عانيتها، فإنني لم أعرف عن الدنيا والناس إلا القليل، وكأني لم أدفع ثمن المعرفة!

وأقمت في داري، أعنى في دار « ماما »، ولكني لم أسترد قط الغرفة التي كانت لي في (أنيسى)، فلم تعد ثمة حديقة، ولا جدول، ولا مناظر.. بل كان البيت الذي شغلته معتمًا كئيبًا، وكانت غرفتي أكثر غرف البيت ظلمة وكآبة: جدار بدلًا من مناظر الطبيعة، وحارة مسدودة بدلًا من الشارع، وقليل من الهواء، ونزر من ضوء النهار، ومساحة ضئيلة، وصراصير، وفئران، وأخشاب باليـة تكسو الأرض.. كل هذه ما كانت لتجعل من الغرفة سكنًا بهيجًا، ولكني كنت في دارها - دار « ماما » - وبالقرب منها!.. ولما كنت بلا انقطاع في مكتبي أو في غرفتها، فإني لم أنتبه كثيرًا إلى بشاعة غرفتي، إذ لم يكن لديَّ وقت للتفكير فيها. ولسوف يبدو عجيبًا أن تقيم « ماما » في (شامبيرى) خصيصًا لتسكن هذه الدار الوضيعة، ولكنها كانت حيلة ماهرة من جانبها، ينبغي ألا أغفل ذكرها: فلقد واجهت فكرة الرحيل إلى (تورين) وهي كارهة، إذ كانت تشعر - بعد الثورات التي كانت حديثة العهد، وبعد القلاقل التي كانت لا تزال تلم بالبلاط - أن الوقت لم يكن ملائمًا لوجودها هناك. في حين أن شئونها كانت تتطلَّب ظهورها، إذ كانت تخشى أن تغدو منسية أو ضحية للوشايات، سيما وأنها كانت تعلم أن الكونت « دى سان لوران » - المدير العام للمالية - لم يكن يميل إليها. وكانت له في (شامبيرى) دار عتيقة، رديئة البنيان، وفي موقع بلغ من سوئه أنها كانت تظلّ خاوية باستمرار، فاستأجرتها « ماما » واستقرَّت فيها!.. وكان هذا التصرّف أكثر توفيقًا من الرحيل إلى (تورين)؛ فلم يقطع معاشها قط، بل أصبح الكونت «دى سان لوران » - منذ ذلك الحين - من أصدقائها!

وألفيت إدارة بيتها تقرب مما كانت عليه من قبل، كما ظلَّ وصيفها الوفى « كلود آنيه» معها دائمًا.. وهو - كما أظنني ذكرت - فلاح من (موترو)، اعتاد في طفولته أن يجمع الأعشاب في منطقة (جورا) لصناعة الشاي السويسري، فألحقته «ماما» بخدمتها من أجل عقاقيرها، إذ وجدت من الأصوب والأوفر أن يكون خادمها خبيرًا بالأعشاب!.. وكان مشغوفًا كل الشغف بدراسة النباتات، فحبذت هذا الميل إلى درجة أن أصبح الرجل خبيرًا نباتيًا بحق، ولولا أنه مات في شبابه، لكان من المحتمل أن يذيع اسمه في هذا العلم، بقدر ما يستحق أن يخلد اسمه بين الشرفاء الأمناء. ولما كان جادًا، بل ووقورًا، كما أنني كنت أصغره، فإنه غدا منى بمثابة المربى، مما عصمني من كثير من الحماقات، إذ كان ذا أثر على نفسي، فلم أكن أجسر على أن أنسى نفسي في حضرته! وكان له عين الأثر على نفس سيّدته، التي عرفت حسن إدراكه، واستقامته، وولاءه الذي لا يتزعزع نحوها، فجازته خير الجزاء.. ولقد كان « كلود آنيـه » - بلا مراء - رجلًا نادرًا، بل أنه الوحيد الذي رأيته من نوعه على الإطلاق! كان متئدًا، متزنًا، مفكّرًا، حكيمًا في تصرفاته، هادئًا في طباعه، موجزًا مفيدًا في أقواله. وكان في عواطفه عنف لم يكن يدعه يظهر البتة.. عنف كان ينهش أحشاءه، ولكنه لم يدفعه أبدًا إلى أن يرتكب في حياته سوى حماقة واحدة، ولكنها كانت رهيبة.. تلك هي أنه سم نفسه!.. وقد وقع هذا الحادث المحزن عقب وصولي بقليل، وكان خليقًا بأن يطلعني على مدى المودة الوثيقة التي كانت بين هذا الفتى وسيدته، إذ أنني ما

كنت لأحدسها إطلاقًا لو لم تنبئني بها هي بنفسها!.. ويقينًا أنه إذا كان الولاء، والتحمس، والوفاء، جديرة بجزاء من نوع تلك المودة، فقد كان « آنيه » أهلًا لذلك، والذي يثبت أنه كان خليقًا به، أنه لم يسيء استغلال ثقة سيّدته أبدًا!.. وكان نادرًا ما يتشادان، ودائمًا تنتهى مشاداتهما على خير. على أنه قُدر لإحداها أن تنتهي بسوء، فلقد قالت السيِّدة لآنيه - في غضبها - كلمة مثيرة لم يقو على احتمالها، وفى تأثره وأساه، وقعت يده على زجاجة بها خلاصة دهن الأفيون، فتجرع محتوياتها، ثم استلقى في هدوء، مطمئنًا إلى أنه لن يستيقظ قط!.. ولحسن الحظ أن مدام دى فاران راحت تجوس خلال دارها - وهي قلقة، منفعلة - فعثرت على الزجاجة فارغة، وحدست الباقي، فأسرعت لنجدته، وهي تطلق صرخات اجتذبتني إليها.. فاعترفت لي بكل شيء، وناشدتني المعونة، ونجحنا بعد كثير من العناء في حمله على تقيؤ الأفيون. وإذ شهدت هذا المنظر، عجبت لغبائي إذ لم يساورني قط أتفه ريب في الصلات التي أنبأتني هي بها!.. بيد أن « كلود آنيه » كان من التكتم بحيث أن مَن يفوقونني في جلاء البصيرة كانوا خليقين بأن يغتروا بمظهره! وكان الصلح بينهما بعد ذلك من نوع جعلني أتأثر - أنا نفسي - أشد التأثّر. ومنذ ذلك الحين أضفت إلى التقدير احترامًا نحـوه، وأصبحت تلميذًا له، إلى حد ما.. الأمر الذي لم أجد فيه عيبًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أننى لم أنج من الألم، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع « ماما » في مودة تفوق مودتي كثيرًا. بل إنني ما فكرت يومًا في أن أشتهي لنفسي مثل هذه المكانة، غير أنه كان من الشاق على نفسي أن أراها تمتلىء بشخص آخر!.. وكان هذا أمرًا طبيعيًا، ومع ذلك فإنني بدلًا من أن أشعر بنفور من ذاك الذي سلبني إياها، وجدت أن وفائي للسيِّدة قد امتد - في الواقع - إليه هو الآخر! فقد كنت راغبًا - قبل كل شيء - في سعادتها، وما دام هو ضروريًا لهذه السعادة، فقد ارتضيت أن يكون هو الآخر سعيدًا. أما هو، فإنه « غاص » تمامًا في وجهات نظر مولاته، واستشعر صداقة صادقة نحو الصديق الذي اصطفته. وبدون أن يفرض عليَّ السلطة التي كان مركزه يخوله إياها، فإنه مارس - بطريقة طبيعية - تلك السلطة التي كان ذكاؤه الفائق يتيحها له على ذكائي، بحيث لم أجرؤ البتة على عمل ما قد يبدو استهجانًا له، كما أنه لم يكن يستهجن سوى ما هو سيىء. وهكذا عشنا في وحدة أسعدتنا جميعًا، ولم يكن ليقوى على تقويضها سوى الموت!.. ومن أدلة روعة شخصية تلك المرأة الحبيبة، أن كل الذين أحبوها كانوا يتحابون فيما بينهم.. فكانت الغيرة، بل والتنافس، يخضعان للشعور المسيطر الذي كانت توحي به السيِّدة، وهكذا لم أر قط واحدًا ممن كانوا يحيطون بها يضمر شرًا لآخر!.. فليكف أولئك الذين يقرأون كتابي لحظة عن مطالعتهم، عند هـذا المديح، فإذا وجدوا - وهم يتأملونه - امرأة أخرى يستطيعون أن يقولوا عنها الشيء ذاته، فليتعلقوا بها ليضمنوا الطمأنينة في حياتهم.. ولو كانت - فيما عدا ذلك ـ آخر الغاويات!

وهنا تبدأ - منذ وصولي إلى شامبيرى، حتى رحيلي إلى باريس في سنة 1741 - فترة مداها ثماني أو تسع سنوات، سأروى خلالها من الحوادث التي تستحق الرواية عددًا قليلًا، لأن حيـاتي كانت جد بسيطة وبهيجة. وكانت رتابتهـا هذه هي عين ما كانت تمس إليه حاجتي لكي أستكمل تكوين شخصيتي، التي حالت القلاقل المستمرة دون استقرارها. وفى هذه الفترة الغالية، تماسكت تربيتي - المتنوعة، غير المتتابعة - فجعلت مني الشخص الذي لم أكف بعد ذلك عن أن أكونه في غمار العواصف التي كانت تتربص بي. ولقد كان هذا التطوّر غير محسوس، كما كان بطيئًا مصحوبًا ببضعة أحداث جديرة بالذكر.. بل جديرة بالمراعاة والتنمية!

ففي بداية الأمر، لم أشغل بشيء سوى عملي، إذ أن قيود المكتب لم تكن تدعني أفكّر في شيء آخر. وكان الوقت القليل الذي أتحرَّر فيه، ينقضى إلى جوار « ماما » الطيبة. ولما لم

تكن لديّ فسحة للقراءة، فإن شغفي بالإطلاع لم يعد يتملكني. حتى إذا أصبحت واجباتي نوعًا من العادة المتواترة، قلّ انشغال بالي بها، فعاودني التململ والقلق، وأصبحت القراءة ضرورة - من جديد - وكأنما كان هذا الميل يحتدم كلما عزَّ ارضاؤه، فكان خليقًا بأن يغدو ولعًا جنونيًا - كما حدث عندما كنت في كنف معلمى[28] - لو لم تتدخل بعض نوازع أخرى فتحول اهتمامي عنه.

ومع أن عملياتنا لم تكن تتطلّب تعمقًا في الحساب، إلا أنها كانت تحتاج إلى قدر منه كان كافيًا لأن يزعجني في بعض الأحيان. ولكي أتغلَّب على هذه العقبة. ابتعت بعض كتب في علم الحساب، واستوعبتها جيدًا، إذ كنت أستذكرها وحدى. وقد تبينت أن الحساب التطبيقي أوسع نطاقًا مما يتصوَّر المرء، إذا ما كانت الدقة منشودة. فثمة عمليات بالغة الطول، كنت أرى المهندسين يخطئون أحيانًا في سياقها. بيد أن التفكير المقترن بالمران يتيح سوانح جلية، فلا يلبث المرء أن يهتدي إلى أساليب مقتضبة يثير ابتكارها اعتداده بنفسه، كما أن دقتها ترضى العقل، وتضفي سحرًا على عمل لا ينطوى على حمد ولا عرفان. ولقد تعمقت في هذا الباب تعمقًا موفقًا إلى درجة أن أية معضلة قابلة لأن تُحل بالأرقام وحدها لم تكن تعيينى!.. حتى أنني الآن، وقد أخذ كل ما عرفته ينمحى من ذاكرتي يومًا بعد يوم، أجد أن هذه المعرفة التي اكتسبتها لا تزال باقية ـ إلى حد ما - بعد انصرافي عنها ثلاثين عامًا!.. ولقد حدث منذ أيام، وفي خلال رحلة قمت بها إلى (دافينبورت)، أن عاونت أبناء مضيفي في درس الحساب، فكان سروري يفوق التصوّر، إذ حللت - دون ما خطأ - مسألة من أشد المسائل تعقدًا. وكان يُخيل إلىّ وأنا أسجل الأرقام أنني في (شامبيرى) من جديد، وفي أيام شبابي الهانئة. فلقد ارتدت إلى تلك الأيام، على بُعد الشقة بيني وبينها!

كذلك ولّد تلوين خرائط مهندسينا الميل إلى الرسم في نفسى، فابتعت بعض الألوان، وشرعت أرسم الزهور والمناظر الطبيعية. ومما يرثى له أنني اكتشفت أني لم أوت سوى موهبة طفيفة في هذا الفن الذي كنت أميل إليه بكل جوارحي!.. وكنت خليقًا بأن أقضى - بين أقلامي وفرشى - أشهرًا بأكملها، دون أن أبرح دارى. وإذ أصبحت هذه الهواية تستأثر باهتمامي إلى درجة كبيرة، فقد رؤى انتزاعي من سيطرتها. وهكذا الحال دائمًا بالنسبة لكل الميول التي أشرع في الانصراف إليها بكل نفسي، إذ أنها تتضاعف وتستحيل إلى شغف، فسرعان ما لا أعود أرى في الدنيا سوى المتعة التي أستشعرها في مزاولتها. ولم تبرئني السن من هذا العيب، بل إنه لم يتضاءل مع مرور السنين، حتى أنني لأراني - وأنا أكتب هذا الآن - كمخرّف كهل يهيم بدراسة أخرى لا نفع من ورائها، ولا يفقه فيها شيئًا!.. دراسة يضطر أولئك الذين كرَّسوا لها حياتهم إيان شبابهم، إلى التخلي عنها في مثل السن التي أريد أن أشرع في ممارستها فيها[29]!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد كانت هذه الهواية خليقة بأن تبدو أمرًا طبيعيًا في ذلك الوقت[30]، إذ كانت الفرصة سانحة، وكان ثمة ما يغريني بانتهازها. فإن الرضى الذي كنت أشهده في عينَي « آنيه » وهو يعود إلى الدار محملًا بالنباتات الجديدة، جعلني - مرتين أو ثلاثًا - على وشك أن أنصرف إلى جمع الأعشاب معه.



فان الرضى الذى كنت أشهده فى عينى « آنية »
وهو يعود الى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جعلنى ـ مرلين
ا ـ على وشك ان انصرف الى جمع الاعشاب معه

وأكاد أوقن بأن هذه الهواية كانت قمينة بأن تستولى عليَّ، لو أننى خرجت معه مرة، ولعلني كنت قد أصبحت اليوم خبيرًا كبيرًا بالنباتات!.. فلست أعرف في الدنيا دراسة أكثر ملائمة لميولي الطبيعية من دراسة النبات، وما الحياة التي أعيشها في الريف منذ عشر سنوات سوى دراسة مستمرة الأعشاب، دون ما هدف - في الواقع - ودون ما تقدّم.. على أنني لم أكن في ذلك العهد على بينة بشيء عن علم النبات، فشعرت بنوع من الازدراء - بل ومن النفور - لهذه الدراسة، ولم أر فيها سوى ما يراه كل الجهلة من أنها حرفة المهتم بصناعة العقاقير - فإن « ماما »، التي كانت تحبها، لم تكن تفيد منها إلا في هذه الصناعة، ولم تكن تبحث إلا من النباتات العادية، لتستغلها في عقاقيرها - وهكذا كان علم النبات والكيمياء والتشريح تختلط في ذهني تحت اسم الطب، ولم تكن تصلح إلا لإمدادي بفكاهات ساخرة طيلة يومي، ولتجلب عليَّ الصفعات بين وقتٍ وآخر!

وإلى جانب ذلك، أخذ ميل آخر مختلف عن هذا ـ بل على النقيض منه إلى حد كبير - ينمو في نفسي بإطراد، وسرعان ما ابتلع كل ما عداه: وأعني بذلك الموسيقى. ولا بد أننى خُلقت لهذا الفن بالتأكيد، فقد بدأت أحبه منذ باكورة طفولتي، وهو الوحيد الذي ظللت أحبه باستمرار في جميع الأوقات. والعجيب في الأمر أن الفن الذي خُلقت من أجله، قد كبدنى تعلّمه - برغم ذلك - عناءً كبيرًا، وكان تقدمي فيه من البطء بحيث أنني لم أجرؤ قط على الغناء باعتداد، بعد كل التدريب الذي مارسته في حياتي!.. أما الذي حبب إليَّ هذه الدراسة - في ذلك الحين بوجه خاص ـ فهو أنني كنت أستطيع أن أواصلها مع « ماما ». فمع أن أذواقنا في النواحي الأخرى كانت جد مختلفة، إلا أن الموسيقى كانت - بالنسبة لنا - رباطًا يجمع بيننا، فكنت أحب دائمًا أن أفيد منه. وما كانت « ماما » لتأبى ذلك. بل إننى كنت إذ ذاك أكاد أعادلها تقدّمًا في هذا الفن، فكان في وسعنا بعد محاولتين أو ثلاث أن نحل رموز أي لحن. وكنت أحيانًا إذا ما رأيتها مستغرقة أمام موقد، أقول لها: « ماما، هاك لحنًا ساحرًا لاثنين، يبدو لي أنه خليق بأن يجعل رائحة عقاقيرك تنم عن احتراقها »!.. فكانت تقول لي: « آه!.. قسمًا لأجعلنك تأكلها إذا أنت شغلتني عنها حتى تحترق! ».. وبينما يدور الجدل، كنت أجرها إلى معزفها، فننسى نفسينا، حتى تحترق خلاصة الابسنت أو العرعر[31] بالفعل، فتلطخ « ماما » بها وجهي.. وكم كان كل ذلك عذبًا!

ومن هذا ترون أننى وإن كنت لم أوت من الفراغ إلا وقتًا قصيرًا، فقد كان لديَّ كثير من الأمور التي أنفق فيها هذا الوقت. على أنه كان ثمة - إلى جانب ذلك - ملهاة خليقة بأن تعادل وحدها كل الملاهي الأخرى! وإليك قصتها: كنا نقيم في شبه سجن معتم خانق، حتى أننا كنا بحاجة إلى الخروج أحيانًا لننشد الهواء في الريف. وأغرى آنيه « ماما » بأن تستأجر بستانًا في الضواحي لتربية النباتات. وكان يلحق بهذا البستان بيت ريفي صغير بديع، جُهز بأثاث متواضع وأقيم فيه سرير. وكثيرًا ما كنا نتناول عشاءنا هناك، كما كنت أنام فيه أحيانًا.. ولقد أولعت - دون أن أفطن - بهذا « المعزل » الصغير، فحملت إليه قليلًا من الكتب وعددًا من المطبوعات، وقضيت شطرًا من وقتي في تزيينه، وفي إعداد مفاجأة مستحبة لماما إذا ما خرجت للنزهة في ذلك المكان. وكنت أبتعد عنها أحيانًا، لكي أشغل بها بالي، ولكي أفكر فيها بمزيد من الابتهاج. وكانت هذه نزوة أخرى لا يسعني أن أبرّرها أو أشرحها، ولكني أعترف بها، لأنها كانت حقيقة. وإني لأذكر أن مدام دى « لوكسمبورج » حدَّثتني مازحة - ذات مرة - عن رجل اعتاد أن يفارق عشيقته لكي يكتب إليها رسائل!.. وقد قلت لها إنه كان من المحتمل أن أكون ذلك الرجل - وكان خليقًا بى أن أضيف أنني كنت أتصرَّف أحيانًا مثله! - على أنني لم أكن أشعر قط، وأنا مع « ماما » بضرورة الابتعاد عنها كي أزداد حبًا لها، لأنني كنت إذا ما خلوت إليها أشعر بطمأنينة كاملة، كما لو كنت وحيدًا!.. وهي حال لم أستشعرها البتة في حضور أي امرىء آخر - رجلًا كان أو امرأة - مهما يكن تعلقى به!.. ولكنها كثيرًا ما كانت تحاط بقوم لم أكن أنسجم معهم إطلاقًا، فكان ينتابني شعور من الضيق والملل، يدفعني إلى ملاذي ذاك[32]، حيث كان بوسعي أن أهنأ بها

كما كنت أبتغيها، دون أن أخشى أن يتعقبني الزائرون الثقلاء!

وعلى هذه الحال - التي كان وقتي فيها موزعًا بين العمل واللهو والتعلم - نعمت بحياة مفعمة بأعذب دعة! على أن أوربا لم تكن في مثل طمأنينتي، إذ كانت فرنسا والإمبراطور قد أعلنا الحرب لتوهما، وساهم ملك (سردينيا) في النزاع، فأخذ الجيش الفرنسي يتقدَّم عبر (بييمونت) ليغزو أراضي ميلان. ومرَّت فرقة منه خلال (شامبيرى)، كان بين كتائبها كتيبة (شامبانى)، التي كان قائدها الدوق دى « لاترموييى ». وقد قدمت إليه، فكان مسرفًا في وعوده - وإني لموقن من أنه لم يتذكرني البتة بعد ذلك! - وكان بستاننا الصغير يقوم في أقصى طرف الضاحية التي دخلها الجند، ومن ثم فقد كان بوسعي أن أنعم تمامًا بمتعة مشاهدتهم وهم يمرّون، وكنت من التحمس لنجاح هذه الحرب، كما لو كانت لي مصالح عظيمة مهددة بها!.. ولم يكن قد جال بخاطري حتى ذلك الحين أن أفكر في المسائل العامة، فبدأت أقرأ الصحف للمرة الأولى، ولكن.. في تحيز لفرنسا33 كان يجعل قلبي يخفق طربًا كلما أحرزت أقل نجاح، بينما كانت اخفاقاتها تحزنني وكأنها قد ألمت بي أنا!.. ولو أن هذه الحماقة كانت عابرة، لما وجدتها جديرة بأن أتحدَّث عنها، ولكنها تغلغلت في فؤادي دون ما سبب كاف، حتى أنني حين قمت - في باريس - بدور عدو الطغاة المعتز بدعوته، شعرت، رغمًا عن نفسي، بميل خفي إلى هذه الأمة التي وجدتها راسفة في الذلة، وإلى الحكومة التي كنت أتظاهر بالنقمة عليها. والطريف في الأمر أنى، لخجلي من شعور يناقض مبادئى، لم أجبر على أن أفضى به لأى امرىء، ورحت أسخر من الفرنسيين في هزائمهم، بينما كان قلبي يدمى من أجلهم، أكثر مما كانت تدمى قلوبهم هم! ومن المؤكد أننى الرجل الوحيد الذي يعيش بين قوم أحسنوا معاملته وهام بحبهم، ولكنه مع ذلك يُظهر نحوهم، وهو بينهم، روح الازدراء! وهذا الميل من ناحيتي مجرَّد من الهوى، وهو من القوة، والبقاء، والمناعة بحيث أنني لم أستطع ان أبرىء نفسي من هذا الضعف، حتى بعد رحيلي عن فرنسا، عقب العاصفة التي تبارت حكومتها وحكامها وكتّابها في إثارتها ضدي، ومذ أصبح العرف المألوف هو إغراقي بما لا أستحق من سباب!.. نعم، إنني أحبهم برغم نفسي، وبرغم سوء معاملتهم إياي!

ولقد سعيت طويلًا إلى تبين سبب هذا التحيز، فعجزت عن العثور عليه، اللهم إلا في عين المناسبة التي أوجدته: فإن الميل المطرد إلى الأدب أولاني شغفًا بالكتب الفرنسية ومؤلفيها وبلاد هؤلاء المؤلفين. وفي الوقت الذي مرَّ فيه الجيش الفرنسي بشامبيرى، كنت أقرأ كتاب « برانتوم » المسمى « القادة العظام »، فكان رأسي مليئًا بأمثال كليسون، وبايار، ولوتريك، وكوليني، ومونمورنسى، وتريموييى، وكنت أحب ذرياتهم بوصفهم ورثة فضائلهم وبسالتهم. ورحت أخال أننى ألمح في كل كتيبة مرَّت تلك العصابات السوداء الشهيرة، التي أحرزت تلك البطولات، من قبل، في (بييمونت). وموجز القول أننى ربطت ما كنت أراه، بالأفكار التي كنت أقتبسها عن الكتب.. وراحت مطالعاتي الدائبة - وكانت لا تزال مقصورة على مؤلفات الأدباء الفرنسيين - تغذى حبي لبلادهم، ثم حوَّلت هذا الحب في النهاية إلى شغف أعمى لم يقو شيء على التغلب عليه! ولقد سنحت لي - فيما بعد - الفرصة كي ألاحظ في سياق رحلاتي أن هذا الأثر لم يكن قاصرًا عليَّ بالذات، وإنما كان يتعداني - بدرجة متفاوتة - إلى أفراد من جميع البلدان، وهم ذلك القسم من الأمة الذي يحب القراءة ويقبل على الأدب، فكان هذا الشغف يرجح على النفور العام الذي توحى به عجرفة أخلاق الفرنسيين!.. والملاحظ في هذا الصدد أن قصص أدبائهم أكثر استيلاء من رجالهم على قلوب النساء في جميع البلدان.. كما أن تحفهم التمثيلية تجتذب الشباب إلى مسارحهم، فإن شهرة مسارح باريس تجذب إليها زرافات من الأجانب، الذين يعودون إلى أوطانهم وهم من أشد المعجبين المتحمسين لها!.. وبالاختصار أقول إن الذوق الرائع الذي يبين في أدب الفرنسيين، يسبى عقول كل أولئك الذين أوتوا أي قدر من العقل. ولقد رأيت خلال تلك الحرب - التي انتهت أسوأ نهاية بالنسبة لهم - أن مؤلفيهم وفلاسفتهم قد صانوا شرف

اسم فرنسا الذي لطخه محاربوها!

وقد كنت إذ ذاك فرنسيًّا متحمسًا، نهمًا إلى الأنباء، فكنت أذهب مع حشد متسقطي الأخبار إلى ساحة السوق، لننتظر البريد. وكنت - في غباء يفوق غباء الحمار في الأسطورة - أشغل نفسي كثيرًا بمحاولة معرفة أي سيِّد سيكون لي شرف حمل سرجه وركابه، فلقد قيل في تلك الأثناء إننا سنتبع فرنسا، وأن (سافوا) ستبادل بأراضي (ميلان). على أنه من الواجب الاعتراف بأنني كنت على حق في قلقي، فلو أن هذه الحرب انقلبت في غير صالح الحلفاء، لتعرّض معاش « ماما » لخطر كبير. غير أننى كنت مفعمًا بالثقة في أصدقائي الطيبين34، ولم تخب هذه الثقة ـ في هذه المرة ـ بفضل ملك سردينيا، الذي لم أفكر فيه إذ ذاك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما كان الصراع دائرًا في إيطاليا، كان الغناء دائرًا في فرنسا!.. فقد بدأت أوبرات « رامو » تحدث ضجة، وترفع من شأن مؤلفاته النظرية التي كان غموضها قد جعلها في متناول نفر ضئيل من الناس. ولقد سمعت عفوًا من مؤلفه « رسالة في التوافق »، فلم أرتح حتى حصلت على هذا الكتاب. وبمصادفة أخرى، سقطت مريضًا. وكان مرضى نوعًا من الالتهاب، الذي كان عنيفًا وقصيرًا، ولكن نقاهتي كانت طويلة، فلم يكن بوسعي الخروج لمدة شهر. وفي خلال هذه الفترة عكفت على « رسالة في التوافق » ألتهمها، ولكنها كانت طويلة، محشوة بالإسهاب، سيئة العرض إلى درجة أننى شعرت بأن لا بد لي من وقت طويل كى أدرسها وأستوعبها. وأرجأت جهودي، ورحت أجلو عينَي بالموسيقى. ولم تفارق ذهني أغاني « بيرنييه »، التي رحت أتدرب عليها. (فقد حفظت منها عن ظهر قلب أربعًا أو خمسًا، منها تلك التي كانت تدعى « آلهة الحب النائمة »، التي لم أسمعها ثانية منذ ذلك الحين، والتي لا أزال أحفظها كلها تقريبًا. وكذلك « الحب الذي لدغته نحلة »، وهي أغنية جد بديعة من تأليف « كليرامبو » حفظتها في عين ذلك الوقت تقريبًا).

واستكمالًا لشغفى، وصل من (فال داوست) عازف أرغن شاب يدعى الأب « باليه »، كان موسيقيًّا مجيدًا، ورجلًا طيبًا، وعازفًا يجيد مصاحبة مَن يغني. وتعرَّفت إليه، فأصبحنا لا نفترق. وكان قد تتلمذ على راهب إيطالي بارع في العزف على الأرغن، فحدَّثني عن مبادئه في الموسيقى، وقارنتها بمبادىء « رامو » - الذي كنت أعجب به - وملأت رأسي بالعزف الذي يصاحب الغناء، وبتناسق الأنغام وتوافقها. وكان لا بد من أن أشحذ حساسية أذني لكل هذا، فاقترحت على « ماما » إقامة حفلة موسيقية في كل شهر، فوافقت. وإذا بي أستغرق في تلك الحفلات، فلم أعد أشغل بشيء آخر ليلًا أو نهارًا.. والواقع أنني شغلت شطرًا كبيرًا من وقتي في تنظيم الموسيقى، والحفلات الموسيقية، والأدوات، وتقسيم الأدوار، وما إلى ذلك!.. وكانت « ماما » تغنى، كما أن الأب كاتون - الذي سبق أن تحدَّثت عنه، والذي سأتحدَّث عنه مرة أخرى - كان يغني هو الآخر. وكان أستاذ للرقص يدعى « روش » يعزف مع ابنه على « الكمان »، والسيِّد « كانافا » - وهو موسيقى بييمونتي كان موظفًا في المساحة، وقد تزوج بعد ذلك واستقرَّ في باريس - يعزف على الكمان الكبير، بينما كان الأب « باليه » يصاحبهم على « البيانو »، كما كان لي شرف قيادة الموسيقى، دون أن أنسى العصا. وفى وسع المرء أن يتصوَّر مدى جمال كل ذلك!.. ولئن لم تكن هذه الحفلات كتلك التي كانت تُقام لدى السيِّد دى « تريتوران »، إلا أنها كانت تقرب منها!

وأثارت الحفلات الموسيقية الصغيرة التي أخذت تقيمها مدام دى فاران ـ وهي حديثة عهد بالإيمان، وكانت تعيش على بر الملك، كما كان يُقال - تذمر عصبة الأتقياء، ولكنها كانت ملهاة مستحبة لكثير من الشرفاء. ولكن هل يستطيع أحد أن يحدس: مَن الذي كنت أضعه على رأس تلك المناسبات؟.. كان راهبًا، ولكنه راهب موهوب، بل ومحبوب، أثَّرت

بلاياه، فيما بعد، على نفسي تأثيرًا قويًا، ولا تزال ذكراه - التي ارتبطت بذكرى أجمل أيامي - عزيزة لديّ. ذلك هو الأب كاتون - أحد الرهبان الجبليين[35] - الذي عمل بالاشتراك مع الكونت « دورتان » على مصادرة موسيقى « الهريرة » المسكينة في (ليون)، ولم يكن هذا أبدع ما في حياته. فقد تخرج في « السوربون »، وعاش ردحًا طويلًا في أرقى الأوساط الباريسية، وكان ذا حظوة خاصة لدى المركيز « دانترمون »، الذي كان سفيرًا لسردينيا في ذلك العهد. وكان حسن البنيان، ممتلىء الجسم، بارز العينين، ذا شعر أسود كان يتجعد بطبيعته على جبينه، وذا أخلاق نبيلة وصريحة ومتواضعة، في آنٍ واحدا!.. كان مظهره بسيطًا وبديعًا، دون ما شيء من النفاق أو السلاطة التي عُرفت عن الرهبان، ودون ذلك الصلف المألوف لدى نجوم المجتمع، وإن كان واحدًا منهم.. لم يكن يبدى سوى اعتداد الرجل الشريف، الذي يحترم نفسه - دون أن يخجل من لباسه - ويشعر دائمًا بأنه في الوسط المحترم إنما يكون في مكانه الطبيعي. ومع أنه لم يكن جد متعلم بالدرجة التي تتفق مع « الدكتوراه » التي كان يحملها، إلا أنه كان كامل العدة والاستعداد لأن يكون من رجال المجتمع.. ولم يكن يتلهف على أن يعرض معرفته، وإنما كان يستغلها في الفرص المناسبة، حتى لقد كان يظن أنه أوتى من المعرفة أكثر مما كان يمتلك!.. ولما كان قد عاش طويلًا في المجتمع الراقي، فإنه كان يولى المؤلفات المستحبة من الاهتمام أكثر مما كان يولى العلم الجاف. وكان حاضر البديهة، يقرض الشعر، ويجيد الكلام، ويحذق الغناء، وقد وُهب صوتًا جميلًا، كما كان يعزف على الأرغن و « البيانو ». وكان هذا أكثر مما يكفي لأن يجعله منشودًا ومرغوبًا - وهكذا كان بالفعل! - بيد أن ذلك كله لم يحمله على أن يهمل واجبات منصبه إلا بقدر تافه، فلم يلبث أن اختير - برغم غيرة مزاحميه - نائبًا لرئيس طائفته في إقليمه. وبمعنى آخر، كان من أرفع أفراد الطائفة شأنًا!

ولقد تعرَّف الأب « كاتون » إلى « ماما » لدى المركيز « دانترمون ». وكان قد سمع عن حفلاتنا الموسيقية في أحاديث القوم، فأعرب عن رغبة في المساهمة فيها. وقد فعل، فأكسبها بهجة! وسرعان ما توثق ودّنا بفضل ميلنا المشترك للموسيقى، إذ كان هذا الميل - لدى كل منا - ولعًا متأججًا، وكان كل ما بيننا من فارق هو أنه كان موسيقيًا موهوبًا حقًا، في حين أنني لم أكن سوى متطفل على الفن! وكنا نذهب فنعزف في غرفته، مع « كانافا » والأب « باليه »، كما كنا نعزف على أرغنه أحيانًا في أيام الأعياد، وكثيرًا ما كنا نتناول غذاءنا على مائدته الصغيرة، فقد كان - وهذا أيضًا من دواعي العجب بالنسبة لراهب - كريمًا، مغداقًا، ذواقة للأطعمة في غير نهم. وكان، في أيام حفلاتنا، يتناول عشاءه في دار « ماما »، فكانت تلك المآدب كثيرة المرح والسرور، يُقال فيها كل ما يخطر بالبال، وتُلقى فيها الأغاني الثنائية.. بينما أسترسل أنا على سجيتي، فأغدق الملح والطرائف. وكان الأب « كاتون » يبدو لطيفًا، و « ماما » تستأثر بالاعجاب، بينما يغدو الأب باليه هدفًا للضحك، بصوته الذي يشبه خوار الثورا!.. أيتها اللحظات العذبة الحافلة بعبث الشباب، لكم طال بكِ البعادا!

وبما أنني لن أعود إلى الكلام عن هذا الأب كاتون المسكين، فإنى أوجز هنا قصته المحزنة في كلمتين: فإن الرهبان الآخرين، الذين كانوا يغارون منه - أو بالأحرى يحقدون عليه - إذ رأوا فيه كفاءة وخصالًا حميدة، ليس فيها من فساد الرهبان شيئًا، أوسعوه كراهية لأنه لم يكن بغيضًا مثلهم.. فاجتمع رؤساؤهم عليه، وأوغروا ضده الرهبان الذين كانوا يحسدونه على مركزه، والذين لم يكونوا يجرؤون من قبل على التطلّع إليه، ومناوأته.. فرُمى بألف إهانة، وأُقصى عن منصبه، وانتزعت منه حجرته التي كان قد أثثها بأناقة وبساطة معًا، وحبسوه حيث لا أدرى.. وأخيرًا، أغرقه أولئك التعساء بوصمات لم تقو نفسه الشريفة الأبية - بحق - على احتمالها. وبعد أن كان بهجة أظرف المجالس، مات أسى على فراش حقير (برش)، في ركن ما من « زنزانة » أو « جب »، مأسوفًا عليه ومبكيًا من جميع الأشراف الذين عرفوه، والذين لم يجدوا فيه أي عيب، سوى أنه كان راهبًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي سياق هذه المعيشة، لم ألبث أن غدوت - بعد أمد وجيز - غارقًا في الموسيقى. وألفيتني بعيدًا عن التفكير في أي شيء آخر، ولم أعد أذهب إلى مكتبي إلا غصبًا، فقد أصبح الإرهاق والجهد الدائب يسببان لي عناء لا يطاق.. وانتهيت أخيرًا إلى الرغبة في ترك منصبى، لأكرس نفسى بأكملهـا للموسيقى! وفي وسع المرء أن يتصوَّر أن هذه الحماقة لم تُقابل بغير معارضة، فإن ترك منصب شريف، ودخل ثابت، للجري وراء تلاميذ غير مضمونين[36]، كان نهجًا خلوًا من الحكمة، بحيث لم يكن يرضى « ماما ».. بل إننا إذا افترضنا أن توفيقي المقبل بلغ ما كنت أتصوّره من ضخامة، فإن ذلك كان يحد من طموحي ويحصره في نطاق متواضع، إذ يهبط بي طوال العمر إلى مركز الموسيقى (الموسيقار)!.. وأخذت تلك المرأة التي لم تكن ترسم سوى أبدع الخطط، والتي لم تعد تحكم عليّ قط وفقًا لرأى السيِّد « دوبون »، أخذت ترمقني في ألم وأنا أشغل جديًا بموهبة كانت تراها غير مربحة، وكثيرًا ما كانت تردد لي ذلك المثل الريفي الذي قلَّ ما يصدق في باريس: « إن الذي يتقن الغناء ويحذق الرقص، يتخذ لنفسه مهنة قلَّ أن ترفع من قدره »!.. على أنها - من ناحية أخرى - كانت تراني منساقًا لميل لا يقاوم، فإن ولعي بالموسيقى غدا جنونًا، ومن ثم فقد حق لها أن تخشى أن يتأثر عملي من جراء انشغالى، فيؤدى إلى أن أُحرم من منصبي، وهو أمر كان من الخير أن أقدم عليه بنفسي[37].. ومرة أخرى، بينت لها أن هذا المنصب لم يكن مقدرًا له أن يدوم طويلًا، وأنه لابد لي من مهنة أكتسب منها عيشي، وأن السعي إلى أن أكتسب بالمران حذقًا للفن الذي كان ميلى يدفعني إليه - والذي اختارته لي هي - أضمن من أن أضع نفسي تحت رحمة مَن يولونني حماهم، أو أن أحـاول عملًا جديدًا قـد يجانبني فيه التوفيق، وقـد يدعني - في النهاية - بلا موارد لكسب عيشى، بعد أن أكون قد تجاوزت سن التعليم!.. وانتزعت أخيرًا موافقتها، بالغضب واللجاجة والملاينة، أكثر منى بالحجج المقنعة!.. فهرعت لفوري مقدمًا استقالتي إلى السيِّد كوتشيللي - المدير العام للمساحة - في زهو وخيلاء، وكأنني أقدمت على أكثر الأعمال بطولة.. وهكذا تركت منصبى طواعية، دون ما داع، ولا عذر، ولا مبرر.. بل في اغتباط يفوق اغتباطى يوم ظفرت به قبل عامين!

هذه الخطوة - برغم أنها كانت حماقة مطلقة - أكسبتني في البلاد نوعًا من الاعتبار الذي أفادني. وظن البعض أننى أستند إلى موارد لم أكن أمتلكها، في حين أن غيرهم قـدَّروا موهبتي على ضوء تضحيتي - وهم يرونني أنصرف بكل نفسي إلى الموسيقى - واعتقدوا، إزاء كل هذا الولع بالفن، أننى ولابد على معرفة فائقة به!.. ولما كان الأعور ملكًا في مملكة العميان، فقد أخذني القوم على أننى أستاذ بارع، لأنه لم يكن ثمة من المعلمين سوى الرديئين!.. وإلى جانب ذلك، فإنني لم يكن يعوزني حذق الغناء ـ إلى درجة لا بأس بها - كما كنت مفضلًا بسبب سني وشكلي، فسرعان ما أصبح لي من التلميذات أكثر مما كان يلزمني لتعويض مرتبى كموظف كتابى!

ومن المؤكد أنه لم يكن بوسع امرىء أن ينتقل ـ في سبيل الاستمتاع بالحياة - من أمر إلى نقيضـه، بأسرع مما انتقلت أنا!.. ففي المساحة كنت أمارس ـ ثماني ساعات في اليوم - أشد الأعمال كآبة، مع أناس كانوا هم الآخرون أشد النـاس كآبة، حبيسًا في مكتب مسمم بأنفاس وعرق كل هؤلاء الأجلاف الذين كان معظمهم بالغي القذارة، مشعثين - حتى أنني كنت أشعر بدوار وغثيان لفرط الانتباه والرائحة والجهد والضيق أحيانًا! فإذا بى الآن، بدلًا من ذلك، أجدني أغوص فجأة في المجتمع الراقي، وأصبح مرغوبًا ومنشـودًا في خير البيوت، أحظى بالحفاوة والملاطفة والإكرام في كل مكان، حيث ترتقب وصولى آنسـات لطيفات أنيقات، ليستقبلنني في تلهف!.. لا أرى سوى الأشياء الفاتنة، ولا أشم سوى الورد وزهر البرتقال، ولا أحاط إلا بالغناء والكلام والضحك واللهو.. ولا أغادر بيتًا إلا لأجد كل هذا

في بيت آخرا.. ولسوف يقرّني القارىء على أنه - وقد تساوت الميزات - لم يكن ثمة مجال للتردد في الاختيـار. والحق أنني رضيت عن اختياري الى درجة أنني لم أستشعر الندم قط.. وحتى في هذه اللحظة، وأنا أزن أعمال حيـاتي بميزان العقل، بعد أن تحررت من البواعث النزقة التي كانت تحدوني إذ ذاك!

ولقد كانت هذه هي المرة الوحيدة - تقريبًا - التي لم أطع فيها سوى ميولى، فلم يخب رجائي! ولقد أدَّت الحفاوة السلسة، والروح اللطيفة، والطباع السهلة التي أوتيها أهل تلك البلاد، إلى جعل اتصالي بالدنيا أمرًا مستحبًا، وقد كان الميل الذي تملكني إذ ذاك نحو هذا كله، دليلًا أثبت لي بجلاء أنه إذا كان قد قُدِّر لي ألّا أحب العيش وسط الناس، فقد كان هذا ذنبهم أكثر مما هو ذنبي!

ومما يؤسف له أن أهل (سافوا) ليسوا اغنياء - أو لعله كان أمرًا أجدر بالأسف أن يكونوا أغنياء! - ذلك أنهم، على ما هم عليه، خير من عرفت من الناس، وأحسنهم معاشرة. وإذا كانت في الدنيا مدينة صغيرة تتسنى فيها عذوبة الحياة، في وسط ملائم ومأمون، فهذه المدينة هي (شامبيري).. فإن الأسرات العريقة في الإقليم، التي تتجمع في هذه المدينة، لم تؤت إلا ما يكفيها للعيش، دون ما زيادة.. وهم بحكم الضرورة - نظرًا لعجزهم عن الإغراق في طموحهم - يتبعون نصيحة « سينياس »38، فيكرسون شبابهم للخدمة العسكرية، ثم يعودون ليقضوا شيخوختهم في وطنهم بسلام. وبذلك يتقاسم الشرف والحكمة حياتهم. أما نساؤهم فجميلات، وجميلات بحق، إذ أنهن يمتلكن جميعًا ما يجعل للجمال قيمة، بل وما يغني عنه. ومن العجيب أنني - وقد قُدِّر لي بحكم مهنتي أن أرى كثيرًا من الشابات - لا أذكر أنني رأيت واحـدة في (شامبيرى) لم تكن فاتنة!.. قد يُقال إننى كنت ميـالًا لأن أراهن فاتنات، وربما كان في هذا بعض الحق، ولكني لم أكن بحاجة إلى أن أضيف إليهن سحرًا من خيالي. والحقيقة أننى لا أملك أن أفكر في تلميذاتي الشابات دون أن أطرب.. وكيف أذكر هنا أبدعهن حسنًا، دون أن أتمثلهن معي في تلك الأيام الهانئة التي نعمنا بها!.. تلك اللحظات البريئة العذبة التي قضيناها معًا؟!.. كانت أولاهن الآنسة « دي ميلاريد »، جارتي وأخت تلميذ السيِّد جايم. وكانت سمراء طروب، مليئة بنشاط ورشاقة ناعمين، ومجرَّدة من كل نزق. وكانت - كمعظم لداتها - تميل إلى النحافة، ولكن عينيها اللامعتين، وقوامها الأهيف، وخلقها الجذاب، لم تكن في حاجة إلى زينة كى تروق للأبصار. ولقد اعتدت أن أذهب إليها في الصباح، فأجدها عادة في ثياب البيت، لا يزين رأسها سوى شعرها الذي رفعته في إهمال، وقد ازدان ببضع زهرات كانت تُوضع عند وصولي، ثم تُرفع عقب انصرافي ليتسنى تنسيق الشعر!.. ولست أخشى في الدنيا أكثر من شابة في ثيـاب البيت! - وتقل خشيتي هذه مائة مرة إذا كانت الفتاة في كامل ثيابها! - أما الآنسة « مانتون »، التي كنت أذهب إليها بعد الظهيرة، فكانت دائمًا في كامل ثيابها، وكانت هي الأخرى تُحدث في نفسي أثرًا بالغ الرقة، ولكنه من نوع مختلف. كان شعرها أشقر مغبر اللون، وكانت بالغة الظرف، وبالغة الخجل، ناصعة البياض، ذات صوت صاف، واضح، موسيقى الرنين، ولكنها لم تكن تجسر على رفعه. وكانت ثمة ندبة على صدرها خلّفها حرق نشأ عن ماء مغلى. ولم يكن الوشاح الحريري الأزرق ليستر هذه الندبة تمامًا، فكانت تجتذب انتباهي، الذي لم يعد - بعد زمن قصير - ينحصر في الندبة وحدها!

وهناك الآنسة دى « شال »، التي كانت هي الأخرى من جاراتي. وكانت فتاة ناضجة، وافية العود، عريضة المنكبين، تميل للبدانة. وكانت طيبـة جدًا. ومع أنها لم تكن جميلة، إلا أنها جديرة بالذكرى لكرم خلقها، واعتدال طباعها، وطيبة سجيتها. أما أختها السيِّدة « دى شارلي » - أجمل امرأة في شامبيرى - فكانت قد تجاوزت سن تعلم الموسيقى، ولكنهـا أتاحت التعلم لابنتهـا التي كانت لا تزال صغيرة، والتي كان جمالها الناشيء يوحي بأنه سيضارع جمال أمها، لولا أنهـا - لسوء الحظ - كانت ذات شعر ضارب إلى الحمرة. وكانت

لي في « دير الزيارة » آنسة فرنسية صغيرة (غاب عنى اسمها ولكنها جديرة بأن تحمل مكانًا بين الأثيرات لديّ). وكانت قد اكتسبت ما للراهبات من لهجة متئدة، متراخية.. وبهذه اللهجـة المتراخية كانت تلقى ملحًا طريفـة، لا تبدو ملائمة لوقارها! وفيما عدا ذلك، كانت كسولًا، لا تحب أن تتجشم عناء إظهار ذكائها - إذ كان ذلك صنيعًا لا تبيحه لكل امرىء! - ولم يخطر لها أن توليني هذا الصنيع إلا بعد شهر أو اثنين من التدريس، فقد شاءت أن تجعلني أكثر مواظبة على موافاتها، إذ أنني ما استطعت قط أن أحمل نفسي على الدقة في المواعيد. كنت أحب دروسى أثناء قيامي بإلقائها، ولكني لم أكن أحب أن أُقسر على حضورها، ولا أن أكون مقيدًا بموعد.. فقد كان التقيد والانصياع أمرين لا أطيقهما، بحيث كانا يحملاني على أن أكره السرور ذاته!.. ويُقال إن في تركيا، لدى « المحمديين »، ينطلق في الطرقات عندما يشرف النهار على الطلوع، رجل يدعو الأزواج إلى أن يؤدوا واجباتهم نحو زوجاتهم. وإني لخليق بأن أكون تركيًا غير صالح في هذا الموعد[39].

كذلك كانت لي تلميذات من الطبقة الوسطى، ومنهن واحدة كانت سببًا غير مباشر في تحول في علاقاتي، أرى أن أتحدَّث عنه، ما دمت ملزمًا بأن أروى كل شيء. كانت ابنة بدّال (بقال)، تدعى الآنسة « لار ». وكانت نموذجًا كاملًا لتمثال إغريقي، حتى إننى كنت خليقًا بأن أصفها بأنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي، لو قُدِّر للجمال الصادق أن يوجد بلا روح ولا حياة!.. كان فتورها وبرودها وتجردها من الشعور، تبلغ فيها درجة لا يصدقها العقل. وكان من المستحيل إرضاؤها، كما كان من المستحيل إغضابها، على السواء. وإنى لمقتنع بأنه لو قُدر لامرىء أن يحاول العبث بها، لتركته يفعل، لا عن ميل، وإنما عن بلادة!.. وهكذا كانت أمها - التي لم تشأ لها أن تتعرّض للخطر - لا تفارقها لحظة. ولقد حاولت بغاية جهدها أن توقظ مشاعرها، إذ أتاحت لها دراسة الغناء، وجاءت لها بمدرس شاب كي يعلّمها.. ولكن دون جدوى.. وبينما كان المدرس يسعى لفتنة الابنة، كانت الأم تسعى لفتنة المدرس، ولكن أحدهما لم يكن أكثر توفيقًا من الآخر!.. كانت السيّدة « لار » تجمع إلى نصيبها الطبيعي من الحيوية، ما كان ينبغى لابنتها أن تحرزه! كانت امرأة ذات وجه صغير، يقظ، عابس، تناثرت فيه آثار الجدري. وكانت لها عينان صغيرتان، شديدتا التألق، يشوبهما شيء من الاحمرار - لأنها كانت منحرفة الصحة باستمرار - وكنت أجد عند وصولي، في كل صباح، قهوتي الممزوجة بالقشدة. ولم يفت الأم قط أن تستقبلني بقبلة تجيد طبعها على الفم، فكنت - بدافع من الفضول - أتمنى لو أردها إلى الابنة، لأتبين كيف تتلقاها!.. على أن كل هذا كان يتم على صورة من البساطة وعدم التكلف، بحيث كانت المغازلات والقبلات تأخذ مجراها كالمعتاد، إذا ما كان السيِّد « لار » موجـودًا!.. وكان رب الأسرة رجـلًا طيبًا، وأبًا حقيقيًا لابنته، فما خدعته زوجته يومًا، لأنها لم تكن بحاجة إلى ذلك[40]!

وكنت أتلقى هذه المغازلات بغبائي المعهود، مفسرًا إياها على أنها إمارات للود الصادق!.. على أنني كنت أتضايق أحيانًا، لأن السيِّدة « لار » لم تكن تغفل أداءها قط!.. وكنت إذا مررت خلال النهار بالحانوت دون أن أعرج عليه، يخلق ذلك ضجيجًا. فكنت أضطر حين أكون في عجلة من أمرى إلى أن أدور متخذًا طريقًا أخرى، لفرط يقيني بصعوبة خروجي من لدن السيِّدة كما دخلت!

وهكذا كانت السيِّدة « لار » شديدة الانشغال بي، بالقياس إلى عدم اهتمامي بها. ولقد أثرت فيَّ هذه الحفاوات كثيرًا، حتى أنني تحدَّثت عنها إلى « ماما »، وكأنها أمر غير مستغرب. ولو كان فيها ما يُستغرب لما كنت أقلّ حديثًا عنها، فقد كان كتمان أي سر عن هـذه السيِّدة أمرًا غير ممكن. كان قلبي مفتوحًا أمامها كما هو مفتوح أمام الله!.. لكنها لم تتلق الأمر بمثل ما تلقيته من بساطة، فقـد رأت أن ما كنت أعتبره « مودة »، إنما كان في حقيقته « مغازلات »!.. وحدست أن السيِّدة « لار » رأت من الكرامة ألا تدعني غـرًّا كبيرًا كمـا وجدتني، فسعت - بشتى الطرق - إلى أن تكشـف لي غايتها!.. وكان لدى « ماما » من

البواعث اللائقة بها، ما جعلها ترغب في أن تعصمني من الشراك التي كانت سني وشكلي يعرضاني لها، فضلًا عن أنه لم يكن من الإنصاف أن تتولى امرأة أخرى تعليم تلميذها!

ثم نُصب في طريقي شرك أخطر من المعتاد!.. وبرغم أننى استطعت أن أنجو منه، فإن هذا الشرك نبه « ماما » إلى أن الأخطار التي كانت تهددني دون انقطاع، أصبحت تستوجب كل الاحتياطات التي رأت أن تتخذها!.. ذلك أن السيِّدة كونتة « مانتون » - أم إحدى تلميذاتي - كانت امرأة واسعة الذكاء، عرفت بأنها أوتيت من الخبث ما لا يقل عن ذكائها. وقد تسببت - كما كان يقال - في كثير من المنازعات، منها ما كان ذا عواقب مشئومة على أسرة « دانترمون ». وكانت « ماما » على علاقة بها تكفى لأن تطلعها على أخلاقها، فقد أولعت « ماما » - في براءة - بشخص كانت مدام دى « مانتون » قد بنت عليه آمالًا، فاتهمتها بالعدوان على إيثار كان موجهًا إليها، برغم أن « ماما » لم تفعل.. بل إنها لم تسع إلى هذا الإيثار، ولم تتقبله!.. ولكن منذ ذلك الحين عمدت مدام « مانتون » إلى تدبير عدَّة مكائد لغريمتها، لم يُقدَّر لأية مكيدة منها أن تنجح. وسأروى واحدة من أكثرها إثارة للضحك، على سبيل المثال: فقد كانتا مرة في الريف مع عدد من السادة - من الجيران - بينهم الشخص المذكور، الذي كانت مدام دى « مانتون » تعلِّق عليه آمالها. وفي أحد الأيام، قالت هذه لأحد السادة إن مدام دي فاران لم تكن سوى امرأة متحذلقة، وأنها عديمة الذوق، لا تحسن ارتداء ثيابها، وتحرص على أن تغطى عنقها كنساء الطبقة الوسطى. فقال السيِّد، الذي كان مولعًا بالمزاح: « أما عن هذه النقطة الأخيرة، فإن لديها عذرًا، إذ أنني أعرف أن لديها ندبة كبيرة على شكل الفأر البشع، مطبوعة على صدرها، وهي شديدة الشبه بالفأر، حتى ليقال إنها تجرى! ».. والحب - كالبغضاء - يوحي بالتصديق، لذلك اعتزمت مدام « دى مانتون » أن تستغل هذا الاكتشاف. وفي ذات يوم، بينما كانت « ماما » تلعب الورق مع الشخص الذي جحد إيثار السيِّدة، إذا بهذه تنتهز الفرصة فتتسلل إلى ما وراء غريمتها، ثم توشك أن تقلب مقعدها لتزيح وشاحها عن عنقها.. وبدلًا من أن يرى السيِّد فأرًا كبيرًا، رأى شيئًا على النقيض تمامًا، لم يكن نسيانه بأسهل من مشاهدته!.. وهذا ما لم يكن في حسبان السيِّدة!

وبرغم أني لم أكن بالشخصية التي تشغل بال مدام « دى مانتون »، التي لم تكن تبغى حولها سوى اللامعين، فإنها أولتني بعض الاهتمام، لا من أجل شكلي - الذي لم يشغلها البتة بالتأكيد - وإنما من أجل ذكائي المزعوم، الذي كان من المحتمل أن يجعلني ذا نفع لها.. فلقد كانت محتدمة الميل للهجاء، وكانت تحب نظم الأغاني والأشعار في هجو الذين لا يروقون لها.. فلو أنها وجدت لديَّ كفاءة كافية لمعاونتها في نظم أشعارها، واستعدادًا كافيًا لكتابتها، لكان في وسعنا - فيما بيننا - أن نقيم (شامبيرى) ونقعدها!.. وكان في الوسع طبعًا الاهتداء إلى مصدر هذه الهجائيات، وإذ ذاك كانت السيِّدة « مانتون » كفيلة بأن تتنصل من المسألة بأن تضحى بى، فيُلقي بي في السجن.. ولعلني كنت أمكث فيه بقية عمري، لأننى قمت بدور « فيبوس »41 مع السيدات!

لكن شيئًا من كل هذا لم يحدث - لحسن الحظ - فقد استبقتني مدام « دى مانتون » مرتين أو ثلاثًا للغداء، لتستدرجني في الحديث، فألفت أنني لم أكن سوى أبله! وكنت - أنا نفسي - أشعر بذلك، وأتحسر له، وأغبط صديقي « فينتور » على مواهبه، في حين أنني كنت جديرًا بأن أحمد غبائي إذ أنقذني من المخاطر! وهكذا ظللت - بالنسبة لمدام مانتون - المدرس الذي يلقن ابنتها الموسيقى، لا أكثر.. ولكني عشت في أمان، وظللت مرغوبًا في (شامبيرى). وهذا أفضل من أن أكون ذكيًا ـ في نظرها ـ وأفعوانًا في نظر بقية القوم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذ كان الأمر على هذه الشاكلة، فقد رأت « ماما » - لانتزاعي من مخاطر شبابي - أن الوقت قد حان كى تعاملنى كرجل، وهذا ما فعلته.. ولكن، بأغرب طريقة فذَّة خطرت لامرأة

في ظروف مشابهة: فقد وجدتها أكثر جدية في مسلكها، وأكثر أدبًا في قولها، مما عهدتها.. واستبدلت - للفور - بالمرح الماجن الذي اعتادت أن تمزجه بتعاليمها، لهجة متحفظة على الدوام، لم تكن مألوفة ولا قاسية، ولكنها كانت تشبه التمهيد لشرح ما!.. وبعد أن بحثت عبثًا، في أطواء نفسي، عن سبب لهذا التحول، سألتها.. وكان هذا ما تنتظره، فإذا بها تقترح أن نخرج للنزهة في البستان الصغير في اليوم التالي، فذهبنا إليه منذ الصباح. وكانت قد اتخذت من الإجراءات ما يكفل بقاءنا وحيدين طوال النهار الذي استغلته في إعدادي للنعم التي شاءت أن تغدقها عليَّ.. لا بالمغازلات والإغواء - كما تفعل أية امرأة أخرى - وإنما بأحاديث مفعمة بالعاطفة والحكمة، قصدت بها إلى تعليمي أكثر مما قصدت إلى إغوائي، وكانت تنفذ إلى قلبي أكثر مما تنفذ إلى حسى! ومع ما كانت عليه هذه الأحاديث من بهاء ونفع، وبالرغم من أنها لم تكن سوى أحاديث فاترة حزينـة، إلا أنني لم أولها كل ما كانت تستحق من انتباه، ولا نقشتها على ذاكرتي كما فعلت في كافة الأوقات الأخرى.. بل إن استهلالها - ذلك المسلك التمهيدي - بلبل فكرى، فجعلني أحلم وأشرد - بالرغم مني - وهي تتكلّم.. وغدوت أقلّ اهتمامًا بما كانت تقوله، منى بالبحث عما كانت تبغى الوصول إليه!.. وما أن فهمت - وهو ما لم يكن بالسهل عليَّ - طرافة الفكرة التي لم تجل أبدًا بخاطري، طيلة الوقت الذي عشته معها، حتى تملكتني الفكرة تمـامًا، فلم أعد قادرًا على التفكير فيما كانت تقوله لي « ماما ».. لم أعد أفكر إلا فيها هي وحدها، دون أن أنصت إليها!

إن الرغبة في حمل الشباب على الإصغاء لما يُراد قوله لهم، بإطلاعهم مقدمًا على غاية جد مشوقة لهم، أسلوب معكوس، وإن كان جد مألوف لدى المعلمين، حتى لقد عجزت - أنا نفسي - عن تحاشيه في كتابى « اميل ». فإن الشاب إذ يؤخذ بالغاية التي يوعد بها، يشغل بها وحدها، ويتخطى في تسرّع أحاديثك التمهيدية، ليصل مسرعًا منذ البداية إلى الغاية التي تسعى به إليها في بطء بالغ - حسبما يرى هو - أما إذا أريد الاستحواذ على انتباهه، فيجب ألا يمكن من أن ينفذ إلى الغاية مقدمًا، وهذا ما أساءت « ماما » تقديره. فبطريقة فذَّة تتمشى مع عقلها المنسق المنتظم، عمدت إلى احتياط لا طائل منه قط، إذ فرضت شروطًا. ولكني لم أكد أتبين جزاء هذه الشروط، حتى انصرفت عن سماعها، وبادرت إلى الموافقة على كل شيء.. بل إننى لأشك في وجود رجل في الدنيا يقوى - مهما تكن أمانته وجلده ـ على المساومة في مثل هذه الحال، وفي وجود امرأة واحدة تقبل أن تغفر له ذلك إذا فعله!.. وكنتيجـة لطريقتها الفريدة، وضعت « ماما » في هذا الاتفاق أشد قيود أدبية، ومنحتني ثمانية أيام أفكّر خلالها.. وهي مهلة أكّدت لها - كذبًا وزورًا - أنني لم أكن بحاجة إليها.. فالواقع أنه مما زاد من غرابة الموضوع، وبلغ بها ذروتها، أنني كنت جد مغتبط بتقبّل هذا المشروع، بقدر ما أذهلتني طرافته، وبقدر ما شعرت بانقلاب في أفكاري، كان يتطلّب منى وقتًا لتنظيمها!

ولقد يُخال أن هذه الأيام الثمانية بدت لي كثمانية قرون، ولكن الأمر كان على النقيض، فلقد تمنيت لو أنها امتدت فعلًا إلى هذا الأجل!.. ولست أدرى كيف أصف حالي، فقد كانت لونًا من الجزع الممتزج بنفاد الصبر، إذ كنت خلالها جزعًا مما كنت أتوق إليه، إلى درجـة أننى فكرت جديًّا - في بعض الأوقات - في وسيلة مهذبة لتفادي الهناء الموعود!.. وتصور طباعي المتهورة النزقة، ودمى الفائر، وقلبي المنتشي بالحب، وصحتى الموفورة، وسنى!.. وتذكّر أنني في هذه الحال، وفي ظمئي إلى النساء، لم أكن قد مسست بعد واحدة منهن!.. ومن هنا فإن الخيال، والحاجة، والغرور، والفضول، تجمعت كلها لتذكي في نفسي رغبة نهمة متأجّجة في أن أكون رجلًا، وفي أن أثبت أننى رجل!.. يضـاف إلى ذلك - وهـذا أمـر يجب ألا يُغفل ـ أن تعلّقى الحنون، المحتـدم، بماما، كان بعيدًا عن التضاؤل، بل إنه راح يزداد اتقادًا يومًا بعد يوم، حتى لم أعد أهنـا إلا بقـربها، وحتى أنني لم أكن أفارقها إلا لأفكر فيها، وحتى أن قلبي كان مترعًا، لا بطيبتها ولطفها فحسب، وإنما بجنسها، وشكلها، وشخصها.. وبإيجاز: بها، بجميع الاعتبارات التي كانت تجعلها عـزيزة عليَّ!.. ولا يخطرن

بالبال أنها كانت قد اكتهلت، أو بدت لي مكتهلة لأنني كنت أصغرها بعشر أو اثنتي عشرة سنة، فالواقع أنها لم تتعرَّض إلا لتغيير بسيط، بل أنها - في نظري - لم تتغير البتة خلال السنوات الخمس أو الست التي كنت أغيب فيها في نوبات من النشوة، من سحر النظرة الأولى!.. كانت تبدو لي فاتنة دائمًا، وكان كل امرىء يعتبرها كذلك، في تلك الآونة.. كل ما هنالك أن قوامها وحده ازداد بدانة، بعض الشيء. وفيما عدا ذلك، فإنها احتفظت بنفس العين، ونفس البشرة، ونفس الصدر، ونفس الملامح، ونفس الشعر الأشقر الجميل، ونفس المرح.. وبكل شيء، حتى صوتها، ذلك الصوت الشاب ذي الجرس الفضي، الذي كان له دائمًا تأثير كبير على نفسي، حتى أنني لا أستطيع - إلى اليوم - أن أسمع رنين صوت عذب لفتاة شابة، دون أن أتأثر به!

ومن الطبيعي أن الأمر الذي كان لي أن أخشاه خلال انتظار الظفر بامرأة حبيبة كهذه، هو التعجّل وعدم القدرة على ضبط شهواتي بدرجة كافية، فأصبح خيالي مسيطرًا عليَّ. ولسوف ترى أن مجرَّد التفكير في بعض الأفضال الطفيفة التي كانت ترتقبني بالقرب من الحبيبة - في سن متقدمة ـ كانت تلهب دمي إلى الدرجة التي يستحيل عليَّ عندها أن أجتـاز دون عناء الفارق القصير الذي كان يفصل بيني وبينها. فكيف كان يتسنى لي - وأنا في عنفوان الشباب - أن أشعر بشوق قليل إلى المتعة الأولى؟.. وكيف قُدِّر لي أن أرقب ساعة القرب، بألم أكثر مني بابتهاج؟.. كيف حدث أنني شعرت بنفور وخوف تقريبًا، بدلًا من أن أشعر بالمباهج التي كانت خليقة بأن تسكرني؟ لا شك في أنني لو كنت قد استطعت الفرار من هنائي - بطريقة مهذبة - لفعلت بكل قلبي.. ولقد وعدت بأن أروى عجائب في تاريخ تعلقي بها، وهذه ـ بلا شك ـ عجيبة لم تكن متوقعة إطلاقًا!

ولا شك أن القارىء يرى - في استنكار - أنها وقد استسلمت لرجل غيرى، قد حطّت من قدرها في نظري وهي تشركني مع هذا الرجل، وأن الشعور بعدم التقدير لها خليق بأن يكون قد هدأ من سورة تلك المشاعر التي ألهمتنيها.. ولكن القارىء يخطيء في هذا الظن، فإن هذا الإشراك كان قاسي الإيلام لي حقًّا.. وكان هذا راجعًا إلى رقة مشاعري بطبيعتها، بقدر ما كان ناشئًا عن أننى وجدت الأمر غير لائق بها ولا بي في الواقع. وبوسعي أن أقسم بأنني لم أكن مشغوفًا بحبها يومًا قدر ما شغفت عندما كنت قليل الرغبة في الظفر بها، فلقد كنت أعرف عن قلبها الطاهر، ومزاجها الجليدي ما يعصمنى من أن أظن لحظة أن للذة الحسية دخلًا في هذا الإقدام منها على أن تمنحني نفسها!.. وإنما كنت مقتنعًا - تمام الاقتناع - بأن مجرَّد الاهتمام بتجنيبي مخاطر لم يكن من سبيل سوى هذا لتفاديها، وبصوني من أجل نفسى وواجباتي فحسب، هو الذي جعلها تأخذ على عاتقها « واجبًا » لم تكن تنظر إليه نظرة غيرها من النساء، كما سأبين فيما بعد. ولقد أشفقت عليها، كما أشفقت على نفسي، ووددت لو أقول لها: « لا يا ماما، لا ضرورة لهذا، سأردع نفسي بدون هذا ».. ولكني لم أجسر، أوَّلًا: لأن هذا لم يكن بالشيء الذي يُقال، وثانيًا: لأنني شعرت في قرارتي بأن هذا غير صحيح، وأنه ليست ثمة سوى امرأة واحدة تملك - في الواقع - أن تصونني عن بقية النساء، وأن تعصمنى من الغوايات. وكنت - دون أن أشتهى الظفر بها - جد مسرور لأنها كانت تصدّني عن اشتهاء الظفر بالأخريات، إلى درجة أنني رحت أعتبر كل ما يشغلني عنها لونًا من النحس والشقاء!

ولقد كانت ألفتنا الوثيقة، ومعاشرتنا البريئة، أبعد من أن توهن مشاعري نحو « ماما »، بل إنها عزَّزتها، ولكنها - في الوقت ذاته ـ اتجهت بها اتجاها جديدًا، فجعلتها أكثر وجدًا، وربما أكثر هيامًا، ولكنها كذلك أقل شهوة. وبحكم مناداتي إياها بماما، وبحكم معاملتها بألفة الابن، اعتـدت أن أعتبر نفسي بمثابة ابنها!



م مناداتي اياها بماما ، وبحكم معاملتها بالفة الابن ، اعتدت أن
بمثابة ابنها !

وأعتقد أن هذا كان السبب الحقيقي في قلة تعجلي للظفر بها، برغم أنها كانت جد حبيبة لديَّ. وإني لأذكر بجلاء أن أحاسيسي الأولى كانت أكثر شهوانية، دون أن تكون نشيطة متحفزة. فكنت في (أنيسي) نشوانًا، ولكني لم أعد كذلك في شامبيرى. ومع أنني ظللت أحبها دائمًا بكل وجد ممكن، إلا أننى ازددت حبًّا لها لذاتها، كما غدوت أقل حبًّا لها من أجل نفسي، أو أنني لم أعد - على الأقل - أسعى إلى هنائي بقدر ما كنت أسعى إلى استمتاعى بقربهـا. كانت - بالنسبة لي - أكثر من أخت، وأكثر من أم، وأكثر من صديقة، بل وأكثر من عشيقة، ولهذا السبب بالذات، لم تكن عشيقة!.. وبإيجاز: كنت أحبها إلى درجة تجعلني لا أشتهيها.. وهـذا أوضح ما في آرائي وأفكاري!

وحان أخيرًا اليوم الذي كان مرهوبًا، أكثر منه مرغوبًا!.. ووعدت بكل شيء، فلم أنكث بوعودي. ولقد عزَّز قلبى عهودى دون أن يطمع في جزاء. ومع ذلك فإنني ظفرت بالجـزاء. ورأيتني للمرة الأولى في أحضان امرأة، وامرأة كنت أعبدها.. أفكنت سعيدًا؟.. لا!.. لقد تذوّقت اللذة، ولكن شعورًا بأسى طاغ سمم سحرها، فكنت وكأنني ارتكبت جريمـة الزنا مع إحدى المحرمات.. ولقد بللت صدرها بدموعي مرتين أو ثلاثًا، وأنا أضمها بين ذراعَيّ في وجـد.. أما هي، فلم تكن حزينة ولا مرحة، وإنما كانت حنونًا وساكنة. ولما كانت على قدر ضئيل من الحس الشهواني، ولم تكن تنشد اللذة الحسية قط، فإنها لم تشعر بالمتعة، ولا عانت الندم إطلاقًا!

وإني لأكرِّر أن كل زلاتها ترتبت على أخطائها، وليس عن شهواتها قط.. كانت طيبة المنبت، وكان قلبها طاهرًا، وكانت تحب الأمور الشريفة، كما كانت كل ميولها مستقيمة صالحة، وذوقها رقيقًا.. ولقد نشأت على لطف الشمائل، وهو ما كانت تحبه دائمًا، وإن لم تتبعه قط، لأنها بدلًا من أن تنصت إلى قلبها - الذي كان يرشدها إلى الصواب ـ كانت تصغى إلى عقلها الذي كان يخطيء في إرشادها!.. وعندما كانت المبادىء الزائفة تضللها، كانت المشاعر الصادقة تكذّب هذه المبادىء دائمًا. ولكن ماما كانت - لسـوء الحظ - تخدع نفسها بالفلسفة، وقد أدّت المبادىء الخلقية التي استمدتها منها، إلى إفساد المباديء التي كان قلبها يمليها عليها!

وكان السيِّد « دى تافيل » - عشيقها الأوَّل - هو أستاذها في الفلسفة، وكانت المبادىء التي لقنها إياهـا هي تلك التي وجدها ضرورية لإغوائها! فلقد وجدها وفية لزوجها ولواجباتها، فاترة دائمًا، مفكرة، منيعة على الأحاسيس الشهوانية، فعمد إلى مهاجمتها بالسفسطة والمغالطات. وانتهى إلى إقناعها بأن واجباتها - التي كانت متشبّثة بها - لغو من تعاليم الدين التي وُضعت خصيصًا لتسلية الأطفال، وأن الاتصال الجنسي - في حد ذاته - هو أقل التصرفات أهميـة، وأن الوفاء الزوجي محض التزام ظاهرى، كل قيمته الخلقية مجرَّد رأى!.. وأن راحة الأزواج هي الأصل الوحيد لواجبات النساء، ومن ثم فإن الخيانات المجهولة - التي لا يكون لها أثر لدى مَن تُرتكب ضدهم، لأنهم لا يدرون بها - لا أثر لها على الضمير كذلك!.. ومجمل القول أنه أقنعها بأن الأمر لا قيمة له في حد ذاته، وأنه لا يكون ذا شأن إلا إذا افتضح، وأن كل امرأة تبدو فاضلة إنما تدين بمظهرها الفاضل لهذا السبب وحده. وهكذا وصل الوغد إلى غايته، فأفسد عقل طفلة، ولكنه لم يقو على إفساد قلبها!.. ولقد عوقب على ذلك بأعتى ألوان الغيرة، إذ اعتقد أنها كانت تعامله كما علَّمها أن تعامل زوجهـا! ولست أدرى ما إذا كان على خطأ في ذلك، فإن الراهب « بيريه » خلفه في علاقته بها. إنما الذي أدريه، هو أن الطبع البارد الذي أوتيته هذه المرأة، والذي كان خليقًا بأن يعصمها من هـذا المسلك، كان هو عين ما منعها - بعد ذلك - من أن تنبذه!.. فما قُدِّر لها أن تدرك أن الناس تخلع أهمية على الشيء الذي لا قيمـة له لديهـا، وما مجدت قط - باسم الفضيلة - زهدًا لا يكبدها سوى جهد بسيط!

على أنها لم تسـيء قط استغلال هذه المبادىء الزائفة من أجل نفسها، وإنما استغلتها من

أجل الغير، وكان ذلك، من جراء نظرية تعادل تلك المبادىء زيفًا، وإن تمشت مع ما فُطر عليه قلب السيِّدة من طيبة. فلقد كانت تعتقد دائمًا أن لا شيء يربط أي رجل بامرأة سوى ظفره بأربه منها. ومع أنها لم تكن تحب أصدقاءها إلا بدافع من المودة، فإن مودتها كانت من اللطف والرقة بحيث أنها كانت تستخدم كل وسيلة ممكنة لتوثق ارتباط هؤلاء الأصدقاء بها.. والغريب في الأمر أنها كانت توفق في بلوغ غايتها باستمرار تقريبًا. فقد كانت حبيبة حقًّا، حتى أن المرء كلما عظمت الألفة التي يعيش عليها معها، ازداد اكتشافًا لأسباب جديدة تدفعه إلى حبها. وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة، هو أنها بعد ضعفها الأوَّل، لم تكن تخلع أفضالها الناعمة قط إلا على البائسين. وكان اللامعون يفقدون - سدى - العناء الذي يتكبدونه للوصول إليها، ولكن.. إذا ما بدأت تشعر بالإشفاق يومًا على رجل، فلا بد من أن يكون هذا الرجل قليـل الجدارة بالحب، إذا هي لم تنته إلى أن تحبه!.. وكانت إذا أقدمت على اختيار أشخاص يليقون بها، لا تصدر في اختيـارها عن الميول الخسيسة التي لم تكن قط تقارب فؤادها النبيل، بل إنها لم تكن تصـدر إلا عن خلقهـا المفرط الكرم، المفرط الرحمـة، المفرط الحنـان، المفرط الحساسية.. هذا الخُلق الذي لم تكن تحكمه دائمًا بحكمة وبصيرة كافيتين!

وإذا كانت بعض المبادىء الزائفة قد غرَّرت بها، فكم من مبادىء رائعة اعتنقتها، فلم تتخل عنهـا قط!.. وبكم من الفضائل كفَّرت عن نواحي ضعفها، إذا جاز للمرء أن يُطلق هذا الاسم على أخطاء لم يكن للإدراك فيها نصيب يذكر!.. بل إن هذا الرجل الذي غشها في ناحية، أحسن تعليمها في ألف ناحية أخرى. ثم إن عواطفها ـ التي لم تكن متأججة مندفعة - كانت تتيح لها أن تتبع دائمًا أضواء العقل، فكانت تسلك جـادة الصواب عندما لا تضللها السفسطة.. كانت دوافعها حميدة، حتى في أغلاطها، وكانت آراؤها الزائفة كفيلة بأن تدفعها إلى الزلل، ولكنها لم تكن تقوى على الزلل عن رغبة وطواعية.. كانت تكره الرياء والكذب، وكانت منصفة، عادلة، شفوقة، منكرة لذاتها، وفية لوعدها ولأصدقائها ولواجباتها - التي كانت تعترف بأنها واجبات - عاجزة عن الانتقام والبغضاء، دون أن تكون لديها أقل فكرة عن أن في الصفح أية ميزة أو فضيلة!.. وأخيرًا، لو أننا عدنا إلى تلك الخصال التي لم يكن لها فيها عذر يُذكر، نجد أنها لم تكن تدرك كيف تقدِّر قيمـة الأفضال الناعمة التي كانت تخلعها على مَن يقع عليهم اختيارها، ولا كانت تتخذ منها مادة للاتجار أو المساومة.. كانت سخية في إغداق هذه الأفضال، ولكنها أبدًا لم تكن تبيعها، بالرغم من أنها كانت في شغل دائمًا بموارد العيش.. وإني لأجرؤ على القول بأنه إذا كان سقراط قد استطاع أن يحترم « أسباسيا »[42] فإنه كان قمينًا بأن يحترم مدام دى فاران!

وإني لأعرف مقدمًا أننى إذ أصفها بالشخصية الحكيمة، والطبيعة الباردة، سوف أُتهم بالتناقض كالمعتاد، وبحق. ولكن من الجائر أن الطبيعة قد أخطأت، وأن اجتماع هاتين الخلتين ما كان يجب أن يوجد. ولكني لا أعرف سوى أنه قد وجد فعلًا!.. إن كل الذين عرفوا مدام دى فاران - ومنهم عدد كبير لا يزال على قيد الحياة - يعلمون أنها كانت كذلك. بل إننى لأجرؤ على أن أضيف أنها لم تعـرف سوى متعة واحدة من المتع الحقيقية في الحياة، وتلك هي: تيسير الاستمتاع بالحياة لأولئك الذين كانت تحبهم. ومن المباح لكل امرىء أن يناقش ما تقدَّم بحرية تامة، وأن يثبت عن علم ودراية أنه غير صحيح. إن مهمتي هي أن أقول الحق، ولكن ليس أن أحمل الناس على تصديقه!

ولقد ألممت شيئًا فشيئًا بكل الذي قلته، خـلال الأحاديث التي أعقبت اتحادنا[43]، والتي كان لها وحدها الفضل في جعل هذا الاتحاد عذبًا. ولقد كانت على حق إذ داخلها الأمل في أن يكون صنيعها ذا نفع لي، فقد أفدت منه في تعلمى فوائد كثيرة: فلقد كانت « ماما » - حتى ذلك الوقت - تتحدَّث إليَّ كما لو كنت طفلًا، ولكنها بدأت تعاملنى كرجل، فحدَّثتني عن نفسها. وكان كل ما قالته لي مشوقًا ومثيرًا لاهتمامي، فتأثَّرت به إلى درجة أنني كنت -

إذا ما استعدته لنفسي - أخرج من اعترافاتها بفوائد تفوق كل ما خرجت به من دروسها. ونحن عندما نشعر أن محدثنا إنما يتحدَّث من فؤاده، تتفتح قلوبنا لتلقى اعترافاته.. ولن يقدر لكل ما لدى أي مدرس من علم، أن يصل إلى مرتبة الثرثرة العاطفية الناعمة التي تفيض من امرأة ذكية ظفرت بولاء المرء وتعلقه!

ولقد هيأت لها ظروف الألفة الوثيقة التي عشت فيها معها، فرصة تكوين رأي عنى ينطوى على مزيد من التقدير عن ذي قبل.. كانت ترى أنني - على الرغم من خجلي وتقاعسى - أهل لأن أدرب على الحيـاة، وأنني لو ظهرت يومًا في مستوى معين، لتسنى أن أصبح في مركز يمكنني من أن أشق طريقي. وبهذه الفكرة، كرست نفسها لا لتشكيل وعيي فحسب، وإنما لصوغ مظهري ومسلكي كذلك، حتى تجعلني جـديرًا بالحب وبالتقدير معًا. وإذا صح أن النجاح في الدنيا يقترن بالفضيلة - وهو ما لا أؤمن به من ناحيتي - فإنني مقتنع، على الأقل، بأنه لم تكن ثمة وسيلة تؤدى إلى مثل هذه الغاية سوى تلك التي اتخذتها « ماما » ورغبت في أن تلقنني إياها!.. فلقد كانت مدام دى فاران تفهم الجنس البشري، وتفهم - إلى درجـة عالية - فن التعامل مع الناس دون خداع أو تهور، ودون غش أو إساءة، ولكنها كانت تلقن هذا الفن بشخصيتها أكثر منهـا بدروسها، وكانت أكثر معرفة بممارسته منها بشرحه، وكنت أنا - دون رجال العالم طرًّا - أقلّهم قابلية لأن أتعلّمه!.. ومن ثم فقد كانت محاولاتها - في هـذا الاتجاه - جهودًا مضيعة، وكذلك كان حال كل ما تجشمته لتزودني بأساتذة للمبارزة والرقص. ومع أننى كنت لدن العود، حسن القوام، إلا أنني لم أتعلَّم قط كيف أرقص، ولو لدقيقة واحدة، فلقد اعتدت - بفضل البثور (الكاللو) - أن أسير على كعبي قدمى، وهي عادة لم يستطع « روش » أن يشفيني منها. وبالرغم من خفة مظهرى، فإنني لم أكن قادرًا يومًا على أن أقفز عبر حفرة عادية. وكانت حالي أنكي في مدرسة المبارزة. فقد ظللت - بعد ثلاثة أشهر من الدراسة - مضطرًّا إلى أن أقتصر على الصد والمراوغة، بعيدًا عن أن أقوى على الهجوم.. كما أنني لم أوت قط رسغًا لينة أو ذراعًا ثابتة، بحيث تحتفظ بالشيش كلما حلا للأستاذ أن يطوح بها. أضف إلى ذلك أننى أوتيت نفورًا قاتلًامن هذه الرياضة، ومن المدرس الذي كان يحاول أن يعلمنيها. فما آمنت قط بأن من المستساغ الفخر بفن قتل أي إنسان!.. ولكي يدخل المدرس علمه الواسع في ذهني، اعتاد ألَّا يشرحه إلا بمقارنات مقتبسة عن الموسيقى، التي لم يكن يلم بشيء منها، فوجد أوجهًا لتشابه عجيب بين أبعاد الثلث والربع[44]، وبين المسافات الموسيقية التي تحمل الاسم ذاته. وكان إذا أراد أن يقوم بحركة خادعة، دعاني إلى أن أنتبه إلى DIESE[45]، لأن النغمات الحادة كانت تُسمى قديمًا FIENTES[46].. وإذا أراد أن يطوح بشيشي من يدى، قال ضاحكًا إن هذه « وقفة ».. وقصارى القول، أنني لم أر في حياتي متعالمًا[47] لا يطاق، أكثر من هذا المسكين، بريشته وصدارته الجلدية..

ومن ثم فإن تقدمي في تدريباتي كان بسيطًا، حتى أنني لم ألبث أن هجرتها لمجرَّد كراهيتي لها، ولكني أحرزت تفوقًا في فن أكثر نفعًا، هو: القناعة بحظى، وعدم الطمع في نصيب أشد بريقًا، كنت قد بدأت أشعر أنني لم أخلق له!.. وإذ كنت منصرفًا بكل نفسي إلى الرغبة في إتاحة حياة سعيدة لمامًا، فإنني كنت أحس دائمًا بمزيد من الغبطة في قربها.. ولما كانت دروسي الموسيقية كثيرًا ما تضطرني إلى البعد عنها لأهرع إلى المدينة، فإني بدأت - برغم شغفي بالموسيقى - أشعر بضيق من هذه الدروس!

ولست أدرى ما إذا كان « كلود آنيـه » قد لاحظ توثق علاقتنا، وعندي ما يحملني على الاعتقاد بأن هذا لم يخف عليه، لقد كان فتى شديد الذكاء، ولكنه كان شديد التكتم، لا يتحدَّث قط بما يناقض تفكيره، بيد أنه لم يكن يبوح بهذا التفكير دائمًا. ومع أنه لم يبد أتفه بادرة عن علمـه بالأمر، إلا أنه أظهر هذا العلم، بمسلكه.. وما كان هذا المسلك صادرًا عن خسـة نفس، وإنما عن اعتناق لمبادىء سيدته، مما لم يكن يملك معه أن يستهجن تصرفها

وفقًا لهذه المبادىء. ومع أنه كان أصغر منها سنًّا، إلا أنه كان من النضوج والوقار، بحيث أنه نظر إلينا كما لو كنا طفلين جديرين بالإشفاق والتسامح. بينما رحنا ننظر إليه كرجل محترم، نكن له تقديرًا ومراعاة.. وما أدركت مدى العلاقة التي كانت بينه وبينها، إلا بعد أن خانته. ولما كانت تعلم أنني لم أكن أفكر إلا بفكرها، ولا أشعر إلا بشعورها، ولا أتنفس إلا عن طريقها، فقد أطلعتني على مدى حبها له، حتى أكن له نفس المحبة، وكانت أقلّ إسهابًا في بيان ودها، منها في بيان تقديرها له، فقد كان هذا هو الشعور الذي أستطيع أن أشاركها إياه كل المشاركة. وكم من مرة هفت بقلبينا - أنا وهو - وجعلتنا نتعانق باكيين، إذ راحت تقول لنا إننا لازمان معًا لإسعاد حياتها!.. ألا ليت اللائي يقرأن هذا لا يبتسمن في خبث!.. فإن طباع السيِّدة كانت تجعل هذه الضرورة أمرًا لا مرية فيه.. كانت ضرورة نابعة عن فؤادها فحسب!

وهكذا قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض!.. كانت جميع أمانينا، وميولنا، وقلوبنا مشتركة، وما كان أي منها يتجاوز نطاق هذه الحلقة الصغيرة. وأصبح اعتياد العيش معًا، والحياة في معزل عن الدنيا، من القوة بحيث أن كل شيء كان ينقلب في أنظارنا إذا غاب واحد من ثلاثتنا عن المائدة، أو شاركنا الوجبات رابع!.. وبالرغم من الروابط الخاصة التي كانت بيننا، فإن الخلوات بين أي اثنين منا لم تكن في حلاوة اجتماع ثلاثتنا.. وكان الذي حال دون أي توتر بيننا هو الثقة البالغة المتبادلة، والذي عصمنا من الملل هو أننا كنا جد مشغولين، إذ كانت « ماما » لا تنفك تبتكر المشروعات ولا تكف عن العمل، ولا تسمح لأي منا بأن يركن إلى الخمول.. كما كان لدى كل منا من العمل الخاص ما يكفي لملء أوقاتنا. وفي رأيي أن البطالة ليست أقل من الوحدة إفسادًا للجماعة!.. وليس أدعى لتضييق الأفق، ولا أكثر مدعاة للتفاهة، واللغو، والأحقاد، والمنغصات، والأكاذيب، من أن تمكث جماعة - إلى الأبد - بين جدران غرفة واحدة، متقابلين، وليس لديهم من عمل سوى الثرثرة باستمرار!.. فإنه إذا كان لدى كل امرىء ما يشغله، فهو لن يتكلّم إلا إذا كان لديه شيء يُقال. أما إذا لم يكن لديه عمل، فإنه لا يجد أمامه سوى الكلام بلا انقطاع، وهذا أدعى الأمور للضجر وأخطرها!.. بل إني لأجرؤ على أن أذهب إلى أبعد من هذا، فأقول إنه لابد - لجعل أية صحبة ملائمة حقًّا - من أن يقوم كل امرىء لا بعمل أي كان، فحسب، وإنما بعمل يتطلّب قدرًا من الاهتمام. فالحياكة مثلًا ليست عملًا، ومن ثم فإن مهمة تسلية امرأة تقوم بالحياكة، تتطلّب عناء يعادل ما تتطلبه تسلية امرأة تجلس مكتوفة اليدين. أما حين تطرز، فإن الأمر يختلف، إذ أن التطريز يشغلها بدرجة تكفى لملء فترات الصمت. والمزعج، المضحك، هو أن ترى في مكان ما مثلًا اثني عشر أخرق ثقيل الدم، يقومون، ويجلسون، ويغدون، ويروحون، ويدورون على أعقابهم، ويحرِّكون التحف - التي على رف المدفأة - مائتي مرة، ويعتصرون أمخاخهم ليبقوا على تيار الكلمات دافقًا لا ينضب.. ما أبدعها من مهمة!.. مثل هؤلاء - أيًّا كانوا - يصبح بعضهم عبئًا على بعض، وعلى أنفسهم! ولقد اعتدت - حين كنت في (موتيير) - أن أذهب لصنع الأشرطة المجدولة في دور الجيران.. ولو أننى عدت إلى ذلك المجتمع، لحملت في جيبي دائمًا « البيبلوكة »[48]، وللعبت بها طوال النهار، لأشغل بها عن الكلام عندما لا يكون لديَّ ما يقال. ولو أن كل امرىء فعل ذلك، لأصبح الناس أقل شرًّا، ولأصبحت مجتمعاتهم أسلم، وأحب، على ما أعتقد! وقصارى القول، أن دع الماجنين يضحكون، ولكني أرى أن المذهب الخلقي الوحيد الذي في متناول القرن الحاضر، هو مذهب « البيبلوكيه »!

وإلى جانب هذا، لم يكن لدينا وقت كاف للتحوط ضد السأم عندما نكون معًا، فإن الزائرين المزعجين كانوا يسببون لنا من السأم ما يجعلنا لا نشعر بشيء منه إذا ما خلا بعضنا إلى بعض!.. ولم يكن الضيق ـ الذي اعتادوا أن يوحوا إليّ به من قبل - قد تضاءل. وكل ما كان هنالك من اختلاف، هو أنني لم أعد أجد وقتًا كافيًا لأن أسلم نفسي إليه!.. ولم تكن « ماما » المسكينة قد فقدت شيئًا من شغفها القديم بالمشروعات والخطط، بل إن الأمر كان على

النقيض، فبازدياد إلحاح حاجاتها المعيشية، أخذت تزداد إغراقًا في المشروعات لسد هذه الحاجات.. وبقدر ما قلّت مواردها الراهنـة، ازدادت تدبيرًا لها في أوهامها بشـأن المستقبل. ولم يزدها مرور السنين إلا إغراقًا في هذا التهوس، وبقدر ما كانت تفقد من ميل إلى ملاذ الدنيا والشباب، أخذت تعوضه بميـل إلى الأسرار والخطط. فلم يكن البيت ليخلو قط من المشعوذين، والصناع، والكيمياويين، والمغامرين على اختلاف أنواعهم، الذين كانوا يبعثرون الثروات بالملايين، وينتهون إلى أن يصبحوا بحاجة إلى دينار!.. ولم يكن أي واحد منهم ليخرج من لدنها صفر اليدين، وقد كان من بواعث ذهولى أنها كانت قادرة - لوقت طويل - على مثل هذا الإسراف دون أن ترهق مواردها، أو تستنفد صبر دائنيها!

كان المشروع الذي شغلها أكثر من أي شيء آخـر، في الوقت الذي أتحدَّث عنه، والذي لم يكن أبعد المشروعات التي صاغتها عن المعقول، هو إنشاء حديقة ملكيـة للنباتات في (شامبيرى)، يُعين لها مدير! وفي وسع المرء أن يفهم مقدمًا مَن الذي كان موعودًا بهذا المنصب. فإن موقع هذه المدينة وسط جبال (الألب) كان جد مناسب للتجارب النباتية، ولما كانت « ماما » تحاول دائمًا أن تساعد كل مشروع بآخر، فإنها قرنت هذا المشروع بمشروع كلية للصيدلة، الأمر الذي بدا جد مفيد - حقًّا - لمنطقة فقيرة في هذا الباب إلى درجة أن الصيادلة كانوا الأطباء الوحيدين فيها تقريبًا!.. وكانت إقامة الطبيب الأوَّل « جروسى » في (شامبيرى)، بعد موت الملك فيكتور، تبدو لها ملائمة جدًّا للفكرة، أو لعلها هي التي أوحت بها. ومهما يكن الأمر، فإنها أقبلت على تملق « جروسى » المذكور، الذي لم يكن بالشخص السهل المراس، بل كان أكثر مَن عرفت في حياتى سخرية وقسوة، وسيحكم القاريء على ذلك من حادثين أو ثلاثة أذكرها كنماذج!

فلقد كان « جروسى » يتشاور يومًا مع أطباء آخرين، استدعى أحدهم من (أنيسي) ليعالج مريضًا. وجرؤ هـذا الأخير - الذي لم يكن قد استكمل لباقتـه كطبيب - على أن يعارض رأي السيِّد « الطبيب الأوَّل، جروسى »، فكان رد هذا الأخير عليه، أن سأله عن موعد عودته من حيث أتى، وعن الطريق التي اعتزم أن يسلكها، والمركبة التي سوف يستقلها! وإذ أجاب الآخر عن كل هـذه الأسئلة، سأل « مستجوبه » بدوره عمـا إذا كان يستطيع أن يؤدى له أية خدمة، فقال جروسى: « لا، لا خدمة هنـاك.. وإنما أريد أن أقف في نافذة على طريقك، لأستمتع برؤية حمار يركب جوادًا »!

وكان « جروسى » بخيلًا بقدر ما كان غنيًّا وصعب المراس. ولقد أراده أحد أصدقائه يومًا على أن يقرضه نقودًا، بضمانات طيبة، فقال له وهو يمسك بذراعه، وقد كشَّر عن أنيابه: « يا صديقي.. إذا هبط القديس بطرس من السماء ليقترض منى عشر « بيستولات »[49]، وقدَّم لي المهد المقدس ضمانًا، لما أقرضته! ».. وفي ذات يوم، دُعى للغداء لدى السيِّد الكونت بيكون، حاكم (سافوا) - الذي كان شديد التدين - فوصل قبل الموعد، وكان صاحب السعادة منصرفًا إلى تسبيحاته، فعرض عليه أن يتسلى بالتسبيح. وإذ لم يدر الطبيب بماذا يجيب، ابتسم ابتسامة رهيبـة، وركع، ولكنه لم يكد يتلو اثنتين من التسبيحات الملائكية، حتى عجـز عن الاحتمال، فنهض على حين غرة، وتناول عصاه، وانصرف بدون أن ينبس ببنت شفة! فهرع الكونت بيكون خلفه، وهو يصيح به: « يا سيِّد جروسى! يا سيد جروسى! امكث، فإن على السفود حجلًا بديعًا »[50]. فالتفت إليه الآخر مجيبًا: « يا سيّدي الكونت، لو أنك وهبتني ملاكًا مشويًا لما بقيت! ».. هذا هو السيِّد الطبيب الأوَّل جروسي، الذي تولّته « ماما » وانتهت إلى ترويضه. ومع أنه كان جم المشاغل إلى أقصى حد، فقد اعتاد أن يتردّد كثيرًا جدًّا على دارها، وقد اصطفى « آنيـه » فآثره بودّه، مبديًّا تقديره لعلمه، متحدِّثًا عنـه باحترام. والأمر الذي ما كان ليتوقعه أحـد من دب شرس كهذا، إنه راح يعامل الوصيف باعتبار كبير، ليمحو آثار الماضي!

ذلك لأنه وإن كان « آنيه » لم يعد في مرتبة الخـدم، إلا أنه كان من المعروف أنه كان من

قبل خادمًا، ولم يكن يعوزه شيء قدر مسلك الطبيب الأوَّل، واحترامه، كيما يعامله الناس بأسلوب ما كانوا ليأخذوه قط عن شخص آخر سوى جروسى!.. وكان « كلود آنيه » ببزته السوداء، وشعره المستعار الجيد التنسيق، ومظهره الجاد الوقور، ومسلكه الرصين الحذر، وإلمامه الواسع بعلم النبات والطب، وتأييد رئيس الكلية له، خليقًا بأن يجعله يأمل - بحق - في أن يشغل منصب مدير حديقة النباتات الملكية، لو قُدِّر للمشروع أن يتحقق! والواقع أن جروسى حبذ المشروع، واحتضنه، ولم يعد ينتظر لعرضه على البلاط الملكي، سوى اللحظة التي يسمح فيها استقرار السلم بالتفكير في الأشياء المفيدة، وتوفير بعض المال من أجلها.

ولكن هذا المشروع ـ الذي كان من المحتمل أن يصرفني تحقيقه إلى التفرّغ لعلم النبات، إذ كان يُخيل إليَّ أننى خُلقت له - أخفق بسبب حادث من هذه الحوادث التي تقلب خير الخطط المتناسقة. وكان مقدرًا عليَّ أن أصبح تدريجًا مثالًا للإنسان البائس. ومن الممكن القول إن العناية الالهية - التي كانت تبتليني بتلك الاختبارات الضخمة - كانت تزيح بيدها كل ما كان يمنعني من خوض تلك المحن. ففي إحدى الجولات التي كان « آنيه » يقوم بها إلى أعالي الجبال للبحث عن « الجنبة » - وهي نبات نادر لم يكن ينمو إلا على جبال الألب، وكان السيِّد جروسي بحاجة إليه - تعرَّض الفتى المسكين لحرارة أدَّت إلى إصابته بنوبة من داء الجنب (التهاب غشاء « البلورا »)، لم تقو « الجنبة » على إنقاذه منها، برغم ما كان يُقال من أنها علاج لهذا الداء بالذات. وبالرغم من كل مهارة جروسي، الذي كان نطاسيًّا حاذقًا حقًّا، وبالرغم من العناية التي لا حد لها والتي بذلناها - سيدته الطيبة وأنا - له، فإنه مات بين أيدينا، في اليوم الخامس، بعد أن عاني آلامًا فظيعة في النزع الأخير، لم يجد خلالها سلوى سوى دعواتي التي رحت أبذلها في أسى وحماس بالغين، والتي كانت خليقة بأن تسرى عنه لو أنه فهمها!.. وهكذا فقدت أوفى صديق حظيت به في حياتي.. رجلًا جديرًا بالتقدير، نادرًا، تولت الطبيعة تربيته وتعليمه، وكان - وهو في منصبه كخادم - يغذى قلبه بكل فضائل العظماء، ولعله لم يكن بحاجة ـ لكي يظهر للدنيا بأسرها على أنه من هؤلاء ـ إلا لعمر أطول، ومركز أفضل!

وفي اليوم التالي، كنت أتحدَّث عنه إلى « ماما » بأشدّ وأصدق الأسى، عندما خطرت لي فجأة - وسط الكلام - أدنأ وأخبث فكرة: تلك هي أننى خليق بأن أرث ثيابه، ولا سيما بزة سوداء أنيقة كانت تستهويني!.. فكرت في هذا، فإذا بي أفصح عنه، إذ أن التفكير والقول كانا مترادفين عندي حين أكون بالقرب من « ماما ». ولم يجعلها شيء أكثر شعورًا بالخسارة التي منيت بها، قدر هذه الكلمة المتهورة البغيضة، فقد كان إنكار الذات ونبل النفس خصلتين امتاز بهما الراحل. وأشاحت عنى المرأة المسكينة - دون أن تجيب بكلمة - وانخرطت في البكاء..



ى المراة المسكينة ـ دون ان تجيب بكلمة ـ وانخرطت فى البكاء ..

وما كان أعز دموعها وأغلاها! لقد أفصحت هذه الدموع عن معانيها، وانسابت إلى فؤادي، فغسلت عنه آخر آثار الأحاسيس الخسيسة، غير الكريمة.. فلم تدخله هذه الأحاسيس بعد ذلك!

ولقد أضرَّت هذه الخسارة بماما، بقدر ما أحزنتها، فلم تكف شئونها عن الانهيار منذ تلك اللحظة، إذ كان « آنيه » فتى دقيقًا، منظمًا، عنى بتنظيم دار سيدته. وكانت يقظته مهابة من الخدم، فإذا الإسراف يتضاءل.. حتى « ماما » نفسها كانت تخشى لومه، وتحد من نفقاتها. ولم تكن تكتفى بحبه، بل كانت ترغب في الاحتفاظ بتقديره، وكانت تخشى اللوم العادل الذي كان يجرؤ أحيانًا على إبدائه، إذ كانت تسخو بمال غيرها لا بمالها فحسب!.. ولقد كنت أرى رأيه في هذا، بل وأعربت عنه فعلًا، ولكني لم أوت ما كان له من نفوذ عليها، فلم يكن لأقوالي ما كان لأقواله من تأثير لديها. ولما لم يعد له وجود، اضطرّت إلى أن أتخذ مكانه، وهو ما كنت قليل المقدرة عليه والميل إليه، فلم أحسن ملء المركز، إذ أنني كنت قليل العناية، شديد الخجل، فتركت كل شيء يسير على هواه، وأنا أنحو على نفسي باللائمة، وبجانب هذا، فإنني لم أحظ بسلطانه، وإن حظيت بنفس الثقة التي كان ينعم بها وكنت أرى الفوضى فأتحسر عليها، وأشكو منها، ولكن أحدًا لم يكن يصغى إلىَّ. فقد كنت أصغر سنًّا وأكثر مرحًا من أن أبدو عاقلًا حكيمًا. وعندما كنت أسعى للتدخل والرقابة، كانت « ماما » تقابلني بصفعات بسيطة مدللة، وتدعوني بمرشدها الصغير، وتضطرني إلى أن أعـود للدور الذي كان يلائمني!

وكان الاقتناع العميق بالضائقة التي كان إسرافها المطلق كفيلًا بأن يغرقها فيها - إن عاجلًا أو آجلًا - قد ترك أثرًا في نفسى.. وقد اشتد هذا الأثر كثيرًا حين أصبحت - كمشرف على شئون الدار - قادرًا على أن أتبين بنفسي الفارق بين دخلها ونفقاتها، فقد كانت كفة الأخيرة أرجح! ـ وإلى هذه الفترة أرجع تاريخ الميل الذي استشعرته منذ ذلك الحين إلى التقتير - وأنا لم أكن قط مسرفًا في نزق، إلا في نوبات عابرة، ولكنى حتى ذلك الحين لم أكن قد حملت هم ما إذا كانت ثمة نقود كثيرة أو قليلة.. فبدأت أهتم بهذا، وأعنى بكيس نقودي.. وهكذا تحوّلت إلى البخل، نتيجة باعث رائع جدًّا، ذلك أن همي الأوحد انحصر - في الحقيقة - في: كيف أقتصد لماما شيئًا يقيها محنة الانهيار الذي كنت أراه مقبلًا!؟ وكنت أخشى أن يحجز دائنوها على معاشها، أو أن ينقطع هـذا المعاش نهائيًا، فخُيل إلىَّ - لضيق عقلى - أن مدخراتى الضئيلة ستكون، إذ ذاك، عظيمة النفع لها! على أنه لإدخار شيء ما، ولحفظه - قبل كل شيء - كان لا بد من مكان لإخفائه فيه عنها، إذ لم يكن من المجدى لهذه الخطة أن تعرف « ماما » شيئًا عن وجود مدخراتي القليلة، عندما تكون في أشدّ الحاجة إلى المال!.. ومن ثم رحت أبحث عن عدّة مخابيء أودعتهـا بضع قطع من فئة « اللوى »، معتزمًا أن أضاعف الرصيد بين وقت آخر، إلى أن تحين اللحظة التي كنت أعتزم أن أطرحه فيها عند قدميها! ولكني كنت من الارتباك في اختيار مخابئي بحيث أن « ماما » كانت دائمًا تعثر عليها، وإذ ذاك، كانت تشعرني بذلك، بأن تأخذ النقود التي أودعتها، وتضع بدلًا منها مبلغًا أكبر، من عملات أخرى مخالفة!.. وكنت أشعر من ذلك بخجل بالغ، فأضع كنزى الصغير في صندوق النفقات العامة، (فإنها لم تكن تغفل قط عن أن تنفقه على ثياب أو أشياء أخرى لي، كسيف ذي مقبض فضى، أو ساعة، أو أي شيء هذا القبيل)!

وإذ أيقنت من أنني لن أفلح في الإدخار، وأن ما أدخره لن يكون - بعد ذلك - ذا نفع يذكر لها، شعرت أخيرًا بأنه لم يعد ثمة ما يُعمل إزاء النكبة التي كنت أخشاها، اللهم إلا أن أحصل على منصب يمكنني من أن أعولها بنفسي، بمجرَّد أن تكف عن إمدادي بالمال، وبمجرَّد أن تجد نفسها في فاقة!.. ووضعت خططي على أساس ميولي الخاصة - لسوء الحظ - فأصررت في غباء على أن أنشد نجاحًا في الموسيقى، إذ أحسست بأنغام وألحان تتصاعد في رأسي، فظننت أنني مستطيع - بمجـرَّد أن أصبح في مركز يمكنني من استغلالها - أن

أغدو شهيرًا، وأن أصبح « أورفيه »51 حديثًا، لا تخفق أنغامه في اجتذاب فضة (بيرو)52 بأسرها!.. ولما كنت قد بدأت إذ ذاك أقرأ « النوتة » باتقان كبير فإن المسألة أصبحت متمثلة في: كيف أستطيع ان أتعلّم التلحين؟.. وكانت الصعوبة هي أن أعثر على مَن يعلمني، لأنني لم أكن آمل أن أتمكن من أن أعلم نفسي بمساعدة كتاب « رامو » - الذي كنت أعتز به - فحسب.. ولم يكن في (سافوا) ـ منذ رحيل لوميتر ـ امرؤ على دراية بأي شيء عن تناسق النغم!

وهنا يتراءى مظهر آخر من مظاهر التناقض التي تحفل بها حياتي، والتي كثيرًا ما أفضت بي إلى أن أحيد عن غايتي، حتى وأنا أظن أنني أسير إليها صادقًا: فإن « فينتور » كان قد تحدَّث إليَّ كثيرًا عن الراهب « بلانشار »، أستاذه في التلحين.. وكان رجلًا قديرًا، عظيم الموهبة، كان إذ ذاك أستاذًا للموسيقى في كاتدرائية (بيزانسون)، وهو يشغل اليوم عين المنصب في كنيسة (فرساى). وقلت لنفسي إننى خليق بالذهاب إلى (بيزانسون) لأتلقى دراسة على الأب بلانشار، وقد بدت لي هذه الفكرة معقولة، حتى أنني سعيت إلى أن أحمل « ماما » على أن تراها كذلك. فإذا بها تعمل على إعداد متاعي البسيط، و قد فعلت ذلك بالإسراف الذي كانت تلجأ إليه في كل شيء. وهكذا.. بينما كنت أهدف دائمًا إلى تفادي إفلاسها، وإلى أن أصلح في المستقبل نتائج إسرافها، إذا بي أبدأ - في نفس اللحظة - بتكبيدها ثمانمائة فرنك!.. فعجلت بخرابها لكي أهيىء نفسي لعلاج حالها! ومهما تكن الحماقة التي انطوى عليها هذا التصرّف، فإن الوهم كان بأكمله راجعًا إليَّ، وإليها هي الأخرى. فقد أقنع كل منا الآخر، فكنت من ناحيتي مقتنعًا بأنني أقوم بعمل نافع من أجلها، وكانت هي مقتنعة بأنني أقوم بعمل نافع من أجل نفسي!

وكنت أعول على أنني سأجد فينتور باقيًا في (أنيسى)، فأحصل منه على خطاب إلى الأب « بلانشار ». ولكنه لم يكن هناك، وكان على أن أقنع - من الدراسة كلها - بقداس من أربعة أجزاء، من تلحينه، كان قد تركه لي. وبهذه الشفاعة ذهبت إلى (بيزانسون)، مارًّا بجنيف - حيث زرت أهلي - وبـ (نيون)، حيث زرت أبي الذي تلقاني كالمعتاد، وتكفّل بأن يرسل في أثرى حقيبتي، لكنها لم تصل إلّا بعدي، لأنني كنت مسافرًا على جواد.. ووصلت إلى (بيزانسون)، فأحسن الأب بلانشار استقبالي، ووعدني بأن يزودنى بدروسه، وقدَّم إليَّ خدماته. وفيما نحن على أهبة البدء، إذا بي أعلم من أبي بأن حقيبتي قد ضُبطت وصودرت في (روس)، وهي نقطة للجمارك الفرنسية على الحدود السويسرية. وفي غمرة انزعاجي لهذا النبأ، انتفعت بالأصدقاء الذين اكتسبتهم في (بيزانسون) لمعرفة السبب الداعي لهذه المصادرة، إذ لم أتصور أي مبرِّر لها، بحكم اطمئناني إلى أنني لم أكن أمتلك شيئًا من المهربات. وأخيرًا عرفت السبب، ولا بد لي من ذكره لأنه أمر عجيب!

ذلك أنني كنت قد التقيت في (شامبير) بكهل من (ليون) يدعى « ديفيفييه »، كان قد عمل في إدارة الجوازات، في عهد الوصاية، وقد وفد ليعمل في المساحة، لحاجته إلى عمل. وكان قد عاش في المجتمعات الراقية، وأوتى مواهب وقدرًا من المعرفة، واللطف، والأدب، كما كان ملمًا بالموسيقى. ولما كنت أعمل في حجرة واحدة معه، فإن كلًّا منا مال إلى إيثار الآخر، وسط الدبة المسعورة التي كانت تحيط بنا.. وكان له مراسلون في باريس، يوافونه بتلك التفاهات الرخيصة، وتلك المطبوعات اليومية التي تنتشر دون أن يدرى أحد كيف تنتشر، وتموت دون أن يدرى أحد كيف تموت، ثم لا يعود أحد إلى التفكير فيها بعد أن تغيب عن الذكر. ولما كنت أصطحبه معي أحيانًا لتناول الغداء لدى ماما، فإنه كان يعاملني بقدر كبير من الاحترام. ولكي يجعل نفسه حلو المعشر، كان يحاول أن يحملني على أن أحب هذه الصحف التافهة التي كنت أنفر منها دائمًا إلى درجة أنني لم أقرأ من تلقاء نفسي شيئًا منها في حياتى. ولسوء حظى أن إحدى هذه الوريقات اللعينة، ظلَّت في جيب صدر إحدى السترات الجديدة التي لم أكن قد ارتديتها سوى مرتين أو ثلاثًا لكي لا يتعرَّض لها

رجال الجمارك. وكانت تلك الوريقة تضم تحريفًا « يانسينيًا »53 غثًا لمشهد جميل لمسرحية راسين « ميثريدات ».. ولم أكن قد قرأت من هذا التحريف سوى عشرة أبيات شعرية، ثم تركتها، ونسيتها في جيبي. وكان هذا ما أدّى إلى مصادرة أمتعتى، فإن رجال الجمارك الذين أشرفوا على تفتيش حقيقتى بنوا على هذه الوريقة قضية كبيرة، زاعمين أنها اجتلبت من جنيف لتُطبع وتُوزع في فرنسا، وشنوا حملة من الطعن والقدح المبنيين على التقوى، ضد « أعداء الله والكنيسة ». ومن المدح والثناء على أولئك الذين استطاعوا بيقظتهم وتقواهم أن يحولوا دون تنفيذ هذا المشروع الجهنمي!.. ولا بد أنهم وجدوا أن أقمصتى كانت هي الأخرى تنضح بالزندقة، إذ أنهم - استنادًا إلى هذه الوريقة الرهيبة - صادروا كل شيء، فلم أتلق أبدًا أي نبأ أو بيان عن حقيبتي البائسة! ولقد طلب الموظفون الذين كتبت إليهم أوسطهم في الأمر، معلومات وبيانات، وشهادات، ومذكرات، بلغ من كثرتها أنني بعد أن تخبطت ألف مرة في هذا التيه، اضطررت إلى التخلي عن كل شيء! وإني لنادم حقًّا على عدم الاحتفاظ بالدعوى التي وضعها موظفو (روسو)، فقد كانت خليقة بأن تبرز وأن تكون موضع امتياز بين الوثائق التي ستصحب هذا المؤلف.

وجعلتني هذه الخسارة أبادر بالعودة إلى (شامبيرى) دون أن أكون قد أبرمت شيئًا مع الأب « بلانشار » وبعد أن وزنت كل الأمور، وتبينت أن النحس يلاحقني في كل مشروعاتي، عقدت العزم على أن أنصرف بكل جوارحي إلى « ماما » وحدها، وأن أشاركها حظها، وألّا أعود إلى الاهتمام غير المجدى بمستقبل لم أكن أملك إزاءه شيئًا. وقد تلقتني « ماما » وكأنني جلبت إليها كنوزًا، وزودت صوان ملابسي الصغير شيئًا فشيئًا، وسرعان ما تنوسى تقريبًا سوء طالعي، الذي كان فادحًا سواء لي أو لها!

ومع أن هذا النحس قد هدأ من حدَّة مشروعاتي الموسيقية، إلا أنني لم أتخل قط عن أن أدرس كتاب « رامو » باستمرار، وانتهيت بفضل الجهد الشاق إلى أن أستوعبه، وإلى أن أقوم ببضع محاولات صغيرة في التلحين، شجعني نجاحها. وكان الكونت « دى بيلجارد » - ابن مركيز دانترمون - قد عاد من (درسدن) بعد موت الملك « أوجيست ». وكان قد أقام ردحًا طويلًا في باريس، وأحب الموسيقى حبًّا جمًّا، وشغف بمؤلفات « رامو » بوجه خاص. وكان أخوه الكونت (دى نانجى) يعزف على الكمان، والسيّدة الكونتة ديلاتور - شقيقتهما - تجيد الغناء بعض الشيء. فأدّى كل هذا إلى أن أصبحت الموسيقى هي الهواية الشائعة في (شامبيرى)، وأنشىء نوع من الفرق الموسيقية العامة. وقد أرادوا في بادىء الأمر منحى إدارة هذه الفرقة، ولكن سرعان ما تجلّى أنها فوق طاقتي، فاتخذت تدبيرات أخرى. ولم أتخل عن تقديم بضع قطع صغيرة من تلحيني، بينها أغنية أصابت رضاءً كثيرًا. ولم تكن هذه الأغنية قطعة بديعة التلحين، ولكنها كانت مليئة بألوان جديدة من الغناء، وبمؤثرات ما كان أحد يرتقبها مني. ولم يستطع هؤلاء السادة أن يصدقوا أننى ـ وقد كنت أسىء قراءة المقطوعات الموسيقية - كنت في وضع يمكنني من تأليف ألحان مقبولة، فلم يرتابوا قط في أنني انتحلت لنفسي فخر عمل سواي!.. ولكي يتحرّوا الأمر أقبل السيِّد دي نانجي ذات صباح ليبحث عني، ومعه إحدى أغاني « كليرامبو »، وقد عدّل فيها - كما قال لي - لكي تلائم صوته، غير أنه كان من الضروري وضع أنغام أخرى للترنيم الثاني، إذ أن التعديل جعل من غير الممكن عزف الأنغام التي وضعها كليرامبو على الكمان الكبيرة. وأجبته بأن هذا عمل ضخم، لا يمكن أداؤه في التو، فظن أنني أبحث عن مهرب، وألحَّ عليَّ في أن أضع له - على الأقل - أنغام رنيم القائي ففعلت. وقد أسأت في ذلك بلا شك، لأنه لابد لي، لكي أجيد أداء أي أمر، أن أكون على سجيتي وحريتي.. بيد أنني وضعت ما طلب مني وفقًا للقواعد على الأقل، ولما كان السيِّد حاضرًا، فإنه لم يستطع أن يرتاب في أنى ملم بأصول التلحين. ومن ثم فإنني لم أفقد تلاميذي، ولكنني ازددت فتورًا - بعض الشيء - نحو الموسيقى، إذ رأيت القوم قد ألفوا فرقة موسيقية وأهملوني في تأليفها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحوالي ذلك الوقت، عُقد الصلح وساد السلام، وعبر الجيش الفرنسي الجبال عائدًا إلى بلاده.. وجاء عدد من الضباط لزيارة « ماما »، كان بينهم السيّد الكونت « لوتريك » - قائد كتيبة (أورليان)، والمندوب المفوض في جنيف بعـد ذلك، ثم مارشال فرنسا في النهاية - فقدَّمتنى « ماما » إليه، وإذ سمعها تتحدَّث عنى، أبدى اهتمامًا كبيرًا بي، ووعدني بأمور كثيرة، لم يتذكرها البتة إلا في العام الأخير من حياته، عندما لم أكن بحاجة إليه!.. كما مرَّ بشامبيرى - في الوقت ذاته - مركيز دى سنيكتير الشاب، الذي كان أبوه إذ ذاك سفيرًا لدى (تورين)، فتناول الغداء في دار السيِّدة « دى مانتون » وكنت أنا الآخر أتغدى هناك في ذلك اليوم. وبعد الغداء أثار المركيز ذكر الموسيقى، وكان واسع الدراية بها. وكانت أوبرا « « جيفته » JEPHTE حديثة العهد إذ ذاك، فتكلَّم عنها، وجيء إليه بها، فإذا به يجعلني أرتجف، إذ اقترح أن نؤديها معًا.. وما أن فتح الكتاب، حتى وقع بصره على هذه المقطوعة الشهيرة، التي يؤدّيها فريقان من المنشدين (الكورس):

« إن الأرض، والجحيم، بل والسماء

ذاتها لترتجف جميعًا أمام الرب »

وسألني: « كم دورًا تريد أن تؤدّي؟ ».. فأجبت « سآخذ لنفسي هذه الأدوار الستة ».. ولم أكن قد اعتدت بعد هذه النزوة الفرنسية، وإذا كنت قد أديت الأدوار - مرتبكًا في بعض الأحيان - إلا أنني لم أدر إطلاقًا كيف يملك رجل واحد أن يؤدّى ستة أدوار - بل دورين - في وقتٍ واحد! و ما كبدنى شيء من المشقة، في ممارسة الموسيقى، أكثر من القفز ببساطة من دور إلى آخر، موجهًا عينَيّ إلى فصل بأكمله في آنٍ واحد. ولا بد أن السيِّد دى سنيكتير انساق - من جراء الطريقة التي أدَّيت بها هذا المشروع ـ إلى الظن بأنني لم أكن على معرفة بالموسيقى. ولعله أراد أن يتحرّى صحة ارتيابه، فاقترح علىَّ أن أكتب « نوتة » أغنية كان يريد أن يقدّمها إلى الآنسة « دى مانتون »، فلم أملك أن أرفض.. وراح يترنّم بالأغنية وأنا أكتب، دون أن أسأله أن يكثر من التكرار. ثم قرأها بعد ذلك، فوجدها - كما كانت حقيقة - صحيحة التسجيل. وكان قد لاحظ ارتباكى، فطاب له أن يطنب في امتـداح توفيقي البسيط. والواقع أنني كنت على معرفة طيبة جدًا بالموسيقى، ولم يكن ينقصنى سوى سرعة الاستيعاب، من أوّل نظرة ألقيها، وهو الأمر الذي لم أملكه، والذي لا سبيل إلى اكتسابه في الموسيقى إلا بالمران الدائب.. ومهما يكن الأمر، فإننى تقبّلت العناية الأمينة التي بذلها ليمحو من أذهان الآخرين، ومن ذهني، الحياء الذي عانيته. ولقد وجدتنى منساقًا ـ عدَّة مرات بعد ذلك - إلى أن أذكره بهذه القصة، عندما كنت ألتقى به في عدَّة دور بباريس، بعد اثني عشر أو خمسة عشر عامًا، لأريه أننى كنت أحتفظ بالذكرى. ولكنه كان قد فقد بصره منذ ذلك الحين، فخشيت أن أجدد شجونه إذ أذكره بالنفع الذي كان يجنيه من هذا البصر فيما مضى، وأمسكت لساني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأصل الآن إلى اللحظة التي بدأت تربط وجودي الماضي بوجودي الراهن، فإن بعض الصداقات التي امتدت منذ ذلك الوقت حتى وقتنا الحاضر، أصبحت جد غالية لدىَّ. وأنها لتحملني كثيرًا على أن أتحسر على ما كنت أسعد به من خمول الذكر، حين كان أولئك الذين يعلنون أنهم أصدقائي، أصدقاء بالفعل، يحبونني لذاتي، بنية طيبة، لا عن زهو بأن يكونوا مرتبطين برجل نابه الذكر، أو عن رغبة خفية في أن يجدوا مزيدًا من الفرص للاساءة إليه!.. وإلى هذه الفترة أرجع معرفتى الأولى بصديقي القديم « جوفكور » الذي ظلَّ دائمًا صديقًا لي، برغم جهود الآخرين لابعاده عنى.. ظلَّ دائمًا؟.. لا، مع الأسف!.. فلقد قُدِّر لي أن أخسره. ولكنه لم يكف عن حبى إلا حين كفَّ عن الحياة، ولم تنته صداقتنا إلا

بانتهاء عمره. ولقد كان السيِّد « دي جوفكور » من أرق وأحب الرجال الذين وجدوا على ظهر البسيطة، وما كان من الممكن لأحد أن يراه دون أن يحبه، ولا أن يعيش معه بدون أن يتعلَّق به في ولاء.. أبدًا لم أر في حياتي ملامح أكثر صراحة أو رقة.. ولا وجهًا أكثر وقارًا، أو أكثر إظهارًا للحس المرهف والذكاء، أو أكثر إيحاءً بالثقة!.. ومهما يكن تحفظ المرء، فقد كان من المستحيل عليه أن يتمالك نفسه - منذ أوَّل نظرة - من أن يصبح على ألفة معه، وكأنه عرفه منذ عشرين عامًا!.. حتى أنا - الذي كان يجد مشقة في أن يكون على سجيته مع الأغراب - اطمأننت إليه منذ اللحظة الأولى. كان سلوكه، ولهجته، وأقواله، تتمشى مجتمعة مع ملامحه. وكان رنين صوته جليًا، مليئًا، واضح الجرس. كان صوتًا عذبًا، جهوريًّا، قويًّا رنانًا، يملأ الأذن ويرن في الفؤاد. وما كان في الوسع أن يوجد مرح أكثر اعتدالًا، وأكثر لطفًا من مرحه.. ولا كياسة أصدق وأبسط من سذاجته، ولا مواهب أكثر تأصلًا ونموًا وإرهافًا من مواهبه!.. أضف إلى هذا قلبًا ودودًا، مسرفًا بعض الشيء في حبه للناس جميعًا، وشخصية فعَّالة للخير دون تروا!.. وكان ميالًا لخدمة الأصدقاء في حمية، أو لعله كان يسعى لاكتساب صداقة أولئك الذين يستطيع أن يخدمهم، وهو يدرك أنه إنما يغدو أحذق أداء لشئونه النزيهة، عندما يخدم بحرارة شئون الغير!

وكان « جوفكور » ابن ساعاتى بسيط، وكان - هو الآخر - ساعاتيًّا، ولكن شكله وكفاءته قاداه إلى جو آخر لم يتلكأ في أن ينفذ إليه، فقد تعرَّف إلى السيِّد ديلاكلوسير - مندوب فرنسا المقيم في جنيف - الذي أولاه ودّه، فأحرز له صلات تعارف أخرى في باريس، أجدت عليه نفعًا، واستطاع بنفوذ أصحابها أن يظفر بحق إمداد (فاليه) بالملح، مما عاد عليه بدخل قدره عشرين ألف ليبرة. وقد انتهت به ثروته ـ وهي جد كافية - إلى هذا الحد في علاقته بالرجال. أما من ناحية النساء، فقد كان يجد عناء. كان عليه أن يختار، وأن يفعل ما يشاء. وكان من أندر وأشرف ما امتاز به أنه في علاقاته بالأشخاص - من كافة الرتب والدرجات - كان محبوبًا من الجميع، مرجوًا من الناس طرًا، دون أن يتعرَّض لحسد أو بغضاء أي شخص. وإني لأعتقد بأنه مات دون أن يرى في حياته عدوًا واحدًا!.. كم كان سعيدًا!.. وكان يذهب في كل عام إلى حمامات (ايكس)، حيث يجتمع خيرة الناس من البلدان المجاورة. وإذ كان على ود مع علية القوم في (سافوا)، فقد جاء من (ايكس) إلى (شامبيرى) لزيارة الكونت « دى بيلجارد » وأبيه المركيز دانترمون.. وفي دارهما عرفته « ماما » وعرَّفتني به. وقد تجددت هذه المعرفة - التي لم يبد إذ ذاك أن من المقدر لها أن تنتهى إلى شيء، والتي انقطعت عدَّة سنوات، بعد ذلك - في مناسبة سأرويها، وأصبحت ودًّا وثيقًا صادقًا. وهذا كاف لأن يبرّر حديثي عن صديق كنت وثيق الارتباط به. وحتى إذا لم يكن ثمة مصلحة شخصية في تذكره، فإنه كان رجلًا حبيبًا، وُلد سعيدًا، حتى أنني أعتقد دائمًا أن ذكراه جديرة بأن تبقى، لتكون فخرًا للجنس البشري. ومن المحقق أنه كانت لهذا الرجل الساحر أخطاؤه، كغيره من البشر، وكما سيتجلى فيما بعد. ولكن، لعله كان يغدو أقل استئثارًا بالمحبة إذا لم تكن له أخطاء. فقد كان من الضروري - لجعله جديرًا بالاهتمام إلى أقصى ما كان ممكنا - أن يوجد في مسلكه ما يستحق الصفح والغفران!

وهناك علاقة أخرى تمت إلى ذلك العهد، ولم تفتر بعد، بل إنها لا تزال توعز إليَّ بالأمل في الهناء الدنيوي، الذي يتعذَّر موته في قلب الإنسان. فلقد شغف السيِّد « دى كونزييه » - وهو سيد من أبناء (سافو)، كان إذ ذاك شابًّا لطيفًا - بتعلم الموسيقى، أو - بالأحرى - بالتعرّف إلى ذلك الذي يتولى تدريسها. ولقد أوتى السيِّد « دى كونزييه » ذكاءً وميلًا إلى الصداقات الجميلة، وكان يقرن هذا بلطف الخلق، مما جعله لين الجانب إلى حد كبير، مثلما كنت أنا الآخر ـ إلى حد كبير كذلك - بالنسبة لمن أجدهم على هذه الشاكلة. وسرعان ما توثقت صلتنا54، فإن بذور الأدب والفلسفة التي كانت قد بدأت تختمر في رأسي، والتي لم تكن ترتقب سوى شيء من الرعاية والتشجيع لتترعرع لتوها وجدت هذه الرعاية والتشجيع لدى السيّد « دى كونزييه »، إذ كان على قدر من الميل إلى الموسيقى، فكان في

هذا خير كبير لي، لأن ساعات الدرس راحت تنقضى في كافة الأشياء عدا التدريب على الألحان. وكنا نتناول الفطور معًا، ونتجاذب الحديث، ونقرأ بعض المطبوعات الحديثة، ولا نفوه بكلمة واحدة في الموسيقى. وكانت الرسائل المتبادلة بين « فولتير » وولي عهد بروسيا قد أحدثت ضجة في ذلك الحين، فكنا كثيرًا ما نتكلّم عن هذين الرجلين الشهيرين، اللذين ارتقى أحدهما العرش بعد ذلك بقليل، في حين كان الآخر موضع تشهير - بقدر ما هو الآن موضع تمجيد - مما كان يجعلنا نرثى في إخلاص لسوء الطالع الذي بدا أنه كان يلاحقه، والذي كثيرًا ما يكون نصيب ذوى المواهب العظيمة. وكان الأمير البروسى قد حظى بقسط من السعادة في شبابه، أما فولتير فكان يلوح وكأنه خُلق لكي لا يسعد البتة. وكان الاهتمام الذي تولانا نحو كل منهما قد امتد إلى كل ما كان يتعلّق به، فلم يكن يفوتنا شيء مما كتبه « فولتير ». وقد ألهمتنى المتعة التي حظيت بها من هذه المطالعات، بالرغبة في أن أتعلّم الكتابة البليغة، وأن أحاول أن أقلّد ما لهذا المؤلف من أسلوب بديع، كنت مفتونًا به. ولقد ظهر بعد ذلك بقليل كتابه « الرسائل الفلسفية »، ومع أنه لم يكن أفضل مؤلفاته، إلا أنه كان أعظم ما اجتذبني إلى الدرس، ومنذ وُلد فيَّ هذا الميل، لم يُقدر له أن يخبو أو يفتر!

على أن الوقت لم يكن قد حان بعد كي أتفرّغ للأدب تفرغًا تامًا، إذ كانت لا تزال لديَّ بقية من النزق، والرغبة في الغدو والرواح، التي كانت قد هدأت وإن لم تكن قد خمدت، والتي وجدت ما يغذيها في سياق العيش في بيت مدام دى فاران.. فقد كانت الحياة هناك أكثر صخبًا من أن تلائم مزاجي الانعزالي، إذ أن سيل الأغراب الذين كانوا يتدفقون عليها من كافة الأرجاء، واقتناعي بأنهم لم يكونوا يسعون إلا إلى التغرير بها - كل بطريقته - جعلا حياتي في البيت عذابًا منتظمًا!.. فمنذ أن خلفت « كلود آنيه » في الظفر بثقة مولاته، رحت أتعقب عن كثب تطوّر شئونها، وأرى تدهورها الذي كان يزعجني. ولقد أطلعتها، وتوسلت إليها، وضغطت عليها، ورحت أناشدها مائة مرة، ولكن دون ما جدوى على الاطلاق!.. لقد ارتميت على قدميها، وعرضت عليها - بأقوى ما وسعنى - النكبة التي كانت تتهددها، ورحت أنصحها في إلحاح بأن تحد من نفقاتها، وأن تبدأ بتطبيق ذلك عليَّ أنا، وأن تعاني قليلًا من الحرمان وهي بعد لا تزال شابة، بدلًا من أن تضاعف ديونها ودائنيها باستمرار، مما يعرضها لمضايقاتهم وللفاقة أيام شيخوختها.. ومس صدق تحمسى عواطفها، فجارتني في شعوري، ووعدتني بأجمل ما في الدنيا من وعود. ولكن كل شيء كان يغدو منسيًا، بمجرّد أن يصل أحد الأفّاقين! وبعد ألف دليل على عدم جدوى ارشاداتي، ما الذي تراه قد بقى لي ـ كي أفعله ـ سوى أن أغض بصرى عن الشر الذي لم أكن أملك دفعه؟.. لقد رحت أنأى عن البيت الذي عجزت عن حراسة بابه، وأخذت أقوم برحلات قصيرة إلى (نيون) و (جنيف) و (ليون)، شغلت بالي عن همي الكظيم، بينما كانت - في الوقت ذاته - تزيد من عبئه، نظرًا لنفقاتي!.. وبوسعي أن أقسم بأنني كنت خليقًا رحت بأن أتحمل باغتباط كل تضييق، لو أن « ماما » كانت تنتفع حقًّا من ذلك الاقتصاد.. ولكني كنت موقنًا من أن ما كنت أحرم نفسي منه، كان ينتقل إلى الأفاقين، ومن ثم فإنني كنت أسيء استغلال سخائها لكي أقاسمهم ما كانت تغدقه عليهم.. وكالكلب العائد من المذبح، كنت أستولى على قضمة من القطعة التي لم أستطع أن أنقذها من الكلاب الأخرى!

ولم تكن تعوزني الحجج لتبرير كل هذه الرحلات، وكانت « ماما » وحدها تغذيني بهذه الحجج، إذ كان لديها الكثير من الاتصالات، والمباحثات، والشئون، والمهام التي تحتاج إلى شخص موثوق به. ولم يكن عليها سوى أن توفدني، كما أنني لم أكن أرجو سوى أن أذهب.. ولم تخفق هذه الحال في تهيئة حياة مليئة بالترحال. ولقد هيأت لي هذه الرحلات فرص عقد صلات تعارف طيبة، كانت - فيما بعد - مستحبة ونافعة. ومن هذه الصلات التي عقدتها في (ليون) معرفتى بالسيِّد « بريشون » - وهي المعرفة التي ألوم نفسي لأنني لم أعمل على تنميتها بدرجة كافية، برغم ما كان السيِّد قد أبداه لي من طيبة وكرم ـ ثم

تعرّفي إلى « باريسو » الطيب، الذي سأتحدَّث عنه في حينه.. وفي (جرينوبل) تعرَّفت إلى السيِّدة « دى دييبان »، والسيّدة حرم رئيس « الباردونانش »[55]، وكانت امرأة جمة الذكاء، على استعداد لأن تؤثرني بودها لو أننى أوتيت مزيدًا من الفرص لزيارتها.. وفي (جنيف) تعرّفت إلى السيّد « ديلا كلوسير » - مندوب فرنسا المقيم ـ الذي حدَّثني في أحيان كثيرة عن أمي، التي كانت ما تزال تحتل مكانة في فؤاده، برغم الموت والزمن.. كما تعرَّفت إلى السيّدين « باربيو »، وكان الأب منهما - وقد اعتاد أن يناديني بابنه الأصغر - حلو المعشر، ومن أجدر من عرفتهم بالاحترام. وقد قُدِّر لهذين المواطنين أن ينحازا إلى فريقين متعارضين - أثناء اضطرابات الجمهورية - فكان الابن في صفوف البورجوازيين، بينما كان الأب في صفوف الطبقة الحاكمة. وعندما حمل كل من الفريقين السلاح ضد الآخر - في سنة 1737 - كنت في (جنيف)، فقدّر لي أن أرى الأب والابن يخرجان مسلحين من بيت واحد، أحدهما ليذهب إلى دار محافظة المدينة، والآخر ليذهب إلى مركز قيادته، وهما موقنان من أنهما لن يلبثا أن يجدا نفسيهما - بعد ساعتين - وجهًا لوجه، معرضين لأن يقتل كل منهما الآخر! ولقد ترك هذا المنظر الرهيب طابعًا عميقًا في نفسي، حتى أنني أقسمت ألا أشترك قط في أيـة حرب أهليـة، وألّا أذود بالسلاح عن الحرية - في داخل البلاد - سواء بنفسي أو بتحبيذي، إذا ما قُدر لي أن أمارس حقوقى كمواطن. وإني لأشهد بأنني وفيت بهذا العهد في مناسبة عسيرة، ولسوف يتبين - أو هكذا أظن، على الأقل - أن هذا الاعتدال كان ذا فوائد جمة.

على أني لم أكن قد بلغت - بعد - هذا الفوران الأوّل للوطنية، الذي أثارته جنيف - بتسلحها - في فؤادي. وللمرء أن يحكم على مدى بعدى من ذلك على ضوء واقعة خطيرة أثرت عليَّ، وقد نسيت أن أذكرها في مكانها، ويجب ألا أغفلها: ذلك أن خالي برنار كان قد انتقل منذ سنوات عديدة إلى (كارولينا)[56] لإنشاء مدينة (تشارلستون)، التي وضع تصميمها. وما لبث أن مات بعد ذلك بقليل. كذلك مات ابن خالي المسكين، في خدمة ملك بروسيا. وهكذا فقدت عمتى ابنها وزوجها في آنٍ واحد تقريبًا، فأدَّى هذان المصابان إلى إذكاء ودّها لأقرب قريب بقى لها، وهو أنا.. فكنت إذا ما ذهبت إلى (جنيف) أنزل لديها، وكنت أتسلى بأن أنبش الكتب والأوراق التي تركها خالى، وأقلب صفحاتها. وقد وجدت كثيرًا من الأشياء العجيبة، من بينها أوراق ما كان أحد ليحدس وجودها يقينًا. وكانت عمتي ـ التي لم تعلق أهمية تذكر على تلك الأوراق - على استعداد لأن تدعني آخذها جميعًا، لو أننى شئت ذلك. على أنني قنعت بكتابين أو ثلاثة، تحمل تعليقات وشرحًا بخط جدى برنار القس، ومنها مؤلفـات « روهو » اليتيمة[57]، وقد طُبعت في مجلد من حجم « ربع القطع »[58]، ومُلئت هوامشها بملاحظات رائعة، حببت إليَّ العلوم الرياضية. ولقد بقى هذا الكتاب بين كتب مدام دى فاران، وإني لأشعر بالحزن دائمًا لأنني لم أحتفظ به. وقد أضفت إلى هذه الكتب خمسًا أو ستًا من المذكرات المخطوطة، وواحدة مطبوعة هي المذكرة الشهيرة التي كتبها « ميشيلى دوكريه »، وكان رجلًا عظيم العبقرية، عالمًا متنورًا، ولكنه كثير الشطط في آرائه، فلقى معاملة سيئة من حكام (جنيف). وقد مات مؤخرًا في قلعة (أربيرج)، حيث ظلَّ سجينًا أعـوامًا طويلة، لأنه ـ على ما قيل - اشترك في مؤامرة (بيرن)!

وكانت هذه المذكرة نقدًا رصينًا عادلًا لتلك الخطة الكبيرة، والسخيفة، التي وُضعت للتحصينات، والتي حقق جزء منها في (جنيف)، وقد كانت أضحوكة كبرى لدى الخبراء الذين لم يدركوا ما كان للمجلس[59] من غاية سرية من وراء تنفيذ هذا المشروع الهائل. ولما كان السيد « ميشيلي » قـد أقصى عن « هيئة التحصينات » لأنه عـاب المشروع، فقد اعتقد أن بوسعه كعضو من « المائتين »[60] - وكمواطن كذلك ـ أن يعلن رأيه بمزيد من الإسهاب، وهذا ما فعله في مذكرته هذه، التي أقدم - في غير حكمة - على طبعها، ولكنه لم ينشرها، لأنه لم يطبع منها سوى عدد محدود من النسخ، أرسله إلى « المائتين ».. ولكن هذه النسخ صودرت جميعًا في البريد، بأمر من المجلس الاستشاري الصغير[61]. ولقد وجدت

هذه المذكرة بين أوراق خالي، مع الرد الذي عهد إليه بوضعه، فأخذت كلًّا منهما. وكنت قد قمت بهذه الرحلة عقب انفصالي عن « المساحة » بقليل، ولما أزل على بعض الارتباط بالمستشار « كوتشيللى »، الذي كان رئيسًا لها. وقد حدث - بعد وقت قصير - أن رجاني مدير الجمارك أن أقوم بدور الاشبين لطفله. وكانت السيِّدة « دى كوتشيلي » هي الاشبينة، فأدار هذا التكريم رأسي، وحاولت - وأنا مزهو بأن أغدو في مكانة جد قريبة من مكانة السيّد المستشار - أن أقوم بعمل ذي قيمة، لأبدو جديرًا بمثل هذا الشرف العظيم.. وانسياقًا وراء هذه الفكرة، لم أر أفضل من أن أطلعه على مذكرتي المطبوعة التي ألّفها السيِّد « ميشيلى »، والتي كانت - في الحقيقة - تحفة نادرة، كي أبرهن له على أنني أنتمي إلى علية القوم في (جنيف)، ممن كانوا يعرفون أسرار الدولة!.. على أننى - بدافع من شيء من الحذر، لم أكن أدرى مأتاه - لم أطلعه قط على رد خالي عن المذكرة، ولعل ذلك كان راجعًا إلى أن الرد كان بخط اليد، وأنه لم يكن ليليق بمقام المستشار سوى كل مطبوع!.. بيد أنه شعر بقيمة كبرى للوثيقة التي كنت من الغباء بحيث ائتمنته عليها، فلم يقدَّر لي قط أن أسترجعها أو أن أراها ثانية.. حتى إذا أيقنت من عدم جدوى جهودى، رأيت أن أستغل الأمر، وأن أحول السرقة إلى هدية!.. ولست أرتاب إطلاقًا في أنه قد أحسن استغلال هذه التحفة في بلاط (تورين) - فقد كانت طريفة أكثر مما كانت نافعة ـ وأنه عنى، بطريقة أو بأخرى، بالحصول على مبلغ كبير من المال كان من الطبيعي أن يزعم أنه أنفقه في الحصول عليها!.. ولما كان من أقل أحداث المستقبل احتمالًا وإمكانًا - لحسن الحظ - أن يقدم ملك سردينيا يومًا على حصار (جنيف)، وإن لم يكن هذا الأمر مستحيلًا، فقد ظللت دائمًا ألوم غروري الأحمق الذي جعلني أكشف مواطن الضعف في استحكامات المدينة، لألد أعدائها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقضيت عامين أو ثلاثة على هذه الحال، بين الموسيقى، والحكام، والمشروعات، والرحلات.. أتنقل دائمًا من أمر إلى آخر، وأنشد دائمًا الاستقرار دون أن أدرى فيم أستقرّ، ولكنى كنت أتجه تدريجيًا إلى الدراسة، وألتقى برجال الأدب، وأسمع الأحاديث الأدبية، وأجرؤ - في بعض الأحيان - على أن أخوضها أنا الآخر، مقتبسًا أساليب الكتب بدلًا من أن أستوعب محتوياتها! وكنت أقوم بين آنٍ وآخر، أثناء رحلاتى إلى (جنيف)، بزيارات عابرة لصديقي القديم السيّد سيمون، الذي أذكي كثيرًا تحمسي الوليد للأدب بتزويدي بأحدث الأنباء عن « دولته »، وهي أنباء كان يأخذها عن « باييه » أو عن « كولوميه ». كذلك كثيرًا ما كنت ألتقي في (شامبيرى) بواحد من (اليعاقبة) كان أستاذًا لعلوم الطبيعة، وراهبًا صالحًا. ولقد نسيت اسمه، ولكنه كثيرًا ما كان يقوم بتجارب صغيرة أثارت اهتمامي للغاية، فوددت أن أحذو حذوه فأصنع المداد العاطفي62. وللوصول إلى هذه الغاية، ملأت زجاجة إلى ما فوق منتصفها بالجير الحي، وبمادة مركبة من الزرنيخ والكبريت والماء، ثم أحكمت سدادها. وبدأ التفاعل في الحال - تقريبًا - وبعنف شديد، فأسرعت إلى الزجاجة لأزيل سدادتها، ولكني لم أصل في الوقت المناسب، فإذا بها تقفز في وجهي وكأنها قنبلة.. وابتلعت الزرنيخ والحديد والجير، فكدت أموت! وقد مكثت أكثر من ستة أسابيع وأنا أعمى، وأدركت من ذلك أنني يجب ألا أقحم نفسي في تجارب العلوم الطبيعية، دون إلمام بالعناصر المستخدمة!

وقد ألحقت هذه المغامرة ضررًا بصحتي، التي كانت في انحدار محسوس منذ فترة من الزمن. ولست أدرى من أين جاءني هذا الانهيار، فقد كنت حسن البنيان، ولم أكن أقدم على أي افراط، من أي نوع ومع ذلك فإنني كنت أنهار بجلاء! ولقد كنت جيد التركيب، عريض الصدر، مما كان يتيح لرئتي فراغًا كافيًا كى تتحرَّكا بسهولة.. ولكني كنت - برغم ذلك - قصير الأنفاس، وكنت أشعر بضيق، وأرسل الزفرات دون إرادة منى. ولقد أصبت باضطراب

في القلب، وأخذت أبصق دمًا، واستولت عليَّ الحمى البطيئة التي لم تفارقني تمامًا على الإطلاق.. فكيف يقع المرء في مثل هذه الحال وهو في زهرة العمر، دون أن يكون ثمة أذى داخلي على الإطلاق، ودون أن يكون قد فعل ما يقضى على صحته؟

ويُقال أحيانًا أن السيف يبلى القراب. وهذه هي قصتى، فإن شهواتي قد أحيتني، وشهواتي قد أماتتني!.. وقد يُقال: أية شهوات؟.. كانت تواقه.. كانت أكثر أمور الدنيا انطباعًا بالطابع الصبياني، ولكنها كانت تثيرني كما كان خليقًا أن يثيرني الاستيلاء على هيلين63، أو على عـرش الكون!.. وكانت النساء في مقدمة هذه المثيرات! فكانت حواسى تحتفظ بهدوئها، إذا ما ظفرت بواحدة، ولكن قلبي لم يكن يعرف الهدوء قط! كانت مستلزمات الهوى تنهشني وأنا في غمرة اللذة. وكنت قد أوتيت أمًا حنونًا، وصديقة حبيبة، غير أنه كان لا بد لي من عشيقة. وكنت أتمثل العشيقة المنشودة في مكان « ماما »، وأصورها لنفسي في ألف صورة ووضع، لكي أموه على نفسى!.. ولو أنني تذكرت - وأنا أعانقها - أننى إنما كنت أضم « ماما » بين ذراعَيّ، لما فترت حرارة عناقي، ولكن كافة شهواتي كانت خليقة بأن تخبو، وكنت أبكي وجدًا، ولا أستمتع بلذة!.. لذة؟.. أفخلق هذا الحظ ليكون من نصيب الإنسان؟.. آه، لو أنه قُدِّر لي يومًا - بل مرة واحدة في حياتي - أن أتذوق كل لذاذات الحب في أوج تدفقها، فإني أعتقد أن كياني الهش لم يكن ليقوى على الاحتمال.. كنت قمينًا بأن أموت في مكاني!

وهكذا كنت أكتوى بالحب، دون ما هدف. ولعل هـذه الحال هي أشد الحالات إرهاقًا.. وكنت قلقًا معذَّبًا لسـوء حال شئون « ماما » المسكينة، ولتصرفاتها غير الحكيمة، التي كان مآلها أن تقود إلى خرابها تمامًا، في وقت قصير. وكان خيالي القاسي - الذي يسبق المصائب دائمًا - يصور لى هذه المصيبة بالذات، دون انقطاع، وبكل مداها، وبكافة نتائجها!.. فرأيت نفسى، مقدمًا، مضطرًا إلى أن أفترق - بحكم الفاقة - عن تلك التي كرّست لها حياتي، والتي لم يكن بوسعي أن أستمتع بهذه الحياة، بدونها!.. وهكذا كنت دوامًا مضطرب النفس.. كانت الشهوات والمخاوف تنهشني بالتناوب!

وكانت الموسيقى ـ بالنسبة لي ـ شهوة أخرى، أقل عتوًا ولكنها لم تكن أقلّ ارهاقًا، بفضل التحمس الذي ارتميت به في غمرتها، وبفضل الدراسة الدائبة لكتب « رامو » المبهمة، وبفضل إصراري العنيد على الرغبة في أن أحشـو بـهـا ذاكرتى التي كانت ترفضها دائمًا، وبفضل الجرى المستمر64، وبفضل تلك المجموعات الهائلة التي كنت أراكمها، وكثيرًا ما كنت أقضى ليالي بأسرها في نسخها..

ولكن، لماذا أقتصر على الشهوات الدائمة، في حين أن كل النزوات التي كانت تمر بخاطرى دون انقطاع: الأهواء العابرة التي لا تمكث سوى يوم واحد، كرحلة، أو حفلة موسيقية، أو مسرحية فكهة أحب أن أشهدها.. كل هذه الأشياء التي كانت أبعد ما في الدنيا عن مسرّاتي وعن أعمالي، أصبحت لديَّ بدورها بمثابة شهوات عـديدة عنيفة، كانت في جيشـانها المستهجن تسبّب لي أصدق ألوان العـذاب!.. بل إن قراءة مصائب « كليفلاند » الخيالية - وهي القراءة التي كنت أقبل عليها في نهم، والتي كثيرًا ما كنت أعجز عن الاسترسال فيها - كانت تثير أشجاني، فيمـا أعتقد، أكثر مما كانت تثيرها مصائبى!

وكان ثمة شخص من أبناء (جنيف) يُدعى السيّد « باجيريه »، عمل فترة في خدمة بطرس الأكبر في البلاط الروسي، وقـد كان من أعظم الأوغاد، ومن أشدّ الحمقى الذين رأيتهم في حياتي.. وكان دائمًا يفكر في مشروعات تماثله حماقة، فقد كان ينثر الملايين كالمطر، ولم تكن الأصفار تكبده شيئًا65.. وإذ جاء هذا الرجل إلى (شامبيرى) من أجل بعض قضايا كانت معروضة على مجلس الشيوخ، فقد استولى على إرادة « ماما »، كما كان متوقعًا. وفي مقابل كنوزه من الأصـفـار - التي كان يغدقها بسخاء - أخذ يبتز منها تلك الدنانير

البائسة، قطعة بعد قطعة!.. ولم أحبه إطلاقًا، وقد أدرك هو ذلك ـ فما كان الأمر يومًا بالمهمة العسيرة[66] - فلم يدع نوعًا من الخسة لم يستخدمه كي يتقرَّب إليَّ.. وآلى على نفسه أن يغريني بتعلّم الشطرنج، برغم أنه كان لا يحذقه!.. ولقد حاولت ذلك، بالرغم من نفسي تقريبًا. وبعد أن تعلّمت الحركات في غير ما اكتراث بما إذا كانت صوابًا أو خطأً، إذا بتقدمي يتزايد سريعًا، حتى أنني استطعت قبل نهاية الجلسة الأولى أن أرد إليه الهزيمة التي كان قد أذاقنيها في البداية!.. ولم أقنع بذلك، فقد شغفت بالشطرنج، وابتعت طاقمًا، كما اشتريت « الكالابروا »[67]، واحتبست نفسي في غرفتي، ورحت أقضى الأيام والليالي في السعي لتعلم كل الحركات الافتتاحية عن ظهر قلب، وحشو رأسى بها طوعًا أو كراهية، وأنا ألعب وحيدًا، دون ما هوادة ولا نهاية!..



تبست نفسى فى غرفتى ، ورحت أقضى الأيام والليالى فى الســعى
الحركات الافتتاحية .

وبعد شهرين أو ثلاثة من هـذا العمل الشاق، والجهود التي تفوق الخيال، ذهبت إلى المقهى وأنا واهن، شاحب، متلبد الذهن تقريبًا وقمت بتجربة، فلعبت مرة أخرى مع السيِّد « باجيريه ».. وهزمنى مرة، فاثنتين، فعشرين مرة، فقد اختلطت كثير من الترتيبات المختلفة في رأسي، كما كان خيالي بالغ الوهن، حتى أنني لم أعد أرى أمامي سوى سحابة غائمة!.. وفي كل مرة حاولت فيها أن أتدرَّب لحفظ الحركات بمعونة كتاب « فيليدور » أو كتاب « ستاما »، كان يحـدث لي عين الشيء.. وبعد أن أنهك قواى، أجد نفسي أشدّ ضعفًا من ذي قبـل. وسواء كنت قد هجرت الشطرنج، أو أنني وجدت في لعبه متنفسًا لى، فإنني لم أحرز أبدًا أي تقدّم منذ تلك الجلسة الأولى، حتى أني لأجد نفسي دائمًا حيث انتهيت إذ ذاك، ولو أننى تدربت آلاف القرون لما انتهيت إلا إلى إعطاء « باجيريه » الدور، فحسب!.. وقد تقول: هكذا يُستغل الوقت على أحسـن وجه!.. والحق أن الوقت الذي أنفقته في ذلك لم يكن قليلًا، وما كففت عن المحاولة الأولى إلا عندما لم تعد لديَّ طاقة على الاستمرار.. وعندما ظهرت خارج غرفتى، كنت أبدو كشخص خارج من قبر. ولو أنني استمررت على النهج ذاته، لما ظللت « خارجًا من القبر » طويلًا[68]! وإن المرء ليقرّ بأن من العسير - لا سيما في تحمس الشباب - أن يدع مثل هذا الرأس جسد صاحبه في صحة!

ولقد أثَّر تداعى صحتى على طبعى، كما هدَّأ من حمية خيالى. فما أن شعرت بضعفى حتى ازددت هدوءًا، وفقدت بعض شغفي بالأسفار. وإذ ازددت استقرارًا، تعـرَّضت لا للملل، وإنما للأسى والسوداء، فإذا التهوس يحلّ محل الشهوات والعواطف المشبوبة، وإذا ذبولي ينقلب حزنًا واكتئابًا، وأصبحت أبكي وأتنهد دون ما سبب، وشعرت بأن الحيـاة تفلت منى دون أن أكون قـد تذوقتها، وأخذت أتحسر على الحال التي سأترك « ماما » البائسة فيها، وعلى الحال التي كنت أراها موشكة على التردي فيها.. وبوسعي أن أقول أن فراقها وتركها في مسغبة كان مصدر أساى الوحيـد!.. وأخيرًا، سقطت مريضًا حقًّا، فراحت تعنى بى كما لم تعن أم بطفلها، وقد كان في هذا خير لها هي الأخرى، إذ حوّلها عن المشروعات، وصرفها عن أصحاب المشروعات.. ما كان أعذب الموت لو أنه جاء إذ ذاك! وإذا لم أكن قد استمتعت بكثير من نعم الحياة، فإنني لم أشعر إلا بقليل من محنها. وكانت روحي الوادعة خليقة بأن ترحل دون الشعور القاسي بظلم الناس.. الشعور الذي يسمم الحياة والموت! وكنت أجد العزاء في أنني كنت أحيا في النصف الأفضـل من نفسى[69]، وهذا لا يكاد يعتبر موتًا! ولولا القلق الذي كنت أستشعره إزاء حظها، لقضيت نحبى وكأنني أستسلم للنعاس.. بل إن هواجسي كانت ذات غاية رقيقة لطيفة، خففت من مرارتها.. ولقد قلت لها يومًا، « إن كل كياني بين يديك، فاسعديه! ».. وحدث في مرتين أو ثلاث - عندما كنت في أسوأ حال - أن نهضت في الليل، وجررت نفسي إلى غرفتها، لكي أقدِّم لها نصائح بصدد تصرفاتها.. نصائح أجرؤ على القول بأنها كانت عادلة وحكيمة، ولكن اهتمامي بمصير « ماما » كان يغلب في هذه النصائح على كل شيء آخـر.. وكأنمـا كانت الدموع غذائى ودوائي، فقد كنت أستمد قوة من تلك الدموع التي كنت أذرفها في قربها، وأنا معها، جالسًا على سريرها، ممسكًا بيديها بين يدى. وكانت الساعات تنصرم ونحن مستغرقان في هذه الأحاديث الليلية، ثم أعود إلى غرفتي وأنا أحسن حالًا مما كنت حين بارحتها، وقد اغتبطت واطمأننت للوعود التي عاهدتني عليها، والآمال التي بثتها في نفسي.. وإذ ذاك، كنت أنام بقلب مطمئن، وبثقة في العناية الإلهية. إننى لأدعو الله - بعد أن تعرَّضت لكثير من الأسباب التي تدعو إلى كراهيـة الحياة وبعد كثير من العواصف التي هزَّت حيـاتي وجعلتها مجرَّد عبء - أن يكون الموت الذي قُدِّر له أن يختم هـذه الحياة، أقل قسوة مما كان في تلك اللحظة!

وبفضل العناية، والسهر، والضني الذي يفوق التصوّر، استطاعت « ماما » أن تنقذني، ومن المحقق أنها الشخص الوحيد الذي كان بوسعه إنقاذي. فقد كان إيماني ضعيفًا بدواء الأطباء، ولكنني أوتيت إيمانًا عارمًا بدواء الأصدقاء الصادقين. والأشياء التي يتوقف عليها

هناؤنا، تفضل كثيرًا كافة الأشياء الأخرى!.. وإذا كانت في الحياة عاطفة مستعذبة، فإنما هي تلك التي استشعرناها إذ عاد كل منا إلى الآخر. ولم يزدد شغفنا المتبادل - فما كان من الممكن أن يزداد ـ ولكنه اتخذ مزيدًا من الألفة، لا أدرى كيف أشرحه.. وغدا، في بساطته الضافية، أشدّ تأثيرًا!.. وهكذا أصبحت بكل كياني صنع يديها. أصبحت ابنها تمامًا، بل وأكثر مما لو أنها كانت أمي حقًّا. ودون ما تفكير أو قصد، لم نعد نفترق، بل بدأنا ندمج كيانينا في وجود مشترك، وداخلنا شعور مشترك بأن كلًّا منا لم يكن لازمًا للآخر فحسب، وإنما كان فيه الكفاية والغناء له عن سواه.. فعوّدنا نفسينا على ألا نفكر في أي شيء غريب عنا، وعلى أن نقصر سعادتنا وكل شهواتنا قصرًا تامًّا على ذلك « الاقتناء » المتبادل70، الذي أحسبه كان فريدًا في نوعه بين البشر، والذي لم يكن ـ كما قلت - صادرًا عن هوى فحسب، وإنما كان اقتناء أكثر واقعية من المألوف.. كان - دون ما استناد إلى الأحاسيس أو الجنس أو السن أو المظهر - يرتبط بكل مقومات شخصية الفرد!

تُرى كيف قُدِّر لهذه المحنة ألا تجتلب السعادة إلى حياتنا، حتى آخر أيام « ماما » وأيامي؟.. لم يكن هذا ذنبي، ولديّ من الدليل ما يعزيني!.. كذلك لم يكن ذنبها هي، أو لم يكن بإرادتها، على الأقل!.. فلقد كُتب للطبيعة التي لا تلين، أن تفرض سلطانها71 سريعًا. على أن هذه النكسة المشئومة لم تكن مفاجئة، بل كانت ثمة مهلة، والحمد للسماء!.. كانت ثمة فترة قصيرة، وغالية، لم تنته نتيجة ذنب منى، ولست ألوم نفسي أو أتهمها بإساءة استغلالها!

ذلك أنني - وإن كنت قد شفيت من مرضى الخطير - إلا أنني لم أستعد قط قواى. فما عادت لصدري عافيته، وإنما لازمتني دائمًا بقية من الحمى، جعلتني في ذبول وكلل. فلم أعد أصبوا إلى شيء سوى أن أنفق أيامي إلى جوار تلك التي كانت عزيزة لديّ، وأن أعضدها في نواياها الطيبة، وأن أمكنها من أن تحس بما للحياة الهانئة من سحر حقيقي، وأن أجعل حياتها على هذه الشاكلة، فيما يتوقّف عليّ. بيد أنني رأيت - بل شعرت - أن العزلة المستمرة التي كانت تجمعنا في بيت معتم كئيب، لن تلبث أن تتسم هي الأخرى بطابع حزين. ولاح لنا علاج ذلك، وكأنه قفز من تلقاء نفسه، حين أوصتني « ماما » باللبن، ورغبت في أن أذهب إلى الريف لأتناوله هناك. ووافقتها على شريطة أن تذهب معي. وكان هذا كافيًا لأن تعقد عزمها، ولم يبق سوى أن نختار المكان. ولم يكن البستان القائم في الضاحية، من الريف تمامًا.. إذ أنه - لوقوعه بين منازل وبساتين أخرى - لم يؤت فتنة المكان الريفي الملائم للاستجمام.. فضلًا عن أننا - عقب موت « آنيه » - تخلينا عن البستان رغبة في الاقتصاد، إذ لم يعد يراودنا الشوق إلى نباتاته النادرة، كما أن ثمة اعتبارات أخرى حملتنا على أن نأسف على فقد هذا المعزل!

وانتهزت - إذ ذاك - فرصة الشعور بالملل الذي لمسته عندها نحو المدينة، فاقترحت عليها أن تهجرها نهائيًا، وأن نستقر معًا في عزلة مستحبة، في دار صغيرة على بُعد كاف لأن يصد المتطفلين! ولقد كانت على استعداد لأن تفعل، وكان هذا الاقتراح الذي ألهمني إياه ملاكها الحارس وملاكي، كفيلًا بأن يضمن لنا - حقًّا - أيامًا سعيدة هادئة، حتى اللحظة التي يفرّق فيها الموت بيننا. ولكن هذا لم يكن الحظ الذي قُدِّر لنا، فقد كُتب على « ماما » أن تُبتلى بكل بلايا الفاقة وسوء الحال - بعد أن قضت عمرها في الرخاء - حتى تغادر الدنيا وهي غير آسفة عليها.. أما أنا، فقد كُتب عليّ أن أعاني التعاسات - من كل نوع ـ كي أصبح يومًا مثالًا للمرء الذي لا يحدوه سوى حب الصالح العام والعدالة، بحيث يجرؤ - وهو غير مسلح بغير براءته وحدها ـ على أن يقول الحقيقة للناس جهارًا، دون مؤازرة الأنصار، ودون أن يؤلف حزبًا لحمايته!

ولقد عمل هاجس تعس على استبقاء « ماما »، فلم تجرؤ على أن تهجر بيتها الحقير، خوفًا من أن تُغضب مالكه. وقالت لى: « إن فكرة العزلة التي تقترحها بديعة، وإنها لتروق لي،

ولكن لابد من تدبير أسباب العيش، حتى في العزلة. وإني لأتعرَّض - بمبارحة سجني - لأن أفقد مصدر عيشي، فإذا لم يعد لدينا خبز في الغابات، أصبح من المحتوم علينا أن نعود إلى المدينة بحثًا عنه. ولكي نقلل من حاجتنا إلى العودة، يجب ألَّا نهجر المدينة نهائيًا.. فلندفع هذا الايجار البسيط للكونت دى سان لوران، حتى يدع لي معاشى72، ولنبحث عن مأوى منعزل بعيد عن المدينة بدرجة تمكننا من العيش في دعة، وقريب منها بحيث نستطيع أن نعود إليها في الحال، إذا ما دعت الضرورة ».. وهذا ما جرى، فبعد بحث قصير، استقرّ بنا المقام في (شارميت)، وهي ضيعة كان يمتلكها السيِّد دى كونزيه، على مشارف (شامبيرى)، ولكنها منعزلة وغير مطروقة، حتى لكأنها تقع على مائة فرسخ منها.. فبين تلين مرتفعين، يمتد - شمالًا وجنوبًا - واد صغير، يجرى في أسفله جدول، تحف به الصخور والأشجار. وعلى أحد الجانبين - بطول هذا الوادي - بضعة بيوت متناثرة، تناسب كل المناسبة أي امرىء يهفو إلى مأوى خلوى منعزل. وبعد أن تفرجنا على بيتين أو ثلاثة - من هذه البيوت - اخترنا في النهاية أبدعها، وكان ملكًا لسيد في خدمة الحكومة يُدعى السيد « نواريه ». وكان البيت جد ملائم للسكنى، تقوم أمامه حديقة مرتفعة عن سطح الأرض، تعلوها كرمة، ويمتد تحتها بستان، وفي مواجهتها غابة من أشجار البلوط، ونبع قريب. وعلى مرتفع من الجبل، مروج لرعي الأنعام. ومجمل القول، توفرت فيه كل مستلزمات الأسرة الريفية الصغيرة التي كنا نعتزم إيواءها هناك. وبقدر ما أستطيع أن أتذكر الأزمان والتواريخ، تسلمنا البيت حوالي نهاية صيف سنة 1736. ولقد طربت في أوَّل ليلة قضيناها هناك، فقلت لصاحبتي العزيزة وأنا أعانقها وأغرقها بدموع الحب والابتهاج: « أواه، يا ماما!.. إن هذا المقر لهو وكر الهناء والبراءة.. فإذا لم نجدهما هنا ـ وكل منا مع الآخر - فليس لنا أن نرجو العثور عليهما في أي مكان! »73.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكراسة السادسة

سنة **1736**

هاك كل ما كنت أتمنى**:** قطعة أرض غير شاسعة «

« وحديقة، ونبع ماء فياض بقرب الدار،

« وإلى جانب هذا غابة صغيرة**..** »

ولم أستطع قط أن أضيف إلى هذا:

لقد حبتني الآلهة**..** بأكثر مما اشتهيت »74 «

ولكن لا بأس، فما كنت بحاجة إلى أكثر من ذلك، بل إنني لم أكن بحاجة إلى أن أمتلك هذه الأشياء، وإنما كان يكفيني أن أستمتع بها!.. ولقد قلت - وشعرت - منذ أجل طويل، أن المالك والمنتفع كثيرًا ما يكونان شخصين جد مختلفين، حتى إذا أقصينا الأزواج والعشاق عن المقارنة!

هنا يبدأ هناء حياتي القصير، وهنا أقبلت اللحظات الوادعة - وإن كانت وجيزة - التي أباحت لي الحق في أن أقول: « إنني عشت »!.. أيتها اللحظات الغالية، التي آسي عليها كل الأسى.. ألا ابدئي من جديد - من أجلى - سريانك الحبيب، وتتابعي في ذاكرتي أكثر بطئًا مما كنت في فرارك في الواقع، إذا كان هذا ممكنًا!.. كيف لي بأن أطيل - كما أشاء - هذا الحديث المؤثّر، الساذج، فأردد نفس الأقوال دائمًا، دون أن أبعث في نفوس قرائي - بتكرارها - سأمًا، اللهم إلا إذا سئمت أنا نفسي العود إلى ترديدها دون انقطاع!.. كذلك، ليت كل هذا يتألف من وقائع، ومن أعمال، ومن أقوال أستطيع أن أصفها وأن أردها إلى الحياة بطريقة ما، ولكن.. كيف لي أن أقول ما لم يُقل، ولم يُفعل، ولم يطف بخاطر، ولكنه استمريء، بل استشعر.. ولست أملك أن أبين أي سبب آخر لهنائي سوى هذا الشعور البسيط؟.. كنت أستيقظ مع الشمس، وأنا سعيد.. فأتمشى، وأنا سعيد.. وأرى « ماما »، وأنا سعيد.. وأفارقها، وأنا سعيد.. وأهيم في الغابات والربى، وأرتاد الوديان، وأقرأ، وأقعد عن العمل، وأفلح الحديقة، وأجنى الزهور، وأساعد في أعمال البيت.. والهناء يتبعني في كل مكان.. لم يكن ينحصر في شيء معين، وإنما كان يشيع في كل كياني، ولم يكن يفارقني لحظة واحدة!

ما من شيء جرى لي أثناء تلك الفترة الحبيبة، ولا من شيء فعلته أو قلته أو فكرت فيه إبانها، إلا بقى فلم يتسرب من ذاكرتى. إن الأوقات التي سبقته، والأوقات التي لحقته، لا توافي ذهني إلا بين آنٍ وآخر، فأذكرها دون تمييز، وفي تخبط.. ولكني أذكر هذه الفترة بأسرها، وكأنها ما تزال باقية! إن خيالي الذي كان يتطلّع دائمًا إلى الأمام ـ في شبابي - والذي أصبح اليوم يلتفت إلى الوراء، يعوضني بهاتين الذكريين الفاتنتين عن الرجاء الذي فقدته إلى الأبد! فإنني لم أعد أرى في المستقبل ما يستهويني، بل إن رجعات الماضي وحدها هي التي تستطيع أن تهفو بعواطفي.. وهذه الذكريات تمتاز - في الفترة التي أتحدَّث عنها - بأنها بالغة الحيوية والصدق، حتى أنها كثيرًا ما تجعلني أحيا سعيدًا، برغم بؤسى وسوء حظي!

واني لأقدّم من هذه الذكريات مثالًا واحًدا يمكن من الحكم على وضوحها وصدقها: ففي أوَّل يوم ذهبنا فيه كي نبيت في (شارميت)، كانت « ماما » في محفة محمولة على الأكتاف، بينما تبعتها على قدمَى. وكان الطريق صاعدًا، وهي ثقيلة الوزن - بعض الشيء - فخشيت أن تضاعف من إنهاك قوى الحمَّالين، ورغبت في أن تهبط في منتصف الطريق

تقريبًا، لتقطع ما تبقى منه على قدميها. وفيما كانت تسير، رأيت شيئًا أزرق في الحسك75، فقالت لي: « ها هو القضاب76 لا يزال مزهرًا!. ولم أكن قد رأيت القضاب قط، ومع ذلك فإنني لم أنحن لفحصه، وكنت قصير النظر بدرجة لا تمكنني من أن أتبين النباتات التي على الأرض، إذا كنت أقف منتصب القامة. واكتفيت بأن ألقيت نظرة على ذلك النبات، وأنا أمر به.. ولقد مرَّت ثلاثون سنة تقريبًا، قبل أن أرى أي قضاب - مرة أخرى - أو ألقى إليه بالًا. وفي سنة 1764، كنت في (كريسيبيه) مع صديقى السيِّد « دى بييرو »، فتسلقنا جبلًا صغيرًا تقوم على قمته استراحة (صالون) بديعة، تُسمى بحق « بيلفى » - المنظر الجميل - وكنت قد بدأت إذ ذاك أهوى دراسة الأعشاب، بعض الشيء. وفيما كنا نصعد، ونحن نتأمل الأدغال، إذا بي أطلق صيحة جذلانة: « آه!.. ها هو ذا القضاب! ».. وكان ذلك حقًّا. ولاحظ « دى بييرو » فرحى، ولكنه جهل سببه. ولسوف يعرفه، إذ أننى أرجو أن يقرأ يومًا ما كتبت هنا. وبوسع القارىء أن يحكم - من الأثر الذي أحدثته في نفسي مناسبة تافهة كهذه - على مدى التأثير الذي يحدثه كل ما يمت إلى تلك الفترة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أن جو الريف لم يرد إليَّ صحتى السابقة إطلاقًا. فلقد كنت ذابلًا، وقد ازدادت حالي سوءًا، ولم أعد أطيق اللبن، فلم يكن ثمة بد من التحول عنه. وكان الماء هو العلاج الشائع - إذ ذاك - لكل داء، فأقبلت على الماء في غير ما حكمة، حتى أنه كاد يشفيني، لا من عللى، وإنما من حياتى77!.. ففى كل صباح، كنت أذهب - عندما أستيقظ - إلى النبع، حاملًا وعاءً كبيرًا. وهناك، كنت أشرب على التعاقب - وأنا أتمشى - ما يعادل ملء زجاجتين. وتحوَّلت نهائيًا عن تناول النبيذ في وجباتي. وكان الماء الذي اعتدت شربه عسر الهضم قليلًا، شأن معظم مياه الجبال.. وموجز القول أنني ظللت على نهجى، حتى أنني - في أقل من شهرين - أتلفت تمامًا معدتي التي كنت أحتفظ بها حتى ذلك الوقت في خير حال! وإذ لم تعد تهضم، أدركت أنني لا ينبغي أن أرجو لها شفاء.. وفى ذلك الحين بالذات، وقع لي حادث كان فريدًا في نوعه وفي عواقبه التي لن تنتهى إلا بانتهاء حياتي!

ففي ذات صباح لم أكن فيه أسوأ حالًا من المعتاد، كنت أرفع مائدة صغيرة على قوائمها، وإذا بي أشعر باضطراب حاد - لا يكاد يبدو له سبب - في جميع جسمى. ولست أجد له تشبيهًا أفضل من أنه كان مثل نوع من عاصفة هبَّت في دمي، وانتشرت لتوها في كل أعضاء جسمى! وأخذت عروقى تنبض بقوة هائلة، حتى أنني لم أشعر بنبضها فحسب، وإنما سمعته، لا سيما نبض الشرايين السباتية. وقد صحب ذلك ضوضاء هائلة في أذنى، وكانت هذه الضوضاء مؤلفة من ثلاثة أو أربعة أنواع: طنين قوى مكتوم، وخرير واضح كأنه ينبعث من ماء جار، وصفير حاد جدًا، ثم النبضات التي ذكرتها، والتي كان بوسعي أن أعد دقاتها دون أن أجس نبضى أو أمس جسمى بيدى! وكان هذا الصخب الداخلي من الضخامة بحيث أنه حرمني من إرهاق السمع الذي كان لديَّ قبل ذلك، وجعلني ثقيل السمع - لا أصم تمامًا - كما هو شأني منذ ذلك الحين!

وفي الوسع تقدير دهشتى و انزعاجى، فقد خُيل إليَّ أننى أموت، ولزمت سريرى، واستدعى الطبيب فرويت له حالى وأنا أرتجف، إذ كنت أعتبرها بلا علاج! وأعتقد أنه شاركني هذا الرأي، ولكنه قام بما تحتمه عليه مهنته، وراح يسرد علىَّ تعليلات طويلة لم أفقه منها شيئًا البتة، ثم عمد - تمشيًا مع نظريته الرفيعة الشأن - إلى إجراء « تجارب على كائنات حية »78، وهو العلاج التجريبي الذي طاب له أن يجربه معى، وكان جد أليم، ومثير، وقليل المفعول، حتى أنني سرعان ما تحوّلت عنه.. وبعد بضعة أسابيع، رأيت أنني لم أتحسن، ولا ازددت سوءًا، فغادرت فراشى، واستأنفت حياتي العادية، مع استمرار نبض عروقى وطنين أذني، اللذين لم يفارقاني دقيقة واحدة، منذ ذلك الحين.. أي منذ ثلاثين عامًا!

وكنت حتى ذاك الوقت كثير النوم، فإذا الحرمان التام من النوم ـ الذي رافق كل هذه الأعراض، والذي ظلَّ يلازمها باستمرار حتى الآن - انتهى إلى إقناعي بأنه لم يبق أمامي أجل طويل في الحياة. وقد هدَّأ هذا الاقتناع من اهتمامي بالشفاء، فترة من الزمن. وإذ رأيت أن ليس بوسعي أن أطيل من حياتي، فقد اعتزمت أن أفيد بأكبر شطر ممكن مما تبقى لى من العمر. وهذا ما تسنى لى بفضل صنيع فذ أسدته لي الطبيعة، إذ أعفتني - في مثل هذه الحال المشئومة - من الآلام التي يبدو أنها كانت قمينة بأن تنتابني. كنت أتضايق من هذه الضوضاء في أذني، ولكني لم أكن أعاني منها، كما أنها لم تكن مصحوبة بأية مضايقات مستمرة أخرى، اللهم إلا الأرق في أثناء الليل، وبضيق دائم في التنفس، لم يكن ليرقى إلى درجة الربو، ولا كان يبدو محسوسًا إلا عندما أحاول الجرى، أو أرهق نفسي في العمل أكثر مما ينبغي قليلًا.

هذا الحادث ـ الذي كان خليقًا بأن يقتل بدني - لم يقتل سوى شهواتي، وإني لأبارك السماء في كل يوم لهذا الأثر السعيد الذي أحدثه في نفسي. وأستطيع أن أقول إننى لم أبدأ العيش إلا حين اعتبرت نفسى رجلًا ميتًا!. وبينما رحت أقدّر الأشياء - التي كنت مزمعًا أن أتخلى عنها - بقيمتها الحقيقية، شرعت أشتغل بالي بأمور أسمى وأنبل، وكأنما كنت أريد أن أستبق الزمن إلى تلك الأمور التي كان ينبغي أن أبادر إلى أدائها، والتي كنت قد أهملتها - حتى ذاك الحين - إهمالًا شنيعًا. كنت كثيرًا ما أمسخ الدين وفقًا لهواي، ولكنني لم أكن قط بلا دين على الإطلاق. ولم يكن يكبدني شيئًا أن أعود إلى هذا الموضوع الكئيب بالنسبة لكثير من الناس، ولكنه لطيف بالنسبة لامرىء ينشد فيه مادة للأمل والعزاء.. وكانت « ماما » - في هذا الصدد - أكثر نفعًا لي من كل رجال الدين قاطبة!.. فلم تغفل - وهي التي اعتادت أن تضع لكل شيء نهجًا خاصًا - عن أن تطبق هذا على الدين كذلك. وكان منهجها يتألّف من أفكار جد متباينة ومفككة: بعضها معقول للغاية، والأخرى طائشة جدًا.. ومن مشاعر مرتبطة بشخصيتها، ومن أفكار قديمة نبعت من تربيتها. فالقاعدة أن المؤمنين يتمثلون الله على ضوء أنفسهم، فالطيبون يتمثلونه طيبًا، والخبيثون يتمثلونه خبيثًا.. والمؤمنون الحقودون والمتشائمون، لا يرون سوى الجحيم، لأنهم يبتغون النقمة للدنيا بأسرها.. أما النفوس المحبة والوادعة، فإنها لا تخشى الجحيم إطلاقًا!.. ومن المدهشات التي لم يُقدَّر لي أن أتغلَّب عليها قط، أن رأيت « فينيلون » الطيب79 يتحدَّث عن ذلك في مؤلفه « تيليماك »، وكأنه كان يؤمن به حق الإيمان!.. على أننى أرجو أن يكون قد لجأ - إذ ذاك - إلى الكذب.. إذ أنه لا بد للمرء، بالرغم من كل اعتبار، من أن يكذب أحيانًا، إذا ما كان أسقفًا! - وهذه حقيقة يعرفها الجميع! - أما « ماما »، فلم تكذب عليّ. كانت هذه النفس المنزهة عن الغرض، لا تقوى على أن تتصوَّر إلهًا منتقمًا دائم السخط، وما كانت لترى في الله سوي الرحمة والشفقة، في حين أن الأتقياء لا يرون فيه سوى القصاص والعقاب. وكثيرًا ما كانت تقول لي أنه ليس من العدالة في شيء أن ينشد الله القصاص منا، لأنه لم يمنحنا ما يلزم لكي نكون كما يبغى، ومن ثم فإن القصاص يكون بمثابة مطالبتنا بأكثر مما منحنا!.. والغريب في الأمر، أنها - برغم عدم إيمانها بالجحيم - لم تتخل قط عن إيمانها بالمطهر80، وقد تأتى هذا عن أنها لم تكن تدرى ما تفعله بالنفوس الشريرة، فما كانت تملك أن تدمغها بالشر، ولا كانت تملك أن تسلكها في الصالحين ريثما تغدو صالحة فعلًا.. ولا بد في الواقع من الاعتراف ـ سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة ـ بأن الأشرار مصدر حيرة دائمًا!

وهناك أمر غريب آخر، فمن الواضح أن نظرية الخطيئة الكبرى والتكفير، تنهار بفضل هذا النهج، حتى أن أساس المسيحية الشائعة ليهتز، وحتى أن الكاثوليكية لا تعود قادرة على أن تظل قائمة. ومع ذلك فقد كانت « ماما » كاثوليكية صالحة، أو كانت تجهر بذلك، ومن المؤكد أنها كانت تصدر في جهرها عن إيمان جد صحيح. وكان يبدو لها أن الناس اعتادوا أن يفسروا الكتاب المقدس في حرفية وتزمت أكثر مما ينبغي.. وكان يلوح لها أن كل ما يُقرأ عن العذاب الأبدى يجب أن يؤخذ على أنه وعيد أو مجاز وكناية.. وكان موت المسيح

يتراءى لها مثالًا للخير القدسي، يرشد الناس إلى أن يحبوا الله وأن يتحابوا فيما بينهم على غراره. وموجز القول، أنها كانت وفية للديانة التي اعتنقتها، وقد تقبلت في إخلاص كل مقررات العقيدة غير أنه كان يبدو منها - إذا ما نوقشت في كل مادة على حدة - أن عقيدتها تختلف تمامًا عن الكنيسة التي كانت تقر لها بالولاء دائمًا.. ولقد أوتيت - فوق ذلك - سذاجة قلب، وصراحة أكثر تأثيرًا من أي رياء. وكثيرًا ما كانت هذه الصراحة تحير الناس، حتى الراهب الذي اعتـاد، أن يتلقى اعترافاتها، والذي لم تكن تخفي عنه شيئًا، فقد اعتادت أن تقول له: « إنني كاثوليكية صالحة، وأود أن أكون دائمًا كذلك.. وإني لأعتنق - بكل طاقة نفسي - مقررات أمنا الكنيسة المقدسة، على أنني لا أتحكم في إيماني، وإن كنت أتحكم في إرادتي، فأسيطر عليها دون ما تحفظ. وإني لراغبة في أن أؤمن كل الإيمان. فبماذا تطالبني فوق هذا؟ ».

وإني لأعتقد بأنها كانت خليقة بأن تتبع القانون الخلقي المسيحي - ولو لم يكن يوجد ثمة قانون خلقى مسيحى - لأن مبادئه تتمشى تمامًا مع أخلاقها. وكانت تفعل كل ما يأمر به، لكنها كانت قمينة بأن تفعله ولو لم تؤمر به!.. وكانت تحب أن تبدى طاعتها في الأمور غير المهمة: فمثلًا لو كان أكل اللحوم مباحًا - بل لو أنه كان مفروضًا - في أيام الصوم، لصامت عنه فيما بينها وبين الله، دون أية حاجة لمراعاة الاعتبارات التي تمليها الحكمة. ولكن هذه القواعد الخلقية كانت تتبع دائمًا مبادىء السيِّد « دى تافيل »[81]، أو بالأحرى كانت « ماما » تدّعى أنها لا ترى تناقضًا بينها، فكانت على استعداد لأن تضاجع عشرين رجلًا - في كل يوم - وهي مطمئنة الضمير، دون أن يكون لها هم سوى إرضاء الشهوة. وإني لأعرف أن كثيرات من المتدينات لسن أكثر منها ترددًا في هذه الناحية، ولكن الفارق بينها وبينهن هو أنهن ينسقن إلى الغواية بفضل شهواتهن، في حين أنها تنساق بفضل فلسفتها السفسطائية!.. ولقد كانت في أثناء أكثر الأحاديث العاطفية تأثيرًا - بل وأجرؤ على أن أقول: أكثر الأحاديث التهذيبية عبرة - تنساق إلى هذا الموضوع، فلا تتغيّر هيأتها، ولا تتغيّر لهجتها، ولا يخطر ببالها أنها تناقض نفسها. بل إنها كانت تقطع تلك الأحاديث ـ إذا دعت الحاجة - لتتكلم في هذا الموضوع، ثم تعود إلى حديثها الأوَّل بنفس الهدوء السابق.. وهكذا كانت صادقة في اقتناعها، إلى درجة أن الأمر كله لم يكن يعدو أن يكون - في نظرها - مبدأ اجتماعيًا يستطيع كل من أوتى إدراكًا أن يؤوله أو يطبقه أو ينبذه، وفقًا لنظرته إلى الموضوع، دون أقل تعرّض للإساءة إلى الله!

ومع أنني - بالتأكيد - لم أكن أرى رأيها في هذا الموضوع، إلا أنني أعترف بأنني لم أجرؤ على معارضتها، خجلًا مني من أن أبدى من قلة اللطف والأدب ما كانت تتطلبه المعارضة. ولقد كان بوسعي أن أضع قاعدة للآخرين، وأن أحاول أن أستثني نفسى منها[82]. ولكن طباع « ماما » لم تكن فيها الوقاية الكافية لها من أن تسيء استغلال مبادئها، كما أنني كنت أعرف أنها امرأة لا تميل إلى التقلّب والتلون، وأن استباحة الاستثناء لنفسي كان معناه أن أدع لها فرصة إباحته لكل مَن يروق لها!.. على أننى أورد هذا التناقض هنـا - بين ما أورد من تناقضات - بمحض المصادفة، برغم أنه كان دائمًا قليل الأثر في سلوكها، بل إنه لم يكن ذا أثر البتة، في ذلك الحين.. غير أننى وعدت بأن أعرض مبادئها في صدق واخلاص، وإني لراغب في أن أفي بوعدي.

ولأرجع ثانية إلى الحديث عن نفسي.. فما إن وجدت لدى « ماما » كل المبادىء التي كنت بحاجة إليها لأعزز نفسي ضد مخاوف الموت وما وراءه، حتى أقبلت باطمئنان على هذا المصدر للثقة، وأصبحت أكثر تعلّقًا بها مني في أي وقت آخر، وكأنما كنت أود أن أنقل إليها الحياة التي كنت أحس بأنها توشك أن تهجرني!.. وترتبت على مضاعفة تعلقي بها، وعلى الاقتناع بأنه لم يبق أمامي في الحياة سوى أجل قصير، وعلى رضائى العميق بما كُتب لي في المستقبل.. ترتبت على كل هذا، حالة دائمة من الطمأنينة ـ بل ومن اللذة - خمدت فيها

كافة الانفعالات التي تنأي بالهواجس والآمال عنا، ولكنها - في الوقت ذاته - تركتني أنعم في سكينة، ودون ما هم، بما تبقى في عمري من أيام!.. وكان ثمة عامل ساهم في جعل هذه الحال أكثر عذوبة، ذلك هو السعى إلى تنمية ميل « ماما » إلى الريف، بكل وسائل اللهو والتسلية التي كان بوسعي توفيرها. وفيما كنت أحملها على أن تحب حديقتهـا، وساحة دواجنهـا، وحماماتها، وبقراتها، اكتسبت أنا الآخر ميلًا نحو هذه جميعًا، وإذا بهذه الشواغل البسيطة - التي كانت تملأ نهاري دون أن تعكر صفائى - تجدينى تحسنًا في صحتي يفوق ما أجدانيـه اللبن وسائر الأدوية الأخرى التي استخدمت للمحافظة على كياني البائس، إلى أقصى ما كان ممكنًا!

ووجدنا في قطف الثمار وجنى الفواكه تسلية فيما تبقّى من ذلك العام، فأخذنا نزداد شغفًا بالحياة الريفية، وسط الناس الطيبين الذين كانوا يحيطون بنا.



ـدنا فى قطف الثمار وجنى الفواكه تسلية فيما تبقى من ذلك العام .

وشهدنا اقتراب الشتاء بأسف بالغ، فعدنا إلى المدينة وكأننا كنا نذهب إلى منفى.. لا سيما أنا، إذ كنت في ريب من أنني سأشهد الربيع مرة أخرى، فاعتقدت أنني ودَّعت (شارميت) إلى الأبد. ولم أبرحها دون أن أقبّل الأرض والأشجار، ودون أن أرتد إليها عدَّة مرات كلما ابتعدت عنها! ولما كنت قد تخليت - منذ زمن طويل - عن تلميذاتي، وفقدت شغفي بملاهي المدينة ومجتمعاتها، فانني لم أعد أغادر البيت، ولم أعد أرى أحدًا سوى « ماما » والسيِّد سالومون، الذي أصبح - منذ قليل - طبيبها وطبيبي.. وكان رجلًا أمينًا، ذكيًا، « كارتى »83 متحمس، يحسن الحديث عن نظام العالم، وقد عادت عليَّ أحاديثه العذبة، المفيدة، بخير يفوق ما عادت عليَّ به كل وصفاته الطبية. وما كنت لأطيق يومًا ذلك الغباء وذاك التخبّط الأحمق الذي تحفل به الأحاديث العادية، ولكن الأحاديث النافعة الدسمة تبعث دائمًا في نفسي سرورًا عارمًا، وما اعتدت أن أرفضها قط!.. وقد تولانى ميل شديد إلى أحاديث السيّد سالومون، فقد لاح لي أنني كنت أكتسب معه - سلفًا - تلك المعلومات الرفيعة التي كان مقدَّرًا لروحي أن تكتسبها حين تتخلَّص من القيود التي كانت تثقلها. وقد امتدَّ الميل الذي استشعرته نحوه إلى الموضوعات التي كان يعالجها، فشرعت أبحث عن الكتب التي تستطيع ان تساعدني على أن أحسن فهمه. وكانت الكتب التي تمزج التقوى بالعلوم هي أكثرها ملاءمة لي، لا سيما كتب « الخطابة » وكتب « بور - رويال »84، التي أخذت أطالعها، أو بالأحرى، ألتهمها. ووقع بين يدى منها كتاب للأب « لامى » عنوانه « أحاديث عن العلوم ». وكان عبارة عن مقدمة للتعريف بالكتب التي تعالج العلوم. وقد قرأته وأعدت قراءته مائة مرة، وعقدت العزم على أن أجعله مرشدى. وألفيتني في النهاية أنجذب، بالرغم من حالتي الصحية، أو بالأحرى بفضلها، إلى الدراسة دون أن أملك مقاومة. وبينما كنت أنظر إلى كل يوم وكأنه آخر أيامي، رحت أدرس في تحمس عارم، وكأنني سأعيش دومًا!.. ولقد قيل لي أن هذا كان ضارًّا بي، ولكني أعتقد ـ من ناحيتي - أن هذا قد أفادني، لا ذهنيًا فحسب، وإنما جسديًا كذلك.. إذ أن هذا الشغل، الذي شغفت به، صار مستعذبًا لديَّ، حتى أنني لم أعد أفكر في عللى، ومن ثم أصبحت أقل تأثّرًا بها. ومن الصحيح يقينًا، أن شيئًا لم يوفّر لي شفاء حقيقيًا، ولكني - إذ لم أعد أشعر بألم حاد - تعوَّدت الوهن، وعدم النوم، وأن أفكر بدلًا من أن أعمل، و - أخيرًا - أن أنظر إلى التداعي التدرجي البطيء، الذي ألّم بكياني، وكأنه تطوّر لا مناص منه، ولا يملك أن يوقفه سوى الموت!

ولم تصرفني هذه الفكرة عن كل هموم الحياة التي لا جدوى منها فحسب، وإنما أعفتني أيضًا من مضايقات الأدوية التي كنت - حتى ذلك الوقت ـ أضطر إلى تقبلها مرغمًا. فإن سالومون لم يلبث أن اقتنع بأن هذه العقاقير لم تكن تملك لي إنقاذًا، فأعفاني من غضاضتها، وقنع بأن يهدّىء من شجن « ماما » المسكينة ببعض الوصفات غير الضارة، التي تغر المريض وتحفظ على الطبيب سمعته! وتحوَّلت عن نظام التغذية الضيق النطاق، فعدت إلى تناول النبيذ وكل مستلزمات حياة الإنسان الموفور الصحة، بقدر ما كانت قواى تسمح. وكنت أقبل على كل شيء في اعتدال، ولكني لم أحرم نفسي من شيء البتة!.. بل إنني عدت إلى الخروج، واستأنفت زيارة معارفى، سيما السيّد دى « كونزيبه »، الذي كانت صحبته تروق لي كثيرًا. وقصارى القول أن ارتقاب الموت لم يعق ميلي للدرس، بل بدا أنه أذكاه، سواء كان ذلك راجعًا إلى أنني رأيت أن من الجميل أن أدرس حتى ساعتي الأخيرة، أو كان راجعًا إلى أن بقية من الأمل في الحياة كانت تكمن متوارية في قرارة قلبي!.. ورحت أسرع في جمع بعض المعرفة للعالم الآخر، وكأنما كنت أعتقد أنني لن أمتلك فيه من المعرفة سوى القدر الذي سأحمله إليه. وأصبحت ولوعًا بحانوت كتبى يدعى السيّد « بوشار »، اعتاد أن يتردَّد عليه عدد من رجال الأدب.. وعندما أصبح الربيع - الذي كنت أظنني لن أشهده ثانية - على الأبواب، جمعت لنفسي عددًا من الكتب لأحملها معى إلى (شارميت)، إذا كان لى حظ الرجوع إليها!

وأتيح لي هذا الحظ، فاستغللته لصالحي.. وإن الاغتباط الذي شهدت به البراعم الأولى للربيع ليجل عن الوصف!.. كانت رؤية الربيع مرة أخرى، بمثابة البعث في الفردوس.. فما أن بدأت الثلوج في الذوبان، حتى هجرنا وكرنا، ووصلنا إلى (شارميت) لنحظى هناك بأولى أنغام البلبل. ومنذ ذلك الحين لم أعد أفكر في الموت! ومن العجيب حقًّا أنني لم أصب قط بأمراض شديدة الوطأة في الريف. ولقد عانيت كثيرًا من الآلام هناك، ولكنني لم ألزم السرير أبدًا. وكثيرًا ما كنت أقول، عندما أشعر أنني أسوأ حالًا من المعتاد « عندما ترونني موشكًا على الموت، احملوني إلى ظل بلوطة، وأعدكم بأن أعود إليكم معافى »!

ومع أنني كنت لا أزال ضعيفًا، إلا أنني عاودت أعمالي الريفية، ولكن بقدر يتناسب مع قواي. وقد عانيت أسى حقيقيًا لعدم استطاعتي أن أعنى بالحديقة وحدى.. بيد أننى كنت إذا هويت ست مرات بالمعول، شعرت بأننى أفقد أنفاسي، وتصبب العرق منى، وشعرت بعجز عن الاستمرار.. وإذا انحنيت، كان خفقان قلبي يتضاعف، والدم يندفع إلى رأسي بقوة بالغة تضطرني إلى الاعتدال سريعًا. وإذ اضطررت إلى أن أقتصر على أعمال أقل إرهاقًا، فقد تكفَّلت - بين ما اضطلعت به من مهام - بأعشاش الحمام، فشغفت بها جدًّا، حتى أنني كثيرًا ما كنت أقضى عدَّة ساعات هناك دون أن أشعر بالملل لحظة.. والحمامة جد هيابة، وصعبة الترويض، إلا أنني توصلت إلى أن أبث في حماماتي الثقة، حتى أنها راحت تتبعني في كل مكان، وتدعني أمسكها متى شئت!.. ولم أكن أظهر في الحديقة أو في ساحة الدار، دون أن تحط اثنتان أو ثلاث على ذراعي ورأسي في الحال!.. وبالرغم من الغبطة التي كنت أستشعرها، فإن هذا الموكب لم يلبث أن غدا متعبًا إلى درجة اضطررت معها إلى أن أنبذ هذه الألفة. ولقد اعتدت دائمًا أن أجد متعة فذّة في استئناس الحيوان، لا سيما ما يكون منه خجولًا وبريًّا نفورًا. وكان يبدو لي من المطرب أن أوحى للحيوان بالثقة، وما خدعته قط، إذ كنت أود أن يحبني بانطلاق ودون قيد!

ولقد ذكرت أننى أحضرت معى كتبًا.. وقد انتفعت بها، ولكن بطريقة أقل تمكينًا لي من التعلّم، وأدعى إلى الحيرة وبلبلة الفكر. فإن الفكرة الخاطئة التي كانت لديَّ عن الأمور، أغرتني بأنه لابد لقراءة كتاب قراءة مثمرة، من أن يحرز المرء كافة المعلومات الأولية التي يرتبط بها موضوع هذا الكتاب، دون أن يخطر ببالي أن المؤلف نفسه كثيرًا ما لا يكون محيطًا بهذه المعلومات.. وأنه إنما يأخذها عن كتب أخرى، بقدر ما تدعو الحاجة. وبهذه الفكرة الدالّة على غباء، رحت أتوقف عن القراءة في كل لحظة، مضطرًّا إلى أن ألهث باستمرار من كتاب إلى آخر.. وكنت أحيانًا أضطر إلى أن أستنفد مكتبات بأسرها، قبل أن أصل إلى الصفحة العاشرة من الكتاب الذي أرجو أن أدرسه!.. ومع ذلك فإنني اتبعت هذا الأسلوب المجرَّد من الإدراك، في إسراف، حتى أنني بددت وقتًا لا حد له، وأرهقت رأسي إلى درجة أنني لم أعد أقوى على رؤية أو استيعاب شيء ما.. وفطنت - لحسن الحظ - إلى أننى كنت أسلك طريقًا خاطئًا، يقودني إلى تيه هائل، فعدلت عنه قبل أن أضل تمامًا!

ومهما تكن قلة ما لدى الإنسان من ميل حقيقي للعلوم، فإن أوَّل شيء يشعر به حين يُقبل على دراسة العلوم، هو ترابطها الذي يجعلها تتقارب، وتتعاون، ويلقى كل منها الضوء على الآخر، بحيث لا يكون ثمة غني لواحد منها عن الآخر. ومع أن الذكاء البشري لا يقوى على أن يسعها جميعًا، بل لابد له دائمًا من أن يتخذ واحدًا منها كأساس، إلا أن المرء كثيرًا ما يجد نفسه في الظلام - لا سيما في العلم الذي اختاره - إذا هو لم يلم بفكرة عن العلوم الباقية.. ولقد شعرت بأن هذا الذي آليته على نفسي، كان - في حد ذاته - شيئًا طيبًا ونافعًا، وأنه ليس من حاجة إلا إلى تبديل الأسلوب. فأقبلت على « دائرة المعارف » أوَّلًا، وقسّمتها وفقًا لفروعها، ثم رأيت أن لا بد لي من أن أفعل العكس تمامًا فأدرس هذه الفروع منفصلة، وأمضى في كل منها على حدة، إلى النقطة التي يلتقى عندها بسواه، فتتحد جميعًا. وبهذا عدت إلى التقسيم المألوف، ولكني عدت إليه وقد أصبحت رجلًا يعرف ما ينبغي أن يفعل.

وفى هذا عوضني التأمل عن المعرفة، وساعد التفكير الطبيعي للغاية، على إرشادي للصواب. وسواء كان مقدَّرًا لي أن أعيش أو أن أموت، فقد رأيت أنني لم أوت وقتًا أضيعه. وعدم الالمام بشيء - في سن تقرب من الخامسة والعشرين - مع الرغبة في التعلّم، يتطلَّب الانهماك في الإفادة من الوقت. ومع أنني لم أكن أدرى عند أية نقطة قد يحلو للحظ أو للموت أن يوقف تحمسي، إلا أنني كنت راغبًا - مهما تكن الظروف - في أن ألم بفكرة عن كل شيء، لكي أتبين اتجاه كفاءاتي الطبيعية، أكثر مني لكي أحكم بنفسي على قيمة الجدارة القائمة على التثقف!

ووجدت في تنفيذ هذا المشروع فائدة أخرى لم أكن قد فكرت فيها، وهي توفير أطول وقت ممكن، لاستغلاله في ذلك. ولا بد أنني لم أُخلق للدرس، لأن العكوف عليه طويلًا يضجرني إلى درجة أنه من المستحيل عليّ أن أضطر نفسي إلى الانشغال بموضوع واحد لنصف ساعة بأكمله، سيما حين أكون منصرفًا إلى متابعة سير تفكير شخص غيرى85، في حين أننى أقوى أحيانًا على أن أستغرق في تفكيري الخاص أمدًا أطول، بل وبتوفيق كبيرا.. أما حين أتتبع تفكير مؤلف ما، لبضع صفحات أضطر إلى مطالعتها بإمعان واستيعاب، فإن عقلي يشرد ويتوه بين السحاب!.. فإذا أصررت، فإنني أرهق نفسي عبثًا، وأصاب بدوار، ولا أعود أرى شيئًا.. أما إذا تعاقبت موضوعات متباينة - ولو كان تعاقبها متواصلًا دون إمهال - فإن الواحد منها يسرى عنى عناء الذي سبقه، ومن ثم فإني أمضى فيها بيسر، دون أن أشعر بحاجة إلى أية مهلة للراحة أو التخفّف. ولقد عمدت إلى الإفادة من هذه الملاحظة في الخطة التي انتهجتها للدرس، فرحت أمزج الموضوعات بشكلٍ كان يجعلني أشغل بها طيلة اليوم دون أن أسأم البتة!.. ومن الصحيح أن المهام الريفية والمنزلية كانت تُحدث تغييرًا نافعًا، ولكنني - في غمرة التحمّس المطرد - لم ألبث أن وجدت الوسيلة لتوفير وقت للدرس ـ إلى جانب أداء هذه المهام - ولأن أشغل بأمرين في آنٍ واحد، دون أن يخطر لي أن هذا يقلل من إتقاني لكل منهما!

على أنني أعمد إلى شيء من التحفّظ، بشأن هذه التفصيلات الدقيقة التي تفتنني، والتي أثقل بها أحيانًا على قارئي.. وهو تحفظ لا يحدسه القارىء إطلاقًا، إذا أنا لم أعن بتنبيهه إليه. فهنا - على سبيل المثال - أذكر في استعذاب كافة المحاولات المتباينة التي قمت بها لتقسيم وقتى على نمط أتاح لي أن أجد فيه أكثر قدر ممكن من المتعة ومن الفائدة، في آنٍ واحد. وبوسعي أن أقول أن تلك الفترة، التي قضيتها في عزلة، وفي مرض مستمر، كانت أقل فترات عمرى تعرّضًا للخمول والضيق. وقد انقضى شهران أو ثلاثة على هذا النسق، في تعرّف اتجاه عقلي، وفي الاستمتاع ـ في أجمل فصول السنة، وفي البقعة التي أحالها هذا الفصل فاتنة - بسحر الحياة الذي أحسست بقيمته تمامًا: كسحر الزمالة العذبة، غير المقيدة - إذا صح أن نُطلق هذا الاسم على معاشرة قامت على اتحاد كامل - أو سحر معرفة رائعة كنت أعتزم أن أكتسبها، ولكنني كنت أنتشى بها وكأنني حصلتها فعلًا.. أو لعل نشوتها كانت أشد لأن لذة الدرس والتعلّم كانت ذات دخل كبير في سعادتي! ومن الواجب التجاوز عن هذه المحاولات، التي كانت بالنسبة لي مبعث لذة وابتهاج، ولكنها كانت أبسط من أن تُشرح. فأنا أكرِّر أن السعادة الحقة لا توصف، وإنما هى تُحس.. وكلما عزّ وصفها، كان الشعور بها أفضل وأجمل، إذ أنها ليست نتيجة مجموعة من الوقائع، وإنما هي حالة دائمة. إننى كثيرًا ما أكرِّر نفسي، ولكنني خليق بأن أزداد تكرارًا، لو أننى رويت الشيء الواحد بعدد المرات التي يخطر فيها ببالي! وعندما اتخذت حياتي - التي كانت كثيرة التغيّر - مجرى أكثر انتظامًا، فهاكم أقرب وصف ممكن لتوزيع أوقاتي.

كنت أستيقظ قبل مشرق الشمس في كل صباح، فأمرق خلال بستان مجاور، إلى طريق جد بديعة، فوق حقول الكروم التي كانت تمتد بطول سفح الجبل حتى (شامبيرى). وهناك - وأنا أتمشى - كنت أتلو صلاتي، التي لم تكن تتألّف من مجرّد تحريك شفتَي بتمتمة فارغة،

وإنما كانت تتمثّل في سمو صادق بالقلب إلى خالق هذه الطبيعة البديعة، التي كانت آيات جمالها تنبسط أمام عيني.. فما أحببت قط أداء الصلاة في الحجرة، فقد كانت الجدران وكل تلك الأشياء التي من صنع الإنسان، تبدو لي دائمًا وكأنها تحول بيني وبين الله.. وإني لأحب أن أفكر فيه وأتأمل آياته، بينما يكون فؤادي متطلّعًا إليـه. وبوسعي أن أقول أن صلاتي كانت خالصة، وكانت جديرة - لهذا السبب - بأن تُستجاب. ولم أكن أسأل لنفسى - ولتلك التي كانت دعواتي لا تفرق بيني وبينها إطلاقًا - سوى حياة بريئة، مطمئنة، خالية من الرذيلة86، ومن الألم، ومن الفاقة المدقعة، ومن موت الاستقامة.. وما إليها، في المستقبل. وفيما عدا ذلك، كانت هـذه العبادة تنصرف في معظمها إلى الإعجاب والتأمل، أكثر مما تنصرف إلى الدعاء والسؤال.. إذ أننى أدرك أن خير وسيلة للحصول من مانح النعم الحقيقية على تلك النعم اللازمة لنـا، هي في العمل على أن نستحقها، أكثر مما هي في طلبها منه!.. وكنت أعود من نزهتى بعد دورة طويلة، وأنا منصرف البال إلى تأمل المناظر الريفية المحيطة بي، في سرور واستمتاع، فهي الوحيدة التي لا تملّها العين والقلب أبدًا. وكنت أرقب من بُعـد ما إذا كان النهار قد بدأ عند « ماما »، فإذا ما أبصرت نافذتها مفتوحة، ارتجفت غبطة، وهرعت نحو الدار. أما إذا كانت النافـذة مغلقة، فقد كنت أدلف إلى الحديقة وأنتظر حتى تستيقظ، وأنا أتسلى باسترجاع ما درست في المساء السابق، أو العمل في الحديقة. وإذ يُفتح مصراعا النافذة، أبادر لأقبل « ماما » في فراشها، وهي ما تزال نصف نائمة، في كثير من الأحيـان.. وكان هذا التقبيل طاهرًا أكثر منه عاطفيًا، يستمد من براءته - بالذات - سحرًا لم يقترن قط بملاذ الحس!

وكنا نفطر عادة على قهوة باللبن. وكانت هذه أكثر فترات النهار هدوءًا وسكينة لنا، فكنا نسترسل في الحديث على سجيتنا. ولقد خلفت لي هذه الجلسات - التي كانت طويلة في العادة - ميلًا قويًا إلى الإفطار، وإني لأوثر الطريقة الإنجليزية أو السويسرية التي تعتبر الإفطار وجبـة كاملة تضم الأسرة بأكملها، على الطريقة الفرنسية التي يفطر بمقتضاها كل امرىء في حجرته بمفرده، أو لا يفطر إطلاقًا، في الغالب.

وبعد ساعة أو اثنتين - تمضيان في الحديث - كنت أخلو إلى كتبى حتى موعد الغـداء. وكنت أبدأ بكتاب من كتب الفلسفة، مثل كتاب « المنطق » لبور - رويال، و « المقالة » للوك، وكتب مالبرانش، وليبينيتز وديكارت، إلخ. وسرعان ما كنت ألاحظ أن بين هؤلاء المؤلفين تناقضًا دائمًا. فخطرت لى فكرة خيالية أوحت بالتقريب بينهم، مما أتعبني كثيرًا وجعلني أبـدد كثيرًا من الوقت.. وكنت أربك ذهني دون أن أحـرز تقدمًا ما! وإذ طرحت عنى - في النهاية - هذا الأسلوب كذلك، انتهجت أسلوبًا يفضله بدرجة لا حد لها، وإليه أعزو كل التقدّم الذي استطعت أن أحرزه، بالرغم من نقص استعدادى.. فمن المؤكد أنني لم أوت قط استعدادًا كبيرًا للدرس. ولقـد آليت على نفسي ـ وأنا أقرأ لكل مؤلف - أن أستوعب كل أفكاره وأتتبعها دون أن أخلطها بآرائي، أو بآراء أي مؤلف آخر، ودون أن أجادلها. بل أنني كنت أقول لنفسي: « لنبدأ باختزان الآراء بدقة - صحيحة كانت أو خاطئة - ريثما يتوفّر لعقلي من الغذاء ما يمكنه من المقارنة بينها والمفاضلة ». وإني لأعلم أن هـذا الأسلوب لا يخلو من العيوب، ولكنه أفلح في تمكيني من غايتي، وهي التعلّم. وبعد بضع سنوات قضيتها في عدم التفكير إلا على غرار سـواى، دون ما تأمل بل وبدون تمحيص، ألفيت نفسي مالكًا لمدخر من العلم كاف لإرضائي، ولتمكيني من أن أفكر دون معونة الغير!.. وعنـدما كانت الرحلات والشواغل تحرمني فرصة اللجوء إلى كتبي - في ذلك الحين ـ كنت أتسلى باسترجاع ما قرأت والمقارنة بين بعضه وبعض، فأزن كل شيء بميزان، وأصدر - في بعض الأحيان - أحكامًا على أساتذتي. ومع أنني بدأت أشحذ مقدرتي على النقد في سن متأخرة، إلا أنني لم أجد أنها قد تبددت. وعندما نشرت آرائي الخاصة، لم أُتهم أبدًا بأننى عبد لأساتذتي، ولا بأنني « أحلف بكلمات أستاذ ما »87!

وانتقلت هذه الدراسات إلى مبادىء الهندسة، التي لم أجاوزها كثيرًا قط، إذ أصررت على أن أقهر ضعف ذاكرتي، بفضل الرجوع مائة مرة ومرة إلى حيث بدأت، والشروع باستمرار في تتبّع خطواتي السابقة. ولم أستسغ تعاليم « يوكليد »88، الذي كان يعني بتسلسل البراهين، أكثر من عنايته بترابط الأفكار. وفضلت هندسة الأب « لامي »، الذي أصبح - منذ ذلك الحين - من أحب المؤلفين إلىّ، والذي أعدت قراءة مؤلفاته في استمراء.. وجاء الجبر بعد ذلك، فكان الأب « لامي » هو الذي اتخذته مرشدًا. حتى إذا تقدَّمت في دراستي، أقبلت على « علم الحساب » للأب « رينو »، ثم على كتابه « تحاليل تستند إلى براهين »، الذي لم أفعل أكثر من أن مررت به مر الكرام. ولم أمض قط إلى الحد الذي أفهم عنده تطبيق الجبر على الهندسة، فما أحببت قط هذه الطريقة التي تجعلك تمضى في العملية الرياضية دون أن تدري ما الذي تفعله. وكان حل أية مسألة هندسية بالمعادلات الجبرية يبدو لى مثل عزف لحن بالاكتفاء بإدارة يد89!

وعندما وجدت بالحساب - لأوَّل مرة - أن مربع المعادلة الجبرية ذات الحدين، يتألّف من مربع كل حد من حديها، ومن ضعف حاصل ضرب كل منهما في الآخر90، لم أشأ أن أصدّق ذلك ـ برغم صحة عملية الضرب التي أجريتها - إلا بعد أن سجّلت العملية بالأرقام. وليس معنى هذا أنني لم أوت ميلًا عظيمًا إلى الجبر، لأنه لا يعالج سوي كميات مجرَّدة (مبهمة)، ولكنني كنت - عند تطبيقه على المساحات والأبعاد - أحب أن أرى العملية ممثلة بسطور وخطوط، وبدون ذلك لم أكن أفهم منها شيئًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجاءت اللغة اللاتينية، بعد ذلك. وكانت هذه أشق دراساتى، فلم أحرز فيها أبدًا أي تقدّم كبير. واتبعت في البداية أسلوب « بور - رويال » اللاتيني، ولكن دون ما ثمرة. فإن هذه الأشعار الاستروقوطية91 كانت تقبض قلبي، ولا تستطيع أن تلج أذني!.. ووجدتني أضل وسط أكداس القواعد، وما أن استوعبت قاعدة حتى أكون قد نسيت التي سبقتها!.. فليست دراسة الكلمات بالتي تليق بإنسان بلا ذاكرة، وما أصررت على هذه الدراسة إلا لكي أغصب ذاكرتي على أن تقوى، فحسب!.. وكان لابد من أن أهجرها في النهاية، على أنني استوعبت التركيب بالدرجة التي تكفي لأن أستطيع أن أقرأ أسلوب كاتب سلس، بمساعدة قاموس. وقد اتبعت هذا النهج، فوجدتني أتقدَّم. وأقبلت على الترجمة، لا كتابة، وإنما في الذاكرة، واقتصرت على ذلك. وبفضل الزمن والمران، أصبحت أقرأ بطلاقة كافية مؤلفات الكتَّاب اللاتينيين، ولكني لم أستطع قط أن أتكلم أو أكتب هذه اللغة.. وهذا ما حيرني كثيرًا، حين ألفيتني - دون أن أدرى كيف - مدرجًا في عداد أهل الأدب. ومن العيوب الأخرى التي ترتبت على هذه الطريقة من طرق التعلّم، أنني لم أتعلَّم قط علم العروض، وكنت أقلّ إلمامًا بقواعد نظم الشعر. ومع أننى - في رغبتي أن أتذوق وقع اللغة شعرًا ونثرًا - بذلت جهودًا كثيرة للإطاحة بها، إلا أننى أوقن بأن تحقيق هذا - دون معونة أستاذ - أمر يقرب من المستحيل، وإذ استوعبت تركيب أسهل الأشعار جميعًا، وهو السداسي الوزن، تلمست صبرًا كافيًا لأن أزن كل شعر « فيرجيل »، مبينًا القاعدة والكم، فإذا ما ارتبت فيما إذا كان أحد المقاطع طويلًا أو قصيرًا، رجعت إلى كتاب « فيرجيل » لأسترشد به. ومن الواضح أن هذا جعلني أرتكب أخطاء كثيرة بسبب التغيّر الذي تسمح به قواعد النظم.. على أنه إذا كان لتعلم المرء بنفسه فائدة، فإن له - كذلك - عيوبًا عظيمة، في مقدمتها العناء الذي يفوق التصوّر. وإني لأدرى بهذا من أي شخص، أيًّا كان!

وكنت أفارق كتبى قبيل الظهر، فإذا لم يكن الغداء معدًّا، فإنني كنت أسعى إلى زيارة صديقاتي الحمائم، أو للعمل في الحديقة، في انتظار موعد الغداء. وعندما أسمع النداء، أهرع - وأنا جد مغتبط - وقد أوتيت شهية عظيمة. فمن الجدير بالملاحظة أن شهيتي لا تتخلّى عني، مهما أكن مريضًا. وكنا نتغذى في انشراح، ونحن نتبادل الحديث في شئوننا

حتى تفرغ « ماما » من الأكل. وكنا - إذا ما تحسن الجو - نذهب، مرتين أو ثلاثًا في الأسبوع، إلى ما وراء الدار، لنتناول القهوة في مقصورة عليلة الجو، ظليلة، زينتها بحشيشة الدينار[92]، وكنا نشعر بارتياح شديد إليها في القيظ. وهناك، كنا نقضى وقتًا ليس بالطويل، في تفقد خضرنا وزهورنا، وفي أحاديث تتعلَّق بطريقة معيشتنا، كانت تجعلنا أقدر تذوقًا لجمالها. وكانت لي أسرة أخرى، في أقصى الحديقة، تتألف من نحل. ولم يكن يفوتني قط أن أزورها، وكثيرًا ما كانت « ماما » تصحبني، وكنت أهتم كثيرًا بعملها، وأنعم للغاية برؤيتها في عودتها من جنى الزهور، وقد أثقلت سيقانها الدقيقة بأحمالها، بحيث كان يتعذَّر عليها المشي أحيانًا. ولقد حملني الفضول ـ في الأيام الأولى على أن أحاول التثبّت مما كنت أرى، فلدغني النحل مرتين أو ثلاثة، ولكنا لم نلبث أن وثقنا تعارفنا، حتى أنه كان يدعني وشأني، مهما أقترب منه.. وكان يتجمع حولى - مهما تكن الخلايا مليئة، تأهّبًا للافراز - فيحط على يدي ووجهي دون أن يلدغني قط!.. إن كل الحيوانات توجس عادة من الإنسان - وهي ليست مخطئة في ذلك ـ ولكنها ما أن تطمئن مرة إلى أنه لا يريد بها أذى، حتى تصبح ثقتها به عظيمة إلى درجة أنه لا يسيء إلى هذه الثقة إذا كان همجيًا بربريًا!

وكنت أعود إلى كتبي، بيد أن أعمالي - فيما بعد الظهر - كانت أقل جدارة بأن تحمل اسم « العمل والدراسة »، منها باسم « الراحة والتسلية ». فما كنت لأطيق قط العمل المكتبي بعد غدائي، لأن كل عمل، في الأيام الحارة، يكبدني عناء، بوجه عام. على أنني كنت أشغل نفسي بالقراءة دون الاستذكار، وبغير إرهاق، بل وبغير ضابط أو قاعدة. وكان الشيء الذي اعتدت أن أواظب عليه بدقة، هو التاريخ والجغرافيا. ولما كان هذان لا يتطلبان أي جهد عقلى، فإنني كنت أمضى فيهما قدمًا بقدر ما كانت تسمح ذاكرتي القاصرة. وحاولت أن أدرس مؤلف الأب « بيتو »، وانغمست في غياهب علم التاريخ، ولكني كنت لا أميل إلى الأجزاء الدقيقة منه، التي لا قاع لها ولا شاطىء[93]، وكنت أفضل عليها الأبعاد الدقيقة التوقيت، ومسرى الأجرام السماوية. بل إننى كنت خليقًا بأن أغرم بعلم الفلك، لو أننى أوتيت أدوات له، ولكني كنت مضطرًا إلى أن أقنع ببعض مبادئه التي تؤخذ عن الكتب، وببعض مشاهدات غير دقيقة ـ خلال منظار مقرب ـ كانت كافية لمعرفة المواقع العامة للأجرام فحسب، إذ أن نظرى القصير لم يكن يسمح لي بتمييز أي شيء بالعين المجرَّدة، فما بالك بالكواكب؟.. وأذكر - في هذا الصدد - حادثًا كثيرًا ما يحملني تذكره على الضحك: فقد ابتعت خريطة فلكية لأدرس عليها الطوالع، وثبتها إلى إطار، وكنت في الليالي الصافية أذهب إلى الحديقة فأضع إطاري على أربع قوائم في ارتفاع قامتي تقريبًا، بحيث تكون الخريطة مقلوبة. ولكي أضيئها دون أن تطفىء الريح شمعتي، كنت أضع هذه في دلو على الأرض، بين القوائم الأربع، ثم أنظر - بالتناوب - إلى الخريطة بعينَيّ، وإلى الكواكب بمنظاري، وأروح أضني نفسي بالتعرّف على النجوم واستنتاج الطوالع. وأظنني قد قلت أن حديقة السيِّد « نواريه » كانت مرتفعة عن مستوى الأرض، بحيث كان كل ما يجرى يُشاهد من الطريق. وحدث - ذات مساء - أن كان بعض الفلاحين مارّين في ساعة متأخرة، فرأوني في هيئة مضحكة، وقد انهمكت في عملي. وكان الضوء الواهن المنعكس على خريطتي - والذي لم يكونوا يرون مصدره، لأنه كان محجوبًا عن أنظارهم بحواف الدلو - كما كانت هذه القوائم الأربع، والصفحة الورقية الكبيرة المكسوة بالأشكال والأرقام، والإطار، وحركة منظاري، الذي كانوا يرونه وهو يروح ويجيء.. كل هذه أوحت بفكرة السحر، مما أفزعهم!.. ولم يكن لباسى صالحًا لأن يطمئنهم، فقد كنت أرتدي قبعة ذات حافة عريضة، تعلو قلنسوتى (طاقيتى)، وقد أجبرتني « ماما » على ارتدائها، مما هيأ لأنظار أولئك الفلاحين صورة ساحر حقيقي! ولما كان الوقت يناهز منتصف الليل، فإنهم لم يرتابوا إطلاقًا في أنهم أمام اجتماع للسحرة! ولما كان فضولهم أقل من أن يزين لهم مشاهدة ما كان يجرى، فإنهم فرّوا وهم في فزع شديد، وأيقظوا جيرانهم ليرووا لهم ما رأوا!.. وانتشرت القصة بسرعة، حتى أن كل امرىء في الجيرة كان يعرف ـ في اليوم

التالي - أن اجتماع السحرة عُقد في دار السيِّد « نواريه ». ولست أدرى ما كانت تؤدّى إليه هذه الشائعة في النهاية، لو لم يعمد أحد الفلاحين الذين شهدوا حركاتي السحرية، إلى أن يرفع شكاته - في اليوم ذاته - إلى اثنين من « الجيزويت »، اعتادا أن يترددا علينا، فسفها الشكوى دون أن يعرفا جلية الأمر. ثم ذكرا لنا القصة، فأدليت إليهما بالسبب، وضحكنا لذلك كثيرًا. على أنه تقرَّر - خشية تكرار ذلك الحادث - أن أقوم بمشاهداتى الفلكية في المستقبل دون استعانة بضوء، مكتفيًا بالرجوع إلى الخريطة داخل الدار. والذين قرأوا كتابى: « رسائل الجبل »، عن أعمالي السحرية في (البندقية)، رأوا - كما أرجو - أن السحر كان صنعتى ردحًا طويلًا!

هكذا كانت حياتي في (شارميت) عندما لم أكن مشغولًا بأية مهمة ريفية، فقد كانت هذه تظفر بالأفضلية دائمًا، كما أننى كنت - في الأعمال التي لا تتجاوز طاقتي - أعمل كأي فلاح!.. على أنه من الصحيح أن ضعفي البالغ لم يدع لي - إذ ذاك - من مقدرة في هذا المجال، اللهم إلا النية الطيبة.. هذا فضلًا عن أنني كنت أبغى أن أقوم بعملين في آنٍ واحد، ولهذا السبب لم أتقن أيًّا منهما. إذ كنت قد وضعت نصب عينَيّ أن أهيىء لنفسي - بالقوة - ذاكرة طيبة، فدأبت على محاولة أن أحفظ كثيرًا من المعرفة عن ظهر قلب. ومن أجل هذا كنت أحمل معى دائمًا كتابًا أدرسه وأستذكره وأردده على نفسي وأنا منهمك في العمل، متحملًا في ذلك عناء لا يصدقه العقل! ولست أدرى كيف أن إصراري على هذه المحاولات غير المجدية وهذه المجهودات المستمرة لم ينته إلى أن أغدو - في النهاية - غبيًّا!.. كان لابد من أن أدرس ديوان الشاعر « فيرجيل » EGLOGUES وأن أكرِّر الدرس عشرين مرة، ومع ذلك فإنني لم أفقه منه كلمة واحدة! ولقد فقدت، أو فككت، عددًا كبيرًا من الكتب باعتيادي حملها معي في كل مكان، سواء كان ذلك في أعشاش الحمام، أو في الحديقة، أو في البستان، أو في مزرعة الكروم. وكنت أثناء انشغالي بشيء، أضع الكتاب في أسفل إحدى الأشجار، أو على السياج العشبي، ثم كنت أنسي أن آخذه ثانية.. وكثيرًا ما كنت أجده - بعد خمسة عشر يومًا - أو يكون قرضه النمل والقواقع. وأصبحت هذه اللهفة إلى التعلّم تهوسًا دفعني إلى ما يقرب من العته والحماقة، حتى أننى - لانشغال بالي ـ كنت لا أنفك أتمتم وأغمغم!

ولقد أحالتني مؤلفات « بور - رويال » وكتاب « الخطابة » - اللذان كنت أقرؤهما بكثرة بالغة - إلى شخص نصف « يانسيني ». وبالرغم من قوة إيماني، فإن « لاهوت » هذا المذهب القاسي كان يزعجني أحيانًا.. وأخذت رهبة الجحيم ـ الذي لم أكن حتى ذلك الوقت أخافه كثيرًا - تقض طمأنينتى شيئًا فشيئًا.. ولو لم ترفّه « ماما » عن نفسي، لقلب هذا المذهب الرهيب كل كياني!.. وقد بذل الراهب الذي اعتدت ان أفضى إليه باعترافاتي - والذي كان يتلقّى اعترافاتها هي الأخرى - قصارى وسعه في أن يجعلني في حال ذهنية طيبة. وكان هذا الراهب من « الجيزويت »، ويُدعى الأب « هيميه ». وقد كان شيخًا طيبًا، حكيمًا، سأظل دائمًا أوقر ذكراه. ومع أنه كان « جيزويتيًا »، إلا أنه كان في سذاجة الطفل، وكانت أخلاقه وادعة أكثر منها متراخية، وهذا عين ما كنت في حاجة إليه، لأعيد إلى نفسي توازنها بعد الانطباعات الكئيبة التي أحدثتها « اليانسينية ». وكان هذا الرجل الطيب وزميله - الأب كوبيه - يفدان كثيرًا لزيارتنا في (شارميت)، برغم أن الطريق كانت شديدة الوعورة، وأطول مما ينبغي بالنسبة لمن هم في سنهما. ولقد كانت زيارتهما ذات أثر طيب عظيم على نفسى، أسأل الله أن يسبغ على روحيهما جزاء مثله!.. إذ كانا طاعنين في السن - في ذلك الوقت - بحيث أنني لا أظنّهما على قيد الحياة اليوم. وكنت - أنا الآخر - أذهب لزيارتهما في (شامبيرى)، فألفت دارهما تدريجًا، وأصبحت مكتبتهما رهن إرادتي. وإن ذكرى هذه الفترة السعيدة لترتبط ارتباطًا وثيقًا بذكرى « الجيزويتيين »، حتى أنني أحب كلًّا منهما من أجل الآخر. ومع أن مذهبهما كان يبدو لي - دائمًا - خطرًا، إلا أنني لم أستطع أن أجد قط ميلًا إلى أن أوليهما كراهية صادقة!

ولكم أود أن أعرف ما إذا كان يطوف بقلوب الغير من الأفكار الصبيانية ما يطوف بقلبي أحيانًا. ففي غمرة دراساتي، وفي سياق حياة بريئة إلى أقصى ما يُستطاع، وبالرغم من كل ما قيل لي، فإن الخوف من الجحيم لا يزال يزعجني أحيانًا. وكنت أسائل نفسي: « في أي حال أنا؟.. وهل أدان لو أننى مت في هذه اللحظة؟ ». وعلى هدى أساتذتي « اليانسنيين »، لم يكن ثمة ريب في الأمر. ولكنني كنت أرى الحكم يختلف، على هدى ضميرى!.. وإذ كنت دائمًا في خوف، أتخبط في هذا التذبذب القاسي، فقد أخذت ألجأ - وأنا أبحث عن مخرج - إلى وسائل من أدعى الأمور للضحك، وكنت من أجلها على استعداد لأن أحبس أي إنسان أراه يأتيها!.. ففي ذات يوم، أخذت - بطريقة آلية، وأنا أفكر في هذا الموضوع المقبض - أرمى جذوع الأشجار بالأحجار، بما كان لي من مقدرة على الرماية.. أعني دون أن أصيب أيًا منها تقريبًا!. وفيما كنت في غمرة هذا العمل الطريف، خطر لي أن أتخذ منه لونًا من الشعوذة كي أطامن قلقي. فقلت لنفسي: « سأرمى هذا الحجر نحو الشجرة المواجهة لي، فإذا أصبت، كانت الإصابة بشيرًا بالنجاة، وإذا أخفقت، فقد حاقت اللعنة »!.. وفيما كنت أقول هذا، طوّحت بالحجر، بيد مرتجفة، وبخفقان عنيف في القلب ولكني بتوفيق بالغ، حتى أن الحجر أصاب الشجرة في منتصفها تمامًا، وهو أمر - إن شئتم الحق - لم يكن بالعسير، إذ أنني كنت قد عنيت باختيار شجرة غليظة الجذع جدًا، وقريبة جدًا. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يخالجني شك في خلاصي!.. ولست أدرى - وأنا أذكر هذا الحادث - أأضحك أم أتحسر على نفسي! إن لكم - أيها الكبار، الذين تضحكون ولا شك - أن تطربوا، ولكن.. لا تسخروا من ضعفى أو عبثي، فإني أقسم لكم إنني أشعر به تمام الشعور!

على أن هذه الاضطرابات، وهذه الدموع التي قد لا يمكن فصلها عن التقوى والإيمان، لم تكن حالًا دائمة. فقد كنت - بوجه عام - موفور الهدوء، وكان الأثر الذي خلفته فكرة الموت المبكر في نفسي، أقل انتماء إلى الحزن، منه إلى الضعف والاستكانة الوادعة، التي كان لها سحرها الخاص.. ولقد عثرت بين أوراق قديمة على قطعة رثاء كنت قد وجهتها إلى نفسي، أهنئها فيها على موتى في سن يشعر عندها المرء بقدر كاف من الشجاعة على مواجهة الموت، دون أن أكون قد عانيت عللًا قاسية - بدنية كانت أو عقلية - خلال حياتي!.. ولكم كنت مصيبًا!.. كان ثمة هاجس يخيفني من الحياة خشية العذاب!.. لكأنما كنت أرى مقدمًا المصير الذي كان في انتظاري في أواخر أيامي!.. أبدًا ما كنت قريبًا من الحكمة بقدر ما كنت في تلك الفترة السعيدة!.. ففى بُعدى عن الحسرة البالغة على الماضي، وفي تحرّرى من هواجس المستقبل، كان الشعور الغالب على نفسي باستمرار هو شعور الاستمتاع بالحاضر. إن الأتقياء يؤتون - عادة - قدرًا ضئيلًا من شهوة متأججة، تجعلهم يتذوقون في استمراء تلك الملاذ البريئة المباحة لهم. ولكن الدنيويين يرون في ذلك جرمًا من جانب الأتقياء. ولست أدرى لذلك سببًا.. لا، بل أحسبني أعرف تمامًا.. فهم يحسدون الأتقياء على بهجة الملاذ الساذجة التي فقدوا هم طعمها!.. ولقد كان هذا الميل لديَّ، فوجدت من بواعث الغبطة أن أرضيه وأنا مطمئن الضمير.. وكان قلبي ما يزال غضًا، فأسلم نفسه إليه تمامًا، وفي فرح الطفل، أو بالأحرى - إذا كان لي أن أجرؤ على القول - في شبق الملاك!.. فقد كان لهذه المتع الوادعة، ما لمباهج الفردوس من سحر جليل!.. كان تناول الغداء على الحشائش في (مونتانيول)، وتناول العشاء تحت الخمائل، وجنى الفواكه، واقتطاف العنب، والأمسيات التي كانت تُقضى في انتزاع ألياف القنب مع رجالنا.. كل هذه كانت أعيادًا حافلة وجدت « ماما » فيها عين ما كنت أنا أجد من سرور.

وكانت النزهات التي نقوم بها وحيدين، ذات فتنة أشدّ وأكثر، لأن القلب كان ينطلق متحرِّرًا. ولقد قمنا - فيما قمنا به منها - بنزهة تعتبر من المعالم في ذاكرتي: كان ذلك في يوم عيد للقديس لويس، الذي سُميت « ماما » باسمه، وانطلقنا معا - وحيدين - في البكور، بعد قداس جاء أحد الرهبان « الكرمليين » ليلقيه علينا - في مطلع النهار - في كنيسة صغيرة ملحقة بالدار. وكنت قد اقترحت أن نتمشى في جانب الوادي المقابل للجانب الذي

كنا فيه، ولم نكن قد زرناه قط. فأرسلنا زادنا مقدمًا، إذ كانت النزهة تستغرق اليوم بطوله. ولم تكن « ماما » ثقيلة في سيرها، برغم أنها كانت بدينة، ممتلئة الجسم، فأخذنا نتنقل من هضبة إلى هضبة، ومن غابة إلى غابة، في الشمس حينًا وفي الظل أحيـانًا، ونحن نستريح من آنٍ إلى آخر، وقد غفلنا تمامًا عن سير الزمن.



لنا تتنقل من هضبة الى هضبة ، ومن غابة الى غابة فى الشمس
الظل احيانا .

وكنا نتحدَّث عن نفسينا، وعن رابطتنا الوثيقة، وعن عذوبة نصيبنا في الحياة، رافعين - من أجل دوامه - دعوات لم تُستجب!.. وكان كل شيء يبدو وكأنه يُدبّر في الخفاء لجعل هذا النهار هنيئًا. وكان ثمة مطر قد تساقط منذ فترة قريبة، فلا أثر لغبار.. كما كانت ثمة جداول جارية، ونسيم يداعب أوراق الشجر. وكان الهواء نقيًّا، والأفق خلوًّا من السحب، والسماء - كقلبينا - يسودها الصفاء!.. وتناولنا غداءنا في دار أحد الفلاحين، وقد تقاسمناه مع أسرته التي باركتنا وشكرتنا من صميم الأفئدة. ما أطيب أولئك الفقراء من أهل (سافوا)!

وبعد الغداء، لذنا بالظل تحت الأشجار الوارفة، حيث رحت أتسلى بجمع بعض العيدان الخشبية الجافة لنعد قهوتنا، بينما كانت « ماما » تتلهى بتفقد الأعشاب بين الأدغال.. ورأت الزهور التي كنت قد جمعتها أثناء الطريق، فأخذت تلفت نظرى إلى ألف غريبة وعجيبة في تكوينها، مما لذَّ لي كثيرًا، ومما كان خليقًا بأن يجعلني أميل إلى علم النبات، لولا أن أوان هذا الميل لم يكن قد حان، فقد كنت منصرفًا عنه إلى كثير من الدراسات الأخرى. وخطرت لي فكرة حوّلتني عن الزهور والنباتات: فإن الجو الروحي الذي ألفيتني فيه، وكل ما قلنا وفعلنا في ذلك اليوم، وكل الأشياء التي خلبت لبي، ذكرتني بذلك الحلم الذي رأيته وأنا في كامل اليقظة في (أنيسي) قبل سبع أو ثماني سنوات، والذي رويته في مكانه[94]. وكان الشبه من القوة بحيث أنني حين تذكرت الحلم، اهتزت مشاعري تأثّرًا وانساب دمعي.. وفي نوبة من الانفعال العاطفي، عانقت تلك الحبيبة الغالية، وقلت لها في وجد: « ماما، ماما.. لقد كنت موعودًا بهذا اليوم منذ أجل طويل، ولست أرى ما يفوقه!.. إن سعادتي - بفضلك - في أوجها، فليتها لا تتناقص بعد ذلك!.. ليتها تدوم طالما ظللت أنعم باستمرائها!.. ليتها لا تنقضى إلا مع انقضاء أجلى »!

وهكذا أخذت تنساب أيامي السعيدة.. بل الأيام التي كانت أكثر من سعيدة، حتى أنني - لعجزي عن أن أتبين ما قد يقوى على تعكيرها - كنت أتصوّر أنها لن تنتهى، في الواقع، إلا مع نهايتي!.. وليس معنى هذا أن نبع وساوسي كان قد نضب تمامًا، وإنما كان معناه أنني رأيت هذه الوساوس تتخذ طريقًا آخر مكنني من أن أوجِّه أحزاني وآلامي إلى أهداف نافعة، جلبت عليها دواءً ناجعًا!.. ولقد كانت « ماما » تحب الريف بطبيعتها، فوجد هذا الميل منى ما يذكيه. وما لبثت أن انتقلت إليها - تدريجًا - عدوى الشغف بالأعمال الريفية.. وكانت تحب تقويم الأرض[95]، كما كانت لديها - فوق هذا - معرفة ومعلومات كانت تستغلها في هذا الصدد باستمتاع. ولم تقنع بالأرض التي كانت تابعة للبيت الذي استولت عليه، بل إنها كانت تستأجر تارة حقلًا، وتارة مرجًا. وانتهت إلى أن ركّزت روح ابتكار المشروع لديها في الأمور الزراعية، بدلًا من أن تبقى عاطلة في الدار. وبدأت تعمل لكي تصير - في القريب العاجل - مزارعة كبيرة!

ولم أكن أحب كثيرًا أن أراها تتوسع في ذلك، فرحت أعارضها فيه قصارى ما استطعت، وأنا واثق تمام الثقة من أنها كانت دائمًا تغتر فتخطيء، وأن روحها المتحرِّرة السخية كانت تحملها دائمًا على أن تنفق أكثر مما يعود عليها من إنتاج. على أننى وجدت عزاء في التفكير في أن هذا الإنتاج لن يكون معدومًا - على الأقل - وأنه قد يساعدها على العيش.. وبالنسبة إلى كافة المشروعات التي قُدِّر لها أن ترسمها، بدا لي هذا المشروع أقلّ إيقاعًا للخراب بها. ومع أنني لم أر - مثلها - فيه موردًا للربح، إلا أنني رأيت فيه شاغلًا يقيها باستمرار حيل المحتالين الخبيثة!

وبهذه الفكرة، أصبحت أرغب كل الرغبة في أن أسترد قوتي وصحتى معًا، حتى يتسنى لي أن أسهر على أعمالها، وأن أغدو رئيسًا لعمالها، أو العامل الأوَّل في خدمتها. ومن الطبيعي أن المران والرياضة اللذين حملتني هذه الرغبة على القيام بهما، أصبحا ينتزعاني في كثير من الأحيان من كتبي، ويشغلاني عن حالي الصحية، مما كان خليقا بأن يسير بها نحو

التحسن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من سنة 1737 إلى سنة 1741

عاد « بارييو » من إيطاليا في الشتاء التالي، وقد جلب لي معه بعض الكتب، منها كتابا الأب بانشييرى: « بونتمبى » و « كارتلا بير ميوزيكا »، اللذان حبّبا إليَّ دراسة تاريخ الموسيقى، والأبحاث النظرية في هذا الفن الجميل، وبقى « بارييو » معنا فترة من الزمن. ولما كنت قد بلغت سن الرشد قبل ذلك ببضعة أشهر، فقد اتفقنا على أن أذهب إلى (جنيف) في الربيع التالي، لأطالب بثروة أمي، أو لأطالب - على الأقل - بذلك النصيب الذي خصني منها، ريثما نستبين ما ألّم بأخي. ونفذت هذه الخطة كما اتفقنا، فذهبت إلى جنيف حيث لحق بي أبي، وكان قد ألف منذ فترة طويلة أن يزور المدينة دون أن يحتك به أحد، بالرغم من أن الحكم الذي صدر عليه كان ما يزال قائمًا. ولكن أبي كان موضع التقدير لبسالته، والاحترام لأمانته، فتظاهر أولو الأمر بأنهم نسوا قضيته الصغيرة. وكان الحكَّام في شغل شاغل بالمشروع العظيم الذي بزغ فجره بعد ذلك بقليل، ولذلك أبوا أن يثيروا ثائرة الطبقات الوسطى قبل الأوان، بأن يذكّروهم بتحزبهم السابق في لحظة غير مواتية.

وخشيت أن تقوم في وجهي الصعوبات بسبب ارتدادى عن مذهبى، إلا أن شيئًا من هذا لم يحدث، فقوانين جنيف في هذا الشأن ليست في صرامة قوانين (برن)، حيث يفقد من يرتد عن دينه لا منزلته فحسب بل أملاكه أيضًا. ولم يكن ثمة نزاع في حقي، إلا أن الميراث نفسه، لسبب لا أدركه، تضاءل إلى مبلغ تافه. ومع أن أخي كان - في غالب الظن - قد لقى ربه، إلا أنه لم يكن ثمة دليل قانوني على هذا. لم يكن عندي من الأسانيد ما يكفي لأن أطالب بنصيبه، فتركته عن طيب خاطر لأبي يستعين به على حياته، وقد كان له حق النفعة طالما هو على قيد الحياة. وما أن تمت الإجراءات القانونية وتسلمت مالى حتى أنفقت شيئًا منه في شراء بعض الكتب، وهرعت إلى « ماما » أضع الباقي تحت قدميها، وكان قلبي يطفح بشرًا أثناء الرحلة. وفي اللحظة التي وضعت فيها هذا المال في يدها، كنت أسعد ألف مرة من اللحظة التي تسلمته فيها!.. وتقبلت هي المال قبول النفس السامية الرفيعة، التي لا تجد من العسير عليها أن تأتي مثل هذا الفعل، فلا يدهشها أن يعاملها الغير نفس المعاملة.. وقد أنفقت المال كله تقريبًا على شخصى، بنفس تلك البساطة التي اتسمت بها. ولو كان هذا المال قد جاء من مصدر آخر لأنفقته على نفس هذه الصورة!

ولم أكن، في ذلك الوقت، قد استعدت صحتى تمامًا، بل - على العكس - كنت أذوى وأذبل بشكل واضح!.. كنت في شحوب الموتى وهزال الهيكل العظمى، وكانت ضربات عروقى فظيعة لا تحتمل، وازدادت نبضات قلبي، وكنت أعاني على الدوام من عسر التنفس.. وازددت ضعفًا آخر الأمر حتى كنت لا أكاد أستطيع الحراك.. كنت لا أستطيع أن أغذ السير إلا وأشعر بالاختناق، ولا أنحنى دون أن يصيبنى الدوار، وتعذَّر عليَّ رفع أصغر الأثقال، فأُكرهت على البقاء ساكنًا جامدًا، وهو أكبر عذاب يصيب رجلًا في مثل قلقي وضجرى. ولا شك في أن مرضى كان مرده (الهستريا) إلى حد كبير، فكأني قد بُليت بذلك المرض الذي لا يصيب إلا السعداء!.. فالدموع التي كثيرًا ما كنت أذرفها دون سبب يدعو إلى البكاء.. وفرحتي وافتتاني بحفيف ورقة من أوراق الشجر، أو تغريد طائر طروب.. ومزاجي المتقلب في حياة بلغت ذروة الهناء كل هذه كانت دلائل على كلال من تأثير السعادة يؤدى إلى حساسية مفرطة. ونحن لم نتزوَّد للسعادة في هذا العالم إلا بالقليل، مما يقتضى أن يعاني الروح أو الجسم.. إذا لم يعانيا معًا.. وسعادة الواحد منهما تؤذى الآخر دائمًا تقريبًا. وبينما كنت مستطيعًا أن أنعم بحياتي في سعادة تامة، فإن انحلال جهاز جسمى كان يحول بيني وبين ذلك، دون أن يستطيع أحد أن يدلّني على موضع الداء منى. ويبدو أن

جسمي قد استعاد فيما بعد قوته، بالرغم من التداعي الذي أحسه في كبرى وآلامي المبرحة الحقيقية التي أصبحت في الكبر أشدّ قوة وتبريحًا. واليوم، وأنا أكتب هذه السطور، وقد نال منى الضعف وبلغت الستين من عمرى أو أكاد، وغلبتني الآلام من كل نوع على أمرى، أشعر أن في كياني من الحياة والقوة على احتمال الألم، أكثر مما كان لديَّ من الحياة والقوة على الاستمتاع ـ في ميعة الصبا - في غمرة من أصدق آيات السعادة.

ورغبة في إذلال نفسي إذلالًا تامًّا، شرعت - بعد أن قرأت شيئًا من الفلسفة - في دراسة التشريح، وعرفت عدد الأعضاء المستقلة التي يتألَّف منها جهاز جسمى ووظائفها. وكنت أميل للشعور، عشرين مرة في اليوم، بأن الخلل قد دبَّ في أعضائي جميعًا، ولم يكن يذهلني قط أن أجدني في حالة احتضار، وإنما كان يدهشني أنني ما زلت قادرًا على الحياة! وكنت أعتقد أننى مصاب بكل مرض أقرأ أوصافه، وإني لمقتنع بأنني لو لم أكن مريضًا فقد جعلتني هذه الدراسة القاتلة كذلك.. فقد كنت أجد في الأعراض التي تنتابني أعراض كل علة، فحسبتنى مصابًا بالعلل جميعًا!.. وبذلك انتابني مرض، هو أقسى الأمراض جميعًا، وكنت أظنني براء منه.. وأعنى به الرغبة الملحة في أن أشفى، وهي رغبة يتعذَّر على المرء أن يفلت منها إذا ما بدأ في قراءة الكتب الطبية!.. وانتهيت بشيء من البحث والتأمل والمقارنة إلى أن أساس مرضى هو « ورم ليفي في القلب »!.. وقد لاح على سالومون نفسه أن الفكرة أذهلته، ولئن كان من الواجب أن تؤيدني هذه الافتراضات تأييدًا معقولًا في قراراتي السابقة، إلا أن الحال لم تكن كذلك، فقد بذلت كل ما وسعنى من جهد عقلي لأكتشف طريقة علاج الورم الليفي الذي يصيب القلب.. وقد صحّ منى العزم على أن أتكفّل بهذا العلاج الرائع. ولقد قيل للتعس « آنيه » في رحلته إلى (مونبيلييه) لزيارة حدائق النباتات ومسيو سوفاج - المعيد - بأن مسيو فيز قد شفى مريضًا بهذا الورم الليفي، وكان هذا كافيًا لأن يوحى إليَّ برغبة ملحة في أن أقصد مسيو فيز للاستشارة.. فقد أعاد الأمل في الشفاء إلى نفسي الشجاعة وزوّدني بالقوة على تجشم مشاق الرحلة، وكان المال الذي جئت به من جنيف عوني على ذلك. وشجعتني « ماما » على الذهاب، وهي أبعد الناس عن أن تحاول إثنائي عن عزمي.. وهكذا وجدتني في طريقي إلى (مونبيلييه)! وما كانت بي حاجة لأن أذهب إلى هذا المكان النائي سعيًا وراء الطبيب الذي أنا في حاجة إليه!.. واستقللت عربة في (جرينوبل) - إذ كان ركوب الجياد يتعبني كثيرًا - فوصلت إلى (موران) - بعد عربتى - خمس أو ست عربات غيرها، الواحدة في أثر الأخرى.. وكان معظم هذه العربات جزءًا من موكب عروس زُفت حديثًا اسمها السيِّدة « دى كولمبييه »، وكانت ترافقها سيدة أخرى هي السيِّدة « دي لارناج »، أصغر منها سنًّا، وإن لم تكن جذَّابة في ملامحها مثلما هي في ظرفها.. وكانت تنوي أن ترتحل من (رومانس) - وهي المدينة التي ستتوقف فيها السيّدة « دى كولومبييه » - إلى مدينة (سانت أنديول) قرب (سان اسبرى). ونظرًا لما طُبعت عليه من خجل ذاع صيته، فلا تحسبن أنني تعرَّفت بهاتين السيّدتين الظريفتين وحاشيتهما بسهولة.. ولكنني كنت أسافر في نفس الطريق الذي يسافرون فيه، وأنزل في الفنادق نفسها التي ينزلون فيها، فخشيت أن يُقال عنى إننى أبعث على السأم والملالة، وكنت مكرهًا أيضًا على الجلوس معهم إلى مائدة واحدة.. فوجدت من المستحيل عليَّ آخر الأمر أن أتجنَّب التعرُّف بهم، ففعلت هذا.. تعرَّفت بالسيّدتين بأسرع مما كنت أريد. وبرغم أن كل هذه الضوضاء لم تكن لتناسب رجلًا مريضًا، وخاصة إذا كان في مثل مزاجي، إلا أن حب الاستطلاع يجعل هذه المخلوقات الماكرات غاية في الاغراء، حتى أنهن عندما يردن التعرّف برجل، يبدأن في امتلاك لبه، وهذا ما وقع لي!.. بيد أنه كان يحيط بالسيِّدة دي كولومبييه بعض الشبان المتأنقين، إحاطة السوار بالمعصم، مما لم يفسح لها الوقت للتعرّف بي.. أضف إلى هذا أن الأمر لم يكن ليستحق منها التفاتًا طالما أننا كنا على وشك الافتراق. ولكن السيِّدة « دى لارناج »، ولم يكن ليحيط بها هذا القدر من المعجبين، كان لا بد لها أن تتزوَّد لرحلتها بما يلزم، وهكذا كانت السيِّدة « دى لارناج » هي التي أخذت على عاتقها إذن أن تغزو قلبي.. ومنذ ذلك الحين، وداعًا لجان جاك المسكين - أو

على الأصح وداعًا للحمى والهستيريا والورم الليفي - وداعًا لكل شيء وأنا في صحبتها، فيما عدا بعض نبضات القلب التي بقيت، والتي لم يبد منها أي ميل لشفائي منها. وكان سوء حالتي الصحية هو أوَّل موضوع تطرقنا إلى الحديث فيه. لقد كانتا تريان أننى مريض وتعلمان أنني ذاهب إلى (مونبلييه)، ولا بد أن مظهري وأخلاقي قد جعلت من الواضح أنني لست خليعًا.. ذلك أنه تبين لي، مما تلا من الحوادث، أنهما لم تشتبها في أنني ذاهب إلى مونبلييه لكي أُعالج من نتائج الخلاعة. ومع أن سوء الصحة ليس مما يحبب النساء كثيرًا في المرء فقد أثار سقمى اهتمام هاتين السيّدتين، فكانتا تُرسلان إليَّ في الصباح تسألان عن حالي وتدعواني إلى تناول الشكولاتة معهما، وتسألانى كيف قضيت ليلتى.. وذات مرة أجبت بأنني لا أدرى، على ما ألفت في عادتي الحميدة من الكلام دون تفكير، فحملهما هذا الرد على الاعتقاد بأنني مجنون، وشرعتا تفحصاني بدقة أكثر. ولم أصب من ذلك بضرر، وإن سمعت السيدة « دى كولومبييه » تقول مرة لصديقتها: « إنه لا خلاق له ولكنه ظريف »، وقد شجعتني هذه الكلمات كثيرًا ودعتني إلى العمل بمقتضاها!

وازدادت علاقتنا توثقًا، فاضطررت إلى أن أتحدَّث عن نفسي، وأن أفصح عمن أكون ومن أين أتيت. وقد سبَّب لي هذا شيئًا من الحيرة والارتباك، لأنني أدركت بوضوح أن كلمة « مرتد » ستقضى على سمعتي في الطبقة الراقية وبين السيّدات المهذبات، ولست أدرى أية نزوة غريبة تلك التي تملكتني وجعلتني أقول إننى إنجليزي، ووصفت نفسى بأننى يعقوبى، وسميت نفسى « دودنج »، فأخذتا تدعواني بالمستر دودنج، وكان معنا شخص لعين هو « المركيز دو تورنيان »، وكان مريضًا مثلى، إلا أن كبر سنه وسوء خلقه كانا ضغثًا على إبالة، وقد استبدت به رغبة في محادثة مستر دودنج، وحدَّثني عن الملك جيمس وعن مدعى العرش وبلاط سان جرمان القديم. وكنت على أحر من الجمر، فإنني لم أكن أعرف شيئًا عن كل هذا اللهم إلا القليل الذي قرأته في كتاب الكونت هاملتون وفي الصحف، ولكني أحسنت استخدام ما كان في جعبتي من معلومات ضئيلة حتى خرجت من ورطتي.. ولحسن الحظ لم يسألني أحد عن اللغة الإنجليزية التي لم أكن أفهم منها كلمة!

وكنا على أطيب ما تكون العلاقات والود، ننظر إلى فراقنا نظرة أسف وحسرة، وكنا نسافر نهارًا، وفي صباح يوم أحد وجدنا أنفسنا في (سان مارسيلان)، وأبدت السيِّدة « دى لارناج » رغبتها في حضور القداس، فصحبتها، مما كاد يُفسد خطتي: فقد مارست طقوس القداس كما كنت أفعل دائمًا، واستنتجت هي من سلوكي المتواضع المتحفّظ أننى من المتعبدين، فساءت فكرتها عني - كما اعترفت لي بعد ذلك بيومين! - وقد اقتضاني الأمر قدرًا كبيرًا من الكياسة كي أمحو هذه الفكرة السيئة، أو بالأحرى أن السيِّدة دى لارناج - وهي المرأة المحنكة الخبيرة التي لا يدركها اليأس بسهولة - كانت على استعداد لأن تخاطر بالتودد إليَّ لترى كيف أنقذ نفسى.. وقد أسرفت في التودد حتى أننى، وأنا الذي لا أغالي في تقدير مظهري الشخصي، اعتقدت أنها تسخر مني، وتملكتني هذه الفكرة حتى لم يبق ضرب من ضروب الطيش والرعونة لم أرتكبه!.. لقد كنت في ذلك أسوأ من المركيز دي ليجز96، وكانت السيِّدة دى لارناج ثابتة العزم، فحاولت إغرائي كثيرًا، وكانت تحادثني في رقة بالغة، حتى أن رجلًا أحكم منى كان يجد من الصعب عليه أن يأخذ هذا كله مأخذ الجد! وكلما ألحّت في سعيها ازداد يقيني بفكرتي، والذي عذَّبني أكثر فأكثر أنني أصبحت جادًّا في ولعي بها، فقلت لها - ولنفسي - في تأوه: « آه! لو أن كل ما تقولينه كان صحيحًا، لكنت أسعد مخلوق! ». وأعتقد أن بساطتي المجرَّدة إنما خيبت ظنها، ولكنها لم تكن مستعدة للاقرار بالهزيمة!

وكنا قد تركنا السيّدة دي كولومبيه وحاشيتها في (رومانس)، وتابعنا المسير في بطء ونحن في غاية السرور - السيّدة دى لارناج والمركيز دى تورنيان وأنا - وكان المركيز، بالرغم من أنه رجل مريض كثير التأفف والتذمر، كيّسًا ظريفًا، غير أنه لم يكن مما يغتبط له أن يرى

غيره من الناس يتمتعون، دون أن يستطيع هو تذوق المتعة مثلهم!.. ولم تعن السيّدة دى لارناج إلا قليلًا بإخفاء ميلها إلىَّ، حتى أنه كان أسرع مني في ملاحظته. وكان يجب أن تزودنى تهكماته الخبيثة على الأقل بالثقة التي لم أكن لأجرؤ على استخلاصها من تودد السيّدة إلىَّ، لولا أنني ظننت - في روح من العناد، كنت أنا وحدى قادرًا عليها - أنهما قد اتفقا على أن يلهوا على حسابي! وأدارت هذه الفكرة السخيفة رأسى تمامًا آخر الأمر، وجعلتني ألعب دور الغر الأبله في موقف ربما أمرني فيه قلبي - وقد تملك الحب شغافه - بأن أتصرَّف تصرّفًا أفضل من هذا التصرّف بكثير. ولست أدري كيف أن السيّدة دى لارناج لم يتملكها النفور من كآبتي بحيث كانت تنأى عني وهي تزدريني أشدّ الازدراء، وإنما كانت امرأة بارعة تفهم مَن تعامل من الناس، فرأت في وضوح أن مسلكي كان يتسم بالغباء أكثر مما يتسم بفتور الهمة!

وأفلحت المرأة آخر الأمر، وبشيء من المشقة، في البوح بما يكنه صدرها، وكنا قد بلغنا (فالانس) في موعد الغداء وبقينا بها - وفقًا لعاداتنا الحميدة - بقية النهار، وحططنا رحالنا خارج المدينة، في (سان جاك) ـ ولن أنسى هذا الفندق أو الغرفة التي كانت تنزل فيها السيِّدة دى لارناج! - وقد أرادت أن تقوم بنزهة بعد الغداء، وكانت تعلم أن المركيز ليس مولعًا بالسير، وكان هدفها من ذلك أن تنفرد بي، وبيتت أن تنتفع بخلوتها معى أكبر انتفاع ممكن، ذلك أنه لم يبق ثمة وقت تضيعه، إن كان قد بقي شيء من الوقت تنتفع به.. وسرنا حول المدينة وعلى طول الخنادق، وعدت ألقي على مسامعها قصتى الطويلة عن أمراضى، فكانت تجيب عليها في رقة بالغة، وتضغط أحيانًا بذراعي على قلبها، حتى أنه لم يكن يحول بيني وبين الاقتناع بأنها تجد في حديثها إلا غباوة كغباوتي!.. أما الأمر الذي لم يُحسب حسابه فهو أن الحب كان قد نال منى منالًا عظيمًا، فلقد سبق لي أن قلت إن السيِّدة كانت ظريفة، وقد جعلها الحب فاتنة، وأعاد إليها كل بهائها في صدر شبابها، وكانت تصطنع في توددها من المكر والدهاء ما كان خليقًا بأن يغرى رجلًا من أوسع الرجال خبرة وتجربة. وكنت قلقًا مضطربًا، وكثيرًا ما هممت بأن أتجاوز معها حد الأدب، لكن الخوف من إساءتها أو إغضابها، بل والخوف الأكبر من أن أصبح موضعًا للسخرية والاستهزاء، وأن أزود المائدة بقصة تُروي عنى، وأن يهنئني المركيز العاتي - الذي لا يرحم - على بسالتي، كل ذلك عاقني وأثار غيظي من خجلى الأخرق وعدم استطاعتي التغلُّب عليه، في حين كنت أنحى على نفسي باللائمة من جرائه.. لقد كنت في عذاب أليم، وكنت قد نبذت كلامي الذي يغلب عليه الحياء، فقد شعرت بسخافته بعد أن قطعت من الطريق هذا الشوط الكبير. ولكنى، وقد انتابتني الحيرة فلم أعرف كيف أتصرَّف أو ماذا أقول، لزمت الصمت وعلت وجهي الكآبة. ومجمل القول أنني فعلت كل ما من شأنه أن يصيبني بالمعاملة التي كنت أخشاها!.. على أن السيِّدة دي لارناج كانت لحسن الحظ رحيمة رؤوفة، فقطعت حبل السكون فجأة بوضع ذراعها حول رقبتي، ثم حدَّثني فمها ـ وقد أطبق على فمي - في لغة صريحة واضحة لم تدع لي مجالًا لأي شك بعد ذلك. وما كانت الأزمة لتقع في لحظة أسعد من تلك اللحظة، فلقد أصبحت ظريفًا، ومنحتني ثقتها، وهي التي حال افتقارى إليها دائمًا دون أن أكون طبيعيًا. أما في هذه المرة، فقد كنت على سجيتي، ولم يحدث أن أجادت عيناي ومشاعري وقلبي، في الحديث، مثل هذه الإجادة!.. كما لم يحدث لي من قبل أن أصلحت أخطائي هكذا تمامًا.. وإذا كانت هذه المغامرة الصغيرة قد كلفت السيِّدة دى لارناج شيئًا من الجهد والتعب، فعندى من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأنها لم تندم عليها!

ولو أنني عشت مائة عام لما استطعت أن أفكر قط في هذه المرأة الفاتنة دون فيض من السرور يطغى علىَّ! وأنا أصفها بالفتنة، لأنها وإن لم تكن بالصغيرة أو الجميلة فإنها لم تكن أيضًا بالعجوز ولا بالدميمة، ولم يكن في وجهها ما يحول دون أن يظهر ذكاؤها وظرفها في أبهى حللهما. ونحن إذا قارناها مقارنة مستفيضة بغيرها من النساء لوجدنا أن أقل ما

يتصف بالنضارة وجهها، وأعتقد أنها أفسدته بما كانت تصبغه به من المسحوق الأحمر (الروج).. وقد كانت ثمة أسباب لاستهانتها بفضيلتها، فقد كانت هذه خير وسيلة تؤكد بها مفاتنها. كان من الممكن أن تنظر إليها دون أن تحبها، ولكن ما كنت لتستطيع أن تمتلكها دون أن تعبدها، ويلوح لي أن هـذا من شأنه أن يثبت أنها لم تكن تسرف دائمًا في حبها إسرافها فيه معي.. لقد كان توددها إليَّ مفاجئًا حيًا، حتى ليتعذَّر عليَّ أن أجـد عذرًا يبرره، سوى أن قلبها كان له في ذلك نصيب كنصيب حواسها. وفي الفترة الوجيزة اللذيذة التي قضيتها معها، اجتمعت لي أسباب ذلك الاعتدال الذي أرغمتني عليه وفرضته عليَّ فرضًا، فإنها - برغم كونها شهوانية جياشة العاطفة ـ كانت تفكر في صحتى أكثر مما تفكر في متعتها!

ولم يفت المركيز ما كان بيننا من تفاهم! على أنه لم يكف عن المزاح معى، بل أنه على النقيض كان يعاملني - أكثر من ذي قبل - معاملة العاشق البالغ الحياء، شهيد قسوة السيّدة وصدودها! ولم تكن تفلت منه كلمة أو ابتسامة أو نظرة تدعني أشتبه في أنه قد كشف أمرنا.. بحيث كان لي أن أعتقد أننا خدعناه، لولا أن السيِّدة دى لارناج، وكانت أكثر منى فطنة وحذقًا، أخبرتني بأن الحال ليست كما وصفت، بل إنه كان رجلًا شهمًا من أصحاب المروءة والنبل.. والواقع أنه ما من أحد كان يُظهر ما أظهر من أدب، أو يتصرَّف في كياسة أكثر مما كان يتصرَّف هو دوامًا، حتى نحوى أنا - فيما عدا تهكمه، وخاصة بعد نجاحي - ولعله كان يعزو الفضل في ذلك إليَّ، واعتبرني شخصًا غير ذلك الأحمق الذي كنت أبدوه - وقد كان في ذلك مخطئًا، كما مرّ بنا! - ومهما يكن من أمر فقد انتفعت بخطئه. ومن الحق أن أقول إننى، وقد انقلبت كفة الميزان، كنت أحتمل نكاته بصدر رحب وسماحة، بل كنت أجيبه عليها - والسعادة تغلب علىّ - فخورًا بأن أكشف أمام السيِّدة دى لارناج تلك الفطنة التي وصفتني بها، بعد أن لم أعد الرجل الذي كنته!

ولقد كنا في الريف، وفي فصل تشيع فيـه البهجـة، واستمتعنا به غاية الاستمتاع بفضل المركيز، ولو أني كنت مستطيعًا أن أستغنى عن عنايته بنا، تلك العناية التي امتدت حتى شملت مخادعنا، فقد كان يُرسل خادمه ليحجز لنا حجراتنا مقدمًا. وكان هذا الوغد - إما من تلقاء نفسه أو بناء على أوامر المركيز - يحجز لسيده دائمًا غرفة مجاورة لغرفة السيِّدة دى لارناج، في حين يلقي بي في الطرف الآخر من الفندق!.. على أن هذا لم يسبب لي من الحرج إلا القليل، بل أضاف إلى فتنة مقابلاتنا.. ودامت هذه الحياة البهجة السعيدة أربعة أو خمسة أيام، ثملت خلالها بأحلى اللذات! كانت لذة حية لا زيف فيها، ولم تشبها أقل شائبة من الألم.. أوَّل وآخر ما نعمت به من هذه المتع!.. ولا يسعني إلا القول بأنني مدين للسيِّدة دى لارناج بأنني لن أرحل عن هذا العالم دون أن أعرف طعم المتعة واللذة!

لم يكن شعوري نحوها هو الحب بمعناه، وإنما كان على الأقل مجاوبة رقيقة للحب الذي تظهره لي.. وكانت هي ملحة في إشفاء غليلها من الصلة الجنسية، حلوة في ممارستها، بحيث جعلت فيها كل ما يكون في الهوى من فتنة وسحر، مجرّدين من ذلك الهذيان الذي يدير العقل ويُفسد المتعة. إننى لم أشعر بالحب الصادق إلا مرة واحدة في حياتي، ولم يكن هذا معها، بل إننى لم أحبها كما أحببت وما زلت أحب مدام دي فاران، ولكن امتلاكها كان يضفى عليَّ من المتعة ما يفوق متعتى مع الأخرى مائة مرة!.. لقد كانت متعتى مع « ماما » يشوبها دائمًا شعور بالحزن.. شعور دفين بالضيق، موضعه القلب. وهو شعور كنت أجد صعوبة في التغلّب عليه، بحيث أنني بدلًا من تهنئة نفسي على امتلاكها كنت أنحى على نفسي باللائمة لإذلالها وتحقيرها!.. أما مع السيِّدة دى لارناج فقد كنت، على العكس، فخورًا برجولتي وبسعادتي.. وأطلقت لنفسى العنان، في اطمئنان وفرح، لإشباع رغباتي. ولقد شاركتها الشعور الذي بعثته فيها، وكنت أمتلك زمام نفسي، وأنظر إلى فوزى نظرة الارتياح النفسي التي أنظر بها تمامًا إلى المتعة، وأستمد منها الوسيلة التي تعينني على مضاعفتها!

ولا أذكر متى تركنا المركيز - الذي كان من أهل المنطقة - غير أننا كنا وحدنا عندما بلغنا (مونتيليمار)، حيث أمرت السيِّدة دى لارناج خادمتها بأن تستقل عربتي، بينما ركبت أنا عربتها، وأستطيع أن أؤكد لكم أننا بهذه الطريقة لم نجد الرحلة شاقة. وإني لأجد من الصعب عليَّ أن أصف المنطقة التي اجتزناها، وقد بقيت السيِّدة في (مونتيليمار) ثلاثة أيام، لبعض شئونها، على أنها لم تتركني خلالها إلا ربع ساعة قامت فيها بزيارة، عادت عليها بدعوات عاجلة ملحة. ولم تكن ميالة بأي حال من الأحوال لقبول هذه الدعوات، فزعمت أنها متوعكة المزاج، على أن هذا لم يحل بيننا وبين السير سويًّا وحدنا - كل يوم - في أجمل بقعة من بقاع الريف، وفي ظل أجمل سماء في العالم.. واحسرتاه على تلك الأيام الثلاثة! لقد جدَّ في حياتي من الأسباب ما دعاني للندم عليها أحيانًا! غما استمتعت قط بمثلها بعد ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والحب أثناء السفر لا يمكن أن يدوم، وهكذا اضطررنا للافتراق.. وأعترف إن الوقت كان قد حان لذلك، لا لأننى أفعمت وزهدت، أو لسبب من هذا القبيـل، بل إني كنت أزداد ولعًا بها يومًا بعد يوم، غير أني بالرغم من حرصها، لم يبق لي - فيما خلا صفاء النية - إلا القليل. وقبل أن نفترق أردت أن أستمتع بذلك القليل، فأذعنت هي لرغبتي، على سبيل الاحتياط من غادات (مونبيلييه). وتحايلنا على ما كان يعترينا من أسى بإعداد العدة للمقابلة مرة أخرى.. وكان قد تقرَّر أن أستمر في العلاج، الذي أفادني فائدة عظمى، وأن أقضى الشتاء في (سانت أنديول) تحت رعايتها، على أن أبقى خمسة أسابيع أو ستة فقط في مونبيلييه، حتى أفسح لها الوقت، لكي تعد الترتيبات التمهيدية الضرورية، منعًا للفضيحة. وقد لقنتني التعليمات المفصلة عما كنت بحاجة إلى معرفته، وعما يجب أن أقول والكيفية التي يجب أن أتعرَّف بها عليها، وكان علينا في الوقت نفسه أن نتبادل الرسائل. وقد حدَّثتني طويلًا في جد واهتمام عن وجوب العناية بصحتي، ونصحتني بأن أستشير بعض الأطباء الماهرين وأن أعنى باتباع ما يشيرون به، وأخذت على عاتقها أن تجعلني أنفّذ تعليماتهم، مهما كان من صرامتها، طالما أنا معها. وأعتقد أنها كانت تتحدَّث في صدق وإخلاص، إذ أنها كانت تحبني، وقد زوَّدتني بالأدلة الكثيرة على ذلك، التي يُعتمد عليها أكثر من الاعتماد على هبتها نفسها لي!.. وقد أمكنها أن تحكم من طريقة سفري بأنني لم أكن أتمرغ في المال، ومع أنها هي أيضًا لم تكن بالموسرة بأي حال من الأحوال إلا أنها كانت تريد أن تقاسمني ما في كيس نقودها، وكانت قد جاءت به مليئًا من (جرينوبل).. وقد وجدت مشقة عظيمة في حملها على قبول اعتذارى، وتركتها أخيرًا، تاركًا في قلبها - فيما أعتقد - حبًّا صادقًا لي!

وانتهت رحلتي، بينما كنت أستعيدها في ذاكرتي منـذ البداية، وكنت قانعًا في تلك اللحظة كل القناعة بأن أجلس في عربة مريحة أحلم، في راحة ويسر، بالمتع التي كان من نصيبي أن أنعم بها، وبتلك التي وعدتني بها. لم أكن أفكّر إلا في (سانت أنديول) والحياة البهيجة التي كانت تنتظرني فيها، ولم أكن أرى إلا السيِّدة دى لارناج وبيئتها.. أما بقية العالم فلم تكن بالنسبة لي شيئًا مذكورًا، حتى « ماما » نسيتها، واستغرقت في التفكير في كافة التفاصيل التي ذكرتها لي السيِّدة دى لارناج حتى توحى إليَّ مقدمًا بفكرة عن منزلها وعن جيرانها وأصدقائها وطريقة حياتها. وكانت لها ابنـة، كثيرًا ما حدَّثتني عنهـا في عبارات من الحب أسرفت فيهـا كل الإسراف، وكانت ابنتها هذه في السادسة عشرة من عمرها، رشيقة فاتنة ودود. ووعدتني السيِّدة دى لارناج بأنني سأكون ولا شك صاحب الحظوة الكبرى عندها. ولم أنس هذا الوعد، وقد استبد بي الفضول لكي أرى كيف تتصرَّف الآنسة دي لارناج نحو صديق أمها الحميم! كانت تلك هي أحلامي من (بون سان اسبرى) حتى (ريمولان).. ولقد قيل لي أن أذهب وأشاهد « بون دوجار » (جسر الحرس). ولم يفتني أن أفعل، فلقد كان الجسر هو الأثر الروماني الأوَّل الذي شاهدته. وانتظرت أن أرى نصبًا

جديرًا بالأيدي التي أقامته.. وللمرة الأولى والأخيرة في حياتي جاوزت الحقيقة ما كنت أتخيل: لم يكن يستطيع غير الرومان إقامة هذا الأثر الخالد!

لقد أثَّر في نفسي منظر هذا العمل البسيط، النبيل مع ذلك، أعظم تأثير.. ذلك أنه كان يقوم في قلب الصحراء، حيث السكون والوحدة يبرزان الأشياء إبرازًا عظيمًا ويثيران شعورًا بالإعجاب أقوى وأشد، إذ أن هذا الجسر المزعوم لم يكن إلا مجرى ماء فوقه قناطر، ومن الطبيعي أن يتساءل المرء أية قوة تلك التي نقلت هذه الأحجار الضخمة إلى هذا المكان النائي عن أي محجر من المحاجر، وتمثَّلت في أذرع الآلاف المؤلفة من الرجال في بقعة لا يقيم أحد منهم فيها!

واجتزت الطبقات الثلاث التي كان يتألّف منها هذا البناء البديع، وكنت أشعر داخلها باحترام كاد يمنعني من أن أطأها بقدمي! وحملني صدى وقع قدمي تحت هذه الأقبية العظيمة على أن أتخيَّل أنني أسمع الأصوات القوية لأولئك الذين أقاموا صرحها! شعرت أنني ضائع في وسط هذه العظمة كأنني الحشرة، وشعرت بالرغم من إحساسي بضآلتي كأن روحي قد سمت بطريقة ما، وقلت أحدِّث نفسي وأنا أتأوه: « لماذا لم أولد رومانيًّا؟ »، وبقيت في ذلك المكان بضع ساعات في تأمل يُذهل العقل، وعدت وأنا سارح الفكر، ولم يكن شرود الفكر ليوافق السيِّدة دى لارناج، وهي التي عنيت بأن تحذرني من فتيات (مونبيلييه)، لا من جسر الحرس.. لكن المرء لا يفكر في كل شيء!

وفى (نيم)، ذهبت لأشاهد الملعب المدرج، إنه عمل أكثر روعة بكثير من جسر الحرس، إلا أن تأثيره عليَّ كان أقل بكثير من تأثير الجسر.. فإما أن الجسر قد استنفد كل إعجابي، أو أن المدرج، وهو يقع في وسط المدينة، كان أقل من أن يثير إعجابي! لقد كانت تحيط بهذا الميدان البديع الفسيح الأرجاء منازل صغيرة قبيحة، وامتلأت الحلبة بمنازل أخرى، أصغر وأقبح، حتى أن المنظر كله كان يبعث في النفس الشعور بالاضطراب وعدم التناسق، كما كان النفور يخمد المتعة والدهشة، وقد رأيت منذ ذلك الحين ملعب « فيرونا » وهو أصغر بكثير وأقل مهابة وجلالًا، ولكنهم احتفظوا به في أكبر قدر ممكن من النظافة والأناقة، ولهذا السبب وحده أثر فيَّ تأثيرًا أبلغ وأقوى، ووقع من نفسي موقع القبول.. إن الفرنسيين لا يعنون بشيء ولا يحترمون النصب، وهم تواقون أشدّ التوق للقيام بأي عمل، ولكنهم لا يعرفون كيف يتمونه أو كيف يحفظونه سليمًا إذا ما انتهوا منه!

لقد تبدَّلت حالي كثيرًا، واستيقظت أحاسيسي - وكانت قد تنبهت إلى العمل - حتى بقيت يومًا بأكمله في فندق (بون دى لونيل) لأنعم مع الزائرين الآخرين بطيب الجو الذي شاع فيه. وكان هذا الفندق - إذ ذاك - أشهر فندق في أوربا، كما كان جديرًا بما اكتسب من صيت، فقد عرف أصحابه كيف يستغلون موقعه البديع، فزوّدوه بوفرة من أطايب المأكولات. لقد كان من الغريب حقًّا أن تجد في دار نائية منعزلة - وفى وسط الريف - مائدة زُودت بسمك البحر وسمك النهر ولحوم الصيد البديعة والخمور المنتقاة، تُقدَّم لك في أدب وكياسة لا تجدهما إلا في بيوت العظماء والموسرين.. وكل هذا بخمسة وثلاثين « سو » لشخص!.. إلا أن « جسر دي لونيل » لم يبق في هذا المستوى طويلًا، إذ أنه تمادي في استغلال سمعته، حتى فقدها بأسرها في النهاية!

ولقد نسيت أثناء رحلتي أنني كنت مريضًا، فلم أتذكَّر ذلك إلا عندما بلغت (مونبيلييه). ولقد كان من المحقق أنني شُفيت من نوبات الهستيريا التي كانت تنتابني، إلا أن كل عللى الأخرى بقيت. ومع أن اعتيادي إياها جعلني أقل إحساسًا بها، إلا أنها كانت تكفي لأن تحمل أي إنسان على الاعتقاد - إذا ما تعرَّض لنوباتها فجأة - بأنه على باب القبر.. كانت هذه العلل - في الواقع - أكثر بعثًا للانزعاج منها إثارة للألم، وكانت تسبب من عذاب العقل أكثر مما تسبب من عذاب الجسم، وهي التي كانت تعلن عن تدميره فيما يلوح. ومن ثم

فإنني كنت - حين أشغل بالانفعالات العنيفة - لا أفكر في حالتي الصحية. ولكن عللى لم تكن خيالية، فكنت أعود إلى الاحساس بها مرة أخرى عندما يعاودني هدوئي، وبدأت عندئذ أفكر تفكيرًا جديًا في نصيحة السيِّدة دى « لارناج »، وفي هدفي من رحلتي، فاستشرت أشهر الأطباء وعلى الأخص السيِّد « فيز ».

وزيادة في الحيطة، نزلت عند طبيب. كان إيرلنديًا اسمه « فيتز موريس »، وكان ينزل عنده عدد عظيم من طلبة الطب. ومما جعل منزله أكثر مدعاة لراحـة المريض المقيم، أنه كان يقنع بأجر معقول لقاء المأكل والمسكن، ولا يتقاضى شيئًا من نزلائه في مقابل الرعاية الطبية، وقد أخذ على عاتقه أن يُنفِّذ تعليمات السيِّد « فيز »، وأن يعني بصحتى. أما فيما يتعلَّق بالغذاء فقد كان يوفى ما عليه وفاء يدعو للاعجاب، فلم يكن بين النزلاء مَن يعاني عسر الهضم. ومع أنني لم أكن ممن يأبهون بالحرمان من الطعـام، إلا أن الفرص التي تهيىء لى المقارنة كانت في متناول يدى، حتى أنني لم أتمالك في بعض الأحيان من أن أتبين - فيما بيني وبين نفسي - أن السيِّد دى « تورنيان » كان موردًا للأغذية أفضل من السيِّد « فيتز موريس »، وعلى كل حال فلم نكن نشكو الجوع تمامًا!. وكان الطلبـة الشبان غاية في المرح، وقد أفادني حقًّا هـذا الأسلوب من أساليب الحياة، وحال دون إصابتي بما كان ينتابني قبلًا من الاكتئاب. وكنت أقضى الصباح في تناول الأدوية، وخاصة بعض المياه - التي أعتقد أنها كانت تأتى من (فالس)، وإن لم أكن واثقًا من ذلك - وفي الكتابة إلى السيِّدة دى « لارناج ». ذلك أن الرسائل ظلَّت مستمرة، وقد آلى روسو على نفسه أن يأتي بخطابات صديقه « دودنج ».

وكنت أنطلق - عند الظهر - في جولة إلى (كانورج) مع أحد زملائنا الشبان الذين كانوا ينزلون معنا. وقد كانوا جميعًا على خلق عظيم. وكنا نجتمع بعد ذلك لتناول الغداء، فإذا ما فرغنا منه، كان معظمنا يشغل بمسألة هامة حتى المساء.. تلك هى أننا كنا ننطلق إلى خارج المدينـة، لنلعب دورين أو ثلاثة من لعبة الكرة والصولجان، ولنتناول شـاي الأصيل. ولم أكن أشترك في اللعب معهم، إذ لم تتوفر لى القوة أو البراعة في اللعب، ولكني كنت أراهن على النتيجـة.. وهكذا كنت أتبع لاعبينا وكراتهم عبر الطرق الوعرة الصخرية، وأنا مهتم برهانى، فأنعم برياضـة صحية ممتعة، كانت تناسبني إلى أقصى حد. وكنا نتناول الشاي في مقصف خارج المدينة، وغنى عن البيان أن هذه الوجبات كانت مليئة بالمرح، ولكني أضيف إلى هـذا أنها كانت محتشمة، بالرغم من أن فتيات المقصف كن جميلات!.. وكان رئيس الفريق هو السيِّد « فيتز موريس » نفسه، فقد كان لاعبًا عظيمًا. وأستطيع أن أقرِّر - بالرغم من سوء سمعة الطلبة - أنني وجدت بين هؤلاء الشبان من الأدب والحشمة ما لا يسهل العثور عليه بين عدد مساو لهم من الرجال الناضجين.. كانوا أميل للضوضاء منهم للفسق، وللمرح منهم للخلاعة. ولما كان من السهل علىَّ أن أعتاد أي سبيل من سبل الحيـاة - عندما يكون ذلك باختيارى - فإنني لم أعد أتمنى أكثر من استمرار هذه الحال.

وكان بين الطلبة عدد من الأيرلنديين حاولت أن أتعلَّم منهم بضع كلمات إنجليزية تأهبًا لذهابي إلى (سانت أنديول)، فقد كانت السيِّدة دى « لانارج » تستحثني في كل بريد، وكنت على استعداد لكي أذعن إلى رغبتها. وكان من الواضح أن أطبائي - وقد غاب عنهم علتي - اعتبروا ألَّا وجود لها إلا في مخيلتي. وبناء على هذا فإنهم كانوا يعالجونني بأعشابهم الصينية ومياههم واللبن الخثر.. والأطباء كالفلاسفة، ولكنهم يختلفون جد الاختلاف عن علماء أصول الدين، إذ أنهم لا يقرّون بأن شيئًا ما صحيح إلا إذا كان في استطاعتهم أن يعللوه، كما أنهم يجعلون من إدراكهم مقياسًا لكل ما هو ممكن!.. ولم يكن هؤلاء السادة يدركون شيئًا عن علتي، ولذلك لم أك مريضًا البتة، في رأيهم!. فإن الأطباء يعرفون كل شيء طبعًا!.. وكنت أرى أنهم إنما يحاولون خداعي وحملي على إنفاق مالي، ولما كنت أعتقد أن نائبتهم في (سانت أنديول) ستفعل عين ما كانوا يفعلون - ولكن

بطريقة أظرف - فقد صحّ عزمي على أن أفضلها عليهم!.. وما أن قرّ رأيي على هذا القرار الحكيم، حتى رحلت عن (مونبيلييه)، فغادرتها في أواخر شهر نوفمبر، بعد أن أقمت فيها ستة أسابيع أو شهرين، وبعد أن أنفقت فيها اثني عشر « لوى »97، دون أن يعود ذلك، بأي نفع على صحتى أو على إدراكي، اللهم فيما عدا منهج في التشريح بدأته تحت إرشاد السيِّد « فيتز موريس »، واضطررت أن أكفّ عن تلقيه نظرًا للرائحة النتنة التي كانت تتصاعد من الجثث المشرحة، فقد وجدت أن من المستحيل عليَّ أن أتحملها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وشعرت أننى غير مستريح للقرار الذي اتخذته، فشرعت أفكر فيه وأنا أواصل رحلتى صوب (بون سان اسبرى) وكان الطريق يؤدى إلى (شامبيرى) كما كان يؤدّي إلى (سانت أنديول)، فأثارت ذكرى « ماما » ورسائلها - ولو أنها لم تكن تكتب كثيرًا كما كانت السيِّدة دي « لارناج » تفعل - لواعج الحسرة في فؤادي من جديد، بعد أن كنت قد أخمدتها في الشطر الأوَّل من رحلتي وكانت في عودتها قوية عنيفة، حتى أنها رجحت على حب المتعة، فلم أجد مناصًا من الاستماع إلى صوت العقل وحده. ولعلني كنت في دور الأفَّاق - الذي عدت إلى الشروع في أدائه - أقل توفيقًا وحظًّا مما كنت في المرة الأولى. ذلك لأن الأمر - في هذه المرة - لم يكن يتطلّب سوى أن يوجد في بلدة (سانت أنديول) بأسرها، شخص واحد، سبق له أن زار إنجلترا، وعرف الإنجليز، وتمكن من لغتهم، حتى يفتضح أمرى!.. وكان من المحتمل ألَّا أروق لأسرة السيِّدة دي « لارناج »، فتعاملني بقليل من الكياسة. إذ كانت ابنتها - التي كنت أفكر فيها، بالرغم منى، أكثر مما كان ينبغي - تسبب لي قلقًا لم يفارقني.. وكنت أرتجف لمجرَّد احتمال أننى قد أقع في هواها!.. وكان هذا الخوف يؤلف نصف العوامل التي كانت تحملني على العدول.. وكنت أقول لنفسي: أتراني - في مقابل أفضال الأم - أسعى لإفساد الابنة وللدخول معها في علاقة بغيضة، تصيب الأسرة بالتصدّع والعار والفضيحة والجحيم معًا؟

كانت هذه الفكرة توقع الرعب في نفسي، ومن ثم فقد صممت تصميمًا جازمًا على أن أقاوم هذه النفس وأهزمها، إذا أنا شعرت بمثل هذه الرغبة الدنيئة. ولكن.. لماذا أعرِّض نفسي لصراع كهذا؟.. أية حال تعسة من العيش تلك التي تدعوني إلى أن أحيا مع الأم - التي كنت أوقن من أنني سئمتها - بينما يضطرم قلبي بحب الابنة، دون أن أجرؤ على أن أكشف لها قلبي؟.. وأية ضرورة تدعو إلى السعي نحو حال كهذه، أتعرَّض فيها للبلايا والإهانات والندم، في سبيل متع حظيت مقدمًا بأعظمها فتنة؟.. ذلك أنه كان من المحقق أن أهوائي كانت قد فقدت حدَّتها الأولى.. كان الميل للمتعة ما يزال قويًّا، ولكن العاطفة المتأججة كانت قد ولت. وقد خالطت ذلك أفكار تتصل بموقفى، وواجباتي، وتلك الأم المفرطة الطيبة والكرم، التي تورّطت في ديون - فوق التي كانت تثقل عاتقها - في سبيل نفقاتي الطائشة، والتي أنفقت كل ما كانت تملك من أجلي، أنا الذي كنت أخدعها بخسة.. ولقد اشتدَّ هذا التأنيب وثقل على ضميرى حتى انقلبت الكفة آخر الأمر، فما أن اقتربت من (سان أسبرى)، حتى قرَّرت أن أسرع باجتياز (سان أنديول) دون أن أتوقَّف فيها. ونفَّذت هذا القرار ببسالة، وإن كنت لا أنكر أنني زفرت بعض زفرات. بيد أننى في رضائي عن نفسي، كنت أتذوق - للمرة الأولى في حياتي - لذة القدرة على أن أقول: « من حقى أن أشيد بذكر نفسي، فإنني أعرف كيف أقدم واجبي على متعتى »!

وهذا هو الالتزام الحقيقي الأوَّل، الذي خرجت به من دراستي، إذ أنها علمتني أن أفكر، وأن أقارن.. وبعد مبادىء الطهر والعفة ـ التي انتهجتها منذ عهد قريب - وبعد قواعد الحكمة والفضيلة التي ارتضيتها لنفسي، والتي كنت فخورًا كل الفخر باتباعها، وجدتني أشعر بالخزي من أن أكون متساهلًا مع نفسي، ومن أن أخالف قواعدى المقرَّرة بهذه السرعة وهذه القوة، وطغى هذا الشعور عليَّ، فانتصر على المتعة، وربما كان للاعتزاز بالنفس نصيب - في

قراري - يعـادل نصيب الفضيلة سواء بسواء. ولكن، إذا لم يكن هذا الاعتزاز هـو الفضيلة ذاتها، فإن آثاره كانت تشابه آثار الفضيلة إلى درجة أن المرء يخطيء في التفريق بينهما!

ومن الآثار الطيبة للأفعال الصالحة، أنها تسمو بالروح وتميل بها إلى الإتيان بشيء أفضل، ذلك أن الضعف البشرى بلغ مبلغًا عظيمًا، حتى لينبغي لنا أن نسلك في عداد الأفعال الصالحة الامتناع عن الشر الذي تغرينا نفوسنا على ارتكابه.. وما أن اتخذت قراري حتى أصبحت رجلًا آخر، أو - على الأصح - أصبحت الرجل الذي كنته من قبل.. الرجـل الذي حملته نشوة هـذه التجربة على أن يختفى. فواصلت رحلتي وقد انطوى صدرى على أطيب المشاعر وأفضل القرارات، منتويًا التكفير عن خطئي، وعدم التفكير إلا في تنظيم سلوكي في المستقبل على أساس من قوانين الفضيلة، مكرِّسًا نفسى دون قيد أو شرط لخدمة أبر الأمهات، منذرًا لها إخلاصًا يعـادل حبي لها، منصتًا لنداء واجبي وحده، ولكن واأسفاه!..

كان إخلاصي في العودة إلى الفضيلة، يبدو وكأنه يخبيء لي مصيرًا آخر. بيد أن مصيرى الحقيقي كان قد كُتب في لوح القدر، وبدأ يتحقق فعلًا. وفي اللحظة التي لم يكن فيها قلبي - الزاخر بحب كل ما هو طاهر وشريف - يرى أمامه سوى البراءة والسعادة، كنت أقترب من اللحظة القاتلة التي قُدِّر لها أن تجر وراءها تلك السلسلة الطويلة من الكوارث التي حلَّت بي!

كان تعجل الوصول قد جعلني أسرع في سفري أكثر مما كنت أنتوى، وكنت قد أرسلت خطابًا إلى « ماما » من (فالانس) أخبرها فيه باليوم والساعة اللذين توقعت أن أصل فيهما. ولما كنت قد استبقت موعدي بنصف يوم، فقد قضيت ذلك الوقت في (شاباريان) لكي أصل في اللحظة التي عينتها بالضبط، وكنت أتوق إلى أن أستمتع غاية الاستمتاع بمرآها ثانيـة، ففضلت أن أؤجل وصولي قليلًا حتى أضيف إلى ذلك متعـة الشعور بأن ثمة مَن ينتظره. وكان حليف هذا الإجراء النجاح دائمًا، فقد كنت أجد القوم يحتفلون بوصولي - في كل مرة - وكأنه يوم عيد صغير. وهذا ما توقعته في هذه المناسبة، وكانت تلك العناية - التي كانت تهفو بالقلب والمشاعر - جديرة بالتعب الذي كان يُبذل في سبيل الظفر بها!

ووصلت في اللحظة التي عينتها تمامًا. ومذ كنت على مسافة بعيدة من غايتي، رحت أنعم النظر في الطريق، علني أراها.. « ماما »!.. وراح قلبي يخفق في عنف أخذ يطرد بازدياد اقترابى. ووصلت وأنا ألهث، إذ أننى كنت قد تركت عربتي في المدينة.. ولم أر أحدًا في الفناء أو عند الباب أو مطلًّا من النافذة، فبدأ القلق يساورني خشية أن يكون قد وقع حادث.. ودخلت فإذا كل شيء هاديء، وبعض العمال يأكلون في المطبخ، ولم تكن ثمة إمارات تنم عن أن القوم ينتظرونني. وبدت الدهشة على الخادم لرؤياي إذ أنها كانت تجهل أمـر قدومى. وصعدت الدرج.. وأخيرًا رأيتها.. تلك الأم العزيزة، التي اجتمع لها في قلبي كل ما في الحب من رقة وقوة وإخلاص. وهرعت إليها، فألقيت نفسي عند قدميها. وقالت لي وهي تعانقني: « آه إذن فقد عدت أيها الصغير!.. أكانت رحلتك ممتعة؟.. كيف حالك؟ ». وأذهلني هذا الاستقبال بعض الشيء، فسألتها عما إذا كانت قد تلقَّت خطابي. وأجابتني بنعم، فقلت: « ما كنت أعتقد هذا ». وانتهى الحديث عند هذا الحد، فقد كان معها شاب تذكرت أنني رأيته في المنزل قبل رحيلي، ولكنه بدا - في هذه المرة - وكأن المقام قد استقرَّ به هناك، وكان ذلك هو الواقع فعـلًا. ومجمل القول أننى وجدت مَن حلّ محلى!

وكان هذا الشاب من منطقة (فو)، وكان أبوه - واسمه « فنتزنريد » - أمين حصن (شييون)، أو كبير ضباطه كما كان يدعو نفسه. أما الابن فقد كان عاملًا يصنع الشعر المستعار، وكان يطوف بالبلاد ممارِسا مهنته، عندما قدَّم نفسه إلى السيِّدة دى « فاران » فأحسنت استقباله، كما كانت تفعل مع عابري الطريق جميعًا، لا سيما أولئك الذين يكونون قادمين من مسقط رأسها. وكان الشاب ذا شعر أشقر غزير حائل اللون، وجسم بديع

التكوين، ووجه سمين، وعقل في ثقل جسمه!.. فقد كان يتحدَّث كالمغرور المتحذلق، وهو يخلط بين اللهجات، ويمزج الأحاديث التي تتطلبها مهنته بقصة طويلة - عن مغامراته وفتوحاته الغرامية - لم يكن يضمنها، فيما زعم، سوى نصف مَن ضاجعهن من المركيزات!.. وكان يدَّعى أنه ما صفف شعر حسناء، إلا وزين رأس زوجها أيضًا!.. كان مغرورًا أخرق جاهلًا وقحًا، أما عدا هذا، فقد كان من أحسن الشبان في العالم!.. ذلك هو البديل الذي حلَّ محلى أثناء غيابي والرفيق الذي قدَّموه إلىَّ بعد عودتي! وإذا كانت الأرواح التي تنطلق من القيود الدنيوية، تظل ترى ـ خلال أضواء الأبدية ـ ما يجرى بين أهل الأرض، فاغفر لي - إذن - أيها الطيف الحبيب الأثير، أنني لا أغض الطرف عن أخطائك ولا عن أخطائي، بل أنني أكشف عنهـا جميعًا أمام القارىء، وعلى قدم المساواة!.. لسوف أكون - ولابد لي من أن أكون - صادقًا نحوك صدقي نحو نفسي، ولن يصيبك من ذلك قط إلا ما يقل كثيرًا عما يصيبني أنا!.. آه كم يكفِّر خلقك الوديع الرقيق، وطيبة قلبك - التي لا ينضب معينها - وصراحتك، وكل صفاتك الباعثة على الإعجاب.. كم تكفِّر هذه عن نقاط ضعفك، إذا ما ذكرت تلك الهفوات التي يمكن أن توصف بأنها من أخطاء عقلك وحده!.. لقد أخطأت، ولكنك كنت براء من الرذيلة.. ولقد استحق مسلكك اللوم، ولكن قلبك ظلَّ نقيًّا دائمًا.

ولقد أظهر القادم الحديث غيرة وحمية وعناية بتنفيذ الشئون الصغيرة العديدة التي كانت « ماما » تحتـاج إليها، ونصب نفسـه رئيسًا على عمالها.. وكان كثير الضجيج، بقدر ما كنت شديد الهدوء!.. كان القوم يرونه ويسمعونه في كل مكان في وقت واحد: عند المحراث، وفي مخزن الدريس، وفي مخزن الخشب، وفي الاسطبل، وفي سـاحة المزرعة. وكانت فلاحة البساتين هي الشيء الوحيد الذي أهمله، إذ أنها كانت هادئة جدًّا، لا تهيىء الفرصة لإحداث ضوضـاء.. كان يفرح أشدّ الفرح بوسق عربة وقيادتها، ونشر الخشب أو تكسيره.. فما كنت تراه إلا والفأس أو البلطة في يده، وهو يعدو ويدفع ما أمامه ويصيح بكل ما فيه من قوة.. ولست أدرى كم من عمل الرجال قام به، ولكن الذي أدريه أنه كان يُحدث من الضوضاء قدر ما يُحدثه عشرة رجال أو اثنا عشر. وكانت كل هذه الضوضاء والحركة تخدع « ماما » المسكينة، فقد حسبت أنها وجدت في هذا الشاب كنزًا يعاونها في شئونها، وأرادت أن تحمله على التعلّق بها فاستخدمت في ذلك كل السبل التي اعتقدت أن من الممكن أن تأتي بالنتيجة المرجوة.. ولم تنس ذلك السبيل الذي كانت تعول عليه أكثر من سواه!

ولابد أن القارىء قد استشف شيئًا عن قلبي، وعن مشاعره الصادقة الثابتة، لا سيما تلك التي حدت بي إلى العودة إلى « ماما » إذ ذاك، ولكن يا للانقلاب المفاجيء الكامل في كياني كله!.. فليضع القارىء نفسه في موضعى، ليستطيع الحكم!.. لقد رأيت كل ذلك المستقبل السعيد - الذي تخيلته لنفسي - يتلاشي في لحظة، وتبددت أحلام السعادة التي كنت أعتز بها اعتزازًا.. ووجدتني للمرة الأولى وحيدًا، أنا الذي ألفت منذ صباي ألَّا أرى لنفسي وجودًا إلا في وجود « ماما »!.. كانت تلك اللحظة فظيعة، ولكن اللحظات التي تلتها كانت قاتمة كئيبة.. كنت ما أزال شابًّا، ولكن ذلك الشعور العذب بالمتعة والأمل ـ الذي يبعث الحياة في الشباب - كان قد هجرني إلى الأبد. ومنذ ذلك الحين مات في أعماقي الحس المرهف - نصف ميتة - ولم أعد أرى أمامي إلا أطلالًا حزينة لحيـاة تافهة، فإذا ما أذكى شهواتي - بين الحين والحين - طيف من سعادة، فإن هذه السعادة لا تبدو لي حقيقية.. بل أننى كنت أوقن بأن ظفرى بها، لن يجعلني سعيدًا حقًّا!

ولقد كنت غاية في السذاجة، كما كانت ثقتي بماما جد عارمة، حتى أنني لم أحدس قط السبب الحقيقي للهجة الألفة التي كان القادم الجديد يتحدَّث بها، والتي اعتبرتها من نتائج طبيعة « ماما » السهلة الهينة التي تجتذب الناس جميعًا اليها.. وما كنت لأحدس الأمر، لو لم تبح به هي نفسها، فقد بادرت إلى الاعتراف، في صراحة كان من المحتمل أن تذكي

سخطى، لو أن قلبي كان يتسع لمزيد من السخط.. ذلك أنها كانت ترى الأمر بسيطًا، فقد عابت عليَّ إهمالي أثناء وجودي في البيت، وتذرعت ضدى بغيابي المتكرِّر، وكأنما كانت طبيعتها تقتضيها ملء الفراغ بأسرع ما يمكن، فقلت لها وقلبي يتمزَّق حزنًا: « واها يا ماما.. ما هذا الذي تجرؤين على أن تحدثيني به؟.. يا له من جزاء على إخلاص كذلك الذي آثرتكِ به!.. هل أنقذتِ حياتي هكذا مرارًا، لغير ما داع إلا لتحرميني ذلك الذي جعلها عزيزة عندي؟.. إن هذا سيوردنى مورد التهلكة، ولكنكِ ستأسفين على فقدى! ». فردت - في هدوء كان خليقًا بأن يدفعني إلى الجنون - بأنني طفل، وأن الناس لا يموتون من مثل هذه الأمور، وأنني لم أفقد شيئًا، وأننا خليقان بأن نكون صديقين حميمين - بكل ما للصداقة من معنى - وثيقى الصلة في كل أمر من الأمور، وأن حبها العميق لى لن يقل ولن ينتهي إلا بانتهاء حياتها!..

ومجمل القول أنها جعلتني أدرك أن جميع مزاياي باقية على ما كانت عليه، وأنني لن أجد أي نقص فيها، بالرغم من أن ثمة مَن أصبح يشاركني إياها، ولم يظهر قط حبي لها - في صفائه وصدقه وقوته ـ ولا ظهرت روحى - في إخلاصها واستقامتها - مثلما ظهرا على هذه الصورة الواضحة، في تلك اللحظة. فقد ألقيت بنفسي عند قدميها، وذرفت الدموع مدرارًا، وأمسكت بركبتيها، وهتفت بها وأنا شارد الفكر: « كلَّا يا ماما!.. إننى أحبك حبًّا أعمق من أن يسمح لى بإذلالك، وامتلاكك أغلى عندي من أن أستطيع مشاركة آخر فيه.. إن الندم الذي شعرت به عندما وهبتني نفسك - لأوَّل مرة - قد ازداد بازدياد حبى، ولن أستطيع أن أحتمل هذا الندم بنفس الثمن. لسوف أظلّ دائمًا أعبدك. وأبقى جديرًا بحبك، طالما ظلَّت حاجتي إلى احترامك أكبر من حاجتي إلى امتلاكك. إننى أكل أمر نفسك إلى نفسك، وأضحى في سبيل اتحاد قلبينا بكل متعى!.. وخير عندي أن أموت ألف مرة من أن أسعى إلى إذلال مَن أحب! ».

ولقد ظللت أمينًا على هذا القرار في ثبات وحزم أجرؤ على القول بأنهما جديران بالشعور الذي دفعني إلى هذا القرار. ومنذ تلك اللحظة كنت أنظر إلى تلك الأم العزيزة بعينَيّ الابن البار!.. ولا بد لي من أن أضيف إلى هذا أن قراري، وإن لم يكن قد صادف موافقة منها شخصيًّا - كما تبين لي جليًا - إلا أنها لم تحاول قط أن تثنيني عن عزمي بتلك الاقتراحات المغرية، ولا الملاطفة، ولا بسبل الغواية التي تجيد النساء استخدامها دون أن تصبن أنفسهن بالجروح، والتي نادرًا ما يمنين فيها بالفشل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووجدتنى مكرهًا على أن أسعى إلى مصير مستقل عن « ماما ».. واستعصى علىّ التفكير، فسرعان ما ارتميت في أحضان نقيضه تمامًا، إذ سعيت إلى البحث عن المصير المنشود عندها هي نفسها.. واستغرقت في البحث عنه عندها، حتى أفلحت في نسيان نفسي أو كدت، واستوعبت مشاعري الرغبة الملحة في أن أراها سعيدة مهما كان الثمن.. ولقد كان من العبث لها أن تفضّل سعادتها على سعادتى، فلقد كنت أرى سعادتي في أغوار سعادتها، بالرغم منها!

وهكذا، بدأت تنمو مع مصائبي، تلك الفضائل التي كانت بذورها قد غُرست في أعماق قلبي، والتي هذّبتها الدراسة، ولم تكن تنتظرها إلا الشدّة حتى تؤتى ثمارها. وكانت النتيجة الأولى لإنكار الذات والتجرّد عن الغرض، أن زال من قلبي كل شعور بالحقد والحسد نحو ذلك الذي حلَّ محلى، بل أننى - على العكس من ذلك - كنت أريد في إخلاص صادق أن أصبح وثيق الصلة بهذا الشاب، وأن أصوغ خلقه، وأعلّمه وأشعره بسعادته، وأجعله جديرًا بها إذا أمكن. وبالاختصار أن أفعل له ما سبق لآنيه أن فعله من أجلى في ظروف مماثلة!.. إلَّا أن طبيعتينا لم تكونا متماثلتين. ومع أنني كنت أرق حاشية وأوسع علمًا من آنيه إلا أنني لم

أوت قلة مبالاته أو ثباته أو قوة خلقه، التي كانت تبعث على الاحترام، والتي كان لابد منها لضمان النجاح. زد على ذلك أنني لم أكن أجد في هذا الشاب الصفات التي وجدها « آنيه » فيَّ، وأعنى: دماثة الخلق والحب والعرفان بالجميل.. وأهم من هذا كله، الإدراك بأنني أحتاج لرعايته، والرغبة الملحة في الانتفاع بهذه الرعاية.

كانت تعوزه كل هذه الصفات. وكان هذا الذي أردت أن ألقنه العلم، لا يعتبرني أكثر من متحذلق يبعث على السأم والضجر، ولا يحسن من الأمور سوى الثرثرة. وكان - من ناحية أخرى - يعجب بنفسه بوصفه شخصًا له شأنه في المنزل. فكان يغالي في تقدير الخدمات التي يحسب أنه كان يؤدّيها بالضوضاء التي كان يحدثها. وكان يرى أن فؤوسه ومعاوله أنفع كثيرًا من كل كتبي القديمة!.. ولقد كان مصيبًا بعض الشيء، ولكنه - اعتمادًا على هذا - كان يزهو ويستكبر في صورة تدعو المرء إلى الإغراق في الضحك. وكان يحاول أن يمثل مع الفلاحين دور سيّد من سادة الريف، فما لبث أن أخذ يعاملني نفس المعاملة، بل أنه راح يعامل « ماما » كذلك!.. وإذ بدا له أن الاسم « فتزونريد » لم يكن فيه ما يميزه، هجره واتخذ له اسم السيِّد دى « كورتيل »، وهو الاسم الذي عُرف به فيما بعد في (شامبيرى) وفي (موريين) حيث تزوّج!

ومجمل القول أن هذا الشخص البارع لم يلبث أن أصبح كل شيء في المنزل، بينما أصبحت أنا.. لا شئ!.. ولو أن سوء الطالع ساقنى إلى إغضابه، فإن « ماما » هي التي كانت تتلقّى اللوم بدلًا منى، ولهذا السبب فإن خوفي من تعريضها إلى سلوكه الفظ كان يدعو إلى أن أجيبه إلى كل رغباته وعندما كان يقبل على تكسير الأخشاب ـ وهو عمل كان يفخر به كل الفخر - كنت أقف متفرجًا عاطلًا، ومعجبًا صامتًا بقوته وجلده على العمل! على أن سجاياه لم تكن في مجموعها بالسجايا القبيحة.. لقد كان يحب « ماما » لأنه ما من أحد كان يستطيع أن يمسك نفسه عن حبها. ثم أنه لم يظهر لي شيئًا من النفور أو الكراهية، وكان في اللحظات التي يستولى فيها السكون عليه، ينصت إلينا هادئًا، ثم يعترف في صراحة بأنه لم يكن إلا أحمق.. ولا يلبث - بعد ذلك مباشرة - أن يرتكب حماقات جديدة. زد على ذلك أن إدراكه كان محدودًا، كما كان ذوقه وضيعًا، حتى لقد كان يتعذَّر على المرء مجادلته، أو الشعور بالراحة معه. ولم يقنع بالظفر بأشد النساء فتنة وسحرًا، بل أنه جمع - على سبيل التغيير - بينها وبين وصيفة عجوز حمراء الشعر خلا فمها من الأسنان، وكانت « ماما » تحتمل خدماتها - التي تثير في النفس الاشمئزاز - في صبر وأناة، وإن كانت تضيق بها كل الضيق! وإذ شاهدت هذا اللؤم الجديد، بلغ منى الحقد والغيظ مبلغهما. على أنني لاحظت شيئًا آخر ـ في الوقت ذاته ـ كان أشدّ تأثيرًا في نفسي، ودفعني إلى اليأس أكثر من أي أمر آخر وقع حتى ذلك اليوم. وكان هذا الشيء هو فتور في مسلك « ماما » نحوي، أخذ يزيد رويدًا رويدًا!

ذلك أن الحرمان الذي فرضته على نفسي، والذي تظاهرت هي بالموافقة عليه، إنما هو أحد تلك الأمور التي لا تغتفرها النساء قط - وإن تظاهرن بقبولها! - لا بسبب ما حُرمن هن منه، وإنما بسبب الشعور بعدم الاكتراث الذي ينطوي عليه الأمر. ولو أنك أخذت - على سبيل المثال - أوفر النساء عقلًا، وأكثرهن فلسفة وأقلّهن شبقًا، لوجدت أن الجريمة الوحيدة التي لا تغفرها هذه المرأة للرجل قط - ولو كان اهتمامها به فيما عدا ذلك أضأل ما يكون - هي أن يكون بوسعه أن يستمتع بها ولكنه لا يفعل!.. وليكن مفهومًا أن هذه القاعدة بلا استثناء، إذ أن العاطفة - مهما تكن طبيعية وقوية - لا تلبث أن تتغيَّر لدى المرأة بسبب الحرمان الذي لا باعث له سوى الفضيلة والحب والتقدير.. ومنذ ذلك الحين، لم أعد أجد لدى « ماما » تلك الصلة الوثيقة التي تربط بين قلبين، والتي كانت تفعم قلبى دائمًا بأحلى المتع. ولم تعد تبوح لي بأسرارها، اللهم إلا أن تشكو من ذلك الدخيل. أما عندما يكونان معًا على صفاء، فإنني لم أكن أحظى بأسرارها.. ولم تلبث - آخر الأمر - أن انتهجت نحوى مسلكًا

باعد بيني وبينها تدريجًا، ومع أن حضورى ظلَّ مبعث سرور لها، إلا أنه لم يعد ضرورة لا غنى لها عنها، حتى لقد كنت أقضى أيامًا بطولها دون أن أراها، فما كانت لتفطن إلى ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووجدتني - دون أن أفطن ـ معزولًا وحيدًا في هـذا المنزل الذي كنت فيه قبل ذلك بمثابة « الروح »!.. والذي أصبحت أحيا فيه حياة مزدوجة كما ينبغي أن يُقال.. فألفت تدريجًا أن أغض الطرف عن كل ما كان يقع في هذا المنزل، بل أنني أخذت أعتزل أولئك الذين كانوا يقيمون فيـه. ولكي أجنّب نفسى العذاب المتصل، رحت أحتبس نفسي مع كتبي، أو أذهب فأبكي وأتأوه ما شاء لى الهوى وسط الغـابات. وسرعان ما أصبحت تلك الحياة فوق ما يطيقه إنسان، وشعرت بأن الوجود الشخصي مع البعد القلبي بالنسبة لامرأة كنت أعزها كل هذا الاعزاز، كان يهيج شجونى.. وأن الكفّ عن رؤيتها، أقلّ قسوة! ولذلك قرَّرت أن أهجر المنزل.. ولقد قلت لها هذا، فإذا بها تحبذه، بدلًا من أن تعارضه!.. وكانت لها صديقة في (جرينوبل) - تُدعى السيِّدة « دييبان » - كان زوجها صديقًا للسيِّد « دى مابلى »، محافظ مدينة (ليون). ولقد اقترح السيِّد دييبان أن أتولى تعليم أولاد السيِّد دي مابلى، فقبلت، ورحلت إلى ليون دون أن أسبِّب لنفسي - بل دون أن أشعر تقريبًا - بأقل أسف على فراق كان مجرَّد التفكير فيه - فيما مضى - يبعث فينا آلامًا كنزعات الموت!

وكانت لديَّ المعرفة الضرورية - تقريبًا - لكي أكون مربيًا، وأعتقد أننى أوتيت موهبة لذلك. وقد اتسع لى الوقت - في السنة التي قضيتها بمنزل السيِّدة دى مابلى - كي أكشف عن حقيقة نفسي، فإذا ما فُطرت عليه من سماحة ورقة، كفيل بأن يجعلني أهلًا لهـذه المهنة، لولا ما كان يشوبه من حـدَّة الطبع.. فقد كنت كالملاك الكريم، طالما سارت الأمور على ما يرام، وطالما كنت أرى تعبى وعنـايتي - اللذين لم أكن أقتصد فيهما ـ يؤتيان ثمارًا. ولكنني كنت أغدو شيطانًا إذا ما انقلبت الأمور. وعندما كان يستعصى على تلميذَيّ فهمى، كنت أهذي كالمجنون، فإذا بدت منهما أمارات تنم عن خبث وعصيان، فإنني كنت أتمنى لو استطعت أن أقتلهما!.. وما كان هذا المسلك ليكفل لهما العلم أو الأدب.. وكانا غلامين يختلف طبع كل منهما عن الآخر كل الاختلاف: أحدهمـا في الثامنة أو التاسعة من العمر، ويُدعى « سانت مارى »، له وجه جميل، وعقل متفتح. وكان نشيطًا، طائشًا، لعوبًا، ماكرًا.. إلا أن مكره كان يتسم دائمًا بالمرح!.. أما الأصغر - واسمه « كونديللاك » - فقد كان غبيًّا أو يكاد، تافهًا كسولًا، أوتى عناد البغل.. وكان عاجزًا عن أن يتعلّم شيئًا!

ولقد أُكرهت على تقسيم عملى بين الاثنين، كما هو واضح للقارىء، ولعلني كنت مستطيعًا بشيء من الصبر والهدوء أن أوفق في عملي، ولكني كنت خلوًّا منهما، ومن ثم فإنني لم أحرز مع تلميذَيّ أي تقدّم، وكانت النتيجة غاية في السوء.. وما كنت لأفتقر إلى المثابرة، وإنما كان يعوزني الاتزان والكياسة بوجه خاص.. إذ أنني لم أكن أعـرف من الأساليب التي تُستخدم مع الأطفال إلا ثلاثة، كانت كلها دائمًا عقيمة عديمة الجدوى، وكثيرًا ما كانت تعود عليهم بأبلغ الضرر.. وهـذه السبل الثلاث هي: العاطفة، والمجادلة، والغضب. ولقد تأثّرت ذات مرة من « سانت مارى » تأثّرًا ذرفت معه الدمع، وحاولت أن أثير فيه عاطفة مماثلة، كأنما كان في وسع الطفل أن يتأثّر تأثّرًا صحيحًا!.. وفي مناسبة أخرى أرهقت نفسي في مجادلته، وكأنه كان قادرًا على أن يفهمني، ولما كان يلجأ في بعض الأحيان إلى جدال غاية في المكر والدهاء، فقد اعتقدت أنه ولابد ذكى، ما دام يعرف كيف يجادل!.. أما « كونديللاك » الصغير، فقد كان أشدّ جلبًا للضيق والضجر، إذ أنه لم يكن يفهم شيئًا، ولا يجيب عن أي سؤال، ولا يتأثَّر بأي مؤثر!.. كان عنيدًا لا يتزحزح عن موقفه، ولم يكن موفقًا في شيء اللهم إلا في إثارة غضبي، وإذ ذاك، كان يغدو هو العاقل وأنا الطفل!

لقد تبينت كل أخطائي، وكنت أدركها تمام الإدراك. إذ أنني درست أخلاق تلميـذَيّ وأفلحت

في سبر غورهما. ولا أعتقد أن حيلهما انطلت عليَّ مرة، ولكن ما جدوى تبين الشر إذا كنت لا أعرف كيف أعالجه؟.. ومع أنني كنت أستشف كل شيء، إلا أنني لم أكن أمنع شيئًا، ولم أفلح في شيء.. كان كل ما أفعله هو عين ما كان ينبغي لي ألَّا أفعله!

ولم يُكتب لي - فيما يتصل بأمر نفسي - من النجاح، أكثر مما كُتب لي فيما يتعلَّق بتلميذَي، وكانت السيِّدة « دبيبان » قد أوصت بي السيِّدة دى مابلى، وطلبت منها أن تهذِّب عاداتي وأن تطبعني بطابع يتفق والمجتمع الراقي، فجهدت السيِّدة في ذلك بعض الجهد، وأرادت أن تعلّمني كيف أشرّف البيت الذي أنزل فيه، بيد أننى أبديت من الارتباك والخجل بل والغباء ما ثبّط همتها ودعاها إلى اليأس منى. ولكن هذا لم يمنعني من الوقوع في حبها بطريقتي المعهودة. وقد عملت على أن تلاحظ هذا، وإن لم أجرؤ أبدًا على البوح لها بحبى، ولم يكن من طبيعتها أن تتودد قط إلى رجل، ومن ثم فقد ذهبت غمزاتى ونظراتي وتأوهاتي أدراج الرياح، وسرعان ما سئمتها، إذ رأيت أنها لم تكن تؤدي إلى شيء!

وكنت أثناء إقامتي مع « ماما » قد فقدت تمامًا الرغبة في السرقات الصغيرة، إذ أنني حين رأيت أن كل شيء قد بات ملك يدى، لم أعد أجد ما يدعو إلى السرقة! فضلًا عن أن المبادىء السامية التي انتهجتها كانت كفيلة بأن تجعل منى في المستقبل شخصًا ساميًا لا يأتي أمثال هذه الصغائر، وهذا ما صرت إليه - يقينًا - منذ ذلك الحين.. بيد أن هذا لم يكن راجعًا إلى أنني استأصلت الداء من جذوره وإنما كان مرده إلى أنني تعلّمت التغلّب على ما كان ينتابني من إغراء. وكان الخوف كثيرًا ما يتملكني من أن أوغل في السرقة - كما كنت أفعل في طفولتي - إذا عاودتني الرغبة وتهيأت لي الفرصة. وقد تبدّى لي الدليل على ذلك في دار السيِّد « دى مابلى ». فبالرغم من كثرة الأشياء الصغيرة التي كانت تحيط بي، والتي كانت في متناول يدي، إلا أنني لم أولها نظرة واحدة.. غير إن رغبة قوية تملكتني في الحصول على نبيذ أبيض بسيط المفعول اسمه نبيذ « أربوا »، كان لذيذ الطعم، وقد طاب لي كثيرًا بعد أن تناولت منه بضع كؤوس على المائدة.. وكان كثيفًا بعض الشيء، وقد زهوت بمهارتي في تنقية النبيذ، فعُهد إليَّ بهذا النوع بالذات، فقمت بتنقيته، ولكني أفسدته أثناء ذلك. على أن الفساد لم يلحق إلا مظهره، فظلّ لذيذ الطعم، وكنت أنتهز الفرصة لآخذ بعض الزجاجات بين الحين والحين أتجرعها عندما يحلو لي، ولكنني - لسوء الحظ - لم أك أقوى على أن أشرب دون أن أقرن الشراب بالأكل، فما حيلتي في الحصول على الخبز؟.. كان من المستحيل عليَّ أن احتفظ بشيء منه. ولو أننى أرسلت الخدم لشرائه، لانفضح أمري، ولكان ذلك - في الوقت نفسه - إهانة، أو شبه إهانة، لرب البيت، كذلك كنت أخشى أن أشتريه بنفسي، فكيف يستطيع سيِّد مهذب - والسيف إلى جانبه - دخول مخبز وشراء رغيف من الخبز؟.. وأخيرًا تذكرت الملجأ الأخير الذي لجأ إليه أمير كبير قيل له أن الفلاحين لم يكونوا يجدون الخبز، فأجاب بقوله: « إذن دعوهم يأكلون الفطائر! ».. ولكن، يا للمشقة التي كابدتها في الحصول على الفطائر!.. كنت أخرج وحدى في طلبها، فأجتاز المدينة بأكملها في بعض الأحيان من طرف إلى طرف، وأمر بثلاثين محلًا من محلات الفطائر، قبل أن أدخل أحدها. وكان من الضروري ألَّا يكون في المحل غير شخص واحد، وأن تكون سمات هذا الشخص بشوشة جدًّا، قبل أن يستقرّ رأيي على المغامرة.. وما أن كنت أفوز بكعكتي الصغيرة العزيزة، وأحكم غلق باب غرفتي عليَّ، حتى كنت آتى بزجاجة نبيذي من قاع صوان بغرفتي.. ويا للنشوات الصغيرة اللذيذة التي نعمت بها وحدى وأنا أقرأ بضع صفحات من رواية!.. فقد كنت أحب دائمًا أن أقرأ وأنا أتناول طعامي إذا كنت وحيدًا، فإن القراءة أثناء الطعام، كانت دائمًا الهواية التي تعوضني عن سمير أخلو إليـه. وكنت ألتهم صفحة ثم أزدرد لقمة، وكأن كتابي كان يتناول الطعام معى!



كنت احب دائما ان اقرا وانا اتناول طعامي اذا كنت وحيدا .

وأنا لم أكن أبدًا فاسقًا أو سكيرًا، بل الواقع أنني لم أثمل في حياتي قط!.. وهكذا توالت سرقاتي الصغيرة، التي لم تك تخلو تمامًا من الحرص والحذر، بيد أنها لم تلبث أن اكتُشفت، إذ فضحت الزجاجات أمرى. ولم توجّه إلى أية ملاحظة، إلا أن القبو لم يعد موكولًا إليّ، وقد تصرَّف السيِّد « دى مابلى » في هذا كله تصرّفًا كريمًا معقولًا، فقد كان رجلًا شهمًا، يخفى تحت ستار من الخشونة الملائمة لمنصبه نزعة رقيقة حقًّا، وطيبة قلب نادرة!.. كان ذكيًا عادلًا، بل إنه كان لطيفًا، وهو أمر لا تنتظره من ضابط من ضباط البوليس الراكب. وقد قدَّرت له تسامحه فأصبحت أكثر تعلقًا به، وحملني هذا على أن أمكث في منزله فترة أطول مما كان ينبغي لى، ولكنني وقد كرهت آخر الأمر مهنة لم أكن أصلح لها - بعد أن زججت بنفسي في موقف كله تعب، ولم يكن فيه ما يسر. وبعد سنة من التجربة لم أقتصد فيها شيئًا من جهدى - قررت أن أترك تلميذَيّ وأنا مقتنع بأنني لن أفلح في تنشئتهما تنشئة صحيحة. وكان السيِّد دي مابلى يرى هذا جيِّدًا كما كنت أراه، على أنني لا أعتقد أنه كان يقدم على فصلي - من تلقاء نفسه - لو لم أكفه مؤونة العناء.. ومن المحقق أن هذا التساهل المفرط - في حال كهذه - ليس مما أقرّه!

ومما زاد في عدم احتمالي لمركزي، أنني كنت أقارنه على الدوام بذلك المركز الذي خلّفته ورائي: ذكرى (شارميت) الغالية، وذكرى حديقتي وأشجاري، ونبعي، وبستانى - وفوق هذا وذاك - ذكرى تلك التي أشعر أننى خُلقت من أجلها، والتي كانت حياة كل شيء وروحه. وعندما كانت تعاودني ذكرى متعنا وحياتنا البريئة، كان قلبي يرزح تحت شعور من الضيق والاختناق يسلبني الشجاعة والقدرة على أن أفعل أي شيء! وقد راودتني - مائة مرة - رغبة عنيفة في الانطلاق لفوري على قدمَي، والعودة إلى السيِّدة دى فاران.. كنت على استعداد لأن أموت لفورى راضيًا، لو قُدِّر لي أن أراها مرة أخرى!

ولم أستطع - آخر الأمر - أن أقاوم هذه الذكريات الرقيقة - التي كانت تناديني إليها - مهما يكن الثمن، فقلت لنفسي إنني لم أتذرع بما يكفي من الصبر والكرم والود، وأننى لو كنت قد أجهدت نفسي أكثر مما فعلت لظللت أعيش معها في علاقة من الصداقة الخالصة، وقد وضعت أجمل المشروعات في العالم وتحرّقت شوقًا إلى تنفيذها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا، تركت ذات يوم كل شيء ونبذت كل شيء، ثم شرعت في رحلتي أنهب الأرض نهبًا، فوصلت إلى الدار بعد استخدام جميع وسائل المواصلات التي توفرت لي في صدر شبابي.. ووجدتني عند قدميها مرة أخرى! أواه! لقد كنت أموت مغتبطًا، لو أننى وجدت - عند عودتي - في استقبالها إياى، أو في عينيها، أو في عناقها، أو - أخيرًا - في قلبها، ربع ذلك الذي كنت أجده من قبل، والذي كانت نفسي مفعمة به في عودتي!

واحسرتاه على ما يصادف البشر من خدع قاتلة!.. لقد تلقتنى « ماما » بذلك القلب الطيب الذي لا يموت إلا بموتها، ولكني بحثت عبثًا عن الماضي الذي ولى إلى غير عودة. وما أن مكثت معها نصف ساعة، حتى شعرت بأن سعادتي السابقة قد زالت إلى الأبد، ووجدتني في نفس المركز المحزن الذي اضطررت إلى الهرب منه دون أن أستطيع توجيه اللوم إلى إنسان!.. ذلك أن « كورتيل » لم يكن في قرارة نفسه فتى شريرًا، وقد لاح عليه السرور - لا الضيق - لمرآى. ولكن كيف أستطيع أن أحتمل وجودي كشخص زائد عن الحاجة، عند تلك التي كنت لها كل شيء، والتي لن تكف عن أن تكون لى كل شيء؟.. كيف أستطيع أن أعيش غريبًا في منزل كنت أشعر أننى ابنه؟.. بل إن رؤية الأشياء التي شهدت هنائى الماضي، كانت تزيد المفارقة إيلامًا.. وكنت خليقًا بأن أغدو أقل ألمًا في أي جو آخر للمعيشة، فإن شعوري بأنني كنت أذكر دون انقطاع كل تلك الذكريات الحلوة، كان يهيج في صدري الإحساس بفداحة ما فقدت.. وإذ راحت الحسرات ـ التي لم يكن من ورائها طائل ـ

تنهش قلبي، واستبدت بي أشدّ ألوان الكآبة سوادًا، أخذت ألوذ بالوحدة في غير أوقات الطعام، وانفردت بكتبي، وسعيت إلى أن أجد فيها بعض التسلية النافعة!

وشعرت بأن الخطر - الذي كنت أخشاه طويلًا - بات وشيك الوقوع، فأخذت أجهد عقلي من جديد، محاولًا أن أجد من نفسي وسيلة للتحصن ضده إذا ما نضبت موارد « ماما ».. فلقد كنت أدير شئونها المنزلية على أساس أن لا تزداد الأمور سوءًا، أما بعد أن تركتها فقد تغير كل شيء.. كان مدير ماليتها مسرفًا، يريد أن يختال بجواد أصيل وعربة.. وكان مولعًا بتمثيل دور النبيل أمام الجيران، كما أنه كان - في كل ذلك - يؤدي عملًا لا يعرف عنه شيئًا. وكان معاش « ماما » مستنفدًا مقدمًا. إذ كانت الدفعات التي تواتيها منه - كل ثلاثة أشهر - مرهونة، وكانت متأخِّرة في دفع الإيجار، وقد تراكمت عليها الديون، وتوقعت أن يُحجز على معاشها، أو أن يُقطع عنها نهائيًا.. ومجمل القول أنني لم أر أمامي إلا الخراب والكوارث، وبدت لي تلك اللحظة وشيكة، حتى لقد تجسَّم أمام ناظري كل ما تنطوي عليه من فظائع!

وكانت غرفتي العزيزة الصغيرة هي ملهاتي الوحيدة، وبعد أن بحثت طويلًا عن أدوية لعلاج قلقى العقلى، فكرت في أن أبحث عن علاج للمتاعب التي كنت أتنبأ بها، وعدت إلى أفكاري القديمة، وبدأت فجأة أبنى القصور في أسبانيا، محاولًا أن أنقذ « ماما » المسكينة من النهاية القاسية التي كنت أراها على وشك التردي فيها!.. لكني لم أكن أشعر أنني على علمٍ كاف، ولا كنت أعتقد أنني موهوب إلى حد يكفي لأن يلمع نجمي بين رجال الأدب، أو أن أجمع ثروة بهذه الوسيلة.. وألهمتني فكرة جديدة - خطرت لي - بالثقة التي عجزت عنها مواهبي المتوسطة.. ذلك أنني لم أكن قد أقلعت عن دراسة الموسيقى عندما كففت عن تدريسها، بل أننى - على النقيض من ذلك - كنت قد درست نظرياتها دراسة تكفيني لأن أعتبر نفسى عالمًا في هذه الناحية من الفن. وبينما كنت أسترجع الصعوبة التي صادفتني في تعلم قراءة « النوتة ».. والصعوبة الكبرى التي كنت لا أزال ألاقيها في الغناء بمجرَّد النظر إلى « النوتة »، أخذت أفكِّر في أن هذه المشقة قد تكون راجعة إلى طبيعة الأمر وليس إلى عجزي وقصورى، لا سيما وأننى كنت أعلم أنه ليس من السهل على أي إنسان أن يتعلم الموسيقى. وعندما فحصت ترتيب العلامات الموسيقية وجدت أنها كثيرًا ما تنم عن سوء ابتكار.. وكنت قد فكرت طويلًا في التعبير عن السلم الموسيقى بالأرقام، وذلك لتفادي رسم الخطوط والعلامات المدرجة عند الرغبة في كتابة أبسط النغمات. ولم تكن تعوقني سوى صعوبات تتصل بالطبقات والزمن وقيم « النوتة ».

وقد عاودتني هذه الفكرة من جديد، فلما أنعمت النظر فيها، وجدت أن هذه الصعوبات ليست مما يتعذَّر التغلّب عليه.. وأفلحت في تنفيذ فكرتي، فاستطعت آخر الأمر أن أكتب أي موسيقى - مهما يكن شأنها - بأكثر ما يمكن من الدقة.. بل أن بوسعي أن أقول: بأكبر قدر من البساطة. واعتبرت نفسى - منذ تلك اللحظة - من أصحاب الثراء!.. ولم أعد أفكر - وأنا شديد الشوق إلى أن تقتسم معى ثروتى، تلك المرأة التي كنت مدينًا لها بكل شيء - إلا في الارتحال إلى باريس، موقنًا من أنني سأحدث انقلابًا بمجرَّد عرض مشروعى على المحفل (الأكاديمية)!.. وكنت قد حملت معى - من ليون - قليلًا من المال، كما أنني بعت كتبي. وهكذا لم يمض أسبوع، حتى أصبح قراري معدًا للتنفيذ، فرحلت أخيرًا عن (سافوا)، حاملًا معى مشروعي الموسيقى، وأنا مفعم بالأفكار الرائعة التي ألهمنيها هذا المشروع، كما رحلت من قبل عن (تورين) مصطحبًا نافورتي الصغيرة!

تلك كانت أخطاء شبابي وعيوبه، سردت قصتها بإخلاص صادق يرضى قلبي. وإذا قُدِّر لي - فيما بعد - أن أمجد السنوات التالية من عمري، سنوات النضج، بأية فضيلة من الفضائل، فلن أكون - في ذلك ـ إلا منتهجًا عين الصراحة التي اتبعتها من قبل، فهذه هي نيتي وغايتي!

على أنه من الواجب أن أتوقَّف هنا.. إن الزمن كفيل بأن يدفع كثيرًا من الأستار والأحجبة. وإذا قُدّر لمذكراتي أن تنتقل إلى الأجيال المقبلة، فقد تفهم هذه الأجيال يومًا ما كان ينبغي أن أقول!.. وإذ ذاك سيتبين السر في إخلادي إلى الصمت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكراسة السابعة

سنة **1741**

بعد عامين من الصمت والصبر، أعود إلى القلم بالرغم مما كنت قد اعتزمت. فأمسك أيها القارىء حكمك على الأسباب التي تضطرني إلى ذلك، فلن يكون بوسعك أن تحكم إلا بعد أن تقرأ ما أنا قائل!

لقد تبين أن شبابي الوادع مضى ينساب في حياة معتدلة، كثيرة الرفق، دون ما ضائقات بالغة، ولا فترات رخاء عارم.. وكان هذا الاعتدال - إلى حد كبير - نتاج طبيعتي التي جمعت بين التوثّب والضعف، ومن ثم فهي أقل اندفاعًا إلى الإقدام، منها إلى التأثّر بالمثبطات.. وأنها لتخرج من تقاعدها بفورات، ولكنها لا تلبث أن تعود بتقاعس واستمراء.. كما أنها تحملني دائمًا - بعيدًا عن الفضائل الكبرى، وأكثر بُعدًا عن الرذائل الكبرى - إلى حياة الخمول والدعة التي كنت أظنني قد خُلقت لها، دون أن تمكنني إطلاقًا من تحقيق أي شيء عظيم، سواء كان طيبًا أو خبيثًا!

ألا ما أعظم اختلاف الصورة التي سأرسمها عاجلًا!.. فإن القدر الذي ظلَّ خلال ثلاثين عامًا يحابى ميولى، راح يعارضها ثلاثين عامًا أخرى، وسيتجلى كيف أن هذا التعارض المستمر بين مركزى وميولى، قد خلق عيوبًا جسيمة، وتعاسات لم يُسمع لها مثيل، وكل الفضائل ـ فيما عدا القوة ـ التي تجعل من البلايا أعمالًا مجيدة!

لقد كُتب الجزء الأوَّل بأسره من اعترافاتي، من الذاكرة.. ولا بد أننى ارتكبت كثيرًا من الأخطاء فيه، أما وأنا مضطر إلى كتابة الجزء الثاني من الذاكرة - كذلك - فمن المحتمل أني سأرتكب مزيدًا من الأخطاء!.. فإن الذكريات الناعمة التي تبقَّت لي عن أعوامي الجميلة، التي انقضت في هدوء وبراءة، قد تركت ألف أثر فاتن أحب أن أسترجعه دون ما توان!.. ولسوف يتجلّى عاجلًا مدى اختلاف هذه الأعوام عن بقية عمرى. إن استعادة ذكراها لهى لون من المرارة المتجددة. وبدلًا من أن أضاعف مرارات حالي الراهنة بتلك الذكريات الباعثة على الأسى، فإنني أقصيها إلى أبعد ما أستطيع. وكثيرًا ما أنجح في ذلك، إلى درجة أنني لا أقوى على العثور عليها عند الحاجة. وأن هذه المقدرة على نسيان الهموم بسهولة، لعزاء أسبغته السماء علىّ، وسط تلك الهموم التي راق للقدر أن يهيلها يومًا على رأسي. فإن ذاكرتي التي تستعيد بمقدرة فذَّة ما يُستحب من الأمور، هي العامل المرجح السعيد الذي يغالب خيالي الفظيع الذي لا يجعلني أرى سوى القاسي من أحداث المستقبل!

إن كل الأوراق التي جمعتها كي تعينني على التذكّر، وكى أهتدى بها في هذا المشروع، قد انتقلت إلى أيد أخرى، ولن يُقدَّر لها أن تعود إلى يدى.. ومن ثم فلست أملك مرشدًا أمينًا أستطيع أن أعتمد عليه، اللهم إلا واحدًا، يتمثَّل في سلسلة الأحاسيس التي كانت تنم عن تتابع نمو كياني، وعن الأحداث المتعاقبة التي كانت إما سببًا وإما نتيجة لتلك الأحاسيس والمشاعر.. إنني لأنسى مصائبي بسهولة، ولكني لا أستطيع أن أنسى أخطائي، كما أننى أقل نسيانًا لمشاعري الطيبة، فإن ذكراها أعزَّ لدىّ من أن تُمحى عن صفحة قلبي إلى الأبد. ولقد أستطيع أن أحذف شيئًا من الوقائع أو أن أحرفها، وقد أرتكب أخطاء في التواريخ، ولكن من المتعذَّر أن يختلط علىّ الأمر - أو أن أخطىء - إزاء ما حملتنى عواطفى على فعله. وهذا هو الموضوع الرئيسي هنا. فإن الغرض الحقيقي لاعترافاتي هو أن أكشف بدقة عن دخيلة نفسي في جميع مواقف حياتي.. فإني إنما وعدت بأن أروى قصة نفسى. ولكي أكتبها بأمانة، لا أراني بحاجة إلى مذكرات أخرى، إذ يكفيني أن أعود للغوص في أعماقى، كدأبى حتى الآن!

على أن ثمة فترة تتألف من ست أو سبع سنوات، أملك - لحسن الحظ - معلومات وثيقة

عنها، ممثلة في مجموعة منسوخة من خطابات معينة، استقرّت النسخ الأصلية لها في حوزة السيِّد « دى بيرو ». وهذه المجموعة - التي تنتهى في سنة 1760 - تشمل جميع الفترة التي مكثتها في « الصومعة » - (الارميتاج) ـ ونزاعى الكبير مع من كانوا يزعمون أنهم أصدقائي.. وإنها لفترة من حياتي جديرة بالذكر، فهي منبع كل البلايا الأخرى. أما بالنسبة للخطابات الأصلية الأقرب عهدًا، والتي بقيت في حوزتي - وهي قليلة العدد جدًّا - فإنني لن أنسخها وأضيفها إلى هذه المجموعة التي قُدِّر لها أن تكون أضخم من أن أرجو أن أوفق في إخفائها عن عيون رقبائى[98]، وإنما سأسلكها في سياق هذا المؤلَّف نفسه، عندما يبدو لي أنها كفيلة بأن تلقى أضواء على الوقائع، سواء لصالحي أو ضدي. ذلك أنني لا أخشى قط أن ينسى القارىء أنني أكتب اعترافاتي، وأن يظن أنني أكتب تقريظًا أو مبرِّرًا لما تخلل حياتي.. وإنما يجدر به ألَّا يتوقع أن أُمسك عن ذكر الحقيقة إذا كانت في صفي وصالحى.

وفيما عدا ذلك، فليس لهذا القسم الثاني من صفة يشترك فيها مع القسم الأوَّل سوى هذه الحقيقة، وليس له من ميزة عليه إلا بقدر أهمية الأمور التي يتضمنها. وفيما عدا ذلك، فلن يخفق هذا القسم في أن يكون مغايرًا لسابقه من كافة الاعتبارات[99]. فلقد كتبت الأوَّل بلذة وسرور وارتياح، في (ووتون) أو في قصر « تراى »، وكانت لكل الذكريات التي تواردت على خاطرى مباهج جديدة. ولقد رحت أسترجعها دون انقطاع، وباستمتاع متجدد، فاستطعت أن أراجع وأنقح ما أوردته من أوصاف - دون ما ملل أو ضيق - حتى أصبحت راضيًا عنها. أما اليوم، فإن ذاكرتي وعقلى الكليلين يكادان يجعلاني عاجزًا عن كل عمل، ولست أشغل بهذا القسم إلا مكرهًا، والأسى يعتصر قلبي.. إنه لا يمثل بالنسبة إليَّ سوى محن وخيانات وغدر وذكريات تُحزن النفس وتمزقها.. إنني لأنزل للدنيا عن كل شيء، كى أواري في ليل الزمان ما أنا موشك أن أقوله.. وإني إذ أضطرّ إلى الكلام - بالرغم منى - أعمد كذلك إلى الاستخفاء، وإلى التحايل، وإلى محاولة الخداع، وأنحدر إلى تصرفات أنا أبعد الناس عن أن أكون قد خُلقت لممارستها!

إن للسقف الذي أوجد تحته عيونًا، وللجدران المحيطة بي آذانًا. وإنني - إذ يحف بى جواسيس ورقباء أشرار ويقظون، وإذ يتوزعني القلق والهم ـ لأسطر على الورق في عجلة بضع كلمات مفككة لا أكاد أجد وقتًا لمراجعتها. فما بالكم بتصحيحها!.. إنني أدرك أن أعدائي لا يزالون - برغم الحواجز الهائلة التي تقام حولى دون انقطاع - في خوف دائم من أن تجد الحقيقة منفذًا تتسرَّب منه. فكيف يتسنى لي أن أدفع بها إلى النور؟.. لسوف أحاول، وأنا قليل الرجاء في النجاح. فمنذا الذي يقول إن في هذا مادة لصور مستحبة، ولإضفاء ألوان جذابة على هذه الصور؟.. إننى لهذا أنذر المقبلين على قراءة هذا، بأن ليس ثمة شيء ـ في سياق هذا الحديث - يستطيع أن يقيهم السأم، اللهم سوى الرغبة في استكمال التعرّف على إنسان، وسوى الحب الصادق للحق والصدق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تركتموني ـ في القسم الأوَّل ـ وأنا راحل محسورًا إلى باريس، مخلّفًا قلبي في (شارميت)، حيث أقمت آخر قلعة لي في أسبانيا[100]، معتزمًا أن أعود إلى هناك يومًا فأطرح عند قدمى « ماما » - إذ تكون قد ارتدت إلى نفسها وسجيتها - ما أكون قد أحرزت من كنوز، ومطمئنًا إلى طريقتي الموسيقية بوصفها ثروة محققة أكيدة!

وتخلفت بعض الوقت في (ليون) لأزور معارفي، ولأحصل على بعض التوصيات التي أفيد منها في باريس، ولأبيع كتبي الهندسية التي كنت قد حملتها معى. ولقد رحَّب بي الجميع، فأظهر السيِّد والسيِّدة « دى مابلى » اغتباطًا لرؤيتي، ودعوانى للغداء عدَّة مرات، وتعرَّفت لديهما بالراهب « دى مابلى »، كما كنت قد تعرَّفت من قبل بالراهب « دى كونديللاك »،

وكان الاثنان قد أقبلا لزيارة شقيقهما. ولقد أعطاني الراهب « دى مابلى » خطابات تقدمه إلى أناس في باريس، منها واحد للسيِّد « دى فونتنيل »، وآخر للكونت « دى كايلرس ». وقد اتاحت لي الرسالتان معرفة شخصيتين لطيفتين جدًّا، لا سيما السيِّد الأوَّل الذي لم يكفّ حتى موته عن أن يؤثرني بوده، وعن أن يمنحنى - في الأحاديث التي كانت تدور في خلواتنا - نصائح كان خليقًا بي أن أحسن الإفادة منها.

وزرت السيِّد « بورد » الذي كنت قد تعرَّفت به منذ وقت طويل، والذي كثيرًا ما ساعدني بقلب كبير وبأعظم سرور صادق. ولقد ألفيته في هذه المناسبة على حاله التي عهدتها. فقد كان هو الذي باع كتبي، كما أعطاني من لدنه - أو حصل لي من الغير - على خطابات توصية طيبة. وزرت السيِّد وكيل الحكومة، فقد كنت مدينًا له بمعرفة السيِّد « دى بورد »؛ كما أدين له بالتعرّف إلى الدوق « دى ريشيليو »، الذي مرَّ بليون في ذلك الوقت، فقدمني السيِّد « بالو » إليه. وقد أحسن السيِّد « ريشيليو » استقبالى، ودعاني إلى أن أزوره في (باريس) - وهذا ما فعلته عدَّة مرات - ولكن.. دون أن يكون لهذه الشخصية الرفيعة ـ التي سأتكلم عنها كثيرًا فيما بعد ـ أي نفع لي!

كذلك زرت الموسيقى « دافيد » الذي أولاني عونه في ضائقتي في إحدى رحلاتي السابقة، إذ أعارنى - أو منحنى - قلنسوة وزوجًا من الجوارب، لم أردّها إليه قط، ولا هو سألني أن أردها أبدًا، برغم أننا تقابلنا كثيرًا منذ ذلك الحين. على أننى لم ألبث أن قدَّمت إليه - فيما بعد - هدية تعادل تلك الأشياء تقريبًا. وبوسعي أن أتحدَّث عن نفسي بأشياء أفضل من هذا، لو أنني كنت بصدد ما كان ينبغي عمله، لا ما عملته فعلًا.. وهما حالان ليستا سواء، لسوء الحظ!

كذلك رأيت النبيل السخي « بيريشون »، فلم أفتقد سخاءه المعهود، فقد منحنى عين الهدية التي كان قد قدَّمها من قبل إلى « برنار » اللطيف إذ دفع أجر مقعدي في عربة البريد السريعة.. وزرت الجرَّاح « باريسو »، أحسن وأفضل الناس عملًا. كما قابلت عزيزته « جودفروا » التي كان على علاقة مستمرة بها منذ عشر سنوات، والتي كانت كل مؤهلاتها تقريبًا تتمثَّل في لطف الخلق وطيبة القلب، والتي لم يكن في وسع المرء أن يراها لأوَّل مرة دون أن يوليها حسن اهتمامه، ولا أن يفارقها دون ما إشفاق وتأثر، إذ أنها كانت في آخر أطوار السل، الذي لم يلبث أن ماتت به بعد ذلك بقليل. وليس أقدر على كشف الميول الحقيقية لأي إنسان، من أخلاق أولئك الذين يتعلَّق بهم[101].. وقد كان بوسع أي امرىء رأى « جودفروا » اللطيفة أن يدرك شخصية « باريسو » الطيب.

إنني مدين لكل هؤلاء الكرام. ولقد أغفلتهم جميعًا - فيما بعد - لا عن جحود، بالتأكيد، وإنما نتيجة ذلك الكسل العتيد الذي كثيرًا ما يظهرني بمظهر الجاحد!.. بينما الواقع أن ذكرى خدماتهم لم تبرح فؤادي قط، كما أن إظهارهم على عرفانى ما كان ليكبدني ما تكبدنيه المثابرة على ذكره. ولقد كانت المواظبة على التراسل أمرًا فوق طاقتى دائمًا، فإني ما أن أبدأ في الشعور بتكاسلي فيها، حتى يحملني الخجل والحيرة في طريقة إصلاح عيبي على مضاعفة هذا العيب، فإذا بي أكفّ عن الكتابة بالمرة! ومن ثم فقد لذت بالصمت إزاء هؤلاء، حتى بدا أنني نسيتهم. ومع ذلك فإن « باريسو » و « بيريشون » لم يلقيا بالًا، فكنت أجدهما دائمًا كما عهدتهما. أما في حالة السيِّد « بورد »، فلن يلبث أن يتبدَّى كيف أن الانتقام للشعور بالاهمال، حلَّ - بعد عشرين عامًا - محل الحب الصادق والذكاء البديع!

وما ينبغي لي أن أنسى - قبل مبارحة ليون - شخصية لطيفة زرتها في اغتباط لم أشعر قط بمثله - وقد تركت في فؤادى ذكريات جد رقيقة. تلك هي الآنسة « سير »، التي تحدَّثت عنها في القسم الأوَّل[102]، والتي جددت تعارفي بها عندما كنت في دار السيِّد « دى مابلى ». ولما كان لديَّ متسع من الوقت، في هذه الرحلة، فقد رأيتها كثيرًا، ومال إليها قلبي في

وجد قوى. ولدىَّ من الاعتبارات ما يحملني على أن أظن أن قلبها لم يكن على النقيض، بيد أنها أولتني من الثقة ما بدَّد كل إغراء بأن أسيء استغلالها. ولم تكن تملك شيئًا، ولا كنت أنا أملك أكثر منها، وكان مركزانا جد متشابهين، إلى درجة لا تغرى بأن نتحد، لا سيما وأنني كنت - بالآراء التي كانت تتملكني - بعيدًا كل البُعد عن التفكير في الزواج. ولقد أنبأتني بأن تاجرًا شابًّا، يُدعى السيد جنيف، كان يبدو راغبًا في أن يرتبط بها. وقد التقيت به عندها مرة أو اثنتين، فتراءى لي أنه شاب أمين شريف، وكان معروفًا بذلك. وإذ خُيل إلىَّ أنها كانت تحبه، تمنيت أن يتزوجها - وهو ما فعله فيما بعد - فأسرعت بالرحيل كي لا أعكر صفو عواطفهما البريئة، مزجيًا لسعادة هذه الشابة الفاتنة دعوات، لم يُقدَّر لها أن تُستجاب على هذه الأرض إلا لأجل قصير.. واأسفاه!.. جد قصيرا!.. فقد علمت فيما بعد أنها ماتت بعد عامين أو ثلاثة من زواجها! ولما كنت قد شغلت طيلة رحلتي بحسرات عاطفية، فقد أحسست ـ ولا أزال أحس في كثير من الأحيان، كلما فكرت في ذلك - بأنه إذا كانت التضحيات التي يُقدم عليها المرء في سبيل الواجب والفضيلة تكبده ثمنًا غاليًا، إلا أنه لا يلبث أن يتلقَّى الجزاء ممثلًا في الذكريات الناعمة التي تخلفها له تلك التضحيات في قرارة فؤاده!

وإذا كنت قد رأيت باريس - في رحلتي السابقة - من ناحية لا تجعلها أهلًا للإعجاب، فإنني رأيت - في هذه الرحلة - جانبها اللامع. على أن هذا لم يكن الشأن بالنسبة لسكناي، فقد ذهبت - حسب إرشاد السيِّد بورد - للاقامة في نزل « سان كنتان »، بشارع (ديه كوردييه)، على مقربة من « السوربون ».. وكان شارعًا وضيعًا، ونزلًا وضيعًا، وحجرة وضيعة.. ومع ذلك فقد اعتاد هذا النزل أن يأوى رجالًا محترمين، من أمثال جريسيه، وبورد، والراهبين الشقيقين « دى مابلى »، وكونديلاك، وكثيرين غيرهم - وإن لم أعثر فيه، لسوء الحظ، على واحد منهم - غير أني التقيت بشاب يُدعى السيِّد « دى بونفون »، كان ريفيًّا أعرج، محاميًا، يحرص على انتقاء ألفاظه. وقد تعرَّفت عن طريقه إلى السيِّد « روجان » الذي أصبح الآن أقدم أصدقائي. وعن طريقه تعرَّفت إلى الفيلسوف « ديديرو »، الذي سأكثر من الحديث عنه فيما بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد وصلت إلى باريس في خريف سنة 1741، وكل مواردى خمسة عشر « لوى »، ومسرحيتي الهزلية « نارسيس »، ومشروعي الموسيقى. ولما لم يكن لدىَّ وقت أضيعه في محاولة تدبير انفاقها على خير وجه، فقد أسرعت إلى استغلال خطابات التوصية التي كنت أحملها. وأى شاب يصل إلى باريس مزودًا بشكل وسيم، ومعلنًا عن نفسه بمواهبه، قمين بأن يتأكّد دائمًا من أنه سيجد ترحيبًا. وقد كنت كذلك، فمكنني هذا من أن أحظى بنعم كثيرة، وإن كانت لم تساعدني ماديًا بدرجة تذكر. ومن كافة الأشخاص الذين حملت إليهم التوصيات، لم يثبت سوى ثلاثة أنهم نافعون لي، وهم: السيِّد داميسان - وكان سيِّدًا من (سافوا)، كان إذ ذاك من الفرسان، وأحسبه كان ذا حظوة لدى الأميرة « دى كارينيان » ثم السيِّد « دى بوز »، سكرتير ديوان الخطوط وحارس الأوسمة بديوان الملك.. وأخيرًا الأب « كاستيل » الجزويتي، مخترع « الكافيسان »[103] البصري. وكانت خطابات التوصية للأخيرين منهم صادرة من الراهب « دى مابلى »٠

ولقد تكفَّل السيِّد داميسان بما كانت تمس إليه حاجتي، إذ عرَّفنى إلى اثنين، أحدهما السيِّد « دي جاسك »، رئيس برلمان (بوردو)[104]، الذي كان يحذق العزف على الكمان حذقًا بالغًا.. وثانيهما الراهب « دى ليون »، الذي كان يقيم إذ ذاك في السوربون، وكان راهبًا شابًّا، موفور اللطف، مات في زهرة عمره، بعد أن تألَّق في المجتمع لبضع سنوات تحت اسم الشيفاليه روهان[105]. وكان كل منهما مشغوفًا بتعلم التلحين، فرحت أدرسه لهما بضعة أشهر، مما أنعش مواردى المالية الناضبة. ولقد أولاني الأب « ليون » وده، ورغب في أن

يتخذني سكرتيرًا له، ولكنه لم يكن غنيًا، فلم يكن بوسعه أن يدفع لي مرتبًا يتجاوز ثمانمائة فرنك.. فرفضت منصبه وأنا آسف.. إذ لم يكن مرتبه يكفى لنفقات سكناي وتغذيتي ومستلزمات معيشتى.

أما السيِّد « بوز »، فقد استقبلنى استقبالًا طيبًا جدًا. وكان عالمًا، ومشغوفًا بالمعرفة، ولكنه كان متغطرسًا بعض الشيء. وكانت السيِّدة دى بوز خليقة بأن تكون ابنته، لا زوجته! وكانت لامعة الذكاء ذات مهابة. وقد تناولت الغداء في دارهما بضع مرات، وما كان أحد ليشعر بمثل ما كنت أشعر به من خجل وارتباك في محضرها، فقد كان مسلكها غير المتكلّف يحرجني ويجعل مسلكي أدعى إلى الضحك.. فإذا قدَّمت لي طبقًا، كنت أدفع « شوكتي » فألتقط ـ في تواضع - قطعة صغيرة مما تقدمه لي، بطريقة كانت تجعلها ترد إلى خادمها الطبق الذي كانت قد أعدّته لي، وهي تدير وجهها لكي لا أراها وهي تضحك!.. ومع ذلك، فما كان يساورها أي ريب في صلاحية رأس هذا الريفي الشاب، ولم يفتها أن ترى فيه بعض الذكاء. ولقد قدَّمني السيِّد دي بوز إلى صديقه السيِّد « دى ريومور »، الذي اعتاد أن يحضر إلى داره لتناول الغداء في أيام الجمعة، وهي أيام انعقاد اجتماعات محفل العلوم. ولقد حدَّثه السيِّد دي بوز عن مشروعي، وعن الرغبة التي كانت لديَّ في أن أضعه تحت اختبار المحفل، فتكفَّل السيِّد دى ريومور بالاقتراح، فلم يلبث أن حظى بالقبول!

وفي اليوم المحدد لمناقشة المشروع، تولى السيِّد دى ريومور تقديمي والتعريف بي. وفي اليوم ذاته - 22 أغسطس سنة 1742 - تشرَّفت بأن قرأت على المحفل المذكرة التي أعددتها لذلك. ومع أن هذا المحفل الجليل كان عظيم المهابة والرهبة - يقينًا - فإنني كنت أمامه أقلّ ارتباكًا منى أمام السيِّدة دى بوز، واستطعت أن أؤدّى القراءة وأن أجيب على الأسئلة بنجاح. فاستقبلت الرسالة بتقدير، وجلبت لي التهانيء، مما أدهشني أكثر مما سرَّني.. فما كنت لأتصوَّر أن أي امرىء لا ينتمي إلى المحفل - أيًا كان - يبدو لأعضائه ذا إدراك سليم! وكانت اللجنة التي تولت مناقشتى تتكوَّن من السادة دى ميران، وهيلو، ودى فوشي. وكان ثلاثتهم من الأكفاء دون ما ريب.. ولكن لم يكن بينهم واحد يلم بالموسيقى إلمامًا كافيًا - على الأقل - لأن يجعله في وضع يمكنه من الحكم على مشروعي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سنة 1742

وفي خلال مناقشاتي مع هؤلاء السادة، تبينت - في شك أكثر منى في دهشة - أن العلماء وإن كانوا أقل من سواهم تحاملًا، في بعض الأحيان، إلا أنهم أكثر تشبثًا بما يكون لديهم من آراء، وكأنهم يجدون في ذلك لونًا من التعويض. فبقدر ما كانت معارضة هؤلاء السادة واهية، وخاطئة في الغالب، ومع أنني كنت أردّها بحجج قاطعة - برغم تهيبي، كما ينبغي أن أعترف، وبرغم سوء تعبيري - إلا أنني لم أوفَّق مرة واحدة إلى أن أحملهم على أن يفهموا قولى وأن يقتنعوا به. وكنت أبهت دائمًا للسهولة التي كانوا يخطئونني بها - مستخدمين في ذلك بعض العبارات الرنَّانة - دون أن يكونوا قد فهموا شيئًا.. ولقد اكتشفوا - حيث لا أدرى - أن راهبًا يُدعى الأب « سوهيتي »، كان قد تصوَّر فكرة كتابة السلم الموسيقى بالأرقام. وكان هذا كافيًا لأن يزعموا أن طريقتي لم تكن جديدة. وقد يكون الأمر كذلك، إذ أننى وإن لم أسمع قط بالأب سوهيتي، ومع أن طريقته في كتابة النغمات الرئيسية السبع في الترانيم الكنسية دون أي تفكير في الثمانيات، لا تستحق - في أي اعتبار - أن تُقاس بابتكاري البسيط الملائم لكتابة جميع أنواع الموسيقى الممكن تصورها، في غير مشقة، بوساطة الأرقام: من طبقات، ووقفات، وثمانيات، ومسافات وتوقيت، وتقييم.. وكلها أشياء لم تخطر لسوهيتي ببال إطلاقًا.. بالرغم من كل هذا، فقد كان من الصحيح تمامًا أن يُقال إنه - فيما يتعلَّق بالتعبير الأولى عن النغمات الرئيسية السبع ـ كان

أوَّل مبتكر في هذا المضمار. ولكنهم106 لم يكتفوا بأن يعزوا إلى هذا الابتكار البدائي أهمية أكثر مما كان يستحقها، وإنما أبوا أن يقفوا عند هذا، وبمجرَّد أن حاولوا أن يتكلموا عن المبادىء الأساسية للطريقة، لم يقولوا سوى لغو.

كانت الميزة الكبرى لطريقتي، هي الاستغناء عن التبديل والطبقات، بحيث يمكن كتابة أية قطعة ونقلها حسب الرغبة، ومهما تكن الطبقة المنشودة، بوساطة التبديل المقترح في حرف ابتدائى واحد عند بداية اللحن. ولكن هؤلاء السادة كانوا قد سمعوا بعض مدعى الموسيقى في باريس يقولون إن طريقة العزف بتبديل الطبقات غير ذات قيمة. ومن هنا، قلبوا أبرز ميزات طريقتي إلى اعتراض ضدها يتعذَّر التغلّب عليه، وانتهوا إلى تقرير أن طريقتي صالحة للأداء الصوتي، وغير صالحة للأداء الآلى، بدلًا من أن يقرروا ـ كما كان ينبغي - أنها صالحة للأداء الصوتي، وأكثر صلاحية للأداء الآلى. وبناءً على تقريرهم، منحنى المحفل شهادة مليئة بالإطراء البديع للغاية، يتبدى خلال سطورها أنه - في الواقع - لم ير أن طريقتي جديدة ولا نافعة!.. ولم أشعر قط بأن من الواجب أن أزين بمثل هذه الوثيقة مؤلفي الذي سميته « رسالة في الموسيقى الحديثة »، ولجأت فيه إلى تحكيم الرأي العام!

ومن حقى - في هذه المناسبة - أن ألفت النظر إلى أن المعرفة الممتازة بالشيء - على شريطة أن تكون شاملة عميقة - أفضل من كافة الأضواء التي تلقيها الثقافة والعلوم، في تمكين المرء من إصابة الحكم، إذا لم تكن هذه الأضواء مقترنة بدراسة خاصة للموضوع المعروض على بساط البحث. وكان الاعتراض القوى الوحيد، الذي وُجه إلى طريقتي، موجهًا من « رامو ».

وما أن شرحت له ردى، حتى تبين ضعفه، فقال: « إن علاماتك صالحة جدًّا، من حيث أنها تحدِّد القيم الموسيقية ببساطة ووضوح، كما أنها تعيّن المسافات بدقة، وتبين دائمًا النغم المفرد في حالة ازدواج النغم، وهي أمور لا تيسرها طريقة النوتة العادية.. ولكن علاماتك غير صالحة من حيث أنها تتطلَّب جهدًا ذهنيًّا لا يتناسب دائمًا مع سرعة الأداء ». واستطرد قائلًا: « إن وضع علاماتنا الموسيقية يتجلى للعين دون حاجة إلى الاستعانة بهذا الجهد الذهني. فإذا ارتبط نغمان - أحدهما مرتفع جدًّا، والآخر منخفض جدًّا - بسلسلة من الأنغام الوسيطة فإن بوسعي أن أرى - من أوَّل نظرة - التطرق التدريجي من أحد النغمين إلى الآخر.. أما حسب طريقتك، فلا بد لي - للتأكد من هذا التسلسل - من أن أورد كل أرقامك متعاقبة - الواحد بعد الآخر - ومن ثم فإن النظرة الشاملة لا تمدك بشيء »!

ولاح لي أنه اعتراض مفحم، فأقررت لتوى بقوته، في حين أنه بسيط ومدهش!.. فهو اعتراض لا توحي به سوى الخبرة الواسعة بالفن، ومن ثم فلا عجب في أنه لم يخطر ببال أحد من أعضاء المحفل، ولكن هذه هي حال هؤلاء العلماء الكبار جميعًا، فهم يعرفون كل الأشياء، بيد أن إلمامهم بكل شيء - على حدة - قليل، بحيث لا ينبغى للواحد منهم أن يقضى برأى إلا فيما يتعلّق بالفرع الذي اختصه بدراسته!

وقد أتاحت لي زياراتي المتعددة لأعضاء لجنة مناقشة رسالتي، ولغيرهم من أعضاء المحفل، فرص التعرّف إلى جميع أولئك الذين كانوا في طليعة المبرزين في ميدان الأدب في (باريس). ومن ثم فإنني كنت على معرفة قائمة بهم، عندما وجدتنى - فيما بعد - مدرجًا بغتة في سلكهم. أما في الفترة التي أتحدَّث عنها، فقد كنت - لفرط استغراقي في طريقتي الموسيقية - مصرًّا على أن أُحدث بها انقلابًا في هذا الفن، وأن أحرز بهذا شهرة ترتبط دائمًا في ميادين الفن الجميل - في باريس - بالثراء!.. ولهذا احتبست نفسي في غرفتي وعكفت على العمل شهرين أو ثلاثة في حمية لا سبيل إلى وصفها، لأشرح - في مؤلّف أقدمه للرأي العام - المذكرة التي قرأتها على المحفل. وكانت العقبة تتمثّل في العثور

على ناشر يتكفَّل بمؤلفي، نظرًا لأن الرموز الجديدة كانت تتطلَّب بعض نفقات، في حين أن الناشرين لا يُبعثرون دراهمهم على رؤوس المبتدئين، مع أنني كنت أرى أن من الإنصاف أن يعود عليَّ مؤلفي بالخبز الذي التهمته وأنا أكتبه!

وعثر لى « بونفون » على « كايو » - الأب - الذي عقد معى اتفاقًا على أن نقتسم الربح، بغض النظر عن « الامتياز »107 الذي كان عليَّ أن أتكفل بدفع نفقاته وحدى. وقد أساء « كايو » - المذكور - تدبير الأمر، بحيث أن النقود التي دفعتها لأحصل على الامتياز ذهبت أدراج الرياح، ولم أخرج بدرهم واحد من هذه الطبعة، التي كانت - في الواقع - ضئيلة الرواج، بالرغم من أن الراهب « ديفونتين » وعد بالعمل على ترويجها، كما أن غيره من الصحفيين تحدَّثوا عنها حديثًا طيبًا!

ولقد كانت العقبة الكبرى في تجربة طريقتي، هي أن أحدًا لم يكن ليرضى بأن يضيع الوقت الذي يتطلّبه تعلمها، إذا هي لم تصبح الطريقة السائدة في الموسيقى. وقد قلت ردًّا على ذلك، أن المران على أسلوبي في العلاقات الموسيقية، يجعل الأفكار من الوضوح بحيث أن الذي يشرع في تعلّم العلامات الموسيقية العادية، يستطيع أن يقتصد من الوقت الذي يستغرقه تعلمها، إذا هو بدأ بطريقتي. ولإقامة الدليل العملي، قدَّمت دروسًا فيها - بالمجان - لشابة أمريكية تُدعى الآنسة « دى رولان »، كان السيِّد روجان قد عرَّفني بها. فإذا بها تصبح - خلال ثلاثة أشهر - قادرة على أن تقرأ على « نوتتي » أي نوع من الموسيقى، وأن تغنى بمجرَّد النظر إلى « النوتة » - باتقان يفوق اتقاني أنا - كل قطعة غير بالغة الصعوبة. وكان هذا التوفيق رائعًا، ولكنه ظلَّ مجهولًا. فقد كان أي امريء سواى خليقًا بأن يملأ الصحف به، أما أنا، فبالرغم من أننى أوتيت المقدرة على اكتشاف الأشياء المفيدة، إلا أنني لم أعمد قط إلى إبراز قيمتها!

وهكذا تحطمت « نافورتي الصغيرة » مرة أخرى108.

ولكني في هذه المرة الثانية، كنت في الثلاثين من عمري، وكنت قد وجدت نفسي في طرق (باريس) المعبدة، حيث لا يستطيع المرء أن يعيش بلا موارد. ولن يُدهش القرار الذي انتهى بي إلى هذه النهاية، سوى أولئك الذين لم يقرأوا بإمعان الجزء الأوَّل من هذه المذكرات!.. ذلك أنني كنت قد بذلت مجهودًا كبيرًا، وإن لم يكن مثمرًا، فكنت بحاجة إلى استجمام. وبدلًا من أن أستسلم للقنوط، أسلمت نفسي لخمولي المعهود، وللعناية الالهية، ولكي أدع لهذه العناية وقتًا كي تقوم فيه بدورها، فقد أقبلت على انفاق بضع قطع مالية من فئة « لوى » - كانت قد بقيت معي - في غير ما تعجل!.. ودبّرت نفقات متعى البريئة بحيث لا أتخلى عنها، فلم أعد أذهب إلى المقهى سوى مرة في كل يومين، وإلى المسرح مرتين في الأسبوع. أما النفقات اللازمة لصحبة الفتيات، فإنني لم أكن بحاجة إلى الحد منها، لأننى لم أنفق « سو » واحد على هذه الناحية، في حياتي، اللهم إلا في مناسبة واحدة، سأضطر إلى الحديث عنها بعد قليل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمّ الجزء الثاني بحمد الله وتوفيقه

ويليه الجزء الثالث

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

لينك الانضمام الى الجروب – **Group Link**

لينك القنـــاة – **Link**

فهرس الجزء الثاني..

Notes

[←1]

مجموعات الأقوال المأثورة عن بعض الشخصيات، والطرائف الصغيرة المرتبطة بهم.

[←2]

تعنى أنه لا يستطيع أن يصل الى فمها أو يدها لقصر قامته!

[←3]

اعتاد العاشق في اسبانيا أن يقف على قارعة الطريق، بالقرب من دار الحبيبة ويمضى في العزف على « الجيتار » عسى أن تفطن الى وجوده، فتنعم عليه بنظرة .

[←4]

الآنسة جالي والآنسة دى جرافينرييه هما الفتاتان اللتان قضى روسو معهما يومًا بهيجًا في الريف (الصفحات 216 – 222 من الجزء الأوَّل).

[←5]

جيرو » هي صديقة لوصيفة مدام دى فاران المدعوة « ميرسيريه » وكانت «
!« جيرو » قد أعلنت على روسو الحب، برغم نفوره الشديد منها

[←6]

كانت هذه هي الحيلة التي لجأت إليها « جيرو » الماكرة كي تبعد روسو عن محبوبته، وعن المدينة كلها!

[←7]

يُفهم من هذه العبارة ان أباها كان موسيقيًّا.

[←8]

«كروتزر» عملة ألمانية ونمسوية قديمة.

[←9]

الباتز » عملة ألمانية أخرى ».

[←10]

عملة قديمة من الفضة (ECL).

[←11]

لعله يقصد أن الفن لم يكن موهبة أصيلة في نفسه.

[←12]

في الأصل: تخرق أذن أحد الخمسة عشر عشرينًا.. كناية عن نزيل المستشفى الذي يحمل هذا الاسم « الخمسة عشر عشرينًا » في باريس، والذي أنشيء في الأصل ليأوي 300 أعمى.

[←13]

رأينا في الجزء الأوَّل كيف أطلق روسو على راعيته الكريمة « مدام دى فاران » لقب « ماما ».

[←14]

مسقط رأس مدام دی « فاران ».

[←15]

هؤلاء الثلاثة من أبطال قصة روسو الطويلة (هيلويز الجديدة).

[←16]

نسبة الى « بيلاسجو »، وهو عنصر عريق كان ينتشر قديمًا على سواحل وفي جزر شرقي البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه، ويرتبط بالعنصر الإغريقي.

[←17]

كان الشخص المقصود هو جان بابتيست روسو (1671 - 1741). وكان شاعرًا غنائيًا فرنسيًّا.. وهناك « روسو ثالث، هو « بيير روسو » (1725 - 1758) وكان كاتبًا مسرحيًّا. وقد قيل بهذا الصدد: « ثلاثة مؤلفين يُدعون باسم روسو، ذاع صيتهم من باريس إلى روما: الباريسي كان عظيمًا، وروسو الجنيفي كان أحمق، وروسو التولوزي كان.. هباء! ».

[←18]

أداة اسطوانية الشكل، مفتوحة الطرفين، كانت تملأ تراما ويُستعان بها في بناء الحصون، في ذلك العهد.

[←19]

إله الحرب.

[←20]

من الجلي أن ملامحي - في ذلك العهد ـ لم تكن قد شابهت بعـد الملامح التي رُسمت في صوري بعد ذلك.

[←21]

جرذان القبو » لقب كان يُطلق في ذلك العهد على مندوبي الحكومة الذين « يتفقدون موارد المرء ويقدّرون ما ينبغي عليه أن يدفع من مكوس وخراج.

[←22]

قصة عن غرام الرعاة للروائي « أونوريه دورفيه » (1568 - 1625).

[←23]

عاشقان من الآلهة يرد ذكرهما في قصة « أستريه ».

[←24]

يبدو أن هذه الرذيلة هي الاستمناء، أو (العادة السرية).

[←25]

وردت واقعة اليهودي بصفحة 110 من الجزء الأوَّل.

[←26]

الأنطونيون » أتباع مذهب علماني في الرهبنة. وكانوا يفخرون بأنهم حملة « »
صليب مالطة »، وهو وسام مُنحوا إياه قديمًا حين أبدوا بسالة في الحرب.

[←27]

سيرد ذكرها في القسم الخاص بسنة 1741 من الكراسة السابعة.

[←28]

.يقصد الحفَّار الذي قضى فترة عنده يتعلم حرفة النقش على المعادن

[←29]

شغف « روسو » - وهو يكتب هذه الكراسة من اعترافاته - بفلاحة البساتين.

[←30]
يقصد الفترة التي عاش خلالها في « شامبيرى » مع مدام دى فاران.

[←31]

الأبسنت عقار مخدر، و « العرعر » نبات!

[←32]

يقصد البيت الريفي الملحق بالبستان.

[←33]

.لم يكن روسو يعتبر فرنسا وطنه، فقد كان من رعايا (جنيف) بسويسرا

[←34]

يقصد الفرنسيين.

[←35]

سبق أن شرحنا مذهب الرهبان الجبليين في الجزء الأوَّل، ونضيف أنهم من « الفرنسيسكان ».

[←36]

كان يعتزم أن يتكسب عيشه من تدريس الموسيقى.

[←37]

أي أنه كان من الخير أن يستقيل بدلًا من أن يُقال!

[←38]

كان « سييناس » وزير « بروس » ملك (ايبيروس) - إحدى جزر اليونان - وابن « أخيل » الذي قضى على طروادة ووضع خاتمة للحرب الطروادية.

[←39]

من المفهوم أن هذه فرية من الفريات التي شاعت في أوروبا في فترة الحروب الصليبية. وقد كان كل مسلم يُسمى تركيًا.

[←40]

يقصد أنها لم تكن بحاجة الى خداعه، إما لأنها كانت تمارس التقبيل أمامه، واما لأنها كانت تعجز عن اجتذاب الرجال رغم مغازلاتها.

[←41]

فيبوس: من أسماء أبوللون إله التنبؤات والطب والشعر والموسيقى عند الرومان.. كما أنه كان إله النهار والشمس، ومنها اشتق اسم « فيببوس ». وهو ابن الإله « جوبيتر » رب الأرباب عند الرومان.

[←42]

أسباسيا: كانت عشيقة بريكليس السياسي الأثيني، في النصف الأوَّل من القرن الخامس قبل الميلاد وقد كان صالونها ملتقى اللامعين من مشاهير أثينا.

[←43]

يقصد العلاقة الجنسية التي قامت بينه وبين مدام دي فاران.

[←44]

من مصطلحات أبعاد الخطوات في المبارزة.

[←45]

علامة من علامات الموسيقى ترفع العلاقة التي تليها بنصف مقام.

[←46]

..المعنى اللغوى يخدع أو يغرر.. وفي الموسيقى نغم حاد

[←47]

..المتعالم هو الذي يدَّعي العلم

[←48]

البيبلوكة: لعبة تتألّف من كرة مثقوبة، تتصل بخيط دقيق بعصا صغيرة مدببة في أحد طرفيها، ومجوفة في الآخر.. ويُمسك المرء بالطرف المدبب، ويطوِّح الكرة في الهواء محاولًا إدخالها في الطرف المجوف. وقد شاع أخيرًا نوع منها يتألّف من كرة وكوب صغيرة من البلاستيك.

[←49]

عملة ذهبية قديمة، كانت قيمتها تتغير بتغير العصر والبلـد الذي يصكها.

[←50]

السفود: المشواة. والحجل: نوع من الطيور.

[←51]

أورفيه » هو « أورفيوس »، الشاعر والموسيقى الاغريقي الذي ورد ذكره في » الأساطير على أنه ابن « أبوللو »، ويعزي إليه أنه أيقظ الربة « هاديس » من الموت بموسيقاه العذبة وأغانيه الساحرة. وقد استجابت له الآلهة على شريطة أن يسير أمام « هاديس » دون أن يلتفت خلفه لينظـر إليها، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على وعده، فعادت الى موتها. وقد نُسبت إليه عقيدة دينية تصوفية، من أهم معالمها الايمان بحياة جديدة بعد الموت.

[←52]

بيرو) إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية، وقد اشتهرت بأنها غنية بمناجم الفضة)
وبعض المعادن الأخرى.

[←53]

اليانسينية مذهب ديني ابتدعه قس هولندي يدعى « كورنيليوس يانسين » في القرن السابع عشر، ونادي فيه بأن تعاليم القديس أوغسطين بشأن الغفران وحرية الإرادة والقدر تتعارض مع آراء رجال الدين المحدثين، لا سيما الجيزويت (اليسوعيين). وقد اشتدّ الصراع بين أتباع « يانسين » والجيزويت في فرنسا، ومن هذا ندرك الأهمية التي أضفاها موظفو الجمارك على القصيدة التي وُجدت لدى « روسو ».

[←54]

قُدِّر لي أن أراه بعد ذلك، وأن أجده قد تغيَّر تغيرًا شاملًا. فيا للسيد شوازيل من ساحر قديرا.. فما قُدر لأحد من معارفي القدامى أن ينجو من مقدرته على التبديل!

هذه الإضافة وُجدت في الأصول الأولى المكتوبة بخط روسو، ولكن لا أثر لها في طبعة (جنيف).

[←55]

BARDONANCHE

[←56]

الظاهر أن « روسو » يقصد (كارولينا الجنوبية)، وهي إحـدى ولايات أمريكا الشمالية القائمة على الساحل الجنوبي الأطلسي. وتعتبر (تشارلستون) من أكبر مدنها.

[←57]

أي التي لم تُنشر إلا بعد موت مؤلفها.

[←58]

يكاد يعادل ضعف حجم « كتـابى » و « مطبوعات كتابي » أو يزيد قليلًا في العرض.

[←59]

المجلس الذي كان يضم عددًا من المستشارين، ويتولى حكم جنيف.

[←60]

مجلس المائتين.. يظهر أنه كان مجلسًا نيابيًا يضم ذوى المواهب في جنيف، بمثابة مجلس للنواب.

[←61]

مجلس الشيوخ.

[←62]

نوع من المداد يُعرف عادة باسم « المداد السرى »، ولعل « روسو » أسماه المداد العاطفي، لأنه كان يُستخدم في المراسلات الغرامية، فما أن يجف حتى تبدو الورقة وكأنها خالية من الكتابة، الى أن تُعرّض لحرارة اللهب فيبرز ما تحتويه!

[←63]

هيلين الطروادية: كانت أجمل نساء الاغريق، وقد تزوجت من « منيلاوس »، ملك أسبرطة.. ولكن باريس - أمير طروادة - اختطفها، فشن أمراء اليونان حربًا على طروادة دامت عشر سنوات، وانتهت برد هيلين إلى زوجها.

[←64]

يقصد التنقل والترحال باستمرار.

[←65]

يقصد أن الرجل كان يدّعى الثراء وهو لا يملك شيئًا.

[←66]

يريد « روسو » بذلك أن عرفان عواطفه وما يجول بنفسه، لم يكن بالمهمة العسيرة على أي شخص.

[←67]

« الكالابروا » رسالة في الشطرنج، وضعها لاعب إيطالي ماهر كان يُدعى « جيواكينو جريكو »، عاش في عهد لويس الرابع عشر.

[←68]

يقصد أنه كان خليقًا بأن يلازم القبر.. أي يموت.

[←69]

نصفه الأفضل هي مدام دى فاران!

[←70]

.يقصد بالاقتناء المتبادل، العلاقة الجنسية الكاملة بينه وبين مدام دى فاران

[←71]

يرمى « روسو » بهذا الى أن حكم الطبيعة - ممثلًا في الضعف الذي أسباب صحته - هو الذي فرض عليه وعلى مدام دى فاران ألا يستمرا في سعادتهما الى نهاية عمريهما.

[←72]

ذكر « روسو » من قبل أن « سان لوران » كان مشرفًا على الشئون المالية لبـلاط ملك سردينيا، وأن مدام دي فاران لم تطمئن إلى استمرار معاشها إلّا بعد أن استأجرت منه ذلك البيت الحقير، فاكتسبت بذلك ودّه.

[←73]

في أوائل القرن التاسع عشر، آل هذا البيت ـ الذي أقام فيه روسو ومدام دى فاران - إلى كاتب كانت له مؤلفات أدبية وعلمية، وقد أصدر في سنة 1817 كتيبًا عن (شارميت)، سجَّل فيه كل صغيرة وكبيرة من أوصاف هذا البيت الذي اعتاد السياح أن يترددوا عليه. وقد ثُبتت إلى جدار المنزل - بقرب مدخله - لوحة حجرية أمر بوضعها « هيرلو سيشيل » في سنة 1792 - عندما كان حاكمًا للمنطقة - وقد نُقشت عليها أبيات شعرية للذكرى، هذا معناها:

« أيها المأوى الذي شغله جان جاك.. إنك لتذكرني بعبقريته، وبحبه للعزلة، وبتحمسه وحميته.. وبمصائبه وطيشه.. لقد جرؤ على أن يكرس حياته للمجد والحقيقة.. وكان دائمًا مضطهدًا، إما بنفسه وإما بالحاسدين »!

[←74]

هذه الأبيات من أشعار « هوراس »، وقد أوردها « روسو » باللاتينية، وعلَّق عليها بالسطر الذي قطع به تتابعها.

[←75]

الأعشاب الشوكية التي تحف بالطريق.

[←76]

نوع من النبات البري.

[←77]

هذا هو نص تعبير « روسو ». ومن الطريف أن كلمة « يشفي » - في العربية - تعنى « يبرىء »، كما تعنى « يهلك ». و هو عين ما أراده « روسو »!

[←78]

اصطلاح يُطلق على التجارب العلمية التي تُجرى عادة على IN ANIMAL VILL الحيوانات.

[←79]

Fénélon , Télémaque

[←80]

المطهر في المعتقدات الدينية، هو الطريق الذي يفضى من النار إلى الجنة، ويقضى فيه البشر - عقب الموت مباشرة - مدة للتكفير عن خطاياهم، قبل أن يصبحوا أهلًا لدخول الجنة!

[←81]

سبق لروسو أن ذكر أن المسيو دي « تافيل » قد أفسد معتقدات مدام دي فاران، في سبيل بلوغ مأربه منها فأرسى في نفسها الاعتقاد بأن إرضاء شهوات النفس لا يتعارض مع إرضاء الله والضمير!

[←82]

كان روسو لا يقر مدام دى فاران في فلسفتها السفسطائية التي لقنها إياها المسيو دى تافيل. ولكن هذه الفلسفة بالذات، هي التي يسرت لـه أن يصبح عشيقًا لمدام دى فاران، فلو أنه هدم هذه الفلسفة - ليمنع قيـام مثل هذه العلاقة بين السيِّدة وغيره من الرجال ـ لتحتم عليه أن يبحث عن سبيل ليستثني نفسه، حتى لا يُحرم من حبها!

[←83]

أي من أتباع تعاليم « ديكارت ».

[←84]

.من كتب المدرسة اليانسينية.. وقد سبق أن أوردنا نبذة عنها في تعليق سابق

[←85]

كما يحدث حين يقرأ المرء كتابًا للدرس، إذ يحاول أن يتفهَّم سير تفكير المؤلف، وأن يستوعب آراءه.

[←86]

من الغريب أن يصرّ « روسو » على أن العلاقة المشينة - مهما تكن مبرراتها - بينه وبين مدام دى فاران، لم تكن من الرذيلة في شيء!

[←87]
مثل لاتيني شاع عن تلاميذ فيثاغورس، الذين كانوا يردّدون آراء أستاذهم في إيمان أعمى!

[←88]

عالم يونانى عاش في الاسكندرية في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، ووضع أصولًا للعلوم الرياضية في 13 كتابًا، خص الهندسة منها بتسعة كتب.

[←89]

يشبه « روسو » حل المسائل الهندسية بالمعادلات الجبرية، بإدارة يد آلة موسيقية ذات زنبرك، فإذا بها تردد النغم دون أن يدرى مَن أدارها شيئًا من طريقة عملها!

[←90]

أ + ب) = أ2 + 2 أ ب + ب2 (

[←91]

كانت قبائل « الاستروقوط » البربرية هي المصدر الأوَّل للغة اللاتينية.

[←92]

نوع من النباتات.

[←93]

يقصد أنها من العمق بحيث أنه كان يتخبَّط فيها دون أن يهتدي إلى غاية أو يفقه منها شيئًا.

[←94]

في الكراسة الثالثة.

[←95]

تقدير قيمتها وميزاتها.

[←96]

شخصية في كوميديا « مارينو »، أحب لأوَّل مرة وكان في غـاية الخجل من أن يبوح بحبه، في حين أن شخصية الكونتس كانت على النقيض من شخصيته تمامًا.

[←97]

اللوى عملة ذهبية كانت قيمتها 20 فرنكًا.

[←98]

العبارة التي ذكرها « روسو » هي: « اخفائها عن أعين (أرجوساتى) اليقظة ».. وأرجوساتي هي جمع « أرجوس ». وهو تعبير مجازي، فإن « أرجوس » اسم يُطلق في أساطير اليونان على عملاق ذي مائة عين، أقامته الربّة « هيرا » - عندما تولتهــا الغيرة - ليراقب « يو » معشوقة الإله « زيوس »، التي كانت قد مُسخت على شكل بقرة!

[←99]

التعبير الذي أورده « روسو » هو: « لن يخفق في أن يكون أقـل شأنًا ».. وهو ما لا أحسبه يقصده، فالواقع أن هذا الجزء من اعترافاته - وهو الذي يشمل الكراسات من 7 الى 12 - يضم أحداثًا ومعلومات على قدر كبير من القيمة قد يفوق قدر ما ورد في القسم الأوَّل. وإنما اختار « روسو » هـذا الوصف لأنه كان - عندما كتب هذا القسم - ضحية لانفعالات نفسية قاسية، أوحت إليه بأن أعزّ أصدقائه، الذين أووه في انجلترا - حيث كتب الكراسات الست الأولى - قد تآمروا عليه مع ملك بروسيا، فغادر بلادهم، وظلَّ يتنقل وهو متنكر، لا يكاد يأمن الى استقرار. ومن هنا نـدرك سر التشاؤم والأسى والشك والقنوط التي تطبع حديثه هذا.

[←100]

.اصطلاح يقابل: « بناء القصور في الهواء » عندنا

[←101]

أردف روسو - في هامش مؤلفه - معلّقًا على هذا بقوله: « ما لم يكن قد خُدع في اختياره من البداية، أو ما لم تكن شخصية المرأة التي تعلَّق بها قد تغيَّرت - بعد ذلك - بتأثير مجموعة من الظروف غير العادية، فإن من المستحيل أن تكون هذه القاعدة مطلقة. ولو أريد إقرار هذه القاعدة دون تعديل، لجاز الحكم على « سقراط » بشخصية زوجته « كسانتيت »، أو « ديون » بشخصية صديقه « كاليبوس ».. وهـذا خليق بأن يكون أبعـد الأحكام عن الانصاف، وأكثرها خطئًا.. وفوق هذا، لا ينبغي أن تُطبق هذه القاعدة هنا على زوجتى تطبيقًا يسيء اليها. فهي بالتاكيد أضيق عقلًا وأسهل انسياقًا للخداع مما كنت أتصوَّر، ولكنها ذات خلق طاهر، رائع، خال من أى خبث، جدير بكل تقديري، وهذا ما سيظل يحظى به ما حييت ».

[←102]

الكراسة الرابعة. وقد كتب لها « روسو » يومًا أروع خطاب غرامي في كل مخلفاته الأدبية!

[←103]

الكلافيسان آلة موسيقية، و « الكلافيسان البصري » آلة ذات مفاتيح تتصل - إلى جانب الأوتار - بمكعبات ملونة. فإذا عُزف عليها - كما يُعزف على الآلة الموسيقية - تتابعت الألوان تتابع الأنغام، بحيث تتمشى الألوان الأساسية السبعة الأولى، مع الأنغام السبعة الأولى في الموسيقى. وكانت غاية المخترع، أن يحدث المؤثرات النغمية بالألوان!

[←104]

في الأصل: الرئيس ذو القلنسوة المخملية السوداء المستديرة!

[←105]

بحثنا عن سيرة « الشيفالييه دي روهان »، فلم نجد مَن يحمل لقب « شيفالييه » - أي فارس - وينطبق عليه ما ذكره « روسو » عن التألق وقصر العمر، سوى « الشيفالييه لويس دي روهان »، الذي اشترك في مؤامرة ضد الملك لويس الرابع عشر، وأُعدم. ولكن هذا عاش بين سنتي 1635 و 1674، أي قبل مولد « روسو ». و « روهان » الوحيد الذي عاصره « روسو » هو الأمير إدوار دى روهان - الذي عاش بين سنتى 1734 و 1803 - وكان كاردينالًا، ولكنه لم يكن « شيفالييه ». ولعل الأمر التبس على « روسو ».

[←106]

يقصد روسو » أعضاء المحفل الذين تولوا مناقشته.

[←107]

نظام يقابل « حق النشر » يقصر حق طبع كتاب معين، على مؤلف أو ناشر معين.

[←108]

يشبه « روسو » مشروعه الموسيقى، بالنافورة الصغيرة التي بني عليها آمالًا عندما بارح (تورين)، والتي أورد قصتها في الكراسة الثالثة بالجزء الأوَّل.



كتابي
٤١
اعترافات
چان چاك روسو
الجزء الثالث
فريق
متميزون
E-BOOK
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة


فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كتابي

العدد رقم (**41**)

إعترافات چان چاك روسو

الجزء الثالث

إعداد: حلمي مراد



اعترافات
جان جاك روسو

(١)

حلم طالما تمنيت تحقيقه!

عزيزي القارىء..

إذا أردت أن تعرف قيمة الكنز الأدبي الخالد الذي توافيك به (مطبوعات كتابى) اليـوم، فإليك ما كتبه عنه المفكِّر المطلع الأستاذ سلامة موسى في عدد 19 نوفمبر عام 1955 من جريدة (أخبار اليوم)، إذ قال: « اعترافات چان جاك روسو من الكتب التي كان يجب أن تُترجم إلى لغتنا قبل 100 أو 150 سنة ».. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن صدقي، في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ 14 نوفمبر 1939 يقول: « انقضى نيف ومائة وستـون سنة على وفاة « روسو »، وانصرف الأدباء وجـمـهـرة القرّاء عن مطالعة كتب « روسو » الأخرى، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته)، ذلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل، أما نجـوى النفس البشرية فهي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل »..

والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تُقدّم (مطبوعات كتابى) إليك اليوم أوَّل ترجمة أمينة « كاملة » لها باللغة العربية، هي أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكّر العبقري چان جاك روسو. ولقد كان من أهم الميزات التي كتبت الخلود لهذه الاعترافات، أنها كانت أوَّل عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه، فقد سجَّل « روسو » في هذا الكتاب أدقّ أحداث حياته - خيرها وشرها، طيبها وخبيثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة.

حلمي مراد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



موجز ما جاء في الجزءين الأوَّل والثاني

وُلدت في (جنيف)، في سنة 1712، لأب كان يعمل في صناعة الساعات، ولأم توفيت عند مولدي. وبدلًا من أن يكرهني أبي لذلك، فإنه أسرف في حبه لي، لأنني كنت شديد الشبه بأمي.

تنبّه إحساسي قبل أن يتنبه فكري. ثم عمد أبى إلى أسلوب خطر، إذ أشركني في قراءة الروايات والكتب الدسمة.

اضطر أبي إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى، كادت تلقي به إلى السجن دون مبرر قانونى. فبقيت في كنف خالى « برنار »، الذي كان متزوّجًا من عمتي، والذي أرسلني مع ابنه إلى (بوسي) لنقيم في رعاية القس البروتستانتي « لامبرسييه »، ولنتلقى العلم على يديه ويدى أخته. وكانت الآنسة « لامبرسييه » توليني حنان الأم، ولكن عقابها إياي نبَّه المشاعر الحسية والشهوانية في كياني!

على أثر عقاب ظالم، لذنب لم أرتكبه، كرهت الظلم، وولت طمأنينة طفولتي.. وألحقني خالي بمكتب موثّق للعقود، على أمل أن أشقّ طريقي في المحاماة - فيما بعد - ولكني لم أستسغ هذا العمل.

قرَّر خالى أن من مصلحتي أن أتعلَّم حرفة، فألحقني كصبي - أو تلميذ صانع - لدى حفَّار كان ينقش على المعادن. وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبرونني سنًّا؛ فتعلّمت السرقة، لا سيما وأن معلمى كان يقسو علىَّ بالعقاب والحرمان. ومع ذلك فإنني لم أكن أسرق حبًّا في المال أو الحيازة.. وإلى جانب هذا، اشتدَّ شغفي بالقراءة حتى أصبح تهوسًا.

واضطرتني قسوة معلمى، ونفوري من حياتي هذه، إلى الهرب من (جنيف).. وانتهى بي المطاف إلى سيِّدة محسنة في (أنيسى)، كان ملك سردينيا قد خصّها بمعاش، لأنها اعتنقت الكاثوليكية.. تلك هي « مدام دى فاران » التي أشفقت علىَّ، وأرسلتني إلى دير نبذت فيه عقيدتي البروتستانتية، وأصبحت كاثوليكيًا.

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال، وعانيت الفاقة والمتاعب. ثم انتهيت إلى العودة إلى السيِّدة دى فاران، التي رحّبت بي، وأنزلتني من نفسها منزلة الابن، وأفردت لى غرفة في دارها، وراحت تُنفق على تعليمي الموسيقى، رغم تضاؤل مواردها.. وتعلّقت بهذه السيِّدة تعلقًا ملك علىَّ كل حواسي وعقلي.. وبمرور الأيام صرت أدعوها « ماما »!

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم. فقد أوفدتني « ماما » مرة لأعاون السيِّد « لوميتر »، الذي كان رئيسًا لفرقة الموسيقى بكنيسة (أنيسى)، والذي اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفرّ من وجوههم.. وقد رافقته إلى (ليون)، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع، لفرط إسرافه في الشراب، ففررت منه في إحدى هذه النوبات، وعدت إلى (أنيسى).. وإذا أُفاجأ بأن « ماما » قد رحلت في بعض شئونها، ولم أدر لها مقصدًا أو مقرًّا!

وأقمت فترة مع « فينتور »، وهو شاب كنت أعرفه من قبل، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب. وكان لبقًا، أنيقًا، مرحًا، يستهوى النساء. وفي تلك الأثناء، كان أبي قد تزوَّج من امرأة على شيء من الدهاء والقول المعسول، وشغل عنى بأولاده منها.

وانتهى بي المطاف إلى (لوزان)، حيث رحت أتكسب عيشي بتدريس الموسيقى، باذلًا جهدي - في الوقت ذاته - إلى تنمية معرفتي بها. وحاولت إذ ذاك أن أكون ملحنًا، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين، فمني لحني الأوَّل بفشلٍ ذريع، جعلني أعيش في حزن وهوان

لفترة من الوقت.

ولم أكفّ طيلة هذه الأحداث عن الحنين إلى « ماما »، لا لحاجتي المادية فحسب، وإنما لحاجتي القلبية قبل كل شيء!.. ومع ذلك، فإن تعلقي بها ـ رغم ما كان عليه من تأجج وقوة - لم يكن ليحول بيني وبين أن أحب غيرها. ولكن، على غير شاكلة حبى لها!

وقُدِّر لي أن أذهب إلى باريس، ولكنني لم ألق فيها الحظ الذي كانت تصوّره لي أحلامي. على أنني ظفرت هناك بنبأ جعلني أنطلق من جديد بحثًا عن السيِّدة دى « فاران ». وهكذا أخذت أجوب الأقاليم على غير هدى، متعرِّضًا للتشرد، والتضور جوعًا، والنوم في الطرقات.. حتى عرفت أخيرًا أن « ماما » الحبيبة قد استقرَّت في (شامبيرى)، فخففت إليها.. وما كان أحلاه من لقاء!

واستطاعت « ماما » أن تحصل لي على منصب في « المساحة »، فبدأت أكسب عيشي بعمل مشرّف!.. وكانت هذه خير خاتمة لباكورة صباى!

وأقمت في دار « ماما »، ولكنها لم تكن في بهاء دارها الأخرى في (أنيسي)، إذ كانت موارد « ماما » في تضاؤل، وكانت أمورها مضطربة. وفى هذه الحياة الجديدة، اكتشفت أن « ماما » كانت على علاقة بخادمها الوفى « كلود آنيه ». وكان شابًّا لا يكبرني بكثير، ولكنه كان رزينًا وقورًا، غدا منى بمثابة المربى. ومع أنني لم أنج من الألم، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع « ماما » في مودة تفوق مودتي كثيرًا، إلا أن وفائي للسيِّدة امتدّ إلى الشاب، فقد كنت راغبًا في سعادتها هي قبل شيء!

وانصرفت إلى الموسيقى - في تلك الأثناء - في استغراق مَلَك علىَّ حواسي، وحملني على أن أستقيل من عملي في « المساحة »، وأن أستعين على الحياة بتدريس هذا الفن. وقادني هذا إلى المجتمع الراقي، وإلى دُور ذوى الجاه والثراء. وبقدر ما تعرَّضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط، فإن سذاجتي - التي ذهبت إلى درجة الغباء - كانت تفوت علىَّ الفرص. إلى أن أحست « ماما » بأن إحدى السيِّدات كانت توشك أن توقعني في أحابيلها، فأشفقت علىَّ من مخاطر شبابى، ورأت أن تنقذني منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة في مثل ظروفها.. بأن تمنحني نفسها!

وأخذت « ماما » تروي عطشي إلى النساء من معينها.. على أن العلاقة البدنية لم تُفسد شيئًا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية، كما أنها لم تؤثِّر على علاقة كل منا بخادمها وعشيقها « كلود آنيه »، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض!.. وما لبث « آنيه » أن مات - وهو في ريعان شبابه - فحللت محله في تدبير شئون « ماما » وماليتها. ولاحظت أن مواردها كانت في نضوب، فأخذت أعمل جاهدًا على أن أجنبها هاوية الافلاس.

وانتهى بي التفكير إلى وجوب الحصول على عمل، كى أعول من دخله « ماما » إذا ألمَّت بها الفاقة. وفي سبيل ذلك رأيت أن أتعلَّم التلحين، فكان هذا الاتجاه عاملًا جديدًا على تبديد مواردها المتضائلة!.. وكذلك شرعت في تأليف الأغاني.

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى، ومجالسة الحكّام وذوى الجاه، والرحلات.. وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعى، وغلبني الاكتئاب والأسى والتشاؤم، فنصح لي الطبيب بأن أقيم في الريف. وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلًا ذا حديقة وبستان، في ضيعة (شارميت). وهناك، نعمت بأهنأ فترة في حياتي مع « ماما »!

ولكنه كان هناء قصير الأجل.. ففي تلك الأثناء، شعرت بضعف في القلب، وضيق في التنفس، وطنين في الأذنين، وتراخ في حيويتي، مما أوحى إلىَّ بأن عمري لن يطول،

فرأيت أن أستمتع بما تبقّى منه أعظم استمتاع. وأقبلت على دراسة العلوم والآداب، كما أكثرت من الأسفار، أنشد علاجًا لعللى.

وفي إحدى هذه الأسفار، التقيت بالسيِّدة دى « لارناج ».. وكانت تكبرني في السن كثيرًا، ولكنها راحت تعمل على إغوائي، حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشلّ إقبالي عليها، لم تتورَّع عن أن تكون هي البادئة بالعناق والتقبيل. وأصبحت عشيقتي خلال الرحلة. ولو أنني عشت مائة عام، لما استطعت أن أفكِّر قط في هذه المرأة الفاتنة دون أن يطغى السرور عليَّ!.. كانت متعتي مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق.. أما مع السيِّدة دى لارناج، فقد كنت فخورًا برجولتى، مزهوًّا بسعادتى.

وكانت صدمة لي أن عدت إلى « ماما »، فوجدت أن شابًا قد حلَّ محلى أثناء غيابى.. وكان شابًا جاهلًا، مغرورًا، استطاع أن يفرض على « ماما » سلطانه، فلم أستطع أن أطيق بقاء إلى جوارها، وقررت أن أهجر الدار، وأن أرحل إلى باريس، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلًا من العلامات.

الكتاب الثاني

وصلت إلى باريس في خريف سنة 1741.. واستطاع بعض مَن حملت إليهم خطابات للتوصية، أن يمكنني من التقدُّم إلى « الأكاديمية » برسالتي التي قُدِّر لي أن يناقشني فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى، فانتهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتي. وبدلًا من أن أستسلم للقنوط، أسلمت نفسي للخمول وللقدر، ورحت أقتر على نفسي لأفيد بما تبقى من مواردي المتضائلة.

والآن.. تعال نتابع « روسو » وهو يشقّ طريقه إلى قمة المجد في المجتمع الباريسي.

ولقد كانت السكينة، واللذة، والثقة التي استسلمت بها لهذه الحياة الخاملة المنعزلة - بالرغم من أنني لم أكن أمتلك موارد تمكنني من أن أستمر فيها ثلاثة أشهر - من الصفات الفذَّة في حياتي، ومن الظواهر العجيبة في طباعي!.. كانت الحاجة البالغة إلى أن أجد من يعني بي، هي عين الشيء الذي جرَّدنى من الجرأة على أن أظهر بين الناس.. كما أن الضرورة التي كانت تدعوني إلى زيارة الناس، جعلت الزيارات أمرًا لا أطيقه، حتى أنني كففت عن زيارة أعضاء المحفل أنفسهم وغيرهم من رجال الأدب، الذين قد تعرَّفت إليهم. وأصبح « ماريفو » والراهب دى « مابلى » و « فونتنيل » هم الوحيدون - تقريبًا - الذين ظللت أزور دورهم في بعض الأحايين. كذلك أطلعت أوّلهم على مسرحيتى الهزلية « نارسيس » فراقت له، وتكرَّم بأن أدخل عليها بعض التنقيح!.. وكان « ديدرو » يصغرهم كثيرًا في السن، فقد كان يقاربني عمرًا. وكان مولعًا بالموسيقى، ملمًا بنظرياتها، ومن ثم فإننا كنا نتحدَّث عنها، كما أنه كان يحدثني عن مشروعاته الأدبية، فخلق هذا بيننا رابطة من الود القوى دامت خمس عشرة سنة، وكان من المحتمل أن تدوم زمنًا أطول، لو أننى لم أُدفع دفعًا - لسوء الحظ - إلى مهنته ذاتها.. وكان هو صاحب الذنب في ذلك!

ولن يمكن تصوّر الطريقة التي استغللت فيها هذه الفترة القصيرة، الثمينة، التي سبقت اضطراري إلى أن أتسول قوتى!.. فلقد حفظت عن ظهر قلب أجزاء من الشِعر كنت قد درستها قبل ذلك مائة مرة ونسيتها. واعتدت أن أتمشّى كل صباح ـ في حوالى الساعة العاشرة - في حدائق (لوكسمبورج)، حاملًا « فيرجيل » أو « روسو » في جيبى[1]، وأروح أردد في ذهني - حتى موعد الغداء - أحد الأناشيد القدسية، أو أحد أناشيد الرعاة، دون أن يثبط من عزيمتي أننى كنت واثقًا من أنني لن ألبث - إذ أردد الجزء الذي اخترته ليومى - أن أنسى الجزء الذي حفظته بالأمس.. وتذكَّرت أن الأسرى الأثينيين - بعد هزيمة « نيسياس » في (سيراكيوز)[2] - كانوا يستمدون قوتهم من ترديد أشعار « هوميروس ».

ولقد كان الدرس الذي استخلصته من هذه، كي أعد نفسى للفاقة، هو أن أروض ذاكرتي البديعة على حفظ جميع الأشعار عن ظهر قلب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت لديَّ طريقة مبتكرة مكينة أخرى في الشطرنج، الذي كنت أكرّس له بانتظام فترة ما بعد الظهر - من الأيام التي لم أكن أذهب فيها إلى المسرح - في مقهى « موجى ». وقد تعرَّفت هناك إلى السيِّد دى « ليجال »، وإلى سيّد يُدعى « هوسون »، وإلى « فيليدور »، وإلى جميع لاعبي الشطرنج الكبار في ذلك العهد، دون أن أحرز مزيدًا من التقدّم في اللعب. على أنني لم أكن أرتاب في أننى لن ألبث أن أغدو في النهاية أقوى منهم جميعًا، وكان هذا ـ في رأيي - كافيًا لأن يمدني بمورد للعيش. وكنت كلما استهوتني فكرة طائشة جديدة، رحت أتدبرها بنفس الطريقة دائمًا.. كنت أقول لنفسي: « إن الذي يبرز في شيء، يطمئن دائمًا إلى أنه منشود. فلنبرز إذن، في أي شيء، وإذ ذاك أغدو مرغوبًا.. إن الفرص سانحة، وعلى كفاءتى يتوقَّف ما بقي من الأمر! ».. ولم يكن هذا التفكير الصبياني وليد سفسطتي، وإنما كان نتاج كسلى. فقد كنت في جزعي من الجهود الضخمة السريعة التي كانت خليقة بأن ترهقني، أسعى إلى أن أزين كسلي لنفسي، وإلى أن أدارى خجلي من نفسي بحجج ملائمة!

وهكذا مكثت ساكنًا إلى أن انتهت نقودي. وأعتقد أنني كنت على استعداد لأن أقبع حتى آخر « سو » لديَّ، دون أي قلق، لو لم يوقظني الأب « كاستيل » - الذي كنت أذهب لزيارته أحيانًا، وأنا في طريقي إلى المقهى - من سباتي. ولقد كان الأب « كاستيل » مخبولًا، ولكنه كان - برغم هذا - رجلًا طيبًا. وقد غاظه أن رأنى أبدد وقتى وامكانياتي بهذا الشكل، دون أن أفعل شيئًا. فقال لي: « ما دام الموسيقيون، وما دام العلماء، يأبون أن يغنوا بطريقتك، فعدِّل من أوتارك، وجرِّب النساء، ولعلك تكون - في هذه الناحية - أكثر توفيقـًا!.. لقد تحدَّثت عنـك إلى السيِّدة دى « بوزينفال »، فاذهب لزيارتها، واذكر أنك قادم من لدني!.. إنها امرأة طيبـة، يسرّها أن ترى شخصًا من موطن زوجها وابنها[3]، ولسوف تلتقي في دارها بابنتها السيِّدة دى « بروجلي »، وهي امرأة زكيـة.. وهناك السيِّدة « دوبان »، وهي الأخـرى ممن حدَّثتهن عنك، فاحمل إليها مؤلفك، لأنها تتوق إلى رؤيته، وسوف تحسن استقبالك!.. إن المرء لا يستطيع أن يبرم عملًا في (باريس) إلا بوساطة النساء، فهن كالمنحنيات، التي يكون الحكماء بمثابة الخطوط التقاربية[4] لها.. فالفريقان يتقاربان باستمرار، ولكنهما لا يتماسان أبدًا! ».

وبعد أن أرجأت هاتين المهمتين المتعبتين من يوم إلى آخر، استجمعت أخيرًا شجاعتي، وذهبت لزيارة السيِّدة « بوزينفال »، فأكرمت وفادتي، وإذ دخلت السيِّدة دى « بروجلي » الغرفة، بادرتها قائلة: « ها هو ذا، يا ابنتي، السيِّد روسو الذي حدَّثنا عنه الأب كاستيل! ». فأطرت السيّدة دى بروجلي مؤلفي، وقادتني إلى معزفها، لتريني انها كانت معنية به. ووجدت أن الساعة قد شارفت الواحدة، فأردت الانصراف، غير أن السيِّدة دي بوزينفـال قالت لي: « إنك على مسافة بعيدة من مسكنك، فامكث، وتناول غداءك هنا ». ولم أكن بحاجة إلى إلحاح.. وبعد ربع ساعة، أدركت أن المائدة التي دعتني إليها كانت مائدة الخدم!.. فقـد كانت السيِّدة دى بوزينفال طيبة، ولكنها كانت ضيقة الأفق، شديدة الاعتداد بعراقة أصلها البولندي، وليست لديها فكرة تُذكر عن الاحترام الواجب للمواهب. وقد حكمت عليَّ - في هـذه المناسبة - بمسلكي أكثر منها بملبسي الذي كان - برغم بساطته المتناهية - لائقًا كل اللياقة، ولا ينم قط عن رجل يؤاكل الخـدم.. لا سيما وأنني كنت قد نسيت الطريق إلى مائدة الخـدم من زمن طويل، ولم أكن راغبًا في أن أتعلمها من جـديد[5].. وقلت للسيِّدة دى بوزينفال - دون أن أبدى غضبى - أننى تذكّرت أن لا بد لي من العودة إلى مسكنى لمهمة بسيطة. فاقتربت مدام دى بروجلي من أمها، وهمست في أذنها ببضع كلمات كان لها

تأثير سريع، إذ نهضت مدام دى بوزينفال لتستبقيني قائلة: « إننى أقصد أن يكون تشريفك إيانا بالغداء.. معنا! ». ورأيت أن التشبث بالكرامة عمل أخرق، فمكثت. وإلى جانب ذلك، كان لطف السيِّدة دى بروجلى قد ملك قلبي، وجعلني أرتاح إليها، فكنت جد مغتبط بتناول الغداء معها. وداخلني الأمل في أنها لن تندم - إذا ما عرفتني جيِّدًا - على أنها أولتني هذا الكرم. ولقد تناول الغداء هناك أيضًا، السيِّد رئيس (لاموانيون)، وهو من أعظم أصدقاء الأسرة، وكان - كالسيِّدة دى بروجلي - يألف اللهجة الباريسية الموجزة، التي تتألف من كلمات صغيرة، كلها كنايات بسيطة رفيعة.. ولم يكن لجان جاك البائس مجال للتألق في هذا المضمار!.. وكنت من حسن الادراك بحيث أنني لم أشأ أن أتظرف بالرغم من « منيرفا »6، فأمسكت لساني!.. ما كان أسعدني لو أننى كنت دائمًا بهذه الحكمة؟.. لقد كنت بهذا جديرًا بألا أتردي في الدرك الذي أجدني اليوم فيه!

ولقد استأت لما بدوت عليه من ثقل الفهم، ولعجزي عن أن أبرِّر - في نظر السيِّدة دى بروجلي ـ ما فعلته هي من أجلي. لذلك لجأت - بعد الغداء - إلى موردي المعهود. فقد كانت في جيبي رسالة شعرية، كتبتها إلى « بريسو » أثناء مقامي في (ليون)، ولم تكن الحرارة تعوز هذه القصاصة، فعمدت إلى قراءتها، واستطعت أن أحمل ثلاثتهم على البكاء. ولقد خُيِّل إلىَّ - سواء عن غرور، أو عن صدق في تأويلاتي - أنني رأيت عينَيّ السيِّدة دى بروجلى تقولان بنظراتهما لأمها: « ما رأيكِ يا ماما؟!.. أفكنت على خطأ إذ قلت لكِ إن هذا الرجل كان أكثر جدارة بأن يتناول غداءه معنا منه مع وصيفاتك؟ ».. وكنت حتى تلك اللحظة مثقل القلب، ولكنني شعرت بالرضى بعد أن ثأرت لنفسي على هذا النحو. ولقد تمادت السيِّدة دى بروجلي قليلًا في الرأي الطيب الذي داخلها نحوى، معتقدة أننى لن ألبث أن أثير ضجة في (باريس)، وأن أغدو ذا حظوة لدى النساء. ولكي ترشدني في هذا المجال الذي كنت غير خبير به، أعطتني « مذكرات الكونت... »، قائلة: « إن هذا الكتاب مرشد ستحتاج إليه في المجتمع، وستحسن صنعًا إذا أنت استعنت به بين وقتٍ وآخرا ». ولقد احتفظت لأكثر من عشرين عامًا، بهذه النسخة، معترفًا بفضل اليد التي جاءتني عن طريقها، وإن كنت كثيرًا ما أضحك للرأي الذي لاح أن هذه السيِّدة قد ارتأته عن مؤهلاتي للظرف والملاطفة.. ومنذ اللحظة التي طالعت فيها هذا الكتاب، رغبت في أن أخطب ود صاحبه. وقد حققت الأحداث هذه الرغبة، فإذا هو الصديق الصادق الوحيد لي بين رجال الأدب7.

وجرؤت - منذ ذلك الحين - على أن أطمئن إلى أن السيِّدة البارونة دى بوزينفال، والسيِّدة المركيزة دى بروجلي ـ وقد اهتمتا بأمري - لن تدعاني طويلًا بلا مصدر للعيش. ولم أخطىء الحدس!.. فلنتكلم الآن عن دخولي دار السيِّدة « دوبان »، الذي كانت عواقبه أطول مدى وأجلًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت السيِّدة « دوبان » - كما هو معروف - ابنة صمويل برنار، والسيِّدة فونتين.. وكن ثلاث أخوات، من الممكن أن يُدعين بالحسان الثلاث: السيِّدة ديلا توش ـ التي فرَّت إلى انجلترا مع دوق كينجستون - والسيِّدة دارني، عشيقة السيِّد الأمير دى كونتي، بل - بالأحرى - صديقته، الصديقة الوحيدة المخلصة، وكانت امرأة جديرة بأن تُعبد، للطف وطيبة شخصيتها الفاتنة، بقدر ما هو لذكائها المستحب، والمرح الذي لم يكن يفارق طباعها.. وأخيرًا، السيِّدة « دوبان »، أجمل الثلاث، والوحيدة منهن التي لم يكن ثمة عوج يُعاب عليها في مسلكها!.. وكانت جزاء كرم ضيافة السيِّد دوبان، إذ أن أمها منحته إياها، مع منصب « الملتزم العام »8 وثروة ضخمة، عرفانًا لحسن حفاوته بها في إقليمه!

وكانت - عندما رأيتها لأوَّل مرة - لا تزال من أجمل نساء باريس. وقد استقبلتني في غرفة

زينتها، وكانت ذراعاها عاريتين، وشعرها مهوشًا، وثوبها مهدّلًا.. وكان مثل هذا الاستقبال الأوّل جديدًا عليّ، فلم يحتمله رأسي البائس، واضطربت، وارتبكت.. وموجز القول أننى شغفت هوى بمدام دوبان!

ولم يلح أن اضطرابي قد أحدث أثرًا سيئًا، إذ أنها لم تبد ما ينم عن أنها لاحظته. وفي استقبالها للكتاب ولمؤلفه، راحت تحدّثني عن مشروعي حديث الملمة به.. وغنت، وصاحبت غنائها بالعزف، واستبقتني للغداء، وأجلستني إلى جانبها حول المائدة. وما كان ثمة ما يدير رأسي أكثر من هذا، فإذا بى أغدو مجنونًا بها!.. وسمحت لي بأن أتردد عليها، فاستغللت - بل أسأت استغلال - هذا السماح، إذ أصبحت أذهب إلى دارها في كافة الأيام تقريبًا، وأتناول الغداء هناك مرتين أو ثلاثا في الأسبوع، وكنت أموت شوقًا إلى مصارحتها بحبي، ولكنني لم أجسر على ذلك، فقد ضاعفت من خجلي الطبيعي عدّة أسباب.. كان دخول أي بيت من بيوت الأثرياء المرفهين، بمثابة باب مفتوح للحظ، فلم أشأ - في موقفي إذ ذاك - أن أتعرَّض لإغلاق هذا الباب. ثم إن السيِّدة دوبان كانت - برغم لطفها - رصينة وباردة، فلم أجد في مسلكها شيئًا مشجعًا يثير جرأتي. وكانت دارها متألقة كأية دار أخرى في باريس، في ذلك الحين، وملتقى جماعات لم يكن ينقصها سوى أن يقل عددها بعض الشيء لكي تغدو نخبة من كل نوع من علية القوم. فلقد كانت السيِّدة تحب أن ترى المتألقين: من عظماء، وأدباء، ونساء جميلات.. وما كان ليُرى عندها سوى الدوقات، والسفراء، وذوى الأشرطة الزرقاء9.. ومن الممكن اعتبار السيِّدة الأميرة دى روهان، والسيِّدة الكونتة دى فوركالكييه، والسيِّدة دي ميربوا، والسيِّدة دى برينوليه، والليدي هيرفي، بين صديقاتها!.. كما أن السيِّد دى فونتنيل، والراهب دى سان بيير، والراهب سالييه، والسيِّد دى فورمو، والسيِّد دى بيرني، والسيِّد دى بوفون، والسيِّد دي فولتير، كانوا من أفراد ندوتها ومن رواد مائدتها. ولو أن مسلكها المتحفظ لم يجتذب إليها عددًا كبيرًا من الشباب، لكانت الجماعة التي اعتادت الاجتماع في دارها، صفوة مختارة، وبالتالي أكثر وقارًا!.. وما كان لجان جاك البائس أن يزين لنفسه فكرة أن يتألق كثيرًا وسط كل هؤلاء!.. لذلك فإنني لم أجسر على أن أفضى للسيِّدة بعواطفي؛ ولكني لم أعد أطيق صمتًا، فجرؤت على الكتابة. وقد احتفظت بالخطاب يومين، دون أن تذكر لي شيئًا عنه. وفى اليوم الثالث، ردّته إليَّ مع بضع كلمات تأنيب، قالتها بلهجة باردة تجمد لها دمي!.. وحاولت أن أتكلم، ولكن الكلمات ماتت على شفتَيّ، وخبا وجدي الفجائي مع أملي. وبعد هذا الإعلان الكتابي لحبي، واصلت العيش بقربها كذي قبل، دون أن أحدثها عن شيء من عواطفي، ولو بنظرات عيني!

ولقد ظننت أن حماقتي أصبحت منسية، ولكني كنت مخطئًا!.. وكان السيِّد دي فرانكويى، نجل السيِّد دوبان، وابن زوج السيدة دوبان10، يقارب السيِّدة في السن، ويقاربني. وكان لامع الذكاء، مليح الهيأة، يحسن الظهور بمظاهر العظمة. ويُقال إنه كان مقرَّبًا إلى السيِّدة دوبان، لا لشيء إلا لأنها زوَجته من امرأة شديدة الدمامة، ولكنها ضافية اللطف، وعاشت معهما في وئام تام، وكان السيِّد دى فرانكويي يحب المواهب ويتكفَّل بمساعدة أصحابها، ومن ثَم فإن الموسيقى ـ التي كان يلم بها إلمامًا عظيمًا - كانت وسيلة ورباطًا بيننا.. ولهذا اعتدت أن ألقاه كثيرًا، فتعلقت به. وقد أوعز إليَّ ـ فجأة ـ بأن السيِّدة دوبان أصبحت ترى أن زياراتي أكثر مما كان ينبغي، ورجاني أن أكف عنها!.. ولعل هذه الإشارة كانت في محلها، لو أنها صدرت عندما أعادت السيّدة الخطاب إليّ. أما وقد صدرت بعد ثمانية أيام - أو عشرة - ودون أي سبب آخر، فقد لاحت لي غير ذات موضوع. ومما زاد الموقف غرابة، أن هذا لم يضعف الحفاوة - التي كنت أُقابل بها في دار السيِّد والسيِّدة دى فرانكويي - عن ذي قبل! على أنني خففت من ترددي عليهما، وكنت موشكًا أن أقطع زياراتي تمامًا، لولا أن السيِّدة دوبان - مدفوعة بنزوة لم أتبين إذ ذاك حقيقتها - سألتني أن أعنى، لثمانية أيام أو عشرة، بابنها الذي كان إذ ذاك قد فقد مربيه السابق، وكان من المنتظر أن يبقى وحيدًا ريثما

يصل المربى الجديد. ولقد قضيت هذه الأيام الثمانية في عذاب، لم يكن ليجعله محتملًا سوى لذة إرضاء السيِّدة دوبان!.. إذ كان « شينونسو » المسكين[11] قد أصيب بخبل كاد أن يجر الخزى على الأسرة، وكان سببًا في موته بعد ذلك، في جزيرة (بوربون). ولقد كنت - أثناء وجودى بجواره ـ أحول بينه وبين أن يؤذي نفسه أو يؤذى غيره. وما كانت هذه المهمة بالسهلة، كما أننى لم أكن لأتولاها ثمانية أيام أخرى، ولو منحتني السيِّدة دوبان نفسها في مقابل ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأولاني السيِّد دي فرانكويى صداقته، فعملت معه، وبدأنا نتلقى سويًا منهجًا في الكيمياء لدى « رويل ». ولكي أكون على مقربة منه، تركت نزلى - « سان كينتان » - وانتقلت للاقامة في « ساحة التنس » بشارع (فرديليه)، الذي كان يفضي إلى شارع (بلاتيير)، حيث يقيم السيِّد دوبان. وهناك، نشأ عن إصابتي ببرد أهملته، أن وقعت فريسة التهاب رئوى كدت أموت منه. وكثيرًا ما كنت أصاب في شبابي بتلك الأمراض الالتهابية: التهابات البلورة (ذات الجنب)، والتهابات اللوزتين - التي كنت ضحية سهلة لها بوجه خاص - وغيرها، مما لا أراني بحاجة إلى تسجيله هنا، وكانت جميعًا تدفعني إلى حيث أرى الموت عن كتب كاف لأن آلف شكله!.. وسنح لي الوقت - أثناء نقاهتى - للتفكير في حالي، وللرثاء لجبني، وضعفي، وكسلي الذي كان - برغم ما كنت أكتوى به من نار - يتركني أذبل في خمول ذهني على أبواب الفاقة!

وكنت في اليوم السابق لوقوعي في المرض، قد ذهبت لمشاهدة « أوبرا » لروبيه كانت تمثل إذ ذاك، وقد غاب عنى اسمها. وبالرغم من أن تعنتي في الحكم على مواهب سواى جعلني دائمًا لا أطمئن إلى مواهبي، فإنني لم أستطع أن أكبح نفسي عن ملاحظة أن الموسيقى كانت باردة، فاقدة الحرارة، خلوًا من الابتكار والتجديد. وكنت أجرؤ - في بعض الأحيان - على أن أقول لنفسي: « يُخيل إلىَّ أن بوسعي أن أصنع خيرًا من هذا ».. بيد أن الفكرة ـ الباعثة على التهيب ـ التي داخلتني عن تلحين « الأوبرا »، والأهمية التي كنت أسمع الاخصائيين يخلعونها على مثل هذا العمل، ثبطت عزيمتي في الحال، وجعلتني أتضرّج خجلًا لجرأتي على التفكير في ذلك!.. ثم، أين لي بمَن يرضى بأن يزودني بالأقوال اللازمة لأية « أوبرا »، وأن يتجشم عناء تنسيقها وفقًا لهواى؟.. ولقد عاودتني هذه الأفكار عن الموسيقى والأوبرا، أثناء مرضى، فرحت ابان هذياني أنظم الأغاني والثنائيات والأناشيد الجماعية.. وأوقن أننى نظمت قطعتين أو ثلاثًا لفوري - وعفو الخاطر - ربما كانت جديرة بإعجاب الأساتذة، لو أنهم سمعوها تؤدى.. ولو تسنى تسجيل أحلام امرىء محموم، فأية أشياء جليلة وعظيمة قد يتيسر استخلاصها أحيانًا من هذا الهذيان!

ولقد ظلَّت موضوعات الموسيقى والأوبرا هذه، تشغلني أثناء نقاهتي، ولكن في توارد أكثر هدوءًا. وبدافع من التفكير في ذلك ـ بل وبالرغم من نفسي - اعتزمت أن أرضى نفسي، وأن أحاول وضع « أوبرا »، بكلامها وموسيقاها، دون معونة من أحد. ولم تكن هذه أوَّل محاولة لى، إذ كنت قد ألّفت في (شامبيرى) أوبرا ومأساة - أوبرا تراجيدي - بعنوان « أيفيس وأنا كساريت »، وكنت من حسن الإدراك بحيث رميت بها في النار!.. كما نظمت في (ليون) أخرى بعنوان « اكتشاف الدنيا الجديدة »، لم ألبث بعد أن قرأتها على السيِّد « بورد »، والراهب دى « مابلى »، والراهب « تروبليه » وغيرهم، أن انتهيت بها إلى عين المصير، بالرغم من أنني كنت قد كتبت موسيقى المطلع والفصل الأوَّل، وعندما اطلع « دافيد » على الموسيقى، أنبأني بأنها كانت تحتوى على مقاطع تليق ببونوتشينى[12].

وفي هذه المرة، أتحت لنفسى وقتًا للتفكير في مشروعي، قبل أن أمد يدي إلى العمل. ورسمت لفكرة مسرحية بطولية راقصة (باليه) ثلاثة موضوعات مختلفة، في ثلاثة فصول

مستقلة، لكل منها لون من الموسيقى مغاير لما للآخرين. ونسجت كل منهما حول غراميات أحد الشعراء، ثم أسميتها « عرائس الشعر اللطاف »[13].. وكان الفصل الأوَّل يدور حول « تاس »[14]، وقد صيغت موسيقاه في أسلوب قوي. أما الفصل الثاني، فكان عن « أوفيد »، وكانت موسيقاه رقيقة، في حين أطلقت على الفصل الثالث اسم « أنا كريون »، وقد روعي فيه أن يفوح بأنفاس الاطراء والمديح!.. وجرّبت براعتي - في البداية ـ في الفصل الأوّل، فعكفت عليه بحماس مكنني - للمرة الأولى - من أن أتذوق لذائذ توقد القريحة في التلحين!.. وفي ذات مساء كنت أهمّ بدخول دار « الأوبرا »، وإذا بي أجدني نهبًا للأفكار، وإذا بها تطغى عليّ، فرددت نقودي إلى جيبى، وأسرعت إلى غرفتي وأغلقتها على نفسي، وارتميت على السرير، بعد أن أحكمت ستائر النافذة لأحول دون تسرّب ضوء النهار.. وهناك، أسلمت نفسي تمامًا للالهامات الشعرية والموسيقية، فوضعت بسرعة، وفى سبع ساعات أو ثمان، أروع قسم من الفصل!.. وبوسعى أن أقول إن حبي للأميرة دى « فيراري » - إذ أنني كنت « تاس » إذ ذاك - ومشاعري النبيلة المترفعة إزاء أخيها الظالم، أتاحت لى - لليلة واحدة - من المتـع ما كان يفوق مائة مرة، كل ما كنت خليقًا بأن أجده بين ذراعَيّ الأميرة نفسها[15].. ولم يبق في رأسي ـ في الصباح ـ سوى قسط بسيط مما نظمته ولحنته، ولكن هذا الجزء - الذي شوّهه الاجهاد والنعاس تقريبًا - لم يخفق في أن يكشف عن قوة المقطوعات التي تبقَّت كالأطلال!

وفي هذه المرة، لم أمض بعيدًا في هذا المشروع كثيرًا، نظرًا لانصرافي إلى الشئون الأخرى. ولم تكن السيِّدة دي بوزينفال، والسيِّدة دي بروجلي - اللتين ظللت أزورهما من وقتٍ لآخر - قد نسيتاني تمامًا في غمرة تعلقي بأسرة دوبان. فقد حدث أن عُين السيِّد الكونت دي مونتيجي ـ الذي كان ضابطًا في الحرس - سفيرًا في (فيينا). وكان مدينًا بسفارته إلى « بارجاك »[16] الذي كان قد ثابر على مصاحبته. كما أن أخاه - الشيفالييه دي مونتيجي - كان « فارس الكم » للسيِّد ولى العهد[17]. وقد كان على معرفة بهاتين السيِّدتين[18]، وبالراهب « ألارى » - عضو المحفل الفرنسي - الذي كنت أزوره، في بعض الأحيان، كذلك. وإذ علمت السيِّدة دى بروجلي بأن السفير كان يبحث عن سكرتير، رشحتني لديه. وشرعنا نبحث الأمر، فطلبت خمسين « لوى » كمرتب، وهو مبلغ كان قليلًا بالنسبة لمنصب يتطلَّب الحرص على المظهر. ولكنه لم يشأ أن يدفع سوى مائة « بيستول »[19] كما كان عليّ أن أتكفّل بنفقات سفرى، وكان هذا اقتراحًا يدعو للضحك، ومن ثم فلم يُقدَّر لنا أن نتفق، وفاز السيِّد دى فرانكويى - الذي بذل قصارى وسعه ليحول بيني وبين الرحيل - بمأربه، فمكثت بينما رحل السيِّد دى « مونتيجى » مصطحبًا معه سكرتيرًا آخر يُدعى السيِّد « فولو »، كانت وزارة الخارجية هي التي رشحته له. ولكنهما لم يكادا يبلغان (فيينا)، حتى اختلفا واشتجرا. وإذ رأى « فولو » أنه سيضطر إلى العمل مع رجل مجنون، هجره هناك، ولم يعد لدى السيِّد دى مونتيجى سوى راهب شاب يُدعى دى « بينى »، كان كاتبًا تحت إرشاد السكرتير، ولم يكن في مركز يؤهله لأن يملأ المنصب. ومن ثم اضطر السفير إلى أن يلجأ إليّ مرة أخرى. وقد أفهمني أخوه « الشيفالييه » - الذي كان موفور الذكاء - أن ثمة امتيازات معينة تتصل بمنصب السكرتير، وبهذا أفلح في أن يغريني بقبول الألف فرنك[20].. كما تسلمت عشرين « لوى » لنفقات رحلتي.. فبادرت إلى السفر!

من سنة 1743 إلى سنة 1744

وعند (ليون)، تمنيت أن أتخذ طريق (مون سينى)، لأزور « ماما » المسكينة، زيارة عابرة. بيد أننى انحدرت مع نهر (الرون)، ثم انتقلت بالبحر إلى (طولون). وكان ذلك بسبب الحرب، وبداعي الاقتصاد، وللحصول - كذلك - على جواز للسفر من السيِّد دى « ميربوا »، الذي كان يُشرف على الإقليم إذ ذاك، والذي كنت موفدًا إليه بتوصية. وإذ لم يكن بوسع السيِّد دي مونتيجي أن يستغنى عني، فقد راح يكتب لي الرسائل تلو الرسائل، متعجلًا سفرى.

ولكن حادثًا عاقنى.

كان الطاعون يتفشى إذ ذاك في (مسينا). وكان الأسطول البريطاني يرسو هناك، فزار المركب التي كنت عليها، وقد عرَّضنا ذلك عند وصولنا إلى (جنوا) - بعد رحلة طويلة شاقة - إلى أن نُحتجز تحت المراقبة الصحية ثمانية وعشرين يومًا. وتُرك لنا الخيـار بين البقاء على سطح المركب، أو في المعزل الصحي، الذي أُنذرنا بأننا لن نجد فيه شيئًا، اللهم إلا الجدران الأربعة، إذ لم يكن الوقت قد اتسع لتأثيثه. واختار الجميع البقاء في السفينة، ولكن الحر المرهق، وضيق المكان، وتعذر التريض على القدمين، والحشرات، جعلتني أفضـل المعزل. فاقتدت إلى مبنى كبير ذي طابقين. وكان عاريًا تمامًا، فلم أعثر فيه على نافذة، ولا منضدة، ولا سرير، ولا مقعـد.. بل ولا كرسي منخفض بلا مسند لأجلس عليه، ولا حزمة من القش أرقد عليها.. وأحضروا إلىَّ معطفى، والحقيبة الصغيرة التي تضم ثياب النوم، وحقيبتَي الكبيرتين، ثم أُغلقت دونى أبواب ضخمة، ذات أقفال هائلة.. وبقيت هناك، حرًّا في أن أتجول وفق هـواى، من حجرة إلى أخرى، ومن طـابق إلى آخر، دون أن ألتقى في كل مكان بغير العزلة والتجرّد من الأثاث!

ولم يحملني كل هذا على أن أندم لاختياري المعـزل دون المركب، بل رحت أدبِّر أمورى - كما لو كنت « روبنسن »21 جديدًا - للأيام الثمانية والعشرين، وكانني كنت مقبـلًا على الإقامة طيلة العمر، وكنت أتسـلى - في البداية - باصطياد القمل الذي التقطته على المركب. فلما أصبحت نظيفًا في النهاية، بفضل تغيير الثياب الداخلية والخارجية، تحوَّلت إلى تأثيث الحجرة التي اخترتها، فصنعت حشية بديعة من ستراتي وأقمصتى، وملاءات من عدَّة مناشف خطت بعضها إلى بعض، وغطاء من إزاري المنزلي (الروب دى شامبر)، ووسادة من معطفي الذي لففته، واتخذت مقعدًا من إحدى حقيبتي بعـد أن وضعتها على أحد جانبيها العريضين، ومنضدة من الحقيبة الأخرى.



اتخذت مقعدا من احدى حقيبتي بعد أن وضعتها على أحد جانبيها
ين ومنضدة من الحقيبة الاخرى .

بعد أن أقمتها على أحد جانبيها الضيقين، وأخرجت ورقًا ومحبرة، ونسقت حوالي اثنى عشر كتابًا كنت أمتلكها، لتكون مكتبة. وقصارى القول أننى هيأت مقامى تهييئًا طيبـًا حتى انني كنت في ذلك المعزل العاري أنعم بإقامة تعدل إقامتى في مسكنى بساحة التنس في شارع (ديلا فيرديليه)، فيما عدا الستائر والنوافذ!.. وكانت وجباتي تُقدَّم في كثير من مظاهر الأبهة، إذ كان يرافقها جنديان شهرا حربتيهما في طرفي بندقيتيهما. وكان دهليز السلم بمثابة قاعة مائدتي، كما كانت عرصة السلم بمثابة مائدة، فإذا ما أُعدّ الغداء، دقَّ الذين أحضروه ناقوسًا - أثناء انسحابهم - لتنبيهي إلى أنه قد آن لى أن أجلس إلى المائدة.

وعندما كنت أنصرف عن القراءة أو الكتابة، أو استكمال تأثيث حجـرتي - بين الوجبـات - كنت أتمشى في مقبـرة البروتستانت، التي كانت بمثابة ساحة لمسكنى، أو أصعد إلى برج يطلّ على الميناء، حيث يتسنى لي رؤية السفن في دخولها وخروجها. وقضيت على هذا النسق أربعة عشر يومًا، وكنت قمينًا بأن أقضى الأيام العشرين بأسرها دون أن أضجر لحظة، لولا السيِّد دى « جونفيى » - المبعوث الفرنسي - الذي كنت قد تمكنت من أن أُرسل إليه خطابًا معبّقًا بالخل، ومعطرًا، وشبه محترق.. فقد أنقص مدة احتجازي ثمانية أيام، قضيتها في داره، حيث أعترف بأننى وجدت من راحة المقام ما لم أجده في معزلى.. وقد أبدى لي عطفًا قويًا، كما أن سكرتيره « ديبون » كان شابًا طيبًا، اصطحبني إلى بيـوت عديدة ـ سواء في جنـوا أو في الريف - حيث كانت التسرية موفورة. وقد وثقت معه روابط المعرفة والتراسل، التي ظللنا نرعاها ردحًا طويلًا من الزمن. وما لبثت أن استأنفت رحيلى - راضيًا مرتاحًا - مخترقًا سهل (لمباردي). وزرت (ميلان)، و (فيرونا)، و (بريسـيا)، و (بادوا)، ثم وصلت في النهاية إلى (البندقية)، حيث كان السفير في انتظاري، وهو نافد الصبر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووجدت أكداسًا من الرسائل - سواء من البلاط الملكي أو من السفراء الآخرين - لم يكن في وسع السفير أن يقرأ ما كُتب منها بالشفرة، برغم إنه كان يملك كافة مفاتيح الشفرة اللازمة لذلك. ولما لم أكن قد عملت قط في منصب من هـذا النـوع، ولا رأيت في حياتي شفرة حكومية، فقد خشيت - في البداية - أن أرتبك، ولكنني تبينت أنه لم يكن ثمة ما هو أسهل من ذلك.. وفي أقل من أسبوع، كنت قد حللت رموز الرسائل جميعًا، إذ أنها لم تكن - في الواقع - تستحق عناء. فقد كانت السفارة القائمة في البندقية قليلة العمل دائمًا، فضلًا عن أن مثل هذا الرجل - السيِّد دي مونتيجي - لم يكن ممن يُعهد إليهم بأية مفاوضات. ولقد كان في حيرة بالغة إلى أن وصلت، فما كان ليعـرف كيف يُملى رسـائله، ولا كيف يكتب بخط مقروء. ومن ثم فإني كنت عظيم النفع له، وقد شعر بذلك، فأحسن معاملتي. وكان ثمة باعث آخر حمله على ذلك، فلقد تولّى أعمال السفارة - بعد رحيل سلفه السيِّد دى فرولاى، الذي اختبل عقله - القنصل الفرنسي، الذي كان يُدعى السيِّد لوبلون، ثم واصل إدارتها منذ وصول السيِّد دى مونتيجى ريثما يدربه على نظام العمل. ولقد جنح السيِّد دي مونتيجي - في غيرته من أن سواه كان يؤدي عمله، برغم أنه كان عاجزًا عن أدائه بنفسه - إلى كراهية القنصل، فما أن قُـدِّر لي أن أصل، حتى جرَّده من مهام سكرتير السفارة، ليكلها إليَّ. ولما كانت هذه المهام غير منفصلة عن لقب « سكرتير السفارة »، فقد دعاني إلى أن أحمل هذا اللقب. وما أوفد - طيلة بقائي معه - أحدًا سواى بهذه الصفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى مندوبيه22. والواقع أنه كان من الطبيعي أن يفضل أن يكون في منصب سكرتير السفارة رجل تابع له، عن أن يكل هـذا المنصب إلى القنصل أو موظف كتابى معين بمعرفة البلاط.

ولقد أدَّى هذا إلى أن أصبح مركزى جد ملائم، ومنع أفراد بطانته، الذين كانوا من الإيطاليين - كما كان أتباعه ومعظم خدمه - من أن ينازعوني الأولوية في داره. وقد

استغللت بنجاح ما كان لهذا المركز من سلطان، في صون حقوقه الديبلوماسية، وأعني بذلك حصانة مقره ضد المحاولات التي بُذلت مرارًا عديدة لانتهاكها، والتي كان موظفوه - من أبناء البندقية - لا يحفلون بمقاومتها. ومن ثم فإنني لم أسمح قط للخارجين على القانون باللجوء إلى هذا المقر، بالرغم من أنني كنت خليقًا بأن أجنى من وراء ذلك نفعًا كبيرًا، ما كان صاحب السعادة ليتورّع عن مقاسمتي إياه!.. بل إنه جرؤ على أن يستبيح لنفسه حقوق السكرتيرية التي يُطلق عليها اسم « أعمال الديوان ». ومع أن الحرب كانت قائمة، إلا أن هذا لم يعف من إصدار عدد لا بأس به من جوازات السفر، وكان يدفع عن كل جواز منها، « سيكان »23 للسكرتير الذي ينجزه ويصدّق عليه. وقد اعتاد كل مَن سبقوني أن يتقاضوا هذا السيكان من الفرنسيين ومن الأجانب على السواء. بيد أنني وجدت هذا الإجراء غير عادل، ومع أنني لم أكن فرنسيًا، فإنني ألغيته بالنسبة للفرنسيين، وإن رحت أتقاضي حقي - في غير ما تساهل - من كل مَن عداهم. فلما أرسل لي المركيز سكوتي - شقيق الشخص الذي كانت له الحظوة لدى ملكة أسبانيا ـ يطلب يومًا جوازًا، دون أن يُرسل لي السيكان فطالبته به، وهو اجتراء لم ينسه قط ذلك الإيطالي المفطور على الانتقام. ومنذ أن أصبح هذا الاصلاح الذي أدخلته على الجوازات معروفًا، لم يعد يتقدّم للحصول على جوازات سوى جحافل من منتحلى الجنسية الفرنسية، الذين كانوا يزعمون ـ في رطانة محتملة - أن هذا من أقليم (بروفانس)، والآخر من (بيكار)، والثالث من (بيرجندى). ولما كنت قد أوتيت سمعًا مرهفًا، فإنني لم أكن أُخدع قط، وما أظن أن إيطاليًا واحدًا استطاع أن يسلبني « سيكاني »، أو أن فرنسيًا واحدًا دفعه لي. وكنت من الغباء بحيث أنبأت السيِّد دي مونتيجي - الذي لم يكن يعلم شيئًا عن أي شيء! - بما فعلت. فإذا كلمة « سيكان » تجعله يفتح أذنيه، وبدون أن يبدى لي رأيًا بصدد إلغاء الرسم للفرنسيين، طلب أن أسوى معه الحساب بشأن الآخرين، واعدًا إياى بمنافع في مقابل ذلك!.. ورفضت اقتراحه عن احتقار لضعته أكثر منى عن تأثّر من أجل مصلحتي، وألحَّ علىَّ، فإذا بغضبي يحتدم، وقلت في تحمّس شديد: « لا يا سيِّدي.. أن لسعادتك أن تحتفظ بما هو حق لك، ودع لى ما هو حقى، فلن أنزل عن « سو » واحد منه! ». وإذ رأى أنه لم يكسب شيئًا بهذه الوسيلة، عمد إلى وسيلة أخرى، ولم يخجل من أن يقول إننى ما دمت أحصل على مكاسب من أعمال ديوانه، فمن العدل أن أتحمل نفقات هذا الديوان. ولم أشأ أن أجادل في هذا الأمر، ومن ذلك الحين أخذت أبتاع من مالي المداد، والورق، وشمع الأختام، وشمع الإضاءة، والأشرطة، وما إلى ذلك.. حتى خاتم الدولة الذي أصلحته، دون أن يدفع من نفقات إصلاحه شيئًا!.. ولم يحل هذا دون أن أعين جزءًا صغيرًا من إيراد عملية الجوازات للراهب دي بيني، الذي كان شابًا طيبًا، والذي كان أبعد من أن يطلب لنفسه شيئًا من هذا القبيل. وإذا كان قد تلطف نحوى، فإنني لم أكن أقلّ كرمًا نحوه، ومن ثم فقد عشنا معًا في وئام على الدوام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد وجدت عملي ـ إذ مارسته - أقل إرهاقًا مما توقّعت بالنسبة لرجل عديم الخبرة، قُدِّر له أن يعمل مع سفير لم يكن يفوقه في شيء، بل إنه كان بجهله وعناده يعرقل - وكأنما كان يسر بهذه العرقلة ـ كل ما كان يلهمنيه الادراك السليم وبعض أضواء المعرفة لأتقن خدمته وخدمة الملك!.. وكان أكثر أعماله انطواء على إدراكي، هو ارتباطه بالمركيز دي « مارى »، سفير أسبانيا، الذي كان بارعًا، أريبًا، وكان بوسعه أن يقوده من أنفه إلى حيث شاء، لولا أنه - نظرًا لارتباط مصالح التاجين - كان يمحضه عادة خير النصح، فكان الآخر يضيع نفع هذا النصح، إذ كان دائمًا يدس عليه بعض آرائه الخاصة عند التنفيذ!.. وكان الشيء الوحيد الذي اشتركا في عمله، هو إغراء البندقيين بالتزام الحياد. وكان هؤلاء لا يكفّون عن إدعاء الأمانة في صون الحياد، مع أنهم كانوا يمدّون الجنود النمسويين -علانية - بالذخائر، بل وبالمجندين الذين كانوا يزعمون أنهم هاربون من قواتهم.. أما السيِّد دي مونتيجي - الذي

أعتقد أنه كان يبغى إرضاء الجمهورية24 ـ فلم يكن يتوانى، بالرغم من بياناتي عن أن يحملني على أن أؤكد في كل رسائله أنها لم تكن تنتهك الحياد إطلاقًا. وكان عناد هذا الرجل المسكين وغباؤه يضطرانني إلى أن أكتب وأرتكب - في كل لحظة - سخافات كنت مجبرًا على أن أكون الوسيط فيها، ما دامت هذه رغبته، ولكنها كانت - في بعض الأحيان - تجعل أداء واجباتي أمرًا لا يُطاق.. بل أمرًا غير ميسور عمليًا!.. مثال ذلك: أنه كان يصرّ اصرارًا مطلقًا على أن يكون الشطر الأكبر من رسائله إلى الملك ورسائله إلى الوزير مكتوبًا بالشفرة، برغم أن أيًّا من هذه أو من تلك لم يكن يشتمل على شيء ما يجعل مثل هذه الحيطة لازمة!.. ولقد أوضحت له أنه لم يكن ثمة وقت كاف بين يوم الجمعة - الذي كانت رسائل البلاط تصل فيه - ويوم السبت - الذي كانت رسائلنا تصدر فيه - لكتابة هذه بالشفرة، ولكتابة الكمية الكبيرة من الرسائل التي كان عليَّ أن أعدّها ليحملها البريد في اليوم ذاته. فابتكر لذلك خطة بديعة، تلك هي أن أعد - في يوم الخميس - ردود الرسائل التي يكون مقدَّرًا لها أن تصل في اليوم التالي!.. ولقد تراءت له هذه الفكرة موفقة - بالرغم مما وسعني أن أقوله عن استحالة، بل وسخف، تنفيذها - حتى إنه حتم اتباعها، فلم أكن أخفق قط، طيلة المدة التي مكثتها معه بعد ذلك - في أن أحمل إليه في صباح يوم الخميس، مسودة مصوغة من الكلمات القلائل التي كان يلقيها في مناسبات عابرة خلال الأسبوع، والتي كنت أسجّلها في مفكرتي، ومن بعض البيانات والأخبار البسيطة التي كنت ألتقطها من هنا ومن هناك، لأتزوَّد بها في هذه المهمة العجيبة!.. أقول إنني لم أخفق قط في أن أقدِّم إليه في صباح يوم الخميس مسودة للرسائل التي ينبغى تصديرها في يوم السبت، فيما عدا بعض إضافات أو تعديلات كنت أؤديها في عجلة، على ضوء الرسائل التي تصل في يوم الجمعة، والتي كانت رسائلنا تُعتبر ردًّا لها!

وكانت له نزوة أخرى، غاية في الطرافة، أضفت على مراسلاته صبغة مضحكة لا سبيل إلى وصفها: تلك هي إرسال كل نبأ إلى مصدره، بدلًا من تركه يأخذ مجراه العادي.. فكان يُرسل الأنباء الواردة عن البلاط إلى السيِّد اميلو25، وتلك الواردة عن باريس إلى السيِّد دي موريبا، وتلك المتعلقة بالسويد إلى السيِّد دافرينكور، وتلك الخاصة ببطرسبورج إلى السيِّد ديلاشيتاردى.. بل أنه كان يُرسل إلى كل منهم أحيانًا الأنباء الواردة منه هو بالذات، والتي كنت أجرى تعديلات طفيفة عليها!.. ولما كان قد اعتاد أن يُلقى نظرة على الرسائل الموجَّهة إلى البلاط وحدها - دون بقية ما كنت أحمله إليه ليوقعه - فإنه كان يوقِّع الرسائل الموجَّهة إلى السفراء الآخرين دون أن يقرأها، مما جعلني أكثر مقدرة على أن أصوغ هذه الأخيرة وفقًا لمزاجي، أو - على الأقل - على أن أبدِّل من الأنباء، فلا أوجِّه لكل منهم عين الأنباء التي سبق أن أرسلها!.. بيد أنه كان من المستحيل عليَّ أن أصوغ الرسائل الهامة في أسلوب معقول، بل إنني كنت أعتبر نفسي سعيدًا، إذا لم يخطر بباله أن يُدخل عليها بضعة أسطر متعجلة من وحى أفكاره. فقد كان هذا يضطرني إلى العودة إلى نسخ الرسالة التي زانها بهذه السخافة الجديدة.. السخافة التي كان لابد من تكريمها بنسخها - بسرعة - بالشفرة، إذ أنه لم يكن يوقِّع الرسالة بدونها!.. ولقد راودني الإغراء عشرين مرة - مراعاة لسمعته - بأن أنقل بالشفرة شيئًا غير الذي قاله، ولكني كنت أدرك أن ليس ثمة ما يبيح لى إطلاقًا مثل هذا الانحراف عن الأمانة، فكنت أدعه يهذي على مسئوليته، قانعًا بأن أصارحه برأيي، وبأن أؤدى الواجب المفروض عليَّ نحوه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهذا ما حرصت على أن أفعله دائمًا بأمانة وجلد وحمية كانت تستحق جزاء غير ذاك الذي تلقيته في النهاية.. كان قد حان لكي أكون - ولو لمرة واحدة - كما هيَّأتني السماء التي أنعمت عليَّ بفطرة طيبة، وكما أهلتني التربية التي تلقيتها على أيدي أفضل النساء وتلك التي أتحتها لنفسي.. وهذا ما حدث فعلًا!. فقد كنت وحيدًا، بلا أصدقاء ولا ناصحين، وبلا

تجربة، في بلد أجنبي، وفي خدمة أمة أجنبية، وفي وسط ثلة من الأنذال الذين كانوا يستحثونني على أن أحذو حذوهم في سبيل مصلحتهم، ومن أجل التخلّص من عار وجود مثل صالح بينهم.. على أننى بدلًا من أن أفعل أي شيء من هذا القبيل، أخلصت الخدمة لفرنسا - التي لم أكن مدينًا إليها بأي واجب - وكنت أكثر إخلاصًا في خدمة السفير في كل ما كان موكولًا إلىّ، كما ينبغي أن يُقال بحق!.. وإذ لم يكن ثمة ما يؤخذ علىَّ في منصب كهذا، جد مكشوف للأنظار المتطلعة، فقد استحققت وظفرت بتقدير حكومة الجمهورية26، وتقدير السفراء الذين كنا نتبـادل معهم الرسائل، وحب كل الفرنسيين المقيمين في البندقية. ولم يشذ عن ذلك القنصل الذي خلفته - للأسف - في المهام التي كنت أدرك أنها من حقه، والتي جلبت علىّ من المتاعب أكثر مما جلبت من السرور!

وإذ انصاع السيِّد دى مونتيجى دون تحفُّظ للمركيز دى « ماري » -الذي لم يكن ليهتم بتفصيلات واجبات السفير الفرنسي - أهمل هذه الواجبات إلى درجة أنه لم يكن من المحتمل أن يدرك الفرنسيون - الذين كانوا في البندقية - أن لفرنسا سفيرًا مقيمًا في المدينة، لولاي أنا!.. ولما كانوا دائمًا يُطردون دون ما استماع إلى شكواهم - كلما نشدوا حمايته - فإنهم أصبحوا يزدرونه، ولم يُر واحد منهم قط في معيتـه أو على مائدته، التي لم يكن - في الواقع - يدعوهم إليها إطلاقًا. وكنت كثيرًا ما آخذ على عاتقى أداء ما كان ينبغي على رئيسي أن يؤدّيه، وأؤدّي للفرنسيين - الذين كانوا يلجئون إليه أو إلىَّ أنا - كل ما كان في طوقي من خدمات. ولقد كنت خليقًا بأن أفعل فوق ما كنت أفعل، لو أنني كنت في أي بلد آخـر.. ولكنني لم أكن أملك - بحكم منصبي - أن أقابل أي شخص من ذوو النفوذ، فكنت كثيرًا ما أضطر إلى أن ألجأ إلى القنصل.. وكان لدى القنصل من دواعي الحذر - نظرًا لاستقراره مع أسرته في البلد - ما كان يمنعه من أن يفعل كل ما كان يهوى.. على أنني كنت أجسر أحيانًا ـ عندما أراه صامتًا لا يجرؤ على الكلام - على الاقدام على تصرفات خطرة، قُدِّر لى التوفيق في كثير منها. وإني لأذكر مغامرة منها، لا تزال ذكراها تحملني على الضحك وما أظنه يخطر ببال أحد، أن رواد المسرح بباريس مدينون لي بكورالين وأختها كايي، وإن لم يكن ثمة ما هو أصدق من هذا. فلقد تعاقد « فيرونيز » - أبوهما - على الانضمام وابنتيه إلى الفرقة الإيطالية. وبعد أن تسلَّم ألفي فرنك لنفقات الرحلة، لم يسافر وإنما انضم ببساطة إلى مسرح « سان لوك »27 بالبندقية، حيث اجتذبت كورالين - برغم أنها كانت لا تزال طفلة - كثيرًا من الناس. فكتب السيِّد الدوق دى جيفر - الأمين الأوّل للديوان الملكي - إلى السفير مطالبًا بالأب وابنتيه، وأسلمني السيِّد دي مونتيجي الخطاب، وكانت كل التعليمات التي زوَّدني بها، هي: « انظر هـذا الأمر! ». فذهبت إلى السيِّد لوبلون، ورجوته أن يخاطب السيِّد الذي كان يمتلك مسرح « سان لوك »، والذي كان من أعضاء مجلس الشيوخ - ويُدعى، على ما أظن، « جستنياتى » - فيقنعه بأن يسرح فيرونيز، الذي كان متعاقدًا لخدمة الملك. ولم يكن لوبلون متحمسًا للمهمة، فأساء أداءها، وتعلل « جستنيانى » بمختلف الحجج، فلم يسرّح فيرونيز. واغتظت.. وكنـا في « الكرنفال »، فاستقللت زورقًا وقد تقنعت، وذهبت إلى قصر « جستنيانى ». وبُهت كل مَن رآني في جندولي وأنا في ثيابي الرسمية، إذ أن البندقية لم تر شبيهًا لهذا العمل من قبل. ودخلت القصر، وأوحيت بأن يُعلن السيِّد بمقدمي على أننى « السيِّدة ذات القناع »، وما أن دخلت عليه، حتى أزحت قناعي، وأعلنت اسمى، فامتقع وجـه عضـو الشيوخ، وجمد مشدوهًا. وإذ ذاك قلت له في لهجة أبنـاء البندقية: « سيِّدي، يؤسفني أن أزعج سعادتك بزيارتي، ولكن في مسرح « سان لوك » - التابع لك - رجـلًا يُدعي فيرونيز، تعاقد على خدمة الملك، وقد طولبت به دون جدوى. لذلك جئت أطالب به باسم صاحب الجلالة! ». وأحدث هذا القول - على إيجازه - أثرًا. فلم أكد أنصرف، حتى هـرع صاحبنا إلى محققى الدولة القضائيين، الذين أوضحوا له الموقف، ففصل فيرونيز في اليوم ذاته. وكان أن أوفدت إلى هذا مَن أنذروه بأنه إذا لم يرحل في خلال أسبوع، فسوف أعمل على إلقاء القبض عليه.. ومن ثم رحل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي مناسبة أخرى، أنقذت ربّان سفينة تجارية من مأزق، بجهودي وحدها، ودون معونة أي شخص تقريبًا. وكان الربّان من أبناء (مارسيليا)، ويُدعى « أوليفييه »، وقد نسيت اسم السفينة، فقد اشتجر ملاحوه مع « الاسكلافونيين »28 الذين كانوا في خدمة الجمهورية. وكان من جراء الشعب الذي ارتكب، أن احتجزت السفينة وفُرضت عليها تحفظات بلغ من قسوتها أن أحدًا - سوى الربّان - لم يكن يملك أن يصعد إليها أو أن يغادرها دون إذن. ولجأ الربّان إلى السفير، الذي صرفه في جفاء، فلجأ إلى القنصل، ولكنه قال له إن مسألته لم تكن مسألة تجارية، وأنه لا يملك التدخل. وإذ لم يدر الرجل ما يفعله بعد ذلك، جاءني فأوضحت للسيِّد دى مونتيجي أن عليه أن يسمح لي بأن أرفع مذكرة إلى مجلس الشيوخ. ولست أذكر ما إذا كان قد أذن لي، ولا ما إذا كنت قد قدّمت المذكرة، وإنما أذكر تمامًا أن المساعي التي بذلتها لم تنته إلى شيء، وظلّ التحفّظ قائمًا، فلجأت إلى عمل حازم قُدِّر له النجاح، إذ أوردت بيانًا عن هذه المسألة في رسالة إلى السيِّد دى « موريبا »، وإن لقيت عناءً كبيرًا في إقناع السيِّد دي مونتيجي بأن يجيز هذا البيان. وكنت أعرف أن رسائلنا كانت تُفتح في البندقية - برغم أنها لم تكن تستحق هذا العناء - إذ كنت أملك الدليل على ذلك، فمثلًا في الفقرات التي اعتدت أن أجدها منقولة بالنص في الصحيفة الرسمية.. وهو لون من عدم الأمانة حاولت عبثًا أن أحمل السفير على أن يحتج عليه. وكانت غايتي من الحديث عن هذا الحادث المكدر في الرسالة، هي أن أستغل فضول سلطات البندقية، لكي أرهبهم وأحملهم على أن يطلقوا سراح السفينة.. فإن الربّان كان مسوقًا إلى الإفلاس قبل أن يصدر رد البلاط عن هذه المسألة، لو أنه أضطر لانتظار هذا الرد.. بل إنني أقدمت على إجراء آخر، إذ زرت السفينة لأستجوب الملاحين، واصطحبت الراهب « باتيزيل » - كاتم أسرار القنصل - الذي لم يأت إلا كارهًا. فقد كان هؤلاء المساكين جميعًا يخشون أن يغضبوا مجلس الشيوخ. ولما لم يكن بوسعنا أن نصعد إلى سطح السفينة، بسبب الحظر المفروض، فقد بقيت في جندولي، وقمت بالتحقيق من هناك، موجِّهًا أسئلتي بصوتٍ مرتفع، وإلى كل الملاحين تباعًا، وقد صغت هذه الأسئلة بحيث تستدعي إجابات في صالحهم. ولقد حاولت أن أحمل باتيزيل على أن يسألهم وأن يعد التقرير بنفسه، وهو أمر كان من مهامه - في الواقع - أكثر مما كان من مهامي، ولكنه لم يشأ أن يوافق على ذلك إطلاقًا، ولم ينبس بكلمة واحدة، بل أنه كاد يأبي أن يوقع التقرير بعد أن وقعته أنا.. على أن هذه الخطة - المنطوية على شيء من الجرأة - كانت موفقة للغاية، فأُفرج عن السفينة قبل أن يصل جواب الوزير بوقتٍ طويل. وأراد الربّان أن يُقدِّم لى هدية، فقلت له وأنا أدق كتفه، دون أن أبدى استياء « كابتن أوليفييه، أتظن أن رجلًا لا يتقاضى من الفرنسيين رسم الجوازات - وهو حق مقرَّر له - يرضى أن يتقاضاهم ثمن حماية الملك؟ ».. ورغب الربّان في أن أتناول الغداء معه على سطح السفينة - على الأقل - فقبلت مصطحبًا سكرتير السفارة الأسبانية، المدعو « كاريو » - وكان رجلًا ذكيًا بالغ اللطف، غدا بعد ذلك سكرتيرًا للسفارة الأسبانية في باريس، وقائمًا بالأعمال فيها.. وقد كنت مرتبطًا معه بروابط من الود، تماثل تلك التي كانت بين سفيرينا!

ولقد كنت خليقًا بأن أغدو سعيدًا، لو أنني عرفت - إذ رحت أفعل كل ما وسعنى من خير، في أتم تجرد من المصلحة الذاتية - كيف أدخل قدرًا كافيًا من النظام والانتباه على كل هذه المسائل الدقيقة، حتى لا أغدو مستغفلًا، فأخدم الغير على حساب مصالحى!.. ولكن أتفه الأخطاء في منصب - كذاك الذي كنت أشغله - لا تمرّ دون تبعات، ومن ثم فقد كنت أستنزف كل انتباهي في الجهد لتفادي أية أخطاء مضادة لعملي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد كنت - في كل ما يتعلّق بواجبي الرئيسي منظمًا إلى أقصى درجات النظام، ودقيقًا

إلى أقصى درجات الدقـة. وفيما عدا بضعة أخطاء اضطرني التعجّل المفرط إلى ارتكابها في صوغ الشفرة - وقد اشتكى منها معاونو السيِّد اميلو ذات مرة - لم يأخذ عليَّ السفير، أو أي امرىء سواه، اهمالًا في أداء أي واجب من واجباتي، وهو أمر كان جديرًا بالملاحظة بالنسبة لرجل شديد الإهمال وشديد التهور مثلي.. بيد أننى كنت أغفل وأهمل في تصرفي في المسائل الخاصة التي كنت آخذها على عاتقي - أحيانًا - فكان حب الانصاف يجعلني أتحمل دائمًا اللوم من تلقاء نفسي، قبل أن يفكِّر أي امرىء في أن يشكو منه!.. ولن أذكر - في هذا المجال - سوى حادث واحد، كان له أثر في رحيلي عن البندقية، وقُدِّر لي أن أشعر بآثاره ـ بعد ذلك ـ في باريس!

ذلك أن طاهينا - وكان يُدعى « روسيلو » - أحضر من فرنسا سندًا قديمًا بمائتي فرنك، كان أحـد صنَّاع الشَعر المستعار - من أصدقائه -قد تسلّمه من نبيل بنـدقى يُدعى « جانيتو نانى »، في مقابل قلنسوات من الشعر المستعار. وأحضر لى « روسيلو » هذا السند، ورجاني أن أحاول عمل أي شيء بصدده، بالإجراءات السليمة. وكنت أعرف - كما كان يعرف هو الآخر - أن العادة التي كانت متبعة لدى نبلاء البندقية، هي ألَّا يدفعوا قط أية ديون تحملوها في الخارج، ما داموا قد عادوا إلى وطنهم. فإذا بُذل أي سعى لقسرهم على الدفع، أرهقوا الدائن التعس بالارجاء الطـويل المتكرِّر، وبالنفقات، حتى تثبط عزيمته، ولا يلبث أن يعدل - في النهاية - عن المطالبة، أو يقبل أية تسوية ضئيلة!. ورجوت السيِّد لوبلون أن يتحدَّث إلى « جانيتو » فاعترف هذا بالورقة، ولكنه أبى أن يدفع قيمتها. وبعد كفاح طويل، وعده بأن يدفع ثلاثة « سيكانات ». فلما حمل إليه لوبلون السند، لم تكن السيكانات الثلاثة حاضرة، فلم يكن ثمة بد من الانتظار.. وفي خلال هذه المهلة، دبَّ الخلاف بيني وبين السفير، فخرجت من خدمته. وقد تركت أوراق السفارة في أتم نظام، ولكن سند « روسيلو » لم يوجد بينها قط. وأكَّد لي السيِّد لوبلون أنه كان قد ردَّه إليَّ، وكنت أعرف أنه من النبل بحيث لا يرقى إليه الشك، ولكنني عجزت عن تذكر ما جرى لهذا السند. ولما كان جانيتو قد أقرَّ بالدين، فقد رجوت السيِّد لوبلون أن يحاول الحصول منه على السيكانات الثلاثة في مقابل ايصال، أو أن يستدرجه إلى تجديد السند بنسخة أخرى منه، ولكن « جانيتو » رفض الأمرين، إذ علم بضياع السند.. فعرضت على روسيلو السيكانات الثلاثة ـ من جيبي الخاص ـ كسداد للسند، ولكنة أبى أن يأخذها، وأخبرني أن أسوي الأمر مع الدائن الباريسي، الذي أعطاني عنوانه. ولكن صانع الشعر المستعار، طالب بسنده أو بدينه كاملًا، إذ علم بما حدث. فما الذي كنت أضن به - في سورة غيظي - في مقابل العثور على هذا السند اللعين؟!.. ودفعت المائتي فرنك من مالي، في وقت كنت فيه في أشدّ الضيق المالي. وهكذا كان ضياع الوثيقة سببًا في حصول الدائن على دينه كاملًا، في حين أنه لو كان قد تسنى - لسوء حظه - العثور على السند، لوجد عناء في انتزاع العشرة « ايكو »[29] الموعودة من صاحب السعادة جانيتو نانى!

ولقد جعلتني المقدرة - التي استشعرتها في نفسي - على أداء عملي، مفعمًا بالميل إليه.. وفيما عدا صحبتي لصديقي « كاريو »، وللفاضل « التونا » - الذي لن ألبث أن أتحدَّث عنه - وفيما عدا بعض ألوان الترويح البريئة ـ التي تمثلت في التردد على ساحة سان مارك وعلى المسرح - وبعض زيارات كنا نقوم بها سويًا في أغلب الأحيان.. فيما عدا ذلك، كانت واجباتي هي الأسباب الوحيـدة للتسلية والمتعة. ومع أن عملي لم يكن شاقًّا أكثر مما ينبغي، لا سيما إزاء العون الذي كنت ألقاه من الراهب دى « بيني »، إلا أن مراسلاتنا كانت كثيرة جدًّا، كما أننا في فترة حرب، ومن ثم فلم تكن تعوزنى الشواغل، بل كنت أقضى شطرًا كبيرًا من النهار في العمـل - في كافة الأيام - كما أنني كنت أعمل، في أيام البريد، إلى منتصف الليل أحيانًا. وكنت أكرّس بقية الوقت لدراسة المهنة التي شرعت في ممارستها، والتي كنت - على ضوء البداية الناجحة - أعول كثيرًا على أن أبلغ فيها منصبًا طيبًا فيما بعد.. والواقع أنه لم تكن ثمة سوى فكرة واحـدة عنى لـدى الجميع، ابتداء من

السفير الذي كان راضيًا عن خدماتى رضاءً تامًا، فلم يشك منها قط.. وما جاء كل الغضب ـ الذي ثار فيما بعد ـ إلا عن أننى حين ألفيت شكاياتي لا تلقى أذنًا سامعة، طلبت إعفائي من العمل. وكان كل سفراء الملك ووزرائه - الذين كنا على تراسل معهم - يهنئونه على كفاءة سكرتيره، وهو ما كان يجب أن يثير اعتزازه، ولكنه أحدث أثرًا عكسيًا في رأسه السيء التفكير. وكانت بين هذه التهانيء واحدة بالذات، تلقاها في ظرف حرج، فلم يغتفرها لي قط. وهي جديرة بأن أتكبد عناء شرحها.

وذلك أنه كان قليل المقدرة على مقاومة ما يضايقه، حتى أنه في يوم السبت ذاته ـ وهو يوم ارسال كل الرسائل تقريبًا - لم يكن ليقوى على الصبر عن الخروج ريثما ينتهي العمل، وإنما كان يستحثني باستمرار متعجلًا رسائل الملك والوزراء، ليوقعها في عجلة، ثم يهرع إلى حيث لم أكن أدرى، تاركًا معظم الرسائل الأخرى بدون توقيع، مما كان يضطرّني - عندما لا تكون هناك سوى أخبار عادية - إلى أن أصوغها في قالب نشرات الأخبار.. أما حين تكون هناك مسائل متعلقة بخدمة الملك، فقد كانت الضرورة تدعو إلى توقيع الرسائل، فكنت أتولى توقيعها بنفسي. وقد فعلت ذلك بصدد رسالة هامة كنا قد تسلّمناها من السيِّد « فانسان »، القائم بأعمال الملك في (فيينا). وكان ذلك في الوقت الذي سار فيه الأمير لوبكوفيتش، زاحفًا على (نابولي)، والذي قام فيه الكونت دى جاج بتقهقره الذي لا ينسى، والذي كان أروع عمل عسكري في القرن كله، وكان حديث أوربا. وكان النبأ الذي بلغنا، هو أن رجلًا - أرسل إلينا السيِّد فانسان أوصافه - كان قد غادر (فيينا)، معتزمًا المرور بالبندقية، قاصدًا متخفيًا - إلى (أبروتسي) ليعمل على إثارة الناس عند اقتراب النمسويين. ونظرًا لغياب السيِّد دي مونتيجي - الذي لم يكن ليهتم بشيء - فإنني أرسلت إلى السيِّد المركيز « ديلوبيتال » هذا النبأ الذي كان في وقته المناسب، حتى ليحتمل أن يكون آل « بوربون » مدينين إلى جان جاك المغبون بفضل الابقاء على مملكة نابولي!

وإذ شكر المركيز ديلوبيتال زميله - كما كان ينبغي - امتدح له سكرتيره30 والخدمات التي أدَّاها للقضية المشتركة، فإذا الكونت دي مونتيجي - الذي كان جديرًا بأن يلوم نفسه على إهماله في هذه المسألة - يخال أنه يلمح لومًا خلال هذه التهنئة، فحدَّثني عنها في استياء. وكنت قد أقدمت على أن أفعل مع الكونت دى كاستيلان - السفير الفرنسي في القسطنطينية - ما فعلته مع المركيز ديلوبيتال، وإن كان النبأ أقل أهمية. وإذ لم تكن ثمة وسيلة لإرسال البريد إلى القسطنطينية سوى الرسل الذين اعتاد مجلس الشيوخ أن يوفدهم من آنٍ إلى آخر إلى « بايله »31، فقد كان السفير الفرنسي يُنبأ بمواعيد رحيل هؤلاء الرسل، ليتمكن من الكتابة إلى زميله إذا رأى داعيًا لذلك. وكان هذا الاخطار يصدر قبل الرحيل بيوم أو اثنين، ولكن السيِّد دي مونتيجي لم يكن يلقى اعتبارًا كافيًا، ومن ثم فقد كانوا يكتفون باخطاره قبل رحيل البريد بساعة أو اثنتين، لمجرَّد مراعاة الشكليات!.. وكان هذا يضطرني ـ في كثير من المرات - إلى أن أعد الرسالة في غياب السفير. وكان السيِّد دى كاستيلان يذكرني - في رده - بعبارة التكريم، وكذلك كان السيِّد دى جونفيي - في جنوا - يفعل، فكان كل تعبير عن حسن رأيهما في شخصي، سببًا لخلافات جديدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأعترف بأنني لم أحاول أن أتحاشى فرصة التعريف بنفسي ولكنني لم أكن أسعى إلى ذلك في غير المناسبات اللائقة. وكان يبدو لي أن الانصاف يبيح لي - إذ أحسن الخدمة - أن أطمع في الجزاء الطبيعي للخدمات الطيبة، ألا وهو التقدير من أولئك الذين كانوا يملكون تقديرها ومنح الجزاء عنها. ولست أملك أن أقول ما إذا كانت دقتي في أداء مهامي كانت - في نظر السفير - سببًا مشروعًا للشكوى والاحتجاج، ولكن الذي أملك أن أقوله هو أن هذه الشكوى كانت الشكوى الوحيدة التي اعتاد أن يرددها إلى يوم فراقنا!

وكانت داره - التي لم يكن يحسن إدارتها إطلاقًا - مليئة بالسفلة: كان الفرنسيون يلقون هناك أسوأ معاملة، بينما كانت للإيطاليين المكانة العليـا.. وحتى فيما بين هؤلاء، كان المستخدمون الصالحون الذين ألحقوا منذ وقت طويل بخدمة السفارة، يُطردون في غير ما إنصاف، وكان من هؤلاء المستشار الأوَّل للسفير، الذي شغل المركز نفسه في عهد سلفه الكونت دى فرولاى، والذي كان يُدعى ـ على ما أعتقد - الكونت « بياتي »، أو ما يقرب من هذا الاسم.. أما المستشار الثاني - وكان السيِّد دي مونتيجي هو الذي اختاره بنفسه - فكان شقيًا من (مانتوى)، يُدعى « دومينيك فيتالي »، وقد عهد إليه السفير بشئون داره، فاستطاع بالتملق وبالشح الخسيس أن يكتسب ثقته ويغدو أثيرًا له، مما أضرّ بمن كان قد ظلَّ بالدار من أمناء قلائل، وبالسكرتير الذي كان على رأسهم.. وعين الرجل الشريف أمينه، تثير دائمًا قلق اللئام. وقد كان هذا وحده كافيًا لأن يجعل هذا الرجل يكرهني، بيد أن كراهيته كانت ترجع - كذلك - إلى سبب آخر ضاعف منها إلى حد كبير. ولا بد لي من أن أبدى هذا السبب، ولكم أن تدينوني إذا كنت مخطئًا!

ذلك أنه كان للسفير - وفقًا لتقليد راسخ منذ أمد طويل ـ مقصورة في كل من المسارح الخمسة. وكان يعين - على مائدة الغداء، في كل يوم - المسرح الذي يعتزم الذهاب إليه، فكنت أنا الذي يليه في الاختيار، على أن يأخذ المستشارون المقصورات الأخرى. وكنت آخذ - عند انصرافي - مفتاح المقصورة التي اخترتها. ففي ذات يوم، لم يكن فيتالي - الذي كان يحتفظ بالمفاتيح - موجودًا، فعهدت إلى ساع كان في خدمتي، بأن يحضر لي مفتاحي في دار عينتها له. ولكن فيتالي لم يُرسل المفتاح، بل قال إنه قد تصرَّف في شأنه. ومما زاد من غيظي، أن الساعي أدلى بهذا النبأ أمام الملأ. فلما كان المساء، حاول فيتالي أن يتقدَّم ببضع كلمات يعتذر بها، ولكنني لم أنصت إليه، بل قلت له: « تعال غدًا أيها السيد، فقلها في نفس الساعة، وفي نفس الدار التي تلقيت أنا الاهانة فيها، وأمام الناس الذين شهدوها.. وإلا، فسوف أطالب بعد غد - ومهما يكن ما يحدث - بأن يغادر أحدنا هذه السفارة! ». وأفحمته لهجتى الحاسمة، فجاء إلى الدار في الساعة المحددة، واعتذر علانية، في صغار يليق به ولكنه راح يرسم خطته على مهل. وبينما كان يبدى لي احترامًا بالغًا، راح يعمل على شاكلة الإيطاليين32 ومع أنه لم يستطع أن يحمل السفير على فصلى، إلا أنه اضطرني إلى أن أستقيل من تلقاء نفسي!

ومن المحقق أن مثل هذا الوغد لم يكن أهلًا لأن يعرفني، ولكنه عرف عنى ما كان يخدم أغراضه.. عرف أننى كنت من الطيبة واللين بحيث أحتمل المظالم غير المقصودة، وأننى من الكبرياء بحيث لا أحتمل الاهانات المتعمدة، وأنني أحب التواضع والوقار في المناسبات الملائمة، وأنني لم أكن أقل حرصًا على ما ينبغي لي من تكريم، منى على أداء ما هو واجب علىَّ منه للغير.. وهذا ما استغله ووفق بفضله إلى مضايقتي. فقد قلب السفارة رأسًا على عقب، وأزال منها ما كنت قد بذلته لصون الأصول، وترتيب المراكز، والدقة، والنظام. والبيت إذا خلا من امرأة، احتاج إلى قواعد للنظام أقسى بقليل مما يحتاج إليه سواه، في سبيل التمكين للاحتشام من أن يسوده مقترنًا بالكرامة والوقار. أما هذا الرجل، فإنه سرعان ما جعل من دارنا مباءة للخلاعة والفجور، ووكرًا للأنذال والفاسقين. وخلع منصب المستشار الثاني33 على قواد34 مثله، كان يمتلك دارًا للدعارة35 في (كروا دى مالت) - صليب مالطة - فكان هذان اللئيمان في وئام تام، وعلى وقاحة تعادل فجورهما!.. فلم يعد في الدار ركن واحد يليق برجل شريف، فيما عدا غرفة السفير وحدها.. بل إن هـذه أيضًا لم تكن كما ينبغي!

ولما كان صاحب السعادة قد اعتاد ألَّا يتناول عشاء قط، فقد كانت تُمد لنا - المستشارين وأنا - مائدة خاصة في المساء، يجلس إليها الراهب دى بيني والسعاة كذلك. وكان المرء حريًّا بأن يلقى في أحقر الحانات خدمة أكرم، وأدوات للمائدة أنظف، وطعامًا أحسن مما

كان يُقدَّم إلينا إذ ذاك!.. فما كنا لنحظى بغير شمعة واحدة صغيرة سوداء، وصحاف من القصدير، وشوكات من الحديد. ولقد كنت خليقًا بأن أتحمَّل ما كان يدور في السر، لولا أننى حُرمت من جندولى، فأصبحت الوحيد - بين سكرتيرى السفراء - الذي يضطر إلى أن يستأجر جندولًا أو أن يسير على قدميه. ولم يكن يرافقني - إذا ما أوفدت إلى مجلس الشيوخ - سوى خدم صاحب السعادة السفير36. وإلى جانب هذا، كان كل ما يحدث في السفارة لا يخفى على أهل المدينة، فقد كان كل موظفي السفير يرفعون عقائرهم بتلك الأنباء. وكان « دومينيك » - السبب الأوحد في كل هذا - هو أكثرهم إمعانًا في رفع صوته!.. فقد كان يعلم أن المعاملة غير الكريمة التي كنا نلقاها، إنما كانت تمسنى أكثر مما تمس سواى. وكنت الوحيد - من موظفي الدار - الذي يتورع عن الكلام خارجها، ولكنني كنت أرفع صوتي بالشكوى للسفير.. لا مما كان يجرى فحسب، بل منه هو نفسه كذلك إذ كان - بفضل التحريض الخفي من مستشاره الخبيث - يوجِّه إلىَّ في كل يوم إهانة جديدة. ولما كنت مضطرًا إلى الانفاق عن سعة لكي أظهر في مستوى أقراني، وفي مظهر يليق بمنصبي، فإنني لم أستطع أن أدخر « سو » واحدًا من مخصصاتي، وكنت إذا ما طلبت من السفير نقودًا، راح يحدثني عن تقديره وثقته، وكأن هذا كاف لأن يملأ جيبي ولأن يمدني بكل حاجاتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وانتهى هذان الشقيان37 إلى أن عبثا برأس سيّدهما الذي لم يكن سليم التفكير أصلًا، فقاداه إلى الإفلاس عن طريق استدراجه باستمرار إلى شراء سلع زائفة كانا يقنعانه بأنها تحف أثرية. كما حملاه على أن يستأجر قصرًا - في (برينتا) - بأجر يعادل ضعف قيمته، واقتسما الفرق مع المالك. وكانت الغرف مبطنة بالقيشاني، ومزدانة بأعمدة وأركان من أجمل أنواع الرخام، وفقًا للطراز الذي كان شائعًا في البلاد. ولقد عمد السيِّد دي مونتيجي إلى تغطية كل هذه الزخارف، بألواح من خشب الصنوبر، متعللًا بحجة عجيبة، هي أن هذا هو الذي كان متبعًا في الدور الباريسية!.. ولحجة أخرى كهذه، كان هو السفير الوحيد - في البندقية - الذي جرَّد سعاة سفارته من السيوف، وخدمه الخصوصين من العصى.. هكذا كان الرجل الذي راح يكرهني، لمجرَّد أنني كنت أخدمه بأمانة. ولعله كان صادرًا في ذلك عن تفكير مشابه لنفس التفكير الذي حمله على التصرفات السالفة الذكر!

ولقد كنت أحتمل صابرًا تصرفاته المهينة، وقسوته، وسوء معاملته، طالما ظللت أراها صادرة عن الطباع التي جُبل عليها، دون أن أحسبها صادرة عن كراهية. ولكنني لم أكد أتبين أن الخطة كانت مرسومة لحرماني من الاعتبار الذي كنت أستحقه بفضل خدماتي الصادقة، حتى عقدت العزم على أن أستقيل من منصبي. وكان أوَّل دليل تلقيته على سوء نيته، هو ذاك الذي حدث بمناسبة مأدبة كان عليه أن يقيمها للسيّد الدوق دى مودينى وأسرته، عندما حلوا بالبندقية. فقد أنبانى بأنه لن يكون لي محل في تلك المأدبة. فأجبته مستاءً - ولكن في غير غضب - بأننى قد اعتدت أن أحظى بشرف تناول الغداء على مائدة السفير يوميًا، فإذا أبدى السيِّد الدوق دى مودينى - عند مجيئه - أنني يجب أن أغيب عن المائدة، فمن اللائق بكرامة صاحب السعادة (السفير)، ومن الواجب علىَّ، ألَّا أنصاع لهذه الرغبة. فقال في حدَّة: « ماذا؟! أيطالب سكرتيرى - وهو لم يبلغ مرتبة المستشار - أن يتناول الغداء مع عاهل، في حين أن مستشاري لن يحضرا المأدبة؟! ». فأجبت: « أجل يا سيِّدي، فإن المنصب الذي شرَّفتني سعادتك به، يرفع مقامي - طالما كنت أشغله - إلى درجة تجعل لى الأولوية حتى على مستشاريك، أو أولئك الذين يُقال عنهم أنهم مستشاروك، ومن ثَم فإن لي حق الحضور في مناسبات ليس لهم أن يحضروها. وأنت لا تجهل أن التقاليد الرسمية، والعُرف المتبع من زمن أبعد من أن يُذكر، تحتم علىَّ - في اليوم الذي تحضر فيه التشريعات الرسمية - أن أتبعك في ثياب التشريفة، وأن أحظى

بحضور مآدب قصر « سان مارك » معك. ولست أدرى كيف لا يجوز للشخص الذي يجلس في مأدبة عامة مع « الدوج »38 ومجلس شيوخ البندقية، أن يجلس مع السيِّد الدوق دى موديني بالذات، إلى مائدة واحدة؟! ». ومع أن حجتي كانت فوق كل رد، إلا أن السفير لم يسلم بها. غير أننا لم نجد فرصة لتجديد النزاع. إذ أن السيِّد الدوق دى موديني لم يأت للغداء على مائدته قط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومنذ ذلك الحين لم يكف السفير عن مضايقتي، وعن امتهان حقوقى، مغتصبًا الامتيازات البسيطة التي تتعلَّق بمنصبي، فكان يجرّدني منها ليخلعها على عـزيزه فيتالي. وإنى لواثق من أنه لو استطاع أن يجرؤ على ايفاده - بدلًا منى - إلى مجلس الشيوخ، لفعل. وكان يستخدم الراهب دى بينى عادة، لكتابة خطاباته الخاصة في حجرة مكتبه، فعهد إليه بأن يكتب إلى السيِّد دي موريبا تقريرًا عن مسألة الربَّان أوليفييه، لم يذكرني فيه البتة، مع أنني كنت الوحيد الذي تدخَّل في المسألة.. بل أنه أنكر علىَّ شرف التحقيق الرسمي الذي قمت به - والذي أرسل إلى السيِّد دي موريبا نسخة منه - وعزاه إلى باتيزيل، الذي لم ينبس ببنت شفة. فلقد أراد أن يغيظني وأن يرضى صاحب الحظوة لديه، دون أن يستغنى عنى برغم ذلك، إذ شعر بأنه لم يكن ليعثر على خليفة لي، بنفس السهولة التي عثر بها على خليفة للسيِّد دي فولو - سلفي - الذي كان قد أشاع في الخارج فكرة صحيحة عنه!.. ولم يكن له غني عن سكرتير يعرف اللغة الإيطالية، نظرًا لمراسلاته مع مجلس الشيوخ.. لم يكن في غنى عن سكرتير قادر على أن يكتب كل رسائله، ويدبِّر كل أموره، دون تدخل منه.. سكرتير يجمع بين المقدرة على أن يخدمه بأمانة، والهوان الذي يجعله يروق للسيِّدين المستشارين المدللين!.. ومن ثم فقد أراد أن يستبقيني وأن يكيدني في آنٍ واحد، بأن يمسكني بعيدًا عن وطني وعن وطنـه، دون ما نقود تمكنني من العودة. ولعله كان جديرًا بأن ينجح لو أنه سعى إلى ذلك بمزيد من الحكمة. ولكن فيتالي كان يرى آراء أخـرى، وكان يبغى حملي على الرحيل، وقد وفق في غايته. فما أن تبينت أنني كنت أبدد جهودي، وأن السفير كان ينظر إلى خدماتي وكأنها جرائم، بدلًا من أن يحمدها لي.. وأننى لم يعد لي أن أطمع - طالما ظللت معه - في غير المضايقات في الداخل، وعدم الانصاف في الخارج.. وأن الأذى الذي كان يحاول أن يلحقه بي قد يفوق في الضرر ما قد أكسبه من رضائه إذا أنا بقيت في خدمته، نظرًا لما كان قد اجتلبه على نفسه من سخط عام.. ما أن تبينت كل هذا، حتى قرَّرت أن أستأذنه في أن يعفيني من العمل، مفسحًا له الوقت كى يحصل لنفسه على سكرتير. على أنه ظلَّ سادرًا في مسلكه، دون أن يجيب بنعم أو لا. فلما رأيت أن الأمور لم تتحسن، وأنه لم يتجه إلى البحث عن سكرتير آخر، كتبت إلى أخيه، مفصلًا كافة البواعث، راجيًا إياه أن يحمل أخاه على تسريحي، مضيفًا إلى ذلك أنني لن أمكث في منصبي على أية حال!.. وانتظرت طويلًا، دون أن أتلقى جوابًا. وكنت قد بدأت أشعر بحيرة بالغة، عندما تسلم السفير - أخيرًا - رسالة من أخيه. ولا بد أنها كانت شديدة اللهجة، إذ أنني لم أره - برغم أنه كان عرضة لأعنف نوبات الغضب - في مثل الهياج الذي رأيته فيه إذ ذاك. وبعد سيل من السباب المقذع، لم يعد يدرى ما يقول، فاتهمني بأنني بعت أسرار الشفرة. وأخذت أضحك، ثم سألته في لهجة ساخرة عما إذا كان يظن أن في البندقية بأسرها مغفلًا واحدًا يرضى بأن يدفع « ايكو » واحدًا من أجلها. وجعله هذا الجواب يستشيط حنقًا، فهمَّ بأن يدعو أتباعه لكي يلقوا بي من النافذة، كما قال. وكنت حتى تلك اللحظة محتفظًا بهدوئى، ولكني - إزاء هذا التهديد - وجدت أن الغضب والعزة قد تملكاني بدوري، فاندفعت إلى الباب، وبعد أن دفعت المزلاج الذي يوصده من الداخل، عدت إليه وقلت في لهجـة رهيبـة: « لا يا سيِّدي الكونت، لن يتدخّل أتباعك في هذه المسألة، فتكرَّم بتسويتها فيما بيننا! ». وهدأ تصرفى ومظهري من سورته في الحال، وتجلت الدهشة والروع على أساريره. فلما رأيته قد تخلى عن هياجه، ودّعته بكلمات موجزة، ثم ذهبت -

دون أن أنتظر منه جوابًا - ففتحت الباب، وخرجت، فاجتزت الحجرة الملحقة بمكتبه في ثبات، وسط أتباعه الذين نهضوا كعادتهم، والذين أعتقد أنهم كانوا أكثر استعدادًا لمناصرتي منهم لمناصرته. وبدون أن أعود إلى غرفتي، هبطت السلم، وغادرت القصر، فلم ألجه بعد ذلك قط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وذهبت لفوري إلى السيِّد لوبلون، لأنبئه بما حدث، فلم يبد دهشه كثيرة، إذ كان يعرف الرجل، وإنما استبقاني للغداء. وكان هذا الغداء - برغم التعجل في إعداده - بهيجًا، وقد حضره كل الفرنسيين ذوى المكانة، الذين كانوا في البندقية. ولم يكن بينهم فرد واحد في صف السفير، فقد روى القنصل حكايتي على الجماعة، وما أن ألموا بها حتى صاحوا جميعًا في وقت واحد، ولكن في غير صالح صاحب السعادة. ولم يكن هذا قد سوى حسابي، ولا أعطاني « سو » واحد. ولما كانت كل مواردي لا تتجاوز بضع قطع من « اللوي » قد وجدتني في حيرة من أمر سفرى. وإذا بكل الجيوب تتفتح لي، فأخذت عشرين « سيكان » من السيِّد لوبلون، ومثلها من السيِّد دى سان سير، الذي كنت وثيق الصلة به، وكان يلى القنصل في المكانة من قلبي. ثم شكرت الباقين، وبقيت - إلى أن قُدِّر لى الرحيل - مقيمًا لدى رئيس ديوان القنصلية، لكي أثبت للرأى العام أن الأمة لم تكن مشتركة في مظالم السفير. ولقد أهاج هذا أن رآني موضع تكريم في محنتي، بينما كان هو - برغم مركزه كسفير - منبوذًا، ففقد حجاه تمامًا، وأخذ يتصرَّف كالمخبول. وبلغ من غفلته أن قدَّم إلى مجلس الشيوخ مذكرة لاعتقالي. فلما أنبأني بذلك الراهب دى بينى، قرَّرت أن أبقى أسبوعين آخرين، بدلًا من أن أبادر إلى الرحيل في اليوم التالي، كما كنت أعتزم. وقد درس تصرفي فلقى إقرارًا، كما غدوت موضع تقدير عام. ولم تتنازل الرئاسة حتى بالرد على مذكرة السفير الرعناء، كما أنبأتني - عن طريق القنصل - بأن لى أن أبقى في البندقية ما شئت، دون أن أزعج نفسي بتصرفات رجل أحمق!. ومن ثم واصلت زياراتي لأصدقائي، وذهبت لأودع السفير الأسباني - الذي أحسن استقبالي - والكونت دى فينوكييتى، وزير نابلي، الذي لم أجده فكتبت إليه وإذا به يرد بخطاب من ألطف الخطابات. وما لبثت أن رحلت - في النهاية - غير مخلّف ورائي أية ديون، برغم ضائقتى، سوى القرضين اللذين ذكرتهما من قبل، وسوى خمسين « ايكو » كنت مدينًا بها لتاجر يُدعى « موراندى »، وقد تكفَّل « كاريو » بدفعها إليه، وإن لم أردّها إليه قط، بالرغم من أننا تقابلنا كثيرًا بعد ذلك الحين. أما القرضان اللذان تحدَّثت عنهما، فقد سددتهما كاملين بمجرَّد أن تيسر لي ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولا يجوز أن نترك البندقية دون كلمة عن ملاهي هذه المدينة الشهيرة، أو - على الأقل - عن القسط الضئيل منها، الذي قُدِّر لي أن أنعم به أثناء مقامي هناك. ولقد رويت كيف أنني - في شبابي - كنت مقلًّا في السعى إلى ملذات هذه المرحلة من السن، أو - على الأقل - المتع التي توصف بأنها ملذات. ولم أغير من مسلكي هذا في البندقية، ولكن مشاغلي - التي كانت كفيلة بأن تمنعني من أي تغير - جعلت أسباب التسلية البسيطة، التي كنت أستبيحها، أكثر امتاعًا. وكانت أولى هذه الأسباب وألطفها هي مصاحبة الأكفّاء من الناس: السادة لوبلون، ودى سان سير، وكاريو، وألتونا، وسيد فورلانى39 نسيت - لشدّة أسفي - اسمه، ولكني لا أستطيع أن أذكر دون أن تتأثّر نفسي. ولقد أوتى - دون كل مَن عرفت من الرجال - أقرب القلوب شبهًا بقلبي. ولقد ارتبطنا كذلك باثنين أو ثلاثة من الإنجليز، واسعى الذكاء والمعرفة، مشغوفين مثلنا بالموسيقى. وكانت لهؤلاء السادة جميعًا زوجات، أو صديقات، أو عشيقات. وكن جميعًا - تقريبًا - نساء موهوبات، تُعزف الموسيقى ويدور الرقص في بيوتهن. وكان لعب الميسر يدور هناك أيضًا، ولكن في القليل النادر، إذ أن ميولنا النزاعة، ومواهبنا، وشغفنا بالمسرح، جعلت هذه التسلية - الميسر - عقيمة، فالمقامرة ليست

تسلية إلا لأولئك الذين يستبد بهم الضجر!.. وكنت قد حملت معي من باريس، التحامل الذي خلقه الشعور القومي ضد الموسيقى الإيطالية، ولكنني كنت قد أوتيت من الطبيعة ذلك الإدراك المرهف الذي لا يمكن لمثل هذا التحامل أن يصمد أمامه. فسرعان ما سرى إلى نفسي ذلك الشغف الذي توحيه الموسيقي الإيطالية إلى أولئك الذين يملكون القدرة على الحكم الصحيح بصددها. وإذ سمعت « الباركارول »40 تبينت أنني لم أسمع قبل ذلك غناء!.. وسرعان ما أولعت بالأوبرا ولعًا جنونيًا، حتى أنني كنت حين أضيق بالثرثرة والأكل واللعب في المقصورات - في الوقت الذي لم أكن أهفو فيه إلا إلى الانصات - أتسلل في كثير من الأحيان من رفاقي، لأذهب إلى ناحية أخرى من الدار. وهناك كنت أجلس وحيدًا في مقصورة مغلقة، وأسلم نفسي للذة الاستمتاع بالأداء، برغم طوله، دون أن يزعجني شيء، حتى نهاية السهرة. وفى ذات يوم، استسلمت للنوم - في مسرح سان كريزوستوم - فاستغرقت فيه بدرجة لم أنعم بها قط في فراشي، ولم تقو الألحان الصاخبة، الرائعة، على إيقاظي، ولكن.. مَن لي بمن يصف الشعور العذب الذي أحدثه في نفسي النغم الناعم والغناء الملائكي اللذان أيقظاني!.. وأية يقظة، وأي استغراق، وأية نشوة تلك التي استشعرتها حين فتحت أذني وعينَيّ في آن واحدا!.. كانت أوّل فكرة واتتني هي أنني كنت في الفردوس!..
كانت تلك المقطوعة الرائعة، التي لا أزال أذكرها، والتي لن أنساها ما حييت، تبدأ هكذا:

« استحوذت علىَّ الجميلة.. التي أثارت أعماقي ».

ورغبت في أن أحصل على لحن هذه القطعة، وقد ظفرت به، واحتفظت به زمنًا طويلًا، ولكنه لم يكن على الورق في روعته التي كان بها في ذاكرتي.. كانت الأنغام واحدة، ومع ذلك فإن اللحن لم يكن واحدًا.. لم يكن من سبيل إلى أداء اللحن بالروعة السماوية التي كان يتردَّد بها في رأسي، والتي كان يُؤدّي بها في الواقع عندما أيقظني!

أما الموسيقى التي تُعتبر - في رأيي - أسمى من موسيقى الأوبرا، والتي لا مثيل لها في إيطاليا أو في بقيـة العالم، فهي موسيقى « الاسكوله ».. و « الاسكوله » بيوت خيرية أُنشئت لتعليم الفتيات الصغيرات اللائي لا موارد لهن، واللائي تعدّهن الجمهورية بعد ذلك، إما للزواج، وإما للالتحاق بالأديرة. وللموسيقى المكانة الأولى بين المواهب التي تُنمي في هؤلاء الفتيات الصغيرات. ففي يوم الأحد من كل أسبوع، وفي كنيسة كل من هذه « الاسكولات » الأربع، تُؤدّى خلال قداسات الغروب مقطوعات41 يشترك فيها عدد كبير من المنشدات وعدد كبير من العازفات، ويقوم بتأليفها وتلحينها وإدارة أدائها أكبر الموسيقيين الإيطاليين.. وهي تُؤدّي في المقصورات ذات الحواجز المصنوعة من الخشب المتشابك (المعشَّق كجدران المنابر). ويقتصر أداؤها على الفتيات اللائي لا تبلغ أكبر واحدة منهن العشرين من عمرها.. وليس بوسعي أن أتصوَّر شيئًا ألذ وأعذب وأكثر تأثيرًا في النفس من هذه الموسيقى. فإن دسامة الفن، وعذوبة الغناء، وجمال الأصوات ودقة الأداء.. كل ما في هذه الحفلات الموسيقية البهيجة، يساهم في خلق انطباع لا ينسب قطعًا إلى « جودة الأسلوب »، ولكني أرتاب في أن ثمة قلبًا بشريًا في مناعة منه!.. ولم يتخل كاريو وإياي قط عن حضور هذه القداسات في كنيسة « المنديكتـاني »، ولم نكن الوحيدين في ذلك، فقد كانت الكنيسة دائمًا تغص بالهواة.. بل أن ممثلي الأوبرا أنفسهم كانوا يذهبون لينموا ذوقهم الغنائي مسترشدين بهذه النماذج الرائعة. وكان الشيء الذي يدفعني إلى القنوط، يتمثّل في تلك الجدران الخشبية اللعينة، التي لم تكن تسمح بمرور شيء سوى الأصوات، والتي كانت تحجب عنى الملائكة اللائي قد أوتين - ولابد - جمالًا يليق بهذه الأصوات!.. ولم يكن لي من حديث إلا عن هذا الموضوع، وقد تحدَّثت فيه يومًا، في دار السيِّد لوبلون، فقال: « إذا كنت شديد الشوق إلى أن ترى هؤلاء الفتيات الصغيرات، فمن السهل إرضاء شوقك. فإننى من المشرفين على المؤسسة، وكم أود أن أدعوك إلى وجبة خفيفة42 معهن! ».

ولم أتركه يرتاح حتى برَّ بوعده. وإذ دخلت القاعة التي ضمَّت هؤلاء الجميلات اللائي طال شوقي إليهن، استشعرت رجفة عاشقة لم أعهدها من قبل. وقدَّم السيِّد لوبلون إلىَّ هؤلاء المغنيات الشهيرات، اللائي كانت أسماؤهن وأصواتهن هي كل ما عرفته عنهن: « تعالى يا صوفى! ».. انها بشعة الخلقة!.. « تعالى يا كاتينا! ».. إنها ذات عين واحدة!.. « تعالى يا بتينا! ».. كان الجدري يشوّه وجهها!.. لم تكد توجد بينهن واحدة تخلو من عيب ظاهر..



وقدم السيد لوبلون الى هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللائى كانت اسماؤهن
اتهن هى كل ما عرفته عنهن .

وضحك القاسي من المفاجأة العنيفة التي صادفتنى.. على أنه كانت بينهن اثنتان أو ثلاث يبدون مقبولات الشكل!.. ولم يكن يتقن الغناء إلا مجتمعات (في كورس)، فتولّاني الأسى. وفي اثناء الوجبة الخفيفة، رحنا نداعبهن فإذا المرح يفيض بهن، وإذا الدمامة لا تخلو من بعض آيات البهاء التي تبينت وجودها فيهن. فقلت لنفسي: ما كن ليقوين على مثل هذا الغناء الرائع، ما لم يكن قد أوتين أرواحًا سامية.. وكن كذلك فعلًا، وأخيرًا، تغيّر رأيي فيهن إلى درجة أنني انصرفت وأنا شبه متيم بهؤلاء الدميمات!.. وجرؤت - في عناء - على العودة إلى حضور قداسهن، وقد تبينت ما طمأنني. وقد ظللت أجد غناءهن عذبًا، وأرى أن أصواتهن كانت تضفى على وجوههن بهاء، حتى أنني كنت أصرّ - ما دمت أسمع غناءهن - على أن أتصوّرهن جميلات، بالرغم مما كانت تصرّ عليه عيناى!

والموسيقى - في إيطاليا - لا تكاد تتكلف شيئًا يُذكر، ومن ثم فإن حرمان النفس منها - إذا كان لدى المرء ميل إليها - لا يكاد يستحق العناء الذي يُبذل في سبيل ذلك. وقد استأجرت معزفًا، وكنت في مقابل « ايكو » واحد، أستقدم إلى دارى أربعة أو خمسة من عازفي الموسيقى الغنائية، أتدرَّب معهم - مرة في الأسبوع - على عزف القطع التي تكون قد استأثرت بأعظم قدر من اعجابي في « الأوبرا ». وكنت أجرب كذلك عزف بعض الألحان الغنائية التي ضمّتها « عرائس الشعر اللطاف »43 ولقد سألني أستاذ الموسيقى الايقاعية في « سان جان كريسوستوم » قطعتين منهما - أما لأنه أعجب بهما حقًا، وأما لأنه أراد أن يتملقنى - فسرّني أن أسمعهما تؤدّيان على أيدى فرقته الرائعة، وأن تؤدي رقصاتهما الصغيرة « بتينا ».. وهي فتاة جميلة لطيفة، كان يرعاها أسباني من أصدقائها يدعى « فاجواجا »، كثيرًا ما قضينا السهرات في داره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما عن النساء، فليس لرجل أن يُعرض عنهن في مدينة كالبندقية!.. وقد يُقال لي: « أليس لديك ما تعترف به في هذا الصدد؟ ».. بلى، فإن لديَّ ما يُقال فعلًا، وإني لمقدم على هذا الاعتراف بنفس الصراحة التي اتبعتها في كل اعترافاتي الأخرى.. ولقد كنت دائمًا أنفر من البغايا، بيد أنه لم يكن لديَّ سواهن في البندقية، إذ كان محرَّمًا عليَّ ولوج معظم البيوت في المدينة، من جراء منصبي. ولقد كانت فتيات السيِّد لوبلون جد لطيفات، ولكن التقرّب إليهن كان أمرًا عسيرًا، كما أن احترامي لأبيهن وأمهن كان أعظم من أن يسول لى مجرَّد التفكير في اشتهائهن!

ولقد كنت خليقًا بأن أميل كل الميل إلى شابة تُدعى الآنسة دى « كاتاليو »، كانت ابنة مندوب ملك بروسيا. ولكن كاريو كان يهواها، حتى أنه كان يسعى إلى الزواج منها.. ولقد كان ميسور الحال، في حين أنني لم أكن أملك شيئًا. كان مرتبه مائة « لوى »، أما أنا فلم أكن أتقاضي سوى مائة « بيستول ». وبغض النظر عن أنني ما كنت لأستبيح أن أسطو على صيد صديقي، فإني كنت أدرك أن ليس لرجل خالى الوفاض أن يقدم على التقرّب إلى الحسان، إينما يكن.. ولو كان في البندقية!.. ولم أكن قد فقدت عادتي المشئومة، وأعنى بها استبدال الحاجات التي أصبو إليها. ولما كنت جد مشغول إلى درجة لا تدع لي سبيلًا إلى الشعور الملح بالحاجات التي يخلقها الجو المحيط بى، فإنني عشت في هذه المدينة عامًا تقريبًا، وأنا محتفظ بما كان لي ـ في باريس ـ من طهر وحكمة.. كما تركتها بعد ثمانية عشر شهرًا دون أن أقرب الجنس اللطيف فيما عدا مرتين، وبسبب المناسبتين غير العاديتين اللتين سأذكرهما فيما يلى:

ولقد أتاح لي أولاهما السيِّد الشريف فيتالى44، بعد انقضاء فترة على الاعتذار الذي أجبرته على أن يقدمه لي في أكمل صيغة رسمية. فقد دار الحديث حول المائدة عن ملاهي البندقية، فأخذ السادة يعتبون عليَّ عدم اكتراثي بأشدّ هذه الملاهي حرارة، ويطنبون في

إطراء رقة الغواني البندقيات، قائلين أن ليس في العالم مَن يضارعهن. وقال دومينيك إنني خليق بأن أتعرَّف إلى أبدعهن طرًّا، وأنه يرجو أن يقدّمني إليها، وأنني سأطرب لمعرفتها. وانطلقت أضحك لهذا الاقتراح المحرج، فإذا بالكونت بياتي ـ وكان كهلًا وقورًا - يقول في صراحة لم أكن أتوقعها من إيطالي، إنه يؤمن بأنني أعقل من أن أدع عدوى يقودني إلى دار غانية. والواقع أنني لم أستشعر ميلًا، ولا تأثّرت بإغراء، ولكنني انتهيت بالرغم من ذلك - وبدافع من إحدى النزوات المتناقضة التي لم أكن أملك أن أفهمها - إلى أن تركت عدوى يقودني، على النقيض من إملاء ميولى، وقلبي، وعقلى، بل وإرادتي كنت منساقًا له لمجرَّد الضعف والخجل من إبداء عدم الثقة به، أو بلسان تلك البلاد:

ولقد كانت « البادوانا »[46] التي ذهبا إليها ذات Per non Parer Troppo Coglione[45] وجه لا بأس بحسنه بل إنه كان جميلًا، ولكن جماله لم يكن من الطراز الذي يروق لي. وتركني دومينيك في دارها، فأرسلت في طلب بعض المثلوجات (آيس كريم)، وسألتها أن تغنى لى، ثم تهيّأت - بعد نصف ساعة - للانصراف، تاركًا على المنضدة « دوكا »[47]، ولكنها في عزة نفس غريبة ـ أبت إطلاقًا أن تقبل المبلغ دون أن تكون قد أدَّت ما يقابله.. وفي غباء - لا يقل غرابة - أرضيت عزة نفسها!... وعدت إلى القصر وأنا موقن من أنني أصبت بمرض خبيث، حتى أن أوَّل ما فعلت هو أن أرسلت في طلب طبيب لأطلب منه بعض الأدوية. وليس ثمة ما يعادل الغم الذي عانيته طوال ثلاثة أشهر، دون ما علة حقيقية، ودون ظهور أية علامة تبرره. فما كنت لأتصوَّر أن من الممكن مغادرة أحضان مومس دون ما ضررا.. بل إن الطبيب نفسه تجشم كل عناء يمكن تصوره، لكي يطمئنني، فلم يوفَّق إلّا إلى اقناعي بأنني كنت مخلوقًا على نمط خاص، لا يجعلني أصاب بالعدوى بسهولة. ومع أننى قد أكون أقلّ من أي رجل آخر تعرضًا لهذا الخطر، إلا أن عدم تأثّر صحتى البتة هذه الناحية بالذات، يبدو لى دليلًا على أن الطبيب كان مصيبًا!.. على أن هذا الرأي لم يجعلني متهورًا قط، وإذ كنت قد أوتيت فعلًا هذه الميزة الطبيعية، فإن في وسعي أن أقول أنني لم أسيء استغلالها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما مغامرتي الأخرى، فمع أنها كانت مع غانية كذلك، إلا أنها كانت من نوع جد مختلف، سواء في أصلها أو في نتائجها.

فلقد ذكرت أن الكابتن أوليفييه ـ الربَّان ـ قد دعاني إلى الغداء على ظهر سفينة، وأننى اصطحبت سكرتير السفارة الأسبانية. وكنت أتوقّع أن تحيينا المدافع، فإذا البحارة يستقبلوننا مصطفين، ولكن قطعة واحدة من الذخيرة لم تُشعل، مما غاظني كثيرًا، بسبب كاريو، الذي رأيته مستاء. والواقع أن التحية بطلقات المدافع - على السفن التجارية - كانت تُؤدّى لأناس لا يعادلوننا مقامًا بالتأكيد، كما أنني كنت أخالني جديرًا بشيء من التمييز من الربَّان. ولم أستطع أن أخفى ما كان بنفسي، فقد كان ذلك أمرًا مستحيلًا دائمًا. ومع أن الغداء كان بديعًا، وقد أدار أوليفييه الأنخاب في إكرام رائع، فإنني بدأت المأدبة وأنا منحرف المزاج، ومن ثم فقد أكلت قليـلًا وتكلمت أقل!

وعند احتساء النخب الأوَّل توقّعت تصفيقًا على الأقل، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث.. وضحك كاريو - الذي قرأ ما في خاطري ـ إذ رآني أغمغم كالطفل. وفى ثلث الغداء، رأيت جندولًا يقترب، وإذا الربَّان يقول لي: « لعمري!.. خذ حذرك يا سيِّدي فها هو ذا العدو! » فسألته عمَّا كان يعنى، وإذ ذاك أجاب بدعابة. ورسا الجندول بجوار السفينة، فرأيت فتاة باهرة الجمال، بالغة الرشاقة، في ثياب مغرية، تغادره.. وفي ثلاث قفزات كانت في الغرفة. ورأيتها تستقرّ إلى جوارى، قبل أن أفطن إلى أن ثمة مكانًا قد أُعدّ لها!.. وكانت فاتنة بقدر ما كانت رشيقة.. سمراء في العشرين من عمرها، على الأكثر!.. ولم تكن تتكلّم بغير اللغة

الإيطالية، وكانت لهجتها وحدها كافية لأن تدير رأسي. وفيما كانت تأكل وتتكلم، أخذت ترمقني، ثم تفرّست فيَّ لحظة، وما لبثت أن صاحت: « يا للعذراء الطيبة!.. آه! ما أطول الوقت الذي انقضى يا عزيزى بريمون دون أن أراك! ».. وارتمت في أحضاني، وألصقت فمها بفمي، واحتضنتني حتى كادت تزهق أنفاسي!.. وراحت عيناها الواسعتان السوداوان - على غرار العيون الشرقية - ترميان قلبي بشواظ من لهب. ومع أن المفاجأة أحدثت شيئًا من الاضطراب في البداية، إلا أن غريزتي الشهوية سرعان ما تملكتني - بالرغم من الحضور - إلى درجة أن الفاتنة نفسها اضطرّت إلى أن تكبح جماحي، إذ أننى ثملت، أو بالأحرى جننت!.. فلما رأتني قد بلغت الدرجة التي كانت ترجوها، خفّفت من عناقها، ولكنها لم تخفف من فورة عواطفها.. حتى إذا راق لها أن تبدى لنا السبب الحقيقي أو الزائف لهذا النزق قالت لنا أنني كنت أشبه السيِّد دى بريمون، مدير جمرك توسكاني، إلى درجة يصعب معها التمييز بيننا.. وأنها كانت - ولا تزال - متيمة بهذا السيِّد دي بريمون، وأنها كانت قد هجرته لحماقتها.. وأنها قد اختارتنى بديلًا عنه، فشاءت أن تهواني، لأن هذا كان يروق لها، وأن من الواجب - للسبب ذاته! - أن أحبها، طالما ظلّ هذا يلائمها، فإذا ما هجرتني فجأة، وجب أن أحتملها صابرًا، كما كان يفعل عزيزها بريمون!.. واستولت عليَّ كما لو أنني كنت ملك يمينها، فعهدت إليَّ بقفازيها، ومروحتها، وحزامها، وقلنسوتها.. وراحت تأمرني بأن أذهب إلى هنا أو هناك، وأن أفعل هذا أو ذاك، وأنا أطيعها!.. وقالت لي أن أذهب فأصرف جندولها، لأنها كانت راغبة في استخدام جندولى، فصدعت!.. وأمرتني بأن أغادر مكاني، وأن أرجو « كاريو » بأن يحلّ فيه محلى، لأنها كانت تريد أن تتحدّث إليه، ففعلت!. وتحدّثا طويلًا، في صوت جد خفيض، فتركتهما يفعلان.. ونادتني، فخففت إليها، فقالت لي: « اسمع يا جانيتو.. لست أريد البتة أن أكون محبوبة على الطريقة الفرنسية، إذ ليس من ورائها طائل في الواقع.. ففي أوّل لحظة تشعر فيها بالضجر، لك أن تمضى عني. ولكن، لا تمكث بين بين.. إننى أنذرك! ».

وذهبنا بعد الغداء لمشاهدة مصنع الزجاج في (مورانو)، فابتاعت كثيرًا من التحف الصغيرة، التي تركتنا ندفع ثمنها في غير كلفة.. ولكنها كانت ـ في كل مكان ـ تجود بما يفوق بكثير كل ما أنفقنا. وكان من الواضح - من الاستخفاف الذي كانت تبعثر به نقودها، وتحملنا على أن نبعثر نقودنا - أنها لم تكن تقيم للمال وزنًا.. وأعتقد أنها عندما كانت تطلب أجرًا لنفسها، لم تكن تصدر في طلبها عن جشع بقدر ما كانت تصدر عن زهو. فقد كانت تطرب للأجر الذي يُدفع في مقابل المتع التي تجود بها!

وفي المساء، ذهبنا إلى دارها. وفيما كنا نتحدّث، لمحت مسدسين على منضدة الزينة، فقلت لها وأنا أتناول أحدهما: « آه! آه!.. هاكم مصيدة للذباب من نوع جديد.. هل من سبيل إلى معرفة فيم تُستخدم؟.. إنني أعرف أن لديكِ أسلحة أخرى، أقوى فتكًا من هذا! ».. وبعد بضع مداعبات من هذا القبيل، قالت لنا في غرور أرعن، زادها فتنة: « عندما أتكرَّم على أولئك الذين لا أحبهم، فإنني أتقاضاهم ثمن الضجر الذي يسببونه لي، وليس هناك ما هو أعدل من هذا!.. على أنني وإن احتملت عناقهم، فلست أحب إطلاقًا أن أحتمل إهاناتهم.. ولن أخطىء إصابة أوَّل رجل ينتقص من شأنى!».

وعند انصرافى، اتفقنا على الموعد الذي أوافيها فيه، في اليوم التالي.. ولم أدعها تنتظر، ووجدتها في « ثوب الخلوة »48.. وهو ثوب مكشوف، أكثر من أن يوصف بأنه خليع، غير معروف إلا في الدول الجنوبية، ولن أمتع نفسى بوصفه، برغم أنني أذكره تمامًا!.. كل ما سأقوله هو أن كميه وفتحة عنقه كانت مطرزة بخيط حريرى، مزدان بكرات صغيرة في لون الورد. وقد بدا لي أن هذا كان يضاعف من تورد بشرتها الرائعة الجمال. وقد تبينت فيما بعد أن هذا الزي كان من المستحدثات الرائجة في (البندقية)، وأنه كان ذا تأثير جد فاتن، حتى أنني لأعجب من أنه لم ينتقل قط إلى فرنسا. ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عن

الغواية التي كانت في انتظارى.. لقد تحدَّثت عن مدام دى « لارناج »، وأنا في تلك النشوات التي تنقلني إليها ذكراها في بعض الأحيان، ولكن.. لشد ما كانت عجوزًا، ودميمة، وباردة الحس، إذا قيست بحبيبتي « جولييتا »!.. ولا تحاولوا أن تتصوَّروا مفاتن ومحاسن هذه الفتاة الساحرة، فلسوف تظلّون بعيدين كل البعد عن الحقيقة!.. إن عذارى الأديرة أقل نضرة، وحسان الحريم أقل حيوية، وحوريات الجنة أقل جاذبية!.. أبدًا ما حظي قلب وحواس إنسان فان بمثل تلك المتعة الحلوة!.. آه! ليتنى عرفت كيف أتذوقها في أتم كمالها للحظة واحدة، على الأقل!.. لقد تذوقتها حقًا، ولكن دون ما افتتان، إذ أننى أفسدت كل الملذات.. قتلتها وأنا غير حافل، كما ينبغي أن يُقال. لا، إن الطبيعة لم تخلقني قط للاستمتاع، وإنما بثَّت في رأسي الفاسد سم هذه السعادة التي لا سبيل إلى وصفها، والتي غرست في قلبي شهوة الشوق إليها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذا كان في حياتي ظرف واحد يعبِّر تمام التعبير عن فطرتى، فهو هذا الذي أوشك أن أرويه. إن القوة التي أذكر بها ـ في هذه اللحظة ـ الغاية المنشودة من كتابي، لتجعلني أطرح عنى الحياء الكاذب الذي يمنعني من أن أحققها. فعليك أيها الراغب في معرفة دخيلة قلب إنسان - أيًا كنت أنت - أن تتجلد إذ تقرأ الصفحتين أو الثلاث التالية، فسوف تعرف فيها جان جاك روسو معرفة تامة!

لقد كنت ألج غرفة الغانية، وكأنني ألج معبدًا للحب والجمال.. وكنت أخال أننى أبصر القداسة في شخصها، فما كنت لأعتقد أن بوسعي أن أحظى بالانفعالات التي ألهمتنيها ما لم أحترمها وأقدّرها. ولم أكد أعرف - خلال محاولات التقارب والتآلف الأولى - نعم مفاتنها وعناقها، حتى تولانى الخوف من أن أفقد ثمارها مقدّمًا، ومن ثم فقد تقت إلى التعجيل باقتطافها. وفجأة، أحسست ـ بدلًا من النيران التي كانت تكويني ـ ببرودة قاتلة تسري في عروقي، وخذلتني ساقاى، فجلست وأنا أرى نفسي موشكًا على الاغماء، ورحت أبكى كالطفل!

ترى منذا الذي يستطيع أن يحدس سبب دموعى وما كان يجرى في رأسي في هذه اللحظة؟.. كنت أقول لنفسي: « إن هذه الحسناء التي أجدها في متناولي هي أروع نتاج الطبيعة والحب.. فالروح والجسد في أكمل آياتهما.. وإنها لطيبة وكريمة كما أنها جميلة وبديعة.. وخليق بالعظماء والأمراء أن يكونوا عبيدًا لها، كما يجدر بصولجانات الملك أن تكون عند قدميها.. ومع ذلك، فها هي ذي تعسة، تجوب الطرقات، في خدمة كل إنسان.. لقد نفض أحد ربابنة السفن التجارية يديه منها، فجاءت وألقت بنفسها على رأسي.. علىَّ أنا الذي كانت تعرف أنه لا يملك شيئًا.. أنا الذي لم يكن بوسعها أن تعرف فضائله، ولا كانت هذه الفضائل شيئًا يُذكر في نظرها!.. إن ثمة شيئًا يجلّ عن الادراك، في هذا. فإما أن قلبي يخدعني ويزيغ حواسى ويجعلني مطية مومس لا قيمة لها، وإما أن ثمة عيبًا خفيًا لا أدريه، يهدم مفعول مفاتنها، ويحيلها قميئة في نظر أولئك الذين كانوا خليقين - لولا ذلك - بأن يتناحروا في سبيل الظفر بها ».. وشرعت أبحث عن هذا العيب في استغراق عجيب، دون أن يخطر لي البتة أن للفسق والعهر نصيبًا في ذلك. فإن نضرة بشرتها، وإشراق محياها، وأسنانها التي كان بياضها يُبهر البشر، وحلاوة أنفاسها، والجو العام المحيط بشخصها والموحى بالنظافة.. كل هذا محا هذه الفكرة تمامًا من ذهني. وإذ كنت لا أزال في شك من حالي - منذ زياراتي لبيت البغي « البادوانا » - فقد وسوست لنفسي بالخوف من أنني لم أكن في صحة تجعلني أهلًا لها، واقتنعت كل الاقتناع بأن يقيني من هذا لم يكن زائفًا!

ولقد أهاجتني هذه الخواطر - التي جاءت في حينها المناسب - إلى الدرجة التي أبكتني.

أما « جوليينا » - التي كان هذا المنظر جديدًا عليها ولا ريب، في مثل تلك الظروف - فقد بُهتت لحظة، ولكنها بعد أن تمشَّت في أرجاء الحجرة، ومرَّت أمام مرآتها، أدركت الحقيقة، كما أكَّدت لها عيناي أن هذا الأسى التهوسى لم يكن من النفور في شيء. ولم يكن عسيرًا عليها أن تبرئنى منه، وأن تمحو الحياء الطفيف. ولكنني إذ هممت بأن انطرح متهالكًا على هذا النحر الذي بدا وكأنه كان يسمح - للمرة الأولى - ليد رجل وفمه بأن يمساه، لمحت أنها لم تؤت سوى حلمة ثدى واحدة. وضربت جبهتى براحتى، وتفرست، فخُيل إليَّ أننى أرى أن هذه الحلمة لم تكن على غرار الأخرى في الشكل. وإذا بي أنقب في ذهني عن تعليل لوجود حلمة شوهاء، ولما رحت أقلب الفكر، اقتنعت بأن لهذه الظاهرة علاقة بعيب طبيعي واضح.. وتجلى لي - كوضح النهار - أنني لم أكن أحتضن بين ذراعَيّ أجمل حسناء كان بوسعي أن أتصوّرها، وإنما كنت أضمّ نوعًا من المسخ. كنت أضمّ نفاية الطبيعة، والرجال، والحب. وذهبت في غبائي إلى حد أن أحدّثها عن هذا العيب، فتلقَّت الأمر - في البداية - على محمل الدعابة، وقالت في مرحها وفعلت أشياء كانت كفيلة بأن تميتني هيامًا، ولكنها حين رأت بقية من قلق لم أقو على إخفائها، إذ بها تتضرج خجلًا ـ في النهاية ـ فتعتدل، وتسوى ثيابها.. ثم سارت - دون أن تنبس بكلمة واحدة - فجلست لدى نافذة مخدعها. ورغبت في أن أجلس إلى جوارها، فغادرت مكانها وجلست على أريكة، ثم نهضت بعد لحظة وتمشّت في الحجرة وهي تزفر، وقالت في لهجة قاسية، مهينة: « جانيتو ».. دع النساء، وادرس العلوم الرياضية »!

وقبل أن أبرحها، سألتها موعدًا آخر كي ألقاها في اليوم التالي، فأرجأته إلى اليوم الثالث، وأردفت - وهي تبتسم ابتسامة ساخرة - أننى ولا بد بحاجة إلى الاستجمام. وقضيت هذا الوقت متوعك المزاج، ملىء القلب بمفاتنها وحسنها، شاعرًا بحماقتي، لائمًا نفسي، متحسّرًا على اللحظات التي أسأت استغلالها ـ والتي كان في يدي، أنا وحدى، أن أجعلها أعذب لحظات حياتي - مترقبًا بأشدّ ألوان نفاد الصبر اللحظات التي أستطيع فيها أن أعوِّض ما فاتني.. ولكنني ظللت - مع ذلك - قلقًا بالرغم من نفسي، لا أدرى كيف أوفِّق بين مفاتن هذه الفتاة الرائعة، وبين فحش حالها.. وهرعت، بل طرت إلى دارها في الموعد المحدد. ولست أدرى أكانت هذه الزيارة خليقة بأن تضاعف من إرضاء طباعها الحادة.. كان غرورها - على الأقل - قمينًا بأن يجد في الزيارة عملًا يتملقه، ومن ثم رحت أستمتع - سلفًا - بغبطة ما كنت أعتزمه من أن أريها، بكل الوسائل، أنني كنت أعرف كيف أصلح أخطائي. ولكنها أعفتني من هذا العناء، فإن نوتى الجندول ـ الذي أوفدته إلى دارها، عندما رسونا ـ عاد إليَّ بنبأ رحيلها في اليـوم السابق إلى (فلورنسا). وإذا كنت لم أشعر بمدى حبي لها عندما كانت بين ذراعَيّ، فقد شعرت به في قسوة إذ فقدتها!.. ولم يفارقني قط ندمي المهتـاج.. ولقد استطعت أن أتعزَّى عن فقدها - وهي التي كانت موفورة اللطف وموفـورة الفتنة في عينَي - ولكني أعترف بأنني لم أستطع البتة أن أهوّن على نفسي الفكرة التي راودتني من أنها لم تحمل معها عني سوى ذكرى مهينة زرية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هاتان هما قصتاى الوحيدتان، فإن الشهور الثمانية عشر التي قضيتها في البندقية لم تخلف لي مزيدًا أرويه، اللهم إلا غرامًا لم يتجاوز أن يكون مجرَّد.. مشروع! فلقد كان « كاريو » مشغوفًا بالنساء، وقد سئم الذهاب دائمًا إلى دور فتيات كن على علاقات بسواه، فساورته نزوة أن تكون له بدوره عشيقة. ولما كنا لا نفترق، فقد اقترح عليَّ مشروعًا لم يكن نادر المثال في البندقية: أن نقتني فيما بيننا عشيقة!.. ولقد وافقت على ذلك، وبقى أن يجد غانية نطمئن إليها.. وبحث كثيرًا، حتى اهتدى إلى فتاة صغيرة، فيما بين الحادية عشرة والثانية عشرة من العمر، كانت أمها الخسيسة تسعى لكي تبيعها. وشاهدناها معها، فاهتزّ قلبي إشفاقًا إذ رأيت تلك الطفلة.. كانت شقراء، وادعة كالحمل، لا يظنّ مَن يراها أنها

إيطالية. وكانت نفقات المعيشة في (البندقية) زهيدة، فأعطينا الأم بعض المال، وتكفلنا بأن نعول الفتاة. وكان لها صوت رخيم، فوهبناها معزفًا صغيرًا، واستأجرنا لها مدرسًا ليلقنها الغناء، كي نهيئ لها وسيلة للعيش وكان كل هذا لا يكاد يكلف كلًّا منا قطعتين من فئة « السيكان » في الشهر، وقد كان كفيلًا بأن يوفّر علينا نفقات أخرى. ولكنه كان بمثابة البذر الذي لن يؤون حصاده إلا بعد أمد طويل، إذ لم يكن ثمة بد من أن ننتظر حتى تنضج الفتاة!.. على أننا كنا قانعين بأن نتردد على الدار49، فنقضى أمسياتنا في لعب وثرثرة بريئين مع هذه الصبية، فننعم بلهو قد يكون أنسب وأفضل مما كنا نحظى به لو أننا نلنا منها وطرًا.. وكم هو صحيح أن أشدّ ما يجذبنا إلى النساء لا يمت إلى الفسق بقدر ما يمت إلى لون خاص من المتعة يُستمد من الاقامة بالقرب منهن.. ولقد تعلّق قلبي بالصغيرة « انجوليتا » في شغف جنوني، ولكن هذا الميل كان أبويًا!.. ولم يكن لشهواتي أثر يُذكر في ذلك، فبقدر ما أخذ حبي ينمو، راح احتمال السماح لهذه الشهوات بأن تكون ذات سلطان عليه يتضاءل.. وكنت أشعر بأنني خليق بأن أستبشع أن أمس هذه الفتاة ـ إذا ما أدركت سن البلوغ - كما لو أن هذا العمل كان فاحشة مرذولة!.. وكنت أرى مشاعر كاريو الطيب تتخذ عين الاتجاه، دون أن يفطن.. كنا قد دبَّرنا لأنفسنا ـ دون أن نتكبد عناء التفكير في الأمر متعًا لا تقل عذوبة عن تلك التي كنا قد فكّرنا فيها من قبل، وإن اختلفت عنها. وإني لواثق من أننا كنا زاعمين بأن نظلّ حاميين للفتاة، لا مفسدين لها، مهما كان يحتمل أن يصير إليه جمالها إذا ما كبرت. على أن نكبتي50 وقعت بعد ذلك بقليل، فلم تدعني أساهم في هذا العمل الطيب، ولم يعد لي من نصيب في هذه المسألة اللهم إلا ميول قلبي.. فلنعد الآن إلى رحلتي:

كان أوَّل ما فكرت فيه بعد مغادرتي دار السيِّد دي مونتيجي؛ هو أن أعود إلى (جنيف)، أملًا في أن تؤدى بعض الظروف السعيدة إلى إزاحة العقبات وتمكيني من الانضمام إلى « ماما » المسكينة51. ولكن الضجة التي أحدثها شجاري مع السفير، وحماقته التي حملته على الكتابة عن ذلك إلى البلاط، جعلتانى أقرِّر الذهاب إلى البلاط بنفسي لأقدّم حسابًا عن مسلكي، ولأرفع شكواى ضد هذا الرجل المجنون. وكتبت إلى السيِّد دى « تييل » - القائم بالشئون الخارجية مؤقتًا، عقب وفاة السيِّد « اميلو » - عن قراره، ثم بارحت البندقية في أعقاب رسالتى مباشرة، فاتخذت طريقي مارًّا ببيرجامى، و (كومى)، و (دومو دوسولو)، وعبرت ممر (سيمبلون). وفي (سيون)، أبدى لي السيِّد دى « شينيون » - القائم بأعمال فرنسا - ألف مظهر من مظاهر الود. وكذلك فعل السيِّد ديلا كلوزير، في (جنيف). وهناك، جددت التعارف مع السيِّد دى جوفكور، الذي اضطررت لأن أتقبّل منه بعض المال. واجتزت (نيون) دون أن أرى أبي، ولم يكن هذا العمل ليعفيني من ألم قاس اختلج به فؤادي، ولكني لم أكن أملك أن أحمل نفسي على أن أظهر أمام زوجة أبي، بعد ما أصابني من سوء الطالع، إذ كنت موقنًا من أنها ستلقى الذنب عليّ دون أن تسمع قولي. ولقد لامنى « دوفيار » الكتبي - وكان صديقًا حميمًا لأبي - على هذا الخطأ لومًا شديدًا، فذكرت له السبب. ولكي نصلح الخطأ، استأجرت محفة ورحلنا معًا إلى (نيون)، فهبطنا في فندق. وانطلق « دوفيار » بحثًا عن أبي، الذي لم يلبث أن جاء مهرعًا فاحتضنني وتناولنا العشاء معًا. وبعد أن قضينا سهرة كانت جد ممتعة لفؤادي، عدت في صباح اليوم التالي إلى (جنيف) مع دوفيار، الذي ظللت دائمًا أذكر له بالعرفان، ما بذله من فضل في هذه المناسبة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يكن طريق (ليون) هو أقصر الطرق لغايتي، ولكنني رغبت في أن أمر بالمدينة، لأتحرى عن حيلة خسيسة من حيل السيِّد دي مونتيجي. إذ أننى كنت قد اجتلبت من باريس صندوقًا صغيرًا ضمَّ صديرية وُشيت حوافها بالذهب، وبضعة أزواج من أساور الأقمصة المزركشة، وستة أزواج من الجوارب الحريرية البيضاء، ولا شيء أكثر من ذلك. واستجابة

لاقتراح عرضه على السيِّد دى مونتيجى نفسه، ضممت هذا الصندوق - أو بالأحرى، هذه العلبة - إلى متاعه. ولكنه في كشف حساب الصيدلي - الذي أراد حملي على قبوله في مقابل مرتبى، والذي كتبه هو بيده ـ ذكر أن هذه العلبة، التي أسماها « طردًا »، كانت تزن أحد عشر قنطارًا، وتقاضاني لذلك عن نقلها أجرًا هائلًا. واستطعت التحقق - بفضل السيِّد بوى ديلاتورا، الذي أوصاه بى السيِّد روجان خاله - من سجلات جمارك ليون ومارسيليا، أن « الطرد » المزعوم لم يكن يزن سوى خمسة وأربعين رطلًا، وأن أجر النقل لم يُدفع إلا عن هذا الوزن. وقد أضفت هذا البيان الرسمي إلى ذكريات السيِّد دى مونتيجي. وعدت إلى باريس مزوّدًا بهذه الوثائق وبكثير من أمثالها، وأنا متلهف على استغلالها. ولقد صادفت - خلال هذه الطريق الطويلة - مغامرات صغيرة في (كومي)، بإقليم (فاليه)، وفي بقاع أخرى. ولقد رأيت - فيما رأيت - جزر (بوروميه) التي كانت جديرة بأن تُوصف. ولكن الوقت كان يمرّ سراعًا، وكان الجواسيس يضيقون عليّ النطاق، ومن ثم فقد كنت مضطرًّا إلى أن أنجز - في سرعة وبأسوا حال - رحلة كانت تتطلّب سعة من الوقت والطمأنينة، الأمر الذي كان يعوزني. وإذا قُدِّر للعناية أن ترعاني وأن تتيح لي - أخيرًا - أيامًا أكثر سكينة وطمأنينة، فلسوف أخصص هذه الأيام لإعادة صوغ هذا المؤلف - إن استطعت - أو لأضيف إليه جزءًا مكملًا، أشعر بأنه محتاج إليه كل الاحتياج52.

وكان ضجيج قصتي قد سبقني، فما أن وصلت إلى باريس حتى ألفيت كل امرىء - سواء من الرسميين أو من العامة - قد استنكر حماقات السفير. وبالرغم من هذا، وبالرغم من صيحة الرأي العام في البندقية، وبالرغم من الأدلة غير المدحوضة التي قدّمتها، فإنني لم أستطع أن أظفر بالانصاف!.. بل إن الأمر لم يقتصر على أننى لم أفز بإرضاء ولا بتعويض، وإنما تُركت - فوق هذا - تحت رحمة السفير، فيما يتعلق بمرتبى، وذلك لمجرَّد أنني لم أكن فرنسيًّا، فلم يكن لي الحق في أن أستجير بالدولة، ومن ثم فقد كانت المسألة شخصية، لا تخص سوانا نحن الاثنين!.. كان كل امرىء يقرّني على أنني أُهنت وأُوذيت ونُكبت، وعلى أن السفير كان معتوهًا، قاسيًا، ظالمًا، وأن المسألة كلها كانت عارًا باقيًا له. ولكن، ماذا بعد كل هذا؟!.. لقد كان هو السفير، أما أنا فلم أكن سوى السكرتير.. وكان النظام الصالح - أو ما يُطلق عليه هذا الاسم - يقتضي ألّا أنال أي انصاف، فلم أنل شيئًا منه!.. ولقد خُيّل إليَّ أننى بالشكايات المستمرة، وبإظهار هذا الأحمق أمام الملأ بما كان يستحق أن يظهر به، قد أستطيع أن أضطرّهم إلى أن يطلبوا إليَّ أن أعقل لساني، وهو عين ما كنت أرتقبه، إذ أنني كنت قد صممت على ألا أطيع حتى أظفر بالانصاف. بيد أنه لم يكن ثمة وزير للخارجية إذ ذاك. ولقد تُركت أصرخ، بل إننى لقيت تشجيعًا على ذلك، ووجدت مَن ردَّد صراخي، ولكن القضية ظلّت دائمًا عند هذا الحد، حتى سئمت - في النهاية - أن أظلّ دوامًا على حق دون أن أنال إنصافًا، فثبطت عزيمتى، وبقيت على حالي!

وكان الشخص الوحيد الذي أساء استقبالي، والذي كان أقلّ الناس إصغاء لشكاتي، هي السيِّدة دي بوزينفال. فقد كانت لفرط اعتزازها بالامتيازات المترتبة على الجاه وسمو المكانة، لا تملك أن تفهم أن من الممكن لسفير أن يسىء إلى سكرتيره. وقد كان مسلكها في استقبالى مطابقًا لهذه النعرة الباطلة. ولقد غاظني هذا، حتى أنني كتبت إليها - بعد مبارحتى دارها - خطابًا لعله أشدّ وأعنف خطـاب كتبته في حياتي، ولم أذهب إلى دارها بعد ذلك قط!.. ولقد أكرم الأب كاشيل وفادتي، ولكنني لمحت - خلال تملقه الجـزويتي - أنه كان يتبع في أمانة مبدأ من أعظم مبادىء المجتمع.. ذلك هو: التضحية دائمًا بالأضعف من أجل خاطر الأقوى!.. ولكن شعوري المتأجج بعدالة قضيتي، وكبريائي الفطرية، لم يدعاني أطيق هذا التحيز صابرًا. فكففت عن زيارة الأب كاستيل، وبالتالي زيارة الجيزويتيين الذين لم أكن أعرف من بينهم سواه!.. وإلى جانب هذا، فإن روح الجور والدس لدى زملائه، كانت تختلف عن صلاح الأب هيميه الطيب، مما جعلني أشعر بنفور من اجتماعهم، حتى أننى - منذ ذلك الحين - لم أر أحدًا منهم، اللهم إلا الأب بيرتييه، الذي

قابلته مرتين أو ثلاثًا لدى السيِّد دوبان، إذ كان يعمل معه بكل ما في وسعه على تفنيد آراء مونتسكيو!

فلنختتم ـ إلى غير رجعة - ما بقى لديَّ من قول عن السيِّد دى مونتيجى!.. لقد كنت أقول له - في منازعاتنا - إنه لا يليق به أن يستخدم سكرتيرًا، وإنما الأليق به أن يستخدم أحد كتبة المحامين. ولقد أخذ برأيي هـذا، واستخدم - كخليفة لي - كاتب محام حقًا، فلم يلبث أن سرق منه، في أقل من عام، عشرين ألف أو ثلاثين ألف ليبرة. ولقد فصله وزجّ به في السجن، وفصل مستشاريه في عاصفة من الفضيحة والتشهير، وتشاجر في كل مكان، وتلقّى من الاهانات ما كان الخادم يربأ بنفسه أن يتلقّاه، وانتهى - بفضل حماقاته - إلى أن استدعى، وفُصل من منصبه وأُقصى إلى الريف!.. وكان من الواضح أن مسألتي لم تكن منسية بين المسائل التي وُجِّه إليه اللوم بشأنها في البلاط. وعلى أية حال، فقد أوفد إليَّ - بعد قليل من اعتزاله العمل - وكيل أعماله كى يسوى حسابي ويدفع لي نقودي، التي كنت في حاجة ماسة إليها، إذ كانت ديوني في (البندقية)، ديون شرف - إذا جاز أن نسميها كذلك يومًا - وكانت تُثقل قلبي بالهم. فانتهزت الفرصة لتسديدها، بما في ذلك سند « جانيتو نانى ». ومن ثم أخذت ما قُدِّم لي، ودفعت كل ديونى. ومع أن هذا خلفنى معدمًا - كما كنت من قبل - إلا أنني تخففت من عبء كان قد أصبح أثقل من أن أحتمله. ومنذ ذلك الحين لم أسمع كلمة عن السيِّد دى مونتيجى حتى موته، الذي علمت به من صوت الشعب53.. فليرحم الله هذا الرجل المسكين!.. لقد كان في صلاحيته لمهنة السفير لا يفضلني في صلاحيتي - في صباى - لمهنة المحاماة54. على أنه كان في يده - هو وحده - أن يسلك مسلكًا شريفًا في الاستعانة بي، وأن يكفل سرعة ارتقائي إلى المنصب الذي كان الكونت دى جونون قد رسم لي الطريق إليه ـ في صباى - والذي استطعت بالاعتماد على نفسي فقط أن أصل إليه في سن متقدمة!

ولقد خلفت عدالة شكاياتي، وعدم جدواها، بذور السخط في نفسي على نظمنا المدنية الحمقاء، التي تضحي بفضلها المصلحة العامة والعدالة الحقّة، لغير ما مصلحة واضحة أعرفها. بل إنها لتهدم فعلًا كل نظام ومصلحة، ولا تؤدّى إلا إلى أن تخلع شرعية السلطة العامة على ما ينال الضعيف من ظلم، وما يبديه القوى من جور!.. ولم يمنع هذه البذور من أن تنمو إذ ذاك - كما ترعرعت فيما بعد - سوى أمـرين: أولهما أن المسألة كانت شخصية لا تتعلَّق بسواى، والمصلحة الشخصية - التي لم تؤد قط إلى أي شيء عظيـم أو نبيل - لا يمكن أن تنتزع من قلبي قط تلك الخفقات القدسية التي لا يمكن لغير أنقى حب للعدالة والجمال أن يثيرها فيه.. أما الثاني فهو سحر الصداقة الذي سكب على غضبى شعورًا ناعمًا خفَّف من حدّته وهدأ من سورته. إذ كنت قد تعرّفت في البندقية على شخص من أبناء منطقة خليج (بسكاى)، كان صديقًا لصديقي كاريو، وكان جديرًا بصداقة كل رجل شريف. وكان هذا الشاب اللطيف - الذي أوتي كل المواهب وكافة الفضائل - قد شرع في جولة في ربوع إيطاليا، لينمي في نفسه الميل إلى الفنون الجميلة. وإذ خُيّل إليه أنه لم يعد ثمة مزيد يحصله، همَّ بالعودة إلى وطنه مباشرة، فأخبرته بأن الفنون ليست سوى مجرَّد تسلية لعبقرى مثله خُلق لكي ينمى العلوم. وأشرت عليه بأن يرحل إلى باريس، فيقضى فيها ستة أشهر في سبيل ذلك.

وقد صدّقنى وأخذ بنصيحتي، ومن ثم فإنه رحل إلى باريس.. وكان في انتظاري عندما عدت إليها.. وكان مسكنه أكثر اتساعًا من حاجته، فعرض علىَّ أن أشاطره إياه، وقبلت. وقد وجدته مليئًا بالتحمس لفروع المعرفة العليا. ولم يكن من شيء يسمو على قوى إدراكه، فكان يستوعب ويهضم كل شيء بسرعة تدعو إلى العجب. ولكم شكر لي أن هديته إلى هذا الغذاء لعقله الذي كان يتحرَّق ظمأ إلى المعرفة، دون أن يدرى كنه هذا الظمأ ومبعثه!.. أية كنوز غنيـة بالأنوار والفضائل وجدتها في هذه النفس القوية!.. لقد شعرت

بأنه الصديق الذي كنت أصبو إليه، فغدونا وثيقى الصلة. ولم تكن مشاربنا واحدة، فكنا دائمًا في جدال.. ولم نكن نتفق قط على أمر واحـد، إذ كان كل منا عنيـدًا. ومع ذلك فقد كنا لا نطيق فراقًا. ومع أننا كنا نتعارض دون انقطاع. إلا أن كلًّا منا لم يكن يتمنى أن يكون الآخر غير الذي كانه!

كان « ايناسيو ايمانويل دي ألتونا » من أولئك الأفـراد النادرين، الذين لا تنجبهم سوى أسبانيا، وقلّما تستأثر بهم من أجل مجدها الخاص. ولم تكن له تلك النعرات القـومية العنيفة، المألوفة لدى قومه، كما أن فكرة الثأر كانت من البُعد عن ذهنه بمثل ما كانت الرغبـة فيه بعيـدة عن قلبه. وكان أسمى نفسًا من أن يحقد، وكثيرًا ما سمعته يقول في هـدوء مفرط، إنه ليس في وسع الإنسان الفاني أن ينال منه. وكان ميَّالًا إلى النساء في غير لين أو ضعف، فكان يلاعب النسـاء وكأنهن أطفال صغار.. وكان يلهو مع عشيقات أصدقائه، ولكني لم أر له يومًا عشيقة قط، ولا عرفته يشتهى أن تكون له واحدة. كانت نيران الفضيلة المتأججة في قلبه لا تدع مجالًا قط للواعج الشهوة!

ولقد تزوَّج هذا الشاب عقب أسفاره، ومات في ريعان الشباب، مخلِّفًا أطفالًا، وإني لأومن - إيمانى بوجودى - بأن زوجتـه كانت المرأة الأولى، والوحيـدة، التي أذاقته ملاذ الحب!.. ولقد كان في ظاهره تقيًا كأى أسباني آخر، أما في باطنه فكانت تقواه كتقوى الملائكة. وفيما عداى، كان هـو الشخص المتسامح الوحيـد الذي رأيته في حياتي، فما سأل امرءًا عن آرائه الدينية، وما كان ليعنيه كثيرًا أن يكون صديقه يهوديًّا، أو بروتستانتيًّا، أو تركيًّا55!، أو متعبـدًا، أو زنديقًا، ما دام هذا الصديق أمينًا شريفًا. وبقدر ما كان عنيدًا، جامد الرأس إزاء آراء ضئيلة الأهمية، فإنه كان يتراجع بمجرَّد أن يتحوَّل الجدل إلى الدين، أو حتى إلى الأخلاق، وكان يمسك لسانه، أو يكتفى بأن يقول: « لست مسئولا إلا عن نفسي! ». ومن الأمور التي تجلّ عن التصديق، أن يتسنى الجمع بين سمو روحى كهذا وعقل يعني بأدق التفصيلات. فقد كان يقسم يومه بالساعات ويحدِّد - مقدمًا - استخدام كل ساعة، بل كل ربع ساعة وكل دقيقة، ويتبع هذا التقسيم بدقة بالغة، إلى درجة أنه كان - إذا دقَّت الساعة وهو في منتصف إحدى العبارات - يغلق الكتاب دون أن يتمّ العبارة!.. وكان بين كل هذه الأقسام - التي اعتاد أن يقسم إليهـا يومه - ما هو مخصص للدرس، وما هو للتأمل، وما هـو للحديث، وما هو للعبادة، وما هو لقراءة مؤلفات « لوك »، وما هو لتلاوة التسابيح، وما هو للزيارات، وما هو للموسيقى، وما هو للرسم.. ولم يكن لأي لهو، أو أي إغراء، أو أية مجاملة مجال للتدخل في هذا النظام، اللهم إلا إذا كان واجبًا لا بد من أدائه!.. وعندما أعطاني بيان تقسيمه الوقت - عسى أن أتبعه - طفقت أضحك، حتى انتهيت بدمـوع الاعجاب!.. ولم يكن يثقل على الغير إطلاقًا، ولا يحتمل أن يثقل عليه الغير، وكان حازمًا مع أولئك الذين كانوا يحاولون مضايقته في أدب. وكان حار المزاج، ولكن في غير عبوس. فكثيرًا ما رأيته منفعلًا، ولكني لم أره قط مغضبًا. ولم يكن ثمة ما يفوق مرحه وبشاشته، وكان ينصت إلى الفكاهة ويحب أن يتفكه، وكان في ذلك لامع البديهة، أوتى موهبة في قصائد الهجاء. فإذا ما استثاره أحد، انقلب صارخًا صاخبًا، حتى ليُسمع صوته على بُعد.. ولكن الابتسامة كانت تُرى على أساريره، أثناء صياحه، وكان - في غمرة انفعاله - يُطلق بعض الملح فيحمل الجميع على الضحك. ولم يكن بدين الجسم، كما أنه لم يؤت سيماء الأسبانيين.. كانت بشرته بيضـاء، وخداه ممتلئين، وشعره بنيًّا فاتحًا، يكاد يقرب من الصفرة، وكذلك كان طويل القوام، متين البنيان، ذا جسد جدير بأن يأوى روحه!

هذا الشخص الذي أوتى قلبًا يشبه رأسه حكمة وعقلًا، كان على بصيرة بالناس، وقد كان صديقًا لي.. وهذا كل ما أقول لمن هو ليس من أصدقائي. ولقد توثقت صلتنا، حتى لقـد فكرنا في أن نقضى عمرينا معًا، فأذهب - بعد سنوات - إلى (اسكويشيا) لأعيش معه في ضيعته. ولقد دبَّرت جميع أجزاء هذا المشروع ـ فيما بيننا - في اليوم السابق على رحيله.

ولم يعد ينقصنا سوى ذلك الذي لا يملكه الإنسان لنفسه في مشروعاته، مهما يحسن تدبيرها.. فلقد قُدِّر للأحداث بعد ذلك ـ وأعنى مصائبى، وزواجه، وموته في النهاية - أن تفرِّق بيننا إلى الأبد!.. وما أجدر المرء بأن يقول إنه لا نجاح إلا للخطط السوداء التي يدبّرها اللئام.. أما المشروعات البريئة التي يدبّرها الطيبون، فإنها لا تكاد تتحقق قط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولما كنت قد تذوَّقت متاعب العمل في خدمة الغير، فقد عقدت العزم على ألَّا أعـرِّض نفسي لذلك مرة أخرى. ذلك أنني رأيت أن خططي الطموحة التي أغرتني الظروف بتدبيرها كانت تنقلب رأسًا على عقب بمجرَّد مولدها، وثبطت رغبتى في العودة إلى مهنة بدأتها بمثل هذا النجاح، ولكنني - رغم ذلك - طُردت منها.. ومن ثم فقد آليت على نفسي ألّا ألتحق ثانية بخدمة أحد، وأن أظلّ مستقلًا، فأستغل مواهبي التي كنت قد بدأت - أخيرًا - أقدِّر مداها، والتي كنت - حتى ذلك الحين ـ لا أنظر إليها إلا في تواضع. لذلك استأنفت العمل في « الأوبرا » التي كنت قد انصرفت عنها نظرًا لرحيلي إلى (البندقية). ولكي أفرغ إليها في أقصى هدوء ممكن - عقب رحيـل « التونا »، فقد عدت إلى الإقامة في فندقى القديم - « سان كينتان » - الذي كان يقع في حي منعـزل، يبعد قليلًا عن (لوكسمبورج)، فكان لذلك أكثر ملائمة - لتمكيني من العمل في هدوء - من المسكن القائم في شارع (سانت أنوريه) الصاخب. وهناك وجدت في انتظارى السلوى الحقيقية التي أذاقتنيها السماء في شقوتي، والتي كان لها وحدها فضل تمكيني من أن أتحمل تلك الشقوة. ولم تكن هذه السلوى معرفة عابرة، ومن ثم فلا بد لي من الإقدام على بعض الاسهاب في بيان الطريقة التي نشأت بفضلها.

فلقد أوتينا في الفنـدق مضيفة جديدة من (أورليـان)، اختارت للعناية بالغسيل فتـاة من بلدها، فيما بين الثانيـة والعشرين والثالثة والعشرين من عمرها، كانت تتناول الطعام معنا، شأنها في ذلك شأن المضيفة. وكانت هـذه الفتاة - المسماة تيريز لافاسير - من أسرة طيبة، فقد كان والدها مراقب العملة في أورليان، وكانت أمها تاجرة. وكان الأبوان كثيري العيال. ولما كفَّت دار سك النقود ـ في أورليان - عن العمل، وجد الأب نفسه على قارعة الطريق، بلا عمل.. في حين أن الأم أفلست، وتخبطت في أعمالها، وانتهت إلى التخلّى عن تجارتها، فجاءت إلى باريس مع زوجها وابنتها التي أخذت تعول ثلاثتهم من عملها!

وعندما رأيت هذه الفتاة على المائدة للمرة الأولى، أُخـذت بمسلكها المحتشم، وزادتني دهشة نظراتها الوثابة اللطيفة، التي بدت لعينَي - إذ ذاك - نادرة المثال. وكانت الثلة التي تجتمع حول المائدة تضم - إلى جانب السيِّد دي بونفون - عدَّة من القساوسة الأيرلنديين والجسكونيين، وبعض أفراد آخرين على شاكلتهم. وكانت مضيفتنا نفسها زعيمة الفوضى في حياتنا، في حين أنني كنت الوحيد الذي اعتاد أن يتكلم وأن يتصرَّف في وقار واحتشام. ولقد عاكسوا الفتاة المسكينة، فتوليت الدفاع عنها، فإذا بالساخرين ينقلبون علىَّ. ولو أننى لم أحس بميل طبيعي نحو الفتاة المسكينة، لكان الشعور بالاشفاق، بل والمعارضة، كفيلًا بأن يخلق هذا الميل، فقد كنت أعجب بالاحتشام في الأقوال والأفعـال، لا سيما لدى الجنس الآخر. ومن ثم غدوت جهارًا نصير الفتـاة. ورأيت أنها قد تأثَّرت بعطفى، وأن نظراتها أخذت تطفح بعرفان لم تكن تجرؤ على البوح به، مما كان يزيدني لباقة وطلاقة لسان!

ولقد كانت شديدة الخجل، وكذلك كنت أنا. وسرعان ما نمت الرابطة التي لاح أن هذا التشابه في الطباع كان خليقًا بأن يعوقها!.. وأهاج ذلك مضيفة الفندق - إذ لاحظته - فإذا بمسلكها الفظ يزيد من تطوّر علاقاتي مع الصغيرة التي لم يكن لها سواي نصير في الدار، ومن ثم فإنها كانت ترمقني في أسى إذا خرجت، وتتنهّد في ارتياح إذا ما عاد حاميها!..

وما لبث تجاوب قلبينا وتشابه طباعنا أن أحدثا أثرهما المعتاد!.. فقد خُيّل للفتاة أنها رأت في شخصى رجلًا شريفًا، ولم تكن مخطئة في ذلك ولقد خُيّل إليَّ أننى أرى فيها فتاة مرهفة الحس، بسيطة، خالية من الخلاعة، ولم أكن - بدورى - مخطئًا في ذلك!.. ولقد أنبأتها - منذ البداية - بأنني لن أهجرها قط، ولن أتزوّجها إطلاقًا!.. وكان الحب، والاحترام، والاخلاص الصادق هم رسل فوزى، وذلك لأن قلبها كان رقيقًا، أمينًا.. مما جعلني سعيدًا دون ما حاجة إلى أن أكون جريئًا!

ولقد أدَّى خوفها من أن أستاء إذا لم أجد لديها ما كانت تعتقد أننى أنشده، إلى تأخير هنائي أكثر من أي شيء آخر. ورأيت أنها كانت مضطربة مرتبكة قبل أن تسلمني نفسها، مشوقة إلى أن تمكنني من أفهمها، دون أن تجرؤ على الايضاح بنفسها. وإذ كنت بعيدًا عن أن أحدس السبب الحقيقي لحرجها، فإنني عزوته إلى سبب جد خاطيء، وجد مهين لشخصها وأخلاقها. فقد اعتقدت أنها كانت ترمي إلى أن تنبهني إلى أن صحتى قد تتعرَّض للأخطار، وأوقعنى هذا في كثير من الحيرة، التي لم تصدّني عنها، ولكنها سممت هنائى أيامًا عديدة. وإذ عزَّ على كل منا أن يفهم الآخر، فإن أحاديثنا في هذا الصدد كانت ألغازًا وأحاجي تدعو إلى أكثر من الضحك. حتى لقد كانت الفتاة موشكة أن تظنني معتوهًا، كما أنني كنت لا أكاد أعرف لنفسي رأيًا فيها. وأخيرًا تصارحنا. واعترفت لي ـ وهي باكية ـ بزلة وحيدة تعرَّضت لها وهي تغادر مرحلة الطفولة، وكانت ثمرة جهلها ودهاء الشخص الذي أغواها. وما أن فهمتها حتى صحت في اغتباط: « البكارة!.. جميل أن تُرتجي في باريس، وفي سن العشرين!.. آه! يا تيريزى، إننى لجد سعيد بأن أحظى بك حكيمة سليمة، ولا أجد فيك ما لم أكن أنشده! ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم أكن أسعى في البداية لغير العبث، ولكنني ما لبثت أن تبينت أنني وجدت أكثر من ذلك، وأننى أوتيت زميلة!.. فإن قليلًا من الألفة مع هذه الفتاة الرائعة، وقليلًا من التأمل في موقفى، جعلاني أشعر أننى - في الوقت الذي لم أكن أفكر فيه في غير ملذاتي - قد خطوت خطوات كثيرة في تدعيم هنائي. كان لا بد لي من عاطفة محتدمة تحتلّ محل طموحي الخابي، فتملأ فؤادي. وقصارى القول أننى كنت بحاجة إلى خليفة لماما.. ولما كنت مضطرًا إلى ألّا أعـاود العيش معها قط، فقد بات من المحتوم أن أبحث عمَّن تعيش مع تلميذها، وعمّن أجد لديها من البساطة ورقة القلب ما كانت تجده لديَّ. وكان لا بد لي من نعيم الحياة الخاصة وألفة المعاشرة، لتعوضني عن المهنة اللامعة التي كنت قد نبذتها.. كنت إذا ما خلوت بنفسي وحيدًا، أشعر بقلبي خاويًا، لا يمكن أن يملأه سوى مخلوق آخر.. وكان القدر قد حرمني من تلك التي خلقتني الطبيعة من أجلها، أو أقصاني عنها على الأقل. ومن ذلك الحين ظللت وحيدًا، إذ أنني لم أعرف في حياتي قط وسطًا بين كل شيء أو لا شيء56. ولقد وجدت في تيريز العوض الذي كنت بحاجة إليه، فعشت بفضلها سعيدًا بقدر ما سمحت تطورات الأحداث!

ورغبت - في البداية - في أن أشكّل ذهنها، فبددت في ذلك جهودي، إذ ظلّ ذهنها كما صاغته الطبيعة، ولم يكن للثقافة والتعليم تأثير عليه.



ورغبت ــ في البداية ــ أن اشكل ذهنها ، فبددت في ذلك جهودي اذ ظل
ا كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة والتعلم تاثير عليه .

ولست أخجل إطلاقًا من أن أعترف بأنها لم تتعلّم البتة كيف تجيد القراءة، وإن لم يكن ثمة بأس بكتابتها. وعندما انتقلت للسكني في شارع (نيف ديه بيتى شاب)، كانت هناك ـ أمام نوافذي في فندق بونشارتران - ساعة اضطررت إلى أن أقضى أكثر من شهر في تدريب تيريز على تعرّف الوقت عليها. ومع ذلك فإنها لا تكاد - حتى الآن - تحذق ذلك. ولم تستطع يومًا أن تذكر أشهر السنة الاثني عشر بترتيبها الطبيعي، كما أنها لم تعرف رقمًا واحدًا، برغم كل العناء الذي تجشمته كي أعلّمها الأرقام. فهي لا تستطيع أن تعد النقود، أو أن تحسب ثمن أي شيء.. أما الكلمات التي تستخدمها في الكلام، فكثيرًا ما تكون نقائض ما تريد قوله بالذات!.. ولقد أعددت مرة قاموسًا لتلك العبارات، كى أسرى عن مدام « لوكسمبورج »، فإذا أخطاؤها تذيع في المجتمع الذي كنت أعيش فيه. بيد أن هذه الفتاة كانت مستشارًا رائعًا في المناسبات العصيبة، برغم ضيق عقلها إلى هذا الحد، أو برغم غبائها إن شئتم!.. وكثيرًا ما كانت ترى في المحن التي كنت أجدني فيها ـ في سويسرا أو إنجلترا أو فرنسا - ما لم أكن أراه أنا نفسي، فكانت تمحضني من النصح خير ما ينبغي أن أتبع، وكانت تنتزعني من أخطار كنت أندفع إليها كالأعمى.. وفي حضور أرقى السيّدات، وفي محضر العظماء والأمراء، كانت مشاعرها وآراؤها الجيّدة وإجاباتها ومسلكها تنتزع لها التقدير العام، وتجتلب من التهانيء ـ لطيف خصالها - ما كنت أشعر بصدقها!

والعاطفة - في قرب المحبوب - تغذّى العقل كما تغذّى الفؤاد، فلا يعود ثمة داع للبحث عن الأفكار في أي مكان آخر!.. ولقد عشت مع تيريز في خير ما كنت خليقًا بأن أعيش فيه مع أجمل عبقرية في الكون. ولقد حاولت أمها - التي كانت تفخر بأنها تربَّت في الماضي مع المركيزة دى مونبيبو - أن تدّعى رجاحة العقل، ورغبت في أن تتكفَّل بتوجيه عقل ابنتها، فأفسدت بحيلها بساطة تعاشرنا. ودفعني الغيظ من هذه المضايقة إلى أن أتغلب - بعض الشيء - على الحياء الأحمق الذي لم أكن أجرؤ معه على الظهور مع تيريز أمام الملأ، فأصبحنا نقوم معًا بنزهات قصيرة في الريف، حيث كنا نتناول وجبات بسيطة كانت تلذ لي. ولقد تبينت أنها كانت صادقة في حبها إياى، فضاعف هذا من حناني. ولقد عوضتني هذه الألفة الناعمة عن كل شيء، ولم يعد المستقبل يشغلني، أو بالأحرى أنه أصبح لا يشغلني إلا كامتداد للحاضر، إذ أنني لم أعد أشتهي سوى أن أطمئن إلى بقاء هذا الحاضر!

وأدّت هذه العلاقة إلى أن أصبحت كل الملاهي الأخرى نفايات عقيمة، فلم أعد أغادر مسكنى إلا لأذهب إلى تيريز، وبات مسكنها مقرى تقريبًا. ولقد صارت هذه الحياة المنعزلة عظيمة النفع لعملي، حتى أن « الأوبرا » التي كنت عاكفًا على تأليفها، اكتملت - كلامًا وموسيقى - في أقل من ثلاثة أشهر. ولم تبق سوى بعض ألحان تكميلية وبعض ألحان لتصحب المناظر. وقد ضايقني هذا كثيرًا، فعرضت على « فيليدور » أن يتولاه في مقابل نصيب من الربح، فجاء مرتين، وأضاف بعض الحشو إلى الفصل الخاص بالشاعر « أوفيد »، ولكنه لم يستطع أن ينصرف إلى هذا العمل - الذي كان يتطلب مثابرة - في مقابل ربح بعيد وغير مضمون. ومن ثم فإنه لم يعد، وأكملت عملى بنفسي.

وإذ اكتملت « أوبراى »، آن لي أن أحصِّل من ورائها بعض الدخل، وكان هذا - في حد ذاته - « أوبرا » أخرى، أشدّ عناء!.. فليس من سبيل إلى بلوغ غاية في باريس، إذا كان المرء يعيش في عزلة. ولقد فكَّرت في أن أستعين بالسيِّد ديلابوبلينيير، الذي قدّمني إليه جوفكور في داره، عند عودتي من جنيف. وكان السيِّد ديلابوبلينيير هو نصير[57] رامو، إذ كانت السيِّدة ديلا بوبلينيير تلميذة هذا المتواضعة، المتفانية في الطاعة، ومن ثم فقد كان « رامو » هو المطر والصحو[58] في هذا المنزل، كما ينبغي أن يُقال.. ولقد ظننت أنه قد يغتبط بأن يساند عملًا من ابتكار أحد تلاميذه، فرغبت في أن أريه مؤلفي، ولكنه أبى أن يراه، قائلًا إنه لم يكن يستطيع أن يقرأ مقطوعات، إذ أن هذا كان يتعبه كل التعب. وعقب لابوبلينيير على ذلك بأن في الوسع حمله على الإصغاء، وعرض أن يجمع موسيقيين لأداء

بعض القطع، ولم أكن أرجو أفضل من هذا.. ووافق « رامو » وهو يزمجر، ودون أن يكفّ عن أن يردِّد أن الألحان التي يضعها رجل لم ينشأ في جو موسيقي، وإنما تعلَّم الموسيقى بنفسه دون ما عون، لابد وأن تكون شيئًا بديعًا!.. وأسرعت أنسخ أدوار خمس أو ست من أحسن المقطوعات، وتهيأ لي اثنا عشر من العازفين، بينما تولى الغناء ألبرت، وبيرا، والآنسة بوردونيه. وما أن بدأ لحن الافتتاح، حتى رمى « رامو » - باطنابه في المديح - إلى الإيحاء بأن اللحن ما كان ليمكن أن يكون من تأليفي. ولم يدع مقطوعة تمرّ دون أن يبدى أمارات البرم ونفاد الصبر. ولكنه لم يلبث أن عجز عن تمالك نفسه عند سماع أغنية بصوت « كونترتينور » - كان أداؤها قويًا محكمًا، والموسيقى المصاحبة لها رائعة - فخاطبني في خشونة ذُهل لها الجميع مستنكرين، وأعلن أن جزءًا مما سمع كان من عمل رجل أفنى في الفن عمره، في حين أن الباقي من عمل جاهل لم يكن على إلمام بالموسيقى ذاتها!.. ومن الصحيح أن مؤلفي كان غير متناسق وعلى غير قاعدة، ومن ثم فقد كان رفيع القيمة في بعض أجزائه، وعقيمًا في بعض آخر، شأن العمل الذي يقوم به كل امرىء لا يرقى بنفسه إلا بمعونة بعض ومضات من العبقرية، دون ما سند من العلم. وزعم « رامو » أنه لم يكن يرى في شخصى سوى سارق صغير، لم يؤت أية موهبة ولا أي ذوق!.. ولكن العازفين، ورب الدار - بوجه خاص - لم يشاركوه رأيه. ولقد سمع السيِّد دى « رشيليو » - الذي كان يُكثر إذ ذاك من زيارة رب الدار، والسيِّدة دى بوبلينيير، كما هو معروف - بحديث مؤلفي، فرغب في أن يسمع « الأوبرا » بأكملها، معتزمًا أن يعمل على عرضها في البلاط إذا راقت له. ومن ثم مثلت « الأوبرا » - بكامل ما كانت تتطلّب من مغنيين وموسيقيين - على نفقة الملك، في دار السيِّد بونيفال، الموكل بالحفلات الملكية. وقام « فرانكير » بالإخراج.. ولقد كانت النتيجة مدهشة، حتى أن السيِّد الدوق دى « ريشيليو » لم يكفّ عن الصياح والتصفيق. وفي نهاية أغنية جماعية - في الفصل الخاص بتاس - نهض وجاءني فصافحنى قائلًا: « هذا هو اللحن الذي يشجي، يا سيِّد روسو!.. ما سمعت قط أجمل منه، وإني لأودّ أن أقدّم هذه التحفة في فرساى! ». ولم تنبس السيِّدة دى بوبلينيير - التي كانت حاضرة - بكلمة واحدة. أما « رامو »، فبالرغم من أنه دُعى، إلا أنه لم يشأ أن يحضر.

وفي اليوم التالي، استقبلتني مدام بوبلينيير - في غرفة زينتها - استقبالًا شديد الجفوة، وتعمَّدت أن تحط أمامي من شأن مؤلفي، وقالت لي إنه بالرغم من أن بعض الوميض الزائف قد بهر السيِّد دى « ريشيليو »، إلا أنه قد ثاب إلى نفسه، ونصحتني بألّا أعول كثيرًا على أوبراى!.. وأقبل السيِّد الدوق بعد قليل، فتحدَّث إليَّ بلهجة تُخالف ذلك تمامًا، إذ أطرى مواهبي، وبدا مصرًّا على أن يعمل على عرض مؤلفي على مشهد من الملك.. وقال: « ليس هناك ما لا يمكن إجازته في البلاط، سوى الفصل الخاص بتاس، فعليك أن تكتب فصلًا غيره! ». وكانت هذه العبارة وحدها حافزًا دفعني إلى أن أذهب إلى داري، فأحتبس نفسي. وفي غضون ثلاثة أسابيع، استطعت أن أضع فصلًا يحلّ محل فصل « تاس »، وكان موضوعه « هيسيود »59 يتلقَّى الالهام من إحدى عرائس خياله ».

واهتديت إلى طريقة خفية مكنتني من أن أدس في هذا الفصل قسطًا من تاريخ مواهبي وقصة الغيرة التي راق لرامو أن يكرم بها هذه المواهب. ولقد كان في هذا الفصل الجديد سمو أقل جبروتًا وأكثر تمسكًا وإحكامًا مما كان في الفصل الذي كان يدور حول « تاس ». وكذلك كانت الموسيقى أروع وأرقى، ولو أن الفصلين الآخرين كانا معادلين لهـذا، لقُدِّر للأوبرا أن تُعرض بنجاح. بيد أن مشروعًا آخر عرض لي - فيما كنت أقوم بصقل الفصل وتنقيحه - فأرجأت أداء هذه المسرحية!

من سنة 1745 إلى سنة 1747

أُقيمت في (فرساى) - في الشتاء الذي أعقب معركة دى فونتينو - حفلات كثيرة، كان بينها عدة أوبرات عُرضت في مسرح الـ « بيتيت ايكورى ». وكان بين هذه مسرحية فولتير،

التي كانت تحمل اسم « أميرة نافار »، والتي نظم رامو موسيقاها. وقد عُدّلت وبُدل اسمها إلى « أعياد رامير ». وقد تطلّب تغيير الموضوع عدّة تحويرات في الأغاني والرقصات التي كانت في « الدراما » السابقة، سواء من حيث التركيب الشعري أو التركيب الموسيقى. واستدعى هذا البحث عن شخص يؤدّي هذه الغاية المزدوجة، إذ أن فولتير كان - إذ ذاك - في (اللورين)، وكذلك كان رامو. وكانا منهمكين معًا في أوبرا « معبد المجد »60، فلم يكن في وسعهما أن يعنيا بالتحويرات المنشودة. ومن ثم فإن السيِّد دى ريشيليو تذكرني، وعرض عليَّ أن أقوم بالمهمة.. ولكي أحسن تبين ما ينبغي عمله، أرسل إلىَّ كلًّا من الشعر والموسيقى على حدة. ولم أشأ ـ قبل كل شيء - أن أمس ألفاظ المسرحية دون موافقة المؤلف، فكتبت إليه في هذا الصدد، رسالة جد أمينة ومحترمة - في الوقت ذاته - وفقًا لما كان يتطلبه الظرف. وها هو ذا رده، الذي يوجد الأصل الخطى له، في ملف الأوراق « أ »، رقم (1):

« 15 ديسمبر سنة 1745

إنك لتجمع يا سيِّدى بين موهبتين كانتا - حتى اليوم - منفصلتين دائمًا. وهما سببان كافيان لحملي على أن أقدّرك وأن أسعى إلى أن أحبك. وإننى لفي هم من أجلك، إذ تستخدم هاتين الموهبتين في عمل غير جدير بهما كل الجدارة. فمنذ بضعة أشهر، طلب إلىَّ السيِّد الدوق دى ريشيليو - طلبًا جازمًا - أن أعد، في لمح البصر، مسودة صغيرة غير دقيقة، لبضعة مناظر تافهة وناقصة، تتمشى مع أغانٍ ورقصات لا تلائمها إطلاقًا. وقد صدعت برغبته بحذافيرها، ورحت أعمل في سرعة فائقة، ودون ما إجادة. ثم أرسلت هذه المسودة التعسة إلى السيِّد الدوق دي ريشيليو، وأنا موقن من أنه لن يستخدمها، ومن أننى لن أضطر إلى تصحيحها. ولحسن الحظ أنها بين يديك، فلك أن تفعل بها كل ما تشاء، إذ أنني قد أقصيتها تمامًا عن ذهنى. ولست أرتاب في أنك ستفتح كل الأخطاء التي لابد من أن تكون قد أفلتت مني في تعجل تأليف التصميم البسيط، وأنك قد ملأت كل نقص!

وإني لأذكر أن من السهوات التي تنم عن طيش، أنني نسيت أن أوضح في هذه المناظر - التي تربط بين الأغاني والرقصات - كيف تنتقل الأميرة فجأة من سجن إلى حديقة أو قصر. وإذ لم يكن الشخص الذي أقام الحفلات لتكريمها ساحرًا، وإنما كان سيِّدًا أسبانيًا، لذلك يبدو لي أنه لا ينبغي أن ندع للسحر مجالًا. فأرجو أن تتكرَّم يا سيِّدى بإعادة النظر في هذا الجزء الذي لا أحتفظ له بأكثر من فكرة مهتزّة. وانظر ما إذا كان من الضروري أن تُفتح أبواب السجن، وأن تُنقل أميرتنا من هذا السجن إلى قصر جميل مذهب ومصقول، يُعد من أجلها.. إننى لأعرف تمام المعرفة أن الأمر كله زري للغاية، وأنه ليس مما يليق بأي كائن مفكّر أن يحمل هذه التفاهات على محمل الجد، ولكن.. بما أن علينا ألّا نسبّب من الأشياء إلا أقل ما يُستطاع، فمن الواجب أن نبذل من العقل قدر المستطاع ولو كان ذلك في أوبرا غنائية راقصة رديئة.

إنني أدع لك وللسيِّد بالو كل شيء، وأعتقد أنني لن ألبث أن أتشرّف بأن أقدِّم لك آيات شكري عما قريب، وبأن أؤكِّد لك يا سيِّدي، إلى أي مدى يشرّفني أن أكون... إلخ ».

ولا يعجبن المرء لما في هذا الخطاب من أدب جم - إذا قيس بخطابات فولتير نصف المهذبة التي كتبها لي بعد ذلك الحين - فقد كان يظنني ذا حظوة كبيرة لدى السيِّد دى ريشيليو، فحمله الرياء المرن على أن يُبدى كثيرًا من الاعتبار للوافد الجديد على البلاط، ريثما يزداد معرفة بمدى مكانته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذ حصلت من السيِّد دى فولتير هذا السلطان، وأُعفيت من كل اعتبار لرامو ـ الذي لم يكن

له من هدف سوى الإساءة إلى - فإنني عكفت على العمل - ولم ينقض شهران حتى كانت مهمتي قد أنجزت. ولم يكن الشعر سوى مهمة بسيطة، إذ كان همي الأوحد هو أن أتفادى أن يكون تباين الأسلوب ملحوظًا، ومن حقى أن أعتقد أنني قد وُفقت. أما مهمتى - في الناحية الموسيقية - فقد تطلَّبت مزيدًا من الوقت والجهد، فضلًا عن أنني اضطررت إلى أن أؤلف عدَّة قطع للمقدمات، منها اللحن الافتتاحي، وكل ألحان الإلقاء الغنائي61 التي تكلفت بها فوجدتها بالغة الصعوبة، إذ كنت مضطرًّا إلى أن أربط نغمات سيمفونية وصوتية متباينة الطبقات، بقليل من السطور - في كثير من الأحيان - وبوساطة أنغام سريعة جدًّا. ذلك لأننى عقدت عزمي على ألَّا أغِّير أو أعـدِّل لحنـًا واحـدًا، حتى لا يتهمني رامو بإفساد ألحانه الأصلية. ولقد وفقت في هـذا الالقاء الغنائي. فكانت النبرات واضحة، مليئة بالقوة، رائعة في تناسق نغماتها، بوجه خاص. ولقد أدَّى التفكير في هذين العظيمين اللذين حظيت بشرف الاشتراك معهما - على هـذا النحو - إلى رفع روحي المعنوية، وبوسعي أن أقول إنني في هذا العمل الذي لم يكن لي من ورائه حمد ولا مجد، والذي لم يكن مقدورًا للرأي العام ذاته أن يعلم بفضلي فيه - حافظت دائمًا على مثلى ومستواي!

ولقد أجريت التجارب على المسرحية ـ بالشكل الذي نقحتها إليه ـ في مسرح « الأوبرا » الكبير. ووجدتني الوحيد الحاضر من المؤلفين الثلاثة. فقد كان فولتير متغيبًا، في حين أن رامو لم يحضر، أو لعله تعمَّد أن يتوارى. وكانت كلمات المناجاة62 الأولى مفعمة بالأسى وهذا مطلعها:

« ألا أيها الموت تعال، فاختم تعاسات حياتى! ».

وكنت مضطرًّا إلى أن أضع موسيقى تتمشّى معها، ومع ذلك فإن هذه الفاتحة هي التي خصّتها السيِّدة ديلا بوبلينيير بنقدها، إذ اتهمتني - في تحامل - بأنني وضعت لحنًا جنائزيًّا. وبدأ السيِّد دي ريشيليو بأن يسأل - في إنصاف - عمَّن كتب كلمات المناجاة، فأطلعته على المخطوط الذي كان قد أرسله إلىّ، والذي أثبت أنها من وضع فولتير. فقال: « إن المخطىء - في هذه الحال - هو فولتير وحده ». وظلَّ كل ما فعلت معرَّضًا - خلال التجربة - لاستهجان السيِّدة ديلا بوبلينيير، ولانصاف السيِّد دى ريشيليو. على أننى ما لبثت أن تبينت أن التحامل كان شديد الوطأة، فقد أُشير علىّ بتنقيح عدَّة أشياء في مؤلفي، كان لابد من استشارة السيِّد رامو بشأنها. وأكربني أن تكون هذه هي النتيجة، بدلًا من الإطراء الذي كنت أرتقبه، والذي كنت جديرًا به يقينًا. فعدت إلى بيتي بقلب مثقل.. وسقطت مريضًا، وقد هدَّني الإعياء، وراح الأسى ينهشني.. وظللت ستة أسابيع لا أقوى على الخروج!

وأرسل رامو - الذي وكلت إليه التعديلات التي أشارت إليها السيِّدة ديلا بوبلينييرا - يطلب إلىَّ افتتاحيـة « أوبراى » الكبرى، ليضعها في مكان تلك التي وضعتها. وفطنت - لحسن الحظ - إلى الحيلة، فرفضت. ولم يكن قد بقي على موعد تقديم المسرحية الأخرى أكثر من خمسة أيام أو ستة، فلم يكن لديه وقت لتأليف افتتاحية، واضطرّ إلى أن يترك تلك التي كنت قد وضعتها من قبل.. وكانت على النسق الإيطالي، ومن نوع كان جديدًا تمام الجدّة على فرنسا، في ذلك الوقت، ومع ذلك فإنه لقى استساغة، وسمعت من السيِّد دى « فالماليت » - رئيس ديوان الملك، وزوج ابنة السيِّد موسار، وكان قريبًا وصديقًا لى - أن هواة الفن أبدوا كل الرضى عن مؤلفي، وأن الرأي العام لم يستطع أن يفرِّق بينه وبين إنتاج رامو. غير أن هذا اتخذ من الإجراءات - بالتواطؤ مع السيِّدة ديلا بوبلينيير - ما يحول دون معرفته أننى قد ساهمت في تلك القطعة. فعلى الكتب63 التي تُوزع على النظارة، والتي تُثبت فيها دائمًا أسماء المؤلفين، لم يُذكر سوى اسم فولتير. وآثر رامو إغفال اسمه على أن يرى اسمى مقترنًا به!

وما أن تمكنت من مغادرة دارى، حتى رغبت في زيارة السيِّد دى ريشيليو. ولكن الفرصة

كانت قد فاتتني، إذ أنه كان قد رحل إلى (دنكرك)، حيث كان عليه أن يشرف على رحيل الحملة التي كانت موجهة إلى ايقوسيا (اسكتلندا). ولما عاد، قلت لنفسي - لأبرِّر كسلي ـ إن المناسبة قد انقضت. وبما أنني لم أعد أراه منذ ذلك الحين، فقد أضعت على نفسي التكريم الذي كان مؤلفي يستحقه.. التكريم الذي كان جديرًا بأن يدره عليَّ. ومن ثم فإن وقتى، وعملي، وحزني، ومرضى والنقود التي كلفنيها.. كل هذا تكبدته دون أن يعود عليَّ بـ « سو » واحد، بل ودون أي تعويض. ومع ذلك فقد اعتدت دائمًا أن أرى أن السيِّد دي ريشيليو كان ميَّالًا بطبعه نحوى، وكان يحسن الظن بمواهبي، ولكن نحسى والسيِّدة ديلا بوبلينيير حالا دون كل نتيجة لحسن طويته!

وما استطعت قط أن أفهم، سر كراهية هذه المرأة التي كنت أغصب نفسي على إرضائها، والتي اعتدت أن أثابر على أن أبدى لها مجاملتي. ولقد شرح لى « جوفكور » الأسباب، فقال: « هناك - أوَّلًا - صداقتها لرامو، الذي كان يحظى علنًا هناك برعايتها، والذي لم يكن يحتمل أية منافسة.. وفوق ذلك، كان ثمة ذنب جوهري يصمك في نظرها، ولن تغتفره لك أبدًا.. ذلك هو أنك جنيفي! ».. وهنا بيَّن لي أن الراهب « هوبير » - الذي وفد هو الآخر من (جنيف)، والذي كان صديقًا صدوقًا للسيِّد ديلا بوبلينيير - كان قد بذل قصارى وسعه ليصدّه عن الزواج من هذه المرأة التي كان يعرفها تمام المعرفة، والتي حرصت - بعد الزواج - على أن تولى كل جنيفي كراهية لا سبيل إلى مغالبتها. وأردف جوفكور قائلًا: « ومع أن لابوبلينيير يكن لك ودًّا ـ أنا موقن منه - إلا أنه ليس لك أن تعتمد على مؤازرته، فهو مدله في هوى زوجته، وهي تكرهك.. وأنها لخبيثة، ماكرة.. ولن يكون لك شأن في هذا المنزل ». وأدركت ما كان يرمي إليه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد أدَّى لى جوفكور هذا خدمة أخرى - حوالي ذلك الوقت - كنت في حاجة ماسة إليها. فلقد فقدت أبي الفاضل، وقد ناهز الستين من عمره. ولم أشعر بقسوة هذا المصاب كما كنت خليقًا بأن أحس بها في الماضي، عندما لم تكن الضائقات تشغل بالي بمثل ما كانت تشغله في هذه الآونة. إذ أنني لم أحاول قط ـ خلال حياته - أن أطالب ببقية تركة أمي التي كان يحصّل دخلها البسيط. أما بعد موته، فلم يداخلني تردد بهذا الشأن، ولكن عدم توفر دليل قضائي على وفاة أخي كان عقبة أخذ جوفكور على عاتقه عبء إزاحتها، وقد أزاحها فعلًا بفضل مساعي المحامي « دى لولم ». ولما كنت في حاجة ملحة إلى هذا المورد الضئيل، وكانت المسألة محوطة بالريب، فقد رحت أنتظر نبأ حاسمًا في صبر نافد وتلهف. وفي ذات مساء، وجدت، إذ أبت إلى مسكنى - الرسالة التي كان منتظرًا أن تشتمل على هذا النبأ، فتناولتها لأفضها، وأنا أرتجف في لهفة خجلت منها في سريرتي، وقلت لنفسي في ازدراء: « وبعد؟!.. أينساق جان جاك لسلطان المصلحة الخاصة والفضول إلى هذه الدرجة؟ ».. ووضعت لفوري الرسالة على رف المدفأة، ثم خلعت ثيابي، وأويت إلى فراشي في هدوء، فحظيت بنوم يفوق ما اعتدت.. ثم صحوت في اليوم التالي متأخرًا، دون أن أعود إلى التفكير في الرسالة. وفيما كنت أرتدى ثيابي، لمحتها ففضضتها في غير تعجّل، ووجدت فيها حوالة مالية. وساورتني كثير من الأفكار السارة ـ في آنٍ واحد ـ ولكن بوسعي أن أقسم أن أقواها جميعًا كانت تلك التي نبهتني إلى انتصاري على نفسي. وأستطيع أن أذكر عشرين من أمثال هذه المناسبة في حياتي، ولكني لا أجد وقتًا لكي أروى كل شيء. ولقد أرسلت قسطًا بسيطًا من هذه النقود إلى « ماما » وأنا أبكي حسرة على الأوقات السعيدة، التي كنت فيها على استعداد لأن ألقي بكل شيء عند قدميها!.. كانت كل رسائلها توحي بضيقها. ولقد أرسلت لي أكوامًا من الوصفات والأسرار التي كانت تزعم أن بوسعي أن أجمع بها ثروة لي ولها. ولقد كان مجرَّد التفكير في فاقتها يعصر قلبي ويضيق أفق عقلي. وكان القليل - الذي اعتدت أن أرسله إليها - يقع في أيدى الأنذال الذين

كانوا يحيطون بها، دون أن تنتفع بشيء منه. فجعلني هذا أكره أن أشرك هؤلاء التعساء فيما كانت تمس إليه حاجتي، لا سيما بعد المحاولات غير المجدية التي بذلتها لانتزاع « ماما » من قبضاتهم، مما سيرد ذكره فيما بعد.

وانساب الوقت، وانسابت النقود معه. وكنا اثنين، بل أربعة.. بل أننا كنا سبعة أو ثمانية، كما يحسن أن يُقال. ذلك لأنه بالرغم من أن « تيريز » كانت زاهدة في أية مصلحة شخصية، إلى درجة لا يكاد يكون لها مثيل، إلا أن أمها لم تكن على شاكلتها. فما أن رأت أحوالها تتحسن قليلًا - بفضل رعايتى - حتى استدعت كل أسرتها لتشاطرها الغنيمة. فإذا بالأخوات، والأبناء، والبنات، والأحفاد يفدون جميعًا، ما عدا ابنتها الكبرى، التي كانت متزوجة من مدير عربات النقل في (أنجير).. وأصبح كل ما أفعله من أجل تيريز، يتحوَّل بفضل أمها إلى هؤلاء النهمين. ولما لم أكن جشعًا، ولا كنت مستذلًا لشهوة مستعرة، فإنني لم أرتكب أية حماقات. بل إنني في اغتباطي بأن أعول تيريز - في حياة لا بأس بها، خالية من الترف، ولكنها في وقاء من الحاجة ـ أقررتها على أن تسلم أمها كل ما كان بوسعها أن تكسبه من عملها. ولم أكن أقتصر على ذلك.. ولكنني استسلمت للقدر الذي كان يتعقبني.. ففي الوقت الذي كانت فيه « ماما » ضحية لأنذالها، كانت تيريز ضحية لأسرتها، ولم يكن بوسعي أن أقدِّم أي عون يعود بالنفع على تلك التي كنت أقصد نفعها في الحالين. ولقد كان من العجيب أن صغرى بنات السيِّدة لوفاسير - وهي الوحيدة التي لم تحظ بصداق من أهلها - هي الوحيدة التي راحت تعول أباها وأمها.. وأن هذه المسكينة - بعد أن ظلَّت طويلًا تتلقى الصفعات من إخوتها وأخواتها، بل ومن أبناء هؤلاء - أصبحت فريسة لنهبهم، دون أن تملك لسرقاتهم دفعًا يفوق ما كانت تملك من مقاومة لصفعاتهم من قبل. ولم يكن بين أبناء أخوتها سوى واحدة فقط، تُدعى « جوتون ليدوك »، كانت على قدر من اللطف ورقة الطبع، برغم ما كان يفسدها من قدرة الآخرين ودروسهم. ولما كنت كثيرًا ما أراهم مجتمعين، فقد أصبحت أُطلق عليهم ما يُطلقه بعضهم على بعض من ألقاب، فأنا أنادى ابنة الأخ بيا ابنة أخي، والعمة بيا عمتى. وأصبح الفريقان ينادياننى بيا عمي.. ومن هنا نشأ اسم « العمة » الذي أنادي به تيريز باستمرار، والذي يردده أصدقائي في بعض الأحيان، على سبيل المداعبة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن المعقول أنني لم أضيع لحظة واحدة - في مثل هذا الموقف - دون أن أحاول أن أنتزع نفسي منه، وإذ حدست أن السيِّد دى ريشيليو قد نسيني، ولم أعد آمل في شيء من ناحية البلاط، بذلت بضع محاولات لقبول تقديم أوبراي في باريس. ولكنني صادفت عقبات كان تذليلها يتطلَّب وقتًا، في حين أن حاجتي كانت تزداد شدّة يومًا بعد يوم. ولقد أُشير عليَّ بأن أقدِّم تمثيليتي الهزلية الصغيرة « نارسيس » على مسرح الإيطاليين « أوزيتاليان ». فقبلت التمثيلية، وظفرت بالتردّد على المسرح دون مقابل، مما سرّني كثيرًا. ولكن هذا كان غاية ما في الأمر إذ انني لم أُوفق قط إلى أن أحملهم على إخراج المسرحية. حتى إذا ضقت بمداهنة الممثلين الفكاهيين، انصرفت عنهم. ولجأت في النهاية إلى الحيلة الأخيرة التي بقيت لي، والتي كان يجب أن تكون الوحيدة الجديرة بأن تُتبع. ففيما كنت أتردَّد على دار السيِّد ديلا بونلينيير، ظللت بعيدًا عن دار السيِّد دوبان. ومع أن ربتَيّ الدارين كانتا على بعض صلات القربي، إلا أنهما لم تكونا على وئام، ولم تتزاورا قط.

بل لم تكن بين الدارين أية صلة، وإنما كان « ثييريو » هو الوحيد الذي اعتاد أن يتردَّد على هذه وتلك. وقد وُكل إليه أمر السعى إلى حملي على العودة إلى دار السيِّد دوبان.

وكان السيِّد فرانكويى ماضيًا - في تلك الأثناء - في دراسة التاريخ الطبيعي والكيمياء، وقد أعدَّ لنفسه غرفة للدراسة. وأظنه كان يطمع في عضوية محفل العلوم، وكان يرغب ـ في

سبيل ذلك - في أن يضع كتابًا، وقد خطر له أنني أستطيع ان أكون ذا نفع في هذا الصدد. وكان للسيِّدة دوبان - من ناحيتها - رأى مشابه في شخصي، كما أنها كانت تفكِّر في أن تؤلف كتابًا. ومن ثم فقد ودّا أن يستأجراني لأكون أشبه بسكرتير يتقاسمانه. وكان هذا هو الهدف من مساعي تيبريو. فطلبت - كعربون - أن يستخدم السيِّد دى فرانكويى نفوذه ونفوذ « جيليو » من أجل تجربة إخراج تمثيليتي في الأوبرا، فوافق. وأُجريت عدّة تجارب لإخراج « عرائس الشعر اللطاف » في « المخزن »[64] في بادىء الأمر، ثم انتقلت التجارب إلى المسرح الكبير. وحضر التجربة الكبرى كثير من الناس، وحظيت كثير من المقطوعات بتصفيق شديد. على أنني شعرت أثناء الأداء الموسيقى - الذي أساء « ريبيل » الاشراف عليه - بأن هذه التمثيلية لن تلقى قبولًا، بل إنها لن تكون معدّة للعرض دون تعديلات كبيرة. وعلى هذا فإنني سحبتها دون ما إيضاح، ودون أن أعرّض نفسي لسماع رفضها. ولكنني رأيت بجلاء ومن عدَّة بوادر، أن التمثيلية ما كانت ستُجاز، ولو كانت في أكمل حال. ذلك لأن السيِّد دي فرانكويى كان قد وعد حقًّا بأن يهيىء السبيل لتجربتها، ولكنه لم يعد بأن يضمن قبولها. وقد برَّ بوعده تمامًا. ولقد كان يُخيّل إليَّ دائمًا - في هذه المناسبة وفي كثير غيرها - بأنه ومدام دوبان لم يكونا حريصين على أن يدعاني أكتسب شهرة محققة في المجتمع. ولعل ذلك كان راجعًا إلى خوفهما من أن يُظن - عندما تظهر مؤلفاتهما - أنهما قد شحذا مواهبهما على محك مواهبي. ومع ذلك، فإن السيِّدة دوبان كانت دائمًا مقتصدة في رأيها عن كفاءتي، ومن ثم فإنها لم تستخدمني قط إلا لأكتب ما كانت تمليه عليَّ، أو لأقوم لها بأبحاث علمية بحتة، ومن ثم فإن هذا الظن ـ فيما يتعلَّق بها ـ قد يكون جائرًا!

من سنة 1747 إلى سنة 1749

أدَّى هذا الفشل الأخير إلى تثبيط عزيمتى تمامًا، فهجرت كل أمل في الرقي والمجد، ولم أعد أفكِّر في مواهبي الحقيقية أو الموهومة، التي لم تعد عليَّ بطائل، بل كرّست وقتى وجهدى لكسب قوتى وقوت تيريزي، بالشكل الذي راق لذانك اللذين تكفّلا بتمكيني من ذلك. ومن ثم فإنني تفرغت تمامًا للسيِّدة دوبان والسيِّد دي فرانكويى. ولم يدفعني هذا إلى سعة من العيش موفورة.. فإن المرتب الذي تقاضيته في العامين الأولين - وكان ثمانمائة أو تسعمائة فرنك سنويًا - كان لا يكاد يوفِّر لى حاجاتي الأولية. إذ أننى كنت مضطرًا إلى الإقامة على مقربة منهما، في حجرة مؤثثة، بحى من الأحياء التي تتطلّب نفقات كثيرة، كما كنت أدفع إيجار مسكن آخر، في الطرف الأقصى لباريس، عند نهاية شارع (سان جاك)، حيث كنت أذهب لتناول العشاء في كل مساء تقريبًا، مهما تكن حال الطقس. وسرعان ما ألفت عملي الجديد، بل إنني بدأت أميل إليـه فاهتممت بالكيمياء، وتلقيت دروسًا عدَّة مع السيِّد دى فرانكويى، لدى السيِّد رويل. ورحنا نسود أكداسًا من الورق بما كنا نكتبه في هذا العلم، سواء عن صواب أو عن خطأ، برغم أننا لم نكد نلم بمبادئه الأولية!. ولقد ذهبنا - في سنة 1747 - لقضاء الخريف في (تورين)، في « شاتو دى شينونسو » القصر الملكي القائم على نهر الشير، والذي شيده هنرى الثانى من أجل ديانا دى بواتيير.. التي لا تزال الحروف الأولى من اسمها تُرى منقوشة هناك. وكان هذا القصر قد آل إلى السيِّد دوبان، بوصفه المشرف العام على الأراضي الزراعية للملك. ولقد استمتعنا كثيرًا بالاقامة في هذا المكان البديع، وازددنا سمنة، حتى أنني أصبحت بدينًا كالرهبان!.. ونعمنا بقدر كبير من الموسيقى، كما أننى ألّفت عدَّة ثلاثيات غنائية[65]، زاخرة بالقوة وبالتناسق النغمي، وسوف أتحدَّث عنها في « الملحق » إذا قُدِّر لي أن أكتبه. كذلك كنا نقوم بتمثيل بعض المسرحيات الفكهة، واستطعت - في خمسة عشر يومًا - أن أؤلف واحدة، من ثلاثة فصول، أسميتها « الخطبة المتهورة »[66]، وهي موجودة بين أوراقي، ولا تمتاز بغير مرحها المفرط. ووضعت هناك بعض مؤلفات صغيرة أخـرى، منها قصيدة بعنوان « درب سيلفيا »[67]، عن درب في المتنزه الذي كان يمتد على ضفاف نهر (الشير). على أن هذا لم يصرفني عن دراساتى الكيمياوية،

ولا عن العمل الذي كنت أؤديه للسيِّدة دوبان.

وبين كنت أزداد سمنة في شينونسو، كانت تيريزي المسكينة تتضخم في باريس بشكل آخر، حتى إذا عدت، وجدت « المؤلف » الذي كنت بدأته، قد تقدّم بدرجة لم أكن أتصوّرها68. وقد دفع بي هذا - نظرًا لموقفي - إلى حيرة بالغة، لولا أن زملاء المائدة أمدّوني بالحيلة الوحيدة التي كان بوسعها أن تُخرجني من المأزق. وهي من البيانات الدقيقة التي لا أملك أن أبوح بها في بساطة، لأني قد أضطر - إذا أقدمت على أي إيضاح - إلى أن ألتمس لنفسي المعاذير، أو إلى أن أدين نفسي، وما أراني راغبًا في أن أفعل هذا أو ذاك!

ففي أثناء إقامة « التونا » في باريس، اعتدنا أن نتناول وجباتنا على مقربة من مسكننا، بدلًا من أن نأكل في أحد المطاعم. فكنا نتردَّد على السيِّدة لاسيل، بالقرب من ممر « الأوبرا ».. وكانت زوجة حائك، تقدِّم أطعمة غير شهية، ولكن مائدتها كانت قبلة الطاعمين، نظرًا لمن كانوا يجتمعون حولها من رفاق طيبين موثوق بهم. فما كان لأى مجهول أن يلج المكان، بل كان لا بد من أن يقدّمه واحد ممن اعتادوا تناول الطعام هناك. وكان « الكوماندور دى جرافيل » مين استقرّوا هناك. وهو شيخ ماجن، موفور الظرف والذكاء، ولكنه بذيء اللسان.. وقد اجتذب حوله ثلة من الشباب الطائش الذكي، تألفت من ضباط من فرق الحرس والفرسان.. وكان « الكوماندور دى تونان » حامي كل فتيات الأوبرا، وقد اعتاد أن يحمل إلى المكان - في كل يوم - كافة أنباء هذا الوسط العابث.. أما السيِّدان « دوبليسى » - وكان « بكباشى » محالًا على الاستيداع، وشيخًا طيبًا حكيمًا - و « أنسيليه »69 - وكان من ضباط الفرسان - فقد فرضا قدرًا من النظام على هؤلاء الشبان. كذلك كان يتردَّد على المكان تجار، وماليون، ومتعهدون بتوريد الأغذية.. ولكنهم كانوا مؤدبين، أمناء، من المبرزين في حرفهم ومهنهم. وكان السيِّد دى بيس والسيِّد دى فوركاد بين هؤلاء الذين نسيت أسماءهم. وقصارى القول إن المرء كان يرى هناك أناسًا محترمين من جميع الأنواع فيما عدا الرهبان وذوى الأوشحة70 الذين لم يقع عليهم بصرى هناك إطلاقًا، فقد كان ثمة اتفاق على عدم تقديم أحد منهم. وكانت هذه المائدة، على ازدحامها، جد مرحة في غير صخب، كثيرة الثرثرة في غير بذاءات. فما كان القائد (الكوماندور) الشيخ لينسى البتة - بكل قصصه الماجنة - الأدب، الذي ألفه في البلاط، فلم تكن تخرج من فمه إطلاقًا أية كلمة بذيئة لا تغتفرها له النساء. وكانت لهجته دستورًا للمائدة كلها، فكان كل أولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية في كثير من التحرر والكياسة. ولم تكن قصص الغانيات لتغيب عن المائدة، إذ كان ثمة مورد لها جد قريب، فقد كان الممر الذي يفضى إلى دار السيِّدة لاسيل، يؤدّي كذلك إلى حانوت السيِّدة دوشات، وهي تاجرة أزياء ذائعة الصيت، كانت تستخدم - إذ ذاك - فتيات موفورات الجمال، اعتاد السادة أصحابنا أن يسعوا إلى مجاذبتهن الحديث، بعد الغداء. وكان بوسعي أن أتسلى كما كان يفعل الآخرون، لو أنني كنت أكثر جرأة مما أنا. إذ أنني لم أكن بحاجة إلى أكثر من أن ألج الحانوت، كما كانوا يفعلون، ولكنني لم أجسر. أما السيِّدة لاسيل، فقد ظللت أذهب لتناول الطعام لديها في كثير من الأحيان، عقب رحيل « التونا ». وهناك، سمعت فيضًا من الحكايات المسلية - كما اقتبست تدريجيًا المبادىء التي ألفيتها مستتبة هناك - دون المقاييس الخلقية، والحمد للسماء!.. فمن أشراف أوذوا، إلى أزواج خُدعوا، إلى نساء استخفتهن الغواية، إلى أطفال وُلدوا في الخفاء.. كل هذه كانت موضوعات عادية مألوفة هناك. وكان ذلك الذي يساهم أكثر من سواه، في زيادة عدد سكان ملجأ اللقطاء، هو أكثر الناس نصيبًا من الإعجاب. ولقد أصابتني عدوى هذا كله، فصغت طريقة تفكيري على نسق تلك التي رأيتها سائدة بين قوم ظرفاء، ومفرطي الأدب بوجه عام!.. وقلت لنفسي: « ما دام هذا هو العرف السائد في البلاد، فللمرء أن يتبعه إذا ما أقام فيها »!.. وهذه هي الحيلة التي كنت أنشدها. فاعتزمت - في اغتباط - أن أنتهجها، دون أية هواجس من ناحيتي أو تردد.. وكل ما كان على أن

أتغلّب عليه، هو مخاوف تيريز، التي كابدت في حملها على انتهاج الوسيلة الوحيدة لإنقاذ شرفها، كل ما في الدنيا من عناء!.. ولقد انضمت لي أمها التي كانت تخشى التورط في طفل جديد. وانصاعت تيريز في النهاية، فاختيرت مولدة (داية) حكيمة، مأمونة، تُدعي الآنسة « جوان » - كانت تقيم عند (رأس سان أوستاش) - لنعهد إليها بهذه الوديعة. فلما آن الأوان، نُقلت تبريز - بمعرفة أمها - إلى دار الآنسة جوان، لتضع حملها، وذهبت إلى هناك عدّة مرات لأزورها، وحملت إليها رمزًا مزدوجًا نُقش على بطاقتين، لتوضع إحداهما في ثياب الطفل، على أن تودعه القابلة (الداية) إدارة ملجأ اللقطاء، بالطريقة المعهودة.. وفي العام التالي، تكرَّرت المضايقة، وتكرّر العلاج، فيما عدا الرمز الذي أُغفل!.. ولم يعد ثمة تفكير في الأمر - من ناحيتي - لا ولم يكن ثمة انصياع يفوق انصياع الأم، التي أطاعت وهي تتنهَّد. ولسوف تبدو تباعًا كل التغييرات التي أدَّت هذه الطريقة إلى فرضها على أسلوبي في التفكير، وعلى مصيرى كذلك.



وحملت اليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع احداهما فى
ب الطفل ، على أن تودعه القابلة (الداية) ادارة ملجأ اللقطاء .

أما الآن، فلنلزم هـذه المرحلة الأولى، إذ أن معقباتها - التي كانت من القسوة بقدر ما كانت متوارية غير ظاهرة - لن تلبث أن تضطرّني إلى العودة إليها كثيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولسوف أذكر هنا واقعة أوّل تعارف بيني وبين السيِّدة « ديبيناى »، التي كثيرًا ما سيتردد اسمها في هذه المذكرات. كان اسمها الآنسة ديسكلافيل، ثم تزوَّجت من السيِّد « ديبيناى »، نجل السيِّد « دى لاليف دى بيلجراد »، الذي كان مديرًا عامًا للأراضي الزراعية.. ولقد كان الزوج موسيقيًا، على شاكلة السيِّد دي فرانكويي. كذلك كانت هي الأخرى موسيقية، وقد خلق الولع بهذا الفن ودًّا عظيمًا بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة. وقدَّمني السيِّد دي فرانكويي إلى السيِّدة ديبيناى، فكنت أتناول العشاء معها في بعض الأحيان. وكانت لطيفة، ذكية، موهوبة، خليقة بأن ينشد المرء ودّها حقًّا. على أنها أوتيت صديقة ـ تُدعى الآنسة « ديت » - كانت تُعتبر خبيثة، وكانت تعاشر الشيفالييه دي فالوري، الذي لم يكن حسن السمعة، وأعتقد أن صحبة هذين الشخصين قد أساءت إلى السيِّدة ديبيناي، التي حبتها الطبيعة بسجية خلّابة، وصفات رائعة تتوازن مع نزواتها. ولقد أوحى إليها السيِّد دي فرانكويى قسطًا من الود الذي كان يكنه نحوي، وصارحني بصلاته بها، ولهذا السبب فإنني ما كنت لأتحدَّث عن هذه الصلات هنا، لولا أنها أصبحت معروفة إلى درجة أنها لم تعد خافية على السيِّد ديبيناى!.. كذلك آثرني السيِّد دي فرانكويى باعترافات عجيبة من هذه السيِّدة، لم تذكرها لي بنفسها إطلاقًا، ولم يخطر ببالها البتة أننى كنت على علم بها. فإنني لم أفتح فمي - ولن أفتحه - بالحديث في هذا الموضوع، إليها أو إلى أي امرىء آخر71. ولقد أدَّت كل هذه الاعترافات - من كل من الطرفين - إلى الزج بي في موقف جد حرج، لا سيما إزاء السيِّدة دي فرانكويى، التي كانت تعرفني خير معرفة، فلم تفقد ثقتها بى بالرغم من توثق صلاتي بغريمتها. ولقد عمدت - بقدر ما كان بوسعي - إلى مواساة هذه السيِّدة البائسة، التي لم يبادلها زوجها - دون ما شك - ما كانت توليـه من حب. وكنت أصغى إلى هؤلاء الثلاثة، كل على حدة، وأصون أسرارهم بأقصى وفاء، دون أن يُقدَّر قط لأي من ثلاثتهم أن ينتزع منى شيئًا من أسرار الاثنين الآخرين، ودون أن أخفى عن كل من المرأتين ودّى لغريمتها!.. ولقد حاولت السيِّدة دي فرانكويي أن تفيد منى في أمور كثيرة، فقوبلت برفض بات.. كما أن السيِّدة ديبيناي أرادت أن تحملني - ذات مرة - رسالة إلى فرانكويى، فلم تُقابل برفض مشابه فحسب، بل إنني صارحتها كذلك بجلاء تام، بأنها لم تكن بحاجة إلى أكثر من أن تعرض عليَّ مثل هذا الأمر - مرة ثانية - إذا شاءت أن تقصيني عن دارها إلى الأبد!.. ومن الواجب أن أنصف السيِّدة ديبيناي، فإنها كانت أبعد من أن تبدى استياء من مسلكي، بل إنها تحدَّثت عنه إلى فرانكويي بأبلغ تقدير، ولم يقلّ ترحيبها بي بعده، عما اعتادت أن تستقبلني به قبله. وهكذا استطعت أن أمضى موفقًا وسط العلاقات العاصفة بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كنت أعتمد عليهم في معاشي - إلى حد ما - والذين كنت أكن لهم ودًّا صادق الميل.. واستطعت أن أحتفظ - إلى النهاية - بودهم، وتقديرهم، وثقتهم، إذ رحت أتصرَّف في رفق ومجاملة، يرافقهما - دائمًا - استقامة وحزم. وبالرغم من غبـائي وحماقتي، فإن السيِّدة ديبيناي كانت تميل إلى أن تصطحبني إلى الحفلات اللاهية التي كانت تُقام في (لاشيفريت)، في قصر على نهر (سان دنيس)، من أملاك السيِّد دى بيلجراد. وكان ثمة مسرح هناك، كثيرًا ما أُخرجت عليه مسرحيات. وقد عُهد إليَّ بأحد الأدوار، فظللت أستذكره ستة أشهر - دون انقطاع - ومع ذلك فإنني لم أستغن عمن راح يهمس إليَّ بعباراته من البداية إلى النهاية، أثناء التمثيل!.. وبعد هذه التجربة، لم يُعرض عليَّ أي دور!

وفى تعرّفى بالسيِّدة ديبيناي، حظيت كذلك بمعرفة الآنسة دى بيلجراد، التي لم تلبث أن أصبحت كونتة هودينو. وكانت أوَّل مرة رأيتها فيها، في اليوم السابق على زواجها. وقد

حدَّثتني طويلًا[72]، بتلك الألفة الساحرة التي فُطرت عليها. وألفيتها مفرطة في اللطف، ولكنني كنت أبعد من أن أرى أنه كان مقدَّرًا لهذه الشابة أن تُشكّل هدف حياتي يومًا، وأن تجرني - عن براءة ودون إدراك أو قصد - إلى الحضيض الذي أعيش فيه اليوم!

ومع أنني لم أتحدَّث عن « ديدرو » منذ عودتي من البندقية، ولا عن صديقى السيِّد « روجان »، إلا أنني لم أهمل أيًّا منهما، بل إن روابط الود أخذت تزداد توثقًا بيني وبين الأول - بوجه خاص - يومًا بعد يوم. وكما أنى أوتيت « تيريز »، فقد أوتى هو « نانيت »، وكانت هذه ناحية أخرى من نواحي التقارب بيننا. ولكن الفارق كان في أن تيريزى، وإن ماثلت نانيته في حسن الشكل، إلا أنها كانت أرق مزاجًا وألطف شخصية منها، وقد خُلقت لترتبط برجل محترم.. أما فتاته فكانت سليطة، « زفرة » اللسان، لا تبدى أمام أنظار الغير ما يخفى سوء التربية. ولقد تزوَّجها - مع ذلك - وكان هذا عملًا طيبًا منه، إذ كان قد وعدها بالزواج. أما أنا، فلم أكن بحاجة إلى أن أحذو حذوه، إذ أنني لم أبذل مثل هذا الوعد إطلاقًا!

ولقد اتصلت كذلك بالراهب دى « كونديللاك »، الذي لم يكن أفضل منى حالًا في الأدب، ولكنه كان مهيئًا لأن يصير إلى ما أصبح اليوم عليه. ولعلني كنت أوَّل من أبصر كفاءته، وقدَّره حق قدره. ولاح أنه كذلك ارتاح إليَّ، وعندما احتبست نفسي في غرفتي بشارع (جان سان دنيس) - على مقربة من « الأوبرا » - لأضع الفصل الذي ضمنته أوبراى عن « هيسيود »، اعتاد أن يفد في بعض الأحيان، فيتناول الغداء معي، وحيدين، وكنا نتقاسم النفقات. ولقد كان يعمل - إذ ذاك - في كتابه: « رسالة في أصل المعرفة البشرية »، الذي كان أوَّل مؤلفاته.. فلما فرغ منه، تمثّلت الحيرة في العثور على كتبي يتكفل بنشره. إذ أن أصحاب المكتبات الباريسية يعاملون كل مبتدىء في صلف وجفاء. وكان علم ما وراء الطبيعة غير شائع - إذ ذاك - ومن ثم فإنه لم يكن موردًا لموضوع جذَّاب. ولقد تحدَّثت إلى « ديدرو » عن « كونديللاك » ومؤلفه، وحملته على أن يتعرَّف إليه. ولقد خُلقا لكي يتوافقا، فسرعان ما تآلفا. وأغرى « ديدرو » الكتبي « دوران » على أن يقبل مخطوط الراهب، فتسلَّم هذا العالم الكبير بما وراء الطبيعة، في مقابل كتابه الأوَّل، مائة « ايكو »، وكان في هذا إيثار له وتكريم ما كان من المحتمل أن يلقاهما لولاى!.. ولما كنا نحن الثلاثة[73] نقيم في أحياء متباعدة جدًّا، فإننا كنا نجتمع مرة في الأسبوع، في (الباليه رويال)، فنذهب لتناول الغداء معًا في فندق (البانييه فلورى). ولا بد أن هذه المأدبة الصغيرة الأسبوعية كانت محببة إلى ديدرو كثيرًا، إذ أنه لم يتخلَّف عنها قط، وهو الذي كان يخفق دائمًا في أن يذكر مواعيده الأخرى. ولقد رسمت - في تلك اللقاءات - خطة نشرة دورية تُسمى « الساخر »[74]، على أن نكتبها بالتعاقب، ديدرو وأنا. ولقد وضعت الخطوط الأولى للعدد الأوَّل، فأدَّى هذا إلى أن أتعرَّف إلى « داليمبير »، الذي حدَّثه ديدرو عن النشرة. غير أن أحداثًا - لم تكن منظورة - اعترضت طريقنا، فظلّ المشروع عند هذا الحد.

وكان هذان المؤلفان[75] قد اضطلعا بوضع « قاموس محيط »، قُصد به - في البداية - أن يكون نظيرًا مترجمًا لموسوعة « تشامبرز »، وقريب الشبه من « قاموس جيمس الطبي » الذي كان ديدرو قد فرغ من ترجمته. ولقد رغب ديدرو في أن يشركني في بعض أجزاء مشروعه الثاني، فاقترح عليَّ أن أضطلع بالقسم الموسيقى. وقد قبلت، وأدّيت مهمتي في عجلة، وفى غير إجادة، خلال الأشهر الثلاثة التي حدَّدها لي، كما حدَّدها لكافة المؤلفين الذين قُدِّر لهم أن يشتركوا في هذا المشروع، على أننى كنت الوحيد الذي كان قد أكمل عمله في الموعد المعين، فأسلمته مخطوطي، الذي كنت قد عهدت بنسخه إلى أحد وصفاء السيِّد دي فرانكويى، ويُدعى ديبون، فكتبه بخط حسن، ودفعت له في مقابل ذلك - من جيبي الخاص - عشر قطع من فئة « الايكو »، لم يُقدَّر لي قط أن أستردها. إذ أن ديدرو

كان قد وعدني - باسم الناشرين - بقسط من الأرباح، لم يعد إلى محادثتي بشأنه مرة أخرى، ولا فاتحته أنا بصدده!

ولقد تعطل مشروع « الموسوعة » هذا بسبب سجنه. واجتلب عليه كتابه « أفكار فلسفية » بعض مضايقات لم تؤد إلى نتيجة ما. ولكن الأمر اختلف بالنسبة إلى كتابه « رسالة عن العميان »، الذي لم يشتمل على ما يستحق النقد فيما عدا بعض مسائل شخصية رأت السيِّدة « دوبريه دى سان مارو » والسيِّد « ريومير » أن فيها ما يمسهما، ومن ثم فقد سُجن ديدرو - من أجلها - في سجن (فانسين). ولن يصف شيء مدى التباريح التي أحدثتها في نفسي محنـة صديقي. فإذا بخيالي المكتئب ـ الذي اعتاد دائمًا أن يضخم المحن - يجمح في انزعاجه، إذ خُيّل إليَّ أن ديدرو قد يمكث هناك طيلة عمره، فكدت أجن لذلك، وكتبت إلى السيِّدة دى بومادور، أناشدها إطلاق سراحه، أو العمل على أن أُحبس معه. ولم أتلقّ ردًا ما عن خطابي، إذ أنه كان جد بعيد عن المعقول، فلم يحدث أثرًا. ولست أدعى لنفسي فخر أن يكون خطابي قد ساهم فيما حدث بعد ذلك، من تخفيف متاعب السجن على ديدرو المسكين. على أنه لو كان قد قُدِّر لهذا الحبس أن يستمر فترة أخرى بنفس القسوة، فلست أشك في أنني كنت أموت كمدًا وقنوطًا، تحت أسوار ذلك السجن اللعين.. وحتى إذا كان خطابي قد أحدث مفعولًا يسيرًا، فإنني لم أوله أهمية تُذكر، حتى أنني لم أتحدَّث عنه إلا لنفر قليل من النـاس.. ولم أتحدَّث عنه إلى ديدرو نفسه البتة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكراسة الثامنة

سنة 1749

خليق بي أن أقف قليلًا إذ انتهت الكراسة السابقة. فمع الكراسة الحالية، تبدأ أصول السلسلة الطويلة من المحن، التي ألمت بي.

لم يفتني - أثناء ترددي على دارين من ألمع دور باريس - أن أعقد بعض صلات التعارف، برغم قلة لباقتي. فتعرَّفت - فيمن تعرّفت إليهم لدى السيِّدة دوبان - إلى الأمير الشاب وريث إمارة (ساكس جوتا)، وإلى مربية البارون دى تون، كما تعرَّفت لدى السيِّد ديلا بوبلينيير إلى السيِّد دى سيجاى، صديق البارون دى تون، وكان معروفًا في عالم الأدب بالنسخة البديعة التي كانت لديه من ديوان « روسو »76. ولقد دعانا البارون - أقصد دعا السيِّد سيجاي وإياي - إلى قضاء يوم أو اثنين في (فونتناى - سو - بوا)، حيث كان الأمير يمتلك دارًا، فذهبنا.. وفيما كنا نمرّ بفانسين، شعرت بقلبي يتمزق، إذ رأيت السجن. ولمح البارون آثار ذلك على وجهي. وعند العشاء، تحدّث الأمير عن سجن « ديدرو »، فعمد البارون - ليحملني على الكلام ـ إلى اتهام السجين بالنزق.. وهو عين ما بدر مني في غلطتي إذ انبريت للدفاع عنه!. ولقد اغتفر لي هذا الاندفاع، باعتباري رجلًا انساق لعاطفته نحو صديق تعس، واتخذ الحديث وجهة أخرى. وكان ثمة اثنان من الألمان الملحقين بخدمة الأمير، أحدهما يُدعى « كلبفيل »، وهو رجل جم الذكاء، كان في ذلك الحين قسًا راعيًا للأمير، وغدا فيما بعد مربيًا له، خلفًا للبارون.. أما الآخر، فكان شابًا يُدعى السيِّد « جريم »، كان يتكفّل بالقراءة للأمير، ريثما يتسنى له الحصول على منصب آخر. وكان تواضع ملبسه ينم عن شدّة حاجته إلى ذلك.

ومنذ تلك الليلة، بدأت بيني وبين كلبفيل رابطة لم تلبث أن تطوَّرت إلى صداقة. أما صلتي بالسيِّد جريم، فلم تصل إلى هذا الحد بمثل هذه السرعة، إذ أنه لم يكن يحاول أن يظهر، بل كان بعيدًا كل البُعد عن حب الظهور الذي خلعه عليه الثراء فيما بعد.. ولقد دار الحديث عند الغداء - في اليوم التالي - عن الموسيقى، فأجاد الخوض فيه. وقد ابتهجت حين علمت أنه يحسن المصاحبة على المعزف، فقضينا اليوم في موسيقى، على معزف الأمير، ومنذ ذلك الحين بدأت تلك الصداقة التي كانت جد لطيفة في أولها، وجد نكدة في آخرها، والتي سأكثر من الحديث عنها فيما بعد.

وإذ عدنا إلى باريس، علمت بالنبأ المفرح.. بأن ديدرو قد غادر « الزنزانة »، وأنه مُنح قلعة ومتنزه (فانسين) كسجن له - اعتمادًا على وعد شرف منه - وسُمح له بأن يستقبل أصدقاءه. ولكم شق عليّ ألّا أستطيع أن أهرع إليه في التو!.. فلقد تأخرت يومين أو ثلاثة، لدى السيِّدة دوبان، بسبب واجبات لم يكن ثمة مفر منها.. وبعد ثلاثة أو أربعة قرون من التلهف، طرت لأرتمي بين ذراعَيّ صديقي!.. ويا لها من لحظة جلّت عن الوصف!.. ولم أجده وحيدًا، بل كان معه « داليمبير » وأمين صندوق كنيسة « سانت شابيل ».. وإذ دخلت، لم أر في المكان سواه، ولم أفعل سوى أن قفزت، وأن صرخت.. وألصقت وجهي بوجهه، وضممته بشدّة دون كلام سوى كلام دموعي وعبراتى.. كنت أختنق شوقًا وطربًا!.. وكانت أولى حركاته أن تخلّص من عناقي، واستدار نحو رجل الكنيسة قائلًا: « أترى يا سيِّدى كيف يحبني أصدقائي؟ ».. وإذ كنت غارقًا في انفعالاتى، فإننى لم أر من هذا المسلك سوى جانبه الطيب، ولكنني إذ أفكر فيه أحيانًا - بعد ذلك - أرى أن هذا لم يكن خليقًا بأن يكون أوَّل ما يخطر ببالي لو أنني كنت في موقف ديدرو!

ووجدته متأثّرًا بسجنه أشدّ التأثّر، فلقد تركت « الزنزانة » طابعًا فظيعًا على نفسه، ومع أنه ارتاح إلى المقام في القلعة، وغدا حرًّا في التجول في متنزه لم تكن تحيط به أسوار، إلا أنه

كان محتاجًا إلى صحبة أصدقائه، كي لا يستسلم للأفكار السوداء. ولما كنت الشخص الذي يعطف أشدّ العطف على آلامه - يقينًا - فقد رأيت أنني ولا بد - كذلك - الشخص الذي تسري عنه رؤيته، أكثر من أي شيء آخر. وبالرغم من وجود بعض الشواغل العاجلة الملحة، فقد رحت أتردّد عليه بعد ذلك - مرة كل يومين - وحيدًا، أو مع زوجته، لأقضى معه فترة الأصيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجاء الصيف في ذلك العام - 1749 - شديد الحر. وكان ثمة فرسخان بين باريس وفانسين. ولما لم أكن في سعة تمكنني من استئجار عربة، فقد اعتدت أن أنطلق في الساعة الثانية - من بعد الظهر - على قدمي، إذا ما كنت وحيدًا.. وكنت أغذ السير لأصل في أقرب وقت.. وكانت الأشجار القائمة على طول الطريق، غير وارفة الأفنان، على ما هو مألوف في تلك المنطقة، فلم تكن تضفى علىّ شيئًا من الظل تقريبًا، وكثيرًا ما كنت أرتمى على الأرض، وقد أرهقني الحر والتعب، وعجزت عن المضى.. ولكي أخفّف من سرعة انطلاقى، عمدت إلى اصطحاب أحد الكتب خلال الرحلة. وفى ذات يوم، اصطحبت كتاب « تقويم فرنسا ». وفيما كنت أقرأ أبان سيرى، صادفت السؤال الذي طرحه المحفل العلمي لديجون، ليكون موضوع مباراة77 العام التالي: « هل ساعد تقدّم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها؟ ».

وما أن قرأت هذه الكلمات، حتى تمثلت كونًا آخر، وغدوت إنسانًا آخر. ومع أننى أحتفظ بذكرى حية للأثر الذي أحدثه السؤال في نفسي، إلا أن تفصيلات الواقعة غابت عن بالي مذ أودعتها إحدى رسائلي الأربع إلى السيِّد دى « ماليزيرب ». وهذه إحدى الظواهر العجيبة التي تتصف بها ذاكرتي، والتي تستحق الذكر. فهي حين تسعفني لا تمضى في ذلك إلا طالما كنت معتمدًا عليها. وما إن أسكب ما استودعتها إياه على الورق، حتى تتخلى عني.. وإذا ما كتبت شيئًا مرة، فإني لا أعود أذكره إطلاقًا!.. وترافقني هذه الظاهرة، حتى في الموسيقى. فقد كنت أعرف كثيرًا من الأغاني عن ظهر قلب، قبل أن أدرسها. ولكني لم أكد أحذق الغناء من « النوتة »، حتى عجزت عن استبقاء أية أغنيـة في ذاكرتي، وما أراني أستطيع اليوم أن أردّد أغنية واحدة بأكملها، من كل الأغاني التي كنت أحبها!

والذي أذكره بجلاء - في هذه المناسبة - هو أنني عندما بلغت (فانسين) كنت في حال من الانفعال تشبه بحران الحمى. ولاحظ « ديدرو » ذلك، فأفضيت إليه بالسبب، وقرأت عليه « مناجاة فابريشيوس »78، التي كتبتها بالقلم الرصاص، تحت إحدى أشجار البلوط. فشجعني على أن أنشر آرائى، وأن أشترك في المباراة. وقد كان هذا!.. ومنذ تلك اللحظة غدوت من الضائعين. فلقد كان ما بقى من عمري ومن تعاساتي نتيجة لا مناص منها لهذه اللحظة من لحظات الاختبال والضلال79!

وتسامت مشاعري إلى مستوى أفكارى، بسرعة تفوق التصوُّر. فإذا بكل أهوائي التافهة تختنق في فورة الحقيقة والحرية والفضيلة.. وأدعى من هذا إلى الدهشة، أن هذه الفورة ظلّت محتدمة في فؤادي طيلة أربع أو خمس سنوات أخرى، بدرجة لعلها لم تساور قلب أي بشر آخر!

وأقبلت على العمل في إعداد هذا المقال، بطريقة جد عجيبة، اعتدت دائمًا أن أنتهجها في كل مؤلفاتي الأخرى تقريبًا. فقد خصصتها بالساعات التي لم يكن النوم يواتيني فيها بالليل. وكنت أستغرق في التفكير وأنا في فراشي مغمض العينين، وأروح أقلب عباراتي في رأسي، وأعاود تقليبها في عناء لا يمكن تصوّره، حتى إذا انتهيت إلى الرضاء عنها، أودعتها ذاكرتي إلى أن أستطيع تسطيرها على الورق. ولكن الوقت الذي كان يستغرقه نهوضى وارتداء ثيابي، كان يضيعها علىّ.. فإذا ما عكفت على ورقى، لم يوافنى شيء مما نظمته

في بالي تقريبًا.

ورأيت أن أستخدم السيِّدة لوفاسير كسكرتيرة، فأسكنتها مع ابنتها وزوجها على مقربة منى، وكانت هي التي تأتي في كل صباح لتوقد نارى وتؤدّى الخدمات البسيطة التي أحتاج إليها، اقتصادًا لأجر الخادم، وعند وصولها، كنت أملى عليها من سريري ما أعددته في الليل. وقد أدّى هذا النظام - الذي اتبعته زمنًا طويلًا - إلى إنقاذ كثير مما كان معرضًا للنسيان!.. حتى إذا فرغت من المقال، عرضته على ديدرو، الذي أبدى ارتياحًا إليه، وأشار إلى بعض تعديلات. على أن هذا العمل الأدبي المليء بالحرارة والقوة، كان يفتقد المنطق والترتيب افتقادًا تامًا، فهو - دون كل ما انساب من قلمي - أضعفها في الحجة، وأفقرها إلى التناسب والتناسق. على أن فن الكتابة لا يُستوعب دفعة واحدة، مهما تكن المواهب التي فُطر المرء عليها!

وأرسلت هذا المقال، دون أن أتحدَّث عنه إلى أحد، اللهم إلا « جريم » - فيما أظن - إذ كنت قد بدأت أرتبط وإياه بأعظم ود، منذ التحق بخدمة الكونت دى فرييز. وكان لديه معزف اتخذناه ملتقى يجمعنا، فكنت أقضى مع « جريم » حوله كل لحظات فراغى، نغنى الألحان الإيطالية وأغاني ملاحي الجندول، دون انقطاع أو ملل من الصباح حتى المساء، أو - بالأحرى - من المساء إلى الصباح. وعندما كنت لا أوجد في دار السيِّدة دوبان، فقد كان من المحقق أو أوجد لدى السيِّد « جريم »، أو معه ـ على الأقل ـ سواء في نزهة أو في مسرح. وكنت قد كففت عن الذهاب إلى مسرح « الكوميدي ايتالين » - الذي كنت أستمتع بحق دخوله بالمجان، والذي لم يكن « جريم » يحبه ـ وأصبحت أتردد معه على « الكوميدي فرانسيز »، الذي كان مولعًا به. وقصارى القول أن جاذبية قوية ربطتني بهذا الشاب، حتى أننى أصبحت لا أطيق بُعدًا عنه، وحتى أن العمة المسكينة[80] غدت موضع إهمال منى!.. أقصد أننى أقللت من زيارتي إياها، إذ أن عاطفتي لم تهن لحظة واحدة خلال حياتي!

ولقد أدَّت استحالة تقسيم وقت فراغي الضئيل بين ميولي، إلى أن تجددت لدىَّ، بقوة لا قِبل لي بها، الرغبة - التي ساورتني منذ وقت طويل - في أن يكون لي ولتيريز مسكن واحد. ولكن العقبة التي تمثلت في عدد أفراد أسرتها، وفي الحاجة إلى المال لشراء الأثاث - بوجه خاص - جعلتني أعدل حتى ذلك الحين. ثم سنحت لي فرصة المحاولة، فانتهزتها.. ذلك أن السيِّد دي فرانكويي والسيِّدة دوبان شعرا تمامًا بأن مبلغًا يتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة فرنك في العام، مبلغ غير كاف، فرفعا من تلقاء نفسيهما مرتبى السنوى إلى خمسين « لوى ». وفضلًا عن هذا، فإن السيِّدة دوبان لم تكد تسمع بأنني كنت أسعى إلى تأثيث مسكن خاص لي، حتى ساعدتني ببعض نفحات من أجل هذا الغرض. وبالإضافة إلى الأثاث الذي كان لدى « تيريز » من قبل، لممنا شملنا، واستأجرنا مسكنًا صغيرًا في مبنى « اللانجدوك »، بشارع (جرينيل سانت أونوريه)، لدى قوم طيبي السمعة جدًّا، ودبّرنا معيشتنا قدر المستطاع، وأقمنا هناك في أمان وارتياح سبع سنوات.. إلى أن نزحت إلى « الارميتاج ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان والد تيريز كهلًا طيبًا، مفرط الدعة، يخاف زوجته كل الخوف، ومن ثم فقد أطلق عليها لقب « الملازم كريمينيل »[81] الذي خلعه « جريم » بعد ذلك - على سبيل الدعابة - على ابنتها. ولم تكن السيِّدة لوفاسير تفتقر إلى حضور البديهة، وأقصد في أدب الخطاب، بل إنها كانت تفخر بأدبها وبسلوكها اللائق بالمجتمع الراقي، بيد أنها كانت ذات رياء غريب لم أكن أطيقه. وكانت تقدِّم لابنتها من النصح أسوأه، وقد حاولت أن تحملها على أن تخدعني وتمكر بي!.. وكانت تداهن أصدقائي - كلًّا على حدة ـ وتحاول أن تتقرَّب إلى

الواحد منهم على حساب الآخر، أو على حسابي أنا!.. وفيما عدا ذلك فإنها كانت أمًّا طيبة، لأنها وجدت أن مصلحتها في أن تكون كذلك. وكانت تتستر على أخطاء ابنتها، لأنها كانت تفيد من وراء ذلك.. هذه المرأة التي أغرقتها بعنايتي ورعايتي، وبالهدايا الصغيرة، والتي كنت أتوق من قلبي إلى أن أحمل نفسي على حبها، كانت - بسبب استحالة نجاحي في هذا الصدد - السبب الأوَّل للتعب الذي كنت أعانيه في مسكني الصغير. وفيما عدا هذا، فإن بوسعي أن أقول إنني تذوّقت - خلال هذه السنوات الست أو السبع - أكمل هناء عائلي يسمح به الضعف البشري!

كان قلب تيريزى قلب ملاك، وقد عزَّزت حياتنا المشتركة حبنا، فأخذنا نزداد إحساسًا - يومًا بعد يوم - بأن كلًّا منا خُلق للآخر. ولو قُدر لمتعنا أن تُوصف، لكانت بساطتها داعية للضحك، سواء في ذلك نزهاتنا خارج المدينة وحيدين، حيث كنت أنفق - بعظمة - ثمانية أو عشرة « سو » في إحدى الحانات.. أو عشاؤنا البسيط في النافذة، وقد جلسنا متقابلين على مقعدين صغيرين، فوق صندوق كان يشغل عرض فراغ النافذة.. فكانت هذه تُستخدم ـ بهذا الوضع ـ كمائدة، وكنا نستنشق الهواء الطلق، ونشاهد ما حولنا، والمارة.. ومع أننا كنا في الطابق الرابع، إلا أنه كان في وسعنا أن نطلّ على الطريق، ونحن نتناول الطعام، تُرى منذا الذي يستطيع أن يصف، بل منذا الذي يستطيع أن يشعر بمفاتن هذه الوجبات التي كانت تتألف - في مجموعها - من ربع رغيف من الخبز الخشن، وبعض الكريز، وقطعة صغيرة من الجبن، ونصف « سيتييه »82 من النبيذ كنا نشربه معًا؟.. أيتها الصداقة، والثقة، والألفة، وراحة البال.. ما ألذ مذاقك!. لقد كنا نمكث أحيانا في جلستنا هذه إلى منتصف الليل، دون أن نفكر في شيء ودون أن نفطن إلى الوقت ما لم تنبهنا الأم العجوز إليه!.. ولكن لندع هذه التفصيلات التي قد تبدو عقيمة أو مضحكة، فلقد اعتدت أن أشعر ـ وأن أصرّح ـ دائمًا، بأن الهناءة الحقة لا توصف!

ولقد حظيت - في نفس تلك الفترة تقريبًا - بمتعة أخرى، كانت أكثر خشونة من هذه.. وكانت آخر متعة من نوعها أندم عليها. فلقد ذكرت أن « كلبفيل » - القس - كان لطيفًا، ولم تكن علاقتي به تقلّ توثقًا عن علاقتي بجريم، حتى أصبحنا متآلفين. وكانا يتناولان الطعام أحيانًا على مائدتي. وكانت هذه الوجبات تتجاوز حدود البساطة بعض الشيء، كما كانت تزيدها مرحًا فكاهات كلبفيل ونكاته المهذبة، والمداعبات الجرمانية من « جريم » الذي لم يكن بعد قد طلّق العبث.. ولم تكن الشهوة تتسلط على مآدبنا الصغيرة، بل كان المرح يملأ مكانها. وقد شعرنا بارتياح إلى اجتماعاتنا، فلم نعد نطيق افتراقًا. وكان كلبفيل قد أثّث مسكنًا لفتاة صغيرة، لم تكف عن أن تهب نفسها لكل الناس، لأنه لم يكن قادرًا على أن يكفلها وحده!.. وفي ذات مساء، كنا نلج أحد المقاهي، وإذا بنا نجد كلبفيل خارجًا منه، في طريقه إليها ليتناول العشاء معها. فداعبناه ببعض الفكاهات، التي انتقم لنفسه منها بلباقة، إذ اضطرنا إلى أن نشاركه نفس العشاء، ثم راح يسخر منا بدوره. وبدت لي الفتاة المسكينة حلوة السجايا، مفرطة الدعة، غير مدربة على مهنتها التي كانت تبصرها - بقدر الإمكان - عجوز ماكرة كانت برفقتها. واستخفنا الحديث والنبيذ إلى درجة نسينا معها أنفسنا. ولم يشأ كلبفيل الطيب أن ينتقص من كرمه، فتعاقب ثلاثتنا على غرفة مجاورة مع الفتاة، التي لم تدر أكان لها أن تضحك أم أن تبكى!.. ولقد اعتاد « جريم » دائمًا أن يؤكّد أنه لم يمسسها، وأنه ما أطال المكث معها إلا ليستعذب إطالة انتظارنا ونفاد صبرنا. وإذا كان قد تعفف عنها، فمن غير المحتمل أن ذلك كان عن توجس من الفتاة، إذ أنه - قبل التحاقه بخدمة الكونت دي فيريز، واقامته في داره ـ أقام لدى فتيات من غانيات حي (سان روش) بالذات.

وخرجت من شارع (ديه موانو) - حيث كانت الفتاة تقيم - وأنا أشدّ استحياء من القديس « بريو »، حين بارح المنزل الذي أسكر فيه. ولقد كنت أتمثّل قصتي بجلاء، وأنا أكتب

قصته!.. ولاحظت تيريز أن في الأمر شيئًا، لا سيما وأننى كنت مرتبكًا، وكنت أبدو ساخطًا علي نفسي. وقد تخفّفت من العبء، بأن اعترفت لها بصراحة وإيجاز. وكم أحسنت صنعًا، إذ أن « جريم » جاءها - في الصباح التالي - متشفيًا، وروى لها ذنبي في مبالغة. ومنذ ذلك الحين، لم يكف قط عن أن يذكرها به في خبث وإغاظة. وكان هذا أشنع ذنوبه، فقد كان من حقى - إذ ائتمنته على سرى طواعية، وفي غير تحفظ ـ أن أتوقع منه ألّا يحملني على أن أنـدم يومًا على هـذه الثقة.

أبدًا لم أشعر بطيبة قلب تيريزى، كما شعرت بها في هذه المناسبة، فقد أبدت من الذهول والاستنكار لتصرّف « جريم » أكثر مما أبدت من الاستياء لعدم وفائى، فلم أتجشّم أكثر من أن تقبلت منها عتابًا رقيقًا مؤثّرًا، لم ألمح خلاله أي أثر لسخط أو ضغينة!.. لقد كانت سذاجة عقل هذه الفتـاة الرائعة، تعادل طيبة قلبها، وهذا جل ما يُقال!.. على أن ثمة مثالًا لذلك، جـديرًا بالذكر، يحضرني الآن.. فلقد ذكرت لها أن كلبفيل كان قسًّا، وراعيًا دينيًّا لأمير (ساكس - جوثا). وكان القس - في رأيها - رجلًا ممتازًا، حتى أنها في تخبطها بين الأفكار المتباينة، أخذت كلبفيل على أنه « البابا ». ومن ثم فقد ظننتها اختبلت، حين أنبأتني - ذات مرة - عند عودتي إلى المنزل، بأن « البابا » قد حضر لزيارتي. واستدرجتها حتى أوضحت، ثم انطلقت بأسرع ما وسعنى لأروى هذه القصة لجريم وكلبفيل، الذي لصق به اسم « البابا » فيما بيننا.. كما أطلقنا على غانية شارع (ديه موانو)، اسم « الماما جان »83!.. وكان هذا مثار ضحك عزَّ علينا أن نخمده، حتى كدنا نختنق!.. إن أولئك الذين جعلوني أقول - في خطاب حلا لهم أن ينسبوه إلىَّ - إنني لم أضحك في حياتي سوى مرتين، لم يعرفوا شيئًا عنى في هذه الفترة، أو في أيام صباى، وإلا ما خطرت لهم هـذه الفكرة إطلاقًا!

من سنة 1750 إلى سنة 1752

علمت في العام التالي - سنة 1750 - أن مقالي فاز بالجائزة في (ديجون)، وكنت قد كففت عن التفكير فيه. فأيقظ هذا النبأ ـ من جديد - كل الأفكار التي كانت قد أوحت إلىَّ به، وبثّ فيها قوة جديدة، وأدّى إلى أن تحرّكت ـ للمرة الأولى ـ رواسب البطولة والفضيلة التي كان أبي ووطني وبلوتارخ قد أودعوها قلبي في طفولتي. فلم أعد أجد ما هو أعظم وأجمل من أن أكون حرًّا وفاضلًا، وأن أرتفع بنفسى فوق اعتبارات الحظ والرأي العام، وأن أكون مستقلًا بذاتي. ومع أن الحياء الزائف والخوف من الرأي العام منعانى - باديء الأمر - من أن أمضى وفقًا لهذه المباديء، ومن أن أخرج فجأة، وعلانية، على عادات وعرف القرن الذي أعيش فيه.. إلا أنني منـذ ذاك الحين عقدت عزمي، ولم أرجيء تنفيذ ما انتويت لأمد أطول مما كان يتطلبه هذا الانقلاب كى يغدو موفقًا.

وفيما كنت أرسم فلسفتى عن واجبات الإنسان، وقع حادث جعلني أفضل التفكير في واجباتي الشخصية. فقد كانت تيريز حبلى للمرة الثالثة.. وفي أمانة تامة بيني وبين نفسي، وفي اعتزاز مفرط صدف بي عن الرغبة في أن تكون أعمالي مكذّبة لمبادئى، شرعت أدرس مصير أولادي وعلاقتى بأمهم، عـلى ضوء قوانين الطبيعة، والعدالة، والعقل، والدين.. الدين القدسي، الأزلى، كما أراده خالقه، لا كما شوّهه البشر في تظاهرهم بالرغبة في تطهيره، ولا كما حوله الناس ـ بقوانينهم الموضوعة ـ إلى مجرَّد عقيدة قوامها الكلمات.. فإن فرض المستحيل لا يبهظ الناس ما داموا يتغافلون عن تنفيذه!

ولو أننى كنت مخطئًا في استنتاجاتي، لما كان ثمة ما هو أدعى للدهشة من الطمأنينة، التي أقبلت بها عليها.. ولو أنني كنت من أولئك الناس ذوى المنبت الوضيع، وذوى الآذان المغلقة دون صوت الطبيعة الرقيق، وذوى النفوس التي لا ينبت فيها أي إحساس صادق بالعدالة والإنسانية، لكان جمود قلبى ميسور الادراك. ولكن ما أوتيت من حرارة القلب، وإرهاف

الحس، وسهولة التعلّق بالناس.. وهذا السلطان الذي كانت تفرضه على علاقاتي بهم، وهذه اللوعات القاسية التي كنت أعانيها إذا ما اضطررت إلى قطع العلاقات.. وهذه النية الطيبة التي فُطرت عليها نحو أقراني، وحبي المتأجج لكل ما هو عظيم، وما هو صادق، وما هو جميل، وما هو عدل.. وهذا الجزع من السوء بكل أنواعه، وهذا العجز عن الكراهية والحقد، بل وعن تمنيهما.. وهذا الحنان، وهذا الشعور الناعم الوثَّاب الذي أحس به حين أرى كل ما هو فاضل وكريم ولطيف.. أفليس من الممكن لكل هذه الصفات أن تتآلف في قلب واحد، مع الحرمان الذي يدوس ـ في غير ما تورع - أعذب الالتزامات وأحلاها؟.. لا!.. إننى لأشعر وأجاهر بأن هذا مستحيل، فإن جان جاك لم يكن قط عديم الشعور، ناكرًا لصلات الرحم، ولا كان أبًا جاحدًا، لحظة واحدة في حياته!.. ومن المحتمل أن أكون قد أخطأت، ولكني لم أكن قط قاسي القلب.. ولو أننى شئت أن أفضى بحججي، لتكلمت أكثر مما ينبغي. وبما أنها كانت من القوة بحيث أغـوتني، فإنني أخشى أن تقوى كثيرين غيرى، ولست أبغى أن أعرّض الشبـان - الذين قد يقرأون حديثي - لأن ينساقوا إلى الإساءة لأنفسهم بفضل هذا الخطأ. ومن ثم فسأكتفي بأن أقول إن غلطتي كانت على هذا النسق: إننى إذ أسلمت أولادي إلى الدولة لتربيهم، لعجزي عن تنشئتهم بنفسي، وإذ قضيت عليهم بأن يصبحوا عمالًا أو مزارعين، بدلًا من أن يصبحوا مغامرين وطلاب ثروة، كنت أظنني أؤدّي تصرّفًا يليق بأب مواطن صالح، وكنت أتمثّل نفسي عضوًا في جمهورية أفلاطون. ولقد أشعرتني حسرات قلبى - في أكثر من مرة، فيما بعد - أننى كنت مخطئًا، ولكن عقلي كان أبعد من أن يوحي إليَّ بنفس الرأي، ومن ثم فإنني كثيرًا ما باركت السماء لأنها صانتهم مما لقيه أبوهم في حياته، ومن الحظ الذي كان يتهددهم إذا ما اضطررت إلى التخلى عنهم. ولو أننى أسلمتهم إلى السيِّدة ديبيناي. أو السيِّدة دى لوكسمبورج، اللتين رغبتا - فيما بعد - في أن تكفلاهم، سواء بدافع من الصداقة، أو من الكرم، أو من أي حافز آخر.. لو أنني فعلت ذلك، فهل تراهم كانوا يغدون أكثـر سعادة، أو ينشأون رجالًا أمناء محترمين، على الأقل؟.. لست أدرى، ولكننى واثق من أنهم كانوا خليقين بأن ينشأوا على كراهية أبويهم، وربما على الغدر بهما!.. ومن ثم فقـد كان من الأفضل مائة مرة، أنهم لم يعرفوا أبويهم!

وهكذا أُسلم ابني الثالث إلى ملجأ اللقطاء، كما كان شأن الطفلين السابقين.. وكذلك كان شأن الطفلين التاليين، إذ أنني أوتيت خمسة. ولقد بدا لي هذا الإجـراء ملائمًا، حكيمًا، مشروعًا إلى درجة أننى إذا كنت لم أفخر به علانية، فإنما كنت أصدر في ذلك عن شيء من مراعاة خاطـر أمهم.. على أننى أنبأت به كل أولئك الذين كنت قد أطلعتهم على علاقتي بها.. قلته لديدرو، ولجريم، كما ذكرته - فيما بعد - للسيِّدة ديبيناى، ثم للسيِّدة دى لوكسمبورج بعد ذلك.. ولقد فعلت ذلك في صراحة، وبمطلق الحرية، دون أي اضطرار، وكان بوسعي أن أخفى الأمر بسهولة عن الناس أجمعين.. إذ أن الآنسة « جوان »84 كانت أمينة، كتومة جدًّا، وكان بوسعي أن أطمئن إليها كل الاطمئنان. وكان الوحيد من أصدقائي، الذي كنت أجد مصلحة في أن أكشف له سرى، هو الطبيب « تييري »، الذي عنى بعمتي المسكينة في إحدى مرات الوضع، عنـدما ساءت حالها. ومجمل القـول أنني لم أحط تصرفي بشيء من الغموض، لا لأننى لم أتعلَّم قط أن أكتم شيئًا عن أصدقائي فحسب، وإنما لأنني لم أكن أرى - في الواقع - أي ضير في ذلك. إذ أننى - إذا قدَّرنا كافة الاعتبارات - قـد اخترت لأولادي الخير، أو ما آمنت بأنه الخير. بل إنني كنت أتمنى - ولا أزال ـ لو أنني نشأت وتربيت على شاكلتهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الوقت الذي كنت أسجّل فيه اعترافاتي هذه، كانت السيِّدة لوفاسير تحذو حذوى - من ناحيتها - بيد أنها كانت تعرض آراء أقلّ تشويقًا. وكنت قد قدّمتهما - هي وابنتها - إلى السيِّدة دوبان التي أولتهما ألف آية من آيات الطيبة، بدافع من صداقتها لي. ولقد أطلعتها

الأم على سر ابنتها. فما كان من السيِّدة دوبان الطيبة، السخية، التي لم تطلع قط على مدى حرصي على أن أوفّر لهما كل أسباب العيش - برغم تواضع مواردى - إلا أن كفلت للابنة معاشًا سخيًّا كتمت عنى هذه سرّه، بأمر من أمها، طيلة مقامي في باريس، فلم تعترف لي به إلا في « الأرميتاج »، وبعد أن كشفت لي عن عدّة أمور أخرى كانت تخفيها في صدرها. ولقد كنت أجهل أن للسيِّدة دوبان علمًا بشيء، إذ أنها لم تبد إطلاقًا أية إشارة.. كما أننى أجهل ما إذا كانت السيِّدة دى شينونسو - زوجة ابنها - على علم بالأمر هي الأخرى. على أن السيِّدة دى فرانكويي - زوجة ابن زوجها - أحاطت به، ولم تستطع أن تمسك لسانها، فتحدَّثت إليَّ عنه في العام التالي، بعد أن كنت قد تركت دار الأسرة. وقد حملني هذا على أن أكتب لها - عن هذا الموضوع ـ رسالة توجد في أضابيرى، وقد عرضت فيها من حججي ما كان بوسعي أن أذكره دون أن أقحم السيِّدة لوفاسير وأسرتها، إذ أن معظم الحجج والأسباب الحاسمة كانت منبعثة من ناحيتهم، وقد تكتمتها[85].

إننى لأطمئن إلى كتمان السيِّدة دوبان للأمر، وإلى مودة السيِّدة دى شينونسو، وكذلك كنت مطمئنًا من ناحية السيِّدة دى فرانكويى، لا سيما وأنها توفيت قبل أن يشيع سرى مدويًا، بوقتٍ طويل. ومن ثم فإنه ما كان ليتفشي إلا على السنة أولئك الذين أفضيت إليهم به بالذات!.. والواقع أن هذا لم يحدث إلا بعد أن تقطّعت بيني وبينهم الصلات. وبهذا وحده يمكن الحكم عليهم في الواقع، دون رغبة مني في أن أعفى نفسي من اللوم الذي أستحقه، بل إننى لأوثر أن آخذ الذنب على عاتقي، على أن أقضى عليهم بما يستحقه خبثهم. إن ذنبي لعظيم، ولكنه لا يعدو أن يكون خطأ.. فلقد أهملت واجباتي، بيد أن الرغبة في الايذاء لم تداخل فؤادي أبدًا، ولن يقدّر لمشاعر الأب أن تتحدَّث بإقناع عن أطفال لم يرهم إطلاقًا.. ولكن خيانة ثقة الصداقة، وانتهاك حرمة أقدس المعاهدات، ونشر الأسرار التي سُكبت في صدورنا، والحط عمدًا من قدر الصديق المخدوع الذي ما يزال يحترمنا وهو ينأى بجانبه عنا.. هذه كلها ليست أخطاء، ولكنها خسة نفس وسخيمة!

لقد وعدت بأن أقدِّم اعترافاتي، لا تبريرات تصرفاتي. ومن ثم فإنني أقف - في هذا الموضوع - عند هذا الحد. ومن واجبي أن أكون صادقًا، وللقارىء أن يكون عادلًا، ولن أطالبه قط بأكثر من هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأدّي زواج السيِّد دى شينونسو إلى أن أصبحت أكثر ارتياحًا إلى دار أمه، بفضل مزايا الزوجة الجديدة وعقلها.

فقد كانت شابة مفرطة اللطف، بدا أنها آثرتني من بين الكتبة الذين كانوا في خدمة السيِّد دوبان.. وكانت الابنة الوحيدة للسيِّدة فيكونتة دى بروشيشوار، الصديقة الحميمة للكونت دى فرييز، وبالتالي لجريم الذي كان ملحقًا بخدمته. على أنني كنت الشخص الذي قدَّمه إلى ابنته وأدخله دارها![86] ولكن طباعهما لم تتفق، ومن ثم فإن هذه الصلة لم تدم طويلًا. أما « جريم » - الذي لم يكن يضع عينيه، منذ ذلك الحين، إلا على كل ما فيه نفع مؤزر - فقد آثر الأم، التي كانت من نجوم المجتمع الراقي، على الابنة التي كانت تنشد أصدقاء تثق بهم وترتاح إليهم، ولا يكون لهم شأن بأية مؤامرة أو دسيسة، ولا يسعون إلى غاية بين العظماء!.. وإذ لم تجد السيِّدة دوبان في السيِّدة دى شينونسو كل ما كانت ترجوه من لين، أحالت دارها إلى مكان كئيب بالنسبة للشابة. فآثرت السيِّدة دي شينونسو - التي كانت معتزة بميزاتها، وربما بمنبتها أيضًا - أن تنبذ ملاهي المجتمع، وأن تبقى وحيدة - تقريبًا - في مخدعها، على أن تحتمل نيرًا لم تكن تحس بأنه يلائمها!

ولقد أدّى هذا الاعتزال إلى مضاعفة تعلقي بها، مدفوعًا بذلك الميل الطبيعي الذي كان يجتذبني إلى التعساء. ولقد وجدت فيها عقلًا مفكّرًا يميل إلى ما وراء الطبيعة، وإن كان

في بعض الأحيان ينحو إلى السفسطة. وكان حديثها جد جذَّاب لي. إذ أنه كان بعيدًا عن أن يكون حديث شابة تركت مدرسة الدير من عهد قريب، ومع عمقه هذا، فإنها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها!.. وكانت بشرتها بيضاء ناصعة تُبهر الأبصار، كما أن قوامها كان خليقًا بأن يبدو مهيبًا وجميلًا، لو أنها أقامت عودها مستويًا. أما شعرها فقد اختلطت شقرته بسمرة باهتة، في جمال نادر، مما كان يذكرني بماما البائسة في أوج شبابها، فكان يهيج فؤادي. بيد أن المبادىء القويمة التي كنت قد رسمتها لنفسي - من عهد قريب - وآليت أن أتبعها مهما تكبدت، جعلتني في أمان منها ومن مفاتنها!.. ولقد اعتدت - طيلة فصل الصيف بأكمله - أن أقضى معها ثلاث أو أربع ساعات في عزلة، ألقنها الحساب في درس جدى، وأضايقها بأرقامي التي لا تنتهي، دون أن أقول لها كلمة غزل واحدة، ودون أن أرمقها بنظرة!.. ولو أن هذا حدث بعد خمس أو ست سنوات من تلك الفترة، لما كنت قمينًا بأن أكون عاقلًا أو غبيًّا إلى هذا الحد.. ولكن القدر كان قد كتب عليَّ ألّا أحب حبًّا حقيقيًّا سوى مرة واحدة في حياتي، وأن تكون أوَّل وآخر زفرات قلبي وقفًا على امرأة غير هذه!

ولقد كنت دائمًا - مذ أقمت في دار السيِّدة دوبان - راضيًا بنصيبي، لا أبدى أية رغبة في أن يتحسن. ولقد جاءت الزيادة التي أضافتها السيِّدة إلى مرتبى - بالاشتراك مع السيِّد دى فرانكويى ـ صادرة عن محض إرادتهما وحدهما فحسب.. وفي هذا العام، فكَّر السيِّد دي فرانكويي - الذي كانت صداقته لي تزداد يومًا بعد يوم - في أن يضعني في مركز أعلى قدرًا وأكثر ثباتًا. ولقد كان محصلًا عامًا لمالية فرنسا، وإذ كان السيِّد دودوييه ـ أمين خزانته - مكتهلًا وغنيًّا، وراغبًا في أن يعتزل العمل، فقد عرض عليَّ السيِّد دي فرانكويي هذا المنصب.. ولكي أعدّ نفسي لتوليه، ترددت لبضعة أسابيع على دار السيِّد دودوييه لأتلقى عنه الارشادات الضرورية. وسواء كنت لم أوت موهبة لهذا العمل، أو أن دودوييه - الذي بدا لي راغبًا في أن يعهد بهذا المنصب إلى خليفة آخر - لم يكن يلقننى أصول المهنة عن طيب خاطر، فإنني رحت ألم بالمعلومات التي كنت محتاجًا إليها، في بطء وسوء استيعاب.. ولم ينفذ إلى رأسي قط نظام الحسابات التي كانت معقدة عن قصد ونية مبيتة. على أننى وإن لم أستوعب دقائق المهنة، لم أتوان قط عن أن أمضى مهرعًا نحو المقدرة على ممارسة مهام الإدارة. بل أننى شرعت فيها، فتوليت السجلات والخزانة، وصرفت وتسلّمت نقودًا، وأصدرت إيصالات. ومع أن ما لديَّ من ميل أقل من أن يؤهلني لهذه المهنة، إلا أن تقدّم سني جعلنى حكيمًا، فعقدت العزم على أن أتغلَّب على نفوري من أن أنصرف بكل نفسي إلى وظيفتي. ولكن سوء الحظ شاء ـ في الوقت الذي بدأت آلف عملي فيه - أن يقوم السيِّد دي فرانكويى برحلة قصيرة، ظللت خلالها الموكل الوحيد بخزانته، التي لم يكن يودعها - في ذلك الوقت - سوى مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين ألفًا وثلاثين ألفًا من الفرنكات. فإذا القلق وانشغال البال، اللذان سببتهما هذه الأمانة، يقنعانني بأنني لم أُخلق لأكون صرَّافًا. ولست أرتاب في أن اللهفة التي رحت أرتقب بها عودة السيِّد دى فرانكويى قد ساهمت في المرض الذي وقعت فريسته عقب هذه العودة!

ولقد قلت في الجزء الأوَّل من اعترافاتي إننى كنت موشكًا على الموت عندما وُلدت. وكان ثمة عيب في تكوين المثانة، أدَّى إلى احتباس البول بصفة شبه مستمرة، خلال سني عمرى الأولى، فكانت عمتي « سوزان » - التي تولّت العناية بي - تلقى عناء لا يمكن تصوّره، كى تصون حياتي. على أنها أفلحت في ذلك، واستطاعت بنيتي القوية أن تتغلب في النهاية، فتحسنت صحتي كثيرًا خلال صباي.. وفيما عدا نوبة الضعف والهزال التي ذكرتها من قبل، وفيما عدا كثرة احتياجي إلى التبول، الأمر الذي كان أقل ارتفاع في الحرارة يجعله عملية متعبة.. فيما عدا ذلك فإنني بلغت الثلاثين من عمرى، دون أن أحس بما كان في جسمي من عيب سابق.

وأصابتنى أولى العلل عند وصولي إلى البندقية. فإن عناء الرحلة والحر الشديد الذي

عانيته، جلبا عليّ رغبة مستمرة في التبول، وأوجاعًا في الكليتين، لازمتني حتى مقدم الشتاء. ولقد أيقنت بعد زيارتي للمومس87 أننى ميت، ولكنني - مع ذلك - لم أعان أقل تعب.. وبعد أن أرهقت نفسي بالوهم - أكثر منى بآلام جسدية - بسبب « جولييتا »، إذا بصحتى خير مما كانت في أي يوم. وظللت هكذا إلى ما بعد سجن ديدرو، إذ أن اشتداد سخونة دمى ـ خلال رحلاتي إلى فانسين في الحر القائظ الذي كان سائدًا إذ ذاك ـ أدّى إلى ألم عنيف في الكليتين، لم أستعد - مذ واتاني - صحتى الأولى!

وفي الفترة التي أتحدّث عنها، أدّى إسرافي في إرهاق نفسي بالعمل البغيض في تلك الخزانة اللعينـة، إلى أن اضمحلت صحتى أكثر من ذي قبـل، ومكثت في فراشي خمسة أسابيع أو سنة، في أشدّ اغتمام يمكن تصوّره. وأوفدت السيِّدة دوبان لعيادتى « موران »، الذي كان ذائع الصيت، والذي سبَّب لى - برغم مهارته ورقة لمساته - أوجاعًا لا تخطر ببال، ولم يستطع قط أن يصل إلى موطن علتي، فنصحني بأن ألجأ إلى « داران »، الذي استطاع بمجساته ـ وكانت أكثر مرونة - أن يخفّف عنى بعض الأوجاع. على أن موران ـ حين أنبأ السيِّدة دوبان بحالى - صارحها بأنني لن أكون على قيد الحياة بعد ستة أشهر. وحملني هذا الحديث - الذي نمي إليّ - على أن أفكِّر جديًّا في حالي، وفي حماقة التضحية براحة جسمى وبالى في الأيام القلائل التي تبقّت لي في الحياة، لأغدو مستعبدًا لوظيفة لم أكن أشعر نحوها بأي ميل!.. ومن ناحية أخرى، كيف كان لي أن أوفِّق بين المبادىء القاسية التي اتخذتها لنفسى وبين منصب لم يكن يتسق معها إلا قليلًا؟.. ألم يكن من المجافاة للذوق أن أدعو - وأنا المحصل العام للمالية ـ إلى التجرّد من المصلحة الذاتية، وإلى الفقر؟

واشتدّ تخمر هذه الآراء في رأسي باشتداد الحمي، وراحت تتماسك بقوة، حتى أن شيئًا لم يقو - منذ ذاك الحين - على تبديدها، فوطدت عزمى ـ خـلال فترة نقاهتي ـ على تنفيذ ما استقرّ عليه رأيى خلال بحران الحمى!.. ونبذت إلى الأبد كل مشروع للإثراء والرفعة، معتزمًا أن أقضى في الاستقلال والفقر، الفترة القصيرة التي تبقّت لي في الحياة، فاستخدمت كل قوى روحي في تحطيم أغلال الرأي العـام، وفي أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرًا، دون أن أحفل البتة برأى الناس. وكانت العقبات التي اضطررت لمغالبتها، والجهود التي بذلتها للانتصار عليها، فوق كل تصوّر. وقد وفقت بقدر المستطاع، بل وأكثر مما كنت أرجو، ولو أنني نجحت في أن أدفع عنى ربقة الصداقة، بقدر توفيقي في التحرّر من ربقة الرأي العام، لبلغت غاية مأربى، بل لعلها كانت أعظم الغايات التي خطرت لمخلوق فان، وأدعاها - على الأقل - للفضيلة.. على أننى ـ إذ رحت أتخبط تحت أقدام الأحكام الخرفاء التي تصدر عن قطيع الأدعياء الذين يسمون العظماء، والذين يسمون الحكماء - أسلم نفسي وأنقاد كالطفل لأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء، والذين كانوا يغارون من أن يروني أشق وحـدى طريقًا جديدة. وأنا أبدو جد منهمك في إسعاد نفسي، فلم يعودوا يفكرون - في الواقع - إلا في أن يجعلوني مثارًا للضحك، وشرعوا في العمل على تحقيرى، لكي يصلوا من وراء ذلك إلى تشويه سمعتى!.. كان تغيّر شخصيتى، الذي بدأ في هـذه الفترة ـ وليست شهرتي الأدبية ـ هو الذي أثار غيرتهم منى.. ولعلهم كانوا على استعداد لأن يغفروا لي إن لمعت في فن الكتابة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يغفروا لي أن ضربت بمسلكي مثالًا بدا أنه ضايقهم!.. لقد فُطرت على الود، فكانت طباعى السلسة الوديعة تغذى هذا الود دون عناء. ولقد كنت محبوبًا من كل أولئك الذين عرفوني، طالما كنت أعيش مجهـولًا لدى الرأي العام، فلم يكن لي عدو واحد.. على أن اسمى لم يكد يلمع، حتى أصبحت بلا أصدقاء!.. وكانت هذه نكبة كبرى، ولكن الأكبر منها أننى كنت محاطًا بقوم كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء، في حين أنهم لم يكونوا يستغلون الامتيازات التي يتيحها لهم هذا الاسم، إلا لكي يجروني إلى الهلاك!.. ولسوف تنكشف في سياق هذه المذكرات، تلك المؤامرة البشعة. على أنني سأكتفي ـ في الوقت الحاضر - بأن أشير إلى أصلها، وسيتبدى عما قريب كيف تشكلت أولى حلقاتها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لا بد لي، في الاستقلال الذي أردت أن أحيا فيه، من أن أحصل على القوت. وصوَّر لي خيالي وسيلة جد سهلة، هي نسخ الموسيقى مقابل كذا للصفحة. ولو أن عملًا أكثر ثباتًا من هذا كان يؤدّي إلى الغاية ذاتها، لأقدمت عليه. ولكن هذه المهنة كانت توائم ميولي، كما أنها كانت الوحيدة الكفيلة بأن تهيىء لى قوتى من يوم إلى آخر، دون أن تقتضيني خضوعا أو تبعية لأحد ومن ثم فقد قنعت بها.. واعتقادًا منى بأنني لم أعد بحاجة إلى أن أعول هم المستقبل، خنقت صوت غرورى، وانقلبت من صرَّاف لأحد رجال المال، إلى ناسخ موسيقى!.. وظننت أننى قد كسبت كثيرًا بهذا الاختيار، فلم يداخلني ندم يُذكر، حتى أنني لم أتخل عن هذه المهنة إلا بحكم الظروف القاهرة، لأعود فاحترفها بمجرَّد أن وسعنى ذلك.

ولقد أدَّى نجاح مقالي الأول إلى زيادة تيسير تحقيق هـذا القرار. وقد تكفل ديدرو بطبع المقال بعد فوزه بالجائزة. وقد كتب لي - وأنا طريح الفراش ـ رسالة أعلنني فيها بنشر المقال وبنتيجة ذلك. فقال: « لقد حظى بكل إطراء.. وما كان لمثل هذا النجاح مثيل من قبل ». ولقد منحنى هذا التحبيـذ - الذي أولاه الرأي العام عن رضى لكاتب مغمور - أوَّل اطمئنان حقيقي إلى كفاءتي التي كنت في ريب منها قبـل ذلك، برغم مشاعري الداخلية. وتبينت النفع العظيم الذي كان بوسعي أن أظفر به من هذه الكفاءة، بالنسبة إلى القرار الذي كنت أهم بتنفيذه، وقدّرت أن ناسخًا على قسط من الشهرة الأدبية، لن يعاني الحاجة إلى العمل إطلاقًا!

وما أن استقرّ رأيى وتوطد عزمي، حتى كتبت إلى السيِّد دى فرانكويى أنبئه بذلك، وأشكر له - وللسيِّدة دوبان كذلك - كل أنعمهما، سائلًا إياهما أن يعهدا إلى بما يرغبان في نسخه. ولم يفقه فرانكويي من هذه الرسالة شيئًا، بل ظن أنني ما زلت في بحران الحمى، فهرع إلى داري، ولكنه وجد أن رأيي كان قد استقرّ تمامًا، إلى درجة أنه لم يستطع أن يزعزعنى عنه.. وذهب فأنبأ السيِّدة دوبان والناس كلهم بأننى قد اختبلت، فتركته يقول ما شاء، ومضيت في طريقي. وبدأت إصلاح نفسي بملبسى، فتخليت عن الزوائد المطرزة بالقصب، وعن الجوارب البيضاء، وارتديت قلنسـوة مستديرة من الشعر المستعار، وطرحت عني سيفي، وبعت ساعتي، وهتفت لنفسي في غبطة تفوق التصوّر: « الحمد للسماء، فلن تعود بي حاجة إلى تعرّف كم الساعة! ». وتكرَّم السيِّد دي فرانكويى بالتريث فترة طويلة، قبل أن يتصرَّف بشأن خزانتـه، حتى إذا رأى - في النهـاية ـ أنني مصرّ على قراري، عيَّن السيِّد داليبار، الذي كان قبل ذلك مربيًا ومعلمًا لشينونسو في صغره، والذي كان معروفًا في ميدان فلاحة البساتين بكتابه عن « الزهور الباريسية »88.

ومما خفَّف من عنت انقلابي التقشفي، أنني لم أطبق الزهد - في البداية - على ملابسي الداخلية المتبقية مما كان لديَّ في (البندقية) فقد كانت جميلة ووفيرة، وكنت مولعًا بها بوجه خاص. وبفضل اضطراري إلى أن أتخذها مظهرًا للنظافة، إذا بي أجعلها موضع بذخ وترف، الأمر الذي لم يلبث أن أبهظني. ولقـد تكرَّم عليَّ شخص ما فخلصني من هذه الربقة. ففي أمسية عيد الميلاد، وبينما كانت الخادمات في قداس الغروب، بينما كنت في « حفلة موسيقية روحية »89 اغتصب باب غرفة في أعلى الدار، كان غسيلنا منشورًا فيها بعد غسله.. وسُرقت الثياب جميعها، وكان بينها اثنان وأربعون قميصًا لي من أبدع الأقمشة، كانت تؤلف الشطر الأكبر من ثيابي الداخلية. ومما ذكره الجيران شوهد رجل يغادر الدار - في تلك الفتـرة ـ حاملًا بعض اللفائف. ولقد ارتابت تيريز وإياي في أخيها، الذي عُرف بأنه امرؤ سوء.. وراحت الأم تدفع هذا الاشتباه بحمية، ولكنه تأكَّد بأدلة كثيرة عزَّزته لدينا، بالرغم من استنكارها إياه. ولم أجسر على القيام بتحقيق دقيق، خشية أن أكتشف أكثر مما كنت أحب. على أن الأخ لم يظهر بعد ذلك في داري، وما لبث أن اختفى تمامًا. ولقد رثيت لسوء طالع تيريز وطالعي، لارتباطنا بأسرة على هذه الشاكلة، ورحت أناشدها أكثر من ذي

قبل، أن تطرح عنها عبءًا خطيرًا كهذا. ولقد أبرأني هذا الحادث من ولعي بالثياب الداخلية الجميلة، ولم أعد أقتنى بعد ذلك سوى ثياب من أقمشة عادية، تتمشى مع بقية ملابسي.

وإذ استكملت انقلابي الاصلاحي بهذا الشكل، لم يعد لى من هم سوى أن أدعمه وأعزّزه، بالعمل على أن أجتث من قلبي كل ما كان عرضة للتأثّر بآراء الناس.. وكل ما كان بوسعه أن يحولني - بدافع من الخوف أو من اللوم - عن كل ما كان في حد ذاته طيبًا ومعقولًا. وإلى جانب الضجة التي أحدثها مقالي، أثار قراري ضجة هو الآخر، وجلب عليَّ عملًا مكنني من أن أبدأ مهنتى الجديدة بتوفيق لا بأس به. على أن عدَّة أسباب عاقتني عن أن أنجح في هذه المهنة بالقدر الذي كنت قمينًا بأن أحصل عليه في ظروف أخرى. وكان أوّل هذه الأسباب صحتى السيئة. فإن مرضى الأخير خلّف معقبات منعتنى من أن أستعيد حالي الصحية السابقة، وإنى لأعتقد بأن الأطباء الذين أسلمت نفسي إلى رعايتهم، ألحقوا بي من الضرر فوق ما ألحقه المرض. فلقد سعيت بالتوالي إلى موران، فدوران، فهيلفيتيوس، فمالوان، فثييري.. وكانوا جميعًا من الأساتذة، وكلهم من أصدقائي، وقد عالجني كل منهم على طريقته دون أن يخفِّف عني شيئًا، بل إنهم أضعفوني كثيرًا. وكنت كلما حملت نفسي على اتباع إرشاداتهم، ازددت شحوبًا، وهزالًا، وضعفًا. وأخذ خيالي - الذي أزعجوه - يقيس حالي بمدى مفعول عقاقيرهم، فلم يعد يصوِّر لي سوى سلسلة متتابعة من الآلام، التي تسبق الموت، ومن احتباس البول، والحصباء، وأحجار القبر!.. كانت كل ألوان العلاج التي تخفّف عن الغير - من مياه طبية، وحمامات، وحجامة - لا تزيد أوجاعي إلا استفحالًا. وإذ وجدت أن مجسات داران - وهي الوحيدة التي أدَّت إلى بعض النتائج، وجعلتني أعتقد أن لا سبيل لى إلى الحياة بدونها ـ لم تكن تهيىء لي، برغم ذلك، سوى تسكين مؤقت للأوجاع، فقد بادرت إلى إنفاق مبلغ جسيم في اقتناء كمية هائلة من المجسات تكفيني طيلة العمر، ولو فارق داران الحياة!.. ولا بد أننى أنفقت خمسين « لوى » على الأقل، خلال السنوات الثماني أو العشر التي استخدمت فيها هذه المجسات دون انقطاع!.. ومن اليسير تبين أن علاجًا باهظ النفقات، مؤلمًا مزعجًا كهذا، كان يشغلني عن العمل، وأن المرء إذا ما كان مشرفًا على الموت، لا يشعر برغبة ملهوفة في كسب خبزه اليومي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت الشواغل الأدبية ملهاة أخرى، لا تقلّ عن سابقتها عدوانًا على عملي اليومي. فما هو أن نُشر مقالى، حتى انقض عليَّ حماة الأدب، وكأنهم عصبة جمعت صفوفها. وغاظني أن أجد مثل هذا العدد من « السادة جس » الصغار[90]، يحاولون أن يفرضوا سلطانهم وإن لم يكونوا على دراية بالأمر، فقد امتشقت قلمي، وعالجت فريقًا منهم بطريقة لم تدع ضحكات في صفوفهم!.. وكان أوَّل المتهاوين تحت طعنات قلمى، سيِّد من (نانسي) يُدعى السيِّد جوتييه، فقد أُهين بغلظة في رسالة إلى « جريم ». أما الثاني، فكان الملك « ستانيسلاس »[91] نفسه، الذي لم يتورَّع عن أن يخوض المعركة ضدى. وقد اضطرني الشرف الذي أضفاه عليَّ، إلى أن أبدِّل لهجتى في الرد عليه، فاتخذت لهجة أكثر وقارًا، وإن لم تكن أقلّ شدَّة. ففندت رسالته تمامًا، دون أن أغض من احترام المؤلف. ولقد عرفت أن جيزويتيًّا يُدعى الأب « مينو » كان ذا يد في الموضوع، فاعتمدت على فطنتي في التفرقة بين عمل الأمير وعمل الراهب، و انقضضت دون إشفاق على كل العبارات الجيزويتية، فكشفت ـ في طريقي - عن خطأ تاريخي كنت أعتقد أنه لا يصدر إلا عن قلم قداسته. وهذا المقال ـ الذي كان أقلّ من سواه إثارة للضجيج لسبب ما ـ يُعتبر في حد ذاته فريدًا في نوعه. فقد انتهزت فيه الفرصة لأبين للرأى العام كيف أن في وسع فرد معين أن يذود عن قضية الحق، ضد عاهل ذي سلطان. وكان من العسير أن أتخذ لهجة أبية ومحترمة ـ في الوقت ذاته ـ تفوق تلك التي اتخذتها في ردي عليه. وكنت مجدودًا إذ قُدِّر لي أن أنازل غريمًا كان قلبي مفعمًا نحوه بتقدير كنت أملك أن أبديه له دون ما تملق. ولقد ظن أصدقائي - الذين

انزعجوا من أجلى - أنهم لن يلبثوا أن يروني في « الباستيل »، ولكن الخوف من ذلك لم يداخلني لحظة واحدة.. وكنت محقًا. فقد قال هذا الأمير الطيب، بعد أن أطلع على ردى: « لقد تلقيت جزائي، ولن أزج بنفسي في الأمر بعد ذلك ». ومن ذلك الحين، تلقيت منه الكثير من أمارات التقدير والكرم - التي سأضطر إلى ذكر بعضها - وانتشر مقالي في فرنسا وأوربا في هدوء، ودون أن يجد امرؤ فيه منفذًا إلى لوم!

وصادفت - بعد ذلك بقليل - غريمًا آخر لم أكن أتوقعه هو السيِّد « بورد » الذي كنت أعرفه في (ليون)، والذي أولاني - قبل عشر سنوات - كثيرًا من الود، وأدَّى لي عدّة خدمات، ولم أكن قد نسيته، ولكني كنت قد تغافلت عنه تكاسلًا، كما أنني لم أكن قد أرسلت إليه مؤلفاتي، إذ عازتني الفرصة المواتية لأبعث بها إليه - وكنت في ذلك مخطئًا. ولقد هاجمني - ولكن في أدب وأمانة - فرددت عليه بنفس اللهجة. وعاد إليَّ الهجوم بإصرار، فأفسح بذلك المجال إلى رد مفحم، لم ينبس بعده بكلمة92، ولكنه صار أشدّ أعدائي ضراوة، وانتهز وقت محنتى ليوجِّه إليَّ شتائم مقذعة، كما رحل إلى لندن خصيصًا لكي يسعى إلى إيذائي!

ولقد شغلتني هذه المجادلات القلمية كل الشغل، إذ بددت كثيرًا من الوقت الذي كان يتطلبه عملي في النسخ، وعاقت تقدّمي في طلب الحقيقة، وحدت من الكسب الذي كان يدخل جيبى. وكان « بيسو » - ناشر مؤلفاتي في ذلك الحين - لا يمنحني دائمًا سوى مبالغ زهيدة جدًّا في مقابل كتيباتي، وكثيرًا ما كان لا يدفع شيئًا البتة، ومن أمثلة ذلك أننى لم أتلق درهمًا واحدًا عن رسالتي الأولى، إذ أعطاه ديدرو إياها دون مقابل. وكان لا بد من أن أنتظر طويلًا، وأن أنتزع منه القليل - الذي كان يجود به - « سو » إثر « سو ». وفي الوقت ذاته، لم تكن سوقي في النسخ رائجة، فقد كنت مشغولًا بمهنتين، وهذه هي الوسيلة لكي أسيء أداء كل منهما!.. ولقد تعارضت هاتان المهنتان في ناحية أخرى، وقد تمثّل هذا التعارض في تباين أسلوب الحياة الذي كانت كل منهما تضطرّني إلى انتهاجه.. ذلك أن نجاح مؤلفاتي الأولى، جعلني قبلة الأنظار. إذ أثارت المكانة التي احتللتها فضول الناس، وولَّد الرغبة في معرفة هذا الرجل الغريب الأطوار، الذي لم يكن يخطب ود أحد، ولا يحفل إلا بأن يعيش على سجيته طليقًا، سعيدًا.. وكانت هذه الرغبة كافية لأن تجعل الحياة التي كنت أنشدها مستحيلة، إذ لم تعد حجرتي تخلو من أناس كانوا يفدون ليسلبوني وقتي بمختلف الحجج. وعمدت النساء إلى ألف حيلة لاستدراجي إلى موائدهن.. وكنت كلما جافيت الناس ازدادوا إصرارًا على ملاحقتي.. ولم أعد أقوى على صدّهم جميعًا، ففي الوقت الذي جلبت فيه على نفسي ألف عدو - بسبب الرفض - كانت رغبتي في مجاملة الغير تستعبدني، ولم أعد أحظى من يومي بساعة واحدة لنفسي، مهما أحاول!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأدركت إذ ذاك أن العيش في فقر وحرية، ليس دائمًا بالسهولة التي يتصوّرها المرء. فلقد شئت أن أعيش على مهنتي، ولكن الجمهور لم يشأ!.. وكانوا يبتكرون ألف وسيلة تافهة لتعويضي عن الوقت الذي كان يضيع عليَّ، فإذا الهدايا ـ من بشخصه93. ولم أعرف عبودية أكثر قسوة وإذلالًا من هذا، ولا رأيت له علاجًا سوى أن أرفض جميع الهدايا، كبيرها وصغيرها، دون ما استثناء لإرضاء أحد!.. ولم يؤد كل هذا إلَّا إلى اجتذاب واهبي الهدايا، الذين كانوا يطمعون في أن يحظوا بفخر التغلّب على صدودي، وأن يدينوني بفضلهم بالرغم منى. وكم من امرىء كان يضن عليَّ بـ « ايكو » واحد - لو أنني طلبته - ولكنه راح يضايقني بعطاياه دون انقطاع، وهو يتهمني بالغطرسة والكبر، ليثأر لنفسه من رفضي!

ولا بد أن القارىء قد حدس أن القرار الذي كنت قد اتخذته، والنهج الذي رغبت في انتهاجه، لم يصادفا هوى لدى السيِّدة لوفاسير. ولم يفلح كل ما كان لدى ابنتها من تجرّد

من النفع الذاتي، في أن يمنع هذه الابنة من أن تنساق لتوجيهات أمها، ومن ثم فإن « الدادتين »94 - كما اعتاد جوفكور أن يسميهما - لم تكونا حازمتين دائمًا مثلي في رفض الهدايا، من ناحيتهما. ومع أن كثيرًا من الأشياء كانت توارى عنى، إلا أنني رأيت ما كان كافيًا لأن يقنعني بأنني لم أر كل شيء!.. وقد عذّبني هذا، لا خشية أن أُتهم بالتواطؤ معهما - وهو ما تنبأت بأنني ملاقيه عما قريب - وإنما بسبب الفكرة القاسية التي أوحى بها عجزي من أن أكون صاحب السلطان في بيتي، وعلى نفسي!.. ولقد رجوت، وتوسلت، وغضبت دون جدوى!.. ولقد صوّرتني الأم في صورة المتذمر الأبدى التأنيب والتوبيخ، ورمتني بأنني مشاكس شرس.. وكانت لا تفتأ تتهامس مع أصدقائي.. كان كل شيء في بيتي محوطًا بالغموض والأسرار، ولكني - اتقاء للتعرّض للعواصف دون انقطاع - لم أعد أجرؤ على الاستفسار عما كان يجرى. ولقد كان التخلّص من هذا الازعاج يتطلّب حزمًا لم أكن أملكه، إذ أنني كنت أعرف كيف أصيح، ولكنني كنت لا أدري كيف أقرن الصياح بالعمل.. فتُركت أصيح، وظلّ كل شيء ماضيًا في مجراه!

هذه المزعجات المستمرة، وهذه المضايقات اليومية التي كنت فريسة لها، جعلت - في النهاية - مسكنى ومقامي في باريس من أبغض الأمور. وكنت إذا ما سمحت لي صحتى بالخروج، وإذا لم أنسق إلى هنا أو إلى هناك تحت إغراء معارفي، أتمشى وحيدًا، وأنا أحلم بخطتي العظيمة في الحياة. وكنت أسطر بعض الخواطر، مستعينًا بمفكرة بيضاء وقلم من الرصاص اعتدت أن أحتفظ بهما في جيبي. وهكذا دفعت بي المضايقات الخفية لحال اخترتها لنفسي، إلى مهنـة الأدب نهائيًا، فقد رحت ألوذ بها فرارًا من تلك المضايقات. وهذا السر في أننى بثثت كل مؤلفاتي الأولى، المرارة والضيق اللذين دفعاني إلى أن أشغل نفسي بكتابتها.

وهناك عامل آخر ساهم في ذلك.. فإنني حين أُقحمت - بالرغم منى - في المجتمع، دون أن أوتى طباعه. أو أن أكون على استعداد لأن أكتسبها، قرّرت أن أتخذ لنفسي طباعًا خاصة تغنينى. وإذ كانت حماقتي وحيائي الممض - اللذين عجزت عن مغالبتهما - صادرين أصلًا عن الخوف من أن تعوزنى آداب اللياقة، فقد رأيت - لكي أشجع نفسي - أن أدوس تلك الآداب تحت قدمي. وأحالني الحياء إلى هجاء مقذع لاذع، وحرصت على أن أزدرى آداب اللياقة التي لم أتعلّم كيف أمارسها. ومن الصحيح أن هذه الغلطة تمشّت مع مبادئي الجديدة، فإذا بها تكتسب سموًا في عقلي، وتتخذ مظهر الجـرأة المنبثقة عن الفضيلة.. وأستطيع أن أذهب إلى القول بأنها بهذا الشكل الجليل، استطاعت أن تصمد خيرًا - ولأمد أطول - مما كان مرتقبًا، بطبيعة الحال، لجهد مناقض لسجيتي إلى هذا الحد، ومع ذلك فإنني كنت أسيء دائمًا الاحتفاظ بشخصيتي، فيما بيني وبين نفسي - بوجه خاص - بالرغم مما ذاع عنى في المجتمع من نفور من البشر، أوحى به مظهري الخارجي وبعض الكلمات التي تنم عن ذلك!.. وإذ راح أصدقائي ومعـارفي يقدرون هذا الدب الوحشي وكأنه حمل، وإذ راحوا يحدّون من سخرياتهم فيقصرونها على الحقائق القاسية، العامة، فإنني لم أكن أملك قط أن أقـول كلمة مجاملة واحـدة، لأي امرىء كان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأدّت قصة « خراف القرية » إلى تألقي في المجتمع، فلم يعد في باريس رجل مرموق فوق ما كنت أنا. ويرتبط تاريخ هذه القصة - التي تمثّل فترة من حياتي - بعلاقات كنت قد أنشأتها في ذاك الحين. وهذه تفصيلات أرى واجبًا علىّ أن أتناولها، لكي تفهم القصة حق الفهم.

كان لى عدد كبير جدًا من المعارف، بيد أنني لم أصطف منهم سوى صديقين، هما « ديدرو » و « جريم ». ونظرًا لما أوتيت من رغبة في أن أجمع بين كل أولئك الأعزار لدىّ، فإن

صداقتى الوثيقة لكل منهما، لم تدع مناصًا من أن يصبح كل منهما صديقًا حميمًا للآخر، إذ أننى جمعتهما معًا، فإذا بهما ينسجمان، وسرعان ما غدا كل منهما أوثق صلة بالآخر منه بي أنا. وكان لديدرو معارف لا حصر لهم، أما « جريم »، فقد كان يشتهي المعارف، إذ كان أجنبيًا وحديث عهد بالبلاد. ولم أكن أطمع في أكثر من أن أوفِّر له هؤلاء المعارف، فأتحت له صداقة ديدرو، وصداقة جوفكور.. واصطحبته إلى دار السيِّدة دى شينونسو، ودار السيِّدة دييناي، ودار البارون دولباخ، الذي وجدتني مرتبطًا به على الرغم منى تقريبًا!.. وغدا كل أصدقائي أصدقاء له. وكان هذا الأمر غاية في السهولة، ولكن أحدًا من أصدقائه لم يصبح يومًا صديقًا لي!.. وإليكم ما كان يحول دون ذلك:

لما كان جريم يقيم في بيت الكونت دى فرييز، فإنه كان يدعونا إلى الغداء هناك أحيانًا. ولكنني لم أتلق قط أي دليـل على الود أو اللطف من الكونت دى فرييز، أو الكونت دي شومبيرج - قريبه الذي كان وثيق الألفة بجريم ـ أو من أي شخص آخر، ذكرًا كان أو أنثى، ممن كانت لجريم بهم علاقة، عن طريق هذين السيِّدين. وكان الوحيد المستثنى منهم، هو الراهب « راينال » الذي أثبت أنه صديق لي، وإن كان صديقًا له، والذي اعتاد أن يقدِّم كيس نقوده لي - إذا دعت الحاجة - في كرم غير مألوف. على أنني كنت أعرف الراهب راينال قبل أن يعرفه جريم نفسه بوقتٍ طويل، وكنت أميــل إليه دائمًا، عقب تصرّف مفعم بالرقة واللياقـة أسداه إلىّ في مناسبة طفيفة القيمة، ولكني لم أنسها البتة.

كان هذا الأب راينال صديقًا حميمًا بالتأكيد. ولقد تسنى لى الدليل على ذلك، حوالي الوقت الذي أنا بصدده تقريبًا، وفى أمر يتعلَّق بجريم ذاته، إذ كان على علاقة وثيقة به. فلقد ظلَّ « جريم » بعض الوقت على صداقة خالصة بالآنسة « فيل »، ثم إذا به فجأة يغدو عاشقًا مدلهًا في هواها، وأن ينتزعها من « كاهوساك ». ولكن الحسناء طردت هذا المتيم الجديد، وهي تفخر بوفائها، فحمل الشاب الأمر محملًا أليمًا، حتى أنه فكَّر في الموت. وما لبث أن وقع بغتة فريسة لأغرب مرض سمع به امرؤ. فقد راح يقضى نهاره وليله في غيبوبة، تظل خلالها عيناه مفتوحتين، ونبضه منتظمًا، ولكن.. بلا كلام، ولا طعام، ولا حركة.. وكان يبدو أحيانًا ما ينم عن أنه كان يسمع، بيد أنه لم يكن يجيب إطلاقًا، ولو بالإشارة!.. وكان - إلى جانب ذلك - غير منفعل، ولا متألم، ولا محموم.. وكان يبقى على هذه الحال، وكأنه ميت!. وتشاطرت والراهب راينال رعايته، فكان الراهب - نظرًا لتفوقه علىَّ في متانة البنيان وقوة البدن - يسهر الليالي، بينما كنت أعنى به في النهار. وكنا لا نفارقه إطلاقًا، فلا يبرحه أي منا حتى يصل الآخر.



وكنا لا نفارقه اطلاقا ، فلا يبرحه اى منا حتى يصل الآخر .

وجزع الكونت دي فرييز، فأحضر له « سيناك » الذي قال - بعد أن فحصه فحصًا دقيقًا - ألّا علة هناك، ولم يصف له دواء، وكان إشفاقي على صديقي قد حملني على أن أراقب بإنعام محيا الطبيب، فلمحته يبتسم وهو يغادر المكان. ومع ذلك فإن المريض ظلّ أيامًا عديدة دون حراك، ودون أن يتناول حساء أو أي شيء، اللهم إلا بعض الكريز المحفوظ، الذي كنت أضعه على لسانه بين آنٍ وآخر، والذي كان يزدرده في لهفة. وفي ذات صباح بديع، استيقظ جريم، وارتدى ثيابه، واستأنف حياته العادية، دون أن يحدّثني قط، أو يحدّث الراهب - فيما علمت - أو يحدِّث أي مخلوق عن هذه الغيبوبة العجيبة، ولا عن العناية التي أوليناه إياها طيلة استمرارها!

ولم يمرّ هذا الحادث دون ضجة، فقد كان من الموضوعات العجيبة حقًّا، أن تؤدّى قسوة إحدى غانيات الأوبرا، إلى أن يموت رجل لفرط اليأس!.. وأذاعت هذه العاطفة الرائعة صيت « جريم » في المجتمع، حتى لقد اشتهر بأنه معجزة الحب، والصداقة، والوفاء، في كافة الاعتبارات. وجعلته هذه الفكرة مرموقًا، ومكرمًا لدى المجتمع الراقي. وبهذا تباعد عنى، أنا الذي لم أكن بالنسبة له أكثر من تكأة أو أداة!.. ورأيت أنه على وشك أن يغدو غريبًا عنى، فأحزنني ذلك، إذ أن كل المشاعر المضطرمة التي كان يتظاهر بها، كانت عين المشاعر التي خالجتني نحوه، دون أن أتظاهر بها. ولقد كنت مغتبطًا لنجاحه في المجتمع، ولكنني لم أكن أحب له أن ينسى أصدقاءه في غمرة هذا النجاح. ولقد قلت له يومًا: « إنك لتهملني يا جريم، وإني لأغفر لك ذلك. فإذا ما انتهى مفعول النشوة الأولى لهذا النجاح المدوى، وشرعت تتبيَّن أنه فارغ، فإني آمل أن تعود إلىّ، ولسوف تجدني دوامًا كما عهدتني. أما في الآونة الحاضرة، فلا تضايق نفسك، فسوف أدعك تفعل ما يحلو لك، وسوف أنتظرك ». وقال لي إنني كنت على حق ودبَّر خطته على هذا النسق، وانطلق في طريقه إلى نهاية الشوط، حتى أنني لم أعد أراه إلا مع الأصدقاء المشتركين لكلينا!

وكانت دار البارون دولباخ هي ملتقانا الرئيسي، قبل أن يرتبط بمدام ديبيناى ارتباطًا وثيقًا. وكان البارون المذكور ابنًا لرجل عصامي وقد أوتى ثروة عظيمة جدًّا، فاستغلها استغلالًا نبيلًا، وفتح داره لأهل الأدب والفضل، واستطاع بتنوره ومعرفته أن يملأ مكانه بينهم. وإذ كان على علاقة بديدرو منذ أمد طويل، فقد سعى عن طريقه إلى التعرّف بي، قبل أن يغدو اسمى معروفًا. وصدّنى نفور طبيعي عن أن أستجيب لتقرّبه فترة طويلة. وقد سألني عن السبب ذات يوم، فقلت له: « إنك واسع الثراء ». ولكنه ألح في طلب ودّي، واستطاع أن يتغلّب على توجسي في النهاية. لقد كانت نكبتى الكبرى دائمًا، هي عجزي عن مقاومة الإطراء واللطف، وما وجدتني يومًا أتخلى عن هذه الشيمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن حالات التعارف التي تحوَّلت إلى صداقة بمجرَّد أن وجدت من حقى أن أنشدها، معرفتي بالسيِّد ديكلو. ولقد انقضت عدَّة سنوات مذ رأيته - للمرة الأولى - في (لاشيفريت)، لدى السيِّدة ديبيناي، التي كان على صلات طيبة بها. ولم نحظ بأكثر من أن تناولنا الغداء معًا، ثم رحل في اليوم ذاته. ولكننا وجدنا الفرصة لتبادل الحديث فترة بعد الغداء. وكانت السيِّدة ديبيناي قد حدَّثته عنى وعن أوبراي « عرائس الشعر اللطاف ». وكان « ديكلو » ذا مواهب عظيمة، أسمى من أن تجعله يصدف عن حب الموهوبين، ومن ثم فقد مال إلىّ، ودعاني إلى زيارته. وبالرغم من ميلي القديم95، الذي عزَّزته المعرفة، فإن حيائي وكسلى ظلّا يعوقانني طويلًا، حتى لم يبق ثمة ما يقرّبني إليه سوى لطفه وحفاوته. على أنني تشجعت بنجاحي الأوّل96 وبما بلغني من إطرائه هذا النجاح، فقمت بزيارته، وجاء لزيارتي، وهكذا بدأت بيننا روابط ستظل تجعلني أعتز به دائمًا، وإليها - وإلى شهادة قلبي الصادق - أدين بمعرفة أن الاستقامة والوفاء، قد تقترن أحيانًا بالثقافة الأدبية!

ولقد كانت كثير من علاقاتي - التي تقلّ متانة عما ذكرت، والتي أتجاوز عن ذكراها هنا - نتيجة مرات نجاحي الأولى، وقد دامت إلى أن قُدّر لفضول أصحابها أن يرتوي. فلقد كانت نفسي تتكشف على حقيقتها سريعًا، فلا يعود ثمة جديد يُرى فيها بعد اليوم الأوّل للتعارف!.. على أن من النساء اللائي سعين إلى التعرّف بي في تلك الآونة، امرأة صارت أقوى صلة بي من سواها، تلك هي السيِّدة المركيزة دي كريكي، ابنة أخ السيِّد « لوباييلى دى فرولاى »، الذي كان سفيرًا لفرنسا في (مالطة) وكان أخوها سلفًا للسيِّد دي مونتيجي في السفارة الفرنسية في (البندقية)، وزرته عقب عودتي من تلك المدينة.. ولقد كتبت السيِّدة دي كريكي إليَّ، فذهبت لزيارتها.. واستقبلتني في مودة، وتناولت الغداء لديها بضع مرات، وقابلت لديها كثيرًا من الأدباء.. منهم السيِّد سوران - مؤلف « سبارتاكوس » و « بارنيفلت » وغيرهما - الذي أصبح من ذلك الحين ألد أعدائي، لغير ما سبب أستطيع أن أتصوّره، سوى أنني أحمل اسم رجل كان أبوه قد اضطهده بخسة وظلم.

ويُرى من هذا، أننى - كناسخ كان ينبغي أن يشغل بمهنته من الصباح إلى المساء ـ كنت أصادف كثيرًا من الشواغل التي كانت تعوق عملي اليومي عن أن يكون جد مربح، وكانت تمنعنى من أن أعني العناية الواجبة بما كان مصدرًا لرزقي. وكنت أضيع أكثر من نصف الوقت المتبقى لي، في محو أو كشط الأخطاء التي كنت أرتكبها فيما أنسخ، أو في إعادة كتابته من جديد. وقد أدَّى هذا الازعاج إلى أن أصبحت لا أطيق باريس يومًا بعد يوم، وإلى حملي على أن أنشد الريف برغبة قوية. فذهبت عدَّة مرات لأقضى أيامًا في (ماركوسى)، التي كانت مدام لوفاسير على معرفة بأسقفها.. وقد استطعنا أن ندبِّر الأمر بحيث أنه لم يجد أي ضير في مقامنا في داره.. ولقد ذهب معنا « جريم » مرة إلى هناك[97]. وكان الأسقف، ذا صوت رخيم، كما كان يجيد الغناء، ومع أنه لم يكن ملمًّا بالموسيقى. إلا أنه كان يستطيع أن يحفظ دوره بدقة. ومن ثم فقد قضينا الوقت في ترديد الأغاني الثلاثية التي كنت قد وضعتها في (شينونسو)، كما لحنت أغنيتين أو ثلاثًا جديدة، وضع « جريم » والأسقف كلماتها بقدر ما وسعهما. ولست أملك أن أمنع نفسي عن التحسر على تلك الأغاني الثلاثية التي وُضعت في لحظات مفعمة بالغبطة الخالصة، والتي تركتها في (فوتون) ومعها جميع قطعى الموسيقية. ولعل الآنسة دافنبورت قد اتخذت منها أشرطة ورقية للف شعرها.. على أنها كانت جديرة بأن تُصان، فقد كانت - في الغالب - دقيقة الوزن. وحدث بعد إحدى هذه الرحلات القصيرة - وقد اغتبطت لرؤية « العمة » منشرحة مسرورة، كما كنت أنا الآخر مبتهجًا - أن كتبت إلى الأسقف خطابًا شعريًا، نظمته في عجلة وفي غير عناية.. وسيوجد بين أوراقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان لي - في مكان أكثر قربًا من باريس - ملاذ آخر يلائم مزاجي.. تلك هي دار السيِّد « موسار »، مواطنى وقريبي وصديقي، الذي أعدّ لنفسه مأوى فاتنًا في (باسي)، قضيت فيه كثيرًا من اللحظات الوادعة. وكان السيِّد موسار تاجر مجوهرات، وكان رجلًا سليم الذوق، جمع من حرفته ثروة طيبة، وزوَّج ابنته الوحيدة من السيِّد دي فالماليت - ابن صرَّاف ومدير فندق الملك - ثم استقرّ رأيه الحكيم على أن يهجر في أيام شيخوخته التجارة والعمل، لينعم بالراحة والاستجمام فترة من الزمن، بين هموم الحياة ونهاية الأجل. وكان « موسار » الطيب فيلسوفًا عمليًا حقًّا، فكان يعيش بلا هموم، في دار بديعة ابتناها لنفسه، وفي حديقة غنّاء زرعها بيديه. وفيما كان يحفر قنوات أحواض هذه الحديقة، عثر على قواقع متحجرة، ووجدها بكميات كبيرة إلى درجة أن خياله المتوثب لم يعد يرى في الطبيعة سوى قواقع، حتى انتهى أخيرًا إلى الإيمان الجازم بأن الكون لم يكن غير قواقع!.. وأصبح لا يفكِّر دائمًا إلا في هذا الأمر، وفي اكتشافه الفذ، حتى أهاجته هذه الأفكار، وأوشكت - في النهاية - أن تتخذ في رأسه شكل نظرية - أعنى خبلًا - لولا أن الموت تدخَّل

في الأمر - لحسن حظ عقله، ولسوء حظ أصدقائه الذين كانوا يعتزّون به، ويجدون في داره أبدع مأوى - فانتزعه من بينهم، متوسلًا بأغرب وأقسى مرض.. ذاك هو تورم في معدته، كان دائم التضخم، وكان يحرمه من الأكل، دون أن يتبدى سببه برغم طول العهد به، ثم انتهى بموته جوعًا، بعد سنوات عديدة من العذاب!.. ولست أملك أن أسترجع نهاية عمر هذا الرجل، دون أن ينقبض فؤادي. فقد ظلَّ يستقبلنا - « لينييب » وأنا - بسرور عارم.. وكنا الصديقين الوحيدين اللذين لم يحملهما منظر الآلام التي كان يعانيها، على أن ينأيا عنه إلى آخر ساعة في حياته.. وإني لأذكر أنه لم يكن إذ ذاك ليقوى على التهام الطعام - الذي اعتاد أن يأمر بتقديمه إلينا - إلا بعينيه، ولا كان يطيق ابتلاع بضع قطرات من الشاي الخفيف، إلا ليلفظها في اللحظة التالية!.. ولكن كم من أوقات - قبل تلك الآلام - قضيتها في داره مسرورًا، مع النخبة التي اصطفاها من الأصدقاء!.. وإني لأضع على رأس هؤلاء الراهب « بريفو »98، وكان شخصًا لطيفًا، سلسًا، يستلهم قلبــه ما كان يكتب من أشياء جديرة بالخلود، ولا يبدي - سواء في مظهره أو في معشره - شيئًا من ذلك الجو القاتم الذي فرضه على مؤلفاته.. والطبيب « بروكوب »، وكان « يعسوب » صغيرًا99، ذا حظوة لدى النساء، و « بولانجيه » المؤلف المزعوم للتمثيلية الموسيقية الهزلية « الاستبداد الشرقي »، وقد عمد - فيما أعتقد - إلى التوسع في نظريات « موسار » عن مدى عمر الدنيا.. أما بين النساء، فأذكر السيِّدة « دنيس » ابنة أخت « فولتير »، التي كانت ـ إذ ذاك ـ طيبة ساذجة، ولم تكن قد زعمت لنفسها شيئًا من توقد الفكر.. والسيِّدة « فانلو » التي لم تكن جميلة حقًّا، ولكنها كانت فاتنة، وكانت في غنائها كالملاك.. والسيِّدة « فالماليت » التي كانت تحذق الغناء هي الأخرى، والتي كانت - برغم هزالها - بالغة اللطف لو أنها خففت من تظاهرها باللطف!!.. هؤلاء كانوا صفوة رواد ندوة السيِّد موسار - تقريبًا - وقد كانت صحبتهم خليقة بأن تلذ لي، لولا أن نظرياته عن القواقع كانت ألذ، حتى لأذهب إلى القول بأنني عكفت لستة أشهر على العمل في مكتبه، في دراسة هذه النظرية، باغتباط لم يكن يقلّ عن اغتباطه!

وكان يلح - من زمن طويل قبل ذاك - بأن مياه (باسى) كانت كفيلة بأن تصلح حالي الصحية، وكان يلحف في أن أتردد على داره لكي أتناولها. وقد انصعت أخيرًا له لكي أنتزع نفسي - بعض الوقت - من ضجيج المدينة، فقضيت في (باسى) ثمانية أيام أو عشرة، أفدت منها كل الفائدة، بفضل إقامتي في الريف، أكثر مما هو بفضل تناول تلك المياه. وكان « موسار » يهوى العزف على الكمان الكبيرة، ويشغف بالموسيقى الإيطالية. وفي ذات مساء، أطلنا الحديث - قبل أن نأوى إلى مخادعنا - في هذا المجال، وتكلمنا بوجه خاص عن « أوبرا بوفا »، التي رآها كل منا على حدة ـ في إيطاليا - والتي أعجب بها كل منا إعجابًا بالغًا.. ولم أنم في تلك الليلة، فشرعت أفكّر في وسيلة تمكنني من أن أتيح فكرة مثل هذا النوع من « الدراما » لفرنسا، إذ لم يكن ثمة شبه بين « غراميات راجوند » وهذا النوع100.

وفي الصباح التالي، نظمت على عجل بعض نماذج من الشعر، تتمشى مع هذه الفكرة - أثناء ما كنت أتريض وأتناول المياه - ونسقتها مع الألحان التي توافدت على رأسي خلال ذلك. وسطرت جميع هذه الأغاني، في « صالون » ذي قبة، فوق الحديقة. ثم لم أتورَّع عن أن أعرضها - أثناء تناول الشاي - على موسار والآنسة دوفيرنوا مديرة داره، التي كانت بالغة الطيبة واللطف حقًّا. وكانت القطع الثلاث التي نظمتها في عجلة، تؤلّف الأغنية الفردية الأولى، وهي: « فقدت خادمى »، و « عرّاف القرية »، و « الحب يخشى على نفسه ».. ثم الثنائي الأخير: « أبدًا لن أخطبك، يا كولان »، إلخ! ولم أكن أعول كثيرًا على أن هذه المحاولة تستحق عناء المضى فيها. ولولا الاستحسان والتشجيع اللذين لقيتهما من كل منهما، لكنت خليقًا بأن ألقي قصاصاتي إلى النار، ولا أعود إلى التفكير فيها، كما فعلت من قبل بقطع أخرى كانت تماثل هــذه، على الأقل!.. ومن ثم فقد وجدتني متحمسًا، حتى أن

« الدراما » اكتملت خلال ستة أيام، فيما عدا بضعة سطور.. كما أنني وضعت أفكار الموسيقى كلها، فلم يعد أمامي ما أفعله في (باريس)، سوى أن أضيف بعض مقطوعات إلقائية، وأن أملأ بعض الحواشي. وقد فرغت بسرعة من كل هذه، فلم تنقض ثلاثة أسابيع، حتى كانت المناظر قد نُسخت، وأصبحت مهيأة للعرض. ولم يكن ثمة ما ينقصها سوى موسيقى الانتقال من منظر إلى آخر، وقد قُدِّر لها ألّا تُوضع إلّا بعد ذلك بوقت طويل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سنة 1752

أثارني وضع هذا العمل الأدبي الفني، حتى لقد تملكني شوق عارم إلى سماعه، وحتى أنني كنت على استعداد لأن أنزل عن كل شيء، في سبيل أن أراه معروضًا أمامي - بالشكل الذي كنت أتمثله في خيالي - في غرفة موصدة، كما فعلت « لولى » - فيما يُقال - إذ شهدت يومًا مسرحية « ارميد » تمثل أمامها وحدها. ولما لم يكن من الميسور لي أن أنعم بهذه المتعة إلا برفقة الجمهور، فقد كان من الضروري، لكي تمثل هذه الأوبرا، من أن تلقى قبولًا في دار « الأوبرا ». ولكنها - لسوء الحظ - كانت من نمط جديد كل الجدّة، لم تألفه آذان الجمهور، كما أن فشل « عرائس الشعر اللطاف » جعلني أتوقّع المصير ذاته للعرَّاف101، إذا أنا قدَّمتها باسمي. وقد ساعدني « ديلكو » على الخروج من هذا المأزق، إذ تكفّل بأن يسعى إلى إجراء تجارب على المسرحية، دون أن يكشف عن اسم المؤلف. ولكي لا أنم عن نفسي، فإنني لم أحضر التجربة، وظلّ كل امرىء ـ حتى « الكمانان الصغيران »102، اللذان توليا الاخراج - يجهلان اسم المؤلف، إلى أن شهد الاستحسان العام بروعة المسرحية. ولقد فُتن كل مَن سمعها، حتى أن جميع الأوساط لم تتحدَّث إلا عنها في اليوم التالي. ولقد شهد السيِّد كورى - مدير حفلات البلاط - التجربة، فطلب المسرحية لتُعرض في البلاط، ولكن ديلكو - الذي كان يعرف نواياه فخشى أن يكون سلطاني على المسرحية في البلاط أقلّ منه في باريس - رفض أن يسلمه إياها، فعاد كورى يطلبها بحكم منصبه. واحتدم الجدال بينهما، حتى لقد تطوّر ذات يوم - وهما في « الأوبرا » - فأوشكا أن يخرجا ليتبارزا، لولا أن حيل بينهما.

ورؤى الاتصال بي بشأنها، ولكني تركت البت في ذلك إلى السيِّد ديكلو، فكان لابد من الرجوع إليه. وتوسط السيِّد الدوق دومون في الأمر، فرأى ديكلو - في النهاية - أن من الواجب النزول عند رغبة صاحب السلطة، وقُدمت المسرحية لتمثل في (فونتينبلو). وكان الجزء الذي أوليته أعظم اهتمام، والذي نأيت فيه كثيرًا عن النهج المألوف، هو الإلقاء الغنائي. فقد نُسق الالقاء - في أوبراي - بطريقة جديدة تمامًا، بحيث يتمشى النغم مع إلقاء الكلمات. ولكنهم لم يجسروا على أن يستبقوا هـذا التجديد، إذ خيف من أن يصدم الآذان التي ألفت الرتابة. ومن ثم فإنني وافقت على أن يضع « فرانكويى » و « جيليوت » ألحانًا جديدة للإلقاء، ولكنني رفضت أن تكون لى يد في ذلك.

وإذ تم إعداد كل شيء، وحُدد يوم العرض، اقترح علىَّ أن أرحل إلى (فونتينبلو) لأحضر التجربة الأخيرة، على الأقل. فذهبت مع الآنسة « فيل »، وجريم، والراهب « راينال » - على ما أظن - في إحدى العربات الملكية. ولم يكن ثمة بأس بالتجربة، بل أنني كنت أكثر رضى عنها مما توقعت. وكانت الفرقة الموسيقية قوية، كثيرة النفر، مؤلفة من موسيقيى « الأوبرا » والفرقة الملكية. وقام « جيليوت » بدور « كولان »؛ والآنسة « فيل » بدور « كوليت »، و « كوفيتييه » بـدور العرَّاف. وكان المنشدون من « الأوبرا ». ولم أدل بغير ملاحظات قليلة، فقد تولى « جيليوت » الاخراج، فلم أشأ أن أفرض سلطانًا على ما فعل. وبالرغم من مظهري الروماني، فإنني كنت في حياء التلميذ إذا ألفي نفسه وسط كل هؤلاء القوم!

وفي اليوم التالي - وهو يوم العرض - ذهبت لأتناول الفطور في مقهى « الجران كومون »، فإذا به زاخر بالناس، وإذا الحديث يدور حول تجربة الليلة السابقة، وتعذر الدخول إلى المسرح. وقال ضابط من الحضور، إنه دخل بلا عناء، وأسهب في وصف ما حدث داخل المسرح، كما وصف المؤلف، وروى ما قاله وما فعله. والذي أذهلني في حديثه الطويل - الذي ألقاه في بساطة واعتداد - أنه لم يضم كلمة واحدة من الحقيقة!.. بل لقد تجلى لي تمامًا، أن هذا الذي تكلم عن التجربة بلهجة العالِم، لم يكن حاضرًا البتة فقد كان هذا المؤلف - الذي قال إنه رآه كما صوره ـ حاضرًا أمام عينيه، فلم يتعرَّف عليه!.. وكان أغرب ما في هذه الواقعة، هو الأثر الذي أحدثته في نفسي. فلقد كان ذلك الرجل، كبير السن، ولم يكن يلوح عليه غرور الخيلاء، ولا الزهو، سواء في مظهره أو لهجته. بل إن سيماه كانت تنم عن أنه رجل فاضل، كما كان وسام « صليب سان لوى » - على صدره - يوحي بأنه ضابط قديم. ولقد استأثر باهتمامي بالرغم منى، وبرغم قحته في الكذب. وفيما كان يمضي في أكاذيبه، راح وجهي يتضرّج خجلًا، وأخذت أغض بصرى وأتململ في مجلسي. وكنت أسأل نفسي أحيانًا: أليس من الجائز أن يكون قد آمن بكذبه حتى غدا يظنّه حقيقة؟!.. وأخيرًا، أسرعت بإفراغ قدح « الشيكولاته » دون أن أنبس ببنت شفة، وأنا أرتجف خشية أن يتعرَّف علىّ أحد فيخجله، ومررت بمجلسه وأنا منكس رأسي، وغادرت المقهى بأسرع ما استطعت، بينما كان القوم ماضين في الحديث عما كان يصفه. ونفذت إلى الطريق وأنا أسبح في العرق. ولو أن أحدًا عرفني وذكر اسمى قبل خروجى، فإني أوقن بأنني كنت خليق بأن أبدى من الخجل والارتباك ما يبديه أي مذنب، لمجـرَّد الشعور بالصغار الذي كان الرجل جدير بأن يشعر به إذا ما افتضحت أكاذيبه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وها أنذا أصل إلى تلك اللحظات الحرجة في حياتي، فإن من العسير أن أقتصر على مجرَّد الرواية، لأنه من المستحيل تقريبًا ألَّا تتأثر الرواية بشيء من النقد أو التبرير. على أننى سأحاول أن أروى كيف تصرّفت، وعن أية بواعث صدرت في تصرفاتي، دون أن أضيف ما ينم عن إطراء أو عن لوم.

ففي ذلك اليوم المقصود، بدوت في نفس الزي المهمل الذي ألفته، وقد نمت لحيتي، وبدا شعري المستعار غير منسق. وبهذا المظهر الذي نبا عن اللياقة، والذي كنت أعتبره دليلًا على الشجاعة، دخلت القاعة التي كان من المنتظر أن يفد عليها الملك والملكة والأسرة الملكية والحاشية بأسرها، بعد قليل. وتقدَّمت لأحتل مكاني في المقصورة التي قادني إليها السيِّد دى « كورى ».. وكانت هي مقصورته، مقصورة واسعة.. في مواجهة مقصورة أخرى، أصغر منها حجمًا، وأكثر ارتفاعًا، جلس فيها الملك والسيِّدة دي بومبادور. ولم يداخلني شك في أنني أُجلست كذلك، لكي أبدو واضحًا، إذ كنت الرجل الوحيد أمام مقصورة الملك، وقد أحاطت بي السيّدات. وعندما أوقدت أضواء المسرح، وجدتني - في ملابسي تلك - وسط قوم في أوج الأناقة، فبدأت أشعر بضيق وحرج. وسألت نفسي عما إذا كنت في المكان اللائق، وعما إذا كنت في الثياب اللائقة. وبعد لحظات من الحرج، أجبت نفسي عن هذا التساؤل في جرأة لعلها انبعثت عن استحالة التراجع، أكثر مما انبعثت عن قوة حججي: « أجل »!.. وقلت لنفسي: « إنني في المكان اللائق بى، ما دمت قد جئت لأشهد تمثيل مسرحيتي.. وإذا كنت في ثيابي المعتادة، ولست في أفضل أو أقل مما ألفت، فما ذلك إلا لأنني دُعيت، ولأننى ألّفت هذه الأوبرا لهذا الغرض فحسب، ولأنه - فوق كل شيء - ليس هناك من يفوقني جدارة باستمراء ثمار جهدى ومواهبي ولو أنني عدت إلى الخضوع للرأي العام في أمر واحد، فسرعان ما سأصبح عبدًا الرأى العام - في كل شيء - من جديد. أما إذا شئت أن أثبت على نهجي، فمن الواجب ألّا أخجل - أينما أكون - من أين أرتدي ما يتلاءم مع ظروف الحياة التي اخترتها لنفسي. إن مظهرى الخارجي بسيط وغير متأنق،

ولكنـه ليس قذرًا، ولا مستهجنًا. وكذلك اللحية - في حد ذاتها - ما دامت الطبيعة هي التي تخلعها علينا.. بل إنها مظهر من مظاهر الزينة أحيانًا، كما تتم تطورات مستحدثات الأناقة. وقد يراني الناس مضحكًا، أو سفيهًا.. حسنًا، وفيم يهمنى هذا؟.. يجب أن أتعلّم كيف أعرض عن ضحك الناس أو عن نقدهم، ما دمت لا أستحقهما »!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وشعرت بعد هذه المفاجأة القصيرة بالثقة تعاودني، إلى درجة كانت كافية لأن تجعلني « جريئًا.. وهو ما كنت بحاجة إليه. على أنني لم أر في الفضول الذي تعرَّضت له، سوى مظهر للأدب والحفاوة، سواء كان مرد ذلك الرأى إلى تأثير وجود العاهل، أو إلى التصرّف الطبيعي الذي أبداه أولئـك الذين أحاطت بي قلوبهم.. وشعرت بالتأثّر، حتى أنني بدأت أحس بالقلق - من جديد - على نفسي وعلى مصير مسرحيتى، خشية أن أقضى على ما ربما كان لدى القوم من آراء سابقة - في صالحي - كان يبدو لي أنه لم يكن ينقصها سوى التصفيق. وكنت قد تذرعت ضد سخريتهم، ولكن عطفهم - الذي لم أكن أتوقعه - طغى عليَّ كل الطغيان، حتى أنني رحت أرتجف كالطفل، عندما ابتدأ التمثيل!

وسرعان ما تبينت أن ليس ثمة مبرر للقلق.. كان أداء المسرحية جد سيء من ناحية الممثلين، ولكن الغناء كان جيِّدًا؛ والموسيقى حسنة الأداء. ومنذ المشهد الأوَّل - الذي كان مؤثّرًا في بساطته حقًّا - سمعت في المقصورات تمتمة اندهاش، واستحسانًا لم يُسمع من قبل في مثل هذا النوع من التمثيليات. وما لبث التحمس المطرد أن بلغ ذروته، حتى أنه تفشى في جميع النظارة، وإن ضوعف أثره بفضل هذا الأثر ذاته، كما ينبغي أن يُقال بأسلوب « مونتسكيو ». وقد بلغ هذا الأثر أوجه في المشهد الذي دار بين الشخصين الصغيرين الساذجين. ومن المعتاد ألَّا يصفق أحـد قط، في حضـور الملك، وقـد ساعد هذا على سماع كل شيء بوضوح، مما أفاد التمثيلية والمؤلف. وسمعت حولى همسات نساء كن يلحن لي في جمال الملائكة، وهن يقلن بعضهن لبعض: « هذا فاتن.. هذا خلاب!.. ما من نغم هنا إلا وينبثق من القلب! ». وهزّتني لذة التأثير على كل هؤلاء القوم الراقين، حتى انطلقت دموعي، فلم أستطع أن أكبحها في الأغنية الثنائية الأولى، إذ لاحظت أنني لم أكن الوحيد الذي بكي!.. ومرَّت بي لحظة، رجعت فيها إلى نفسي إذ تذكرت الحفلة الموسيقية التي أُقيمت بـدار السيِّد دى « تريتوران ». وأحدثت هذه الذكرى في نفسى شعورًا كشعور العبد الرقيق الذي كان يرفع التاج فوق رؤوس المظفرين103، ولـكـن هـذا الشعور كان قصير الأجل، إذ أنني سرعان ما استسلمت تمامًا - ودون أي تحفظ - لنشوة مذاق مجدى. ومع ذلك فإني أوقن بأن الشهوة الجنسية كانت - في تلك اللحظة ـ أكثر أثرًا من غرور المؤلف في هذه النشرة!.. فمن المؤكّد أنه لو لم يكن ثمة غير الرجال حضور، لما تأججت في نفسي الرغبة الملحة في أن أتلقى بشفتيّ الدموع العذبة التي تسببت في أنسيابها!.. ولقد شهدت تمثيليات أثارت من نوبات الاعجاب ما كان أشدّ مما رأيت في هذه الليلة، ولكني لم أشهد قط نشوة في مثل تدفق، وفي مثل بهاء، وفي مثل تأثير هذه التي استولت تمامًا على النظارة، لا سيما وقد كانت هذه أولى المرات التي تُعرض فيها المسرحية، ولا سيما وأنها كانت تُعرض في البلاط الملكي. ولا بد أن الذين شهدوها إذ ذاك، لا يزالون يذكرونها، فقد كان تأثيرها فذًّا!

وفي الليلة ذاتها، أوفد إليَّ السيِّد الدوق دومون، مَن أنبأني بأن أكون موجـودًا في القصر، في الساعة الحادية عشرة من الصباح التالي، وبأنه سيقدّمني إلى الملك. وأضاف السيِّد دى كوري - الذي حمل إليَّ الرسالة - أنه من المعتقد أن ثمة اقتراحًا بمنحي معاشًا، وأن الملك أراد أن يعلنني بذلك بنفسه!.. فهل مما يُصدَّق أن الليلة، التي أعقبت يومًا بهذا الاشراق، كانت ليلة هم وحيرة؟.. كانت أولى أفكاري، بعد هذه الخواطر السالفة، تتمثَّل في حاجة ملحة إلى الخروج104، كبدتني في المساء ذاته عناءً كبيرًا أثناء التمثيل، وكان من الممكن

أن تعذّبني في اليوم التالي، عندما أكون في بهو الملك أو في جناحه، أنتظر بين كل أولئك العظماء مرور الملك! كان هذا الداء هو السبب الرئيسي الذي حملني على تجنب الاجتماعات، والذي منعني من الاطمئنان إلى البقاء في غرفة مغلقة لدى السيدات. وكان مجرَّد التفكير في الموقف الذي قد تقحمني فيه هذه الضرورة، كافيًا لأن يحرجني إلى درجة تسلمني إلى الإغماء، إن لم يكن إلى فضيحة كنت خليقًا بأن أوثر عليها الموت. ولا يدرك الجزع من التعرّض لخطر كهذا، سوى أولئك الذين عرفوا مثل هذه الحال!

ورحت - بعد ذلك - أتصوَّر نفسي ماثلًا أمام الملك، وأنا أقدم إليه، فيتنزل ويقف ليحدثني.. وهنا لا بد من سرعة الخاطر وحضور البديهة للإجابة. أفكان حيائي اللعين - الذي اعتاد أن يضايقني أمام أقل المغمورين - ليهجرني أمام ملك فرنسا؟.. وهل يدعني أُحسن اختيار ما ينبغي أن يُقال، في التو؟.. وودت لو أستطيع - دون أن أتخلى عن المظهر واللهجة القاسيين اللذين اعتدت الظهور بهما - أن أبدى إدراكي للشرف المتاح لي من مثل هذا العاهل العظيم!.. كان لابد لي من أن ألف بعض الحقائق الجليلة والنافعة، في غلالة الثناء الجميل البارع!.. ولكي أتمكن من أن أعد - مقدمًا - جوابًا موفقًا، كان لابد لي من أن أعرف بالدقة ما يمكن أن يقوله لى الملك.. وكنت واثقًا - بعد ذلك ـ من أنني لن أستطيع أن أستحضر في وجوده ما أكون قد أعددته!.. فماذا يكون شأني، في هذه اللحظة، أمام أعين الحاشية كلها، إذا أفلتت مني، في غمرة اضطرابى، بعض سخافاتي العادية؟.. لقد روَّعني هذا الخطر وأزعجني، وجعلني أرتجف وأنا أعقد العزم على ألّا أُعرِّض نفسي له، مهما تكن العواقب!

ومن الصحيح أنني فقدت المعاش الذي عُرض علىَّ بصفة غير رسمية، ولكني - في الوقت ذاته - نجوت من الجور الذي كان مقدّرًا أن يفرضه علىَّ.. ألا وداعًا للحقيقة، وللحرية، وللشجاعة!.. كيف كنت أجرؤ - بعد ذلك - على أن أتكلم بحرية ونزاهة؟.. لم يكن لدىَّ سوى أن أتملق، أو أن أصمت، لو أنني قبلت هذا المعاش، ثم، مَنذا الذي كان يضمن دفعه إلىَّ؟.. وأية خطوات كان علىَّ أن أتخذها، وأى أناس كنت مضطرًا إلى أن أداهن؟.. كان الاحتفاظ بهذا المعاش خليقًا بأن يكبدني أكثر مما يكبدني الاستغناء عنه من حرص، وأكثر من الكثير من المضايقات!.. ومن ثم فقد اقتنعت بأنني إذ أرفضه إنما أتخذ قرارًا ينطبق أشدّ الانطباق على مبادئى، وأضحى المظهر في مقابل الواقع. ولقد أفضيت إلى جريم بعزمى، فلم يعارضني. أما بالنسبة للآخرين. فقد تعللت بصحتي، ورحلت في نفس الصباح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأثار رحيلي ضجة، وعيب علىَّ بوجه عام. فما كانت حججي لتلقى تقديرًا لدى الناس جميعًا، وسرعان ما اتهمت بالصلف، مما أرضى - للتو - غيرة أولئك الذين شعروا بأنهم ما كانوا ليتصرّفوا كما تصرَّفت!.. وفي اليوم التالي، كتب إلىَّ « جيلوت » خطابًا فصل فيه نجاح تمثيليتي، والشغف الذي أبداه الملك نفسه بها. وقال أن جلالته لم يكفّ طيلة النهار عن الغناء، بأنكر صوت في مملكته، مرددًا: « لقد فقدت خادمى، لقد أضعت كل هنائي! ».. وأردف أن « العرَّاف » ستُعرض مرة ثانية بعد أسبوعين، مما سيعزّز أمام عيون الجمهور كله النجاح الباهر الذي كلل العرض الأوَّل!

وفيما كنت ألج دار السيِّدة ديبيناي - في الساعة التاسعة مساءً، بعد يومين ـ حيث كنت مزمعًا أن أتناول العشاء، رأيت مركبة تعترض طريقي إلى الباب. وأشار إلىَّ شخص في المركبة بأن أصعد إليها، فصعدت، وإذا بهذا الشخص هو « ديدرو ». وحدَّثني عن المعاش في حرارة ما كنت أتوقّعها من فيلسوف في مثل هذا الموضوع.



ـرايت مركبة تعترض طريقى الى الباب ، وأشار الى شخص فى المركبة
ـصعد اليها .

ولم ير جريمة في ألا أكون راغبًا في أن أقدَّم إلى الملك، ولكنه رأى أن عدم اكتراثي للمعاش جريمة منكرة. وقال لي أنني إذا كنت لا أهتم بالمعاش من أجل نفسي، فليس من حقى أن أكون كذلك من أجل السيِّدة لوفاسير وابنتها، فإن من واجبي ألَّا أحرمهما من أية وسيلة ممكنة وشريفة لتيسير أسباب العيش لهما.. وبما أنه لم يكن من الممكن أن يُقال ـ برغم كل شيء - أنني رفضت هذا المعاش، فقد أصرّ على أن من الجدير بي أن أطلبه، وأن أحصل عليه بأي ثمن، ما دامت ثمة نية لمنحى إياه. ومع أنني تأثّرت لتحمسه، إلا أنني لم أستطع أن أقرّ مبادئه، فدار بيننا جدال محتدم حول الموضوع، كان أوَّل جدال دار بيننا، ولقد كانت كل خلافاتنا - التي أعقبت ذلك - من نفس النوع، إذ كان يملى عليَّ ما كان يزعم أن من الجدير بي أن أفعله، في حين أنني كنت أرفض في حزم، لأنني لم أكن أؤمن بأنه واجب عليَّ!

وكان الوقت متأخرًا عندما افترقنا، فرغبت في أن أصطحبه للعشاء لدى السيِّدة ديبيناي، ولكنه لم يكن راغبًا البتـة.. فبالرغم من أن الجهود التي كانت الرغبة في الجمع بين أولئك الذين أحبهم تدفعني إلى بذلها من وقت إلى آخر، فإنني لم أفلح في إغرائه على زيارتها.. بل إنني ذهبت إلى أبعد من هذا، إذ صحبت السيِّدة إلى بابه، فرفض أن يفتحه لنا!.. كان يعزف دائمًا عن لقائها، ولم يكن يتكلّم عنها قط، إلا في ازدراء بالغ.. وما تآلف الاثنان إلا بعد خلافي مع كل منهما، وإذ ذاك، بدأ يتكلّم عنها باحترام!

ومنذ ذلك الحين، لاح أن ديدرو وجريم كانا يحاولان أن يؤلبا « الدادتين » عليَّ، وأن يفهماهما أنهما إذا لم تكونا في رخاء، فإنما كان مرد ذلك إلى سوء نيتي، وأنهما لن تصيبا منى أي خير قط!.. ولقد حاولا أن يحملاهما على هجرى، ووعداهما بأن يحصلا لهما بفضل السيِّدة ديبيناي على رخصة لبيع الملح، وحانوت لبيع التبغ، وما لست أدريه كذلك!.. بل إنهما رغبا في أن يستدرجا ديكلو، كما استدرجا دولباخ، إلى محالفتهما، ولكن الأوَّل راح يرفض باستمرار. وكانت لديَّ إذ ذاك بعض ظنون عن هذا التدبير، ولكنني لم أحط به بجلاء إلا بعد ذلك بزمن طويل. وكثيرًا ما أكون على حق إذ أرثى لذلك التحمس الأعمى المتهور من جانب أصدقائي الذين كانوا يسعون إلى الحط من شأني ـ وأنا معلول، وفي أشدّ حالات العزلة الكئيبة - ظنًّا منهم أنهم إنما كانوا يبذلون قصاراهم لإسعادي، بالوسائل التي كانت خير ما يؤدي إلى إتعاسى، في الواقع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سنة 1753

مثلت مسرحية « العرَّاف » في باريس، في عيد المرافع (الكرنفال) التالي، أي في سنة 1753. وكنت قد وجدت وقتًا كافيًا - في تلك الأثناء ـ لوضع لحن الافتتاح، والألحان التي تتخلل المشاهد. وكان لا بد لهذه الألحان - كما وُضعت وكُتبت - من أن تشيع حركة في التمثيلية، من أولها لآخرها، وأن تجعل منها في مجموعها - في رأيي - لوحات جد مستحبة، ولكنني حين عرضت الفكرة على « الأوبرا » لم ألق مستمعًا واحـدًا، فاضطررت إلى أن أنسج سلسلة من الأغاني والرقصات، بالطريقة المعتادة. وكانت النتيجة أن هذه الألحان وإن لم تضر بتأثير المشاهد، إلا أنها لم تلق سوى نجاح متوسط برغم أنها كانت زاخرة بالأفكار البديعة. ولقد حذفت الألحان الإلقائية التي وضعها « جيليوت »، وأحللت محلّها ألحانًا من وضعي، هي تلك التي كانت موجودة في الأصل. فإذا بها قد اكتسبت شيئًا من الصبغة الفرنسية، كما أعترف - وأقصد بذلك الطريقة التي كان يلقيها بها الممثلون ـ إلا أنها لم تؤذ سمع أحد، بل إنها كانت ناجحة من الناحية الموسيقية، كما اعتبرت كذلك - من ناحية النظم - حتى لدى الجمهور. وأهديت التمثيلية إلى السيِّد « ديكلو » الذي رعاها، وأعلنت أن هذا سيظلّ الاهداء الوحيد. على أنني كتبت إهداء لشخص آخر - بموافقة السيِّد

« ديكلو » نفسه - ومع ذلك فإنه ولابد قد وجد أن هذا الاستثناء قد زاده هو تكريمًا!

ولديّ عن هذه التمثيلية حكايات كثيرة، ولكن ثمة أمورًا أكثر أهمية لا تدع ضرورة ذكرها وقتًا أنفقه في تلك. على أنني قد أعود إليها يومًا، في « الملحق ». وإن كنت - مع ذلك - لن أغفل واقعة معينة قد يكون لها أثر في كل ما أعقب ذلك من أحداث. فلقد اطلعت ذات يوم، في مكتب البارون هولباخ، على موسيقاه. وبعد أن شهدت كثيرًا من القطع، قال لي وهو يريني مجموعة من الألحان على المعزف: « هاك قطع لحنت من أجلى خصيصًا، وهي مليئة بالذوق، صالحة للغناء، وليس هناك مَن عرف بها أو رآها سواى. فخليق بك أن تختار واحدة منها تدسّها في الألحان التي تتخلل مشاهدك! ».. ولما كان ذهنى زاخرًا بموضوعات لألحان و « سيمفونيات » تفوق ما كان بوسعي أن أفيد منه، فإنني لم أبد كثير احتفال بألحانه. على أنه راح يلحّ عليّ بحرارة اضطررت معها إلى أن أنتقى إحدى أغاني الرعاة، فاختصرتها وحورتها إلى قطعة ثلاثية تليق بالمشهد الذي يلج فيه رفاق « كوليت »105 المسرح. وحدث بعد بضعة أشهر - و « العرَّاف » ما تزال تُعرض - أن ولجت يومًا غرفة « جريم »، وإذا بنفر من الناس يحيطون بمعزفه، وإذا به هو ينهض عن المعزف في تعجل، بمجرَّد وصولي. واتجه بصري - بحركة آلية - إلى حامل « النوتة » الموسيقية، فرأيت مجموعة البارون هولباخ بالذات مفتوحة عند القطعة التي ألح عليَّ في أن آخذها، مؤكّدًا أنها لن تخرج من يديه قط! وبعد ذلك ببعض الوقت، رأيت المجموعة ذاتها مفتوحة، على معزف السيِّدة ديبيناى، في يوم دعت فيه بعض الأصدقاء إلى ندوة موسيقية في دارها. ولم يتحدَّث جريم أو أي شخص آخر عن هذا اللحن، وما كنت أنا لأقول عنه شيئًا، لو لم يشع بعد قليل، أنني لم أكن مؤلف « عرَّاف القرية ». ونظرًا لأننى لم أكن يومًا عازفًا ماهرًا، فإني أوقن أنه كان من المحتمل أن يُقال أنني لم أكن أعرف شيئًا عن الموسيقى، لولا « قاموس الموسيقى » الذي كنت قد وضعته106.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد حدث قبل إخراج « عرَّاف القرية » بفترة من الزمن، أن وصل إلى باريس بعض الممثلين الهزليين الإيطاليين فدعوا إلى التمثيل في « الأوبرا » دون أن يخطر ببال ما كان مقدَّرًا أن يترتب على ذلك. وإذ كانوا سيىء التمثيل، وكانت الفرقة الموسيقية إذ ذاك من الجهل بحيث قضت - غير حافلة - على لذة القطع التي كانت تعزفها، فإنهم ألحقوا بفن الأوبرا الفرنسية ضررًا لم يتسن قط إصلاحه. ذلك لأن الفارق بين هذين النوعين من الموسيقى107، اللذين كانا يُسمعان في الدار ذاتها، في يوم واحد، فتح الآذان الفرنسية، فلم تعد تطيق بطء الموسيقى التي اعتادتها، بعد الوضوح والنشاط اللذين امتازت بهما الموسيقى الإيطالية. فما كاد المهرجون الإيطاليون ينتهون من عرضهم، حتى كان الناس يبادرون إلى الانصراف. فرؤى أن من الضروري تغيير نظام العرض، وإرجاء الممثلين الهزليين إلى النهاية. فعُرضت « ايجليه »، و « بيجماليون » « الجن »108، ولكن أيًا منها لم تستطع أن تستوى على ساقيها. ولم تصمد لمقارنة سوى « عرَّاف القرية »، إذ قوبلت باستحسان فاق « الوصيفة »109 الإيطالية ذاتها. وكان ذهني مليئًا - عندما وضعت المشهد الذي بين فصلى تمثيليتي - بألحان تلك المسرحية الايطالية، فاستعرت بعض أفكار منها. غير أنني كنت أبعد من أن أتوقَّع أن أُنتقد في هذه الناحية. ولو أنني كنت ممن يسطون على إنتاج الغير، فكم من سرقات كان يجب أن تتكشف، وكم كان هناك من المشوقين إلى أن يعنوا بإبرازها! ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، وقد ضاعت هباء كل المحاولات التي بُذلت للعثور في إنتاجي الموسيقى على أتفه أثر من موسيقى سواي.. كما أن كل أغانيّ كانت تبدو - إذا ما قورنت بالأغاني الأصلية التي كان يُزعم أننى أخذتها عنها - جديدة، جدّة الطابع الموسيقي الذي ابتدعته. ولو أن « موندوفيل » أو « رامو » تعرَّض لمثل هذا الفحص والمقارنة لخرج منه مهلهلًا!

ولقد اكتسب الممثلون الهزليون للموسيقى الإيطالية مستمعين جد متحمسين، فإذا باريس بأسرها تنقسم إلى فريقين، راحا يتجادلان في عنف وكأنهما بصدد مسألة متعلقة بالدولة أو بالدين. وكان أقواهما نفوذًا، وأكثرهما عددًا، يتألف من العظماء، والأغنياء، والنساء، ويتشبّث بالموسيقى الفرنسية.. أما الآخر - وهو أكثرهما حمية ونشاطًا وتحمسًا ـ فكان يتألف من فنانين حقيقيين، ومن أكفاء ونوابغ. وكانت عصبة تجتمع في دار « الأوبرا »، تحت مقصورة الملكة، بينما كان الفريق الآخر يملأ بقية الصالة، ولكنه كان يتخذ مكان اجتماعه الرئيسي، تحت مقصورة الملك. ومن هنا جاء اسما الحزبين الذين اشتهرا في ذلك الحين: « ركن الملك »، و « ركن الملكة ». وأدَّى الخلاف - إذ احتدم - إلى إصدار منشورات. فإذا شاء « ركن الملك » أن يهزأ، سخر منه « النبي الصغير »، وإذا أقحم نفسه في جدال، أفحمته « رسالة في الموسيقى الفرنسية ».. وكانت هاتان النشرتان هما الوحيدتان اللتان كُتب لهما البقاء في هذه المعركة، أما النشرات الباقية فقد ماتت.. وكان « جريم » يحرِّر الأولى، وأنا أحرر الأخرى!

بيد أن « النبي الصغير » ظلَّت تنسب إلىَّ طويلًا - في إصرار - برغم إنكارى، وكانت تُحرَّر بأسلوب فكه، ولا تجشم محررها أقل عناء.. في حين أن « رسالة في الموسيقى » كانت تميل إلى الجد، وقد أثارت ضدى الأمة بأسرها، إذ خُيّـل إليها أنها - ممثلة في موسيقاها - قد أهينت!.. وأن وصف الأثر الذي أحدثته هذه النشرة - والذي يفوق ما يصدقه العقل - لجدير بقلم « تاسيتوس »110.. وكانت تلك فترة الصراع الأكبر بين البرلمان ورجال الكهنوت.. وكان البرلمان قد أوقف عن الاجتماع، وبلغت فورة السخط ذروتها، وأخذ كل شيء ينذر بانفجار وشيك!.. وما إن ظهرت النشرة، حتى انصرفت الخواطر لتوّها عن المعارك الأخرى، ولم يعد ثمة تفكير في غير الخطر المحدق بالموسيقى الفرنسية، ولا عاد ثمة هياج إلا ضدى أنا.. بل أنه كان من الشدَّة بدرجة أن الأمة لم تفق منه أبدًا. ففي البلاط، لم تعد ثمة موازنة إلا بين « الباستيل » والنفي، وكان من المحتمل التعجيل بأمر القبض علىَّ، لو لم يفلح السيِّد دى فوبيه في إيضاح ما في هذا من تصرّف أخرق. وقد يظن القارىء أننى أهرف، حين يقرأ أن من المحتمل أن هذه النشرة حالت دون قيام ثورة في الدولة. ومع ذلك فإن هذه الحقيقة واقعة، لعل باريس بأسرها تشهد بها حتى اليوم، إذ لم يمض بعد على هذه الواقعة العجيبة خمسة عشر عامًا111.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذا كانت حريتي لم تُصادر، فإنني لم أعف من أدنى الإهانات، بل أن حياتي أصبحت في خطر. فأعدَّت فرقة موسيقى « الأوبرا » مؤامرة شريفة (!) لاغتيالي أثناء مغادرتي المسرح. وقد نميت إلىَّ، فلم تزدني إلا ترددًا على « الأوبرا »، ولم أعرف إلا بعد ذلك بوقت طويل، أن السيِّد « انسيلو » - الضابط في فرقة الفرسان - الذي كان يكن لى مودة، قد أفسد مفعول هذه المؤامرة، إذ دبَّر حمايتى - عند مبارحتى الأوبرا - دون أن أشعر. وكان أوَّل استغلال لنظام إشراف البلدية على دار الأوبرا، هو حرماني من الدخول، وأن يحدث ذلك بأشدّ الأساليب المهينة.. أي بمنعى علنًا من الدخول بدون « تذكرة »، بطريقة اضطرّتني إلى ابتياع « تذكرة » في الشرفة العليا للدار112، لكي أتفادي عار الرجوع دون دخول، في ذلك اليوم. وكان الظلم صارخًا جدًا، إذ أن الثمن الوحيد الذي تقاضيته عن أوبراى، عندما نزلت لهم عنها، هو حق الدخول - دون مقابل - طيلة العمر. ذلك لأن هذا وإن كان حقًّا اعتاد أن يحظى به كل المؤلفين - ومن ثم فقد كان استحقاقي إياه مضاعفًا - إلا أنني حرصت على اشتراطه، بحضور السيِّد ديكلو. ومن الصحيح أنني تلقيت - عن طريق خزانة الأوبرا - خمسين « لوى » كمكافأة شرفية لم أطلبها.. وفضلًا عن أن هذا المبلغ لم يكن يعادل ما كنت أستحقه وفقًا للوائح، فإن دفعه لم يكن ذا صلة البتة بحق الدخول دون مقابل، الذي طالبت به رسميًا، والذي كان أمرًا مستقلًا تمامًا عن الموضوع!

ولقد جمع هذا التصرّف بين عدم المساواة والفظاظة الجائرة، حتى أن الجمهور - الذي كان في أوج عداوته لي - لم يحجم عن إبداء استنكاره جهارًا وبالاجماع، وصاح كثيرون - ممن كانوا يسبّونني في الليلة السالفة - بأعلى أصواتهم في دار « الأوبرا »، بأن من العار أن يُحرم من حق الدخول ـ وبهذا الأسلوب - مؤلف يستحقه عن جدارة، بل وله أن يصحب معه شخصين بالمجان، وهكذا صدق المثل الإيطالي القائل: « يعرف الصديق في المحنة ».

Ogn'un ama la giustizia in casa d'altrui

ولم يكن لديَّ إزاء هذا سوى قرار واحد، هو أن أسترد تمثيليتي ما دمت قد حُرمت الجزاء المتفق عليه. ومن ثم كتبت إلى السيِّد دارجنسون، الذي كان يتولى إدارة « الأوبرا »، وأرفقت رسالتي بمذكرة لم أكن قد تلقيت عنها ردًا، فظلَّت المذكرة - وكذلك الرسالة - دون جواب ودون رسالة. ولقد ظلَّ صمت هذا الرجل الظالم راسخًا في فؤادي، ولم يساعد على تنمية التقدير الضئيل الذي كنت دائمًا أحسه نحو شخصيته ونحو مواهبه. وهكذا احتفظت « الأوبرا » بتمثيليتي وسلبتني الجزاء الذي كنت قد نزلت في مقابله عن حقوقي فيها. وعندما يحدث هذا العمل من الضعيف نحو القوى، فإنه يُعتبر سرقة.. أما إذا حدث من القوى نحو الضعيف فهو ليس سوى انتفاع بما للغير وحسب!

أما الكسب المالي الذي درّه هذا العمل الفني، فمع أنه لم يرق إلى ربع ما كان يدرّه على أي مؤلف سواي، إلا أنه كان - بالنسبة إليَّ - من الضخامة بحيث أنه كان كافيًا لأن يمكنني من العيش عليه سنوات عدَّة، وأن يعوضني عن عملي في النسخ، إذ أن هذا العمل كان كاسدًا على الدوام. فلقد نلت مائة « لوى » من الملك، وخمسين من السيِّدة دى بومبادور - عن عرض التمثيلية في (البيل في)، حيث قامت هي نفسها بدور كولان - وخمسين من « الأوبرا »، وخمسمائة من « بيسو » مقابل نشرها.. أي أن هذا العمل الثانوي، الذي لم يكلفني سوى عمل خمسة أسابيع أو ستة، درَّ عليَّ من النقود - برغم سوء حظى وبرغم غبائي ـ ما يعادل ما درّه عليَّ كتابي « اميل »، الذي استغرق مني عشرين عامًا في التفكير، وثلاثة في التأليف!.. على أنني دفعت ثمنًا غاليًا، في مقابل الكسب المادي الذي أجدته عليَّ هذه التمثيلية.. وقد تمثَّل هذا الثمن في المضايقات التي لا نهاية لها، والتي ترتبت عليها. إذ كانت هذه التمثيلية بذرة الأحقاد الخفية الناشئة عن الغيرة، والتي لم تتكشف إلا بعد ذلك بوقت طويل!.. ولم أعد - منذ نجاحها - أجد من جريم وديدرو، أو من أي من الأدباء الذين كنت أعرفهم ـ فيما عدا القليل - الحفاوة والصراحة وحسن المعاشرة التي كنت أخالني قد عثرت عليها لديهم من قبل. وأصبحت لا أكاد أظهر في دار البارون، حتى يكفّ الحديث عن أن يكون عامًا.. ويتجمّع القوم في فرق صغيرة، ويدور التهامس، بينما أظلّ وحيدًا لا أجد مَن أبادله الحديث.. ولقد تحمّلت طويلًا هذا الانفضاض عنى، ولما كنت أرى أن السيِّدة دولباخ - التي كانت لطيفة وحفية - قد ظلَّت تكرم وفادتي باستمرار، فإنني رحت أتقبّل جفوة زوجها بقدر ما كانت هذه الجفوة محتملة. ولكنه في أحد الأيام تحرّش بى دون داع، ودون مبرّر، وفى غلظة بالغة، في حضور ديدرو، الذي لم ينبس بكلمة.. وفي حضور مارجنسي، الذي كثيرًا ما أعرب لي ـ منذ ذلك الحين ـ عن إعجابه بالهدوء والاعتدال اللذين اتسمت بهما إجاباتي.. وانتهى الأمر إلى أن طُردت من منزله بفضل هذه المعاملة المهينة، فخرجت منه وقد عقدت العزم على ألَّا أعود إليه إطلاقًا. على أن هذا لم يمنعني من أن أتحدَّث بأمانة واحترام عنه وعن منزله، في حين أنه لم يذكرني دائمًا إلا بعبارات حاقدة، جارحة، فما وصفني مرة إلا بـ « خادم المدرسة » الصغير، دون أن يملك - برغم ذلك - أن يعين إساءة واحدة، أيًّا كان نوعها، بدرت منى نحوه أو نحو أي امرىء كان يهتم بأمره. وهكذا انتهى إلى أن حقق تنبؤاتي وهواجسي!.. أما أنا، فأعتقد أن أصدقائي المذكورين كانوا على استعداد لأن يغفروا لى تأليف الكتب - وإن تكن كتبًا رائعة - لأن هذا المجد لم

يكن غريبًا عنهم. بيد أنهم لم يكونوا يغتفرون لي أن وضعت أوبرا، ولا أن لقي هذا العمل الأدبي الفني نجاحًا باهرًا، لأن أحدًا منهم لم يكن في وضع يمكنه من أن ينهج عين هذا النهج، ولا أن يطمع في عين ما نلت من تقدير وتكريم!.. كان ديكلو وحده هو الذي سما فوق الغيرة، بل أنه بدا أكثر مودة لي، واصطحبني إلى دار الآنسة « كينول »، حيث لقيت رعاية، وأنسًا، وملاطفة، بقدر ما افتقدت في دار السيِّد دولباخ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما كانت « العرَّاف » تمثل في « الأوبرا » كان مؤلفها موضوع مناقشة في « الكوميدي فرانسيز »، ولكنه كان أقلّ حظًّا من تمثيليته.. ذلك أنني إذ عجزت - خلال سبع أو ثماني سنوات - عن عرض « نارسيس » في مسرح الإيطاليين (أوزيتاليان)، بغضت هذا المسرح الذي كان ممثلوه يسيئون أداء المسرحيات الفرنسية. ومن ثم فقد كان حريًّا بي أن أكون أشدّ رغبة في أن تُعرض تمثيليتي في المسرح الفرنسي - الكوميدي فرانسيز - منى في أن تُعرض لدى الإيطاليين. وأفضيت برغبتي إلى « لانو » الممثل الفكاهي، الذي كنت قد تعرَّفت إليه، والذي كان معروفًا ـ كذلك - بأنه رجل فاضل ذو نفوذ.

ولقد أعجب بتمثيليتي الفكهة « نارسيس »، وأخذ على عاتقه أن يعمل على إخراجها دون إعلان اسم مؤلفها. وحصل لي - في الوقت ذاته - على ترخيص بالدخول، دون مقابل، سررت به كل السرور، إذ كنت دوامًا أوثر المسرح الفرنسي على المسرحين الآخرين (الأوبرا، والإيطالي). واستقبلت التمثيلية باستحسان، برغم أنها قُدمت دون ذكر المؤلف.. بيد أن لديَّ ما يحملني على أن أعتقد أن الممثلين، وكثيرين غيرهم، لم يكونوا يجهلونه، ولقد قامت الآنستان « جوسان » « جرانفال » بدورى العاشقين. ومع أن الأداء أسفر عن نقص في البراعة، إلا أنه ـ بوجه عام ـ لا يمكن أن يُوصف بأنه سيء تمامًا. على أننى دُهشت - وتأثَّرت - لما تبدى من استغراق الجمهور، إذ راح يصغي في صبر وهدوء، من أوَّل التمثيلية إلى آخرها، بل وسمح بعرضها مرة ثانية، دون أن يبدى أية بادرة تنم عن ملل!

أما أنا، فقد بلغ من ضجرى - في العرض الأوَّل - أنني لم أستطيع المكث إلى النهاية. فتركت المسرح وذهبت إلى مقهى (دي بروكوب)، حيث وجدت « بواسى » وبعض الآخرين، الذين يحتمل أن يكونوا قد ضجروا مثلى. وهنــاك، أعلنت فشلي بصوتٍ عال، معترفًا في شجاعة وتواضع بأنني مؤلف التمثيلية، ومتحدِّثًا عنها بما كان الجميع يرونه فيها. ولقد لقي هذا الاعتراف العلني من مؤلف تمثيلية رديئة ساقطة، إعجابًا قويًّا، حتى أنه بدا لي أقل ما يكون إيلامًا!.. كذلك وجدت جزاء لعواطفى الصادقة في الجرأة التي أقدمت بها على اعترافي. وأعتقد أننى - في هذه المناسبة - لقيت في الكلام زهوًا يفوق ما كنت خليقًا بأن أجده من حيـاء زائف، لو أننى لذت بالصمت!.. على أننى - إذ تبينت أن لا شك هناك في أن التمثيلية قد تروق كمادة للمطالعة، وإن كان التمثيل قد شوَّهها - عملت على طبعها، وبدأت في المقدمة ـ التي كانت من خير ما كتبت ـ أكشف عن مبادئي في صراحة تفوق قليلًا كل ما فعلت من قبل.

وسرعان ما سنحت لي فرصة الإقدام - في غير ما تحفّظ - على عرض هذه المبادىء في مؤلف أدبي عظيم الأهمية. فقد حدث في ذلك العام (1753) - على ما أظن - أن أتخذ محفل ديجون من موضوع « منشأ عدم المساواة بين البشر » مادة لبرنامج مسابقته. وهزَّني هذا الموضوع العظيم، وأذهلني أن جرؤ المحفل على عرضه للمباراة. على أنه إذا كان قد أوتي هذه الشجاعة، فقد رأيت أن بوسعي أن أوتى الشجاعة على الخوض فيه.. وشرعت في ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكي أفكر في هذا الموضوع العظيم، وأنا مرتاح الخاطر، قمت برحلة إلى (سان جيرمين)، حيث قضيت سبعة أيام أو ثمانية مع تيريز ومضيفتنا - التي كانت امرأة طيبة - وإحدى صديقاتها. وإني لأحسب هذه النزهة بين أحب ما قمت به من نزهات في حياتي.. وكان الجو جميلًا، وقد اضطلعت هاتان المرأتان الطيبتان بالمطالب والنفقات. وراحت تريز تتسلى بصحبتهما. أما أنا، فقد خلوت من الشواغل، ورحت أشاطرهن ابتهاجهن في أويقات الوجبات، متخفِّفًا من كل هم. وكنت أقضى بقية النهار موغلًا في الغابة، حيث أخذت أبحث، وحيث وجدت صورة العصور الأولى، فرحت أتعقب التاريخ خلالها في جرأة، مهونًا من شأن أكاذيب البشر التافهة.. وتجاسرت على أن أكشف طبيعتهم، وأتعقب سير الزمن والأشياء التي شوَّهت هذه الطبيعة.. وبالمقارنة بين الإنسان - كما صنعه الإنسان - والإنسان كما صنعته الطبيعة، كشفت له ـ في كماله المزعوم ـ عن المصدر الحقيقي لمصائبه وشقائه. وارتفعت روحي - وقد انتشت بهذه التأملات السامية - إلى مقربة من مقام الربوبية، فأطلَّت من هناك على أقراني من أبناء البشر، وهم يسيرون عميانًا في طريق الأباطيل والأوهام، وطريق أخطائهم، ومحنهم، وجرائمهم.. ورحت أصيح بصوتٍ واهن ما كانوا ليستطيعون أن يسمعوه: « أيها الحمقي، الذين لا يكفّون عن الشكوى من الطبيعة، ألا اعلموا أن كل مساوئكم إنما تنبثق منكم! ».

وكانت نتيجة هذه التأملات: « حديث في عدم المساواة »، وهو مقال صادف هوى من نفس ديدرو، فاق كل ما صادفته كتاباتي الأخرى، وقد أولاني نصيحة بشأنه، كانت أنفع النصائح[113]، ولكنها لم تجد في أوربا كلها من القراء مَن أدركها سوى قليلين، ولم يشأ واحد من هؤلاء أن يتكلم عنها!.. وكان المقال قد كُتب من أجل المسابقة، فأرسلته وأنا واثق - سلفًا - بأنه لن يفوز بنجاح، إذ كنت أعرف عن يقين أن جوائز المحافل لم تُخلق للأعمال الأدبية التي من هذا النوع!

وأدّت هذه النزهة وهذا الشاغل إلى تحسن مزاجي وصحتي. إذ كنت منذ عدَّة سنوات معذبًا باحتباس البول، وقد استسلمت نهائيًا للأطباء، فاستنزفوا قواى - دون أن يخففوا علتي - وهدموا بنيتي. ولكني عندما عدت من (سان جيرمين) وجدت مزيدًا من القوى، وشعرت بكثير من التحسن. وتبعت هذه البادرة، فعقدت العزم على أن أشفى أو أن أموت دون معونة الأطباء أو العقاقير. وودعتهم إلى الأبد، وشرعت أعيش ليومي، أستريح عندما أعجز عن المشي، وأسير بمجرَّد أن أملك القدرة على السير. وكانت الحياة في باريس، بين قوم أدعياء محبين للمظاهر، لا تروق لي.. كان تعصب الأدباء وتحزبهم، ومنازعاتهم المخزية، وافتقارهم إلى النقاء الذي يتجلى في كتبهم، والمظهر المترفّع الذي يخدعون به المجتمع.. كل هذه كانت بغيضة إلى نفسي!.. وما أقل ما وجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة في الاتصال بالناس، لا سيما أصدقائي!.. حتى لقد عافت نفسي هذه الحياة الصاخبة، وأخذت أتوق - في رغبة صادقة - إلى الإقامة في الريف. ولما لم أجد أي أمل في أن تمكنني مهنتي من الاستقرار هناك، رحت أسارع إلى قضاء بضع الساعات - التي كنت أستطيع أن أفرغ فيها من العمل - هناك. واعتدت، لعدّة أشهر، أن أخرج للرياضة وحيدًا - عقب الغداء في بداية الأمر - في غابة (بولونيا لأدير في فكرى موضوعات لمؤلفاتي المقبلة. ولم أكن أعود قبل هبوط الليل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من سنة 1754 إلى سنة 1756

رأى « جوفكور » - الذي كانت علاقاتي به في أوج توثقها إذ ذاك - أن لا بد له من الرحيل إلى (جنيف) بحكم عمله، فعرض عليَّ أن أرافقه في هذه الرحلة. ووافقت على ذلك. وإذ لم أكن بصحة جيّدة أستغني معها عن عناية « الدادة »[114]، فقد تقرَّر أن تكون معنا في

الرحلة، وأن تتولى أمها حراسة البيت. وأعددنا عدتنا على أن نرحل نحن الثلاثة معًا، في أوّل يونيو سنة 1754.

وجدير بي أن أنظر إلى هذه الرحلة على أنها فترة التجربة الأولى التي صادفتني خلال سني عمري الاثنتين والأربعين - إذ ذاك - والتي نبهتني إلى تلك الفطرة المفعمة بالثقة التي فُطرت عليها والتي اعتدت دائمًا أن أسلم نفسي إليها دون ما تحفظ ولا حرج. وكانت لدينا مركبة متوسطة، راحت تقطع بنا الرحلة على مسافات جد قصيرة، دون أن تستبدل جواديها. وكنت كثيرًا ما أهبط وأسير على قدمَيّ، ولم نكد نقطع نصف طريقنا، حتى أبدت تيريز أعظم نفور من أن تبقى وحيدة في العربة مع « جوفكور »، فما إن رغبت في الهبوط - بالرغم من رجائها - حتى هبطت هي الأخرى وسارت. وظللت ألومها وقتًا طويلًا على هذه النزوة، بل ورحت أعارضها بشدَّة، حتى رأت نفسها مضطرة - في النهاية - إلى أن تصارحني بالسبب.. وخُيّل إليَّ أنني أحلم.. وهويت من حالق، عندما سمعت أن صديقى السيِّد دى جوفكور، المسن الذي جاوز الستين، والمصاب بالنقرس، والمنهار البنيان، والذي هدّته حياة اللهو والعبث.. صديقي هذا كان يبذل غاية جهده، مذ بدأنا الرحلة، ليفسد أمرأة لم تعد شابة ولا جميلة، امرأة كانت لصديقه.. وكان يسعى إلى ذلك بأحط الوسائل، وبأدعاها إلى الخجل، حتى لقد قدَّم إليها كيس نقوده.. وحتى لقد حاول أن يثير نزواتها بأن راح يقرأ عليها كتابًا فاحشًا، وبأن أخذ يريها الصور الفاضحة التي امتلأ بها الكتاب!.. ولقد ألقت تيريز بالكتاب، الخبيث - مرة - من العربة، وهي في غمرة السخط. وقالت أن الرجل في أوَّل يوم في الرحلة، انتهز فرصة إيوائي إلى الفراش قبل العشاء - إذ كنت أعاني صداعًا شديدًا - واستنفد الوقت كله ـ وقد كان خلاله وحيدًا معها - في محاولات وتصرفات أكثر لياقة بالحيوان المهتاج، أو بالجدي، منها برجل محترم، ائتمنته على نفسي وعلى رفيقتي!

يا للمفاجأة!.. ويا له من ألم في الفؤاد جديد عليَّ!.. أيقدَّر لي، أنا الذي كان يؤمن حتى ذاك الوقت بأن الصداقة لا تنفصل عن كل المشاعر المستحبة والنبيلة التي تُكسبها بهاءها - أن أجد نفسي لأوَّل مرة في حياتي، أقرن هذه الصداقة بالازدراء، وأسحب ثقتي وتقديري من رجل كنت أحبـه، وكنت أعتقد أنني محبوب منه؟!.. لقد أخفى التعس مسلكه المعيب عني، ولكي أتجنب إحراج تيريز، ألفيتني مضطرًّا إلى أن أخفى عنه استيائي، وإلى أن أدفن في قرارة فؤادى مشاعر ما كان له أن يعلم بها إطلاقًا!.. فيا وهم الصداقة الوادع القدسي، لقد كان جوفكور أوَّل مَن رفع نقابك لعينَي، وكم من أيد قاسية قد حالت - منذ ذلك الحين - دون هبوط هذا النقاب على وجهك ثانية!

وتركت جوفكور في (ليون)، لأتخذ طريقي خـلال إقليم (سافوا)، إذ لم أقو على أن أمرّ - من جديد - على مقربة من « ماما » دون أن أراها. ولقد رأيتها.. ولكن، يا إلهى!.. في أيـة حـال؟ بل في أي هوان؟!.. ما الذي تبقّى لها من صفاتها الأولى؟.. أفهذه هي السيِّدة دى فاران بعينها، التي كانت متألقة، والتي أوفدني إليها أسقف بونفير؟.. لشدّ ما حزن قلبي!.. ولم أر لها من مخرج سوى أن تترك إقليمها. ورحت ألحف عليها في حرارة، ودون جدوى، مرددًا ما ألححت عليها به عدَّة مرات في خطاباتي، ضارعًا إليها أن تأتي فتعيش معي في سكينة، وتسمح لي بأن أكرّس أيامي وأيام تيريز من أجل أن نحيل أيامها سعيدة. ولكنها أبت أن تصغى إليَّ متشبثة بمعاشها الذي لم تسحب منه شيئًا، منذ أمد طويل، برغم أنه كان يُدفع بانتظام. ووهبتها - مرة أخرى - قسطًا طفيفًا من نقودي، يقلّ عما كان ينبغي أن أعطيها، وأقل مما كان يجب أن أقدِّم لو لم أكن موقنًا تمام اليقين من أنها لن تفيد منه بـ « سو » واحد!

ولقد قامت - أثناء مكثى بجنيف - برحلة في (شابليه)، فجاءت لزيارتي في (جرانج كانال). وكان يعوزها المـال كى تواصل الرحلة، ولم أكن أحمل معى ما كان لازمًا لها، فأرسلته إليها بعد ساعة، بوساطة تيريز. يا للمسكينة « ماما »!.. فلأذكر دليلًا واحدًا جديدًا، على طيبة

قلبها: ذلك أنه لم يكن قد تبقى لها من حليها، سوى خاتم صغير، فخلعته عن أصبعها لتضعه حول أصبع تيريز، التي نقلته في التوّ إلى أصبع « ماما » من جديد، وهي تقبّل تلك اليد النبيلة وترويها بدموعها!.. آه! كانت تلك هي اللحظة المواتية لكي أسدد دَيني!.. كان خليقًا أن أهجر الكل لأتبعها، وأن ألازمها حتى ساعتها الأخيرة، وأن أقاسمها حظها، مهما يكن!.. ولكني لم أفعل شيئًا من هذا القبيل، فقد شعرت - وقد شغلت عنها بغيرها - أن الرابطة التي كانت تشدّ كلًّا منا إلى الآخر قد تفككت، إذ كان ينقصها الرجاء في أن أستطيع أن أحيل علاقتي بماما إلى شيء نافع لها!.. ولقد بكيت حسرة عليها، ولكنني لم أتبعها.. وليس بين بواعث تأنيب الضمير التي صادفتني في حياتي، ما هو أشدّ ولا أبقى من هذا الباعث!.. وإني لأستحق ألوان العقاب الفظيعة التي لم تكفّ عن تعذيبي منذ ذلك الحين.. فليتها تكفّر عن جحودى!.. الجحود الذي تبدّى في مسلكي فعلًا، ولكنه مزَّق قلبي في عنف ما كان ليحدث لو أن هذا القلب كان قلبًا جاحدًا يومًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت قبل رحيلي من باريس قد شرعت في صوغ إهداء « حديث في عدم المساواة »، وقد فرغت منها في (شامبيرى)، وسجّلت تاريخ ذلك اليوم مقرونًا باسم المكان، إذ رأيت أن من الأفضل ألا أقرن التاريخ باسم باريس أو جنيف، كى أتفادي كل المضايقات. وإذ وصلت إلى (جنيف)، أسلمت نفسى لتحمسي وهيامي بالنظام الجمهوري.. هذا التحمس المستهام الذي قادني إلى هناك، والذي ازداد بالاستقبال الذي حظيت به. وفي غمرة المآدب والمجاملات التي أحاطتني بها كل الأوساط، استسلمت بكل كياني إلى الغيرة الوطنية، وقد أخجلني أن أُحرم من حقوقى كمواطن بسبب اعتناقي دينًا يخالف دين آبائى115، فقرّرت أن أعود إلى هذا الأخير علانية. ورأيت أن الإنجيل واحـد لجميع المسيحيين، وأن لب العقيـدة ما اختلف إلا باختلاف أولئك الذين أقحموا أنفسهم في تفسير ما كانوا عاجزين عن فهمه. ولقد كان من حق الحاكم الفرد - في كل بلد - أن يعين أسلوب العبادة، وأن يبت في مسألة العقيدة المعقدة.. ومن ثم فإن واجب الرعية أن يقرّوا العقيدة وأن يمارسوا أسلوب العبادة اللذين نص عليهما القانون. وكان طول اختلاطى بأهل البحث والدراسة أبعد من أن يزعزع إيماني، بل أنه عزّزه، لا سيما وأنني كنت أنفر من المنازعات والتعصب. ولقد أدَّت دراسة الإنسان والكون - في كل مكان - إلى إطلاعي على القضايا الرئيسية والعقلية التي توجهها. ولقد علمتنى قراءة التوراة - لا سيما الإنجيل الذي انصرفت إليه عـدّة سنوات - كيف ازدري التفسيرات الجوفاء الحمقاء، التي خلعها على تعاليم عيسى المسيح أناس ليسوا أهلًا لإدراكها على الإطلاق!.. ومجمل القول أن الفلسفة إذ قرّبتني من جوهـر الدين، صرفتني عن هذا الركام من قواعد الإيمان الزائفة التي حجبت عن الناس هذا الجوهر!

وكما كنت أومن بأن صاحب العقل المدرك ليس بحاجة إلى طريقتين يختار بينهما في الوصول إلى المسيحية، فإنني كنت أومن كذلك بأن كل ما هو قاعدة ونظام - في كل دولة - إنما يدخل في نطاق التشريع والقانون. ومن هذا المبدأ المعقول، الاجتماعي، السلمي - الذي جرَّ عليَّ ما جرّ من اضطهادات قاسية ـ انسابت هذه النتيجة: إذا شئت أن أصبح مواطنًا، فإن من واجبي أن أكون بروتستانتيًا، وأن أعود إلى دين وطني. وعقـدت عزمي على ذلك، بل أننى استشرت في ذلك راعي الأبرشية التي كنت أقيم فيها، والتي كانت خارج المدينة.. ولم أكن أرجو سوى ألّا أضطر إلى أن أمثل أمام مجمع الكرادلة. ومع أن المراسم الكنسية كانت حاسمة في هذا الصدد، إلا أنه رؤى التجاوز عنها إكرامًا لي، فعينت لجنة من خمسة أو ستة أعضاء، لتتلقى إقراري بعقيدتي، في جلسة خاصة. ولسوء الطالع، شاء القس « بردريو » - وكان شخصًا لطيفًا، لينًا، ربطتنى به روابط من الود ـ أن يلحّ عليَّ بأن من دواعي الغبطة أن ألقي كلمة في هذا الاجتماع الصغير. وأزعجني توقّع هـذه الكلمة، إلى درجة أنني - بعد دراسة شغلت بها ليل نهـار لثلاثة أسابيع ـ أعددت خطابًا قصيرًا..

وارتبكت عندما حانت لحظة إلقائه، حتى أنني عجزت عن أن أنطق بكلمة واحدة منه.. وتصرّفت كأغبى تلاميذ المدارس!.. وتولى أعضاء اللجنة عنى الحديث، ورحت أجيب في عى بـ « لا » و « نعم »، ثم قُبلت في الطائفة، وردت إليَّ حقوقى كمواطن.. وكذلك أُدرج اسمى في قائمة « الحرس الوطني » الذي كان يتقاضي موارده من أبناء المدينة والطبقة المتوسطة فحسب116، ودُعيت إلى اجتماع غير عادي للمجلس العام، لتلقى اليمين من « السنديك » موسار117. ولقد تأثّرت للعواطف الطيبـة التي أبداها لي المجلس ومجمع الكرادلة ـ في هذه المناسبة - وللاجراءات الكريمة الحفية التي صدرت من جميع المستشارين والقساوسة والمواطنين، حتى أنني - بدافع من الرجاوات الملحة من ديلوك الطيب، ومن ميلى الصادق بوجه خاص - لم أعد أفكر في العودة إلى باريس إلا لكي أتخلص من مسكنى، وأسوى أعمالي البسيطة، وأجد عملًا للسيِّدة لوفاسير وزوجها - يقيهما العوز ـ ثم أعود مع تيريز فنستقر في (جنيف) بقية أيامي.

وإذ استقرّ رأيي على هذا القرار، أرجات كل الشواغل الهامة، لكي أهنأ بأصدقائي إلى أن يحين وقت الرحيل إلى باريس. وكانت أكثر ألوان التسلية إرضاءً لي، هي الطواف حول البحيرة في قارب مع ديلوك الأب، وزوجة ابنه، وتيريزى. وقضينا سبعة أيام في هذه الجولة، في أبدع طقس عرفته. وقد احتفظت بالذكريات الحارة للمواقع التي أطربتني - عند الطرف الأقصى للبحيرة - وأوردت بعض أوصافها في « هيلويز الجديدة » عندما كتبتها بعد سنوات!

وكانت الصلات الرئيسية التي عقدتها في جنيف - عدا صلتى بديلوك الذي تحدَّثت عنه ـ هي صداقتي للقس فيرن، الذي كنت قد عرفته في باريس من قبل، والذي كانت لديَّ عنه فكرة طيبة تفوق ما تبدّى منه فيما بعد.. وصداقتي للسيِّد بردريو، الذي كان - في ذلك الحين - راعي أبرشيه ريفية، وأصبح اليوم أستاذًا للأدب، والذي سأظلّ دائمًا أتحسر على صحبته المفعمة باللطف والدعة، وإن كان هو قد رأي أن فصم هذه المعرفة، كان عملًا سليمًا.. وهناك السيِّد « جالابير »، الذي كان أستاذًا لعلم الطبيعة - إذ ذاك - ثم أصبح مستشارًا و « سنديك »، وقد قرأت عليه رسالتي عن عدم المساواة - بعد أن تجاوزت عن المقدمة والاهداء - فبدا عليه أنه طرب لها.. والأستاذ « لولان »، الذي ظللت على تراسل معه حتى وفاته، والذي ذهب في ثقته بي إلى درجة أن عهد إليَّ بأن أبتاع بعض الكتب للمكتبة العامة.. والأستاذ « فيرنيه »، الذي أدار لي ظهره - ككل الناس - بعد أن أريته الأدلة على ود وصداقة كانا خليقين بأن يمسّا قلبه، إذا كان لقلب رجل من رجال الدين أن يتأثّر بشيء!.. وشابوي، الكاتب الذي خلف جوفكور في العمل، والذي رغب في أن يخلفه في الصداقة، وسرعان ما خلفه فعلًا.. وميرسيه دي ميزيبر، وقد كان صديقًا قديمًا لأبي، كما أثبت أنه كذلك بالنسبة لي، ولكنه - بعد أن كان قد استحق تقدير وطنه من قبل، ثم أصبح مؤلفًا مسرحيًا ومرشحًا لمجلس المائتين - تحوَّل عن آرائه، وعرَّض نفسه للسخرية حتى وافته منيته.. على أن التعارف الذي وضعت فيه أكبر أملى، هو تعارفي مع « مولتو ».. وكان شابًا توحى مواهبه وذكاؤه المتأجج بمستقبل عظيم له. وقد اعتدت دائمًا أن أشعر بعطف عليه، برغم أن مسلكه نحوى كثيرًا ما يثير الريب، وبرغم أنه كان على علاقات ودية بألد أعدائي.. على أننى - برغم كل هذا - لا أستطيع أن أصدّ نفسي عن التطلّع إليه كشخص يرجى أن يكون يومًا هو الذائد عن مذكراتي، والمنتقم لي، بوصفى صديقه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي غمرة هذه المتع والمرفهات، لم أفقد ميلى إلى النزهات التي كنت أنطلق فيها وحيدًا على قدمَيّ، فلم أكفّ عن ممارستها.. وكم من نزهات طويلة تمشيت خلالها على ضفاف البحيرة، لم يكن يمكث خلالها في رأسي - الذي اعتاد العمل - شيء من الهواجس.



وفى غمرة هذه المتع والمرفهات لم أفقد ميلى الى النزهات التى كنت
فيها وحيدا على قدمى .

وكنت أقلب في ذهني أثناءها المشروع الذي كنت قد رسمته من قبل، لكتابي: « المذاهب السياسية »، الذي لن ألبث أن أتحدَّث عنه.. كذلك كنت أفكر في كتابة « تاريخ فاليه »118.. ومأساة شعرية لم يجردني موضوعها ـ الذي لم يكن سوى حيـاة « لو كريس »119 - من الأمل في خنق الضحكات، وإن كنت قد جرؤت على أن أقدّم هذه المرأة التعسة على المسرح مرة أخرى، في وقت لم يكن من المحتمل فيه أن تعود حياتها إلى المسرح الفرنسي. كذلك حاولت أن أعالج موضوع « تاسيتوس »120، وترجمت الكتاب الأوَّل من « التواريخ ».. ولسوف توجد هذه الترجمة بين أوراقي.

وبعد أربعة أشهر من الإقامة في (جنيف)، عدت إلى (باريس) في شهر أكتوبر، متحاشيًّا المرور بليون حتى لا ألتقى في طريقي بجوفكور. ولما كنت قد قرَّرت - في تدبيراتي - ألا أعود إلى (جنيف) إلا في الربيع التالي، فقد عاودت في الشتاء عاداتي وأعمالي، التي كان أهمها مراجعة النسخ التجريبية (البروفات) لرسالتى « حديث في عدم المساواة »، التي كانت تُطبع في (هولندا)، لدى المكتبي « ريي » الذي كنت قد تعرَّفت إليه في جنيف. ذلك لأنه لما كان إهداء هذا الكتاب معقودًا للنظام الجمهوري، وكان مثل هذا الاهداء لا يروق للمجلس121، فقد انتظرت حتى أرى وقعه في جنيف قبـل أن أعود إليها. ولم يكن هذا الوقع في صالحي، بل إن ذاك الاهداء - الذي لم توح به سوى أنقى العواطف الوطنية ـ خلق لي في المجلس أعداء، كما جلب عليَّ غيرة بعض المواطنين. فقد كتب لي السيِّد « شويه » - « السنديك » الأكبر، في ذلك الحين - رسالة مهذبة ولكنها فاترة، ستوجد في أوراقي، في الملف « أ »، رقم (3). وتلقيت من بعض الخاصة ـ وبينهم ديلوك وجالابير - تهاني قليلة، كانت هي غاية ما جوزيت به، فلم أجد واحدًا من أبناء (جنيف) يشكر لى صادقًا تلك الحمية المنبعثة من القلب، والتي تبدو ملموسة في الكتاب. ولقد صدم هذا الفتور كل مَن لاحظوه. وأذكر أنني كنت أتناول الغداء ـ ذات يوم - في دار السيِّدة دوبان، في (كليشي)، بصحبة كروميلان - وزير الجمهورية122 - والسيِّد دى « ميران »، فقال هذا في صراحة مسموعة، أن المجلس كان مدينًا لي بمكافأة وبتكريم عام، من أجل هذا الكتاب، وأنه إنما يخزى نفسه إذا قصّر في هذا. ولم يجرؤ كروملان - الذي كان ضئيل الجسم، أسود القلب، دنيء المكر - أن يرد على ذلك في حضوري، ولكنه لوى ضبه في حركة بشعة أضحكت السيِّدة دوبان!.. وكانت الفائدة الوحيدة التي عادت عليَّ من هـذا المؤلّف - إلى جانب أنني أرضيت به فؤادى - هي لقب « المواطن » الذي خلعه عليَّ أصدقائي، ثم حذا الجمهور حذوهم، وما لبثت أن فقدته عقب ذلك، لفرط استحقاقي إياه! على أن هذا النجاح الخابي ما كان ليحوّلني عن تحقيق أوبتي إلى (جنيف)، لو لم تتغلَّب على ذلك بواعث كانت ذات نفوذ قوى على فؤادى. فإن السيِّد ديبيناى كان راغبًا في أن يضيف إلى قصر « لا شيفريت » جناحًا كان ينقصه، فأنفق في سبيل إنجاز ذلك، مبالغ جسيمة. وفيما كنت ذاهبًا - ذات يوم - مع السيِّدة ديبيناي، لمشاهدة عملية البناء مضينا في سيرنا إلى ما بعد الموقع بحوالي ربع فرسخ، أي إلى مقربة من خزان مياه المتنزهات الملحقة بالقصر، في متاخمة غابة (مونمورنسى)، حيث كان ثمة مبنى صغير رشيق، أقيم ليكون مطبخًا خلويًّا، وقد ألحق به كوخ صغير مهدَّم يُدعى « ليرميتاج »123.

وكان هذا الموقع المنعزل، الملائم بي، قد ملك عليَّ حواسي عندما رأيته للمرة الأولى، قبل رحلتي إلى جنيف. وفي إعجابي به، انبعثت منى هذه الكلمات: « آه!.. يا له من مقام بهيج يا سيِّدتى!.. ها هو ذا ملاذ كأنما خُلق لي! ».. ولم تكترث السيِّدة ديبيناى لقولى كثيرًا، في ذلك الحين. ولكنني - في زيارتى الثانية - دهشت عندما وجدت في مكان الطلل القديم، منزلًا صغيرًا، يكاد يكون جديدًا بأكمله، وقد قُسّم تقسيمًا بديعًا، وأصبح جد مهيأ ليكون مقامًا لأسرة تضم ثلاثة أفرادا.. ذلك أن السيِّدة ديبيناى عملت على إنشاء هذا المبنى في صمت، وبنفقات جد ضئيلة، مستخدمة في ذلك بعض العمال الذين كانوا يشتغلون في القصر، وبعض المواد التي كانت متوفرة هناك!

وعندما رأت دهشتى، قالت: « ها هوذا ملجؤك يا دبي، فقد اخترته بنفسك، وقد أنالتك إياه الصداقة، عسى أن يضع خاتمة لتفكيرك الجائر في البعد عني! ». وما أعتقد أننى شعرت يومًا بتأثّر أشدّ ولا أعذب مما شعرت به إذ ذاك!.. وغسلت بدموعى يد صديقتي الكريمة. وإذا لم أكن قد تخليت تمامًا عن عزمي في تلك اللحظة، فإن هذا العزم قد تصدّع على الأقل!.. وأصبحت السيِّدة ديبيناي - التي أبت أن تنهزم أمام رغبتي في الاستقرار في جنيف ـ شديدة الالحاح، واستعانت بكثير من الوسائل المتباينة، وبكثير من الأشخاص، لكي تتغلب عليَّ.. بل إنها ذهبت في ذلك إلى حد أن عينت السيِّدة لوفاسير وابنتها في خدمتها.. وبهذا انتصرت في النهاية على إصراري. وإذ تنحيت عن فكرة الاستقرار في وطني، قرّرت، ووعدت بأن أقيم في (ليرميتاج). وبينما كان المبنى يجف124، تكفلت السيِّدة ديبيناي بأمر الأثاث. ومن ثم فإن المكان كان معدًّا تمامًا للسكني في الربيع التالي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان من الأشياء التي ساعدت كثيرًا على أن أبت في الأمر، استقرار المقام بفولتير، على مقربة من جنيف. فقد أدركت أن هذا الرجل كان موشكًا أن يُحدث انقلابًا هناك، وأنني خليق بأن أجد في وطني عين النقائص، والمظاهر، والأخلاق التي كانت تنفرني من باريس، ومن ثم فلا بد من النضال دون انقطاع، ولن يبقى لي من خيار في مسلكي سوى أن أكون أحد اثنين: إما متحذلقًا متغطرسًا لا يُطاق، أو مواطنًا رديئًا جبانًا!.. ولقد أدَّى الخطاب الذي كتبه لى « فولتير » عن كتابي الأخير، إلى أن أشير إلى هواجسي في ردي، فكان الأثر الذي أحدثته إشارتي معززًا لرأيى. ومنذ ذلك الحين، اعتبرت جنيف في حكم الضائعة، ولم أكن مخطئًا في حدسي، ولعله كان من الخليق بي أن أتحدَّى العاصفة، لو أنني شعرت بمقدرة على ذلك، ولكن.. ما الذي كنت أملك أن أفعله - وأنا وحيد، خجول، عيى - ضد رجل متكبر، غنى، يستند إلى مؤازرة الكبار، ويجيد الكلام البراق، وقد صار معبود النساء والشباب؟.. لقد خشيت أن أعرّض شجاعتي للخطر، دون جدوى، فلم أنصت إلّا إلى فطرتي المسالمة، وإلى حبى للطمأنينة والخمول.. فهو إذا كان قد خدعني إذ ذاك، فإنه لا يزال يخدعنى اليوم، في هذا المضمار عينه!.. ولو أنني آثرت المقام في جنيف، لجنبت نفسي كثيرًا من المحن والتعاسات، ولكني - بكل ما أوتيت من حمية ومن غيرة وطنية ـ أشك في أننى كنت مستطيعًا أن أقوم بعمل عظيم، أو نافع، لبلادي.

وكان ترونشان قد استقرّ في جنيف حوالى ذلك الوقت، فما لبث أن جاء إلى باريس بعد قليل، ليقوم بدور الدجال125، وليتسلل ببعض كنوزها. وما أن وصل، حتى قام بزيارة الشيفالييه جوكور.. وكانت السيِّدة ديبيناي توّاقة إلى أن تستشيره شخصيًّا، ولكن الوصول إليه - خلال صفوف الجماهير - لم يكن ميسورًا. وهرعت إليَّ، فأقنعت ترونشان بأن يذهب لزيارتها، وإذا بهما يعقدان روابط صداقة عزّزاها - فيما بعد - على حسابي أنا!.. هكذا كان نصيبي دائمًا، فما جمعت بين صديقين - كنت أعرف كلًّا منهما على حدة - إلا واتحدا، دون توان، ضدي. ومع أنهم في المؤامرة - التي دخلها آل ترونشان من ذلك الحين، لكي ينحطا ببلادهما إلى درك العبودية - كانوا يشعرون بمقت نحوى، إلا أن الطبيب ظلّ طويلًا يبدى لي آيات حسن النية. بل أنه ذهب إلى درجة أن كتب لي، بعد عودته إلى جنيف، عارضًا عليَّ منصبًا فخريًا يضعني على رأس المكتبة العامة هناك. ولكن رأيي كان قد استقرّ، فلم يزعزع هذا العرض عزمي.

وعدت - في هذه الفترة - أتردد على دار السيِّد دولباخ.. وكانت مناسبة ذلك أن الموت عدا على زوجته - كما عدا على السيِّدة فرانكويي - ابان إقامتي في جنيف. وقد حدَّثني ديدرو - إذ أشار إلى ذلك في خطاباته - عن الحزن العميق الذي نزل بالزوج، فحرَّك الأسى فؤادى، وتحسرت - في نفسي - على هذه المرأة الطيبة، وكتبت إلى السيِّد دولباخ. إذ أن هذا الحادث المحزن جعلني أنسى كل أخطائه، وما إن عدت من جنيف، وكان هو الآخر قد

عاد من جولة قام بها في فرنسا ليسرى عنه الأسى، حتى ذهبت لزيارته مع جريم وأصدقاء آخرين، وواصلت زيارته - بعد ذلك - إلى أن رحلت إلى (ليرميتاج). وعندما شاع في الوسط المحيط به، أن السيِّدة ديبيناى - التي لم يكن قد تعرَّف إليها بعد - كانت تعد لي مسكنًا، انهالت عليَّ السخريات كالمطر، وقيل إننى عاجز عن أن أعيش بدون تملق وإطراء المدينة، وبدون متعها وملاهيها، وأنني لن أطيق البقاء في عزلة، ولو لخمسة عشر يومًا!.. ولما كنت أدرك حقيقة مشاعرى، فقد تركتهم يقولون ما حلا لهم، ومضيت في طريقي. ومع ذلك، فإن دولباخ ساعدني على أن أعثر على مأوى للشيخ الطيب (لوفاسير)126، الذي كان قد تجاوز الثمانين من عمره، والذي كانت زوجته تشعر بأنه عبء ثقيل يبهظها، فكانت لا تكفّ عن أن ترجوني أن أريحها منه!.. وقد وُضع في ملجأ للفقراء، حيث عجَّل كبر سنه وحزنه لبعده عن أسرته، بإرساله إلى القبر، بمجرَّد أن حلّ بالمكان تقريبًا!.. ولم تأس زوجته وأطفاله عليه كثيرًا، ولكن تيريز - التي كانت مشغوفة بحبه - لم تجد قط عزاء لمصابها فيه، ولم تصفح عن نفسها قط إذ تركته ـ وهو على شفا نهاية أجله ـ يقضى أيامه الأخيرة بعيدًا عنها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتلقيت في هذه الفترة تقريبًا، زيارة لم أكن أرتقبها قط، وإن كان صاحبها من أقدم المعارف. وأعنى به صديقي « فينتور »، الذي فاجأني ذات صباح لطيف، عندما كان آخر شخص يخطر ببالي. وكان معه زميل.. وكم لاح لي أنه تغيَّرا!.. فبدلًا من أخلاقه الكريمة السالفة، لم أجد فيه سوى مظهر مفسود منحل، منعني من أن أكاشفه بدخيلتي.. أو لعل عينَيّ لم تعودا كما عهدتهما، أو أن الافراط في العبث قد أطفأ ذكاءه، أو أن كل تألقه السابق كان يعتمد على إشراقة الصبا، التي لم يعد محتفظًا بها!.. ولقد عاملته في غير اكتراث تقريبًا، وافترقنا في فتور. ولكنه لم يكد ينصرف، حتى أهاجت ذكرى ألفتنا القديمة.. ذكريات صباي، تلك الذكريات التي كانت في رونقها، وفى بهائها، وفي كمالها، مقصورة على هذه المرأة الملائكية التي لم تكن - اليوم - أقلّ تغيرًا منه.. وطرائف وأقاصيص تلك الأوقات الهانئة.. وذلك اليوم الشاعري الذي قضيته في (تون)، في براءة وطرب بين تلكما الفتاتين الفاتنتين اللتين كان كل ما أنعمتا به عليَّ، مجرَّد قبلة على اليد، ولكنها خلفت - مع ذلك - حسرة ناعمة دائمة!.. وإذا كل النشوات البهيجة التي أسكرت قلبي الشاب، والتي شعرت بها إذ ذاك في أقوى صورها، والتي كنت أظنها قد ولت إلى الأبد.. كل هذه الذكريات العاطفية الناعمة، جعلتني أبكي شبابي الذي أدبر بمباهجه، والذي ضاع عليَّ!.. آه! كم كنت جديرًا بأن أبكي عودة هذه الذكريات - العودة المتأخرة، الحزينة - لو أنني تنبأت بالأسى التي كان مرتقبًا أن تكبدنيه!

وقبل أن أغادر باريس، وفي أثناء الشتاء الذي سبق اعتكافي، حظيت بمتعة صادفت هوى من قلبي، وأقبلت على تذوقها بكل نقائها. ذلك أن « باليسو » - وكان عضوًا في محفل نانسى، أذاعت صيته بضع تمثيليات وضعها - كان قد ظفر بعرض إحدى هذه التمثيليات في (لونيفيل). على مشهد من ملك بولندا. وكان من الجلي أنه أراد أن ينشد الحظوة، إذ دسَّ في تمثيليته شخصية رجل جرؤ على أن يناجز الملك بقلمه. ولكن « ستانيسلاس » كان رجلًا كريمًا، لا يميل إلى الهجو، وقد استنكر أن يجرؤ أحد على تصوير الشخصيات بهذا الشكل في محضره. فكتب السيِّد الكونت دى تريسان - بأمر من الملك - إلى « داليمبير » وإليَّ أنا، فأنبأني بأن نية صاحب الجلالة قد اتجهت إلى تحقيق إقصاء السيِّد باليسو عن المحفل. على أنني رجوت السيِّد تريسان مخلصًا - في ردّي - بأن يشفع لدى ملك بولندا للحصول على عفو عن باليسو. وصدر العفو فعلًا. وإذ كتب لي السيِّد دى تريسان ليخبرني - باسم الملك - بذلك، أضاف أن هذا الحادث سيثبت في سجلات المحفل، فرددت بأن هذا سيكون بمثابة توقيع عقاب دائم، أكثر مما هو عفو. وأخيرًا، حصلت - بعد عناء ورجاء -

على وعد بأن تظلّ المسألة كلها بعيدة عن السجلات، وألّا يبقى أي أثر منها بصفة رسمية. وقد صحب الوعد إقرارات تقدير من جانب الملك، ومن جانب السيِّد دى تريسان، مما أثار زهوى إلى حد كبير. وشعرت في هذه المناسبة بأن تقدير أولئك الذين هم جديرون بالتقدير، يبعث في النفس شعورًا أعذب وأسمى من شعور الخيلاء والغرور!.. وقد ضممت خطابات السيِّد دى تريسان وردودي إلى أضابيري، وستوجد أصولها في ملف « أ »، تحت أرقام 9 و 11 و 11.

إننى لأشعر كل الشعور، بأنه إذا قُدِّر لهذه المذكرات أن ترى الضوء يومًا، أننى أخلد بنفسي هنا ذكرى واقعة كنت أرغب في أن أمحو آثارها، ولكنني أثبت كثيرًا غيرها، على الرغم منى. فإن الهدف الأكبر لمشروعي هذا، يتمثَّل دائمًا أمام عينَيّ. فإن الواجب الذي لا محيص عنه، والذي يتطلَّب أن أحقق هذا الهدف بأكمل صوره، لا يدع لي سبيلًا للنكوص، من أجل اعتبارات واهية تعمل على أن تعوقني عن غايتي. إنني في موقفي الفذ الفريد، أدين للحقيقة بما لا أدين لسواها بأكثر منه. فلكي أعرِّف القرّاء بنفسي، لا بد لي من أن أعرّف كل نواحى هذه النفس، طيبها ورديئها. إن اعترافاتى مرتبطة - بالضرورة - باعترافات كثير من الناس، وإني لأبوح بهذه وتلك بنفس الصراحة، في كل ما يتعلَّق بي، دون أن أجد ما يقتضي أن أعامل أي امرىء غيرى بما لا أعامل به نفسى، ولست أتمني سوى أن أوتي مزيدًا من الصراحة يفوق ما أبديت. إنني أصبو إلى أن أكون دائمًا منصفًا وصادقًا، فأقول عن الغير كل خير ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولا أذكر من الشر إلا ما يتعلَّق بي، وبقدر ما أكون مضطرًا إلى ذكره.

فمنذا الذي يجد من حقه أن يطالبني - وأنا في هذا الموقف الذي أقحمت فيه - بمزيد؟.. إن اعترافاتي لم تُكتب إطلاقًا لكي تظهر في حياتي، ولا في حياة الأشخاص الذين تتناولهم. ولو كان لي السلطان على مصيرى ومصير هذا المخطوط، لما رأى النور إلا بعد موتى وموت هؤلاء الأشخاص بوقتٍ طويل. ولكن الجهود التي يبذلها الشانئون ذوو النفوذ - مدفوعين بجزعهم منها - لكي يمحوا كل أثر لهذا المخطوط، يضطرّني إلى أن أبذل كل ما يسمح لي به أشدّ القوانين، وأقسى ألوان العدالة، في سبيل صون هذه الآثار. ولو كان مقدرًا لذكرياتي أن تموت معي، حتى لا أمس أي أحد، لتحملت أي ظلم جائر وعابر يترتب على ذلك. أما وقد قُدِّر لاسمى أن يعيش - أخيرًا - فإن من واجبي أن أحاول أن أسلم الأجيال معه ذكريات الرجل التعس الذي كان يحمله.. كي أبديه على ما كان عليه في الواقع والحقيقة، وليس كما عمل أعداؤه الظالمون دائبين على أن يصوروه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكراسة التاسعة

سنة 1756

لم يسمح لي التلهف على سكنى « ليرميتاج » بأن أنتظر حتى يعود فصل الطقس البديع، فما إن تمَّ إعداد مسكنى حتى أسرعت إلى الإقامة فيـه، وسط السخريات المدوية من ثلة دولباخ، الذين راحوا يتنبأون علانية بأنني لن أستطيع أن أحتمل العزلة ثلاثة أشهر، وأنهم لن يلبثوا أن يروني عائدًا لأعترف بإخفاقي، ولأعيش مثلهم في باريس. أما أنا - وقد قضيت خمس عشرة سنة بعيدًا عن بيئتي - فإنني إذ رأيت نفسي وشيك العودة إليها، لم أبد أي اكتراث مطلقًا لمزاحهم الساخر. فإنني منذ أن أُلقيت - على الرغم منى - في المجتمع، لم أكفّ عن التحسر على (شارميت)، وعلى الحياة الناعمة التي حظيت بها هناك.. كنت أحس أنني خُلقت للإقامة في الريف، فكان من المستحيل أن أهنأ بالعيش في غيره.. في البندقية: في غمرة الشئون العامة، وفى منصب خاص بنـوع من التمثيل الديبلوماسي، وفي آمالي الطامحة ومشروعاتي للرقى.. في باريس: في دوامة المجتمع الراقي، وفي الملاذ الحسية التي تكتنف حفلات العشاء، وفي حفلات المسرح اللامعة، وفي سحب المجد الزائف الذي حفّ بي.. في كل هذه وتلك، كانت ذكريات أدغالي، وجداولى، وتجوالي على القدمين، حاضرة أبدًا لتشغل بالي وتبعث الأسى في نفسي، وتنتزع منى التنهدات والحنين والحسرة!

كل الأعمال التي كان في طوقي أن أجعل نفسي في ربقتها، وكل المشروعات الطامحة التي راحت تنمي حميتى بإطراد، ولم يكن لها من غاية سوى أن أبلغ يومًا تلك البحبوحة الريفية الهانئة، التي رحت أهنيء نفسى - في تلك اللحظة - على أنني أحرزتها.. فإنني وإن لم أحظ بالاستقلال الكريم - الذي كنت أعتبره وحده الكفيل بأن يقودني إلى هذه الهناءة - إلا أنني رأيت أن بوسعى، نظرًا لوضعي الخاص، أن أستغني عنه، وأن أصل إلى نفس النهاية بطريق أخرى جد مختلفة. على أنني لم أكن أملك دخلًا ما، وإن كنت أمتلك اسمًا ومواهب.. وكنت معتدلًا، وقد حرمت نفسي من معظم الحاجات الباهظة النفقات.. تلك التي كانت منشودة لدى الناس عامة. وإلى جانب ذلك، فبالرغم من كسلى، إلا أنني كنت مجدًّا عندما أشاء، ولم يكن كسلى راجعًا إلى أننى عاطل خمول، بقدر ما كان خلة الرجل المستقل الذي لا يحب أن يعمل إلا عندما يروق له العمل. ولم يكن احترافي نسخ القطع الموسيقية رائجًا، ولا مربحًا، ولكنه كان مصدر رزق مضمون، وقد حبّذ المجتمع شجاعتي إذ أقدمت على اختياره. فقد كان لي دائمًا أن أطمئن إلى عمل، وأن أطمئن إلى رزق كاف لعيشى إذا أنا عملت جادًا. وكانت الفرنكات الألفان التي تبقَّت من أرباحي من « عرَّاف القرية » ومن مؤلفاتي الأخرى، بمثابة رصيد يقيني الضيق. كما أن المؤلفات العديدة التي كانت تحت الاعداد، كانت تبشِّر - دون ما تطفل على الناشرين - بموارد كافية لأن تمكنني من العمل على سجيتي، دون ما إرهاق لنفسي، بل ودون أن أجور على أوقات الفراغ المخصصة للتريض والتجوال. وكانت أسرتي الصغيرة، مؤلفة من ثلاثة أشخاص، شغل كل منهم بما هو نافع، ولم تكن إعالتها مبهظة. وقصارى القول أن مواردى - بالنسبة لحاجاتي ورغباتي - كانت قادرة بحق على أن تتيح لى السعادة الدائمة في الحياة التي اختارتها ميولى.

ولقد كان بوسعي أن أرتمى تمامًا في أحضان الجانب الأكثر إدرارًا للربح، وبدلًا من أن أذل قلمي للنسخ، كان بوسعي أن أكرّسـه تكريسًا تامًّا للكتابة التي كانت - في الاعتكاف الذي اخترته، والذي شعرت بأنني قادر على مواصلته - كفيلة بأن تمكنني من أن أعيش في سعة، بل في بذخ، لو أنني وافقت على أن أجمع بين حيل المؤلف والعناية بنشر كتب جيدة. بيد أننى كنت أشعر بأن الكتابة من أجل كسب العيش، لن تلبث أن تخنق نبوغي، وأن تقتل موهبتي التي كانت في قلبي أكثر مما كانت في قلمي، والتي لم تنبعث إلا من أسلوب في

التفكير راق، أشم، هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة.. فما من شيء قوى، ولا من شيء عظيم يمكن أن ينساب من قلم أجير مرتش!.. إن الحاجة - وربما الجشع - كانت كفيلة بأن تدفعني إلى أن أتعجل أكثر من أن أتقن. ولولا أن الرغبة في النجاح زجَّت بي إلى الدسائس، لكان من المحتمل أن تجعلني أناضل لأقول ما قد يطيب للناس، وليس ما هو صادق ونافع!.. وبدلًا من المؤلف المبرز، الذي كان بوسعي أن أغدوه، فإنني ما كنت لأصبح سوى مسوّد للورق!.. لا، لا!.. لقد كنت أشعر دائما ان مكانة المؤلف لا يمكن أن تصبح مرموقة ومحترمة، إلّا إذا كان التأليف بعيدًا عن أن يكون حرفة.. إذ أنه من الصعب، كل الصعب، أن يفكّر الإنسان تفكيرًا نبيلًا ساميًا، إذا ما كان مضطرًا إلى ألا يفكر إلا طلبًا للرزق!.. ولكي يكون الكاتب قادرًا، ولكي يجسر على أن ينطق بالحقائق الجليلة، ينبغي ألا يعول على النجاح ويركن إليه. ولقد دفعت بكتبي إلى الناس بضمير مطمئن إلى أننى إنما تكلمت من أجل الصالح العام غير حافل بأي شيء آخر. فإذا رُفض الكتاب، فيا تعسًا لأولئك الذين لم يشاءوا أن يفيدوا منه. أما أنا، فما كنت بحاجة إلى رضاهم وقبولهم لكي أعيش، فإن مهنتي كانت كفيلة بأن تعولني، إذا لم تلق كتبي مشتريًا.. وهذا بالذات هو الذي جعلها تباع وتروج!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي التاسع من أبريل سنة 1756، غادرت المدينة فلم اعد إلى سكنى المدن قط، إذ أنني لا أعتبر من السكني في شيء، تلك الفترات الوجيزة التي قضيتها - فيما بعد - سواء في باريس أو في لندن أو غيرهما من المدن. فقد كانت مجرَّد إقامة عابرة، أو إقامة بالرغم منى دائمًا!.. ولقد أقلّت السيِّدة ديبيناى ثلاثتنا في عربتها، وتولى خادمها الريفي أمر متاعي البسيط، واستقرّ بي المقام في بيتي الجديد، في اليوم ذاته. ووجدت معزلى الصغير مهيأ، ذا أثاث بسيط ولكنه كاف، وينم عن ذوق!.. كانت اليد التي عنيت بإعداد هذا الأثاث قد أضفت عليه ـ في نظري - قيمة تفوق كل تقدير، وقد لذّ لي أن أكون ضيف صديقتي، في بيت من اختياري، شيدته هي خصيصًا لي!

ومع أن الطقس كان باردًا، بل كان ثمة جليد، فإن الأرض كانت قد بدأت تخضوضر، وكانت زهور النرجس وورود الربيع قد ظهرت، وشرعت البراعم تتفتح على الأشجار.. وقد امتازت ليلة وصولي بأوَّل شدو للبلبل في أعقاب الشتاء، وقد انبعث من غابة كانت تتاخم البيت، فكأنما كان البلبل ذاته عند نافذتي!.. وبعد نعاس خفيف، استيقظت وقد نسيت تبدّل مسكنى، فخلت أنني لا أزال في شارع (جرينيل)، لولا أن شدو البلبل نبهني، فهتفت في نشوتي: « ها قد تحققت كل أمانيّ أخيرًا! »..



بعد نعاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكني ، فخلت أنني
في شارع (جرينيل) .

وكان أوَّل ما فكرت فيه هو أن أسلم نفسي لمفعول الأشياء الريفية التي كانت تحيط بي. وبدلًا من أن أشرع في تنسيق مسكني، فإنني شرعت في إعداد نفسي لنزهاتي، فلم يبق ثمة درب، ولا شجرة ضخمة، ولا غيضة (مجموعة من الشجر)، ولا بقعة منعزلة حول مسكنى، إلا وتفقدتها في اليوم التالي.. وكنت كلما ازددت تعرّفًا بهذا المعزل الفاتن، ازددت إحساسًا بأنه ما خُلق إلا لي!.. كانت هذه البقعة البعيدة عن العمران - وإن لم تكن موحشة - تنقلني في الخيال إلى آخر أطراف المعمورة.. كانت قد أوتيت تلك المفاتن التي تملك القلوب، والتي لا يجدها المرء قط على مقربة من المدن. وما قُدِّر لامرىء انتقل إلى هناك فجأة، أن يصدِّق أنه كان لا يبعد عن باريس بأكثر من أربعة فراسخ!

وبعد بضعة أيام من الاستسلام لنشوتي الريفية، فكّرت في تنسيق أوراقي وتنظيم مهامى، فخصصت فترة الصباح للنسخ ـ كما اعتدت أن أفعل دائمًا - وفترة ما بعد الغداء للتريض والتجوال، مزوّدًا بكراسة بيضاء صغيرة وقلم من الرصاص، إذ أنني لم أستطع أن أكتب أو أن أفكّر على سجيتي إطلاقًا، إلا في الهواء الطلق والفضاء، ولم أجد بنفسي ميلًا إلى أن أغيّر أسلوبي، بل أنني قدَّرت أن غابة (مونمورنسى) - التي كانت تكاد تصل إلى بابي - لن تلبث أن تغدو مكتبي ومكان عملى!.. وكانت لديَّ عدّة مؤلّفات بدأتها من قبل، فعمدت إلى مراجعتها.. كنت مبدعًا كل الإبداع في مشروعاتي، ولكن تنفيذها كان يسير ببطء، في ضوضاء المدينة. وقد توقّعت أن أمضى فيها بمزيد من العجلة، إذا ما تخفّفت من كل ما اعتاد أن يشغلني عن العمل.. وأعتقد أننى قد حققت هذا التوقّع تمامًا.. وبالنسبة لرجل كثير المرض، كثير التردّد على قصر « لاشيفريت » واييناى وأوبون وقصر مونمورنسى، كثير التشاغل عن عمله في داره بفضل الفضوليين المتعطلين، دائم الانشغال بالنسخ نصف نهاره.. إذا قدّر كل هذا، وأحصيت المؤلفات التي أنجزتها خلال السنوات الست - التي قضيتها في ليرميتاج ومونمورنسى - لتجلي، فيما أوقن، أنني إذا كنت قد بددت وقتى خلال هذه الحقبة من الزمن، فإن تبديده لم يكن في خمول، على الاقل!

وبين الأعمال الأدبية المتباينة - التي كانت على الرف - كان المؤلّف الذي أطلت التفكير فيه، والذي أقبلت عليه بأعظم قدر من الشغف، والذي وددت أن أعمل فيه طول عمري، والذي أعتقد أنه ختم شهرتى.. ذلك هو كتابي في « المذاهب السياسية ». إذ كانت قد انقضت ثلاث عشرة - أو أربع عشرة - سنة، مذ خطرت لي فكرته، عندما كنت مقيمًا في البندقية، حيث أتيحت لي الفرصة كي أشهد عيوب نظام الحكم فيها، برغم ما كان له من صيت. ومن ذلك الحين، اتسعت آرائي بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الأخلاق، فقُدِّر لي أن أرى أن كل شيء كان يتصل اتصالًا جوهريًا بالاعتبارات السياسية، وأنه ما من شعب يملك - مهما يكن تقدّمه - أن يصبح في حال غير التي تعدّه لها طبيعة نظام الحكم فيه. ومن ثم، فإن المسألة الكبرى - مسألة خير نظام ممكن للحكم - انكمشت في نظري إلى ما يأتي: ما كنه نظام الحكم الصالح لتكوين الشعب الذي يكون أفضل صفات، وأكثر تنورًا، وأوسع حكمة.. وبالإيجاز، الشعب الذي يكون « أحسن » شعب، بأوسع معاني كلمة « أحسن »؟.. ولاح لي أن هذا السؤال كان وثيق الارتباط بسؤالٍ آخر، قريب الشبه منه، وإن لم يكن مثله تماما. ذلك هو: ما هي الحكومة التي تحرص - بطبيعتها - دائمًا، على أن تكون وثيقة القرب من القانون؟.. ومن هنا خطر لي سؤال آخر: ما هو القانون؟.. وتبعته سلسلة من الأسئلة لها عين القيمة. ورأيت أن هذا كله يفضى إلى حقائق عظيمة، ذات نفع بالنسبة لرفاهية الجنس البشري، ولا سيما رفاهية وطنى، حيث لم أجد - خلال الرحلة التي قمت بها إلى هناك - دراية بالقانون وبالحرية صحيحة، ولا واضحة بالقدر الذي كان يرضيني. ولقد آمنت بأن الإيعاز بهذه الدراية ـ بطريق غير مباشر - هو أسلم وسيلة ملائمة لكرامة هؤلاء القوم، وخير شفيع لى كى يغفروا لي أن استطعت أن أمدّ بصرى إلى أعلى وأبعد مما بلغته أبصارهم!

ومع أنى كنت قد عكفت - لخمس سنوات أو ست - على وضع هذا المؤلف، إلا أنني لم أكن قد قطعت فيه شوطًا يُذكر. فإن الكتب التي من هذا القبيل، تتطلَّب تأملًا، وفراغًا، وطمأنينة. فضلًا عن أنني كنت أعمل فيه في الخفاء - كما يُقال - دون أن أفاتح أحدًا - ولا ديدرو نفسه - بما اعتزمت. فقد كنت أخشى ألّا يبدو ملائمًا كل الملاءمة لروح العصر، وللبلد الذي كنت أكتبه فيه، وأن جزع أصدقائي قد يعرقل جهودى في تنفيذه127. ولم أكن بعد واثقًا من أنه سيتمّ في وقت مناسب، وبحيث يتسني ظهوره ابان حياتى.. وكنت راغبًا في أن أتمكن - دون أي تقيد - من أن أهب موضوعي كل ما كان يتطلبه. ولما كنت خلوًّا من التحامل المغرض، وغير راغب قط في الجنوح إليهما - فإنني كنت مطمئنًا إلى أنني سأظلّ دائمًا بمنأى عن اللوم.. لقد وددت أن أستخدم - أكمل استخدام، دون ريب - حق التفكير، هذا الحق الذي أوتيته بحكم وجودي.. ولكني في حرصى دائمًا على احترام نظام الحكم الذي كنت أعيش في ظلاله، وعلى عدم الخروج على القانون إطلاقًا، وعلى التزام الحذر حتى لا أنتهك حق الغير.. في كل حرصى هذا، لم أكن راغبًا ـ في الوقت ذاته - في أن أفرط، بدافع من الخوف، في أمتيات هذا الحق.. حقى في التفكير! بل إننى لأذهب إلى الاعتراف بأنني وجدت وضعي في فرنسا - كأجنبي يعيش فيها ـ مواتيًا لكي أقول الحق في جرأة.. فقد أدركت تمامًا أنني ما دمت لا أطبع شيئًا في الدولة، دون ما إذن ـ وهو ما كنت أعتزمه - فلن أكون مسئولًا أمام أي أحد في فرنسا عن مبادئي، وعن الترويج لها في أي مكان آخرا.. ولقد كان من المحتمل أن أكون أقلّ حرية في جنيف، أو في أي مكان آخر طُبعت فيه كتبي، إذ كان للسلطات حق الاعتراض على محتوياتها. ولقد كان لهذا الاعتبار أثر كبير في حملي على أن أنصاع لإلحاف السيِّدة ديبيناي، فأهجر ما كنت قد انتويته من الإقامة في جنيف. فقد شعرت ـ كما ذكرت في « اميل » - بأن المرء إذا أراد أن يؤلّف كتبًا في الصالح الحقيقي لوطنه، فليس له أن يؤلفها في هذا الوطن، اللهم إلا أن يكون موهوبًا في التآمر والدس والخداع!

ومما زادني سعادة، أنني اقتنعت بأن حكومة فرنسا، ستعتبر أن من الكرامة أن تدعني في سلام، إن لم تحمني، ولو أنها لم تكن تنظر إليَّ بعين راضية!.. ولقد كان هذا - فيما بدا لى - نهجًا سياسيًّا بسيطًا، وصريحًا إذ أنه يرمى إلى التسامح إزاء ما لا سبيل هناك إلى منعه.. فلو أننى حُملت على مغادرة فرنسا ـ وهو ما لكل الحكومات الحق في أن تُقدم عليه - لظلَّت كتبى ماضية في الصدور، ولكن بتحفظ أقلّ.. أما إذا تُركت دون إزعاج، فإنني - كمؤلف - سأعتبر رهينة وضمانًا لكتبي، كما أن هذا كفيل بأن يمحو الآراء الخاطئة التي كانت متغلغلة في بقية أوروبا، إذ يُكسب السلطات الفرنسية شهرة احترام حقوق الأمم عن سعة أفق ورقى تفكير!

والذين يحكمون - على ضوء النتيجة - بأن ثقتى قد غرَّرت بي، ربما كانوا هم المخدوعون. ففي العاصفة التي هبَّت عليَّ، كانت كتبي خير حجة في جانبي، لولا أن شخصي هو الذي كان مقصودًا.. فإن أحدًا لم يول المؤلف كثير اهتمام، ولكنهم كانوا يتوقون إلى القضاء على جان جاك نفسه.. وكان أسوأ ما جرَّته كتاباتي، هو التكريم الذي كان من المحتمل أن يولوني إياه. ولكن.. يجب ألّا نقفز إلى المستقبل، ولندعه إلى حينه!.. ولست أدري ما إذا كان هذا اللغز - فهو لا يزال لغزًا في نظري إلى اليوم ـ سيلقى ما يوضحه في نظر قرائى، فيما بعد.

وإنما الذي أدريه هو أنه إذا كانت آرائي التي جاهرت بها، جديرة بأن تجلب عليَّ المعاملة التي قاسيتها، لما توانيت عن التعجيل بأن أصبح فريسة لها. ذلك لأن ما ظهر من كتبي - التي بسطت فيها هذه المبادىء بكل جرأة، إن لم أقل بكل شجاعة128 - كان قد أحدث أثره، على ما بدا، قبل أن آوي إلى (ليرميتاج)، دون أن يخطر ببال أحد أن يناجزني الحرب أو - على الأقل - أن يعوق نشر المؤلف في فرنسا، حيث كان يُباع في علانية لا تقلّ عن

التي كان يُباع بها في هولندا. ولقد ظهرت « هيلويز الجديدة » - بعد ذلك - بنفس السهولة، وبنفس التحبيذ، كما ينبغي أن يُقال. ومن الأمور التي تبدو أبعد من أن تُصدَّق، أن العقيدة التي بشرت بها في « هيلويز » هذه، كانت عين تلك التي بشرت بها في « أسقف سافوا ».. وكل ما أقدمت على قوله في « العقد الاجتماعي »، كان قد قيل في « حديث في عدم المساواة ».. وكل ما جاهرت به في « اميل »، ظهر قبل ذلك في « جولى ».. ولكن هذه العبارات المدوية، لم تثر سخطًا ضد الكتابين الأولين129، ومن ثم فما كان من المعقول أن تكون هي التي أثارت سخطًا ضد الكتاب الأخير130.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهناك مشروع كتاب آخر، من نفس النوع تقريبًا، ولكن فكرته واتتنى متأخرة عن أفكار تلك الكتب، وقد شغلت بالي في ذلك الحين.. ذلك هو « مختارات من أعمال الأب دي سان بيير »، الذي لم أملك الحديث عنه من قبل، إذ شغلني عن ذلك سياق السرد. فلقد أوحى إليَّ بالفكرة الراهب دى مابلى - عقب عودتي من جنيف - ولم يعرضها عليَّ مباشرة، وإنما وسَّط في الأمر السيِّدة دوبان، التي كانت مهتمة ـ إلى حد ما - بإقناعي بالاضطلاع بالمشروع!.. فقد كانت إحدى ثلاث أو أربع من حسان باريس، تهافتن على الراهب الشيخ « سان بيير ». وإذا لم تكن قد ظفرت بالإيثار منه، فإنها - على الأقل - قد تقاسمته السيِّدة ديجويون. ولقد احتفظت لذكرى الراهب الطيب باحترام وعطف كانا مصدر فخر لها وله، ومن ثم فإن كبرياءها كانت خليقة بأن تجد ما يرضيها إذ ترى مؤلفات صديقها الميت الحي، تُبعث على يدى سكرتيرها. ومع أن هذه المؤلفات لم تخل من موضوعات بديعة، إلا أنها كانت معروضة بأسوأ تعبير، إلى درجة تجعل من العسير على القارىء أن يحتمل قراءتها. ومما كان يبعث على الدهشة، أن الراهب كان يعتبر قرّاءه مجرَّد « أطفال كبار »، ولكنه - مع ذلك - كان يخاطبهم باعتبارهم رجالًا.. فضلًا عن أنه لم يتجشم أي عناء في حملهم على الانصات إليه.

من أجل هذا عرض عليَّ الاضطلاع بهذه المهمة التي كانت نافعة - في حد ذاتها - كما كانت مناسبة لرجل مجد في النسخ والتعديل، ولكنه كسول في التأليف، ألفي أن المجهود الذي يُبذَل في التفكير مرهق، فكان يؤثر - فيما يوافق هواه - أن ينقح ويحسن أفكار سواه، على أن يبتدع أفكارًا جديدة من لدنه!.. وإلى جانب ذلك، فإنني لم أقصر دوري على مجرَّد التفسير والترجمة، إذ أنني لم أكن ممنوعًا من أن أستغل تفكيرى في بعض الأحيان، وكنت مطلق اليد في أن أصوغ عملى بالشكل الذي يمكّن كثيرًا من الحقائق الهامة من أن تظهر في مسوح الراهب « سان بيير »، دون ما تعرض للخطر الذي قد يحدق بها إذا ما ظهرت في ثيابي أنا. وفضلًا عن كل هذا، فإن المهمة لم تكن باليسيرة.. لم تكن تتطلَّب أقل من القراءة، ثم الاستيعاب والتفكير، ثم اختيار مادة من اثنين وعشرين مجلدًا مهوشة، مضطربة التنسيق، مليئة بالحشر والإطناب والتكرار والآراء الضحلة أو الخاطئة.. وكان لا بد من التنقيب بينها حتى يمكن العثور على طائفة من الآراء الجليلة الدسمة التي كانت تُشجع على احتمال المهمة الوعرة!.. بل أنني كنت موشكًا - في كثير من الأحيان - على أن أنفض يدى منها، لو أنني استطعت أن أنسحب في تصرف كريم.. ولكني عندما تقبلت مخطوطات الراهب - التي أعطانيها ابن أخيـه الكونت دى « سان بيير »، بإيعاز من « سـان لامبير » - أصبحت مرتبطًا بشكلٍ ما، بأن أستعملها.. وأصبح الواجب يقتضيني إما أن أردّها، وإما أن أجعل لها قيمة. وبهذه النية الأخيرة حملتها إلى « ليرميتاج »، فكانت أوَّل عمل اعتزمت أن أكرِّس له وقت فراغى!

ورحت أفكِّر - إذ ذاك أيضًا - في مشروع كتاب ثالث، كنت مدينًا بفكرته إلى بعض ملاحظات أخذتها على نفسي، ومما زاد من شعوري بالرغبة في الإقدام عليه، أنني وجدت من الأسباب ما جعلني أصبو إلى أن أنتج كتابًا ذا نفع حقيقي للجنس البشري، بل كتابًا يكون أنفع ما قُدِّم إلى البشر، إذا ما قُدِّر للتنفيذ أن يطابق الخطة التي رسمتها مطابقة

ناجحة. فلقد لوحظ أن الغالبية من الناس كثيرًا ما يكونون - في سياق حياتهم - على غير ما هم عليه أصلًا، وكأنهم يتحوّلون إلى أناس مختلفين تمام الاختلاف. ولم أكن أبغى بإصدار كتاب في ذلك، أن أقرّ شيئًا معروفًا كل المعرفة، بل كان لديَّ غرض جديد تمام الجدّة، وذو أهمية بالغة.. ذلك هو أن أبحث عن أسباب هـذه التطوّرات والتغيرات - التي تطرأ على الناس في حياتهم - وأن أقتصر على ما يكون منها متوقّفًا علينا نحن أنفسنا، وأن أبين كيف يتسنى أن نتحكم فيها بأنفسنا، لكي نصبح أفضل وأكثر ثقة بأنفسنا واطمئنانًا إليها!.. ذلك لأنه لا جدال في أن الرجل الشريف يعاني في مقاومة الشهوات التي اكتمل تكوينها - والتي ينبغي عليه أن يقاومها - عناءً أشدّ مما لو أنه كبح أو غيَّر أو عدَّل هذه الشهوات ذاتها من منبعها، لو قُدِّر له أن يتعقبها إلى هذا المنبع. فالرجل يقاوم الغواية مرة لأنه قوى، ولكنه - في مرة أخرى - يستسلم لأنه ضعيف.. ولو أنه كان على ما كان عليه من قبل، لما استسلم.

وفيما كنت أفحص نفسي، وأبحث في النفوس الأخرى عمّا يمكن هذا التباين من الحدوث، تبينت أنه إنما يعتمد - إلى حد كبير - على ما تكون أشياء خارجية قد أحدثته - من قبل - من انطباعات داخلية، وأننا في تغيّرنا المستمر - بفعل حواسنا وأجهزتنا البدنية - إنما نكشف، دون أن نفطن عن أثر ذلك التغيّر في أنفسنا، وفي آرائنا، وفى مشاعرنا، وفي أعمـالنا ذاتها!.. وكانت المشاهدات العديدة والمدهشة - التي جمعتها - تعلو على كل طعن.. وقد بدت لي، في أصولها الطبيعية، صالحة لأن تؤلِّف نظامًا خارجيًا للسلوك، يتغيَّر بتغيّر الظروف، ويمكن من وضع العقل أو صونه في حال تكون خير الأحوال ملاءمة للفضيلة!.. فكم من أخطاء يمكن إنقاذ العقل منها، وكم من رذائل يتسنى خنقها في مهدها، إذا تيسرت معرفة التحكم في النظام الحيواني بحيث يتلاءم مع النظام الخلقي الذي كثيرًا ما يتعرَّض للاضطراب!.. إن أحوال الجـو، والفصول، والأصوات، والألوان، والظـلام، والنـور، والعناصر، والمواد، والضجة، والصمت، والحـركة، والسكون.. كل هذه تعمل وتؤثّر على جسمنا وعلى عقلنا بالتوالي، كلها تمدّنا بألف فرصة، تكاد تكون مضمونة، للتحكم ـ منذ البداية ـ في المشاعر التي نتركها تتحكم فينا!

هكذا كانت الفكرة الأصلية، التي كنت قد سطرتها على الورق، والتي توقّعت منها نتيجة عظيمة النفع لذوى المنبت السليم، الذين يتحدّون ضعفهم، في سبيل حبهم الصـادق للفضيلة.. حتى لقد بدا لي أن من الميسور أن أجعل من هذه الفكرة كتابًا مشوّقًا من حيث القـراءة، كما هو من حيث الكتابة!.. ومع ذلك، فإنني لم أحرز سوى تقدُّم ضئيل في هذا المؤلَّف - الذي جعلت له عنوانًا: « المبادىء الخلقية الحسية، أو مادية الحكيم »131 - فقد حالت شواغل، لن تلبث أن تتكشف، دون أن أعكف عليه.. ولن يلبث أن يتضح كذلك، أن هذه كانت خاتمة مشروعي الذي كان أقرب إلى نفسي من كل ما يبدو!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنت ـ إلى جانب كل هذا - قد فكرت منذ زمن، في نظام للتربية كانت السيِّدة دى شينونسو قد رجتني أن أشتغل به، في غمرة إشفاقها على ابنها من النظام الذي وضعه زوجها لتربيته!.. ولقد استوجب سلطان الصداقة أن أنصرف إلى هذا الهدف أكثر من سواه، برغم أنه لم يكن - في حد ذاته - مما يصادف هوى من نفسي. ومن ثم فإن هذا المشروع هو الوحيد - بين كل المشروعات - التي ذكرتها من قبل - الذي أنجزته. ولقد كانت الغاية التي وضعتها نصب عيني - وأنا أعمل فيه ـ جديرة، كما يتراءى لي، بأن تتيح للمؤلف جزاء آخر غير الذي أتاحه. ولكن.. لنتجنب الحديث هنا عن هذا الموضوع المحزن، قبل أن يحين أوانه.. فسوف أضطرّ اضطرارًا إلى الحديث عنه فيما بعد!

ولقد أمدَّتني هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير في نزهاتي اليومية، إذ

أنني - وأعتقد أننى ذكـرت هذا من قبل - لا أستطيع التفكير إلا وأنا أتمشى، فما أن أقف، حتى أكفّ عن التفكير، فليس في وسع عقلى أن يتحرَّك إلا مع قدمي. على أننى اتخذت الحيطة، فوفرت لنفسى عملًا أؤدِّيه داخل البيت في الأيام المطيرة. ذلك هو « قـاموس الموسيقى »، الذي كانت مواده وأصوله مبعثرة، ناقصة، مشتتة بحال تجعل من الضروري إعادة كتابة السفر كله، من أوله إلى آخره تقريبًا. ولقد ابتعت بعض الكتب التي كنت بحاجة إليها من أجل ذلك، وقضيت شهرين في السعى إلى الحصول على كثير من الكتب الأخـرى، التي استعيرت لي من « مكتبة الملك »، والتي أبيح لي أن أصحب بعضها معى إلى « ليرميتاج ». هذه كانت المواد التي تهيىء لى العمل في البيت، عندما لا يسمح الطقس لي بالخروج، أو عندما أسأم النسخ والنقل. ولقد وافقني هذا التدبير إلى درجة أننى واظبت عليه في « ليرميتاج » وفي قصر « مونمورنسى » على السواء، ثم في (موتيير) بعد ذلك، حيث أكملت هـذا المؤلف، بينما كنت ماضيًا في مؤلفات غيره. وقد اعتدت دائمًا أن أجد في تغيير الأعمال مادة للترويح حقًّا!

وتبعت في دقة بالغـة - ولفتـرة من الزمن - النظام الذي ذكرته، فوجدته صالحًا للغاية، ولكن الفصل الجميل (الربيع) لم يلبث أن زاد من تردّد السيِّدة ديبيناي على ضيعة (ايبيناى) أو ضيعة (لاشيفريت)، فوجـدت من الشواغل - التي لم تكن تكبدني من قبل شيئًا، ولكني لم أحسب لها في تدبيرى حسابًا - ما عطل كثيرًا من مشروعاتي الأخرى. فلقد قلت - من قبل - إن للسيِّدة ديبيناى خصالًا بالغة اللطف، إذ كانت تحب أصدقاءها حبًّا خالصًا، وتخدمهم بكثير من الشهامة، ولا تضن عليهم بوقتٍ ولا بمال، ومن ثم فإنها كانت تستحق - عن جدارة - أن تُجازي عن ذلك برعاية خاصة. ولقد كنت - حتى ذلك الحين ـ أؤدّى هذا الواجب، دون أن أفكِّر في أنه واجب، ولكنني لم ألبث أن فهمت - في النهاية - أنني مغلول بسلسلة لم يكن يحول دون شعورى بوطأتها سوى الصداقة وحدها!.. ولقد ضاعفت من هذا العبء بنفوري من المجتمعات الحافلة، إذ تكرّمت السيِّدة ديبيناى فعرضت اقتراحًا بدا ملائمًا بالنسبة لي، وأكثر ملاءمة بالنسبة لها، ذلك هو أن تحيطنى علمًا بالأوقات التي تكون فيها على انفراد، أو على وشـك الانفراد. ولقد وافقت على ذلك، دون أن أفطن إلى ما كنت أقيد به نفسي. وترتب على ذلك أنني لم أعد أؤدّى لها زيارات في الوقت المناسب لي، ولكن في الوقت المناسب لها هي، وأنني لم أطمئن يومًا إلى أن نهارى رهن رغبتى. ولقد أفسد هـذا القيد - إلى حد كبير - ما كانت توفره لي زياراتي لها - فيما مضى ـ من متعة.. وتبينت أن الحرية - التي طالما وعدتني بها - لم تُمنح لي إلّا بشرط ألا أحظى بها إطلاقًا!.. ولقـد رغبت - في مرة أو مرتين - في أن أجـربها، فإذا بكثير من الرسائل، وكثير من المذكرات، وكثير من أمارات الخوف تنهال من السيِّدة ديبيناي معربة عن قلقها على صحتى.. حتى تبينت تمامًا ألا شفيع لي في عدم الإسراع إليها لدى أوَّل بادرة تنم عن رغباتها، إلا بأن ألزم فراشي تمامًا!

وكنت مضطرًا إلى أن أخضع لهذه الربقـة، فانصعت في تساهل يفوق ما كان يُنتظر من عدو لدود لكل ما يحـد من الحرية.. وقد ساعد الوفاء الصادق - الذي كنت أكنّه للسيِّدة - على الحيلولة، إلى حد كبير، دون أن أشعر بالأغلال التي كانت ترتبط بهذا الموقف. ولقد استطاعت السيِّدة ديبيناى أن تملأ بهذه الطريقة الفراغ - الذي خلفه غياب الثلة التي كانت تحيط بها - إلى حد ما. ولقد كانت التسلية التي ظفرت بها من نوع لا يلذ لها كثيرًا، ولكنها كانت أفضل من العزلة التامة، التي لم تكن تطيقها. على أنها أصبحت أقدر على ملء الفراغ بسهولة، عندما شرعت تجرِّب قلمها في الأدب، ودخلت رأسها نزوة كتابة قصص، ورسـائل، وفكاهيات، وحكايات، وما إلى هذه التفاهات، كيفما اتفق لها!.. على أن الكتابة لم تكن أعظم ما لذّ لها بل أن أكثر ما طاب لها هو قراءة ما كانت تكتب.. فإذا هي سوّدت صحيفتين أو ثلاثًا، كان من الضروري لها أن تطمئن إلى وجود اثنين أو ثلاثة ينصتون إلى هذا العمل الضخم ويحبذونه. ونـادرًا ما كنت أحظى بشرف أن أكون واحدًا من هؤلاء الصفوة

المختارة، اللهم إلا إذا شفع لي مستمع آخر!.. ذلك لأنني كنت - وحدى - لا أكاد أساوي شيئًا يُذكر، لا في ندوة السيِّدة ديبيناى فحسب، وإنما في ندوة السيِّد دولباخ، وحيثما كان جريم نجمًا متألقًا.. وكان هذا التجاهل التام لقدرى يلائمنى تمام الملاءمة، اللهم إلا عندما أكون مع السيِّدة وحيدين، إذ أنني لم أكن أعرف أي مسلك أتخذ.. ذلك لأننى لم أكن أجرؤ على الحديث في الأدب - إذ لم أكن أعتبر كفءًا لإبداء الرأي فيه - ولا في آداب السلوك والمجاملة والإيناس، لأنني كنت مفرط الخجل، وكنت أخشى الظهور بمظهر مضحك أمام غانية عجوز، أكثر من خشيتي الموت!.. فضلًا عن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالى إطلاقًا عندما كنت برفقة السيِّدة ديبيناى، ولا كان من الممكن أن تخطر مرة واحدة في حياتي، ولو قُدِّر لي أن أعيش طيلة عمري بصحبتها.. وما كان ذلك لأنني كنت أضمر نفورًا شخصيًّا منها، بل لعلني - على النقيض - كنت أحبها كل الحب كصديقة، وكنت قادرًا على أن أحبها كعشيقة!.. كان يروق لي أن أراها وأن أجاذبها الحديث. ومع أن حديثها كان طليًّا ـ إذا ما كانت في جماعة - إلا أنه كان ممضًا في الجلسات الخاصة.. أما حديثي أنا، فلم يكن لبقًا سيالًا، ولم يكن ذا عون كبير في إيناسها.. وكنت حين أخجل من الصمت فترة طويلة، أرهق نفسي في سبيل بعث الحياة في الجلسة. ومع أن هذا كثيرًا ما كان يتعبني، إلا أنه أبدًا ما ضايقني!.. كنت أبدى لها آيات الغزل عن طيب خاطر، وأمنحها بعض قبلات أخوية صغيرة، لم يكن يلوح لي أنها ذات إثارة حسية لها.. وكان هذا غاية ما في الأمر!.. فلقد كانت مفرطة النحول، شديدة البياض، ذات صـدر مبسـوط كراحتى!.. وكان هذا العيب وحـده، كافيًا لأن يطفي كل حرارة في كياني، فما قُدِّر لقلبي ولا لحسى يومًا أن يريا أية أنوثة في امرأة بلا نهدين.. وقد كانت ثمة أسباب أخرى ـ لا جدوى من ذكرها ـ تجعلني أنسى الناحية الجنسية دائمًا، إذا ما كنت بالقرب من السيِّدة ديبيناي!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما وقد رضت عقلى على قبول تبعية لا غنى عنها، فإنني أسلمت نفسي لها دون ما مقاومة فألفيتها - في العام الأوَّل، على الأقل - أقل عبءًا مما كنت أتوقَع. وكانت من عـادة السيِّدة ديبيناي أن تقضى الصيف بأسره - تقريبًا - في الريف. ولكنها لم تقض هناك، في هذا العام، سوى شطر منه.. إما لأن أعمالها كانت تتطلَّب وجودها في باريس، وإما لأن غياب « جريم » جعل الإقامة في « لاشفريت » أقلّ ملاءمة لها عن ذي قبل. ولقد كنت أستغل الفترات التي لم تكن تقضيها هناك، أو التي كانت تستضيف خلالها كثيرًا من الناس، لأنعم بعزلتي مع تيريزى الطيبة وأمها، على نمط يجعلني أعرف لهذه الفترات قدرها. ومع أننى كنت قد اعتدت - لبضع سنوات - أن أتردد على الريف كثيرًا، إلا أنني لم أكن أستمتع بهـذه الرحلات، إذ أنها كانت دائمًا في صحبة أشخاص محبين للمظاهر، وكانت دائمًا ما تفقد بهجتها بتأثير الشعور بالتقيّد والحرج، وإن كانت قد أذكت في نفسي الميل إلى المتع الريفية.. وكنت كلما لمحت هذه المتع عن كثب، ازددت شعورًا بحرمانى منها. كنت قد سئمت - كل السأم - « صالونات » باريس، ونافورات الماء، والبساتين، وحدائق الزهور. وكان أصحابها أشدّ بعثًا للملل.. كنت ضجرًا من التطريز، والمعزف، وحبك الصوف، والانحناءات، والمجاملات الحمقاء، والعواطف الضحلة، ورواة القصص التافهين، ومآدب العشاء الكبيرة، حتى أصبحت إذا ما لمحت - بنظرة من ركن عيني - شجرة من أشجار الصنوبر، أو عشبًا من الأعشاب الشوكية، أو سياج مزرعة، أو مخزنًا للغلال، أو مرجًا.. وحتى أصبحت إذا ما شممت - وأنا أمرّ بمزرعـة - عبير « العجـة » المتوبلة بالأعشاب الشذية.. وحتى أصبحت إذا ما سمعت عن بُعد أصوات الماعز الرفيعة.. أصبحت أتمنى إزاء هذا كله، أن يذهب كل الطلاء الأحمر، والمساحيق، والعطور، إلى الشيطان!.. وكنت أتحسر على الغداء الذي تعدّه الزوجـة المتفرغة لبيتها في الريف، والنبيذ المحلى.. وكنت أود - من قلبي - أن ألكم السيِّد الطاهي، والسيِّد رئيس السقاة، اللذين كانا يضطراني إلى أن أتناول الغداء في موعد عشائي المعتاد، وأن أتناول العشاء في الساعة التي اعتدت أن أنام فيها..

وكنت أود - فوق كل شيء - أن أصفع السادة خدم الموائد الذين كانوا يلتهمون بأعينهم اللقم التي آكلها، ويبيعوني - إذا لم أشأ أن أموت ظمأ - نبيذ مخدومهم المعتق، بما يفوق عشرة أمثال ما أدفعه من أجله في أرقى حانة!

ولكن.. ها أنذا أخيرًا في داري، في مأوى منعزل مستحب، حر في أن أقضي أيامي في حياة مستقلة، متشابهة، آمنة، كنت أشعر أننى إنما خُلقت لأنعم بها!.. وقبل أن أذكر الأثر الذي أحدثه هذا الوضع - الجديد علىّ - في فؤادي، يروق لى أن ألخص الميول الخفية لهذا القلب، حتى يتسنى الإلمام بجلاء بأسباب هذه التطورات الجديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد اعتدت دائمًا أن أعتبر يوم اتحادي مع تيريز هو التاريخ الذي أصبحت فيه حريصًا على مبادىء الخلق. فلقد كنت بحاجة إلى ود وثيق، مذ انفصم في قسوة ذلك الود الذي كنت مكتفيًا به.. إن الظمأ إلى الهناء لا يمكن أن يرتوي في قلب الإنسان!... ولقد كانت « ماما » تسعى إلى الشيخوخة، وتنحدر إلى الهوان، وكان من الواضح لي أنها لن تسعد ثانية على الأرض، فلم يبق لى سوى أن أبحث عن سعادة لنفسي، ما دمت قد فقدت كل أمل في أن أقاسمها سعادتها!.. رحت أطفو من فكرة إلى فكرة، ومن خطة إلى خطة، بعض الوقت. وكانت رحلتي إلى (البندقية) خليقة بأن تزجّ بي في الشئون العامة، لو أن الرجل الذي قُدِّر لي أن أرتبط به، كان على شيء من الإدراك السليم. وأنا ممن يسهل هبوط عزيمتهم، لا سيما في المشروعات الشاقة البطيئة. لذلك فإن ضعف نجاح هذا العمل (الشئون العامة) نفرني من أمثاله. ولما كنت - وفقًا لمبدئى القديم - أنظر إلى الأهداف البعيدة، على أنها أحابيل للحمقى، فقد وطنت العزم على أن أعيش - بعد ذلك ـ دون أية خطة مرسومة، إذ أنني لم أعد أرى شيئًا في الحياة كان قادرًا على أن يغريني على أن أتعب نفسي!

وفي هذه الفترة بالذات، بدأ تعارفنا، فلاح لي أن لطف شخصية هذه الفتاة الطيبة، يتمشى مع طبيعة شخصيتي، حتى أنني ارتبطت بها بعاطفة لم يقو الزمن ولا الزلات على إيهانها، ولم يؤد أي شيء - كان يحتمل أن يفصمها - إلا إلى توثيقها. ولسوف تتبدّى قوى هذه الرابطة فيما يلى، عندما أكشف عن الجراح والآلام التي خلفتها في قلبي - في أوج تعاستى - دون أن تبدر مني شكوى واحدة، حتى الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور!

وعندما يُعرف أننى - بعد أن فعلت كل شيء، وبعد أن جابهت كل عناء لأتفادى فراقها، وبعد أن عشت معها خمسًا وعشرين سنة برغم سجية البشر - أقدمت في النهاية على الزواج منها في شيخوختى، دون أن يكون لديها أي توقّع أو أى رجاء، ودون أن أرتبط معها بخطوبة أو بوعد.. عندما يُعرف هذا، يسهل على المرء أن يصدِّق أن الحب الجامح، الذي عبث برأسي منذ اليوم الأوَّل، قد قادني تدريجًا إلى آخر حماقاتي.. ولسوف يزداد المرء اقتناعًا بهذا، إذا ما عرف الأسباب الخاصة، والقوية، التي كانت خليقة بأن تمنعنى من أن أقدم على شيء كهذا.. فماذا يظن إذن، إذا أنا أعلنت - بكل ما لا بد أن يكون قد عرفه في خلقي من صدق - أننى منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، حتى يومنا هذا، لم أشعر نحوها بأضأل قبس من الحب، وأنني لم أعد أكثر اشتهاء لمضاجعتها، منى لمضاجعة السيِّدة دى فاران، وأن الرغبات الحسية التي كنت أشبعها لديها، لم تكن - في نظري - سوى استجابة للنوازع الجنسية، دون أن يكون لها أية علاقة بالفرد؟.. لقد يعتقد القارىء أننى إذ أوتيت بنية تختلف عن بنيـة سواى من الرجال، كنت عاجزًا عن أن أشعر بالحب، لا سيما وأنه لم يدخل قط بين المشاعر التي ربطتني بتلكما المرأتين اللتين كانتا أعز النساء لدىَّ. ولكن، صبرًا يا قارئى!.. إن اللحظة المشئومة تقترب، وستجد أنك مخدوع أكثر مما تخال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنني أكرِّر حديثى، وإني لأدرك ذلك، ولكنه أمر لا بد منه. لقد كانت أولى، وأعظم، وأقوى، وأعتى حاجاتي جميعًا، تنحصر بأكملها في فؤادي.. تلك هي الحاجة إلى زمالة أشدّ ما تكون ألفة وقربي وتوثقًا.. ومن أجل هذا الغرض - بوجه خاص - كنت محتاجًا إلى امرأة أكثر منى إلى رجل.. إلى صديقة، أكثر منى إلى صديق. وكانت هذه الحاجة من التفرد بحيث أن أوثق العلاقات الجسدية ما كانت لترضيها.. كنت أتوق إلى روحين في جسد واحد وقد ظللت - بدون ذلك - أشعر بالفراغ دائمًا!

ولقد ظننت أن اللحظة التي لا أعود أشعر فيها بذلك، قد حانت.. فإن هذه الشابة اللطيفة، كانت كفيلة - بفضل ألف من الصفات الرائعة، بل وبفضل مظهرها الشخصي الذي كان خلوًّا من أي افتعال أو إغواء - بأن تستوعب كل كياني في كيانها، لو أنني استطعت أن أستوعب كيانها في كياني، كما كنت آمل!

ولم يكن لديَّ ما أخشاه من ناحية الرجال - فقد كنت موقنًا من أننى الرجل الوحيد الذي أحبته تيريز حبًّا صادقًا - وكانت شهواتها من الفتور بدرجة أنها نادرًا ما كانت تشعر بحاجة إلى رجال غيرى، حتى عندما كففت عن أن أكون رجلها في هذا المجال!.. ولم تكن لي أسرة، في حين أنها كانت ذات أسرة، ولم تكن هذه الأسرة - التي كان أفرادها جميعًا من صنف يخالف في الخلق صنفها - بالتي أستطيع أن أعتبرها كأسرتي.. وكان هذا أوَّل أسباب شقائي!.. ما الذي كنت أتردّد في أن أجود به، لكي أضع نفسي من أمها موضع الابن؟.. لقد حاولت ما وسعتنى الحيلة، دون أن أوفّق إطلاقًا!.. كان من العبث أن أحاول أن أوحد كل مصالحنا، فقد كان هذا مستحيلًا.. إذ كانت الأم لا تنفك تخلق مصالح تختلف عن مصالحي، ثم تضعها في وجه هذه، بل وضد مصالح ابنتها برغم أن الصنفين لم يكونا مختلفين!.. ولقد أصبحت وأولادها الآخرين وأحفادها ديدانًا ظامئة إلى الدماء، وكان أبسط ضرر ألحقوه بتيريز، هو أنهم راحوا يسرقونها. إذ كانت الفتاة المسكينة قد تعوَّدت أن تنصاع - حتى لبنات أخواتها - فتركت نفسها نهبًا ومطية، دون أن تنبس ببنت شفة.. ولقد آلمني أن أرى أنه لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا لمساعدتها، برغم أنني كنت أعتصر مواردى ونصائحي في هذا السبيل!.. ولقد حاولت أن أقصيها عن أمها، ولكنها كانت تعارض هذا دائمًا، فاحترمت معارضتها، وازددت تقديرًا لها، بيد أن هذا لم يحل دون أن يكون رفضها ضارًّا بمصالحها ومصالحي. كانت مطبوعة على الوفاء لأمها وبقية أسرتها، ومن ثم فقد كانت ملكًا لهم أكثر مما كانت ملكًا لي، بل وأكثر مما كانت ملكًا لنفسها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم الجزء الثالث بحمد الله وتوفيقه

ويليه الجزء الرابع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك الانضمام الى الجروب – **Group Link**

لينك القنـــاة – **Link**

فهرس الجزء الثالث..

Notes

[←1]

يقصد ديواني الشاعرين « فيرجيل » و « جان باتيست روسو ».

[←2]

كان نيسياس من أشهر القادة الاغريق الذين برزوا في حروب البلوبونيز، وقد هُزم وهلك في حملة صقلية في سنة 413 قبل الميلاد.

[←3]

كانت البارونة دى بوزنيفال بولندية متزوجة من فرنسي.

[←4]

الخط التقاربي - أو التقريبي - في الهندسة، هو خط مستقيم يطابق المنحنى تطابقًا لا نهائيًا.. أي أنهما يتقاربان دائمًا دون أن يتماسا!

[←5]

يعنى « روسو » أنه كان قد نسى معاشرة الخدم وارتفع فوق مستواهم. ولعلنا نذكر - مما جاء في الجزء الأَوَّل - أنه عمل خادمًا لفترة من الزمن.

[←6]

مينرفا ربّة الذكاء والحرب والفنون لدى الرومان. ويشير « روسو » بهذا التعبير الى أنه لم يشأ أن يدَّعى ما كان بعيدًا عن أن يسعفه فيه ذكاؤه.

[←7]

عقب « روسو » - في هامش مذكراته - على هذا بقوله: « هكذا ظللت أعتقد طويلًا، وعن اقتناع راسخ، حتى أنني عهدت إليه - منذ عودتي الى باريس - باعترافاتي. إذ أن جان جاك الحذر المستريب، لم يؤمن قط بوجود الغدر والخداع، إلا بعد أن وجد نفسه ضحية لهما ».

[←8]

الملتزم العام: هو الموكل بتحصيل الضرائب.

[←9]

.لقب يُطلق على فرسان الطيف المقدس. على أن من المحتمل أن يكون روسو قد استعمله هنا بمعنى: المبرزين من القوم

[←10]

أي أنه كان ثمرة زواج سابق للسيِّد دوبان. ويلاحظ أن « دى » قبل الاسم، معناه أن صاحبه يحمل لقبًا، وهذا يبرِّر عدم حمل « فرانكويى » لاسم دوبان!

[←11]

شينونسو » هو اسم ابن مدام دوبان ».

[←12]

اشتهر بهذا الاسم ثلاثة من الموسيقيين الإيطاليين، كانوا أبًا وابنيه، وقد أقام أصغر الابنين ردحًا في انجلترا، وكان أكثر الثلاثة شهرة.

[←13]

Les Muses Galantes

[←14]

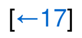
تاس: هو الشاعر الإيطالي توركاتو تاسو، ويُعتبر من أعظم أصحاب ملاحم البطولة. وقد عاش في القرن السادس عشر. ولهذا اختار « روسو » طابع القوة للفصل الذي نسجه حوله. أما « أوفيد »، فكان شاعرًا لاتينيًّا، اقترن اسمه بالحب والهوى، برغم ما قاساه في حياته من شجون ومتاعب، حتى أنه مات منفيًا. أما « أنا كريون »، فكان شاعرًا غنائيًا تفوح أغانيه بتمجيد اللهو والطعام واللذة.

[←15]

كانت الأميرة أجمل نساء عصرها، وقد تصوَّر « روسو » أنه « تاس » الذي تدله في هواها، وثار على مظالم أخيها!



كان بارجاك هو الخادم الخاص للكردينال دى فلوري، الذي كان واسع النفوذ لدى الملك.



.فرسان الكم: طائفة من النبلاء كانوا يجمعون بين التدين والبطولة، وكانوا يتولون رعاية الأمراء الفرنسيين حتى يتموا تعلمهم

[←18]

السيّدة دي بوزنفيل وابنتها.

[←19]

كان « اللوى » إذ ذاك 24 فرنكًا، و « البيستول » 10 فقط.

[←20]

يبدو أنه يقصد قيمة المرتب السنوى.

[←21]

يقصد « روبنسن كروزو ».

[←22]

كان من عادة مجلس شيوخ جمهورية البندقية - في ذلك الحين - أن يتباحث مع سفراء الدول الأجنبية، عن طريق مندوبين يوفدهم إليهم، ومبعوثين يوفدهم السفراء إليه. وقد كان مجلس الشيوخ - في بعض نظم الحكم ـ ذا سلطة تنفيذية. وهكذا كان في البندقية.

[←23]

السيكان عملة تتراوح قيمتها بين 9 و 12 فرنكًا.

[←24]

حكومة جمهورية البندقية.

[←25]

كان السيِّد اميلو وزيرًا للخارجية، وكان البلاط هو مقر مجلسه.

[←26]

حكومة جمهورية البندقية.

[←27]

أضاف روسو الى هذا قوله: « لست واثقًا من أنه لم يكن مسرح « سان صمويل »، فإن الأسماء الصحيحة تغيب عن ذاكرتى تمامًا ».

[←28]

أبناء بلاد الكربات.

[←29]

العشرة ايكو تعادل في قيمتها السيكانات الثلاثة.

[←30]

أي « جان جاك روسو » نفسه.

[←31]

« البايل »: لقب سفير البندقية في القسطنطينية.

[←32]

يقصد الدس في الخفاء، والنميمة وما شابههما من أساليب.

[←33]

إذ أنه خلف الكونت بياتي في منصب الأمين الأوَّل.

[←34]

Maq ...في الأصل الفرنسي

[←35]

qui tenait b… public

[←36]

كان المألوف أن يرافق سكرتير السفارة إذا ما أوفد نائبًا عن السفير، حاجب رفيع الدرجة ومستشار.

[←37]

المستشاران الإيطاليان.

[←38]

لقب كان يُطلق على رئيس الدولة في البندقية.

[←39]

الفورلان اسم يُطلق على أبناء منطقة (فريول)، التي يقع جزء منها ـ الآن ـ في النمسا، وجزء آخر في ايطاليا. وهناك رقصة باسم « فورلان ».

[←40]

أغاني نوتية الجندول.

[←41]

وهي مقطوعات موسيقية غنائية دينية، تنظم من التعاليم اللاتينية الخاصة بالطقوس « Motets » المقطوعات المقصودة الدينية.

[←42]

Gouter « تصبيرة » أو وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء.

[←43]

« الأوبرا » التي كان « روسو » قد ألّفها في باريس.

[←44]

واضح أن « روسو » يسخر من « فيتالي » إذ يصفه بأنه شريف.

[←45]

عبارة إيطالية معناها: « لكي لا أبدو مفرط الغباء ».

[←46]

الغانية، أو المومس.

[←47]

عملة ذهبية كانت قيمتها تتراوح بين 10 و 12 فرنكًا.

[←48]

Investito di confidenza

[←49]

كانت الصبية تقيم مع أمها، ويتكفّل روسو وصديقه بنفقاتها.

[←50]

يقصد خلافه مع السفير ومبارحته البندقية.

[←51]

يقصد مدام دى فاران طبعًا.

[←52]

عقب « روسو » على ذلك بقوله: « ولقد عدلت الآن عن هذا المشروع ».

[←53]

يقصد الصحافة.

[←54]

ذكر روسو في الكراسة الأولى من اعترافاته أن أباه كان يريده على أن يكون محاميًا، ولكنه لم يفلح في فترة التدريب.

[←55]

يستعمل « روسو » لفظ « تركي » كمرادف لمسلم.

[←56]

يريد أن يقول أنه اعتاد أن ينال كل شيء، أو ألّا ينال شيئًا على الاطلاق!

[←57]

النصير المقصود هنا، هو الرجل ذو الجاه والمال، الذي يرعى أديبًا أو فنانًا ويبذل له يد العون.

[←58]

تعبير فرنسي معناه أن يكون الشخص ذا حظوة ومكانة، بحيث يغضب أهل البيت لغضبه ويسرون لسروره. ويقابله في التعبير الدارج عندنا ما يُقال من أن شخصًا هو « الكل في الكل ».

[←59]

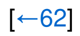
هيسيود: كان شاعرًا اغريقيًا تناول الحياة بالبحث والتحليل، محاولًا أن يضع دستورًا أخلاقيًا يكفل المحبة والسلام. وقد قدَّم « كتابي » - في العدد 55 - سيرته وملخصًا لأعظم رسالاته: « الأيام والأعمال ».

[←60]

Temple de Gloire

[←61]

العبارات التي تُلقى بالغناء دون أن تكون شعرًا موزونًا.


المونولوج: وهو الحديث الفردي الذي يلقيه المرء لنفسه.

[←63]

يقصد الكتاب الذي يشتمل على برنامج الحفلة وموجز التمثيلية. ومما يُذكر أن هذا الكتاب لم يحمل اسم مؤلف الحوار، ولا مؤلف الموسيقى وإنما أورد فقط اسم « لافال » مؤلف « الباليه ». وقد عُرضت التمثيلية في (فرساى) في 22 ديسمبر سنة 1745، أي بعد سبعة أيام فقط من اليوم الذي كتب فيه « فولتير » رسالته. وقد ذكر « روسو » - في الفقرة السابقة - أن « رامو » طلب افتتاحية « عرائس أحلام الشعراء » قبل هذا العرض بخمسة أيام، فكأنه أنجز التعديلات في حوالي يومين!



القسم الذي كانت تُحفظ فيه المناظر المسرحية وثياب التمثيل.

[←65]
قطع غنائية يشترك في أدائها ثلاثة أشخاص.

[←66]
l'Engagement Téméraire

[←67]

لم يلبث القصر أن آل إلى مالك هدم هذا الدرب الذي أذاع روسو شهرته، والذي كان يجتذب زوار فرنسا من الأجانب.



.من المفهوم أنه يعني أن علاقته بتيريز أثمرت جنينًا

[←69]

عقب « روسو » على هذا بقوله: « إلى هذا الأنسيليه أهديت تمثيلية فكهة صغيرة من تأليفي، بعنوان « أسرى الحرب »، وضعتها بعد النكبات التي نزلت بالفرنسيين في بافاريا وبوهيميا، ولم أجرؤ إطلاقًا على أن أعترف بها، أو أن أعرفها. وكان ذلك لسبب واحد، هو أن الملك، وفرنسا، والفرنسيين، لم يحظوا - فيما أحسب - بأفضل ولا أصدق من الاطراء الذي اشتملت عليه هذه التمثيلية. ولما كنت جمهوريًا وناقدًا صريحًا للحكومة، فإنني لم أجسر على أن أعترف بأنني مادح أمة كانت كل مبادئها متعارضة مع مبادئي. وإذ كنت أشدَ أسى لمصائب فرنسا من الفرنسيين أنفسهم، فقد خشيت أن تؤخذ على محمل الملق والجبن، امارات الحب الصادق، الذي ذكرت - في الجزء الأوَّل من اعترافاتي - عهده وسببه، والذي كنت أستحيى من إبدائه! ». (وقد ورد ذكر ذلك في الكراسة الخامسة).

[←70]

يقصد المحامين.

[←71]

لم تعد اعترافات السيِّد دي فرانكويى لروسو سرًا خافيـًا على أحد. فإن المذكرات التي نُشرت باسم ديبيناى تبين لنا أنها أصيبت بعدوى مرض خبيث، من زوجها.. وأنها نقلت هذا المرض الى عشيقها، الذي قُدِّر له أن يموت به!

[←72]

استعمل « روسو » هنا تعبيرًا غير شائع في الفرنسية، لذلك استعملنا في الترجمة « حدَّثتني » بدلًا من « تحدَّثت إليَّ أو معي »!

[←73]

الراهب وديدرو وروسو.

[←74]

Le Persi Fleur

[←75]

ديدرو وداليمبير.

[←76]

الشاعر جان بابتيست روسو.

[←77]

كانت مباراة سنوية يعقدها المحفل العلمي بديجون، لأحسن رسالة تُكتب في الموضوع الذي يطرحه المسابقة.

[←78]

وكان فابريشيوس من حكام الرومان، وقد عُرف بانتهاج البساطة في مبادئه الخلقية، وبالوفاء .Prosopopée de Fabricius.
والنزاهة، والتجرّد من المصلحة الذاتية. واتُخذ اسمه رمزًا للرجل الذي يظلّ سليم الذمة مهما يرتفع في مناصب الحكم.

[←79]

أضاف « روسو » - في رسالة إلى « ماليزيرب » - تفصيلات بديعة لهذه المناسبة، إذ قال: « وشعرت بدوار طاغ يستولى على رأسي، يشبه نشوة السكران وبخفقان عنيف.. فلم أعد أتمالك أنفاسي وأنا أسير، ومن ثم ارتميت على إحدى أشجار الطريق، وقضيت نصف ساعة في هذا الانفعال، فلما أفقت تبينت أن صدر صدارتي كان مخضلًا بالدموع، دون أن أكون قد شعرت بأنني ذرفتها ».

[←80]

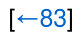
ذكر « روسو » أن هذا اللقب أطلقه أصدقاؤه على « تيريز ».

[←81]

كان قاضيًا في « الشاتيل »، وهو الاسم الذي يُطلق على دار للقضاء في باريس، تضم اثنتين من أقدم Lieutenant Criminel المحاكم، إحداهما مدنية والأخرى جنائية.

[←82]

نصف « السيتييه » يعادل جزءًا على 16 من الجالون.



Papesse.. لم نجد ترجمة لهذه الكلمة أفضل من « الماما »!

[←84]

الآنسة « جوان » هي القابلة أو المولّدة التي كانت تعنى بتيريز عند الوضع، وتتكفّل بإسلام الأطفال إلى ملجأ اللقطاء.

[←85]

سيرد هذه « الأسباب الحاسمة » في الكراسة التاسعة.

[←86]

يقصد « روسو » أن العروس كانت ابنة الكونت دى فرييز من علاقته بالفيكونتة دى روشيشوار، ولكنها تُنسب للفيكونت، ومن ثم فإنها كانت تجهل أباها الحقيقي، الذي قُدِّم إليها كصديق!

[←87]

وردت هذه الواقعة في صفحة 62 من هذا الجزء.

[←88]

أضاف « روسو » إلى هذا قوله: « لست أشك إطلاقًا في أن فرانكويي وخلصاءه يرددون رواية مناقضة لهذه، ولكني أستشهد بما قاله فرانكويى - إذ ذاك - وما ظلّ يردده للملأ وقتًا طويلًا بعد ذلك، إلى أن تكوَّنت المؤامرة. ولابد أن ذوى الادراك السليم والأمم الطيبة، لا يزالون يذكرون قوله ».

[←89]

وهي حفلات لا تُعزف فيها سوى الموسيقى الدينية، كنوع من الرياضة الروحية.

[←90]

السيِّد « جس » إحدى شخصيات مسرحية موليير « طبيب الغرام » وقد استعار « روسو » هذا الاسم ليرمز إلى المتحامل الذي تعميه المصلحة الشخصية عن الحق.

[←91]

الملك ستانيسلاس الأوَّل، ملك بولندا وقد عاش من سنة 1677 إلى سنة 1766، وخلفه « ستانيسلاس » الثاني، آخر ملوك بولندا. وقد عاش بين سنتى 1732 و 1798، والغالب أن « روسو » قصد أولهما.

[←92]

يبدو أن الذاكرة خانت « روسو » هنا، إذ أنه لم يوجِّه إلى « بورد » سوى رد واحد، بشأن مقاله: « في فوائد العلوم ». ولم يرد إطلاقًا على مقال ثان لنفس الكاتب في الموضوع ذاته.

[←93]

بوليشينيل: شخصية وردت في خرافات (نابولي) القديمة، يرتدي صاحبها قيمة ذات قرنين، وقد تضخم جسمه من أمام ومن خلف، وله أنف كمنقار الدجاجة، وصوت أجش حاد ينطلق في خفة (أخنف).. وهو رجل شرس، صاخب، عربيد، مشاكس.

[←94]

الواقع أن التعبير الدارج « دادة » أدق من مربية، في أداء المعنى هنا.

[←95]

ميله إلى كل مَن يبدي له اللطف والإطراء.

[←96]

نجاح رسالته في فوائد العلوم الحديثة.

[←97]

أضاف « روسو » إلى هذا، الاستدراك التالي: « لما كنت قد أغفلت هنا ذكر حادث تافه، ولكنه جدير بالذكر، وقع لي مع « جريم » المذكور ذات صباح، وقد اعتزمنا تناول الغداء عند عين (سان فاندريل)، فإنني لن أعود إلى هذا الحادث. ولكنني حين فكرت فيه - فيما بعد - استنتجت أن جريم كان يبيت النية في قرارة قلبه - منذ ذلك الحين - على المؤامرة التي نفذها فيما بعد بنجاح رائع »!

[←98]

اشتهر باسم « الأب بريفو »، واسمه الأصلي « بريفو ديكسيل ». وهو مؤلف قصة « مانون ليسكو » الخالدة. وقد وُلد في سنة 1697 ومات في سنة 1763.

[←99]

يعسوب: شخصية أسطورية اغريقية، وإن كان هيروديت يقول أنه شخصية حقيقية، وقد عاش في مصر واشتهر بالرحلات والأدب.

[←100]

كوميدية موسيقية عُرضت في « الأوبرا » الباريسية في سنة 1742.

[←101]

أطلق روسو على هذه « الأوبرا » اسم « عرَّاف القرية ».

[←102]

لقب اشتهر به « ريبيل » و « فرانكور » اللذان كانا يتوليان الاخراج الموسيقى، وقيادة الفرقة الموسيقية في « الأوبرا ». وقد سُميا بذلك، لأنهما اعتادا في صباهما أن يطوفا بالبيوت، وهما يعزفان على « الكمان ».

[←103]

عادة كانت متبعة في مواكب النصر لدى الرومان.

[←104]

يقصد الخروج لقضاء حاجة. ولعلنا نذكر أنه كان يتعرَّض لنوبات يكثر فيها من التبول.

[←105]

بطلة أوبرا « عرّاف القرية ».

[←106]

!« ما كنت لأحدس على الإطلاق، أن هذا سيُقال فيما بعد، برغم وجود « القاموس



موسيقى الأوبرا الفرنسية، وموسيقى الأوبرا الايطالية.

[←108]
Eglé , Pysmalion , Lesylphe.



Serva Padrona. وهي إحدى التمثيليات التي كانت الفرقة الإيطالية تعرضها.

[←110]

كورنيليوس تاسيتوس، كاتب ومحام ذاع صيته في التاريخ الروماني وقد عاش فيما بين سنتى 55 و 120 بعد الميلاد وله مؤلفات تاريخية عديدة.

[←111]

كتب روسو هذا الجزء حوالي سنة 1768.

[←112]

«أعلى التياترو» .. أدنى الدرجات في المسرح.

[←113]

علّق « روسو » على هذا، بقوله: « لم يكن لديّ - في الوقت الذي كتبت فيه هذا - أي حدس عن مؤامرة ديدرو وجريم الكبرى، وإلا لكنت قد رأيت بسهولة كيف استغل الأوَّل ثقتي، لكي يخلع على كتاباتي هذا الأسلوب الجاف، وهذا الجو القاتم اللذين لم يستمرا بعد أن توقَّف عن توجيهي.. فالجزء الخاص بالفيلسوف الذي سدّ أذنيه - خلال إحدى نقاط الجدل - حتى يكتسب صلابة دون أنات رجل في محنة، من أسلوب ديدرو. وقد أمدنى بكثيرٍ غير هذا الجزء، ويفوقه شدَّة، حتى أنني لم أقو على حمل نفسي على استعماله. على أننى عزوت تلك الروح القاتمة إلى ما جرى له في « زنزانة » فانسين.. وأن هذه الروح لتبدو مرة أخرى، وبنسبة كبيرة، فى مؤلفه « كليرفال ». بيد أنه لم يخطر ببالي إطلاقًا أن أرتاب في أن هذا كان ينطوي على أدنى « نية خبيثة »!

[←114]

يقصد تيريز.

[←115]

كان « روسو » قد تحوَّل عن الكاثوليكية الى البروتستانتية في صباه.

[←116]

ذكر « روسو » أنه كان يقيم خارج المدينة، فكان ضمه إلى الحرس نوعًا من التكريم له.

[←117]

«السنديك » هنا لقب كان يُطلق على رئيس الهيئة.

[←118]

اقليم « الفالية » في الأراضي السويسرية، في الوادي الأعلى لنهر الرون.

[←119]

امرأة رومانية، قتلت نفسها يأسًا وكمدًا عندما اغتصبها ابن حاكم روما المستبد، فأدَّت مأساتها إلى قيام النظام الجمهوري في روما سنة 510 قبل الميلاد.

[←120]

تاسيتوس كاتب روماني أوردنا سيرته في صفحة 175 من هذا الجزء و « التواريخ » من أشهر مؤلفاته.



مجلس المائتين، الذي كان بمثابة الهيئة النيابية لجمهورية جنيف.

[←122]

الوزير المفوض لجمهورية جنيف في باريس.

[←123]

L'Ermitage أي صومعة الناسك.

[←124]

كانت العادة ـ في ذلك العهد - أن يُترك المبنى خاليًا عقب الفراغ من بنائه، ريثما يجف اللبن والملاط المستخدمان في إنشائه.

[←125]

تيودور ترونشان الطبيب السويسري، الذي وُلد في جنيف سنة 1709، ومات سنة 1781.

[←126]

عقب « روسو » على هذا بقوله: « هذه إحدى الحيل التي تخدعني بها ذاكرتى، فقد علمت لتوى - وبعد كتابة هذا بأمد طويل - خلال حديث مع زوجتي عن أبيها الطيب، أن الذي ساعد على انزاله بالملجأ، لم يكن السيِّد دولباخ، وإنما كان السيِّد دى شينونسو، الذي كان إذ ذاك من أعضاء لجنة « فندق الله ». وقد نسيته تمامًا، وذكرت السيِّد دولباخ في مكانه، إلى درجة أنني كنت على استعداد لأن أقسم أنه الذي قام بالخدمة ».. والفندق الذي يعنيه « روسو » هنا، من أقدم ملاجىء باريس.

[←127]

عقب « روسو » على هذا بقوله: « كانت حكمة ديكلو المتزمتة هي التي أوحت إليَّ بهذا الخوف. أما ديدرو، فلست أدرى كيف كانت اجتماعاتى به تتجه دائمًا إلى جعلى أكثر سخرية وهجوًا وأقذاعًا مما كنت بطبيعتي. وهذا بالذات هو الذي ردّني عن أن أستشيره في مشروع كنت راغبًا في ألا أستخدم فيه سوى قوة المنطق والمحاجة فقط، دون أتفه أثر لتعنت أو تعصب. ومن الممكن الحكم على الأسلوب الذي انتهجته في هذا المؤلّف، على ضوء أسلوبي في « العقد الاجتماعي » الذي أخذته عنه ».. وقد (قدَّم « كتابي » ملخصًا للعقد الاجتماعي في العددين (31) و (32.

[←128]

يقصد كتابه: « حديث في عدم المساواة في الظروف والأحوال ».

[←129]

يقصد كتابيه: « اميل » و « حديث في عدم المساواة ».

[←130]

قصد « العقد الاجتماعي ».

[←131]

La Morale Sensetive, ou le Materialisme du Sage.



كتابي
42
اعترافات
چان چاك روسو
الجزء الرابع
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

سلسلة كتابي

العدد رقم (**42**)

إعترافات چان چاك روسو

الجزء الرابع

إعداد: حلمي مراد



رافات چان چاك روسو

الجـــزء الرابع

الأجزاء السابقة.. في سطور

الكتاب الأوَّل

وُلدت في (جنيف)، في سنة 1712، لأب كان يعمل في صناعة الساعات، ولأم توفيت عند مولدي. وبدلًا من أن يكرهني أبي لذلك، فانه أسرف في حبه لي، لأننى كنت شديد الشبه بأمي.

تنبّه إحساسي قبل أن يتنبه فكري. ثم عمد أبى إلى أسلوب خطر، إذ أشركني في قراءة الروايات والكتب الدسمة.

واضطرّ أبي إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى، كادت تُلقى به إلى السجن دون مبرّر قانونى. فبقيت في كنف خالى « برنار »، الذي كان متزوّجًا من عمتي، والذي أرسلني مع ابنه إلى (بوسي) لنقيم في رعاية القس البروتستانتي « لامبرسييه »، ولنتلقى العلم على يديه ويدَي أخته. وكانت الآنسة « لامبرسييه » تولينى حنان الأم، ولكن عقابها إياي نبّه المشاعر الحسية والشهوانية في كياني!

على أثر عقاب ظالم، لذنب لم أرتكبه، كرهت الظلم، وولت طمأنينة طفولتي. وتركت الدراسة فألحقنى خالى بمكتب موثّق للعقود، على أمل أن أشقّ طريقي في المحاماة - فيما بعد - ولكني لم أستسغ هذا العمل، فرأى خالى أن من مصلحتي أن أتعلّم حرفة. وألحقنى كصبي - أو تلميذ صانع - لدى حفَّار كان ينقش على المعادن. وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبرونني سنًّا، فتعلّمت السرقة، لا سيما وأن معلمى كان يقسو علىَّ بالعقاب والحرمان. ومع ذلك فإنني لم أكن أسرق حبًّا في المال أو الحيازة.. وإلى جانب هذا، اشتدّ شغفي بالقراءة حتى أصبح تهوّسًا.

واضطرّتني قسوة معلمي، ونفوري من حياتي هذه، إلى الهرب من (جنيف).. فانتهى بى المطاف إلى سيِّدة محسنة في (أنيسى)، كان مَلك سردينيا قد خصّها بمعاش، لأنها اعتنقت الكاثوليكية.. تلك هي « مدام دى فاران »، التي أشفقت علىَّ، وأرسلتني إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانية، وأصبحت كاثوليكيًا.

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال، وعانيت الفاقة والمتاعب. ثم انتهيت إلى العودة إلى السيِّدة دى فاران، التي رحبت بى، وأنزلتني من نفسها منزلة الابن، وأفردت لي غرفة في دارها، وراحت تنفق على تعليمي الموسيقى، برغم تضاؤل مواردها.. وتعلّقت بهذه السيِّدة تعلّقًا ملك علىَّ كل حواسى وعقلى.. وبمرور الأيام صرت أدعوها « ماما »!

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم. فقد أوفدتنى « ماما » مرة لأعاون السيِّد « لوميتر »، الذي كان رئيسًا لفرقة الموسيقى بكنيسة (أنيسى)، والذي اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفرّ من وجوههم.. وقد رافقته إلى (ليون). وعندما عدت إلى (أنيسى)، إذا بي أفاجأ بأن ماما قد رحلت في بعض شئونها، ولم أدر لها مقصدًا أو مقرًّا!

وأقمت فترة مع « فينتور »، وهو شاب كنت أعرفه من قبل، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب. وكان لبقًا، أنيقًا، مرحًا، يستهوى النساء.. وفي تلك الأثناء، كان أبي قد تزوَّج من امرأة على شيء من الدهاء والقول المعسول، وشُغل عنى!

انتهى بي المطاف إلى (لوزان)، حيث رحت أتكسب عيشي بتدريس الموسيقى، باذلًا جهدي - في الوقت ذاته - إلى تنمية معرفتي بها. وحاولت إذ ذاك أن أكون ملحنًا، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين، فمني لحني الأوَّل بفشل ذريع، جعلني أعيش في حزن وهوان لفترة

من الوقت.

ولم أكفّ طيلة هذه الأحداث عن الحنين إلى « ماما »، لا لحاجتي المادية فحسب، وإنما لحاجتي القلبية قبل كل شيء!.. ومع ذلك، فإن تعلقي بها - برغم ما كان عليه من تأجج وقوة - لم يكن ليحول بيني وبين أن أحب غيرها. ولكن، على غير شاكلة حبي لها!

وقُدِّر لي أن أذهب إلى باريس، ولكني لم ألق فيها الحظ الذي كانت تصوّره لي أحلامي. على أنني ظفرت هناك بنبأ جعلني أنطلق من جديد بحثًا عن السيِّدة دى « فاران ». وهكذا أخذت أجوب الأقاليم على غير هدى، متعرِّضًا للتشرد، والتضوّر جوعًا، والنوم في الطرقات.. حتى عرفت أخيرًا أن « ماما » الحبيبة قد استقرَّت في (شامبيرى)، فخففت إليها.. وما كان أحلاه من لقاء!

واستطاعت « ماما » أن تحصل لي على منصب في « المساحة »، فبدأت أكسب عيشى بعمل مشرِّف!.. وكانت هذه خير خاتمة لباكورة صباى!

وأقمت في دار « ماما »، في (شامبيرى).. ولكنها لم تكن في بهاء دارها الأخرى في (أنيسى)، إذ كانت موارد « ماما » في تضاؤل، وكانت أمورها مضطربة. وفي هذه الحياة الجديدة، اكتشفت أن « ماما » كانت على علاقة بخادمها الوفى « كلود آنيه ». وكان شابًا لا يكبرني بكثير، ولكنه كان رزينًا وقورًا، غدا منى بمثابة المربى. ومع أنني لم أنج من الألم، إذ أدركت أن ثمة مَن استطاع أن يعيش مع « ماما » في مودة تفوق مودتي كثيرًا، إلا أن وفائي للسيِّدة امتدَّ إلى الشاب، فقد كنت راغبًا في سعادتها هي قبل كل شيء

وانصرفت إلى الموسيقى ـ في تلك الأثناء ـ في استغراق ملك علىَّ حواسي، وحملني على أن أستقيل من عملى في « المساحة »، وأن أستعين على الحياة بتدريس هذا الفن. وقادني هذا إلى المجتمع الراقي، وإلى دور ذوى الجاه والثراء. وبقدر ما تعرّضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط، فإن سذاجتى - التي ذهبت إلى درجة الغباء - كانت تفوت علىَّ الفرص. إلى أن أحست « ماما » بأن إحدى السيِّدات كانت توشك أن توقعني في أحابيلها، فأشفقت علىَّ من مخاطر شبابي، ورأت أن تنقذني منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة في مثل ظروفها.. بأن تمنحنى نفسها!.. وهكذا أخذت « ماما » تروى عطشي إلى النساء من معينها.. على أن العلاقة البدنية لم تفسد شيئًا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية، كما أنها لم تؤثر على علاقة كل منا بخادمها وعشيقها « كلود آنيه »، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض!

وما لبث « آنيه » أن مات - وهو في ريعان شبابه - فحللت محله في تدبير شئون « ماما » وماليتها. ولاحظت أن مواردها كانت في نضوب، فأخذت أعمل جاهدًا على أن أجنبها هاوية الإفلاس. وانتهى بي التفكير إلى وجوب الحصول على عمل، كى أعول من دخله « ماما » إذا ألمت بها الفاقة.. وفي سبيل ذلك رأيت أن أتعلّم التلحين، فكان هذا الاتجاه عاملًا جديدًا على تبديد مواردها المتضائلة!.. وكذلك شرعت في تأليف الأغاني.

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى، ومجالسة الحكام وذوى الجاه، والرحلات.. وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعى، وغلبني الاكتئاب والأسى والتشاؤم، فنصح لى الطبيب بأن أقيم في الريف، وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلًا ذا حديقة وبستان، في ضيعة (شارميت). وهناك، نعمت بأهنأ فترة في حياتي.. مع « ماما »!

ولكنه كان هناء قصير الأجل.. في تلك الأثناء، شعرت بضعف في القلب، وضيق في التنفس، وطنين في الأذنين؛ وتراخ في حيويتي، مما أوحى إلىَّ بأن عمري لن يطول، فرأيت أن أستمع بما تبقّى منه أعظم استمتاع، وأقبلت على دراسة العلوم والآداب، كما أكثرت من

الأسفار، أنشد علاجًا لعللى.

وفي إحدى هذه الأسفار، التقيت بالسيِّدة دي « لارناج » وكانت تكبرنى في السن كثيرًا، ولكنها راحت تعمل على إغوائي، حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردّد يخلقانه من قيود تشـل إقبالي عليها، لم تتورَّع عن أن تكون هي البـادئة بالعناق والتقبيل.. وأصبحت عشيقتي خلال الرحلة! ولو أنني عشت مائة عام، لما استطعت أن أفكّر قط في هذه المرأة الفاتنة دون أن يطغى السرور علىَّ!.. كانت متعتى مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق.. أما مع السيِّدة دى لارنـاج، فقد كنت فخورًا برجولتى، مزهوًّا بسعادتى..

وكانت صدمة لي أن عدت إلى « ماما »، فوجدت أن شابًّا غيري قد حلّ محلى أثناء غيابي.. وكان جاهلًا، مغرورًا، استطاع أن يفرض على « ماما » سلطانه، فلم أستطع أن أطيق بقاء إلى جوارها، وقرَّرت أن أهجر الدار، وأن أرحـل إلى باريس، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلًا من العلامات.

الكتاب الثاني

وصلت إلى باريس في خريف سنة 1741.. واستطاع بعض مَن حملت إليهم خطابات للتوصية، أن يمكنني من التقدّم إلى « الأكاديمية » برسالتي التي قُدِّر لي أن يناقشني فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى، فانتهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتي. وبدلًا من أن أستسلم للقنوط، أسلمت نفسي للخمول وللقدر، ورحت أقتر على نفسي لأفيد بما تبقّى من مواردي المتضائلة.

وأخرجني الأب « كاستيل » من استسلامي للكسل، إذ عرّفني بالبارونة « دى بوزينفال » وابنتها المركيزة « دى بروجلي »، وبالسيِّدة « دوبان ».. وكن يملن إلى الموسيقى.. ولقد أبدت لي السيِّدة « دى بروجلي » عطفًا خاصًا، ونصحتني بتعلّم « الاتيكيت »!.. أما السيِّدة « دوبان »، فكانت فاتنة الشخصية. وقد تعرّفت لديها على السيِّد « فرانكويى »، ابن زوجها. وقد أطمعنى لطفها، فهمت حبًّا بها، وكتبت لها رسالة غرامية، ردّتها إلىَّ مع تأنيب جمد له دمي!.. وارتدّ عقلي إلىَّ - بعد ذلك - فقنعت بصداقتها والتردد على دارها.

وفي تلك الأثناء، وأقبلت على وضع « أوبرا » عن حياة ثلاثة من الشعراء، هم « تاس »، و « أوفيد »، و « أناكريون ».. وقد أسميتها « عرائس الشعر اللطاف ». وقبل أن أفرغ منها، التحقت بالعمل كسكرتير للسيِّد الكونت « دى مونتيجى »، سفير فرنسا في البندقية.. ورحلت إلى هناك.

واستطعت في هذا المنصب أن أبدى مهارة وحكمة، وأن اكتسب محبة الفرنسيين المقيمين في (البندقية)، وإن اكتسبت عداء السفير، إذ كان رجلًا أحمق، جاهلًا، جشعًا، أسلم قياده لمستشارين من الإيطاليين استغلّاه أشنع استغلال، وأوقعا بينه وبين الفرنسيين هناك.. واستطاعا أن يوغرا صدره علىَّ لأننى كنت مخلصًا لعملي، جادًّا في مسلكي، معتزًا بكرامتي. وكان من جراء ذلك أن راح السفير يضايقني ويكثر من مشاكستى، حتى اضطررت - في النهاية - إلى أن أترك العمل في السفارة، برغم أن السيِّد « دى مونتيجى » أبى أن يسوى حسابي، وأن يدفع إلىَّ استحقاقى.

وفي (باريس)، رحت أشكو تصرفات السفير معى لذوى النفوذ، فكان كل امرىء يقرّني على أننى أوذيت وظلمت، ولكن أحدًا لم يحاول أن ينصفني.. على أن الرجل لم يلبث أن جنى على نفسه بتصرفاته الحمقاء، فاستدعى إلى باريس، وأقصى عن منصبه، وأوعز إليه أن يردّ إلىَّ ما كنت أستحق من نقود لديه.. على أن عدالة شكاياتي، وعدم اكتراث أحد بانصافى طيلة تلك الفترة، خلّفت في نفسي بذور السخط على المدنية الحمقاء، التي تضحي نظمها بالمصلحة العامة، والعدالة الحقّة، وتخلع شرعية السلطة العامة على جور الأقوياء واستبدادهم بالضعفاء!

وتفرّغت لاستكمال « الأوبرا » التي كنت قد بدأتها.. وفي تلك الأثناء، تعلقت بفتاة محتشمة ساذجة كانت تعمل في الفندق الذي نزلت فيه، فسرعان ما برح بنا الهوى.. واعترفت لى بزلة وحيدة تعرَّضت لها في فترة مراهقتها، فلم يحل هذا دون أن أزداد حبًّا لها!

واكتملت « أوبراى »، فعرضتها على « رامو » - الذي كان واسع النفوذ في الوسط الفني - ولكنه تحامل عليها، وأذكت تحامله تلميذته - السيِّدة ديلا بوبلينيير - فراح يتهمني بأنني سرقت الألحان.. على أن السيِّد « ريشيليو » شجعني، وسألني أن أغيّر الفصل الأخير من « الأوبرا » ليسعى لعرضها على مشهد من الملك. وما لبث أن شغلني عنها بأن أناط بي تعديل « أوبرا » كانت من تأليف « فولتير » وتلحين « رامو ». وأدّي اشتراكي مع هذين

العظيمين في عمل كهذا، إلى إذكاء روحي المعنوية. غير أن « رامو » استطاع - بالتواطؤ مع السيِّدة ديلابولنيير - أن يحول دون أن يعرف الرأي العام نصيبي في ذلك العمل!

وأدّت كل هذه الظروف إلى تثبيط عزيمتي نحو الرقي، فلم أعد أفكر في أكثر من كسب قوتى وقوت تيريز، بالعمل كسكرتير للسيِّدة دوبان، والسيِّد دي فرانكويى.. وأقبلت في تلك الأثناء على دراسة الكيمياء مع الأخير.

وأنتجت علاقتي بتيريز ثمرة أسلمناها إلى ملجأ اللقطاء.. وكذلك فعلنا بأبنائنا الذين تعاقبوا حتى صاروا خمسة!

وما لبثت أن قرأت صدفة عن الموضوع الذي حدَّده المحفل العلمي بديجون لمباراته في العام التالي، وهو: « هل ساعد تقدّم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها؟ ».. وانتابتني شبه غيبوبة، وأتاني خلالها إلهام أوحى إلىَّ بمقال في الموضوع أرسلته إلى المحفل.

وفي تلك الأثناء كنت قد أسست لنفسى مسكنًا خاصًا، ضممت فيه « تيريز » إلىَّ.. وسرعان ما أقبلت أسرتها تعيش معنا. وبقدر ما سعدت بلحظات هانئة مع فتاتي، فإنني شقيت بأهلها الذين كانوا يستنفدون مواردها ـ من عملها ـ ومواردى.

وقُدِّر لمقالى أن يفوز في العام التالي - 1750 - بجائزة محفل ديجون، فأيقظ ذلك في نفسي حب التحرّر من خدمة الغير، والسعى إلى أن أكون إنسانًا فاضلًا، ذا استقلال ذاتى.

واضمحلت صحتى ـ في هذه الفترة - فأوحي إلىَّ طبيب شهير بأنني لن أبقى في الحياة لأكثر من ستة أشهر. فقرَّرت أن أعيشها حرًّا مستقلًا، ولو اضطرّني هذا إلى حياة الكفاف.. واشتدّ عزمي على أن أتمسك باستقلالي، فاستخدمت كل قواى الروحية في تحطيم أغلال الرأي العام، وفي أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرًا، دون أن أحفل بآراء الناس. فأوغر مسلكي هذا صدور أصدقائي.

وعملت كناسخ للقطع الموسيقية، بعد أن استقلت من خدمة السيِّدة دوبان والسيِّد دي فرانكويى.. وأخذت أنحو نحو التقشف لأصلح من أمر نفسي. وكان مقالي قد أحدث في تلك الأثناء ضجة، فكثرت شواغلى الأدبية، حتى ألهتني عن عملي في نسخ الموسيقى. وأثار المقال انتقادات مريرة، اشترك فيها الملك « ستانيسلاس » البولندي بنفسه، فانصرفت إلى الذود عن آرائي في جرأة خشي علىَّ بعض أصدقائي منها.

وما لبثت أن أدركت أن العيش في فقر وحرية، ليس بالسهولة التي يتصوّرها المرء دائمًا!.. ولقد حاول بعض المعجبين بي أن يعوّضوني عن ذلك بالهدايا، ولكني رحت أرفض جميع الهدايا، دون ما استثناء.. ولم يصادف هذا المسلك هوى من نفس السيِّدة لوفاسير - أم تيريز - ولا أفلح ما اتسمت به ابنتها من تجرّد من النفع الذاتي، في صدّها عن قبول الهدايا من وراء ظهري، ومن إغرائها ابنتها على أن تقبلها هي الأخرى، أو تكتم عنى أمرها، على الأقل!

ومن هنا اشتدَّ الخلاف بيني وبين السيِّدة لوفاسير التي راحت تحرّض ابنتها علىَّ، وتذمني لدى أصدقائي، وتتآمر مع مَن كانوا يحاولون منهم أن ينالوا مني.. ولقد أدّى اندماجي في المجتمع إلى أن أعمل على إذكاء اعتدادى بنفسى، فأحالني الحياء إلى هجاء لاذع، وإلى أن أزدرى آداب اللياقة.. فاضطرّ الساخرون إلى أن يحدّوا من سخريتهم.

وأدّت قصة « عرَّاف القرية » إلى تألقي في المجتمع، فكثر معارفى.. وكانت هذه « الأوبرا » من طراز جديد، وقد استطاعت أن تكسب إعجاب الجمهور، كما حضر الملك وحاشيته

عرضها في البلاط. ولقيت من التكريم ما أثار خجلي حتى أنني عندما دُعيت إلى القصر الملكي، وقيل لي إن من المعتقد أن الملك قد أزمع أن يعلنني بأنه قرّر منحى معاشًا سنويًا، بادرت إلى التهرّب من المناسبة، وتخليت عن المعاش.

وزاد النجاح من تنكر أصدقائي لي، وتألبهم عليَّ.. وفي تلك الأثناء، وضعت رسالتي عن: « حديث في عدم المساواة »، التي أثارت فيما بعد ضجة كبيرة، واجتلبت عليَّ نقمة الحكومات، لا سيما حكومة (جنيف).

وفي ذات يوم، دعتني السيِّدة ديبيناي إلى مرافقتها إلى ضيعتها (لاشيفريت)، حيث كان العمل جاريًا في إضافة جناح إلى القصر.. وهناك، وجدتها قد جدَّدت بناء كوخ صغير كان في طرف المتنزهات الملحقة بالقصر، في متاخمة غابة (مونمورنسى).. وكنت قد أبديت من قبل إعجابي به، لقيامه في موقع منعزل جميل، فعملت السيِّدة على إعداده لسكناي، ودعتني للإقامة فيه. وبالرغم مما أثاره هذا من تخرصات « أصدقائي! »، الذين راحوا يروجون أننى أعيش على كرم السيِّدة ديبيناي فإنني لم أتردّد في هجران باريس، والإقامة في (اليرميتاج) - كما كان ذلك الكوخ يُسمى - مصطحبًا « تيريز » وأمها.

وهناك، تفرّغت للانتاج الأدبي. ومع أنني بدأت أشعر بأن إقامتي على مقربة من السيِّدة ديبيناي، وفي ضيافتها، قد حدَّ بعض الشيء من حريتي، إلا أن هذا لم يحد من إقبالي على الإنتاج.

وفي هذه الفترة بالذات، اشتدّ توثق العلاقات بيني وبين « تيريز »، وازداد فهم كل منا للآخر.. وقد يعجب القاريء لهذه الرابطة التي توّجتها في شيخوختي - وبعد خمس وعشرين سنة من المعاشرة - بالزواج.. قد يعجب القارىء لهذه الرابطة، إذا صارحته بأنني لم أحب يومًا « تيريز » ولا اشتهيتها.. ومع ذلك فإنها كانت « وماما » أعزّ امرأتين لديَّ!.. والواقع أن ما دفعني إلى التعلُّق بتيريز - من البداية ـ هو أنني كنت أتوق إلى زميلة أندمج معها روحًا وقلبًا.. وكان لطفها وسذاجتها وأخلاقها كفيلة بأن توحي إليَّ بأنها خير مَن تصلح لذلك. ولكن ولاءها لأمها وأسرتها، وجشع هؤلاء، كانا يفسدان علينا هناءنا!.. وكانا يجعلان تيريز ملكًا لأهلها، أكثر مما كانت ملكًا لي، أو ملكًا لنفسها!

والآن.. تعال نعيش مع « روسو » في العالم الذي كان يعيش فيـه منذ قرنين كاملين:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يكن جشعهم مؤدّيًا إلى إفلاسها، بقدر ما كان نصحهم مؤذيًا لها!.. وقصارى القول أنها إذا ما لم تكن جارية لهم بمعنى الكلمة ـ والفضل في ذلك لحبها لي ولنفسها المفطورة على الطيبة - فإنها كانت من الخضوع لهم بدرجة تمنع، إلى حد كبير، أثر المبادىء الطيبة التي سعيت إلى أن أبثّها فيها.

هذا هو السر في أن فراغ قلبي لم يلق في علاقة خالصة متبادلة كهذه - أودعتها كل ما في هذا من عاطفة ـ ما يملؤه تمامًا. وكان الأطفال كفيلين بملء هذا الخواء.. وقد رُزقنا بهم، ولكن إنجابهم زاد الأمر سوءًا. فلقد كنت أرتجف لمجرَّد التفكير في إسلامهم إلى هذه الأسرة السيئة النشأة، لتكفل لهم نشأة أسوأ!.. كان ما لتربيـة اللقطاء - في الملجأ - من احتمالات سيئة، أهون من ذلك بكثير!.. وهذا التبرير للقرار الذي اتخذته، كان الوحيد الذي لم أجرؤ على ذكره للسيِّدة دي فرانكويى، برغم أنه أقوى بكثير من تلك التي سقتها في خطابي إليها. فقد آثرت أن أبقى في غير منجاة من لوم ثقيل الوطأة، لكي أعول أسرة امرأة كنت أحبها. ولكن من الممكن - على ضوء أخلاق أخيها التعس، إن لم نقل على أضواء أخرى - الحكم بما إذا كان من واجبي، إذ ذاك أن أعرّض أبنائي لأن يتلقّوا تربية كتربيته!

وإذا لم أستطع أن أستمتع تمام الاستمتاع بهذه الصحبة الوثيقة التي كنت أشعر بحاجة إليها، فقد سعيت إلى معززات وإن لم تملأ فراغ قلبي، إلا أنها جعلتني أقلّ شعورًا به. وإذ كنت أفتقد صديقًا يؤثرني بكل ودّه ونفسه، فقد وجدتني بحاجة إلى أصدقاء أوتوا من التحريض والتحفيز ما يطغى على تراخي وكسلى. ومن ثم فقد رحت أنمى وأعزّز علاقاتى بديدرو والراهب دي كونديلاك، وأقبلت على علاقات جديدة ولكنها أكثر توثقًا بجريم.. وما لبثت أن وجدتني في النهاية - بفضل تلك « الرسالة » التعسة، التي رويت قصتها من قبل - مرتميًا، دون ما تفكير، بين أحضان الأب، الذي كنت أظنني قد هجرته إلى الأبد!

ولقد أفضى بى ارتيادي الأوَّل للأدب - خلال طريق جديدة - إلى عالم فكرى آخر، لم أكن أملك أن أتأمل بساطته وإيجازه السامى، دون ما تحمس!.. وسرعان ما أصبحت بفضل انهماكي لا أرى في معارف فلاسفتنا سوى خطأ وحماقة، ولا أرى في نظامنا الاجتماعي سوى ظلم وتعاسة. وفي انسياقي لضلال الغرور الأرعن، خُيّل إلىَّ أنني إنما خُلقت لكي أبدد جميع هذه الأباطيل.. وإذ رأيت أنه لابد لي من أن أجعل تصرّفي يتمشى مع مبادئي - إذا شئت أن يكون رأيي مسموعًا - فإننى انتهجت المسلك الأوحد الذي لم يتح لي أن أستمر فيه، والذي لم يغتفر لي أصدقائي المزعومون أن جعلت نفسى مثالًا وقدوة فيه، والذي جعلني - في البداية - أضحوكة، وكان خليقًا بأن يجعلني - في النهاية - موضع الاحترام، لو أنه تسنى لي أن أثابر عليه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد كنت حتى ذلك الحين طيبًا، فأصبحت من تلك اللحظة فاضلًا، أو نشوان بالفضيلة، على الأقل!.. وقد بدأت هذه النشوة في رأسي، ولكنها سرت إلى قلبي. وعلى أطلال الغرور المقوّض، نبتت أنبل كبرياء.. ولم أكن متظاهرًا بشيء، بل إنني غدوت كما كنت أبدو حقًا. وفي خلال السنوات الأربع - على الأقل - التي دامها هذا الفوران في أقصى قوته، لم أعجز عن أن أعتنق، بيني وبين السماء، كل جليل وجميل يمكن أن ينتاب قلب بشر. ومن هنا نبعت بلاغتى المفاجئة.. ومن هنا تولّد ذلك اللهب السماوي الصادق الذي ألهبني وانتشر في كتبي الأولى، والذي لم يكن - أبان أربعين عامًا - قد فقد شرارة واحدة. لأنه لم يكن قد استعر بعد خلالها!

ولقد تغيرت تغيرًا حقيقيًا، حتى أن أصدقائي ومعارفي لم يعودوا يعرفونني. لم أعد ذلك الرجل الخجول، الذي كان حييًا أكثر منه متواضعًا، والذي لم يكن يجرؤ على أن يُظهر نفسه، ولا على أن يتكلّم، والذي كانت الكلمة الماجنة تربكه، والنظرة الصادرة من أية امرأة تبعث حمرة الخجل في وجهه!.. وفي جرأة، وفخر، وإقدام، رحت أحمل في كل مكان اعتدادًا كان وطيدًا بقدر ما كان بسيطًا، وكان مقرّه في أعماقي، وليس في مظهري... وكان من جراء الازدراء التي ألهمتنيه تأملاتى العميقة - نحو أخلاق ومبادىء وأوهام عصري - أن أصبحت أبعد من أن أتأثّر بسخريات أصحاب تلك الأخلاق والمبادىء.. فكنت أسحق ملحهم ونكاتهم الصغير بحكمي وأمثالي، كما أسحق حشرة بين أصابعي. فيا له من انقلاب!.. لقد راحت باريس بأسرها تُردّد السخريات الوخَّازة اللاذعة التي أخذت تنبعث من رجل لم يكن قبل عامين ـ ولا بعد عشرة أعوام ـ يعرف كيف يهتدى إلى ما ينبغي عليه أن يقوله، ولا الكلمة التي يجدر به أن يستعملها!.. إن أي فرد يسعى إلى العثور على أشدّ الحالات مناقضة لطبيعتي، لن يعثر إلا على حالي هذه.. وإذا هو رغب في أن يذكر فترة واحدة من الفترات القصار التي تخللت حياتي وكنت فيها على غير ما أنا بفطرتى، فلن يعثر على بغيته إلا في هذا الزمن الذي أتحدَّث عنه.. ولكنها فترة لم تدم ستة أيام، أو ستة أسابيع، وإنما دامت ست سنوات، ولعلها كانت قمينة بأن تدوم حتى الآن، لولا الظروف الخاصة التي أدَّت إلى انتهائها، والتي ردّتني إلى فطرتي التي حاولت أن أنتشل نفسي منها!

وبدأ هذا التغيّر بمجرَّد أن بارحت باريس، ولم تعد مناظر الرذائل، في هذه المدينة الكبيرة، تغذى الاستنكار الذي كانت تبعثه في نفسي. ذلك أنني إذ أصبحت لا أرى الناس، كففت عن ازدرائهم.. وإذ لم أعد أرى أهل الخبث، كففت عن بغضهم. فإن قلبي المفطور على العزوف عن الكراهية، لم يعد يملك سوى الرثاء لتعسهم، إذ أنه لم يكن قادرًا على أن يتبين فيه مكرهم. وسرعان ما أخمد هذا الاتجاه ـ الأكثر لطفًا، ولكنه أقلّ سموًا من اتجاهي السابق - حدَّة الاندفاع الذي ظلّ يجتاحني طويلًا.. وعدت - دون أن يفطن أحد، بل ودون أن أفطن أنا نفسى تقريبًا - خجولًا، مجاملًا، هيَّابًا.. عدت - بإيجاز - جان جاك الذي كنته من قبل، تمامًا!

ولو أن الانقلاب لم يؤد إلَّا إلى ردّى إلى حالى الطبيعية، فلم يتجاوز ذلك، لكان الأمر خيرًا.. ولكنه - لسوء الحظ - ذهب إلى أبعد من ذلك، وحملني مسرعًا إلى النقيض. ومنذ ذلك الحين، لم تعد نفسي - في اضطرابها - تستقرّ في نطاق الطمأنينة، ولأمكنها التذبذب المتجدد باستمراره من أن ترين هناك وتبقى. فلنخض دقائق هذا الانقلاب الثاني.. فقد كانت فترة رهيبة، مشئومة، في مصير لا مثيل له بين البشر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لما كنا مجرَّد ثلاثة أفراد في مأوانا المنعزل[1]، فقد كان من الطبيعي أن يؤدّي الفراغ والوحدة إلى توثيق تآلفنا. وهذا ما حدث بيني وبين « تيريز »، فرحنا نقضى - تحت الأشجار الوارفة الظلال - ساعات عذبة، ننعم خلالهـا بعزلة لم أتذوّق من قبل مثل حلاوتها!



صى ـ تحت الأشجار الوارفة الظلال ـ ساعات عذبة ، تنعم خلالها
بعزلة لم اتذوق من قبل مثل حلاوتها

ولاح لي أن « تيريز » هي الأخرى كانت أكثر استمتاعًا بخلواتنا منها في أي وقت مضى، ففتحت لي قلبها دون ما تحفّظ، وأطلعتني على أمور - عن أمها وأسرتها - أوتيت المقدرة على أن تكتمها عنى زمنًا طويلًا. فقد اعتادت وأمها أن يتلقيا من السيِّدة « دوبان » هدايا كثيرة، كنت أنا المقصود بها، ولكن العجوز الماكرة آثرت بها نفسها وأبناءها الآخرين - لتفادي غضبى - دون أن تدع شيئًا لتيريز، ومع تحذيرها، أشدّ تحذير، من أن تقول لي شيئًا عنها.. وهو أمر كانت الفتاة المسكينة تنفذه في طاعة تفوق التصور!

ومما أدهشني أكثر من أي شيء آخر، أن تبينت أنه إلى جانب الأحاديث المتكتمة - التي أكثر « ديدرو » و « جريم » من عقدها مع الأم وابنتها ليصرفاهما عني، والتي لم تفلح بفضل مقاومة تيريز - فإن الاثنين راحا يعقدان كثيرًا من الاجتماعات السرية مع الأم، دون أن تدرى الابنة شيئًا مما كان يدبّر بينهم.. كان كل ما علمته هو أن الهدايا الصغيرة كانت تلعب دورًا في الموضوع، وأنه كانت ثمة جيئات وروحات، كانوا يحاولون التستر عليها، وكانت هي تجهل الباعث عليها جهلًا تامًّا!.. وعندما رحلنا عن (باريس)، كان قد انقضى وقت طويل، اعتادت خلاله السيِّدة لوفاسير زيارة « جريم » مرتين أو ثلاثًا في الشهر، حيث كانت تقضى بضع ساعات في أحاديث كان الحرص على تكتمها يدعو إلى إقصاء خادم « جريم » عن المسكن في كل مرة!

وقدَّرت أن الباعث لم يكن سوى ذلك المشروع الذي حاول ديدرو وجريم أن يستدرجا الابنة إليه، حين وعدا بأن يحصلا لها ولأمها - بمعونة السيِّدة ديبيناي - على تصريح بالاتجار بالملح، أو حانوت لبيع التبغ.. وبإيجاز لوّحا لهما بفرص الكسب. ولقد أوحيا إلى هاتين المرأتين بأنني لم أكن في وضع يمكنني من أن أفعل من أجلهما شيئًا، بل ولم أكن أملك - بسببهما - أن أفعل شيئًا لنفسي. ولما كنت لم أر في كل هذا سوى نوايا حسنة، فإنني لم أحمل لأحد ضغينة، على الإطلاق. ولم يثرني سوى الغموض، لا سيما من جانب العجوز التي راحت ـ فوق كل هذا - تزداد رياءً ودهاءً نحوى، يومًا بعد يوم، دون أن يمنعها ذلك من أن تلوم ابنتها باستمرار - وفي الخفاء - على أنها كانت مسرفة في حبها إياى، وأنها كانت تصارحني بكل شيء، وأنها لم تكن سوى غبية لن تلبث أن تتبين أنها كانت ضحية غفلتها!

لقد أوتيت هذه المرأة أعلى درجات البراعة في اصطياد عصفورين بحجر واحد، وفي أن تخفى عن أحد المتواطئين معها ما تلقّته من الآخر، وأن تخفى عنى أنا ما تسلمته من الجميع!.. وكان بوسعي أن أغفر لها جشعها، ولكني لا أستطيع أن أغفر لها رياءها. أي شيء كان يجوز لها إخفاؤة عنى.. عنى أنا، الذي كانت تدرك تمامًا أن سعادته تكاد تعتمد كل الاعتماد على سعادة ابنتها وسعادتها هي؟.. إن ما بذلته لابنتها، إنما كنت أبذله لنفسي.. أما ما فعلته من أجلها هي، فقد كان جديرًا بالعرفان منها.. كان حريًّا بها أن تعترف بالفضل لابنتها، على الأقل، وأن تحبني إكرامًا لحبها لابنتها التي كانت تحبني!.. لقد انتشلتها من البؤس الكامل وكانت تستمد قوتها مني، وكانت مدينة لي بكل أولئك المعارف الذين عرفت كل المعرفة كيف تفيد منهم!.. ولقد ظلّت « تيريز » وقتًا طويلًا تعولها بما كانت تكسبه من عملها، وأصبحت تغذيها من خبزى!.. كانت مدينة بكل هذا لابنتها، دون أن تفعل لهذه الابنة شيئًا!.. وكانت بناتها الأخريات - اللائي منحتهن تيريز مهورًا (دوطات) استنفدت كل ما لها - أبعد من أن يساعدنها، بل إنهن رحن يلتهمن مواردها و مواردى.. وتبينت أنه كان حريًّا بالسيِّدة « لوفاسير » - في مثل هذا الموقف ـ أن تتطلّع إليَّ كصديقها الأوحد، وأن تمتن لمن يزود عنها ويكفلها، وبدلًا من أن تكتم عنى الأمور التي كانت من ذات شئوني، وبدلًا من أن تتآمر ضدي في عقر دارى، كان عليها أن تطلعني في إخلاص على كل ما كان خليقًا بأن يهمني، إذا ما علمت به قبلى. فبأية عين كان بوسعي - إذن - أن أرى مسلكها الغادر، الغامض؟.. وما الذي كان ينبغي أن أظنه - فوق كل شيء - عن المشاعر التي تذرعت بها

لدى ابنتها؟.. أي حجود هائل كان حجودها، عندما سعت إلى أن توسوس إليها؟

كل هذه الخواطر ألبت فؤادي - في النهاية - ضد هذه المرأة، حتى أنني لم أعد أنظر إليها دون احتقار.. على أننى لم أكفّ قط عن أن أعامل أم شريكة حياتي باحترام، وأن أبدى لها - في كل شيء - ما يبديه الابن من اعتبار وتقدير.. بيد أنني لم أكن ـ في الحق ـ لأحب أن أمكث معها وقتًا طويلًا، ولم يكن بوسعي أن أغصب نفسي على ما لا تحب!

وهنا أيضًا كانت إحدى تلك اللحظات القصيرة التي مرَّت بحياتي، والتي رأيت فيها السعادة جد دانية، دون أن أقوى على نيلها، ودون أن يكون لي ذنب في فواتها!.. ولو أن هذه المرأة كانت طيبة الشخصية، لظلّ ثلاثتنا سعداء حتى نهاية أعمارنا.. ولكان آخر مَن يبقى منا على قيد الحياة وحيدًا، جديرًا بالرثاء. ولكنكم سترون - بدلًا من ذلك - تطوّر الأمور، وستحكمون بأنفسكم: أكان بوسعي أن أغيّر حال هذه المرأة؟

ذلك أن السيِّدة لوفاسير - حين رأت أنني وطدت مكانتي في فؤاد ابنتها، وأنها فقدت الفتاة - راحت تناضل لاستعادتها، وبدلًا من أن تتقرَّب مني عن طريقها، أخذت تسعى إلى إيغار صدرى عليها. وكان من الوسائل التي استخدمتها، أن استدعت أسرتها إلى معاونتها. وكنت قد رجوت تيريز بألّا تستقدم أحدًا إلى (ليرميتاج)، فوعدتني بذلك.. غير أنهم كانوا يُستدعون في غيابى، ودون استشارتي، وكانت تيريز تُحمل على أن تعد بألّا تقول لي شيئًا. وما أن تمت الخطوة الأولى، حتى غدا كل شيء سهلًا، فإن المرء إذا أخفى - مرة - عمن يحب أمرًا، فإنه لا يلبث أن يكتم عنه كل شيء، دون تورع. فما كنت أذهب إلى (لاشيفريت)[2]، حتى كان (ليرميتاج) يزخر بأناس يقبلون على الاستمتاع بالمقام هناك في استمراء. والأم دائمًا ما تكون قوية السلطان على الابنة التي فُطرت على الطيبة.. ومع ذلك فإن العجوز لم تستطع - برغم كل جهودها - أن تغرى تيريز على أن تأخذ بآرائها، أو أن تستدرجها إلى التآمر ضدي، أما عن نفسها، فإنها كانت قد وطنت عزمها - دون انتكاس - على وضع خاص: فكانت تنظر - من ناحية ـ إلى ابنتها وإليَّ أنا، كشخصين تستطيع أن تقيم في دارهما فحسب.. وكانت تنظر - من ناحية أخرى - إلى ديدرو، وجريم، ودلباخ، والسيِّدة دييبناى، كأشخاص يعدون بأمور كثيرة، ويمنحون بعض أشياء.. وما خطر لها قط أنها كانت تخطىء إذ تسير في ركاب زوجة ناظر عام للزراعة، وبارون. ولو أنني كنت دقيق النظر، لرأيت - منذ ذاك الحين - أني إنما كنت أغذي أفعى في أحضاني. بيد أن ثقتي العمياء، التي لم يغيرها شيىء حتى الآن، كانت لا تدع لي سبيلًا إلى أن أحدس أن هناك مَن يبغى الشر بمن هو جدير منه بالحب!.. وفي الوقت الذي كنت أرى فيه ألف دسيسة تحيط بي، لم أكن أملك أن أشكو إلا من جور أولئك الذين كنت أدعوهم أصدقاء لي، والذين كانوا يسعون إلى أن يجعلوني - بالرغم منى - سعيدًا على نسقهم، لا على النسق الذي كان يحلو لي!

ومع أن تيريز أبت أن تنحاز إلى أمها في تآمرها، إلا أنها أبقت على سرّها، وكان باعثها على ذلك خليقًا بالتقدير، ولن أقطع بما إذا كانت قد أحسنت أو أنها أساءت!.. وعندما يكون بين امرأتين سر، فإنهما تشغفان بالثرثرة معًا. وقد قرَّب هذا بين تيريز وأمها. وأصبح مسلك تيريز - إذ وزعت ولاءها - يشعرني، في بعض الأحيان، بالوحدة، لأنني لم أعد أعتبر ما كان بيننا نحن الثلاثة صحبة ومعاشرة. وفي تلك الفترة، اشتدّ شعوري بالخطأ الذي ارتكبته، في بداية رابطتنا، إذ أنني لم أستغل اللين الذي كان حبها يوحي به إليها، لكى أزينها بمواهب ومعرفة كانت كفيلة بأن تقرّب بيننا في معتكفنا، وبأن تملأ وقتها ووقتى على خير وجه، دون أن تدعنا نشعر قط بفوات الوقت في عزلتنا. وليس معنى هذا أن الحديث بيننا كان مجديًا، ولا أنها أبدت أية بادرة تمت عن ملل خلال نزهاتنا، وإنما معناه أنه لم يكن لدينا عدد من الأراء المشتركة يكفي لكي يكون موردًا مدخرًا.. ولم يكن بوسعنا أن نتكلم بلا انقطاع عن مشروعاتنا، التي اقتصرت - منذ ذلك الحين - على لهونا. وكانت الأشياء

المحيطة بنا توحي إلينا بخواطر كانت فوق إدراك تيريز.

ولم تكن علاقة كعلاقتنا - دامت اثنتي عشرة سنة - بحاجة إلى كلام، إذ أصبح كل منا يعرف الآخر إلى درجة لم يعد يجد معها سبيلًا إلى مزيد. ومن ثم فإن المورد الوحيد الذي تبقّى للحديث بيننـا، تمثّل في الثرثرة غير المجدية، والفضائح. والنكات الركيكة!.. ولا يشعر المرء بقيمة العيش مع شخص يعرف كيف يفكّر، قدر ما يشعر في العزلة، بوجه خاص. أما انا، فلم أكن بحاجة إلى هذه الميزة كي أهنأ بصحبة تيريز. بيد أن تيريز كانت بحاجة إليها كي تجد دائمًا ما يسرّها في صحبتي. وكان أسوأ ما في الأمر، أننا كنا مضطرين إلى أن نعقد لقاءاتنا الخاصة في الخفاء، إذ أن أمها أصبحت تضايقني وتضطرني إلى أن أتحين الفرص لتلك الخلوات.. كنت مقيد الحرية في دارى، بأوجز تعبير، وكان جو الحب يفسد جو الصداقة. ومن ثم فإننا كنا نمارس علاقة بدنية، دون أن نعيش في محبة قلبية!

وما أن خُيّل لي أنني لاحظت على « تيريز » أنها كانت تتعلل أحيانًا للتهرّب من النزهات التي كنت أعرض عليها أن تشاركنيها على الأقدام، حتى كففت عن أن أقترحها عليها، دون أن أطلعها على أي استياء من أنها لم تكن تلقى فيها من المسرة ما كنت ألقي. ذلك لأن السرور شيء لا يتوقّف على الإرادة. ولقد كنت واثقًا من ولاء قلبها، فكان في هذا الكفاية لي.. وطالما كانت مسراتي هي عين مسراتها، فإنني كنت أقبل على الاستمتاع بها معها.. أما حين لا يكون الأمر كذلك، كنت أوثر رضاها على رضائى!

وهكذا قُدِّر لي، وأنا نصف مخدوع بآمالي، وقد رحت أمارس حياة تتفق ومزاجي، في بقعة منعزلة اخترتها لنفسي، ومع شخص كنت أعزّه.. وهكذا قُدِّر لي أن أشعر - برغم كل هذا - بأنني وحيد!.. كان ما ينقصني يحول دون تذوقى لما أوتيت، فقد اعتدت - فيما يتعلّق بالسعادة والسرور - أن أنال كل شيء، أو لا أنال شيئًا على الإطلاق!.. ولسوف يتجلّى - فيما بعد - السر في أن هذا الإيضاح بدا لي لازمًا. أما الآن. فإنني أمضى في رواية قصتي:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أؤمن بأنني أمتلك كنزًا حقيقيًا، تمثّل في المخطوطات التي دفع بها إليَّ الكونت دى « سان - بيير ». فلما فحصتها، تبينت أنها لم تكن أكثر من مجموعة من مؤلفات عمـه، التي نُشرت من قبل، وقد نُقحت وصححت بيده، وأضيفت إليها بضع قطع صغيرة أخرى لم تر الضوء من قبل. ومما كتبه في الموضوعات الخلقية، تأكّدت لي فكرة، كانت قد أوحت لي بها بعض رسائل منه أطلعتني عليها السيِّدة « دي كريكي »، ومؤدّاها أنه أوتى من العقل فوق ما كنت أتصوَّر. بيد أننى حين تعمقت في فحص مؤلفاته السياسية، وجـدت أنها لم تكشف لي إلا عن آراء سطحية، ومشروعات نافعة ولكنها ليست عملية بفضل الرأي الذي لم يقدَّر للمؤلف أن يتخلص منه.. الرأي القائل بأن البشر يهتدون في أعمالهم بمعارفهم وليس بعواطفهم!.. كانت الفكرة العظيمة التي داخلته بصدد ألوان المعرفة الحديثة، جعلته يعتنق هـذا المبـدأ الزائف، عن إمكان وصول العقل إلى درجة الكمال.. المبدأ الذي قامت عليه كل النظريات التي اقترحها، والمنبع الذي فاضت منه كل سفسطاته السياسية. إن هذا الرجل الفذ، الذي كان مفخرة عصره وجنسه، قد يكون الأوحد - منذ وجود العنصر البشري - الذي لم يشغف في حياته بغير العقل. ولكنه - مع ذلك ـ كان يتخبط من خطأ إلى آخر في آرائـه ونظرياته، رغبة منه في أن يجعل كل الناس على نسقه، بدلًا من أن يأخذهـم على علاتهم، وعلى ما هم عليـه، وما سيظلون عليه!.. ومن ثم فهو لم يكن يشقى إلا من أجل كائنات وهمية، وهو يخال أنه إنما يعمل من أجل معاصريه!

وإذ تبينت كل هذا، ألفيتني في حيرة من أمر القالب الذي أصوغ فيه عملي. فلو أننى أبقيت على آراء المؤلف، لما أدّيت شيئًا نافعًا.. ولو أننى عدّلتها كما كان ينبغي، لجاء عملى منافيًا للأمانة، إذ أن تسلمي المخطوطات كان إلزامًا لي بأن أكون أمينًا إزاء مؤلفها.

وانتهيت أخيرًا إلى الرأي الذي بدا لي أكثر ملاءمة ولياقة، وأعظم حكمة ونفعًا.. وذلك بان أعرض آراء المؤلف وآرائى، كلًا على حدة، وبذلك أعرض نظرياته، وأوضحها، وأوسع نطاقها، دون أن أضن بشيء لكي تنال حظها من التقدير!

ومن ثم فقد كان لابد لعملي من أن يتألف من جزءين منفصلين تمام الانفصال.. أحدهما يُخصص لشرح مختلف غايات المؤلف، على النسق الذي ذكرته.. أما الثاني ـ الذي لم يكن ليظهر إلا بعد أن يُحدث الأوَّل مفعوله - فكان عليَّ أن أعرض فيه حكمي على تلك الغايات ذاتها.. مما كان خليقًا بأن يبينها، في بعض الأوقات، كقصيدة من نظم شخص مبغض للبشرية!.. وكان لابد من أن يتوّج هذا الكتاب كله بإيراد حياة المؤلف، وكنت قد جمعت لذلك كمية لا بأس بها من المواد، التي رحت أزين لنفسي أنني لن أشوهها إذ أستخدمها. وكنت قد التقيت بالأب « دي سان - بيير » مرتين أو ثلاثًا - في شيخوخته - فكان التبجيل الذي أكنّه لذكراه ضمانًا يطمئنني إلى أن السيِّد الكونت لن يستاء من الطريقة التي عاملت بها قريبه، في مجموعها!

وأجريت محاولتي الأولى على « السلام الدائم »، وهم الأبحاث التي تضمنتها المجموعة وأكثرها نصيبًا من العناية. وقبل أن أستغرق في أفكاري، تجلَّت فقرات كل ما كتبه الراهب ـ في هذا الموضوع البديع - بحذافيره، دون أن أضيق قط بما كان يتخلل حديثه من إطالة وتكرار، ولقد اطلع الرأي العام على هذه الرسالة المستخلصة، ومن ثم فليس لديَّ ما أقوله عنها. أما الحكم الذي ارتأيته بصددها، فلم يُطبع قط، ولست أدري إن كان سيطبع يومًا، ولكنه كُتب في ذات الوقت الذي أعدت فيه كتابة الرسالة. وانتقلت من ذلك إلى نظرية « البوليسينودي »، أو تعدد المجالس.. وهي الرسالة التي وضعها في عهد الوصاية على العرش، ليروج للنظام الحكومي الذي اختاره الوصى، والذي أدَّى إلى إقصاء الراهب « سان - بيير » عن المحفل الفرنسي « الأكاديمي فرانسيز » - من جراء بعض رسالات كُتبت ضد النظام الحكومي السالف الذكر، الذي أحنق الدوقة « دو مين »، و الكاردينال « دى بولينياك ». وقد أتممت هذا العمل كما فعلت بسابقه، سواء الرسالة أو الحكم. ولكنني توقّفت عند هذا الحد، دون ما رغبة في مواصلة هذا المشروع، الذي ما كان ينبغي أن أبدأه!

وكان الخاطر الذي أوحي إليَّ بنبذه، قد وافاني من تلقاء ذاته. وكان من المدهش أنه لم يخطر لي قبل ذلك. فإن معظم كتابات الراهب، كانت في مجموعها - أو كانت تشتمل على - ملاحظات نافذة لبعض نواحي نظام الحكم في فرنسا. وكان بعضها من الصراحة والتحرّر بدرجة يُعتبر معها الراهب مجدودًا لأنه أفلت من العقاب الذي كانت خليقة بأن تجرّه عليه. على أنه كان يُعتبر في الأوساط الوزارية - طيلة الوقت - كواحد من المبشرين، أكثر منه كسياسى حقيقى، ومن ثم فقد تُرك يقول كل ما كان يحلو له، لأنه كان من الجلي أن أحدًا لم يكن يصغى إليه. غير أن الأمر كان يختلف إذا ما حملت أنا انتقاداته إلى الأسماع.. ولقد كان فرنسيًا، ولم أكن أنا كذلك، فإذا كرّرت انتقاداته - ولو باسمه - لتعرّضت لأن أُسأل عنها سؤالًا عسيرًا صارمًا - ولكن دون ما ظلم - عما كنت أقحم نفسي فيه. وقبل أن أوغل في ذلك، فطنت - لحسن الحظ ـ إلى المأخذ الذي كنت أتيحه ضد نفسي، وتراجعت مسرعًا. فلقد كنت أدرك أنني - إذ أعيش وحيدًا وسط رجال، ورجال كلهم أقوى منى - لن أقوى قط، ومهما تكن وسائلي، على أن أقى نفسى أي أذى يحلو لهم أن يوقعوه بي. ولم يكن ثمة في وسعى - إزاء ذلك - سوى أمر واحد، ذلك هو أن أجعل من المستحيل عليهم - إذا هم راموا إيذائي - أن يفعلوا ذلك ظلمًا. وهذا المبدأ - الذي جعلني أهجر الأب « سان بيير » - كثيرًا ما حملني على أن أطرح عنى كثيرًا من المشروعات التي أعتزّ بها. والذين يبادرون دائمًا إلى أن يجعلوا من المحنة جريمة، كانوا خليقين بأن يدهشوا، إذا عرفوا كل ما تجشمت في حياتى، لكي لا يُقال لي - عن صدق - في أوقات محنى: « لقد استحققتها

تمامًا! ».

وتركني نبذ هذا العمل حائرًا - بعض الوقت - بشأن ما أتولاه بعده. وكانت هذه الفترة من البطالة مضيعة لي، إذ جعلتني أحول أفكاري إلى نفسي، نظرًا لعدم وجود ما يشغلني. فلم تعد لديَّ مشروعات للمستقبل تروق لخيالي، كما أنه لم يكن من الميسور أن أدبِّر شيئًا من هذه المشروعات، لأن وضعى الراهن كان هو عين الوضع الذي جمع كل رغباتي.. ومن ثم فإنني لم أفكر في مشروعات جديدة، ومع ذلك فقد ظللت أشعر بفراغ. ومما زاد هذه الحال قسوة، أنني لم أكن أجد ما يفضلها إذ كنت قد أوقفت أرق عواطفى على امرأة راقت لفؤادي، وقد بادلتني هذه العواطف، فعشت معها على سجيتي، وفق ما حلا لي، كما ينبغي أن يُقال. ومع ذلك فإن ضيقًا خفيًا ظلّ يستولى على فؤادي، لا يبرحه في قربها ولا في بُعدها. وكنت أشعر - وأنا ضجيعها - أنها ما زالت غير خالصة لي.. وكان مجرَّد التفكير في أنني لم أكن لها كل مَن لها، يجعلها تبدو لي شيئًا لا يُذكر تقريبًا!

وكان لي أصدقاء من الجنسين، ارتبطت بهم بأخلص الود، وبأكمل التقدير، وكنت مطمئنًا إلى أنهم يكنّون لي - مقابلها - أصدق المشاعر، فلم يخطر ببالى قط - ولو مرة واحدة - أن أرتاب في إخلاصهم. ومع ذلك فقد كانت هذه الصداقة مبعث عذاب - لا نعيم لي - نظرًا لعنادهم، بل ولإلحاحهم في معارضة كل ميولي وأهوائي وطريقة حياتي، إلى درجة أنه كان يكفيني أن أبدى رغبة في شيء لا يهم سواى وحدى، ولا يتوقَّف عليهم، حتى أراهم يتآزرون - في الحال - لإقناعي بالتخلي عنه. هذا الإصرار على السيطرة على كل اهوائى - الذي كان يزيده جورًا أنني لم أكن بمنأى عن محاولة السيطرة على أهوائهم فحسب، بل أنني لم أعن قط بتعرّف هذه الأهواء - لم يلبث أن أصبح مرهقًا لى إلى درجة قاسية، حتى أننى لم أعد - في النهاية - أتسلّم رسالة منهم، إلا وشعرت، وأنا أفضها، بشيء من الخوف كانت مطالعة الرسالة لا تلبث أن تبرّره!.. ولقد تبينت - بالنظر إلى أنهم كانوا يصغرونني سنًّا، وكانوا في أشدّ الحاجة إلى الدروس التي يخصونى بها - أن معاملتهم لي كانت أقرب ما تكون إلى معاملة الكبار لطفلٍ صغير. وكنت أقول لهم: « أحبوني، كما أحبكم. وفيما عدا ذلك، فلا تتدخلوا في شئوني ما دمت لا أتدخل في شئونكم. وهذا جلّ ما أسألكم إياه! ». وإذا كانوا قد أولوني أحد المطلبين، فمن المؤكّد أنه لم يكن المطلب الأخير!

ولقد كان لي مسكن ناء، في عزلة فاتنة، وكنت سيّد دارى وربّها، وكان بوسعي أن أعيش هناك على هواى، دون أن يفرض عليَّ مخلوق سيطرته. ولكن هذه السكني فرضت عليَّ واجبًا كان أداؤه يحلو لي، لولا أنه كان محتومًا عليَّ. فلم تكن حريتي بأسرها سوى أمر موقوت. بل إنها كانت خاضعة لسلطان يفوق مجرّد الأوامر.. وكنت مضطرًا إلى قبول هذا الوضع باختياري.. لم أكن أملك صباحًا واحدًا أستطيع أن أقول فيه لنفسي، وأنا أستيقظ: « سأستغل هذا اليوم كما يحلو لي ». فإلى جانب أننى كنت رهنًا لتدبيرات السيِّدة دييناى، كنت رهنًا كذلك لإزعاج أكبر.. إزعاج الجمهور والوافدين. إذ أن المسافة التي كانت تفصلني عن باريس، لم تحل دون أن يأتي إليَّ يوميًّا زرافات من المتبطلين، الذين كانوا لا يعرفون كيف يفيدون من وقتهم، اللهم إلا أن يبددوا وقتى دون أي اكتراث!.. وكنت أفاجأ بهجومهم دون رحمة، وأنا أبعد ما أكون عن توقعهم.. ونادرًا ما رسمت خطة بديعة لنهارى، دون أن أراها تُقلب رأسًا على عقب، من جراء وصول وافد!

وقصارى القول أنني - في غمرة النعم التي كنت أشدّ ما أكون شوقًا إليها ـ لم أحظ قط بالسرور الخالص.. فرحت أرتدّ وثبًا إلى أيام صباي الصافية، وكنت أهتف لنفسي أحيانًا، وأنا أتنهد: « آه!.. لست هنا في (شارميت)! »[3].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأفضت بي ذكريات المراحل المتباينة من حياتي، إلى التفكير فيما انتهيت إليه، ورأيتنى

وقد بلغت أعتاب الشيخوخة، فريسة لشرور أليمة.. واعتقدت انني كنت أقترب من نهاية حياتي العملية، دون أن أكون قد نعمت في أوجها بشيء من تلك المتع التي كان القلب يصبو إليها.. ودون أن أكون قد أفسحت المجال لتلك المشاعر المتوقدة. التي كنت أشعر بأن قلبي كان يدخرها.. ودون أن أكون قد استمرأت، بل دون أن أكون قد تذوّقت - على الأقل - تلك اللذة المسكرة، التي كنت أحس بها في أعماقي، في عنفوانها، والتي كان افتقادها الهدف والمجال يجعلها دائمًا مكبوحة، عاجزة عن أن تنطلق بكل قواها اللهم إلا خلال زفراتي!

فكيف قُدّر لرجل حبته الطبيعة بروح واسعة الآفاق، وكانت الحياة لديه هي الحب.. كيف قُدر لي أن أعجز - حتى ذلك الحين - عن العثور على صديق، يكون لي كل نفسه.. صديق صادق، وأنا الذي كنت أشعر أنني خُلقت لكي أكون كذلك؟.. كيف قُدّر لي، وقد أوتيت مشاعر متأججة، وقلبًا مفعمًا بالحب، وألا أكتوى مرة واحدة ـ على الأقل - بلهب هذا الحب، من أجل شخص معين؟.. ورأيت نفسي أقترب من أعتاب الشيخوخة، والحاجة إلى الحب تفرى فؤادى، دون أن أملك قط لها إرضاءً أو إشباعًا.. رأيتني أوشك أن أموت، دون أن أكون قد نعمت بالحياة!

هذه الخواطر الحزينة - وإن كانت ناعمة مفعمة بالحنان - حملتني على أن أرتدّ بأفكاري إلى نفسي في حسرة لم تخل من لذة!.. فقد لاح لي أن القدر كان مدينًا لي بشيء لم يستطع أن يمنحنيه. فلماذا خُلقت إذن بميزات ومواهب طيبة، إذا كان قد قُدّر لي أن أتركها إلى النهاية دون أن أستغلها؟.. كان الشعور بقيمة الميزات الكامنة في نفسي، يوحي إلىَّ بالشعور بالغبن، ولكنه كان - في الوقت ذاته - يعوضني بما يخفّف من وطأته، يحملني على أن أذرف الدمع الذي كنت أرتاح إلى أن أتركه ينساب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وافتني هذه الخواطر في أجمل فصول السنة.. في شهر يونيو، وفي البساتين الرطبة، بين شدو البلابل وخرير الجداول.. لقد تكالبت جميعًا على دفعي إلى أحضان هذا النعيم المغري الذي خُلقت له.. ولكنها دفعتني في حالة ذهنية قاسية، صعبة، تولّدت عن المشاعر التي ظلَّت تتفاعل طويلًا في نفسي، فكانت كفيلة بأن تسلمني إلى هذا الوضع إلى الأبد!.. ووجدتني ـ لشقوتي ـ أميل إلى تذكّر مائدة العشاء في قصر (تون)4، والتقائي بتلكما الفتاتين الساحرتين5، في فصل من العام كهذا الذي كنت فيه - في هذه المرحلة - وفى بقعة قريبة الشبه من هذه التي كنت فيها في الآونة التي أتحدَّث عنها.. ولقد اجتلبت لي هذه الذكرى - التي زادها فتنة ما كان فيها من ريح البراءة ـ ذكريات أخرى من نوعها. وما لبثت أن رأيت الأشخاص والأشياء التي أيقظت مشاعرى في صباى، تتجمّع حولي: الآنسة جالي، والآنسة دى جرافينرييه، والآنسة دى بريى، والسيِّدة بازيل، والسيِّدة دى لارناج، وتلميذاتي الحسان.. حتى « جولييتا » اللاذعة، التي لم يستطع قلبي أن يسلوها!.. وألفيتى محوطًا بسراب من الحوريات، من معارف القديمات، اللائي لم يكن الشوق المتأجج نحوهن، بالشعور الجديد لدىَّ.. وفار دمى وسخن، ودارت رأسي بالرغم من شعري الذي دبَّ إليه الشيب، وإذا بالمواطن الجنيفي الجاد الوقور، وإذا بجان جاك المتقشف الذي أشرف على الخامسة والأربعين من عمره، يرتدّ فجأة هائمًا وراء الحب.. ومع أن النشوة التي تملكتني، كانت مباغتة وجامحة، إلا أنها كانت قويـة وثابتة، فلم يكن من سبيل إلى شفائي منها، إلا عن طريق نوبة الشقاء الفظيعة - غير المرتقبة - التي أسلمتني إليها هذه النشوة ذاتها!

بيد أن هذه النشوة لم تصل - برغم ما ذهبت إليه - إلى الحد الذي يجعلني أنسى سنى ومركزي، فأخدع نفسي بأن لدىَّ القدرة على أن أوحى الحب إلى الحسان، مرة أخرى.. أو

إلى الدرجة التي تجعلني أحاول أن أفرج عن هذا اللهب المتأجج، وإن كان غير مثمر، اللهب الذي كنت أشعر - منذ طفولتي - بقلبي يحترق فيه عبثًا!.. بل أنني ما كنت آمل في ذلك، ولا كنت أشتهيه، فقد أدركت أن زمن الهوى قد ولى. وكنت من الشعور بالسخرية التي تنهال على العشاق إذا ما غووا في كبرهم، بحيث أنني كنت أربأ بنفسي أن أتعرَّض لها.. وما كنت بالرجل الذي ينقلب مغرورًا معتدًا بفسه في سني التداعي، بعد أن كنت مقسطًا في سنى ازدهارى!.. ثم أننى ـ كمحب للسلام - كنت أخشى العواصف المنزليـة، وكنت أحب تيريز في إخلاص بالغ يجعلني أربأ بأن أعرّضها للوعة رؤيتى منساقًا إلى سواها، بمشاعر أشـدّ احتدامًا من تلك التي كانت تثيرها في نفسي؟

فما الذي تراني فعلت، في هذه المناسبة؟

لابد أن يكون قارئي قد حدس تصرفي، لو أنه كان قد تتبعنى - حتى الآن - في شيء من الانتباه!

ذلك أن استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية، طوّحت بى إلى عالم الأوهام والخيالات.. وعنـدما عزَّ على أن أرى في الوجود من هم أهل لصبابتي، وحتى أغذى هذه الصبابة من عالم مثالى، سرعان ما عمره خيالي الخصب بأناس ممن يميل إليهم فؤادي!.. أبدًا ما لقى هـذا المنبع منى مثل هـذا الترحيب، وأبدًا ما كان يومًا مثمرًا إلى هذا الحد!.. ورحت في نوبات الهيام أسكر بجرعات دسمة من أبهج المشاعر التي دبَّت يومًا في قلب إنسان!

وتناسيت العنصر البشرى تمامًا، فجعلت لنفسى مجتمعات من مخلوقات اتسمت بالكمال.. مخلوقات سماوية في فضائلها وجمالها.. أصدقاء أمناء: موفوري الحنان والوفاء، لا سبيل إلى مثلهم في العالم الدنيوي. وشغفت بالتحليق في هذه الآفاق، بين الأطياف الفاتنة التي كانت تحف بي، حتى أنني أصبحت أنفق الساعات، بل الأيام في ذلك - دون حساب - وأنسى كل شيء آخر، فما أن ألتهم لقمة من طعام في عجلة، حتى أتحرّق لهفة إلى الفرار، لكي أهرع إلى الأحراش ثانية. فاذا قُدّر لى - وقد تأهبت للانتقال إلى عالمي السحرى - أن أرى تعسًا من أهل الأرض يفد، فإنني كنت أعجز عن أن أتلطف أو أن أكتم غيظى، وكنت - إذ أفقد سيطرتي على نفسي - أستقبلهم في جفاء، يكاد أن يوصف بالعنف غير المهذّب. ولم يؤد هذا إلا إلى زيادة اشتهاري بأنني مبغض البشر، في حين أنه كان خليقًا بأن يكسبني شهرة مناقضة لذلك، لو أتيح للناس أن يقرأوا قلبي، حق القراءة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي أوج نشوتي الكبرى، وجدتني أُجذب كما تُشدّ الطائرة الورقية بالخيط، لأرد إلى مكاني الطبيعي، بفضل نوبة حادة من نوبات دائى. فاستخدمت العلاج الأوحد الذي كان يسرى عنى، ألا وهو المجسات[6]، الأمر الذي أوقف غرامياتي الملائكية!.. ذلك لأنه إلى جانب أن المرء لا يميل إلى الهوى وهو يعاني الألم، فإن خيالى - الذي اعتاد أن يذكو في الريف وتحت الأشجار - يذوى ويحتضر داخل الحجرات، وتحت ألواح السقوف الخشبية. ولكم كنت أتحسر إذ أذكر أن ليس لجنيات الغاب[7] وجـود، فلا مراء في أنني كنت خليقًا بأن أوقف عليها عواطفي!

وضاعف من أساي أن حدثت في تلك الفترة ذاتها، متاعب منزلية أخرى. فلقد كانت السيِّدة لوفاسير ماضية في بذل قصارى جهدها لتؤلب ابنتها علىَّ، في الوقت الذي كانت تؤثرني فيه بأبدع المجاملات.. ولقد تلقيت رسائل من جيراني القدامي، أنبئت فيها بأن العجوز الداهية، كانت قد تورَّطت - دون علمي - في ديون عديدة، باسم « تيريز » وبعلمها.. ولكن هذه لم تذكر لي شيئًا عنها. ولم أستأ لاضطراري إلى دفع هذه الديون، بقدر ما استأت لأنها ظلَّت مكتومة عني!.. كيف تسنى لمن لم أكتم عنها سرًّا، أن تخفى عنى مثل هـذا السر؟..

وهل للمرء أن يخفى أمرًا عن أولئك الذين يحبهم؟.. وكانت عصبة « دولباخ » قد بدأت تخشي جديًا - إذ رأتني لا أزور باريس - أن أكون قد استطبت الإقامة في الريف، وأننى قد أكون من الحماقة ـ في رأيهم - بحيث أبقى هناك. ومن ثم بدأت المشاغبات التي أريد بها حملي - بأسلوب غير مباشر - على العودة إلى المدينة. وبدأ « ديدرو » - الذي لم يشأ أن يكشف عن دوره سريعا - بأن صرف عنى « ديليير » الذي كنت قد عرَّفته به، والذي تلقّى ما شاء ديدرو أن يوحى به إليـه من إيعازات، فنقلها إليَّ دون أن يدرى الغرض الحقيقي الذي كان مقصودًا بها!

ولاح كأنما أجمع كل شيء على انتزاعي من أوهامي الناعمة، الطائشة!.. وقبل أن أفيق من نوبة المرض، تلقيت نسخة من قصيدة خراب (برشلونة)، التي ظننت أنها أُرسلت إليَّ من لدن المؤلف8، فألزمني هذا بأن أكتب إليه، وبأن أتحدَّث عن قصيدته.. وهذا ما فعلته في خطاب طُبع بعد ذلك دون أن أُستشار في أمر نشره، كما سيرد فيما يلي:

فلقد ذهلت إذ رأيت هذا المسكين يتخبّط في حيرته - كما ينبغي أن يُقال - إزاء الثروة والمجد، فيحمل في مرارة على محن الحياة وتعاساتها ويخلص إلى أن كل ما في الحياة شر وسوء، فتولتني رغبة رعناء في أن أردّه إلى رشده، وأن أثبت له أن كل ما في الحياة خير وطيب. فالواقع أن « فولتير » - وإن بدا دائمًا مؤمنًا بالله - لم يؤمن قط بغير الشيطان!.. إذ أن إلهه المزعوم لم يكن سوى كائن شرير، لا يجد لذة ـ في رأى فولتير - إلا في الأذى. وإذا كان سخف هذا الرأي واضحًا، إلا أنه مثير لصدوره - بوجه خاص - من رجل أُثقل بالخيرات من كل نـوع، فإذا به يسعى - من أحضان هنائه - لبث القنوط في نفوس أقرانه، بأن يصوِّر لهم كل النكبات - التي كان هو بمنجى عنها ـ في صورة بشعة قاسية!.. ولما كنت أحقّ منه بأن أعدّد مساوىء الحياة الإنسانية وأن أزنها، فقد استعرضتها في غير تحيز، وأثبت له أن الحكمة الإلهية براء من كل هذه المساوىء.. وأن هذه إنما تدين بأصولها إلى سوء استخدام الإنسـان لمواهبه، أكثر منها إلى الطبيعة ذاتها. ولقد عاملته في هذا الخطاب بكل اعتبار، وكل مراعاة، وكل تلطف.. بل إنى لأذهب إلى القـول بأنني عاملته بكل احترام ممكن. ولما كنت أعرف مدى سهولة اهتيـاج حبـه لنفسه، فإنني لم أبعث بهذه الرسالة إليه شخصيًا، وإنمـا أرسلتهـا إلى الدكتور « ترونشان » - طبيبه وصديقه - وخوّلته مطلق السلطان في أن يسلمها إليه أو أن يكتمها عنه، وفقًا لما يراه مناسبًا.. وقدَّم « ترونشان » الرسالة، فردَّ على فولتير ببضعة سطور أبدى فيها أنه كان مريضًا، وساهرًا على مريض، ومن ثم فإنه رأى أن يرجىء ردّه إلى وقت آخر.. ولم يقل شيئًا في الموضوع. وإذ أرسـل لي ترونشان هذا الخطاب، أرفقه بآخر منه، أعرب فيـه عن قلة تقدير للشخص الذي عهد به إليه!

ولم أقدم على نشر هذين الخطابين، بل ولا على إطلاع أحد عليهما، فما أحببت قط عرض مثل هذه الأنواع من الانتصارات الصغيرة، بيد أن أصولها موجودة في أضابيرى (الملف « أ »، رقما 20 و 21). ولقد نشر فولتير - بعـد ذلك - الرد الذي وعدني به، والذي لم يرسله إليَّ قط. وما هذا الرد سوى قصة « كانديد »، التي لا أملك أن أتحدَّث عنها، لأنني لم أقرأها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت كل هذه الشواغل خليقـة بأن تبرئني تمامًا من غرامياتي الوهمية.. ولعلها كانت وسيلة أرسلتها السماء إليَّ لتحول دون معقباتها المشئومة. ولكن نجمي المنحوس كان في صعود، فما أن شرعت في الخروج ثانية - بعد شفائى - حتى عاد رأسي وقلبي وقدمي إلى عين الدروب السالفة. وأقول « عين » في نطاق ضيق، وإذ أن آرائي كانت ـ في هذه المرة ـ أقل سموًا وجموحًا، فظلَّت على الأرض. ولكنها أحسنت اختيار نخبة من كل ما أمكنها العثور

عليه من الأشياء المستحبة، فلم تكد هذه النخبة تقلّ في وهميتها عن العالم الوهمي الذي هجرته!

فلقد رسمت لنفسي الحب والصداقة - وهما معبودا قلبي - في أبدع الأشكال الخلابة. وطاب لي أن أزينهما بكل ما كنت أعجب به دائمًا من مفاتن الجنس. ولقد ملت إلى تصوّرهما صديقتين، وليسا صديقين، لأن مثل هذا المثال من الصداقة، وإن كان نادرًا، إلا أنه أكثر ملاءمة ولطفًا في الوقت ذاته!.. وخلعت عليهما شخصيتين متجانستين وإن كانتا مختلفتين، ووجهين ليسا بالغي الكمال، ولكنهما يلائمان مزاجي، يشعان رحمةً وإحساسًا. وجعلت إحداهما سمراء، والأخرى ناصعة البياض.. إحداهما كثيرة الحركة والمرح، والأخرى رقيقة هادئة.. إحداهما عاقلة حكيمة، والأخرى ضعيفة، ولكنه ضعف يهفو بالأفئدة، إلى الدرجة التي تمكن الفضيلة من الكسب بفضله!.. ووهبت أحدهما حبيبًا، كانت الأخرى صديقته الحنون.. بل وأكثر من ذلك. ولكنني لم أدع مجالًا لتزاحم، أو خصام، أو غيرة، لأنه من العسير عليّ أن أتصوَّر المشاعر المؤلمة، ولم أشأ أن أشوّه الصورة الفاتنة بشيء يحط من قدر الطبيعة. وإذ شغفت بالنموذجين الفاتنين، تمثلتني - قدر الامكان - العاشق والصديق.. بيد أنني جعلته مليحًا وشابًا، وخلعت عليه - فوق ذلك - ما كنت أراه في نفسي من فضائل وعيوب.

ولكي أضع هاتين الشخصيتين في وسط يلائمهما، رحت أستعرض - تباعًا - أجمل البقاع التي رأيتها خلال أسفاري. ولكني لم أهتد إلى أحراش ذات بهجـة كافية، ولا بلد كاف لتحريك العواطف، وفق ما كان يروق لي. ولقد كانت وديان (تيسالى) خليقة بأن ترضيني، لو أنني كنت قد رأيتها. ولكن خيالي كان قد تعب من الابتكار، فرغب في بقعة حقيقية تصلح لأن تكون أساسًا، ولأن توحي إليّ بصورة عن حقيقة أولئك الذين كنت أزمع أن أسكنهم هذا المكان. ولقد فكرت طويلًا في جزر بوروما9، التي كان منظرها الساحر قد أطربني. ولكني وجدت فيها من الوشى والزينـة المصطنعة أكثر مما كنت أبغى لشخصياتي. ومع ذلك، فقد كان لابد من بحيرة، فانتهيت إلى اختيار تلك التي لم يكن قلبي يكفّ عن التحويم حولها. واستقررت على ذلك الجـزء من الشاطىء الذي كانت أمانيّ قد أقامت عليه مقامي منذ أمد بعيـد، في السعادة الوهمية التي جعلنى حظى أقتصر عليها.. فلقد ظلّ مسقط رأس « ماما » المسكينة ينطوى على سحر خاص بالنسبة لي. وأدّى تباين المواقع، وغنى البقاع وتنوعها، وروعة، وجلال المنظر في مجموعها.. هذه الصفات التي تبهر الحواس، وتهز القلب، وتسمو بالروح، أدّت إلى أن أقرّ الرأي، وأن أوطد مقام شخصياتي الشـابة الحبيبة في (فيفاى).. كان هذا جماع ما تصوّرته إذ ذاك، أما الباقي فلم يضف إليه إلا فيما بعد.

ولقد قصرت نفسي على هذا المشروع المبهم المعالم، زمنًا طويلًا، إذ أنه كان كافيًا لأن يملأ خيالي بأطياف مستحبة، وفؤادي بعواطف كان يحب أن يتغذّي عليها. ولم تلبث هذه التصوّرات أن اكتسبت - بحكم تكرّر ترددها عليّ ـ قدرًا كبيرًا من الثبات، فوطدت نفسها في عقلي، تحت شكل محدد. وإذ ذاك، خطر لي أن أعبِّر على الورق عن بعض المواقف التي كانت توحي إليّ بها، فاسترجعت كل مشاعر شبابي، لأتيح المجال ـ إلى مدى معين ـ للرغبة في الحب.. تلك الرغبة التي لم أستطع قط أن أشبعها، والتي كنت أشعر بأنها تلتهمني!

وألقيت علي الورق - في البداية - بضعة حروف متناثرة، دون تسلسل أو ترابط. وكنت كلما حاولت أن أضم بعضها إلى بعض، أجد نفسي في حيرة شديدة. والأمر الذي لا يكاد أن يبدو معقولًا، وإن كان هو الحقيقة بعينها - برغم ذلك - هو أن الجزءين الأوّلين كُتبا بأسرهما - تقريبًا - بهذه الطريقة، دون أن يكون لديّ خطة مكتملة التكوين، بل ودون أن أتوقَّع أن أنساق يومًا إلى أن أجعل منهما عملًا أدبيًا منسقًا. ومن ثم فسوف يُرى أن هذين الجزءين المؤلفين - بعد وقت طويل - من مواد لم تكن مهيأة للمكان الذي وضعه فيه. مليئان بحشو

من كلام مسهب ولكنه مقل في معناه، مما لا يوجد في الأجزاء الأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي عنفوان تخيلاتى، زارتني السيِّدة « دوديتو »، فكانت هذه أوَّل زيارة تؤدّيها لي في حياتها، ولكنها - لسوء الطالع - لم تكن الأخيرة، كما سيبدو فيما بعد.. وكانت الكونتة « دوديتو » ابنة المرحوم السيِّد دي بليجارد، الناظر العام للزراعة، وأخت السيِّد ديبيناي والسيّدين دى لاليف وديلا بريس، اللذين صارا من مقدمي السفراء[10]. ولقد ذكرت من قبل، كيف تعرَّفت إليها قبل زواجها. ولكني لم أرها بعده إلا في الحفلات التي كانت تُقام في (لاشيفريت)، وفي ضيافة أخت زوجها، السيِّدة ديبيناي. وإذ قُدِّر لي أن أقضى عدَّة أيام معها، سواء في (لاشيفريت) أو في (ايبيناي)، فإنني لم أجدها مفرطة اللطف فحسب، بل إننى خلت أننى رأيت منها ميلًا نحوى. وكانت جد مشغوفة بالتريض معى على الأقدام، وقد كان كل منا قديرًا على المشي، ولم يكن الحديث يفتر بيننا. بيد أنني لم أزرها قط في باريس، بالرغم من أنها دعتنى بل وألحفت عليّ في ذلك. ولقد زاد من اهتمامي بها، علاقاتها مع السيِّد « دي سان ـ لامبير »، الذي كانت عرى الصداقة قد بدأت تتوثق بيني وبينه.. ومن أجل إبلاغي أنباء هذا الصديق، كان مجيئها إلى (ليرميتاج).

ولقد بدت هذه الزيارة - إلى حد ما - كفاتحة قصة غرامية. ذلك لأنها ضلت الطريق - أثناء قدومها - إذ انحرف سائق عربتها عن الطريق عند منحنى فيها، وأراد أن يقتضب المسافة، بأن يسعى في خط مستقيم بين الطاحون القائمة في (كليرفو) و (ليرميتاج). ولكن العربة غاصت في الوحل في قاع الوادي الصغير، فقرّرت السيِّدة أن تبرحها وأن تقطع ما بقى من الرحلة على قدميها. ولكن حذاءيها الرقيقين لم يلبثا أن ابتلا، ثم غاصت هي في الوحل، ولقى خدمها أشدّ العناء في تخليصها..



ثم غاصت هى فى الوحل ، ولقى خدمها أشد العناء فى تخليصها ..

وقُدِّر لها أن تصل أخيرًا إلى (ليرميتاج)، وقد ارتدت حذاءى رجل، وسط رنين الضحكات التي مزجت بها ضحكاتى حين شهدت منظر الوصول!.. وكانت السيدة مضطرة إلى أن تغيّر

جميع ثيابها. وقد تولّت « تبريز » هذه المهمة، بينما أقنعتها أنا بأن تطرح عنها كبرياءها، وأن تشاركنا وجبة (تصبيرة) ريفية، لم تلبث أن استمرأتها.

وكان الوقت قد فات، فلم تمكث سوى برهة وجيزة. بيد أن اللقاء كان مرحًا، وقد راق لها، وبدا عليها الميل إلى أن تأتى مرة أخرى. ومع ذلك فإنها لم تحقق ذلك إلا في العام التالي. ولكن، وا أسفاه.. إن هذا الإرجاء لم يعصمني في شيء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقضيت خريف تلك السنة في عمل لا يخطر ببال أحد.. ذلك هو حراسة فواكه السيِّد ديبيناى. فلقد كان خزّان المياه التي تروى بساتين (لاشيفريت) يقوم عند مبنى (ليرميتاج)، وكانت ثمة حديقة محوطة بأسوار حجرية، وقد زُرعت فيها أشجار متباينة، كانت تمد السيِّد ديبيناى بفواكه تفوق في كميتها إنتاج الحديقة الملحقة بمطابخ (لاشيفريت)، برغم أن ثلاثة أرباعها كان يُسرق. ولكي لا أكون ضيفًا عديم النفع، فإنني تكفلت بشئون الحديقة، وبالاشراف على البستاني. وسار كل شيء على ما يرام، حتى حان موسم الفاكهة، فإذا بها تختفى تباعًا، كلما نضجت، دون أن أدرى ما كان يحلّ بها. وأكّد لي البستاني أن جرذان الحقل التهمتها جميعًا، ومن ثم فقد أعلنت الحرب على الجرذان حتى قضيت على كثير منها. ومع ذلك فقد ظلّت الفاكهة في اختفاء. وأحكمت الرقابة، حتى اكتشفت أخيرًا أن البستاني نفسه، كان الجرذ الأكبر.. فلقد كان يقيم في (مونمورنسى)، وكان يفد مع زوجته وأولاده في جنح الليل، فيحملون الكميات التي يكون قد أعدّها ـ في النهار - من الفاكهة، ليعرضها الرجل للبيع في سوق (باريس) جهارًا، وكأنه أوتى بستانًا ملك يمينه!.. وكان هذا التعس الذي أغرقته بخيراتي، والذي كست تيريز أولاده، والذي أصبحت أعول أباه تقريبًا، بعد أن كان يتسول.. هذا التعس كان يسرقنا نحن أيضًا، بسهولة وقحة، إذ لم يكن بيننا نحن الثلاثة مَن أوتى يقظة كافية لأن توقفه عند حده.. ولقد استطاع ـ في ليلة واحدة - أن يُفرغ قبو مسكني، فإذا بي لا أعثر فيه على شيء، في الصباح التالي!

ولقد كنت أحتمل أعماله، عندما كان يبدو أنه يقصر نشاطه عليَّ وحدى.. أما وقد رغبت في تحمّل مسئولية الفاكهة، فإني اضطررت إلى أن أفضح السارق. ورجتنى السيِّدة ديبيناى أن أنقده أجره، وأسرحه من الخدمة، وأبحث عن سواه، ففعلت.. ولما راح هذا الشقى يحوم حول (اليرميتاج) كل ليلة، متسلحًا بقضيب حديدي ضخم، كان يبدو كالهراوة، ومتبوعًا بأنذال آخرين من صنفه، فقد رأيت لكي أطمئن « الدادتين »11 اللتين أفزعهما هـذا الرجل إلى أقصى حد أن أدعو خليفته لأن ينام في (ليرميتاج) كل ليلة. ولكن هـذا لم يهدىء من روعهما، فطلبت من السيِّدة ديبيناى بندقيـة احتفظت بها في غرفة البستاني، مع تنبيهه إلى عدم استعمالها إلا عند الحاجة - عندما تبدر محاولة لاغتصاب الباب أو تسوّر الحديقة - وألّا يُطلق في هذه الحال سوى البارود، لمجرَّد إرهاب اللصوص. ولا مراء في أن هـذا كان أقلّ احتياط يُتخذ من أجل السلامة العامة لرجل معلول، يقضى الشتاء وسط الغابات، وحيدًا مع امرأتين رعديدتين. وحصلت أخيرًا على كلب صغير ليستخدم في الحراسة.

وإذ جاء « ديلبير » لزيارتي في تلك الفترة، فقد رويت له قصتى، وضحكت معه من استعدادي العسكري. فلما عاد إلى (باريس)، رغب في أن يُضحك « ديدرو » بدوره... ومن هنا علمت عصبة « دولباخ » أننى كنت أعتزم جادًا أن أقضى الشتاء في (ليرميتاج)، فأسخطهم هذا الاصرار على عزمي، إذ لم يكن بوسعهم أن يتصوَّروه.. وعملوا - ريثما يرسمون بعض الأحابيل لكي يعكروا إقامتى12 - إلى الوقيعة، عن طريق « ديدرو »، بينى وبين « ديلبير »، الذي اعتبر احتياطي - في البداية - مجرَّد أمر طبيعي، ولكنه لم يلبث أن انتهى إلى أنه أمر مناقض لمبادئي، وأسوأ من أن يستحق السخرية فحسب.. وصارحنى بذلك في خطابات أغرقني فيها بنكات لاذعة، بلغ من لذعها أنها كانت تمس كرامتي، لو أن

مزاجي كان ميّالًا إلى هذا الاتجاه. ولكنني كنت مغرقًا - إذ ذاك - في المشاعر الرقيقة، اللطيفة، فلم أشك في أي شيء آخر، واعتبرت سخرياته اللاذعة مجرّد مداعبات للاضحاك، كما اعتبرت « ديلبير » مجرّد ماجن، في حين أن أي امرىء غيرى كان خليقًا بأن يعتبره مخبولًا[13].

وبفضل اليقظة والعناية، أفلحت تمامًا في حماية الحديقة، التي درّت ثلاثة أمثال ما درّته من الفاكهة في العام السابق، برغم أن المحصول كان فاشلًا - تقريبًا - في هذه السنة. بل إنني رافقت الشحنات التي أرسلتها إلى (لاشيفريت) و (ايبيناى)، وحملت بنفسي بعض السلال. وإني لأذكر أنني و « العمة »[14] حملنا في إحدى المرات سلة بلغ من ثقلها أننا اضطررنا - لكي نتفادى التداعي تحت وطأة الحمل - إلى أن نستريح كل اثنتي عشرة خطوة.. ووصلنا - في النهاية - مبللين بالعرق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سنة 1757

عندما شرع فصل الطقس السيء في إلزامي مسكنى، وددت أن أعاود مهامي التي تؤدّي في البيت، ولكنني لم أجد إلى ذلك سبيلًا، إذ أنني لم أعد أرى في كل مكان سوى الصديقتين الفاتنتين[15]، وصديقهما، وما يحيط بهما، والبلد الذي يقيمان فيه، والأشياء التي خلقها خيالى أو هذبها من أجلهما. ولم أعد ملك نفسى لحظة واحدة، فإن هذا الحلم لم يعد يفارقني، وبعد جهود كثيرة، غير مجدية، لإقصاء هذه الرؤى الخيالية عنى، وجدتني أنساق لغوايتها، فلا أشغل منذ ذلك الحين إلا بمحاولة توفير شيء من النظام وشيء من التتابع فيها، لكى أجعل منها نوعًا من القصص الخيالي.

وكان أعظم ما حيّرني، هو ذلك الخجل الذي ساورني، إذ شعرت بأنني أناقض نفسى صراحة وفي جرأة. أفبعد المبادىء الصارمة التي أرسيتها بكل هذا الضجيج، وبعد الآراء التقشفية التي رحت أبشر بها بكل هذه القوة، وبعد الحملات اللاذعة التي حملتها على الكتب الناعمة (المخنثة) التي كانت تفوح بالحب والميوعة.. أفبعد كل هذا يكون ثمة ما هو أبعد عن الارتقاب، وأدعى للدهشة والاستنكار، من أن أُرى فجأة وقد انضويت - بمحض إرادتي - بين مؤلفي تلك الكتب التي انتقدتها بكل هذه القسوة؟!.. لقد أحسست بهذا التذبذب في عنفوان قوته، فرحت ألوم نفسي، وأستحيى منها، وأسخط عليها.. ولكن كل هذا لم يكن كافيًا لأن يردّني إلى حجاى. وكان علىّ - في انصياعي التام - أن أخوض كل المخاطر، وأن أتهيأ لمواجهة كل ما يُقال.. وأن أعدّ ذهني لكل شيء اللهم إلا أن أتعرَّض لأن أقرِّر - فيما بعد - ما إذا كنت أنشر كتابي على الناس أو لا أنشره. إذ أنني لم أكن اعتقد أنني قد أنشره!

وإذ انتهيت إلى هذا الرأي، ألقيت بكل نفسي في غمرة تصوراتي، وبفضل تقليبها في ذهني مرارًا، رسمت في النهاية مشروع الخطة التي شاهد الرأي العام الكتاب يخرج بمقتضاها. ومن المحقق أن هذا كان خير ما يُستمد من نزواتي.. فإن حب الخير، الذي لم يغادر قلبي البتة، حوَّل هذه النزوات تحويلًا طبيعيًا نحو أهداف نافعة، كان من الممكن أن تغدو مثمرة وذات نفع خلقي. لقد كانت مناظرى المستوحاة من الحب خليقة بأن تفقد بهاءها، لو أعوزتها صبغة البراءة اللطيفة. إن الفتاة الضعيفة تكون موضع إشفاق، قد يجعله الحب مادة مشوقة لا تفتر متعتها في كثير من الأحيان. ولكن منذا الذي يطيق - دون استنكار - منظر الآداب والأخلاق في إطار حديث؟.. أي شيء أدعى للتقزز من غرور الزوجة الخائنة، التي تدوس كل واجباتها تحت قدميها جهارًا، ثم تزعم - برغم ذلك - أن زوجها خليق بأن يتقبَّل في عرفان عميق، ما تمنحه من صنيع، إذ تتكرَّم فلا تدع نفسها تُباغت وهي تمارس الخيانة؟!.. ليس للمخلوقات المثالية الكاملة وجود، ومن ثم فإن الدروس التي توحي بها جد بعيدة عن أن نستسيغها. أما إذا قُدِّر لشابة، منحتها الطبيعة قلبًا يزخر بالشرف بقدر ما هو مفعم بالحنان، أن تدع الحب يغلبها وهي فتاة عذراء، ثم تجد من نفسها القوة على أن تهزمه بدورها - وقد غدت امرأة ثيبًا - لتغدو عفيفة من جديد..! إن الذي يقول لك إن هذه الصورة في مجموعها فاضحة، وغير مفيدة، لكاذب ومنافق، فلا تصغ إليه، مهما يكن!

وكان لدىَّ إلى جانب الأخلاق والأمانة الزوجية - اللذين يرتبطان ارتباطًا جوهريًا بكل نظام اجتماعى - هدف أعمق وأكثر تواريًا.. ذلك هو التوافق، والوئام العام.. وهو هدف أعظم من سابقه، وربما كان - في حد ذاته - أكثر قيمة وأهمية.. بل إنه كان كذلك في تلك الآونة حقًا.. ولم تكن العاصفة التي أثارتها « الموسوعة »[16] قد خمدت، بل إنها كانت ـ في هذه الفترة - في أوج احتدامها. فقد انطلق كل من الفريقين[17] يهاجم الآخر في سعار جامح، وكأنهما قطيعان من ذئاب مسعورة، تأهّب كل منهما لأن يمزّق الآخر في هياجه.. لا فريقان من مسيحيين[18] وفلاسفة توّاقين لتبادل المعرفة والاقناع، كى يهدى كل منهما الآخر إلى

طريق الحقيقة!.. بل إنه لمن الجائز أن يُقال إن كلًا من الفريقين لم تكن تنقصه سوى قادة عاملين ذوى شهرة، كي ينقلب النزاع إلى حرب أهلية!.. ويعلم الله ما كان يترتب على حرب أهلية دينيـة، كانت أقسى ألوان التعصب تكمن في قرارة كل من الجانبين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولما كنت بفطرتى عدوًا لكل تحزّب، فإنني أفضيت إلى كل من الجانبين بالحقائق المريرة التي أبوا أن ينصتوا إليها. وأنطت بنفسي مهمة أخرى تراءت لي - في سذاجتي - جديرة بالاعجاب. تلك هي أن أخفّف من العداء المتبادل بين الفريقين، وأن أقوّض أباطيلهما ونعراتهما، وأبيّن لكلٍ كفاءة الآخـر وفضائله وجدارته بالتقدير العام، وباحترام الجنس البشري بأسره[19]. ولقد ظفر هذا المشروع غير المعقول - الذي قادني إلى عين الخطأ الذي أخذته على الأب « سان بيير » - بالنجاح الذي كان يستحقه. إذ أنه لم يُقرِّب بين الفريقين، وإنما ألبهما معًا ضدى!.. وإلى أن تكشفت لي حماقتى، أقبلت عليها بكل حماس جدير بالحافز الذي ألهمنيها، كما ينبغي أن يُقـال، فرسمت شخصيتى « فولمار » و « جولى »، وأنا في نشـوة حملتني على أن آمل في أن أجعلهما معًا خليقين بالحب، وأن يتسنى ذلك عن طريق حب كل منهما للآخر!

وإذ ارتحت إلى رسم الهيكل البدائي لمشروعي، عدت إلى المواقف التي كنت قد عيّنتها للتوسع والتفصيل. فأدّى النظام الذي رتبتها بمقتضاه، إلى الجزءين الأوّلين من كتاب « جولى »، الذي كتبته وفرغت من نسخه خلال شهور الشتاء، في غبطة لا سبيل إلى وصفها، مستعملًا أبدع ورق مذهب الحواف، ومستخدمًا مسحوقًا أزرق وفضيًا لتجفيف مداد الكتابة، وشريطًا أزرق لا مثيل له لربط صفحات كراساتي. وموجز القول أنني لم أضن بكل شيء أنيق وبديع على فتاتَيّ الفاتنتين، اللتين عشقتهما وكأننى « بيجماليون » آخر[20]. فكنت في كل مساء، أقرأ - إلى جانب مدفأتي - هذين الجزءين وأرددهما على سمع « الدادتين ». فكانت الابنة تذرف معى الدمع حنانًا، دون أن تنبس ببنت شفة. أما الأم التي لم تجد فيمـا كنت أقرأ أية مجاملات، فإنها لم تفقه شيئًا، فكانت تمكث ساكنة، مكتفية بأن تردِّد لي دائمًا، في لحظات الصمت: « هذا بديع جدًا يا سيِّدي »!

وأقلق السيِّدة « ديبيناى » أن تعلم أنني كنت وحيدًا - في الشتاء - وسط الغابات، وفي منزل منعزل، فراحت تكثر من إيفاد مَن يتسقطون أنبائي. وما تلقيت قط مثل هذه الشواهد الصادقة على مودتها لي، كما أن مشاعري لم تكن يومًا أكثر حرارة مما كانت في مقابلة ودّها. وإني لأذنب إذا أغفلت أن أذكر من هذه الشواهد أنها أرسلت إليّ صورتها، وسألتني أن آذن لهـا بالحصول على صورتى، بريشة « لاتور »، ثم عرضتها في قاعة جلوسها (صالونها). كذلك ينبغي ألا أغفل لفتة أخرى من لفتاتها، قد تبدو مضحكة، ولكنها من معـالم تاريخ شخصيتي، وذلك بفضل الأثر الذي أحدثته في نفسي. ففي ذات يوم، وقد اشتدّ تكاثف الصقيع، فضضت حزمة أرسلتها هي لي، وضمنتها عدَّة أشياء تكفلت بإعدادها لي، فوجدت بينهـا « جونلة » داخلية قصيرة، من « الفانيلا » الإنجليزية، ذكرت أنها اعتادت أن ترتديهـا، وأعربت عن رغبتها في أن أصنع منها صدارة. وكان أسلوب رسالتها ساحرًا، مليئًا بالحنان والسذاجة. وبدا لي هذا الدليل على العناية ـ الذي كان يفوق كل ما تمليه الصـداقة - بالغ الحنان، حتى لكأنها قد تعرَّت لكي تكسوني، وحتى أننى - في جيشان عواطفى - قبّلت الرسالة و « الجونلة » عشرين مرة، وأنا أبكى! وظنّت « تيريز » أننى قد اختبلت!.. ومن العجيب حقًّا أن شيئًا من دلائل الود - التي أسبغتها علىّ السيِّدة ديبيناي - لم يؤثّر في نفسي قـدر ما أثّر هذا الدليل الذي ما اعتدت أن أتذكره دون أن تخفق مشاعرى، حتى بعد القطيعة التي ضربت بيننا. وقد احتفظت برسالتها القصيرة أمدًا طويلًا، وكنت خليقًا بأن أظلّ محتفظًا بها، لولا أنها لقيت مصيرها مع رسائلي الأخرى التي تمت إلى هذه الفترة[21].

ومع أن احتباس البول لم يدع لى نصيبًا يُذكر من الراحة، في ذلك الشتاء، ومن أنني كنت أضطر - لفترة من الزمن - إلى استخدام المجسات.. مع ذلك فإن هذا الفصل كان أمتع الفصول التي قضيتها - منذ وصولي إلى فرنسا - وأكثرها هدوءًا!.. ففي خلال الشهور الأربعة أو الخمسة التي ساعد سوء الطقس على زيـادة اعتكافى وعزلتي عن الزائرين، استمرت هذه الحياة المستقلة، المسترسلة، البسيطة، كما لم أستمرئها من قبل.. ولم يزدها الاستمراء - في نظري - إلا قيمة.. ولم يكن لي من أنيس سوى « الدادتين » - في عالم الحقيقة - وابنتي جنسيهما، في عالم الفكر، وفي ذلك الوقت بالذات، رحت أهنىء نفسي يومًا بعد يوم، على القرار الذي أوتيت من حسن الإدراك، ما مكنني من اتخاذه، دون أن أحفل بصيحات أصدقائي.. الذين أغضبهم أن رأوني أفلت من تسلطهم22.. ولكم حمدت السماء عندما سمعت عن محـاولة معتـوه23، وحين حدَّثنى « ديليير » والسيِّدة « ديبيناى »، في خطاباتهما، عن الاضطرابات والقلاقل التي سادت باريس، إذ كنت بمنأى عن مناظر الارهاب والجريمة، التي لم يكن لها من أثر سوى تغذية وشحذ المزاج الصفراوي، الذي كان مرأى الاضطرابات العامة يثيره في نفسي.. في حين أنني لم أكن أرى نفسي - في هذه الفترة - محوطًا بغير أطياف باسمة، وادعة، فكان فؤادي غير منساق لغير الأحاسيس المستحبة اللطيفة. إننى لأسجل هنا في انتشـاء، سير تلك اللحظات الوادعة التي كانت آخر ما أتيح لي أن أنعم به. فإن الربيع الذي أعقب هذا الشتاء الهادىء، شـهد تفتح بذور المصائب التي بقى علىَّ أن أصفها، والتي لن يقدّر لامرىء أن يرى - خلال نسيجها - فترة تشبه هذه التي كنت أستطيع أن أجد فيها متنفسًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومع ذلك، أراني أتذكر أنني - خـلال هذه الفتـرة المطمئنة، بل وفي أعماق عزلتي ـ لم أبق بمنجى تام من عصبة « دولباخ ». فقد أثار « ديدرو » بعض مضايقات لي، وما لم أكن موغلًا في الخطأ، فإنني أظن أن « أبناء السفاح » - وهي القضية التي سأتحدَّث عنها توًّا - ظهرت في هذا الشتاء. ولست بحاجة إلى أن أذكر عـددًا جد ضئيل من الوثائق التي يمكن الاستناد إليها فيما يتعلَّق بهذه الفترة.. بل إن الوثائق التي تُركت لي منها، غير دقيقة التواريخ إلى حد كبير. فإن ديدرو لم يكن يثبت التاريخ على رسالة قط، وكذلك لم تكن السيِّدة ديبيناي والسيِّدة دوديتو تؤرخان خطاباتهما بغير ذكر اسم اليوم، وكان ديليير يحذو حذوهما في أكثر الأحيان. فلما أردت أن أرتب هذه الرسائل، كان علىَّ أن أتحسس طريقي في الظلام لأحدس تواريخ لا يمكن الجزم بصحتها، ولا أملك أن أركن إليها. ومن ثم فإنني - إذ أعجز عن إثبات بداية هذه الفتن والخلافات بدقة ـ أوثر أن أروى فيما بعد ـ في قسم منفصل ـ كل ما أستطيع أن أذكره عنها.

ولقد ضاعفت عودة الربيع من شطحاتى العاطفية، فإذا بي في نوباتي الولهانة أصوغ - للجزءين الأخيرين من « جولى » - عدّة خطابات تطفح بالنشوة التي كنت فيهـا وأنا أكتبهـا. وأستطيع أن أذكر الرسالة التي دارت حول جنة الوثنيين، والرسالة التي وصفت النزهة على ضفاف البحيرة، وهما اللتان - إذا صح ما أذكر - تختمان الجزء الرابع. فإذا قُدر لأحد أن يقرأ هاتين الرسالتين دون أن يشعر بقلبـه يلين ويذوب في نفس المشاعر التي أملتهما علىَّ، فخير له أن يغلق الكتاب، لأنه غير قـدير على أن يعرف للأشياء العاطفية قيمتها!

وفي تلك الآونة بالذات، تلقيت زيارة ثانية - لم تكن مرتقبة - من السيِّدة « دوديتو ». فلقد وفدت على (أوبون) - في وسط وادى مونمورنسى - في غياب زوجها، الذي كان ضابطًا في الشرطة، وشقيقها الذي كان كذلك في السلك العسكري. وكانت قد اتخذت لإقامتها هناك، بيتًا بديعًا للغاية. ومن هذا البيت، جاءت في نزهة ثانية إلى (ليرميتاج). وقد قامت بهذه الرحلة على صهوة جواد، وفي زى الرجال. ومع أنني لا أميل إلى مثل هذا الخلط في

الأزياء، إلا أنني أعجبت بما كان في تنكرها هذا من جو شاعرى، خيالى.. وكان شعوري في هذه المرة.. هو الحب!. وإذ كانت هذه هي المرة الأولى - والوحيدة - في حياتي بأسرها، وقد تركت معقباتها أثرًا على ذاكرتي طُبع بقوة لا تجعله ينمحي، فلا بد لي من أن أخوض هذه المسألة بشيء من التفصيل.

كانت السيِّدة الكونتة دوديتو تقترب من عامها الثلاثين، ولم تكن جميلة على الإطلاق، فقد ترك الجدري آثاره على وجهها، وكانت بشرتها تفتقد النعومة، كما أنها كانت قصيرة النظر، ذات عينين مستديرتين أكثر مما ينبغي.. بيد أنها أوتيت مع كل هذا إشراقة الشباب، وكانت قسماتها - التي جمعت بين الحيوية والرقة - جذَّابة.. وكانت تمتلك فيضًا من شعر أسود رائع، مجعد بطبيعته، ومنسدل حتى ركبتيها.. أما قوامها، فكان صغيرًا لطيفًا، وكانت تودع كل حركاتها خفرًا وبهاءً في وقت واحد. وكان ذكاؤها عاديًّا ومقبولًا للغاية، وقد اقترن فيه المرح وخلو البال والسذاجة أهنأ اقتران. فكانت تنساب في سيل من الدعابات الفاتنة التي لم تكن تتكلفها البتة، والتي كانت تنطلق بالرغم منها أحيانًا. وكانت على كثير من المواهب المستحبة، فكانت تتقن العزف على « البيانو »، وتجيد الرقص، وتقرض أشعارًا بديعة للغاية. أما أخلاقها، فكانت ملائكية، باطنها رقة النفس، وظاهرها الحكمة والقوة والجمع بين كل الفضائل.. وكانت ـ فوق كل هذا - أهلًا للثقة في المعاشرة، وذات وفاء في الصحبة، إلى درجة أن أعداءها أنفسهم لم يكونوا بحاجة إلى أن يتستروا منها. وأقصد بأعدائها أولئك الذين، أو بالأحرى أولئك اللائي كن يكرهنها. أما من ناحيتها هي، فقد كانت ذات قلب لا يقوى على أن يكره أحدًا.. وأعتقد أن هذا التشابه في الطباع، قد ساعد كثيرًا على إذكاء وجدى نحوها!

وما سمعتها قط - في الخلوات التي كانت تمتاز بأوثق مظاهر الود - تتحدَّث بسوء عن الغائبين، بل ولا عن أخت زوجها!.. وما كانت تملك أن تخفى ما بفكرها عن أي مخلوق، ولا أن تكبح شيئًا من مشاعرها، حتى أنني لأميل إلى الاعتقاد بأنها كانت تتحدَّث عن عشيقها إلى زوجها، بنفس الصراحة التي كانت تتحدَّث بها عنه إلى أصدقائها ومعارفها وكل الناس على السواء!.. وأخيرًا، فإن الذي يثبت - دون مراء - نقاء وإخلاص فطرتها الرائعة، هو أنها كانت تتعرَّض لأعجب نوبات شرود الذهن، ولأكثر نوبات السهو مدعاة الضحك، وكثيرًا ما كانت هذه النوبات تفتقد الحكمة - بالنسبة لها هي بالذات ـ ولكنها لم تكن لتمس قط أي إنسان بما يجرح كرامته!

وكانت قد زُفّت - وهي بعد صغيرة، وبالرغم عنها - إلى الكونت دوديتو، الذي كان ذا جاه، وكان عسكريًّا شهمًا، ولكنه كان مقامرًا، شرسًا، يعوزه اللطف، فلم تحبه هي قط.. وإنما وجدت في السيِّد « دي سان لامبير »، كل ما كان لدى زوجها من خصال طيبة، إلى جانب صفات أخرى أكثر ملائمة.. فمن ذكاء، إلى فضائل، إلى مواهب. ولو جاز للمرء أن يغفر شيئًا من طباع ذلك العهد، فإنما الجدير بالغفران حقًّا هي العلاقة التي لا تزداد مع الزمن إلا صفاء، ولا تزيدها آثارها إلا تكريمًا وتمجيدًا، ولا يدعمها سوى الاحترام والتقدير المتبادلين[24]!

وعلى قدر ما يُخيل إليَّ، كانت قد صدرت في زيارتها لى عن قليل من ميلها الخاص، وكثير من الرغبة في إرضاء « سان - لامبير ». فقد كان يستحثها على ذلك، وكان على صواب إذ اعتقد أن الصداقة التي بدأت تقوم بيننا، كانت خليقة بأن تجعل هذه الصحبة ملائمة مستحبة لثلاثتنا. وكانت تعلم أنني مطلع على علاقتهما، ومن ثم فإن في استطاعتها أن تتحدَّث إليَّ عنه دون حرج، كانت كفيلة بأن تجعلها ترتاح إلى صحبتى. ومن ثم جاءت.. واستقبلتها.. وكنت نشوان بحب بغير ذي هدف منظور، فإذا النشوة تسحر عيني، وإذا الهدف يتركز عليها هي. فرأيت « جولى » - التي ابتدعتها - في السيِّدة « دوديتو ».. ولم أعد - بعد قليل - أرى سوى السيِّدة « دوديتو » فقط، وقد اكتست بكل أسباب الكمال التي

كنت أزين بها معبودة قلبي!.. ولكي تسكرني تمامًا، راحت تحدّثني عن « سان - لامبير » في وجد مشبوب.. فيا لسلطان الهوى المضيع!.. لقد استولت عليَّ - إذ كنت أسمعها، وإذ كنت أشعر بالقرب منها - قشعريرة عذبة، لم أعهدها قط في قرب أي شخص!.. وراحت تتكلَّم، وأنا نهب للانفعالات.. ووهمت أنني لم أكن مهتمًا بغير مشاعرها، فإذا بي أحس بمشاعر على شاكلتها.. ورحت أجرع - في دفعات كبيرة - الكأس المسمومة التي لم أعد أتذوق فيها سوى الحلاوة العذبة!.. وفي النهاية، بعثت في نفسى نحوها - دون أن أفطن، ودون أن تفطن هي - كل ما عبَّرت عنه من مشاعرها نحو حبيبها. واحسرتاه!.. كان الوقت المناسب قد فات، وكان من القسوة أن أحترق بوجد مشبوب ـ لم يكن في عنفه بأقل منه في تعاسته وشقوته - نحو امرأة، كان قلبها مليئًا بحبٍ آخر!

وبالرغم من الانفعالات الغريبة التي خامرتني في قربها، فإنني لم أفطن - في البداية - إلى ما أصابني.. ولم يكن ذلك إلا بعد رحيلها، وعندما أردت أن أفكِّر في « جولي »، فإذا بي أبهت إذ وجدت أنني لم أعد أقوى على التفكير في غير السيِّدة، وعندما أردت أن أفكّر في دوديتو. وإذ ذاك، انجابت الحجب عن عيني، وأحسست بسوء حظي، فرحت أئن وأتأوه.. ولكنني لم أحدس ما كان هناك من نتائج!

ولقد تردّدت طويلًا بصدد الطريقة التي انتهجها في تصرّفي نحوها، وكأنما كان الحب الحقيقي قد خلف من العقل ما يكفى لكي أتخيّر لنفسي المسلك!.. ولم أكن قد انتهيت إلى قرار، عندما جاءت مرة أخرى، ففاجأتني على غير استعداد. وفي هذه المرة، أيقنت من موقفي، فإذا الحياء - قرين السوء - يعقل لسانى، فرحت أرتجف أمامها، دون أن أجرؤ على أن أفتح فمي، أو أن أرفع عيني.. كنت في اضطراب لا سبيل إلى وصفه، حتى لقد كان من المستحيل ألّا تكون قد أبصرته. واعتزمت أن أصارحها، وأن أدعها تحدس السبب.. فقد كنت بهذا كأننى أبوح لها بصراحة تامة!

ولو أننى كنت شابًا ومليحًا، وكانت السيدة دوديتو قد أبدت ضعفًا، من جراء هذا، لأقدمت هنا على لوم مسلكها. ولكن شيئًا من هذا لم يكن، ولم أكن أملك سوى أن أطرى مسلكها وأعجب به!.. وكان الرأي الذي اتخذته، يجمع بين الكرم والحكمة. فما كان بوسعها أن تنأى عنى فجأة، دون أن تذكر السبب لسان - لامبير، الذي أوصاها - بنفسه - بأن تزورنى.. ومعنى هذا، تعريض صديقين للقطعية، وقد يترتب عليه فضيحة كانت راغبة في تفاديها!. وكانت تكن لي كل تقدير، وكل خير. ولقد رثت لخبلى، وراحت تلتمس له المعاذير - في غير تملق ولا رياء ـ وحاولت أن تبرئني منه.. ولقد كان يسرّها، كل السرور، أن تتمكن من الإبقاء - لنفسها ولحبيبها - على صديق كانت تقدّره حق قدره. ولم تحدّثني عن شيء، بمثل الاغتباط الذي راحت تحدّثنى به عن الود ولطف المعاشرة اللذين نستطيع أن نوثقهما بيننا، نحن الثلاثة، عندما أعود إلى رشدى.. على أنها لم تقتصر تمامًا على هذه المواساة الودّية، ولم تعفني - عند الحاجة ـ من تأنيبات كانت أقسى مما كنت أستحق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم أكن أقل منها قسوة في تأنيب نفسي!.. فما هو أن أصبحت وحيدًا، حتى عدت إلى نفسي، وإذا بي أكثر هدوءًا، بعد أن بحت بما كنت أكتم.. فإن الحب إذا ما عرف لتلك التي أوحت به، يغدو أكثر احتمالًا!.. ولابد أن الشدَّة التي رحت ألوم بها نفسي على الحب الذي استشعرته، كانت كفيلة بأن تبرئني منه، لو أن هذا كان ميسورًا!.. أية حوافز قوية لم أستنجد بها لخنق هذا الحب؟!.. إن قوانيني الخلقية، وأحاسيسي، ومبادئي، وحيائي، وخيانة العهد، والإجرام، وإساءة استغلال الوديعة التي ائتمنت عليها بحكم الصداقة، والسخرية التي كان يستوجبها تحرقي ـ في مثل هذه السن ـ بأشدّ الصبابات جموحًا، نحو هدف لم يردعني انشغال قلبه، ولا سمح لي بأي رجاء.. صبابة كانت ـ فوق كل هذا - بعيدة

عن أن تمتاز بما يكفل لها الدوام، بل أنها راحت تتجاوز حد الاحتمال، يومًا بعد يوم.. كل هذه الأمور والاعتبارات، فكرت فيها!

منذا الذي يصدِّق أن الاعتبار الأخير، الذي كان كفيلًا بأن يرجح كفة الاعتبارات الأخرى، كان هو الذي أوهن قوتها جميعًا؟!.. فلقد قلت لنفسي: « أية هواجس أحفل بها إزاء نزوة حمقاء، لا يتعذَّب بها سواى؟ ».. أفأنا مغازل شاب يحق للسيِّدة دوديتو أن تخشانى؟.. ألن يُقال - على ضوء ما كانت توحيه إلىَّ نزعات الغرور - أن تظرفى، ومسلكي، ومظهري قد أغوتها؟.. إذن، فأحبب ما شاء لك الهوى، يا جان جاك البائس.. أحبب وأنت مرتاح الضمير، ولا تخش أن تزعج زفراتك، « سان ـ لامبير »!

ولقد أصبح من الواضح، أنني لم أكن يومًا مقدامًا على نشدان النفع الذاتي، واستغلال الفرص، حتى في صباى. وكان هذا المذهب في التفكير، يتسق مع اتجاه ذهنى، فكان يمتدح صبابتي ويزينها، مما سهل علىَّ الاستسلام لها في غير ما تحفظ، بل والضحك من الهواجس الوقحة التي خلت - عن غرور، وليس عن تعقل - أننى أوحيت بها!.. فيا له من درس جليل للنفوس الشريفة، التي لا تهاجمها الرذيلة جهارًا قط، ولكنها تتحايل على مباغتتها، وهي تتوارى دائمًا وراء ستار من الزهد.. أو من الفضيلة غالبًا!

كنت مذنبًا دون ندم، ولكنني سرعان ما أصبحت مذنبًا دون حد.. وأناشدكم أن تروا كيف سارت صبابتي في أعقاب طبيعتى، لتجرني في النهاية إلى الهاوية!.. لقد اتخذت هذه الصبابة - في البداية - مظهر التواضع، لكي تطمئنني.. ثم دفعت هذا التواضع إلى أن انقلب تحديًا، لكي تحفزني!.. ومع أن السيِّدة « دوديتو » لم تكف عن تذكيرى بواجبى، وعن محاولة ردي إلى حجاي.. ومع أنها لم ترض لحظة عن حماقتى، إلا أنها ظلَّت - فيما عدا ذلك - تعاملني بأعظم قدر من اللطف، وراحت تبدى نحوى أرق مظاهر الود. وإني لأعترف بأن هذا الود ما كان يكفيني، لو أنني آمنت بأنه كان صادقًا، غير أننى ألفيته أشدّ تحمسًا من أن يكون صادقًا، فمضيت قدمًا في الإيعاز إلى نفسي بأن الحب - الذي لم يعد منذ ذاك الحين ملائمًا لسني ولا لشكلي - قد حقرني في نظر السيِّدة دوديتو، وأن هذه الشابة النزقة لم تكن تبغى سوى أن تتخذ مني ومن عواطفي التي لم تكن تلائم سني، مادة للتسلية، وأنها قد صارحت « سان ـ لامبير » بذلك، فإذا استنكاره لعدم وفائي يحمله على أن يرى في ما كانت تراه حبيبته، وإذا بينهما اتفاق للعبث بي والضحك منى!.. هذا الوهم الذي حملني - عندما كنت في السادسة والعشرين من عمرى - على أن أتمادي مع السيِّدة دى لارناج - دون أن أكون على تعارف بها - لم يكن مما يُغتفر في سن الخامسة و الأربعين، ومع السيِّدة دوديتو، لو أنني تجاهلت أنها وحبيبها كانا أكرم من أن ينغمسا في مثل هذه الملهاة القاسية!

وواصلت السيِّدة دوديتو أداء زيارات لى، لم أكن لأتوانى عن ردها. فلقد كانت مثلي، تحب التريض على الأقدام، فكنا نقوم بنزهات طويلة في منطقة من الريف فاتنة. وبما أننى قنعت بأن أحب، وبأن أجرؤ على الإفضاء بحبي، فقد كان خليقًا بي أن أغتبط بأنني في أهنأ وضع، لو لم يفسد تهوري كل فتنة. ذلك أنها لم تفهم - في البداية - شيئًا من النزق الذي كنت أتقبل به ملاطفاتها، ولكن قلبي العاجز دوامًا عن أن يتعلّم كيف يخفى ما بداخله، لم يدعها طويلًا في جهل بما كان يساورني. ولقد حاولت أن تحمل شكوكى ومخاوفى على محمل الدعابة، ولكنها أخفقت في هذه المحاولة التي لم تؤد إلا إلى نوبات من الغضب المحتدم، ومن ثم فإنها غيَّرت مسلكها. ومع أن رقتها الناعمة لم تتزعزع، إلا أنها راحت توجِّه إليَّ من التأنيب ما كان يخترم قلبي.. وأطلعتنى ـ في مقابل مخاوفى الظالمة - على قلق رحت أعيبه.. وطالبتها بدليل على أنها لم تكن تهزأ بى، فلم تجد من وسيلة لكي تطمئننى، سوى عين الشيء الذي كنت أنشده!.. ورحت ألح!.. وكان الموضوع دقيقًا، شائكًا!.. ومن العجيب - بل لعله من المصادفات الفذَّة - أن تتمكن امرأة جرؤت على التمادي

إلى حد المساومة، من أن تخرج من المأزق بسلام.. فإنها لم تأب عليَّ شيئًا مما يستطيع أرق الود أن يكفله.. ولكنها لم تمنحنى شيئًا مما كان يحتمل أن يرديها في حمأة الخيانة!.. وقُدِّر لي أن أرى - في ذلة وهوان - أن النيران التي كان أتفه صنيع من ناحيتها يؤججها في فؤادي، لم تشعل في قلبها أضأل شرارة!

ولقد قلت ـ في مكان ما25 - إن على المرء ألّا يتيح للشهوات شيئًا على الإطلاق. إذا هو رغب في أن ينكر عليها بعض الأشياء!.. ولتبين مدى إخفاق هذا الرأي، في قصتى مع السيِّدة دوديتو، ومدى حكمتها هي وسداد رأيها في الاعتماد على نفسها، يجب أن أصف بإسهاب خلواتنا الطويلة، العديدة، وأن أبيّن كل ما كان يصحبها من انفعالات وفورات خلال الشهور الأربعة التي قضيناها معًا في ود لا يكاد يكون له مثيل بين صديقين من جنسين مختلفين، اقتصرا على حدود معينة لم يتجاوزاها البتة. آه!.. إذا كنت قد تأخرت طويلًا قبل أن أشعر بالحب الحقيقي، فما أفدح الثمن الذي دفعه قلبى وحواسى!.. ويا للانفعالات التي لابد للمرء من أن يستشعرها بالقرب من شخص حبيب، يحبنا، إذا قُدِّر للهوى الذي لا يلقى جزاء، أن يوحي بنظير له!

ولكنني أخطىء إذ أقول « حبًا بدون جزاء »، فإن حبي كان يحظى بمقابل، إلى حد ما.. كان حبًا متعادلًا لدى الطرفين، وإن لم يكن متبادلًا بينهما.. كان كلانا نشوان بالهوى.. هواها لحبيبها، وهواى لها!.. وكانت زفراتنا ودموعنا المسرية تختلط معًا. وكانت نجوانا واعترافاتنا ومشاعرنا مترابطة أوثق ترابط، حتى لقد كان من المستحيل ألّا تتحد عند أمر من الأمور!.. ومع ذلك فإن السيِّدة دوديتو لم تكن تنسى نفسها لحظة واحدة، في غمرة النشوة الخطرة.. أما أنا، فأعترف - بل أقسم - أننى إذا كنت قد حاولت في بعض الأحيان، أن أحملها على الخيانة، مدفوعًا بمشاعري الشهوية، إلا أنني لم أكن أصدر في ذلك عن شهوة حقيقيـة قط!.. كان استعار وجدى، يبقى هذا الوجد في نطاقه، من تلقاء ذاته!.. ذلك لأن واجب إنكار الذات بهر روحي، كما أن رواء الفضائل جميعًا زاد معبود قلبي بهاءً في عيني، فكان في تدنيس طيفه القدسي قضاءً مبرمًا عليه. ولقد كنت خليقًا بأن أرتكب هذا الجرم، إذ أنه ارتكب في فؤادي مائة مرة، ولكن.. كيف كنت أجرؤ على أن أهين حبيبتي صـوفى؟!.. أفكان هذا من المحتمل يومًا؟!.. لا، لا! هكذا رحت أؤكد لها - في نفسي وفؤادي - مائة مرة.. ولو أننى ملكت يومًا أن أرضى نفسى، ولو أن الحبيبة أسلمتني نفسها طواعية، وعن طيب خاطر، لكان جديرًا بى أن أرفض السعادة بهذا الثمن. لقد كنت أحبها حبًا أقوى من أن أطمع في وصالها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن المسافة بين (ليرميتاج) و (أوبون) تقرب من فرسخ. وقد قُدِّر لي أحيانًا - في رحلاتي العديدة إلى (أوبون) ـ أن أقضى ليلي هناك. وفي إحدى الليالي، بعد أن تناولنا العشاء على انفراد، شرعنا في التريض في الحديقة، في غمرة ضوء القمر الذي كان زاهيًا. وفي الطرف الأقصى لهذه الحديقة، كان ثمة حرش واسع النطاق، سعينا فيه إلى روضة جميلة يزينها مسقط مائي، كنت أنا صاحب الفكرة في إقامته، وكانت السيِّدة دوديتو هي التي تولت إنشاءه.. يا له من تذكار خالد للبراءة والغبطة!.. وفي هذه الروضـة جلست وإياها على أريكة من الحشائش، تحت خميلة محملة بالزهور.. وبحثت - في سبيل التعبير عن مشاعر قلبى - عن لغة تليق بهذه المشاعر. وكانت هذه أوّل مرة - بل المرة الوحيدة في حياتي - التي سموت فيها عاليًا بمشاعري، إذا جـاز إطلاق هـذا الوصف على الفتنة الوادعة، المغرية، التي يوحي بها إلى قلب الرجل أرق ألوان الحب وأقواها. ويا للدموع النشوانة التي سكبتها على ركبتيها!.. ويا للدموع التي استدررتها إياها على الرغم منها!.. وأخيرًا، صاحت، صاحت في انفعال لا إرادي: « لا!.. لم يوجد بين الرجال عاشق بهذه الدرجة قط.. وأبدًا لم يحب عاشق بهذا الوجد!.. ولكن صديقك « سان - لامبير » يسمع إلينـا، ومـا كان لقلبي أن

يحب مرتين! ».. ولم أخرج عن الصمت إلّا بالزفرات، واحتضنتها.. وأي عناق!

ولكن هذا كان جلّ ما في الأمر!.. وكانت قد قضت ستة أشهر وحيدة، أعنى بمنأى عن عشيقها وعن زوجها.. وكنت قد ظللت - لثلاثة أشهر - أراها في كل يوم تقريبًا، وكان الحب ثالثنا على الدوام!.. ولقد تعشينا على انفراد.. وكنا وحيدين في خميلة، تحت ضوء القمر الزاهي.. وبعد ساعتين من أرق وأبدع حديث، غادرت ـ في منتصف الليل - هـذه الخميلة، وأحضـان صديقها[26].. وهي لم تمس بدنس، لا تزال طاهرة الجسد والقلب، كمـا أقبلت في البداية.. ألا تدبّر كل هذه الظروف يا قارئى، فلن أضيف مزيدًا قط!

ومنذا الذي لا يستطيع أن يتصوَّر أن أحاسيسى تركتنى دون ازعاج - في هذه المناسبة - كما اعتادت أن تفعل من قبل إزاء « تيريز » و « ماما ». ولقـد قلت من قبل، إن ما خامرني في هـذه المرة، هو الحب.. الحب في جماع قواه وفي عنفوان جيشانه!..



ن ما خامرنى فى هذه المرة ، هو الحب .. الحب فى جماع قواه وفى عنفوان

جيشانه !..

ولن أصف هياجي، ولا ارتجافى، ولا خفقان فؤادي، ولا اختلاجاتي المتشنجة، ولا ضعف القلب الذي كنت أستشعره باستمرار، فمن الميسور إدراكها من التأثر الذي كان طيفها وحده يحدثه في نفسي!

فقد ذكرت أن (ليرميتاج) كان بعيدًا عن (أوبون)، وكنت أمرّ في طريقي بتلال (انديللي) البديعة. وفيما كنت أسير إلى (أوبون) رحت أحلم بتلك التي كنت أسعى إلى زيارتها، وباللقاء الناعم، وبالقبلة التي تنتظرني عند وصولي. هذه القبلة الوحيدة، هذه القبلة الخطرة، ألهبت دمى - حتى قبل أن أتلقاها - بدرجة جعلتني أشعر بالدوار، وبأن ستارًا قد هبط على بصرى فأعمانى.. واهتزَّت ركبتاى فلم تعودا تقويان على حملي.. ووجدتني مضطرًا إلى التوقف عن السير، بل وإلى الجلوس.. فإن كل كيانى اضطرب، دون ما مبرر واضح.. وكدت أروح في إغماءة!.. وإذ فطنت إلى الخطر، رحت أحاول - حين عاودت السير ثانية - أن أشغل بالي بتفكير آخر.. على أنني لم أكد أقطع عشرين خطوة، حتى عاودتني نفس الرؤى وما ترتب عليها، في هجوم لم أجد في وسعى النجاة منه، وبطريقة ما أراني كنت مستطيعًا أن أبلغ هدفى دون ما ضرر، لو لم أجاهد كى أطيقها!

ووصلت إلى (أوبون) واهن القوى، مرهقًا، منهوكًا، لا أكاد أستوى معتدل القامة. وما أن رأيتها ـ أي السيِّدة دوديتو - حتى ارتدت إليَّ قواى، ولم أعد أشعر بالقرب منها إلا بتدفق قوى لا تنضب، ولا نفع لها أبدًا!.. وكان في طريقى، وعلى مشرف من (أوبون) طريق مرصوفة لا بأس بها، يُطلق عليها اسم (مونت أوليمب) اعتدنا أن نلتقى عندها أحيانًا، وقد أقبل كل من ناحيته. وكنت الأسبق إلى الوصول، فكان علىَّ أن أنتظر. ولكن ما أغلى ما كان هذا الانتظار يكبدنيه!.. ولكي أشغل بالى، حاولت أن أكتب بقلمي الرصاص بعض مذكرات كانت جديرة بأن تُكتب بأطهر ما لدىَّ من دم.. وما قُدِّر لي قط أن أتمّ واحدة تكون مقروءة. وعندما كانت هي تجد إحداها في الكوة التي اتفقنا على إيداع الرسائل فيها، لم تكن تطالع فيها سوى الحال الذهنيـة المتداعية التي كنت فيها عند كتابتها.. ولقد أدَّت هذه الحال - لا سيما بقاؤها طيلة ثلاثة أشهر من الانفعال والكبت - إلى إرهاقي، حتى أنني لم أبل منها لعدّة سنوات، وانتهت بأن خلفت لي هبوطًا سأحمله معي، أو يحملني معه، إلى القبر. وكانت هذه هي الغبطة الغرامية الوحيدة للرجل الذي أوتي أشدّ الأمزجة - التي أنجبتها الطبيعة - تأجّجًا، وأعظمها تهيبًا وخجلًا، في آنٍ واحد.. كما كانت هذه آخر الأيـام الجميلة التي احتسبتها على الأرض فمنذ ذلك الحين، بدأ نسيج محن حياتي ومصائبها.. النسيج الطويل الذي سيرى أنه غير متقطع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد تبدى - خلال مجرى حيـاتي بأسره - أن قلبي شفّاف كالبللور، فلم يتعلّم أن يكتم قط لدقيقة واحدة، أية عاطفة على شيء من الاحتدام، لاذت به. ومن ثم ففي الوسع إدراك المدى الذي كان في طاقتي أن أذهب إليه في كتمان حبي للسيِّدة دوديتو.. كان ودّنا جليًّا لكل عين، فلم نحطه بشيء من الكتمان ولا الغموض، إذ أن طبيعته لم تكن من نوع يحتاج إلى ذلك.. وكما كانت السيِّدة دوديتو تكن لي أرق ود، دون أن تجد أي حرج أو تثريب، فإنني كنت أحس نحوها بتقدير ما كان سواى ليدرك مدى عدالته وصحته.. ومن ثم فإننا كنا في طمأنينتنا الغرور، نتيح فرصًا للنيل منا أكثر مما كنـا نفعل لو أننا كنا مذنبين. هي بصراحتها، وتشتت بالها، وعدم اكتراثها بالتفكير.. وأنا بصدق عاطفتي، وتهيبي وخجلي، وغروري، ونفاد صبرى، وفوراتي العاطفية.. فكنا نذهب معًا إلى (لاشيفربت)، أو نلتقى هناك على موعد - في كثير من الأحيان - أو دون موعد، في بعض الأحيان.. وكنا نواصل هناك ما ألفنا من حياة، فنتمشى معًا وحيدين يوميًا - نحن نتبـادل الحديث عن هوانا، وواجباتنا، وصديقنا، وخططنا البريئة ـ في المتنزه المواجه لجنـاح السيِّدة ديبيناي، وتحت نوافذها التي كانت ترقبنا منها، وترانا بعينَيّ قلبها بغل دافق من نبع الغضب للكرامة، إذ كانت تخال

في ألفتنا إهمالًا لها وازدراء بها!

ولقد أوتيت النساء براعة في إخفاء غضبهن، لا سيما إذا كان هذا الغضب عارمًا، قويًّا.. وقد أحرزت السيِّدة ديبيناى - التي كانت واسعة العقل والحيلة - برغم عنفها، قدرًا كبيرًا من هذه البراعة. لذلك فقد راحت تتظاهر بأنها لم تكن ترى شيئًا أو ترتاب في شيء. وبينما أخذت تضاعف اهتمامها بي ورعايتها إياى - إلى حد المضايقة - راحت تحير أخت زوجها بخشونة مسلكها، وجفاء معاملتها، وتعريضاتها المهينة التي بدا أنها كانت تحاول أن توحي بها إلىَّ، وتبثها في نفسي أنا الآخر. ومن السهل إدراك أنها لم توفق، ولكنني كنت حائرًا معذبًا.. كنت نهبًا لمشاعر متعارضة، ففي الوقت الذي كان فيه عطف السيِّدة ديبيناي ولطفها يؤثّران في نفسي، كنت أجد عناء في كبح سخطي إذ أرى تضاؤل احترامها للسيِّدة دوديتو. ولقد استطاعت الأخيرة أن تحتمل ذلك دون تذمر - بل ودون ضغينة - بفضل ما أوتيته من طباع ملائكية. كما أنها كثيرًا ما كانت شاردة البال، لا تكاد تحس ما حولها، حتى أنها لم تكن تلاحظ نصف ما كان يجرى!

وكنت مستغرقًا في وجدى، حتى أنني لم أكن أبصر سوى « صوفى » - وقد كان هذا من أسماء السيِّدة دوديتو - فلم أفطن إلى شيء، بل ولا إلى أنني أصبحت حديث أهل القصر جميعًا والزائرين!.. وقد كان البارون « دولباخ » - الذي لم يزر (لاشيفريت) من قبل، على ما أعلم - بين هؤلاء الأخيرين. ولو أنني كنت من التريث بالدرجة التي صرت إليها فيما بعد، لشككت كل الشك في أن السيِّدة ديبيناى دبَّرت عمدًا هذه الزيارة، لتتيح له فرصة الاستمتاع بمشاهدة المناظر المسلية.. مناظر المواطن العاشق!

على أنني كنت من الغباء بحيث لم أر ما كان واضحًا متألقًا لكل مخلوق. ومع ذلك، فإن غبائي كله لم يحل بيني وبين أن أرى أن البارون كان أكثر اغتباطًا وانشراحًا من عادته. وبدلًا من أن يتجهم في وجهي، أغرقني بسيل من الدعابات التي لم أفقه منها شيئًا. وحملقت فيه، دون أن أجيب.. واضطرّت السيِّدة ديبيناي إلى أن تمسك جنبيها لتحد من ضحكها، ولكني لم أستطع أن أدرى شيئًا من حقيقة أمرهما!.. ولما لم يكن مزاحهما قد تجاوز الحدود، لذلك فقد كان خير ما أفعله - لو أننى فهمت كنهه - هو أن أدلى فيه بدلوى. ولكن الواقع هو أنه كان من السهل أن يلمح المرء في عينَيّ البارون - خلال مرحه الساخر - وميضًا من طرب مغيظ، كأن من المحتمل أن يثير قلقي، لو أنني انتبهت إليه إذ ذاك كما انتبهت فيما بعد، حين استرجعته في ذهني!

وحدث أن ذهبت لزيارة السيِّدة دوديتو في (أوبون) - يومًا - عقب عودتها من إحدى رحلاتها إلى باريس، فوجدتها واجمة، ولاحظت أنها كانت تبكي قبل وصولى. واضطررت إلى أن أتمالك نفسي، إذ كانت السيِّدة « دوبلينفيى » - « أخت زوجها » - حاضرة. ولكننى ما كدت أخلو إليها لحظة، حتى أفضيت إليها بقلقي، فقالت وهي تتنهّد: « آه!.. لشد ما أخشى أن تجردنى نزواتك من كل طمأنينة وراحة بال، طيلة ما تبقى من حياتي!.. لقد نُقل إلى « سان ـ لامبير » أمرنا، بأسلوب محرّف. وإنه لينصفني، ولكنه مستاء.. والأنكى من هذا، أنه لا يصارحني بكل شئ.. على أنني - لحسن الحظ - لم أتكتم أمر صداقتنا التي نشأت تحت رعايته.. فقد كانت خطاباتى - كقلبى - مليئة به. ولم أخف عنه شيئًا سوى حبك الأرعن، الذي كنت آمل أن أبرئك منه، والذي أستطيع أن أتبين أنه يراه جرمًا من ناحيتي، وإن لم يذكر لى ذلك. لقد أساء إلينا شخص ما، وظلمني، ولكن.. لا بأس. وعلينا أن نفصم تعارفنا، أو ليكن مسلكك كما ينبغي ويليق، فلست راغبة في أن أكتم شيئًا - بعد الآن - عن حبيبى! ».

وكانت هذه هي أوَّل لحظة أدركت فيها عار رؤية نفسي مهينًا، إذ فطنت إلى اساءتي إزاء شابة أحسست بأنها كانت محقة في لومها، وكان خليقًا بي أن أكون راعيًا لها وناصحًا.

وكان السخط الذي بعثه هذا في نفسي، كفيلًا بأن يجعلني من القوة بحيث أستطيع أن أغالب ضعفى، لولا أن الاشفاق الحنون - الذي أثارته في نفسي ضحية هذا الضعف - طغى على قلبي فوا أسفاه!.. أفكانت هذه لحظة أملك فيها أن أبث في قلبي صلابة، وهو زاخر بالدموع التي كانت تنساب إليه من كل ناحية؟!.. وما لبث هذا الحنان أن انقلب إلى غضب على وشاة السوء، الذين لم يروا من شعور خاطىء، ولكنه غير إرادي، سوى جانبه الآثم.. دون أن يعتقدوا، بل دون أن يحدسوا، ما كان لهذا القلب الذي نبض به، من إخلاص شريف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم نبق طويلًا في ريب من اليد التي وجهت هذه الصفعة!

كنا نعرف - معًا - أن السيِّدة ديبيناي كانت تكاتب « سان - لامبير ». ولم تكن هذه هي العاصفة الأولى التي أثارتها ضد السيِّدة دوديتو، فلقد بذلت محاولات لا عداد لها، لتنتزع « سان - لامبير » منها، وكان ما أحرزته بعض هذه المحاولات - في الماضي - يحمل السيِّدة دوديتو على أن ترتجف فرقًا مما يخبئه لها المستقبل!.. وإلى جانب ذلك، كان « جريم » - الذي أعتقد أنه تبع السيِّد « دى كاسترى » في رحيله مع الجيش - في (ويستفاليا)، وكذلك كان « سان - لامبير » وكانا يتزاوران أحيانًا!.. وكان « جريم » قد حاول التقرُّب إلى السيِّدة « دوديتو »، ولكن محاولاته أخفقت. وقد أغضبه هذا إلى الدرجة التي جعلته يكفّ عن زيارتها. ومن هنا يمكن للمرء أن يتصوَّر - على ضوء ما اشتهر به من اتضاع ـ مدى « برود الدم » الذي تلقى به ما زعم من أن السيِّدة دوديتو آثرت عليه رجلًا يكبره سنًّا، لا سيما وأنه لم يكن يتكلَّم عن هذا الرجل - من عرف طريقه إلى الأوساط الراقية - إلا باعتباره شخصًا ينعم برعايته وعطفه »!

وغدت وساوسي من ناحية السيِّدة ديبيناي أمورًا مؤكّدة، عندما سمعت ما حدث في بيتي. فقد اعتادت « تيريز » أن تتردّد على (لاشيفريت) - في الفترات التي كنت أقضيها هناك - لتحمل لي خطاباتي، أو لتؤدّى لي بعض أشياء كانت صحتى المعتلة تتطلبها. ولقد حدث أن سألتها السيِّدة ديبيناى عمَّا إذا كانت السيِّدة دوديتو تكاتبني، فلما أنبأتها بأننا نتبادل الرسائل، راحت تلحّ عليها لتسلمها رسائل السيِّدة دوديتو، مؤكدة لها أنها ستحكم إغلاق هذه الرسائل ثانية بمهارة لا تنم عن أنها فُضت!.. ولقد عمدت تيريز - دون أن تكشف عن مدى استنكارها لهذا الطلب، ودون أن تنبئني به - إلى اتخاذ أقصى أسباب الحيطة، لتخفى ما كانت تحمله إليَّ من رسائل.. وكان إجراءً حكيمًا، إذ أن السيِّدة ديبيناى قد أقامت عليها رقابة كلما جاءت، وكانت تتربص لها حتى تمرّ بها، وقد ذهبت في جرأتها إلى حد تفتيش مرولتها!

بل أنها فعلت ما هو أكثر من هذا، فقد دعت نفسها والسيِّد « دى مارجينسي » يومًا إلى الغداء في (ليرميتاج)، وكانت هذه أوَّل مرة تفعل فيها ذلك منذ سكنته، واستغلّت اللحظة التي كنت أتمشى فيها مع « مارجينسى »، فذهبت مع الأم والابنة إلى غرفة مكتبي، وسألتهما أن تطلعاها على رسائل السيِّدة دوديتو. ولو أن الأم كانت تعرف مكان هذه الرسائل، لكان من المحقق أن تسلمها إليها، ولكن الابنة وحدها - لحسن الحظ - هي التي كانت تعرف المكان، وقد زعمت أنني لا أحتفظ بشيءٍ منها!.. وكانت في هذا كاذبة، دون نزاع.. ولكنه أشرف، وأخلص، وأكرم خداع!.. وإذ رأت السيِّدة ديبيناي أنها لن تستطيع أن تغريها، راحت تحاول أن تستنهض غيرتها، بأن أخذت تلومها على طيبة قلبها، وعدم بصيرتها. ومضت تقول لها: « كيف تغفلين عن تبين أن علاقتهما آثمة؟.. إذا كنتِ - برغم كل الذي تستطيعين أن تبصريه بعينيك ـ لا تزالين بحاجة إلى مزيد من الأدلة، فعاوني فيما كان يجب أن تفعليه أنتِ للحصول على ذلك.. أنكِ تقولين إنه يمزق رسائل السيِّدة دوديتو بمجرَّد أن يطلع عليها، حسنًا!.. إذن، فاجمعي القصاصات بعناية وأسلمينيها، وسوف ألصقها

بعضها إلى بعض! ».

هكذا كانت الدروس التي لقنتها صديقتي لرفيقتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد كانت « تيريز » من الحكمة بحيث أنها لم تذكر لي شيئًا عن هذه المحاولات زمنًا طويلًا. ولكنها حين رأت ورطتي - في النهاية - شعرت أن من واجبها أن تفضى إلىَّ بكل شيء، حتى أصبح على بصيرة بأولئك الذين كان علىَّ أن أنازلهم، فأتخذ من الخطوات ما يكفل حمايتي من الغدر الذي كان مدبرًا لي!

وكان سخطى وغضبي يفوقان كل وصف. بدلًا من أن أخفى ما بنفسي عن السيِّدة ديبيناى - كما كانت هي تفعل معى - وأقابل دسائسها بمثلها، فإنني انسقت للتهور، دون أن أكبح نفسي، وأقدمت - بتسرعي المعهود ـ على القطيعة علانية. ومن الممكن قياس اندفاعي وعدم فطنتي، بالرسائل التالية، التي تبين بوضوحٍ كاف كيف تصرَّف كل منا في هذه المناسبة:

رسالة من السيِّدة ديبيناي (الملف أ ـ رقم **44**)

« ما السبب في أنني لا أراك، يا صديقي العزيز؟.. إننى قلقة بصددك لقد وعدتني مخلصًا، بأن تعكف على المجئ والذهاب، بين هنا و(ليرميتاج). وعلى هذا، فقد تركتك تفعل ما يحلو لك. ولكن، لا.. لقد تركت أسبوعًا ينقضى دون أن تبر بوعدك. ولولا أنني نُبئت بأنك بخير، لظننتك مريضًا!

« لقد ارتقبتك بالأمس، أو في اليوم السابق عليه، ولكني لم أر لك أثرًا. فيا لله!.. ما شأنك، وماذا جرى لك؟.. ليس ثمة ما يشغلك، وليس ثمة ما يزعجك. فإنني أطمئن نفسي إلى أنك ما كنت لتتوانى عن المجيء لتفضى إلىَّ بما يهمك، لو كان الأمر كذلك!.. إذن، فلا بد أنك مريض!.. إننى أرجوك أن تسرى عنى قلقى فورًا!.. وداعًا يا صديقي العزيز، ولعل هذه الـ « وداعًا »، تواتينى بـ « صباح الخير » منك! ».

الرد

« صباح الأربعاء

« ليس بوسعي أن أقول لكِ شيئًا، بل إننى أتريث ريثما أستكمل معلوماتي، وهذا ما سوف يتحقق عاجلًا، أو آجلًا، وإلى أن يتمّ ذلك، ثقى من أن البراءة المتهمة، ستلقى مدافعًا أوتى من الحماس ما يكفي لأن يتيح للواشين ـ أيًّا كانوا ـ ما يدعوهم للندم والحسرة! ».

الرسالة الثانية من السيِّدة نفسها (الملف أ **-** رقم **45**)

« أتعرف أن خطابك يثير ذعرى؟.. ما الذي يرمي إليه؟.. لقد أعدت قراءته نيفًا وخمسًا وعشرين مرة. والحق أننى لم أفقه منه شيئًا. كل ما أراه هو أنك قلق معذّب، وأنك تنتظر إلى أن يزول عنك ذلك، قبل أن تكلمني في الأمر. أفهذا ما تعاهدنا عليه يا صديقي العزيز؟.. فما الذي جرى - إذن - لهذه الصداقة، ولهذه الثقة؟ وكيف تراني فقدتها؟ هل غضبتك ضدي، أو هي من أجلى؟.. مهما يكن الأمر، فإني أناشدك أن تأتي الليلة، وتذكر أنك وعدتني - ولما تنقض بعد ثمانية أيام ـ بألَّا تكتم في قلبك شيئًا، وبأن تفاتحني في التوّ. إنني أتشبث بهذه الثقة، يا صديقي العزيز..

« مهلًا! لقد فرغت من قراءة خطابك مرة أخرى، فلم أكن أفضل حظًا في فهمه من ذي قبل،

ولكنه يجعلني أرتجف. لكم يبدو لي أنك مهتاج بدرجة قاسية، فأرجو أن تهدأ. أما وأنا أجهل موضوع همومك، فإني لا أدرى ماذا أقول، اللهم إلا أنني سأظلّ أضارعك شقاء، إلى أن يقدَّر لي أن أراك!.. فإذا لم تكن هنا في الساعة السادسة من هذا المساء، فسأنطلق غدًا إلى (ليرميتاج)، مهما تكن حال الطقس، ومهما تكن حالي أنا، إذ أننى لن أستطيع مضيًّا في تحمل هذا القلق!

« نعم صباحًا، يا صديقي العزيز الطيب.. وكيفما يكن الأمر، فإننى أجازف بأن أدعوك - دون أن أدرى ما إذا كنت بحاجة إلى هذا النصح أو أنك لست بحاجة - إلى أن تحاول الحيطة وإيقاف التقدّم الذي يحرزه الانزعاج والقلق، في العزلة.. فإن الذبابة لا تلبث أن تصبح وحشًا هائلًا.. وقد جربت هذا، كثيرًا! ».

الرد

« مساء هذا الاربعاء

« ليس بوسعي أن أزوركِ، ولا أن أتقبّل زيارتكِ، طالما ظلّ القلق الذي أستشعره. إن الثقة التي تتكلمين عنها لم تعد قائمة، ولن يسهل عليكِ أن تستردِيها!.. إننى لا أرى في تلهفك الراهن، سوى الرغبة في أن تستخلصى من اعترافات الغير نفعًا يخدم وجهات نظرك. ولكن قلبي ـ الذي يبادر إلى الارتماء في أحضان أى قلب يتفتح له - يغلق أبوابه في وجه المكر والحيلة. إننى أعرف ما وراء الصعوبة التي تلقينها في تفهم رسالتى. أفتعتقدينني من الغفلة بحيث أظن أنكِ لم تفهميها؟.. لا، ولكنني سأعرف كيف أقهر دهاءك بالصراحة!.. وسأفصح عن نفسى بمزيد من الجلاء، لكي يتسني لكِ أن تصبحي أكثر فهمًا لي.

« هناك عاشقان وثيقا الترابط، وأهل لأن يتحابا، يحتلّان من نفسي مكانة عزيزة. وأحسبك لن تدركي مَن أعني، إلا إذا ذكرت لكِ اسميهما. وأرى أن هناك مَن حاول التفرقة بينهما، وأنني الشخص الذي استخدم لإثارة غيرة أحدهما. ولم يكن الاختيار جد بارع، بيد أنه لاح ملائمًا للغرض الخبيث.. وأنتِ التي أرتاب في أنها مدبّرة هذا الخبث. وأرجو أن يزداد هذا اتضاحًا!

« وهكذا ـ على ما أعرف - تتعرَّض المرأة التي أجلّها فوق كل مَن عداها، لمعرفة تقسيم قلبها وشخصها بين عاشقين، كما أتعرَّض أنا لعار أن أكون أحد هذين الشخصين الضعيفي النفس!.. لو أنني عرفت أنكِ كنت تقدمين على مثل هذا الظن بها وبي - للحظة واحدة من العمر - لأبغضتكِ حتى الموت. ولكني لا أتهمكِ إلا بأنكِ قلتِ، وليس بأنكِ ظننتِ وفكرتِ!.. ولست أفهم - في مثل هذه الحال - مَن من الثلاثة كنتِ تشتهين إيذاءه. ولكنكِ خليقة - إذا كنتِ تحبين طمأنينة النفس - بأن تخشى النحس الذي يجلبه عليكِ النجاح!.. إنني لم أكتم عنكِ - ولا عنها - وكل ما أراه من سوء في بعض روابط معينة، ولكني أرجو أن تنتهي هذه الروابط بوسيلة شريفة تعادل المشاعر التي تألفت منها في الأصل، وأن ينقلب حب غير مشروع، إلى صداقة أبدية، أفأنا الذي لم أوقع يومًا بمخلوق أذى أستخدم كوسيلة بريئة لإيذاء أصدقائي؟.. لا، لن أصفح عنكِ أبدًا. بل إننى لخليق بأن أصبح عدوك الذي لا سبيل إلى استرضائه. ولن أحترم في ذلك سوى أسراركِ وحدكِ، لأنني لن أكون يومًا رجلًا بلا عهد ولا ولاء!

« إنني لا أتصوَّر أن تدوم الحيرة - التي أعانيها - طويلًا. ولن ألبث أن أتبين ما إذا كنت مخطئًا. وإذ ذاك، فقد يكون من واجبي أن أصلح غلطة كبرى، ولن يكون في حياتي ما أقدم عليه بطيب خاطر يفوق ما سأفعل به ذلك!.. ولكن، أتعرفين كيف سأكفّر عن أخطائي في الفترة القصيرة التي سأظلّ أقضيها على مقربة منكِ؟.. لسوف يكون ذلك بأن أفعل ما لا قبل لغيرى بفعله.. بأن أقول لكِ بصراحة ما يراه الناس فيكِ، وبأن أطلعكِ على الثغرات

التي يحتم عليك رتقها في نسيج سمعتك. وبالرغم من كل مَن يحيطون بكِ من مدعي الصداقة، فإنكِ عندما ترينني أرحل، ستودعين الصدق إذ أنكِ لن تجدى بعدى مَن يقوله لكِ ».

الرسالة الثالثة من السيِّدة ديبيناى (الملف أ - رقم 46)

« لم أفهم رسالتك التي تلقيتها في هذا الصباح. ولست أقول هذا، إلا أنه كذلك. وإني لأنتظر رسالة هذا المساء، فلا تخش ألّا أجيب عنها قط، وإنما أنا جدّ توَّاقة إلى أن أنساها، ومع أنك تثير إشفاقي، إلا أنني لا أملك دفعًا للمرارة التي ملأت بها نفسى. أنا أستخدم المكر والدهاء معك؟!.. أأنا أُتهم بأسود الشناعات؟!

« وداعًا، وإني لأندم على أنك كنت هنا.. وداعًا، فلست أدرى ماذا أقول.. وداعًا، ولن أتوق إلَّا إلى أن أصفح عنك. ولك أن تأتي عندما يحلو لك، وسوف تُستقبل بأفضل ما لا تؤهلك له شكوكك. وليس عليك سوى أن تريح نفسك من عناء الانشغال بسمعتي، فليس في الأمر ما يهمني. إن مسلكى طيب، وهذا يكفيني..

« وفيما عدا هذا، فإنني أجهل تمامًا ما جرى للشخصين اللذين يحتلّان من نفسي أنا الأخرى، المكانة العزيزة التي يحتلانها من نفسك »27.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد خلصتني هذه الرسالة الأخيرة من حيرة أليمة، ولكنها ألقت بي إلى أخرى لم تكن تقلّ عنها. ومع أن هذه الرسائل وردودها تبودلت بسرعة بالغة، في بحر يوم واحد، إلّا أن هذه الفترة كانت كافية لكي أقطع استرسال نوبات غضبي، ولكي أفكر في ضخامة اندفاعي غير الحكيم. ولم تكن السيِّدة دوديتو قد أوصتنى بشيء قدر ما أوصتني بأن ألتزم الهدوء، وأن أترك لها عبء تخليص نفسها بنفسها من هذه المسألة، وبأن أتفادي كل قطيعة وكل ضجة، لا سيما في تلك الفترة بالذات. ومع ذلك فها أنذا أذكيت - بإهاناتي البالغة الصراحة والمقذعة الفظاعة - نار السخط في قلب امرأة لم تكن إذ ذاك ترجو سوى ذلك. وما كان لي - بطبيعة الحال - أن أنتظر من ناحيتها سوى رد بالغ الكبرياء، والازدراء، والإهانة، إلى درجة لا أملك معها - إلّا بأقصى ذلة مهينة - أن أحجم عن مغادرة بيتها في الحال. على أن دهاءها كان - لحسن الحظ - يفوق غضبي، فتفادت بلهجة جوابها أن تسف في تحقيري إلى هذا الحد. غير أنه لم يكن ثمة بد من أن أغادر البيت، أو أن أذهب لزيارتها على الفور.. لم يكن ثمة مفر من اختيار أحد الأمرين! وقد استقرّ رأيي على الأخير منهما، وأنا في حيرة شديدة من المسلك الذي كان ينبغي أن أنتهجه في الإيضاح الذي توقعت أن أُطالب به. فكيف كان بوسعي أن أخلّص نفسي بدون أن أقحم السيِّدة دوديتو أو تيريز؟.. إذ ويل لتلك التي سأضطر إلى أن أفضى باسمها!.. ما من شيء في انتقام امرأة حقود، بارعة في المكائد، إلا أثار مخاوفي على تلك التي قد تقع النقمة على رأسها. وما قصرت رسائلي على مجرَّد « شكوك » إلا لتفادي هذه النقمة، إذ أننى بذلك تلافيت أن أضطر إلى تقديم أدلة ما. ومن الصحيح أن هذا جعل فوراتى أبعد من أن تُغتفر، إذ ما كان أي شك مجرَّد ليبيح لي أن أعامل امرأة، وامرأة صديقة، كما عاملت السيِّدة ديبيناي. ولكن.. هنا بالذات، تبدأ المحاولة الكبيرة والنبيلة، التي حققتها بجدارة، إذ كفّرت عن أخطائي ومواطن ضعفى المستترة، بأن تحملت ذنوبًا أشدّ وأقسى، لم أكن مرتكبها، ولا كنت يومًا جديرًا بوزرها.

على أنني لم أضطر إلى تحمل الهجوم الذي كنت أخشاه، بل كان كل نصيبي منه هو الخوف الذي راودني. فما أن اقتربت من السيِّدة ديبيناى، حتى ألقت ذراعيها حول عنقى، وانفجرت باكية، ومسَّ قلبي هذا الاستقبال غير المرتقب، من صديقة قديمة، فتأثّرت كل التأثّر، وبكيت كثيرًا أنا الآخر!.. وقلت لها بضع كلمات قلائل، لم يكن لها من معنى.. وقالت لى

بضع كلمات مثلها، كانت أبعد من أن تكون ذات معنى.. وكان هذا غاية الأمر! ثم أُعدّت المائدة، فجلسنا إليها معًا. وهناك، وفي انتظار أن أُدعى للايضاح - الذي ظننت أنه لم يرجأ إلا ريثما نفرغ من العشاء ـ كنت في أسوأ حال، إذ أننى أنصاع دائمًا لأقل اضطراب يتملكني، حتى أنني لأعجز عن أن أخفيه عن أقل النـاس ملاحظة وفطنة. ولقد كان ارتباكى كفيلًا بأن يلهمها الشجاعة، بيد أنها لم تجرؤ على الإقدام. ومن ثم لم يكن هنـاك إيضاح بعد العشاء، يفوق ما كان قبله!.. لا ولا كان ثمة في غد. بل إن خلواتنا الصامتة، لم تُملأ إلا بأمور غير ذات بال، أو ببضع محاولات مؤدبة من جانبى، حاولت بها أن أشرح موقفى وأن أوعز بأنني لم أكن أملك أن أقول شيئًا عن الأساس الذي قامت عليه شكوكى، وأن أؤكد - بكل إخلاص وصدق - بأن حيـاتي بأسرهـا - ستُنفق في إصلاح ما كان في هذه الشكوك من غبن، لو أنني تثبَّت من أنها لم تقم على أساس ما!

ولم تبد السيِّدة ديبيناي أقل فضول إلى معرفة كنه هـذه الشكوك تمامًا، ولا كيف واتتني. بل اقتصر الصلح بيننا - سواء من ناحيتها أو من ناحيتي - على العناق الذي ضمّنا حين التقينا. ولما كانت هي الوحيدة التي مستها الإساءة - من الناحية الشكلية على الأقل - فقد لاح لي ألّا داعي يدعوني - إلى أن أسعى إلى إيضاح لم تكن تنشده هي نفسهـا، ومن ثم عدت إلى بيتي كمـا بارحته!.. وفيما عدا ذلك، ظلَّت علاقتي بها على ما كانت عليه من قبل، وسرعان ما نسيت النزاع نسيانًا شبه تام، واعتقدت - في غباء - أنها قد نسيته هي الأخرى، لأنها لم تعد تبدى ما يدل على أنها ظلَّت تتذكره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يكن هذا ـ كما سيبدو سراعًا - هو الكرب الوحيد الذي جرّه علىّ ضعفي، ولكنني تعرَّضت لكروب غيره، لم تكن أقل إزعاجًا، ولكنني لم أكن مجتلبها حقًا، وما كان لها من داع سوى الرغبة في انتزاعي من عزلتى28. ولقد واتتنى هـذه المضايقات من « ديدرو » وعصبة دولباخ. فإن ديدرو لم يكفّ يومًا - منذ استقراري في (ليرميتاج) - عن التحرش بي، سواء بنفسه، أو عن طريق ديلبير. وسرعان ما تبينت من دعابات هذا بشأن نزهاتي في الغابة، مدى الغبطة التي خلعوا بها على الناسك ثوب الراعي العاشق. ولكن هذا لم يكن محور المآخذ التي آخذت بها ديدرو، بل كانت ثمة أسباب أشدّ وأعظم!

ذلك أنه عقب نشر « ابن السفاح »، أرسل لى نسخة من الكتاب قرأتها بالاهتمام والشوق اللذين يوليهمـا المرء عادة مؤلفًا من إنتاج صديق له. وإذ طالعت الحوار الشعري الذي أُلحق به، دهشت، بل وحزنت، إذ وجدت فيه ـ إلى جانب عدّة تلميحات غير كريمة، ولكنها تُحتمل، وقد وجهها ضد أولئك الذين يعيشون في عزلة - هـذه العبارة الخشنة، المريرة، التي لم يكن لها مجال في السياق: « لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث »!

وهذه العبارة مبهمة، وتحتمل تأويلين، كما يبدو لي. أحدهما صادق كل الصدق، والآخر زائف كل الزيف. إذ أن من المستحيل على إنسان يعيش ـ ويرغب في أن يعيش - في عزلة، أن يبغى إيذاء أحد، وبالتالي، فمن المستحيل أن يكون خبيثًا. ومن ثم فقد كانت العبارة ـ في حـد ذاتها - تتطلب إيضاحًا.. وهي أكثر تطلبًا له، لصدورها من مؤلف كان له ـ عندما طُبعت هذه العبارة ـ صديق يلوذ بالعزلة. وبدا لي أنه من المستنكر، ومن المجافاة للأمانة، أن يكون ديدرو قد نسى - عند نشرها - هذا الصديق المعتكف.. أو - إذا كان قد تذكره - ألا يكون قد أردف ـ في تعميمه الرأي، على الأقل - ما كان ينبغي عليـه من استثناء كريم وعادل، لا بالنسبة لهذا الصديق فحسب، وإنما بالنسبة إلى كثير من الحكماء ذوى المكانة، الذين كانوا ينشدون في العزلة - في جميع الأزمان - الهدوء والسلام، والذين سمح مؤلف لنفسه - لأوَّل مرة منذ خلق الدنيا - بأن يجعل منهم، على كثرتهم، أشرارًا بلا استثناء، وبجرة قلم!

كنت أحب « ديدرو » من قلبي، وكنت أقدره صادقًا، وكنت مطمئنًا تمام الطمأنينة، إلى عين العواطف من ناحيته. ولكني ضقت بعناده الذي لم يكن يلين، في معارضتي في أذواقي، وميولي، وأسلوب معيشتى وفي كل ما كان يعنينى وحدى، بوجه خاص.. وأثارني مرأى رجل يصغرني ويسعى بكل حيلة إلى أن يسيطر عليَّ كما لو كنت طفلًا.. ونفرني منه سهولة إزجائه الوعود، وإهماله الوفاء بها.. وغاظني منـه كثرة المواعيد المعقودة وتخليه عنها، وشغفه بعقد مواعيد جديدة لكي ينكث بها مرة أخرى.. ومللت انتظاره عبثًا ثلاث أو أربع مرات في الشهر، في أيام كان يحددها هو، لكي أنتهى إلى تناول العشاء وحيدًا في المساء، بعد أن أكون قد سرت إلى (سان دنيس) عسى أن ألتقى به في الطريق، وبعد أن أكون قـد ارتقبته طوال النهار.. كان قلبي متخمًا بمثل هذه العيوب المتراكمة. وكان العيب الأخير منها، يبدو لي أشدّها، كما أنه كان أكثرها جرحًا لكرامتى. ولقد كتبت إليه شاكيًا، ولكن.. في حنان ولطف جعلاني أغرق ورقتي بالدموع. وكان خطابي مؤثّرًا إلى درجة كانت خليقة بأن تستدر دموعه. ولكن أحدًا ما كان ليحدس رده على ذلك الخطاب.. وها هو ينصـه (الملف أ – رقم **33**):

« إننى لجد مغتبط لأن كتابي راق لك.. إنك لا تقرّني على رأيى بشأن النسَّاك المعتزلين، فحدث عنهم ولا حرج، ما شاء لك الحديث، فلسوف تظلّ الوحيد في العالم، الذي أفكر فيه في هذا المجال.. ومع ذلك فلا يزال لديَّ الكثير مما أستطيع أن أقوله بهذا الصدد، لو كان في الوسع الكلام دون إغضابك. إن امرأة في الثمانين من عمرها.. إلخ. لقد أنبأني بعضهم بعبارة من خطاب كتبه ابن السيِّدة ديبيناى، ولا بد أنه آلمك كثيرًا، وإلا فإنني لم ألم كل الإلمام بدخيلة نفسك. »

ولابد لي من أن أوضح العبارتين الأخيرتين من هذا الخطاب:

ففي بداية مكثى في (ليرميتاج)، لم تبد السيِّدة لوفاسير ارتياحًا، ووجدت أن المكان كان منعزلًا أكثر مما ينبغي. وقد ردَّدت ملاحظاتها في هـذا الصدد على مسمعى، فعرضت أن أردّها إلى باريس، إذا كانت تفضل ذلك، وأن أدفع لها أجر سكناها هناك، وأن أعنى بحاجاتها كما لو أنها كانت ماضية في الإقامة معى.. بيد أنها رفضت اقتراحي، وأعلنت أنها جد راضية عن (ليرميتاج)، وأن جو الريف كان مفيدًا لها. وقد تبدّى أن هذا كان صحيحًا، إذ أنها ارتدّت إلى الشباب، كما ينبغي أن يُقال، وأصبحت أفضل حالًا مما كانت في باريس. بل إن ابنتها أكَّدت لى أنها كانت - في قرارة نفسها - مستاءة لمبارحتنا (ليرميتاج)، الذي كان مقامًا فاتنًا حقًّا، وأنها كانت مشغوفة بما كان يشغلها من توافه في الحديقة وفواكهها، وأنها إنما قالت ما قالت بإيعاز من الغير، لتحاول إغرائي على العودة إلى باريس!

وإذ أخفقت تلك المحاولة، سعوا إلى أن يحصلوا بإثارة الريب، على ما لم تؤد إليه المجاملة، فراحوا يعلنون أن من الجرم أن أستبقى العجوز هناك، بعيدًا عن الخدمات التي قد تحتاج إليها في مثل سنها، دون أن يفطنوا إلى أنها وكثيرًا من المكتهلين، الذين يطيل طقس الريف الرائع من حياتهم، كانوا يستطيعون الحصول على تلك الخدمات في (مونمورنسى)، التي كانت جد قريبة من مسكنى.. وكأنما لم يكن ثمة كهول إلا في (باريس)، ولم يكن في وسع الطاعنين في السن أن يعيشوا في أي مكان آخر!.. ولقد كانت السيِّدة لوفاسير - التي كانت أكولًا، عظيمة النهم - عرضة لالتهابات المرارة، ولنوبات قاسية من الإسهال، كانت تلازمها أيامًا، ولا تلبث أن تشفى من تلقاء ذاتها. ولم تكن العجوز تتناول شيئًا حين كانت في باريس - وإنما كانت تترك الطبيعة تتخذ مجراها. وكذلك كانت تفعل في (ليرميتاج) إذ أدركت أنها لا تملك سبيلًا خيرًا من هذه!

ولكن الراغبين في إثارة المتاعب، لم يعبأوا بهذا، فما دام لم يكن ثمة أطباء ولا صيادلة في الريف، فإن استبقاء العجوز هناك، كان يعني الرغبة في موتها.. برغم أنها كانت هناك في

صحة طيبة!.. وكان خليقًا بديدرو أن يحدِّد السن التي لا يجوز بعدها السماح للمسنين بالبقاء بعيدًا عن (باريس)، والتي يكون استبقاؤهم بعدها قتلًا مع الإصرار!.. ولقد كان هذا أحد الذنبين الشنيعين، اللذين لم يشأ من أجلهما أن يستثنيني من رأيه!.. « لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث »! وكان هذا تفسير تعجبه المؤثر، والـ « إلى آخره » التي تكرَّم بإضافتها، حين قال: « أن امرأة في الثمانين من عمرها.. إلخ »!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وخطر لي أنني لن أجد ردًّا على هذا اللوم، أفضل من أن أرجع إلى السيِّدة لوفاسير نفسها. فسألتها أن تكتب إلى السيِّدة ديبيناي معبّرة عن شعورها الطبيعي إزاء الأمر. ولكي أتركها تسترسل على سجيتها، لم أسألها أن تطلعني على خطابها.. بل إنني أطلعتها على الخطاب التالي، الذي كنت قد كتبته إلى السيِّدة ديبيناى، بشأن رد - كنت قد اعتزمت أن أجيب به عن خطاب أعنف من السابق، ورد من ديدرو - ولكنها منعتني من إرسال هذا الرد.

« يوم الخميس

« إن السيِّدة لوفاسير تعتزم أن تكتب إليكِ، أيتها الصديقة الطيبة.. فلقد رجوتها أن تروى لكِ بصراحة ما يدور بخلدها. ولكي تكون على سجيتها تمامًا، فقد أخبرتها بأنني لا أريد أن أرى خطابها، كما أنني أناشدكِ ألّا تذكري لي شيئًا عن محتوياته.

« إننى لم أرسل خطابى29 ما دمتِ تعارضين في ذلك، ولكن شعورى بأنني طُعنت طعنة بالغة، يجعل من الصغار، بل ومن الغش الذي لا أسمح به لنفسي، أننى أرضى بأن أكون مخطئًا.. ولا مراء في أن الانجيل يدعو المرء الذي يُصفع على أحد خديه، أن يدير الخد الآخر، ولكنه لا يدعوه إلى أن يطلب الصفح. أفتذكرين ذلك الرجل الذي يهتف - في المسرحية الفكهة - وهو ينهال بعصاه ضربًا: « ها هو ذا دور الفيلسوف »؟!

« لا تخدعي نفسكِ إذ ترين أن بوسعك أن تمنعيه من المجيء متعللة بسوء الطقس هنا، في الآونة الحاضرة.. فإن حنقه بسوء سيهبه ما تأباه عليه الصداقة من وقت وقوة.. وستكون هذه هي أوَّل مرة في حياته، يفد فيها في ذات اليوم الذي يضربه موعدًا! ولسوف يبذل قصارى جهده لكي يأتي فيردد بلسانه ما كاله لي في خطاباته من إهانات. ولسوف أتحملها ببالغ الصبر. ولسوف يعود إلى باريس، وهو مريض. ومن ثم أغدو أنا - كالمعتاد - شخصًا بغيضًا كل البغض، فماذا أفعل؟.. لا مفر من الاحتمال!

« ولكن... ألستِ تعجبين بحكمة شخص رغب في أن يجيء فيصحبني إلى (سان دنيس) في مركبة، لنتناول الغداء هناك، ثم يقلني - في العودة - في مركبة.. ثم لا تلبث ثروته أن تعجز - بعد ثمانية أيام - (الملف أ ـ الرسالة رقم **34**) - عن أن تمكنه من أن يفد على (ليرميتاج) إلا سائرًا على قدميه؟.. ليس من المستحيل في شيء - إذا تكلمنا بأسلوبه ـ أن تكون هذه هي سمة الإخلاص وحسن النية، ولكن لابد له - في هذه الحال - من أن يطرأ على موارده تغيّر خارجى خلال ثمانية أيام!

« إنني أشاطرك أساكِ من أجل مرض السيِّدة والدتكِ، ولكنكِ ترين أن آلامكِ لا تعادل آلامي. فإن رؤية الأشخاص الذين نحبهم مرضى، أقلّ إيلامًا للنفس من الغبن والقسوة.

« فوداعًا يا صديقتي الطيبة، وستكون هذه آخر مرة أتحدَّث فيها إليكِ عن هذه المسألة التعسة.. إنكِ تحدثينني عن الذهاب إلى باريس في هدوء أعصاب كفيل بأن يطربني، لو أنه حدث في ظروف أخرى! ».

وأنبأت « ديدرو » بما فعلت مع السيِّدة لوفاسير، نزولًا عند رأى السيِّدة ديبيناى نفسها.

وقد اختـارت السيِّدة لوفاسير البقاء في (ليرميتاج) - وهو ما كان في وسع أي امرىء أن يحدسه - لأنها كانت جد مرتاحة إلى المقام فيـه، حيث كانت تجد دائمًا أنيسا، وحيث كانت تحيا حياة تروق لها. ومن ثم فـإن « ديدرو » لم يعـد يدرى بأي ذنب يتهمنى، فجعل من هذا الاحتياط الذي اتخذته30 ذنبًا، كما اتخذ استمرار بقاء السيِّدة لوفاسير في (ليرميتاج) ذنبًـا آخر، بالرغم من أن هــذا البقاء كان بمحض اختيارها، وقد ظلّت حرَّة في أن تعـود إلى باريس لتقيم متمتعـة بنفس ما كانت تتمتع به في بيتى من مساعدة.

هذا هو بيان اللوم الأوَّل، الذي ورد في رسالة « ديدرو » رقم 3. أما إيضاح اللوم الثاني، ففي سياق خطابه رقم 34:

« لا بد أن الأديب31 قد كتب إليك عن أن ثمة عشرين شريدًا تعسًا على الأسوار، يموتون بردًا وجوعًا، ويرتقبون المليم الذي اعتدت أن تمنحهم إياه. هـذه عينة من ثرثرتنـا البسيطة.. ولو أنك استمعت إلى بقيتها، لوجدت فيهـا ما يروقك، كهذه! ».

وها هو ذا ردّى على هذا الجدل البغيض، الذي بدا وكأن « ديدرو » كان مزهوًّا به:

أعتقد أننى رددت على « الأديب » - أقصد ابن ناظر الزراعة العام - بأنني لا أشفق على « الفقراء الذين رآهم على الأسوار يرتقبون مليمى. وأن من الواضح أنه قد عوّضهم عمّا فقدوا، وأننى قد عيّنته بديلًا عنى، وأنه ليس لفقراء باريس أن يشتكوا من هذا التغيير. وإننى لا أجد من السهل العثور على بديل آخر، يصلح لفقراء (مونمورنسى)، الذين هم أشدّ حاجة!.. فهنا شيخ طيب، ومحترم، قضى حياته في العمل، ولم يعد اليوم يقوم عليه، فهو يموت جوعًا إبان شيخوخته. وأن ضميري ليشعر بارتياح إزاء قطعتَيّ « السو » اللتين أمنحه إياهما في يوم الاثنين من كل أسبوع، يفـوق ذاك الارتياح الذي يستشعره إذا أنا وزعت مائة مليم على صعاليك الأسوار. إنكم لتلهون - يا معشر الفلاسفة - حين تنظرون إلى جميع سكان المدن، بحسبانهم الوحيدين الذين يطالبكم الواجب بأن تشغلوا بأمرهم.. إنما يتعلّم المرء حب الإنسانية وخدمتها في الريف، ولا يتعلم في المدن سوى ازدرائها! ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا كانت الوساوس العجيبة، التي استند إليها رجل ذكي، منساقًا لنزوة حمقاء حملته على أن يجعل - جادًا - من بعادي عن باريس ذنبًا وجرمًا، وعلى أن يحاول أن يبرهن لي بحالي على ألّا سبيل إلى الإقامة خارج العاصمة، إلا إذا كان المرء خبيثًا. ولست أدرى اليوم، كيف كنت من البلاهة بحيث رددت عليه، واستأت منه، بدلًا من أن يكون جوابى الأوحد، هو أن أضحك ساخرًا؟!.. على أن قرارات السيِّدة ديبيناى، والضجة التي أثارتها عصبة دولباخ، استولت على أذهان الناس وغرّتهم، حتى لقد اعتبرت - بوجه عام - مخطئًا في هذه المسألة.. وحتى أن السيِّدة دوديتو نفسها - وهي من أشدّ المعجبات بديدرو - رغبت في أن أذهب إلى زيارته في باريس، وأن أؤدّي كل المقدمات لصلح لم يقدَّر له أن يدوم طويلًا، بالرغم من أنه كان مخلصًا وكان من ناحيتي..

وكانت الحجة الموفقة التي استغلتها السيِّدة دوديتو للتأثير على قلبي، هي أن ديدرو كان ـ في هذه اللحظة ـ تعسًا شقيًّا. فإلي جانب العاصفة التي ثارت، ضد « الموسوعة »، كان عليه أن يحتمل عاصفة أخرى أشدّ عنفًا، أثارها الكتاب. فبالرغم من المقدمة الصغيرة التي مهّد لها به، اتهم « ديدرو » بأنه قد نقله بأكمله عن « جولدونى ». ولقد كان ديدرو أكثـر تأثّرًا وارتباكًا بالنقد من فولتير. ولقـد ذهبت السيِّدة « دى جرافييني » في دهائها إلى حد أنها أذاعت شائعة بأنني انتهزت هذه الفرصة لكي أقطع ما كان بيني وبينـه. لذلك فقد رأيت أن من الانصاف والكرم، أن أظهر نقيض ذلك على الملأ، فذهبت لأقضى يومين في داره، وإن لم أقضهما في صحبته وحده!.. وكانت هذه هي رحلتي الثانية إلى باريس، منذ

استقرّ بي المقام في (ليرميتاج). فقد قمت بالرحلة الأولى، لأبادر بأن أكون إلى جوار « جوفكور » الذي أصيب بنوبة فالج، لم يقدَّر له أن يشفى منها تمامًا. وقد ظللت طيلة مرضه ملازمًا فراشه حتى تجاوز الخطر!

وأحسن ديدرو استقبالي.. فما أقدر عناق الأصدقاء على محو الأخطاء!.. وأية سخيمة يمكن أن تظل في القلب بعد ذلك؟.. وتبادلنا بعض الإيضاحات، كما كان ثمة داع لها، ما دامت الإساءات متبادلة. ففي مثل هذه الحال، لا يكون ثمة ما ينبغي فعله سوى النسيان، لا سيما وأنه لم تكن ثمة دسائس خفية ـ فيما كنت أعلم على الأقل ـ كما كانت الحال مع السيِّدة ديبيناي. ولقد أطلعني على مشروع كتابه: « أب الأسرة »، فقلت له: « هذا خير دفاع عن « ابن السفاح »!.. فالزم الصمت، وامض في هذا المؤلف بعناية، ثم طوّح به فجأة في وجوه أعدائك، فإنه الرد الوحيد ». ولقد فعـل ذلك، ووجد أنها خطة موفقة!

ولقد أرسلت إليه الجزءين الأوّلين من « جولى » - قبـل ذلك بستة أشهر - أسأله رأيـه فيهما. ولم يكن قد قرأهما بعد، فطالعنا شطرًا منهما معًا. وقد وجد أنهما « قرطسة »[32]، وكان هذا هو التعبير الذي استخدمه، قاصدًا أن الجزءين كانا مليئين بالكلام المنمق، وبالتكرار والإطالة. وكنت قـد شعرت بذلك، من تلقاء نفسي، ولكن ما أوردته فيهما كان هذيان الحمى[33]، ولم أكن قد راجعته أو صححته. على أن الأجـزاء الأخيرة ليست على هذا الغرار، لا سيما الرابـع والسادس، فإنهما تحفة في البلاغة.

وفي اليوم التالى لوصولى، رغب - في إصرار - في أن يصطحبني لتناول العشاء لدى السيِّد « دولباخ » راغبًا في أن أفسخ الاتفاق الخاص بأصول كتاب « الكيمياء »، لأننى كنت أربأ بنفسي أن أكون على التزام نحو هذا الرجل[34]. ولقـد انتصر « ديدرو » على طول الخط، وأقسم على أن السيِّد « دولباخ » كان يكن لي أخلص الود، وأن الواجب يقتضيني أن أغفر له مسلكه الذي يتخذه مع الناس كافة، والذي يعاني منه أصدقاؤه أكثر مما يعاني سواهم. وصوَّر لي أن رفض إنتاج هذا الكتاب، بعد أن قبلته منذ عامين، إهانة لصاحب العرض، لا يستحق أن يجازى بها. بل إن هذا الرفض قد يُساء تأويله، فيُحمل على محمل اللوم لأنه مكث هـذا الأمد الطويل دون أن يحقق الاتفاق. واستطرد قائلًا: « إننى أرى دولباخ في كل يوم، وأعرف حال نفسه أكثر مما تعرفها أنت. وإذا لم يكن ثمة مجال لك كي ترضى عن هذا العمل، أفتظن أن صديقك يقدم على نصحك بأن تحط من قدر نفسك؟ ». وفى إيجاز، سمحت لنفسي بأن أسلم له ـ بكل ما عرف عنى من ضعف - وذهبنـا معًا لتناول العشـاء مع البارون، الذي استقبلني على مألوف عادته. ولكن زوجته تلقتنى بفتور، بل وبجفاء غير كريم[35] حتى كدت أنكر فيها « كارولين » اللطيفة، التي أظهرت لي - قبل زواجها - كثيرًا من آيات النية الطيبة. وكنت قد لاحظت - قبل ذلك بزمن طويل - أنني لم أعد زائرًا مرموقًا، مذ أصبح « جريم » ضيفًا مستمرًا في قصر (أين).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما كنت في (باريس)، وفـد « سان - لامبير » في إجازة من الجيش. ولما لم أكن قد علمت بذلك، فإنني لم أره إلا بعد عودتي إلى الريف، في (لاشيفريت) أوَّلًا، ثم في (ليرميتاج)، حيث أقبـل مع السيِّدة دوديتـو، واستضافا نفسيهما للغـداء. ومن الميسور تصوّر مدى الاغتباط الذي استقبلتهمـا به!.. ولكني كنت أكثـر اغتباطًا بمشاهدة انسجامهما البديع. وسعدت بدوري، إذ اطمأننت إلى أننى لم أعكر صفو هنائهما. وبوسعي أن أقسم على أنني ما كنت - طيلة وجدي الطائش، بل وفي تلك الآونة بالذات - لأتمنى أن آخذ السيِّدة دوديتو » من « سان - لامبير »، ولو استطعت إلى ذلك سبيلًا بل إنني ما كنت لأشعر بمجرَّد الرغبة في ذلك!.. فلقد وجدتها جديرة بحب « سان ـ لامبير »، مدلهة في هواه، حتى أنني لم أكد أتصوَّر أنها تستطيع أن تهيم بي بهـذا القدر، وكان كل ما طمعت فيه - في

بحران الوجد - هو أن تدعني أحبها من ناحيتي، دون ما رغبة مني في أن أعكر صفو رابطتهما!.. وقصارى القول أننى - برغم عنف الصبابة التي كانت تلتهمني بنيرانها - وجدت متعة في أن أكون موضع ثقة هذه السيِّدة، لا تقل عن المتعة التي كنت خليقًا بأن أستشعرها إذا كنت هدف حبها ولم أنظر إلى عاشقها لحظة على أنه غريم أو مزاحم، وإنما ظللت - على الدوام - أنظر إليه كصديق. ولقد يُقال إن هذا لم يكن بعد غرامًا حقيقيًا، فليكن!.. لقد كان أكثر من الغرام!

أما « سان - لامبير »، فقد كان تصرّفه تصرّف الرجل الكريم، الرزين. ولما كنت المذنب الوحيد، فإنني كذلك كنت الجدير بالعقاب، وكان عقابي مشوبًا بالتسامح. فقد عاملني « سان - لامبير » في خشونة، ولكن في ود. واستطعت أن ألمح أننى قد فقدت بعض تقديره، ولكني لم أفقد شيئًا البتة من صداقته. فتعزيت بذلك، موقنًا من أن استعادة الأوَّل، أسهل بكثير من استعادة الثانية.. ومدركًا أنه كان أعقل وأحكم من أن ينقم على ضعف لا إرادي، وطارىء، ومنبعث عن عيب طبيعي، وإذا كانت ثمة أخطاء من ناحيتي - في كل ما جرى - فإنها كانت طفيفة. أفأنا الذي سعى إلى عشيقته؟.. ألم يكن هو الذي أرسلها إليَّ؟.. ألم تكن هي التي جاءتني؟ فهل كان بوسعي أن أمتنع عن استقبالها؟.. ما الذي كنت أملك أن أفعله؟.. إنهما هما سر البلوى، ولم يكن من معذَّب سواى!

ولو أن « سان - لامبير » كان في مكاني، لفعل عين ما فعلت، بل ربما أسوأ مما فعلت!.. ذلك لأن السيِّدة دوديتو - برغم وفائها، وبرغم جدارتها بالاحترام - كانت امرأة!.. ولقد كان هو كثير التغيب، فكانت الفرص موفورة، والمغريات شديدة، وكان من الشاق حقًا أن تذود دائمًا عن نفسها ضد أي عاشق أكثر جرأة، بعين التوفيق الذي صدّتني به. ويقينًا أنه كان من الكثير - الذي ينبغي أن يُذكر لنا، هي وأنا - أن استطعنا في ظروف كهذه، أن نضع حدودًا، لم نسمح لنفسينا قط بتخطيها!

ومع أنني كنت أستطيع أن أستخلص من أعماق قلبي شهادة كريمة في صالحي، إلا أن المظاهر كانت ضدي، حتى أن الشعور بالخجل الطاغي ـ الذي كان يتسلط عليَّ دوامًا - خلع عليَّ، في حضور « سان - لامبير »، مظهر المذنب، فأكثر هو من استغلاله لإذلالي. وكان ثمة حادث واحد يوضح هذا الموقف المتبادل. فلقد قرأت عليه ـ عقب الغداء ـ الرسالة التي كنت قد كتبتها لفولتير، قبل عام، والذي سمع بأمرها. وإذا به يستسلم للنعاس، بينما كنت أقرؤها. وبعد أن كنت فخورًا، إذا بي أغدو غبيًا، فلا أجرؤ على أن أقطع القراءة، ومن ثم فقد استرسلت فيها، بينما استرسل هو في الغطيط!.. وهكذا أذللت نفسى.. وهكذا كان ثأره لنفسه.. غير أن كرم نفسه لم يكن يخوله أن يمارس هذه الأساليب، إلا فيما بيننا نحن الثلاثة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد أن رحل « سان - لامبير » ثانية، ألفيت السيِّدة دوديتو قد تغيَّرت إزائي تغيّرًا شديدًا. وقد ذهلت لهذا، وكأنه لم يكن خليقًا بي أن أتوقعه. وتأثّرت به أكثر مما كان ينبغي، مما سبَّب لي كثيرًا من الآلام والتباريح.. وكأنما كل شيء مما توقعت أن يبرئني، كان يزيد من تغلغل السهم في قلبى.. ذلك السهم الذي أصبحت - في النهاية - أؤثر أن أكسره، عن أن أنزعه!

وعقدت العزم على أن أقهر نفسي تمامًا، وألّا أدع شيئًا إلا فعلته لكي أحول صبابتي الرعناء إلى صداقة طاهرة، باقية. وعلى ضوء هذه الغاية، رسمت أروع الخطط في الحياة، ولم يكن يعوزني في تنفيذها سوى معونة السيِّدة دوديتو. فلما حاولت أن أحدّثها عنها، وجدتها شاردة البال، مضطربة الخاطر، فشعرت بأنها لم تعد تحس بأية لذة في صحبتي! وتبينت بجلاء أن شيئًا ما قد جرى، وأنها لم تكن راغبة في أن تنبئني به. وما قُدِّر لي قط أن أعرفه.

ولقد عذّبني أقسى العذاب، هذا التغيّر الذي عجزت عن أن أصل إلى إيضاح له. وسألتني أن أرد إليها خطاباتها، فرددتها جميعًا، بأمانة جرح كرامتي أن السيِّدة ارتابت فيها لحظة!..



لتنى أن أرد إليها خطاباتها ، فرددتها جميعًا ، بأمانة جرح كرامتى أن السيدة
ارتابت فيها لحظة ! ..

وكان هذا الارتياب طعنة أخرى أصابتني، كما لابد أن تكون قد أدركت. وقد أنصفتني وعوّضتني، ولكنها لم تفعل ذلك فورًا. فقد أدركت أن فحص حزمة الرسائل التي أسلمتها إياها، جعلها تفطن إلى ظلمها. بل إنني استطعت أن أرى أنها قد أنبت نفسها على ذلك، فوجدت في ذلك شيئًا من التعويض.

وما كان لها أن تأخذ رسائلها دون أن تعيد إليّ رسائلي.. وقالت لي إنها أحرقتها، فجرؤت بدوري على أن أرتاب في ذلك، كما ينبغي أن أعترف. لا.. إن المرء لا يلقى بمثل هذه الخطابات إلى النار. لقد وجدت مثل هذه الخطابات محترقة في قصة « جولى »، فيا لله!.. ما الذي قيل عن ذلك؟.. لا، لا.. إن المرأة التي أوتيت القدرة على أن توقد كل هذا الوجد، لا يمكن أن تواتيها الشجاعة قط على أن تحرق أدلة وجوده. ولكنني مع ذلك لم أكن أخشى أن تسيء استغلالها، فما كنت لأؤمن بأنها قادرة على ذلك. كما أنني كنت قد اتخذت التدابير للحيلولة دون ذلك!.. ذلك أن الخوف الأحمق، والمحتدم في الوقت ذاته، من أن أتعرَّض للسخرية، حملني على أن أبدأ هذه المكاتبات بصيغة تجعل رسائلي في مأمن من أن تُذاع. ولقد ذهبت في ذلك إلى حد الإسراف في الألفة التي كنت قد انتهجتها في نشوتى، فرحت أخاطبها بصيغة المفرد. ولكني حرصت في ذلك على ألا تجرح هذه الألفة كرامتها. ومع أنها شكت مرارًا من ذلك، إلا أنها لم توفَّق إلى حملي على العدول.. ولم تؤدِ شكاواها إلّا إلى إيقاظ هواجسى، فضلًا عن أنني لم أستطع أن أحمل نفسي على التراجع. ولو أن هذه الرسائل كانت موجودة، وقُدِّر لها يومًا أن ترى الضوء، لعرف الناس كيف أحببت![36]

ولقد أدَّى الألم الذي أحدثه فتور السيِّدة دوديتو، واليقين من أنني كنت أستحقه، إلى أن أنهج منهجًا عجيبًا، إذ شكوت منه إلى « سان - لامبير » نفسه!.. وفي انتظار نتيجة خطابي بهذا الصدد، أغرقت نفسي في الشواغل التي لم يكن ثمة بد من أن أسارع بالبحث عنها. فلقد أقيمت في (لاشيفريت) بعض حفلات، وضعت الموسيقى التي عزفت فيها. وحفز نشاطي على ذلك تلك المتعة التي تمثلتها إذ أرفع من قدر نفسي في عينَيّ السيِّدة دوديتو، بعرض الموهبة التي كانت تغرم بها. وساعد ظرف آخر على إذكاء نشاطي، وهو رغبتي في أن أظهر للملأ أن مؤلف « عرَّاف القرية » كان على دراية بالموسيقى. إذ كنت قد لاحظت من فترة طويلة، أن ثمة مَن كان يعمل في الخفاء على ذر الريب حول ذلك، فيما يختص بالتأليف الموسيقى على الأقل!.. ولقد كان أوَّل ظهوري في باريس، و الاختبارات التي تعرَّضت لها في مناسبات مختلفة في داريّ السيِّدة دوبان والسيِّد ديلابوبلينيير، والقدر الذي ألفته من الموسيقى خلال أربع عشرة سنة - وسط أعظم أهل الفن شهرة، وتحت أبصارهم ـ ثم أوبرا « عرائس الشعر اللطاف »، بل وأوبرا « العرَّاف »، وأغنية كتبتها للآنسة فيل وغنتها بنفسها في حفلات « الموسيقى الروحية »، والمناقشات العديدة التي دارت بينى وبين كبار الأساتذة، عن هذا الفن الجميل.. كل هذه البراهين كانت جديرة بأن تمنع، أو بأن تبـدد أية شكوك من هذا القبيل. ولكنها - مع ذلك - كانت موجودة، حتى في (لاشيفريت)، فقد رأيت أن السيِّد ديبيناي لم يكن بمنجي منها!.. وبدون أن أظهر أنني كنت أفطن إلى ذلك، عكفت على تلحين أنشـودة من أجـله، لتدشين كنيسة (لاشيفريت)، وسألته أن يمدني بالكلمات التي ينتقيها لها بنفسه، فعهد إلى دى لينان، مربّى ابنه، بأن يكتبها. وقد ألف دي لينان بضعة أبيات تناسب المقام، وبعد ثمانية أيام من موافاتي بها، كانت الأنشودة معدَّة.

وفي هذه المرة، كان الغيظ هو ملهمي، فلم تخـرج من بين يدى يومًا موسيقى أجزل من هذه!. وقد بدأت أبياتها بهذه الكلمات اللاتينية: [37]. Ecce sedes hic Tonantis -
وكانت روعة المقدمة الموسيقية، تتمثَّل في مجاراة الكلمات، فكانت الأنشودة بأسرها من البهاء بحيث بُهت كل امرىء إعجابًا!.. وكنت قد وضعت اللحن لفرقة موسيقية كبيرة، وقد حشد ديبيناى خير العازفين. وتولّت السيِّدة برونا - وهي مغنية إيطاليا - إلقاء الأنشودة،

وكان العزف رائعًا في مصاحبتها. وقد نجحت الأنشودة نجاحًا باهرًا، حتى أنها ألقيت بعد ذلك في حفلات « الموسيقى الروحية »، حيث لقيت نفس الإعجاب مرتين، وبالرغم من الدسائس الخفية ومن سوء الاخراج!.. كذلك اقترحت - بمناسبة عيد ميلاد السيِّد ديبيناي - قطعة غنائية نصفها تمثيل عادي، ونصفها تمثيل صامت، بالإيماء. وقد تولّت السيِّدة ديبيناى تأليف الكلام، وتوليت أنا تأليف الموسيقى. ولقد سمع « جريم » - عند وصوله - بانتصاراتي الموسيقية. ولم تنقض ساعة، حتى لم يعد ثمة حديث عنها، ولكن لم يعد ثمة - ريب على الأقل - في أنني كنت أعرف التلحين وأحذقه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما أن استقر « جريم » في (لاشيفريت)، حيث كنت لا أشعر بكثير من الانشراح، حتى أفلح في أن يجعل بقائي هناك أمرًا لا يُطاق، وذلك بتصرفات لم أرها تبدى من أحد قط قبل ذلك، ولا كانت تخطر لي على بال. ففي اليوم السابق على وصوله، نُقلت من أفضل غرف الضيوف - وهي التي كانت تجاور مخدع السيِّدة ديبيناى - ليحتلها جريم، بينما أفردت لي غرفة أخرى، في أقصى أطراف الدار. وقد قلت للسيِّدة ديبيناى ضاحكًا: « ألا انظري كيف يطرد الوافدون الجدد، النزلاء القدامي! »، فبدا عليها الارتباك!.. وقد فهمت السر في ذلك بجلاء، في ذلك المساء، حين علمت أن ثمة بابًا خفيًا بين مخدعها والمخدع الذي فارقته، وأنها لم تكن قد رأت جدوى من إطلاعي عليه. ولم تكن علاقاتها بجريم سرًّا على أحد، سواء في قصرها، أو في المجتمع، بل ولا على زوجها نفسه!.. ومع ذلك فإنها بدلًا من أن تأتمننى عليها، أصرَّت على إنكارها، برغم أنني كنت الأمين على أسرار تفوقها قيمة، وكانت هي تدرك أن هذه الأسرار بمأمن لديَّ. ولقد أدركت أن التحفظ كان راجعًا إلى « جريم » الذي لم يكن راغبًا في أن تكون في حوزتي أية أسرار تمسه، برغم أنه كان مستودع أسرارى جميعًا!

وشفعت له عواطفي القديمة - التي لم تكن قد خمدت - وكفاءته الحقة، بيد أنها لم تستطع أن تصمد أمام العناية التي راح يبذلها لكي يهدمها!.. فقد كان سلوكه إزائي، شبيهًا بسلوك الكونت دى توفيير[38]، حتى أنه لم يكد يتكرَّم بـرد تحيتي حينما استقبلني، لا ولم يوجّه إليَّ كلمة واحدة، وسرعان ما أعفاني من أن أخاطبه، إذ لم يحاول أن يوجه إليَّ ما أجيب عنه البتة. وكان يتقدّمني في أي مكان، دون أن يحاول قط أن يحفل بي. ولقد كان بوسعي أن أتجاوز عن هذا، لولا أنه أبدى حرص على جرح كرامتي. ويكفي أن أسوق واقعة واحدة من ألف، ليتسنى الحكم على ذلك.. ففي ذات مساء، شعرت السيِّدة ديبيناى بتوعك بسيط، فطلبت إلى الخدم أن يحملوا إليها بعض الطعام في مخدعها بالطابق العلوي، حيث اعتزمت أن تتناول العشاء إلى جانب المدفأة. ودعتني إلى الصعود معها إلى المخدع، فلبيت. وما لبث « جريم » أن أقبل بعد ذلك.

وكانت المائدة الصغيرة قد أُعدَّت، بحيث لا تضم سوى شخصين، وأُحضر الطعام، فاتخذت السيِّدة ديبيناى مجلسها إلى أحد جانبيّ المدفأة. واستولى السيِّد « جريم » على مقعد وثير، فاستقرّ فيه، إلى الجانب الآخر. وجرَّ المائدة فجعلها بينهما، ونشر المنشفة، وشرع في الأكل، دون أن ينبس ببنت شفة لي!.. وتضرج وجه السيِّدة ديبيناي خجلًا، ولكي تحمله على أن يعتذر عن تصرفه النابي، عرضت عليَّ مكانها. ولم يقل « جريم » شيئًا ولا هو تطلّع نحوى. ولما لم يكن لى من سبيل كى أقترب من المدفأة، فقد قررت أن أذرع الحجرة، ريثما يحضرون لي أدوات للمائدة.. وتركني أتناول عشائى في طرف المائدة بعيدًا عن النار، دون أن يبدى أتفه اعتذار لي وقد كنت أكبره سنًّا، وكنت معلولًا، وكنت صديقًا قديمًا للأسرة وقد قدّمته بنفسي إليها، فكان خليقًا به أن يكرمني لذلك، لا سيما وهو الأثير لدى السيِّدة!.. وكانت كل تصرفاته معى تشبه كثيرًا هذا النموذج. فقد كان يعاملني وكأنني أقل منه شأنًا حقًّا، وكان يعتبرني كما لو أنني لم أكن شيئًا يُذكر!

وكان من العسير عليَّ أن أعرف فيه « خادم المدرسة » الذي التحق بخدمة الأمير « ساكس - جوثا »، والذي كان يرى في احتفائى به شرفًا وتكريمًا!.. ووجدت عناء أشدّ، في أن أوفق بين هذا الصمت العميق، وهذا الترفع المهين، وبين تلك الصداقة اللطيفة التي كان يتظاهر بأنه يكنّها لي، أمام أولئك الذين كان يعرف أنهم يولوني إياها فعلًا!.. ومن الصحيح أنه لم يكن يبدي شيئًا اللهم إلا ليرثى لحالي - التي لم أكن أشكو منها على الإطلاق! - ويشفق على حظى المحزن - الذي كنت قريرًا به! - ولينعي على أنني كنت أرفض في فظاظة اللفتات الكريمة، التي كان يعلن أنه مشوق إلى إظهارها نحوى!.. وبفضل هذا الدهاء استطاع أن يحمل القوم على أن يعجبوا بعطفه الكريم، وعلى أن يعتبوا عليَّ نفوري الجاحد.. كما استطاع أن يوهم الناس أجمعين - دون أن يفطنوا - بألَّا يتصوّروا أن تقوم بين راع شهم مثله، وتعس شقى مثلى، روابط غير روابط الاحسان من أحد الطرفين، وروابط الالتزام والامتنان من الطرف الآخر.. دون أن يخطر ببالهم - ولو على قبيل الاحتمال - أن هذه الروابط قد تكون صداقة بين ندين متكافئين!

وعبثًا حاولت - من ناحيتي - أن أتبين أى اعتبار يخضعنى لأي التزام إزاء هذا الراعي الجديد. فلقد أقرضته نقودًا، ولكنه لم يقرضني شيئًا البتة.. ولقد سهرت عليه في مرضه، ولم يكد هو يعودني في مرات سقامى.. ولقد عرّفته بكل أصدقائي، ولكنه لم يعرّفني يومًا بواحد من أصدقائه.. ولقد أطريته بكل جهدي، أما هو.. إذا كان قد أطراني يومًا، فإنما فعل في أضيق نطاق من العلانية، وبطريقة أخرى!.. وما أدّى لي يومًا - بل ولم يعرض استعداده لأداء - خدمة من أي نوع. فكيف إذن كان الراعي الذي غمرني بعطفه؟.. وكيف كنت الأثير المعتمد على رعايته؟.. لقد كان هذا - وما يزال - فوق إدراكي!

ومن الصحيح ـ إلى حد ما، كثر أو قلّ هذا الحد - أنه كان شرسًا مع كل الناس، ولكنه لم يذهب في شراسته إلى درجة الضراوة مع سواي.. وإني لأذكر أن « سان - لامبير » أوشك - ذات مرة - أن يطوح بطبق الطعام إلى رأس « جريم »، إذ تجرّأ على أن يكذّبه جهارًا على المائدة، قائلًا في قحة: « هذا غير صحيح! ». وكان يقرن لهجته الساخرة - بطبيعتها - بعجرفة الشخص الحديث العهد بالنعمة.. بل أنه أصبح موضع استهجان، بفضل سفاهته!.. فقد أغراه اختلاطه بكبار القوم على أن يتراءى بمظاهر لم تكن لتؤخذ على أنها معقولة، حتى بين هؤلاء القوم!

ولم يكن ينادي خادمه إلا بكلمة « أيه! »، وكأن السيِّد الجليل الشأن قد أوتى عددًا كبيرًا من الخدم، فهو لا يدرى أيّهم المنوب بخدمته!.. وإذا منحه عطاء، كان يلقى به على الأرض، بدلًا من أن يدسّه في يده. وقصارى القول أنه كان ينسى أن الخادم إنسان، فكان يوسعه إزدراءً وقسوة - في كل مناسبة - بدرجة تثير النفس، حتى أن الفتى - وكان من خيرة الخدم، وقد نزلت له عنه السيِّدة ديبيناي - لم يلبث أن ترك خدمته دون ما شكوى، سوى عدم احتماله هذه المعاملة!.. فكان على شاكلة « لافلير » في مسرحية « المظفرون » الفكهة!

ولقد كان بليد الذهن بقدر ما كان مغرورًا، وكان يخال أنه - بعينيه الكبيرتين الكئيبتين، ووجهه المترهل - ذو حظوة عظيمة لدى السيّدات، فإن عددًا من أفراد الجنس اللطيف اعتبرنه - بعد تمثيلية الآنسة فيل الخرافية39 - رجلًا ذا عواطف مشبوبة.

وقد أذاع ذلك صيته في المجتمع، وأكسبه ميلًا إلى أناقة النساء، فراح يتجمّل، وأصبحت زينته عملية خطيرة، وكان الناس جميعًا يعرفون أنه يستخدم المساحيق والمعاجين.. أما أنا فلم أكن أعتقد ذلك، ولكنني لم ألبث أن بدأت أصدّقه، لا لجمال بشرته، ولا لمجرَّد أنني كنت أجد أواني المعاجين على مائدة زينته، وإنما لأننى وجدته - إذ ولجت مخدعه ذات صباح - منهمكًا في تنظيف أظفاره بفرجون صغير صُنع لهذه الغاية!.. وهي عملية

واصل أداءها أمامي مزهوًا. وحدست أن الرجل الذي يقضى ساعتين من كل صباح في تنظيف أظفاره، لا يضن ببضع دقائق لكي يملأ تجاعيد جلده بالمعاجين!.. لقد أطلق عليه « جوفكور » الطيب - الذي لم يكن غبيًا - اسم « تيران الأبيض »، على سبيل الدعابة والهزء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم تكن كل هذه سوى سفاسف مضحكة، ولكنها كانت تخالف أخلاقي، وقد انتهت بأن حملتني على الشك في أخلاقه، فإنني لا أكاد أصدّق أن رجلًا استولت على رأسه النزوات، يملك لقلبه قيادًا في الطريق السوى. ولقد كان يفخر بحساسية روحه وعنفوان مشاعره، أكثر مما يفخر بأي شيء آخر فكيف يتفق هذا مع تلك العيوب التي لا تلصق بغير ذوى العقول الصغيرة؟.. وكيف تسمح له الانطلاقات الحية المتواصلة، التي تحلق بها مشاعر القلب الحساس - خارج نطاق هذا القلب - أن يشغل باله بأمور تافهة تتعلّق بشخصه الضئيل؟.. آه، يا إلهى!.. إن الذي يشعر أن فؤاده يكتوى بهذه النار السماوية، يسعى عادة إلى أن ينفثها خارجه، وإلى أن يكشف دخيلة نفسه.. إنه يتلهف إلى أن يعرض قلبه على أسارير وجهه، ولا يفكر قط في أية معاجين، أو أية زينة لهذا الوجه!

ولقد تذكّرت خلاصة فلسفته الخلقية، كما أنبأتني بها السيِّدة ديبيناي، التي كانت قد انتهجتها. وهذه الخلاصة تضمّ مبدأ واحدًا.. ذلك هو أن الواجب الأوحد للإنسان، هو أن يسير وراء نوازع قلبه، في كل شيء!.. ولقد أمدّنى هذا القانون الخلقي - حين سمعت به - بمادة بغيضة للتفكير، برغم أنني لم أعتبره ـ في ذلك الوقت - أكثر من فكاهة.. على أنني سرعان ما تبينت أن هذا المبدأ كان قاعدة تصرفات الرجل فعلًا، ولم أزد - فيما بعد - إلا تثبتًا من ذلك، وإن جاء الدليل على حسابي أنا!.. كان ذلك هو المذهب الباطني، الذي كثيرًا ما حدَّثني عنه ديدرو، وإن لم يعمد قط إلى الإيضاح والشرح.

وتذكّرت كذلك الإنذارات العديدة التي تلقيتها - قبل ذلك بسنوات - لتنبيهي إلى أن ذاك الرجل كان غشَّاشًا، وأنه كان يعبث بالمشاعر، دون أن تكون لديه عواطف ما، بوجه خاص. واستعرضت عدَّة وقائع صغيرة، كان السيِّد دى فرانكويى والسيِّدة دى شينونسو قد ذكراها لي بهذا الصدد.. فما كان أي منهما ليوليه اعتبارًا، ولا بد أنهما كانا على دراية طيبة به، إذ أن السيِّدة دى شينونسو، كانت ابنة السيِّد دى روشيشوار، الصديقة الحميمة للمرحوم الكونت دى فريز.. كما أن السيِّد دي فرانكويى - الذي كان وثيق الصلة بالفيكونت دى بولينياك في تلك الفترة ـ كان كثير التردد على القصر الملكي، في عين الوقت الذي سُمح لجريم فيه بدخوله. ولقد عرفت باريس بأسرها نبأ اليأس الذي استولى عليه عقب وفاة الكونت دى فريز. وكان همّه الأكبر هو الاحتفاظ بالصيت الذي اكتسبه، بعد المعاملة القاسية التي لقيها من الآنسة فيل، والتي كان من الخليق بي أن أكون أقدر الناس على كشف زيف الضجة التي ترتبت عليها، لو أنني كنت أقلّ عمى وغفلة!.. كان لابد من جرّه إلى قصر دى كاسترى، حيث أدَّى دوره بمهارة مصطنعًا أقوى وجد فتاك. وكان في كل صباح يسعى إلى الحديقة، ليبكي ما شاء له البكاء، ممسكًا أمام عينيه بمنديل مبتل بالدموع، طالما كان على مشهد من القصر. وما أن يعرج مع انحناءة الطريق، إلى شارع ضيق، حتى يدس المنديل في جيبه بعـد أن يحرج من هـذا كتابًا، على ما رآه اشخاص لم يكن لديه أي ظن عن أنهم كانوا يشاهدونه!

لقد رؤى - وهو يفعل ذلك - أكثر من مرة، وسرعان ما أصبح النبأ مشاعًا في باريس، ولكنه لم يلبث أن راح منسيًا... حتى أنا نسيته، ولكن مسألة تخصني عادت تذكرنى به. فلقد كنت طريح الفراش، على أعتاب الموت، في المسكن الذي كنت أتخذه في شارع (دى جرينيل)، بينما كان هو في الريف. وفي ذات يوم، أقبل ليعودني، وهو لاهث الأنفاس، وقال إنه قد

وصل لتوه من ريفه. وإن هي إلا دقيقة، حتى علمت أنه وصل في اليوم السابق، وأنه شوهد في المسرح، في اليوم ذاته!

ولقد عاودتني ألف من هذه الوقائع الصغيرة، ولكن أشدّ ما أذهلني، تمثّل في شيء دهشت لأنني لم أفطن إليه من قبل. ذلك أنني كنت قد قدَّمت « جريم » إلى جميع أصدقائي، دون استثناء، فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعًا أصدقاء له. وكنت لا أكاد أنفصل عنه، حتى لقد بات من المعتذر أن أواصل التردد على بيت لم يكن له هو حق دخوله. ولم يرفض زيارته سوى السيِّدة دي كريكي، ومن ذلك الحين انقطعت عن زيارتها انقطاعًا يكاد يكون تامًّا.. ولقد تعرَّف جريم - من ناحيته ـ على أصدقاء آخرين، سواء كان قد اتصل بهم بنفسه، أو عن طريق الكونت دى فريز. ولم يقدّر لأحد من أصدقائه جميعًا أن يغدو صديقًا لي. كما أنه لم يفه بكلمة واحدة لحملي على التعرُّف بهم، على الأقل.. وما أظهر لي واحد من كل أولئك الذين كنت ألتقى بهم في مسكنه أحيانًا، أية نية حسنة.. ولا الكونت دى فريز الذي كان جريم يقيم لديه - والذي كان يسرّني أن أوثق الصلات معه - ولا الكونت دى شومبيرج، قريبه الذي كانت العلاقة بيه وبين جريم تفوق الود الوثيق!

وهناك ما يفوق ذلك. فإن أصدقائي الأصليين، الذين جعلت منهم أصدقاء له - والذين كانوا على صلات وثيقة معى أبدًا قبل هذا التعارف - لم يلبثوا أن تغيّروا نحوى بعده.. أبدًا لم يقدّم لي أحدًا من أصدقائه، وإن كنت قد قدَّمت إليـه كل أصدقائي.. ومع ذلك فإنه انتهى إلى أن حرمني منهم جميعًا. فإذا كانت هذه هي نتائج الصداقة، فما هي نتائج البغضاء؟

ولقد حذّرنى « ديدرو » مرات عدَّة - منذ البداية - من أن « جريم » الذي أوليته كل هذه الثقة، لم يكن صديقًا لى. وما لبث أن بدَّل لهجته، عندما كفّ عن أن يكون صديقًا لي هو الآخر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم تتطلَّب الطريقة التي تصرَّفت في أولادي بمقتضاها، معونة من أحد. ومع ذلك فقد أطلعت عليها أصدقائي، لمجرَّد إطلاعهم، حتى لا أبدو في أعينهم أفضل مما كنت. وكان هؤلاء الأصدقاء ثلاثة فحسب: ديدرو، وجريم، والسيِّدة ديبيناى. ولقد كان « ديكلو » - وهو أجدر أصدقائي بثقتى - الوحيد الذي لم أنبئه. ومع ذلك فإنه عرف بالأمر.. ممن؟.. لست أدرى. ومن المتعذر احتمال أن تكون السيِّدة ديبيناى هي المذنبة بخيانة الثقة ـ في هذه المرة - لأنها كانت تعلم خير العلم، أننى إذا حذوت حذوها - لو أنني كنت قادرًا على مثل هذا العمل - لثأرت لنفسي بقسوة!.. ويبقى بعد ذلك جريم وديدرو، اللذان كانا - في ذلك الوقت - وثيقى الارتباط في كثير من الأمور، لا سيما ما يكون منها ضدى.. ومن ثم فهناك أكثر من مجرَّد الاحتمال بأنهما المذنبان معًا!.. وأراهن على أن « ديكلو » - الذي لم أكاشفه بسري، والذي لم يكن مضطرًا لذلك إلى الصمت - كان هو الوحيد الذي لم يشى بهذا السر!

ولقد بذل جريم وديدرو - في محاولتهما لإقصاء « المربيتين » عنى - جهدًا لاستدراج « ديكلو » إلى المساهمة في خططهما، ولكنه كان يرفض دائمًا في إزدراء. ولم يحدث إلا فيما بعد أن علمت منه كل ما جرى بينه وبينهما بهذا الصدد. ولكنني كنت إذ ذاك قد عرفت من تيريز ما كان كافيًا لأن أبصر في المسألة كلها غاية خفية، وأنهما كانا مشوقين إلى أن يتخلصا منى، دون أن أفطن - على الأقل - إن لم يكن بالرغم منى.. أو أنهما - على الأرجح - كانا يبغيان أن يستغلا هاتين المرأتين كأداتين في خطة سرية. ولقد كان في كل ذلك شيء غير شريف، حقًّا. وهذا ما تدل عليه معارضة « ديكلو »، دون نزاع، فلير مَن يشاء في هذا صداقة أو ودًّا!

لقد كانت هذه الصداقة المزعومة خطرة على حيـاتي الداخلية، كما كان شأنها على حياتي الخارجية. فإن الأحاديث الطويلة، والعديدة، مع السيِّدة لوفاسير - لعدّة سنوات قبل ذلك - قد بدَّلت من مشاعر هذه المرأة نحوى، بدرجـة ملموسة.. ومن المحقق أن هذا التبدّل لم يكن في صالحي. فماذا كان موضوع الحديث - إذن - خلال هذه الخلوات العجيبة؟.. وما السر في هذا الغموض العميق؟.. وهل كان حديث هذه المرأة العجوز مستحبًا إلى درجة اعتباره نعمة، أو مهمًا إلى درجة تدعو إلى فرض مثل هذا الغموض حوله؟.. لقد بدت لي هذه الاجتماعات مضحكة، خـلال السنوات الثلاث أو الأربع التي دامتها، ولكني عندما تدبرتها، بدأت أعجب منها. وكان هذا الشعور بالعجب كفيلًا بأن ينتهي إلى عدم الارتياح، لو أنني عرفت ـ إذ ذاك - ما كانت هـذه المرأة تتآمر عليه ضدى.

وعلى قدر ما كان جريم يتظاهر به من تحمس من أجلي - كان يطنطن به في المجتمع، وكان من العسير أن يتفق مع المسلك الذي راح يسلكه نحوى بالذات - فإنني لم أكسب شيئًا من هذا التحمس، من أية ناحية.. بل إن الإشـفـاق الذي كان يتظاهر به نحوى، أدَّى إلى الحط من قدرى أكثر مما أدَّى إلى نفعي. بل إنه - بقدر ما كان يملك - قد جردنى من أرباح المهنة التي اخترتها لنفسي، إذ راح يعلن أنني لم أكن أتقن النسخ. وأقرّ أنه كان صادقًا في قوله، غير أنه لم يكن مما يليق به أن يقوله. وقد ألممت أنه لم يكن مازحًا، إذ أنه استخدم ناسخًا غيرى، ولم يدع لي عميلًا كان يستطيع إليه وصولًا، حتى ليجوز أن يُقال إن غايته كانت تتمثّل في أن يجعلني عالة عليه وعلى اهتمامه بأن يكفلني وذلك بأن يستنفد مواردى، حتى أنحدر إلى مثل هذه الحال!

أما وقد ألممت بكل هذا، فقد بادر عقلي إلى فرض الصمت على آرائي السابقة في جريم، وهي الآراء التي كنت قد ظللت أرددها - لصالحه - حتى ذاك الحين. ورأيت أن أخلاقه كانت جد مثيرة للشبهات، على الأقل. أما ودّه وصداقته، فقد قطعت بأنهما زائفان. وإذ عقدت العزم - بناءً على ذلك ـ ألا أراه ثانية، فقد بادرت إلى إنبـاء السيِّدة ديبيناي بذلك، وعززت قرارى بعدَّة مبررات لا سبيل إلى ردّها، وإن كنت قد نسيتها الآن!

ولقد عارضت السيِّدة ديبيناي هـذا العزم بشدّة، دون أن تدرى تمامًا ما ترد به على الحجج التي أقرَّت رأيى. ولم تكن قد شاورته في الأمر بعد، ولكنهـا بدلًا من أن تفصح عن موقفها شفويًا إلىَّ، أرسلت - في اليوم التالي - خطابًا صيغ ببراعة اشتركا فيها معًا، وقد التمست لجريم فيه العذر - دون خوض في تفصيلات أي شيء - استنادًا إلى طباعه المنطوية، واعتبرته جرمًا أن أتهمه بخيانة صديقه، وحضتني على أن أصلح ما بيننا. ولقد زعزع خطابها عزمي!.. وفي حديث دار بيننا بعد ذلك - وجدتها خلاله أحسن استعدادًا منها في المرة الأولى - ارتضيت أن أنهزم، وملت إلى الاعتقاد بأنني ربما كنت قد أسأت الحكم، وأنني - في هـذه الحال - قد أخطأت فعلًا في حق صديق، أشنع خطأ، مما كان يلزمني بإصلاح ذات البين. وبالإيجاز، فعلت في هذه المرة، ما فعلته عدَّة مرات من قبل إزاء ديدرو والبارون دولباخ.. وأقدمت طواعية - من ناحية - وبدافع من ضعفى، من ناحية أخرى، على كل هذه المساعي، التي كان علىَّ أن أفعلها: فذهبت ـ كجورج داندان آخـر[40] - لزيارة جريم، كي أعتذر له عن الإهانات التي ارتكبها هو ضـدي، إذ كنت منساقًا دائمًا للاعتقاد الخاطيء، الذي عرَّضني طيلة عمري لألف صغار وضعة أمام أصدقائي المزعومين.. الاعتقاد بأنه ما من بغضاء تصل في قوتها إلى درجة يستعصى معها على اللطف وحسن التصرف أن يغلباها.. في حين أن الأمر على النقيض، فإن كراهية الخبثاء إنما تقوى وتشتد بفضل استحالة العثور على ما يبررها، كما أن شعورهم بذنوبهم لا يؤدي إلا إلى زيـادة حقدهم على ضحيتهم!

وعندى - بدون خروج عن سياق قصتى - دليل جد قوى على هذه النظرية، يتمثل في تصرّف جريم وترونشان، اللذين صارا ألد عدوين لي، عن ميل، وعن لذة، وعن نزوة، دون أن

يملكا قط أن يذكرا واقعة واحدة - من أي نوع أكون - قد آذيت بها أيًا منهما.. وكان هياجهما - كهياج النمر - يزداد يومًا بعد يوم، نظرًا للسهولة التي كانا يستمرئانه بها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد توقعت أن يستحي جريم من تنازلي، ومن مساعي للصلح، فيتلقاني بذراعين مفتوحتين، وبأرق العواطف. ولكنه - في الواقع - استقبلني وكأنه إمبراطور رومانى.. في ترفع لا مثيل له. ولم أكن، على استعداد إطلاقًا لهذا الاستقبال. وإذ ارتبكت لاضطراري إلى أن أؤدّي دورًا كهذا لا يلائمنى، أوضحت غرض زيارتي في بضع كلمات مترددة. وقبل أن يتقبلني في جنة رضاه، راح يلقى - في كثير من التعاظم ـ حديثًا طويلًا، كان قد أعدّه من قبل وضمّنه عددًا من سجاياه النادرة، لا سيما في مضمار الصداقة. وأسهب فترة في ذكر أمر أثَّر في نفسي كثيرًا في البداية. ذلك هو أن الناس كانت ترى فيه دائمًا حرصه على الاحتفاظ بأصدقائه. وفيما كان يتكلّم رحت أقول لنفسي إن من القسوة - من ناحيتي - أن أكون المستثنى الوحيد من هذه القاعدة. ولقد أكثر من العودة إلى هـذا الأمر، في تكلف بالغ، حتى أنه جعلني - في النهاية - أرى أنه إذا لم يكن منساقًا في هـذا لغير أحاسيس قلبه، لكان أقل تأثّرًا بهـذا الأمر الذي انطلق في شرحه مسهبًا.. وأنه كان يستغله كحيلة نافعة يصل بوساطتها إلى الغاية التي يقصدها من آرائه هذه!.. ولقد كنت - حتى ذلك الحين - على مثل هذه الحال: فلقد اعتدت دائمًا أن أحتفظ بأصدقائي، وما فقدت - منذ طفولتي - واحدًا منهم اللهم إلا بالموت، ومع ذلك فإنني لم أجعل من هذا الاحتفاظ شاغلًا أطيل التفكير فيه.. ولا جعلت منه مبدأ أضعه لنفسي.

وإذا كانت هذه ميزة متوفرة لدى كل منا فلماذا يزهو بها هو وحده، اللهم إلا إذا كان قد فكَّر فعلًا في أن يجردني منها؟.. ولقد عمد - بعد ذلك - إلى الحط من قدري، بأن راح يبرهن على أن الأصدقاء المشتركين بيننا يفضلونه عليّ أنا!.. وكنت أكثر منه علمًا بهذا التفضيل، ولكن المهم في الأمر، هو: بأي ثمن ظفر به؟.. أفكان ذلك لأنه أوتى مواهب أو براعة تفوق مواهبي أو براعتي.. أو لأنه كان يرقى بنفسه، أو لأنه كان يسعى إلى الحط من قدرى؟.. وأخيرًا، وبعد أن أرضى نفسه بأن أقام بيني وبينه من الفوارق ما يكفي لأن يجعل للعفو الذي كان يوشك أن يمنحه قيمة، منحنى قبلة صلح، في عناق واهن، كذلك الذي يتكرَّم به الملك على مَن ينصبهم فرسانًا.. وهويت من السحب.. ووجدتني مشدوهًا، لا أدرى ما ينبغي أن أقول، بل إنني لم أعثر على كلمة واحدة.. لقد كانت المقابلة كلها تبدو كتأنيب يوجّهه أستاذ إلى تلميذ، وهو يعفيه من عقوبة الضرب!.. وما فكرت في ذلك قط، إلا شعرت بمدى خداع الحكم الذي يقوم على المظاهر - والذي يضفى عليه السوقة أهمية وقيمة - وبكثرة ما تكون الجرأة والكبرياء من حظ المذنب.. والحيـاء والارتبـاك من حظ البرىء.

واصطلحنا!.. كان هذا عزاء - على الأقل - لقلبي الذي كان كل خلاف يدفع به إلى اللواعج القاتلة!.. ومن الصواب أن يحدس المرء أن مثل هذا الصلح لم يبدِّل من أخلاق جريم وتصرفاته.. وكل ما أدّى إليه، هو تجريدي من حق الشكوى من هذه التصرفات!.. ومن ثم، فقـد عوّلت على أن أتحمل كل شيء، دون أن أفضفض بشيء ما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه الهموم الكثيرة، التي تعاقبت ضرباتها، واحدة بعد أخرى، طوَّحت بي إلى حال من الضني لم تدع في كياني جهدًا ليمكنني من أن أستعيد السيطرة على نفسي.. وإذ لم أكن قد تلقيت أي رد من « سان - لامبير »، وقد أصبحت موضـع إهمال لدى السيِّدة دوديتو، ولم أعد أجرؤ على أن أبوح بما في قلبي لإنسان ما، فقد بدأ الخوف يراودني من أن أكون قد ضيعت حياتي ضحية للأوهام، إذ جعلت من الصداقة معبودًا لقلبي!.. وكان الدليل على

هذا قائمًا، إذ لم يكن قد بقى لي - من كل أصدقائي - سوى رجلين، ظلَّا محتفظين بتقديري، وكان قلبي يركن إليهما ويأمنهما: « ديلكو » - الذي حُرمت من رؤيته منذ اعتكافي في (ليرميتاج) - و « سان ـ لامبير ». ووقر في نفسي أنني لن أستطيع أن أصلح من أخطائي نحـو هذا الأخير، إلّا بأن أفتح له مغاليق قلبى دون تحفظ.. فعزمت على أن أعتـرف له اعترافًا كاملًا، بكل ما لا يحـرج عشيقته. ولم يخطر لي ببال، أن هذا الاختيار، كان أحبولة أخرى نصبها لي هواى، ليقربني من السيِّدة.. ولكن من المحقق أنني كنت على استعداد لأن ألقي بنفسي بين ذراعَيّ عشيقها دون ما تحفظ، وأن أنصاع لإرشاده انصياعًا تامًّا، وأن أمضى في صراحتى إلى أبعد مدى أستطيع الوصول إليه!

وكنت على استعداد لأن أكتب إليه رسالة ثانية، وأنا موقن من أنه سيجيب عنها، عندما علمت بالسبب المحزن الذي دعاه إلى الصمت إزاء الرسالة الأولى.. ذلك أنه لم يتحمل إرهاق الحملة. وقد أخبرتني السيِّدة ديبيناى بأنه أصيب بنوبة فالج، كما أن السيِّدة دوديتو - التي انتهى بهـا الغم إلى أن مرضت هي الأخرى، والتي لم تكن في حال تمكنها من الكتابة إلىَّ في الحال - أرسلت إلىَّ كلمة، بعد يومين أو ثلاثة، من باريس - حيث كانت في ذلك الحين - وقالت إن « سان - لامبير » رغب في أن يُنقل إلى (أكس لاشابيل)، ليستشفى بمياهها. ولن أقول إن هذا النبأ المحزن أسقمني كما أسقمها، ولكني أرتاب في أن الأسى الذي بعثه في نفسي كان أقل إيلامًا من لوعتها ودموعها!.. فإن الاغتمام الذي نشأ عن معرفة أنه كان في حال كهذه، تضاعف من جراء الخوف من أن يكون القلق النفسي41 قد ساهم في ذلك، مما كان له في نفسي أثر فاق كل ما جرى لي شخصيًّا. وتولّانى شعور قاس بأنني ـ في تقديري الخاص لنفسي - كنت أفتقد القوة المنشودة لكي أحتمل مثل هذا الأسى!

على أن هذا الصديق الكريم، لم يدعني طويلًا، في مثـل هذا الهم - لحسن الحظ - إذ أنه لم ينسنى، بالرغم من مرضه. وما لبثت أن علمت منه شخصيًّا، أنني كنت قد أسأت الحكم على مشاعره وحاله!

ولكن الوقت قد حان لكي أنتقل إلى الانقلاب الكبير - والمفاجيء - الذي طـرأ على مصيري.. إلى النكبة التي شطرت حياتى شطرين متباينين، والتي أدَّت - من جـراء سبب جد - تافه إلى عواقب فظيعة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذلك أن السيِّدة ديبيناى أرسلت - ذات يوم - تستدعيني، على غير توقّع البتة. فلما ولجت مخدعهـا، لمحت في عينيها، وفي أساريرها كلها، ما يوحي بأنها كانت مضطربة، الأمر الذي زاد من دهشتى، إذ أنه لم يكن مألوفًا، فما كان في الدنيا مَن يحذق السيطرة على أساريره وحركاته مثلها!.. وقالت لي: « إننى راحلة إلى جنيف يا صديقى، فإن صدرى في حالة سيئة، وصحتى في انهيـار يجعلني أهمل كل شيء، إذ لا بد لي من الذهاب كى أزور ترونشـان وأستشيره ».. ولقد أدّى هذا القرار - الذي اتخذ بغتة، وفي بداية الفصل السيئ42 - إلى مضاعفة دهشتى. فهي لم تشر بكلمـة واحدة إلى هذا الأمر، عندما فارقتها قبل ذلك بست وثلاثين ساعة!.. وسألتها عمّن تعتزم اصطحابه، فقالت إنها كانت راغبة في أن تصطحب ابنها والسيِّد « دى لينان »، ثم أضافت في غير اكتراث: « وأنت يا دبى.. ألا تأتى أنت الآخر؟ ».. ولما كنت موقنًا من أنها لم تكن جادة في حديثهـا - إذ كانت تعلم أنني في مثل تلك الآونة من السنة، التي كنا مقبلين عليها، أكون في حال لا تكاد تسمح لي بمبارحة مخدعي - فقد رحت أتفكه ساخرًا من رفقة معلول لمعلول آخر!.. وما كانت هي نفسها تعنى ما عرضت، ومن ثم فإن الأمر انتهى عند هذا الحد. ولم نعد نتحدَّث إلا عن الاستعداد للرحلة، وهو الأمر الذي انهمكت فيه بكل همة. وعقدت العزم على أن تسافر بعد

خمسة عشر يومًا.

ولم أكن بحاجة إلى كثير من بُعد النظر، لكي أدرك أن ثمة دافعًا خفيًا على هذه الرحلة، كُتم عنى. وهذا السر - الذي لم يكن سرًّا على أحد سواء في البيت كله - لم يلبث أن تكشف في اليوم ذاته، بوساطة « تيريز ». فقد أنبأها به كبير الخدم، إذ سمعه من وصيفة السيِّدة!.. ومع أنني بعيـد عن أي التزام - نحو السيِّدة ديبيناى - يضطرني إلى كتمان هـذا السر، لأننى لم أعرفه منها، إلا أنه وثيق الارتباط بأولئك الذين نمي إليّ عن طريقهم. ومن ثم فليس في وسعى أن أبـوح به. على أن هذه الأسرار - التي لم تخرج، ولن تخرج، من فمي، أو على قلمي - لم تلبث أن غدت معروفة لدى كثير من الناس، فلم يكن في الوسع أن تظلّ مجهولة لدى أحـد من المحيطين بالسيِّدة ديبيناي[43].

ولقد كان خليقًا بي - عندما ألممت بحقيقة الدافع على هذه الرحلة - أن أتبين أن ثمة إيعازًا خفيًـا من عدو لي حاول أن يجعل منى مرافقًا للسيِّدة ديبيناي. ولكنها لم تلح عليّ البتة كي أرافقها، ومن ثم فإنني ظللت أعتبر المحاولة أمرًا غير جدّى.. ولم أفعل أكثر من أن ضحكت من الشكل الذي كنت أوشك أن أظهر فيه، لو أنني كنت من الغباء بحيث اضطلعت بالمهمة. وبجانب هذا، فإنها كسبت برفضى كثيرًا، إذ مكّنها هذا من أن تغرى زوجها بمصاحبتها!

وبعد أيام قلائل، تسلّمت الرسالة التالية من ديدرو. وكانت هذه الرسالة مطواة طيتين، بحيث يستطيع أي امرىء أن يقرأ محتوياتها. وكان العنوان يحمل اسمى مردفًا بهـذه العبارة: « عن طريق السيِّدة ديبيناى »، وعُهد بها إلى السيِّد دي لينان، أستاذ الابن ومستودع الأم!

رسالة من ديدرو (الملف أ ـ رقم **52**)

« لقد خُلقت لكي أحبك ولكي أؤلمك. لقد علمت أن السيِّدة ديبينـاي راحلة إلى جنيف، ولم أسمع بأنك مرافق إياها. فإذا كنت راضيًا عن السيِّدة ديبيناي، يا صديقي، فمن الواجب أن ترحل معهـا.. أما إذا كنت مستاء منها، فمن الواجب أن تكون أسرع مبادرة إلى الرحيل. أفأنت ترزح - أكثر مما ينبغي - بأثقل التزامات أبهظتك بها؟.. إذن، فهاك فرصة لكي تؤدّي بعضًا منها، ولكي تتخفّف من أعبائك. فهل ستجد فرصة أخرى في حياتك لإظهار عرفانك بجمائلها؟.. إنها ذاهبة إلى بلد ستكون فيها كمن هبطت من أطواء السحاب. وأنها لمريضة، وستكون بحاجة إلى تسرية وترويح.. أتقول الشتاء؟!.. ألا انظر يا صديقي!.. إن حجة صحتك قـد تكون أقوى مما يخطر ببالي، ولكن، هل تراك اليوم أسـوأ حالًا مما كنت منذ شهور.. ومما ستكون في مطلع الربيع؟.. هل ستكون الرحلة مريحة لك - بعد ثلاثة أشهر - أكثر مما هي اليوم؟.. إنني أصارحك - فيما يتعلق بي - بأنني إذا لم أحتمل العربة، لاعتمدت على عصاى، وتبعتها!

« ثم، ألا تخشى أن يسيء الناس تأويل مسلكك؟.. لسوف تُتهم بالجحود، أو بأن لديك حافزًا خفيًا. وإني لأدرك تمامًا أنك، ستجد قلبك يشهد دائمًا لضميرك، مهما يكن ما تفعل.. ولكن، هل تكفيك هذه الشهادة في حد ذاتها، وهل من المباح أن تهمل شهادة الغير، إلى حد ما؟

« وفيما عدا ذلك، يا صديقي، أكتب هـذا الخطاب وفاء لواجب ألتزم به نحوك ونحو نفسي. فإذا لم يرق لك، فطوِّح به إلى النار، ولا تفكِّر فيه بعد ذلك، وكأنني لم أكتبه قط

« وإني لأحييك، وأحبك، وأقبلك ».

وتولتنى انتفاضة الغضب، واستبد بي الذهول، إذ قرأت هذه الرسالة، التي وجدت عناء في

أن أتمّها. ولكن ذلك لم يلهني عن أن ألاحظ اللهجة التي اصطنعها ديدرو ليبدو مسرفًا في اللطف، وفي الترفق، وفي الاخلاص، عما اعتاد في رسائله الأخرى، دون أن يضن عليّ بلقب (الصديق). وتبينت الطريق غير المباشرة التي جاءتني هذه الرسالة خلالها.. فقد كان العنوان، والأسلوب، والطريقة التي وصلت بها، تنم عن مداورة سيئة الغرض. ذلك لأننا اعتدنا أن نتكاتب عادة، عن طريق البريد، أو عن طريق حامل الرسائل في (مورنمورنسي). وقد كانت هذه هي المرة الأولى، والوحيدة، التي نهج فيها هذا النهج!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما سمحت أولى نوبات الغضب للكرامة بالكتابة، بادرت إلى تحرير الجواب التالي، الذي حملته لفوري، من (ليرميتاج) - حيث كنت إذ ذاك - إلى (لاشيفريت)، لأطلع عليه السيِّدة ديبيناي، إذ رغبت - في غضبي الأعمى - أن أقرأه عليها بنفسي، كما أطلعتها على رسالة ديدرو:

« يا صديقي العزيز، إنك لا تستطيع أن تعرف مدى التزاماتي نحو السيِّدة ديبيناى، ولا المدى الذي تذهب إليـه هذه الالتزامات في ربطي إليها، ولا ما إذا كانت السيِّدة بحاجة حقًّا إلى شخصى - في رحلتها - ولا ما إذا كانت راغبة في أن أرافقها، ولا ما إذا كان هذا في إمكاني، ولا الأسباب التي قد تكون لديَّ، لأمتنع عن مرافقتها.. ولست آبى أن أناقش هذه النقاط معك. وإلى أن يتمّ ذلك، أحب أن تقرّ معي أن إملاءك عليَّ - بهذا الاعتداد - ما ينبغي عليَّ عمله، دون أن تكون في وضع يمكنك من الجـزم، لهو - يا فيلسـوفى العزيز - عين اللغو!

« وأسوأ ما في الأمر، أننى أرى أن هذا ليس رأيك، ولا هو صادر عنك. هذا، بغض النظر عن أنني غير مستمد لأن أدع نفسى منساقًا لطرف ثالث أو رابع تحت أسمك.. وإني لأجد في هذه التصرفات غير المباشرة، مداورة لا تتمشى مع صراحتك، ويحسن بك أن تتجنبها في المستقبل، لصالح كل منا!

أراك تخشى أن يُساء تأويل مسلكي، ولكني أتحدَّى قلبًا كقلبك أن يجرؤ على إساءة الظن « بي. أما الآخرون، فلعلهم يتحدَّثون عنى بخير، لو أننى شابهتهم. فلعل الله يصونني من أن أكسب رضاهم!.. ودع اللئام يتجسسون عليَّ، ويؤلون مسلكي كما يحلو لهم. فإن « روسو !»، ليس بالذي يخشاهم، كما أن « ديدرو » ليس بالذي ينصت إليهم

إنك تريدني على أن أطوِّح برسالتك إلى النار، إذا لم ترق لي، وألَّا أفكِّر فيها بعد الآن. « أفتظن أن من السهل نسيان ما يفد منك؟.. إنك تسترخص دموعى، يا صديقي العزيز، بالآلام التي تسبّبها لي، كما تسترخص حياتي وصحتى، بالهموم التي تثيرها. فإذا استطعت أن تصحح هذا، فستظل صداقتك دائمًا من أعذب ما أنعم به، ولسوف يقلّ ما أعانيه من .« !رسالتك

وإذ ولجت مخدع السيِّدة ديبيناي، وجدت جريم معهـا، مما أطربني. فقرأت عليهما - بصوتٍ عال، واضح - الرسالتين، في هدوء نفس ما كنت لأؤمن بأنني قادر عليه. حتى إذا فرغت، أضفت بضع ملاحظات لم تنم عمّا وراء ذلك الهدوء. ورأيت أن هذه الجرأة غير المتوقعة، من رجل كان شديد الخور والتردد عادة، قد أدهشتهما وأذهلتهما معًا. فلم يجيبا بكلمة واحدة، ورأيت ـ فوق ذلك - أن الرجل المتعجرف قد غض بصره، ولم يقو على أن يصمد أمام شرر نظراتي. ولكنه في اللحظة ذاتها، عاهد نفسه - في أعماق قلبه - على القضاء عليَّ. وإنى لموقن من أنه والسيِّدة ديبيناى قد أجمعا على ذلك قبل أن يفترقا!

وحدث في حوالي تلك الآونة، ان تلقيت - عن طريق السيِّدة دوديتو - رسالة من « سان ـ

لامبير » (الملف أ - رقم 57). وكان قد أرسلها من (ولفينبوتيل)، قبيل مصابه بأيامٍ قلائل، ردًّا على رسالتي، ولكنها تأخرت طويلًا في الطريق. وقد أتاح لي هذا الجواب شيئًا من العزاء كنت في أشدّ الحاجة إليه في تلك الآونة، لما زخر به من دلائل التقدير والصداقة، مما بث في نفسي القوة والجرأة لكي أكون أهلًا لذلك. ولقد رحت - منذ تلك اللحظة ـ أؤدي واجبي. ولكن من المحقق أننى كنت موشكًا على أن أضل، دون رجعة، لو أن « سان ـ لامبير » ظهر بمظهر أقل حكمة وكرمًا وإخلاصًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأصبح الجو رديئًا، وشرع الناس في مغادرة الريف. وأنبأتني السيِّدة دوديتو باليوم الذي اعتزمت فيه أن تأتى لتودع وادينا، وضربت لي موعدًا للقاء في (أوبون). وشاءت المصادفة أن يكون ذلك اليوم هو اليوم الذي حُدّد لرحيـل السيِّدة ديبيناي عن (لاشيفريت) إلى (باريس)، لكى تستكمل استعدادها النهائي لرحلتها. ولقد سافرت في الصباح - لحسن الحظ - فانفسح أمامي الوقت بعد رحيلها، كى أذهب فأتناول الغداء مع أخت زوجها. وكنت أحمل رسالة « سان - لامبير » في جيبى، فرحت أقرؤها مرارًا أثناء سيرى، وإذا بها بمثابة درع وقائي من ضعفى. وعاهدت نفسى - وصنت عهدي هـذا - على ألَّا أرى في السيِّدة دوديتو سوى صديقة لي، وعشيقة صديق لي!

وقضيت معها أربع ساعات أو خمسًا، في خلوة ناعمة، وادعة، مستحبة للغاية.. حتى بالنسبة لنوبات الحمى اللاهبة التي كنت أكتوى بها في قربها حتى ذاك الحين!.. ولما كانت تعلم عن يقين أن قلبي لم يتحوَّل، فقد أدركت الجهود التي رحت أبذلها لأسيطر على نفسى، فازدادت تقديرًا لي، وسرَّني أن رأيت أن صداقتها لي لم تخب أو تفتر. ولقد أنبأتني بقرب عودة « سان - لامبير »، الذي لم يعد في صحة تمكّنه من احتمال عناء الحرب، برغم أنه كان قد شُفى تقريبًا من مرضه، ومن ثم فقد رأى أن يترك الخدمة العسكرية، لكي يعيش معها في سلام. ورحنا نرسم خطة بديعة، لصحبة وثيقة تضم ثلاثتنا. وقد كان لنا أن نأمل أن يؤدّي تنفيذ هذه الخطة إلى نتائج باقية، إذ رأينا أنها كانت تقوم على أساس من جميع المشاعر التي تربط بين القلوب المستقيمة، الصالحة، الحسَّاسة.. وكنا نجمع في نفوسنا الثلاث من المواهب والمعرفة، ما لا يدع لنـا حاجـة إلى أى غـريب عنـا.. فوا حسرتاه!.. لم أكن ـ وأنا أستسلم للرجاء في حياة بمثل هذه العذوبة - لأفكِّر قط فيما كان يخبئه لى المستقبل!

وما لبثنا أن تحدّثنا في موقفي الراهن إزاء السيِّدة ديبيناى، فأطلعتها على رسالة ديدرو، وعلى ردّى، وفصّلت لها كل ما جرى في هذا الشأن، وأفضيت إليها بعزمي على أن أفارق (ليرميتاج)، فعارضته بشدَّة، وبحجج ذات أثر غلّاب على قلبى. وأوضحت لي كم أنها كانت تتمنى لو أنني قمت بالرحلة إلى (جنيف)، فقد تنبأت بأنها لن تلبث أن تُقحم في هـذا الرفض الذي صدر مني، وأن رسالة « ديدرو » تكاد تعلن هذا مقدمًا. بيد أنها لم تتشبَّث بهـذه المسألة، إذ كانت تعلم قوة الدواعي والأسباب التي حملتني على الرفض، كما كنت أعلمها تمامًا. ولكنها استحلفتني أن أتفادي كل ضجة، مهما يكن الثمن الذي يكبدنيـه ذلك، وأن ألطف من آثـار رفضى بحجج مقبولة تبدد أي شك ظالم بأن لها يدًا في الأمر. وقلت لها إن المهمة التي تفرضها علىَّ، لم تكن بالبسيطة الهينة، غير أننى قد آليت على نفسي أن أكفّر عن أخطائي، وأن أقـدّم سمعتها على سمعتي، في كل ما يسمح لي الشرف باحتماله. ولن يلبث أن يتجلى ما إذا كنت قد وفيت بهذا التعهد.

وبوسعى أن أقسم بأن هواى التعس وإن لم يفقد شيئًا من عنفوانه، إلا أنني لم أشغف يومًا بصوفي الحبيبة كما كنت مشغوفًا في ذلك اليوم بيد أن رسالة « سـان - لامبير »، وشعوري بالواجب، ونفوري من الخيانة، تركت أثرًا طاغيًا على نفسي طيلة هذا اللقاء، حتى

أن شهواتى فارقتني وخلفتنى معها في سلام، بل حتى أنني لم أجد ما يغريني على أن أقبّل يدها!.. فلما حان الفراق، قبلتني بمرأى من خدّامها. وكانت هذه القبلة - التي خالفت ما كنت أسترقه منها أحيانًا، تحت الأشجار - برهانًا أكّد لي أننى قد غدوت مسيطرًا على نفسي. وأكاد أوقن بأنه لو أتيح لقلبي الوقت لكي يعزز نفسه في هدوء لكانت ثلاثة أشهر أكثر من الكفاية لشفائه تمامًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهنا انتهت علاقاتي الشخصية بالسيِّدة دوديتو.. العلاقات التي يستطيع أى امرىء أن يحكم عليها من المظاهر، وفقًا لطبيعة فؤاده. وإن كان من المحتمل أن الوجد الذي أذكته في قلبي هذه المرأة الرقيقة، هو أقوى وجد شعر به أي رجل على الإطلاق، وسيبقى دائمًا ممجدًا مكرمًا لدى السماء ولدينا، بفضل التضحيات الفذَّة، والأليمة، التي قدمناها - كلانا - في سبيل الواجب، والشرف، والحب، والصداقة!.. لقد كان كل منا يكبر الآخر إكبارًا أسمى من أن يسمح لنا بأن نخزى نفسينا أو نستذلهما!.. وكان لابد لنا من أن نغدو غير جديرين بأي تقدير أو احترام البتة، إذا شئنا أن ننزل عن أي من هذه القيم العليا.. بل إن احتدام مشاعرنا - الذي كان كفيلًا بأن يجعلنا آثمين - كان هو الذي حال بيننا وبين أن نغدو كذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا ودّعت هاتين المرأتين معًا، في يومٍ واحد، بعد صداقة طويلة لإحداهما، وحب عميق للأخرى.. ودعتهما، وقد قُدِّر لي ألّا أرى واحدة منهما بعد ذلك قط، بقية حياتي.. وألا أرى الثانية إلا مرتين فحسب، وفي مناسبتين سأوردهما فيما بعد.

ووجدتني بعد رحيلهما في حيرة بالغة إزاء الوفاء بمثل هذه الالتزامات العديدة، الملحة، المتناقضة، التي ترتبت على حماقتى وعدم حكمتى. ولو أننى كنت في وضعي العادى، بعد اقتراح تلك الرحلة إلى (جنيف) ورفضي إياها، لما كان عليَّ سوى أن أمكث قريرًا مطمئنًا، ولما كان ثمة ما يُقال، بعد الذي قيل بهذا الصدد. ولكنني بغبائي جعلت منه مسألة لم يكن من الميسور أن تبقى على وضعها، ولم أكن أملك أن أتفادى أي اضطرار إلى تفسير مسلكي بشأنها، إلا بمبارحة (ليرميتاج).. وهو الأمر الذي وعدت السيِّدة دوديتو بألَّا أفعله.. ولو لفترة من الزمن، على الأقل. فضلًا عن أنها كانت قد استحلفتني أن أبرز رفضى لدى أصدقائي المزعومين، بحيث لا تُقحم هي في هذا الرفض. ومع ذلك فإنني لم أكن أملك أن أعلن السبب الحقيقي دون مساس بالسيِّدة ديبيناي، التي كنت مدينًا لها ببعض العرفان ـ دون أدنى شك ـ بعد كل الذي فعلته من أجلى.

وإذ تدبّرت كل هذا مليًا، وجدتني أواجه اختيارًا عسيرًا، ولكنه لازم، لا مفر منه.. ذلك هو أن أغض من قدر السيِّدة ديبيناى، أو قدر السيِّدة دوديتو، أو قدر نفسي. واخترت الوضع الأخير.. واخترته بشمم، وعن طيب خاطر، ودون تذمر، بل وفي كرم كفيل بأن يمحو الذنوب التي انحدرت بى إلى هذا الدرك. ولقد أدّت هذه التضحية - التي يحتمل أن يكون أعدائي قد توقعوها، والتي عرفوا كيف يستغلونها - إلى القضاء على سمعتي، وجردتني - بفضل جهودهم - من تقدير الجمهور إياي، ولكنها ردّت إليَّ تقديرى نفسى، وسرت عنى في محنى وضائقاتى! وليست هذه هي المرة الأخيرة، التي أقدم فيها على تضحيات مماثلة - كما سيتجلى فيما بعد - ولا هي آخر مرة يستغلون فيها التضحية للنيل منى!

وكان « جريم » هو الوحيد الذي بدا أنه لم يشترك في هذه المسألة، وقد رأيت أن أتوجّه إليه، فكتبت إليه رسالة طويلة، أوضحت فيها سخف الرغبة في النظر إلى اشتراكي في رحلة (جنيف) كواجب مفروض عليَّ، وعدم جدواها، وكيف أننى كنت خليقًا بأن أكون مصدر متاعب للسيِّدة ديبيناى خلالها، والمضايقات التي كان من المحتمل أن تترتب عليها.

ولم أستطع أن أقاوم الإغراء الذي راودني نحو إطلاعه - في هذه الرسالة - على أنني كنت على علم بسبب الرحلة، وذكرت أنه كان من بواعث عجبي أن يزعم أحد أن الواجب كان يدعوني إلى القيام بهذه الرحلة، في الوقت الذي أُعفى هو فيه منها، بل ولم يُذكر اسمه بصددها.

هذا الخطاب الذي عجزت فيه عن أن أذكر حججي بجلاء، ومن ثم فقد اضطررت إلى المداورة والمراوغة.. هذا الخطاب كان كفيلًا بأن يظهرني للرأي العام بمظهر الموغل في الذنوب، بيد أنه كان نموذجًا للرزانة والحكمة لأولئك الذين كانوا على شاكلة « جريم » ملمين بالحقائق التي لم أذكرها، والتي كانت تبرّر مسلكى أكمل تبرير. بل إننى لم أحجم عن أن أورد زعمًا كان في غير صالحي أكثر مما كان في صالحي، وذلك بأن نسبت رأى « ديدرو » إلى أصدقائي الآخرين، لأوحى بأن السيِّدة دوديتو كانت تعتنق نفس الرأي - وهو الواقع فعلًا - وإن تحاشيت أن أذكر أنها قد عدلت عن رأيها هذا أمام حججى. وما كنت لأستطيع أن أدفع عنها شبهة التواطؤ معى، بأفضل من أن أبدو ـ في تلك المناسبة - على استياء منها.

واختتم هذا الخطاب بعرض للثقة كان كفيلًا بأن يحرِّك عواطف أي إنسان آخر.. فبينما ناشدت جريم أن يتأمل حججى جيدًا، وأن ينبئني - بعد ذلك - برأيه، أوحيت إليه أنني سآخذ بهذا الرأي، مهما يكن. وقد كان هذا عين ما انتويت - في الواقع - حتى لو أنه أشار بوجوب سفري. ذلك لأنه لما كان السيِّد ديبيناى قد اضطلع بعبء مرافقة زوجته، فإن مرافقتي إياها كانت خليقة بأن تتخذ مظهرًا مخالفًا لما كانت ستتخذه من قبل.. إذ كنت إذ ذاك قد سئلت أن أقوم بهذا الواجب، ولم يكن للسيِّد ديبيناي أي ذكر، إلا بعد أن رفضت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتأخر رد « جريم » بعض الوقت، فلما جاء، إذا به رد غريب، أنقله هنا (الملف أ ـ رقم 59):

لقد أرجىء رحيل السيِّدة ديبيناى، فإن ابنها مريض، وقد اضطرّت إلى الانتظار إلى أن « يعافي. سأفكر في خطابك، فامكث هادئًا في (ليرميتاج). وسأطلعك على رأيي في حينه. ولما كان من المحقق أنها لن ترحل قبل بضعة أيام، فليس ثمة داع للعجلة. وفي هذه الأثناء، في وسعك أن تعرض عليها مرافقتك إياها، إذا رأيت ذلك مناسبًا، وإن كان يلوح لي أن هذا لن يغيّر من الأمر، ذلك لأنني لا أرى أي شك - وأنا لا أقل عنك علمًا بوضعك - في أنها ستقابل عرضك بما ينبغي. ويبدو لي أن كل ما يمكن كسبه بذلك، هو أنك ستستطيع أن تقول لأولئك الذين يهيبون بك أن ترحل، أنك إذا لم ترحل، فلن يكون ذلك راجعًا إلى تقصير منك في عرض خدماتك.

وفيما عدا هذا، لا أستطيع أن أفهم السر في أنك ترى أن من الضرورة اللازمة أن يكون « الفيلسوف هو البوق الذي ينقل إليك صوت الناس أجمعين، ولا السر في أنك تتصوَّر أن كل أصدقائك يرون ضرورة سفرك، لمجرَّد أنه نصحك بالسفر!.. ولو أنك كتبت إلى السيِّدة ديبيناى، فإن ردّها قد ينفعك في الرد على هؤلاء الأصدقاء، ما دمت تقيم كل هذا الوزن للإجابة عليهم!

« وداعًا.. تحياتي للسيِّدة لوفاسير ولكريمنيل »44.

وبهت دهشة إذ قرأت هذا الخطاب ورحت أبحث في قلق عما قد يكون وراء معناه الظاهري، ولكن بحثى ذهب سدى. فيا للعجب!.. أبدلًا من أن يرد على رسالتي ببساطة، يستمهلني كي يفكّر فيها، وكأنما الوقت الذي استغرقه لم يكن كافيًا؟!.. بل إنه ليطلعني على الموقف المعلّق الذي يرغب في أن يستبقيني فيه، وكأنه يفكِّر في مشكلة عويصة

مستعصية الحل، أو كأنه كان يرى أن يحرمني كل وسيلة للوصول إلى معرفة إحساسه، إلى أن تحين اللحظة التي يراها للكشف عن هذا الاحساس. فما الذي يعنيه هذا الاحتياط، وهذا الإرجاء، وهذا التكتم، إذن؟.. أفعلى هذا المنوال يرد المرء على الثقة؟.. أفيبدو هذا تصرفًا مستقيمًا، شريفًا؟.. عبثًا بحثت عن تأويل موات يبرّر هذا التصرّف، فإنني لم أجد!

ومهما تكن نيته، فإن مركزه كان يجعل تحقيقها سهلًا عليه، إذا كانت موجّهة ضدي.. في حين أنه كان من المستحيل عليّ أن أضع أية عقبة في طريقه. فلقد كان ذا حظوة في دار أمير كبير، وكان كثير الأصدقاء في المجتمع، وكان بوسعه - كنجم لامع، مسموع الكلمة في الأوساط التي كنا معروفين لديها معًا - أن ينفذ غاياته وفق هواه، بدهائه المألوف.. في حين أنني - وحيدًا في (ليرميتاج)، بعيدًا عن الجميع، بدون ناصح، وبلا اتصال بالعالم الخارجي ـ لم أكن أملك أن أفعل شيئًا، اللهم إلا أن أنتظر، وأمكث صامتًا. وكان كل ما فعلته، هو أن كتبت إلى السيِّدة دیبيناي - بصدد مرض ابنها - خطابًا مهذبًا بقدر ما استطعت، دون أن أنساق فيه إلى شرك عرض استعدادى لمرافقتها في رحلتها.

وبعد انتظار طويل، في القلق الشديد الوطأة الذي ألقاني فيه هذا الرجل الفظيع، سمعت - بعد ثمانية أيام أو عشرة - أن السيِّدة ديبيناى قد سافرت. وتلقيت منه خطابًا ثانيًا، لم يشتمل على أكثر من سبعة أسطر أو ثمانية، لم أتمّ قراءتها حتى آخرها... إذ أنها أعلنت قطيعة بيننا، ولكن في عبارات لا يمليها سوى أشدّ ألوان الحقد استعارًا.. عبارات بدت سخيفة حمقاء، لفرط تلهفه على أن يجعلها جارحة. فلقد حرّم عليّ أن أظهر في محضره، وكأنه يحرّم عليّ دخول اقطاعياته. ولم يكن ينقص خطابه، لكي يبدو مضحكًا، سوى أن يُقرأ في هدوء وبأعصاب باردة. وبدون أن أنقل صورة منه45، بل وبدون أن أقرأه حتى نهايته، رددته إليه في الحال، مع التعقيب التالي:

إننى آبي عادة أن أنساق لشكوكي الصائبة. ولهذا تأخرت كثيرًا في أن أعرفك على » حقيقتك.

هاك إذن الخطاب الذي استبحت الوقت للتفكير فيه، فإنني أرده إليك، لأنه ليس لي. » وفي وسعك أن تعرض خطابي على الملأ كله، وأن تحقد عليّ علانية وجهارًا، فهذا بهتان .« !في غير صالحك

وكان السماح له بعرض خطابي السابق، تعقيبًا على فترة وردت في رسالته، ويمكن منها الحكم على المكر العميق الذي لجأ إليه في هذه القضية بأسرها.

فلقد ذكرت أن خطابي كان كفيلًا بأن يلقى عليّ بعض التثريب، في أنظار أولئك الذين لم يكونوا مطلعين على حقائق الأمور. وقد تبين « جريم » هذا باغتباط، ولكن كيف كان بوسعه أن يستغله دون أن يكشف موقفه؟.. ذلك لأنه كان معرَّضًا إذا ما عرض خطابي على أحد.. لأن يُتهم بإساءة استغلال ثقة صديقه.

ولكي يخرج من هذا الحرج، خطر له أن يقطع الصلة معى، بأشدّ الطرق استثارة لشعوري، وإيحاءً لي بأنه قد أولاني صنيعًا، إذ لم يطلع أحدًا على خطابي. وكان من المؤكد أننى في - سورة الغضب - خليق بأن أرفض أمانته هذه، فأسمح له بأن يعرض خطابي على الدنيا بأسرها.. وهذا عين ما كان يبتغيه تمامًا، وقد سار كل شيء وفقًا لما دبَّر. ولقد أذاع الخطاب في باريس كلها، مع تعليقات من عنده، لم تكن - مع ذلك - موفقة بالدرجة التي كان يرجوها. فقد رؤى أن سماحى له بأن يعرض خطابي - الذي عرف كيف ينتزعه منى ـ لم يكن ليعفيه من اللوم، لما أظهره من تسرّع في استغلال كلمتى للعمل على إيذائي. وأخذ الناس يتساءلون باستمرار عن أية ذنوب ارتكبتها نحوه شخصيًا، تبرّر كل هذا الحقد الأهوج. ثم انتهوا - أخيرًا - إلى أنه إذا كانت لي أخطاء تضطره إلى القطيعة، فإن للصداقة

- ولو فُصمت - حقوقًا كان لزامًا عليه أن يحترمها!

على أن باريس متقلبة، لسوء الحظ، فلا تلبث هذه الملاحظات - وليدة وقتها - أن تتوارى في زوايا النسيان.. إذ أن المنكوب يلقى إهمالًا ما دام غائبًا، والمجدود يتغلب ما دام حاضرًا.. وتستمر لعبة الدس والكيد الخبيث، وتتجدد، ولا تلبث نتائجها التي تُبعث حية - كلما ماتت ـ أن تمحو كل ما سبقها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على هذا النحو، أماط هذا الرجل - الذي ظلّ يخدعني طويلًا - لثامه، وقد اطمأن إلى أنه لم يعد بحاجة إليه، في الوضع الذي ساق إليه الأمور. على أننى كففت عن التفكير في هذا التعس، بعد أن تخلصت من الخوف من أن أكون ظالمًا نحوه، وتركته لضميره. وبعد ثمانية أيام من تسلّم ذلك الخطاب، تلقيت من السيِّدة ديبيناى ردّها على خطابي السابق، محرَّرًا في جنيف (الملف ب - رقم 10). وتبينت من اللهجة التي لجأت إليها ـ للمرة الأولى في حياتها - أن كلًّا منهما كان يعول على نجاح تدابيرهما، وأنهما كانا يعملان متفقين ومتعاونين، وأنهما كانا ينظران إلىّ كرجل ضائع، لا معين له ولا نصير، ومن ثم فقد آليا على نفسيهما ألّا يدخرا جهدًا في سبيل الاستمتاع بسحقي نهائيًا!

والواقع أن ظروفي كانت في أسوأ حال. فلقد رأيت أصدقائى يهجروننى، دون أن أعرف كيف، ولا لماذا.. فديدرو، الذي كان يفخر بأنه باق لي، وباق وحده، والذي وعدني منذ ثلاثة أشهر بأن يزورني، لم يأت قط. وكان الشتاء قد بدأ يفرض أثره محسوسًا، فبدأت معه عللى المألوفة. وكان كياني - برغم متانة تكوينه - قد ناء تحت تضارب كل هذه العواطف المتناقضة. كنت في حالة إعياء لم تذر لي طاقة ولا جلدًا على الاحتمال. ولو أن معاملاتى، بل لو أن تأييدات ديدرو والسيِّدة دوديتو، سمحت لي بمبارحة (ليرميتاج) فورًا، فإنني لم أكن أدرى إلى أين أذهب، ولا كيف أجر نفسي إلى هناك. ومن ثم فقد بقيت خامل الذهن، خامد الحراك، دون أن أقوى على التفكير أو العمل. كان مجرَّد التفكير في أن أتخذ خطوة، أو أكتب رسالة، أو أفوه بكلمة، كفيلًا بأن يجعلني أرتجف!

ومع ذلك فإنني لم أقو على أن أدع رسالة السيِّدة ديبيناى بلا جواب، وإلَّا كان ذلك اعترافًا بأنني كنت أستحق المعاملة التي أثقلتني وصديقها بها. وقرَّرت أن أصارحها بمشاعري ونواياى، دون أن أرتاب لحظة في أنها ستبادر إلى إقراري على هذه المشاعر والنوايا، بفضل الشعور الإنساني، والكرم، والطيبة، والأحاسيس الطيبة التي خُيل إلىّ أننى أراها لديها!.. وهاك خطابي:

« ليرميتاج: 23 نوفمبر سنة 1757

« لو قُدِّر للمرء أن يموت حزنًا، لما كنت أنا الآن على قيد الحياة. ولكنني عقدت عزمي أخيرًا. لقد انفصمت عرى الصداقة بيننا يا سيِّدتي، ولكن لهذه التي لم يعد لها بقاء، حقوقًا أعرف كيف أحترمها. فإني لم أنس قط أفضالك علىّ، وبوسعك أن تطمئني من ناحيتي إلى كل عرفان يستطيع أن يدين به امرؤ إلى شخص لم يعد ملزمًا بأن يحبه وأى تفسير آخر، لن يكون مجديًا، وإني لأركن إلى ضميري، ولك أن ترجعي إلى ضميرك ·

« لقد كنت أعتزم مغادرة (ليرميتاج)، وكان من الواجب أن أفعل. ولكن رؤى أن أبقى حتى يحين الربيع، وما دامت هذه هي رغبة أصدقائي، فسوف أبقى إلى الربيع، لو أنك وافقتِ على ذلك ».

وبعد أن كتبت هذا الخطاب وأرسلته، لم أعد أفكِّر إلَّا في البقاء هادئًا في (ليرميتاج)، وفي العناية بصحتي، ومحاولة استرداد عافيتي، واتخاذ التدابير لمغادرة الدار في الربيع، دون ما

ضجة، ودون ما اعلان للقطيعة. ولكن هذا لم يكن عين ما أعدّه السيِّد جريم، والسيِّدة ديبيناى، كما سيظهر بعد لحظة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحظيت بعد أيام بالزيارة التي أسرف « ديدرو » في وعوده بأن يؤدّيهـا لي، بقدر ما أسرف في أن يبر بتلك الوعود. وما كان أداؤها ليجد وقتًا أكثر ملاءمة من تلك الآونة. فقد كان ديدرو أقدم أصدقائي، وكان الوحيد الذي بقى لي منهم، ومن ثم ففي الوسع إدراك مدى السرور الذي تولاني إذ رأيته في هذه الظروف. فلقد كان قلبي مترعًا، فأفرغته في قلبه. وأوضحت له كثيرًا من الوقائع التي كُتمت عنه، أو التي موهت عليه، أو زُيفت له، وأنبأته بما كان يحق لي أن أطلعه عليه، من كل ما جرى. ولم أحاول أن أكتم عنه ما كان هو على علم واف به.. لم أحاول أن أكتم عنه أن حبًا، غير موفّق - بقدر ما كان أرعن - استغل كأداة للقضاء عليّ، ولكنني لم أبح قط بأن السيِّدة « دوديتو » كانت على علم بهذا الحب، أو أنني كاشفتها به يومًا، على الأقل!

وحدَّثته عن المناورات غير الكريمة التي قامت بها السيِّدة ديبيناى للاستيلاء على الخطابات البريئة التي كانت أخت زوجها قد كتبتها لي. فلقد رغبت في أن يعرف كل هـذه التفصيلات، من شفاه المرأتين اللتين حاولت السيّدة أن تغريهما بذلك. وقد أدلت إليه تيريز بوصف دقيق لكل شيء. ولكن.. ما الذي أصابني، فعندما حان دور الأم، وسمعتها تعلن وتتشبث بأنها لم تكن على علم بشيء من هذا إطلاقًا؟!.. هكذا كان قولها الذي لم تتحوَّل عنـه البتـة. ولم يكن قـد انقضى بعد أربعة أيام، مذ ردّدت على سمعى كل التفصيلات، التي راحت تناقضها في وجود صديقى!

ولاح لي مسلكها حاسمًا، فشعرت إذ ذاك، شعورًا قويًا، بمدى غفلتي إذ أبقيت امرأة كهذه على مقربة مني. ولم أنطلق أكيل لهـا السباب بل إننى لم أكد أقوى على أن أقول لهـا بضع كلمات أعبّر بها عن استهجاني. وأحسست بمدى ما كنت أدين به للابنة التي كانت باستقامتها المنيعة، ترسم صورة قوية، تتناقض تمامًا مع ما أبدت الأم من خسـة مهينة. على أن رأيي استقرّ - منذ تلك اللحظة - بشأن العجوز، ولم أنتظر إلا ريثما حانت اللحظة المناسبة لتحقيقه.

ولقد جاءت هذه اللحظة بأسرع ممـا كنت أتوقع. ففي العاشر من ديسمبر، تسلمت ردًا من السيِّدة ديبيناي، هذه محتوياته (الملف « ب » – رقم 11):

« جنيف: أوَّل ديسمبر سنة 1757

« لم أعد أملك ـ بعـد أن أتحت لك كل دليل ممكن على الصداقة والعطف، خلال عدَّة سنوات - سوى أن أرثى لك، إنك شقى، وإني لأرجو أن يكون ضميرك في طمأنينة ضميري، فقد يكون هذا ضروريًا لطمأنينة حياتك!

« وما دمت قد رغبت في مبارحة (ليرميتاج)، وكان خليقًا بك أن تفعل، فإنني أعجب من أصدقائك إذ منعوك. أما أنا، فلست أستشير أصدقائي فيما يتعلّق بواجباتي. وليس لديّ مزيد أقوله فيما يتعلّق بواجباتك »!

كان إنذارًا - غير متوقع، ولكنه واضح - بالطرد، فلم يدع لى لحظة واحدة كي أفكر أو أوازن.. كان لابد لي من أن أبرح (ليرميتاج) فورًا، ومهما تكن حال الطقس، أو حالى الصحية - حتى لو اضطرّني ذلك إلى أن أبيت في الغابات، وعلى الصقيع الذي كان يكسو الأرض - ومهما يكن في وسع السيِّدة دوديتو أن تقوله أو تفعله إزاء ذلك. إذ أنني لم أكن على استعداد لأن أهين نفسي، بالرغم من أنني كنت على استعداد لأن أرضى هذه السيِّدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووجدتني في أشدّ حيرة عرضت لي في عمري كله، ولكنني كنت قد عقدت العزم، وأقسمت على ألّا أبيت في (ليرميتاج) في اليوم الثامن، مهما يكن الأمر. وعكفت على نقل أمتعتى الخاصة، وقد فضّلت أن أدعها في العراء، على ألّا أرد المفاتيح في اليوم الثامن، فقد كنت توَّاقًا - قبل كل شيء - إلى أن أفرغ من الأمر، قبل أن يستطيع أحد أن يكتب إلى (جنيف). وأن يتلقى ردًّا منها.. وأوتيت إقدامًا ما شعرت به من قبل يومًا، فإذا كل قواى ارتدَّت إلىَّ.. ردَّها إلىَّ الشمم والإباء اللذان لم تحسب لهما السيِّدة ديبيناى حسابًا!

وساعد الحظ هذه العزيمة الجريئة، فإذا السيِّد « متى » - المندوب القضائى46 للسيِّد الأمير « دي كونديه » - يسمع بورطتى، فيعرض علىَّ بيتًا صغيرًا كان يقتنيه في حديقة داره في (مون لوى) بمونمورنسى. وقبلت العرض في تأثير وعرفان.. وتمّت الصفقة، فأسرعت الى شراء بعض أثاث أضمّه إلى ما كان عندى، لآوى إليه مع « تيريز ».. ونقلت متاعى على عربة، في كثير من العناء، وبنفقات باهظة.. وبرغم الجليد والصقيع، فقد تمّ انتقالي في يومين.. حتى إذا كان الخامس عشر من ديسمبر، رددت مفاتيح (ليرميتاج)، بعد أن دفعت أجر البستاني، إذ لم أستطع أن أدفع أجر المسكنَ!



ـت متاعى على عربة ، فى كثير من العناء ، وبنفقات باهظة وبرغم الجليد
والصقيع فقد تم انتقالى فى يومين ..

أما السيِّدة لوفاسير، فقد صارحتها بأن عليها أن تفارقنا. وحاولت ابنتها أن تثنيني، ولكنى أبيت أن ألين. وعملت على سفرها إلى (باريس)، في عربة البريد، مع كافة متاعها وما كانت تشترك مع ابنتها في امتلاكه من أثاث. كما أنني منحتها بعض المال، وتعهدت بأن أدفع لها نفقات إقامتها لدى أبنائها أو سواهم، وأن أتكفل بمطالب معيشتها بقدر ما يسعني، وألَّا أدعها قط في عوز طالما كنت أجد قوتى!

وأخيرًا، كتبت إلى السيِّدة ديبيناي الرسالة التالية، في اليوم الذي أعقب غداة وصولي إلى (مون لوى):

« مونمورنسى: 17 ديسمبر سنة 1757

« ما كان ثمة ما هو أبسط، ولا ما هو ألزم، من أن أخلى منزلك، يا سيّدتي، ما دمت لا تقرّين بقائي فيه. وبناء على رفضك الإذن لي بأن أمكث في (ليرميتاج) بقية الشتاء، بادرت إلى مبارحته في الخامس عشر من ديسمبر. لقد كان مقدرًا لي أن أدخله بالرغم منى، وأن أخرج منه كذلك!.. وإني لأشكر لكِ الإقامة التي أتحتها لي هناك، وقد كنت خليقًا بأن أكون أكثر شكرًا لكِ، لو أن الثمن الذي دفعته كان أقل فداحة.

« هذا، وإنك لعلى صواب إذ ترينني شقيًّا، فليس في الدنيا مَن يعلم خيرًا منكِ، إلى أي مدى يجب أن أكون كذلك!.. وإذا كان من سوء الحظ أن يغترّ المرء في اختيار أصدقائه، فليس أقل قسوة من ذلك، أن يضار من جراء خطأ لطيف كهذا! »47

هذه هي القصة الأمينة لإقامتي في (ليرميتاج)، وللأسباب التي اضطرتني إلى مغادرته. وما كنت أملك أن أقتضب هذه القصة، بل كان من المهم أن أعرضها بأعظم قدر من الدقة، إذ أن حياتي في هذه الفترة، كانت ذات أثر - على ما بعدها - سيبقى إلى آخر يوم في حياتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكراسة العاشرة

سنة 1758

لم تلبث الطاقة غير العادية - التي أمدّني بها هياج عابر، كى أبرح (ليرميتاج) - أن فارقتني بمجرَّد أن صرت خارج هذا البيت. فما أن استقرّ بي المقام في المسكن الجديد، حتى عاودتني نوبات شديدة، متتابعة، من احتباس البول، امتزجت بالمضايقات الجديدة التي ترتبت على هبوط في القلب، كان يعذّبني منذ أمد، دون أن أعلم أنه كان هبوطًا!.. وسرعان ما غدوت فريسة لنوبات أشدّ قسوة، فجاء الطبيب « ثييرى » - صديقي القديم ليعودني، ويبصرني بحالى. وتجمعت حولي المسابر، والمجسات، والضمادات، وكافة المعدات التي تستلزمها علل الشيخوخة، ما جعلني أشعر، شعورًا قاسيًّا، بأن المرء لا يستطيع أن يحتفظ بشباب القلب - دون ما عناء - إذا كان الجسد قد باعد بينه وبين الشباب!

ولم يردّني الفصل الجميل (الربيع) إلى عافيتي، فقضيت عام 1758 في حال من الوهن، أوحت إليَّ بأننى كنت مشرفًا على نهاية حياتي العملية. بل إننى أبصرت النهاية تقترب في شيء من التعجل. وإذ كنت قد برئت من أوهام الصداقة، وافترقت عن كل مَن كانوا يحببون الحياة إليَّ، فإنني لم أعد أرى في هذه الحياة ما يجعلها مستحبة، ولم أعد أبصر فيها سوى شرور ونوائب كانت تحول بيني وبين كل المتع الذاتية. ولكم. كنت أتوق إلى اللحظة التي أنطلق فيها متحررًا، بعيدًا عن منال أعدائي!

ولكن.. لنعد إلى سياق الحوادث ثانية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدا أن مقامي في (مونمورنسى) قد ساء السيِّدة ديبيناى، ولعلها لم تكن تتوقّعه. فإن أساى، وقسوة ذلك الفصل من السنة، والوحدة المنبوذة التي ألفيتني فيها.. كل هذه جعلتها وجريم يعتقدان أن بوسعهما - إذا واصلا دفعي إلى أقصى حد - أن يضطراني إلى أن أصرخ طالبًا النجدة، وأن يهويا بي إلى آخر درك في الهوان، بغية أن أبقى في المأوى الذي كانت الكرامة تتطلّب مني أن أفارقه. ولقد بدّلت مسكنى فجأة، فلم يجدا من الوقت ما كان يكفي لأن يتوقّعا هذه الضربة، ومن ثم فلم يبق لهما من خيار، سوى أن يضاعفا الاندفاع في المغامرة، أو أن ينفضا أيديهما منها.. وبالتالي، أن يقضيا عليَّ قضاءً مبرمًا، أو أن يسترداني!

واتخذ « جريم » الرأي الأوَّل، ولكني أعتقد أن السيِّدة ديبيناى كانت تفضّل الثاني، أو أن هذا هو ما ملت إلى الأخذ به، على ضوء ردّها على خطابي الأخير، إذ خفَّفت كثيرًا من اللهجة التي اتخذتها في رسائلها السابقة. ولاحت كأنها تفتح الباب للصلح. ولقد كان تأخّر هذا الخطاب - الذي اضطررت إلى انتظاره شهرًا كاملًا - دليلًا كافيًا على الحيرة التي ألفت نفسها فيها - وهي تحاول أن تسبغ عليه أسلوبًا ملائمًا - وعلى الخواطر والهواجس التي سبقته. فما كان في وسعها أن تمضى فيه إلى أبعد مما مضت، دون أن تكشف نفسها. ولكن المرء لا يجد - بعد خطاباتها السابقة، وبعد خروجي المباغت من دارها - مدعاة للعجب من العناية التي بذلتها في ذلك الخطاب، ومن حرصها على ألا تدع كلمة جافية واحدة تتسلل إليه. وإني لأنقله بأكمله، ليتسنى الحكم على ضوئه (الملف ب ـ رقم 23):

جنيف: 17 يناير سنة 1758 »

« لم أتسلم خطابك المؤرخ 17 ديسمبر، سوى بالأمس يا سيِّدى. فقد أُرسل إليَّ في حقيبة ملأى بأشياء مختلفة، ظلَّت طيلة هذه المدة في الطريق. ولن أرد إلا عن العبارة الأخيرة، أما الخطاب فلست أفهمه تمامًا.. وإذا كنا بصدد تبادل الإيضاح، فإني أوثر أن أحمل كل ما

حدث على محمل سوء التفاهم!

وأعود إلى العبارة الأخيرة.. فلعلك تذكر يا سيِّدى أننا اتفقنا على أن يتلقّى بستاني « (ليرميتاج) أجره عن طريقك، رغبة في إشعاره بأنه موكول إليك، ولتفادي مشاحنات كتلك المشاحنات السخيفة، الوقحة، التي صدرت من سلفه. والدليل على ذلك أن أجره عن الربع الأوّل من السنة أُسلم إليك، وإنني اتفقت وإياك - قبيل رحيلي ببضعة أيام - على أن تتقاضى ما سبق أن دفعت له. وإني لأدرك أنك أثرت خلافًا بشأن هذا - في البداية - ولكني كنت قد رجوتك أن تؤدّي تلك المدفوعات سلفًا، فكان من أبسط الأمور أن أردّها إليك، وقد اتفقنا على ذلك. ولكن « كاهوية » أنبأني بأنك رفضت قبول هذه النقود. ولا بد أن ثمة لبسًا في الأمر. ولقد أمرت بأن تُؤدّي إليك، من جديد، ولست أرى مبرّرًا لرغبتك في أن تدفع أجر بستاني في خدمتى، بالرغم من اتفاقنا، وبالرغم من أن هذا الأجر يرجع إلى فترة .(سبقت سكناك (ليرميتاج

« لذلك فإني واثقة يا سيِّدي، من أنك تتذكّر كل هذا الذي تشرّفت بقوله لك، لن تأبى أن تسترد النقود التي تكرّمت بدفعها عنى ».

ولم أشأ - بعد كل الذي جرى - أن أطمئن إلى السيِّدة ديبيناى أو أثق بها، ولا رغبت البتة في أن أجدد صلاتى بها. ومن ثم فإنني لم أرد على الخطاب إطلاقًا، فانتهت مكاتباتنا عند هذا الحد48. وإذ تبينت عزمى، حذت حذوى، وانغمست في خطط جريم وعصبة دولباخ، وضمَّت جهودها إلى جهودهم للقضاء علىَّ. وبينما كان هؤلاء يعملون في (باريس)، راحت هي تعمل في (جنيف). وقد انضم إليها جريم هناك، بعد ذلك، فأتمّ ما كانت قد بدأته. ولقد ساعدهما « ترونشان » - الذي استطاعا أن يكسباه في صفهما - بكل قواه، وصار أعنف مَن راحوا يضطهدوننى، دون أن يكون لديه - ولا لدى جريم - ما يؤاخذاني عليه. وراح ثلاثتهم يعملون معًا، فبذروا في (جنيف) ما شوهد نباته يترعرع في باريس، بعد ذلك بأربع سنوات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان الأمر أكثر مشقة عليهم في (باريس)، حيث كنت معروفًا، وحيث كانت القلوب أقلّ ميلًا للبغضاء، فهي لذلك لا تتلقى الإيحاءات بسهولة. ولكي يوجّهوا ضرباتهم بمزيد من المهارة والحيلة، شرعوا في ترويج زعمهم بأنني كنت الأسبق إلى التحوّل عنهم. (انظر خطاب ديلبير - الملف ب، رقم 3). ومن هنا، راحوا - وهم يتظاهرون بأنهم لا يزالون أصدقاء لي - يبذرون بذور الاتهامات الخبيثة، على شكل شكايات من الأخطاء والمظالم التي حاقت بهم على يدى صديقهم. ولقد أدَّى هذا إلى أن مستمعيهم تخلوا عن حذرهم، فأصبحوا أكثر ميلًا إلى الإصغاء إلى لومهم. وانتشرت اتهامات الخيانة والجحود في تكتم وحذر، وقد كانت - لعين هذا السبب - أشدّ فعلًا بالنفوس. وكنت أعلم أنهم وصمونى بأبشع الفظائع، دون أن يستطيعوا قط أن يعرفوا - فيما بينهم - مم كانت هذه الفظائع تتألف!.. كل الذي استطعت أن أخرج به من الشائعات العامة، هو أن هذه الفظائع انحصرت في أربعة ذنوب جوهرية: (أوّلًا) اعتكافي في الريف، و (ثانيًا) حبى لمدام دوديتو، و (ثالثًا) رفضي مرافقة السيِّدة ديبيناي إلى (جنيف)، و (رابعًا) نزوحي عن ليرميتاج. وإذا كانوا قد أضافوا سخامات أخرى، فلا بد أنهم اتخذوا أبلغ حيطة، حتى أنه غدا من المستحيل علىَّ تمامًا أن أعلم موضوعها.

وإلى هذه الفترة بالذات، أعتقد أن بوسعي أن أُرجع تاريخ تكوين حملة منظمة، لم يلبث أن انضوى تحت لوائها أولئك الذين تخلوا عني، بنجاح وتقدّم سريعين، إلى درجة أنها كانت خليقة بأن تبدو رائعة في نظر مَن لا يدرى مدى السهولة التي يستطيع بها كل ما يساعد شرور البشر أن يحظى بالتأييد، ولا بد لي الآن من أن أشرح، في أوجز ما يسعني، ما هو واضح لنظري من هذه الحملة الخفية العميقة الأصول.

ذلك أنني احتفظت ببساطة ميولي الأصلية، حتى بعد أن طبق اسمى آفاق أوروبا، وغدوت مشهورًا. ولقد أدَّى مقتى القتال لكل ما يُسمى حزبًا، وعصبة، وشيعة، إلى بقائي حرًّا، مستقلًّا، دون ما قيود سوى ميول فؤادي. وكنت وحيدًا، غريبًا، منطويًا، بلا نصير ولا أسرة، فلم أعتمد إلا على مبادئي وواجباتي، وسلكت في جلد طرق الاستقامة، فما تملقت ولا تزلفت إنسانًا على حساب العدالة والحقيقة. وفضلًا عن ذلك، فإنني لذت - منذ عامين - بالعزلة، دون أن أتسقط الأنباء، وبدون أي اتصال بشئون العالم. فما كنت أحاط بأي شيء، ولا كنت أهفو إلى أنباء شيء ما.. وكنت أعيش على أربعة فراسخ من (باريس)، وكأننى - بفضل عدم اكتراثي - أعيش في جزيرة (تينيان)، تفصلنى عن هذه العاصمة بحارا!

أما جريم، وديدرو، ودولباخ فكانوا - على النقيض - في وسط الدوَّامة، يعيشون في مجتمع أرقى الطبقات، يتقاسمون فيما بينهم جميع آفاق الفكر تقريبًا. فكان العظماء، وذوو العقول النابهة، وأهل الأدب، والمحامون، والنساء ينصتون جميعًا إليهم، إذا ما أجمعوا على حديث. ومن السهل تبين النفع الذي يضيفه مثل هذا الوضع على ثلاثة رجال اجتمعوا على رابع مثل وضعي!.. ومن الصحيح أن ديدرو ودولباخ لم يكونا - أو أنني لا أعتقد، على الأقل، أنهما كانا - ممن يدبّرون الدسائس البالغة الخبث والشر، إذ أن واحدًا منهما لم يكن ذا خبث وشر، في حين أن الآخر لم يكن ذا دهاء ومكر49.. على أن هذا السبب بالذات، هو الذي جعل العصبة وثيقة الترابط. فكان جريم يرسم وحده الخطة في رأسه، فلا يطلع الاثنين الآخرين على أكثر مما يراه ضروريًا لتمكينهما من المساهمة في تحقيق تلك الخطة. وكان استعلاؤه عليهما يجعل تعاونهما ميسورًا، بحيث تتناسب النتيجة مع مواهبه الرفيعة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبهذه المواهب الفائقة، عمد جريم - وقد أدرك النفع الذي يستطيع أن يستمده من وضع كل منا - إلى وضع مشروع لقلب سمعتي رأسًا على عقب، ولإضفاء سمعة مناقضة لها تمامًا على اسمي، دون أن يقحم نفسه.. وذلك بأن يبدأ بإحاطتي بصرح من الغموض والإبهام، تعذر عليَّ أن أخترق حجبه لألقى النور على مناوراته، ولأكشف أمره!

ولقد كان هذا المشروع شاقًّا، إذ كان على جريم أن يموه ما فيه من ظلم، في أنظار أولئك الذين كان عليه أن يستعين بهم.. كان عليه أن يغرّر بالأمناء، وكان عليه أن يقصى عنى كل الناس، فلا يدع لي صديقًا واحدًا، صغيرًا كان ذلك الصديق أو كبيرًا! فماذا عساي أقول؟.. كان لابد له من ألَّا يدع كلمة واحدة عن الحقيقة تنفذ إليَّ.. ولو أن رجلًا كريمًا واحدًا جاءنى، وقال لي: « إنك تؤدى دور الرجل الفاضل، ومع ذلك، فانظر كيف تُعامل، وكيف يحكم القوم على أعمالك.. فماذا لديك من قول؟ ».. كانت الحقيقة خليقة إذ ذاك بأن تنتصر، فيبوء جريم بالخذلان!.. ولقد كان يدرك هذا، ولكنه دنس قلبه، ولم يقدِّر الناس حق قدرهم.. إننى لحزين من أجل الكرامة الإنسانية، التي قدّرها بمثل هذه الدقة!

وإذ سار في هذه الدروب المتوارية تحت الأرض، كان لابد له من أن يبطىء، كي يطمئن إلى مواقع قدميه. ومن ثمّ ظلّ إثنى عشر عامًا وهو يتابع خطته، ومع ذلك فما يزال لديه أشقّ ما يجب أن يفعله.. ذلك هو أن يغرّر بالرأي العام بأسره!.. إن هناك عيونًا ظلَّت تراقبه عن كثب أقرب مما يظن.. وإنه لخائف من هذا، فهو لا يجرؤ بعد على أن يكشف مؤامرته في وضح النهار50. ولكنه اهتدى إلى أقل الطرق صعوبة، لكي يدخل السلطان بين عناصر المؤامرة، فيقضى هذا السلطان عليَّ. وإذ استند على هذه الدعامة، راح يتقدَّم وهو أكثر طمأنينة. وأذناب السلطان لا يولون الاستقامة والعدل كثير تفكير، في العادة.. وهم أقلّ اكتراثًا بالصراحة، ومن ثم فإنه لم يعد يخشى فطنة وأمانة بعض الخيرين إطلاقًا!.. على أنه كان من الضروري له - بوجهٍ خاص - أن أكون محاطًا بظلماتٍ دامسة، وأن تظلّ مؤامرته متوارية عن بصرى على الدوام. وكانت حيلته الكبرى، هي أن يبدو للأنظار أنه كان يحابيني

ويعطف عليَّ - في الوقت الذي كان يحط فيه من قدرى، في الواقع - وأن يخلع على غدره مظهر الكرم والشهامة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد شعرت بأولى نتائج هذه الحملة، عن طريق الاتهامات المستترة التي راحت عصبة دولباخ تشيعها، دون أن يتسنى لي أن أعلم - بل ولا أن أخمن - ما كانت تتألف منه هذه الاتهامات. ولقد ذكر لي « ديليير » في رسائله بأنني رُميت ببعض الشناعات.. وذكر لي ديدرو الشيء ذاته، في غموض وإيهام، فلما حاولت استيضاح كل منهما، إذا بكل شيء ينحصر في الاتهامات الرئيسية السالفة الذكر.

وشعرت بفتور يسرى تدريجًا في رسائل السيِّدة دوديتو، فلم أستطع أن أعزو هذا الفتور إلى « سان ـ لامبير » الذي ظل يكتب لي بعين الود المعهود، والذي أخذ يزورني بعد عودته. كذلك لم أستطع أن ألقى اللوم على نفسي، إ ذ أننا كنا قد افترقنا وكل منا راض عن الآخر، ولم يحدث - منذ ذلك الحين - شيء من ناحيتي، اللهم إلا رحيلي عن (ليرميتاج)، وهو أمر شعرت هي نفسها بضرورته. ومن ثم فإنني لم أعرف كيف أؤول هذا الفتور - الذي لم تجهر به وإن أحسّه قلبى - فشعرت بقلق شامل. وكنت أدرك أنها اعتادت أن تداهن زوجة أخيها وجريم، نظرًا لعلاقتهما بسان - لامبير، فخشيت مناوراتهما وألاعيبهما. ونكأ هذا القلق الملتاع جراحى، وأحال رسائلي عاصفة، حتى أنها لم تلبث أن أصبحت تعافها!.. كنت ألمح ألف شيء قاس، دون أن أميز شيئًا بوضوح. كنت في وضع هو أبعد الأوضاع عن أن يطيقه رجل كان من اليسير أن يتقد خياله.. ولو أنني كنت في عزلة تامة، ولو إننى كنت لا أعرف شيئًا على الإطلاق، لكنت خليقًا بأن أكون أكثر هدوءًا، ولكن فؤادي كان ما يزال متشبثًا بالعواطف التي أتاحت لأعدائي ألف مأخذ ضدى، ولم تؤدّ الأشعة الواهنة التي كانت تنفذ إلى عزلتي إلّا إلى أن أرى المعميات التي كان القوم يخفونها عنى، أشدّ حلكة وسوادًا من ذي قبل!

وكنت خليقًا - دون ما شك - بأن أتداعى تحت هذا العذاب الذي كان أقسى وأثقل من أن تحتمله فطرتي الصريحة، التي كانت تجعل من المستحيل تمامًا أن أخفى مشاعري، وكانت - في الوقت ذاته - تجعلنى خائفًا كل الخوف، من تلك الأشياء التي كانت تخفى عني. على أن أمورًا أخرى، لم تلبث - لحسن الحظ - أن عرضت لي، وكانت مشوقة لقلبي بدرجة كافية لكي تولد تحولًا سليمًا، نأى به عن تلك الأمور التي كانت تشغله، على الرغم منه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان « ديدرو » قد حدّثني - أثناء زيارته الأخيرة لليرميتاج - عن مقال كتبه « دالمبير » عن (جنيف) في « الموسوعة »، وقال لي إن هذا المقال - الذي أقرَّه بعض ذوى المكانة العليا من أهل جنيف - كان يرمى إلى إنشاء مسرح في (جنيف)، وأن الخطوات اللازمة قد اتُخذت، وأن الأمد لن يطول حتى يكون هذا الإنشاء قد تمّ. ولما كان ديدرو قد حبذ المشروع، ولم يداخله شك في نجاحه، كما كانت لدىَّ كثير من الأمور التي أردت أن أبحثها معه، فإنني لم أشأ أن أمضى في جدل حول هذا الموضوع، ولم أقل شيئًا. ولكنني شعرت باستنكار لكل هذه الدسائس التي كانت تُحاك لإفساد موطنى، فانتظرت بصبر نافذ ظهور الجزء الذي ضمّ المقال - من « الموسوعة » - كى أتبيّن ما إذا كانت ثمة وسيلة للرد عليه بطريقة تعرقل هذه الحيلة المشؤومة!

وتلقيت الجزء عقب استقراري في (مون - لوى) بوقتٍ قصير، فوجدت أن المقال قد كُتب بكثير من الدهاء والحذق، وأنه كان أهلًا للقلم الذي سطره. على أن ذلك لم يصرفني عن الاهتمام بالرد عليه، وبالرغم من الخور الذي كان يعتريني، وبالرغم من شجني وآلامي، ومن

قسوة الطقس، وما اتسم به مسكنى الجديد - الذي لم يكن مقامي فيه قد استقرّ تمامًا - من عدم توفر أسباب الراحة، فقد عكفت على العمل بتحمس قهر كل شيء.

وفي شتاء قاس إلى درجة ليست بالبسيطة، وفي شهر فبراير، وفي الظروف التي وصفتها آنفًا، رحت أقضى ساعتين من الصباح، ومثلهما من المساء، في شرفة مكشوفة، عند طرف الحديقة التي كان بيتى يقوم فيها. وكانت هذه الشرفة - التي كانت تقع في نهاية درب محاط بسياج - تطل على وادي مونمورنسي وبركة الأسماك، وتكشّف لي على البُعد، بقدر ما كان يسمح لي البصر، قصر (سان جراسيان) الجليل المنظر، برغم بساطة بنيانه.. القصر الذي اعتكف فيه « كاتبنا » الفاضل.. وفي هذه البقعة - التي كانت في تلك الفترة قارسة البرد، والتي كانت بلا وقاء من الريح والصقيع، وبلا أية نار سوى نار قلبى - نظمت، في ثلاثة أسابيع، خطابي إلى « دالمبير » حول المسارح!

وكان ذلك أوَّل موضوع أكملته - إذ لم أكن قد أتممت سوى النصف من « جولى » - فوجدت فيه سحر العمل. كانت الغيرة على الفضيلة هي معبودى حتى ذلك الحين، ولكن الحنان والرقة حلّا محلها في روحي، في هذه المناسبة!

كانت المظالم التي لم أكن - بالنسبة لها - أكثر من متفرج، قد أهاجتني، أما التي كنت هدفها فقد أحزنتني، ولم يكن ذلك الحزن - المجرَّد من كل حزن ومرارة - سوى شجن قلب مفرط الحب والحنان.. قلب اغتر فيمن كان يؤمن بأنهم على شاكلته، فاضطر إلى أن ينطوي على نفسه!.. كان قلبي قد أُفعم بما حدث لى أخيرًا، وكان ما يزال يهتز بانفعالات عديدة عنيفة، فراح يمزج إحساسه بآلامه، بالأفكار التي تولدت عن تفكيري في الموضوع، فإذا آثار هذا المزج تنعكس على ما كتبت. وإذا بي - دون أن أفطن - أصف فيه حقيقة موقفى الواقعي.. رسمت فيه جريم، والسيِّدة ديبيناي، والسيِّدة دوديتو، وسان - لامبير، ونفسى. وكنت أذرف - وأنا أكتب كل هذا - دموعًا عذبة!.. فوا لهفتاه!.. إن المرء ليلمس في المقال أن الحب - هذا الحب الجبار الذي كنت أحاول أن أشفى منه ـ لم يكن قد فارق قلبي بعد!.. ولقد كان يمتزج بكل هذا، شعور بالاشفاق على نفسي، إذ شعرت بأنني أموت، وكنت أؤمن بأنني أودع الرأي العام للمرة الأخيرة!.. وبدلًا من أن أخاف الموت، رحت أرقب اقترابه بغبطة، ولكنني كنت أحس بالحسرة، لأنني كنت أفارق أبناء جلدتى دون أن يكونوا قد شعروا بقيمتي وقدرى.. دون أن يدروا كم كنت جديرًا بأن أحظى بالحب منهم، لو أنهم كانوا أكثر معرفة بي مما هم!.. وهذه هي الأسباب الدفينة للهجة الغريبة التي سادت هذا المقال، والتي تبدو جد مناقضة للهجة مؤلفي الذي سبقه[51].

ونقحت المقال وأعدت نسخه، وأوشكت أن أدفعه إلى الطباعة، وإذا بي أتلقّى رسالة من السيِّدة دوديتو - بعد طول صمت - وإذا بهذه الرسالة تغرقني في هم جديد، لعله أقسى ما كنت قد خبرت من هموم، حتى ذاك الحين. فلقد أنبأتني السيِّدة في هذه الرسالة (الملف ب - رقم 34) بأن هيامى بها بات معروفًا في باريس بأسرها، وأننى قد أفضيت به إلى قوم أذاعوه، وأن هذه الضجة قد ترامت إلى أذنَيّ عشيقها، وكادت تكلفه حياته، وإنه - في النهاية - قد أنصفها، فعاد الوئام بينهما.. ولكنها كانت مضطرة - من أجله، ومن أجل نفسها والحرص على سمعتها كذلك - إلى أن تقطع كل علاقة بى!.. وأكدت لي أن كلًا منهما لن يكف - بعد ذلك - عن أن يهتم بأمرى، وأن يدافع عنى أمام الملأ.. وأنها ستبعث - بين الحين والحين - في طلب إخباري!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهتفت في نفسي: « حتى أنت يا ديدرو!.. أيها الصديق غير الجدير بالود! ». ومع ذلك فإنني لم أكن أملك بعد أن أبت في أمره. إذ كان ضعفى معروفًا لدى أناس آخرين، وكان من المحتمل أن يكونوا قد وشوا به. ولقد طاب لي أن أستسلم للشك.. ولكنني لم ألبث أن

وجدتني عاجزًا عن ذلك. إذ أن « سان - لامبير » أقدم - بعد ذلك بقليل - على تصرف يليق بكرم نفسه. فقدَّر - وهو العارف بحقيقة نفسي - الحال التي كنت فيها، وقد غدر بي فريق من أصدقائي، وهجرني الباقون، فأقبل يزورني بنفسه!.. ولم يكن لديه متسع من الوقت في المرة الأولى، فأقبل مرة ثانية. ولكنني لم أكن - لسوء الحظ - في البيت، إذ أنني لم أكن أتوقع مجيئه. ودار بينه وبين تيريز - التي كانت في البيت - حديث استغرق نيفًا وساعتين، قال كل منهما للآخر - في سياقه - كثيرًا من الأمور، التي كان من الضروري لكل منا أن يعلم بها.. ولقد كانت دهشتى حين علمت أن أحدًا لم يكن يرتاب في أنني عاشرت السيِّدة ديبيناي، كما كان جريم يعاشرها في ذلك الحين، تعادل دهشته حين عرف أن هذا النبأ كاذب!.. فلقد كان « سان - لامبير » يحظى من نقمة السيِّدة بمثل ما كنت أحظى!.. وكانت جميع الأضواء التي انبثقت عن هذا الحديث كافية لأن تخنق في نفسي كل أسى داخلها لفصم عرى الود مع هذه السيِّدة، إلى غير رجعة!

ولقد أوضح « سان - لامبير » لتيريز - فيما يتعلق بالسيِّدة دوديتو - كثيرًا من الظروف التي لم تكن معروفة لدى تيريز، بل ولا لدى السيِّدة دوديتو نفسها!.. فما كان يعرفها سواي أنا وحدى، وما أفضيت بها إلا إلى ديدرو وحده، وتحت اسم الصداقة، فإذا به يختار « سان - لامبير » بالذات، ليبوح له بها!.. وكان هذا الأمر الأخير هو العامل الحاسم لديَّ، فعقدت العزم على أن أقاطع ديدرو إلى الأبد، ولم يعد يشغلني بصدد ذلك، سوى تخيّر الأسلوب الذي أحقق به القطيعة. فلقد تبينت أن المقاطعة المتكتمة، كانت لا تلبث أن تنقلب ضدي، إذ أنها كانت تترك قناع الصداقة مسدلًا على وجوه أفظع أعدائى!

إن قواعد السلوك الطيب التي قامت في الدنيا على هذا الأساس، تبدو كما لو كانت من إملاء روح الخداع والغدر. فإن التظاهر بصداقة امرىء ما - عندما تكون هذه الصداقة قد انتهت - لا يعني سوى الاحتفاظ بوسائل إيذاء ذلك المرء، بالتمويه على ذوى النفوس الشريفة وخداعهم!.. واسترجعت في ذهني أن « مونتسكيو » الجليل، بادر - حين قاطع الأب دى تورنمين - إلى إعلان القطيعة مدوية، إذ قال للناس أجمعين: « لا تنصتوا إلى الأب تورنمين، ولا لي، إذا تكلّم كل منا عن الآخر، فإننا لم نعد صديقين! ». ولقد قوبل هذا المسلك بإعجاب بالغ، وأكبر الناس جميعًا صراحته وكرم نفسه. واعتزمت أن أنتهج هذا المسلك مع « ديدرو »، ولكن، كيف كان يتسنى لي أن أعلن من معزلى هذه القطيعة المشروعة، لا سيما إذا شئت أن أتجنب الفضائح؟.. وقرّرت أن أضمن مقالي فقرة من الكتاب المقدس من سفر ابن سيراخ تعبِّر عن هذه القطيعة - بل وعن موضوعها - بوضوحٍ كاف، لكل مَن كان يعنيه الأمر، دون أن تعني شيئًا لبقية الناس. وفوق ذلك، فإنني عنيت بألا أشير - في المقال - إلى ذلك الصديق الذي نبذته، إلّا بالأسلوب الكريم الذي ينبغي على المرء دائمًا نحو أية صداقة باقية. وفي الوسع تبين ذلك في المقال ذاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليس في هذه الدنيا سوى حظ، وسوء حظ، ولا وسط بينهما. ويبدو أن كل عمل ينطوى على شجاعة وجرأة، لابد وأن ينقلب - عند الخصومة - إلى ذنب وجريمة. ذلك لأن المسلك الذي اجتلب لمونتسكيو الإعجاب، لم يجلب عليَّ أنا سوى اللوم والتقريع!.. فما أن طُبع مقالي وحصلت على نسخ منه، حتى أرسلت واحدة إلى « سان - لامبير »، الذي كان قد كتب إليَّ - في اليوم السابق مباشرة - رسالة باسم السيِّدة دوديتو واسمه، زخرت بأرق آيات الود (الملف « ب » -- رقم 37). وهاكم الخطاب الذي كتبه لي، وهو يرد النسخة التي أرسلتها إليه (الملف « ب » - رقم 38):

« أوبون: 10 أكتوبر سنة 1758

لم أستطع حقًا ـ يا سيِّدي - أن أتقبّل الهدية التي أرسلتها إليَّ. فعند ما بلغت من «

مقدمتك الفقرة التي ذكرت فيها ديدرو، وأوردت فقرة من « سفر الجامعة » - (وقد أخطأ هنا، فهي من سفر ابن سيراخ) - وقع الكتاب من يدي. فلقد بدا لي - بعد الحديث الذي دار بيننا إبان هذا الصيف - أنك كنت مقتنعًا ببراءة ديدرو من المخالفات المزعومة التي رميته بها.

ومن الجائز أن يكون قد أخطأ في حقك، فلست أدرى.. ولكن الذي أدريه، هو أن هذه « الأخطاء لا تعطيك الحق في أن توجّه إليه إهانة علنية. فأنت لا تجهل الاضطهادات التي يعانيها، وها أنتذا تضم صوت صديق قديم إلى صرخات الحاسدين!.. ولست أكتمك يا سيِّدى، مدى ما تثيرني هذه القسوة الفظيعة!.. إننى لا أعاشر ديدرو، ولكني أجلّه وأكرمه، وأشعر بحدّة الألم الذي تسببه لرجل لم تأخذ عليه - فيما بيننا، على الأقل - ما يستحق اللوم، اللهم إلا قدرًا ضئيلًا من الضعف.

إننا لنختلف كثيرًا يا سيِّدي، من ناحية المبدأ، بحيث لن يتسنى لنا أن نكون على اتفاق « يومًا. فانس وجودى، ولن يكون هذا بالأمر العسير عليك. فإنني لم أفعل قط من الخير - أو الشر - للرجال، ما يظلّ في الأذهان أمدًا طويلًا. وأعاهدك يا سيِّدي - من ناحيتي - على أن أنسى شخصك، وألّا أذكر في نفسي سوى مواهبك ».

ولم يكن شعوري بالألم، أقل من شعوري بالشمم والغضب للكرامة، من جراء هذا الخطاب. وفي فورة شقائي، وقد استرددت عزة نفسي، رددت عليه بالرسالة التالية:

« مونمورنسى: 11 أكتوبر سنة 1758

« سيِّدي: ما إن قرأت خطابك، حتى شرفتك بالدهشة منه. ولقد كنت من الحماقة بحيث تأثّرت به، ولكني وجدته غير جدير بالرد!

« إننى غير راغب في مواصلة نسخ القطع الموسيقية للسيّدة دوديتو، وإذا لم يرق لها أن تحتفظ بما لديها منها، ففي وسعها أن تردّها إليَّ، وسأعيد لها نقودها. أما إذا استبقتها، فلها أن ترسل - في أي وقت شاءت - في طلب ما بقى من أوراقها ونقودها، وإني لأرجوها - في الوقت ذاته ـ أن ترد إليَّ ما يكون لديها من أوراقي.

« ووداعًا يا سيِّدى.. ».

والشجاعة في المحن، تلقى الروع في القلوب الهيابة، ولكنها تشرح القلوب الكريمة. ويبدو أن هذه الرسالة قد ردت « سان - لامبير » إلى حجاه فندم على ما فعل. ولكنه كان من الإسراف في الكبرياء، بحيث تعذر عليه أن يقرّ بذلك صراحة، فلاذ بالصمت، ولعله كان يعدّ العدّة ليجعل الضربة - التي وجهها إليَّ - مميتة!.. وإن هي إلا خمسة عشر يومًا، حتى تلقيت من السيِّد ديبيناي الرسالة التالية (الملف « ب » الرسالة رقم 10):

« هذا الخميس: 26

« تلقيت يا سيِّدى، الكتاب الذي تكرَّمت بإرساله، وإني لأقرؤه بغبطة بالغة. وهذا هو الاحساس الذي اعتاد أن يداخلني دائمًا، وأنا أقرأ كل المؤلفات التي نفثها قلمك. فتقبل جزيل شكري. ولقد كنت أود أن أقدّمه لك شخصيًا، لو أن شئوني سمحت لي بأن أقيم وقتًا على مقربة من مقامك، ولكنني قلّ أن نزلت بلاشيفريت في هذا العام.

« إن السيِّد والسيِّدة دوبان قادمان لتناول الغداء عندي، يوم الأحد القادم. كما أتوقّع أن يكون بين الحضور السيّدان دي سان - لامبير، ودى فرانكويى، والسيِّدة دوديتو. ولسوف يكون من دواعي غبطتي حقًّا، أن تكون بيننا يا سيِّدى. إن كل الذين سيكونون في داري، يرغبون في وجودك، وسوف يغتبطون بأن يشاطروني متعة قضاء بعض اليوم معك.

« وإنه ليشرفني أن أكون، مع أكمل التقدير... إلخ ».

وأخذ قلبي يدق بعنف مروع، من جراء هذا الخطاب. ذلك لأن فكرة الظهور أمام السيِّدة دوديتو - بعد أن كنا حديث باريس عامًا بأكمله - جعلتني أرتجف، ولا أكاد أجد الجرأة الكافية على أن أواجه هذا الاختبار. ومع ذلك، فقد كان سان - لامبير راغبًا في ذلك، وقد تكلّم ديبيناى نيابة عن كل ضيوفه، ولم يكن بينهم مَن لا أغتبط بلقائه.. ومن ثم فإنني انتهيت إلى أني لن أكون - من كافة الاعتبارات - متطفلًا، إذا قبلت دعوة إلى الغداء، كنت مدعوًّا إليها من كافة الضيوف. ولهذا فإنني وعدت بالحضور، وكان يوم الأحد سيىء الطقس فأرسل السيِّد ديبيناى عربته لتقلني. فذهبت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأثار وصولى عاصفة من المشاعر الطيبـة، فما قُدِّر لي يومًا أن أحظى باستقبال يفوق هذا مودة وحفاوة.. حتى ليمكن القول بأن القـوم كانوا يشعرون بمدى حاجتي إلى ما يشرح صدرى. ولا تدرى سوى القلوب الفرنسية مثل هذه الألوان من العواطف. على أننى وجدت أناسًا أكثر مما كنت أتوقّع، بينهم الكونت دوديتو - الذي لم أكن قد تعرّفت عليه قط - وأخته السيِّدة دى بلينفيي، التي كنت أرجو أن أُعفى من مقابلتها. وكانت قد وفدت على (أوبون) مرات عديدة، في العام السابق، وكانت زوجة أخيها تتركها تحرق الإرم غيظًا عندما كنا ننطلق في نزهاتنا الخلوية وحيدين. ومن ثم فقد تولاها نحوى نفور راحت ترضيه - أثناء المأدبة - على هوادة.. فمن الممكن حدسه، إن وجود الكونت دوديتو وسان - لامبير لم يكن مبعث طرب لي، وإن الرجل الذي تتولاه الحيرة والحرج - في مثل هذه المناسبات - لا يستطيع أن يتألق فيها بسهولة.. أبدًا ما عانيت مثل ما عانيت إذ ذاك، ولا اكفهر محياي كما اكفهر في هذه المناسبة، ولا تعرّضت لحملات لم تكن متوقعة كتلك التي تعرّضت إليها من هذه السيِّدة.

وعندما غادرنا المائدة أخيرًا، ابتعدت عن هذه المرأة السليطة وسرّني أن رأيت سان - لامبير والسيّدة دوديتو يسعيان نحوى فظللنا شطرًا من فترة ما بعد الظهر، نتجاذب الحديث في مسائل لم تكن ذات بال، في الواقع، ولكنها أتاحت لنـا عين الألفة التي كانت بيننا قبل طيشي. ولم يغفل قلبي قط هـذا الود، ولو أن سان - لامبير استطاع أن يطلع على دخيلتي، لاطمأن إلى ذلك يقينًا. وبوسعي أن أقسم أنه بالرغم من أن مرأى السيِّدة دوديتو - عند وصولي - قد أثار ضربات قلبى في عنف بالغ، حتى أوشكت أن أفقد وعيي، إلا أنني لم أكـد أفكّر فيها - عندما انصرفت - إذ شغلت عنها بسان - لامبير!

وبالرغم من السخريات الخبيثة - التي صدرت عن السيِّدة دي بلينفيي - إلا أن هذه المأدبة شرحت صدرى، فرحت أهنىء نفسي بحرارة على أننى لم أرفض الدعوة. فلقد تبينت هناك أن دسائس جريم وعصبة دولبـاخ، لم تشتت أصدقائي القدامى عنى52. وليس هذا جل ما تبينت، بل إن مشاعر السيِّدة دوديتو وسان - لامبير لم تتحوَّل كما كنت أتوقع.. واستطعت أن أفهم - أخيرًا - أن البعاد الذي حجب السيِّدة دوديتو عني، كان مردّه إلى الغيرة، أكثر مما كان إلى نقص في تقديرها إياى. ولقد وجدت في هـذا عزاء وتسرية!.. ذلك لأن اطمئناني إلى أنني لم أكن موضع احتقار لدى أولئك الذين كنت أعتز بهم، كان يمكنني من أن أفرض سيطرتي على قلبي بكثير من القوة والتوفيق. وإذا كنت لم أوفّق إلى أن أخمد تمامًا - في هذا القلب - هوى آثمًا ومنحوسًا، فإنني استطعت، أن أسيطر على هذا الهوى وأن أرمضه، على الأقل، فلم يدفعنى - منذ ذلك الحين - على أن أرتكب خطأً واحدًا. وما تزال أعمال النسخ - التي أغرتني السيِّدة دوديتو باستئنافها لحسابها - ومؤلفاتي، التي واصلت إرسالها إليها عند ظهورها.. ما تزال هذه وتلك، تأتينى منها - بين الحين والحين - برسائل ومذكرات، قد لا تكون ذات قيمة، ولكنها باعثة على الرضى.. بل إنها ذهبت إلى أبعد من

ذلك - كما سيتبين فيما بعد ـ وأن المسلك المتبادل بين ثلاثتنا، بعد أن انقطع اتصالنا، ليقوم مثالًا على الطريقة التي يفترق بها أهل الشرف، عندما يصبح من المستحب ألّا يلتقوا!

وهناك نفع آخر أفدته من هذه المأدبة. ذلك هو أنها صارت حديث باريس، واتُخذت كدليل قاطع يدحض الشائعة التي كان أعدائي قد روجوا لها في كل مكان، عن أنني كنت على أشدّ الخصام مع أولئك الذين حضروها جميعًا، لا سيما السيِّد ديبيناى بالذات!.. وكنت قد كتبت له - عند مبارحة (ليرميتاج) - رسالة شكر جدّ مهذبة، أجاب عنها بأدب مماثل، ولم تنقطع بيننا المجاملات المتبادلة، سواء بيني وبينه، أو بيني وبين السيِّد « دى لاليف » - شقيقه - الذي كان يفد إلى (مونمورنسى) لزيارتي، ويبعث إليَّ بصوره. وفيما عدا زوجتَىّ شقيقيّ السيِّدة دوديتو، لم أكن يومًا على علاقة سيئة بأحد من الأسرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد حظى مقالي الموجَّه إلى « دالمبير » بنجاح عظيم. ولقد كان هذا شأن مؤلفاتي جميعًا، ولكن هذا المقال بالذات، كان أحبها إلى نفسي، إذ أنه نبَّه الرأي العام إلى عدم الثقة بتخرصات عصبة دولباخ. فعندما انتقلت إلى (ليرميتاج)، تنبأوا - باعتدادهم المأثور - بأنني لن أستطيع بقاء هناك، لأكثر من ثلاثة أشهر. حتى إذا رأوني أمكث هناك عشرين شهرًا، ثم أظلّ - بعد أن اضطررت إلى مبارحته - في الريف، راحوا يتشدقون بأن هذا لم يكن سوى مجرَّد عناد محض، بعزلتي، وأنني قد ضقت - إلى حد الموت - بعزلتي، ولكن الغرور والكبرياء كانا يغريان قلبي، ويجعلاني أوثر الموت هناك - ضحية العناد - على أن أرجع عن رأيي وأعود إلى باريس. ولكن رسالتي إلى « دليمبير » جاءت عبقة بأنفاس روح وادعة، في غير اصطناع. ولو أنني كنت أعاني النكد في عزلتى، لبدا هذا ملموسًا في لهجتى، كما كان يبدو جليًّا في جميع ما كنت قد كتبت إبان إقامتي في باريس.. ولكن هذه الروح اختفت في أوَّل مؤلف وضعته في الريف. وقد كانت هذه الظاهرة برهانًا قاطعًا لدى القادرين على الملاحظة. إذ رأوا - في مقالي - أنني عدت إلى طبيعتي!

ومع ذلك، فإن هذا المقال - المفعم باللطف - قد جلب لي عدوًا جديدًا في عالم الأدب، من جراء غفلتي وسوء طالعى المعهود!.. ذلك أنني كنت قد تعرَّفت - لدى السيِّد ديلا بوبلينيير - على « مارمونتيل »، ثم توثّق هذا التعارف لدى البارون. وكان مارمونتيل يتولى -إذ ذاك ـ تحرير صحيفة « ميركور دى فرانس ». ولما كنت أربأ بنفسي أن أرسل مؤلفاتي إلى أولئك الذين يكتبون للصحف، ومع ذلك فقد كنت راغبًا في أن أرسل هذا المؤلَّف بالذات إلى مارمونتيل، دون أن أشعره بأنه موجَّه إليه كمحرّر، أو لكي يتحدَّث عنه في صحيفته، فقد كتبت على النسخة التي أرسلتها إليه، أنها غير موجّهة إلى « محرِّر الميركور »، وإنما إلى « السيِّد مارمونتيل ». وظننت أنني بذلك كنت أقدِّم له مجاملة لطيفة، ولكنه - كما بدا - رأى فيها إهانة بالغة، فأصبح عدوًا لا تهدأ لخصامه سورة. وكتب ضد مقالى مقالًا مؤدبًا، ولكن أسلوبه لم يخل من غل ملموس. ومن ذلك الحين، لم يدع فرصة تمرّ دون أن يطعنني في المجتمع، أو أن يسيء إليَّ - في مؤلفاته - إساءة غير مباشرة.. إلى هذا الحد يتعذَّر ترويض أنانية أهل الأدب، وإلى هذا الحد يجب أن يكون المرء على حذر فيما يوجّهه إليهم من مجاملات، فلا يدع أي شيء يمكن أن يؤول على غير معناه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سنة 1709

أما وقد غدوت مطمئنًا، من كل جانب، فقد رحت أستغل فراغي وحريتي في استئناف أعمالي الأدبية بمزيد من الانتظام. فأتممت - في ذلك الشتاء ـ « جولى »، وأرسلتها إلى «

ريه » الذي أتمّ طباعتها في العام التالي. غير أن انصرافى إلى العمل، لم يلبث أن اضطرب من جراء حادث تافه، ولكنه مكدر. فلقد علمت أن الاستعداد كان يجري في « الأوبرا » لعرض « عرَّاف القرية » من جديد، وغاظني أن وجدت أولئك القوم يتصرَّفون في إنتاجي، دون اكتراث بي، فعدت إلى المذكرة التي كنت قد أرسلتها - يومًا - إلى السيِّد دارجنسون ولم أتلقّ عنها جوابًا، فنقحتها، وأرسلتها عن طريق السيِّد « سيلون »، مع خطاب تكرَّم بأن يعنى بتسليمه إلى السيِّد الكونت « دى سان - فلورنتان »، الذي كان قد خلف السيِّد دارجنسون في إدارة دار « الأوبرا ». ولقد تحدَّث « ديكلو » - إذ أنبأته بما فعلت - إلى « الكمانين الصغيرين » بهذا الشان، فعرضا عليه أن يعيدا إليَّ، لا أوبراي، وإنما التصريح بدخول الدار دون مقابل، وهو ما لم يكن ذا نفع لي. وإذ رأيت أنه لا أمل لي في أي إنصاف، فقد تخليت عن المسألة كلها. وواصل المشرفون على إدارة « الأوبرا » استغلال « عرَّاف القرية » وفق هواهم ـ وكأنها ملك خاص لهم - ويجنون منها الأرباح، دون أن يعنوا بالرد على احتجاجاتى، أو ينصتوا إليها، مع أن هذه « الأوبرا » ملك لي وحدى، دون منازع[53].

ومذ نفضت عن نفسي ربقة الطغاة الذين أوسعونى جورًا، رحت أعيش حياة سهلة، مسترسلة، وادعة، وقد حُرمت من فتنة علاقتين من أقوى العلاقات العاطفية، وتحرَّرت من أغلالهما الثقيلة. ولفرط مقتى للأصدقاء « الحماة »، الذين كانوا يُظهرون رعايتهم لي، لمجرَّد الرغبة في أن يوجّهوا مصيري وفق هواهم، وأن يجعلوني - على الرغم منى - أسير أفضالهم المزعومة، عقدت العزم، على أن أقصر علاقاتى في المستقبل على مجرَّد حسن النيـة والود الخالص، الذي يضفي على الحياة بهجة - دون أن يفرض أية قيود على الحرية التامة - والذي يقوم على أساس المساواة الكاملة!.. ولقد كان لديَّ من هذا النوع من العلاقات قدر كاف لأن يمكنني من أن أتذوَّق متعة الجماعة والإيناس، دون أن أكون مضطرًّا إلى أن أعتمد عليها اعتمادًا يحد من استقلالى. وما أن جربت هذا الأسلوب من أساليب الحياة، حتى شعرت بأنه أنسبها لسني، ولأقضى الأيام الباقية من عمري في سلام، بعيدًا عن الأنواء، والخلافات، والمضايقات، التي كنت أغرق في حمأتها، في الفترة الأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنت خلال إقامتي في (ليرميتـاج)، ومنذ أن استقرّ بى المقام في (مونمورنسى) قد عقدت صلات تعارف مستحبة في المنطقة لم تكن تفرض عليَّ أية التزامات. وعلى رأس هؤلاء المعارف « لويزو دى موليون » الشاب، الذي كان ما يزال في بداية عمله كمحام، وعلى جهل بالمركز الذي كان موشكًا أن يشغله. ولم تكن لديَّ من الهواجس مثـل ما تولاه، فرحت أبين له الحياة العملية الموفقة، التي ينعم بها اليوم. وتنبأت له بأنه إذا حرص أشدّ الحرص على تخيّر قضاياه، وإذا هو تشبّث دائمًا بالدفاع عن الحق والفضيلة، فإن هذه المشاعر السامية لن تلبث أن تصقل نبوغه، وتجعله في مصف كبـار المحامين والخطباء. ولقـد تبع نصحى، وإنه ليحظى اليوم بالنتيجة. ولقد كان دفاعه عن السيِّد « دى بورت »، خليقًا بأن يعادل ما كان يصدر عن الخطيب الإغريقي « ديموستين »!.. وكان يفد لقضاء عطلته من كل عام، في (سان - بريس) - على بُعد أربعة فراسخ من ليرميتاج - في ضيعة آل موليون التي كانت تمتلكها أمه، والتي عاش فيها من قبل (بوسيويه) العظيم. وهي ضيعة أدَّى تعاقب أمثال هؤلاء المُلاك عليها، إلى تعذر بقاء أسرة إقطاعية على أرضها!

وكان لي في القرية ذاتها - (سـان - بريس) - صديق آخر، هو الكتبي جيران.. وكان رجلًا موهوبًا، مطلعًا، لطيفًا، وفي أرقى مصاف أبناء مهنته. ولقد تعرَّفت بفضله إلى « جان نياولم »، وكان صديقًا له من باعة الكتب، على تراسل مستمر معه. وهو الذي نشر كتابى « اميل »، فيما بعد. وعلى مسافة أدنى من « سان - بريس »، تعرَّفت إلى راعي كنيسة (جروسلى) - السيِّد مالتور - الذي كان يصلح لأن يكون وزيرًا ومن رجال الحكم، منه لأن يكون خوريًّا لكنيسة إحدى القرى.. أو كان جديرًا - على الأقل - بأبرشية يديرها، إذا قُدِّر

للمواهب أن تحدّد مراكز الرجال!.. ولقد كان يومًا سكرتيرًا للكونت « دولوك »، وعرف جان بابيست روسو معرفة وثيقة. وكان مفعم النفس بالتقدير لذكرى هذا الشاعر الجليل - الذي قُدِّر له أن يُقصى عن موطنه - بقدر ما كان مليء القلب بالمقت لذلك الوغد (سوراني) الذي كان سببًا في القضاء على ذلك الشاعر.. وكان الخوري يعرف عددًا من النوادر الطريفة عن كل منهما، لم يذكرها « سيجاى » في سيرة الشاعر، التي لم تُنشر بعد. ولقد أكَّد لي السيِّد مالتور أن الكونت دولوك لم يجد يومًا سبيلًا إلى الشكوى منه، بل إنه ظلّ يكن له صداقة حارة إلى آخر أيام حياته. ولقد منح السيِّد دي فانتميل الخوري منصبه المريح - بعد وفاة مخدومه السابق - ليعيش في عزلة هادئة. وقد روى لي أنه استخدم - قبل ذلك - في كثير من الأعمال، ظلّ - رغم تقدّم سنه - يحتفظ بذكريات واضحة لها، وكان يحدّثني عنها بلهجة تنم عن حكمة وحصافة. وكان حديثه مفيدًا بقدر ما كان مسليًا، لا يوحى إلى المرء قط بعقلية « خورى » القرية، وكان يجمع بين دراية الرجل الخبير بالدنيا، وشوق الطالب الراغب في التعليم. ولقد كانت صحبته هي أحب صحبة إلى بعض المقيمين في المنطقة من جيراني. ولقد فارقته وفي نفسي أبلغ الأسف لذلك.

وتعرَّفت في مونمورنسي إلى أعضاء هيئة الوعظ، ومنهم الأب « بيرتييه » الذي كان أستاذًا في العلوم الطبيعية، والذي توثقت صلتى به - برغم لمحة من الاختيال بعلمه في خلقه - لما لمسته فيه من طيبة. على أننى وجدت عناء في محاولة التوفيق بين سذاجته المسرفة، وبين تحايله على أن يزج بنفسه في كل مكان.. في دور العظماء، وبين النساء، ولدى الأتقياء، وفي أوساط الفلاسفة. كان يعرف كيف يرضى أهواء جميع الناس!.. ولقد وجدت متعة بالغة في صحبته، ورحت أتحدَّث عنه إلى كل إنسان، ومن الجلى أن كل ما كنت أقوله عنه، قد نمى إليه. فقد شكرنى ذات يوم، مبتسمًا، لأنني كنت أعتبره رجلًا طيبًا. ولمحت في ابتسامته لونًا من اللؤم بدل سحنته - في نظري - تبديلًا تامًا، ولا تزال هذه الابتسامة تتمثل في ذاكرتي أحيانًا، منذ ذاك الحين. ولست أملك أن أصورها بأكثر من أنها ابتسامة « بانورج » وهو يبتاع أغنام « دانذينو ». ولقد بدأ تعارفنا عقب وصولي إلى (ليرميتاج) بوقتٍ قصير، ثم أخذ يكثر من التردد على الدار لزيارتي بعد ذلك.

وكنت قد استقررت في مقامي في (مونمورنسى)، عندما رحل الأب « بيرتييه » إلى باريس، ليقيم فيها. وهناك، أخذ يلتقى بالسيِّدة لوفاسير في كثير من الأحيان. وقد كتب لي ذات يوم ـ كان فيه أبعد الناس عن ذهني - يطلعني، على لسان هذه المرأة، على أن « جريم » عرض عليها أن يعولها، ويستأذنني باسمها في قبول هذا العرض. وعلمت أن جريم عرض عليها معاشًا قدره ثلاثمائة ليبرة، على شريطة أن تذهب لتقيم في (دويى)، بين (لاشيفريت) و (مونمورنسى). ولست بحاجة إلى أن أذكر وقع هذا النبأ على نفسي.. لقد أثار دهشة تفوق ما لو علمت أن « جريم » أوتى دخلًا قدره مائة ألف ليبرة، أو أنه أنشأ علاقة غير شريفة مع هذه المرأة!.. وكأنه لم يعتبره إجرامًا مني أن أصطحب هذه المرأة إلى ذات الريف الذي يميل الآن إلى إعادتها إليه.. أو كأن السن رجعت بها القهقرى منذ أثار هذا الاتهام!

وأدركت أن العجوز الماكرة ما كتبت تسألني الإذن - وهي التي لم تكن تتورع عن أن تغض البصر عنه إذا ما رفضت - إلا لكي تتفادي أن تفقد ما كنت أمنحها إياه من ناحيتي. ومع أن هذا التطوع للخير - من جانب جريم ـ بدأ غير عادي في عينَيّ، إلا أنه لم يشغلني إذا ذاك، بقدر ما شغلني فيما بعد. على أنه لو قُدِّر لي حينذاك ان أعرف كل ما عرفت بعده، لما أحجمت عن أن أعلنها بموافقتى - كما فعلت إذ ذاك - ما لم أكن على استعداد لأن أعوضها عما عرضه عليها « جريم »!

ومنذ ذلك الحين أبرأنى، الأب « بيرتييه » من الاغترار بطبيعة الأمر الذي بدا له عجبًا، حين صارحته به في غباء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هذا الأب « بيرتيبه » بالذات، على معرفة برجلين، كانا بدوريهما ينشدان التعرّف إليَّ، دون أن أدرى لذلك داعيًا، إذ لم يكن ثمة تقارب يُذكر - في الواقع ـ بين ميولهما وميولي. ذانك هما ابنا « ميلشيسيديك » اللذان لم يقدَّر لأحد أن يعرف وطنهما، ولا أسرتهما، بل - وربما - لقبهما الحقيقي. وكانا من « اليانسيين »54 وقد أخذهما القوم على أنهما راهبـان مستخفيان، ولعل ذلك كان راجعًا إلى عادتهما التي كانت تعرضهما للسخرية.. عادة حمل سيفين طويلين يتشبثان بهما. وكانت السرية الضافية التي راحا يسبغانها على كل تصرفاتهما، تكسبهما مظهر زعماء الأحزاب أو الشيع، ولم أشك قط في أنهما هما اللذان كانا يصدران « الجازيت » « أكليسيا ستيك »، الصحيفة الدينية.

وكان أحدهما فارع القامة، بشوشًا، متملقًا، يُدعى السيِّد « فيرو ».. أما الآخر، فكان قلة في الجسم، ربعـة القوام، ساخرًا، كثير الجدل فيما لا طائل منه، ويُدعى السيِّد « مينار ». وكان كل منهما ينادى الآخر بيا « ابن العم ». وكانا يقيمان في « داليمبير »، في بيت مربيتـه، وقد اتخـذا في باريس مع (مومورنسى) بيتًا صغيرًا، راحا يقضيان فيه فصل الصيف من كل عام، وكانا يدبّران شئون بيتهما بنفسيهما، دون خدم ولا حشم. وكانا يتناوبان أسبوعيًّا الذهاب إلى السـوق، والطهو، وكنس البيت. وفيما عدا ذلك، كانا يعيشان ناعمين، وكنت أتناول الطعام على مائدتهما، ويتناولانه على مائدتى، في بعض الأحيان. ولست أدرى السر في أنهما كانا يشغلان بي، في حين أنني لم أكن أحفل بهما إلا لأنهما كانا يهويـان الشطرنج.. ولكي أظفر بمباراة صغيرة، متواضعة، كنت أحتمل أربع ساعات مضجرة. ولما كانا يسعيان إلى أن يدسا أنفيهمـا في كل شيء، فإن « تيريز » أطلقت عليهما اسم « الثرثارين »، وقد لصق بهما هذا الاسم في (مونمورنسى).

هؤلاء، مع السيد متى ـ صاحب بيتي، الذي كان رجلًا وقورًا - كانوا أهم معارفي في الريف.وكنت ما أزال أحتفظ بعددٍ كافٍ في باريس، لكي آنس إلى الحياة هناك - كلما طاب لى ذلك - خارج نطاق وسط الأدباء، حيث لم أكن أعول على صديق سوى « ديكلو » وحده!.. فقد كان « ديليير » ما يزال جد صغير السن بالنسبة لي. ومع أنه لم يلبث - إذ عرف عن كتب الدساسين ضدي من العصبة الفلسفية - أن نأى بنفسه تمامًا عن هذا الوسط، أو هكذا ظننته، على الأقل.. ولم أكن قد استطعت بعد أن أنسى سهولة مبادرته إلى جعل نفسه بوقًا لكل أولئك المتآمرين!

وكنت ما أزال أحتفظ - في المكانة الأولى - بصديقي القديم المحترم السيِّد « روجان ». وهو من أصدقاء الأيام الطيبة، الذين لا أدين بمعرفتهم لكتاباتي، وإنمـا لشخصى. ولهـذا السبب استطعت أن أحتفظ به دوامًا. وكان من أصدقائي أيضًا، مواطني الشيخ الطيب « لينييب »، وابنتـه السيِّدة « لامبير »، التي كانت إذ ذاك أرملة. وهناك - كذلك - شاب من (جنيف) يُدعى « كوانديه »، كان فتىً طيبًا - كما بدا لي - مجتهدًا، خدومًا، ذا حمية.. بيد أنه كان جاهلًا، متواكلًا، شرهًا، نفعيًا. وقد جاء - منذ البداية - لزيارتي في (ليرميتاج)، وبدون دعوة - اللهم إلا من نفسه - استقرّ في بيتي، بالرغم منى. وكان على ميل للرسم، وعلى معرفة بأهل الفن. وقد أفدت منه في رسوم « جولى »، فآلى على نفسه أن يشرف على الرسوم واللوحات « الكليشيهات »، وقد أدّى هذه المهمة خير أداء.

وكان لدى - فوق ذلك - بيت السيِّد دوبان، الذي غدا أقل بهاء، مما كان في أنصر أيام السيِّدة دوبان (أيام شبابها) والذي ظلّ من خيرة الدور الباريسية بفضل مواهب سادته وخلالهم، وبفضل الصفوة التي كانت تتردد عليه. ولما كنت قد اعتدت أن أفضلهم على مَن عداهم طرًّا، ولم أهجرهم إلّا لكي أعيش طليقًا، فإنهم لم يكفّوا قط عن أن يرهقوني بعين الود، وكنت واثقًا من حفاوة السيِّدة دوبان بي في جميع الأوقات. بل إننى أستطيع

اعتبارها من جاراتي في الريف - كذلك - منذ أقاموا دارًا في (كليشي)، اعتدت أن أقضى فيها يومًا أو يومين - في بعض الأحيان - وكنت خليقًا بأن أكثر من التردد عليها، لو أن السيِّدة دوبان والسيِّدة شينونسو كانتا تعيشان على مزيد من الوئام. ولكن تعذّر توزيع اهتمام المرء بين امرأتين لا تنسجمان معًا، جعلني أضيق كثيرًا بكليشي. ولما كنت مرتبطًا بالسيِّدة شينونسو بودٍ أكثر يسرًا وأشـدّ ألفة، فإنني كنت أحظى بمتعة رؤيتها - وأنا أكثر ارتياحًا - في (دوبى)، التي كانت جد قريبة من مسكنى، حيث كانت قد استأجرت دارًا صغيرة.. كما كنت أسعد برؤيتها في داري، حيث اعتادت أن تأتي لزيارتي في كثير من الأحيان.

كذلك كان بين معارفي في باريس السيِّدة دي كريكي، التي أوغلت في التعبد والتدين، وكفَّت عن لقاء داليمبير ومار مونتيل ومَن على شاكلتهما، ومعظم أهل الأدب، اللهم إلا الأب تروبليه - على ما أعتقد - الذي كان في ذلك الحين شبه مراء متملق، حتى أنها لم تلبث أن ضاقت به. أما أنا، فكانت تنشد صحبتي، ولم تفقد ودّها نحوى، بل ظلَّت دائمًا على تراسل معي. وقد أرسلت لي بعض دجاج (لومان) السمين، كهدية في رأس السنة. كما كانت تعتزم أن تفد لزيارتي في العام التالي، عندما أفسدت عليها خطتها رحلة قامت بها السيدّة دى « لوكسمبورج » في الوقت ذاته. وإني لأحتفظ لها في نفسي بمكانة خاصة، ولسوف تظلّ ذات مقام ممتاز في ذاكرتي على الدوام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان لدىّ صديق، جدير بأن أجعله في مقدمة الجميع اللهم إلّا روجان. ذلك هو زميلي وصديقي القديم « كاريو »، الذي أصبح السكرتير الأسمى للسفارة الأسبانية في البندقية، تمّ في السويد، حيث عينه بلاط بلاده قائمًا بالأعمـال، ثم عُيّن سكرتير أصليًا لسفارة بلاده في باريس. ففاجأني بزيـارة في (مونمورنسى)، في وقت كنت فيه أبعد ما أكون عن أن أتوقعه. وكان يتقلَّد وسامًا اسبانيًّا - نسيت اسمه - ذا صليب مرصع بالأحجار الكريمة. وكان مضطرًّا إلى أن يضيف إلى اسمه - في وثائق النسب - حرفًا آخر، فأصبح يحمل اسم « الشيفالييه دى كاريون ». ولقد وجدته على ما عهدته عليه دائمًا: عين القلب الرائع، والعقل الذي يزداد لطفًا وسحرًا يومًا بعد يوم.. وكنت خليقًا بأن أعاود الفتي معه، كما كنا من قبل، لو لم يدخل « كوانديه » بيننا - كعهده - فينتهز بُعدي عن باريس، ليتسلل - باسمي - إلى مكاني منـه، ويغدو موضع ثقته، ويسلبني ودّه في تحمسه لخدمتي!

وتعيد ذكرى « كاريون » إلى ذهني ذكر أحد جيراني في الريف، كنت خليقًا بأن أذنب أشـنع ذنب لو أنني أغفلت الحديث عنه لا سيما وأنني مسوق إلى أن أعترف بخطأ لا يغتفر نحوه. ذلك هو السيِّد الكريم « لوبلون »، الذي أدَّى لي كثيرًا من الخدمات في البندقية، والذي جاء في رحلة إلى فرنسا - مع أسرته - فاستأجرا دارًا ريفية في (لابريش)، التي لم تكن تبعد كثيرًا من (مونمورنسى). وما أن عرفت أنه جارى، حتى خفق قلبي طربًا، ورأيت أن أزوره بدافع من سروري، أكثر مما كان ذلك بدافع من الواجب. وذهبت لذلك في اليوم التالي مباشرة، وإذا بي ألتقى بأناس كانوا قادمين لزيارتي. فاضطررت إلى العودة معهم. وبعد يومين، سعيت إليه مرة ثانية، فوجدته يتناول غداءه في باريس مع أسرته55. وذهبت مرة ثانية، فإذا به في داره، وسمعت أصـوات نساء، ورأيت لدى الباب عربـة أزعجتني. إذ كنت أود أن أقابله - دون دخيل - ولو في المرة الأولى على الأقل، لأتكلم معه عن علاقاتنا القديمة.



ورأيت لدى الباب عربة أزعجتني . إذ كنت أود أن أقابله

ـ دون دخيل ولو في المرة الأولى ..

وموجز القول، أننى رحت أرجى زيارتى يومًا بعد آخر، حتى منعنى حيائي من التقصير - طيلة هذه المدة ـ في تحقيق هذا الواجب، من أن أؤديه إطلاقًا. فكان إقدامي على الانتظار طويلًا، سببًا في أن لا أجرؤ - في النهاية - على أن أظهر نفسى. ولقد أدّى هذا الإهمال - الذي لم يكن السيِّد لوبلون يملك سوى أن يستنكره، عن حق - إلى أن جعل تخاذلى يبدو جحودًا. ومع ذلك فإنني لم أشعر - في قرارة فؤادى - بأي تثريب.. ذلك لأننى لو كنت قادرًا على أن أتيح للسيِّد لوبلون أي سرور حقيقي - وإن لم يكن على علم به - فإنه ما كان ليجدني، في يقيني، متكاسلًا. ولكن الخمول، والإهمال، والتهاون في أداء الواجبات التافهة، كثيرًا ما كانت أبلغ إساءة إلىَّ، بل من أعظم الرذائل. كانت أبشع أخطائي تتمثل في التغاضي، فنادرًا ما كنت أفعل ما لم يكن ينبغي أن أفعله، وأندر من ذلك - لسوء الحظ ـ أنني لم أكن أفعل ما يجب فعله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما دمت قد عدت إلى المعارف الذين ظفرت بهم في البندقية، فخليق بي ألّا أنسى علاقة تتصل بهم، وقد دامت أمدًا أطول من بقية العلاقات. وأقصد علاقتي بالسيِّد دى « جونفيي »، الذي ظلّ - منذ عودته من (جنوا) - يواصل إبداء كثير من الود نحوى. وكان شديد الشغف بلقائي، وبالحديث عن المسائل والشئون الإيطالية، وعن حماقات السيِّد دي مونتيجي، التي عرف - من ناحيته - بعض نوادرها، عن طريق وزارة الخارجية، التي كانت له بها كثير من الصلات. ولكم سررت إذ التقيت في داره بزميلي القديم « دوبون »، الذي كان قد حصل على منصب في إقليمه، وكانت شئونه تحمله إلى باريس من آنٍ إلى آخر.

ولقد أخذ السيِّد جونفيي يزداد إلحاحًا في لقائي، شيئًا فشيئًا، حتى أصبح مصدر إزعاج لي.. ولما كنا نقيم في حيين متباعدين، فقد بات يثير ضجة بيننا، إذا انقضى أسبوع كامل دون أن أذهب فأتناول الغداء لديه وكان إذا ذهب إلى ضيعة (جونفيى)، يسعى دوامًا إلى اصطحابي، ولكنني بعد أن قضيت هناك ثمانية أيام - ذات مرة - شعرت بأنها لا تكاد تنصرم، لم أعد أجد رغبة في العودة إليها. ولقد كان السيِّد جونفيي رجلًا كريمًا، شهمًا - بكل تأكيد - كما كان لطيفًا في نواح خاصة، ولكنه كان محدود الذكاء.. وكان جميلًا، مزهوًّا بشكله إلى حد ما، وباعثًا على الضجر.. وكانت لديه مجموعة فريدة في نوعها، بل لعلها كانت وحيدة في العالم، فكان جد مشغول بها، وكان يشغل بها ضيوفه الذين كانوا يجدونها - أحيانًا - أقل تشويقًا مما كان يجدها هو. تلك كانت مجموعة جد كاملة من أغاني البلاط الملكي، والأغاني الباريسية - منذ أكثر من خمسين عامًا - توجد بينها كثير من الطرائف، التي كان من المستحيل على الباحث أن يعثر عليها في أي مكان آخر.. وإنها لذكريات في تاريخ فرنسا، نادرًا ما تخطر بالبال لدى كافة الأمم الأخرى!

وفي ذات يوم - وقد كنا في أوج وئامنا - استقبلنى استقبالًا باردًا، جليديًّا، لا يماثل مسلكه العادي، حتى أنني بعد أن أتحت له فرصة ليشرح هذا المسلك - بل وسألته إيضاحًا - فلم يفعل، خرجت من داره وقد قر عزمي على ألّا أضع قدمي فيها مرة أخرى، إذ أننى لا أشاهد ثانية - على الإطلاق - حيث أكون قد حظيت باستقبال سيئ مرة.. ولم يكن هنا ديدرو يشفع للسيِّد دى جونفيي. ولقد أرهقت عقلى عبثًا كى أتبين أي ذنب يحتمل أن أكون قد ارتكبته نحوه، إذ أنني لم أستطع أن أتذكر شيئًا. وكنت موقنًا من أنني لم أتحدَّث قط عنه أو عمَّن يمت إليه، إلا باحترام كبير، إذ أنني كنت صادقًا في ودّي له. وبجانب أنني لم أكن أملك ما أقوله عنه سوى كل خير، فقد كان من أكثر مبادئى صلابة، ألّا أتحدَّث عن البيوت التي أزورها، إلّا في إجلال وأمانة.

وأخيرًا، وبعد تخبط، انتهيت إلى الحدس التالي، ففي آخر مرة التقينا فيها، دعاني إلى العشاء في مسكن فتيات من معارفه، مع اثنين أو ثلاثة من موظفي وزارة الخارجية،

وكانوا رجالًا متزنين، لا يبدو عليهم قط أي فجور أو خلاعة.. وبوسعي أن أقسم على إننى - من ناحيتي - قضيت الأمسية في خواطر حزينة من أجل النصيب التعس الذي أوتيته هؤلاء الفتيات المسكينات. ولم أساهم في نفقات العشاء، لأن السيِّد دى جونفيي كان صاحب الدعوة.. كما أنني لم أهب الفتيات شيئًا، لأنني لم أتح لهن فرصة التكسب مني، كما فعلت في واقعة « البادوانا »56. وبعد ثلاثة أيام أو أربعة - لم أزر فيها الفتيات مرة أخرى - ذهبت لتناول الغداء في دار السيِّد دي جونفيي، الذي لم أكن قد رأيته منذ تلك المناسبة، فإذا به يستقبلني على النحو الذي ذكرته. ولما لم أستطع أن أتصوَّر سببًا سوى احتمال وقوع سوء تفاهم لأمر ما يتصل بذلك العشاء، وإذ تبينت أنه غير راغب في أن يشرح مسلكه، فقد انقطعت عن زيارته، ولكني ظللت أرسل إليه مؤلفاتي، فكان يبعث إليَّ - أحيانًا - بتحياته.

وفي ذات مساء، قابلته في غرفة الاستراحة بمسرح « الكوميدي »، فإذا به يعتب عليَّ في لطف أنني لم أعد أزوره، ولكن هذا لم يحملني على العودة إليه. وهكذا، بدا الأمر - في هذه الحالة - مجرَّد إحجام أكثر منه قطيعة!.. على أننى لم أره قط بعد ذلك، ولا سمعت عنه مزيدًا بعد ذلك الوقت. وقد تكون الفرصة جد متأخرة - بعد أن انفصمت صلتنا لعدّة سنوات - لكي نجدد صداقتنا. وهذا هو السبب في أنني لم أذكر هنا السيِّد دى جونفيى، بين الأصدقاء الذين ظللت احتفظ بهم في باريس، برغم أنني ترددت على داره فترة طويلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أنني لن أضخم هذه القائمة بأسماء معارف آخرين أقل ألفة، أو أسماء أولئك الذين قلّ توثق الفتى بهم تدريجًا، لتغيبي عنهم، ولو أننى ما أزال أراهم في الريف أحيانًا، سواء في داري أو في دور جيراني. ومنهم - على سبيل المثال - الراهبان دي كونديللاك، ودى مابلى، والسادة دى ميران، ودى لاليف، ودى بواجيلو، وواتيليه، وانسيليه، وغيرهم ممن يطول سرد أسمائهم. كذلك أورد في ذكر عابر، السيِّد دى مارجينسي، الأمين الخاص للملك، والعضو القديم في ندوة دولباخ، والذي لم يلبث أن هجرها كما هجرتها أنا، وقد كان صديقًا حميمًا للسيِّدة ديبيناي، ولم يلبث أن انفصل عنها كما انفصلت أنا.. ثم أذكر صديقه « ديماهى »، مؤلف المسرحية الفكهة: « السفيه »، الذي اكتسب شهرة، ولكنه لم يلبث أن غاب عن الأذهان والأسماع. ولقد كان الأوَّل - دى مارجينسى - جارًا لي في الريف، إذ كانت ضيعة (دى مارجينسى) قريبة من (مونمورنسى). وكنا على تعارف قديم، ولكن الجوار، وبعض التشابه في تجاربنا في الحياة، قرّبا بيننا!.. أما الثاني، فلم يلبث أن مات بعد تعرفنا بقليل. وكان ذا كفاءة وذكاء، ولكنه كان يشبه بطل مسرحيته الفكهة، في بعض النواحي، إذ كان ماجنًا - بعض الشيء - مع النساء، ولم يحظ بكثير من الأسف أو الحزن عند موته!

على أنني لا أستطيع أن أغفل علاقة جديدة بالمراسلة - في تلك الآونة - كان لها من الأثر على ما تبقى من حياتي، ما لا يدعنى أتجاوز ذكر منشئها. وأقصد بهذا السيِّد « دى لاموانيون دى ماليزيرب »، أوَّل رئيس لمجلس المعونة، الذي كان - إذ ذاك - رقيبًا على الكتب المطبوعة، وقد أدَّى مهمته بكثير من الحصافة وسعة الأفق واللين، فكان مصدر ارتياح كبير لرجال الأدب. ولم أكن قد زرته قط في باريس، ولكنني كنت ألقى منه كثيرًا من التيسيرات الجديرة بالتقدير، فيما يتعلق بالرقابة.. وقد علمت أنه في أكثر من مناسبة، كان يؤنب ـ في قسوة ـ أولئك الذين اعتادوا أن يكتبوا ضدى. ولقد وقعت على أدلة جديدة على كرمه وأفضاله، بالنسبة لنشر « جولى ». فإن إرسال « بروفات » مؤلَّف ضخم كهذا من « أمستردام » - حيث كان يُطبع - كانت باهظة. ومن ثم فإنه سمح بأن ترد باسمه هو، إذ كانت المراسلات الموجهة إليه معفاة من رسوم البريد. فكانت « البروفات » تُرسل باسمه، فيبعث بها إليَّ دون نفقات كذلك، بفضل والده السيِّد حامل الأختام. وعندما تم طبع

الكتاب، رفض بيعه في المملكة إلا بعد طبعة دبَّر أمرها، بحيث يؤول ربحها إليَّ وحدى، بالرغم منى.. ولما كان هذا الربح يعتبر - من جانبى - سرقة وجورًا على حقوق الناشر « ريه »، الذي كنت قد بعته أصول كتابي، فإنني لم أرفض فحسب قبول هذه الهدية - التي دُبّرت لي بدون إذنه، وإن كان قد أقرّها في كرم النفس - بل إنني رغبت في أن أقتسم معه المائة « بيستول » التي تجمعت منها، والتي أبي أن يقبل منها شيئًا. ولقد ضايقتني هذه المائة « بيستول »، إذ لم يكن السيِّد دي ماليزيرب قد شاورنى في أمرها، ولم يمهد لديَّ حتى أكون على علم إذ أرى مؤلَّفي يُستغل استغلالًا بغيضًا، فيمنع بيع الطبعة الجيدة، ريثما تُستنفد نسخ الطبعة الرديئة![57].

ولقد اعتدت أن أنظر دائمًا إلى السيِّد دى ماليزيرب كرجل أجمعت الشواهد على استقامته. فما حملني شيء مما حدث على أن أرتاب في أمانته لحظة واحدة، ولكنه كان ضعيفًا بقدر ما كان شريفًا، ومن ثم فإنه كان يسبب المضايقات أحيانًا، لأولئك الذين كان يشغل بأمورهم، رغبة منه في حمايتهم، وفي سبيل هذا لم يكتف بأن أمر بحذف أكثر من مائة صفحة من طبعة باريس، بل إنه عدا على النسخة التي أرسلها إلى السيِّدة « دي بومبادور » - من الطبعة الجيدة - بطريقة جديرة بأن تسمى انتهاكًا للأمانة. فلقد قيل في سياق ذلك الكتاب، إن زوجة الفحَّام أجدر بالاحترام من عشيقة أمير. وإني لأقسم على أن هذه العبارة قد عرضت لي في سياق التأليف، دون أن يُقصد بها أحد. وقد تبينت - عندما أعدت قراءة الكتاب - أن الخواطر قد تتجه إلى شخص بالذات. غير أنني لم أشأ أن أحذف هذه العبارة، جريًا على مبدئى الصلب المتعنت، من عدم حذف أي شيء مراعاة لأي تأويل قد يُحمل على محمله، ما دام ضميري شاهدًا على أنني لم أكن أقصد به ذلك التأويل عندما كتبته!.. واكتفيت بأن أبدلت كلمة « ملك » - التي كنت قد كتبتها في بادىء الأمر - بكلمة « أمير »!

ولم يرض هذا التعديل السيِّد دى ماليزيرب - على ما بدا - فحذف العبارة تمامًا في طبعة جديدة للصفحة في ورقة مستقلة، ألصقها في عناية تامة على الصفحة الأصلية، في النسخة الموجّهة إلى السيِّدة دى بومبادور. على أنها لم تجهل هذه الحيلة من حيل التعمية، فقد وجدت بعض نفوس « طيبة! » أطلعتها عليها. أما أنا، فلم أعلم بها إلا بعد زمن طويل، عندما شرعت أحس آثارها!

أو ليس هذا - بدوره - أصل كراهية مستترة ، ولكنها مريرة، من سيدة أخرى كانت في وضع مشابه[58]، وإن لم أعرف عنه شيئًا، بل ولا كنت قد عرفتها هي عندما كتبت هذه الفقرة!.. ولقد تمّ تعارفي بها عندما نُشر الكتاب، فشعرت بكثير من القلق وعدم الارتياح، وأعربت عن ذلك للشيفالييه دى لورنزي، الذي ضحك ساخرًا، وأكَّد لى أن هذه السيِّدة لم تُمس بما يجرح كرامتها في شيء، بل إنها لم تنتبه إلى الأمر. ولقد صدّقت قوله، ولعلني كنت متلهفًا بعض الشيء عليه، فاستعدت طمأنينتي في وقت لم يكن من الملائم لى أن أطمئن فيه!

وتلقيت مع مقدم الشتاء، دليلًا جديدًا على كرم السيِّد دى ماليزيرب، قدّرته كل التقدير، وإن لم أر من الحكمة أن أنتفع به. فلقد كان ثمة منصب خال في صحيفة العلماء، « جورنال ديه سافان »، وقد كتب لى « مارجينسي » يعرض هذا المنصب عليَّ، وكأنه كان يفعل ذلك بدافع من نفسه، بيد أنه كان من اليسير عليَّ أن أرى من أسلوب خطابه (الملف « جـ » رقم 33) أنه كان يعمل بأوامر من سلطة فوقه.. بل إنه أوحى إليَّ بنفسه، في خطاب تال (الملف « جـ » - رقم 47) أنه كان مكلّفًا بأن يعرض عليَّ المنصب. وكان العمل بسيطًا، يتألّف من قطعتين تستخلصان شهريًا من كتب تُرسل إليَّ، ومن ثم فلن أكون بحاجة قط إلى أن أذهب إلى باريس، ولو في زيارة للمسئول، أقدّم فيها شكرى. ولقد مهّد لي هذا المنصب سبيل دخول مجتمع أدباء الطبقة الأولى، السادة: ميران، وكليرو، ودي جييني،

والراهب بارتليمي. وقد كنت على تعارف سابق بالأولين، فتطلعت في غبطة إلى التعرّف بالأخيران.

وفوق كل ذلك، كان لي أن أتقاضى عن هذا العمل غير المرهق - الذي كان من السهل عليَّ أداؤه - مكافأة قدرها ثمانمائة فرنك، مخصصة لهذا المنصب.. وفكرت بضع ساعات، قبل أن أنتهى إلى قرار. وبوسعي أن أقسم بأن ترددي ما كان راجعًا إلّا إلى الخوف من إغضاب مارجينسي، وعدم إرضاء السيِّد دى ماليزيرب. على أن الضيق - الذي لم أقو على مقاومته - من عدم تمكنى من العمل في الوقت الذي يحلو لي، واضطراري إلى أن أكون مقيدًا بمواعيد معينة، ثم تأكدي من عدم إجادتي للأعمال التي أكون مجبرًا على أدائها.. كل هذه تحالفت وتغلبت - في النهاية - على كل اعتبار آخر، وحملتني على أن أقرِّر رفض منصب لم أكن مهيأ له!. فلقد كنت أعرف أن نبوغي لم يكن يأتي إلا عن نوع معين من الاهتمام المشبوب بالموضوعات التي أرى علاجها، وأنه لم يكن ثمة ما هو أقوى - على إذكاء عبقريتي - من حب كل ما هو عظيم، وكل ما هو صادق وحقيقي، وكل ما هو جميل!.. فما قيمة الموضوعات التي كان عليَّ أن أستخلصها من أغلب الكتب.. بل ما قيمة هذه الكتب ذاتها لديَّ؟.. كان عدم اكتراثي بكل هذا كفيلًا بأن يجمد قلمي، وأن يلبد ذهنى!.. لقد ظنّوا أن بوسعي أن أكتب بحكم المهنة فحسب - ككل الأدباء الآخرين - في حين أنني لم أكن قط أملك أن أكتب إلّا عن إيحاء وإلهام!.. ويقينًا أن هذا لم يكن بالمادة اللازمة لصحيفة العلماء. ومن ثم فإنني كتبت إلى مارجينسي رسالة شكرته فيها، وشرحت له - في أكثر ما وسعنى من أدب - أسباب رفضي بالتفصيل، حتى لا يكون له - أو للسيِّد دي ماليزرب - أن يظن أن لسوء الطبع، أو للغرور أثرًا في هذا الرفض. ولقد أقرَّني كلاهما على ما ذهبت إليه، دون أن يؤثر ذلك على ودّهما لي.. وظلّ الأمر سرًّا مصونًا، فلم يتح للرأى العام أن يعرف أتفه شيء عنه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والواقع أن هذا العرض لم يأتني في لحظة مناسبة لكي أوافق عليه، إذ أنني كنت قد اعتزمت - منذ فترة - أن أهجر الأدب هجرانًا تامًّا، بل أهجر مهنة التأليف. فإن كل الذي جرى جعلني أشمئز تمامًا من أهل الأدب، وقد ثبت لديَّ أنه كان من المستحيل أن أمضى في هذه المهنة بالذات، دون أن أتصل بهم. ولم يكن اشئمزازي من أهل المجتمع بأقل من ذلك.. بل إنني كنت قد برمت بالاختلاط الذي أقدمت عليه في الحياة عامة، سواء من ناحيتي أو من ناحية المجتمع، فإنني لم أكن مهيأ لذلك. وعلى ضوء التجارب المتواصلة، شعرت أكثر من ذي قبل، بأن كل العلاقات القائمة على غير تكافؤ أو مساواة، تكون مضرة دائمًا بالجانب الضعيف فيها. ولقد كانت معيشتي مع قوم ذوى ثراء، يمتون إلى طبقة أخرى غير التي اخترتها، دون أن أعيش على نمطهم، ومع فإنني كنت مضطرًّا إلى أن أقلدهم في كثير من الأمور.. وكانت النفقات النثرية - التي لا تعد شيئًا مذكورًا لديهم - عبءًا مرهقًا، بقدر ما كانت ضرورة لازمة!.. فإذا ما ذهب رجل لزيارة بيت في الريف، اضطلع بخدمته - سواء على المائدة، أو في مخدعه - خادمه الخاص.. فهو يرسله وراء حاجاته، دون أن يتصل اتصالًا مباشرة بخدم البيت، بل وربما دون أن يقع عليهم بصره، فلا شيء بينه وبينهم اللهم إلّا أنه يمنحهم هبة كلما طاب له ذلك.. أما أنا، فقد كنت وحيدًا، بلا خادم خاص، ومن ثم فإنني كنت تحت رحمة خدم البيت الذي أزوره، وكان من الضرورات الماسة لي أن أكسب ودّهم، إذا شئت ألّا أعاني كثيرًا من المضايقات.. ولما كنت أعامل كسيدهم، على قدم المساواة، فقد كان لزامًا عليَّ أن أعامل الخدم كما يعاملهم السيِّد، بل وأن أبدى لهم أكثر مما يبدى أى امرىء آخر، لأنني كنت - في الواقع - أكثر من سواى حاجة إلى خدماتهم!

ولم تكن هذه بالمسألة الجسيمة، في الدور التي لم يكن يوجد بها سوى نفر قليل من

الخدم.. ولكن الدور التي كنت أزورها، كانت تضم أعدادًا كبيرة منهم، كلهم أنذال مسعورون، شديدو اليقظة لمصالحهم الخاصة!. وكان الأنذال يعرفون كيف يدبِّرون خططهم، بحيث أحتاج إلى خدمات كل واحد منهم بدوره!

وكل نساء باريس - اللائي أوتين ذكاءً فائقًا - لا يصبن إطلاقًا في آرائهن بهذا الصدد، ومن ثم فقد استنزفن مواردى، في رغبتهن في الإبقاء على هذه الموارد. فإذا كنت ذاهبًا لتناول العشاء في دار لإحداهن - على مسافة قليلة من بيتي - أمرت السيِّدة بإعداد جيادها لتقلني مركبتها في عودتي، بدلًا من أن تدعني أطلب مركبة بالأجر.. وكانت تغبط لأنها توفِّر عليَّ بذلك الأربعة والعشرين « سو »، أجر العربة. دون أن يخطر ببالها شيء من « الايكو » الذي كنت أهبه خادم العربة والحوذي. ولو أن سيِّدة كتبت إليَّ من باريس، وشاءت أن تبعث برسالتها إلى (ليرميتاج) أو (مونمورنسى)، فإنها إشفاقًا عليَّ من أن أدفع الأربعة « سو » - التي كان يكلفنيها خطابها59 - كانت ترسله مع واحد من خدمها، فيأتى به سيرًا على قدميه، وهو مبلل بعرقه.. وكنت أضطر إلى أن أمنحه غداء، وأهبه « ايكو » لاشك أنه كان أهلًا لاكتسابه!.. أما إذا هي دعتني لقضاء ثمانية أيام - أو خمسة عشر - معها، في الريف، فإنها كانت تقول لنفسها: « لسوف يكون هذا توفيرًا لبعض نفقات المسكين، على أية حال!.. فهو لن يتكبد شيئًا من نفقات قوته، أثناء مقامه هنا »!.. وكانت تنسى أنني لم أكن أقوم بأي عمل - في تلك الفترة - وإننى أظل مسئولًا عن دفع إيجار مسكنى، ونفقات مَن فيه، والغسيل، والكساء.. وإنني كنت أدفع - في سبيل قص شعري وإزالة لحيتي - ضعف ما اعتدت أن أدفع.. وأن إقامتي في دارها، كانت تكبدنى فوق ما اعتدت أن أنفق في داري!

ومع أنني اقتضبت المنح البسيطة التي كنت أهبها لخدم البيوت التي اعتدت أن أنزل عليها كثيرًا، إلا أنها ظلَّت ترهق مواردي. وأعتقد أننى أنفقت ما يزيد على خمسة وعشرين « ايكو »، في دار السيِّدة دوديتو - في (أوبون) - حيث لم أنم أكثر من أربع أو خمس مرات.. وأكثر من مائة « بيستول » في (ايبيناى) و (لاشيفريت)، خلال السنوات الخمس أو الست التي اعتدت فيها أن أكون ضيفًا مترددًا على القصرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذلك أن النفقات من الأمور التي لا مفر منها لرجل في مثل حالي، لا يعرف كيف يؤدى لنفسه شيئًا، ولا كيف يستعمل ذكاءه في إنجاز شيء، ولا يستطيع - كذلك - أن يطيق رؤية وصيف يزمجر ويؤدي مهامه وهو ساخط.. بل إنني في دار السيِّدة دوبان - حيث كنت في مكانة أي فرد من أفراد الأسرة، وحيث أديت ألف خدمة للخدم - لم أحظ منهم يومًا بشيء، ما لم تكن نقودي واسطة بيننا. ومن ثم فإنني لم ألبث أن اضطررت إلى أن أتخلى نهائيًا عن هذه المنح الضئيلة، التي لم يعد مركزئ يسمح لي بانفاقها.. وإذ ذاك فقط، شعرت - أكثر من ذي قبل ـ بمضار الاختلاط بمن ينتمون إلى غير طبقة المرء!

أضف إلى هذا، أننى لو استمرأت هذه الحياة، لشعرت بعزاء عن هذه النفقات الباهظة، إذ أنها تكون - إذ ذاك - ثمنًا لمسرّاتي. ولكن الإفلاس الذي لا يأتي بغير المضايقة، أمر يفوق كل احتمال. ولقد اشتدّ شعورى بوطأة هذا المسلك من مسالك الحياة، حتى أنني انتهزت فرصة تلك الفترة من التحرّر، التي كنت أحظى بها - إذ ذاك - فعقدت العزم على أن أجعلها دائمة، بأن أنبذ - نبذًا تامًا - المجتمع الراقي، وتأليف الكتب، وكل صلة بالأدب، وأن أعتكف - ما بقي لي من أيام في الحياة - في ذلك النطاق الضيق، الوادع، الهاديء، الذي كنت أشعر بأنني خُلقت من أجله!

ولقد أدّت أرباح الكتاب الذي ضمنته مقالي « رسالة إلى داليمبير »، وكتاب « هيلويز الجديدة » إلى زيادة لا بأس بها، في مواردي التي كانت قد اعتصرت في (ليرميتاج). فقد رأيت أمامي حوالي ألف « ايكو ». وكنت قد تقدَّمت كثيرًا في تأليف كتاب « اميل »، الذي

قصرت عليه اهتمامي بعد أن فرغت من « هيلويز »، وكان دخله جديرًا بأن يضاعف هذا المبلغ، على الأقل. ومن ثم فقد فكّرت في مشروع لاستثمار هذا الرصيد بطريقة تجلب عليَّ إيرادًا صغيرًا يكفي - إذا ضُم إلى ما تدره عليَّ أعمال النسخ - لأن يوفّر معاشى دون ما حاجة إلى المضي في الكتابة. كذلك كان لديَّ كتابان مؤجلان، أوَّلهما « المذاهب السياسية ».. ولقد درست حال هذا الكتاب، فوجدت أنه ما يزال يتطلَّب عدّة سنوات من العمل. ولم تكن لديَّ جرأة على المضي فيه، وأن أنتظر إلى أن يتم، قبل أن أنفذ ما اعتزمت. ومن ثم فإنني عدلت عنه، وقررت أن أستخلص منه ما يسعني استخلاصه، ثم أحرق ما يزيد.. وإذ انهمكت في هذا العمل بكل قوة، دون أن أقطع استرسالى في « اميل »، قُدِّر لي أن أضع - في أقل من عامين - العبارات الأخيرة لكتاب « العقد الاجتماعي »![60]

وبقي « قاموس الموسيقى » - أو « الموسوعة الموسيقية » - وكان العمل فيها مجرَّد جهد آلى، يمكن القيام به في أي وقت، ولم أقدم عليه إلا طلبًا للنقود فحسب. وقد احتفظت لنفسي بحق نبذه، أو إتمامه متى شئت، وفقًا لما إذا كانت مواردى الأخرى توحي بأن دخله ضروري، أو أنه فائض عن الحاجة. أما كتاب « الأخلاق في الشئون الحسية » ـ الذي كنت قد وضعت خطوطه الأولى ـ فقد نبذته نهائيًا!

وكنت أعول على مشروع أخيرًا، إذا ما قُدِّر لي أن أستغنى عن أعمال النسخ.. ذلك هو أن أوغل في الابتعاد عن (باريس)، حيث كان سيل الزائرين يجعل نفقات معيشتي فادحة، ويحرمني من الوقت لزيارتها.. ولكي أدفع عني في عزلتي شعور الملل - الذي يُقال إنه يعدو على المؤلف، إذا هو ألقى قلمه جانبًا - احتفظت لنفسي بعمل كفيل بأن يملأ الفراغ في وحدتى، دون أن يستدرجني إلى الانسياق لإغراء نشر أي جديد، خلال ما تبقى من عمرى. فما كنت أدرى أية نزوة تملكت « ريه »، فراح - منذ زمن طويل - يستحثنى على كتابة ذكريات حياتي. ومع أن هذه الذكريات لم تكن - حتى ذاك الحين - مشوقة، من حيث الأحداث، إلا أنني شعرت بأن من الممكن أن أجعلها مشوقة، بفضل الروح التي أتناول بها الموضوع. ومن ثم صممت على أن أجعلها عملًا فريدًا في نوعه، بأن أكتبها بصدق لا مثيل له، حتى يتسنى - ولو مرة واحدة - أن يرى الناس رجلًا على حقيقته، كما يرى دخيلة نفسه!

ولقد اعتدت دائمًا أن أسخر من سذاجة « مونتانى » التي غررت به، فجعلته يعنى عناية فائقة بألّا ينسب إلى نفسه إلّا كل مستحب، في حين أنه كان يتظاهر بالاعتراف بعيوبه.. أما أنا - الذي اعتدت أن أعتقد دائما أننى، من كافة الاعتبارات، خير الرجال - فقد شعرت بأنه ما من قلب بشرى، مهما يكن نقيًا، إلا ويطوى بين جوانحه عيبًا ذميمًا. ولقد كنت أدرك أنني صُوّرت للناس في صورة تخالف تمامًا صورتي الحقيقية، بل وتبدو في بعض الأحيان مشوهة، حتى أنني - برغم السوء الذي لا أبتغى إخفاءه قط - لن أبوء إلا بالكسب، إذا أطلعت الناس على حقيقة نفسي!.. وإلى جانب هذا، فما كان من الميسور أن أكشف نفسي، دون أن أكشف الآخرين على حقيقتهم. ومن ثم فإنه لم يكن في الوسع نشر هذا المؤلَّف، إلا بعد وفاتي، ووفاة كثيرين غيري. ولقد زادني هذا قوة على الاقدام على تسجيل اعترافاتي، التي لن يقدَّر لي أن أخجل منها أمام إنسان. ولهذا فقد عولت على أن أخصص أوقات فراغي للمضي في تنفيذ هذا المشروع، وبدأت أجمع الرسائل والأوراق التي قد ترشد ذاكرتي أو تعينها، والأسف يملأ نفسى حسرة على كل ما كنت قد مزقته، أو أحرقته، أو أضعته حتى ذلك الوقت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد كان لمشروع الاعتكاف التام - وهو من أحكم المشروعات التي خطرت لي - أثر قوى على ذهني، وكنت قد شرعت في تنفيذه، عندما ألقت بي السماء - التي كانت تعد لى

مصيرًا آخر - في دوامة جديدة!

ذلك أن إقليم (مونمورنسى)، الميراث العريق الفخم - الذي كانت تتوارثه الأسرة، صاحبة هذا الاسم - لم يعد ملكًا لهذه الأسرة، مذ صودر. وكان قد آل ـ بزواج أخت الدوق هنرى - إلى أسرة « كونديه »، التي أبدلت اسم (مونمورنسى) باسم (انجيان). ولم يكن لهذه الدوقيـة من قصر سـوى حصن قديم، تُحفظ فيه الوثائق، ويتلقى فيه السادة أمارات الولاء. على أن ثمة بيتًا معينًـا يُرى في (مونمورنسى) - أو (انجيان) - شيده « كروازيه » - الملقب بالفقير - ويضارع في فخامته أعظم القصور، حتى ليستحق أن يسمى قصرًا.. أن المنظر المهيب لهذا المبنى البديع، والمرتفع الذي يقوم عليه، والمنظر الذي يشرف عليـه، والذي قد يكون له شبيه في العالم، وقاعة الاستقبال الرحبة فيه، التي ازدانت برسوم يد حاذقة، وحدائقه التي غرسها « لونوستر » الذائع الصيت.. كل هذه تؤلّف وحدة شاملة، ذات جلال باهر، يمثل ـ في الوقت ذاته ـ بساطة لا أدرى مبعثها، ولكنها توحي بإعجاب باق!

ولقد اعتاد السيِّد المارشال دوق دي لوكسمبورج - الذي كان يشغل هذا البيت، في ذلك الحين - أن يفد في كل عام مرتين إلى هذا الاقليم الذي كان آباؤه وأجداده سادة له فيما مضى، فيقضى خمسة أسابيع أو ستة، كأي ساكن عادى، ولكن في أبهة لا تقل رواء عما للبيت من روعة عريقـة!.. وفى أوَّل رحلة جـاء فيهـا، بعد أن استقر بي المقام في (مونمورنسى)، أوفد إليّ وصيفًا يحمل تحيات السيِّد المارشال والسيِّدة زوجته، ودعوة إلى تناول العشاء معهما، عندما يروق لي ذلك!

وما من مرة جاءا فيها وأهملا إرسال التحيات ذاتها، والدعوة عينها. وقد ذكرني هذا بالسيِّدة دي بوزينفال حين همَّت أن ترسلني لتناول الغداء مع الخدم61. ولقد تغيَّر الزمن، ولكنني بقيت على حالي. ولم أكن راغبًا البتة في أن أُرسـل لتناول الغداء في قاعة الخدم، كمـا أنني لم أكن أحفل كثيرًا بموائد العظماء. وقد كنت أوثر لو أنهم تركوني في حالي، دون أن يكرموني، ودون أن يحقروني. ومن ثم فقد رددت في أدب و احترام على مجاملات السيِّد والسيِّدة « دى لوكسمبورج »، غير أنني لم أقبل قط دعوتهما. فإن صحتى المعتلة - فضلًا عن خجلى وتهيبي الطبيعيين - كانت تجعلني أقشعر لمجـرَّد التفكير في أن أظهر في جمع من أعضاء البلاط الملكي.. بل أنني لم أذهب إلى القصر في زيارة للشكر والتحيـة، برغم أننى أدركت كل الإدراك، أن هذا ما كان يُبتغى منى، وأن كل هذا الإلحاح لم يكن صادرًا عن كرم وتلطف، بقدر ما كان صادرا عن فضول!

على أنهما واصلا مجاملاتهما، بل وراحا يضاعفانها. وكانت السيِّدة كونتة دى بوفلير - التي كانت وثيقة الصلة بالسيِّدة المارشالة - قد جاءت إلى (مونمورنسى)، فأرسلت تسأل عني، وعما إذا كان لها أن تزورني، وأجبت كما كان ينبغى أن أجيب، ولكني لم أحرّك ساكنًا. وفي خلال رحلة عيد الفصح من السنة التالية - 1759 - زارني مرارًا الشيفالييه دى لورنزي، الذي كان ينتمي إلى حاشية السيِّد الأمير دى كونتي، وإلى ندوة السيِّدة دى لوكمسبورج. ولقد توثقت المعرفة بيننا، فراح يلح عليّ بالذهاب إلى القصر. ولكني أبيت!

وأخيرًا، وفي أصيل ذات يوم، رأيت السيِّد المارشال دى لوكسمبورج، وكان آخر مَن توقعت رؤيتـه.. وكان يقترب وفي معيته خمسة أشخاص أو ستة. ولم يبق لي من وسيلة للتهرب، وما كنت أملك أن أتحاشاه. كما أنني لم أكن أملك أن أتفادى رد زيارته، وتقديم آيـات احترامي للسيِّدة المارشالة - التي أغرقتني بما حمله إليّ من مظاهر تفضلها - وإلا اعتبرت متغطرسًا سيء التربية.

وهكذا بدأت - تحت أنحس الطوالع - علاقة لم يكن بوسعي أن أتهرب منها أطول مما فعلت.. وإن كان شعورًا عميق الجذور، قد أوحى إليّ بالتوجس مما أقحمت عليه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت في خوف بالغ من السيِّدة دى لوكسمبورج، فلقد كنت أعلم أنها لطيفة مليحة، وقد رأيتها مرارًا في المسرح، وفي دار السيِّدة دوبان، قبل عشر أو اثنتي عشرة سنة، حين كانت تُلقب بدوقة دى بوفلير، وهي بعد تتلألأ في طلائع أضواء جمالها. ولكنها عُرفت بالخبث وسوء السيرة، وكانت هذه السمعة لسيدة في مثل مكانتها العظيمة، تثير ارتعادي!

وما أن رأيتها، حتى وقعت أسيرها. فقد ألفيتها ساحرة.. أوتيت ذلك السحر الذي لا يعدو عليه الزمن، والذي خُلق لكي يفتك بفؤادي!.. وكنت أتوقع أن أجد حديثها ساخرًا، مليئًا بالتوريات. ولكنه لم يكن كذلك، بل كان أفضل من ذلك بكثير. ذلك لأن حديث السيِّدة دى لوكسمبورج لا يتألق بالذكاء، ولا يكشف عن سمو الروح، كما أنه لا ينم عن رقة مهذبة بمعنى الكلمة، ولكنه مفعم بالفكاهة التي لا تؤذي إطلاقًا، ولكنها تبهج السامع دائمًا!.. وكانت مجاملاتها وعباراتها المتملقة تعبث بالنفوس، بقدر ما هي بسيطة، توحى بأنها إنما كانت تتساقط من بين شفتيها دون تفكير منها، وكأنها فورات قلب مترع!.. وخُيل إلىَّ أننى لمحت - خلال زيارتي الأولى - أنها استطابت مجلسى، برغم انطوائي، وثقل عباراتى.. ولقد كانت كل سيدات البلاط يحذقن إحداث هذا الأثر - سواء كن في ذلك صادقات، أو مصطنعات - عندما يحلو لهن ولكنهن جميعًا لم يكن يحذقن إحداثه بالطريقة الفاتنة التي كانت تجيدها السيِّدة دى لوكسمبورج، فلا يقوى المرء على أن يرتاب في صدقها!

ولقد كان من المحتمل أن تصل ثقتي بها إلى الكمال، منذ اليوم الأوَّل - كما صارت بعد ذلك بوقت قصير - لولا أن السيِّدة الدوقة دى مونمورسى، زوجة ابنها، كانت على شيء من الحقد، وكانت - فيما أعتقد - شابة رعناء، مشاكسة، عقدت عزمها على أن تهاجمنى، حتى جعلتنى - وسط مجاملات حماتها ومغازلاتها - أعتقد أنهما إنما كانتا تسخران منى!

ولعلني كنت خليقًا بأن أجد ارتياحًا، نظرًا لهذا التوجس الذي داخلني نحو السيِّدتين، لولا أن الكرم البالغ الدافق من السيِّد المارشال، أقنعني بأن ودهما كان صادقًا. ولم يكن ثمة ما هو أدعى للعجب - إذا ما نظرنا إلى طبيعتي الخجول - من مبادرتي إلى أخذ السيِّد المارشال بكلمته، من حيث المساواة التي أرادني على أن أكون عليها معه.. ليس أعجب من هذا، سوى مبادرته إلى احترام رغبتي في الاستقلال التام الذي أردت أن أعيش فيه. ومن ثم فإنه والسيِّدة دى لوكسمبورج لم يبديا أي قلق - ولو للحظة واحدة - بصدد مواردى وأسباب عيشى، اقتناعًا منهما بأنني كنت على صواب في أن أكون قانعًا بمركزي، غير راغب في أي تغيير!.. فمع أنني لم أكن أملك أن أرتاب في الاهتمام العطوف الذي كانا يبديانه نحوى، إلا أنهما لم يعرضا قط أن يسعيا لإيجاد منصب لى، أو أن يساعداني بنفوذهما، اللهم إلا مرة واحدة، عندما أبدت السيِّدة دى لوكسمبورج رغبة في أن أدخل المحفل الفرنسي، « الأكاديمية فرانسيز ».. ولقد أشرت إلى أن عقيدتى الدينية تقوم دون ذلك، فقالت إن هذه لم تكن عقبة تُذكر، وإلا فإنها تتكفل بإزاحتها، إذا كانت كذلك!.. وأجبت بأنه برغم الشرف الذي يضفيه علىَّ انتمائي إلى مثل هذه الهيئة الموقرة، فإنني - بعد رفضى دعوة السيِّدة دي تريستان، وملك بولندا، بطريقة ما، أن أنضم إلى محفل نانسى - لا أستطيع أن أقبل عضوية أي محفل آخر، وأنا مرتاح في الضمير. ولم تحاول السيِّدة دى لوكسمبورج أن تمضى في الالحاح، ولا دار أي حديث في هذا الصدد، بعد ذلك!

هذه البساطة في الصلات مع مثل هؤلاء السادة العظام، الذين كان في وسعهم أن يضفوا على المآثر - إذ كان السيِّد دى لوكسمبورج صديقًا شخصيًا للملك، عن جدارة - تتناقض تمامًا، وبشكل عجيب، مع الاهتمام المستمر - الذي لم يكن أقل مضايقة مما هو اصطناعيًا ورياءً - الذي كان يبديه أولئك الأصدقاء الذين هجرتهم، والذين كانوا يتظاهرون برعايتى، ويسعون إلى استذلالي، أكثر مما كانوا يسعون إلى خدمتي!

وعندما زارني السيِّد المارشال في (مون - لوي)، استقبلته وحاشيته في غرفتي الوحيدة، وأنا محرج.. لا لأنني كنت مضطرًّا إلى أن أدعوه إلى الجلوس وسط صحافي القذرة وأوانيَّ المهشمة، وإنما لأن أرض الحجرة كانت متداعيـة، متساقطة، وقد خشيت أن يؤدي ثقل مرافقيه إلى انهيارها. وما خشيت على نفسي من الخطر، وإنما خشيت على هذا السيِّد الجليل مما كان تواضعه يعرّضه له، فعملت على التعجيل بإبعاده عن الحجرة، إذ اقتدته - برغم الجو الذي كان شديد البرد - إلى شرفتي التي كانت في مهب الريـاح، ولم تكن بها مدفأة ما!.. وما أن صرنا هناك، حتى أطلعته على السبب الذي اقتدته من أجله إلى المكان، فرواه بدوره إلى السيِّدة المارشالة، وألحفا معًا في حملي على الإقامة في القصر - ريثما يتم إصلاح أرض الحجرة ـ أو في مبنى ملحق بالقصر، وسط المتنزه، يُطلق عليه اسم « القصر الصغير »، إن شئت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهـذا المسكن الفاتن جدير بالحديث.. ذلك أن متنـزه، أو حديقة (مونمورنسى) لم تكن في مستوى واحـد، كحديقة (لاشيفريت)، فهي تل غير مستو، تتناثر فيـه المرتفعات والمنخفضات، التي استغلها الفنان الماهر، ليخلق سلسلة من المتنوعات: من أحراش، ومياه، وزخارف، ومناظر متباينة، وليضاعف - كما ينبغي أن يُقال - المساحة المحدودة، في نظر الرائي. ويتوج هذا المتنزه، شرفة يعلوها القصر.. أما في طرفه الأدنى، فإنه يؤلف مضيقًا لا يلبث أن ينفتح ويتسع، في اتجاه الوادي، وتمتد في زاويته صفحة شاسعة من المـاء. وبين بساتين البرتقال - التي ملأ المساحة التي يتسع عندها المضيق - والماء، وفي وسط كثبان تزينها الأحراش والأشجار، يقوم « القصر الصغير » الذي أشرت إليه!

ولقد كان هذا المبنى، والأراضي المحيطة به، ملك للوبرون الشهير62، من قبل، وقد جعل من إنشاء هذا المبنى وتزيينه ملهاة له، وأقبل على ذلك بأفخم فنون العمارة والزخرفة، اللذين برز هذا الرسّام العظيم فيهما. ولقد أعيد بناء هـذا القصر فيما بعد، ولكن التصميمات التي وضعها صاحبه الأوّل، روعيت عند التجديد. وهو قصر صغير، وبسيط، ولكنـه أنيق. ولما كان يقوم بين خزان رى بستان البرتقال، وبين المساحة المائية الشاسعة، فقد كان معرَّضًا للرطوبة، ومن ثم فقد كان يخترقه في وسط، رواق مكشوف (منور)، بين طبقتين من الأعمدة، فكان الهواء الجاري في المبنى كله، يتخفف من رطوبته في ذلك الرواق. وعندما ينظر المرء إلى المبنى من علٍ - من زاوية الجانب المقابل - يراه محوطًا تمامًا بالمـاء، فكأنه جزيرة مسحورة، أو كأنه أبدع جزر (بوروميه) الثلاث - جزيرة (ايسولابيلا) - في بحيرة (ماجيوري).

في هذا المبنى المنعزل، تُرك لى حق اختيار أحد الأجنحة الأربعة الكاملة، التي كان يضمها، فضلًا عن الطابق الأرضى، الذي كان يتألّف من قاعة للرقص، وأخرى للبلياردو، ومطبخ. وقد اخترت أصغر الأجنحة وأبسطها، وهو الذي كان يعلو المطبخ، الذي سُمح لي باستخدامه. وكان الجناح بديعًا، نظيفًا ذا أثاث يشيع فيه اللونان الأزرق والأبيض. وفي هذه العزلة العميقة، البهيجة - وسط الغابات والمياه، وعلى شقشقة الطيور من كل نوع، محوطًا بعبير زهور البرتقال - وضعت الجزء الخامس من « أميل »، وأنا شبه ثمل.. ومن ثم فإن اللون الجديد الذي يبدو فيه الشطر الأكبر منه، يرجع في الواقع إلى الأثر الفعَّال الذي عكسه الوسط الذي كنت أكتبه فيه!

لكم كنت أهرع ملهوفًا - عند بزوغ الشمس، في الصباح - كي أتنسم الهـواء العبق في الرواق!.. وما أحلى القهـوة الممزوجة باللبن، التي كنت أتناولها مع « تيريز » هناك!. وكانت قطتى وكلبي يؤنساننا. وكانت هذه الصحبة وحدها، كافية لإيناسي طيلة حياتي، فما كنت معها لأشعر بلحظة من الملل!.. كنت في جنة أرضية، وقد عشت هناك في حال من

السذاجة والبراءة، ورحت أنعم بالسعادة!

ولقد أبدى لي السيِّد والسيِّدة دى لوكسمبورج، خـلال الزيارة التي قاما بها في شهر يوليو، كثيرًا من ألوان الرعاية، وعاملاني في كـرم بالغ، حتى إننى - وقـد كنت أعيش في رحابهما، مغمورًا بمجاملاتهما - لم أكن أملك ما أجازيهما به، سوى أن أكثر من ترددى عليهما. فأصبحت لا أكاد أفارقهما إطلاقًا: إذ كنت أذهب في الصباح، لأقدم تحياتي إلى السيِّدة المارشالة.. وبعد أن أتناول غدائي هناك، كنت أتمشى، إبان الأصيل، مع السيِّد المارشال.. ولكني لم أكن أمكث للعشاء، إذ كانا يدعوان إلى مائدتهما دائمًا عددًا من علية القوم، فضلًا عن أنهما كانا يتناولان العشاء في ساعة متأخرة بالنسبة لي.. وإلى ذلك الوقت، كان كل شيء يمضى مواتيًا، وما كان ليقع شيء من الضر، وإنني عرفت كيف أدع الأمور تجري في أعنتها. ولكني لم أكن يومًا بقادر على أن أنهج منهجًا وسطًا في علاقاتي الودية، ولا استطعت يومًا أن أكتفى بأن أؤدي واجباتى نحو المجتمع، وإنما كنت دائمًا أنشد أحـد أمرين: إما كل شيء، أو لا شيء!.. وما أن أظفر بكل شيء، وأرى نفسي مكرَّمًا مدللًا لدى قوم من ذوى الجاه، حتى أتجاوز الحدود، فتتملكني نحوهم صداقة لا تباح عادة إلا بين الأنداد المتعادلين. وكنت أكشف أنها بالألفة المتحرّرة من الكلفة، في حين أنهم لم يكونوا - من ناحيتهم - يتخلّون عن آداب اللياقة التي نشأوا عليها وتعودوها. ومع ذلك، فإننى لم أشعر يومًا بأنني متحرِّر على سجيتي، مع السيِّدة المارشالة! ومع أنني لم أكن مطمئنًا كل الاطمئنان إلى شخصيتها، إلا أنني لم أكن أخشاها بقدر ما كنت أخشى عقلها.. وهذا وحده ما كان يكبح جماحي. فلقد كنت أعرف أن إرضاءها في الحديث صعب، وكان من حقها أن تكون كذلك. إذ كنت أدرك أن النساء - وسيدات الطبقة الرفيعة منهن، بوجه خاص - كن لا يشتهين من الحديث سوى التسلية والترويح، وأنهن يؤثرن التجريح على الإملال!.. وقد حدست - من ملاحظات السيِّدة دى لوكسمبورج على أحاديث الذين كانوا ينصرفون من لدنها - ما كان قـد خامرها ولا بد بصدد أحاديثي السخيفة. ومن ثم فإنني فكرت في حيلة لأعفى نفسي من حرج الحديث إليها.. تلك هي أن أقرأ عليها!. وكانت قد سمعت عن « جولي »، وعرفت أنها طُبعت، فأبدت شوقًا إلى رؤية هـذا الكتاب. وإذ ذاك عرضت عليها أن أقرأه لها، فوافقت.

وأصبحت أذهب إليها في الساعة العاشرة من كل صباح، ولا يلبث أن يأتي السيِّد دي لوكسمبورج، ويغلق الباب. وأروح أقرأ إلى جوار فراشها. وقد قسمت جلسات القراءة تقسيمًا دقيقًا، بحيث تدوم طيلة بقائها..



ح أقرأ إلى جوار فراشها . وقد قسمت جلسات القراءة تقسيما دقيقا ، بحيث تدوم طيلة بقائها ..

لو أنها لم تقطع حبل إقامتها، إذ أدّى خسران معركة كبرى، إلى استياء الملك فاضطر السيِّد دي لوكسمبورج إلى المبادرة بالعودة إلى البلاط. ولقد فاق نجاح هذه الحيلة كل ما توقعت، إذ استولى على السيِّدة دى لوكسمبورج شغف طاغ بـ « جولى » وبمؤلفها. فأصبحت لا تتكلم إلا عنى، ولا تفكر إلا فيَّ طيلة اليوم، وتعانقنى عشر مرات في النهار، وأصرَّت على أن أجلس باستمرار إلى مائدتها، وكانت ـ إذا حاول أي واحد من كبار السادة أن يحتل مكاني - تخبرهم أن ذاك مقعدى، وتحملهم على الجلوس في أماكن أخرى!

ومن السهل تصور الأثر الذي خلفته هذه التصرفات الساحرة، في نفسي، أنا الذي كانت تستعبدنى أبسط مظاهر العاطفة. فإذا بي أغدو شديد التعلق بها، بقدر ما كانت هي تبدى لي من ميل. وكان المصدر الأوحد لخوفى ـ حين فطنت إلى هذا الهيام - هو شعورى بأنني لم أكن مستملحًا إلى الدرجة التي تستبقيه حيًا، ومن ثم فإنه قد ينقلب إلى كراهيـة.. ولقد كان هذا الخوف ـ لسوء حظى - قائمًا على أسس سليمة جدًّا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولابد أن ثمة تعارضًا كان قائمًا بين اتجاه عقلها واتجاه عقلى.. فبغض النظر عن كثير من الهذيان الأحمق الذي كان يفلت مني في كل لحظة من لحظات أحاديثنا، بل وبغض النظر عن خطاباتي.. كانت ثمة أشياء تكدرها، حتى في خير أوقات صفائي معها، دون أن يقدّر لي أن أحدس سببها. ولن أذكر هنا سوى مثال واحد، وإن كنت أستطيع أن أذكر عشرين!.. فلقد عرفت أنني كنت أعد للسيّدة دوديتو نسخة من « هيلويز » تكلفت كل صفحة منها مبلغًا كبيرًا، فرغبت في أن أعد لها نسخة على الأسس ذاتها. ووعدتها بأن أفعل، ومن ثم وضعتها في قائمة عملائي، وكتبت لها بضعة سطور رقيقـة وصريحة، أو هكذا كانت نيتي، على الأقل، وإذا بي أتلقى الرد التالي، الذي أدهشني كل الدهشـة (الملف « جـ » رقم 43):

« فرساى: هذا الثلاثاء:

« إني لمغتبطة، وإني لراضية.. ولقد أدخل خطابك على نفسى سرورًا لا حد له، وإني لأبادر إلى أن أعلنك بذلك، وإلى أن أشكرك من أجله.

« هاك نص تعبيرك في خطابك: « بالرغم من أنكِ عميلة جد طيبة حقًّا، فإنني أجد بعض صعوبة في قبول نقودك. والأحرى أن يكون عليَّ أن أدفع ثمن المتعة التي سأحظى بها إذ أعمل من أجلكِ ». ولن أذكر هذا الموضوع مرة أخرى!

« يؤسفني ويقلقني أنك لا تحدثني قط عن صحتك، فليس ثمة ما يهمني أكثر منها. إنني أحبـك من كل قلبي.. وأنه ـ كما أؤكد لك - لأمر محزن حقًّا أن أطلعك على هذا، إذ إنني كنت أؤثر أن أحظى بغبطة قوله لك بلساني!

« إن السيِّد دي لوكسمبورج يحبـك، ويقبلك من كل فؤاده! ».

وما أن استلمت هذا الخطاب، حتى سارعت إلى الإجابة عنه ـ قبل أن أفحصه فحصًا مليًّا - لأحتج ضد التأويل غير اللائق. وبعد أن عكفت عدة أيام على هذا الفحص، في قلق يسهل تصور مداه، ودون أن أفقه شيئًا من الأمر، وجدتني في النهاية أكتب ردي النهائي بهذا الصدد:

« مونمورنسى: 8 ديسمبر 1759

« فحصت الفقرة التي ترجمت إليها خطابي، مائة مرة ومرة، منذ رسالتي الأخيرة. ولقد تأملتها من حيث معناها الطبيعي الصحيح، وتدبرتها على ضوء كل معنى يمكن أن تحمله، وإني لأعترف، يا سيّدتي المارشالة، بأنني لم أعد أدرى ما إذا كنت أنا الذي يدين لكِ

بالاعتذارات، أو أنه يجدر بكِ أن تكوني أنتِ المدينة بها لى ».

ولقد انقضت الآن عشر سنوات مذ كتبت هذه الرسائل. وكم من مرة فكرت فيها، منذ ذلك الحين.. وما أزال ـ حتى في يومي هـذا - في غباء من هـذا الموضوع، حتى إننى لم أستطع أن أفهم ما الذي يحتمل أن تكون قد وجدته في تلك الفقرة.. ولن أقول إنها وجدت شيئًا ماسًـا، ولكنه من المحتمل أن يكون مكدرًا.

أما عن النسخة المخطوطة من « هيلويز »، التي رغبت السيِّدة دي لوكسمبورج في أن تقتنيها، فخليق بي أن أذكر هنا ما كنت قد عزمت على أن أفعله، لكي أضفى عليها امتيازًا خاصًا، دون بقية النسخ جميعًا. ذلك أنني كنت قد كتبت مغامرات اللورد إدوارد مستقلة، وكنت قـد ظللت طويـلًا مترددًا، لا أقطع بما إذا كنت أضمها - سواء كاملة، أو بعض فقرات منها - إلى هذا الكتاب، الذي كانت تلوح أنها غير متمشية معها. ولقد قرَّرت في النهاية، أن أحذفها كلها، لأن عدم اتساقها مع أسلوب بقية الكتاب، كان كفيلًا بأن يفسـد بساطته المؤثرة. ثم وجدت سببًا أقوى، عندما تعرَّفت إلى السيِّدة دي لوكسمبورج. فلقد كانت في تلك المغامرات مركيزة رومانية ذات شخصية بالغة التهتك. وكان من الممكن أن يحاول بعض مَن كانوا لا يعيرون السيِّدة المارشالة إلَّا بسمعتها، أن يربطوا بين صفاتها وبين صفات تلك المركيزة، بالرغم من أنه لم تكن ثمة علاقة بين الاثنتين.. لذلك غبطت نفسي على القرار الذي اتخذته، وآليت أن أتشبث به. ولكنني في رغبتي العارمة في أن أزيد من قيمة نسخة السيِّدة دي لوكسمبورج بشئ لم تتضمنه النسخ الأخرى.. ألم يكن يحسن بي أن أتذكر هذه المغامرات المشئومة، وأن أرسم خطة لكي أستخلص شيئًا منها أضيفه إلى النسخة؟.. كان مشروعًا أخرق، لا يمكن للمرء أن يعزو الاندفاع إليه، إلَّا إلى القدر الأعمى الذي كان يجرني إلى هلاكي.

Quos Volt Perdere Jupiter, Lementat[63]

ولقد كنت من الحماقة بحيث أعددت هذا الاقتباس بكثير من العناية، وبكثير من الجهد، وأرسلتها إليها وكأنها أجمل شئ في الدنيا. وأخبرتها - في الوقت ذاته - بأنني قد أحرقت النسخة الأصلية. وهو ما كنت قد فعلته حقًّا، ومن ثم فإنها الوحيدة التي كانت تمتلك هذه القطعة ولن يُقدَّر لإنسان سواها أن يراها، إلَّا إذا أطلعته هي عليها. ولكن هذا العمل كان أبعد من أن يثبت لها حكمتي وحصافتي - كما كنت أتوقع - إذ أنه لم يوح إليها بالفكرة التى كانت قد خطرت لي، عن الشبه بين بطلة المؤلف وبينهـا، وهو ما لا بد قد أذى شعورها. على أن غبائي كان من الافراط بحيث أني لم أستشعر أي شك في أنها خليقة بأن تبهر بمـا فعلت.. ولم تمتدح لى عملى بالتحمس الذي كنت أتوقعه، بل إنها - لدهشتي البالغة - لم تتحدث إليَّ قط عن المخطوط الذي أرسلته إليها. وما حدست الأمر ـ لفرط ما كنت مغتبطًا بتصرفي - إلا بعد أمد طويل، وبسبب ظواهر أخرى، كانت مترتبة على ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما نسختها المخطوطة من الكتاب الأصلي ـ « هيلويز » - فقد واتتني فكرة أخرى بصددها، كانت أكثر حكمة من سابقتها، ولكنها كانت - في أثرها البعيد - تكاد تعادلها إساءة إليَّ. فلكم يساهم كل شيء في مساعدة القدر، عندما يدفع بإنسان إلى الشقاء!... فلقد كانت فكرتي هي أن أزين هذه النسخة المخطوطة بصور من لوحات « جولى »، التي تصادف أن كانت صفحاتها من عين حجم صفحات المخطوط. فطلبت هذه الرسوم من « كوانديه » إذ أنها كانت ملكًا لي بكل حق مشروع فضلًا عن أنني كنت قد تركت له ما درّته هـذه الرسوم من ربح، إذ أنها كانت قد لقيت رواجًا عظيمًا. على أن « كوانديه » كان أكثر خبثًا، مما كنت أنا عكس الخبث!.. وقد أدَّى إلحاحي في طلب هذه الرسوم، إلى أن يحدس الغرض الذي كنت أريدها من أجله. ثم أغراني بأن أدعهـا معه، زاعمًا أنه سينقحها وما لبث - في النهاية - أن

قدَّمها إلى السيِّدة بنفسه!.

Eg. Versiculos Feci. Tulit Alter Honores 64

ولقد أدَّى هذا إلى دخوله قصر دى لوكسمبورج، وحظوته بمكانة معينة. وكان - منذ استقراري في القصر الصغير - يكثر من زيارتى، ويختار الصباح دائمًا موعدًا لهذه الزيارة، لا سيما عندما كان يتصادف وجود السيِّد والسيِّدة دى لوكسمبورج في (مونمورنسى). وكان هذا يؤدي إلى ألّا أذهب إلى القصر إطلاقًا، لكني أقضى معه سحابة الصباح. وكنت ألام على هذا التغيب، فأذكر السبب، فأقابل بإلحاح في دعوة السيِّد « كوانديه » إلى القصر.. وقد فعلت، وكان هذا عين ما ابتغاه الوغد!.. وهكذا كان للأفضال الكريمة العارمة، التي كانت تُغدق علىَّ، أثرها الكبير في أن الكاتب الأجير لدى السيِّد « تيلوسون » والذي كان يُدعى أحيانًا إلى مائدة مخدومه - عندما لا يكون ثمة ضيف آخر يؤنس السيّد - وجد نفسه فجأة على مائدة أحد قادة فرنسا العظام، مع الأمراء، والسيِّدات الدوقات، وكل أصحاب المكانة العليا في البلاط الملكي!

ولن أنسى البتة أنه كان مضطرًا إلى العودة إلى باريس مبكرًا - ذات يوم - فقال السيِّد المارشال للحضور، عقب الغداء: « تعالوا نسر على الطريق المفضية إلى (سان ـ دنيس)، لنرافق السيِّد « كوانديه ». ولم يقو الفتى البائس على الاحتمال فدار رأسه لهذا الكرم. أما أنا، فقد اهتز قلبي، حتى أنني لم أقو على أن أنبس بكلمة واحدة. وسرت وراء القوم، وأنا أبكي كالطفل، وأموت لهفة على أن أقبل مواقع قدميّ هذا المارشال الطيب.. على أن استئناف قصة ذلك الكتاب المنسوخ، جعلني أسبق الزمن إلى هذه الواقعة. فلنعد إلى الأحداث وفقًا لنظام ورودها، بقدر ما تسمح لى ذاكرتى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد العمل في البيت الصغير في (مون ـ لوي) يفرغ، حتى فرشته بأثاث مناسب وبسيط، وعدت إلى الإقامة فيه، غير قادر على أن أنبذ ذلك القانون الذي وضعته لنفسي إذ غادرت (ليرميتاج)، وأعني به أن يكون مقامي دائمًا في مسكن أمتلكه. على أننى - مع ذلك - لم أستطع أن أقطع بالتخلي عن مسكنى في « القصر الصغير »، ومن ثم فقد ظللت محتفظًا بمفتاحه، وكنت كثيرًا ما أنام هناك - لفرط ولعي بالفطور البديع في الرواق - كما كنت أقضى فيه يومين أو ثلاثة، في بعض الأحيان، وكأنه بيت خلوى للترويح عن النفس، ولعلني كنت أحظى - في تلك الفترة - بمسكن أكثر إراحة ولياقة مما كان يحظى به أي فرد عادي في أوربا. ذلك لأن صاحب الدار التي كنت أسكنها ـ السيِّد متى، الذي كان خير رجل في الدنيا - ترك لى الإشراف الكلى على عمليات الإصلاح في (مون - لوي)، وأصر على أن أستخدم عماله وفق ما كنت أهوى دون أيِ تدخلٍ فيه. وقد وجدت ما مكنني من أن أجعل من غرفة واحدة في الطابق الأوَّل جناحًا كاملًا مؤلَّفًا من حجرة للنوم، وحجرة أخرى ملحقة بها، وخزانة كبيرة للثياب. وفي الطابق الأرضي، كان ثمة المطبخ وحجرة تيريز. أما الشرفة فقد تحوَّلت إلى حجرة للمكتب، بعد إقامة حاجز زجاجي، وإدخال مدفأة عليها. ولقد رحت أتسلي - كلما كنت هناك - بزخرفة الشرفة الخارجية، التي كانت تقبع تحت ظلال صفين من أشجار الزيزفون الصغير. فغرست صفين آخرين، لأقيم أيكة دائمة، وعملت على إقامة بضع أرائك حجرية هناك، وأحطتها بالشجيرات ذات الزهر الأبيض، وباللبلاب، وزهر الجبل. وأقمت سياجًا بديعًا من الزهور، موازيًا لصفَيّ الأشجار.. ولما كانت هذه الأيكة أكثر ارتفاعًا من شرفة القصر - وكان المنظر الذي تشرف عليه لا يقل عن ذاك الذي تشرف عليه الأخرى، وقد عمَّرها عدد من الطيور التي استألفتها واستأنستها - فإنني جعلت منها حجرة استقبال إذا ما وفد علىَّ ضيوف، كالسيِّد والسيِّدة دي لوكسمبورج، والسيِّد الدوق دى فيلروي، والسيِّد الأمير دى تينجرى، والسيِّد المركيز دارمنتيير، والسيِّدة الدوقة

دی مونمورنسی، والسيِّدة الدوقة دي بوفلير، والسيِّدة الكونتة دي فالينتينوا، والسيِّدة الكونتة بوفلير. وغيرهم ممن كانوا في مكانتهم، والذين كانوا يتفضلون بتجشم عناء صعود طريق متعبة، من القصر إلى (مون - لوى). وقد كنت مدينًا بالحظوة بكل هذه الزيارات، إلى السيِّد والسيِّدة دي لوكسمبورج وقد كنت ألمس هذا، فكان قلبي يطفر بالعرفان بأفضالهما. ولقد حدث في إحدى نوبات التأثّر العاطفي، أن قلت للسيِّد دی لوكسمبورج: « آه، يا سيِّدى المارشال! لقد كنت أكره العظماء قبل أن أعرفك، وأنا الآن أكثر كراهية لهم، منذ جعلتني أشعر كم يسهل عليهم أن يجعلوا أنفسهم موضع حب وإعجاب! ».

وفيما عدا ذلك، فإنني أسائل كل أولئك الذين عرفوني أثناء هذه المدة، عما إذا كانوا قد لاحظوا أن هذه اللمحة من الذكاء قد بهرتني لحظة، وما إذا كان دخان هذا البخور قد صعد في رأسي، وعمَّا إذا كانوا قد رأوني أقل تمشيًا مع طباعي، وأقل بساطة في مسلكي، وأقل تلطفًا مع الناس، وأقل ألفة مع جيراني، وأقل استعدادًا لمعونة كل امرىء عندما يكون ذلك في إمكاني، دون أن أتعرَّض للضر الذي يترتب على السخافات والسفاهات التي لا حصر لها، والتي كثيرًا ما تنطلق في غير حكمة، فتورثني الحرج دون انقطاع؟..

وإذا كان قلبي قد اعتاد أن يجتذبني نحو قصر مونمورنسی، نظرًا لصادق تعلقي بصاحبيه، فإنه كان لا يلبث أن يردّني بنفس الطريقة إلى جيرتي، لأتذوّق حلاوة هذه الحياة المسترسلة البسيطة، التي لم يكن لي من سبيل إلى السعادة خارج نطاقها. ولقد اتصلت روابط الصداقة بين تيريز وابنة واحد من جيراني، كان يعمل في البناء - ويدعى بيلو - فحذوت حذوها مع الأب.. وكنت أتناول الغداء في القصر، في الظهيرة - وأنا كاره بعض الشيء - رغبةً في إرضاء السيِّدة المارشالة، و كنت أعود في المساء، لأتناول العشاء مع بيلو الجليل وأسرته، في بيته أحيانًا، وفي بيتي أحيانًا أخرى.

وإلى جانب هذين البيتين، سرعان ما وجدت ثالثًا في قصر دی لوكسمبورج، بباريس، إذ راح صاحباه يلحّـان علىَّ في إخلاص كى أزورهما في بعض الأحيـان، حتى إننى استجبت لهما، برغم نفوري من باريس، التي لم أذهب إليها - عقب اعتكافي في ليرميتاج - إلّا في المناسبتين اللتين ذكرتهما من قبل.. وحتى إذ ذاك، ما كنت أذهب إلا في أيام محدودة من قبل، لمجرَّد تناول العشاء، ثم أعود في الصباح التالي، وكنت أدخل القصر وأغادره خلال الحديقة المتصلة بالطريق المؤدية من الريف، بشكل أستطيع معه أن أقول - بكل صدق - إنني لم أضع قدمًا على أرض باريس المرصوفة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي غمرة هذا الرخاء العابر، راحت النكبة - التي حددت نهايته - تتجمّع على البعد. فلقد عقدت عقب عودتى - يبدو الإقامة في (مون - لوى) تعارفًا جديدًا، بالرغم منى، كالمعهود.. تعارفًا يعتبر بداية مرحلة في تاريخي. ولسوف يبدو - فيما يلي - ما إذا كان هذا التعارف طيبًا أو سيئًا.

أما الطرف الآخر فيه، فكانت السيِّدة المركيزة دي فيرديلان؛ جارتي التي كان زوجها قد ابتاع منزلًا ريفيًا في (سواسى)، على مقربة من (مونمورنسي). ولقد كانت الآنسة « دارس »، ابنة الكونت دارس، الذي كان رجلًا ذا مكانة، ولكنه كان فقيرًا.. ثم تزوجت من السيِّد دي فيرديلان، وكان كهلًا، قبيح الشكل، أصم، جاف الخلق، قاسى الطبع، غيورًا، مشـوه الخلقة بالندوب، أعور.. ولكنه كان - فيما عدا ذلك - رجلًا طيبًا، إذا ما عرف المرء كيف يفهمه.. وكان يمتلك ما بين خمسة عشر ألفًا وعشرين ألفًا من الليبرات دخلًا سنويًا، من أجله زفت الفتاة إليه!. وكان هذا الرجل العجيب يتوعد، ويصرخ، ويزمجر، ويغرى، ويبكي امرأته طيلة النهار، ولكنه ينتهى دائمًا بأن ينفذ ما ابتغت هي، بعد أن يكون قد أحنقها.. فلقد كانت تعرف كيف تجعله يعتقد أنه هو - وليس هي - الذي كان يبتغى ذلك الشيء المنشود!

ولقد كان السيِّد دي مارجينسى - الذي تحدَّثت عنه من قبل - صديقًا للسيِّدة، وأصبح صديقًا لزوجها كذلك. وقد أسكنهما - منذ بضع سنوات - بالأجر، في قصره القائم في (مارجنيسى)، على مقربة من (أوبون) و (أرديى) وهناك، كانا يقيمان في فترة هيامي بالسيِّدة دوديتو. ولقد تعرَّفت كل من السيِّدة دي فيرديلان وهذه الأخيرة، عن طريق صديقتهما المشتركة، السيِّدة دوبيتير. ولما كانت حديقة قصر مارجينسى تقع على الطريق التي اعتادت السيِّدة دوديتو أن تسلكها - في رياضتها المحببة إليها - إلى (مونت أوليمب)، فإن السيِّدة دي فيرديلان أسلمتها مفتاحها، لتستطيع أن تمر خلال الحديقة. وبفضل هذا المفتاح، كنت أسعى إليها في كثير من الأحيان، ولكنني لم أكن مولعًا باللقاءات غير المرتقبة، وكنت إذا قابلتنا السيِّدة دى فيرديلان مصادفة، أتركهما دون أن أنبس بكلمة، وأمضى في سيرى. وما كان هذا المسلك غير اللبق، ليعطيها فكرة طيبة عني. ومع ذلك، فإنها سعت إلى صحبتي عندما كانت في (سواسي)!

ولقد وفدت على (مون - لوي) عدة مرات لتقابلني، دون أن تجدني في البيت. فلما لم أرد زياراتها هذه، رأت أن ترسل إليَّ بعض أصص الزهـور لأزين بها أيكتي، لكي تضطرني إلى أن أزورها. ووجدتن مسوقًا إلى الذهاب إليها وشكرها. وكان في هذا ما يكفي لأن يتم التعارف!

ولقد كانت هذه العلاقة عاصفة في بدايتها، شأن كل علاقة كنت أعقدها بالرغم منى.. بل إنها لم تكن يومًا هادئة، في الواقع. فإن اتجاه عقل السيِّدة دى فيرديلان، كان مخالفًا أكثر مما ينبغى لاتجاه عقلي. وكانت تطلق ألفاظ السـوء والسخرية المتوارية بكثير من البساطة، حتى إنها كانت تتطلَّب من المرء انتباهًا مستمرًا - ومرهقًا بالنسبة لي - لكي يدرك متى كان يحلو لها أن تهزأ به!.. وتحضرني إحدى نوادر عبثها وسفاهتها، التي تكفى للحكم عليها. فلقد حدث أن عُيِّن أخوها قائدًا لسفينة حربية (فرقاطة)، كانت في طريقها ضد الإنجليز. وقُدِّر لي أن أتحدَّث عن طريقة تسليح هذه الفرقاطة، دون أن أمس سرعتها بنقد، وإذا بها تقول، بدون أن تغير لهجتها: « أجل.. إن المرء لا يأخذ من المدافع إلا القدر اللازم لهزيمته »!.. ونادرًا ما سمعتها تقول خبرًا عن أي من أصدقائها الغائبين، اللهم إلا إذا دسَّت خلاله شيئًا ضدهم. وكانت تسخر ممن لا تجد فيه سوءًا، ولم تستثن من ذلك صديقها مارجينسى!

ومن الأمور التي وجدت أنها لا تطاق منهـا، ذلك الازعاج المستمر الذي كان يتمثَّـل في رسائلها الصغيرة، وهداياها البسيطة، وقصاصاتها التي كنت أُضطر إلى أن أعتصر مخي لكي أجيب عنها، والتي كانت تسبِّب لي حرجًا متجددًا، سواء لكي أشكر، أو لكي أرفض!.. ومع ذلك فإنني لم ألبث أن تعلقت بها، بحكم رؤيتي إياها باستمرار. فقد كانت - مثلى - لها شجونها، وكان تبادلنا الفضفضة، يتيح لنا خلوات طريفة. فليس أقوى على ربط القلـوب من لذة المشاركة في إراقة الدموع!.. فكان كل منا ينشد الآخر، لكي نتبادل التسرية والتعزية، وهذه الحاجة بالذات، كثيرًا ما جعلتني أغفل عن أمور كثيرة. وكنت قد خشنت كثيرًا في صراحتى معها، فكان لزامًا عليَّ - بعد أن أبديت أضأل الاحترام لشخصيتها، في بعض الأحيان - أن أخشى عن حق، ألَّا يكون بوسعها أن تصفح عنى. وهاكم مثالًا للخطابات التي كنت أكتبها أحيانًا إليها، والتي يجدر - ونحن بصددها - أن أذكر أنها لم تكن تبدى في ردودها عنها، أية بادرة من بوادر الغضب:

« مونمورنسى: 5 نوفمبر سنة 1760

تقولين لي، يا سيدتي، إنكِ لم تحسنى الإفصاح عن نفسكِ، حتى تجعليني ألمس أنني « أسأت الإفصاح عن نفسي. وتحدثينني عن غبائكِ المزعوم، لتنبهيني إلى غبائي. وتتشدقين بأنكِ طيبة، وكأنكِ تخشين أن تؤخذي بكلمتك، كما أنكِ تبدين الأعذار، لتشعريني بأنني مدين بشيء منها إليكِ.

« أجل، يا سيدتي، إني لأدرك هذا تمامًا، فأنا الذي كنت غبيًا، ساذجًا، وأسوأ من هذا، إن أمكن!.. أنا الذي أسأت اختيار عباراتي، دون أن أرعى رضاء سيدة فرنسية، تبدى كثيرًا من الاهتمام إلى الأقوال، وتحسن الحديث، مثلك. ولكن.. لاحظى أننى أخذت هذه العبارات على محملها العادي في اللغة، دون أن أعرف أو أحدس شيئًا من التأويلات التي تعلق بها أحيانًا، في الأوساط الباريسية الفاضلة. فإذا كانت ثمة تعبيرات تحتمل تاويلات - في بعض الأحيان - فإنني أحاول بمسلكي أن أحدّد معناها.. إلخ ».

وكانت بقية الرسالة بالأسلوب ذاته. فتأمل ردّها (الملف « د » - رقم 41)، واحكم على مدى الهدوء، الذي يكاد يفوق التصوّر، والذي أوتيه قلب امرأة، لم تجد ما يستثير سخطًا من خطاب كهذا، سوى ما أوردته في ردها، وما أبدته بمسلكها!.. ولم يبطىء « كوانديه » - بما عُرف عنه من انتهاز للفرص، وجرأة تذهب إلى درجة القحة، وتربص بأصدقائي - في أن يتقدَّم إلى السيِّدة دي فيرديلان باسمي، وسرعان ما أصبح أوثق صلة مني بها، دون أن أدرى.. لقد كان هذا « الكوانديه » مخلوقًا عجيبًا، لا مثيل له!.. كان يتقدَّم باسمي إلى جميع معارفي، فيوطد مكانه في دورهم ويأكل على موائدهم دون كلفة! وكان في وفائه المتحمس لي، لا يتحدَّث عنى إليهم إلا والدموع في عينيه، ولكنه إذا ما زارني، تمسك بأشد ألوان التكتم عن هذه العلاقات، وعن كل شيء كان يشعرني أنه يثير اهتمامي.. وبدلًا من أن يذكر لي ما سمعه، أو قاله، أو رآه - مما يهمني - كان يلزم الإصغاء إلىَّ، بل ويوجه إلىَّ الأسئلة! وما عرف يومًا شيئًا عن باريس إلا ما كنت أنبئه به.. وقصارى القول، إنه لم يكن ليحدثني عن أي امرىء، في حين كان كل امرىء يحدثني عنه. وما كان مغلقًا، غامضًا إلا مع صديقه.. أنا!

ولكن، لندع « كوانديه » والسيِّدة دى « فيرديلان » في الوقت الحاضر، فلن نلبث أن نعود إليهما فيما بعد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدث بعد عودتي إلى سكنى (مون - لوى) بوقتٍ قصير، أن أقبل الرسَّام « لاتور » لزيارتي، وحمل إلىَّ صورة رسمها لي بالطباشير « الباستيل »، وكان قد عرضها بضع سنوات ـ قبل ذلك - في صالة العرض. وكان يرغب في أن يقدمها هدية لي، ولكني أبيت أن أقبلها. غير أن السيِّدة ديبيناى التي أهدتني صورتها، وودَّت أن تأخذ هذا الرسم - كانت قد حملتني على أن أعدها بأن أطلبه، فإذا « لاتور » يستغرق بعض الوقت في تنقيحه. وفي تلك الأثناء، حدثت القطيعة بيني وبين السيِّدة ديبيناى، فرددت إليها صورتها، ولم أعد أفكر في أن أهديها صورتي، ومن ثم فإنني علقت هذه في غرفتي في « القصر الصغير ». ولقد رآها السيِّد دى لوكسمبورج هناك، فأعجب بها، ومن ثم فإنني عرضتها عليه، فتقبلها.. وأرسلتها إليه!

ولقد أدرك والسيِّدة دى لوكسمبورج أننى خليق بأن أسر إذا ما حصلت على صورتيهما، فعهدا إلى فنان ماهر بأن يرسمهما في صورتين دقيقتين، زين بهما صندوقًا للحلوى صُنع من البللور الصخرى، على قاعدة من الذهب، وقدَّماه إلىَّ بطريقة لبقة، طربت لها. وما رضيت السيِّدة دى لوكسمبورج قط عن حرصي على أن أجعل صورتها في الجانب الأعلى من الصندوق.. وكانت كثيرًا ما تعتب علىَّ، أنني كنت أكثر حبًا للسيِّد دي لوكسمبورج منى لها. وما دفعت هذا عن نفسي يومًا لأنه كان حقيقة، ومن ثم فقد شاءت أن تريني في لباقة - ولكن في وضوح كاف - بإصرارها على مكان صورتها، أنها لم تنس هذا الإيثار مني لزوجها!

ولقد ارتكبت - حوالي هذه الآونة بالذات - حماقة لم تساعد على احتفاظى بودها ومجاملاتها. فمع أنني لم أكن على تعارف بالسيِّد دي سيلويت - المراقب العام للمالية -

وكنت غير ميال إليه، إلا أنني كنت أعتنق فكرة جد طيبة عن كفاءته الإدارية. فلما بدأت قبضته تشتد على رجال المال، رأيت أنه لم يشرع في هذه الخطة، في لحظة مواتية. ومع ذلك، فإنني رجوت له كل توفيق.. لذلك فقد بادرت دون ترو - حين بلغني أنه أقيل من منصبه - إلى كتابة الرسالة التالية إليه.. وهي رسالة لا أحاول ـ في الواقع ـ أن أبررها:

مونمورنسى: 2 ديسمبر سنة 1759 «

تكرَّم يا سيِّدى، فتقبّل احترام رجل معتزل، غير معروف لديك، ولكنه يقدّر فيك مواهبك، « ويحترمك لكفاءتك الإدارية، وقد كرَّمك بأن أيقن بأن هذه الإدارة لن تبقى في يديك طويلًا. إنك جرؤت على أن تواجه صيحات جامعي المال، إذ رأيت أن ليس في وسعك إنقاذ الدولة إلا على حساب رأس المال الذي أودى بها إلى الدمار، ولقد غبطتك على منصبك، إذ رأيتك تسحق هؤلاء الأنذال.. وإني اليوم لأكبرك، إذ أراك تغادره دون أن تكذب نفسك!.. فاهنـأ بنفسك يا سيِّدي، فقد أجداك موقفك شرفًا ستظل تنعم به، دون منازع، أمدًا طويلًا.. إن !ترهات الأوغاد لمجد للرجل المستقيم .«

سنة 1760

ولقد حدّثتني السيِّدة دي لوكسمبورج عن هذا الخطاب - وكانت تعلم أنني كتبته عندما أقبلت في عطلة عيد الفصح - فأطلعتها عليه.. ورغبت في الحصول على نسخة منه، فأعطيتها بغيتها، ولكني كنت - أجهل إذ قدّمتها إليها - أنها كانت من « جامعي المال » الذين كانوا يهتمون بالمضاربات خارج « البورصة »، والذين عملوا على إقالة « سيلويت ». ومن الجدير أن يقال، إنني بدوت وكأنني كنت أستنهض عامدًا بغضاء سيّدة لطيفة وذات نفوذ، كنت - في الواقع - أزداد تعلقًا بها يومًا بعد يوم، وكنت بعيدًا كل البعد عن أن أرغب في أن أجر على نفسي سخطها، بالرغم من أننى كنت - بتصرفاتي الرعناء المتكررة - أفعل كل ما يتطلبه ذلك. وأعتقد أن لا حاجة بي إلى أن أذكر أن إلى هذه السيِّدة بالذات، تعزى قصة الدواء الملين للمعدة الذي وصفه السيِّد ترونشان، و الذي تحدَّثت عنه في الجزء الأوَّل من اعترافاتى65.. أما السيِّدة الأخرى، التي كانت معها، فهي السيِّدة دى ميربوا، وما ذكرت لي أي منهما هذا الموضوع مرة أخرى، ولا أبدت أية بادرة توحي بأنها تذكره، ولكن افتراض أن تكون السيِّدة دى لوكسمبورج قد نسيته حقًّا، أمر عسير، وإن لم يقدَّر للمرء أن يعرف الحوادث التي أعقبته. أما أنـا، فقد كنت أحاول أن أطمئن نفسي من أمر حماقاتي متوسلًا لذلك بأنني لم أكن أصدر في أي من هذه الحماقات عن قصد الإيذاء، وكأنما كان من المحتمل أن تغفر امرأة أمورًا من هذا القبيل، ولو كانت على أتم يقين من أنها لم تكن متعمَّدة!

ومع ذلك، فبالرغم مما كان يلوح عليها من أنها لم تكن ترى شيئًا، أو تحس بشيء، وبالرغم من أنني لم أستشعر أى تضاؤل في شعورها، ولا تغير في تصرفاتها إلا أن هاجسًا خفيًا - لم يكن منبعثًا إلا عن أساس مكين - راح يوحى إلىّ دون انقطاع، بأن النفور لن يلبث أن يعقب هـذا الهيام. أفكان لي أن أتوقَّع من سيِّدة عظيمة القدر - إلى هذا الحد - ثباتًا ووفاءً يكون بمأمن من غبائي وضعف حيلتى؟.. إننى لم أكن أعرف أن أخفى عنها شيئًا، حتى هذا الهاجس الذي راح يقض راحة بالي، ولم يزدني إلا جفاءً وانطواءً. وهـذا ما يمكن رؤيته في الخطاب التالي، الذي انطوى على نبوءة عجيبة.

تنبيه: هذا الخطاب الذي لم تحمل مسودته تاريخًا، كُتب في شهر أكتوبر سنة 1760، على أكثر تقدير:

« ما أقسى أفضالكِ!.. لماذا تعكرين طمأنينة شخص وحيد معتزل، نبذ ملاذ الحياة لكي

يستشعر مزيدًا من الملل منها؟.. لقد قضيت أيامي أبحث عبثًا عن علاقات ودية ثابتة. ولقد عجزت عن أن أوطد شيئًا منها، في الأوساط التي كنت أملك إليها وصولًا.. أفكان عليَّ أن أبحث عنها في أوساطك أنتِ؟

ليس للطموح ولا للمصلحة الذاتية إغراءً لديَّ، فأنا مغرور بعض الشيء، هيَّاب بعض « الشيء، ويومه أن أقاوم كل شيء، في العواطف!.. فلماذا تهاجماني معًا في ضعف يجب أن أتغلب عليه، ما دام تدفق القلوب الحساسة لن يقوى على أن يقربني منكما، نظرًا للبون الذي يفصل بيننا؟

« أفيكون العرفان كافيًا لقلب لا يعرف رياء، ولا يشعر بأنه قادر إلا على الصداقة؟.. الصداقة يا سيِّدتي المارشالة!.. آه... هنا مصدر تعاستى!.. من الجميل منكِ، ومن السيِّد المارشال، أن تستخدما هذه الكلمة، ولكني أحمق إذ أصدّق أنكما تعنيانها!.. إنكما تلهوان لتسريا عن نفسيكما، أما أنا فمتعلق بوفاء، فإذا نهاية اللهو تعدني لحسرات جديدة!.. لكم أكره كل ألقابكما، ولكم أرثى لكما إذ تحملانها!.. إنكما لتبدوان - في نظرى - جديرين بأن تتذوقا كل مفاتن الحياة الخاصة، المغمورة!.. لِمَ لا تقيمان في (كلاران)؟.. إننى لأتوق إلى أن أنشد هناك هناء حياتي، أما قصر مونمونسى، وأما قصر لوكسمبورج!؟.. أفهناك تنبغي رؤية جان جاك؟.. أفهناك ينبغي لواحد من أصدقاء المساواة أن يروى عواطف قلب حسَّاس، يخشى - إذ يدفع بهذا الشكل ثمن التقدير الذي أبدى إليه - أن يعطي أكثر مما يتسلم؟

« إنكما طيبان وحكيمان كذلك، وإني لأدرى ذلك، وقد رأيته. وإني لآسف على أنني لم أستطع أن أصدقه قبل الآن. على أنني إذ أقدِّر الطبقة التي تنتميان إليها، والأسلوب الذي تعيشان عليه، أرى أن لا شيء يستطيع أن يترك طابعًا باقيًا في نفسيكما. ومن ثم فإن أشياء كثيرة تتعاقب لديكما، فيمحو كل منها الآخر، ولا يقدر لأحد أن يبقى دائمًا! »

« لسوف تنسيننى يا سيدتى، بعد أن جعلتني أعجز ما أكون عن أن أحذو حذوك فأنسى أنا الآخر. لقد خلقتِ لكي تجعلين منى إنسانًا شقيًا، دون أن يكون لكِ العذر! ».

∞ ∞ ∞ ∞∞

وما قرنت اسم السيِّد دي لوكسمبورج باسمها، إلَّا لأخفف من جفوة الرسالة، وفيما عدا ذلك، فقد كنت واثقًا منه، فلم أشعر بالقلق لحظة إزاء دوام صداقته، وما قُدِّر لشيء من الهواجس التي راودتني بشأن زوجته، أن يمتد إليه!.. أبدًا ما شعرت بأقل تزعزع في ثقتي بشخصيته، التي كنت أعرف أنها ضعيفة، ولكنها أهل للثقة، فما كنت أخشى فتورًا من ناحيته، إلا بقدر ما كنت أترقب منه إقدامًا بطوليًا!.. كانت بساطة وألفة علاقاتنا تبين كيف كان كل منا يركن إلى الآخر. وقد كنا معًا على صفاء، ولسوف أظل ما حييت أمجد ذكرى هذا السيِّد الفاضل وأعتز بها.. مهما تكن المحاولات التي بذلت كى تباعد بينه وبينى، فسأبقي مطمئنًا إلى أنه مات وهو صديق لي.. كما لو كنت قد تلقيت آخر انفاسه!

ولقد انتهت مطالعات « جولى » في زيارتهما الثانية لمونمورنسي، في سنة 1760. وكان عليَّ أن أنتقل إلى « اميل » لكي أبقى مع السيِّدة دى لوكسمبورج، ولكن هذا الانتقال لم يكن موفقًا، إما لأن الموضوع لم يرق لها، وإما لأنها كانت قد ملّت كل هذه المطالعات. ومع ذلك، فإنها رغبت - وهى تلومني على أن تركت نفسى لتغرير الناشرين بي - في أن أترك لها طبع الكتاب ونشره، حتى تستطيع أن تعقد صفقة أفضل. ووافقت على اقتراحها، مشترطًا ألَّا يُطبع الكتاب في فرنسا.

وهذا ما قام بيننا خلاف طويل حوله. فقد كنت أرى أن من المستحيل الحصول على إذن

بطبعه في المملكة، وأن ليس من الحكمة طلب هذا الإذن.. وما كنت - في الوقت ذاته - لأقبل أن يُطبع في فرنسا بغير ذلك. أما هي، فكانت ترى أن هذا ليس بالأمر العسير - من ناحية الرقابة - تحت النظام الذي انتهجته الحكومة. وقد وجدت الوسيلة التي جعلت بها السيِّد دي ماليزيرب يقرّها على آرائها، فكتب إليَّ رسالة طويلة، لكي أقرّ بأن كتاب « عودة أسقف سافوا إلى الإيمان » هو عين ما يجب أن يقابل بالتحبيذ من كل الجنس البشري في كافة الأرجاء، بل وفي البلاط الملكي، في تلك الظروف!.. وعجبت إذ وجدت هذا الموظف المسئول، الذي كان بطبيعته رعديدًا، قد تساهل في هذه المسألة إلى هذا الحد!

ولما كانت مجرَّد الموافقة منه كافية لإجازة طبع الكتاب قانونًا، فإنني لم أعد أملك أي اعتراض. على أنني - بسبب نذر خفى غريب هجس في نفسي - ظللت أصرّ على أن يُطبع الكتاب في (هولندا)، وبوساطة المكتبي « نياولم »، الذي لم أكتف بأن أرشدت إليه، بل إنني كتبت إليـه أستشيره. ووافقت على أن تكون الطبعة لحساب ناشر فرنسي، أي أن يتم إعدادها في (هولندا)، وتُباع في باريس، أو في أي مكان آخر، فما كان البيع ليعنيني في شيء. وهذه هي عين النقاط التي اتفقت عليها مع السيِّدة دي لوكسمبورج، والتي أسلمتها المخطوط بعد إبرامها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت قد أحضرت معها - في هذه الرحلة - ابنة أختها، الآنسة دي بوفليير، وهي الآن السيِّدة دوقة دى لوزون. وكان اسمها « آميـلي ». ولقد كانت فتـاة فاتنة، وكان وجهها، ورقتها، وخفرها، تحمل براءة العذارة الحقيقية. فما كان ثمة ما هو ألطف ولا أدعى للاهتمام من وجههـا، ولا كان هناك ما هو أكثر طهرًا من المشاعر التي كانت تثيرها في النفس!.. ولا غرو، فقد كانت طفلة، لم تتجاوز العـام الحادي عشر من عمرها. وإذ وجدتها السيِّدة المارشالة بالغة الحياء، راحت تبذل قصارى وسعها لتخرجها من هذا الخجل. فسمحت لي مرارًا بأن أقبلها، الأمر الذي أقدمت عليه بحيائي المعهود. وبدلًا من المداعبات اللطيفة التي كان أى امرىء آخر خليقًا بأن يقولها - إذا ما كان في موضعى - ظللت صامتًا، عييًا.. فلم أدر مَن كان أكثرنا حيـاء: الصغيرة المسكينة، أم أنا؟..

وفي ذات يوم، صادفتها وحيدة على سلم « القصر الصغير »، وكانت قد أقبلت لتزور تيريز، حيث كانت مربيتها في زيارتها. وإذ لم أدر ما ينبغي أن أقوله لها، سألتها أن تمنحني قبـلة، فلم تأبها عليَّ، بكل ما في قلبها من براءة وطهر، لا سيما وأنها كانت قد منحتني قبلة أخرى في صباح اليوم ذاته، بأمر من خالة أمها، وفي حضورها.



وفى ذات يوم ، صادفتها وحيدة على سلم « القصر الصغير » ..

وفي اليوم التالي، صادفت - وأنا أقرأ « أميـل » على السيِّدة المارشالة - فقرة حرمت فيها، بحجة قوية، عين الشئ الذي كنت قد فعلته - أنا نفسي - في اليوم السابق. ووجدت السيِّدة أن ما ذهبت إليه - في تلك الفترة - كان صوابًا، وأبدت بعض ملاحظات معقولة، جعلتني أتضرج خجـلًا. لكم ألعن غبائي الذي يفوق التصوّر، والذي كثيرًا ما جعلني أبدو خبيثًا، آثمًا، في حين أنني لم أكن أكثر من أحمق، سريع الارتباك!.. ولقد كانت حماقتي من ذلك النوع الذي يؤخذ على أنه عذر زائف، من رجل عُرف عنه أنه ذكي!.. إن بوسعي أن أقسم على أن تلك القبـلة كانت خاليـة من كل ما يستحق اللوم، وأن قلب الآنسة « آميلى » وعواطفها، لم تكن - في هذه الناحية - أطهر من قلبي وعواطفي أنا!.. بل إن بوسعي كذلك أن أقسـم إننى لو كنت قد استطعت - في تلك اللحظة - أن أتحاشى لقاء الصبية لفعلت، إذ أننى - بالرغم من سروري لمرآها ـ كنت في حيرة بالغة، لا أكاد أجد شيئًا مناسبًا أقوله لها وأنا أمر بها.

ترى كيف يتسنى لطفلة أن تبعث الارتباك لدي رجل لم يستطع سلطان الملوك أن يرهبـه؟.. أى قرار يتخذ؟.. وكيف يتصرَّف، إذا هو تجرَّد فجأة من حضور ذهنه؟.. إننى إذا غصبت نفسي على الحديث إلي مَن أقابلهم من الناس، فلست أقول سوى هذيان لا يُفهم.. وإذا أنا لم أقل شيئًا، اتهمت بأنني أنفر من البشر، وبأنني حيوان وحشي، وبأني دب!.. لقد كان الغباء الكامل أحب إليَّ من هذه الحال، ولكن المواهب التي كانت تعوزني في صحبة الناس، هي التي جعلت تلك التي أملك، أداة لدماري!

وفي نهاية مقام السيّدة دى لوكسمبورج ـ في هذه الزيارة - قامت بعمل طيب، كان لي فيه نصيب. فقد حدث أن أهان « ديدرو » - في تهور بالغ - السيدة الأميرة دي روبيك. وكانت من بنات السيِّد دي لوكسمبورج. ولقد انتقم لها الأديب الذي يتمتع برعايتها، « باليسو »، بمسرحيته الهزلية « الفلاسفة »، التي تعرَّضت أنا فيها للسخرية، كما عومل فيها « ديدرو » بقسوة عنيفة. وما كان المؤلف أكثر إشفاقًا عليَّ، منه على « ديدرو »، مراعاة لالتزامات كانت تفرض عليه ذلك نحوى، بقدر ما كان ذلك لخوفه من أن يغضب والد السيِّدة التي كانت ترعاه، فقد كان يعرف أن السيِّد دي لوكسمبورج كان حفيًّا بى، ودودًا نحوى!..

ولقد أرسل إليَّ « دوشين » الكتبي - الذي لم أكن قد تعرَّفت إليه، إذ ذاك - نسخة من المسرحية، عندما طُبعت فحدست أنه ما فعل ذلك إلا بإيعاز من « باليسو »، الذي ربما خال أنني قد ابتهج لمرأى رجل - فصمت عرى الصلات معه - مُرغ في التراب. ولكنه أخطأ في هذا خطأ مفرطًا، فمع أننى كنت قد قطعت ما بيني وبين « ديدرو » - الذي كنت أؤمن بأنه ضعيف، وغير أمين على الأسرار - أكثر منه خبيث - إلا أننى احتفظت له في قلبي بشعور من الولاء، بل ومن الإكبـار والاحترام، نظرًا لصداقتنا القديمة، التي أوقن من أنها كانت - لزمن طويل ـ خالصة صادقة، من ناحيته، كما كانت من ناحيتى.

على أن الأمر يختلف بالنسبة إلى جريم، الذي كان غشَّاشًا خادعًا، والذي لم يحبني إطلاقًا، بل وما كان بقادر على الحب، والذي تحول في الخفاء فأصبح أقذع الشانئين لي، دون أى مبرر، اللهم إلا الرغبة في إرضاء غيرته الحاقدة!.. وما كان هذا بالشخص ذي القيمة لديَّ، أما الآخر، فسيظل دائمًا صديقي القديم. ومن ثم فقد تحرَّكت في فؤادي أرق المشاعر، عندما رأيت تلك المسرحية البغيضة، ولم أقو على المضي في قراءتها، بل إننى رددتها إلى « دوشين » ولما أتمها، وأرفقت بها الرسالة التالية:

« مونمورنسى: 21 مايو سنة 1760

« ما أن تصفحت المسرحية التي أرسلتها إليَّ، يا سيدي، حتى اشمأززت إذ وجدتنى موضع إطراء. وإني لأرفض هذه الهدية البشعة. وإني لأعتقد أنك بإرسالها إليَّ، لم تكن تبغى الإساءة، ولكنك تجهل أو أنك قد نسيت أننى قد تشرَّفت بأن أكون صديق رجل جدير بكل

احترام، ولم يكن يستحق أن يُذم وأن يُفترى عليه، في هذه المسبة المطبوعة ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد أطلع « دوشين » ديدرو على هذه الرسالة، فبدلًا من أن يتأثر بها، إذا هو يستاء منها. فما كان لأنانيته أن تغتفر لي التصرف الكريم الذي يكسبني تفوقًا عليه. وقد سمعت أن زوجته راحت تحمل عليَّ في كل مكان، في حقد لم يحزنني إلا قليلًا، إذ كنت أعرف أن الناس جميعًا كانوا يعرفون أنها سليطة!

ولقد وجد ديدرو بدوره، منتقمًا له في شخص الراهب « موريليه »، الذي وضع كتيبًا ضد « باليسو »، ولقد قلّد فيه « النبي الصغير »، وأسماه « الرؤيا ». ولقد أقدم في تهور، على إهانة السيِّدة دى روبيك في كتيبه هذا، فعمل أصدقاؤها على إلقائه في سجن « الباستيل ».. أما هي، فلم تكن بطبيعتها شديدة الحقد، كما أنها كانت على شفا الموت إذ ذاك، ومن ثم فلست أعتقد أنها كانت ذات يد في هذا الانتقام.

ولقد كتب إليَّ « داليمبير » - الذي كان وثيق الصلة بالراهب موريليه - وسألني أن أرجو السيِّدة دى لوكسمبورج بأن تشفع له كي يسترد حريته، واعدًا بأن يطريها في « الموسوعة »، كرمز لامتنانه. وقد اختفى هذا الخطاب مع عدد آخر من الخطابات، في قصر دي لوكمسبورج، عندما كانت أوراقي مودعة هناك. وها هو ذا ردي:

« لم أكن أرتقب خطابك يا سيِّدي، حتى أشهد السيدة، المارشالة دى لوكسبمورج على الألم الذي يكبدنيه سجن الراهب موريليه. فهي تعرف الاهتمام الذي لديَّ نحو هذه المسألة، ولسوف تعرف كذلك الاهتمام الذي تبديه نحوها. وسيكفيها ذلك لكي تهتم بالأمر بنفسها، وتعرف أنه رجل كفء.

وفوق ذلك، فبالرغم من أنها والسيِّد المارشال يشرفانى بكرم هو عزاء حياتي، وبالرغم « من أن اسم صديقك66 يعتبر - لديها - توصية في صالح الراهب موريليه، إلا أننى أجهل إلى أي مدى يلائمها أن يستغلا، في هذه المناسبة، ما لمكانتهما من نفوذ، وما لشخصيهما من اعتبار. ولست أميل إلى الاعتقاد، بأن العمل الانتقامي - في هذا الموضوع - ذو علاقة بالسيِّدة الأميرة دي روبيك، بالقدر الذي يلوح في ظنك. بل لو أن الأمر كان كذلك حقًا، فخليق ألا نفترض أن لذة الانتقام للنفس، وقف على الفلاسفة وحدهم، وأنهم إذا اختاروا أن يكونوا نساء، كان على النساء أن يصبحن فلاسفة!

« ولسوف أوفيك بما ستقوله لي السيّدة دي لوكسمبورج، عندما أطلعها على رسالتك. وفي الانتظار، أعتقد أننى من المعرفة بها بالدرجة التي تمكنني من أن أطمئنك مقدمًا بأنها إذا استطابت أن تساهم في إطلاق سراح الراهب موريليه، فإنها - يقينًا - تأبى أن تقبل رمز الامتنان الذي تعد بأن تؤثرها به في « الموسوعة »، بالرغم من أنها قد تشعر بأن في هذا العمل تكريمًا لها.. لأنها لا تبذل الخير طمعًا في الثناء، وإنما لترضى قلبها الطيب فحسب ».

ولم أدخر شيئًا في استثارة حماسة السيِّدة دى لوكسمبورج وعطفها في سبيل السجين البائس، واستطعت أن أوفق في ذلك فقد قامت برحلة إلى (فرساى)، خصيصًا لتقابل السيِّد الكونت دي سان - فلورنتان، وقد أدَّت هذه الرحلة إلى تقصير أمد إقامتها في (مونمورنسى)، التي اضطر السيِّد المارشال إلى مبارحتها - في الوقت ذاته - ليذهب إلى (روان)، حيث أوفده الملك كحاكم لنورماندى، من جراء بعض حركات من البرلمان أريد إحباطها. وها هو ذا الخطاب الذي كتبته لي السيّدة دى لوكسمبورج، غداة اليوم التالي لرحيلها:

(الملف « د » ـ رقم 23).

فرساي: يوم الأربعاء

سافر السيِّد دي لوكسمبورج في الساعة السادسة من صباح أمس، ولست أدرى ما إذا « كنت سألحق به. إنني في انتظار أنبائه، لأنه هو نفسه لا يدرى كم من الوقت سيقضيه هنـاك.

« لقد قابلت السيِّد دي سان - فلورنتان، الذي وجدت عنده أشد الميل إلى مساعدة الراهب موريليه، بيد أنه يلقى - في ذلك - عقبات، يرجو أن يذللها وينتصر عليها في أوَّل مرة يحظى فيها بلقاء الملك، وسيكون ذلك في الأسبوع المقبل. ولقد سألته صنيعًا آخـر، ذلك هو ألا يُنفى الراهب، إذ أن هذا كان موضع دراسة، وكان من المراد إقصاؤه إلى نانسي.

« هذا هو، يا سيِّدي، ما استطعت أن أصل إليه، ولكني أعدك بألّا أدع للسيّد دي سان - فلورنتان، سبيلًا إلى الراحة، إلا بعد أن تنتهي المسألة وفق ما تشتهى.

« والآن، تعال أقل لك أي حزن أعانيه لفراقك بهذه العجلة، ولكني أعلل نفسي بأنك لا ترتاب في ذلك!

« إنني أحبك من كل قلبي، وطيلة حياتي ».

وبعد بضعة أيام، تلقيت هذه الرسالة القصيرة من « داليمبير »، فبعثت في نفسي فرحة صادقة:

« غادر الراهب « الباستيل » بفضل عنايتك، يا فيلسوفي العزيز، ولن تكون لسجنه معقبات بعد ذلك. ولقد سافر إلى الريف، وهو يبعث - كما أبعث أنا أيضًا - إليك ألف شكر وتحية. ولك تقديري وودى ».

كذلك كتب لي الراهب - بعد بضعة أيام - رسالة شكر (الملف « د » - رقم 129)، لم يبد لي فيها أثر من شعور قلبى، بل لقد لاح فيها أنه كان يهون ـ إلى حد ما ـ من قيمة الخدمة التي أديتها له. وبعد زمن قصير تبينت أنه و « داليمبير » قد جفانى - ولن أقول قد اقتلعاني ليحلا محلى - في الحظوة لدى السيِّدة دى لوكسمبورج، وأنني فقدت من تقديرها، بقدر ما كسبها. على أنني جد بعيد عن أن أرتاب في أن الراهب موريليه قد ساهم في الحط من قدرى، فاني أجله عن ذلك. أما السيد « داليمبير »، فليس لديَّ ما أقوله عنه هنا، وسأتكلم عنه فيما بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت لديَّ - في ذلك الوقت بالذات - مسألة أخرى، أدَّت إلى آخر خطاب كتبته إلى السيِّد « فولتير ».. وكان خطابًا أطلق من جرائه الصرخات مدوية، معلنًا أنه إهانة له منكرة، ولكنه لم يطلع مخلوقًا عليه قط. ولسوف أورده هنا.

ذلك أن الراهب « تروبليه » - الذي كنت على معرفة بسيطة به، والذي لم أره إلا نادرًا - كتب إليَّ، في 13 يونيه سنة 1760، (الملف « د » – رقم 11)، لينبئني بأن السيِّد فورمي - صديقه ومراسله - قد طبع في يومياته رسالتي إلى السيِّد دى فولتير، عن نكبة لشبونة. وقد أراد الراهب « تروبليه » أن يعرف كيف تسنى هذا النشر، وسألني - بدهائه الجيزويتي - رأيي في إعادة نشر هذه الرسالة، دون أن يريد مصارحتى برأيه هو!

ولما كنت أكره أصحاب المكر كراهية تامة، فإنني شكرته - بقدر ما كان يستحق - ولكن في شيء من الجفاء. ولقد لاحظ ذلك، ولكنه لم يردعه عن أن يحاول استدراجي من جديد، في رسالتين أو ثلاث، حتى تبين كل ما كان يريد أن يعرفه. ولقد أدركت تمامًا - مهما يكن ما

يقوله تروبليه - أن فورمى لم يكن قد وجد رسالتي إلى السيِّد دى فولتير منشورة، وأنه إنما نشرها بنفسه لأوَّل مرة. وعرفت أنه كاذب لا يخجل، اعتاد - بصراحة - أن يكسب دخلًا من وراء مؤلفات غيره، وإن لم يكن قد جرؤ بعد على الوقاحة المذهلة، وأعني بها حذف اسم المؤلف من كتاب سبق نشره، ليضع هو اسمه عليه، ويبيعه لمنفعته الخاصة67.

ولكن، كيف تسنى لذلك الخطاب أن يصل إلى يديه؟.. هذه هي المسألة، التي لم تكن مستعصية الحل، وإن كنت من السذاجة بحيث حرت في أمرها. فبالرغم من أن فولتير كان قد نال تكريمًا ضافيًا في هذا الخطاب، إلا أنه كان على حق في أن يشكو - بالرغم من مسلكه النابي - لو أننى كنت قد نشرت الخطاب بدون موافقته. ومن ثم فقد رأيت أن أكتب إليه بهذا الشأن. وهاكم هذا الخطاب الثاني، الذي لم يرد عليه إطلاقًا، والذي تظاهر بالهياج - حتى الجنون - من جرائه، كي ينطلق في فظاعته بكثير من التحرر.

« مونمورنسى: 17 يونيه سنة 1760

« ما ظننت قط يا سيِّدي، أنني سأجد نفسي على تكاتب معك ثانية. ولكني - إذ علمت أن الخطاب الذي كتبته إليك في سنة 1756 - قد طُبع في برلين، وجدت من الواجب أن أطلعك على تصرفي في هذا الصدد، وإني لأؤدى هذا الواجب بصدق وبساطة.

« إن هذا الخطاب، إذ وجّه إليك حقًّا، لم يكن مقدَّرًا له أن يُطبع، وما أفضيت بمحتوياته - بقيود اشترطتها - إلا لثلاثة أشخاص، لم يكن حقوق الصداقة لتبيح لى أو آبي عليهم شيئًا من هذا القبيل، كما أن حقوق الصداقة هذه بالذات، لا تسمح لهم بأن يسيئوا استغلال الأمانة، بأن ينتهكوا عهودهم.. هؤلاء الأشخاص الثلاثة: السيِّدة دى شينونسو - زوجة ابن السيِّدة دوبان - والسيِّدة الكونتة دوديتو، وألماني يدعى جريم. ولقد كانت السيِّدة دى شينونسو توَّاقة إلى أن يُطبع هذا الخطاب، وسألتني أن أوافق على ذلك. وقد قلت لها إن هذا يتوقف على موافقتك أنت. وقد سألتك ذلك بنفسها، فأجبت أنت بالرفض، ولم تثر المسألة بعد ذلك.

« على أن السيِّد الراهب تروبليه، الذي لا تربطني به صلة ما، كتب إلىَّ أخيرًا، بدافع من عناية مفعمة بالكرم، فذكر أنه تلقّى صفحات من يوميات السيِّد فورمي وإذا به يقرأ فيها ذاك الخطاب بالذات، مع كلمة قال فيها المحرر - تحت تاريخ 23 أكتوبر سنة 1759 - إنه وجد الخطاب قبل بضعة أسابيع، في مكتبات برلين، وإنه لما كان من النشرات التي سرعان ما تختفى دون أي رجاء في عودتها، فقد رأى أن من واجبه أن يفرد له مكانًا من يومياته!

« هذا يا سيِّدى كل ما عرفته عن الأمر. ومن المحقق جدًّا، أن هذا الخطاب لم يتسلل إلى سمع أحد - في باريس - أو لسانه حتى الآن. ومن المؤكد كذلك، أن النسخة التي وقعت في يدى السيّد فورمى - سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة - لا يمكن أن تصل إليه إلا من طريقك أنت، وهو الأمر غير المحتمل.. أو من طريق واحد من الأشخاص الثلاثة الذين ذكرت أسماءهم.. وأخيرًا، من المؤكد جدًّا، أن أيًّا من السيدتين لا يمكن أن تقدم على مثل هذه الخيانة للأمانة. وليس بوسعي - من معزلي - أن أصل إلى مزيد من المعرفة في هذا الصدد ولكنك على تراسل مع كثيرين ومن السهل عليك - من طريقهم وبمعونتهم - أن تتعقب المسألة حتى مصدرها الأصلي، إذا رأيت أنها تستحق العناء، وأن تعرف حقيقة الواقعة.

« ولقد ذكر لى السيِّد الراهب تروبليه - في رسالته هذه - أنه يحتفظ بتلك الورقة من اليوميات، وأنه لن يعيرها لأحد بدون رضائي قط، وهذا ما لن يصدر منى قط!.. غير أن هذه النسخة قد لا تكون الوحيدة في باريس. ورجائي هو ألّا يُطبع هذا الخطاب هناك، وسأبذل قصارى وسعى من أجل ذلك. على أننى إذا عجزت عن الحيلولة دون طبعه، ونمى

إليَّ النبأ - في الوقت المناسب - فقد أستطيع أن أتمسك بحق الأسبقية، وإذ ذاك، فلن أتردد في نشره بنفسي. وهـذا - كما يبدو لي - مجرَّد تصرف طبيعى عادل.

« أما ردك عن الخطـاب ذاته، فإنني لم أبح به لمخلوق، ولك أن تطمئن إلى أنه لن يُنشر إطلاقًا دون إذنك، وهو ما لن أكون من الاستهانة بالسر بحيث أسألك إياه، لأنني أعلم تمام العلم، أن ما يكتبه إنسان لإنسان آخر، ليس مما يُنشر على الملأ. أما إذا شئت أن تكتب ردًا موجهًا إليَّ، بغرض النشر، فإني أعدك بأن ألحقه بأمانة برسالتي، دون أن أعقب عليه بكلمة واحدة.

« إننى لا أحبك إطلاقًا يا سيِّدي، ولكنك وجهت إليَّ من الإساءات، ما لا أملك سوى أن أشعر بأبلغ الملام بسببها.. أنا تلميذك، وأشد المعجبين تحمسًا لك!.. لقد أضعت (جنيف) جزاء لها على ما لقيته منها من إيواء.. ولقد نفرت منى أبناء وطني، في مقابل الثناء الذي أضفيتـه عليك لديهم.. إنك أنت الذي جعلت حياتي في وطني ومسقط رأسى، أمرًا لا أطيقه!.. إنك أنت الذي ستضطرني إلى أن أمـوت على أرض أجنبية - محرومًا من كل ما يتاح للمحتضرين من تسرية ومواساة - وألّا ألقى من التكريم أكثر من أن ألقي في حمأة.. بينما ترافقك في وطني، كل آيات التكريم التي يحق لإنسان أن يطمع فيها!.. إنني - بإيجاز - أكرهك، وما دمت قد رغبت في هذا!.. ولكني أكرهك كرجل لا يزال خليقًا بأن يحبك، إذا كنت ترغب في ذلك. إن العاطفة الوحيدة التي تبقى - من كل الأحاسيس التي يزخر بها قلبي نحـوك - لهى عاطفة الإعجاب الذي لا يمكن للمرء أن يأباه على عبقريتك البديعة، والحب لما تكتب. وإذا كنت لا أقوى على أن أكرم فيك سوى مواهبك، فليس هذا ذنبي. ولن يعوزني قط الاحترام الواجب نحو هذه المواهب، ولا السلوك الذي تتطلبه.

« وداعًا يا سيِّدى ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنبيه: يلاحظ أن هذا الخطاب وإن كُتب منذ حوالي سبع سنوات، إلا أنني لم أتحدَّث عنه إلى نفس حيـة، ولا أطلعت عليه أحدًا. وكذلك كان شأن الخطابين اللذين اضطرني السيِّد هيوم إلى أن أكتبهما له في الصيف الماضي، حتى أثار الضجة - التي يعرفها كل امرىء - بشأنهما. إن السوء الذي أضطر إلى أن أقوله لأعدائي، إنما أوجهه إليهم فيما بيننا. أما الخير - إذا وجد شيء منه - فإني أقوله علانية وبقلب سليم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي غمرة هذه المشاحنات الأدبية الطفيفة، التي لم تزدني إلا إصرارًا على عزمي، قُدِّر لي أن أتلقى أعظم تكريم أسـدته إليَّ مهنة الأدب.. التكريم الذي كنت أشد اعتزازًا به منى بأي شيء آخر. وقد تمثل هذا التكريم في تنازل السيِّد الأمير « دى كونتى » بزيارتى مرتين، إحداهما في « القصر الصغير »، والأخرى في (مون ـ لوى). ولقد اختار في كل من المرتين على السواء - للفترة التي لم تكن فيها السيِّدة دي لوكسمبورج في (مونمورنسى)، حتى يكون أكثر إظهارًا لأنه إنما كان قادمًا من أجلى. وما ارتبت يومًا في أننى إنما كنت مدينًا بأولى مكارم هذا الأمير، إلى السيِّدة دى لوكسمبورج، وإلى السيِّدة دى بوفلير. غير أننى لا أرتاب كذلك، في أننى مدين بالعطف الذي لم يكف قط - منذ ذلك الحين - عن أن يشرفني به، إلى مشاعري الخاصة، وإلى نفسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنبيه: لاحظوا إصرار هذه التقية العمياء، الغبية، على البقاء، في غمرة كل الإساءات التي كانت كفيلة بأن تجعلني أسيء الظن بها. ولكنها لم تختف إلا بعد عودتي إلى باريس في

سنة 1770.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولما كان مسكني في (مون - لوى) جد صغير، وموقع الأيكة جميل، فقد أخذت الأمير إليها، وإذا به - لكي يتوج أفضاله - يرغب في أن يشرفني بأن يلعب دورًا في الشطرنج معى. وكنت أعرف أن بوسعه أن يهزم الشيفالييه لورينزي، الذي كان أمهر منى لعبًا. على أنني كسبت الدورين اللذين لعبتهما، بالرغم من إشارات وغمزات الشيفالييه وأولئك الذين كانوا حضورًا، فقد تظاهرت بأنني لم أكن أراها. وعندما انتهينا، قلت له في لهجة جادة، مفعمة بالاحترام: « مولاى، إنني أوقر سمعك في خشوع يفوق أي تورع عن كسبك في الشطرنج دائمًا ».. فشعر هذا الأمير العظيم - النابه، المطلع، الذي كان أهلًا لأن يأبى التملق، أو هكذا ظننت، على الأقل ـ أننى الوحيد بين الحضور، الذي عامله كإنسان، ولديَّ كل ما يجعلني أعتقد أنه شعر بامتنان حقيقى نحوى لذلك!

ولو أنني علمت عنه أنه استاء منى، لما أنبت نفسي على أننى لم أرض بأن أخدعه في شيء، ولست أجـد - يقينًا - ما يحملني على أن ألوم نفسي على أننى أسأت - في قلبي - تقبل أفضاله، وإن كنت قد فعلت ذلك أحيانًا حقًا، في حين أنه كان يبدى رقة لا حد لها في مسلكه نحوى. ولقد أرسل إليَّ بعد أيام قلائل، سلة مليئة بطيور القنص، فتقبلتها بقبول سليم. وما لبث - بعد ذلك بفتـرة - أن أرسـل إليَّ سلة أخرى، مصحوبة برقعة من أحد حراس صيده، كتبت بإملاء منه، ليخبرني بأن محتويات السلة من الطيـور التي أصيبت بيد صاحب السمو نفسه. ولقد تقبلتها، ولكنني كتبت إلى السيِّدة دي بوفليير، أنبئها بأنني لن أتقبـل مزيدًا من هـذه الهدايا. وقد جلب عليَّ هذا الخطاب لومًا عامًا، كنت أستحقه. فإن رفض هدايا الصيد، من أمير من الأسرة المالكة، يبدى - إلى جانب ذلك - في إهدائها كل لطف، إنما ينم عن فظاظة من شخص سيى النشأة، ينسى نفسه، أكثر مما ينم عن شعور مرهف من رجل ذي كرامة وكبرياء، يرغب في أن يحتفظ باستقلاله. وما قرأت قط هـذا الخطاب، إلا تضرج وجهي خجلًا منه، وإلّا أنبت نفسي على كتابته.

على أنني لم أقدم على كتابة اعترافاتي، لكي أسكت متكتمًا حماقاتى، وأن الواقعة الراهنة لتملؤني اشمئزازًا من نفسي، إلى درجة تفوق كل ما يمكن أن يغريني على تكتمها!

وإذا كنت لم أضف إلى ذلك حماقة جديدة بأن أغدو منافسًا له، فإنني كنت جد قريب من أن أفعل هـذا، إذ أن السيِّدة دى بوفليير، كانت - في ذلك الوقت - ما تزال عشيقته، ولم أكن أعرف شيئًا عن ذلك. وكانت تفد لزيارتي كثيرًا، في صحبة الشيفالييه دى لورينزي. وكانت جميلة، ما تزال في شبابها، وكانت تعجب بالفكر الروماني، في حين أنني كنت دائمًا مولعًا بالخيال الشاعري، وكان في هذا تشابه كاف. ولقد كدت أفضح نفسي، وأعتقد أنها لمحت ذلك. وكذلك لاحظه الشيفالييه، فقد حدَّثني بصدده ـ على الأقل - بطريقة لم ترم إلى تثبيط عاطفتي!

ولكني كنت في هـذه المرة حكيمًا، وكان الزمن يستدعي ذلك، إذ أننى كنت في الخمسين من عمري. ولما كنت مفعم النفس بالنصيحة التي أسديتها إلى الشيب، في رسالتي إلى « داليمبير »، فقد خجلت من ألا أفيـد منهـا. وإلى جانب ذلك، فإننى ـ بعد أن علمت كل ما لم أكن أعلم من قبـل - كنت خليقًا بأن أكون قد فقدت صوابى تمامًا، لو أنني جرؤت على أن أصبو إلى منافسة غريم في مثل تلك المكانة الرفيعة. وأخيرًا، فإنني على ما يبدو لم أكن قد شفيت تمامًا من هوى السيِّدة دوديتو، فكنت أحس بأنه ما من شيء بعد هذا الهوى يمكن أن يحتل محـله من قلبي، وودعت الحب ما بقي من عمرى.

لقد تلقيت - قبيل اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور - ملاطفـات خطرة، من شابة لها

أغـراض لديَّ، وقد كانت ملاطفاتها مصحوبة بنظراتٍ زاخرة بالمعاني، ولكن.. إذا كانت تتظاهر بنسيان سنى عمرى الخمسين، فإن من واجبي أن أذكرها!.. وبعد أن انتزعت نفسي من فخها، لم يعد يساورنى أى خوف من الوقوع، بل إننى لأشعر بأن في وسعى أن أثق بنفسي - في هذا الصدد - بقية عمري!

ولقد لاحظت السيِّدة دى بوفليير الانفعال الذي بعثه وجودها في نفسي، وكان بوسعها أن تلاحظ كذلك أنني قـد انتصرت عليه. إننى لست من الطيش، ولا من الغرور، بحيث أعتقد أننى - في هذه السن - أثير في نفسها أي ميل نحوى، ولكني - على ضوء بعض عبارات استخدمتها في حديثها إلى تيريز - أعتقد أننى أثرت نوعًا من الشعور الفضولي في نفسها. فإذا صح هذا، وإذا لم تكن قد صفحت عني لأنني لم أرض هـذا الفضول، فجدير بي أن أقر بأنني خلقت لأكون ضحية عيوبي وضعفي، ما دام الحب المظفر مصدر تعاسة لي، والمحب المهزوم مصدر تعاسة أكبر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا تنتهى مجموعة الرسائل التي كانت بمثابة دليل لي في هذين الجزءين. ومنذ الآن، لن يكون لي سوى أن أقفو آثار ذكرياتي. لكنها - في هذه المرحلة قاسية - ما تزال باقية، كما أن طابعها ما يزال قويًّا، حتى إننى أراني عاجزًا - رغم ضياعها في بحر التعاسات البالغة - عن أن أنسى دقائق أوَّل غرق منيت به سفينتى، بالرغم من أن ما بعـده، لا يوفِّر لي سوى ذكريات مرتبكة، غير واضحة المعالم.

وهكذا أستطيع السير في كراستي التالية، وأنـا ما أزال كثير الاطمئنان إلى مواقع قدمي..

فإذا اشتط بي النأي، فلن يكون هذا مدعاة لأي عجب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الجزء الخامس والأخير من « اعترافات جان جاك روسو »

- يحدثنا « روسو » عن تعاسات العظمة، وما يجلبه المجد من محن وشقاء..
- ويحدثنا عن كتبه التي أحدثت انقلابًا في الفكر العالمي، وفي التاريخ السياسي لأوربا..
- ويحدثنا عن ثورة أوساط الفكر الأوربي ضده، وتنكر الرأى العام له، وهياج معارفه وجيرانه عليه، وحرق كتبه في الميادين..
- ويحدثنا عن عداء السلطات له، وما أصلته إياه الحكومات من سياط الاضطهادات والجور..
- ويحدثنا عن فراقه لتيريز.. وموت النساء اللاتي لعبن أهم الأدوار في حياته وقلبه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم الجزء الرابع بحمد الله وتوفيقه

ويليه الجزء الخامس والأخير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



لينك الانضمام الى الجروب **– Group Link**

لينك القنـــاة **– Link**

فهرس الجزء الرابع..

Notes

[←1]

.ليرميتاج).. الكوخ النائي الذي أفردته له السيِّدة ديبيناي)

[←2]

لاشيفريت) الضيعة التي كان بها قصر آل ديبيناى، والتي كان (ليرميتاج) في) أقصى الغابات الملحقة بها.

[←3]

شارميت » بقعة في الريف السويسري، قضى فيها « روسو » فترة النقاهة « التي قُدّر له بعدها، أن يفترق عن السيِّدة « دي فاران ».

[←4]

ورد ذكر هذه المناسبة في الجزء الأوَّل، صفحة 154.

[←5]

روى « روسو » قصة هذا اللقاء في الصفحات من 216 إلى 221 من الجزء الأوَّل.

[←6]

روى « روسو » حديث مرضه وعلاجه ابتداء من صفحة من الجزء 138 إلى 163 من الجزء الثالث.

[←7]

الدرياد ».. جنيات الغاب، فقد ورد في أساطير الاغريق ذكر غابة كانت » تتقمص كل شجرة فيها حورية، أو جنية فاتنة.

[←8]

كانت من قصائد « فولتير ».

[←9]

في بحيرة ماجبوري.

[←10] مقدمو السفراء، كانوا موظفين يتولون تقديم السفراء والأمراء الأجانب عند زيارتهم الملك أو رئيس الدولة.

[←11]

« الدادتان » هو الاسم الذي أطلقه أصدقاء « روسو » على تيريز وأمها.

[←12]

عقب « روسو » على هذه النقطة - بعد الفراغ من كتابة اعترافاته - بقوله: « إننى - في لحظتي هذه - أعجب من غبائي إذ لم أبصر، عندما كنت أكتب هذه السطور، أن الاستياء الذي استشعرته عصبة « دولباخ » - حين تبينت أنني كنت مزمع الإقامة في الريف - لم يكن راجعًا إلَّا إلى أنهم لم يعودوا يجدون السيِّدة لوفاسير، في متناول يدهم، لترشدهم في خططهم بأن تحدِّد لهم الأماكن والمواعيد. وهذه الفكرة ـ التي لم تواتني إلَّا أخيرًا جدًّا - توضح تمامًا غرابة مسلكهم الذي يبدو غير واضح تحت أية افتراضات أخرى ».. ولم يوجد هذا التعقيب في أية طبعة سابقة على سنة 1801 مما ينم عن أن هذه الفكرة واتته عندما لم تعد النسخة الثانية من المخطوطات في حوزته.

[←13]

أضاف « روسو » إلى هذه العبارة: « ومن ثم فإن الذين حرَّضوه، أضاعوا جهدهم سدى في هذه المناسبة فقضيت الشتاء في هدوء بالغ!».

[←14]

العمة: لقب اعتاد « روسو » أن يطلقه على « تيريز ».

[←15]

يقصد الشخصيتين اللتين ابتدعهما خياله.

[←16]

أورد « روسو » ذكر « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » في صفحة 115 من الجزء الثالث (569).

[←17]

يقصد أنصار المشروع ومعارضيه.

[←18]

يستعمل « روسو » كلمة « المسيحيين » هنا بمعنى المتمدينين، المتنورين.

[←19]

كان تنفيذ هذه المهمة يتمثَّل في انتاج كتاب هو محور حديثه في هذه الفقرات.. وهو كتاب « جولى ».

[←20]

بيجماليون » ملك زعمت الأساطير الإغريقية أنه صنع تمثالًا من عاج، للمرأة ـ » كما كان يراها ـ فإذا به يتدله في هوى التمثال، حتى بثّت « أفروديت » الحياة في العاج، فانقلب التمثال أنثى تزوّجه الملك الفنان.

[←21]

نُشرت هذه الرسالة في مذكرات السيِّدة ديبيناي، وقد جاء بها: « أرسل إلى ناسكي هذه الأشياء للسيّدتين لوفاسير. ولما كان الرسول الذي أستخدمه جديدًا، فهاك بيان ما أرسلت معه ».. وفي نهاية الأشياء قالت: « وقطعة من « الفانيلا » الحريرية جد صالحة لها (أي السيّدة لوفاسير) لتصنع منها صدارة مناسبة لها، أو لك أنت، وعم صباح يا ملك الدببة »!.. ومن الواضح أن هذه الرسالة لا تستحق كل هذا الاسهاب الذي ذكرها به « روسو »، ولكن إيرادها في سياق ذكرياته - على هذا النحو - يدل على مدى تقديره لما كان أصدقاؤه يؤثرونه به من كرم وعطف، وعلى أن ما لقيه من بعض هؤلاء الأصدقاء، لم يحمله على أن يجحد أفضالهم في أوقات الصفا!

[←22]

يقصد قرار النزوح عن باريس والاعتكاف في الريف.

[←23]

محاولة اغتيال الملك لويس الخامس عشر، في 4 يناير سنة 1757.

[←24]

توفيت هذه السيِّدة وهي في الثالثة والثمانين من عمرها، وقد ظلَّت إلى آخر حياتها محتفظة بطيبة نفسها، واحترام عواطفها وخيالها. وميلها إلى اللهو والمسرات الذهنية. وكانت ذات براعة في قرض الشعر. وقد قالت في قصيدة ودَّعت بها عشيقها « سان - لامبير »، قبل رحيله للخدمة العسكرية:

« الحبيب الذي أعبده.. وقد تأهّب لفراقي

« بقيت له لحظة.. فأراد أن يستغلها ».

« يا لها من متعة باطلة.. يشتهى اقتناصها.

» وما أشدّ الضني.. ليصبح المر لذة! ».

[←25]

ورد هذا القول في الجزء الثالث من كتابه « هيلويز الجديدة »، في سياق الرسالة الثامنة عشرة..

[←26]

يقصد نفسه طبعًا!.. ولا تزال الروضة والخميلة والمسقط المائي والدار ذاتها باقية في (أوبون)..

[←27]

في النص الذي ورد في « مذكرات مدام ديبينـاى » ذُكرت العبـارة الأخيرة، على النسق التالي: « إنني أحلك - متى شئت - مما ذكرت بشأن أسراري، حتى لا أجشمك عناء صيانتها، فإنك لتعرف - أكثر من أي شخص آخر - أن ليس لديّ إلا كل ما يشرفنى الافضاء به ». وقد أرسلت نسخة من هذا النص إلى « جريم ».

[←28]

أردف « روسو » معقبًا بقوله: « وأعني بذلك، الرغبة في انتزاع المرأة العجوز من هذه العزلة، إذ كانت الحاجة ماسة إليها في تدبير المؤامرة. ومن المدهش أن ثقتي الحمقاء في الغير، ظلَّت - أبان هذه العاصفة الطويلة الأجل - تحول = بيني وبين أن أفهم أنها هي - ولست أنا - التي كانت مرتجاة العودة الى باريس .« ».. ويقصد بالمرأة العجوز هنا، السيِّدة لوفاسير، أم « تيريز

[←29]

.« يقصد الرد على الخطاب القاسي الذي تلقاه من « ديدرو

[←30]

الاحتياط الذي تمثّل في أنه ترك مدام لوفاسير تكتب ما تشاء، دون أن يطلع على خطابها.

[←31]

لقب أطلقه جريم على ابن السيِّدة ديبيناي، من قبيل الدعابة.

[←32]

قرطسة: مشتقة من قرطاس، وهو الورق.. وهو يقصد هنا، أن المادة كانت حشوًا، أو مجرَّد تسويد ورق.

[←33]

كتب « روسو » الجزءين الأوّلين من « جولي »، وقد انتابه الحنين إلى الحب، فراح يوحي إليه بأحلام محمومة، على ما أورد من قبل.

[←34]

يقصد « دولباخ ». ويُلاحظ أن « روسو » لم يذكر شيئًا من قبـل عن « أصول كتاب في الكيمياء »، ولا عن « الاتفاق » الذي تمَّ بشأن ذلك. ومن ثم فإن إيراد الأمر على هذه الصورة، يبدو محوطًا بالغموض. ولسنا نجد فيما كتب شيئًا يلقى مزيدًا من الضوء على هذه المسألة.

[←35]

ذكر « روسو » في الكراسة الثامنة، نبأ موت السيِّدة دولباخ. ومن ثم يحسن أن نذكر هنا أن البارون دولباخ كان ما يزال في مقتبل الشباب، عندما ترمل، فتزوَّج ثانية، وكانت زوجته الجديدة هي « كارولين - سو آن - أين »، وهي أخت زوجته المتوفاة، وقد حصل على إذن بذلك من روما. ومن هنا نفهم أن قصر (أين)، الذي ذُكر بعد ذلك، كان من أملاك الزوجة.

[←36]

رغبت السيِّدة بروتان، التي كانت تقيم على مقربة من (أوبون)، في أن تعرف حقيقة مصير هذه الرسائل، فسألت السيِّدة دوديتو يومًا عن الأمر، فأجابتها هذه بأنها قد أحرقتها فعلًا، فيما عدا رسالة واحدة، لم تؤت الشجاعة على حرقها لأنها كانت قطعة من البلاغة والغرام المشبوب.. وقد أسلمتها إلى السيِّد دي « سان ـ لامبير ». هذا ما ذكره السيِّد دى موسيه - في كتيب له بعنوان: « حكايات للتعقيب على مذكرات السيِّدة ديبيناى » - عن شهادة السيِّدة الفيكونتة داللار، التي عاشت في ود وثيق مع السيِّدة دوديتو، زهاء ثلاثة عشر عامًا.

[←37]

أضاف « روسو » إلى هذا تعقيبًا فيه: علمت فيما بعد أن هذه الكلمات كانت من نظم « دى سانتوييى »، وأن السيِّد دى لينان نسبها إلى نفسه!

[←38]

شخصية في إحدى المسرحيات الفكهة، هي مسرحية المظفرون من تأليف « ديتوش ». وقد ظهرت في سنة 1732.

[←39]

كان « جريم » قد أحب الآنسة « فيل » - دون أن تبادله هي الحب - فانتابته غيبوبة عجيبة، روى « روسو » قصتها في صفحة 151 (605) من الجزء الثالث.

[←40]

جورج داندان » إحدى شخصيات مسرحية موليير الفكهة « الزواج الخجول »
.»، وقد كان داندان فلاحًا تزوَّج من امرأة من بنات الأسرات العريقة ذات الجاه

[←41]

القلق النفسي الذي نشأ عن غضب « سان - لامبير » من علاقة « روسو » بعشيقته.

[←42]

يقصد فصل الشتاء.

[←43]

كان الدافع السري للرحلة - كما غدا معروفًا - هو أن السيِّدة ديبيناي حملت، نتيجة علاقتها بالسيِّد جريم. ولقد كان من العجيب حقًّا، أن تصحب معها - في رحلة كهذه - ابنها والمربي الذي كان يعني به. بل الأنكى من هذا، أن زوجها نفسه رافقها حتى جنيف!.. وكان الأعجب أنها اختارت (جنيف) بالذات لتضع حملها الآثم. ذلك لأنها ما كانت لتجد التستر المنشود هناك، إذ كان مجرَّد وجودها يجتذب الأنظار إليها.. على أن هذه المتناقضات جميعًا، كانت في حد ذاتها أدلة على دهاء هذه المرأة!

بقى دور « روسو » في هذه الواقعة. فلقد كانت الدعوة التي وُجهت إليه - دون اكتراث - حيلة أخرى، قُصد بها إرضاء غرور السيِّدة ديبيناى، بظهور فيلسوف مثله في ركابها.. كما أن جريم وعشيقته استغلّاها في إظهاره بمظهر الجاحد بفضل السيِّدة التي منحته مسكنًا وأولته ودّها!

[←44]

أطلق « جريم » هذا اللقب على « تيريز »، ولمعرفة السبب يحسن الرجوع الى هامش صفحة 124 (578) من الجزء الثالث.

[←45]

ورد هذا الخطاب في مذكرات السيِّدة ديبيناي، ولم يكن مؤلّفًا من سبعة أسطر أو ثمانية، بل أنه استغرق صفحة ونصف صفحة من الكتاب. ويلاحظ أن ذكر القطيعة لم يرد إلا في آخره، في حين أن « روسو » ذكر أنه لم يقرأه حتى نهايته. على أنه ذكر للسيِّدة دوديتو - في رسالة بتاريخ 8 نوفمبر سنة 1857 - أنه تلقّى من « جريم » خطابًا أثار اشمئزازه، حتى أنه ردّه إليه « خشية قراءته مرة ثانية ».. وهناك أحد احتمالين، أما أن يكون « روسو » قد بالغ في وصفه للخطاب، وإما أن ما نُشر في مذكرات السيِّدة ديبيناي كان خطابًا أُعدّ لتبرير مسلك « جريم »، وليس الخطاب الأصلي.

[←46]

.المحامي الذي يتولى المسائل والقضايا المتعلقة بالحكومة أو الهيئات الإدارية

[←47]

ورد نص هذا الخطاب في مذكرات السيِّدة ديبيناى، متضمنًا - في نهايته - هذه العبارة: « لقد تقاضي البستاني أجره حتى أوَّل يناير ». ولم ترد هذه العبارة في أية طبعة من « الاعترافات »، والظاهر أن « روسو » أغفلها خطأ، في حين أن رد السيِّدة ديبيناي لا يُفهم بدونها.

[←48]

تكذِّب مذكرات السيِّدة ديبيناي هذا القول، فقد ورد فيها رد من « روسو »، وصفته السيِّدة بأنه « أكثر قحة من جميع خطاباته الأخرى ». ويبدو أن « روسو » نسى ذلك، إذ أنه كتب اعترافاته بعد عشر سنوات من تلك الفترة.

[←49]

أضاف « روسو » إلى هذه العبارة تعقيبًا جاء فيه: « وأصبحت الآن ملكًا لهم، وفقًا لاتفاق جديد، عُقد بيننا أخيرًا ».

[←50]

وهنا أضاف « روسو » التعقيب التالي: « ولقد اتخذ - منذ كتابة هذا - خطوته الكبرى، بأكمل نجـاح، وبأكبر توفيق يجـلّ على الأفهام. وإني لأعتقد أن ترونشان هو الذي أمدّه بالتشجيع والوسيلة ».

[←51]

حديث في عدم المساواة.

[←52]

عقب « روسو » على هذا بقوله: « ولقد كان هذا ما ظللت أؤمن به - بسذاجة قلبي ـ حتى كتابة الاعترافات ».

[←53]

أضاف « روسو » إلى هذه الفقرة التعقيب التالي: « أعترف بأن كل ما استطعت - منذ كتابة هذا المؤلف - أن أتبينه خلال المواقف الغامضة التي تحيط بي، يجعلني أخشى ألّا أكون قد عرفت ديدرو حق المعرفة »!

[←54]

اليانسيون » أتباع مذهب دينى، ورد شرحه في الجزء الأوَّل من « الاعترافات » ».

[←55]

أضاف « روسو » إلى هذه العبارة، التعقيب التالي: « كنت عند كتابة هذا، مفعمًا بثقتي القديمة العمياء، أبعد ما أكون عن أن أرتاب في السبب الحقيقي لهذه الرحلة الى باريس، وفي نتائجها ».

[←56]

وردت قصة « البادوانا » في الجزء الثالث.

[←57]

الطبعة الجيدة هي التي طُبعت في (أمستردام)، أما الرديئة فهي التي دبَّر « دى مالیزیرب » اصدارها في باريس لمصلحة « روسو ».

[←58]

يقصد الكونتة دى بوفلير، التي كانت عشيقة الأمير!

[←59]

كان المرسل إليه هو المسئول عن نفقات البريد إذ ذاك.

[←60]

قدَّم « كتابى » ملخصًا لكتاب « اميل » في عدده الرابع، وملخصًا لكتاب « العقد الاجتماعي » في العدد 32.

[←61]

روى « روسو » هذا الحادث في الجزء الثالث.

[←62]

رسَّام فرنسي مشهور، وُلد في سنة 1619، ومات في سنة 1690.

[←63]

بيت من الشعر القديم، اعتاد كتّاب القرن السادس عشر - في فرنسا - أن يدسوه فى كتاباتهم، ومعناه أن الإله « جوبيتر » يطيش - أو يمحو - عقل أولئك الذين يقضي عليهم بالهلاك.

[←64]

من شعر « فيرجيل »: « أنا أنظم الشعر وغيري يجني المجد ».

[←65]

ذكرت القصة في الكراسة الثالثة ـ (الجزء الأوَّل).

[←66]

يقصد « روسو » ـ بهذا التعبير - نفسه.

[←67]

أضاف روسو: « وبهذه الطريقة سطا على « أميل » فيما بعد ».


كتابي
43
اعترافات
چان چاك روسو
الجزء الخامس
فريق
متميزون
E-BOOK
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع


فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كتابي
العدد رقم (43)

إعترافات چان چاك روسو
الجزء الخامس

إعداد: حلمي مراد



اعترافات
جان جاك روسو
الجزء الخامس

الأجزاء السابقة.. في سطور

الكتاب الأول

وُلدت في (جنيف)، في سنة 1712، لأب كان يعمل في صناعة الساعات، ولأم توفيت عند مولدي. وبدلًا من أن يكرهني أبي لذلك، فإنه أسرف في حبه لي، لأنني كنت شديد الشبه بأمي.

تنبه إحساسي قبل أن يتنبه فكري. ثم عمد أبي إلى أسلوبٍ خطر، إذ أشركني في قراءة الروايات والكتب الدسمة.

اضطر أبي إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسي، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى. فبقيت في كنف خالى « برنار »، الذي كان متزوجًا من عمتي، والذي أرسلني مع ابنه إلى (بوسى) لنقيم في رعاية القس البروتستانتي « لامبرسييه »، ولنتلقى العلم على يديه ويدىّ أخته. وكانت الآنسة « لامبرسييه » تولينى حنان الأم، ولكن عقابها إياى نبّه المشاعر الحسية والشهوانية في كياني!

على أثر عقابٍ ظالم، لذنب لم أرتكبه، كرهت الظلم، وولّت طمأنينة طفولتي. وتركت الدراسة فألحقنى خالى بمكتب موثق للعقود، على أمل أن أشق طريقي في المحاماة ـ فيما بعد - ولكني لم أستسغ هذا العمل، فرأى خالى أن من مصلحتى أن أتعلم حرفة. وألحقنى كصبى - أو تلميذ صانع - لدى حفَّار كان ينقش على المعادن. وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبرونني سنًا، فتعلمت السرقة، لا سيما وأن معلمى كان يقسو علىّ بالعقاب والحرمان، ومع ذلك فإنني لم اكن أسرق حبًّا في المال أو الحيازة.. وإلى جانب هذا، اشتد شغفي بالقراءة حتى أصبح تهوسًا.

واضطرتني قسوة معلمي، ونفوري من حياتي هذه، إلى الهرب من (جنيف).. فانتهى بي المطاف إلى سيِّدة محسنة في (أنيسي)، كان ملك سردينيا قد خصّها بمعاش، لأنها اعتنقت الكاثوليكية.. تلك هي « مدام دي فاران »، التي أشفقت علىّ، وأرسلتني إلى دير نبذت فيه عقيدتي البروتستانية، وأصبحت كاثوليكيًا.

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال، وعانيت الفاقة والمتاعب. ثم انتهيت إلى العودة إلى السيِّدة دى فاران، التي رحبت بى، وأنزلتني من نفسها منزلة الابن، وأفردت لى غرفة في دارها، وراحت تنفق على تعليمي الموسيقى، رغم تضاؤل مواردها.. وتعلقت بهذه السيدة تعلقًا ملك علىّ كل حواسى و عقلى..وبمرور الأيام صرت أدعوها « ماما »!

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم. فقد أوفدتني « ماما » مرة لأعاون السيِّد « لوميتر »، الذي كان رئيسًا لفرقة الموسيقى بكنيسة (أنيسى)، والذي اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم.. وقد رافقته إلى (ليون). وعندما عدت إلى (أنيسى)، إذا بي أفاجأ بأن « ماما » قد رحلت في بعض شئونها، ولم أدر لها مقصدًا أو مقرًا!

وأقمت فترة مع « فينتور » وهو شاب كنت أعرفه من قبل، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب. وكان لبقًا، أنيقًا، مرحًا يستهوي النساء. وفي تلك الأثناء، كان أبي قد تزوّج من امرأة على شيء من الدهاء والقول المعسول، وشُغل عني!

انتهى بي المطاف إلى (لوزان)، حيث رحت أتكسب عيشى بتدريسي الموسيقى، باذلًا جهدي - في الوقت ذاته - إلى تنمية معرفتي بها. وحاولت إذ ذاك أن أكون ملحنًا، دون ما إلمامٍ كاف بأصول التلحين، فمني لحني الأوَّل بفشل ذريع، جعلني أعيش في حزن وهوان لفترة من الوقت.

ولم أكف طيلة هذه الأحداث عن الحنين إلى « ماما »، لا لحاجتي المادية فحسب، وإنما لحاجتي القلبية قبل كل شيء!. ومع ذلك، فإن تعلقى بها - برغم ما كان عليه من تأجج وقوة - لم يكن ليحول بيني وبين أن أحب غيرها. ولكن، على غير شاكلة حبي لها!

وقُدِّر لي أن أذهب إلى باريس، ولكنني لم ألق فيها الحظ الذي كانت تصوره لي أحلامي. على أنني ظفرت هنـاك بنبأ جعلني أنطلق من جديد بحثًا عن السيِّدة دى « فاران ». وهكذا أخذت أجوب الأقاليم على غير هدى، متعرِّضًا للتشرد، والتضور جوعًا، والنوم في الطرقات.. حتى عرفت أخيرًا أن « ماما » الحبيبة قد استقرَّت في (شامبيرى)، فخففت إليها.. وما كان أحلاه من لقاء!

واستطاعت « ماما » أن تحصل لى على منصب في « المساحة »، فبدأت أكسب عيشي بعملٍ مشرف!.. وكانت هذه خير خاتمة لباكورة صباى!

وأقمت في دار « ماما »، في (شامبيرى).. ولكنها لم تكن في بهاء دارها الأخرى في (أنيسي)، إذ كانت موارد « ماما » في تضاؤل، وكانت أمورها مضطربة. وفي هذه الحياة الجديدة، اكتشفت أن « ماما » كانت على علاقة بخادمها الوفى « كلود آنيه ». وكان شابًّا لا يكبرني بكثير، ولكنه كان رزينًا وقورًا، غدا منى بمثابة المربي. ومع أنني لم أنج من الألم، إذ أدركت أن ثمـة من استطاع أن يعيش مع « ماما » في مودة تفوق مودتي كثيرًا، إلا أن وفائي للسيّدة امتد إلى الشـاب، فقد كنت راغبًا في سعادتها هي قبل كل شيء!

وانصرفت إلى الموسيقى ـ في تلك الأثناء - في استغراق ملك عليَّ حواسي، وحملني على أن أستقيل من عملي في « المساحة »، وأن أستعين على الحياة بتدريس هذا الفن. وقادني هذا إلى المجتمع الراقي، وإلى دور ذوى الجاه والثراء. وبقدر ما تعرَّضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط، فإن سذاجتي - التي ذهبت إلى درجة الغباء - كانت تفوت عليَّ الفرص، إلى أن أحست « ماما » بأن إحدى السيِّدات كانت توشك أن توقعني في أحابيلها، فأشفقت عليَّ من مخاطر شبابى، ورأت أن تنقذني منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة في مثـل ظروفها.. بأن تمنحنى نفسها!.. وهكذا أخـذت « ماما » تروى عطشي إلى النساء من معينها.. على أن العلاقة البدنية لم تفسد شيئًا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية، كمـا أنها لم تؤثر على علاقة كل منا بخادمها وعشيقها « كلود آنيه »، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض!

وما لبث « آنيه » أن مات ـ وهو في ريعان شبابه - فحللت محله في تدبير شئون « ماما » وماليتها. ولاحظت أن مواردها كانت في نضوب، فأخذت أعمل جاهدًا على أن أجنبها هاوية الافلاس. وانتهى بي التفكير إلى وجوب الحصول على عمل، كي أعول من دخله « ماما » إذا ألمت بها الفاقة. وفي سبيل ذلك رأيت أن أتعلّم التلحين، فكان هذا الاتجاه عاملًا جديدًا على تبديد مواردها المتضائلة!.. وكذلك شرعت في تأليف الأغاني.

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى، ومجالسة الحكّام وذوى الجاه، والرحلات.. وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعي، وغلبني الاكتئاب والأسى والتشاؤم، فنصح لي الطبيب بأن أقيم في الريف، وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلًا ذا حديقـة وبستان، في ضيعة (شارميت). وهناك، نعمت بأهنأ فترة في حياتي مع « ماما »!

ولكنه كان هناء قصير الأجل.. ففي تلك الأثناء، شعرت بضعف في القلب، وضيق في التنفس، وطنين في الأذنين، وتراخٍ في حيويتي، مما أوحى إليَّ بأن عمري لن يطول، فرأيت أن أستمتع بما تبقى منه أعظم استمتاع. وأقبلت على دراسـة العلوم والآداب، كما أكثرت من الأسفار، أنشد علاجًا لعللى.

وفي إحدى هذه الأسفار، التقيت بالسيِّدة دي « لارناج » وكانت تكبرني في السن كثيرًا، ولكنها راحت تعمل على اغوائي، حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل إقبالي عليها، لم تتورع عن أن تكون هي البادئة بالعناق والتقبيل.. وأصبحت عشيقتي خلال الرحلة! ولو أنني عشت مائة عام، لما استطعت أن أفكّر قط في هذه المرأة الفاتنة دون أن يطغى السرور عليَّ!.. كانت متعتي مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق.. أما مع السيِّدة دى لارناج، فقد كنت فخورًا برجولتى، مزهوًّا بسعادتي.

وكانت صدمة لي أن عدت إلى « ماما »، فوجدت أن شابًّا غيرى قد حلّ محلى أثناء غيابي.. وكان جاهلًا، مغرورًا، استطاع أن يفرض على « ماما » سلطانه، فلم أستطع أن أطيق بقاء إلى جوارها، وقرَّرت أن أهجر الدار، وأن أرحل إلى باريس، لأعرض على « الاكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلًا من العلامات.

وصلت إلى باريس في خريف سنة 1741.. واستطاع بعض مَن حملت إليهم خطابات للتوصية، أن يمكنني من التقدّم إلى « الأكاديمية » برسالتي التي قُدِّر لي أن يناقشني فيها علماء لم يكن بينهم مَن له إلمام كاف بالموسيقى، فانتهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتي. وبدلًا من أن أستسلم للقنوط، أسلمت نفسي للخمول وللقدر، ورحت أقتر على نفسي لأفيد بما تبقى من مواردي المتضائلة.

وأخرجني الأب « كاستيل » من استسلامي للكسل، إذ عرَّفني بالبارونة « دى بوزينفال » وابنتها المركيزة «دى بروجلي»، وبالسيِّدة « دوبان ».. وكن يملن إلى الموسيقى.. ولقد أبدت لي السيِّدة « دى بروجلى » عطفًا خاصًا، ونصحتني بتعلم « الاتيكيت »!.. أما السيِّدة « دوبان »، فكانت فاتنة الشخصية. وقد تعرَّفت لديها على السيِّد « دى فرانكويى »، ابن زوجها. وقد أطمعنى لطفها، فهمت حبًّا بها، وكتبت لها رسالة غرامية، ردّتها إلىَّ مع تأنيب جمد له دمي!.. وارتدَّ عقلى إلىَّ - بعد ذلك - فقنعت بصداقتها والتردد على دارها.

وفي تلك الأثناء، أقبلت على وضع « أوبرا » عن حيــاة ثلاثة من الشعراء، هم « تاس »، و « أوفيد »، و « أناكريون ».. وقد أسميتها « عرائس الشعر اللطاف ». وقبل أن أفرغ منها، التحقت بالعمل كسكرتير للسيِّد الكونت « دى مونتيجى »، سفير فرنسا في البندقية.. ورحلت إلى هناك.

واستطعت في هذا المنصب أن أبدى مهارة وحكمة، وأن أكتسب محبة الفرنسيين المقيمين في (البندقية)، وإن اكتسبت عداء السفير، إذ كان رجلًا أحمق، جاهلًا، جشعًا، أسلم قياده لمستشارين من الإيطاليين استغلّاه أشنع استغلال، وأوقعا بينه وبين الفرنسيين هناك.. واستطاعا أن يوغرا صدره علىَّ لأننى كنت مخلصًا لعملي، جادًا في مسلكي، معتزًا بكرامتي. وكان من جراء ذلك أن راح السفير يضايقني ويكثر من مشاكستى، حتى اضطررت ـ في النهاية ـ إلى أن أترك العمل في السفارة، برغم أن السيِّد «دى مونتيجي» أبى أن يسوي حسابى، وأن يدفع إلىَّ استحقاقي.

وفي (باريس)، رحت أشكو تصرفات السفير معى لذوى النفوذ، فكان كل امرىء يقرّني على أننى أوذيت وظُلمت، ولكن أحدًا لم يحاول أن ينصفني.. على أن الرجل لم يلبث أن جني على نفسه بتصرفاته الحمقاء، فاستدعى إلى باريس، وأقصى عن منصبه، وأوعز إليه أن يرد إلىَّ ما كنت أستحق من نقود لديه.. على أن عدالة شكاياتي، وعدم اكتراث أحد بانصافى طيلة تلك الفترة، خلَّفت في نفسي بذور السخط على المدنية الحمقاء، التي تضحي نظمها بالمصلحة العامة، والعدالة الحقة، وتخلع شرعيـة السلطة العامة على جور الأقوياء واستبدادهم بالضعفاء!

وتفرغت لاستكمال « الأوبرا » التي كنت قد بدأتها.. وفي تلك الأثناء، تعلقت بفتاة محتشمة ساذجة كانت تعمل في الفندق الذي نزلت فيه، فسرعان ما برح بنا الهوى.. واعترفت لي بزلة وحيدة تعرَّضت لها في فترة مراهقتها، فلم يحل هذا دون أن ازداد حبًّا لها!

واكتملت « أوبراى »، فعرضتها على « رامو » - الذي كان واسع النفوذ في الوسط الفنى - ولكنه تحامل عليها، وأذكت تحامله تلميذته ـ السيدة ديلا بوبلينيير - فراح يتهمني بأننى سرقت الألحان.. على أن السيِّد « ريشيليو » شجعني، وسألني أن أغير الفصل الأخير من « الاوبرا »، ليسعي لعرضها على مشهد من الملك. وما لبث أن شغلني عنها بأن أناط تعديل « أوبرا » كانت من تأليف « فولتير » وتلحين « رامو ». وأدَّى اشتراكي مع هذين العظيمين

في عمل كهذا، إلى إذكاء روحي المعنوية. غير أن « رامو » استطاع - بالتواطؤ مع السيِّدة ديلا بوبلينيير - أن يحول دون أن يعرف الرأي العام نصيبي في ذلك العمل!

وأدَّت كل هذه الظروف إلى تثبيط عزيمتي نحو الرقي، فلم أعد أفكر في أكثر من كسب قوتي وقوت تيريز، بالعمل كسكرتير للسيِّدة دوبان، والسيِّد دي فرانكويى.. وأقبلت في تلك الأثناء على دراسة الكيمياء مع الأخير.

أنتجت علاقتي بتيريز ثمرة أسلمناها إلى ملجأ اللقطاء.. وكذلك فعلنا بأبنائنا الذين تعاقبوا حتى صاروا خمسة!

وما لبثت أن قرأت صدفة عن الموضوع الذي حدّده المحفل العلمي بديجون لمباراته في العام التالي، وهو: « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها؟ ».. وانتابتني شبه غيبوبة، وأتاني خلالها إلهام أوحي إليَّ بمقال في الموضوع أرسلته إلى المحفل.

وفي تلك الأثناء كنت قد أثثت لنفسى مسكنًا خاصًا، ضممت فيه « تيريز » إليَّ.. وسرعان ما أقبلت أسرتها تعيش معنا. وبقدر ما سعدت بلحظات هانئة مع فتاتى، فإننى شقيت بأهلها الذين كانوا يستنفدون مواردها - من عملها - ومواردى.

وقُدِّر لمقالي أن يفوز في العام التالي - 1750 - بجائزة محفل ديجون، فأيقظ ذلك في نفسي حب التحرر من خدمة الغير، والسعى إلى أن أكون إنسانًا فاضلًا، ذا استقلال ذاتى.

واضمحلت صحتى - في هذه الفترة - فأوحي إليَّ طبيب شهير بأنني لن أبقى في الحياة لأكثر من ستة أشهر. فقرَّرت أن أعيشها حرًّا مستقلًا، ولو اضطرني هذا إلى حياة الكفاف.. واشتد عزمي على أن أتمسك باستقلالي، فاستخدمت كل قواي الروحية في تحطيم أغلال الرأي العام، وفي أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرًا، دون أن أحفل بآراء الناس. فأوغر مسلكي هذا صدور أصدقائي.

وعملت كناسخ للقطع الموسيقية، بعد أن استقلت من خدمة السيِّدة دوبان والسيِّد دي فرانكويى.. وأخذت أنحو نحو التقشف لأصلح من أمر نفسي. وكان مقالي قد أحدث في تلك الأثناء ضجة فكثرت شواغلى الأدبية، حتى ألهتني عن عملي في نسخ الموسيقى.. وأثار المقال انتقادات مريرة، اشترك فيها الملك « ستانيسلاس » البولندي بنفسه، فانصرفت إلى الذود عن آرائي في جرأة خشي عليَّ بعض أصدقائي منها.

وما لبثت أن أدركت أن العيش في فقر وحرية، ليس بالسهولة التي يتصورها المرء دائمًا!.. ولقد حاول بعض المعجبين بي أن يعوضوني عن ذلك بالهدايا، ولكني رحت أرفض جميع الهدايا، دون ما استثناء.. ولم يصادف هذا المسلك هوى من نفس السيِّدة لوفاسير - أم تيريز - ولا أفلح ما اتسمت به ابنتها من تجرد من النفع الذاتي، في صدّها عن قبول الهدايا من وراء ظهري، ومن إغرائها ابنتها على أن تقبلها هي الأخرى، أو أن تكتم عنى أمرها، على الأقل!

ومن هنا اشتدَّ الخلاف بيني وبين السيِّدة لوفاسير التي راحت تحرض ابنتها عليَّ، وتذمني لدى اصدقائي، وتتآمر مع مَن كانوا يحاولون منهم أن ينالوا منى.. ولقد أدَّى اندماجى في المجتمع إلى أن أعمل على إذكاء اعتدادي بنفسي، فأحالنى الحياء إلى هجاء لاذع، وإلى أن أزدرى آداب اللياقة.. فاضطر الساخرون إلى أن يحدوا من سخريتهم.

وأدَّت قصة « عرَّاف القرية » إلى تألقي في المجتمع، فكثر معارفى.. وكانت هذه « الأوبرا » من طراز جديد، وقد استطاعت أن تكتسب إعجاب الجمهور، كما حضر الملك وحاشيته

عرضها في البلاط. ولقيت من التكريم ما أثار خجلي، حتى أنني عندما دُعيت إلى القصر الملكي، وقيل لي إن من المعتقد أن الملك قد أزمع أن يعلنني بأنه قرّر منحي معاشًا سنويًا، بادرت إلى التهرّب من المناسبة، وتخليت عن المعاش.

وزاد النجاح من تنكر أصدقائي لي، وتألبهم عليَّ.. وفي تلك الأثناء، وضعت رسالتي عن: « حديث في عدم المساواة »، التي أثارت فيما بعد ضجة كبيرة، واجتلبت عليَّ نقمة الحكومات، لا سيما حكومة (جنيف).

وفي ذات يوم، دعتني السيِّدة ديبيناي إلى مرافقتها إلى ضيعتها (لاشيفريت)، حيث كان العمل جاريًا في إضافة جناح إلى القصر.. وهناك، وجدتها قد جدَّدت بناء كوخ صغير كان في طرف المتنزهات الملحقة بالقصر، في متاخمة غابة (مونمورنسي).. وكنت قد أبديت من قبل إعجابى به لقيامه في موقع منعزل جميل، فعملت السيِّدة على إعداده لسكناي، ودعتني للإقامة فيه. وبالرغم مما أثاره هذا من تخرصات « أصدقائي »! الذين راحوا يروجون أنني أعيش على كرم السيِّدة ديبيناى، فإننى لم أتردد في هجران باريس، والإقامة في (ليرميتاج) - كما كان ذلك الكوخ يُسمى ـ مصطحبًا « تيريز » وأمها.

وهناك، تفرغت للانتاج الأدبي. ومع أنني بدأت أشعر بأن إقامتي على مقربة من السيِّدة ديبيناي، وفي ضيافتها، قد حدَّ بعض الشيء من حريتي، إلا أن هذا لم يحد من إقبالي على الإنتاج.

وفي هذه الفترة بالذات، اشتدَّ توثق العلاقات بيني وبين « تيريز »، وازداد فهم كل منا للآخر.. وقد يعجب القاريء لهذه الرابطة التي توجتها في شيخوختي - وبعد خمس وعشرين سنة من المعاشرة - بالزواج.. قد يعجب القارىء لهـذه الرابطة، إذا صارحته بأنني لم أحب يومًا « تيريز » ولا اشتهيتها.. ومع ذلك فإنها كانت « وماما » أعزّ امرأتين لديَّ!.. الواقع أن ما دفعني إلى التعلق بتيريز - من البداية - هو أننى كنت أتوق إلى زميلة أندمج معها روحًا وقلبًا.. وكان لطفها وسذاجتها وأخلاقها كفيلة بأن توحي إليَّ بأنها خير مَن تصلح لذلك. ولكن ولاءها لأمها وأسرتها، وجشع هؤلاء، كانا يفسدان علينا هناءنا.. وكانا يجعلان تيريز ملكًا لأهلها، أكثر مما كانت ملكًا لي، أو ملكًا لنفسها!

وكنت أشعر بحاجة إلى صديق يملأ فراغ قلبى بوده، ويحفزني على التخلص من كسلى المعتاد، فرحت أعزّز علاقاتى بديدرو، والراهب دى كونديللاك، وغيرهما.. وما لبثت أن وجدتني مرتميًا في أحضان الأدب، الذي كنت قد هجرته. وأفضى بي هـذا إلى دنيا جديدة من الفكر، فلم أعد أرى في فلسفاتنا سوي خطل، ولا في نظامنا الاجتماعي سوى ظلم وشقاء.. وانتهيت إلى أن أوثر الحياة في عزلة ـ في الريف - متبعًا سنن الطبيعة، فلم يغتفر لي أصدقائي المزعومون هذا المسلك!

وقضيت أربع سنوات في هذه الفورة، لم أعتنق خلالها سوى كل جليل وجميل. ومن هنا نبعت بلاغتى المفاجئة، وتولّد ذلك اللهب السماوي الصادق، الذي ألهبني وانتشر في كتبي الأولى.. وازدريت أخلاق عصري ومبادئه وأوهامه، فإذا معظم أصدقائي - لا سيما البارون « دولباخ » وعصبته، و « جريم » و «ديدرو» - ينقلبون عليَّ، بل إنهم استمالوا إليهم أم « تيريز »، وحاولوا استمالة « تيريز » نفسها، لولا أن حب الفتاة ووفاءها دفعاها إلى أن تصارحني بكل شيء، عندما أدركت الخطر الذي كان محدقًا بي، من جراء دسائس الأصدقاء المزعومين.

ولم يعكر عليَّ صفاء العيش في مسكنى النائي، وعزلتي الفاتنة، سوى أنني كنت رهنًا بتدبيرات السيِّدة « ديبيناى » » وإزعاج الزائرين الذين كانوا يتوافدون على دارى.. وأخذت في تلك الأثناء أحن إلى أم (شارميت)، وإلى الماضي الهنيء، وإلى الحسان

والتلميذات اللائي عرفتهن في شبابي الباكر..

وإذا بجان الجاد، المتقشف، الذي أشرف على الخامسة والأربعين، يرتدّ فجأة هائمًا وراء الحب.. وطوَّحت بى استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية، إلى عالم الأوهام والخيالات، كى أغذى صبابتي من عالم خيالى، تعمره أطياف فاتنة!

وفي أوج نشوتي بهذا العالم السحرى، عاودني المرض القاسي (احتباس البول). وضاعف من أساى المتاعب المنزلية. إذ كانت السيِّدة « لوفاسير » - أم تيريز - تؤلب ابنتها علىَّ. ورأيتها ممعنة في التآمر مع « جريم » وعصبة « دولباخ »، فلم أجد بدًّا من أن أقصيها عن دارى، وإن كفلت لها نفقات الإقامة في (باريس).

على أنني لم ألبث أن عدت إلى عالم خيالي، فتمثلت الحب والصداقة - وهما معبودا قلبي - في شكل حوريتين متجانستين، متحابتين، ورحت أضفى عليهما كل ما كنت أعجب به من مفاتن الجنس الآخر، ووهبت إحداهما حبيبًا كانت الأخرى صديقته الحنون.. ثم أسكنتهما عالمًا سحريًّا جمعت فيه كل ما كنت أعجب به من روائع الطبيعة في البقاع التي شهدتها.. ثم رحت أسكب خيالاتي على الورق، مؤلفًا منها كتابى: « جولى ».

وفي تلك الأثناء، زارتني السيِّدة الكونتة دوديتو، أخت السيِّد ديبيناى، فتوثقت بيننا عرى الصداقة. وكانت زيارتها أشبه بفاتحة قصة غرامية.. ولم تكن السيِّدة دوديتو جميلة، فقد شوه الجدري وجهها، كما أنها كانت قصيرة البصر. ولكنها أوتيت إشراقة الشباب، وجاذبية قوية، وقوامًا بديعًا، وخفرًا يضاعف من بهائها. كما كانت لها أخلاق نبيلة، وكانت شديدة الوفاء لعشيقها « دى سان - لامبير »، الذي كان يستحثها على أن توثق صلاتها بي. على أن علاقتي بها تحوَّلت إلى وجد مشبوب، غلبني على أمرى، فلم أرع الصداقة، ولا السن.. ولقد حرصت هي على أن تكبح جماحي، ولم تأب علىَّ شيئًا مما يستطيع أرق الود أن يكفله، ولكنها لم تمنحني شيئًا كان يحتمل أن يرديها في حمأة الخيانة!

على أنني أخطىء إذا قلت أن حبي لم يلق جزاء، بل إنه كان حبًّا متعادلًا لدى الطرفين، وإن لم يكن متبادلًا بينهما.. كان كلانا نشوان بالهوى.. هواي إياها، وهواها حبيبها!.. وكانت زفراتنا ودموعنا ونجوانا تمتزج فتترابط، حتى لقد كان من المستحيل ألا تتحد.. ومع أنني في غمرة الجوى، كنت أنساق للدوافع الشهوية، إلا أن السيِّدة دوديتو لم تنس نفسها لحظة واحدة.. ومع أنها لم تأب علىَّ عناقًا أو قبلات، إلا أنها ظلَّت طاهرة الجسد والقلب!..

ولم أفطن في افتتاني إلى أن « دولباخ » والسيِّدة « ديبيناى » قد لاحظا ما بيننا، وأن الأخيرة دسَّت لنا لدى « سان - لامبير » الذي كان مع الجيش في (ويستفاليا). وانضم إلى المتآمرين « جريم » الذي كان ناقمًا لأن السيِّدة « دوديتو » صدّته من قبل. واستثارني أن جاءت السيِّدة ديبيناي إلى (ليرميتاج) مرة، وحاولت أن تغرى تيريز بأن تطلعها على ما كنت أتلقاه من رسائل السيِّدة « دوديتو ». فإذا بي أكتب إليها في قسوة، كاشفًا عن انتباهي إلى مؤامراتها الخبيثة. ومع أن الوئام عاد بيننا ثانية، إلَّا أنه لم يلبث أن تحوَّل إلى خصام، عندما عرضت علىَّ السيِّدة ديبيناي أن أصحبها في رحلة إلى جنيف، فأبيت.

وفي تلك الأثناء، نشر ديدرو كتابه « أبناء السِفاح »، فأحزنني أن وجدت فيه تلميحات غير كريمة، لا سيما قوله أنه « لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث ». وكتبت إليه عاتبًا في رفق.. ولكن هذا لم يزده إلا تحاملًا. واستولت الضجة التي أخذ خصومي يثيرونها - باسم الصداقة - على أذهان الناس، حتى أصبحت في نظرهم مخطئًا. بل أن السيِّدة دوديتو، لم تلبث أن حملتني على أن أذهب إلى (باريس)، لأسعى إلى صلح معه، ولكن هذا الصلح لم يقدَّر له دوام!

ولم تكن الأيام تزيدني إلا يقينًا من غدر « جريم » وخداعه. على أنه أضاف إلى ذلك استعلاءً غريبًا، مذ أصبح حليلًا لمدام ديبيناى. ثم تطوّرت الأحوال وتفاقمت بعد أن أقصيت مدام لوفاسير عن داري، إذ أنها كانت عينًا له ولزمرة المتآمرين.. واستفحل الأمر، حتى انتهى بي إلى أن غادرت (ليرميتاج)، وأقمت في دار صغيرة في (مون لوى) بمونمورنسى.

وما لبثت مدام دوديتو أن بارحت الريف - هي الأخرى - فانتهت بذلك علاقاتي الشخصية بها. وأقسم بأن هواي التعس لم يفقد شيئًا من عنفوانه، ولكن كرم « سان - لامبير »، وولاءها له، تركا أثرًا قويًا في نفسي، حتى أن شهواتى فارقتنى، ومن المحتمل أن الوجد الذي أذكته في قلبي، هو أقوى وجد شعر به أي رجل عن الإطلاق. وسيبقى دائمًا ممجدًا مكرَّمًا لدى السماء ولدينا، بفضل التضحيات الفذّة، والأليمة، التي قدمناها في سبيل الواجب، والشرف، والحب، والصداقة.

وبدا أن مقامي في (مونمورنسى) قد ساء السيِّدة ديبيناى وجريم، فعقدا العزم على أن يقضيا عليّ قضاءً مبرمًا. فراحا وحلفاؤهما يشهرون بي، ويبذرون الاتهامات الخبيثة ضدى. وهم يتظاهرون بالعطف والاشفاق عليّ، فسرعان ما خُدع الرأي العام بحيلهم، واعتقد أنني كنت غادرًا بأصدقائي، جاحدًا لأفضالهم، ونظموا حملة بارعة لتشويه سمعتى، وليس ما يوغرهم ضدى سوى أنني احتفظت ببساطة ميولي الأصلية، وتشبثت بمبادئي وواجباتي، وسلكت في جلد طرق الاستقامة والاستقلال، فلم أتملق أو أتزلف على حساب العدالة والحق.

وأقبل الشتاء، فلم أعد أغادر الدار، وفي عزلتي هذه، أتممت قصة « جولي » وأرسلتها إلى الناشر.. وفي تلك الأثناء، تعرَّفت بالسيِّد المارشال دوق دى لوكسمبورج والسيِّدة زوجته. وكانا من ألمع نجوم البلاط الملكي.. كما كان الدوق صديقًا شخصيًا للملك. وقد غمراني بلطفهما ومجاملاتهما، وقرَّباني إليهما.. وسرعان ما وجدتني أسير سحر الدوقة الفاتنة، لا سيما حين رحت أقرأ عليها قصة « جولى »، وهي في مخدعها.. واستولى على الدوقة شغف طاغ بـ « جولى » وبمؤلفها، فأصبحت لا تتكلم إلا عنى، ولا تفكر إلا فيَّ. وكانت تعانقني عشر مرات في النهار، ولا تجلس إلى مائدة إلَّا إذا كنت معها.

وطلبت الدوقة نسخة من قصتي الجديدة « هيلويز »، فخطر لي أن أضم إلى القصة صفحات كنت كتبتها بعنوان « مغامرات اللورد إدوارد ». وكأنما كان القدر يسوقني إلى ما أكره، إذ كان في تلك المغامرات ذكر لمركيزة رومانية متهتكة. وكانت فكرة خرقاء، إذ أنها أوحت للدوقة بأن ثمة شبهًا بينها وبين بطلة القصة ـ وهو مالا بد قد آذى شعورها - وما حدست الأمر إلا بعد أمد طويل، وبسبب ظواهر أخرى ترتبت عليه. فقد حدث أن أقيل المراقب العام للمالية الفرنسية من منصبه، لأنه اتخذ إجراءات شديدة لإنقاذ الدولة من طغيان رجال المال، فكتبت أهنئه بهذه الإقالة المشرفة، واستطاعت الدوقة أن تحصل على صورة من هذا الخطاب، دون أن أفطن إلى أنها من فريق « جامعي المال ».. وما لبث الفتور أن دبَّ بيني وبينها، وإن ظلّ زوجها وثيق العلاقة بي!

وباتصالي بالدوقة دي لوكسمبورج، تعرَّفت إلى السيِّدة دى بوفلبير، أختها.. كما أنني لم ألبث أن غدوت مدينًا لها، عندما تنازل السيِّد الأمير « دى كونتي » بزيارتى مرتين في داري، وبإسباغ عطفه عليّ. وقد كدت أرتكب حماقة جديدة، بأن أغدو منافسًا له في حب السيِّدة دي بوفلبير، لولا أنني كنت - وقد بلغت الخمسين - أحكم منى عندما تدلهت في هوى السيِّدة دوديتو، فعرفت كيف أقاوم وجدى.

وهنا تنتهى مجموعة الرسائل التي كانت بمثابة دليـل لي في الكراسات السابقة، وأصبح عليّ أن أعتمد على ذاكرتي فيما بقى.

والآن.. تعال نواصل قراءة هذا الجزء الباقي من الاعتـرافات، وهـو أهمها..

∞∞∞∞∞∞∞

الكراسة الحادية عشرة

سنة 1761

ومع أن قصة « جولي » - التي استغرقت طباعتها أمدًا طويلًا - لم تكن قد ظهرت بعد حتى نهاية سنة 1760، إلَّا أنها كانت قد شرعت تثير ضجة كبرى. فإن السيِّدة دى لوكسمبورج راحت تتحدَّث عنها في البلاط، كما أن السيِّدة دوديتو كانت تتحدَّث عنها في باريس. بل إن هذه الأخيرة استأذنتني، باسم سان - لامبير، في قراءة القصة ـ من النسخة المخطوطة - على ملك بولندا، الذي فُتن بها. وعمد ديكلو - الذي كنت قد سمحت بقراءاتها عليه - إلى الحديث عنها في المجمع (الأكاديمية). فكانت باريس بأسرها تتحرَّق شوقًا في انتظار هذه القصة، وحوصرت متاجر الكتب في شارع (سان جاك) و (باليه رويال) بالناس الذين كانوا يتساءلون عن أنبائها!

وظهرت أخيرًا، فكان نجاحها الخارق متمشيًّا مع الشـوق الذي كانت تُرتقب به![1]

وتحدَّثت السيِّدة زوجة ولي العهد - التي كانت من أوائل من اطلعوا عليها ـ إلى السيِّدة دى لوكسمبورج عنها، فوصفتها بأنها مؤلَّف يسلب الألباب. ولقد انقسمت الآراء بين أهـل الأدب. أما لدى الجمهور، فلم يكن ثمة سوى رأى واحد.. وافتتنت النساء - بوجه خاص - بالكتاب وبالمؤلف، إلى حد أنه لم يكن بينهن من لم يكن في وسعى أن أغزو قلوبهن، لو أننى شئت، سوى القليلات.. حتى في الأوساط الراقية!.. ولديَّ على ذلك أدلة لا أبغى نشرها ولكنها تؤيد قولى، دون ما حاجة إلى ذلك. ومن العجيب أن هذا الكتاب كان أكثـر نجاحًا في فرنسا منه في بقية أوربا، بالرغم من أن الفرنسيين - رجالًا ونساءً - لم يجدوا منى معاملة طيبة جدًّا فيه. ولقد كانت ضآلة نجاحه في سويسرا، وعظم نجاحه في باريس، مناقضـين لكل ما توقعت. أفهل كانت الصداقة والحب والفضيلة أكثر سلطانًا في باريس منها في أي مكان آخر؟.. لا، بلا شك، وإنما كان لا يزال يغلب عليهـا ذلك الشعور العارم، الذي ينتشى به القلب، عندما تصور له الأحاسيس النقية، الناعمة، الفاضلة.. والذي يحدونا إلى أن نعتز بما لدى الغير من هذه الأحاسيس التي لم يعد لدينا منها شيء!.. إن الفساد يشيع اليوم في كل مكان، فلا وجود لأخـلاق ولا لفضيلة في أوربا. فإذا قُدِّر أن يكون ثمة حب باق لها، فإن باريس هي المكان الذي يجب أن نبحث عنه فيه[2].

وفي غمرة هذه الأباطيل والترهات العاطفية، كان لا بد من الإلمام بتحليل القلب البشري تحليلًا صحيحًا، حتى لا يخلط المرء الأحاسيس الفطرية الصادقة بها. كان لا بد - للشعور بالعواطف القلبية المرهفة التي اشتمل عليها هذا الكتاب - من رقة ولباقة لا تتوفران إلا بالاتصال بالمجتمع الراقي، إذا جاز لي أن أقول هذا. واني لأشبه الجزء الرابع من هـذا المؤلّف بكتاب « أميرة كليف »، دون ما تورع.. وأؤكد أن هـذين الكتابين ما كانت قيمتهما لتتجلى، لو أن قراءتهما اقتصرت على الأقاليم وحدها. لذلك فلا عجب من أن أعظـم نجـاح ظفرت به « جولي » كان في البلاط الملكي. فقد أثارت هناك أهواء عارمة - ولـكنها مستترة - كانت خليقـة بأن تحظى بالإعجاب، لأن أفراد الحاشية كانوا على دراية ومران بأن يستشفوا ما وراءها. على أنه لا بد من الإشارة هنا إلى مفارقة ظاهرة.. تلك هي أن مطالعة هذا النوع من المؤلفات، لا يلائم - يقينًا - أولئك الأذكياء الذين لا يتجه ذكاؤهم إلا إلى المكر، والذين لم يؤتوا من اللماعيـة إلا ما يمكنهم من أن يكتشفوا السوء.. والذين لا يبصرون شيئًا على الإطلاق، حيث لا يتبدى للأبصار سوى كل ما هو طيب وحسن!.. فلو أن « جولى » نُشرت في بلد معين يخطر ببالي - مثلًا - لما أقبل أحـد على قراءتها حتى نهايتها، ولماتت في يوم مولدها!

ولقد جمعت معظم الرسائل التي كُتبت إليَّ عن هذا المؤلَّف، في حزمة عهدت بها إلى

السيِّدة « دي نادياك »[3]. فإذا قُدِّر لهذه المجموعة أن ترى النور، فإنها ستكشف عن كثير من الغرائب، وعن تناقض في الرأى، يبين ما يلقاه المرء إذا ما تعرَّض لمسألة تهم الرأي العام. على أن أقل ما فطن إليه القوم، هو عين الميزة التي ستجعل هذا المؤلَّف فريدًا في نوعه دائمًا.. ميزة بساطة الموضوع، وتسلسل السياق الذي اقتصر على ثلاثة أشخاص، وتتابع في ستة مجلدات دون ما استعانة بأحداث، أو مغامرات خيالية، أو شوائب من أي نوع، سواء فيما يتعلق بأبطال القصة أو بتصرفاتهم!.. وكان « ديدرو » قد أطرى « ريتشاردسن »[4] كثيرًا، للتنوع الهائل الذي تجلى في مواقف قصته، ولتعدد الشخصيات التي قدّمها. وليس من شك في أن « ريتشاردسن » كان موفقًا إذ خلع على تلك الشخصيات كل الصفات المميزة. على أنه عمد - فيما يتعلق بصددها - إلى ما هو شائع لدى القصصيين غير الناضجين الذين يتسترون على تفاهة أفكارهم بزحمة الشخصيات والوقائع. إذ أن من السهل استثارة الاهتمام، بتقديم سيل لا انقطاع له من الأحداث العجيبة والوجوه المستحدثة، التي تتوالى وكأنها أطياف مصباح سحرى.. ولكن استبقاء هذا الاهتمام على الدوام، بنفس الأشياء، ودون ما وقائع غريبة مدهشة، أمر بالغ المشقة!.. وعندما تتساوى جميع الاعتبارات، نجد أن بساطة الموضوع تضاعف من جمال الكتاب.. ومن هنا نرى أن قصص « ريتشاردسن »، وإن تفوقت في كثير من الاعتبارات، إلا أنها لا تُقاس، من هذه الناحية، بقصتى. وإذا كانت هذه قد ماتت ـ وإني لأدرك هذا، وأعرف السبب ـ إلا أنها لن تلبث أن تُبعث من جديد!

وما كنت أخشى سوي أن يكون تطور القصة مملًا، بحكم بساطته، وأن أكون قد عجزت عن توفير قدر كاف من الاهتمام، يظل مستمرًا حتى نهايتها، ولكني لم ألبث أن اطمأننت، بفضل واقعة هزَّت مشاعرى أكثر مما هزّتها جميع التهاني والمديح التي اجتلبها علىَّ هذا الكتاب:

ذلك أن القصة ظهرت في بداية أعياد المرافع (الكرنفال). فحملها أحد الباعة المتجولين إلى السيِّدة الأميرة « دى تالمون »[5]، في أحد الأيام التي أقيمت بها الحفلات الراقصة بدار « الأوبرا ». وبعد أن تناولت السيِّدة العشاء، ارتدت ثيابها تأهبًا للذهاب إلى الحفلة. حتى إذا اضطرت إلى الانتظار ساعة، عمدت إلى قراءة القصة الجديدة، وعند منتصف الليل، أمرت بأن تُشد الجياد إلى عربتها، ثم واصلت القراءة. وأقبل مَن أعلنها بأن العربة معدة، ولكنها لم تجب. وإذ رأى خدمها أنها قد نسيت نفسها، أقبلوا ينبهونها إلى أن الساعة بلغت الثانية صباحًا.



رأى خدمها أنها قد نسيت نفسها ، أقبلوا ينبهونها إلى أن الساعة بلغت الثانية صباحًا .

فقالت وهي مسترسلة في القراءة: « لا داعي بعد للعجلة! ». وبعد فترة، تبينت أن ساعتها كانت قد توقفت عن العمل، فدقت الجرس لتستعلم عن الوقت، فقيل لها أن الساعة كانت الرابعة. فقالت: « إذن فالوقت جد متأخـر، ولا سبيل إلى الذهاب إلى المرقص، فأطلقوا الجيـاد! ». وخلعت ثيابها، ثم قضت بقية الليل في القراءة!

ومذ رويت لي هذه الواقعة، أصبحت مشوقًا دائمًا إلى رؤية السيِّدة دى تالمون، لا لكي أعرف منها - بالذات - أن الواقعة صحيحة، فحسب، وإنما لأنني لم أكن أظن قط أن من الممكن أن يشعر أي شخص بمثل هذا الاهتمام المحتـدم نحو « جولى »، دون أن يكون قد أوتى الحاسة السادسة.. حاسة الإدراك الخلقي والأدبي التي لم تحظ بها سوى قلوب قلائل، والتي لا سبيل بدونها إلى فهم قلبي!

ولقد كان الأمر الذي جعل النساء يؤثرنني بهذه الدرجـة، هو الاعتقاد الذي داخلهن بأنني أودعت الكتاب سيرتي الحقيقية، وأننى بالذات، كنت بطل هذه القصة. ولقد بلغ من تغلغل هذا الاعتقاد، أن كتبت السيِّدة دى بولينياك إلى السيِّدة دى فرديلان، لترجوني أن أسمح لها بأن ترى صورة « جـولى ». فلقد اقتنع الناس جميعًا بأن من المستحيل التعبير عن الأحاسيس بهذا الإبداع، دون أن أكون قـد شعرت بها.. ولا وصف فورات الحب بهذا الأسلوب المتأجج، ما لم تكن منبعثة من الفؤاد مباشرة. ولقد كان الناس على حق في ذلك، فمن المحقق أنني كتبت هذه القصة وأنا في أشد حالات الجوي استعارًا.. على أن من الخطأ الظن بأنه لا بد من مادة واقعية لإحداث هذا اللهيب.. كما أن من أبعد الأمور عن الإدراك تصور مدى الوجـد الذي كانت تذكيه في فؤادي مخـلوقات خيالية موهومة، ففيما عدا بعض ذكريات قلائل من الصبا، ومن السيِّدة دوديتو، لم يكن الشوق - الذي كابدته ووصفته - قائمًا إلا نحو أطياف الخيال السابحة في الهواء.

ولم أشأ أن أعزز أو أن أهدم خطأ كان في صالحي. ومن الميسور للمرء أن يتبين من المقدمة التي صغتها على شكل حوار، والتي طبعتها على حدة، كيف تركت الرأي العام في شك إزاء هذه النقطة. وقد يقول المتزمتون إن الواجب كان يقتضيني أن أعلن الحقيقة بجلاء تام. على أنني - من ناحيتي - لا أرى التزامًا كان يحدوني إلى أن أفعل ذلك، وأعتقد أننى كنت خليقًا بأن أبدو غبيًا، أكثر منى صريحًا، لو أنني أقدمت على هذا البيان، دون ما ضرورة تدعو إليه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وظهر حوالي ذلك الوقت - تقريبًا - « السلام الدائم »، الذي كنت قد عهدت، في العام السابق، بمخطوطه إلى شخص ـ يُدعى السيِّد « دى باستيد » - كان رئيس تحرير صحيفة تُدعى « لوموند »، أى العالم، وقـد رغب في أن ينشر كل مخطوطاتي في هذه الصحيفة، رضيت أم لم أرض!.. ولقد كان من معارف السيد ديكلو، فراح يلحّ عليَّ باسمه في أن أساعده على ملء صفحات « لوموند ». وكان قـد سمع عن « جولى »، فأرادني على أن أنشرها في صحيفته، كما ودّ لو أنشر فيها « اميل ». وكان خليقًا بأن يرغب في أن أنشر فيها « العقد الاجتماعي » لو أنه حدس وجوده. فلما ضقت بإلحاحه ـ في النهاية ـ قررت أن أنزل له عما خرجت به من « السلام الدائم » في مقابل اثنى عشر « لوى ». وكان الاتفاق بيننا على أن ينشره في صحيفته، ولكنه لم يكد يستولي على المخطوط، حتى رأى أن يطبعه في كتاب مستقل، بعد حذف فقرات منـه اقتطعها الرقيب. ترى ما الذي كان خليقًا بأن يحدث، لو أننى كنت قد أضفت إلى المخطوط آرائى وتعليقاتي على الكتاب الأصلي؟ إننى لحسن الحظ لم أتحدَّث عنها إلى السيِّد دى باستيد، ومن ثم فإنها لم تدخل ضمن صفقتنا!.. ولا تزال هذه الآراء بين أوراقى، مسجّلة بخط اليـد6. وإذا قُدِّر لها أن تظهر، فسوف يتجلى كم كانت فكاهات « فولتير » وآراؤه المعتدة، في هذا الموضوع،

خليقة بأن تضحكني.. أنا الذي أدرك تمام الادراك مدى ذكاء هذا المسكين، فيما يتعلق بالأمور السياسية التي جرؤ على أن يقحم نفسه فيها!

وفي غمرة نجاحي لدى الرأي العام، والحظوة التي نلتها لدى السيدات، رحت أشعر بأنني كنت أفقد مكانتي في قصر دى لوكسمبورج، لا لدى السيِّد المارشال - الذي كان يبدو أنه راح يضاعف بره بى وصداقته لي، يومًا بعد يوم - وإنما لدى السيِّدة المارشالة!.. فإن مخدعها لم يعد يُفتح كثيرًا في وجهي، بعد أن لم يعد لديَّ ما أقرؤه عليها. ومع أننى كنت أتردد على القصر بانتظام بالغ خلال زياراتهما لمونمورنسى - إلّا أنني أصبحت نادرًا ما أراها، في غير أوقات اجتماعنا حول المائدة. بل إن المقعد المجاور لها، لم يعد قاصرًا عليَّ وحدى، كما كان العهد من قبل!.. وإذ لم تعد السيِّدة تعرضه عليَّ، وأصبحت تقسط في الحديث إليَّ، ولم يعد لدي - أنا الآخر - الكثير مما يقال لها، فإننى ارتحت كثيرًا إلى اتخاذ مكان آخر حول المائدة، كنت أشعر فيه بالحرية، لا سيما في المساء، إذ وجدتني أتعود - دون أن أفطن - الجلوس على مقربة من السيد المارشال.

وبمناسبة « المساء »، أتذكر أنني قلت أنني لم أكن أتناول العشاء في القصر. وقد كان هذا صحيحًا، في بداية التعارف. على أنه لما كان السيِّد دي لوكسمبورج قد اعتاد ألا يتناول غداء قط، بل ولا إلى أن يظهر حول مائدة الغداء، فقد ترتب على ذلك أنني لم أتناول الطعام معه قط، برغم انقضاء شهور عديدة على تعارفنا، كنت فيها قد ألفت التردد على الدار. وكان من الكرم بحيث أشار إلى ذلك، مما دعاني إلى أن أقرِّر الذهاب لتناول العشاء هناك، في بعض الأحيان التي لا يكون فيها ثمة ضيوف عديدون. وكنت أستمتع بذلك كثيرًا، إذ أننا كنا قد اعتدنا - تقريبًا - تناول الغداء في الهواء الطلق، و « دون ما كلفة » - كما يقال - في حين أن العشاء كان يستغرق وقتًا طويلًا، لأن الضيوف كانوا ينشدون فيه فرصة الراحة بعد نزهة طويلة على الأقدام.. وكان الطعام جد شهى، لأن السيِّد دي لوكسمبورج كان أكولًا.. كما كانت المائدة مستحبة، لأن السيِّدة دي لوكسمبورج كانت تقترح الأنخاب، في كثير من الجلال واللطف الساحرين. وبدون هذا الإيضاح يتعذر إدراك الفقرة التي وردت في ختام إحدى رسائل السيِّد دى لوكسمبورج (الملف « جـ » - رقم 36)، إذ قال السيِّد أنه كان يتذكر نزهاتنا بكثير من السرور، لا سيما حين كنا نعود إلى القصر في المساء، فلا نجد أثرًا لعجلات العربات في ساحة القصر. ذلك لأنه لما كانت الرمال - التي يكتسى بها الفناء - لا تسوى إلا في الصباح، فإنني كنت أستطيع أن أحدس من عدد الخطوط التي تخلفها عليها العجلات، عدد الضيوف الذين وصلوا في فترة الأصيل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد أترعت تلك السنة (1671) كأس المحن التي حاقت بهذا السيِّد الكريم مذ كان لي شرف التعرف إليه، وكأنما كانت الشرور التي راح القدر يعدّها لي، مسوقة لأن تبدأ بالرجل الذي شعرت نحوه بأصدق الود، والذي كان جديرًا بكل ولاء.. ففي العام الأوَّل لتعارفنا، فقد أخته: السيِّدة الدوقة دى فيلروي.. وفي العام الثاني، فقد أخته السيِّدة الأميرة دى روبيك.. وفي الثالث، فجع في ابنه الأوحد - الدوق دى مونمورنسى - وفى حفيده الكونت دى لوكسمبورج، الوريث الأوحد والأخير للأسرة ولقبها. ولقد تحمَّل السيِّد المارشال كل هذه النكبات بجلدٍ باد - في الظاهر - ولكن قلبه ظلّ - في الخفاء - داميًا، ما تبقى من حياته، وراحت صحته تضمحل. وكانت ميتة ابنه - المفجعة، غير المتوقعة - جديرة بأن تكون أشدّ تأثيرًا عليه من كل شيء، إذ أنها حدثت في عين اللحظة التي كان الملك قد منح فيها ابنه - ووعد بأن يمنح حفيده - الحق في أن يخلفه في قيادة الحرس الخاص. وقُدِّر عليه أن يتعذب برؤية حياة هذا الطفل - حفيده - الذي تركزت فيه كل هذه الآمال، تذوى رويدًا أمام عينيه، من جراء ما كان لأمه من ثقة عمياء بالطبيب الذي تسبب في وفاته.. فقد مات الطفل لفرط حاجته إلى الغذاء، إذ أنه لم يكن يتغذي على غير العقاقير!

واحسرتاه!.. ليتهم أخذوا برأيي، فلو أنهم فعلوا لظل الجد والحفيد على قيد الحياة!.. فكم قلت وكم كتبت للسيِّد المارشال.. وكم جلوت الرأي للسيِّدة دى مونمورنسى، بصدد نظام التغذية، الذي كان يتجاوز حدود التقشف، والذي كانت تتبعه نحو ابنها، بسبب ثقتها بالطبيب!.. ومع أن السيِّدة دى لوكسمبورج كانت تشاطرني الرأي، إلا أنها لم تشأ أن تتدخل في سلطة الأم، كما أن السيِّد دي لوكسمبورج كان لطيفًا، لينًا، فلم يشأ أن يعارضها!.. وكانت السيِّدة دى مونمورنسى تكن للطبيب « بوردو » ثقة انتهت بأن راح ابنها ضحية لها!.. لشد ما كان الصغير المسكين يغتبط، كلما استطاع أن يحصل على إذن بالحضور إلى (مون - لوى) مع السيِّدة دى بوفليير، إذ كان يطلب إلى تيريز بعض الطعام، فيودع أمعاءه الخاوية شيئًا من الغذاء!.. لكم كنت أرثى - في دخيلتي - لتعاسات العظمة، كلما رأيت هذا الوريث الأوحد لمثل هذه الثروة الواسعة، ومثل هذا الاسم الرفيع، ومثل هذه الألقاب والرتب الكثيرة، يلتهم في نهم المتسول كسرة صغيرة، متواضعة، من الخبز!.. على أن الطبيب انتصر على كل ما قلت وفعلت.. ومات الصغير جوعًا!

وهذه الثقة في الدجالين وأدعياء الطب - التي أهلكت الحفيد - هي ذاتها التي حفرت قبر الجد، فضلًا عن أنه كان من ضعف العقل، بحيث راح يحاول أن يخفى على نفسه علل الشيخوخة. فلقد كان السيِّد دي لوكسمبورج يعاني - بين آنٍ وآخر آلامًا في الأصبع الكبرى لقدمه. وقد تعرَّض - أثناء وجوده في مونمورنسى - لنوبة حرمته النوم، وجعلته شبه محموم. وإذ جرؤت على أن ألفظ كلمة « النقرس »، انهالت السيِّدة دى لوكسمبورج علىَّ تأنيبًا، فقد أعلن وصيف السيِّد المارشال وجرَّاحه أن مرضه لم يكن من النقرس في شيء، وراحا يسبغان على العضو الموجوع بلسمًا، وهدأ الألم - لسوء الحظ - فلما أخذ يعود بعد ذلك، كانوا يلجأون، دون ما تردد، إلى عين الدواء الذي أحدث الراحة وسرى الوجع من قبل.. وباضمحلال صحة السيِّد المارشال، أخذت آلامه تزداد، فكانت العقاقير تزداد معها!.. وعندما تبينت السيِّدة دى لوكسمبورج - في النهاية - أن النقرس هو الذي كان مصدر الآلام، عارضت هذا العلاج الأخرق. فراحوا يكتمون عنها - بعد ذلك - حاله، حتى مات السيِّد دى لوكسمبورج بعد سنوات قلائل، بفضل خطئه، ومن جراء إصراره على أن يعالج نفسه بنفسه،، وفق هواه، ولكن..

ليس لنا أن نمعن في استباق المصائب، فكم لدىَّ من حديث أريد أن أرويه قبل ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد كان من النحس العجيب حقًا أن كل شيء كنت أقوله أو أفعله، بدا وكأنه مسوق إلى أن يسوء السيِّدة دى لوكسمبورج، ولو كنت في أشدّ الشوق إلى أن أحتفظ برضاها!.. ولم تكن الآلام التي احتملها السيِّد دي لوكسمبورج - من الصدمات التي تعاقبت عليه - تزيدني إلَّا تعلقًا به، وبالتالي، بالسيِّدة دي لوكسمبورج، إذ كانا يبدوان دوامًا صادقي الاتحاد إلى درجة أن العواطف التي تخالج المرء نحو أحدهما، كانت تمتد بطبيعة الوضع إلى الآخر!.. ولقد راحت الشيخوخة تثقل كاهل السيِّد المارشال، كان حضوره المتواصل في البلاط الملكي، والواجبات التي يتطلبها ذلك، ورحلات الصيد المتتابعة، والارهاق الذي كان يترتب على الخدمة خلال فصل الصيد، كل هذه كانت تتطلب قوة الشباب، ولم أكن أرى ثمة وسيلة تمكنه من القوة التي يتطلبها منصبه. وإذ لم يكن ثمة بد من أن توزع رتبه على الغير، وأن ينطفىء بريق اسمه بعد موته - لعدم وجود وريث له - فلم يكن هناك ما يدعوه إلى أن يستمر في حياة عملية مرهقة، كانت الغاية الرئيسية منها هي أن يستبقى لأبنائه ما كان له من حظوة لدى العاهل!

وفي أحد الأيام، كنا نحن الثلاثة معًا، ولا غريب بيننا، وقد راح السيِّد المارشال يشكو من متاعب واجباته في البلاط، بروح الرجل الذي ثبطت المصائب عزيمته. فجرؤت على أن

أحدّثه عن التقاعد، وأزجيت إليه النصيحة التي قدَّمهـا « سينياس » إلى « بيروس »[7]. فتنهد ولم يجب برأى قاطع. ولكن السيِّدة دى لوكسمبورج راحت - في أوَّل لحظة رأتني فيها على حدة ـ تلومني في عنف على نصيحتى التي أزعجتها.. على ما بدا لي، وأضافت إلى ذلك إشارة لم ألبث أن شعرت بعدالتها، ولم تلبث أن حوَّلتني عن فكرة العودة ثانية إلى هذا الموضوع.. تلك هي أن اعتياد العيش في البلاط الملكي طويلًا، أصبح ضرورة لا غنى عنها. بل إنه كان - حتى في تلك الظروف - ملهاة تصرف بال السيِّد دي لوكسمبورج عن همومه، وأن اعتزال البلاط - الذي نصحته به - لن يكون مبعث راحة واستجمام له، بقدر ما يكون إقصاءً ونفيًا!.. ولن يلبث الخمول والملل والحزن أن يضعا لحياته نهاية!.. ومع أنها رأت ولابد أنها قد أقنعتني، ومع أنها كانت تستطيع أن تركن إلى الوعد الذي قطعته لها، والذي ظللت أصونه، فقد لاح لي أنها لم تطمئن يومًا من هذه الناحية. وإني لأذكر أن اختلائى بالسيِّد المارشال أصبح - منذ ذلك الحين - نادرًا، وكانت خلواتنا تتعرَّض باستمرار لما يقطع علينا حبلها!

وفي الوقت الذي تعاونت فيه بلاهاتي ونحسى على الإساءة إليَّ - لدى السيِّدة - لم يكن هناك مَن يشفع لى لديها، ممن كانت تؤثرهم بمقابلاتها ومودتها.. لا سيما الراهب دى بوفليير الذي أوتى أكبر قسط من الذكاء يتاح لشاب في سنه، والذي لم يكن يميل إليَّ البتة!.. ولم يقتصر أمره على أنه كان الوحيد - في حاشية السيِّدة المارشالة - الذي لم يكن يبدى أتفه احتفاء بي، على الإطلاق، بل إنني لاحظت - في كل زيارة يؤديها إلى مونمورنسى - أنني كنت أفقد شيئًا من حظوتى لدى السيِّدة. على أنه من المحقق أن من الصحيح أن مجرَّد وجوده كان كافيًا لأن يؤدى إلى ذلك، دون أي تعمد من ناحيته.. فإن سخافاتي كانت تبدو معتمة، ثقيلة، إلى جانب لمحاته المتسمة بالجلال وبسمو الروح. ولقد كانت زياراته لمونمورنسى نادرة، خلال العامين الأولين، وكنت بفضل تسامح السيِّدة المارشالة، قادرًا على أن أحتفظ بمكانتي ولكنه لم يكد يزداد انتظامًا في زياراته، حتى وجدتني مقصيًا عن هذه المكانة، دون ما أمل في استعادتها!

ولقد كنت على استعداد لأن أنطوى تحت جناحه، وأن أتخذ الوضع الذي يحمله على مصادقتي، لولا أن حرج موقفي - الذي جعل من رضاه عنى ضرورة لازمة لي - كان هو عين السبب الذي منعني من أن أكسب هذا الرضى!.. وإذا كل ما رحت أبذل في هذا الصدد، يطيش فيؤدي إلى القضاء على ما كان لي من حظوة لدى السيِّدة المارشالة، دون أن يجديني أي نفع في التقرّب إليه!.. وكان في وسعه أن يوفَّق في كل شيء، بفضل ذكائه، بيد أن عجزه التام عن الاستمرار في الدأب، وميله إلى النزق واللهو، لم يمكناه من أن يكتسب سوى حذق غير مكتمل في كل عمل. ولقد أتيح له - على سبيل التعويض - أن يؤدى كثيرًا من هذه الأعمال، فكان هذا - في حد ذاته - هو كل ما يلزمه لكي يلمع في المجتمع الراقي، الذي كان يصبو إلى التألق فيه!.. كان يحسن نظم القصائد الصغيرة، ويتقن كتابة الرسائل القصيرة، ويعزف الموسيقى ببعض المهارة، ويرسم هونًا ما بالطباشير الملونة. وقد أبدى رغبة في أن يرسم لوحة للسيِّدة دى لوكسمبورج، فجاءت اللوحة بشعة، وقالت السيِّدة إنها لم تكن تشبهها في شيء، وقد كانت محققة تمامًا في ذلك. ولقد سألني الراهب الغادر رأيى، فإذا بي - كأي غبي كذّاب - أزعم أن اللوحة كانت تشبهها. وكنت بذلك أرجو أن أتملق الراهب، ولكنني لم أتملق السيِّدة المارشالة، فسجّلتها ضدي في قائمة الأخطاء، بينما راح الراهب يضحك مني، بعد أن نجحت خدعته!.. ولقد تعلمت - بفضل نتيجة هذه المحاولة، التي جاءت متأخرة، في الملق والمداهنة - ألَّا أقدم مختارًا على الرياء والتملق، بالرغم من منيرفا[8]!

لقد كانت ميزتي التي فُطرت عليها، هي أن أقول للناس حقائق مفيدة ـ ولكنها جافة قاسية - في كثير من التحمس والشجاعة. وكان خليقًا بي أن أظل على ذلك.. إنني لم أخلق قط

لكي أطرى - ولن أقول: أتملق - الغير. ولقد كان سوء توجيه الاطراء الذي حاولت أن أزجيه، أكثر إيذاءً لي من أقسى لوم قُدِّر لي أن أصدره. وإني لأذكر هنا مثالًا بلغ من فظاعته أن عواقبه لم تغير مجرى حياتي فحسب، بل إنها ربما أثرت على سمعتي كذلك، عبر الأجيال!

فلقد اعتاد السيِّد « دى شوازيل »[9] أن يفد إلى القصر لتناول العشاء، في بعض الأحيان، خلال فترات إقامة السيِّد والسيِّدة دى لوكسمبورج في مونمورنسى. وأقبل ذات يوم، وأنا أغادر القصر. فدار الحديث عني، وروى له السيِّد دى لوكسمبورج قصتي في (البندقية) مع السيِّد دي مونتيجي. فقال السيِّد دي شوازيل إنه كان من الخسارة حقًّا أن هجرت العمل الديبلوماسي، وأنني إذا رغبت في العودة إلى هذا العمل، فلن يجد ما يسره أكثر من أن يستخدمني. وأبلغنى السيِّد دى لوكسمبورج بالأمر، فتأثرت به أكثر مما ينبغي، إذ أننى لم أعتد أن ألقى من الوزراء أية مجاملة. وليس بوسعي أن أجزم بأنني لم أكن على استعداد لأن أجعل من نفسي أحمق، مرة أخرى - بالرغم من قراراتي السابقة - لو أن صحتى كانت تتيح لي أن أفكر في الأمر! إن الطموح لم يعتد أن يتملكني إلا في الفترات الموجزة التي كانت كل الشهوات الأخرى تفارقني خلالها. ولكن فترة واحدة من هذه الفترات، كانت كفيلة بأن تذكي عواطفي مرة أخرى. ومن ثم فإن هذه النية الكريمة من السيِّد دى شوازيل، ملكت عليَّ شعورى، ودعمت التقدير الذي كانت بعض أعماله الوزارية قد حملتني على أن أكنه له. فقد كان « حلف الأسرة » بالذات، يبدو - في نظري - دليلًا على أن الرجل كان سياسيًّا من ساسة الصف الأوَّل[10]. وقد ازددت تقديرًا عندما قارنت أعماله بأعمال مَن سبقوه في المنصب، دون أن أستثنى منهم السيِّدة دى بومبادور التي كنت أعتبرها بمثابة « رئيس للوزراء »!.. وعندما كان يُشاع أن واحدًا من هذين الاثنين يناجز الآخر العداء، فأعتقد أننى كنت أدعو بالنصر لفرنسا، عندما كنت أدعو بالنصر للسيِّد دى شوازيل.

ذلك لأنني كنت أستشعر دائمـًا نفورًا من السيِّدة دى بومبادور، حتى عندما رأيتها - قبل أن يرتفع نجمها - لدى السيِّدة ديلا بوبلينيير، وكانت إذ ذاك ما تزال تحمل اسم السيِّدة ديتوال. ومنذ ذلك الحين، أحنقني منها صمتها إزاء موضوع « ديدرو »[11]، ومسلكها نحوى، سواء فيما يتعلق بتمثيليتيّ « أعياد رامير »[12] أو « عرائس الشعر اللطاف »[13]، أو أوبرا « عرَّاف القرية »[14] التي لم تعد عليَّ بأى دخل أو نفع يتناسب مع نجاحها. ففي كل هذه المناسبات، كنت أجد السيِّدة دى بومبادور قليلة الحرص على أن ترضيني. على أن هذا لم يمنع الشيفالييه دي لورنزي من أن يقترح عليَّ أن أؤلف شيئًا في مديح هذه السيِّدة، في تلك الآونة، موحيًا إلىَّ بأن هذا قد يجديني نفعًا. ولقد أثار هذا الاقتراح استنكارى، لا سيما إذ رأيت بجلاء أنه لم يكن صادرًا عنه شخصيًّا.. وقد أدركت تمامًا أن هذا الرجل، الذي لم يكن ذا قيمة - في حد ذاته - لم يكن ليفكر أو يعمل قط، إلا بإيعاز من سواه. ولم أوت قط من القدرة ما يمكنني من كبح نفسي لكي أخفى عنه ازدرائي لاقتراحه.. أو لكي أخفى عن أي امرىء آخر عدم ميلى إلى الحظوة الموعودة. ولقد أدركت هي ذلك، وإني لموقن من ذلك.. كل هذه الاعتبارات وحَّدت بين مصلحتي الذاتية وميولي الطبيعية، في الأدعيات التي كنت أرجو فيها النجاح للسيِّد دى شوازيل.. وكنت قد شعرت - قبل ذلك - بتحبيذ لمقدراته ومواهبه، التي كانت كل ما أعرفه عنه.. كما إننى كنت مفعمًا بالعرفان لما أبداه نحوى من نوايا طيبة، جاهلًا - في عزلتي - بأذواقه ومسالكه في الحياة، ومن ثم فقد رحت أتطلّع إليه كأنه المنتقم للجمهور ولى!.. ولما كنت - في ذلك الحين - منصرفًا إلى وضع الخطوط النهائية في مؤلّفي « العقد الاجتماعي »، فإنني وضعت في فقرة واحدة رأيي في الوزارات السابقة، وفي هذه الوزارة أوشكت أن تطغى عليها. ولقد أغفلت - في هذه المناسبة - أكثر مبادئي رسوخًا في نفسي، ولم يخطر ببالي أن المرء إذا أراد أن يتحمس في المديح وفي اللوم، في مقالٍ واحد - دون أن يورد أسماء ما - فمن الواجب أن يقصر المديح على أولئك الذين يقصدهم به، بأسلوبٍ لا يجعل مجالًا لأشدّ النفوس أنانية،

لأن تسيء فهمه. ولقد كنت من الحماقة بحيث ظننتني في مأمن من هذا، فلم يخطر ببالى قط أن من الممكن تأويل ما قصدت إليه. ولسوف يتجلى فيما بعد ما إذا كنت قد أصبت!

ومن مظاهر سوء طالعي، أنني كنت دائمًا على اتصال ببعض الكاتبات من النساء. وقد خلت أنني لن ألبث أن أتفادى ذلك، بعلاقاتي بسيِّدات الطبقة الراقية على الأقل. ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، بل إن حظي ظلّ يلاحقني. ومع أن السيِّدة دى لوكسمبورج لم تتعرَّض قط لهذه النزوة - فيما كنت أعرف - إلّا أن السِّيدة الكونتة دى بوفليير كانت مصابة بها. فقد كتبت مأساة - تمثيلية نثرية - قرئت في البداية، ثم أديرت على حاشية السيِّد الأمير دي كونتي فقوبلت بإطراء. ولكن السيِّدة لم تقنع بكل هذا الإطراء، فشاءت أن تستشيرني أنا الآخر، لتحظى بالثناء منى. وقد منحتها هذا الثناء، ولكن في عبارات معتدلة، بقدر ما كان المؤلَّف يستحق. وفوق ذلك، فقد رأيت أن من واجبي أن أطلعها على أن تمثيليتها - التي كانت بعنوان « العبد الكريم » - شديدة الشبه جدًّا بمسرحية إنجليزية لم تكن معروفة على نطاق واسع، ولكنها تُرجمت إلى الفرنسية، وكانت تحمل اسم « أورونوكو ». ولقد شكرت لى السيِّدة دي بوفلير رأيى، وأكَّدت لي لفورها ألَّا علاقة البتة لمسرحيتها بالمسرحية الأخرى. ولم أبح قط بهذه السرقة الأدبية لمخلوق من البشر سواها، وما صارحتها - هي - إلا أداء لواجب ألقته على عاتقى. بيد أن هذا لم يصدني عن أن أكثر من التفكير - منذ ذلك الحين ـ في الطريقة التي أدَّى بها « جيل بلا » واجبه نحو الأسقف الواعظ، وما ترتب على ذلك15.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإلى جانب الراهب دي بوفليير - الذي لم يحبني قط - والسيِّدة دي بوفليير، التي ارتكبت نحوها أخطاء لا تغتفرها امرأة ولا كاتبة، فإن بقية أصدقاء السيِّدة المارشالة كانوا دائمًا قليلي الميل إلى أن يكونوا أصدقاء لي. وكان منهم السيِّد دي « هينو » رئيس البرلمان، الذي لم يعفه انضمامه إلى زمرة المؤلفين من عيوبهم.. والسيِّد « دوديفان »، والآنسة « دى ليسبيناس »، اللتان كانتا على صلة وثيقة بفولتير، وعلى صداقة حميمة بدالمبير، الذي انتهت ثانيتهما إلى الإقامة معه.. بكل شرفٍ وصلاح طبعًا، فيجب ألَّا يؤول هذا على أي محمل آخر!.. ولقد بدأت بشعور قوى نحو السيِّدة دوديفان، التي أثار ضياع بصرها إشفاقي. ولكن منهجها في المعيشة كان يناقض منهجي تمامًا، حتى أن ساعة استيقاظ أحدنا من النوم، كانت هي ساعة هجوع الآخر تقريبًا.. وكان شغفها الجامح بالطرائف الفكرية البسيطة، والأهمية التي كانت تضفيها - سواء بالحق أو بالباطل - على كل خلاف كان يظهر، والعنف الغاشم الذي كانت تطلق به تعليقاتها في لهجة خطابية، ومغالاتها في التعصب لكل شيء أو ضد كل شيء - مما لم يكن يسمح لها بأن تتكلم في موضوع إلا بانفعال - وتحيزها الذي كان يفوق المعقول، وعنادها الذي لا يلين، وتحمسها غير الحكيم الذي كان يحملها عليه التعنت لآرائها المستوحاة من العاطفة.. كل هذه لم تلبث أن حوَّلتني عن الاهتمام الذي كنت على استعداد لأن أوليها إياه!.. فأهملتها. ولقد لاحظت ذلك، فكان هذا كافيًا لأن يثير سخطها، ومع أنني شعرت بمدى ما ينبغي أن يخشاه المرء من امرأة لها هذه الشخصية، إلا أنني كنت أوثر أن أعرض نفسي لسعار حقدها، على أن أعرضها لودها!

وكأنما لم يكف أن يكون لي أصدقاء قليلون في حاشية السيِّدة دى لوكسمبورج، فإذا لي أعداء في أسرتها.. ومع أن هؤلاء الأعداء انحصروا في واحد، إلا أنه كان - في الموقف الذي أصبحت أجد نفسي فيه - يعادل مائة. ومن المحقق أن هذا الشخص لم يكن أخاها، السيِّد الدوق دى فيلروي، الذي لم يكتف بأن زارني في داري، بل دعاني عدة مرات إلى ضيعة (فيلروي).. ولما كنت قد أجبت دعوته بكل احترام وأدب، فإنه أخذ هذا الجواب على محمل القبول، ودبَّر مع السيِّد والسيِّدة دى لوكسمبورج رحلة تستغرق حوالي خمسة عشر يومًا، كان عليَّ أن أرافقهم فيها. وكانت التدابير التي تتطلبها صحتى، لا تسمح لي بأن

أنتقل من دارى دون ما تعرض للضرر، فرجوت السيِّد دي لوكسمبورج بأن يتكرَّم بالاعتذار عنى. ويُرى من جوابه (الملف « د » - رقم 3) أنه أدَّى ذلك أبدع أداء ممكن، ولم يبد لي السيِّد الدوق دى فيلروى عطفًا يقل عما عهدت منه. ولكن ابن أخيه، ووريثه - المركيز دى فيلروي الشاب - لم يشاطر ما شرفنى به من عواطف كريمة.. وأعترف أننى - بدوري - لم أوله ما كنت أولى عمه من احترام. وكانت مظاهره المتعجرفة، الفاسدة تجعله - في نظري - لا يطاق. فإذا فتورى نحوه لا يجلب عليَّ سوى بغضائه.

وفي ذات مساء، ذهب إلى درجة أن سبّني على المائدة، فأسأت تلقى الإهانة، لأنني غبي، ولست حاضر البديهة، بل إن الغضب يسلبني القدر الذي أوتيته من الذكاء، بدلًا من أن يرهفه ويشحذه. وكان لديَّ كلب تلقيته هدية - وهو بعد صغير - عقب وصولي إلى (ليرميتاج) مباشرة، وأطلقت عليه اسم « دوق ». ومع أن هذا الكلب لم يكن جميلًا، إلا أنه كان من سلالة نادرة، وقد جعلته صديقي وصاحبي، وكان - يقينًا - أكثر استحقاقًا لهذا الوصف من معظم أولئك الذين استحلوه لأنفسهم، فلم يلبث أن غدا محبوبًا في قصر مونمورنسى بفضل طبيعته اللطيفة المستملحة، وبفضل تعلّق كل منا بالآخر، بيد أنني في لحظة من لحظات الضعف الأحمق، غيرت اسمه إلى « تركي »، وكأنما لم تكن هناك مئات من الكلاب تُدعى « مركيز »، دون أن يشعر أي « مركيز » بإهانة في ذلك. ولقد راح المركيز دى فيلروي - الذي علم بهذا التغير في الاسم - يلح عليَّ، حتى اضطرني إلى أن أروى ما فعلت، في حضور القوم.. ولم تكن الإهانة التي نشأت عن اسم « دوق » - في القصة - ممثلة في إطلاقه على كلب، وإنما في أنني لم ألبث أن حرمته منه. وكان أسوأ ما في الأمر، هو أن كثيرًا من الأدواق[16] كانوا حضورًا، وكان السيِّد دي لوكسمبورج دوقًا، وكذلك كان ابنه. وكان المركيز دي فيلروى مرشحًا لأن يصبح دوقًا - وأنه لكذلك الآن - فراح يلهو في قسوة بالحرج الذي دفعني إليه، وبالأثر الذي أحدثه. ولقد تأكّدت - في اليوم التالي - بأن عمته قد أنبته في عنف على ذلك. ومن الممكن تصور مدى ما كان هذا التقريع كفيلًا بأن يصلح علاقاتي به كثيرًا، لو أننا افترضناه صادقًا!

ولم يكن لي من مدافع ضد هذا كله - سواء في قصر لوكسمبورج أو في القلعة - سوى الشيفالييه دى لورنزى، الذي كان يجاهر بأنه صديقى. ولكنه كان ما يزال صديقًا لدالمبير، أكثر مما كان لي، فقد راح - تحت رعايته - يلقي حظوة لدى النساء، بزعم أنه عالم هندسى كبير. وكان إلى جانب ذلك، المدلل صاحب الحظوة - أو بالأحرى القط الوادع - للسيِّدة الكونتة دى بوفليير، التي كانت هي الأخرى صديقة حميمة لدالمبير.. فما كان للشيفالييه دى لورنزي من وجود ولا كان بوسعه أن يفكر، إلا بقربها. وهكذا كان كل مَن يتصلون بالسيِّدة دى لوكسمبورج يبدون وكأنهم يعملون معًا على إيذائي في رأيها، في الوقت الذي كنت فيه بعيدًا عن أن أجد مقاومة خارجية تصلح من نزقي، وتستبقى لي رضاء السيِّدة. ومع ذلك فإنها - إلى جانب تكرّمها بأن تتعهد كتاب السيِّدة « اميل » - أبدت لي دليلًا جديدًا على كرمها وعطفها، مما حملني على أن أعتقد بأنها كانت ما تزال تحتفظ لي - بل وستظل دائمًا تحتفظ لي - بالصداقة التي كثيرًا ما وعدتني بأن تؤثرني بها إلى نهاية عمري، حتى وإن كانت قد بدأت تسأمني!

وما أن خطر لي أن بوسعي أن أطمئن إلى هذا الشعور من ناحيتها، حتى شرعت أسرى عن فؤادي، بأن أعترف لها بكل أخطائي نحوها. إذ كان مبدئي الوطيد، يحملني على أن أبين نفسي لأصدقائي على حقيقتها، لا أسوأ ولا أطيب. فأطلعتها على علاقاتي بتيريز، وبنتائجها جميعًا، دون أن أغفل الطريقة التي تخلصت بها من أطفالي. وتلقَّت اعترافاتي في تلطف، بل في تلطف بالغ، وأعفتني من اللوم الذي كنت أستحقه.. وكان أكثر ما أثر في نفسي - بوجهٍ خاص - ذلك الكرم الذي أغدقته على تيريز، فكانت تمنحها هدايا صغيرة، وتستدعيها، وتشجعها على أن تزورها، وتتلقاها بكثير من الحنان واللطف.. وكثيرًا ما كانت تقبّلها أمام

الجميع. ولقد استخف الفتاة المسكينة الفرح والعرفان اللذان كنت أشاطرها إياهما يقينًا.. بل إن الكرم الذي كان السيِّد والسيِّدة دى لوكسمبورج يغمرانى به خلالها، أكثر تأثيرًا في نفسي من ذاك الذي كانا يظهرانه نحوى مباشرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظلَّت الأمور على هذا الوضع فترة طويلة، ولكن السيِّدة المارشالة لم تلبث - في النهاية - أن أمعنت في تفضلها، فأعربت عن رغبتها في أن تسترد أطفالي وتكفلهم17. وكانت قد عرفت أنني قد وضعت رمزًا في ثياب الطفل الأكبر، فسألتني النسخة الثانية لهذا الرمز، فقدّمتها إليها. واستخدمت في هذا البحث وصيفها الخاص وموضع ثقتها « لاروش »، الذي قام بتحريات لم تؤد إلى طائل، فلم يتمكن من العثور على شيء. بالرغم من أنه لم يكن قد انقضى على إيداع الطفل أكثر من اثنتى عشرة أو أربع عشرة سنة، ولو أن سجلات ملجأ اللقطاء كانت منظمة، أو لو أن التحريات كانت دقيقة، لما عزَّ العثور على الرمز. ومهما يكن من الأمر، فإنني كنت أقل استياء لهذا الفشل، مما كان ينبغي علىَّ لو أنني كنت قد تتبعت آثار الطفل منذ مولده. ولو أن طفلًا قُدِّم إلىَّ - على هدى البيانات التي قدّمتها - على أنه ابنى، لكان الشك فيما إذا كان هو ابنى حقًا، أو أنه أُبدل بطفلٍ آخر، خليقًا بأن يبعث هواجس تضني فؤادي، ولما نعمت بالاحساس الطبيعي الصادق، في أكمل آيات سحره.. فلابد - لاستبقاء هذا الشعور وسحره - من توفر الألفة والاعتياد منذ مولد الطفل، على الأقل، ولكن البعاد الطويل لطفل لم يعرفه المرء بعد، يوهن شعور الأبوة والأمومة، ولا يلبث أن يقضى عليه تمامًا في النهاية. فلا سبيل هناك البتة إلى أن يحظى طفل كفلته مربية، بحبٍ يضارع ما يحظى به طفل نشأ تحت بصر المرء.. وقد يخفف هذا الخاطر من التبعات التي ترتبت على أخطائي، ولكنه يضاعف من وطأة أصلها ومنبعها!

وقد يكون من المفيد أن نلاحظ أن « لاروش » هذا، بالذات، قد تعرَّف - عن طريق تيريز - بالسيِّدة لوفاسير، التي ظلَّ « جريم » يكفلها في (دويي)، على مقربة من (لا شيفريت)، وعلى مسافة جد قصيرة من (مونمورنسى). فلما غادرت هذه المنطقة، استعنت بلاروش في مواصلة إرسال النقود التي لم أكفّ يومًا عن إمدادها بها. وأعتقد أنه كثيرًا ما كان يحمل إليها هدايا من السيِّدة المارشالة، ومن ثم فإنها لم تكن تستحق أي عطف أو رثاء، برغم أنها ظلَّت دائمة الشكوى. أما « جريم »، فإننى طُبعت على ألَّا أحب الكلام عمّن أرى أن من واجبي أن أكرههم، ومن ثم فإنني لم أتحدَّث عنه إطلاقًا إلى السيِّدة دى لوكسمبورج، اللهم إلَّا في الحالات التي كنت أضطر فيها إلى ذلك اضطرارًا. على أنها ذكرت اسمه مرارًا، دون أن تنبئني بما كان من رأيها فيه، بل ودون أن تدعني أستشف ما إذا كان هذا الرجل من معارفها، أو لم يكن. ولما كان التحفظ من أولئك الذين أحبهم، أو الذين درجوا على الصراحة التامة معى، أمرًا لا يلائم مزاجي - لا سيما حين يكون في أمور تخصهم - لذلك فإنني كثيرًا ما فكرت، منذ ذلك الحين، في أمر هذا التحفظ الذي أبدته السيِّدة لي.. على أن هذا التفكير لم يكن يراودني، إلا عندما تجعله الأحداث أمرًا طبيعيًّا!

وإذ مكثت فترة طويلة، دون أن أسمع أي حديث عن « اميل » - بعد أن وكلت أمر الكتاب إلى السيِّدة دى لو كسمبورج - علمت في النهاية، أن الصفقة قد أُبرمت في باريس، مع الكتبي « دوشين »، ثم أبرمت بوساطته مع « نياولم » في (أمستردام). وقد أرسلت السيِّدة دى لوكسمبورج إلىَّ نسختيّ العقدين - مع دوشين - كى أوقعهما. وتبينت أنهما كُتبتا بنفس الخط الذي كانت تكتب به رسائل السيِّد دى ماليزيرب، إذ أنه لم يكن يكتبها بيده.

وحملني تأكدي من أن الاتفاق قد عُقد تحت بصر هذا السيِّد وبموافقته، إلى أن أوقّع وأنا مطمئن. وإذ ذاك أعطاني « دوشين » عن نسخته من المخطوطات ستة آلاف فرنك - هي

نصف الحساب - ومائة أو مائتى نسخة من الكتاب المطبوع، على ما أظن. وما أن وقّعت نسختَىّ العقد حتى أرسلتها إلى السيِّدة دى لوكسمبورج ـ وفقًا لرغبتها - فأعطت إحداهما إلى « دوشين »، واستبقت الأخرى، بدلًا من أن ترسلها لي، فلم أرها بعد ذلك!

ومع أن تعرّفي إلى السيِّد والسيِّدة دى لوكسمبورج أدخل شيئًا من التعديل على شروعي في الاعتزال، إلا أنه لم يصرفني تمامًا عن هذه الخطة. بل إنني ظللت أشعر - حتى في أوج حظوتي لدى السيِّدة المارشالة - بأنني ما كنت لأحتمل أو أطيق الأشخاص المحيطين بالسيِّد المارشال وبها، لولا صدق تعلقي بهما. وكانت كل حيرتي تتمثل في محاولة التوفيق بين هذا التعلق وبين نوع الحياة الأكثر ملائمة لذوقى وأقل إيذاء لصحتى. فقد كان الإرهاق المستمر، والعشاء المتأخر يجعلان صحتي غير مستقرة على حال، برغم كل العناية التي كانت تُبذل لتجنب تعريضي لأي ضرر. إذ كان السيِّد المارشال وزوجته يبديان كل اهتمام بهذه الناحية، شأنهما بأية ناحية أخرى. ففي كل مساء - مثلًا - لم يكن السيِّد المارشال ليغفل أن يصحبني بعد العشاء، شئت أو لم أشأ، لأحذو حذوه في الإيواء إلى الفراش مبكرًا. ولم يكف عن ذلك إلا قبيل نكبتي بأمدٍ وجيز، ولسبب لم أدر به!

بل إنني قبل أن ألمح فتور السيِّدة المارشالة، رغبت في أن أحقق مشروعي القديم، حتى لا أعرّض نفسي لهذا الفتور، ولكن الوسائل أعوزتني لهذا التحقيق، فكنت مضطرًّا إلى أن أنتظر حتى يتم إبرام الاتفاق الخاص بكتاب « اميل ».. وفي خلال هذا الانتظار، وضعت الخطوط الأخيرة في كتاب « العقد الاجتماعي »، ثم أرسلته إلى « ريي »، محددًا ثمن المخطوط بألف فرنك، فأعطاني هذا المبلغ. وربما كان من المستحسن ألَّا أغفل هنا واقعة صغيرة تتعلّق بالمخطوط المذكور. فلقد أرسلته في غلاف محكم الأختام إلى « ديفوازان »، وكان كاهنًا من بلاد (الفود)18، وقسًّا تابعًا لسفارة هولندا، وقد اعتاد أن يفد أحيانًا لزيارتي. فتكفل بحمل المخطوط إلى « ريى » الذي كان على اتصال به.



فلقد أرسلته فى غلاف محكم الأحكام إلى « ديموازان » ..

ولقد كان المخطوط مكتوبًا بخط جد رفيع ودقيق، فكان من الصغر بحيث أنه لم يملأ جيبه. ومع ذلك، فقد حدث - بينما كان يجتاز الحدود - أن وقعت الحزمة، بطريقة لا أدريها، في أيدي موظفي الجمارك، الذين فضوها وفحصوها، ثم ردوها إليه في الحال، عندما طالب بها باسم السفير. وقد أتاح له هذا الحادث فرصة الإطلاع على المخطوط، كما أنبأني في سذاجة!.. ولقد أطنب - في الوقت ذاته ـ في إطراء المؤلَّف، دون ما كلمة لوم أو انتقاد، محتفظًا لنفسه - بلا ريب - بحق القيام بدور المنتقم للمسيحية عندما قُدِّر للكتاب أن يظهر!.. ولقد استخلص المخطوط وأرسله إلى « ريى ».. هذه ـ في الواقع ـ هي القصة التي أوردها في الرسالة التي أنبأني فيها بالأمر، وهذا كل ما قُدِّر لى أن أعرفه عن الواقعة.

وإلى جانب هذين الكتابين - « أميل » و « العقد الاجتماعي » - و « الموسوعة الموسيقية » التي كنت أعمل فيها من وقت إلى آخر، كانت لديَّ مؤلفات أخرى أقل أهمية، وكلها معدّة للنشر، فاعتزمت أن أنشرها متفرقة، أو مع مجموعة عامة تشمل مؤلفاتي، إذا قُدِّر لي أن أصدر واحدة. وكان أهم هذه المؤلفات - التي لا يزال أغلبها مخطوطات كتبها « روبييرو » - « رسالة في منشأ اللغات »، كنت قد قرأتها على السيِّد دى ماليزيرب والشيفالييه لورنزي الذي استحسنها. ولقد حسبت ما تدره عليَّ هذه المؤلفات جميعًا - بعد تغطية كافة النفقات - بما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من الفرنكات، على الأقل.. وهو مبلغ قرَّرت أن أستثمره ليدر ريعًا مدى الحياة، لصالحي ولصالح تيريز. على أن نذهب بعد ذلك ـ كما ذكرت لها - لنقيم معًا في أعماق أحد الأقاليم الريفية، حيث لا أزعج الرأي العام بنفسي، ولا أشغل نفسي بشيء اللهم إلا أن أختم أيامي في سلام، مواصلًا عمل الخير قدر وسعى، في الوسط المحيط بى.. ومستأنفًا كتابة الذكريات التي كنت أفكر فيها، على مهل!

هكذا كان المشروع الذي يسر لي تحقيقه كرم « ريى ».. هذا الكرم الذي ينبغي ألّا أمر به مر الصامتين. فإن هـذا الناشر، الذي سمعت عنه الكثير من السوء، في باريس، كان الوحيد ـ بين كل أولئك الذين كانت لي بهم علاقات - الذي كنت أجد منه ما يرضيني دائمًا19. ومن المحقق أننا كنا نختلف أحيانًا بشأن نشر كتبي، إذ أنه كان متلكئًا، بينما كنت أنا متعجلًا. ولكنني كنت أجده جد أمين ودقيق في المسائل المادية والإجراءات التي تتعلق بها، بالرغم من أنني لم أعقد معه قط اتفاقًا رسميًا. وهو - كذلك - الوحيـد الذي أقرَّ صراحة بأنه أفاد من معاملاته معى، وكثيرًا، ما أنبأني بأنه مدين لى بثروته، وعرض عليَّ أن يشركني فيها. ولما كان عاجزًا عن أن يظهرني مباشرة على عرفانه، فقد رغب في أن يشهدني عليه بما يبديه لخليلتي، فرصد لها معاشًا سنويًا قدره ثلاثمائة فرنك مدى حياتها، وأثبت في عقد التسجيل أن هـذا المبلغ كان عرفانًا منه بالفوائد التي أتحتها له. ولقد سوى هذه المسألة معي في غير ضجة ولا إعلان ولا مَن، ولو لم أكن أنا أوَّل مَن تحدَّث عنها إلى الناس أجمعين، لما علم أحد عنها شيئًا!.. فلقد تأثرت بهذا الإجراء، إلى درجة أننى منذ ذاك الحين أصبحت مرتبطًا بريى بود صادق. ولقد رغب - بعد ذلك بوقت وجيز - في أن أكون أبًا روحيًا ـ « أشبينًا » - لأحد أطفاله، فوافقت. وكان من دواعي أساي، أننى ـ في الحال التي انحدرت إليها - كنت محرومًا من كل فرصة تمكنني من أن أجعل وفائي ذا نفع لابنتي الروحية ولأهلها. ترى كيف تسنى لي ـ وأنا الممتن إلى هذه الدرجة لما أبداه هذا الناشر من كرم متواضع ـ أن أكون أقل امتنانًا للعواطف الصارخة التي كان كثير من علية القوم يبدونها وهم يملأون الكون بالطنطنة بالخير الذي يقولون أنهم رغبوا في إسدائه إليَّ، والذي لم أشعر به البتة؟.. أفكان الذنب في ذلك ذنبهم، أم تراه كان ذنبي؟.. أفكان الأمر مجرَّد زهو باطل منهم، أم أنه كان جحودًا منى؟.. ألا زن الأمر - أيها القارىء العاقل - واحكم.. أما أنا، فسوف ألوذ بالصمت!

ولقد كان هذا المعاش موردًا كبيرًا لتيريز، وعزاء عظيمًا لى. وفيما عدا هذا العزاء، كنت أبعـد من أن أطمع في أن أحصل منه - ولا من جميع الهدايا التي كانت تُقدَّم إليها - أي نفع

مباشر لي شخصيًا. فكانت هي المتصرفة الوحيدة في الجميع، على الدوام، وعندما كنت أحتفظ لها بمالها، كنت أقدِّم لها عنه حسابًا أمينًا، دون أن أضع فلسًا واحدًا منه في نفقاتنا المشتركة، حتى عندما يقدَّر لها أن تكون أكثر مني ثروة. وكنت أقول لها: « إن مالي لنا معا، أما مالكِ فإنه لكِ وحدكِ! ». وما كففت قط عن أن أتبع معها هذا المبدأ الذي كثيرًا ما كنت أردده على مسمعها. أما أولئك الذين أوتوا من الخسة ما أباح لهم أن يتهموني بأنني كنت أتقبَّل بيديها، ما كنت أرفضه بيدى، فليسوا يحكمون على قلبي إلا بما كانت عليه قلوبهم - دون شك - وأنهم ليسيؤون فهمي كل الإساءة. ولقد كنت على استعداد لأن أشاطرها - عن طيب نفس - الخبز الذي تكسبه بعرقها، ولكني ما كنت قط لأشاطرها ما تتلقاه إحسانًا!.. وإني لألجأ إلى شهادتها في هذه المسألة، سواء الآن أم فيما بعد، عندما يقدَّر لها أن تعيش بعدي، وفقًا لسنن الطبيعة!

على أنها - لسوء الحظ - قليلة الإلمام بالشئون الاقتصادية، من كافة الاعتبارات، قليلة الحرص على المال، مسرفة.. لا عن غرور أو نهم، وإنما عن إهمال فذ، عجيب!.. وليس في هذه الدنيا مَن أوتى الكمال، فإذا لم يكن ثمة بد من أن يكون لصفاتها الرائعة، ما يقابلها في كفة التناقض، فإنني أوثر أن تكون لها عيوب، على أن تكون لها رذائل.. وإن كانت هذه العيوب أكثر إساءة إلينا معًا من الرذائل، في بعض الأحيان!.. إن الجهود التي بذلتها من أجلها - كما فعلت من قبل، من أجل « ماما » - كى أجمع لها بعض المدخرات التي تصبح يومًا موردًا لعيشها، تفوق كل تصوّر.. بيد أنها كانت دائمًا جهودًا مضيعة. فإن أيًّا منهما - سواء هي أو ماما - لم تحاول يومًا أن تعمل لمصلحتها، فكان كل شيء لا يلبث - برغم كل جهودى - أن يضيع بمجرَّد أن يأتي!.. ومع البساطة التي كانت « تيريز » تنتهجها، فإن المعاش الذي رصده لها « ريى » لم يكن قط كافيًا لحاجاتها، كما أنني لم أكن أستبقى شيئًا من دخلي في كل عام. فكلانا لم يُخلق ليصبح غنيًّا، في أي يوم من الأيام، ولست أعتبر هذا من مساوىء حظنا، إطلاقًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وطُبع « العقد الاجتماعي » دون ما كثير إرجاء، فكان على النقيض من « أميل » الذي كنت مضطرًّا إلى انتظار نشره، قبل ان أنفذ مشروع اعتكافى. وكان « دوشين » يبعث إلىَّ - من وقتٍ إلى آخر - بنماذج من الحروف لأختار منها.. وكلما اخترت، أرسل لى نماذج أخرى غيرها، بدلًا من أن يشرع في الطبع، فلما استقرّ رأينا في النهاية على الشكل وحجم الحروف، وبعد أن أرسل لي عدة صفحات مطبوعة، أدخلت عليها بعض تعديلات طفيفة، أعاد الطبع من جديد.. فوجدنا أننا - بعد ستة أشهر - أقل تقدّمًا مما كنا في أوَّل يوم. وبينما كانت هذه التجارب تجرى، اكتشفت أن الكتاب كان يُطبع في فرنسا، كما كان يُطبع في هولندا، طبعتين مستقلتين!.. فما الذي كنت أملك أن أفعله؟.. إنني لم أعد مالك مخطوط كتابى. وكنت بعيدًا كل البعد عن أن تكون لي أية يد في الطبعة الفرنسية، بل إننى كنت دائمًا أعارض في إصدارها، ولكن.. لما كان طبعها جاريًا على قدمٍ وساق، بالرغم منى، وما دام من الممكن استخدامها كمثال للطبعة الأخرى، فإنني وجدت من المستحسن أن ألقي نظرة على التجارب « البروفات »، حتى لا يُحرف كتابي أو يُشوه. ثم إن المؤلَّف، كان يُطبع بموافقة تامة من رقيب المطبوعات، فهو الذي كان يوجِّه المشروع - بطريقة ما - وكثيرًا ما كتب إلىَّ، بل إنه جاء لزيارتي بصددها في مناسبة معينة، سأتكلم عنها حالًا!

وبينما كان « دوشين » يتقدَّم بخطى سلحفائية، كان « نياولم » - الذي تعمد أن يعوقه - يتقدَّم بخطى أكثر بطءًا، إذ أن الصفحات لم تكن تُرسل إليه بالانتظام الذي كانت تُطبع به. وقد خامره الظن في أنه لاحظ سوء نية من جانب « دوشين »، أعني « دى جاى » الذي كان يمثله. وإذ رأى أن الاتفاق لم يكن يُنفَّذ، كتب إلىَّ خطابات إثر خطابات، مليئة بالشكايات والتظلمات، التي كنت أقل مقدرة على علاجها مني على علاج المشكلات التي

كانت تتعلق بمصلحتي. ولقد كان صديقه « جيران » - الذي يكثر جدًّا من زياراتي في ذلك الحين - لا يفتأ يتحدَّث إليَّ عن هذا الكتاب، ولكن في كثير من التحفظ المسرف. كان يعرف، ولا يعرف، أن الكتاب كان يُطبع في فرنسا.. وكان يعرف، ولا يعرف، أن الرقيب كان مهتمـًا به بنفسه.. وكان يشفق عليَّ من الحرج الذي سبّبه لي هذا الكتاب، بينما كان - في الوقت ذاته - يتهمني بالخرق، دون أن ينبئني قط بما هنـاك من خرق.. وكان يراوغ ويداور ويمارى دون انقطاع.. كان يبدو وكأنه يتكلم ليستدرجني إلى الكلام. وكانت طمأنينتي - خـلال تلك الفترة - مكتملة إلى درجة أنني كنت أضحك من اللهجة المتحفظة والغامضة التي كان ينتهجها في هذه المسألة، وأعتبرها عادة نشأت عنده من الاتصال المستمر بالإدارات الوزارية والقضائية. وكنت متأكدًا من أن كل الاعتبارات الخاصة بهذا الكتاب كانت كما ينبغي لها أن تكون، ومقتنعًا كل الاقتناع بأن الكتاب لم يحز رضاء ورعاية الرقيب فحسب، وإنما كان يستحق رضاء الوزير نفسه، وقد ظفر به ومن ثم فقد رحت أهنيء نفسى على حسن تصرفي، وأضحك من ضعف قلوب أصدقائي، الذين كانوا يبدون القلق من أجلى. ولقد كان « ديكلو » من هؤلاء القلقين، وأعترف أن ثقتى باستقامته وحصافته كانت خليقة بأن تنذرني بالخطر، لو أنني كنت أقل اطمئنانًا إلى فائدة مؤلفي وإلى شرف مَن كانوا يرعونه. وقد زارنى، موفدًا من السيِّد « باى »، أثناء طبع « اميل »، فحدَّثني عنـه. وقرأت عليه إعلان أسقف سافوا لإيمانه، فأنصت في إعجاب بالغ، وفي اغتباط عظيم، على ما لاح لي. فلما فرغت من القراءة، قال لي: « عجبًا، أيها المواطن!.. أفهذا جزء من كتاب يُطبع في باريس؟ ». فقلت له: « أجل.. وقد تقرَّر طبعه في اللوفر، بأمر من الملك ». فقال لي: « إنني مقتنع بذلك، ولكن.. هل لك في أن ترضيني بألّا تذكر لأي امريء أنك قرأت عليَّ هذا الجزء؟! ».. وكان هذا الأسلوب الشاذ في التعبير عمَّا بنفسه، خليقًا بأن يدهشني، ولكنه لم يرهبني. فقد كنت أعرف أن ديكلو كان كثير الالتقاء بالسيِّد دى ماليزيرب، ومن ثم فقد شقَّ عليَّ أن أدرك كيف كان رأيه يختلف كثيرًا عن رأى ذاك السيِّد، في موضوع واحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد أقمت في مونمورنسى فوق أربع سنوات، دون أن أستمتع بصحة طيبة ليوم واحد. فبالرغم من أن الهواء كان بديعًا، إلا أن المياه كانت رديئة، ومن المحتمل كل الاحتمال أن يكون هذا من الأسباب التي ساهمت في استفحال عللى المعهودة. وفي أواخر خريف سنة 1761، سقطت مريضًا، وقضيت الشتاء كله في أوجاع لم تكن تهن تقريبًا. وكان سقمى البدني يزداد وطأة بألف هم وقلق، مما يضاعف احساسى به وتوجعي له. فلقد ظلَّت تراودني - فترة من الزمن - وساوس خفية، كئيبة، لم أكن أدرى لها مأتى. وكنت أتلقى رسائل جد عجيبة، خاليـة مما ينم عن مرسليها. بل ورسائل كانت تحمل توقيعات كاتبيها، ولا تقل عليها غرابة. وكانت منها رسالة من مستشار بالبرلمان في باريس، لم يكن راضيًا عن الوضع الراهن، ولا مطمئنًا إلى نتائجه، فشـاء أن يستشيرني في أن أختار ملاذًا في (جنيف) أو في (سويسرا) يستطيع أن يأوى إليه مع أسرته.. ورسالة أخرى من السيِّد دي...، رئيس الدورة النيابية في برلمان (...) الذي سألني أن أوجِّه مذكرة أستنهض بها أعضاء هذا البرلمان، الذي كان - في ذلك الوقت - على غير وئام مع البلاط الملكي وعرض - في الوقت ذاته - أن يمدني بكل الوثائق والمواد التي أحتاج إليها في هذا الصدد.

وعندما أكون معذَّبًا بالألم، أغدو فريسة سهلة للانفعال. وهذا ما حدث عندما تسلمت هذه الخطابات، وقد أظهرت حالي في إجاباتي، إذ رفضت فيها رفضًا باتًا أن أفعل ما سُئلته ويقينًا أنني لا ألوم نفسي على هذا الرفض، إذ كان من المحتمل أن هذه الخطابات فخاخ أعدَّها أعدائى[20]، وقد كان ما سُئلته مخالفًا للمبادىء التي كنت ما أزال أقل ميلًا إلى التحوّل عنها، مني في أي وقت آخر. ولكني رفضت بفظاظة، في حين أننى كنت أملك أن

أرفض في أدب. وقد كنت في هذا مخطئًا.

ولسوف توجد الرسالتان اللتان ذكرتهما، بين أوراقي. ولم يدهشني خطاب المستشار البتة، لأنني كنت أرى - مثله ومثل كثيرين غيره - أن تداعى الدستور كان ينذر فرنسا بخرابٍ قريب. كانت الخسائر التي خلفتها حرب منكودة، ترتبت بأسرها على خطأ من الحكومة21.. وكان الارتباك المالي الذي يجل على التصور.. والخلافات المستمرة في الهيئة التنفيذية التي كانت موزعة - حتى ذلك الحين - بين وزيرين أو ثلاثة، كل منهم في حرب مكشوفة مع الآخر، وثلاثتهم يسعون إلى توريط المملكة في مآزق، ليكيد كل منهم للآخر22.. والتذمر العام الذي ساد الشعب وكافة طبقات الدولة.. وتشبث امرأة عنيدة، درجت دائمًا على أن تضحي بمواهبها الذهنية - إذا كانت قد أوتيت مواهب ما - في سبيل ميولها ونزواتها، وكانت دائمًا ما تقصى القادرين عن مناصب الدولة، لكي تملأها بالمقربين إليها.. كانت كل هذه العوامل، تساهم في تبرير مخاوف المستشار، والجمهور، وأنا!

ولقد حملتني هذه الوساوس مرارًا على أن أتساءل عمّا إذا كان من الجدير بي أن أبحث أنا الآخر عن ملجأ لي خارج المملكة، قبل قيام الاضطرابات التي كان يبدو أنها تتهددها، ولكنني كنت - اطمئنانًا إلى تفاهة شأني، وإلى مسلكي الوادع - أعتقد أن شيئًا من العاصفة ما كان ليقوى على أن يصل إلىّ، في العزلة التي اعتزمت أن أعيش فيها. ولم يكن يحزنني سوى أن السيِّد دي لوكسمبورج، انصرف - في هذه الظروف - إلى الاضطلاع بمهام كانت خليقة بألّا تجعله موضع رضى من حكومته ذاتها. وكنت أود لو أنه أعدّ لنفسه - في مثل هذه الحال - مخرجًا، وتأهّب لكل الطوارىء، إذا ما قُدِّر للجهاز الضخم أن يتهدَّم.. الأمر الذي كان ثمة ما يبرر الخوف من حدوثه، تحت الظروف القائمة، وما يزال يبدو لي - في الوقت الحاضر - أنه لا مجال للشك في أنه لو لم تقع جميع أزمة الحكم - في النهاية - في يد واحدة23، لكانت الملكية الفرنسية الآن في النزع الأخير!

وبينما كانت حالي تزداد سوءًا، أخذ طبع « اميل » يزداد بطءًا، ثم أوقف تمامًا، في النهاية، دون أن أتمكن من معرفة السبب، ودون أن يتنازل « دى جاى » فيكتب لي، أو يرد على رسائلي. ولم أستطع أن أحصل على أنباء من أحد، ولا عرفت شيئًا مما كان يجرى، إذ أن السيِّد دي ماليزيرب كان في الريف، في تلك الآونة. وما قُدِّر لأية محنة - مهما تكن - أن تزعجني أو أن تربكني ما دمت أعرف كنهها ومبناها، ولكنني فُطرت على التخوف من الظلمات، فأنا أكره وأرهب مظهرها الأسود.. إن الغموض يقلقني دائمًا، فهو شديد التناقض مع طبيعتي التي تتسم بصراحة تكاد تبلغ التهور ومجافاة الحكمة. إن مرأى أفظع الهوام لا يفزعني إلا قليلًا - فيما أحسب - ولكنني أذعر إذا ما لمحت في الليل شبحًا تحت كساء أبيض!.. ومن ثم فقد شغل خيالي - إذ أذكاه هذا الصمت الطويل - برسم أشباح مرعبة لي. وكنت كلما تحمست لنشر آخر مؤلفاتي وأفضلها، وأمعنت في إضناء نفسي بحثًا عما قد يكون السبب في تأخره. ولما كنت أمعن في التطرف - في كل شيء ـ فقد خُيل إلىّ أننى ألمح وراء إيقاف طبع الكتاب، بوادر مصادرته!

على أننى لعجزي عن تصوّر السبب أو الطريقة، لهذه المصادرة، ظللت في أقسى ألوان الشك في الدنيا. ورحت أكتب الخطابات إثر الخطابات، إلى « جاى »، وإلى السيِّد دى ماليزيرب، وإلى السيِّدة دى لوكسمبورج، دون أن تصلني الإجابات قط، أو أنها لم تكن تفد في الأوقات التي كنت أتوقعها، فاشتدّ اضطرابى، حتى لقد رحت أهذي. وسمعت - لسوء الحظ - في تلك الآونة، أن الأب « جريفيه » - وكان من الجيزويت - قد تحدَّث عن « أميل »، بل وسرد فقرات منه، فإذا خيالي يفض - كالبرق الخاطف - هذا الغموض المحير بأسره. ورأيت بجلاء تام تطورات الأمور، كما لو أنها كانت قد كُشفت لى.. فتمثلت أن الجزويت قد هاجتهم لهجة الازدراء، التي تحدَّثت بها عن مدارسهم، فاستولوا على مؤلفي، وأنهم هم الذين كانوا يعطلون نشره.. وأنهم قد علموا من صديقهم « جيران » بحالي الراهنة،

فتوقعوا قرب موتى - الأمر الذي لم أكن، أنا نفسي، أرتاب فيه - ومن ثم فقد كانت غايتهم هي تعطيل الطبع إلى أن تحدث الوفاة، معتزمين أن يشوهوا ويحرفوا الكتاب لكي يخدم أغراضهم هم، بأن يعزوا إليَّ آراء تخالف آرائى تمامًا!

وما كان أعجب تلك الوقائع والظروف التي توافدت على عقلي والتفت حول هذه الفكرة الحمقاء فأكسبتها مظهر الحقيقة.. بل راحت تثبت صدقها! وكنت أعرف أن « جيران » كان على ولاء تام للجيزويت، فعزوت إليهم كل المحاولات الودية التي عرضها عليَّ من قبل، وأقنعت نفسي بأنه ما ألحَّ عليَّ بالاتفاق مع « نياولم » إلا بواعز منهم، وبأنهم ما توصلوا إلى الصفحات الأولى من مؤلفي، إلا عن طريق هذا الناشر، وأنهم لم يلبثوا أن اهتدوا إلى طريقة لحمل « دوشين » على أن يوقف الطباعة، ولعلهم استطاعوا أيضًا أن يستولوا على الأصل الخطى للكتاب، كي يعملوا على مهل في تحريفه، حتى يطلق موتى الحرية لهم في أن ينشروا هذا الزيف وفق هواهم. ولقد كنت أشعر دائمًا - وبالرغم من ملق الأب بيرتييه - أن الجيزويت لم يكنوا لي شيئًا من الحب، على الإطلاق، لا لاشتراكي في جماعة الموسوعة أو « القاموس المحيط » فحسب24، وإنما لأن آرائى - أيضًا - كانت أشدّ عداء لمبادئهم ونفوذهم من كفر زملائي، إذ أن من الممكن للتطرف الزندقي والتطرف الديني أن يتقاربا بفضل تعصبهما المشترك، بل إن من الممكن أن يتحدا، كما فعلا في الصين، وكما يفعلان الآن في عدائهما لي. أما العقيدة القائمة على العقل والمباديء الخلقية، والتي تلغي كل سلطان إنساني على الضمائر، فإنها لا تدع موردًا يستغله أولئك الذين يزعمون لأنفسهم هذا السلطان!

ولقد كنت أعرف - كذلك - أن السيِّد المستشار25 كان صديقًا حميمًا للجيزويت، فخشيت أن يكون الابن قد وجد نفسه مضطرًا إلى أن يسلمهم المخطوط الذي تكفل بحمايته، تحت الشعور بالحرج أمام أبيه!.. بل لقد زين لي الوهم أن أرى أثر هذا التخلى منه عن المخطوط، في تلك التحرشات التي بدىء في توجيهها إليَّ، بصدد الجزءين الأوّلين من الكتاب، اللذين احتجزا، دون تجليد لبعض أمور تافهة.. في حين أن الجزئين الباقيين، كانا - كما هو غير مجهول - مفعمين بآراء عنيفة، مما كان يستدعي إعادة صوغهما بأكملهما، إذا كان الرقيب قد انتقدهما، كما فعل بسابقيهما. ثم أنني كنت أعرف - فوق هذا، كما أنبأني به السيِّد دى ماليزيرب نفسه - أن الراهب « دى جراف »، الذي وكّل إليه أمر مراجعة هذه الطبعة، كان هو الآخر من أتباع الجيزويت. وهكذا لم أكن أرى سوى الجيزويت في كل مكان، دون أن أفكر في أنهم كانوا على أعتاب إبادتهم، وأنهم كانوا جد منهمكين في الدفاع عن أنفسهم، فكان لديهم ما يشغلهم عن التآمر ضد طبع كتاب لم يكن لهم به أي شأن.

بل أنني لأخطىء إذ أقول: « دون أن أفكّر »، فالواقع أننى فكرت جيِّدًا، وكان هذا بالذات من الاعتراضات التي عني السيِّد دى ماليزيرب بأن يبديها لي، بمجرَّد أن فطن إلى الفكرة الواهمة التي تملكتني. ولكنني بنزوة من تلك النزوات التي تتملك رجلًا يحاول - من أعماق معزله - أن يجلو أسرار جسام الأمور، وهو لا يعرف عنها شيئًا، لم أشأ قط أن أصدِّق أن الجيزويت كانوا في خطر، بل اعتبرت مثل هذه الشائعات بمثابة حيلة منهم لتخدير أعصاب خصومهم. وكانت انتصاراتهم الماضية - التي لا لسبيل إلى إنكارها - توحي إليَّ بفكرة رهيبة عن نفوذهم، حتى أننى رحت أنعي على البرلمان هوانه إزاءهم. وكنت أعرف أن السيِّد دى شوازيل قد درس على أيدي الجيزويت، وأن السيِّدة دى بومبادور لم تكن على علاقات سيئة معهم، وأن تحالفهم مع ذوى الحظوة والوزراء، كان يُعتبر دائمًا ذا نفع كبير لكل من الطرفين ضد عدوهما المشترك. وكان البلاط الملكي يبدو متباعدًا عن الزج بنفسه في هذه الأمور.. ولما كنت مقتنعًا بأن المجتمع إذا تعرَّض يومًا لأية هزة عنيفة، فلن يكون البرلمان من القوة بحيث يُحدث هذه الهزة، فقد اتخذت من هذا الإعراض عن العمل من جانب البلاط، أساسًا لثقة الجيزويت واطمئنانهم إلى الفوز.

وقصارى القول، أنني لم أكن أرى في كل شائعات تلك الفترة، سوى تعمية وشباك من جانب الجيزويت، ولما كنت مؤمنًا بأنهم - في موقفهم الأمين - قد أوتوا الوقت الكافي لكي يعدّوا عدّتهم لكل شيء، فإنني لم أكن أرتاب قط في أنهم لن يلبثوا أن يسحقوا اليانسيين، والبرلمان. وأصحاب الموسوعة، وكل مَن لم ينصاعوا لربقتهم.. وأنهم إذا أتاحوا لكتابي أن يظهر - في النهاية - فلن يكون ذلك إلا بعد أن يحولوه إلى سلاح، وأن يستغلوا اسمى في التغرير بقرائي.

ولقد كنت أشعر بأنني موشك على الموت، ومن ثم فإنني لا أكاد أدرى، كيف أن هذا التهوس لم يقض عليّ!.. فشدّ ما جزعت لفكرة أن ذكراى قد تُشوه بعد موتى، في أفضل كتبي وأجدرها بالمجد!.. أبدًا ما شعرت بمثل ذلك الخوف من الموت الذي تولاني إذ ذاك، وأعتقد أنه لو كان مقدَّرًا لي أن أموت إذ ذاك، لقضيت نحبي وأنا في يأس قاتل. بل إننى اليوم، وأنا أرى أسود وأبشع مؤامرة دُبّرت ضد ذكرى امرىء، تسير قدمًا نحو غايتها، أشعر بأنني سأموت أكثر طمأنينة، إذ أترك خلفي - في كتاباتي - شاهدًا لن يلبث أن ينتصر - إن عاجلًا أو آجلًا - على مؤامرات البشر!

سنة 1762

وكان السيِّد دى ماليزيرب هو شاهد انفعالي، ومستودع سرى بشأنه، فبذل في سبيل التسرية عنى جهودًا نمّت عن طيبة قلب لا ينضب لها معين. ولقد ساهمت السيِّدة دى لوكسمبورج في هذا العمل الطيب، وزارت « دوشين » عدّة مرات، لكي تتبين مدى تقدم سير الطبعة. وأخيرًا، استؤنفت الطباعة، وراحت تتقدَّم أسرع من ذي قبل، وما قُدِّر لي قط أن أعرف سر توقفها من قبل. ولقد تجشم السيِّد دي ماليزيرب عناء الحضور إلى (مونمورنسي) كي يهدئ من هواجسي، ووفق في ذلك، إذ أن ثقتي التامة باستقامته، تغلبت على تخبط فكرى، فجعلت كل مجهود منه - ليعيد إلى ذهنى اتزانه - مجهودًا مثمرًا. وكان من الطبيعي أن يجدني جد جدير بالرثاء، بعد كل الذي شهده من شجونى وآلامي. ولقد عاودته فكرة التعنت الفلسفي التي كانت تحيط به وتردد على سمعه باستمرار. فلقد قيل للملأ، عندما ذهبت للإقامة في (ليرميتاج) - كما ذكرت من قبل - إنني لن أطيق البقاء طويلًا، فلما رأى المتقولون أننى بقيت هناك، زعموا أن بقائي إنما كان بدافع من عنادي، وكبريائي، واستحيائي من أن أتراجع.. وأنني كنت في الحقيقة أعاني ضيقًا قاتلًا، وشقاءً بالغًا. ولقد صدَّق السيِّد ماليزيرب ذلك، وكتب إليَّ. فكان شعورى مضاعفًا لصدور هذا الخطأ عن رجل كنت أكن له كثيرًا من التقدير، ومن ثم كتبت له أربع رسائل تباعًا، شرحت له فيها الدوافع الحقيقية لمسلكي، ووصفت له بإخلاص ميولي، ونزعاتي، وشخصيتي، وكل ما يخالج فؤادي.. هذه الرسائل الأربع، التي كُتبت دون تحضير ولا مسودات، وإنما بسرعة، وبجرة قلم، ودون ما مراجعة، قد تكون المؤلفات الوحيدة - في حياتي - التي كتبتها بسهولة.. والأعجب من هذا أنني كتبتها وسط آلامى والتداعي المفرط الذي كنت أعانيه. وإذ كنت أشعر بأن قواى كانت في اضمحلال، فقد تنهّدت حسرة إذ فكرت في أنني سأخلف ورائي - في أذهان الرجال الأشراف - مثل ذاك الرأي الظالم عن نفسي، ومن ثم فقد حاولت بالصورة السريعة التي رسمتها في الرسائل الأربع، أن أسد الفراغ الذي كان يجب أن تملأه المذكرات التي اعتزمت من قبل أن أكتبها!.. إن هذه الرسائل التي أعجب بها السيِّد دي ماليزيرب، والتي أطلع عليها أهل باريس، تعتبر - إلى حد ما - ملخصًا لهذا الذي أعرضه هنا بالتفصيل، ومن ثم فهي جديرة بأن تُصان. ولسوف توجد منها - بين أوراقي - نسخة نقلها برجاء منى، وأرسلها إليَّ بعد ذلك بسنوات.

وأصبح الشيء الوحيد الذي يكربني - منذ ذلك الحين - كلما فكرت أننى كنت موشكًا على الموت، هو أننى كنت محرومًا من أي أديب أركن إليه، وأستطيع أن أضع بين يديه أوراقي، لكي يراجعها ويفرزها بعد وفاتي!.. وكنت منذ رحلتي إلى (جنيف)، قد اتصلت بـ « مولتو

» برباط من المودة. فقد شغفت بهذا الشاب، وكنت أتمنى لو أنه جـاء ليغمض عيني عندما أموت. ولقد أطلعته على هذه الرغبة، وأعتقد أنه كان على استعداد لأن يؤدي هذا الواجب الإنساني، وهو راض، لو أن شئونه وأسرته سمحت له بذلك. أما وقد حُرمت من هذا العزاء، فقد رغبت في أن أهبه دليلًا على ثقتى به - على الأقل - بأن أرسلت إليه « إعلان أسقف سافوا إيمانه »، قبل النشر. ولقد سرّ بها، ولكني لم أشتم في لهجة ردّه ما ينم عن أنه كان يشاطرني الاطمئنان إلى الثقة التي أردت بعملي أن أشعره بها. فقد رغب في الحصول على بضع قطع أدبية لم يقدَّر لسواه أن يحرزها. ومن ثم أرسلت إليه: « رثاء الدوق دورليان عند وفاته »، وكنت قد كتبت هذا الرثاء للراهب دارتي، بيد أنه لم يُقدَّر له أن يلقيه، إذ عهد بمهمة رثاء الفقيد إلى سواه، على غير ما كان يتوقّع!

وما أن استؤنف طبع « اميل »، حتى مضت العملية قدمًا وانتهت في هدوء، وقد لاحظت في هذه المرة ظاهرة عجيبة، فبعد الصفحات التي حُذفت في قسوة من الجزءين الأوّلين، أجيز الجزءان التاليان دون ما اعتراض، ودون أن يُتخذ من محتوياتهما ما يعرقل النشر. وكنت ما أزال أحتفظ ببعض التوجس الذي ينبغي ألّا أغفله هنا. فبعد أن كنت في خوف من الجيزويت، إذا بي في خوف من اليانسيين ومن الفلاسفة. إذ أنني كعدو لكل ما يسمى تحزبًا، أو تعصبًا، أو تعنتًا، لم أكن أتوقع قط أي خير من أولئك الذين أتوا شيئًا من ذلك.

وكان « الثرثاران »[26] قد خلَّفا - قبل ذلك بزمن - مقرهما القديم، واستقرّ بهما المقام جد قريب منى، حتى لقد كان من الممكن أن يُسمع في غرفتهما كل ما يُقال في غرفتي أو شرفتي، كما كان من السهل جدًّا تسلق السياج القصير الذي كان يفصل حديقتهما عن شرفتي المغلقة الجوانب، وكنت قد اتخذتها حجرة مكتب، فأقمت فيها منضدة تكدّست عليها « بروفات » وصفحات « اميل » و « العقد الاجتماعي »، ولقد اعتدت أن أخيط هذه الأوراق بعضها إلى بعض، عندما تُرسل إلىَّ، وبهذا كنت أحصل على نسخ من كتبي قبل ظهورها بوقتٍ طويل. وكان غبائي وإهمالي وثقتي بالسيِّد متى[27]، واطمئناني إلى الحديقة التي كانت تحيط بمسكنى.. كل هذه كثيرًا ما كانت تجعلني أنسى إغلاق الشرفة في الليل، فكنت أجدها في الصباح مفتوحة.. وما كان هذا ليسبب لي أتفه شاغل، لولا أن خُيل إلىَّ أننى لاحظت أن أوراقي لم تكن كما رتبتها. وإذ لاحظت هذا عدّة مرات، أصبحت أكثر عناية بإغلاق شرفتي. وكان القفل رديئًا، لا يكاد المفتاح يدور فيه سوى نصف دورة. وإذ ازددت انتباهًا، وجدت أن العبث بأوراقي أصبح أكثر مما كان عندما كنت أترك الباب مفتوحًا.



إذ ازددت انتباها ، وجدت أن العبث بأوراقى أصبح أكثر مما كان عندما
كنت أترك الباب مفتوحاً ..

وأخيرًا، اختفى أحد كتبي يومًا وليلتين، وعجزت تمامًا عن أن أتبين ما جرى له، إلى أن كان صباح اليوم الثالث، إذ وجدته ثانية على المنضدة!.. ولم أشعر إذ ذاك - ولا شعرت يومًا - بأي ارتياب في السيِّد متى، ولا في ابن أخيه السيِّد دومولان، إذ كنت أعرف أن كلًّا منهما كان يحبني، ومن ثم فقد كنت أوليهما كل ثقة. وبدأت أشعر باطمئناني إلى « الثرثارين » يتضاءل. وكنت أعرف أن لهما علاقة بدالمبير - برغم أنهما كانا من اليانسيين - كما أنهما كانا يقيمان معه في مسكن واحد في باريس. وقد سبَّب لي هذا شيئًا من عدم الارتياح، وجعلني أكثر حذرًا. فنقلت أوراقي إلى مخدعي، وانصرفت نهائيًّا عن زيارة هذين الشخصين، لا سيما وأننى سمعت كذلك أنهما عرضا - في عدَّة بيوت - الجزء الأوَّل من « اميل »، الذي كنت من عدم الحكمة بحيث أنني أعرتهما إياه. ومع أنهما ظلَّا يجاوراني في السكني إلى أن غادرت المكان، إلا أنني لم أتصل بهما قط منذ ذلك الحين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وسبق « العقد الاجتماعى » كتاب « اميل » إلى الظهور، بشهر أو شهرين، وكان « ريى » - الذي اعتدت دائمًا أن أحرِّم عليه تحريمًا باتًا إدخال أي كتاب من كتبي إلى فرنسا - قد أرسل إلى المستشار يرجو الحصول على إذن بأن يُدخـل « العقد الاجتماعي » إلى فرنسا، عن طريق « روان »، حيث كان قد أرسله بحرًا. ولم يتلق « ريى » ردًا، فظلَّت طروده في (روان) عدَّة أشهر، ثم رُدَّت إليه، بعد أن بُذلت محاولة لمصادرتها ولكنه أحدث ضجة اضطرّت أصحاب المحاولة إلى ردّها إليه. على أن الفضول دفع البعض إلى الحصول على نسخ من (أمستردام)، تدوولت في غير ضجة تُذكر. ولقد حدَّثنى « موليون » - الذي كان قد سمع، بل ورأى بعض هذه النسخ - عن الأمر، في شيء من الغموض الذي أدهشنى، وكان خليقًا بأن يثير قلقي - كذلك - لولا أنني في تأكدي من أنني اتبعت القانون في كافة الاعتبارات، ولم آت ما أؤاخذ نفسي عليه، رحت أطمئن نفسي مستندًا إلى مبدئى العظيم. ولم يخالجني شك في أن السيِّد دى شوازيل ـ الذي كان قد أبدى ميلًا طيبًا نحوى، ورضاء عن المديح الذي دفعنى تقديري إياه إلى أن أورده في هذا الكتاب ـ لن يتردد عن مؤازرتي، في هذه المناسبة، ضد النوايا السيئة التي تصدر عن السيِّدة دى بومبادور!

وكان من المؤكد أن بوسعي إذ ذاك أن أركن إلى أفضال السيِّد دي لوكسمبورج، أكثر من ذي قبل، وأن أطمئن إلى تعضيده لي عند الضرورة. إذ أنه لم يبد لي يومًا ما يفوق ما كان يبديه لي إذ ذاك من دلائل الود والصداقة. ومع أن حالتي الصحية المحزنة لم تكن تتيح لي أن أسعى إلى القصر - عندما قدم في رحلة عيد الفصح ـ إلا أنه لم يكن يدع يومًا يمر دون أن يزورني. وإذ رأى أن آلامي لا تنقطع، أقنعني - في النهاية - بأن أعرض نفسي على الأخ « كوم »28. وأرسل يبحث عنه، ثم أحضره بنفسه، وأوتى الجَلَد على أن يبقى أثناء العملية التي كانت مؤلمة وطويلة، وهو أمر نادر - وجدير بالتقدير - لدى نبيل عظيم الجاه مثله. على أن العملية لم تكن تتجاوز استخدام المسابر والمجسات بيد أنني لم أكن يومًا قادرًا على تحملها، حتى على يدىّ « موران » الذي حاولها عدة مرات، ولكنه باء بالفشل باستمرار. على أن الأخ « كوم » - الذي أوتى مهارة وخفة يد لا تضارعان - وفق في النهاية، إلى إنفاذ مسبر جد صغير، بعد أن سبَّب لي ألمًا عظيمًا لأكثر من ساعتين، كنت خلالهما أبذل قصارى جهدى لأكتم صرخاتي، حتى لا أمس الفؤاد الحسّاس الذي أوتيه المارشال الطيب!.. وخُيل إلى الأخ كوم - بعد الفحص الأوَّل - أنه قد اهتدى إلى « حصوة كبيرة »، وأنبأني بذلك. بيد أنه لم يستطع العثور عليها في الفحص الثاني. وبعد أن أجرى فحصًا ثانيًا، وثالثًا، في عناية ودقة جعلتاني أشعر بالوقت يستطيل كل الطول، أعلن أن لا « حصوة » هناك البتة، ولكن « البروستاتا » كانت متحجرة، ومتضخمة إلى درجة غير عادية. ووجد أن المثانة كبيرة وفي حال جيدة، وانتهى بأن أبدى لي أنني سأعاني كثيرًا، ولكنني سأعيش طويلًا. وإذا كان قد قُدِّر للنبوءة الثانية أن تكتمل، كما اكتملت الأولى، فإن

آلامي لم تقترب بعد من نهايتها!

وهكذا انتهى بي الأمر، بعد أن عولجت طيلة هذه السنين المتتابعة من علل لم تكن بي، إلى أن أعرف أن دائي لم يكن منه شفاء، وإن لم يكن مميتًا، وأنه خليق بأن يظل ما ظللت أنا على قيد الحياة. ولم يعد خيالي - بعد أن كبحته هذه المعرفة - يصور لى وفاة أليمة قاسية، تتم وسط الأوجاع الناشئة عن « الحصوة »، ومن ثم فقد كففت عن الخوف من أن تكون نهاية مسبر كُسرت ـ منذ أمد طويل ـ في القناة البولية، قد غدت نواة تكوَّنت حولها « حصوة ». وإذ تحرَّرت من شرور الوهم ـ التي كانت أقسى من أوجاع الحقيقة ـ رحت أتحمل هذه الحقيقة في جَلَد وصبر. وليس من شك في أنني منذ ذلك الحين، أصبحت أقل توجعًا من مرضى، من ذي قبل. وما تذكّرت مرة أننى كنت مدينًا بهذه الراحة إلى السيِّد دي لوكسمبورج، دون أن تهتز مشاعرى من جديد، تأثرًا لذكراه!

وإذ عدت ـ بهذا - إلى الحياة، كما ينبغي أن يُقال، أصبحت أكثر من ذي قبل انشغالًا بإنجاز ما تبقى من مشروعى[29]. ولم أكن أنتظر - لهذا الانجاز - سوى ظهور « اميل ». وفكرت في (تورين) التي كنت قد زرتها من قبل، والتي راقت لي، نظرًا للطف جوها وأهلها.

« فالأرض الحنون، الخصبة، البهيجة

وأهلها يشبهونها في كل شيء »![30]

وكنت قد تحدَّثت عن مشروعي إلى السيِّد دي لوكسمبورج، فحاول أن يثنيني عنه. وعدت إلى أن أكلمه بصدده كأمرٍ استقرَّ الرأى عليه. وإذ ذاك اقترح علىَّ قصر « ميرلو » - الذي كان يقع على بُعد خمسة عشر فرسخًا من باريس - كملجأ قد يناسبني، وأعرب عن اغتباطه وزوجته بأن يرياني أستقر فيه. ولقد صادف الاقتراح هوى من نفسي، فلم أر فيه ما يضير. وكان لا بد من رؤية المكان، قبل كل شيء، فاتفقنا على أن يُرسل وصيفه الخاص مع عربة، لتقلني إلى هناك في يوم محدد. ولكني شعرت - في ذلك اليوم ـ بوعكة شديدة، ومن ثم أرجأت الرحلة. ثم تكاثفت عدة عوائق بعد ذلك، على أن تحول بيني وبين القيام بها. وإذ قُدِّر لي - فيما بعد - أن أسمع أن ضيعة (ميرلو) لم تكن من أملاك السيِّد دى لوكسمبورج، وإنما كانت من أملاك زوجته، فإننى لم أجد كثير عناء في أن أعزي نفسي لعدم ذهابي إلى هناك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وظهر « اميل » أخيرًا، دون أن أسمع أي نبأ جديد عن حذف شيء آخر، أو عن أية عقبات. وكان السيِّد دى لوكسمبورج قد طلب إليَّ، قبل ظهور الكتاب، كل رسائل السيِّد دى ماليزيرب التي تتعلَّق بهذا المؤلَّف. ولقد حالت ثقتي بكل منهما، وشعوري بالطمأنينة التامّة، دون أن أرى في هذا الطلب أية غرابة أو شبهة. ومن ثم فإنني أعدت الخطابات، فيما عدا واحد أو اثنين، تخلّفا عفوًا بين صفحات بعض الكتب. وكان السيِّد دى ماليزيرب قد أشار - قبل ذلك بفترة من الزمن - إلى أنه قد يسحب الرسائل التي كتبتها إلى « دوشين »، عندما كنت في جزع بشأن الجيزويت. ومن الواجب أن أعترف بأن هذه الرسائل لم تكن مما يشرِّف عقلي وتفكيري. ولكني أنبأته بأنني لم أكن توّاقًا إلى أن أظهر بمظهر يفضل حقيقتي بأية حال، وأن من الخليق به أن يدع الرسائل لدوشين.. ولست أدرى ما إذا كان قد فعل.

ولم يُقابل ظهور هذا الكتاب بالضجة والإعجاب اللذين اعتادا أن يحفّا بظهور كل مؤلفاتي. بل إن كتابًا سواه لم يُقابل بمثل ما قوبل به هو من إطراء من الخاصة، ومن استحسان واهن من العامة. فإن كل ما كتبه وقاله لي أقدر الناس على الحكم، عزَّز رأيي في أنه أفضل مؤلفاتي وأهمها قيمة. ولكن كل الذي قيل لي قيل في أغرب مظاهر التحوط والحذر،

وكأنما كان من المهم تكتم الاستحسان واعتباره سرًّا!.. فالسيِّدة « دى بوفلير »، التي ذكرت لي أن مؤلِّف مثل هذا الكتاب جدير بأن تقام له تماثيل، وأن يتلقى آيات التكريم من البشر قاطبة، رجتني في نهاية رسالتها - في غير ما مواراة ـ بأن أرد إليها الرسالة!.. أما « دالمبير » - الذي كتب لي ما معناه أن الكتاب قد أقرّ تفوقى وسمو شأني، وأنه خليق بأن يجعلني على رأس كافة الأدباء - فقد أغفل توقيع الرسالة، مع أنه اعتاد توقيع كل الرسائل التي أرسلها إلىّ قبل ذلك. ولقد كان « ديكلو » صديقًا جديرًا بكل ثقة، وكان رجلًا صادقًا، ولكنه كان حذرًا حريصًا، ومع أنه قدَّر هذا الكتاب تقديرًا عاليًا، إلا أنه تجنّب إبداء أى رأى فيه كتابة!.. ولقد حمل « لاكوندمين » على « إعلان الإيمان »، وراح يتخبط في أقواله. وكذلك اقتصر « كليرو » على عين هذا الجزء من الكتاب - في رسالته - ولكنه لم يخش أن يجاهر بمدى تأثّره بقراءته، فأطلعني بعبارات صريحة على أن هذه القراءة قد بعثت الدفء في نفسه العجوز. وكان - دون جميع مَن أرسلت إليهم كتابي - الوحيد الذي أعلن على الملأ جهرًا وبصوتٍ مدو، مدى إكباره هذا الكتاب.

أما « متى » - الذي كنت قد أعطيته إحدى النسخ الأول، قبل أن يعرض الكتاب للبيع - فقد أعار السيِّد « دى بلير » المستشار البرلماني، ووالد ممثل الحكومة في (ستراسبورج) هذه النسخة.. إذ كان للسيِّد دى بلير بيت ريفي في (سان جراسيان) وقد اعتاد « متى » - الذي كان من معارفه القدامي - أن يزوره من آنٍ إلى آخر، كلما استطاع إلى ذلك سبيلًا. ومن ثم فقد مكنه من أن يقرأ « اميل » قبل صدوره، فلما ردَّ السيِّد دي بلير إليه الكتاب، أفضى بهذه الملاحظة، التي رُددت علىَّ سمعي في اليوم ذاته: « هذا كتاب جديد بديع يا سيِّد متى، ولكنه لن يلبث أن يثير أحاديث تتجاوز ما قد يودّه المؤلف! ». ولقد اكتفيت، حين ردَّد لي هذا القول، بأن أضحك، ولم أر في هذه الملاحظة أكثر من مجرَّد مظهر من أساليب المستشارين، الذين يحبون أن يضفوا جوًّا من الغموض على كل شيء. وهكذا لم تترك كل التعليقات المشحونة بالقلق، والتي نميت إلىَّ، سوى أثر ضئيل في نفسي. فقد كنت أبعد من أن أبصر الكارثة التي كانت موشكة أن تحيق بي، مقتنعًا بجمال مؤلّفى ونفعه، واثقًا من أنه في حدود القانون من كل ناحية، مرتكنًا - كما خُيل إلىَّ - إلى كل ما للسيِّدة دى لوكسمبورج من نفوذ، بل وإلى رضاء الوزراء كذلك. فرحت أحبذ لنفسي القرار الذي اتخذته باعتزال الأدب وأنا في غمرة انتصاراتي، وبعد أن سحقت كل الحاسدين لي!

ولم يزعجني من نشر هذا الكتاب سوى شيء واحد، ولم يكن إزعاجه صادرًا عن مراعاة لسلامتى، بقدر ما كان منبعثًا عن رغبة في أن أطمئن ضميرى. ذلك أنني كنت قد شهدت عن كثب، وباستنكار - أثناء وجودي في (ليرميتاج) و (مونمورنسى) - المنغصات التي كان تنافس الأمراء على اللهو يفرضها على الفلاحين البائسين، فيضطرهم إلى تحمل الخسائر التي كانت تصيب حقولهم من جراء الصيد والقنص، دون أن يجسروا على الذود عن هذه الحقول إلا بإحداث الضجة، ويضطرّهم إلى أن يقضوا الليالي بين فولهم وبازلائهم، وهم يدقّون على الأواني والطبول والأجراس، لينفروا الوعول البرية. ولقد شهدت الوحشية القاسية التي كان السيِّد الكونت دي شالروا يعامل بها هؤلاء المساكين، فحملت - عندما أوشكت على نهاية « اميل » - حملة شعواء على هذا التصرف القاسي. وكان هذا العمل منى، خرقًا آخر لمبادئي، ولم يقدَّر له أن يمضى دون ما عقاب. فقد سمعت أن رجال السيِّد الأمير دى كونتي، لم يخففوا من قسوتهم على فلاحي أراضيه. ورحت أرتجف خشية أن يكون هذا الأمير - الذي كنت أكن له أعمق مشاعر الاحترام والعرفان - قد حمل على محمل الإساءة إليه، ما دفعني الشمم الإنساني إلى أن أوجّهه إلى عمه الكونت دى شارلروا. على أنني رحت أطمئن نفسي، فقد كان ضميري يبرِّر كل التبرير حملتي هذه، وقد كنت مصيبًا في ذلك. إذ أنني لم أسمع قط أن هذا الأمير العظيم قد أبدى أتفه اهتمام لهذه الفقرة التي كتبتها قبل أن أحظى بشرف التعرّف إليه، بوقتٍ طويل.

∞∞∞∞∞∞∞∞

ولقد ظهر قبل نشر كتابى بايام قلائل، أو بعده - إذ أننى لا أذكر الوقت تمامًا - كتاب آخر في الموضوع ذاته، نُقل بنصه عن الجزء الأوَّل من مؤلّفي - كلمة بكلمة - فيما عدا بعض تعديلات نثرت خلاله. وكان هذا الكتاب يحمل اسم شخص من (جنيف) كان يُدعى « باليكسير »، قيل - على ما جاء في عنوانه ـ أنه كان قد فاز بجائزة مجمع (هارليم). وأدركت دون عناء أن هذا المحفل وهذه الجائزة ابتدعا حديثًا، لتعمية الرأي العام عن السرقة. بيد أنني رأيت - كذلك - أن في هذا مؤامرة داخلية، لم أستطع أن أدرى أكانت تتمثل في نقل مخطوطي إلى الناشر - الأمر الذي لم يكن من سبيل إلى السرقة بدونه - أم في إنشاء قصة الجائزة المزعومة، التي كانت تستدعي ضرورة إنشاء الهيئة التي منحتها!.. ولم أستطع أن أبدد هذا الغموض إلا بعد سنوات عديدة، وبناء على كلمة أفلتت من « ديفيرنوا » فمكنتني من أن أتبين خلال الأحداث أولئك الذين رسموا دور السيِّد باليكسير!

وبدأت الغمغمة المكتومة التي تسبق العاصفة، تتناهى إلى السمع، ورأى كل مَن أوتى بصيرة ثاقبة، أن ثمة مكيدة كانت تتفاعل، لتحيق بكتابي وبي، وأنها لن تلبث أن تنفجر. أما أنا، فإن اطمئناني وغبائي كانا من الضخامة بحيث أنني لم أبصر محنتى.. بل إننى لم أحدس شيئًا عن سببها، بالرغم من أنني بدأت أشعر بأثرها. فقد تمثلت بدايتها في دهاء بارع، اتجه إلى الترويج لفكرة مؤداها أن المعاملة القاسية التي كان الجيزويت يلقونها، ما كان ينبغي أن توحي بأي سبيل إلى إبداء العطف نحو الكتب والمؤلفين الذين يهاجمون الدين. ولقد وُجّه إليَّ اللوم لأنني وضعت اسمى على « اميل »، وكأننى لم أكن قد وضعته على كتاباتي الأخرى دون أن يُقال لي شيء عن ذلك، وبدا كأنما كان ثمة خوف من أن يضطر القوم إلى اتخاذ خطوات قد يأسفون لها، ولكن الظروف كانت تجعلها ضرورية، وكانت رعونتى قد مهدت السبيل إليها!

ولقد بلغتني هذه الأقاويل، ولكنها لم تسبِّب لي أقل قلق بل إنه لم يخطر لي إطلاقًا أن في المسألة كلها ما يمسنى شخصيًا.. أنا الذي كنت أشعر بأنني فوق كل لوم، وأنني مؤيد أشدّ تأييد، وأنني بخير من كافة النواحي، وأنه لم يكن لي أن أخشى أن تتركني السيِّدة دى لوكسمبورج وسط المآزق، من أجل ذنب - إذا كان قد ارتكب حقًّا - فقد كانت هي منشأه الأوحد!.. على أنني لما كنت قد عرفت من تطورات الأمور عادة ـ في مثل هذه القضايا ـ أن السخط كان ينصب على الناشرين، دون المؤلفين، فقد داخلني القلق من أجل « دوشين » المسكين، لو أن السيِّد دى ماليزيرب تخلى عنه!

وظللت ساكنًا.. وتضاعفت الشائعات، وسرعان ما تغيرت لهجتها، وبدا أن الرأي العام، والبرلمان بوجهٍ خاص، قد أهاجهما صمتى. وبعد أيام قلائل، أصبح الانفعال فظيعًا، وتبدَّل هدف التهديدات وأصبحت موجهة إليَّ - أنا بالذات - مباشرة، وسمعت أعضاء البرلمان يقولون بكل صراحة ألا نفع يرجي من إحراق الكتب، وإنما يجب إحراق المؤلفين، أما الناشرون، فلم تذكر كلمة واحدة عنهم!.. وفي المرة الأولى التي رُددت فيها أمامي هذه الآراء - التي كانت أجدر بأن تصدر عن محقق مغرض، وليس عن عضو في الشيوخ ـ لم يداخلني أي شك في أنها كانت ابتكارًا من عصبة دولباخ، أريد به إثارة ذعرى ودفعي إلى الفرار. وضحكت لهذه الحيلة الصبيانية، وقلت لنفسي وأنا أسخر منهم، إنه لو أتيح لهم أن يعرفوا حقيقة الأمور، لبحثوا عن وسيلة أخرى لإرهابي.. بيد أن الشائعة لم تلبث أن بلغت من الوضوح ما أوحى بأنها جدية. وكان السيِّد والسيِّدة دي لوكسمبورج قد بكّرا في زيارتهما الثانية لمونمورنسى، بحيث أنهما كانا هناك في بداية شهر يونيو. ولم أسمع في دارهما حديثًا يُذكر عن كتابيَّ الجديدين، برغم الضجة التي أحدثاها في باريس، كما أن ربيّ الدار لم يحدثاني إطلاقًا في هذا الصدد.

ومع ذلك، فقد تصادف أن كنت على انفراد مع السيِّد دى لوكسمبورج - ذات صباح - فسألني: « هل تحدَّثت بسوء عن السيِّد دى شوازيل في كتاب: العقد الاجتماعي؟ ». فأجفلت دهشة، وقلت: « أنا؟.. يقينًا: لا! أقسم لك. على أننى قدَّمت له عكس هذا.. فبقلم لم يكن يومًا متملقًا، كتبت فيه أبدع إطراء حظى به وزير، في أي يوم من الأيام! ». وأردفت بأن تلوت عليه الفقرة كلها، فعاد يتساءل: « وفي أميل؟ » فأجبت: « ولا كلمة.. ليست به كلمة واحدة تتعلَّق بالسيِّد ». فهتف في حرارة لم تكن من عادته: « آه!.. كان خليقًا بك أن تفعل الشيء ذاته في الكتاب الآخر، أو أن تكون أكثر وضوحًا فيما كتبت! ». فأجبت: « لقد خلت أننى فعلت.. ولقد قدّرته تقديرًا كافيًا ». وكان على وشك أن يرد إليَّ القول، ولمحت أنه كان يتأهب لأن يصارحني بما كان يخفي، ولكنه كبح نفسه، ولاذ بالصمت. فما أتعس سياسة عضو حاشية الملك، إذ أنها تطغى على الصداقة ذاتها، في أحسن القلوب!

ولقد أنار هذا الحديث، على قصره بصيرتي، بشأن موقفي - أو بشأن ناحية معينة، على الأقل ـ وجعلني أدرك أننى كنت هدف المهاجمين. ورحت أنعي هذا النحس - الذي لا نظير له ـ والذي قلب إلى غير صالحي كل طيب قلته أو فعلته. ومع ذلك، فقد ظللت أشعر بأنه كان لي أن أعتمد في هذه المسألة على السيِّدة دى لوكسمبورج، والسيِّد ماليزيرب، فلم أر كيف كان في الوسع إزاحتهما للوصول إليَّ. إذ أنني - منذ تلك اللحظة - شعرت بجلاء أن المسألة لم تعد مسألة إنصاف أو عدالة، وأنه لن يكون ثمة اكتراث بتبين ما إذا كنت مخطئًا حقًّا، أو لم أكن. على أن هدير العاصفة أخذ يزداد شيئًا فشيئًا. بل إن « نياولم » نفسه، لم يلبث أن أطلعني خلال ثرثرته المسهبة، على أسفه لأنه أقحم نفسه في هذا المؤلَّف، وعلى يقينه من سوء الطالع الذي كان يتهدد الكتاب وكاتبه. ومع ذلك، فقد بقى أمر واحد ظل يطمئنني دائمًا: فلقد كنت أرى السيِّدة دى لوكسمبورج جد هادئة النفس مطمئنة، بل وضاحكة، مما أوحى بأنها كانت واثقة من نفسها، إذ أنها لم تبد أي قلق من ناحيتي، ولم تنبس بكلمة إشفاق أو اعتذار، وأنها كانت ترمق تطور هذه المسألة في هدوء، وكأنما لم تكن لها يد فيها، أو كأنها لم تكن تشعر بأتفه اهتمام بأمرى!.. ولم يكن يدهشني سوى أنها لم تقل لي شيئًا البتة، إذ لاح لي أنه كان خليقًا بها أن تقول لي شيئًا ما. أما السيِّدة دى بوفلير، فقد تراءت أقل طمأنينة، وكانت تروح وتغدو والاضطراب يلازمها، وتسرف في الحركة، وتؤكد لى أن السيِّد الأمير دى كونتي كان يبذل الكثير لصد الضربة التي كانت تعد لي، والتي كانت تعزوها دائمًا إلى الأحوال الراهنة، التي كان على البرلمان فيها ألا يتيح للجيزويت فرصة اتهامه بالتهاون إزاء الدين. على أنها كانت تبدو قليلة الثقة في نجاح خطوات الأمير وخطواتها. وكانت أحاديثها أدعى إلى الجزع منها إلى التسرية، فقد مالت دائمًا إلى حملي على مغادرة البلاد. وكانت لا تنى تنصحني بالنزوح إلى إنجلترا، حيث كان بوسعها أن تتيح لي كثيرًا من الأصدقاء بينهم « هيوم » الشهير، الذي كان صديقًا لها منذ أمد طويل. وإذ رأتني سادرًا في سكينتي، اتخذت نهجًا آخر كان أقدر على زحزحتى من جمودي. فقد أوحت إليَّ بأننى قد أضطر - إذا قُبض عليّ، واستجوبت - إلى أن أذكر اسم السيِّدة دى لوكسمبورج، وبأن صداقتها لي كانت تستحق ما هو أفضل من أن أعرِّض نفسي للاضطرار لإحراجها!.. ولقد أجبتها بأن بوسعها أن تطمئن إلى أنني لن أقحمها في مثل هذه الحال. فردَّت بأن هذا العزم أيسر قولًا منه تنفيذًا، وقد كانت على صواب في ذلك، لا سيما معى أنا بالذات، إذ كنت مصرًا كل الاصرار على ألا أحلف كذبًا أو أقول زورًا أمام القضاء، مهما يكن الخطر الذي قد يترتب على قول الحق!

وإذ رأت أن هذه الفكرة قد أثّرت في نفسي، وإن لم يكن بوسعى بعد أن أحمل نفسي على الفرار، راحت تتحدَّث إليَّ عن « الباستيل » - بضعة أسابيع ـ كوسيلة للتهرب من سلطة البرلمان التشريعية، إذ لم يكن للبرلمان أى شأن بمسجوني الحكومة. ولم أبد اعتراضًا على هذا الكرم العجيب، على شريطة ألا يُلتمس باسمي. ولما لم تعد إلى الحديث عن هذا

الاقتراح مرة أخرى، أدركت أنها إنما أبدته لتبلوني، وأن حيلة كهذه ـ تضع نهاية لكل شيء ـ لم تكن مرغوبة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ذلك بأيام قلائل، تلقى السيِّد المارشال من أسقف (دويى) - صديق جريم والسيِّدة ديبيناي ـ رسالة ضمنها نبأ قال أنه من مصدر موثوق به، عن اعتزام البرلمان أن يتخذ إجراءات غاية في القسوة ضدي، وأن مرسومًا بإلقاء القبض عليَّ سيصدر في يوم حدده. ورأيت أن هذا النبأ فرية من عصبة دولباخ، فقد كنت أعرف أن البرلمان كان شديد الحرص على الشكليات، وأنه من الانتهاك لجميع هذه الشكليات أن يبدأ - في هذه المناسبة ـ بمرسوم بالاعتقال، قبل أن يتثبَّت بالطرق المشروعة مما إذا كنت أعترف بالكتاب وبأنني كنت مؤلفه حقًّا. وقلت للسيِّدة دى بوفلير: « إن أمر الاعتقال - المبنى على مجرد البلاغ العادي ـ لا يصدر إلا في حالة تلك الجرائم التي تمس الأمن العام وذلك خشية تمكن المجرمين من الفرار. أما إذا أريد عقاب ذنب كذنبي، لا يستحق سوى التكريم والمكافأة، فإن العرف يقضى باتخاذ الإجراءات القضائية ضد الكتاب، مع تفادي المساس بالمؤلف قدر الإمكان! ». وعند ذلك نبهتني إلى فارق دقيق، كنت قد نسيته، لتبين لي أنه كان من التكريم لي أن يصدر قرار بالقبض عليَّ، بدلًا من استدعائي لسماع أقوالي!

وتلقيت في اليوم التالي رسالة من « جاى » الذي أنبأني بأنه كان - في عين اليوم الذي كتب فيه الرسالة ـ في زيارة للسيِّد المدعي العام، فلمح على مكتبه مسودة « دعوى » ضد كتاب « اميل » ومؤلفه. ولاحظوا أن « جاى » كان شريكًا لدوشين الذي طبع الكتاب، وأنه كان مطمئنًا إلى حسابه الخاص، فتطوّع لإزجاء هذا النبأ إلى المؤلف من قبيل الإحســان!.. وكأن من البسيط، بل من الطبيعي، أن يتاح لتاجر كتب قُدِّر له أن يزور السيِّد المدعي العام، أن يقرأ - في هدوء - المخطوطات والمسودات المتناثرة على مكتبه!!.. ولقد أكَّدت لى السيِّدة دي بوفلير وغيرها أن الأمر كان صحيحًا. ومن جراء السخافات التي كانت تُلقى في أذنيَّ دون انقطاع، أصبحت ميَّالًا إلى الاعتقاد بأن الناس جميعًا قد اختبلوا!

وشعرت بيقين من أن ثمة سرًّا وراء كل هذا.. سرًّا كان يُحجب عني، فرحت أرقب في هدوء مجرى الأحداث، وأنا وطيد الثقة باستقامة مسلكي، وبراءتي في المسألة بأسرها. بل إنني كنت جد سعيد بأن أُساق إلى شرف المعاناة في سبيل الحقيقة، مهما يكن الجور الذي يرتقبني. وبدلًا من أن أخاف وأستتر، واظبت على زيارة القصر يوميًا، وعلى التريض على قدمَيَّ - كعادتي - في أصيل كل يوم. وفي اليوم الثامن من شهر يونيو - وهو اليوم السابق لإصدار المرسوم - قمت برياضتي في صحبة أستاذين من الوعاظ، هما الأب ألماني والأب ماندار. وحملنا معنا بعض القوت، إلى (شامبو)، حيث استمتعنا بوجبة شهية. وكنا قد نسينا أن نحمل معنا كوبات، فاستعضنا عنها بأعواد من القش، رحنا نمتص خلالها النبيذ من الزجاجات، متلهفين على اختيار أسمك الأعواد، لكي نرى أيها أكثر قدرة على الامتصاص. وما كنت يومًا أكثر منى طربًا في ذلك اليوم!

ولقد ذكرت كيف أنني كنت أعاني من الأرق في صباي. ولقد تعوّدت من ذلك الحين أن أقرأ في السرير - في كل ليلة - حتى أشعر بعينَيّ تغفوان، فأطفيء الشمعة، وأحاول أن أنام لبضع دقائق، لم تكن تدوم طويلًا. وكانت مطالعاتي الليلية المعتادة هي « التوراة »، واستطعت بهذه الطريقة أن أقرأه خمس مرات أو ستًا، على الأقل. وفي مساء ذلك اليوم بالذات، وجدت نفسي أكثر يقظة من المعتاد، فواصلت القراءة فترة أطول، حتى أتيت على السفر الذي ينتهى بقصة اللاويين وأفرايم، وهو سفر القضاة إذا لم تخني الذاكرة، إذ أننى لم أنظر إليه قط منذ ذلك الحين. ولقد تأثّرت كل التأثّر بهذه القصة، وكنت مستغرقًا في التفكير فيها، بين النوم واليقظة، عندما انتبهت فجأة إلى ضجة وضوء. وكانت « تيريز »

هي التي حملت الضوء، وتقدَّمت تقود السيِّد « لاروش »، الذي قال إذ رآني أجفل مذعورًا: « لا تنزعج!.. لقد أقبلت من لدن السيِّدة المارشالة، التي كتبت لك، كما أرسلت إليك خطابًا من السيِّد الأمير دي كونتي » وفعلًا وجدت داخل رسالة السيِّدة دى لوكسمبورج، رسالة من الأمير حملها إليها أحد رسله، وقد ضمنها أنه قد تقرَّر - برغم كل جهوده - اتخاذ أقسى الاجراءات ضدى. ومما ذكره: « أن الانفعال بالغ الشدّة، ولا سبيل إلى منع هذه الضربة، فالبلاط يطالب بها، والبرلمان راغب فيها. وفي الساعة السابعة صباحًا، سيصدر المرسوم بإلقاء القبض، وسيجري تنفيذه في الحال. وقد توصلت إلى أنه لن يُطارد إذا بادر إلى الابتعاد، أما إذا أصرَّ على رغبته في أن يسلمهم نفسه، فسيلقى القبض عليه »!.. وراح « لاروش » يستحلفني - باسم السيِّدة المارشالة - أن أبادر فأذهب للتشاور معها، وكانت الساعة الثانية صباحًا، وقد أوت إلى مخدعها، ولكنه أضاف: « إنها في انتظارك، ولن تنام حتى تراك ». فبادرت إلى ارتداء ثيابي، وأسرعت إليها!

وبدت لي مضطربة - لأوَّل مرة - ومسَّ قلقها مشاعرى. وما كنت بمنجى من الانفعال ـ أنا الآخر ـ في هذه اللحظة المفاجئة ـ في جوف الليل - ولكني نسيت نفسي حين رأيتها، فلم أعد أفكر إلا فيها، وفي الدور المحزن الذي كان عليها أن تؤديه، إذا أسلمت نفسي. ذلك لأنني في شعورى بأننى أوتيت الشجاعة على ألا أقول سوى الحق - ولو أدَّى ذلك إلى الإضرار بي وإلى إهلاكي - لم أتوقَّع أن يكون لدىَّ من حضور الذهن، أو الدهاء، بل ولا أن يكون لدىَّ الجَلَد الكافي على أن أتحاشى إقحامها، إذا ما اشتدّ الضغط علىَّ. ودفعني هذا إلى أن أقرِّر أن أضحي بسمعتي في سبيل راحة بالها، وأن أفعل من أجلها - في هذه المناسبة - ما لم يكن في وسع أية قوة أن تغريني على أن أفعله من أجل نفسي. وما أن استقرّ رأيى، حتى أعلنته لها، غير راغب في أن أحط من قيمة تضحيتي بأن أمكنها من أن تشتريها! وإني لواثق من أنها ما كانت لتخطىء فهم الحافر الذي دفعني إلى ذلك. بيد أنها لم تفه لي بكلمة توحي بأنها قدَّرت هذا الحافز. ولقد بُهت لهذا التغافل، حتى لقد وجدتني أوازن بين المضى والتراجع. ولكن السيِّد المارشال أقبل، كما وصلت السيِّدة دي بوفلير من (باريس) بعد لحظات، ففعلا ما كان خليقًا بالسيِّدة دى لوكسمبورج أن تفعله. واستسلمت لإطراءاتهما، فقد استحييت من أن أتراجع، ولم تعد ثمة مسألة سوى اختيار المكان الذي ألوذ به، وموعد رحيلى. وعرض السيِّد دي لوكسمبورج أن أبقى أيامًا مستخفيًا في داره، لأن هذا يتيح لي وقتًا للتدبير والبت في بحبوحة من الوقت. ولم أقبل هذا إطلاقًا، ولا قبلت اقتراح الانتقال سرًّا إلى قلعة الأسرة، بل أصررت على رغبتي في الرحيل في اليوم ذاته، مفضلًا هذا على البقاء مستخفيًا في أي مكان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولما كنت قد شعرت بأن لي أعداء مستترين وأقوياء في المملكة، فقد رأيت أن لابد لي من أن أغادر فرنسا - برغم حبي إياها - لأضمن راحة بالي. وكانت رغبتي الأولى هي أن ألجأ إلى (جنيف)، ولكن لحظة تفكير واحدة، كانت كافية لأن تحولني عن ارتكاب هذه الحماقة. فقد كنت أعرف أن الحكومة الفرنسية - التي كان لها في جنيف نفوذ يفوق ما لها في باريس - لن تدعني في سلام في أي من هاتين المدينتين، إذا كانت قد عقدت عزمها على اضطهادي. وكنت أعرف أن كتابي: « حديث في عدم المساواة » قد أثار ضدى - في المجلس - كراهية كان يزيد من خطورتها أن هذه الهيئة لم تكن تجسر على أن تكشفها علانية. ثم أنني كنت أعرف أن المجلس كان شديد التحمس لتحريم تداول كتابى « هيلويز الجديدة »، عند ظهوره - بناء على تحريض الدكتور ترونشان - ولكنه حين تبين أن أية هيئة أخرى لم تحذ حذوه - ولا في باريس ذاتها - خجل من خسته، ورجع عن التحريم. لذلك لم يخالجني شك في أن المجلس إذا ما وجد الفرصة الراهنة سانحة، لن يدخر وسعًا في استغلالها. وكنت أدرك أن ثمة غيرة خفية توغر صدور كل أهل جنيف

ضدى - برغم كل المظاهر الجميلة - وأن هذه الغيرة لم تكن ترجو سوى مناسبة سانحة لتشبع نهمها. ومع ذلك فإن الشعور الوطني كان يدعوني إلى العودة إلى وطني، ولو أنني استطعت أن أقنع نفسي بأنه كان في وسعي أن أعيش في سلام هناك، لما ترددت لحظة. أما وقد كانت الكرامة والعقل لا يقرّان أن ألوذ بوطني كلاجيء، فقد عزمت، على أن أقيم على مقربة منه فحسب، فأمكث في سويسرا في انتظار ما قد يجري في (جنيف) بشأني. ولسوف يتجلى أن هذا التردد لم يدم طويلًا!

وعارضت السيِّدة دي بوفلير هذا القرار طويلًا، وعادت تبذل جهودًا جديدة لحملي على أن أنتقل إلى إنجلترا. ولكنها لم تزعزع عزيمتي، فما أحببت قط إنجلترا ولا الإنجليز. وبدلًا من أن تتغلّب لباقة السيِّدة دي بوفلير على نفوري، بدا أنها راحت تضاعفه، دون أن أدرى السر في ذلك.

وإذ اعتزمت الرحيل في اليوم ذاته، فقد شرعت في ذلك منذ الصباح، واعتبرتني مسافرًا بالنسبة للجميع، ومن ثم فإن « لاروش » - الذي كنت قد أرسلته ليحضر إليَّ أوراقي - لم يشأ أن يقول لتيريز نفسها ما إذا كنت قد رحلت أو لم أرحل. وكنت منذ اعتزمت يومًا أن أكتب ذكريات حياتي، قد جمعت عددًا من الرسائل والأوراق، ومن ثم فقد أضطرّ إلى أن يذهب إلى داري عدَّة مرات لنقلها. وكانت هذه الأوراق - التي فحصتها من قبل - قد جُمعت على حدة، لذلك قضيت بقية الصباح في فحص الأوراق الأخرى، معتزمًا ألَّا آخذ معي إلا ما يكون ذا نفع لي، وأن أحرق الباقي. ولقد رغب السيِّد دى لوكسمبورج في أن يساعدني في هذا العمل، الذي استغرق وقتًا طويلًا، حتى أننا لم نستطع أن نفرغ منه في فترة الصباح، ولم أجد متسعًا من الوقت كى أحرق شيئًا. فعرض السيِّد المارشال أن يتكفَّل بفحص الأوراق المتبقية، وأن يحرق بنفسه الفضلات - دون أن يدع هذه المهمة لأحد سواه - وأن يرسل إليَّ كل ما يستبقيه. ولقد قبلت هذا العرض وأنا جد مغتبط بأن أتحرَّر من هذا الشاغل، حتى أتمكن من أن أقضى الساعات القلائل التي ما زالت باقية لديَّ، مع أولئك الذين كانوا جد أعزاء عليَّ، والذين كنت مزمعًا فراقهم إلى الأبد!.. وأخذ السيِّد المارشال مفتاح الحجرة التي تركت فيها هذه الأوراق، وأرسل - تحت إلحاحي الدائب - في استدعاء « عمتى » المسكينة، التي كانت تكتوى بالحيرة القاتلة إزاء ما قد جرى لي، وما هو موشك أن يجرى، والتي كانت ترتقب الجنود - في كل لحظة - دون أن تدري كيف تعاملهم، ولا ما ينبغي أن تجيبهم به!

وأحضرها « لاروش » إلى القصر، دون أن يذكر لها شيئًا. وكانت تظنني قد أصبحت على بُعد شاسع. فما أن رأتني، حتى أطلقت صرخاتها الحبيسة، وارتمت بين ذراعَيَّ. فيا للمودة، ويا لتجاوب القلوب، ويا للمعاشرة، ويا للألفة!.. لقد تجمعت في تلك اللحظة - العذبة والقاسية - كل الأيام الهنيئة، الناعمة، الوادعة، التي قضيناها معًا، لتزيدني شعورًا بوطأة أوَّل فراق لنا، بعد أن كان كل منا لا يكاد يغيب عن بصر الآخر يومًا واحدًا، خلال فترة تقرب من سبعة عشر عامًا!.. ولم يقو المارشال - الذي كان يشهد هذا العناق - على كبح دموعه، فتركنا!.. ولم تشأ تيريز أن تفارقني، فأوضحت لها ما في مرافقتها إياى ـ في تلك الظروف - من صعاب، وضرورة بقائها لكي تسوى شئوني، وتحصِّل أموالي. ولقد كان من المعتاد - عند إصدار مرسوم بالقبض على امرىء - أن يُستولى على أوراقه، أو أن توضع الأختام على مقتنياته، أو أن يوقع الحجز عليها ويعين وصى لحراستها. ومن ثم فقد كان من اللازم أن تبقى هي، لكي تراقب ما يجرى، وتبذل قصارى وسعها. ووعدتها بأنها لن تلبث أن تلحق بي في القريب. وقد عزّز السيِّد المارشال وعدى، ولكني لم أشأ قط أن أنبئها بالمكان الذي كنت أعتزم الذهاب إليه، حتى إذا سألها أولئك القادمون للقبض عليَّ، كان بوسعها أن تعرب عن جهلها بذلك صادقة. وعندما احتضنتها في لحظة الفراق، شعرت بانفعال عاطفى غير عادى. فقلت لها في حرارة، وكأنما كنت - واأسفاه! - أتنبأ بما يضمره

المستقبل: « عليكِ أن تتذرعي بالشجاعة يا بنيتي!. لقد قاسمتني نعيم الأيام الحلوة، وبقى عليكِ ـ ما دامت هذه رغبتكِ - أن تشاطريني محني. فلا تتوقعي سوى الإهانات والنكبات إذا تبعتني. إذ أن الحظ الذي يبدأ معى اليوم، سيتعقبني إلى آخر ساعة في حياتي! ».

ولم يبق لي ما أفعله سوى أن أدبِّر أمر رحيلي.. كان من المتوقّع أن يكون رجال الأمن قد وصلوا في الساعة العاشرة، ولكن الساعة كانت الرابعة - بعد الظهر - عندما انطلقت، دون أن يكونوا قد وصلوا بعد. وكان الرأي قد استقرَّ على أن أسافر بعربة البريد، ولكني لم أجد محفة تقلني إلى هناك، فأهداني السيِّد المارشال عربة خفيفة ذات عجلتين، وأعارني جوادين وحوذيًّا ريثما أبلغ المحط التالي، حيث لم أجد عناء في الحصول على جياد، بفضل التدبيرات التي كان قد اتخذها.

ولم أكن قد تناولت غدائي على المائدة، ولا أظهرت نفسي في القصر، فجاءت السيِّدات لوداعي، في الطابق القائم بين الطابقين الأرضى والأوَّل (الأنترسول)، حيث قضيت اليوم كله. وعانقتني السيِّدة المارشالة عدة مرات في حزن باد، ولكنني لم ألمس في عناقها الحرارة التي كانت قد غمرتني بها قبل سنتين أو ثلاث. كذلك عانقتني السيِّدة دي بوفلير، ووجهت إليَّ أعذب القول. وكان ثمة عناق فوجئت به دون توقع.. ذلك هو عناق السيِّدة دى ميربوا، التي كانت هناك، هي الأخرى! فإن السيِّدة حرم المارشال دي ميربوا، سيِّدة فاترة العواطف إلى أبعد مدى، شديدة التكلف والتحفظ، ولا تخلو - كما يبدو لي - من الكبرياء والترفع اللذين يُفطر عليهما أبناء أسرة « لورين ». ولم تكن قد أعارتني - من قبل - أى انتباه. وسواء كنت إذ ذاك ميَّالًا إلى أن أضاعف من قيمة هذا الشرف غير المرتقب - وقد استخفني أن أحظى به - أو أنها مزجت حقًّا عناقها بقليل من العطف المألوف لدى القلوب الرحيمة، فإنني لمست في حركاتها ونظراتها قدرًا من الصدق، مما أحدث في نفسي أبلغ الأثر. وكثيرًا ما خُيل إليَّ - عندما كنت أفكر في ذلك، فيما بعد - أنها كانت على دراية بالحظ الذي قُدِّر لي، فلم تقو على مقاومة إشفاقٍ عابر، إزاء المصير الذي كان يرتقبنى.

أما السيِّد المارشال، فلم ينبس ببنت شفة.. وكان في شحوب الموتى. ورغب - في إصرار - في أن يرافقني حتى المركبة التي كانت تنتظرني عند حوض المياه. فقطعنا الحديقة بأسرها معًا، دون أن نتبادل كلمة واحدة. وكان لديَّ مفتاح للمتنزه، استخدمته في فتح الباب، وبدلًا من أن أضعه في جيبي بعد ذلك، رددته إلى السيِّد المارشال، دون أن أتفوه بشيء. فتناوله في لهفة مدهشة، لا أستطيع أن أمنع نفسي عن التفكير فيها كثيرًا، منذ ذلك الحين. ونادرًا ما عانيت في حياتي لحظة أمر من لحظة هذا الفراق. وكان عناقنا طويلًا، صامتًا.. فقد كان كل منا يشعر بأنه الوداع الأخير!

وصادفت في الطريق بين (لابار) و (مونمورنسى)، عربة مستأجرة، كانت تقل أربعة رجال في ثياب سوداء، حيونى مبتسمين. ومما أنبأتني به تيريز - فيما بعد - عن مظهر الضباط، وساعة وصولهم، ومسلكهم، لم يداخلني أي شك في أنهم كانوا نفس ركاب العربة، لا سيما وأننى علمت - بعد ذلك - أن مرسوم إلقاء القبض عليَّ، لم يصدر في الساعة السابعة صباحًا، كما قيل لي من قبل، وإنما أصدر في منتصف النهار. وكان لا بد لي من أن أمر خلال باريس بأسرها، ولم تكن ثمة وسيلة للاستتار في مركبة صغيرة مكشوفة. ورأيت في الطرقات أشخاصًا كثيرين، حيوني شأن مَن كانوا يعرفونني، وإن كنت لم أتعرَّف على واحد منهم!.. وفي مساء اليوم ذاته، انحرفت عن طريقي في دورة، لأعرج على (فيلروى).. ذلك لأنه كان على المسافرين الذين ينتفعون بجياد المحطات، أن يسعوا إلى « حكمدار » المدينة، في (ليون). وكان هذا أمرًا محرجًا بالنسبة لمسافر كان غير راغب في أن يكذب، ولا في أن يغير اسمه، ومن ثم فإنني ذهبت بخطاب من السيِّدة دى لوكسمبورج لأرجو السيِّد دي فيلروي أن يعمل على إعفائي من هذا الالتزام. فأعطاني السيِّد فيلروي رسالة لم أفد منها، لأنني لم أمر بمدينة (ليون). ولا يزال هذا الخطاب - بأختامه - بين أوراقي. ولقد ألحَّ السيِّد

الدوق كثيرًا، كى أنام ليلتي في (فيلروى)، ولكنني استحسنت أن أواصل السفر، وبذلك قطعت مرحلتين أخريين، في اليوم ذاته.

وكانت مركبتي خشنة، كما أنني لم أحظ بقدرٍ من الراحـة يمكنني من المضي في الرحيل أيامًا بطولها. وإلى جانب ذلك، لم يكن لي من فخامة المظهر ما يمكنني من أن أحظى بالخدمات. ومن المعروف في فرنسا أن خيل البريد لا تشعر بالسوط إلا عبر كتفىّ الحوذي، ومن ثم فقد خُيل إلىّ أنني كنت أستطيع أن أستعيض بالسخاء في عطاء الأدلّاء والمرشدين، عن كلمات وإشارات الوعيد. ولكن هذا زاد الأمر سوءًا، فقد ظنّوا أننى أفّاق موفد في مهمة، وإنني لم أعتد سوى السير على القدمين، وإنني كنت أسافر مستخدمًا خيـل البريد، للمرة الأولى في حياتى. ومن ذلك الحين لم أعد أحصل إلا على ضعاف الخيل، كما أصبحت ألعوبة الحوذية. وانتهى بي الأمـر إلى ما كان يجب أن أتبعه من البداية، فآثرت الصبر والصمت، وتركتهم يتصرَّفون وفق هواهم!

وكان لدىّ ما يصونني من السأم خلال الرحلة، إذ أسلمت نفسي إلى الخواطر التي راحت تصـور كل ما جرى لي. غير أن هذه لم تكن محور فكري، ولا ملتقى ميول فؤادى. فإن السهولة التي أنسى بها كل سوء انقضى - مهما يكن حـديث العهد - تدعو إلى العجب!.. وبقدر ما يزعجني ترقب المحن التي أتمثلها في المستقبل، فإنها لا تعـاود ذهني - بمجـرد وقوعها - إلا في وهن، ثم تتلاشي دون عنـاء!.. ذلك لأن خيالي القاسي، الذي يضني نفسه - بلا انقطاع - في ارتقاب النوائب قبل أن تحين، لا يلبث أن يشـتت ذاكرتي، ويحول دون أن أسترجع ذكرى ما انقضى من هذه النوائب. فلا حيلة هناك إزاء ما ولي، ومن ثم فلا جدوى من الانشغال به. والواقع أننى أستنفد محنى مقدمًا، بطريقةٍ ما، فكلما اشتدّ عنائي في ارتقابها، سهل علىّ نسيانها.. في حين أننى - على العكس من ذلك - لا أنفك أشغل بالتفكير في ماضي هنائى، فأتذكـره وأجتره - كما ينبغي أن يُقال - إلى درجة أنني أستطيع أن أستمتع به من جديد عندما يحلو لي!.. وأعتقد أنني مدين لهذا الطبع السعيد بأنني لم أعرف قط ذلك المزاج الناقم الذي يتخمر في قلب حقود - من جراء التفكير المستمر في الإساءة التي حاقت ـ والذي يعذب نفسه بكل ما يخطر له من شر يريد أن يوقعه بعدوه!.. وإذ كنت بطبيعتي حـاد المزاج، فإنني أشعر بالغضب، بل وبالهياج، في عنفوان اللحظة، ولكن الرغبة في الانتقام لم تتغلغل قط في فؤادي. فما أقل ما أفكر في الإهانة، وما أكثر ما أفكر في صاحبها، ولست أفكر في الضرر الـذي تلقيته منه، إلا تقديرًا لما قد أتلقاه من ضرر جديد منه، فإذا ما وثقت من أنه لن يلحق بي مزيدًا من الضرر، فإن الضرر الذي ألحقه بي من قبل، لا يلبث أن يروح في أدراج النسيان!.. إننا كثيرًا ما نوعظ بالصفح عن الإساءات، وهي فضيلة جد بديعة ولا ريب، بيد أنها لا تصلح لي. فأنا أجهل ما إذا كان قلبي قادرًا على إيواء البغضاء، لأنه لم يحس بشيء منها قط.. كما أننى أقل تفكيرًا في إعفائي من أن أكتسب فضيلة الصفح عنهم!.. ولن أقول إلى أي مدى يعذِّب أعدائى أنفسهم لكى يعذبوني. فأنا تحت رحمتهم، ولديهم كل السلطان، وإنهم ليستخدمونه!.. على أن ثمة شيئًا واحدًا فوق سلطانهم، وإني لأتحداهم أن يفعلوه.. ذلك هو أنهم لا يملكون - مهما يعذبون أنفسهم بسببي - أن يضطروني إلى أن أعذّب نفسي من أجلهم!

ومن ثم فإنني - في غداة رحيلي - نسيت كل ما جـرى، والبرلمان، والسيِّدة دى بومبادور، والسيِّد دى شوازيل، وجريم، ودالمبير، والمتآمرين معهم والمتآمرات، حتى أننى ما كنت لأفكر ثانية فيهم، لولا الاحتياطات التي كنت مضطرًا إلى أن أتخذها.. وواتتني - بدلًا من كل هذا - ذكرى أخرى مطالعاتى، في عشية اليوم السابق على رحيلي. كذلك تذكرت قصائد الرعاة للشاعر « جيسنـر » التي ترجمها « هوبير » وأرسل إلىّ نسخة منها منذ زمن. ولقد راحت هاتان الذكريان تترددان على فكرى، وتمتزجان بشتى الأشكال في عقلي، حتى اعتزمت أن أحاول الجمع بينهما، بأن أعالج موضوع قصة « اللاويين و أفرايم »، على

طريقة « جيسنر ». على أن أسلوب قصائد الرعاة بدأ - في بساطته - قليل الملائمة لموضوع رهيب كموضوع قصة التوراة، كما أن من العسير تصوّر أن حالي الراهنة كانت كفيلة بأن تمدني بأفكار جديدة تخفف من قتـامة الموضوع. ومع ذلك فقد أقدمت على التجربة، لمجرَّد التسلية في مركبتي، ودون ما أمل في التوفيق. فما أن بدأت، حتى ذهلت لسلاسة أفكاري، والسهولة التي أخذت أعبر بها عنها. وفي ثلاثة أيام، نظمت الأناشيد الثلاثة الأولى في هذه القصيدة التي لم ألبث أن أتممتها في (موتيير). وأعتقد أنني لم أؤلّف في حياتى شيئًا يفوقها فيما سادها من رقـة مؤثرة، ومن نضارة اللون، وطرافة التصوير وبساطته، ودقة الوصف، والسذاجة العريقة التي شاعت في كل شيء.. كل هذا بالرغم من طبيعة الموضوع المخيفة، التي كانت في جوهرها منفرة. ومن ثم فقد كان لي الفضل في التغلب على هذه العقبة، إلى جانب الصفات الأخرى. وإذا لم يكن ديوان « لاويو أفرايم » هو أفضل مؤلفاتي، فإنه سيظل دائمًا أحبهـا إليَّ!.. فما قرأتها ثانية، ولن يقدَّر لي أن أقرأها مرة أخرى، دون أن ألمس فيها إشراقة قلب خال من السخط، لا يوغره النحس، بل إنه يجد العزاء في نفسه، ويستمد العوض والجزاء من دخيلته ولو أن جميع أولئك الفلاسفة الذين يتعالون على الشدائد ولما يعرفوها، حشدوا، ووضعوا في موقف كموقفي، وقدّم إليهم - في أولى فورات الكرامة والشرف الجريح - مهمة مشابهة لهذه التي أنجزتها، وسئلوا أن يعكفوا عليها، لتبدى كيف أنهم سيبادرون إلى التهرب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنت - عند مغادرتي (مونمورنسى) إلى سويسرا - قد عزمت على أن أذهب للإقامة في (ايفردون)، مع صديقي القديم الطيب، السيِّد « روجان »، الذي كان قد اعتكف هناك منذ بضع سنوات، والذي كان قد دعاني إلى زيارته. وسمعت في طريقي أن (ليون) ستكون بمنأى عن خط سيرى، الأمـر الذي حال دون أن أمر خلالها. ولكنني - من ناحية أخـرى - اضطررت إلى أن أمر ببيزانسون، وهي بلدة محصنة، ومن ثم فإنها عرَّضتني لعين المضايقة التي كنت أخشاها في ليون. لذلك قرَّرت أن أنحرف إلى اليسار، وأن أواصل سفرى عن طريق (سالان)، بحجة زيارة السيِّد دى ميران - ابن أخ السيِّد دوبان ـ الذي كان يعمل في مصانع الملح، والذي كثيرًا ما تلقيت منه دعوات ملحة لأن أزوره. ووفقت حيلتي، إذ أنني لم أجد السيِّد دي ميران، فاغتبطت لأن هذا جنبني التأخر، فاستأنفت رحلتي دون أن يقول لي أي امرىء كلمة واحدة.

وإذ اجتزت حدود (بيرن) استوقفت، فهبطت من المركبة، وارتميت على الأرض، ورحت أحتضنها وأقبلها.. وهتفت في فرحتي: « أحمدك أيتها السماء، يا حامية الفضيلة.. إننى لأطأ الآن موئلًا للحرية! ».



هتفت فى فرحتى : « أحمدك أيتها السماء ، يا حامية الفضيلة » ..

وهكذا اعتدت - في ثقتي العمياء بأماني - أن أتحمس لما قد يجلب لي الشقاء. ولقد ظن الحوذي المشدوه أننى جننت!.. وعدت أستقل المركبة، فإن هي إلا سويعات قليلة، حتى كنت أحظى بالغبطة النقية العارمة، التي غمرتني إذ وجدت نفسي في أحضان « روجان » الوفى. آه!.. لنتنفس الصعداء لبضع لحظات، لدى مضيفي الكريم. فلا بد لي أن أسترد شجاعتي وقوتي، إذ أنني لم ألبث أن أحتاج إليهما معًا!

وما أسهبت - دون داع ـ في ذكر تفصيلات كل الظروف التي قُدِّر لي أن أتذكرها، في رواية الأحداث السالفة. ومع أن هذه الظروف قد لا تبدو جد برَّاقة، إلا أنها قد تلقى ضوءًا على مجرى الأحداث، إذا ما أمسك المرء مرة بخيط المؤامرة. مثال ذلك، أنها وإن لم تبين الفكرة الأولى التي نشأت عنهـا المشكلة التي سأعرضها، إلا أنها تساعد كثيرًا على حلها!

فلو أننا افترضنا، أن إقصائي كان ضرورة لا غنى عنهـا لتنفيذ المؤامرة التي كانت مدبَّرة لي، لكان كل شيء مسوقًا إلى أن يحدث بنفس الشكل الذي حدث به ـ تقريبًا - لـكي يتسنى للمؤامرة أن تتم.. أما لو أنني كنت قد واصلت صمودي - كما فعلت في بادىء الأمر - بدلًا من أن أسمح للذعر بأن يستولي علىَّ، من جراء الرسالة الليلية التي بعثت بها السيِّدة دى لوكسمبورج، وبدلًا من أن أضطرب لاضطرابها.. ولو أننى - بدلًا من البقاء في القصر - عدت إلى سريري، واستغرقت في النوم حتى الصباح.. فهل كان سيقدَّر لأمر القبض أن يصدر بالطريقة التي صدر بها؟.. إنه سؤال عظيم، يتوقّف عليه حل أسئلة أخرى كثيرة.. ولن يكون من غير المجدي - في دراسته وبحثه - أن نلاحظ الساعة التي أنذرت بأن مرسوم القبض علىَّ سيصدر فيها، والساعة التي صدر فيها فعلًا. هذا مثال غير مصقول - ولكنه معقول - لأهمية أتفه التفصيلات في عرض الوقائع التي نبحث خلالها عن الأسباب الدفينة، حتى يتسنى لنا أن نكتشف هذه الأسباب بالاستقراء والاستنتاج!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكراسة الثانية عشرة

هنا يبدأ عمل الدياجير، التي أتخبَّط فيها منذ ثماني سنوات، دون أن يتسنى لي - مهما تكن حيلتى وجهدى - أن أنفذ خلال الظلام الرهيب.. إنني لأحس - في غياهب التعاسات التي اكتنفتنى - بإيذاء الصفعات التي توجَّه إلىَّ؛ وإني لألمح الأداة المباشرة التي توجّهها، ولكنني لا أقوى على أن أرى اليد التي تصدرها، ولا الوسائل التي تحرّكها وتستخدمها، إن العار والمحن لتهوى علىَّ، وكأنها تتساقط من تلقاء نفسها، دون أن يفطن إليها أحد. وعندما يفلت قلبي الممزّق شيئًا من الأنين، أبدو في مظهر الرجل الذي يشكو دون ما مبرر للشكوى، فإن مبتدعى دماري، وفقوا إلى الفن الذي يفوق كل إدراك.. الفن الذي استطاعوا به أن يحولوا الرأي العام إلى شريك في مؤامرتهم، دون أن يحدس الرأى العام ذلك، أو يفطن إلى نتائجه!.. ومن ثم فإنني إذ أروى الأحداث المتعلقة بي، وألوان المعاملة التي عانيتها، وكل ما جرى لي، أراني في حال لا تمكنني من أن أكشف عن اليد المحرِّكة، ولا من أن أعين الأسباب وأنا أذكر الأفعال.. فإن هذه الأسباب الأوّلية تُلمس جميعًا في الكراسات الثلاث السابقة، حيث تكشفت كل الالتفاتات التي وجّهت نحوى، والميول المتعلقة بي، وكل البواعث المستترة. أما أن أذكر كيف تجمّعت هذه الأسباب المتباينة، لتخلق الأحداث العجيبة في حياتي، فهذا ما لا سبيل لى إلى شرحه وتعليله، ولو بالحدس والتكهن!.. وإذا كان بين قرّائي مَن أوتوا من كرم النفس ما يحفزهم على الرغبة في الغوص إلى أعماق هذه المعميات للكشف عن الحقيقة، فليعودوا إلى مطالعة الكراسات الثلاث السابقة بعناية، وليفيدوا من كل واقعة يقرأونها، ومن المعرفة التي يستخلصونها منها، في متابعة الوقائع التي تليها.. وليرجعوا القهقرى من مكيدة إلى مكيدة، ومن عميل إلى عميل، حتى يصلوا إلى المحرّكين الأوائل لكل شيء.. وإني لأعرف موقنًا ما سوف تنتهى إليه أبحاثهم، ولكني تائه أتخبّط في الطريق المظلمة المتعرجة الضاربة في أعماق الأرض، حيث قادوني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعرَّفت - خلال إقامتي في (ايفردون) - جميع أفراد أسرة السيِّد (روجان)، ومنهم ابنة أخيه السيِّدة « بوى ديلاتور »، وبناتها اللائي تعرَّفت أباهن في (ليـون)، كما أحسبني قد ذكرت من قبل31. وكانت السيِّدة قد جاءت إلى (ايفردون) لتزور عمها وشقيقاتها. ولقد أطربتني ابنتها الكبرى - التي كانت في حوالي الخامسة عشرة من عمرها - بمداركها الواسعة وشخصيتها الرائعة. وسرعان ما ارتبطت بالأم والابنة، بأرق روابط الود. وكان السيِّد روجان قد اعتزم أن يزوّج الأخيرة من ابن أخت له « كولونيل »، كان قد تجاوز السن المعقولة، وكان يوليني ـ هو الآخر - أعظم الود. ولكن.. بالرغم من تحمس العم لهذا الزواج، ومن أن ابن الأخ كان راغبًا فيه، ومن أنني اهتممت - في حرارة ـ بأن أرضى كلًّا منهما، إلا أن الفارق الكبير في السن، والنفور المسف من ناحية الفتاة، حملاني على أن أعاون الأم في عرقلة هذا الزواج، فلم يقدَّر له أن يتم. وما لبث الكولونيل أن تزوّج من الآنسـة « ديللان »، وهي من قريباته، وكانت سيِّدة ذات جمال وخلق يروقان لفؤادي، وقد جعلته أسعد الأزواج والآباء. ومع ذلك فإن السيِّد « روجان » لم ينس لي قط أنني عارضت رغباته، في هذه المناسبة. ويعـزيني في ذلك يقيني من أنني أديت - سواء نحوه أو نحو أسرته - أقدس واجبات الصداقة، وهو ما لا يتطلَّب من المرء أن يجعل نفسه مرغوبًا على الدوام، ولكنه يتطلَّب منه أن يكون ناصحًا فلا يشير دائمًا إلا بما فيه الخير!

ولم يطل الشك فيما قد ينتظرني من استقبال في (جنيف)، إذا أنا ملت إلى العودة إليها، إذ أن كتابي أُحرق هناك، كما أُصدر مرسوم بالقبض علىَّ في 18 يونيو، أى بعد تسعة أيام من ذاك الذي أُصدر في باريس. ولقد حُشدت في المرسوم الجنيفي كثير من السخافات التي لا يصدقها العقل، كما أن المراسيم الكنسية انتهكت فيه بشكل واضح، حتى أنني لم أشأ أن أصدِّق الأنباء الأولى، التي تناهت لي عنه، فلما أيّدت فعلًا، رحت أرتجف فرقًا من أن يؤدي

مثل هذا الانتهاك المكشوف الصارخ لكل القوانين، إلى إثارة الرأي العام، وإلى قلب جنيف رأسًا على عقب!.. وما كان لي أن أنزعج، فإن كل شيء ظلّ هادئًا!.. وإذا كانت بعض الاضطرابات قد سرت بين الناس، فإنها كانت موجَّهة ضدى.. فقد عوملت - في جميع الشائعات والتقولات التي انتشرت بين الرأي العام في المدينة - كما يعامل التلميذ الذي ينذر بالضرب بالسياط، لأنه لم يحسن تلاوة درسه الديني!

ولقد كان هذان المرسومان، إيذانًا بانطلاق صرخة اللعنة التي تعالت ضدي في أوربا بأسرها، مصحوبة بهياج لم يسبقه مثيل. فإذا جميع النشرات الرسمية، والصحف، والكتيبات تردد أفظع إشارات التنبيه إلى الخطر. وإذا الفرنسيون بوجهٍ خاص، ذلك الشعب اللطيف، المؤدب، الكريم، الذي يفخر بقوة ميله إلى الخير ورعايته للمنكوبين.. إذا بهذا الشعب ينسى فجأة فضائله المحببة إليه، ويمتاز على ما عداه بعدد وقذاعة الإهانات التي تبارى في قذفي بها!.. فرُميت بأننى كافر، زنديق، معتوه، متهوس، وحش كاسر، ذئب.. وشن المعلق في « جورنال دى تريفو » - صحيفة الجيزويت - على سعاري الوحشي المزعوم حملة إضافية لم تشن إلا بسعاره هو. وفي وسعك - بإيجاز - أن تقول إن كل كاتب في باريس، أصبح يخشى أن يصطدم بالبوليس - عندما ينشر شيئًا في أي موضوع - إذا هو أغفل أن يحشوه ببعض الإهانات ضدى!.. وأوشكت - في بحثى عبثًا عن سبب هذا العداء الشامل - أن أعتقد أن العالم بأسره قد اختبل. يا للعجب!.. أيبث منقح « السلام الدائم » الفرقة والشقاق؟.. أيكون مؤلِّف « أسقف من سافوا » كافرًا؟.. أيكون كاتب « هيلويز الجديدة »، ذئبًا، وكاتب « اميل » ملتاثًا؟.. أواه يا إلهي!.. فماذا كنت أصبح إذن، لو أننى نشرت كتاب « العقل » (الذي وضعه مونتسكيو، ودعا فيه إلى الإيمان بالعقل وحده) أو أي مؤلَّف آخر على شاكلته؟.. ومع ذلك، ففي عنفوان العاصفة التي انفجرت على رأس مؤلِّف هذا الكتاب، لم يضم الرأي العام صوته إلى صوت ظالميه، وإنما انتقم للمؤلف بما أهاله عليه من مديح!.. فمَن لي بمَن يقارن بين كتابه وكتابي، والاستقبالين المختلفين اللذين استقبلا بهما، والمعاملتين اللتين عومل بهما المؤلِّفان في مختلف دول أوربا، ثم يعثر خلال هذه الاختلافات على أسباب لها تقنع أي أمرىء سليم الادراك؟!.. هذا جل ما أطلب، ولن أزيد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووجدت من الراحة في (ايفردون) ما جعلني أقرِّر المقام هناك، مستجيبًا للالحاح الحار، الذي انهال علىَّ من السيِّد روجان وأسرته. كذلك شجعني السيِّد « دى موارى دى جانجان » - القائم على الأمن والعدالة في هذه المدينة - على أن أبقى في ظلال سلطانه، بما أبداه لي من أفضال. وأصرّ « الكولونيل » كل الاصرار على أن أسكن مبنى صغيرًا مستقلًا، بين فناء داره وحديقتها. وما إن قبلت، حتى انصرف إلى تأثيثه وتجهيزه بكل ما كان ضروريًا لحاجاتي المتواضعة. وكان « روجان » - صاحب الراية32 - شديد الحرص على ملازمتي، حتى إنه لم يكن يفارقني طيلة النهار. ولقد كنت بين أقدر مكرماته كل التقدير، ولكنني كنت أضيق بها أحيانًا!

وكان موعد استقراري في المسكن الجديد قد حُدِّد، وكتبت إلى « تيريز » كى تلحق بي، عندما نمي إلىَّ أن زوبعة قامت في (بيرن) ضدى، وعزيت إلى غلاة المتدينين، ولم يقدَّر لي قط أن أكتشف منشأها. فلقد هبَّ مجلس الشيوخ - دون أن يعرف مَن الذي استنهضه - وبدا أنه غير راغب في أن يدعنى في سلام، في عزلتي. وما أن سمع حاكم المدينة بهذا الهياج، حتى كتب في صالحي إلى عدد من أعضاء الحكومة، ولامهم على تعصبهم الأعمى، وعاب عليهم الرغبة في أن يأبوا على رجل قدير مظلوم، المأوى الذي يجده كثير من الأشرار في ولاياتهم!.. ولقد حدس ذوو العقول الحصيفة، أن تكون حرارة لومه قد أهاجت الأفكار، بدلًا من أن تهدئها. ومهما يكن الأمر، فإن مكانته وبلاغته لم تستطيعا دفع الصدمة. وما أن تناهت إليه بادرة عن الأمر الذي كان عليه أن يعاملني بمقتضاه، حتى أوعز إلىَّ به

مقدمًا، فقرَّرت ألَّا أنتظر هـذا الأمر، وأن أرحل في اليوم التالي. وكانت الصعوبة تتمثل في معرفة المكان الذي أذهب إليه. فقد كانت (جنيف) و (فرنسا) مغلقتين في وجهي، وقد رأيت - مقدَّمًا - أن كل حكومة تقلّد جارتها، في مثل هذه المسألة!

واقترحت السيِّدة « بوى ديلاتور » أن أقيم في بيت خال، ولكنه مكتمل الأثاث، كان ابنها يمتلكه في قرية (موتيير)، في (فال دى ترافير) بمقاطعة (نيوشاتيل). ولم يكن عليَّ سوى أن أجتاز أحد الجبال، كي أصل إلى هناك. ولقد كان الاقتراح جد مناسب، إذ أننى خليق بأن أجـد ملجأ من الاضطهاد - بطبيعة الحال - في أراضي ملك بروسيا، حيث لا يمكن اتخاذ الدين ذريعة لذلك. بيد أن عقبة خفية - لم يكن من اللائق بي أن أذكرها - حملتني على التردد. ذلك أن حب العـدالة، الذي يتغلغل في قلبي ويعمره دائمًا، اتحـد مع حبي الخفى لفرنسا، وأوحيا إليَّ بنفور من ملك بروسيا، الـذي لاح لي أنه - من حيث المبادىء والسلوك - كان يدوس كل اعتبـار للقانون الطبيعي والالتزامات الإنسانية، وقد كان بين اللوحات ذات الإطارات، التي كانت تزين جدران شرفتي في (مونمورنسى)، صورة لهذا الأمير، كتبت تحتها بيتين من الشعر، هذا ختامهما:

« إنه يفكر بعقل فيلسوف، ويتصرَّف كملك »!

هذه الشطرة التي كانت خليقة بأن تكون مديحًا بديعًا - إذا كتبها أي قلم آخر - كانت من قلمي توحي بمعني غير مبهم ولا غامض، لا يتضح إلا بالشطرة التي كانت تسبقها33. وكان الشيفالييه دى لورنزى قد نقل هذا البيت الشعرى وكتبـه لدالمبير. وما كان لديَّ أي شك في أن « دالمبير » قد عنى بأن يستغله، وبأن يرسله قبلي إلى هذا الأمير!.. ولقد ضاعفت من هذا الذنب بفقرة في « اميل » تبدى بجلاء شخصية الملك الذي كنت أتمثله تحت اسم « ادراستى »، ملك (داوينيان).

ولم تفت هذه التورية النقاد، إذ رددتهـا السيِّدة دي بوفلير أمامى مرارًا. ومن ثم فقد كنت واثقًا من أن اسمى قد سُجّل بمداد أحمر في سجلات ملك بروسيا، وإذ كنت أرى - إلى جانب ذلك - أن هذا الأمير قد أوتى ما جرؤت على أن أعزوه إليه من مبادىء، لذلك لم يكن من سبيل لكتاباتي، ولا لصاحبها، بأن ينالا منه رضى.. فمن المعروف أن أهل الخبث والطغاة اعتادوا أن يكنّوا لي دائمًا أشدّ الكراهية القاتلة، بمجرَّد إطلاعهم على مؤلفاتي، ولو لم يعرفوني معرفة شخصية!

ومع ذلك، فإنني لم ألبث أن أقدمت على وضع نفسى تحت رحمته، وقد خُيّل إليَّ أنني لن أتعرَّض لكبير خطر، فقد كنت أعرف أن المشاعر الخسيسة لا تتملك سوى ضعاف الرجال، ولكنها لا تظفر بسلطان يُذكر على النفوس ذات الطابع القوى، كتلك التي طالما لمستها في شخصية هـذا الأمـير. وقدَّرت أن من سياسته في الحكم، أن يظهر نفسه - في مناسبة كهذه - بمظهر الشهم العالي النفس.. وحكمت - لنفسي - بأن الانتقام الخسيس السهل، لا يمكن أن يعدل في نفسـه - ولو للحظة واحدة - حب المجد والشهرة. ووضعت نفسي في مكانه، فلم أر من المستحيل عليه أن ينتهز الظرف لكي يثقل بكرمه كاهل رجل جرؤ على أن يسيء الظن به. ومن ثم فقـد سعيت إلى الإقامة في (موتيير)، وأنا مليء النفس بثقة خُيل إليَّ أنه قمين بأن يدرك قيمتها. ورحت أقول لنفسي: « إذا رفع جان جاك نفسه إلى مرتبـة كوريولانوس، فهل يرضى فردريك لنفسه بأن يكون أدنى من قائد الفولك؟ »34

ولقد رغب الكولونيل روجان - في إصرار - في أن يجتـاز الجبل معى، ويطمئن إلى استقراري في (موتيير). ولم تبتهج لوصولي أخت الزوج السيِّدة « بوى دى لاتور » - وتُدعي السيِّدة جيراردييه - إذ كانت تجد البيت، الذي كنت موشـكًا أن أشغله، أكثر ملائمة لها هي. ومع ذلك فإنها تركتني أستولى عليه، في أدب وتلطف، وأصبحت أتناول وجباتي لديها، إلى أن وصلت « تيريز » وانتظمت سكناي الصغيرة وحياتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنت - منذ رحيلي عن (مونمورنسى) - قد أحسست بيقين بأنني سأغدو، من ذلك الحين، جوَّاب آفاق، هائمًا في الأرض. ومن ثم فإنني كنت مترددًا في السماح لتيريز بأن تلحق بي، وأن تشاركني حياة التجوال التي رأيت أنه قد قُضى عليَّ بها!.. وشعرت بأن الروابط بيننا خليقة بأن تتبدل من جراء هذه الكارثة، وأن ما كان كرمًا وفضلًا ـ من ناحيتي - من قبل، يجب أن يصبح كرمًا وفضلًا من ناحيتها، بعد اليوم. وإذا كان ولاؤها قد ظلَّ في حصانة ضد محنى وتعاساتي، فإنها ولا بد كانت شديدة الأسى بسبب هذه المحن والتعاسات. وما كان أساها ليزيدني إلا همومًا. أما إذا كانت مصائبي قد خفَّفت من عواطفها نحوي، فلا بد أنها مسوقة إلى أن ترى في بقائها على ولاء مستمر لي، تضحية من ناحيتها. وبدلًا من أن تشعر بالمتعة التي كنت أحس بها إذ أشركها معى آخر كسرة من الخبز لديَّ، فإنها كانت خليقة بأن تزداد شعورًا بقيمة تضحيتها إذا قُدِّر لها أن تتبعنى إلى حيثما كان القدر يسوقني!

ومن الواجب أن أقول: إنني لم أتستر قط على أخطاء « ماما » ولا على أخطائي. ومن ثم فلا يجدر بي أن أبدى كثير محاباة لتيريز، بدورها. وبقدر ما يسرني أن أكرم شخصًا مثلها، جد عزيز على نفسي، فإنني ما كنت لأبغي التستر على عيوبها، إذا أعتبر تحول عواطف القلب - التحول غير الإرادي - عيبًا. ذلك أنني كنت قد لاحظت من أمد طويل، أن ودّها لي قد فتر. وشعرت بأنها لم تعد لي كما كانت في أيامنا الهنيئة. وقد زادني إحساسًا بذلك، أنني ظللت دائمًا على حالي نحوها. وفطنت - مرة أخرى - إلى شعور بالاستياء، كذلك الذي سبق أن فطنت إليه عندما كنت مع « ماما »، وكان له عين النتائج. وليس لنا أن نبحث عن الكمال الذي لا وجود له في الطبيعة، فإن هذا هو عين الشعور الذي كان من المحتمل أن يراود أية امرأة أخرى، مهما تكن.

وما قُدِّر للتصرف الذي اتخذته نحو أولادى - مهما يكن قد لاح لي متمشيًا مع العقل والمنطق ـ أن يدع قلبي في سلام. فبينما كنت أفكر في كتابي: « رسالة في التربية »، شعرت بأنني قد أهملت واجبات لا حجة لي في إهمالها ولا عذر. وما لبث ندمي أن اشتد، حتى أنه انتزع منى - تقريبًا - اعترافًا علنيًّا بذنبي، في بداية كتاب « اميل ». وقد ظلَّ هذا الندم ملحوظًا بعد ذلك، حتى ليغدو من المدهش حقًّا، أن ينحي أحد باللائمة عليَّ، بعد مثل تلك الفقرة. على أن مركزي ظلَّ ـ في ذلك الوقت ـ على حاله.. بل إنه تفاقم بسبب بغضاء أعدائي، الذين لم يكونوا يرجون سوى أن يعثروا لي على ذنب. ومن ثم فإنني خشيت أن أكرِّر الذنب.. ولكي لا أتعرَّض لارتكابه، آثرت أن أقضى على نفسي بانتهاج زهد شديد، حتى لا أعرض تيريز إلى أن تجد نفسها ـ مـرة أخرى ـ في نفس الوضع35.

وإلى جانب هذا، كنت قد لاحظت أن معاشرة النساء كانت تؤثِّر على صحتى تأثيرًا محسوسًا. ولقد أدَّت كل هذه الأسباب إلى أن عقدت عزمي على أمور لم أكن أواظب على اتباعها في بعض الأحيان، إلا أننى ازددت إطرادًا في الدأب عليها منذ سنوات ثلاث أو أربع. وفي هذه الفترة بالذات، شعرت بالبرود يدب في عواطف تيريز. ولقد ظلَّت على وفاء لى، عن واجب وليس عن حب. وكان لابد من أن يلقى هذا ظلًّا على بهجة تعاشرنا، فخُيل إليَّ أنها في وثوقها من أنني سأواصل رعايتها أينما كانت، تؤثِّر أن تظل في باريس، على أن تهيم معي في أرجاء الدنيا!.. ومع ذلك، فإنها أبدت كثيرًا من الألم عند فراقنا، وانتزعت منى وعودًا مغلظة بأن نصل شملنا من جديد، وقد عبّرت عن هذه الرغبة - منذ رحيلي - للسيِّد الأمير دى كونتي، وللسيِّد دي لوكمسبورج، بحرارة لم تجعل من العسير عليَّ أن أجد الجرأة على أن أحدّثها عن الانفصال فحسب، بل إننى لم أكد أقوى على أن أفكر في ذلك. ومن ثم فما أن شعرت في قرارة فؤادي بمدى استحالة استغنائي عنها، حتى أصبحت لا أفكِّر إلَّا في أن أدعوها، دون ما إرجاء. ولهذا فقد كتبت إليها كي تأتي!

وجاءت.. ولم يكن قد انقضى شهران على فراقي إياها، ولكنه كان الفراق الأوَّل بعد سنوات طويلة، فشعر كل منا بقسوته مضاعفة. وكم اهتزَّ قلبانا عندما تعانقنا!.. ويا لعذوبة دموع الفرح والحنان!.. لكم ارتوى منها فؤادي!.. فلماذا لم يتح لي أن أذرف منها بحورًا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنت - عند وصولي إلى (مونتير) - قد كتبت إلى اللورد كييث، مارشال ايقوسيا (اسكتلندا)، وحاكم نيوشاتيل، أنبئه بأنني قد لذت لاجئًا بالأرض التي تخضع لسلطانه، وأسأله أن يبسط عليَّ حمايته. وقد أجاب بالكرم المعروف عنه، والذي كنت أتوقعه منه. ودعاني إلى أن أزوره، فذهبت في صحبة السيِّد مارتينيه - سيد ضيعة (فال - دي ترافير) - الذي كان يحظى بمكانة رفيعة لدى سعادته. وكان لوقار مظهر هذا السيِّد الأيقوسي الجليل الصالح ومهابته، أثر في قلبي، حتى لقد كانت تلك اللحظة بالذات، بداية ود حار بيننا، ظلَّ دائمًا على قوته - بالنسبة لي - وكان جديرًا بأن يظل كذلك، بالنسبة له، لولا أن الغادرين الذين حرموني كل عـزاء في الحياة، استغلوا غيابي وكهولته، فشوهوا من أمرى لديه!

وكان جورج كييث - مارشال ايقوسيا بالوراثة، وشقيق الجنرال كييث الشهير، الذي مات ميتة مشرفة، في أعقاب حياة مجيدة - قد هجر بلاده في شبابه، إذ قُضى عليه، دون محاكمة، لولائه لآل سيتورات، الذين لم يلبث أن عافهم لما ألفاه لديهم من روح ظالمة طاغية، كانت دائمًا طابع حكمهم. ولقد أقام زمنًا طويلًا في أسبانيا، ولكن جوها لم يطب له، وانتهى الأمر إلى ما انتهى بأخيه من قبل، فارتبط بملك بروسيا، الذي كان خبيرًا بالرجال، والذي كان يتلقَّاهم بما هم به جديرون. ولقد تلقَّى الجزاء وافيًا على هذا الاستقبال، بما أدّاه له المارشال كييث من خدمات جليلة، وبما هو أثمن من هذا.. وأعني بذلك ود السيِّد اللورد المارشال. فما كان هذا الرجل الجليل، المنعم بالحرية والكرامة، والذي أوتي نفسًا كبيرة، لينحني إلا لربقة الصداقة والود، على أنه في انحنائه للصداقة كان يسف، إلى درجة أنه لم يعد يتطلَّع إلى غير « فردريك »، مذ تعلق به. ولقد عهد إليه الملك بشئون هامة، وأوفده إلى باريس وإلى أسبانيا، حتى إذا رآه - في النهاية - قد طعن في السن، وأصبح في حاجة إلى الراحة، أنعم عليه بحكم (نيوشاتيل)، حيث راح يقضي ما تبقى له من عمر في عزلة، وقد وجد في إسعاد أهل هذه الولاية مهمة مستعذبة!

أما أهالى نيوشاتيل - الذين لم يكونوا يغرمون بغير المظاهر والسفاسف، والذين لم يؤتوا القدرة على أن يحكموا على حقائق الأشياء والرجال، والذين كانوا يولعون بالإطالة في الحديث - فإنهم حين رأوا الرجل هاديء النفس، بعيدًا عن التظاهر، أخذوا بساطته على أنها ترفع، وصراحته على أنها غلظة، وإيجازه في الكلام على أنه غباء، وثاروا على تدابيره وجهوده الرامية إلى الخير، لأنه - في رغبته في أن يكون نافعًا، دون ما تشدق أو مَن - لم يعرف كيف يتملق القوم الذين لم يقدروه حق قدره. ففي قضية القس - « بيتيبيير » - الذي اضطهده زملاؤه من رجال الدين، لأنه أبى أن يؤمن أنهم ملعونون إلى الأبد، وقف اللورد في وجه ما كان القساوسة يمارسونه من استغلال، فإذا بهم يؤلبون عليـه كل البلاد التي كان يعمل من أجلها. ولم يكن هذا الهياج الأخرق قـد سكن تمامًا، في آونة وصولي إلى هناك. إذ كان اللورد معتبرًا كرجل متشبث برأيه ومعتد به ـ على الأقل - وكانت هذه أدنى الاتهامات التي كان يرمى بها إلى الظلم!

ولقد كان أوَّل شعور خالجني - إذ أبصرت هذا الشيخ الوقور - هو الاشفاق على هذا الجسد النحيل، الذي أنهكته الشيخوخة. ولكنني لم أكد أرفع عيني إلى تلك الأسارير القوية، الصريحة، النبيلة، حتى شعرت باحترام ممتزج بالثقة يستولي عليَّ، ويطغى على كل إحساس آخر. ولقد رد على التحية الموجزة التي رفعتها إليه - حين قدَّمت نفسي - بأن تحدَّث عن أمر آخر، وكأنني كنت معه منذ أيام ثمانية. بل أنه لم يأمرنا بالجلوس، فظلَّ سيِّد

الضيعة، ذو الثياب المنشاة، واقفًا. أما أنا، فقد رأيت في نظرة اللورد الحادة، واللطيفة - في آن واحد - عطفًا لم أدر كنهه، أشعرنى بارتياح وطمأنينة، فإذا بي أشاطره أريكته - في غير ما كلفة - فأجلس إلى جانبه. وأدركت من اللهجة الأليفة - التي التزمها فورًا - أن هذا التحرّر منى، صادف قبولًا لديه، وأنه قال لنفسه: « هذا ليس على شاكلة أبناء نيوشاتيل! ».

فيا له من أثر فذ انبعث عن شخصية كبيرة فذّة!.. وفي السن التي يفقد فيها القلب حرارته الطبيعية، شعرت بقلب هذا الشيخ الطيب يشيع نحوى دفءًا، بدرجة أدهشت كل امرىء. ولقد جاء لزيارتي في (موتيير)، بحجة صيد السماني، فقضى يومين، دون أن يمس بندقية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتوطدت بين الأمير وبينى صداقة - فهذه الكلمة الصحيحة ـ حتى لم يعد بوسع أحدنا أن يستغنى عن الآخر. وكان قصر (كولومبييه) - الذي اعتاد أن يقيم فيه، في الصيف - على بُعد ستة فراسخ من (موتيير)، فكنت أذهب في كل خمسة عشر يومًا - على الأكثر - لأقضى هناك أربعًا وعشرين ساعة، ثم أعود بقلب مليء بالأمير دائمًا، وكأننى كنت في حج. ومن المحقق أن الأحاسيس التي كنت أعهدها في طريقي من (ليرميتاج) إلى (لوبون) - من قبل - كانت تختلف عن هذه التي كنت أستشعرها في عودتي من (كولومبييه) إلى (موتيير)، بيـد أنها لم تكن تفوق هذه لطفًا وعذوبة. فكم من دموع كنت كثيرًا ما أنفقها - في طريقي - حنانًا، إذ أفكر في المكرمات الأبوية، والفضائل الحبيبة، والفلسفة الرقيقة التي أوتيها هذا الشيخ الجليل!.. واعتدت أن أدعوه أبي، فكان يدعوني ابنه. وإن هذين الندائين المستعذبين ليوحيان - إلى حد ما - بفكرة عن المودة التي وحّدت بيننا، ولكنهما لا يصوران مدى حاجة كل منا إلى الآخر، والرغبة في أن يظل قربنا مستمرًا. وراح يصرّ على الرغبة في أن أقيم بقصر (كولومبييه)، وأخذ يستحثني طويلًا على أن أتخذ الجناح الذي كنت أنزل به مسكنًا لى، ولكنني - في النهاية - أنبأته بأنني كنت أنعم بمزيد من الحرية في مسكنى الخاص، وأنني كنت أوثر أن أنفق عمرى في السعى لزيارته. فارتاح إلى صراحتي، ولم يعد إلى إثارة الموضوع. أواه، يا مولاي الطيب!.. أواه، يا أبي الكريم!.. لكم يهتز قلبى - حتى اليوم - كلما تذكرتك!.. آه، يا للقساة الغلاظ!.. أية ضربة أنزلوها بي إذ فرّقوا بيننا! ولكن، كلا، ثم كلا، أيها العظيم.. إنك اليوم - وستظل دائمًا - كما كنت من نفسي! وإذا كانوا قد غرّروا بك، إلا أنهم لم يحولوك قط36!

ولم يكن اللورد المارشال مبرءًا من العيوب، فهو إنسان، وإن كان حكيمًا!.. ومع أنه أوتى أشد العقول قـدرة على الغوص في أعمـاق الأمور، وأرق أسلوب يؤتاه بشر، وأعمق معارف الإنسان، إلا أنه كان يستسلم لتغرير الغير به، ولم يكن خداعه ليستعصى عليهم.. كان ذا مزاج فذ، فقد كان يشوب سير عقله شيء من الغرابة والطرافة. كان يبدو عليه أنه ينسى أولئك الذين كان بصره يقع عليهم في جميع الأيام، ثم يذكرهم في اللحظات التي لا يكاد يفكّر فيهم خلالها. وكانت التفاتاته تبدو في غير مواضعها، وهداياه تُمنح جـزافًا، دون ما مراعاة لمناسبتها. فهو يبعث أو يمنح ما يخطر له عفو اللحظة، غير حافل بعظم قدر الهدية، أو ببخس قيمتها. ولقد قَدِم إليه يومًا شاب من (جنيف)، كان راغبًا في العمل في خدمة ملك بروسيا، فبدلًا من أن يزوّده اللورد بخطاب، دفع إليه بكيس صغير مليء بالبازلاء، وعهد إليه بأن يسلمه إلى الملك الذي لم يكد يتسلم هـذه التوصية العجيبة، حتى أنعم على حاملها بمنصب!.. إن لهؤلاء العباقرة الأجلاء لغة خاصة، لن يقدّر للعقول العادية أن تفهمها!

وما كانت هـذه التصرفات الطريفة، التي تشبه نزوات الحسناء، لتزيد اللورد المارشال إلا مكانة، ولقد كنت متأكدًا - ووجدت فيما بعد الأدلة الكافية - على أن هذه التصرفات لم تكن لتؤثّر أي تأثير على أحاسيسه، أو على الاهتمام الذي تفرضه عليه الصداقة في جلائل الأمور. ولكن من الصحيح أنه في تفضله، كان يكشف عن نفس هذه الغرابة التي تخالط

مسلكه. ولن أذكر سوى مثال واحد للدلالة على مسألة تافهة القيمة كهذه. ذلك أنه لما كانت الرحلة من (موتيير) إلى (كولومبييه) أشق من أن أقطعها في يوم، فإنني اعتدت أن أقسمها إلى شطرين. فكنت أشرع فيها بعد الغداء، وأقضى الليل في (برو)، القائمة في منتصف الطريق. وكانت لصاحب النزل - ويدعى « ساندوز » - حاجة في برلين، يعلّق عليها أهمية كبرى. فرجاني أن أسأل صاحب السعادة أن يطلبها له باسمه. ووافقت عن طيب خاطر، فاصطحبته، وتركته في الحجرة الخارجية، ثم ذكرت مسألته للورد، الذي لم يرد بشيء!.. وانقضى الصباح. وفيما كنت أقطع البهو، في طريقي إلى الغداء، رأيت « ساندوز » المسكين، وقد أنهكه الانتظار. وخطر لي أن اللورد قد نسى أمره، فعدت إلى الحديث عنه قبل أن يجلس إلى المائدة. ولكنه لم ينبس بكلمة، كما فعل من قبل!.. واشتممت من مسلكه أنه كان يوحي بأنني قد تجاوزت حدى في مضايقته، فلذت بالصمت، وأنا أرثى لساندوز المسكين في سريرتي!.. وشدّ ما كانت دهشتي حين قابلني في عودتي - في اليوم التالي - بشكر دافق لما أتاحه له صاحب السعادة من كرم الوفادة، وشهى الطعام، فضلًا عن تكفله بأوراقه. وبعد ثلاثة أسابيع، أرسل إليه اللورد الوثيقة الرسمية التي كان يسعى وراءها، وقد أعدّها الوزير ووقعها الملك.. كل هذا دون أن يبدى أقل رغبة في الحديث إلىَّ، ودون أن يرد علىَّ أو عليه بكلمة واحدة بصدد هذا الأمر الذي خُيل إلىَّ أنه كان غير راغب في أن يتكفّل به!

وبودّى ألّا أكفّ عن الكلام عن « جورج كييث »، فمنه تواتينى آخر ذكرياتي السعيدة، أما بقية عمري فلم يكن سوى هموم وشجون تعتصر القلب. ولشدّ ما تبعث ذكراها الأسى في نفسي، فهي تواتينى مضطربة مهوشة، حتى ليعز علىَّ أن أحتفظ بانتظام سياق قصتى، ومن ثم فسأضطر - منذ الآن - إلى أن أسوقها عفوًا، وحسب ما تخطر لي، لا حسب ما وقعت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يطل بي أمد القلق بشأن المكان الذي لجأت إليه، بفضل رد الملك على اللورد المارشال الذي وجدت فيه - كما يسهل الحدس - محاميًا بارعًا. فإن جلالة الملك لم يقر ما جرى فحسب، بل إنه كلفه - كما ينبغي أن يُقال - بأن يمنحنى اثني عشر « لوى ». وإذ شعر اللورد الطيب بالحرج من مهمة كهذه، ولم يدر كيف ينفذها بنفسه في تلطف، سعى إلى تخفيف ما في تنفيذها من جرح لشعورى، بأن حول النقود إلى حاجيات مادية، فأشار إلى أنه تلقّى أمرًا بأن يزوّدني بالخشب والفحم اللازمين لي في بداية استقراري في المسكن الصغير. بل إنه أضاف إلى هذا - وربما صدر في ذلك عن إيعاز من نفسه - بأن الملك سيسر بأن يعمل على بناء منزل صغير لى، وفق هواى، إذا أنا اخترت الموقع. ولقد أثّر هذا العرض الأخير في نفسي أبلغ تأثير، وأنسانى رذالات الآخرين. وبدون أن أقبل أيًا من الهبتين، رحت أتطلّع إلى فردريك كراعٍ لي وحام. فملت إليه بولاء صادق، حتى أنني اهتممت بسمعته، فوجدت - منذ ذلك الحين - كثيرًا من الظلم يشوب انتصاراته. وعندما عُقد الصلح ـ بعد ذلك بقليل - أعلنت اغتباطي بزينات مفرطة الجمال، تمثلت في حبل من زهور الغار زينت به الدار التي كنت أقيم فيها، وأنفقت عليه - بدافع من الانتقام لكرامتي، في الواقع ـ مبلغًا يوازي ذاك الذي أراد أن يمنحنيه.

وخُيل إلىَّ، وقد استتب السلام، وأصبح صيت الملك الحربي والسياسي في أوجه، أنه لن يلبث أن يسعى إلى الحصول لنفسه على صيت من نوع آخر، وذلك بإنعاش ولاياته، فيمكن للتجارة والزراعة من أن تتسعا، ويستصلح الأراضي ويعمرها بخلق جديد، ويحافظ على السلم مع جيرانه، ويغدو داعية الوئام في أوربا، بعد أن كان مصدر الذعر.. كان بوسعه أن يغمد السيف دون أن يتعرَّض لخطر، وهو مطمئن إلى أنه لن يضطر إلى أن يشهره من جديد. فلما رأيت أنه لم يخفض من تسلحه، خشيت أن يسيء استغلال مميزاته، وألّا

يمضي في طريق العظمة إلا إلى منتصفه. فجـرؤت على أن أكتب إليه بهذا الصدد، متخذًا أسلوب الألفة - وهو خير ما يُنتهج لإرضاء الرجال الذين من نوعه - حتى يبلغ مسمعه صوت الحق المقدس، الذي لا يطيق سماعه سوى قلة من الملوك!.. وما استبحت هذا لنفسي إلّا في الخفاء، وفيما بيننا فقط، فلم أشرك أحدًا، ولا سيِّدي المارشال، الذي أرسلت إليه الخطاب الموجّه إلى الملك مغلقًا، فأرسله بدوره إلى هذا، دون أن يطلع على ما حواه ولم يجب الملك بشيء. وبعد ذلك بوقتٍ قصير، ذهب سيِّدي المارشال إلى برلين، فاكتفى بأن قال له إننى عنفت في تأنيبه!.. وأدركت من ذلك أن خطابي لم يلق استحسانًا، وأن تحمسي الصريح أُخذ على محمل التطفل الخشن، وقد يكون الأمر كذلك، في جوهره. ولعلني لم أقل ما كان ينبغي أن يُقال، ولا اتخذت اللهجة التي كان ينبغي أن أتخذها. ولكني لا أحاسب نفسي إلا عن الشعور الذي دفع بالقلم إلى يدى!

وبعد استقراري في (موتيير - ترافير) بوقتٍ قصير، واطمئناني إلى كل الضمانات التي تكفل لى العيش في سكينة، اتخذت الزي الأرمني. ولم تكن الفكرة بالجديدة علىَّ، فقد خطـرت لي مرارًا في سياق حيـاتي، ثم عاودتني كثيرًا في (مونمورنسى)، حيث كان استخدامي المستمر للمجسات (لعلاج احتباس البول)، يضطرّني إلى أن ألزم مخدعي في كثير من الأحيان، مما جعلني أكثر شعورًا بفوائد الثوب الطويل. ولقد ساقت المصادفة حائكًا أرمنيًّا، كان يُكثر من التردد على قريب له في (مونمورنسي)، فأغرانى ذلك بأن أنتهز الفرصة لأتخذ الزي الجديد، برغم ما قد يتقوله الناس، فما كنت شديد الشغل بتقولاتهم. على أننى شئت - قبل أن أتزيا بهذه الحلة الجديدة - أن أتعرَّف رأى السيِّدة دي لوكسمبورج، فحبذت كل التحبيذ رأيي. ومن ثم فإنني أعددت « طاقمًا » صغيرًا من الملابس الأرمنية، بيد أن الضجة التي أثيرت ضدى، جعلتني أرجيء استخدامه إلى وقت يكون أكثر هدوءًا. ولم يتسن ذلك إلا بعد بضعة أشهر، عندما اضطررت إلى العودة إلى استخدام المجسات، مدفوعًا بنوبات جديدة لعلتي.. فخُيل إلىَّ أن بوسعي أن أتخذ هذا الزي في (موتيير)، دون أن أتعرَّض لشيء، لا سيما بعد أن استشرت راعي كنيسة المنطقة، فأنبأني بأن بوسعى ارتداءه - حتى في الكنيسة - دون ما استحياء أو إنكار. ومن ثم أقبلت على ارتداء السترة والقفطان، والقلنسوة المصنوعة من الفرو، والحزام. وبعـد أن اشتركت في أداء الفروض الدينية بهذا الزي، لم أر أي ضير في أن أرتديه في زيارتى لسيِّدي المارشال. وما أن رآني سعادته في هذا اللباس، حتى قال، على سبيل الملاطفة: « السلام عليكم »، فكان في هذا حسم الأمر، ولم أعد بعد ذلك أرتدى زيًّا آخر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



أن رآني سعادته في هذا اللباس ، حتى قال ، على سبيل الملاطفة

« السلام عليكم »

ولما كنت قد هجرت الأدب تمامًا، فإنني لم أعد أفكر إلا في ممارسة حياة هادئة، وادعة، في نطاق إمكاني. فما عرفت يومًا - حين أخلو إلى نفسي - معنى الملل، حتى عندما أكون متعطلًا تمامًا.. إذ أن خيالي كفيل بأن يملأ كل فراغ، وهو وحده خليق بأن يشغلني عما سواه. ولكن الذي أعجز عن احتماله دائمًا، هو الثرثرة الخاملة، بين جدران أربعة، حين يجلس الناس بعضهم إلى بعض، دون أن يحرِّكوا شيئًا سوى ألسنتهم!.. كذلك المشي والتريض من الأمور التي أحتملها، إذ أنهما يمكنان القدمين والعينين من أن تعمل، على الأقل!.. أما الجلوس بذراعين معقودتين، والحديث عن الجو، والذباب يحلّق في المكان، أو تبادل المجاملات - وهو أسوأ مما سبق - فهذا عبء لا يُطاق بالنسبة لي. ولقد راق لى - حتى لا أعيش في عزلة وحشية ـ أن أشغل نفسي بالتطريز « اللاسيه »، فكنت أحمل وسادة الشغل في زياراتي، أو أنهمك في التطريز لدى بابي، وأنا أجاذب المارة الحديث، كما تفعل النساء!

ولقد ساعدني هذا على احتمال اللغو الفارغ، وعلى قضاء الوقت - دون ما ضجر - في دور الجيران، الذين كان بينهم عدد لا يعوزهم اللطف، ولا ينقصهم الذكاء. وقد كانت من هؤلاء امرأة تُدعى « ايزابيل دانفرنوا »، ابنة المدعي العام في (نيوشاتيل)، وقد لاح لي أنها جديرة بأن أرتبط معها برباط خاص من الود، لم تجد فيه ما يضيرها، بفضل النصائح النافعة التي كنت أزجيها إليها، وبفضل الخدمات التي كنت أؤديها لها في المناسبات الماسة.. فأصبحت اليوم أمًّا محترمة وربّة أسرة فاضلة.. ولعلها مدينة لي بحكمتها، وزوجها، وحياتها، وسعادتها!.. أما أنا، فأدين إليها بكثير من التسرية الرقيقة، لا سيما خلال الشتاء الكئيب، عندما كانت عللى وأوجاعي ترقى إلى ذروتها. فكانت تأتى لتقضى مع « تيريز » وإياي السهرات الطويلة، التي تحذق تقصيرها بروحها المرحة، وبالثقة التي كانت متبادلة بيننا. وقد اعتادت أن تدعوني « بابا » وأناديها بيا « ابنتي ». ولا نزال نستخدم هـذين اللقبين، وإني لآمل أن أظلّ عزيزًا عليها - دون انقطاع - كما هي عزيزة عليَّ!

ولكي أجعل لأشغالي « اللاسيه » نفعًا، اعتدت أن أهديها إلى صديقاتي الشابات عند زواجهن، على شريطة أن يغذين أطفالهن بلبنهن. وعلى هذا، حصلت الأخت الكبرى لإيزابيل على مفرشي من « اللاسيه »، وكانت جديرة به حقًّا.. ولكنها لم تسعد بحمل الأطفال، ولم يقدَّر لها أن تكون أمًا. ولقد حرصت - عند إرسال « اللاسيه » إلى « إيزابيل » وأختها - على أن أكتب لكل منهما رسالة. وقد طافت أولى هـاتين الرسالتين أرجاء العالم. أما الثانية، فلم يقدر لها هذا الحظ من الشهرة.. فإن الصداقة لا تستقيم مع الصخب والضجيج!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن الصلات التي عقدتها في الجيرة - والتي لن أخوض تفصيلاتها - يجب أن أذكر علاقتي بالكولونيل « بورى »، الذي كان يمتلك دارًا فوق الجبل، اعتاد أن يقضى فيها فصل الصيف. ولم أكن مشوقًا إلى معرفته، إذ كنت قد عرفت أنه على علاقات سيئة مع البلاط الملكي، ومع السيِّد المارشال، الذي لم يزره قط. ومع ذلك، فقد اضطررت إلى أن أزوره، إذ زارني وأبدى لي كثيرًا من التكريم والحفاوة. وقد استمر تزاورنا، وكنا نتناول الطعام أحيانًا، على مائدته أو مائدتى. ولقد تعرَّفت في داره بالسيِّد « دوبييرو »، الذي لم يلبث أن غدا صديقًا حميمًا، حتى أنني لا أستطيع أن أتحاشى الحديث عنه.

كان السيِّد « دوبييرو » أمريكيًا، ابن قائد (سورينام) الذي تزوَّجت أرملته من خليفتـه السيِّد لوشامبرييه - من أبناء (نيوشاتيل) - حتى إذا ترملت مرة أخرى، وفدت مع ابنها ليقيما في بلاد زوجها الثاني. وكان دوبييرو ابنًا لا مثيل له، واسع الثراء، مشغوفًا بحب أمه، وقـد نشأ في رعاية وعناية، وأفاد من تربيته، إذ كان قد حصَّل قدرًا كبيرًا من المعرفة العامة، وكان على ميل إلى الفن، كما كان يفخر بأنه أنمي بنفسه مداركه وعقله، وكان

مسلكه فاترًا، فيلسوفيًا، على نسق الهولنديين.. وكانت بشرته السمراء، وخلقه الصامت المتحفظ تؤيد هذه الفكرة كل التأييد. وكان أصم، ومصابًا بالنقرس، بالرغم من أنه كان شابًا. وقد جعل هذا حركاته جد متزنة، ومفرطة في التثاقل. ومع أنه كان يحب النقاش - ويطيله في بعض الأحيان - إلا أنه كان قليل الكلام، بوجهٍ عام، لأنه لم يكن يسمع!

ولقد غرّني كل هذا المظهر، فقلت لنفسي: « ها هو ذا رجل مفكّر، عاقل، من الصنف الذي يسعد المرء بصداقته ». ومما زادني اغترارًا فيه، أنه كان كثيرًا ما يوجِّه إليَّ الحديث، دون أي إطراء. وكان قليل الحديث عنى وعن كتبي، وأقل من ذلك عن نفسه. ولم يكن خلوًّا من الآراء، بل كان كل ما يقوله منها صحيحًا إلى درجة كبيرة. وقد اجتذبتني إليه هذه الدقة، وهذا الصواب. ولم يؤت عقله شيئًا من السمو ولا من الإرهاب اللذين أوتيهما السيِّد المارشال، ولكنه أوتى البساطة.. فكانت تتمثل دائمًا في كل شيء.

ولم أشغف به، ولكنني انجذبت إليه بشعور من التقدير، وقد أفضى هذا التقدير - تدريجًا - إلى الصداقة. ولقد نسيت تمامًا - في صداقتي معه - الاعتراض الذي كنت أبديته إزاء صداقتي مع البارون دولباخ، وذلك أنه كان واسع الثراء.. وأعتقد أنني كنت في ذلك على خطأ. لقد تعلمت أن أرتاب في أن أي رجل أوتى ثروة طائلة، يستطيع أن يحب مبادئي بإخلاص، وأن يحب صاحبها!

ولقد ظللت فترة طويلة، لم أكن أرى « دو بييرو » فيها إلا لمامًا، إذ أننى نادرًا ما كنت أذهب إلى (نيوشاتيل)، كما أنه لم يكن يزور الكولونيل « بورى » - في بيته الجبلي - إلَّا مرة في العام. فلماذا لم أكن أذهب إلى نيوشاتيل؟.. لسبب صبيانى، لا أرى أن أُغفله.

ذلك أنني وإن كنت - في حماية ملك بروسيا والسيِّد اللورد - قد نجوت، في البداية، من الاضطهاد في البلد الذي لذت به، إلا أنني لم أنج قط من تمتمات الجمهور، ومستشاري البلدية، والقساوسة. وبعد المثل الذي ضربته فرنسا، لم يكن من المستحسن ألَّا توجّه إليَّ بعض الإهانات، على الأقل. فلقد خشى القوم أن يظهروا بمظهر غير المحبذين لمضطهدىّ، إذا هم لم يقلدوهم. وكانت الطبقة الممتازة في (نيوشاتيل) ـ وأعنى جماعة القساوسة في تلك المدينة ـ هي البادئة، إذ حاولت أن تؤلّب مجلس الدولة ضدي. فلما لم يقدَّر لهذه المحاولة النجاح، اتجه القساوسة إلى أعضاء المجلس البلدي، الذين بادروا بتحريم كتبي، وراحوا في كل مناسبة يعاملونني في ازورار، ليوحوا إليَّ - بالقول وليس بالإشارة فحسب - بأنني إذا كنت أبغى الاستقرار في مدينتهم، فإنهم لن يطيقوا مقامى. وملأوا أعمدة صحيفتهم « ميركور » بالسفاسف المضحكة، والانتقادات السطحية، التي أضحكت ذوى الإدراك، ولكنها لم تخفق في إثارة الجمهور وتحفيزه ضدى.

وما كان سماعي بكل هذا ليمنعني من أن أكون جد شاكر لهم فضلهم البالغ، إذ سمحوا لي بأن أقيم في (موتيير)، حيث لم يكن لهم أي سلطان.. فقد كانوا خليقين بأن يقيسوا الهواء بالشبر، ليتقاضوني - في مقابله - ثمنًا باهظًا! فلقد كانوا تواقين إلى أن يشعروني بأنني أسير فضل كبير لهم، من جراء الحماية التي أضفاها الملك علىَّ بالرغم منهم، والتي كانوا دائبين على العمل لحرماني منها، وإذ تبينوا - أخيرًا - أنهم لن يوفّقوا في ذلك، وبعد أن ألحقوا بي كل ما كان بوسعهم من إيذاء، وأساءوا إليَّ بكل ما في طاقتهم، فقد جعلوا من قحتهم فضيلة، بأن راحوا يمنون علىَّ بفضلهم إذ تحملوا بقائي في بلادهم. وكان الجواب الوحيد الذي يخلق بي أن أوجّهه إليهم هو.. أن أضحك منهم ساخرًا. ولكنني - بدلًا من ذلك - كنت من الغباء بدرجة أنني غضبت، وكنت من الحماقة بدرجة أن عقدت العزم على ألَّا أذهب إلى (نيوشاتيل).. وهو عزم تشبثت به عامين تقريبًا، وكأنني لم أكن أبدى لمثل هؤلاء المخلوقات كثيرًا من الإكبار، بما كنت أبديه من احتفال بمسلكهم الذي ما كانوا ليعتبروا مسئولين عنه ـ سواء كان طيبًا أو خبيثًا - لأنهم ما كانوا ليتصرَّفوا قط، دون تحريض!..

وإلى جانب ذلك، فإن العقول الخالية من الثقافة والنور، لا تعرف هدفًا تقدّره سوى الصيت، والنفوذ، والمال.. وهي بعيدة كل البعد عن أن تحدس أن المواهب جديرة بشيء من الاحترام، وأن في إهانتها عارًا يحط من أقدارهم!

ولقد قال مرة أحد عمداء القرى ـ وكان قد أوقف عن عمله لسوء تصرفاته - لرئيس بوليس (فال - دي - ترافير)، الذي كان زوجًا لصديقتي إيزابيل: « يُقال أن هذا الـ « روسو » رجل واسع العقل، فهاته لي، كي أتبين مدى صدق هذا! ». ومن المؤكَّد أن عدم رضاء رجل يتحدَّث بهذه اللهجة، لا يستحق أن يضايق أولئك الذين يريد أن يفحصهم ويختبرهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعلى ضوء الطريقة التي عوملت بها في باريس، وجنيف، وبيرن، ونيوشاتيل ذاتها، لم أتوقَّع كثيرًا من الاعتبار، من الراعي الديني للمنطقة. ومع ذلك فإن السيِّدة « بوى ديلاتور » كانت قد أوصته بي خيرًا، وكان قد استقبلني في حفاوة بالغة. ولكن المجاملات لم تكن تعني شيئًا، في هذا البلد الذي كان النفاق يسوده. على أنني بعد عودتي الصادقة إلى الكنيسة البروتستانتية، وإقامتي في بلاد بروتستانتية، لم أعد أملك إهمال إبداء إيماني للملأ بالدين الذي عدت إليه، وإلا كنت ناكثًا بعهودى، مغفلًا واجباتى كمواطن. ولهذا أخذت أحضر الطقوس الدينية. ولكني من ناحية أخرى، كنت أخشى أن يؤدّي حضوري المأدبة الربانية، إلى أن أتعرَّض للإهانة بأن يرفض القس السماح لي بتناول القربان. فما كان من المحتمل إطلاقًا - بعد الضجة التي أقامها المجلس ضدى في جنيف، وتلك التي أثارها رجال الدين في نيوشاتيل - أن يقوم القس بطقوس المناولة لي، في هدوء، في كنيسته. ولما كان موعد المناولة يقترب، فقد قرَّرت أن أكتب إلى السيِّد « دى مونمولان » - وهذا اسم القس - معربًا عن حسن نواياي؛ ومعلنًا إليه أنني كنت مرتبطًا بقلبي بالكنيسة البروتستانتية دائمًا. وقلت له في الوقت ذاته - تفاديًا لكل خلاف على نصوص العقيدة - إنني لم أكن راغبًا في أي شرح خاص لأسس العقيدة. وإذ أوضحت موقفى - بهذا الشكل - لزمت الهدوء، والشك لا يخامرني في أن السيِّد دي مونمولان لن يأبى أن يعفيني من المناقشات الأوّلية ـ التي تسبق المناولة عادة، والتي كنت مصرًّا على ألّا أخوضها إطلاقًا - وأن المسألة ستسوى على هذا الوضع، دون ما لوم ينصب عليَّ.

ولكن شيئًا من هذا لم يحدث!. ففي اللحظة التي لم أكن أتوقَّع فيها هذه المفاجأة، إذا بالسيِّد دى مونمولان يقبل.. لا لينبئني بأنه كان راضيًا عن مناولتي القربان - بالشرط الذي ذكرته - فحسب، وإنما ليخبرني فوق هذا، بأنه وشيوخ الكنيسة يرون أن في وجودى عضوًا بين رعاياهم شرفًا لهم!.. أبدًا لم أفاجأ في حياتي كما فوجئت بذلك، وأبدًا لم أجد في شيء ما وجدت في هذا النبأ من عزاء.

كان اضطراري إلى العيش في عزلة على الدوام، يبدو لي مصيرًا جد كئيب، لا سيما في أوقات المحنة. ففي وسط كل هذه الأحكام التي كنت أدمغ بها - دون ما إنصاف ـ وكل هذه الاضطهادات، كنت أجد ترفيهًا بالغًا في أن أستطيع أن أقول لنفسي: « ها أنذا بين أخوة، على الأقل! ». ومن ثم فقد ذهبت للتناول بقلبٍ يفيض بالانفعالات، وبدموع منبعثة من عواطف رقيقة، لعلها كانت خير عدة يقبلها الله، ويستطيع امرؤ أن يحملها إلى المائدة الربانية!

وأرسل لي السيِّد اللورد - بعد ذلك بزمن - رسالة من السيِّدة دي بوفلير، جاءت - كما خُيل إليَّ - عن طريق دالمبير، الذي كان يعرف السيِّد المارشال. وكانت هذه هي الرسالة الأولى التي كتبتها إليَّ هذه السيِّدة، منذ رحيلي عن (مونمورنسى)، وقد لامتني فيها - أشدّ اللوم - على أننى كتبت إلى السيِّد دي مونمولان، وعلى أننى تناولت القربان، بوجهٍ خاص. ولم أكد أفهم داعيًا للومها هذا، إذ أننى - منذ رحلتي الأولى إلى جنيف ـ كنت أعلن جهارًا أنني

بروتستانتى، وقد ترددت علانية على كاتدرائية هولندا، فلم ير أحد في هذا أي سوء. وبدا لي من المضحك أن ترغب السيِّدة الكونتة دي بوفلير في أن تقحم نفسها في توجيه ضميري، في الناحية الدينية. على أننى كنت لا أرتاب في أن نواياها - لا سيما هذه التي لم أستطع أن أفهمها - هي خير النوايا، ومن ثم فإننى لم أستأ من هذا العتاب العجيب، بل أجبت في غير غضب، وأوضحت لها الأسباب.

وفي تلك الأثناء، كانت الإساءات المطبوعة مستمرة كشأنها من قبل، وكان مؤلفوها « الكرام! » يؤنبون السلطات لأنها تعاملني في لين فوق ما ينبغي. ولقد كان هذا النباح - الذي ظلَّ قادته يعملون في الخفاء - نذير شؤم وفزع. على أننى من ناحيتي - تركتهم يقولون ما شاءوا، دون أن أتأثّر. ولقد أكَّد لي البعض أن ثمة قرارًا بلومي على كتبي، قد صدر عن « السوربون »، فأبيت أن أصدّق ذلك37. إذ كيف للسوربون أن يتدخل في هذه المسألة؟ فهل أُريد بذلك تأكيد أنني لم أكن كاثوليكيًا؟ لقد كان كل امرىء يعرف هذا بالفعل!.. أم أريد به إثبات أنني لم أكن من أتباع « كالفن » الصالحين38؟ فأى شأن للسوربون في هذا؟.. كان معنى هذا أن « السوربون » أخذ على عاتقه مهمة نافذة، وأناب نفسه عن قساوستنا. وأيقنت - قبل أن أرى الوثيقة - أنها كانت تُروَّج باسم « السوربون »، للسخرية منه، وقد ازددت إقتناعًا بذلك عندما قرأتها.

وعندما عجزت عن أن أشك في صحة صدورها عن « السوربون » - في النهاية ـ لم يبق لي ما أفكر فيه سوى أنه كان من الواجب تحويل « السوربون » إلى مصح للأمراض العقلية!

سنة 1763

وهناك وثيقة أخرى أثّرت في نفسي فوق تأثير هذه، لأنها صدرت عن رجل كنت أقدّره - على الدوام ـ وكنت أعجب بجَلده وأنا أرثى لضياع بصره. وأقصد بهذا القول الرسالة الأسقفية التي كتبها كبير أساقفة باريس ضدي. ولقد خُيّل إلىَّ أن ليس ثمة داع لأن أرد عليها. وكان بوسعي أن أفعل، دون أن أنزل من قدر نفسي. فقد كانت مسألة قريبة الشبه من مسألة ملك بولندا39. وما كنت يومًا مولعًا بالمشاحنات الوحشية، « على طريقة فولتير »!.. فلست أجيد سوى النزال الذي يحفظ للمرء كرامته، ولا بد - قبل أن أتنازل بالدفاع عن نفسي - من أن أستوثق من أن الذي يهاجمني لن يشوّه ضرباتى!

ولم يداخلني شك في أن هذه الرسالة الأسقفية كانت من عمل « الجيزويت »، ومع أنهم كانوا إذ ذاك منكوبين، إلا أننى رأيت في هذا العمل مصداقًا لمبدئهم القديم « مبدأ سحق المنكوبين ».. ومن ثم فقد كان بوسعي أن أتبع - أنا الآخر - مبدئي القديم، مبدأ تكريم المؤلّف وسحق الكتاب. وهذا ما أعتقد أنني وُفقت في أدائه.

ولقد وجدت إقامتي في (موتيير) جد مستحبة، فلم يكن يعوزنى سوى الحاجة إلى مورد ثابت للعيش، كى أقرِّر قضاء آخر أيام عمري هناك. بيد أن الحياة كانت باهظة التكاليف، وكانت كل مشروعاتي القديمة قد انقلبت رأسًا على عقب، بسبب نزوحي عن مكان إقامتي القديم، والعمل على إنشاء مقر جديد لي، وبسبب بيع أمتعتى أو تبديدها، وبسبب النفقات التي كنت مضطرًا إلى تكبدها منذ رحيلي عن (مونمورنسى). ورحت أرى رأس مالي الصغير يتضاءل يومًا بعد يوم، حتى بات في وسع عامين آخرين أو ثلاثة، أن تأتى على ما تبقى منه، دون أن أرى موردًا آخر لتعويضة، اللهم إلا إذا شرعت في تأليف الكتب من جديد.. وممارسة المهنة المشئومة التي كنت قد نبذتها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذ كنت مؤمنًا بأن الأمور لن تلبث أن تتطوَّر عما قريب، وأن الرأي العام لن يلبث أن يثوب من تهوسه، وأن يحمل السلطات على أن تخجل من تصرفها، فكان همي الأوحد، هو أن أجعل مواردى تستمر حتى يحدث هذا الانقلاب السعيد، الذي سيتيح لي وضعًا، أكون أكثر مقدرة فيه على أن أختار موردًا من الموارد التي تعرض لي. وفي سبيل ذلك، عدت إلى استئناف موسوعتى الموسيقية التي كنت - بعد جهد استغرق عشر سنوات - قد قطعت شوطًا بعيدًا فيها، فلم يعد ينقصها سوى المراجعة الأخيرة، وأن تُنسخ نسخًا نظيفًا. ولقد وفرت لى كتبى - التي كانت قد أُرسلت إليَّ منذ وقت قصير - وسائل إتمام هذا المؤلَّف.. كما أن أوراقي - التي أُرسلت إليَّ في الوقت ذاته - مكنتني من البدء في مشروع مذكراتى، التي اعتزمت أن أجعلها شاغلي الوحيد، من ذلك الحين. وقد شرعت في نسخ الرسائل في مجموعة تهدي ذاكرتي إلى نظام الوقائع والتواريخ. وكنت قد اخترت تلك الرسائل التي رأيت أن أعدّها لهذا الغرض، وقد نُسقت في تتابع لم ينقطع زهاء عشر سنوات تقريبًا. غير أننى تبينت - وأنا أراجعها لأنسخها - ثغرة خلالها أدهشتني. وكانت هذه الثغرة تشمل ستة أشهر، من أكتوبر سنة 1756 إلى مارس التالي!

وكنت أذكر تمام التذكّر أننى ضمنت مجموعتي عددًا من الرسائل التي تلقيتها من ديدرو، ودى ديلبير، والسيِّدة ديبيناى، والسيِّدة دى شينونسو وغيرهم، والتي كانت تملأ هذه الثغرة، ولم يعد لها وجود. فما الذي جرى لها؟.. هل عبثت يد بأوراقي أثناء بضعة الأشهر التي مكثتها في قصر لوكسمبورج؟.. كان هذا الأمر بعيدًا عن المعقول، إذ أننى رأيت السيِّد المارشال يأخذ بنفسه مفتاح الغرفة التي أودعت فيها هذه الأوراق. ولما كان كثير من رسائل السيِّدات، وكل رسائل ديدرو، لا تحمل تاريخًا، وكنت قد اضطررت إلى ترتيب تواريخها اعتمادًا على الذاكرة، وكنت كمن يتلمس طريقه في الظلام لتنسيق ترتيبها، فقد ظننت - في بادىء الأمر - أنني ربما كنت قد أخطأت حدس التواريخ.. ورحت أراجع كل الخطابات التي لم تكن تحمل تواريخ، أو التي كنت قد سجلت عليها التواريخ بنفسي، لأتبين ما إذا لم يكن بوسعي العثور على تلك التي كانت لازمة لملء الثغرة.

ولم تفلح هذه المحاولة، فتبينت أن الفراغ كان قائمًا حقًّا، وأن الخطابات كانت قد رُفعت من مكانها يقينًا. فمَن الذي رفعها، ولماذا؟ هذا ما لم أستطع إدراكه!.. كانت هذه الرسائل سابقة على مشاحناتي الكبرى، وتمت إلى فترة نشوتي الأولى بـ « جولى ». ومن ثم فإنها لم تكن ذات أهمية لأحد. كانت تضم - في الغالب - بعض مشاكسات من ديدرو، وبعض سخريات من ديلبير، وبعض تأكيدات للود من السيِّدة دى شينونسو، بل ومن السيِّدة ديبناي التي كنت معها إذ ذاك على خير وئام. فمَن الذي تهمه هذه الخطابات؟.. وماذا يراد بها؟.. ولكني لم أحدس الغرض البشع من هذه السرقة إلا بعد سبع سنوات!

وحملني تأكدي من هذا النقص، على أن أفحص مسوداتى لأتبين ما إذا كان ثمة نقص آخر، فوجدت عددًا منها مفقودًا، ونظرًا لقصور ذاكرتى، جعلني هذا أفترض ضياع أوراق أخرى من أكداس أوراقي. وكانت المسودات التي لاحظت غيابها، هي تلك المتعلقة بكتاب « المبادىء الخلقية الحسية »، والفقرات المستخلصة من « مغامرات اللورد ادوارد ». وأعترف أن غياب هذه الأخيرة، أوحى إليَّ بالشك في السيِّدة دى لوكسمبورج. فلقد كان وصيفها الخاص « لاروش »، هو الذي نقل أوراقي، وما كنت لأتصوَّر سواها - دون الناس أجمعين - مَن يهتم بمثل هذه القطعة. ولكن، أي اهتمام كان يدفعها إلى أخذ الثانية وإلى أخذ الرسائل الغائبة، التي ما كان بوسع أمرىء أن يفيد منها في مضايقتي - مهما تكن نواياه خبيثة - اللهم إلا إذا زيفها؟.. أما السيِّد المارشال، الذي عهدت فيه استقامة لا تتذبذب، وصدقًا في وده لي، فإننى لم أملك أن أرتاب فيه لحظة واحدة. بل إنني لم أملك أن أثبت هذا الشك على السيِّدة المارشالة!

وكان أكثر الافتراضات التي خطرت لي، تمشيًا مع المعقول - بعد أن أضنيت نفسي وقتًا

طويلًا في البحث عن مرتكب هذه السرقة ـ هو أن ألقي الوزر على دالمبير، الذي كان قد وُفق إلى اكتساب مكانة لدى السيِّدة دى لوكسمبورج، فكان من المحتمل أن يكون قد وُفق إلى وسيلة للنبش في أوراقي، والاستيلاء على ما استطاع الاستيلاء عليه، سواء من المخطوطات أو من الرسائل، وسواء جريًا منه وراء إثارة بعض الفتن، أو لكي ينسب إلى نفسه ما قد يراه نافعًا منها. وافترضت أن يكون قد أساء فهم عنوان « المبادىء الخلقية الحسية »، فخُيل إليه أنه قد عثر على مشروع رسالة حقيقية عن « المادية »، يستطيع أن يستغلها ضدي بالقدر الذي صوَّره له خيـاله. وإذ كنت واثقًا من أنه لن يلبث أن يتبين الحقيقة عندما يفحص المسودة، كما كنت قد عقدت العزم على أن أهجر الأدب نهائيًا، فإنني لم أهتم كثيرًا بهذه السرقات، التي لم تكن أوَّل ما ارتكبته تلك اليد ذاتها، والتي احتملتها دون ما شكوى. فلقد وجدت في كتاب دالمبير « مبادىء الموسيقى » كثيرًا من الأشياء المأخوذة عما كنت قد كتبته في هذا الفن لدائرة المعارف، والتي كانت قد أرسلت إليه قبل طبع كتابه بسنوات عديدة. وإني لأجهل ما قد يكون له من نصيب في كتاب بعنوان « موسوعة الفنون الجميلة »، ولكني وجـدت فيه مقالات منقولة بالكلمة من مقالاتى.. قبل أن تُنشر هذه في دائرة المعارف!

وسرعان ما كففت عن التفكير في هذه الخيانة، وكأنما لم يرتكب ضدى قط عمل كهذا، وشرعت أنسق المواد التي تبقَّت لى، لكي أتوفر على « اعترافاتى ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنت قد ظللت طويلًا أعتقد أن جماعـة القساوسة في جنيف، أو أن المدنيين وسكان المدن - على الأقل - لن يلبثوا أن يحتجوا على انتهاك القـانون، في المرسوم الذي كان قد أُصدر ضدى، بيد أن كل شيء ظلَّ ساكنًا.. في الظاهر على الأقل، إذ أنه كان ثمة تذمر عام، لم يكن ينتظر سوى مناسبة يعلن فيها عن وجوده. وكان أصـدقائي - أو مَن يسمون أنفسهم كذلك - قد كتبوا لى الرسائل تلو الرسائل، يستحثونني على أن أذهب فأضع نفسي على رأسهم، مؤكدين لي أن المجلس لن يلبث أن يصدر اعتذارًا علنيًا، إذ ذاك. على أن الخوف من القلائل والاضطرابات، التي قـد يثيرها وجودى، منعنى من قبول إلحاحهم. وفي وفائي للعهد الذي كنت قـد أخـذته على نفسي في الماضي، بألَّا أقحم نفسي في أي شقاق أهلي في بلادى، آثرت أن يبقى انتهاك العـدالة قائمًا على حاله، وأن أحرم وطني على نفسي إلى الأبد، على أن ألجه بوسائل عنيفة وخطرة. ومن الصحيح أنني كنت أرتقب من أبناء المـدن مظاهرات سلمية وقانونية ضد المخالفة التي كانت تهمهم إلى أقصى حد، إلا أن شيئًا من هذا لم يحدث. فإن أولئك الذين كانوا يقـودونهم، لم يكونوا يسعون إلى علاج الأخطـاء والمساوىء، بقدر ما كانوا ينشدون فرصة ليجعلوا من أنفسهم قادة لا غنى عنهم. وكانوا يسعون بالتحريض، ولكنهم لزموا الصمت، وأطلقـوا الزمام للشائعات والأكاذيب التي كان المجلس يروِّجها ليشوّه من سمعتى أمام الأهالي، وليعـزو إساءاته إلى الحماس الديني!

وبعد أن انتظرت - دون جدوى - لأكثر من عام، على أمل أن يحتج أحد على الإجراء غير القانوني، قرّ رأيي - في النهاية - على قراره. وإذ وجدت نفسى مهجورًا من مواطنيّ، صممت على أن أنبذ وطني الجاحد، الذي لم أقم فيه قط، والذي لم أتلق منه خيرًا ولا عونًا، والذي جـازاني على الشرف الذي سعيت لإضفائه عليه، بأن وافق بالاجماع على معاملة مهينة. وإذ لم ينبس بكلمة أولئك الذين كان ينبغى عليهم أن يتكلموا، كتبت إلى السنديك الأوّل40 لذلك العام ـ وكان السيِّد فافر، على ما أظن ـ رسالة نزلت فيها بشمم عن حقى في أن أكون مواطنًا، وراعيت فيها - إلى جانب ذلك - الأدب والاعتدال الذين كنت أحرص عليهما في التصرفات المتعلقة بكرامتي، والتي كثيرًا ما كانت قسوة أعدائي تدفعني إليها في أويقات محنتى.

وفتحت هذه الخطوة أعين المواطنين، فأحسوا بأنهم قد أذنبوا إزاء مصلحتهم الحقيقية إذ تخلّوا عن الدفاع عنى، فهبّوا لذلك بعد فوات الأوان. وكانت لهم مظالم أخرى ضمّوها إلى هذه، وجعلوا منها مادة لشكايات عديدة، جد معقولة، راحوا يوسعون نطاقها ويعززونها، نتيجة للرفض الجاف المثبط الذي أخذ المجلس يقابلها بها، وهو مستند إلى تأييد الوزير الفرنسي، مما جعل المواطنين يزدادون شعورًا بالخطة التي كانت موضوعة لاستعبادهم. ولقد دعت هذه الخلافات إلى إصدار منشورات عديدة، لم تبت بشيء، إلى أن ظهر فجأة « رسائل كُتبت من الريف »، وهو مؤلَّف وُضع لتأييد المجلس بدهاء لا حد له، وقد أفحم الفريق المتذمر وهزمه فترة من الزمن. وهذا الكتاب أثر باق على ما أوتى مؤلفه من مواهب نادرة، وهو من إنتاج المدعي العام ترونشان41، وقد كان رجلًا ذكيًا، متنوّرًا، متبحرًا في القوانين وفي نظم الحكم الجمهوري.

سنة 1764

وأفاق المتذمرون من هزيمتهم الأولى، فتولوا الرد، وخرجوا من مأزقهم على خير حال. ولكن الجميع راحوا يوجّهون أنظارهم نحوى، وكأنني الوحيد الذي كان يقوى على مقارعة خصم كهذا يأمل التغلب عليه. وأعترف أنني كنت أرى الرأى ذاته، فلما أخذ مواطني القدامى يستحثونني ويبينون أن من واجبي أن أساعدهم بقلمي في مأزق كنت أنا سببه. فعكفت على دحض « رسائل من الريف »، وقلبت العنوان إلى « رسائل من الجبل »، وهو الذي اتخذته لردّى. وقد فكرت في هذا المشروع ونفذته في تكتم شديد، حتى أنني - في اجتماع مع رؤساء المتذمرين في (تانون)، لنتشاور في أمورهم، وليطلعوني على مشروع ردهم - لم أشر بكلمة إلى ردى الذي كان قد اكتمل، خشية ألّا يتغلبوا على بعض العقبات في سبيل طباعته، لو أن أعضاء المجلس أو أعدائي الشخصيين سمعوا أتفه همسة عنه. ومع ذلك فإنني لم أستطع أن أحول دون أن يذيع أمر هذا المؤلَّف في فرنسا قبل نشره، على أنه رؤى تركه يظهر، بدلًا من اطلاعي بجلاء على الوسيلة التي اكتشف بها سرى. ولسوف أبين - فيما بعد - ما علمته وإن لم يكن بالكثير. ولن أذكر شيئًا عن هواجسي وتخميناتي.

كان الزائرون يتوافدون على داري في (موتيير)، بعين كثرتهم في (ليرميتاج) و (مونمورنسى) تقريبًا. ولكنهم كانوا - في الغالب - من نوع آخر. فقد كان الساعون إلى لقائي - قبل ذلك الحين - من أولئك الذين تربطهم بى روابط المواهب، والميول، والمبادىء. فكانت هذه مبررات لزياراتهم. وكانوا يطلعونني على موضوعات أستطيع أن أناقشها معهم، قبل نشرها. ولكن هذه لم تكن الحال في (موتيير)، لا سيما في الجانب الفرنسي. فقد كان زائريّ من الضباط أو الموظفين أو سواهم ممن لم يؤتوا أي ميل للأدب، وممن لم يقرأ معظمهم مؤلفاتي.. ومع ذلك، فإنهم كانوا - على قولهم - يقطعون ثلاثين أو أربعين أو ستين أو مائة فرسخ ليزوروني، وليرضوا إعجابهم برجل لامع، شهير، شهير جدًا، بل الرجل العظيم، إلخ. ذلك لأن الناس لم يكونوا قد كفوا - إذ ذاك - عن أن يقذفوني في وجهي بأغلظ ألفاظ الملق وأوقحها، فلم يكن يحميني منها - منذ ذلك الحين - سوى تقدير أولئك الذين كانوا يفدون لزيارتي. ولم أكن أدري فيم أتحدَّث إلى هؤلاء، إذ كان أغلبهم لا يتفضلون بذكر أسمائهم، ولا يطلعوني على مراكزهم، وكانت معرفتهم ومعرفتي لا تتسقان حول محور مشترك.. وكنت أصمت مرتقبًا أن يفتحوا هم الحديث، إذ كان عليهم أن يذكروا لى سبب زيارتهم، لأنهم كانوا أدرى به منى. ومن السهل إدراك أن هذا المسلك لم يكن يؤدّى إلى حديث مشوِّق لي بوجه خاص، وإن كان من المحتمل أنه مشوق لهم، تبعًا لما جاءوا ينشدون معرفته. إذ أنني لبعدى عن أن أرتاب في شيء، كنت أسهب في الحديث - دون تحفظ - في كل ما كانوا يرون من اللائق طرحه علىَّ من موضوعات. وكانوا يخرجون من هذا - في العادة - وهم لا يقلون عنى إلمامًا بكل تفصيلات موقفى.

ومن أمثلة هذا الصنف، السيِّد دى « فيان »، حامل سلاح الملكة، وقائد الفرسان في لواء الملكة، الذي دأب على أن يقضى عدة أيام في (موتيير) وكان يرافقني في نزهاتي على القدمين، حتى (لافيريير)، وهو يقود فرسه ممسكًا بعنانه، دون أن يكون ثمة ما يجمعنا، اللهم إلا أن كلينا كان يعرف الآنسة فيل42، وكنا نتبادل لعبة الكرة والكوب. ولقد حظيت - قبل السيِّد دى فيان وبعده -



يرافقني في نزهاتي على القدمين ، حتى (لافريير) ، وهو يقود فرسه ممسكا بعنانه ..

بزيارة أخرى، أكثر غرابة. إذ وصل رجلان يسيران على أقدامهما، وقد راح كل منهما يقود بغلًا محمَّلًا بمتاعه القليل، فهبطا في نزل البلدة، وبعد أن نظفا بغليهما بنفسهما، طلبا زيارتي. وكان مظهر راكبى البغلين هذين، يوحي بأنهما من مهربي السلع عبر الحدود، فسرعان ما ذاع النبأ بأن المهربين يفدون لزيارتي. بيد أن الطريقة التي خاطباني بها، أشعرتني بأنهما من صنف آخر. على أنهما إذا لم يكونا مهربين، فقد كان من المحتمل أن يكونا من طلاب المغامرة، مما جعلني على حذر منهما فترة. ولم يطل بي القلق، فإذا أحدهما السيِّد « مونتوبان »، الذي كان يُعرف بالكونت ديلاتور - دو - بان، والذي كان من سادة (دوفينيه). أما الآخر، فكان السيِّد « داستييه »، وهو جندى قديم من (كاربنترا)، دسّ وسام « صليب القديس لوى » في جيبه، عزوفًا عن المظهر. ولقد كان هذان السيِّدان اللطيفان، رقيقين واسعى العقل، فكان حديثهما ممتعًا ومشوقًا. وقد جعلتني طريقتهما في الأسفار - وكانت تروق لي كثيرًا، وإن لم تتناسب مع طرق السادة الفرنسيين - أشعر بميل نحوهما، ما كانت الخلطة لتزيده إلا توثقًا. ولم ينته تعارفنا عند هذا الحد، بل إنه لا يزال قائمًا، وقد زارانى مرارًا ـ منذ ذلك الحين - ولكنهما لم يعودا يأتيان على الأقدام، فقد كانت هذه الطريقة صالحة لزيارة التعارف الأولى فحسب. على أنني كلما ازددت تلاقيًا بهما، قلَّ ما ألقاه من تجاوب بين ميولهما وميولي، وقلَّ شعورى بأن مبادئهما هي مبادئي وبأنهما على دراية بمؤلفاتي وبأن كلًّا منا يكن للآخر ميلًا حقيقيًّا! فماذا كانا يبغيان منى، إذن؟ ولماذا جاءا لزيارتي بهذا الشكل والمظهر؟ ولماذا بقيا عدّة أيام؟ ولماذا تكرَّرت زياراتهما عـدّة مرات؟ ولماذا كانا شديدي الرغبة في أن أستضيفهما؟.. لم يخطر ببالي إذ ذاك، أن أوجِّه هذه الأسئلة إلى نفسي، ولكني وجّهتها بضع مرات، منذ ذاك الحين!

وإزاء تقربهما ومجاملاتهما الودية، مال قلبى - دون روية - إليهما، لا سيما إلى السيِّد داستييه، الذي سرّني منه أن كانت أخلاقه صريحة، وواضحة.. حتى لقد واصلت تبادل الرسائل معه، وعنما أردت أن أنشر كتابى « رسائل من الجيـل »، فكرت في أن أرسل المخطوط باسمه، لأموّه على أولئك الذين كانوا يتربصون للكتاب وهو في طريقه إلى هولندا. وكان قد حدَّثني كثيرًا - وربما عن قصد - عن حرية النشر في (أفنيون)، وعرض علىَّ خدماته إذا شئت أن أطبع شيئًا هناك. فتقبلت هذا العرض، وأرسلت إليه الأوراق الأولى تباعًا بالبريد. وبعد أن استبقاها فترة ليست بالقصيرة، ردَّها ثانية، وأنبأني - في الوقت ذاته - بأن أحدًا من الناشرين لم يجد من نفسه جرأة على أن يتكفل بطبعه.. واضطررت إلى أن أعود إلى « ريي »، متخذًا الحذر، بحيث أنني كنت أرسـل أوراقي واحدة بعد أخرى، على ألّا أرسـل واحدة، حتى أتسلم ما ينبىء بوصول سابقتها.

وقبـل أن يُطبـع الكتاب، علمت أنه روجـع في دوائر القساوسة، وحدّثني « ديشيرنى » - من نيوشاتيل - عن كتاب اسمه « رجل من الجبل »، قال له دولباخ إننى كاتبه. فأكّدت له أنني لم أكتب قط كتابًا بهذا العنوان، وكنت في ذلك صادقًا. لذلك فإنه اهتاج عندما ظهرت الرسائل، واتهمنى بالغش، بالرغم من أننى أنبأته بمجرَّد الحقيقة. وهكذا اقتنعت بأن المخطوط كان معروفًا. ولما كنت موقنًا من أمانة « ريى » فقد اضطررت إلى أن أنقل شكوكي إلى اتجاه آخر، وكان أقرب التخمين إلى المنطق، بل كان الحدس الذي فضلته على سواه، هو أن رسائلي كانت تُفتح أثناء ذهابها بالبريد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وممن تعرَّفت بهم - حوالي هذه الفترة بالذات - ولـكن تعارفنا اقتصر في البداية على تبادل الرسائل، السيِّد « لالياود »، من أبناء (نيم). فقد كتب إلىَّ من (باريس) يسألني أن أرسل إليه صورة جانبية لوجهي لأنه - كما قال - كان بحاجة إليها في نحت تمثال نصفي من المرمر لي، كان قد عهد إلى « لوموان » بعمله، رغبة منه في أن يقيمه في مكتبته الخاصة. وإذا كانت هذه حيلة ابتكرت لاستمالتي، فالحق أنها أفلحت تمامًا. فلقد خلت أن رجلًا

يرغب في إقامة تمثال لي في مكتبته، لا بد أن يكون مليء الرأس بمؤلفاتي، وبالتالي بمبادئي، وأنه لا بد يحبني، لأن روحه كانت على شاكلة روحى. وكانت هذه الفكرة خليقة بأن تستهويني. ولقد رأيت السيِّد لالياود بعد ذلك، فوجدته توَّاقًا إلى أن يؤدّي إليَّ بعض الخدمات الطفيفة، لكي يوغل في التدخل في شئونى البسيطة!.. وفيما عدا ذلك، أظن كتابًا واحدًا من مؤلفاتي كان بين الكتب القليلة التي قرأها في حياته. وإني لأجهل، إذا كانت لديه مكتبة، وما إذا كانت هذه المكتبة مجرَّد أثاث يحلو له أن يستخدمه!.. أما التمثال النصفى، فقد اقتصر على شكل مشوّه من الطين، صنعه « لموان »، وحفر عليه قسمات بشعة، حملت برغم ذلك اسمى، وكأنما فيها شيء من الشبه بى!

وكان الفرنسي الوحيد، الذي بدا أنه جاء يزورني عن ميل إلى مشاعري وكتاباتى، ضابطًا شابًا من كتيبة (ليمزان) يُدعى « سيجوييه دى سان ـ بريسون »، كان - وما يزال - من المتوقع أن يتألّق نجمه في (باريس) والعالم، بفضل ما أوتى من مواهب مستحبة، وما كان يبديه من جمال الفكر. وكان قد وفد على (مونمورنسى) لزيارتى، في الشتاء الذي سبق كارثتي. ثم كتب لي بعد ذلك، في (موتيير).. وسواء كان راغبًا في تملقى، أو أن شخصية « اميل » كانت قد استهوته حقًّا، فإنه أنبأني باعتزامه ترك الخدمة، ليعيش حرًّا.. وأنه لذلك أخذ يتعلم حرفة التجارة. ولقد كان له أخ يكبره ـ « كابتن » في الكتيبة ذاتها - كان أثيرًا بحب أمه، التي كانت متطرفة في التقوى، وكانت - في خضوعها لسلطان راهب دجّال - تسيء معاملة ابنها الأصغر، وتتهمه بالمروق على الدين، بل وبالعيب الذي لا يغتفر.. وهو توثق العلاقة بينه وبيني. وكانت هذه هي المظالم التي أراد من أجلها أن يقطع وشائجه مع أمه، وأن ينتهج الرأي الذي ذكرته من قبل.. أن يكون « اميل » الصغير، في كل شيء!

وجزعت لهذا الطيش، فبادرت إلى الكتابة إليه، محاولًا أن أثنيه عن عزمه، مزجيًّا إليه أقوى المواعظ تأثيرًا. ولقد أخذ بنصحى، وعاد إلى واجبه كابن، كما سحب من يدىّ قائده الاستقالة التي كان قدّمها، والتي كانت حكمة القائد قد أبت عليه أن يقبلها، ليوسع له الوقت كي يعيد التفكير في الأمر. وما أن شفى « سان بريسون » من هذه الحماقات، حتى أقدم على حماقة جديدة، لم تكن مثيرة للسخط كتلك، ولكنها لم تصادف هوى من نفسي.. إذ جعل من نفسه مؤلّفًا. فأصدر كتيبين أو ثلاثة، تباعًا، كشف فيها عن قدر من الاستعداد.. ولكني لا أحمل وزر إطرائها بما كان كفيلًا بأن يشجعه على المضي في هذه الحرفة!

ولقد جاء لزيارتي - بعد ذلك بزمن - وقمنا بنزهة معًا إلى جزيرة (سان بيير). ووجدته خلال هذه الرحلة، على غير ما رأيته في (مونمورنسى). كان ثمة تغير قد ألّم به، لم يصدمنى في البداية، ولكنه كثيرًا ما تمثّل لخاطري، منذ ذلك الحين. ولقد زارني مرة أخرى، في فندق (سان سيمون)، أثناء مروري بباريس، في طريقي إلى إنجلترا. وإذ ذاك سمعت ما لم يقله لي هو، من أنه أصبح يرتاد المجتمعات الراقية، وأنه كثير التردد على السيِّدة دى لوكسمبورج. ولم يبد - أثناء وجودي في قلعة (تير) - ما ينم عن وجوده على قيد الحياة، ولا أبلغني شيئًا على الآنسة « سيجوييه »، قريبته التي كانت جارة لي. وقصارى القول، أن شغف السيِّد دي سان - بريسون انتهى فجأة، كما انتهت علاقة السيِّد دى فيان، ولكن.. إذا لم يكن الأخير مدينًا لي بشيء، فإن الأوّل كان مدينًا لي ببعض الشيء، ما لم تكن النزوات الطائشة التي صددته عن ارتكابها، مجرَّد حيلة من جانبه، وهو أمر جد محتمل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتردد عليَّ كذلك، مثل هذا العدد - أو أكثر - من الزائرين الوافدين من (جنيف). فاختارني « ديلوك » وابنه - على التعاقب - ممرضًا أسهر عليهما. فقد مرض الأب أثناء الطريق، وكان ابنه قد مرض - هو الآخر - مذ غادر جنييف، فحلا للاثنين المقام في داري. وتوافد من

جنيف ومن سويسرا الزائرون، من قساوسة، إلى أقارب، إلى مرائين، إلى نكرات.. لا لإبداء إعجابهم بي، أو للسخرية منى - كما كان يفعل القادمون من فرنسا - وإنما ليؤنبوني، ويعظوني!.. وكان الوحيد الذي يروق لي منهم، هو « مولتو » الذي أقبل لقضاء ثلاثة أو أربعة أيام معى، والذي كنت أرجو أن استضيفه فترة أطول. على أن أكثرهم مثابرة، وأشدّهم صلابة، كان رجلًا يدعى السيِّد دانفيرنوا، استطاع أن يقهرني بمضايقاته. وكان تاجرًا من (جنيف)، من المهاجرين الفرنسيين، كما كان قريبًا للمدعى العام في نيوشاتيل. وكان هذا السيِّد دانفيرنوا الجنيفي، يمر بموتيير مرتين في العام، وكله شوق إلى أن يزورني، ويمكث في داري من الصباح إلى المساء، لعدّة أيام بعد ذلك، فيفرض صحبته علىَّ في نزهاتي، ويجلب إلىَّ ألف نوع من الهدايا الصغيرة، ويقحم نفسه على أسراري بالرغم منى، ويتدخل في جميع شئونى.. دون أن يجمع أحدنا بالآخر أى تشابه في الآراء، أو الميول، أو الأحاسيس، أو المدارك. وإني لأشك في أنه قرأ كتابًا واحدًا في حياته، من أوله إلى آخره، وفي أنه كان يعرف ما تناولته كتبي بالذات. وعندما شرعت في هواية النباتات، أخذ يرافقني في جولاتي لتفقد أنواع النبات، دون ما ميل إلى هذه الهواية، ودون أن يملك ما يقوله لي، كما أنني لم أكن أملك ما أقوله له. بل لقد أوتى الجَلَد على أن يقضى معي ثلاثة أيام كاملة، وحيدين لا ثالث لنا، في مكان عام في (جوموان)، كنت أرجو أن أتخلص منه عنده، بفضل العمل على إملاله وإشعاره بمدى ما كان يسببه لي من ملل. بيد أننى لم أقو قط على أن أثبط دأبه الذي لا يصدقه عقل، ولا على اكتشاف الباعث إليه!

وبين كل هذه العلاقات، التي لم أصلها ولم أرعها إلا غصبًا، أرى من الواجب ألَّا أغفل العلاقة الوحيدة التي كانت تروق لي، والتي أثارت اهتمامًا حقيقيًّا في فؤادي.. تلك هي صلتي بشاب مجرى، جاء ليقيم في نيوشاتيل، ثم في (موتيير) - بعد ذلك - عقب استقرارى هناك ببضعة أشهر، وقد عُرف في المنطقة باسم « البارون دى سوتيرن »، وهو الاسم الذي ورد في التوصيات التي حملها من (زيورخ). وكان شابًا طويلًا عريضًا، متناسق القوام، مليح القسمات، رقيق الطباع دمثها. ولقد أنبأ الجميع - وأوقع في روعي أنا الآخر - بأنه لم يأت إلى نيوشاتيل إلّا ليراني، وليروِّض شبابه على الفضيلة بالاتصال بى. وكانت أساريره، ومسلكه، وأخلاقه، تبدو لي مصداقة لكلماته. فكنت خليقًا بأن ألوم نفسي على تخليها عن واجب من أهم الواجبات، لو أننى أبيت أن أقابل شابًا لم أر فيه إلا كل مستحب، وكان الباعث الذي حفّزه على السعى للتعرّف إلىَّ، جديرًا بكل اعتبار، ولا يحذق قلبي الاستسلام الناقص، ومن ثم فسرعان ما استولى الشاب على صداقتي الكاملة، وثقتى الشاملة، وأصبحنا لا نفترق.. فكان يرافقني في كل نزهاتى على الأقدام، ويستمتع بها كل الاستمتاع، ولقد صحبته إلى السيِّد اللورد المارشال، الذي أبدى له ألف مجاملة!

وإذ لم يكن قد أجاد بعد الحديث بالفرنسية، فقد كان يخاطبني ويكتب إلىَّ باللاتينية، وكنت أجيبه بالفرنسية بيد أن هذا الخلط بين اللغتين، لم يقلل من تدفق محادثاتنا، ولا من حيويتها، بأي حال!.. ولقد حدّثني عن أسرته، وشئونه، ومغامراته، والبلاط الملكي في (فينا)، الذي بدا على إلمام تام بدقائق الحياة فيه. وموجز القول أنني لم أجد فيه - خلال السنتين اللتين قضيناهما في أشد الود - سوى لطف الشخصية في كل الأحوال، وسوى أخلاق لم تكن كريمة فحسب، وإنما كانت مهذبة.. وسوى نظافة تامة في شخصه، وعفة مفرطة في قوله.. كانت له - بإيجاز - كل صفات الرجل الطيب المنبت، مما جعلني - بغض النظر عن إعزازي إياه - أجلّه أسمى إجلال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي عنفوان علاقاتي به، كتب لى دانفيرنوا الجنيفي بأن أحذر شابًا مجريًّا وفد للإقامة على مقربة مني، فقد قيل له - في تأكيد - أنه جاسوس من الوزير الفرنسي، ليكون عينًا علىَّ!.. ولقد دُبرت هذه النصيحة لكي تسبّب لي مزيدًا من القلق، ففي تلك البلاد، كان كل

الناس ينصحونني بأن أكون على حذر، لأنني مراقب. وكان الهدف من ذلك استدراجي إلى الأراضي الفرنسية، ثم الانقضاض عليَّ!

ولكي أخرس كل هؤلاء الناصحين نهائيًا، اقترحت على سوتيرن أن يصحبني إلى نزهة على الأقدام، إلى (بونتارلييه) - دون أن أنبئه بشيء - فقبل. وعندما وصلنا إلى (بونتارلييه)، أعطيته خطاب دانفيرنوا ليقرأه، ثم عانقته في حرارة، وقلت: « ليس سوتيرن بحاجة إلى أن أبرهن له على ثقتى، ولكن الجمهور بحاجة إلى دليل يبين من هو جدير بها! ».. وكان هذا العناق عذبًا جدًّا.. كان من تلك المتع الروحيـة التي لا يعرف الظالمون مذاقها، والتي لا يستطيعون أن يحرموا منها المظلومين!

ولن أصدِّق قط أن « سوتيرن » كان جاسوسًا، أو أنه خاننى، بيد أنه غرر بي. فعندما فتحت له قلبي في غير تحفظ، إذا به يؤتى الجَلَد على أن يغلق قلبه، ويخدعنى بأكاذيبه. فقد ابتكر لي قصة لا أدرى مأتاها، جعلني أحـدس أن وجوده في بلاده كان أمرًا ضروريًا، فحضضته على الرحيل إليها دون إرجاء، وقد فعل، وعندما خُيل إليَّ أنه قد وصل إلى المجر، سمعت أنه كان في (ستراسبورج). ولم تكن هذه أوَّل مرة يوجد فيها هناك. فلقد أوقع الفرقة في أسرة بالمدينة، فكتب لى الزوج إذ عرف أنني اعتدت أن أقابله. ولم أدخر وسعًا في رد الزوجة إلى طريق الفضيلة، ورد « سوتيرن » إلى نطاق الواجب. وما أن ظننت أنهما قد افترقا تمامًا، حتى عادا إلى اتصالهما، وأوتى الزوج من اللين واللطف ما جعله يأوى الشاب في داره. ولم يبق لي بعد ذلك مجال لقول.

على أنني تبينت أن البارون المزعوم، قد تقرَّب إليَّ بطائفة من الأكاذيب ولم يكن اسمه « سوتيرن » - على الإطلاق - وإنما « سوتير شايم ». أما لقب « بارون » - الذي أطلق عليه في سويسرا - فلست أملك أن ألومه عليه، لأنه لم يستحله لنفسه قط!.. على أننى لا أرتاب في أنه كان سيِّدًا مهذّبًا راقيًا حقًّا، وقد اعتاد اللورد المارشال - الذي كان خبيرًا بالرجال، والذي عرف بلاده من قبل - أن ينظر إليه وأن يعامله كسيِّد!

وما أن رحل « سوتيرن »، حتى أعلنت خادم الفندق الذي اعتاد تناول الوجبات فيه - في موتيير - أنها حامل عن طريقه. وكانت عاهرة قذرة، في حين أن « سوتيرن » كان محترمًا لدى الجميع، وكان معروفًا في كل مكان بمسلكه وخلقه الكريمين، وبأنه كان جد فخور بنظافته وعفته. ومن ثم أذهلت هـذه الوقاحة جميع الناس. وهاج سخط أبدع حسان البلد، اللائي كن يؤثرنه بمفاتنهن دون جدوى. كذلك ثرت أنا استنكارًا، ورحت أبذل كل جهد في سبيل الزج بهذه الفاجرة في السجن، عارضًا أن أتكفَّل بجميع النفقات، وأن أكون ضامنًا لسوتير شايم. وكتبت إليه وأنا أشدَّ ما أكون اقتناعًا، لا بأن هذا الحمل لم يكن ذنبه فحسب، وإنما بأنه حمل مزعوم، وأن كل هذه الضجة لم تكن سوى مكيدة دبّرها أعداؤه وأعدائي. ورغبت إليه في أن يعود إلى البلد، ليخزى هذه المجرمة، وأولئك الذين كانوا يحرضونها. وكم بهت لميوعة رده. فقد كتب إليَّ راعي الأبرشية التي كانت الفاجرة تتبعها، وحاول أن يخمد المسألة. ومن ثم فقد كففت عن التدخل في الأمر، وأنا في أشدّ الدهشة من أن يستطيع رجل أنحط إلى هذا الدرك، أن يسيطر على نفسـه بالشكل الذي مكنه من أن يخدعني بتحفظه طيلة الفترة التي كنا فيها على أوثق ائتلاف!

ومن (ستراسبورج) انتقل « سوترشايم » إلى (باريس) سعيًا وراء الحظ، فلم يفز إلا بالشقاء. ولقد كتب إليَّ معترفًا بذنوبه، فهفت عواطفي لذكرى صداقتنا القديمة، وأرسلت إليه بعض المال. وعندما مرّرت بباريس، في العالم التالي، رأيته - مرة أخرى - في عين الحال تقريبًا، ولكنه كان قد أصبح صديقًا حميمًا للسيِّد لالياود. ولم يقدَّر لي إطلاقًا أن أعرف كيف تعرَّف إليه، وما إذا كان هذا التعارف حديث عهد أو قديمًا. وما لبث « سوترشايم » أن عاد إلى (ستراسبورج)، بعد عامين، وكتب إليَّ من هذا المكان.. وفيه مات!

هذه - بإيجاز - قصة علاقتي به، ومغامراته. ولكني - في الوقت الذي أنعى فيه حظ هذا التعس - سأظل أؤمن بأنه كان طيب المنبت، وأن كل ما تبدى في سلوكه من اضطراب، لم يكن سوى نتيجة المواقف التي تردى فيها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا كانت المكاسب التي فزت بها من (موتيير) في مجال العلاقات والصداقات. وما أكثر ما كنت بحاجة إليه من هذه العلاقات، لأعوّض الخسائر القاسية التي منيت بها في تلك الفترة ذاتها.. فلقد منيت أوّلًا بفقد السيِّد دي لوكسمبورج، الذي تعذَّب طويلًا على أيدي الأطباء، ثم راح - في النهاية - ضحية لهؤلاء الذين كانوا يعالجون النقرس على أنه مرض يسهل عليهم إبراؤه، دون أن يعترفوا بحقيقته!.. ولو أننا أخذنا بالرواية التي كتبها لي « لاروش » - موضع ثقة السيِّدة دى لوكسمبورج - بهذا الصدد، لوجدنا في قصته مثالًا قاسيًا وأليم الذكرى، لمدى مصائب العظمة!

ولقد كان لفقد هذا السيِّد العظيم الطيب، وقع شديد على نفسي، إذ أنه كان الصديق الوحيد الذي بقى لى في فرنسا.. ولقد كانت رقة شخصيته بالغة، حتى أنها أنستني مكانته ومرتبته، فارتبطت به وكأنني ند له. ولم تنته وشائجنا برحيلي عن البلاد، بل إنه واصل الكتابة إليَّ، كما كان شأنه من قبل. ومع ذلك، فإنني خلت أن غيابى أو نحس طالعي قد أخبى عواطفه نحوى. فمن العسير على عضو في حاشية الملك، أن يحتفظ بنفس العلاقة مع شخص كان يدرك أن السلطات غاضبة عليه. كذلك انتهى بي التفكير إلى أن التأثير الكبير الذي كان للسيِّدة دى لوكسمبورج عليه، لم يكن مواتيًا لي في شيء، وأنها قد انتهزت فرصة غيابي لكي تسيء إليَّ في نظره. بل إنها - بالرغم من مظاهر الود الحارة، التي أخذت في التضاؤل - لم تعد تجشم نفسها عناء إخفاء تحول عواطفها عنى. ولقد كتبت لي أربع مرات أو خمسًا، على فترات متباعدة - وأنا في سويسرا - ثم كفَّت عن الكتابة نهائيًا. وكان لابد لي من كل التكهنات، وكل الثقة، وكل الغباء الأعمي - الذي كنت أتخبَّط فيه مرة أخرى - حتى لا أبصر البرود الذي شاب عواطفها إزائي!

ولقد كتب لي الناشر « جاى » - شريك دوشين، الذي أصبح كثير التردد على قصر لوكسمبورج بعد رحيلي - ينبئني بأن اسمى ورد في وصية السيِّد المارشال. ولم يكن في هذا ما يدعو إلى العجب، أو ما يجل على التصوّر، ومن ثم فإنني لم أرتب فيـه. وقد حملني هـذا على أن أتدبَّر - بيني وبين نفسى - ما ينبغي أن يكون عليه موقفي من الوصية. وبعـد روية وتفكير، عزمت على قبولها، مهما تكن، وأن أعبِّر بهـذا عن تكريمي لرجل أمين، حمل لي ودًا صادقًا، بالرغم من انتمائه إلى طبقة لا تنفذ الصداقة إلى مشاعر أبنائها قط. على أنني أعفيت من هذا الواجب، إذ أنني لم أسمع إطلاقًا عن الوصية مرة أخرى، سواء كانت القصة صحيحة أو كاذبة. ولقد كان من الشاق على نفسي - في الحقيقة - أن أهدر مبدأ من مبادئي الخلقية الكبرى، إذ أفيد من موت امرىء كان جد عزيز لديَّ. ولقد حدث أثناء المرض الأخير لصديقنا « موسار »، أن عرض « لينييب » على أن نستغل امتنانه لودّنا، وعرفانه لعنايتنا به، فاقترح عليه أن يترك لنا في وصيته شيئًا. فما كان مني إلّا أن قلت له: « آه، يا عزيزي لينييب!.. ما ينبغي أن ندنس - بأفكار عن المصلحة الذاتية ـ الواجبات المحزنة، ولكنها مقدسة، التي يجب علينا أن نؤدّيها لصديقنا المحتضر! ».

وإني لآمل ألّا أذكر قط في وصية أي أمرىء، لا سيما إذا كان صديقًا. ولقد تحدَّث إلى سيِّدي المارشال - حوالي هذه الفترة - عن وصيته، وما كان يعتزم أن يفعله من أجلي، فأبديت في هذه المناسبة الرد الذي ذكرته في الجزء الأوَّل من اعترافاتى43.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت الخسارة الثانية التي حاقت بي، أكثر إيلامًا وأعز من أن تعوض.. تلك هي فقدان خير النساء والأمهات، التي كانت السنون قد أثقلت كاهلها، ثم أعياها حمل العلل والمحن، فهجرت هذه الحياة - وادي الدموع - لتنتقل إلى ملاذ الطيبين والصالحين، حيث تكون ذكرى الخير الذي أسديناه في هذه الدنيا، هو خير جزاء نكافأ به عنه. فاذهبي أيتها الروح الوادعة المحسنة، إلى جوار فينولون، وبرنيكس، وكاتينا، وكل أولئك الذين حذوا حذوهم، ففتحوا قلوبهم للخير والإحسان الحقيقيين، برغم تواضع ظروفهم!.. اذهبى فتذوقي ثمرة إحسانكِ، ومهدي لتلميذك المكان الذي يأمل أن يشغله يومًا، إلى جواركِ!.. وما أسعدكِ وسط كل مصائبك، فإن السماء - حين وضعت لها نهاية ـ قد جنبتك قسوة مرأي مصائبى!.. ذلك لأنني لم أكتب إليها إطلاقًا، عقب وصولي إلى سويسرا، خشية أن أدخل الأسى على فؤادها بذكر مصائبي الأولى. بيد أنني كتبت إلى السيِّد دى كونزييه، أنشد أنباءها. ومنه علمت أنها قد كفَّت عن أن تواسي آلام الغير، وأن آلامها هي قد انقضت!.. ولسوف أكف أنا الآخر عن التألم، عما قريب. ولو لم أكن أؤمن بأنني سأراها ثانية، في العالم الآخر، لأبي خيالي الواهن على نفسه أن تفكّر في الهناء الكامل الذي أتطلع إليه هناك!

أما المصاب الثالث والأخير - إذ لم يعد لي بعده أصدقاء أمنى فيهم - فهو فقدان سيدي اللورد المارشال. وما فقدته بالموت، ولكنه حين سئم خدمة سادة جاحدين، هجر نيوشاتيل، فلم يقدَّر لي أن أراه بعد ذلك. وهو ما يزال على قيد الحياة، وآمل أن يعيش بعدي.. إنه ما يزال على قيد الحياة، ومن ثم فإن الروابط التي تربطني بالأرض، لم تتقطع عن آخرها، بفضله.. فما يزال باقيًا على الأرض رجل جدير بصداقتى.. الصداقة التي تتمثَّل قيمتها الحقيقية في الود الذي يحس به المرء، أكثر منها في الود الذي يوحيه للغير. غير أننى فقدت البهجة التي كانت صداقتى تملأ بها نفسي، ولم أعد اليوم أملك أكثر من أن أعدّه بين أولئك الذين ما أزال على حبهم، وإن كانوا لم يعودوا على اتصال بي. فلقد ذهب إلى إنجلترا ليتلقى العفو من الملك، وليسترد ثروته التي كانت قد صودرت. ولم نفترق دون أن ندبِّر للقاء جديد، بدا أن توقعه كان يوحى إليه بقدر ما كان يوحى إليَّ من سرور.

وكان قد اعتزم الإقامة في قصر (كييث هول) - على مقربة من (أبردين) - فتم الاتفاق على أن أزوره هناك. ولكن هذا الاحتمال كان أكثر بهجة من أن أطمع في تحققه يومًا. ولم يطل مكث السيِّد المارشال في سكتلندا، فإن الإلحاح الرقيق الذي لاحقه به ملك بروسيا، لم يلبث أن ردّه إلى برلين. وسيتبدى - فيما يلي - كيف حيل بيني وبين أن انضم إليه.

فعندما رأى - قبيل رحيله - أن العاصفة كانت توشك أن تهب عليَّ مرة أخرى، أرسل إليَّ - من تلقاء نفسه - وثائق إثبات تجنسى بالجنسية البروسية. وقد بدأ هذا احتياطًا جد مأمون، حتى يصبح من المستحيل طردي من البلاد. ولقد حذا اتحاد مدينة (كوفيه) ـ في فال دى ترافير - حذو الحاكم، وكفل لي حقوق المواطن، دون ما مقابل، كما حدث إزاء الوثائق الأولى. وإذ أصبحت مواطنًا كاملً - من جميع الاعتبارات ـ غدوت في حمى من أى إقصاء قانوني عن البلاد، ولو صدر هذا الإقصاء عن العاهل ذاته. ولكن أعدائي لم يتبعوا يومًا الوسائل المشروعة في اضطهاد رجل كان دائمًا يفوق سواه احترامًا للقوانين!

ولست أرى من الواجب أن أحصى بين الخسائر التي منيت بها - في تلك الفترة بالذات - وفاة الراهب « دى مابلى ». فإن إقامتي في دار أخيه، مكنتني من أن أكون على تعارف بسيط معه، ولكنه لم يرق قط إلى مرتبة الألفة والصداقة. ولديَّ من الأسباب ما يحملني على أن أعتقد أن مشاعره نحوى قد تبدلت مذ ظفرت بصيتٍ ذائع، يفوق صيته. على أنني لم أفطن إلى أولى بوادر سوء نيته، إلا بعد نشر « رسائل من الجبل ». فلقد روّج في جنيف خطابًا إلى السيِّدة « سالادان »، عزى إليه أنه كاتبه، وقد وصف فيه مؤلّفى بأنه ضجيج مضلل، صادر عن تعصب شعبي جامح. ولم يمكنني الاحترام الذي كنت أكنه للراهب « دى مابلي »، وما كان لديَّ من رأى في تنوّره وسعة ذهنه، من أن أصدّق لحظة أنه كاتب

ذلك الخطاب المتحامل.

ورأيت أن أتصرَّف وفق ما أملته علىَّ صراحتي، فأرسلت إليه نسخة من الخطاب، وأنبأته بأنه كان معزوًّا إليه. ولكنه لم يجب. وقد أذهلني هـذا الصمت منه، ولكن في الوسع تصوّر دهشتي عندما أنبأتني السيِّدة دى شينونسو بأنه هو الذي كتب الخطاب حقًّا، وأن رسالتي قد أحرجته أشدّ الإحراج.. ذلك لأنه إذا كان على صواب، فكيف كان يستطيع أن يبرِّر خطوة رنَّانة، علنية، صدرت عن طيب خاطر وطواعية، دون ما غصب أو إلزام، ودون ما ضرورة، ودون أن يكون لها أية غاية، سوى الإساءة إلى رجل في أشدّ محنة.. رجل لم يبد له قط سوى كل نية حسنة، ولم يقصر يومًا في تقديره؟

ولقد ظهرت - بعد ذلك بقليل - « محاورات فوسيون »[44]، التي لم أر فيها سوى مجموعة منتخبات من كتاباتي، أُعدت في جرأة، ودون استحياء. وشعرت وأنا أقرأ هذا الكتاب، بأن المؤلّف كان قد بت في أمرى، وأننى لم يعد لي مَن ألدّ منه عداء، منذ ذلك الحين. وأعتقد أنه ما كان ليملك أن يغفر لي يومًا أن كتبت « العقد الاجتماعي » - الذي كان فوق طاقة مواهبه - ولا « السلام الدائم ».. وأنه لم يكن يرجو - على ما بدا لي - سوى أن أعد مختارات من مؤلفات الراهب « سان بيير »، لأنه ظن أننى لن أوفق فيها[45].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلما أوغلت في قصتي، قلَّت قدرتي على تنسيقها وترتيب سياقها، فإن الاضطراب الذي ساد بقية حياتي، لم يدع للأحداث وقتًا لتنظم ذاتها في رأسي. إذ أنها كانت من الكثرة، ومن الامتزاج، ومن الازعاج بحيث لا يتسنى روايتها دون خلط أو اضطراب. ولقد كان الطابع القوى الوحيـد الذي خلفته هذه الأحداث في ذهني، هو ذلك الغموض الرهيب الذي أحاط بسببها، والحال الداعيـة للرثاء، التي هوت بي إليها!.. ولا سبيل إلى استطراد القصة إلا وفقًا للمصادفة ولتوارد الأفكار على ذاكرتى. وأذكر أنني - في الفترة التي أتحدث عنها، وأثناء استغراقي في « الاعترافات » - كنت من الحكمة بحيث أتحدَّث عنها إلى كل امرىء، دون أن أتصـوَّر مرة واحدة أن لأحدٍ ما مصلحة، أو رغبة، أو قدرة على أن يلقي العراقيل في طريق هذا المشروع.. وحتى لو أن هـذا خطر لي لما كان بوسعي أن أبدى مزيدًا من التكتم، إذ أن طبيعتي تجعل من المستحيل تمامًا علىَّ أن أخفى شيئًا من أفكاري ومشاعري. ولقد كان تكشف أمر هذا المشروع - بقدر ما بوسعي أن أحكم ـ هو السبب الحقيقي للعاصفة التي أثيرت لإقصائي عن سويسرا، وللإلقاء بي بين الأيدي التي كانت خليقة بأن تمنعنى من تنفيذه!

وكان لدىَّ مشروع آخر، لم يكن يحظى من أولئك الذين كانوا يخشون المشروع الأوَّل، بمزيد من الرضى.. وذلك هو إصدار طبعة عامة من مؤلفاتي. فقد تراءى لي أن مثل هذه الطبعة ضرورية لتعزيز ما كان يمت إلىَّ حقًّا من تلك الكتب التي كانت تحمل اسمى، ولجعل الجمهور في وضع يمكنهم من أن يميزوها ويفرقوا بينها وبين المؤلفـات التي كانت تحمل أسماء مستعارة، وكان أعدائي يعزونها إلىَّ، لكي يشوهوا سمعتي ويحطوا من قدرى. وفضلًا عن ذلك، فإن هذه الطبعة كانت كفيلة بأن تصبح وسيلة سهلة وشريفة لتأمين مـورد للعيش. بل إنها - في الواقع - كانت الطريقة الوحيدة، إذ أنني كنت قد هجرت تأليف الكتب، وما كان في الوسع نشر مذكراتي أثناء حياتي، ولم أكن أكسب « سو » واحـدًا بأية طريقة أخرى، في حين أنني كنت أنفق باستمرار.. ومن ثم فقد أيقنت من انتهاء مواردى بمجرَّد استنفاد إيراد مؤلفاتي الأخيرة. ولقد حملني هذا السبب على أن أتعجّل ظهور كتابى: « الموسوعة الموسيقية »، وإن لم يكن قد اكتمل. وقـد درَّ علىَّ مائة « لوى » نقدًا، ومائة « ايكو » سنويًّا ما حييت. ومع ذلك، فقد ظلَّ من الواجب توقع نفاد المائة « لوى » سريعًا، لا سيما وقد كانت النفقات تزيد على الستين سنويًّا.. كما أن المائة « ايكو » كانت بمثابة لا

شيء، لرجل كان النكرات والمتسولون يحومون حوله - دون انقطاع ـ كالعصافير!

وعرضت شركة من تجار نيوشاتيل، أن تتعهد مشروع مجموعة المؤلفات. واستطاع صاحب مطبعة - أو تاجر كتب - من (ليون)، يُدعى « ريجيا » أن يندس بينهم، بطريقة لا أدريها، ليتولى توجيههم. وعقدت اتفاقية، وفقًا لشروط معقولة ومرضية، لتحقيق بغيتي خير تحقيق. وكانت مؤلفاتي المطبوعة، وتلك التي ظلَّت بخط اليد، تكفى لأن تملأ ستة مجلدات من حجم « ربع القطع » أو « الكوارتو ». وقد تعهدت - فوق ذلك - بأن أشرف على الطبعة، في مقابل أن يؤدّوا لى، معاشًا لمدى حياتي - قدره ألف وستمائة ليرة فرنسية - ومبلغًا يُدفع نقدًا، لمرة واحدة، قدره ألف « إيكو ».

سنة 1765

كانت الاتفاقية قد عُقدت، ولكنها لم تكن قد وُقعت، عندما ظهر كتاب « رسائل كُتبت من الجبل »، فإذا السخط الفظيع ـ الذي انصب على هذا الكتاب الجهنمي وعلى مؤلّفه المقيت - يفزع الشركة، ومن ثم انفض المشروع. وبوسعي أن أشبّه أثر هذا المؤلف الأخير، بأثر « رسالة عن الموسيقى الفرنسية »، لولا أن هذه الرسالة وإن جلبت عليَّ السخط وعرَّضتني للخطر، إلا أنها تركت لي الاعتبار والاحترام، على الأقل. أما بعد هذا المؤلَّف الأخير، فقد تبدت الدهشة في (جنيف) وفي (فرساى)، من ترك وحش مثلى، يتنفس ويعيش. وإذا المجلس الصغير - بتحريض من الوزير الفرنسي المقيم، وبتوجيه من المدعي العام - يصدر بيانًا عن الكتاب، أعلن فيه، بعد وصفه بأقذع النعوت، أنه غير جدير بأن يُحرق بيديّ منفذ الأحكام.. وأضاف إلى هذا - في دهاء، يكاد يثير الضحك - أن لا سبيل لامرىء إلى الرد على هذا الكتاب، بل إلى مجرَّد ذكره، دون أن يشين نفسه!

ولكم أتمنى لو استطعت أن أنقل هنا هذا البيان العجيب، ولكني - لسوء الحظ - لا أملك نسخة، ولا أذكر كلمة واحدة منه. وشد ما أرجو أن يتفضل أحد من قرَّائى - بدافع من الغيرة على الحقيقة والعدالة - على إعادة قراءة « رسائل من الجبل » بأكمله. وأستطيع أن أقول إنه سيلمس الاعتـدال الشديد الذي ساد هذا الكتاب، بعد الإهانات العنيفة القاسية، التي تبارى الناس في صبّها على المؤلف. ولكن أعدائي - إذ عجزوا عن الرد على السباب، لأن الكتاب لم يحو شيئًا منه.. ولا على الحجج - لأنها كانت مفحمة - عمدوا إلى التظاهر بأنهم أكثر ترفعًا من أن يجيبوا.. ومن الصحيح حقًّا، أنهم إذا حملوا الحجج المفحمة على أنها إهانات، لحقّ عليهم أن يشعروا بأنهم أوذوا أشدّ الإيذاء!

أما فريق المتذمرين، فإنهم بدلًا من أن يثيروا أية شكوى من هذا البيان البشع، سلكوا الطريق التي رسمها لهم.. وبدلًا من أن يمجدوا « رسائل من الجبل » كغنيمة ظفروا بها، إذا بهم يستترون خلفها كدرع.. فكانوا من الجُبن بحيث أنهم لم يؤدّوا أي تكريم ولا إنصاف إلى هذا المؤلَّف الذي وضع للدفاع عنهم وعن مطالبهم.. بل إنهم لم يذكروه، ولا نقلوا عنه، وإن كانوا قد اقتبسوا عنه - في الخفاء - كل حججهم.. وكانت الدقة التي اتبعوا بها النصيحة التي اختتم بها هذا المؤلّف، هي السبب الوحيد في خلاصهم وانتصارهم!.. لقد فرضوا عليَّ هذا الواجب، وقد أديته.. ولقد خدمت الوطن وقضيتهم إلى النهاية. ولقد توسلت إليهم أن يتخلّوا عن قضيتي ولا يفكّروا إلا في أنفسهم، في مشاحناتهم. وقد أخذوني بكلمتي، فلم أتدخل في شئونهم بأكثر من أن رحت أستحثهم على السلام، دون انقطاع. وما من ريب لديَّ في أنهم لو كانوا قد مضوا في عنادهم لأنفسهم، لسحقتهم فرنسا. وهذا ما لم يحدث.. وإني لأدرك السبب، ولكن هذا ليس مجال الإفضاء به!

ولقد كان الأثر الذي أحدثه كتاب « رسائل من الجبل » في نيوشاتيل، يقسم بالهدوء في البداية. ولقد أرسلت نسخة منه إلى السيِّد دى مونمولان، فسرَّه أن حصل عليها، وقرأها

دون أن يجد فيها مأخذًا. وكان مريضًا - مثلى - فلما استرد صحته، قام بزيارة ودية لي، ولم يقل شيئًا عن الكتاب. ومع ذلك، فإن الهياج كان قد دبّ، وأُحرق الكتاب حيث لا أدرى[46]. ومن (جنيف)، ومن (بيرن)، وربما من (فرساى)، لم يلبث مركز الفوران أن انتقل إلى (نيوشاتيل)، وإلى (فال دى ترافير) - بوجهٍ خاص ـ حيث بُدىء، حتى قبل أن تبدر عن طبقة رجال الدين أوَّل بادرة، في تحريض الجمهور بالأساليب المستخفية. ومن حقي أن أقول إننى كنت خليقًا بأن أكون محبوبًا من أهل هذه البلاد، كما كنت من جميع أولئك الذين عشت بينهم. وكنت أغدق الصدقات بسخاء، ولا أدع محتاجًا ممن يحيطون بي دون معونة، ولا أرفض أن أؤدى أية خدمة في نطاق مقدرتي، ما دامت تتمشى مع العدالة.. بل لعلني كنت أسرف في التآلف مع كل الناس، أكثر مما ينبغي.. كما أنني اعتدت - بقدر ما وسعني - أن أرفض كل تمييز في المعاملة، قد يثير الغيرة!.. ومع ذلك، فإن كل هذا لم يحل دون استنهاض السكان سرًّا، دون أن أدرى محرضهم، ومن أن يوغروا تدريجًا ضدى، حتى بلغوا درجة الهياج، فراحوا يسبونني علنًا في رائعة النهار، لا في الريف، أو في الطرق الخلوية فحسب، بل وفي الشوارع الرئيسية..



حو يسبوننى علنا فى رائعة النهار ، لا فى الريف، او فى الطرق الخلوية
فحسب ، بل وفى الشوارع الرئيسية . .

وكان أشدّهم تحرشًا بی، هم أولئك الذين أسديت إليهم أكبر قسط من الخير.. بل أن من الناس - الذين واصلت إسداء المعروف إليهم - مَن لم يجرؤوا على التحرش علنًا، فراحوا يثيرون الباقين، وكأنما كانوا بهذه الطريقة يثأرون لأنفسهم من هوان أن يكونوا مدينين بالفضل لي!

ولم يبد على مونمولان أنه رأى شيئًا مما كان يجرى، لا ولم يعد يزورني. على أنه لم يلبث أن زارني - إذ اقتربت إحدى مناسبات الاحتفال بالقربان - لينصحني بأن أتفادى حضورها، مؤكِّدًا لي أنه لن يعارضني في غير ذلك، وأنه سيدعني في سكينتي. وألفيت هذه المجاملة منه غريبة في نوعها. وذكرني بخطاب السيِّدة دي بوفلير، فلم أستطع أن أفقه أن من الممكن أن يكون لأي أحد شأن بما إذا كنت أتناول القربان أو لا أتناوله. وإذ وجدت أن قبول اقتراحه يعد جبنًا من ناحيتي، فضلًا عن أنني لم أكن راغبًا في أن أتيح للناس هذه الحجة الجديدة کی يصيحوا في وجهي: « ها هو ذا الكافر! »، فإنني رفضت رجاء القس رفضًا باتًا، وإذا به يستاء ويوحي إلىَّ بأنني لن ألبث أن أندم. على أنه لم يكن يملك أن يمنعنی من التناول بأمر منه وحده، بل كان لا بد من قرار من المجمع الديني الذي سمح له بالانضواء تحت لواء الكنيسة. وما دام المجمع لم يقل شيئًا، فقد كان من حقی أن أتقدَّم في جرأة، دون أن أخشى رفضًا. ومن ثم فقد عمد « مونمولان » إلى الحصول من القساوسة على تخويل بدعوتي للمثول أمام المجمع، لأقدِّم حسابًا عن إيماني، على أن أجازي بالحرمان، إذا أنا أبيت أن ألبي الدعوة.

على أن الحرمان بدوره لم يكن ميسورًا ما لم يصدر عن المجمع وبإجماع الآراء. ولكن الفلاحين الذين ألفوا هذه الهيئة - تحت اسم الشيوخ الحكماء - كانوا تحت رئاسة القس، وبالتالي تحت نفوذه، كما هو مفهوم. فلم يكن لهم - بطبيعة الأمر - رأى سوى رأيه، لا سيما في المسائل اللاهوتية، التي كانوا أقل إدراكًا لها منه. ومن ثم فقد قرَّرت أن ألبي الدعوة، عندما أعلنت بها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أي ظرف سعيد، وأی نصر لی، لو أنني عرفت كيف أتكلم - في هذه المناسبة - عن نفسي، وأن أضع قلمي في فمي، كما ينبغي أن يُقال!.. بأي تفوق جائح، وبأي يسر كان في وسعی أن أهزم القس البائس، وسط فلاحيه الستة، أعضاء المجمع!.. كان الطمع في السلطان قد أنسى رجال الدين البروتستانت مبادىء الإصلاح الديني، وكان كل ما يعوزني لتذكيره بهذا، ولإفحامه، هو أن أشرح الرسائل الجبلية الأولى، التي كانوا من الغباء بحيث راحوا يعيبونها علىَّ. وهكذا كان موضوعي معدًّا، ولم يكن ينقصني سوى المثول أمام المجمع، فإذا غريمي يُفحم!.. وما كنت من الغباء بحيث أقتصر على الدفاع، بل كان الجو ممهدًا لأن أنقلب مهاجمًا، دون أن يفطن هو، ودون أن يقوى على صد الهجوم. ذلك لأن الحمقى التافهين من رجال الدين، كانوا عاطلي العقول بقدر ما كانوا جهلة، وقد وضعوا أنفسهم - بالنظام الذي ابتدعـوه - في أنسب وضع كنت أشتهيه، لكي أدهمهم كما يحلو لي!

ولكن مهلًا!.. كان لا بد لي من أن أتكلَّم، ومن أن أتكلم في الموضوع، ومن أن أعثر على الأفكار، وأن أقلبها على كل جانب، وأن أجد الكلمات في لحظة الحاجة إليها، وأن أحتفظ دائمًا بحضور بديهتی، وأن أكون هادىء الأعصاب باستمرار، فلا أضطرب لحظة واحدة.. فما الذي كنت أملك أن أرجوه من نفسي، وأنا الذي كنت ألمس تمامًا عجزي عن أن أعبِّر عن نفسي للفور؟.. لقد اضطررت إلى أن ألزم أزرى حالات الصمت، في (جنيف)، أمام لجنة كانت محابية لی كل المحاباة.. وكانت قد عقدت العزم مقدَّمًا على أن تحبّذ كل ما أقول47. أما هنا، فقد كان الأمر على النقيض.. كان علىَّ أن أنازل شخصًا مشاكسًا، وضع الدهاء في موضع المعرفة، وفي وسعه أن ينصب لي مائة شرك، قبل أن ألمح واحدًا منها، وقد عقد

عزمه على أن يظهرني مخطئًا، مهما يكبده هذا من ثمن!.. وكنت كلما فحصت موقفى هذا، ازددت شعورًا بخطره. فلما اقتنعت بأن من المستحيل أن أنتزع نفسي من هذا الموقف بنجاح، فكرت في حيلة أخرى. ورحت أفكر في خطاب اعتزمت أن ألقيه أمام المجمع، لكي أطعن في اختصاصه، فأحل نفسى من ضرورة الإجابة. وكان الأمر غاية في السهولة، فكتبت الخطاب، وشرعت أستذكره عن ظهر قلب في تحمس لا مثيل له، وإذ سمعتنى « تيريز » وأنا أتمتم لنفسي - بلا انقطاع - مكرّرًا نفس العبارات، محاولاً أن أحشرها في رأسي، راحت تضحك مني. وكنت آمل أن أستوعب الخطاب في النهاية.

فقد كنت أعرف أن حاكم المقاطعة - كمندوب من العاهل - سيحضر جلسة المجمع، وأن معظم الشيوخ كانوا - بالرغم من مناورات مونمولان وزجاجات الخمر التي وزعها - طيبى الشعور نحوى. وكان يناصرني المنطق، والحق، والعدالة، وحماية الملك، وسلطان مجلس الدولة، ودعوات كل المواطنين الصالحين الذين تأثروا بتقرير هذا التحقيق.. كان كل شيء يساهم في تشجيعي، في الواقع!

وما أن حان اليوم السابق على الموعد المحدد، حتى كنت قد حفظت خطابي عن ظهر قلب، ورحت أردده دون ما خطأ. ورحت أسترجعه ثانية، في ذهني، طيلة الليل. ولكنني في الصباح.. نسيته! ورحت أتردد عند كل كلمة.. وتمثلت نفسي أمام المجلس الموقر، فإذا بي أرتبك، وأتلعثم. وإذا بفكري يتشتت!.. وأخيرًا، خذلتني شجاعتي تمامًا، في لحظة الانطلاق، فبقيت في البيت، وعزمت على أن أكتب إلى المجمع ساردًا - في عجلة - أسبابي، ناسبًا عدم ذهابي إلى توعك صحتي التي كانت - في حالتي تلك - تجعل من المستحيل علىّ حقًّا، أن أمكث طيلة الجلسة!

وأحرج خطابي الوزير، فأرجأ القضية إلى جلسة أخرى. وفي تلك الأثناء، راح يبذل - هو وأذنابه - ألف حيلة وجهد، لإغراء أولئك الذين لم يتبعوا سوى إيعازات ضمائرهم دون إيعازاته، من الشيوخ الذين لم يروا ما كان يراه هو ورجال الدين. وبالرغم مما كان للحجج - المستمدة من قبو الخمور في داره - من تأثير على أناس من هذا القبيل، إلَّا أنه لم يستطع أن يكسب أحدًا سوى الاثنين أو الثلاثة الذين كانوا أوفياء له من قبل، والذين عرفوا باسم « شياطينه اللعينـة »!.. واستطاع مندوب الملك والكولونيل « دى بورى » - الذي أبدى كثيرًا من الهمة في هذه المسألة - أن يحملا بقيّة الأعضاء على أن يلزموا نطـاق الواجب. فلما أراد « مونمولان » أن يدفع قرار حرماني من الكنيسة قدمًا، رفض اقتراحـه رفضًا باتًّا بأغلبية الأصوات. ولم يبق أمامه سوى إثارة الناس - كحيلة أخيرة - فشرع يعمل جهارًا، بمساعدة زملائه وغيرهم، واستطاع أن يوفق إلى درجة أنني اضطررت في النهاية - بالرغم من التعليمات العديدة الشديدة اللهجة من الملك، وبالرغم من جميع أوامر مجلس الدولة - إلى مغادرة البلاد، حتى لا أعرض مندوب الملك إلى الاغتيال بسبب جهوده للدفـاع عنى.

ولست أحتفظ لهذه القضية كلها، بغير ذكرى مهوشة إلى درجة يستحيل علىّ معها أن أبث أي ترتيب أو روابط بين الأفكار التي تعاودني عنها. ولست أملك سوى أن أعرضها متفرقة، متباعدة، كما تتوارد على ذهني. وإني لأذكر أن شيئًا من المفاوضات دار مع رجال الدين، وكان مونمولان وسيطًا في ذلك. ذلك لأنه كان قد تظاهر بالخشية من أن تؤدى كتاباتي إلى قلقلة هدوء البلاد، الأمر الذي كان يعتبر نفسه مسئولاً عنه إذا ظلّ يبيح لى حرية الكتابة!.. ومن ثم فقد عمد إلى الإيعاز إلىّ بأن من الممكن التجاوز عن الماضي، إذا أنا ألقيت القلم من يدى. وكنت قد انتهيت إلى هذا - فيما بيني وبين نفسي - من قبل، فلم أتردد على أن انتهى إليه مع فريق رجال الدين، ولكن بشرط، وفيما يتعلق بالمسائل الدينية فحسب. وتعمّد مونمولان أن يعد صيغتين من الاتفاق، بسبب تعديلات أدخلها على الصيغة الأولى. وحدث أن قوبل الشرط بالرفض من حزب رجال الدين، فطلبت رد الاتفاق المكتوب، وإذا مونمولان يرد إلىّ إحدى النسختين ويحتفظ بالأخرى، زاعمًا أنه أتلفها!.

وعمد الجمهور - بعد ذلك، وبتحريض رجال الدين - إلى السخرية من تعليمات الملك، ومن أوامر مجلس الدولة، ولم يعودوا يقفون عند حد، في جموحهم. وكانت الهجمات تُشن عليَّ خلال المواعظ، من فوق المنابر، فلقبت بى « عدو المسيح »، وطوردت في الريف كما لو كنت ذئبًا مسعورًا. وكانت ثيابي الأرمينية سمة كافية كي يعرفني الناس بها. فأحسست أقسى الإحساس بعدم ملاءمتها، ولكن نبذها - في مثل هذه الظروف - كان، في رأيي، بمثابة الجبن. فلم أستطع أن أحل هذه المشكلة، وظللت أتمشى في كل مكان بهدوء، وأنا في القفطان، وقد ارتديت القلنسوة الفرو، تتبعني سخريات الغوغاء وصياحهم.. وقطع الحصى التي كانوا يقذفونني بها أحيانًا!.. وكم من مرة سمعت - وأنا أمر بالمنازل - أصوات ساكنيها وهم يصيحون: « ناولونى بندقيتي، حتى أرديه في مكانه! ». ولم أكن أسرع الخطي، فكان هذا يضاعف من حنقهم، ولكنهم اقتصروا دائمًا على التهديد والوعيد.. فيما يتعلق بالأسلحة النارية، على الأقل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أنني - خلال هذا الهياج كله - لم أعدم مناسبتين كانتا مبعث سرور عظيم استمرأته كل الاستمراء. وكانت أولاهما التي استطعت أن أعرب عن عرفاني بالصنيع، بفضل سيِّدي اللورد المارشال. ذلك أن جميع ذوى المكانة من أهالي نيوشاتيل، استنكروا المعاملة التي كنت ألقاها، والمكائد التي كنت ضحية لها، مما أوغر صدورهم كثيرًا على فريق رجال الدين، إذ فطنوا إلى أنه كان منصاعًا لنفوذ أجنبي، وأنه لم يكن سوى أداة للغير، ممن كانوا يتوارون في المؤخرة وهم يستحثونه على التصرّف. ومن ثم فقد بدأوا يخشون ألَّا تؤدّى حالي إلَّا إلى إنشاء محكمة للتفتيش حقًّا48!.. وبذل رجال الحكومة - لا سيما السيِّد مورون، الذي خلف السيِّد دانفيرنوا في منصب المدعي العام - كل ما في وسعهم لحمايتي. ومع أن الكولونيل بوري لم يكن سوى فرد عادي، إلَّا أنه فاقهم جهدًا. وكان أكثر منهم توفيقًا. فهو الذي ابتكر الوسيلة لخذلان مونمولان في المجمع، بإلزام الشيوخ حدود الواجب. وإذ كان واسع السمعة، فقد استخدم مكانته في القضاء على الفتنة. ولكنه لم يكن يملك سوى سلطان القانون، والعدالة، والمنطق، في مواجهة نفوذ المال والنبيذ!.. وهكذا لم يكن الفريقان متعادلين، فأحرز مونمولان نصرًا عليه، في هذه الناحية. ومع ذلك فإنني كنت مقدِّرًا جهوده وتحمسه من أجلى، وكنت توَّاقًا إلى أن أقدِّم له جميلًا، في مقابل جميله، ما استطعت.. وأن أرد له الفضل بطريقة ما. وكنت أعرف أنه كان يصبو إلى أن يصبح مستشارًا في مجلس الدولة، ولكنه إذ أساء إلى البلاط الملكي - في قضية القس بيتيبيير - باء بعدم رضى العاهل والحاكم. فجرؤت على أن أكتب في صالحه - بالرغم من ذلك - إلى السيِّد المارشال.. بل وتجاسرت على أن أذكر المنصب الذي كان يشتهيه، وكنت موفّقًا كل التوفيق - بالرغم مما توقعه كل الناس ـ حتى أن المنصب خُلع عليه فورًا بأمر الملك.

وهكذا ظلَّ القدر - الذي اعتاد دائمًا أن يرفعني عاليًا، وأن يخفضني إلى الحضيض، في آنٍ واحد - يتقاذفني بين هذين النقيضين. وفي الوقت الذي كان الناس يلطخونني فيه بالوحل، استطعت أن أعين مستشارًا للدولة!

وكانت ثانية المناسبات التي حظيت فيها بأعظم سرور، هي زيارة تلقيتها من السيِّدة دي فيرديلان وابنتها، التي كانت تصطحبها إلى حمامات بوربون، التي أقبلتا منها، فقضيتا يومين أو ثلاثة معى. ولقد استطاعت بمجاملاتها المستمرة، وما تجشمته من أجلي، أن تتغلب على نفوري الطويل منها، فإذا قلبي - وقد غزته مجاملاتها - يبادلها كل الود الذي ظلَّت طويلًا توليني إياه. ولقد تأثرت بهذه الزيارة، لا سيما في الظروف التي كنت أعانيها، وعندما كنت في أشدّ الحاجة إلى مواساة الصداقة، كي أحتفظ بشجاعتي. ولقد خشيت أن تتأثَّر أبلغ التأثر بالإهانات التي كنت أعانيها من الأهالي، وكم وددت أن أجنبها المنظر، حتى لا يملأ فؤادها أسى. ولكن هذا لم يكن في طوقي، ومع أن وجودها كبح قليلًا البذاءات -

أثناء نزهاتنا - إلا أنها رأت ما يكفي لأن تحدس ما كان يجري في الأوقات الأخرى.

والواقع أنني بدأت أتعرَّض لأوَّل مرة لحملات ليلية، في عقر داري، أثناء وجودها. ففي صباح أحد الأيام، وجدت وصيفتها نافذتي محجوبة بأحجار قُذفت عليها في المساء. وكان ثمة مقعد عريض، ثقيل، مثبّت تثبيتًا قويًّا في الطريق، إلى جوار بابى. فإذا به قد نُزع من مكانه، ونُقل، وأقيم على أحد أطرافه مستندًا إلى الباب، بحيث كان من المقصود - لولا أن اكتشف - أن يهوى على رأس أوَّل شخص يفتح الباب ليخرج. ولقد ألمَّت السيِّدة دى فيرديلان إلمامًا تامًا بكل ما كان يجرى. فإلي جانب ما كان بوسعها أن تراه بنفسها، أخذ خادمها الخاص يتعرَّف أهل القرية، ويستدرجهم إلى الحديث. بل إنه رؤى وهو يجاذب مونمولان الحديث. ومع ذلك، فإنها لم تبد أنها انتبهت إلى شيء مما كان يجرى لي، ولم تحدثني عن مونمولان، ولا عن أي شخص، ولم تجب بغير كلمات موجزة على ما كنت - أحيانًا - أرويه لها عن نفسى، على أنها لاحت مقتنعة بأن إقامتي في إنجلترا، أكثر ملاءمة لي من أية إقامة أخرى. وأسهبت في الحديث إلى عن السيِّد « هيوم » - الذي كان، إذ ذاك، في باريس - وعن ودّه لي، ورغبته في أن يكون ذا نفع لي في بلاده. وقد آن لي أن أذكر شيئًا عن السيِّد هيوم.

كان هذا السيِّد قد اكتسب في فرنسا صيتًا ذائعًا، لا سيما بين جماعة دائرة المعارف، بفضل الرسائل التي ألفها في الشئون التجارية والسياسية، ثم - أخيرًا - بفضل كتابه في: « تاريخ آل ستيورات »، وهو الوحيد من مؤلفاته، الذي اطلعت على قسط منه، مترجمًا بقلم الراهب بريفو. ومع أنني لم أكن قد قرأت مؤلفاته الأخرى، إلا أنني اقتنعت - على ضوء ما قيل لي عنه - بأن السيِّد « هيوم » كان يجمع بين نزعة جمهورية قوية، تميل - بفضل الأهواء الإنجليزية - إلى تحبيذ الترف. وعلى ضوء هذا الرأي، اعتبرت كل المعاذير التي ساقها - لتبرير تصرفات تشارلس الأوَّل - أعجوبة في الرأى المحايد، ومن ثم فإنني أكبرت فيه صدقه ونزاهته، أكثر مما أكبرت عبقريته. وكثيرًا ما ضاعفت الرغبة في التعرّف إلى هذا الرجل النادر واكتساب ودّه، من المغريات التي أثارها في نفسي إلحاح السيِّدة دى بوفلير - صديقته الحميمة - والتي كانت تدفعني إلى الانتقال إلى إنجلترا.

ولقد تلقيت منه - عن طريقها - عند وصولي إلى سويسرا، خطابًا مطيبًا للخاطر إلى أقصى حد. وبعد أن قدَّم أعظم آيات الإطراء لعبقريتي - في هذا الخطاب - وجّه دعوة ملحاحة كي أنتقل إلى إنجلترا، وتطوّع بكل ما له من مكانة، وبكل أصدقائه، لجعل إقامتي هناك مستحبة ومريحة. وقد سعيت لفوري إلى استشارة السيِّد المارشال - الذي كان مواطنًا وصديقًا للسيِّد هيوم - فأكَّد لي حسن ظني بهذا السيِّد. وروى لي نادرة أدبية عنه، أدهشتني بقدر ما أدهشته. تلك هي أن « ولاس » - الذي وضع كتابًا يعارض فيه آراء « هيوم ». بشأن سكان العالم القديم - كان متغيبًا عندما طُبع كتابه، فتطوَّع « هيوم » بمراجعة « البروفات »، وبالإشراف على إصدار الكتاب. وكان هذا المسلك مما يصادف هوى من نفسى، إذ أنني كنت - بنفس الروح - قد توليت بيع نسخ من أغنية كانت قد نُظمت ضدي، في مقابل ستة « سو » للنسخة!.. ومن ثم فقد كنت محقًا في أن أكوِّن لنفسي كل فكرة طيبة عن « هيوم »، قبل أن تأتي السيِّدة دى فيرديلان، وتحدّثني في حرارة عن الود الذي قال أنه يكنّه نحوي، وعن تشوّقه إلى أن يؤدّي لي كل تكريم في إنجلترا.. فهذا عين ما ذكرته لي!

ولقد ألحت كثيرًا لحملي على الإفادة من هذه الشهامة، وعلى الكتابة إلى « هيوم ». ولما لم أكن بطبعي ميَّالًا إلى إنجلترا، ولم أكن راغبًا في اتخاذ هذا القرار - اللهم إلّا عند الضرورة القصوى - فقد رفضت أن أكتب، أو أن أعد بالكتابة، بيد أنني تركت لها حرية اتخاذ التصرف الذي تراه صالحًا، لاستبقاء ميل « هيوم » نحوى. وعندما غادرت (موتيير)، خلفتني وأنا مقتنع تمامًا - من كل ما قالته لي عن هذا الرجل الجليل - بأنه كان في عداد

أصدقائي، وبأنها كانت من أقرب أصدقائه إليه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد مضى مونمولان قدمًا في مكائده - بعد رحيلها - وأصبح القوم لا يقفون عند حد في جموحهم، ومع ذلك فقد واصلت نزهاتي على القدمين في هدوء وسط صخبهم. وأضفت هواية النباتات - التي كنت قد شرعت في ممارستها بفضل الدكتور دانفيرنوا - طرافة جديدة على رياضتي، وحملتني على أن أهيم في الريف، أجمع النباتات، دون أن أتأثَّر بصيحات الغوغاء، الذين لم يكن هدوء أعصابي ليزيدهم إلا هياجًا! ولقد كان من الأشياء التي حزّت في نفسي، أن رأيت أسرات أصدقائي49، أو مَن كانوا يسمون أنفسهم كذلك، ينضمون جهارًا إلى صفوف مضطهدى.. كال دانفيرنوا.. ولم يشذ عنهم حتى والد وأخ صديقتى « إيزابيل ».. و « بوى ديلاتور » قريب الصديقة التي أقمت في دارها، والسيِّدة « جيراردييه » زوجة أخيها. ولقد كان هذا الـ « بيير بوى » شديد الغباء، وبلادة الذهن، وكان عنيفًا في طباعه، حتى أنني أبحث لنفسي أن أضحكه، لكي أتفادى هياجه. ووضعت - بالأسلوب الذي انتهجته في « النبي الصغير » - كتيبًا من بضع صفحات، أسميته « رؤيا بيير الجبلي، الملقب بالبصير »!.. ولقد وجدت في هذا الكتاب فرصة لشن هجوم ساخر على المعجزات، اتخذ - في ذلك الحين - حجة رئيسية لاضطهادي. ولقد عمد « دو بيرو » إلى طبع هذا الكتيب في (جنيف)، فلم يظفر - في تلك البلاد - بأكثر من نجاح متوسط، إذ أن أهالي نيوشاتيل لا يميلون كثيرًا إلى تقدير السخرية اللاذعة أو الدعابات الضاحكة، برغم ما أوتوا من لماعية!

ولقد بذلت قدرًا أكبر من الجهد، في كتاب آخر، في عين تلك الفترة. وقد عثرت على مخطوطه بين أوراقى، فجدير بى أن أذكر شيئًا بصدده.

فعندما كانت حمى المراسيم والاضطهادات في عنفوانها، بزّ أهل (جنيف) سواهم، بأن راحوا يطلقون صيحاتهم بأعلى ما في طاقتهم من صوت. واختار صديقى « فيرن » تلك الفترة بالذات - في كرم جدير برجال الدين حقًّا! - لينشر بعض رسائل ضدي، حاول فيها أن يبرهن زورًا على أنني لم أكن مسيحيًا.. على أن هذه الرسائل - التي صيغت في أسلوب مقنع - لم تجد نفعًا، بالرغم مما قيل من أن الطبيعي (المؤمن بالطبيعة دون الله) بونيه، قد ساهم فيها. ذلك لأن « بونيه » هذا، كان ماديًّا، ولكنه لم يكن ليتوانى عن أن ينقلب إلى متعصب ديني متعنت، إذا ما كان الأمر يتعلّق بي. ومن المحقق أنني لم أشعر بميل إلى أن أرد على هذا الكتيب، ولكن الفرصة عرضت لأقول كلمة فيه، في « رسائل من الجبل »، فأوردت في سياقه إشارة مترفعة، أهاجت حنق « فيرن »، فراح يملأ جنيف بصيحات غيظه، وقال لي دانفيرنوا أنه فقد حجاه. وبعد فترة، ظهرت وريقة لا تحمل اسم كاتبها، وكأنما كتبت بمياه (فليجيتون) - أحد أنهار الجحيم - لا بمداد. واتهمت في هذه الوريقة بأنني ألقيت بأبنائي إلى عرض الطريق، وأنني كنت أجر ورائي إحدى مومسات جنود الحرس، وأن الافراط في الملاذ قد أنهك قواى، وأننى موبوء بالزهرى.. وما إلى ذلك من أوصاف « مهذبة »!

ولم يشق علىَّ أن أعرف كاتب هذا المنشور. وكان أوّل ما خطر لي، عند قراءة هذا التشهير، هو أن أقدِّر بمقياسه كل ما يسمى بين الناس بالسمعة والشهرة، فقد رأيت رجلًا يُتهم بأنه ربيب العواهر وهو الذي لم يرتد يومًا دار فسق، وكان أعظم عيوبه دائمًا، هو أنه في حياء العذراء وخجلها.. رأيتني أوصف بأن « الزهري » كان يفرى كياني، وأنا الذي لم أصب يومًا بأتفه الأمراض التناسلية، بل إن أهل الاختصاص أنفسهم أكّدوا أننى أوتيت حصانة فطرية ضد هذه الأمراض!

وبعد أن قلبت الرأي، انتهيت إلى خير طريقة لدحض هذا الافتراء، هي أن أنشرها في

المدينـة التي أقمت فيها أكثر من سواها. لذلك أرسلت المنشور إلى « دوشين » ليقوم بطبعه بنصه، مع مقدمة أوردت فيها اسم السيِّد فيرن، وبعض سطور موجزة لإيضاح الوقائع. على أنني لم أقنع بنشر هذا المنشور، فأرسلته بنفسي إلى عدّة أشخاص، بينهم الأمير لويس دى فيرتمبيرج، الذي كان قد أظهر لي مجاملات غاية في الكرم، والذي كنت أبادله الرسائل، في ذلك الحين.. ولاح أن الأميرة ودو بييرو، وغيرهما، كانوا في شك من أن دى فيرن هو مؤلّف، هذا التشهير، وعتبوا عليَّ أن ذكرت اسمه دون تحر كاف. وبناء على ملاحظـاتهم، ندمت على ما فعلت، وكتبت إلى « دوشين » كى يوقف نشر هذه الوريقة، فكتب إليَّ « جاى » بأنها أوقفت. ولست أدرى ما إذا كان هذا حقًّا، فقد عهدت « جاى » كثير الكذب، في مناسبات كثيرة، حتى أن صـدور أكذوبة جديدة منه، ليس بالأمر المستغرب!.. ولقد كنت - إذ ذاك - محوطًا بهذه الظلمات الدامسـة، التي كان من المستحيل عليَّ أن أنفذ خلالها إلى أي شيء من الحقيقة!

ولقد احتمل السيِّد ديفرن هذا الاتهام في رزانة كانت أكثر من مستغربة بعد السخط المهتاج الذي أبداه من قبل، لا سيما اذا صحّ أنه لم يكن يستحق هذا الاتهام!.. ولقد كتب لي رسالتين أو ثلاثًا، في أسلوب جد حذر، بدا لي أنه كان يرمى بها إلى محاولة الوصول - خلال ردودى - إلى مدى ما كنت أعرفه، وما إذا كان لدىَّ دليـل ضده. على أنني أجبت بخطابين قصيرين، جافين، خشنى المعنى دون نبو في العبارة، فلم يغضب منهما إطلاقًا. ولكني لم أجب عن خطابه الثالث قط، إذ تبينت أنه كان يستدرجنى إلى مراسلته.. وقد أرسل دانفيرنوا ليحدّثني بهذا الصدد. وكتبت السيِّدة « كراميه » إلى « دو بييرو » أنها كانت واثقة من أن التشهير لم يصدر عن فيرن. ولم يزحزحني هذا كله عن اقتناعي. على أنه لما كان من المحتمل أن أكون مخطئًا - فأكون مدينًا لفيرن باعتذار علني، في هذه الحال - فقد قلت له، عن طريق دانفيرنوا، أننى على استعداد لأن أقدِّم له اعتذارًا يرضيه، إذا هو استطاع أن يبين لى الكاتب الحقيقي لهذا التشهير، أو أن يبرهن لي - على الأقل - على أنه لم يكن هذا الكاتب. بل إنني ذهبت إلى أبعد من ذلك، إذ شعرت بأنه - على أية حال - ليس من حقى أن أطالبه بأن يثبت لي أي شيء، إذا لم يكن مذنبًا. فعزمت على أن أكتب - في مذكرة مسهبة - الأسباب التي حملتني على اعتقادي، وأن أعهد بها إلى حكم فيصل لا يستطيع فيرن أن يطعن في ذمته. وما كان أحد ليحدس هذا الفيصل الذي اخترته، فقد وقع اختياري على: مجلس جنيف!

ولقد أعلنت في نهاية المذكرة، أنه إذا قضى المجلس - بعد فحصها وإجراء التحريات التي يراها لازمة، والتي كان من السهل إجراؤها بنجاح - أن السيِّد فيرن لم يكن كاتب التشهير، فإنني على استعداد لأن أكفّ صادقًا، منذ تلك اللحظة، عن اعتقادي بأنه الكاتب، ولأن اذهب فأرتمى على قدميه، وأظلّ أناشده الصفح، حتى أظفر به!. وبوسعي أن أقول إن تأجج غيرتي من أجل العدالة، واستقامتي وكرم نفسي، وثقتي في هذا الحب - الدفين في قلبي - نحو العدالة.. أستطيع أن أقول أن هذه لم يقدَّر لها يومًا أن تتكشف أكثر وضوحًا وكمالًا مما تكشفت في هذه المذكرة.. ولا أكثر حكمة ونفاذًا إلى القلوب مما تمثل في أنني لم أتردد في قبول ألد أعدائي ليفصلوا بيني وبين من ذمني!.. ولقد قرأت هذه المذكرة على « دوبييرو » فنصحني بأن أعدمها، وقد فعلت. وأشار عليَّ بأن أرتقب ما قد يظهره « فيرن » من أدلة. فانتظرت، ولا أزال أنتظر!.. كذلك نصحني بأن ألتزم الصمت أثناء الانتظار، فلزمت الصمت، وسأظلّ صامتًا بقية عمرى، ملومًا على أننى وجهت إلى فيرن اتهامًا خطيرًا، زائفًا لم يقم عليـه دليل.. وإن كنت ما أزال موقنًا، ومقتنعًا - في دخيلتي - بأنه كاتب ذلك الهجو، يقينى واقتناعى بوجودى!.. إن مذكرتي في حوزة السيِّد دوبييرو، فإذا قُدِّر لها يومًا أن ترى النور، فستتبدى فيها حججي وأسبابي.. وآمل أن تجد روح جان جاك التي أبي معاصرى أن يفهموها، مَن يفهمها إذ ذاك!

لقد حان الوقت لننتقل إلى الكارثة الأخيرة في (موتيير)، ورحيلي عن (فال - دى - ترافير)، بعد إقامة دامت سنتين ونصف السنة.. وبعد ثمانية أشهر من جَلَد لم يهن، في احتمال أزرى المعاملات!.. أن من المستحيل أن أذكر بجلاء دقائق هذه الفترة غير البهيجة، من حياتي. ولكنها ستوجد في السيرة التي نشرها « دو بييرو »، والتي سأتكلم عنهــا فيما بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اشتدّ الهياج عنفًا، منـذ رحيل السيِّدة دى فيرديلان. وبالرغم من الإنذارات المتكرّرة - من الملك - وبالرغم من الأوامر المتتابعة من مجلس الدولة، وبالرغم من الجهود التي بذلها سيِّد المقاطعة، ورجال الحكومة في المنطقة، فقد ظلَّ الناس يعتبرونني - في جد واعتقاد حازم - عدوًّا للمسيح!.. وإذ رأوا أن كل صخبهم لم يؤدِ إلى جدوى، بدا أنهم تهيأوا أخيرًا للإقدام على تصرفات عنيفة!.. فبدأت الأحجار تتطاير خلفي في الطرق، وهي تُلقى من بُعد لم يكن يمكنها من أن تصيبني.

وأخيرًا.. وفي ليلة سـوق (موتيير)، التي تُقام في بداية شهر سبتمبر، هوجمت في عقر داري، التي كنت أقيم فيها، بطريقة عرَّضت حياة ساكني الدار للخطر!

ففي منتصف الليل، سمعت جلبة في البهو الذي كان يمتد بطول الجزء الخلفي للدار. وانهال سيل من الأحجار - التي صوبت إلى النافذة والباب المفضى إلى البهو - فراحت تهوى في ضجيج قوى، حتى أن كلبي، الذي اعتاد النوم في البهو، بدأ يعوى، ثم أخرسه الذعر، وهرع إلى أحـد الأركان، وراح ينبش الأرض الخشبية ويقرضها، بحثًا عن مفرا!..



ـال سيل من الأحجار ـــ التي صوبت إلى النافذة والباب المفضى إلى البهو

ـــ فراحت تهوى فى ضجيج قوى ..

واستيقظت على الضجة، وفيما كنت أهم بمغادرة مخدعي، لأنتقل إلى المطبخ، إذا بحجر - طوّحت به يد قوية - يهشم نافذة المطبخ، ويطير في جوه ثم يصدم باب غرفتي فيفتحه، ويقع عند مؤخر فراشي. ولو أننى تعجلت الخروج لحظة، لكان قد أصاب بطني!.. وحدست أن هذه الضجة كانت تهدف إلى استدراجي، وأن الحجر ألقي لكي يستقبلني وأنا أغادر غرفتى.

واندفعت إلى المطبخ، فوجدت « تيريز »، التي كانت قد استيقظت - هي الأخرى - والتي جرت إليَّ، وهي ترتجف. ووقفنا ملتصقين بالجدار، بعيدين عن مستوى النافذة، لنتجنب الإصابة بالطوب، ولنتدبَّر ما في وسعنا أن نفعله.. فقد كان الخروج لطلب النجدة هو الوسيلة للقضاء علينا. ولحسن الحظ، استيقظ على الجلبة خادم شيخ جليل كان يقطن أسفل طابقنا، نجرى ليطلب النجدة من حاكم المنطقة، الذي كان بابه مجاورًا لبابنا. فتقفز من فراشه، وألقى عباءته (الروب دى شامبر) على كتفيه في عجلة، وأقبل لفوره مع الحرس الذين كانوا ساهرين - في تلك الليلة - بسبب السوق، ومن ثم فقد كانوا على استعداد. وكان جزع حاكم المنطقة بالغًا، حين رأي الخسائر، حتى أن وجهه شحب.. وعند مرأى الحصى الذي امتلأ به البهو، صاح: « يا إلهي!.. كأنني في محجر! ». وإذ هبطنا إلى الطابق الأسفل، وجدنا أن باب فناء صغير قد اقتحم، وأن محاولة بُذلت للنفاذ إلى داخل البيت، عن طريق البهو. وعند التحرى عن سبب عدم انتباه الحرّاس إلى هذا الشغب، وعدم حيلولتهم دون حدوثه، فظهر أن حرَّاس (موتيير) ألحوا في القيام بهذه النوبة من نوبات الحراسة، برغم أنها لم تكن نوبتهم، إذ كان الدور على حرَّاس من قرية أخرى!

وفي اليوم التالي، أرسل حاكم المنطقة تقريرًا إلى مجلس الدولة، الذي انتدبه ـ بعد يومين - للقيام بتحقيق في الأمر، وبأن يعد بمكافأة، وبكتمان سر أولئك الذين يشون بالجناة. وكان عليه في الوقت ذاته، أن يقيم حارسًا - على نفقة الحكومة - ليحرس دارى وداره، التي كانت ملاصقة لها. وفي اليوم التالي، أقبل لزيارتي الكولونيل دي بوري، ومورون المدعى العام، ومارتينيه حاكم المنطقة، وجوينييه محصل الضرائب، ودانفيرنوا أمين خزانة المنطقة، وأبوه.. وقصارى القول، أن كل ذوى المكانة في المنطقة، جاءوا لزيارتي، وأجمعوا على الإلحاح عليَّ لإغرائي على أن أنحني للعاصفة، وأن أرحل - ولو إلى فترة من الزمن - عن أبرشية لم يعد بوسعي أن أعيش فيها آمنًا أو مكرَّمًا. بل إننى لاحظت أن حاكم الأقليم - في ذعره من فورة الأهالي الساخطين، وفي جزعه من أن تمتد إليه - كان على استعداد لأن يبدى اغتباطه إذا رآني أرحل فورًا، حتى يتخفف من مسئولية حمايتي، وحتى يستطيع أن يبرح المنطقة هو الآخر.. وهذا ما حدث فعلًا، بعد رحيلى.

ورضخت لهم.. بل إننى انصعت دون عناء تقريبًا، لأن منظر حقد الجمهور مزَّق قلبي بدرجة لم أعد أقوى معها على احتمال الألم!

وكان ثمة عدّة أماكن أتخيّر منها ملاذي. فلقد ذكرت لي السيِّدة دي فيرديلان، في عدّة خطابات - منذ عودتها إلى باريس - سيِّدا يُدعى « ولبول »، كانت تلقبه باللورد، وكان شديد الاهتمام بأمرى، فعرض عليَّ مقامًا في إحدى ضياعه، التي صوّرتها لي السيِّدة أبدع تصوير، وتناولت التفصيلات الخاصة بإقامتي، وسكناي.. مما أوحي لي بمدى اهتمام اللورد والبول معها بهذا المشروع. ولقد كان اللورد مارشال يوصيني باستمرار بأن ألجأ إلى إنجلترا أو ايقوسيا، حيث عرض عليَّ - هو الآخر - أن أقيم في إحدى ضياعه. ولكنه عرض عليَّ كذلك ملجأ آخر في (بوتستدام)، كان أكثر إغراءً لي، لأنه كان مجاورًا لمقره. وكان قد أطلعني - من عهد قريب - على اقتراح أبداه الملك له بشأني، كان بمثابة دعوة موجَّهة إليَّ، وقد أبدت السيِّدة دوقة ساكس - جوتا ارتياحها البالغ إلى هذا، حتى أنها كتبت إليَّ ملحة في أن أزورها، في طريقي، وأن أقيم أيامًا معها. ولكنني أحسست بميل شديد إلى سويسرا، حتى أنني لم أكن أقوى على أن أحزم أمرى على مغادرتها، طالما كان من الممكن أن أعيش

فيها. ومن ثم فقد انتهزت هذه الفرصة لتحقيق خطة كانت تشغل بالي منذ عدّة أشهر، ولم أستطع - قبل الآن - أن أتحدَّث عنها، حتى لا أقطع استطراد القصة.

كانت هذه الخطة هي أن أذهب فأقيم في جزيرة (سان بيير)، وهي من أملاك مستشفى (بيرن). وكنت قد زرت مع « دو بييرو » هذه الجزيرة، أثناء إحدى جولاتنا، ففتنت بها حتى أنني - من ذلك الحين - لم أكف عن التفكير في وسيلة الإقامة بها. وكانت أعظم عقبة هي أن الجزيرة كانت ملكًا لأهل (بيرن) الذين طردوني من أراضيهم - قبل ثلاث سنوات - في ظلم مهين. وفضلًا عن أن كرامتي كانت خليقة بأن تتأذى من العودة إلى الإقامة بين قوم أساءوا وفادتي، فقد كان لديَّ ما يبرِّر الخوف من أنهم لن يدعوني أعيش في هذه الجزيرة، في هدوء يفوق ذاك الذي كنت فيه في (ايفردون). ولقد استشرت السيِّد المارشال في هذا الأمر، فرأى - كما رأيت - أن أهل (بيرن) خليقون بأن يشيروا بنفيي إلى هذه الجزيرة، وبأن يستبقونى رهينة إزاء أية مؤلَّفات جديدة قد أصبوا إلى وضعها، فقد أشتم منهم هذه الرغبة، عن طريق سيِّد يُدعى « ستيرلر »، كان جارًا قديمًا له في (كولومبيه).

ولقد خاطب السيِّد ستيرلر - في هذا الشأن ـ كبار رجال الدولة، وأكَّد للسيِّد المارشال - استنادًا إلى الإجابة التي تلقاها - أن أهل (بيرن) لم يكونوا يرجون، في خجلهم من مسلكهم السابق، أفضل من أن آوى إلى جزيرة (سان بيير)، وأن يدعوني أعيش هناك في سلام. وإمعانًا في الحيطة، سعيت - قبل أن أجرؤ على الذهاب للاقامة هناك - إلى الحصول على مزيد من المعلومات، بوساطة الكولونيل « شاييه »، الذي أكَّد لي هذه الأمور بالذات. وإذ ظفر محصل الضرائب في الجزيرة، بإذن من رؤسائه بأن يستضيفني في داره، فقد خُيل إليَّ ألا مخاطرة في الذهاب إلى هناك، بعد هذا القبول الضمني من الحكام والملاك (الشعب)، فما كنت لأطمع في أن يعترف سادة (بيرن) جهارًا بالظلم الذي أوقعوه عليَّ، فيخرجوا على أشدّ المبادىء مناعة لدى كل أصحاب السلطان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتقع جزيرة (سان بيير) - وتسمى في نيوشاتيل بجزيرة (لاموت) - وسط بحيرة (بيين). ويبلغ محيطها حوالى نصف فرسخ، ولكن هذه المساحة الضئيلة تنتج كل المحصولات الرئيسية اللازمة للحياة. ففيها حقول، ومروج، ومراع، وبساتين، وغابات، وكروم. وهذه جميعًا موزعة - بفضل الأرض المتباينة والجبلية - بشكل مستحب جدًا إذ أن مناظرها المختلفة، لا تتكشّف جميعًا في وقت واحد، وإنما تتعاقب في توال متبادل، فتوحي بأن الجزيرة أكبر مما هي في الواقع. ويتألف الجانب الغربي منها - المواجه لجليريس وبونفيل - من مرتفع شاهق، تكوِّن الأشجار فيه طريقًا طويلة، يتوسطها فراغ تسدّه النباتات من كل جانب، كأنه قاعة، يجتمع فيه الوافدون من كل الشطآن المجاورة - في أيام الآحاد من موسم حصاد العنب - ليرقصوا ويلهوا. وليس في الجزيرة سوى دار واحدة، يقيم فيها محصل الضرائب. ولكنها كبيرة، رحبة تقع في منخفض يحميها من الرياح.

وعلى خمسمائة أو ستمائة باردة من (سان - بيير) - من الناحية الجنوبية - جزيرة أخرى، أصغر منها مساحة بكثير، غير مزروعة ولا مأهولة، وتبدو كما لو كانت قد انفصلت عن الجزيرة الكبرى - في زمن ما - بفعل العواصف العاتية.. وهي لا تنبت بين حصبائها سوى الصفصاف، بيد أنها تضم بقعة مرتفعة مكسوَّة بالحشائش، وذات حسن بديع. ويكاد شكل البحيرة أن يكون بيضاويًا مكتمل التكوين. ومع أن شطآنها ليست خصبة كشواطيء بحيرتيّ (جنيف) و (نيوشاتيل)، إلَّا أنها ذات منظر زخرفى بديع للغاية، لا سيما في الجانب الغربي الكثير السكان، وعند سفح سلسلة من التلال لها حافة من الكروم كتلك التي تحف بـــ (كوت - روتى) ـ في منطقة الرون - وإن لم تشبهها في جودة النبيذ الذي تدرّه. وتوجد

في الطريق من الجنوب إلى الشمال، المناطق التابعة لقضاء (سان جان) و (بونفيل) و (بيين) و (نيداو) عند طرف البحيرة، وقد تناثر فيها عدد من القرى البهيجة المناظر.

هكذا كان الملجأ الذي دبَّرته لنفسي، والذي قرَّرت أن أستقر فيه إذ أبارح (فال - دى - ترافير). ولعله ليس من اللغو غير المجدي، أن أذكر انني خلّفت هناك عدوًّا ألد، تمثّل في السيِّد « دو تيرو » - عمدة فيربير - الذي لم يكن يحظى بكثير احترام في المنطقة، ولكنه أوتى شقيقًا قيل أنه رجل أمين كريم، كان يعمل في مكاتب السيِّد دى سان فلورنتان. ولقد زاره العمدة قبل الحادث الذي جرى لي بوقتٍ قصير.. مثل هذه الملاحظات البسيطة - التي لا قيمة لها في حد ذاتها - قد تساعد فيما بعد، في الكشف عن كثير من الحوادث المستترة.

ولقد كان اختياري هذا الملجأ متمشيًا تمامًا مع أهوائي وطباعي الميالة إلى العزلة والخمول، حتى أننى أعده بين الأحلام العذبة التي كنت مشغوفًا بها كل الشغف. ولاح لي أننى سأغدو - في هذه الجزيرة - أكثر بُعدا عن مجتمع البشر، وفي مزيد من الأمان من إهاناتهم، وأشدّ ما أكون بعدًا عن ذاكرتهم.. وقصارى القول، أنني سأكون أكثر تحرّرًا في الاستسلام لمباهج البطالة وحياة التأمل. ولقد كنت أتمنى أن أعزل تمامًا - في هذه الجزيرة - فلا يعود لي أي اتصال بأي إنسان حي. ولقد اتخذت - بلا شك - كل التدابير الممكن تصورها، لأعفى نفسى من ضرورة الإبقاء على هذه الحال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أنه لم يكن ثمة بد من القوت، وقد كان العيش على هذه الجزيرة باهظ النفقات جدًّا، من جراء ارتفاع أسعار المؤن، وصعوبة المواصلات. فضلًا عن أن المرء كان تحت رحمة محصل الضرائب. ولقد أزيلت هذه الصعوبة بتدبير تكرَّم السيِّد دوبييرو بإجرائه معى، حلّ بمقتضاه محل الشركة التي كانت قد تعهدت بإنتاج طبعة شاملة لمؤلفاتي، ثم تخلَّت عن المشروع. فوضعت بين يديه كل المواد اللازمة، وتعهدت بتنسيقها وتوزيعها. كذلك ارتبطت بأن أسلمه ذكريات حياتي، وجعلته الوصي العام على كل أوراقي، مع اشتراط خاص بألَّا يستغلها إلا بعد وفاتي، إذ كنت قد آليت على نفسي أن أختتم حياتى العملية في سكينة، دون أن أذكر الرأي العام بوجودي على قيد الحياة. وكان المعاش السنوي - الذي تعهد بدفعه في مقابل ذلك - كاف لحاجاتي. كذلك عرض عليَّ السيِّد المارشال - الذي كان قد استرد كل ثروته - معاشًا سنويًا قدره ألف ومائتا فرنك، لم أتقبَّل سوى نصفه. ولقد رغب في أن يُرسل إليَّ مجموع المبلغ دفعة واحدة، فرفضت، إذ حرت في أمر استثماره، ومن ثم فإنه أرسله إلى دو بييرو، فظلَّ بين يديه، وأنه ليسلمني الفائدة السنوية، على أساس الفئة المتفق عليها. ومن ثم فبضم اتفاقى مع دوبييرو، إلى المعاش الذي وهبنيه السيِّد المارشال - على أن يؤول ثلثاه إلى « تيريز » عقب وفاتي - إلى الثلاثمائة فرنك التي كنت أتسلمها سنويًا من « دوشين »، أصبح في وسعي أن أرتكن إلى دخل محترم لنفسي، ولتيريز بعد مماتي. إذ تركت لها سبعمائة فرنك سنويًا، من معاش « ريي » ومن معاش السيِّد المارشال.

وهكذا لم يعد خوف لديَّ من أن تفتقد « تيريز » خبزها يومًا، أو من أن أشعر أنا الآخر بحاجة!.. بيد أنه كان قد كُتب لى أن أضطر إلى أن أنبذ كل الموارد التي ساقها إلى يدى الحظ أو جهدى، وأن أموت - كما عشت - فقيرًا!.. وسيكون في الوسع تبين ما إذا كان في وسعى - دون أن أتردي في أدنى مهاوي الهوان - أن أتشبث بتدابير حرص الغير دائمًا على أن يجعلوها مذلة لى، إذ عمدوا - في عناية - إلى تجريدي من أية موارد أخرى، لكي يقسروني على أن أرضى بالهوان. فكيف خالجهم الشك في القرار الذي كنت خليقًا بأن أتخذه، إذا ما خُيرت بين الفقر، وبين الرخاء مع الهوان؟.. لقد كانوا دائمًا يحكمون على قلبي، بالقياس إلى قلوبهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذ ارتاح بالي إلى موارد عيشى، لم يعد لديّ أي شاغل آخر. ومع أننى كنت قد تركت الميدان - في الدنيا - خاليًا لأعدائي، إلا أننى خلّفت في الحماس النبيل الذي أملى علىّ مؤلفاتي، وفي استمرار صمود مبادئي وتماسكها، شاهدًا على روحي التي كانت مسئولة عن كل النهج الذي اتخذته شخصيتى في مسلكها. ولم أكن في حاجة إلى دفاع فوق هذا، ضد مَن سعوا بمذمتي وتشويه سمعتى. إنهم قد يصوِّرون - تحت اسمي - رجلًا آخر يختلف عنى تمامًا، ولكنهم لا يملكون أن يخدعوا سوى أولئك الذين قد يرغبون في أن يكونوا مخدوعين!.. لقد كان بوسعي أن أترك لهم حياتي لينتقدوها، من أوّلها إلى آخرها. فلقد كنت مطمئنًا إلى أنهم خليقون دائمًا بأن يجدوا - وراء كل أغلاطي ومواطن ضعفي، وعدم طاقتي على احتمال أي نير - رجلًا كان عدلًا، وصالحًا، وخلوًا من الحقد والكراهية والغيرة، على استعداد دوامًا لأن يعترف بأغلاطه الظالمة، وأكثر استعدادًا لأن ينسى مظالم الآخرين.. رجلًا كان ينشد كل سعادته في عواطف الحب واللطف، وكان يكشف في كل شيء عن إخلاص بلغ مبلغ التهور وأبعد حدود التجـرد من الذاتية!

وعلى هذا، فإنني - بشكلٍ ما - ودعت القرن الذي كنت أعيش فيه، وودعت معاصرى، وودعت مجتمع البشر، وأويت إلى هذه الجزيرة لأقضى ما تبقى لي من أيام.. فهكذا كان عزمي، وهناك كنت أعول على أن أنفِّذ - أخيرًا - مشروعى الكبير.. مشروع الحياة الخاملة، التي كرَّست لها عبثًا - حتى ذلك الحين - كل الطاقة المتواضعة التي أودعتها السماء فيّ. لقد كانت هذه الجزيرة جديرة بأن تغدو لي كجزيرة بابيمانى50، تلك البلاد السعيدة، التي ينام فيها المرء:

« فهناك عمل جديد.. اتيان لا شيء البتة »51!

هذا « العمل الجديد » كان هو كل شيء لديّ، لأنني لم أتحسر كثيرًا على النوم، بل كانت البطالة تكفيني. فاذا ما قُدِّر لى ألّا أعمل شيئًا، فإنني أوثر أحلام اليقظة على النعاس. وإذ كانت سن المشروعات القصصية الخيالية قد ولت، وبخور المجد الباطل قد أغثى نفسى أكثر مما استهوى غرورى، فلم يبق لي - كأمل أخير - سوى حيـاة طلقة من كل قيـد، تُقضى في فراغٍ دائم. فهذه هي حيـاة المرضىّ عنهم في العالم الآخر.. ومنذ ذلك الحين، قصرت سعادتي في عالمي الراهن، على هذا اللون من الحياة!

إن الذين يلومونني على كثرة متناقضاتي، لن يغفلوا أن يعتبوا عليّ - هنا - تناقضًا جديدًا. فلقد قلت - من قبل - أن البطالة في المجتمعات، كانت عبءًا لا أطيقه. ومع ذلك، فها أنذا أنشد الوحدة هنا لغرض واحد، هو أن أسلم نفسي للبطالة. ومع ذلك، فهكذا هي طبيعتي. وإذا كان ثمة تناقض في هذا، فهو من عمل الطبيعة، وليس من صنعي. ولكن هنا فارق جد صغير.. وبهذا الفارق الصغير تمتـاز شخصيتى الحقيقية. إن بطالة المجتمعات ممضة، لأنها مفروضة بحكم الضرورة، أما بطالة الوحدة، فبهيجة لأنها طليقة، وصادرة عن رضى ورغبة.. إن التعطل عن عمل شيء - إذا كنت بين الناس - مهمة شاقة، لأننى أكون في ذلك مضطرًا. فأنا مضطر إلى أن أبقى بينهم، مسمَّرًا إلى مقعدى، أو واقفًا منتصب القامة كالعسكري في الحراسة، دون أن أحرِّك يدًا أو قدمًا.. لا أجرؤ على أن أجرى، أو أن أقفز، أو أن أغنى، أو أن أصرِّح، أو أن أشير، إذا ما خطر لي أن أفعل.. بل إننى لا أجرؤ على أن أحلم!.. فأشعر لفوري بالسأم من البطالة، وبكل عذاب الضيق وضبط النفس. ذلك لأننى مضطر إلى أن أصيخ السمع لكل السخافات التي تُقال، وكل المجاملات التي تتبادل، وأن أعتصر قريحتي باستمرار، حتى لا أخفق في أن أقدِّم - بدوري - سخافتي أو أكذوبتي. وهذا ما يُسمى بالتبطل. إنه عمل المحكوم عليهم بالسجن المؤبد!

أما البطالة التي أحبها، فليست بطالة المتعطل الذي يبقى مكتوف الذراعين في حالة توقف

تام عن النشاط، فلا تفكير ولا حركة.. البطالة التي أحبها خليط يجمع بين بطالة الطفل الذي لا يكفّ عن الحراك دون ما عمل، وبطالة المخرف الذي يهيم من موضوع إلى آخر، وذراعاه ساكنتان!.. إننى أحب أن أشغل نفسي بالتوافه، وأن أشرع في مائة شيء، ولا أتم شيئًا، وأن أجيء وأروح كما يحملني هواي، وأن أبدِّل خططى في كل دقيقة، وأن أتتبع ذبابة في كل حركاتها، وأن أحاول أن أقلقل صخرة لأتبين ما تحتها، وأن أضطلع في تحمس بعمل قد يستغرق عشر سنوات، ثم أهجره - دون ما ندم - بعد عشر دقائق.. وقصارى القول، إنني أحب أن أقضى نهارى كله على غير نظام، ودون ما تبعة، وألَّا أتبع - في كل شيء ـ سوى هوى لحظته، ونزوة دقيقته!

لقد كان علم النبات - كما عهدته دائمًا، وكما وجدته إذ بدأ يتملكني الشغف به - هو الدراسة الملائمة حقًّا للبطالة، والصالحة لملء فراغ أوقاتي، دون أن تدع مجالًا لشطحات الخيال، أو لسآمة التعطل الكامل.. فالضرب في الغابات والريف على غير مقصد، والإقبال الآلى على اقتطاف زهرة من هنا، أو فرع من هناك، والتهام الطعام دون موعد تقريبًا.. وتأمل الأشياء ألف وألف مرة - وهي هي لم تتغيَّر - بنفس الاهتمام، لأنني كنت أنساها جميعًا أوَّلًا بأوَّل.. كل هذه تؤلِّف الطريقة لأنفاق الزمن السرمدي، دون لحظة واحدة من السأم. إن تركيب النباتات - مهما يكن دقيقًا، ومهما يكن بديعًا، ومهما يكن متباينًا - قلَّ أن يسترعى العين الجاهلة إلى الدرجة التي تحملها على الاهتمام به.. إن التجانس الشامل المستطرد، مع - وفي ذات الوقت - التباين الواسع النطاق، الذي يميز أعضاء النباتات، لا يبهجان سوى أولئك الذين أوتوا فعلًا فكرة ما عن نظام مملكة النبات. أما غير هؤلاء، فإنهم لا يشعرون - حين يرون كل هذه الكنوز الطبيعية - بغير إعجاب جامد، متواتر على نسق واحد.. إنهم لا يرون شيئًا - بتفصيله أو دقائقه - لأنهم لا يكادون يعرفون أين يجب أن تتجه نظرتهم.. ثم إنهم لا يرونه في مجموعه كذلك - لأنهم لم يؤتوا فكرة عن تسلسل الروابط والصلات التي تحير بطرافتها وغرابتها ذهن المتأمل. ولقد كنت ـ وكانت ذاكرتي الكليلة خليقة بأن تستبقيني دائمًا - في تلك الحال المريحة.. الحال التي لم أكن أعرف فيها عن الشيء سوى القدر الضئيل الذي لا يبديه في عيني جديدًا.. ولكن هذا القدر كان كافيًا لأن يحملني على التفكير!. وكان تباين أنواع التربة الموزعة في أرجاء الجزيرة، بالرغم من صغر مساحتها، يتيح لى تباينًا في نباتاتها، كافيًا للدراسة والتأمل بقية عمري.. فعزمت على ألا أدع عرقًا واحدًا من عشب، دون أن أفحصه. وبدأت بالفعل أتخذ التدابير لأكتب عن مملكة النبات52، موردًا مجموعة هائلة من المشاهدات الطريفة والغريبة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأرسلت في طلب « تيريز » وكتبي وأمتعتى، فأقمنا في دار محصل الضرائب. وكانت شقيقات زوجته - اللائي كن يقمن في (نيداو) - يفدن لزيارتها، كل بدورها، فكان في هذا إيناس لتيريز. وهناك أحسست بحياة ناعمة كنت أتمنى لو تدوم إلى ما بعد انتهاء حياتي، ولكن الشغف الذي تولاني بها، لم يؤدِ إلَّا إلى زيادة إحساسي بمرارة تلك الحياة التي كانت موشكة على أن تعقبها.

لقد اعتدت دائمًا أن أحب الماء حب المشغوف، حتى أن مرآه يلقى بي إلى أحلام عذبة، برغم أنها كثيرًا ما تفتقد الغاية المحددة. فلم أغفل يومًا عند يقظتي، أن أهرع إلى الشرفة - عندما يكون الطقس معتدلًا ـ لأعب من هواء الصباح الصحى العليل، ولا أطلق نظراتي إلى أفق البحيرة الجميلة، التي كانت الجبال تحيط شطآنها، فتؤلِّف منظرًا فاتنًا. ولم أكن أجد تحية جديرة بالذات الإلهية أكثر من الإعجاب الصامت، الذي ينبع من تأمل خلقها، والذي يعجز عن أن يعبِّر عن ذاته بتصرفات ظاهرة.. إن بوسعي أن أدرك السر في أن سكان المدن - الذين لا يرون سوى الجدران والطرقات والجرائم - لا يؤتون سوى القليل من الإيمان. ولكني لا أستطيع أن أفهم السر في أن أولئك الذين يعيشون في الريف - لا سيما

في الأماكن المنعزلة - يستطيعون أن يضلوا الطريق إلى الإيمان!.. كيف يتسنى لأرواحهم ألّا تسمو في غيبوبة نشوانة، مائة مرة في اليوم، نحو مبدع العجائب التي تذهلهم؟.. أما أنا، فقد اعتدت من أمد طويل أن أنساق عقب اليقظة بوجهٍ خاص - وأنا بعد كليل الجسم لحرماني من النوم طيلة ليلى - إلى تلك النوبات التي يسمو فيها قلبي محلقًا، والتي لا تفرض عليَّ عناء التفكير. على أنه لا بد - لحدوث ذلك - من أن يصافح عينيَّ سحر منظر الطبيعة!.. أما في حجرتي، فإن صلواتي لا تنبعث بمثل هذه الكثرة أو الحرارة، ولكني أشعر - إذا ما رأيت منظرًا طبيعيًا جميلًا - بتأثّر عاطفي لا أدري مأتاه. وأذكر أننى قرأت عن أسقف حكيم، صادف أثناء زيارته لأبرشيته، عجوزًا لم تكن تملك في صلافها أن تقول أكثر من: « أواه! ». فقال لها الأسقف: « واصلى صلاتك على هذا النحو، أيتها الأم الصالحة، فإن صلاتك هذه خير من صلواتنا ».. وهذه الصلاة - التي هي خير من سواها - هي صلاتي أنا الآخر!

وكنت أسرع - بعد الفطور - إلى كتابة بعض الرسائل المقتضبة، وأنا متجهم، ضيق الصدر، متلهف إلى اللحظة السعيدة التي لا أعود فيها بحاجة إلى الكتابة. وكنت أقلب كتبي وأوراقي لبضع لحظات، رغبة في فرزها وترتيبها، أكثر منى في قراءتها. وكانت هذه المهمة تتيح لي متعة التأمل الفكرى للحظات قلائل، أمل بعدها العمل، فأقضى الساعات الثلاث أو الأربع المتبقية من فترة الصباح، في دراسة علم النبات، لا سيما منهج « ليناوس »، الذي تملكني الشغف به، حتى أنني لم أقو على التحول عنه تمامًا، حتى بعد أن تبينت عيوبه فإن هذا المدقق العظيم، هو، في رأيي، الوحيد بعد « لودفيج » - حتى يومنا هذا - الذي نظر إلى علم النبات من ناحية رجل الطبيعة والفيلسوف. ولكنه أفرط - أكثر مما ينبغي - في الاعتماد في دراسته على مجموعات الأعشاب المجففة وعلى الحدائق، فلم يأخذ عن الطبيعة إلا القليل. أما أنا، فقد كانت الجزيرة بأسرها حديقة لي، وما أن أحتاج إلى أن أتأمل أو أتحرى شيئًا، حتى أهرع إلى الغابات أو المروج، متأبطًا كتابًا.. وهناك، كنت أنطرح على الأرض بجانب النبات الذي أقصده، فأفحصه في مكانه، على مهل. ولقد أعانتني هذه الطريقة أكبر العون، على أن أحصل معرفة بالنباتات وهي في وضعها الطبيعي، قبل أن تستنبتها يد الإنسان وتنأى بها عن طبيعتها!.. ويُقال أن « فاجون » - الطبيب الأوَّل للملك لويس الرابع عشر - كان ملمًا بأسماء جميع نباتات الحديقة الملكية، وعلى معرفة تامة بها. ولكنه بقدر علمه هذا، كان جاهلًا بنفس النباتات، في الريف، حتى أنه كان يعجز عن معرفة شيء منها. وهذا على النقيض منى تمامًا، فإني أعرف شيئًا عن نتاج الطبيعة، ولكن لا أعرف البتة عن نتاج البستاني!

أما الأوقات التي كانت تعقب الغداء، فقد اعتدت أن أستسلم فيها تمامًا لميلي للبطالة وعدم الاكتراث بشئ، وكنت أتبع وحى لحظتي، دون ما قاعدة أو نظام. وفي كثير من الأحيان كنت أبادر فور مغادرتي المائدة - عندما يكون الهواء ساكنًا - إلى القفز وحيدًا إلى قارب صغير، علمنى محصل الضرائب كيف أتسلط عليه بمجدافٍ واحد، فكنت أجدف إلى منتصف البحيرة. وكانت لحظة انطلاقي تبعث في نفسي فرحة يختلج لها قلبي. ومن المستحيل عليَّ أن أصف هذا الشعور، أو أن أعلله.. اللهم إلَّا أن يكون اغتباطًا مستترًا بأنني - في هذه الحال - بمنأى عن الأشرار!.. وكنت أجدف في البحيرة وحيدًا، أقترب من الشاطيء أحيانًا، ولكني لم أكن أرسو عليه قط. وكثيرًا ما تركت قاربي لرحمة الماء والهواء، وأسلمت نفسى لخواطر شاردة، قد تكون منطوية على غباء، ولكن هذا لم يكن يضعف من عذوبتها. وكنت أهتف أحيانًا، في انفعال: « أواه، أيتها الطبيعة!.. أواه، يا أمي! ها أنذا في حمايتكِ وحدكِ!.. ما من إنسان لئيم خبيث هنا، ليحول بيني وبينكِ! ». وعلى هذا النحو كنت أبتعد عن البر بنصف فرسخ، وأنا أتمنى لو أن هذه البحيرة كانت محيطًا!.. على أنني - رغبة في إرضاء كلبي المسكين، الذي لم يكن شديد الحب مثلي لهذه النزهات المائية الطويلة - اعتدت أن أجعل لنزهتي غاية.. تلك هي أن أرسو عند الجزيرة الصغيرة،

فأتمشى على أرضها ساعة أو ساعتين، أو أستلقي على الحشائش، على قمة البقعة المرتفعة فيها لأستمرىء لذة الإعجاب بهذه البحيرة وبما يحيط بها، ولأعكف على فحص وتشريح كل النباتات التي تقع عليها يدى، ولأبنى لنفسى مسكنًا خياليًّا، على هذه الجزيرة الصغيرة، وكأننى « روبنسن كروزو » جديدا!.. ولقد تعلّق قلبي بهذه البقعة المرتفعة!.



ى « روبنصن كروزو » جديد !..ولقد تعلق قلبي بهذه البقعة المرتفعة !..

وعندما كنت أصحب « تيريز » وزوجة محصل الضرائب وشقيقاتها للنزهة، كان الزهو يستخفني بأن أكون دليلهن ومرشدهن!.. ولقد نقلنا - في موكب بهيج - بعض الأرانب لنعمر بها هذه البقعة، فكان هذا عيدًا من أعياد جان جاك!.. ولقد أضفى هؤلاء السكان على الجزيرة الصغيرة مزيدًا من الرواء والقيمة، في نظري. فأصبحت أُكثر من التردد عليها في مزيد من السرور، لأتفقد مظاهر تقدم السكان الجدد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد أضفت إلى هذه الملاهي، ملهاة أخرى ذكرتني بالحياة البهيجة في (ليه شارميت)، وحفزني إليها، ذلك الفصل من السنة. تلك هي ممارسة أعمال الحياة الريفية بجمع الفاكهة والخضر، التي كنت وتيريز نسرّ أن نتقاسمها مع محصل الضرائب وأسرته. وأذكر أن شخصًا من أبناء (بيرن) - يُدعي السيِّد كيرشبيرجر - جاء يومًا لزيارتي، فوجدنى محشورًا فوق فروع شجرة عالية، وقد ربطت إلى خاصرتي كيسًا امتلأ بالتفاح إلى درجة تعذرت عليَّ معها الحركة!.. ولم أستأ لهذا اللقاء، ولا للقاءات أخرى على شاكلته، بل إنني رجوت أن يكف أهل (بيرن) عن أن يعكروا صفو فراغي - بعد أن رأوا كيف كنت أستغله - وأن يدعوني في عزلتي آمنًا. ولقد كنت أوثر أن أكون حبيس هذه الجزيرة بإرادتهم، وليس بإرادتي. لأننى كنت خليقًا بأن أكون - في هذه الحال - أكثر اطمئنانًا إلى عدم تعكير صفو راحتى!

إن في هذا اعترافًا من تلك الاعترافات، التي أشعر - مقدمًا - بأنها لن تلقى تصديقًا من أولئك القرَّاء الذين يصرّون دائمًا على أن يحكموا عليَّ بالقياس إلى أنفسهم، بالرغم من أنهم قد رأوا مرغمين - في سياق حياتي بأسره ـ ألف إحساس داخلي لا يشبه البتة أحاسيسهم في شيء!.. وأغرب ما في الأمر، أنهم في الوقت الذي ينكرون عليَّ فيه كل شعور طيب أو مبرأ لم يؤتوه هم، إذا بهم على أتم الاستعداد لأن يخلعوا عليَّ من خبيث المشاعر ما لا قِبل لهم بأن يبثوه - لو شاءوا - في أي قلب بشري!.. فهم يجدون من البساطة أن يصوّروني على نقيض الطبيعة، وأن يرسمونى كوحشٍ هائل لا يمكن أن يكون له وجود. ذلك لأنهم يرون أن ليس ثمة سخافة تجل على التصديق، ما دامت موجهة إلى تشويه سمعتي.. وليس من شيء خارق يبدو لهم محتملًا، طالما كان فيه تمجيد لي.

ولكنني سأمضى بنفس الإخلاص الصادق - بالرغم مما قد يقولون أو يعتقدون - في عرض ما كان عليه « جان جاك روسو »، وما كان يفعله، وما كان يطوف بخاطره، دون ما إيضاح أو تبرير لغرابة مشاعره وآرائه، ودون أن أتحرى عما إذا كان سواه قد فكر على نسقه. ولقد استهوتني جزيرة (سان بيير)، وكنت جد مرتاح إليها، حتى أننى لفرط تركيز رغباتي على هذه الجزيرة، عزمت على ألا أبرحها إطلاقًا. فلقد ضقت - بيني وبين نفسي - بالزيارات التي كنت مضطرًا إلى أدائها في المناطق المحيطة، والرحلات التي كنت مجبرًا على القيام بها إلى (نيوشاتيل) و (بيين)، و (ايفردون)، (نيداو).. كان اليوم الذي أقضيه خارج الجزيرة، يبدو لي بمثابة انتقاص من سعادتي. كما أن تجاوز نطاق البحيرة، غدا بالنسبة لي بمثابة تحوّل عن طبيعتى الفطرية. وفضلًا عن ذلك، فإن تجاربي الماضية جعلتني هيَّابًا، فما إن كنت أصادف شيئًا يرتاح إليه قلبي، حتى أتوقّع أن أفقده.. وغدت رغبتي الحارة في أن أختتم عمري في هذه الجزيرة، مرتبطة - ارتباطًا لا انفصام له - بالخوف من أن أُقسر على مغادرتها!

واعتدت أن أذهب كل مساء، فأجلس على الشاطيء، لا سيما حين تكون البحيرة متلاطمة الأمواج.. كنت أحس بلذة فذّة إذ أرى الأمواج تتكسر عند قدميّ، فقد كانت تمثل لي اصطخاب الدنيا، وسكينة معقلى. وكانت هذه الفكرة تهفو بعواطفي أحيانًا، حتى أشعر بالدموع تتساقط من عينَيَّ!.. ولم يكن يعكر هذه السكينة التي اعتدت أن أستمتع بها بكل

عواطفي - سوى توجس فقدانها.. على أن هذا التوجس بالذات، كان يفسد سحرها عليَّ!.. كنت أشعر بوضعي متأرجحًا إلى درجة لا تمكنني من أن أجرؤ على أن أعول عليه، أو أطمئن إليه!.. وكنت أقول لنفسى « آه!.. كم أتمنى راضيًا أن أستبدل حريتي في مغادرة الجزيرة - الأمر الذي لا أحفل به إطلاقًا - بضمان تمكنى من البقاء فيها دائمًا!.. لماذا لا أستبقى هنا قسرًا، بدلًا من أن أبقى تفضلًا؟.. إن أولئك الذين يَدعونني هنا - من قبيل التفضل - يستطيعون أن يطردوني في أية لحظة، فكيف لي أن أجرؤ على الأمل في أن يدعني مضطهديّ أواصل هناءتي - التي يرونني عليها - هنا؟.. آه! إن السماح لي بالعيش هنا، أقل مما أصبو إليه.. إنما أتمنى أن يُقضى عليَّ بالبقاء.. أن أُقسر على البقاء في هذه الجزيرة، حتى لا أغصب على مبارحتها! ».. وكنت أرمق بحسد ذلك السعيد « ميكيلى دوكريه »، الذي كان يعيش آمنًا في قلعـة (داربيرج)، دون أن ينقصـه ـ لكي يكون سعيدًا ـ سوى أن يرغب في السعادة!!

وأخيرًا، انتهيت - لفرط استسلامي لهذه الخواطر، وللهواجس المزعجة التي كانت تجعلني دائمًا في خـوف من انقضاض عواصف جديدة على رأسي - إلى أن أتمنى، في لهفة تفوق كل تصوّر، أن يعدل ظالميّ عن مجرَّد التساهل معى إزاء مقامي في الجزيرة، وأن يجعلوها سجنًا يقسرونني على ملازمته طيلة حياتي.. وبوسعي أن أقسم إننى لو كنت أملك السلطة على أن أحصل على حكم بهذا الصدد، لفعلت بأقصى اغتباط، إذ كنت أوثر - ألف مرة - أن أضطر اضطرارًا إلى قضاء بقية عمري هناك، على أن أتعرَّض لخطر الطرد منها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم تبق هواجسي طويلًا، دون تحقيق.. فقد تلقيت - وأنا أقلّ ما أكون توقعًا لذلك - خطابًا من حاكم (نيداو)، الذي كانت جزيرة (سان بيير) في نطاق سلطانه.. وفي هذا الخطاب، أبلغني - نيابة عن حكومته - الأمر بمغادرة الجزيرة والأراضي التابعة لهذه الحكومة!

وخُيل إلىّ، عندما قرأت الخطاب، أنني كنت أحلم، فما كان ثمة ما هو أبعد عن الطبيعي، ولا ما هو أبعد عن المنطق، ولا ما هو أبعد عن التوقّع، من مثل هذا الأمر. ذلك لأننى كنت قد نظرت إلى هواجسي على أنها قلق رجل أزعجتـه مصائبه، أكثر منها توقعات تستند إلى أتفه أساس. وكانت الخطوات التي اتخذتها لأطمئن نفسي إلى القبول الضمني الذي صدر من السلطات، وإلى الأسلوب الوادع الذي أبيح لي بمقتضاه أن أستقرّ في الجزيرة، وإلى الزيارات التي تلقيتها من عديد من أهل (بيرن) ومن الحاكم نفسه - الذي أذهلني بما أبداه نحوى من ود ورعاية - وإلى قسوة الطقس، التي كانت تجعل من العنف الوحشى طرد رجل معلول من مأواه.. كل هذه الاعتبارات، جعلتني - وجعلت كثيرين غيري - يؤمنون بأن ثمة شبهات تحوم حول هذا الأمر، وأن ذوى النوايا السيئة نحوى، قد تعمَّدوا اختيار وقت جنى العنب وتغيب أعضاء مجلس الشيوخ، كي يوقعوا بي هذه الضربة فجأة، وبحدّة!

ولو أننى أصغيت لأوَّل إيعاز من كرامتي، لكنت قد بادرت إلى الرحيل فورًا. ولكن، إلى أين كنت أذهب؟.. وماذا يجري والشتاء قد أقبل، وليس لي من مقصد، ولا اتخذت عدة، وليس ثمة مرشد، ولا عربات للنقل؟.. وما لم أترك ورائى كل شيء - أوراقى، وأمتعتى، وكل شئوني - فقد كنت بحاجة إلى وقت كي أعدّها للنقل.. ثم إن الأمر لم يذكر ما إذا كان يُسمح لي بأخذها أو لا يُسمح!

وبدأت ملاحقة المصائب توهن جَلَدى.. ولأوَّل مرة في حياتى، شعرت بكبريائي الفطرية تنحني تحت وطأة الضرورة. وبالرغم من تذمر قلبي، لم يكن ثمة بد من أن أتنزل فأطلب إمهالًا. وإلى السيِّد دي جرافنرييه - الذي أرسل إليَّ الأمر - وجّهت مسعاى. وكان في خطابه قد عبَّر عن استهجانه الشديد لهذا الأمر، وأنه ما أبلغني إياه إلا في أسفٍ بالغ. فلاح لي مما ملأ الخطاب من مظاهر الألم والتقدير، أن هذا الخطاب لم يكن سوى دعوى مترفقة،

متلطفة، إلى أن أفاتحه بما في صدري.. وهذا ما فعلته. ولم أشك في أن خطابي خليق بأن يفتح عيون هؤلاء الجائرين على تصرّفهم المجرَّد من الإنسانية، وأنهم - ولو لم يلغوا مثل هذا الأمر القاسي - سيمنحونني مهلة معقولة، قد تشمل الشتاء كله، لكي أستعد للرحيل، ولكي أختار مكانًا ألجأ إليه.

وأخذت - في انتظار جوابه - أفكّر في موقفى، وأتـدبّر القرار الذي كان علىَّ أن أتخذه. ورأيت كثيرًا من الصعاب في كل ناحية. وكان الحزن قد أثَّر علىَّ أشدّ تأثير، كما كانت صحتى - في تلك الآونة - في أسوأ حال، فأسلمت نفسى للتداعى، وإذا ثبوط همتى يجردني مما تبقى لي من قوى عقلية متواضعة، كان من الممكن أن تساعدني على أن أبت في موقفي المحزن.. كان من الواضح أنني لم أكن أملك أن أتفادى - في أي مكان قد ألوذ به - أن أتعرَّض للأسلوبين اللذين استخدما. حتى ذلك الحين، في طردي.. وأوَّلهما: إثارة الناس ضدى، بالدسائس المتوارية.. في حين أن الثاني هو: نفيى بالقوة الصريحة، دون إبداء أي سبب أو مبرِّر لذلك!

ومن ثم فإنني لم أكن أملك أن أعول على أي ملجأ، وأطمئن إلى أنه مأمون، اللهم إلا إذا ذهبت إلى أبعد مما كانت قواى، وموسم الشتاء، تسمح به، على ما تراءى لي!.. ولقـد عادت بي كل هذه الاعتبارات، إلى عين الأفكار التي كانت تشغل بالي منذ البداية. ورحت أشتهي لو أننى سُجنت طيلة العمر، بدلًا من أُساق إلى أن أضرب في الأرض، بلا انقطاع! وأن أُطرد من كل مكان ألوذ به، على التعاقب!

وبعد رسالتي الأولى بيومين، كتبت رسالة ثانية إلى السيِّد دي جرافنرييه، أسأله أن يعرض الاقتراح على المجلس.. وجاء الرد على هاتين الرسالتين من (بيرن). وكان أمرًا صيغ في أخشن عبارات رسمية، بأن أغادر الجزيرة، وكل الأراضي التي تتبع الجمهورية - مباشرة أو غير مباشرة - في أربع وعشرين ساعة، وألَّا أعـود إلى دخولها قط، وإلَّا تعرَّضت لأقسى صنوف العقاب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت تلك اللحظة رهيبة.. ووجدت نفسي بعـدها في أقسى الهموم، وليس في أعظم حيرة!.. على أن أشدّ ما آلمنى هو أن أضطر إلى التخلي عن المشروع الذي كان يجعلني أشتهي قضاء الشتاء في الجزيرة. وقد حان الوقت كى أروى القصة الأليمة التي توَّجت مصائبي، والتي استدرجت - إلى القضاء علىَّ - شعبًا تعسًا، كانت فضائله المتزايدة تبشِّر بأنه سيعادل يومًا شعبىّ (اسبارطة) و (روما).

فلقد تحدَّثت في « العقد الاجتماعي » عن الكورسيكيين كشعبٍ جديد، كان هو الشعب الوحيد - في أوربا - الذي لم يستغله التشريع أو يفسده. وقد أوضحت أن ثمة آمالًا كبارًا قد تُرتجي من مثل هؤلاء القوم، لو أنهم وجـدوا مرشـدًا حكيمًا!

ولقد اطلع على كتابي بعض الكورسيكيين، الذين قـدَّروا الأسلوب الكريم الذي تحدَّثت به عن شعبهم، وإذ ألفوا أنفسهم مضطرين إلى أن يكرِّسوا كل همهم إلى إنشاء جمهوريتهم، فقد رأى بعض زعمائهم أن يستشيرونني في هذا العمل الجليل. وكتب إلىّ - بهذا الصدد - سيِّد يُدعى « بوتافوكو »، كان ينتمى إلى إحدى الأسرات الكبرى في الجزيرة، وكان « كابتن » في اللواء الملكي الإيطالي بفرنسا. وقد أمدّني بعددٍ من الوثائق التي كنت قد طلبتها منه، لكى أزداد تعرّفًا على تاريخ الأمة، وعلى أحوال البلد. كذلك كتب لي السيِّد « باولي » عدَّة مرات، ومع أنني شعرت بأن مثل هذه المهمة فوق ما تتحمل قـواي، إلَّا أنني رأيت ألَّا سبيل إلى أن أضن بمعونتي في مثل هذه المهمة الجليلة السامية، بعد أن حصلت على كل البيانات التي طلبتها. وبهذا المعنى كتبت إلى كل من السيِّدين، وقد استمرّ تبادل

الرسائل إلى أن غادرت (سان بيير).

وفي تلك الفترة بالذات، سمعت أن فرنسا كانت توفد جنودها إلى (كورسيكا)، وأنها عقدت معاهدة مع أهل (جنوا). ولقد أثارت هذه المعاهدة، وإيفاد الجنود قلقي. ودون أن أتصوَّر أن تكون لي أية علاقة بذلك، قدَّرت أن من المستحيل - بل ومن العبث - أن أكرِّس اهتمامي لعمل يتطلَّب هدوءًا وسكينة كاملين.. وأعني به تنظيم شعب، في اللحظة التي كان يحتمل أن يكون فيها على شفا إخضاعه لنير الطغيان!

ولم أخف قلقي عن السيِّد « بوتافوكو »، الذي طمأنني بأن أكَّد لى أنه - كمواطن صالح ـ ما كان ليبقى في خدمة فرنسا، كما كان فعلًا، لو أن هذه المعاهدة اشتملت على ما يمس حرية بلاده. والواقع أن تحمسه للتبريرات التشريعية لكورسيكا، وعلاقته الوثيقة بالسيِّد (باولى)، حالتا دون أن يخالجني أي شك من ناحيته. وعندما سمعت أنه كان يكثر من التردد على (فرساى) و (فونتينبلو)، وأنه كان يقابل السيِّد دى شوازيل، لم أملك سوى أن أستنتج أنه حصل على ضمانات بشأن النوايا الحقيقية للبلاط الفرنسي. وهو الأمر الذي تركني أحدسه، ولكنه لم يبد رغبة في أن يشرح ما لديه بشأنه بجلاء، في خطاب!

ولقد طمأنني كل هذا، إلى حدٍ ما. على أنني لم أقو على أن أفهم معنى إيفاد الجنود الفرنسيين، ولم أستطع أن أرى أي إغراء يوحي بتصديق أنهم كانوا لحماية حرية الكورسيكيين، فقد كان هؤلاء جد قادرين على أن يذودوا عن حريتهم بأنفسهم ضد أهل جنوا.. كذلك لم أكن أملك أن أشعر بارتياح تام، إلى أن أوقف اهتمامي في إخلاص صادق لوضع الدستور المقترح، ما لم يكن لديَّ الدليل المقنع بأنه لم يكن مجرَّد دعابة للضحك منى!.. ولكم كنت أرجو أن أتحدَّث إلى السيِّد بوتافوكو، فقد كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لكي أحصل منه على الإيضاحات التي كنت أنشدها. ولقد أبدى أمله في أن يتاح لنا لقاء، فرحت أنتظر هذا اللقاء بصبر جد نافذ. ولست أدري ما إذا كان قد أعتزم حقًّا أن يتيح لى لقاء، ولكن.. لو أن هذه كانت نيته حقًّا، لكانت محنى خليقة بأن تمنعني من أن أفيد من هذا اللقاء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنت كلما أطلت التفكير في المشروع المقترح، وكلما أمعنت في فحص الوثائق التي كانت بين يدىّ، ازددت شعورًا بالحاجة الملحة إلى أن أدرس - عن كثب - البلاد، والشعب الذي كان التشريع يعد له، والأرض التي يقيم عليها، وكافة الوجوه التي كان عليه أن يطبق هذا التشريع فيها. وكنت أزداد إدراكًا - يومًا بعد يوم - بأنه من المستحيل أن أظفر - وأنا بعيد - بكافة الأضواء اللازمة لإرشادي. ولقد كتبت عن هذه الأمور إلى « بوتافوكو »، فإذا به كان يشعر بها. وإذا كنت لم أستقرّ تمامًا على قرار الانتقال إلى كورسيكا، إلا أنني شغلت كل الشغل بوسائل أداء هذه الرحلة. فتكلمت إلى السيِّد داستييه، الذي كان خليقًا بأن يلم بها، إذ كان قد عمل حينًا - فيما مضى - تحت رئاسة السيِّد دى مايبوا. ولكنه لم يدخر وسعًا، في سبيل إثنائي عن نيتي. وأعترف أن الصورة البشعة التي رسمها للكورسيكيين وبلادهم، أخبت كثيرًا من جذوة رغبتي في الذهاب إليهم والإقامة بينهم!

على أن هذه الرغبة عادت إلى التأجج - عندما أدّى الاضطهاد الذي تعرّضت إليه في (موتيير) إلى أن أفكر في مغادرة سويسرا - بفضل الأمل في أن أجد بين هؤلاء الجزائريين الهدوء الذي حُرمت منه في كل مكان آخر. ولم يكن يزعجني - بصدد هذه الرحلة - سوى أمر واحد.. عدم قدرتي الصحية عليها، والنفور الذي طالما تملكني نحو الحياة النشيطة التي قد أضطرّ إلى ممارستها. ذلك لأن الطبيعة هيَّأتني لكي أتأمل وأفكّر في الوحدة، وحسب هواي، ومن ثم فإنني لم أكن مهيأ البتة للكلام، والعمل، وتوجيه الشئون والمسائل، ووسط الناس.. إن الطبيعة حين منحتني الموهبة للحال الأولى، أبت عليَّ الموهبة

الثانية!.. ومع ذلك فقد شعرت أننى خليق بأن أضطرّ بمجرّد وصولي إلى كورسيكا، بأن ألقي بنفسي في غمار تلهف الشعب، وأن أعقد عدّة مؤتمرات مع الشخصيات التي تتولى الزعامة في الجزيرة، ولو لم أساهم بدور مباشر في المسائل العامة. وكانت غاية رحلتي ذاتها، تفرض عليَّ السعى - وسط هذه الأمة - إلى العثور على المعلومات التي كنت أنشدها، بدلًا من السعي إلى الراحة والعزلة.. كان من الواضح أنني لن أستطيع أن أظلّ بحريتي واستقلالي، إذ أنني سأدفع - على الرغم منى - إلى دوَّامة من النشاط، لم أكن بفطرتي مهيئًا لها.. وأننى سأمارس حياة تتعارض تمامًا مع أهوائي، ولا توحي بنفع لي. وتكهنت بأنني لن أحقّق بوجودى، الفكرة التي ربما كانت قد تكوَّنت عن مقدرتى خلال كتبي.. وكان معنى ذلك، أن أفقد مكانتي لدى الكورسيكيين، بعد الثقة التي أضفوها عليَّ، والتي ما كنت لأملك بدونها أن أحقق العمل الذي كانوا يتوقعونه مني. ولقد شعرت بيقين من أنني إذ أخرج - بهذا - من الجو الذي خُلقت به، لن اغدو ذا نفع لهم، وإنما سأعمل على إشقاء نفسي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنت مكروبًا، معذَّبًا، حطمتني العواصف من كل نوع، وأضنتني التنقلات والاضطهادات خلال السنوات العديدة، وأصبحت أشعر شعورًا طاغيًا بالحاجة إلى الراحة التي اتخذ إعدائي - الغلاظ القلوب - ملهاة من حرماني منها!.. ورحت أتنهد حسرة - كما لم أتنهد من قبل - على ذلك الفراغ المحبب إلى نفسي، وعلى تلك الدعة الناعمة التي تشمل عقلى وجسمي، والتي طالما صبوت إليها واقتصرت عليها السعادة العظمى لقلبي الذي شفي من أوهام الحب والصداقة!

لذلك تطلَّعت في جزع إلى المهمة التي كنت أوشك أن أُقدم عليها.. إلى الحياة الصاخبة التي كنت أوشك على أن أنغمس فيها.. وإذا كان جلال الهدف وجماله ونفعه قد أذكت عزيمتي، فإن استحالة ارضاء نفسي بالنجاح، وتعويضها عما كانت فيه، ثبط تلك العزيمة تمامًا!.. إن عشرين عامًا من التفكير العميق والتأمل - في وحدة - كانت أقل عناء، في نظري، من ستة أشهر أقضيها في حياة حافلة بالنشاط، وسط أناس ومسائل عامة كنت موقنًا من الفشل فيها!

وفكرت في حيلة لاحت لي جد مناسبة لتسوية كل شيء.. ذلك لأننى - وقد كانت تتعقبني، في كل مكان، المؤامرات الخفية التي كان يبذلها ظالميّ المستترون - لم أر سوى (كورسيكا) مكانًا أستطيع أن أتطلَّع إليه في شيخوختى، للحصول على الراحة التي أبوها عليَّ في كل مكان، فقرَّرت أن أذهب إلى هناك، وفقًا لتعليمات « بوتافوكو »، بمجرَّد أن يتسنى لي ذلك. ولكنني عقدت عزمي - لكي أعيش في هدوء هناك - على أن أطرح عنى مهمة التشريع، ولو في الظاهر، على الأقل. ولكي أرد إلى مضيفي كرمهم، بطريقة ما، قرَّرت أن أعكف على كتابة تاريخهم، في مسرحه.. على أن أجمع - في هدوء - المعلومات اللازمة التي تجعلني ذا نفع كبير لهم، إذا ما لاح لي أي أمل في النجاح. وداخلني الأمل بأن أستطيع - إذا لم أقيد نفسي بشيء، على هذا النسق - أن أفكر فيما بيني وبين نفسي، وأنا مطلق الحرية، في مشروع مناسب، دون أن أنبذ آمالي المشتهاة في العزلة، ودون أن أنتهج أى أسلوب للحياة لا أقوى على احتماله، ولا أنا مهيأ له!

غير أن هذه الرحلة لم تكن سهلة التحقق، في وضعي الراهن. فعلى ما أنبأنى به السيِّد داستييه عن (كورسيكا)، لم أتوقّع أن أجد هناك أبسط أسباب الراحة في الحياة، ما لم أصحب هذه الأسباب معي: من أقمشة، إلى ملابس، إلى أطباق وصحاف، إلى آنية المطبخ، إلى الورق والكتب.. كان لابد للمرء من أن يحمل كل هذه معه. ولكي أنتقل إلى هناك مع « تيريز »، كان من الضروري اجتياز جبال الألب، وأن أجر خلفى متاعى مائتى فرسخ.. وكان

لا بد من اجتياز أراضى عدّة حكومات، وعلى ضوء المعاملة التي لقيتها من أوربا كلها، كان من الجدير أن أستعد - بطبيعة الوضع، وبعد المحن والنكبات - لأن أصادف عقبات في كل مكان، ولأن أجد كل امرىء فخورًا بأن يعذبني بمحنة جديدة، وبأن يمتهن - في شخصى - كل حقوق الشعوب والإنسانية. ولقد اضطرتني فداحة نفقات رحلة كهذه، ومتاعبها، وأخطارها، إلى أن أتدبّر مقدمًا كل صعابها، وأن أزنها وأقدرها في عناية.

وفيما كنت مترددًا - بهذا الشكل - حدثت اضطهادات (موتيير) التي اضطرتني إلى الانسحاب. ولم أكن مستعدًا لرحلة طويلة، لا سيما إلى (كورسيكا)، فقد كنت أرتقب ردًّا من « بوتافوكو »، ومن ثم فقد لذت بجزيرة (سان بيير)، التي طُردت منها في بداية الشتاء، على ما ذكرت من قبل. وكان الجليد الذي اكتست به (الألب) يجعل من المستحيل علىّ أن أبرح البلاد - عن ذلك الطريق - لا سيما بعد إنذار قصير الأمد. والواقع أن تطرّف أمر كهذا، جعل الصدوع به مستحيلًا فلقد كان من العسير أن أطيعه وأنا في مقامي المنعزل المحوط بالماء، وليس أمامي سوى أربع وعشرين ساعة - بدأت منذ إخطاري بالأمر - لأقوم باستعداداتي للرحيل، ولأستأجر القوارب ووسائل النقل التي أغادر بها الجزيرة والمنطقة.. كان من العسير أن أنفذ الأمر، ولو أوتيت أجنحة!

ولقد أنبأت حاكم (نيداو) بذلك في ردّي عن خطابه، ثم رحت أتعجل ما استطعت، فراق هذه البلاد، التي لم ألق بها سوى الاضطرابات.. وهكذا اضطررت إلى العدول عن مشروعي الغالي.. وهكذا أيضًا قرّرت - إذ عجزت في قنوطي وثبوط عزيمتي، عن أن أحمل أعدائي على أن يترفقوا بي - أن أرحل إلى برلين، بدعوة من السيِّد المارشال، تاركًا « تيريز » لتقضي الشتاء في جزيرة (سان - بيير) مع متاعى وكتبي، بعد أن أودعت أوراقي بين يدىّ دوبييرو. ولقد بذلت كل تعجل، حتى أننى غادرت الجزيرة في الصباح التالي لوصول الأمر، فبلغت (بيين) قبيل الظهر. وقد كادت رحلتي تنتهى هناك تقريبًا، بحادث يجب عدم إغفال ذكره.

فما أن تردد أنني تلقيت أمرًا بمغادرة مقرّى، حتى تدفق علىّ الزائرون من المناطق المجاورة، لا سيما من أبناء (بيرن) الذين جاءوا ليراءوني ويطيبوا خاطري، في أبشع آيات النفاق، وليؤكدوا لي أن فرصة العطلات وغياب كثير من أعضاء مجلس الشيوخ، قد استُغلت لإصدار هذا الأمر - الذي استنكره كل « المانتين »، على ما قالوا - وإنذاري به. وكان بين هذا الحشد من المواسين، بضعة أشخاص من مدينة (بيين)، وهي ولاية صغيرة حرّة، تحيط بها أراضي جمهورية (بيرن).. وكان بين هؤلاء شاب يُدعى « فيلدرميه »، كانت أسرته تحتل الصدارة، وتستمتع بأرفع سمعة في هذه المدينة الصغيرة. ولقد ألحّ علىّ « فيلدرميه » في حرارة - باسم مواطنيه - كى أتخذ ملجئي بينهم، مؤكّدًا لي أنهم كانوا توّاقين ومتحمسين لاستقبالى.. وأنهم يعتبرون مساعدتي على أن أنسى المظالم التي عانيتها، شرفًا وواجبًا.. وأنني لن أجد ما أخشاه من نفوذ أهل (بيرن) بينهم، فإن (بيين) كانت مدينة حرّة، لا تخضع لسلطان أحد، وقد أجمع مواطنوها - عن بكرة أبيهم - على ألّا يصغوا إلى أي طلب يسيء إلىّ!

وعندما رأى فيلدرميه أن ليس بوسعه أن يزعزع إصراري، أهاب بعدّة أشخاص آخرين من (بيين) والمناطق المجاورة - بل ومن (بيرن) ذاتها - أن ينضموا إليه ويؤيدوه.. وكان بين هؤلاء « كيرشبيرجر » - الذي سبق لي أن تحدَّثت عنه - الذي زارني مع فيلدرميه، وراح يستحثني في إلحاف على أن يجتذب اهتمامي إليه بفضل مواهبه ومبادئه. ولقد كانت أبعد الرجاوات عن توقعي، وأشدّها إلحاحًا، هي تلك التي راح يبذلها السيِّد « بارثيه » - سكرتير السفارة الفرنسية - الذي زارني مع فيلدرميه، وراح يستحثني في إلحاف على أن أقبل دعوته. وقد أدهشني بما أبداه لي من اهتمام كريم وحار. ولم أكن أعرف السيِّد « بارثيه » إطلاقًا، ولكني - مع ذلك - لمست في كلماته حرارة وحمية الصداقة، ورأيت أنه كان توّاقًا

حقًّا إلى إقناعي بالإقامة في (بيين). ولقد امتدح - في أسلوب رفيع، طلق - تلك المدينة وأهلها، الذين بدا أنه كان على وئام بالغ معهم، حتى أنه كان يدعوهم، في كثير من المناسبات - في حضوري ـ رعاته وأهله!

ولقد قوَّضت هذه الخطوة ـ من « بارثيه » - كل تكهناتي. فلقد اعتدت دائمًا أن أرتاب في أن السيِّد دى شوازيل، كان المصدر السرى لكل الاضطهادات والمظالم التي تعرَّضت لها في سويسرا. ولم يؤدِ تصرّف الوزير الفرنسي المقيم في جنيف، والسفير الفرنسي في (سلور)، إلّا إلى تعزيز هذه الشكوك بقوة. كنت أرى النفوذ الخفى لفرنسا في كل ما حدث لي في (بيرن) و (جنيف) و (نيوشاتيل)، وقد خُيل إليَّ أن عدوى القوى الوحيد في فرنسا، هو الدوق دى شوازيل. فكيف كان خليقًا بي أن أرى زيارة (بارثيه) والاهتمام الكريم الذي بدا منه نحو مصيرى؟.. لم تكن مصائبي قد قوّضت ما كان يعمر قلبي من ثقة فطرية وسذاجة طبيعية، ولم تكن التجربة قد علمتنى كيف أتبين في كل مظهر للود والعطف فخًا للإيقاع بي!.. وأخذت أبحث في دهشة عن سبب هذا الكرم من بارثيه، فما كنت من الغفلة بحيث أصدِّق أنه اتخذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه. ولمحت في مسلكه دعاية، بل وتظاهرًا، ينمّان عن مقصد مستتر، وكنت بعيد البال عن أن أبصر في كل هذه العناصر الثانوية البسيطة، تلك الشهامة الكريمة التي كانت كفيلة بأن تجعل قلبي يغلي غليانًا، لو أنني كنت في مركز مشابه لمركز محدثى!

وكنت قد تعرَّفت - في الماضي - بالشفالييه دى بوتفيل، معرفة بسيطة، في قصر لوكسمبورج، حيث أبدى لي بعض الكرم. ولقد حرص - منذ تعيينه سفيرًا - على أن يُظهر أنه لم ينسني، حتى لقد دعاني إلى أن أزوره في (سلور). ومع أننى لم ألب الدعوى، إلا أنني تأثّرت بها، إذ أنني لم أعتد أن أعامل بمثل هذا الكرم، من أصحاب هذه المراكز الرفيعة. ومن ثم فقد حدست - من مسلك بارثيه - أن السيِّد دي بوتفيل، وإن كان مضطرًا إلى إطاعة التعليمات فيما يتعلق بشئون جنيف، إلا أنه أشفق عليَّ في محنتي، وأعدَّ لي - بما له من نفوذ شخصى - هذا الملجأ في (بيين)، حتى أستطيع أن أعيش هناك في سلام، تحت رعايته. ولقد شعرت بامتنان لهذه اللفتة، وإن لم أر أن أفيد منها. ولما كنت قد عقدت العزم على الرحيل إلى (برلين)، فإنني رحت أتطلع في لهفة إلى اللحظة التي أنضم فيها إلى السيِّد المارشال، وأنا موقن من أنني لن أحظى بالراحة الحقيقية، والسعادة الباقية، إلا معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورافقنى كيرشبيرجر - عند رحيلي عن الجزيرة ـ حتى (بيين)، حيث ألفيت فيلدرميه، وبعض البيينيين الآخرين، في انتظاري. وتناولنا الغداء معًا في فندق البلدة، وكان أوَّل ما فعلته - عند الوصول - هو البحث عن محفة، إذ كنت معتزمًا الرحيل في الصباح التالي. ولقد عاد أولئك السادة - أثناء الغداء - إلى تجديد إلحاحهم عليَّ بالبقاء بينهم، في حرارة، وفي تأكيدات مؤثِّرة، حتى أن عواطفي لانت لهم بالرغم من كل إصراري، ومن قلبي. وما أن رأوا أنني بدأت أتزعزع، حتى ضاعفوا جهودهم، ووفقوا في ذلك، حتى أنني ارتضيت - في النهاية - أن أغلب على أمرى، ووافقت على البقاء في (بيين).. حتى الربيع المقبل، على الأقل.

وبادر فيلدرميه - لفوره - إلى البحث لي عن مسكن، وراح يطري لي في تحمس غرفة صغيرة تعسة، في مؤخرة طابق ثالث من مبنى، تطل على فناء أستطيع أن أمتع بصرى فيه، على مرأى الجلود ذات الرائحة النتنة، في مدبغة للجلود. وكان صاحب المسكن رجلًا ضئيل الجسم، وغدًا وضيعًا، لا ضرر منه. وقد سمعت عنه - في اليوم التالي - أنه كان سكيرًا مقامرًا، سيىء السمعة جدًّا في المنطقة. ولم تكن له زوجة ولا أطفال ولا خدم. وإذ احتبست نفسى - في غرفتي المنعزلة - في وحدة كئيبة، شعرت أننى - في أبهج بلد في

العالم - قد انسقت في سكناي، لأفضل خطة مدبَّرة للقضاء على رجل بالموت اكتئابًا وغمًّا، في بضعة أيام قلائل. وكان أشدّ ما أحزنني أننى - بالرغم من كل ما قيل لي عن تلهف الأهالي على أن أقيم بينهم - لم أكن ألاحظ، عندما أسير في الطرقات، أي كرم في السلوك، أو أي ود في النظرات!.. ومع ذلك فإنني كنت قد عقدت عزمى تمامًا على أن أمكث هناك، عندما علمت - في اليوم التالي بالذات - ورأيت، ولاحظت بنفسى، أن المدينة كانت في اضطراب فظيع من أجلي. وبلغ الكرم بعدد من الناس، أن أسرعوا إلى إنبائي بأنني سأُخطر - في اليوم التالي، وبأخشن الأساليب - بأن أغادر لفوري البلاد.. أعنى البلدة!

ولم أجد من أستطيع أن أعتمد عليه، فقد تشتت كل أولئك الذين كانوا قد ألحوا علىَّ في البقاء.. فاختفى فيلدرميه، ولم أعد أسمع شيئًا عن بارثيه، ولم يلح لي ما ينم عن أن توصياته قد أكسبتني رضى « رعاته وأهله »، الذين كان يفخر بهم. على أن سيِّدًا من أبناء (بيرن)، يُدعى السيِّد دى « فو - ترافير »، كان يمتلك بيتًا بديعًا بالقرب من المدينة، فعرض علىَّ أن يأويني، أملًا في أن أنجو - كما قال - من الرجم بالطوب. ولم يبد هذا العرض كافيًا لإغرائي على أن أطيل مقامى بين هؤلاء القوم المضيافين.

وإذ كنت قد بددت بهذا التأخير ثلاثة أيام، فإنني كنت قد تجاوزت الأربع والعشرين ساعة - التي أمهلتنيها سلطات (بيرن) لأغادر أراضيها - بأمدٍ كبير. ولما كنت أعرف غلظة القوم، فإننى لم أخل من قلق بشأن الطريقة التي قد يعاملونني بها في مروري بأراضيهم. وأعفاني من هذه الحيرة حاكم (نيداو)، بتصرف كان أبعد ما يخطر بالبال. فقد أعرب جهرًا عن عدم رضائه عن الأساليب العنيفة التي انتهجها أعضاء مجلس الشيوخ، وذكر - بكرامة نفس - أنه يرى أن واجبه يقتضيه أن يُشهد الملأ على أنه لم يكن ذا علاقة بالأمر. ولم يتورع عن أن يغادر منطقته، ليفد لزيارتي في (بيين)!

ووصل في اليوم السابق على رحيلي، غير مستخف، بل في كثير من المظاهر، فقد جاء في زيه الرسمي وعربته، مصطحبًا سكرتيره. وحمل إلىَّ جواز سفر صادر منه، يمكنني من عبور أراضى حكومة (بيرن)، دون ما خوف من اعتداء. ولقد أثَّرت الزيارة في نفسي، أكثر مما أثَّر جواز السفر. وما كان شعوري بهذا التأثّر ليقل، لو أن هذه الزيارة كانت لشخص آخر غيرى، فلست أعرف شيئًا أعظم نفوذًا على القلب من الشهامة التي تؤدى في لحظتها المناسبة، من أجل شخص مستضعف، اضطهد ظلمًا!

واستطعت - أخيرًا - أن أستأجر محفة، بعد عناء، فانطلقت في الصباح التالي، مغادرًا هذه الأرض القاتلة، قبل وصول الوفد الذي أريد به تكريمى.. بل قبل أن أتمكن من رؤية « تيريز » مرة أخرى. إذ أنني - حين ظننت أننى سأمكث في بيين - كنت قد كتبت إليها لتلحق بي.. بل إنني كدت لا أجد وقتًا كافيًا لأكتب لها بضعة سطور، أنبئها فيها بسوء طالعي الجديد، ولسوف يتبدّى في الجزء الثالث من « اعترافاتي » - إذا قُدِّر لي أن أوتى القوة كى أكتبه - أننى كنت في الواقع منطلقًا إلى إنجلترا، وأنا أظننى منطلقًا إلى برلين.. وكيف أن السيِّدتين اللتين كانتا توَّاقتين إلى أن تتحكما في حركاتي - بعد أن طاردتانى بمؤامراتهما من سويسرا، حيث كنت في قبضة نفوذهما تمامًا - أفلحتا، في النهاية، في أن تسوقاني إلى أيدى أصدقائهما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد أضفت ما يلى، عند قراءتي هذه « الاعترافات » على السيِّد والسيِّدة كونته ديجمون، والسيِّد الأمير بيجناتيللي، والسيِّدة المركيزة دى ميم، والسيِّد المركيز دي جيينيه:

« إنما قلت الحق، فإن عرف أحد أشياء تناقض ما عرضت، فإنما يعرف أكاذيب وافتراءات، ولو قام عليها ألف دليل.. وإذا هو أبي أن يتحرى صحتها، وأن يمحصها معى، وأنا بعد على

قيد الحياة، فهو لا يحب العدالة ولا الحقيقة.. أما أنا، فإنني أعلن بصوتٍ عال، ودون ما خوف: أن أى امرىء، يستطيع - ولو لم يقرأ مؤلّفاتي - أن يصدِّق بعد أن يتبين بعينيه طباعي، وخلقي، ومسلكي، وميولي، ومسراتى، وعاداتى، أنني رجل عديم الشرف والاستقامة.. فإنما هو رجل جدير بأن يُخنق »!

بهذا اختتمت قراءة « اعترافاتي »، والجميع سكوت.. وكانت السيِّدة ديجمون هي الوحيدة التي بدا عليها التأثّر، فراحت ترتجف بوضوح.. ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها، ولاذت بالصمت، كبقية الجماعة.

وهكذا كانت النتيجة التي خرجت بها من هذه القراءة ومن بياني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمت هذه الترجمة. وهي أوَّل ترجمة عربية أمينة، كاملة، لـكتاب

« اعترافات جان جاك روسو »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الجزء الخامس والأخير بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞





متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك الانضمام الى الجروب – **Group Link**

لينك القنـــاة – **Link**

فهرس الجزء الخامس والأخير..

Notes

[←1]

عقب « روسو » على هذا بقوله: « كانت النسخة تؤجر للقراءة باثني عشر « سو » في الساعة، في الأيام الأولى لظهور الكتاب.

[←2]

أضاف « روسو » في هامش كتابه: « كتبت هذا في سنة 1769 ».

[←3]

كانت السيِّدة دى نادياك رئيسة لدير (جومير فونتان)، الذي كان يضم يتيمات مدينة (ووان)، والذي كان يقع على مقربة من قصر « شاتو دى تير » حيث نزل « روسو » لفترة من الزمن. ومما يذكر، أن روسو كتب قطعة من الموسيقي الدينية. بوحي من هذه السيِّدة. ولا تزال النسخة الخطية لهذه القطعة مودعة في المكتبة الملكية. بالمتحف الفرنسي.

[←4]

.« ريتشارد سن » مؤلف « أميرة كليف » التي يقيسها روسو بقصته « جولي »

[←5]

استدرك « روسو » في هامش كتابه قائلًا: « لم تكن هي، وإنما كانت سيدة أخرى، لا أعرف اسمها.. بيد أنني تأكّدت من الواقعة ذاتها ».

[←6]

.اقرأ عن أصل هذا الكتاب في صفحات 212 و 213 و 214 من الجزء الثالث

[←7]

كان « بيروس » ملكًا على (أيبيرس) بين سنتى 318 و 372 قبل الميلاد، وقد غزا ايطاليا قبل وفاته بثماني سنوات، ومع أنه هزم الرومان مرتين، إلّا أنه تكبد خسائر جسيمة، وكُتب عليه أن ينكسر في النهاية وأن يعود إلى بلاده اليونانية، أما « سينياس » فكان وزيره ومستشاره، وكان الملك يقول أنه بحكمته أكسبه من المدن ما لم تكسبه إياها الجيوش. على أن الوزير كان يعارض جموع الملك في مطامعه، وقد حاول أن يثنيه عن غزو ايطاليا بحديث سجّله التاريخ مثالًا للنصح البليغ. وهو الذي أشار إليه « روسو ».

[←8]

بالرغم من منيرفا »: مثل اصطلح عليه، في الحديث عمَّن يصر على عمل لم « يؤت موهبة تمكنه من اتقانه، وكان يُطلق أصلًا على الشاعر الذي يمارس النظم وان لم يؤت ملكة الشعر.

[←9]

الدوق أتيين - فرانسوا دى شوازيل، كان وزيرًا للخارجية في عهد لويس الخامس عشر، وأبدى براعة في اصلاح النتائج السيئة التي ترتبت على حرب السنوات السبع. وتدين له فرنسا بكثير من الأفضال العسكرية والدبلوماسية. وقد عاش بين عامى 1719 و 1785.

[←10]

حلف الأسرة: معاهدة تحالف عسكري، أبرمت في سنة 1761، بين الأسرتين الملكيتين في فرنسا وأسبانيا.

[←11]

كان « ديدرو » قد سُجن، وكتب « روسو » إلى السيِّدة دى بومادور كى تعمل على إطلاق سراحه (صفحة 116 - الجزء الثالث).

[←12]

أوبرا كان « فولتير » قد وضع كلماتها، كما وضع « رامو » ألحانها، ثم عهد الدوق ويشليو إلى « روسو » بأن يعيد كتابة الكلام والموسيقى مع تنقيحهما (انظر صفحة 93، من الجزء الثالث)).

[←13]

أوبرا كان قد شرع في تأليفها في أوَّل عهده بالإقامة في باريس (صفحة 24 - الجزء 3)، وعُرضت في حفلة خاصة حضرها ويشيليو (صفحة92 - جزء 3).

[←14]

أوبرا من تأليف روسو، عُرضت على مسرح القصر الملكي بحضور الملك، (صفحة 160 ـ الجزء 3).

[←15]

قصة « جيل بلا » من أكمل المؤلَّفات الخلقية، وقد وضعها « لوساج » في سنة 1715، وجعل بطلها يعيش مثالًا للأخلاق، برغم ما كانت الحياة تطوح به إليه من أحداث. والحادث الذي أشار إليه « روسو »، دار بين « جيل بلا » و « أسقف غرناطة »، وقد رسم فيه « لوساج » صورة رائعة للكُتّاب الذين يتظاهرون بالتحمس الشديد للحقيقة، ولكنهم لا يفون لها فيما بينهم وبين أنفسهم!

[←16]

يفضل المترجم أن يجمع « دوق » على « أدواق » » تمييزًا له عن « دوقات »، « وهي جمع « دوقة ».

[←17]

كان « روسو » قد أنجب خمسة من « تيريز » سفاحًا، وأودعهم مع اللقطاء، وروى المناسبات والمبررات في الصفحات من 133 إلى 156 من الجزء الثالث.

[←18]

بلاد (الفود): المقاطعات السويسرية التي يتكلم أهلها الفرنسية.

[←19]

عقب « روسو » على هذا بقوله: « عندما كتبت هذا، كنت بعيدًا عن أن أتصوَّر، أو أتبين، أو أحدس أعمال الغش التي اكتشفت - فيما بعد - حدوثها في طبع مؤلفاتي، والتي اضطر الى الاعتراف بها ».

[←20]

أضاف « روسو » إلى هذا: « كنت أعرف ـ على سبيل المثال ـ أن رئيس برلمان « (...)، كان وثيق الصلة بجماعة دائرة المعارف، وبعصبة « دولباخ ».

[←21]

حرب السنوات السبع.

[←22]

كان وزير المالية ووزير الحربية في صراع مستمر، على نسق الصراع الذي كان دائرًا بين البرلمان ورجال الدين.. وكان البلاط الملكي ذاته منقسمًا إلى فريقين، أحدهما يتزعمه دوق ديجيون، ويلتف حول ولي العهد، والآخر يتزعمه الكونت دى ستانفيى - الذي أصبح دوق دى شوازيل - ويلتف حول محظية الملك، مدام دى بومبادور!

[←23]

الدوق دی شوازيل.

[←24]

تحدَّث « روسو » عن هذا المشروع في صفحة 115 ـ الجزء الثالث.

[←25]

المستشار دى ماليزيرب، والد رقيب المطبوعات.

[←26]

أورد « روسو » ذكرهما في الجزء الرابع.

[←27]

صاحب (مون لوى)، الدار التي سكنها « روسو » في (مونمورنسى) بعد أن غادر (ليرميتاج)).

[←28]

الأخ « كوم »، هو جان باسيبيلاك، الذي عاش بين سنتى 1703 و 1781، وكان راهبًا حجة في « الحصوة » وعلل المثانة والكلى. وكان

[←29]

مشروع اعتزال الأدب والناس.

[←30]

بيت من الشعر اللاتيني للقاعة تاسو.

[←31]

ارجع الى صفحة 76 من الجزء الثالث.

[←32]

لقب كان يُطلق على أي إقطاعي أوتى عددًا معينًا من رقيق الأرض يبيح له أن يرفع على قصره علمًا خاصًا.

[←33]

تلك هي: « الشهرة والمنفعة.. هذان هما ربه وقانونه ». ولم يكن « روسو » قد كتب هذه الشطرة فوق أختها - تحت الصورة - وإنما كتبها خلفها!

[←34]

كان كوريولانوس قائدًا رومانيًا أدَّى لوطنه أجَّل الخدمات في القرن الخامس، ولكن مزاحميه أوغروا صدور الشعب ضده، ففر لائذًا بقبائل « الفولك »، المعادية للرومان، والتي كان قد هزمها من قبل. وقاد جيشًا منها فحاصر روما وكاد يدمرها لولا ضراعات الشعب التي حملتها اليه أمه وزوجته.

[←35]

أي أنه لم يعد يعاشر تيريز معاشرة الأزواج، حتى لا تحمل ثمرة تضعه في موضع المذنب مرة أخرى!

[←36]

من الصحيح أن اللورد المارشال، كان وثيق الصلة بهيوم، ومن ثم فإنه تأثَّر للأخطاء التي ارتكبها روسو نحو الأخير. ولكنه ظلَّ صادق الود لروسو برغم ذلك، حتى أنه أهداه قبل موته - وقد توفي في مايو سنة 1778، سابقًا روسو بستة أسابيع - ساعة لم يكن يفارقها.

[←37]

كان « السوربون » معهدًا لعلوم اللاهوت، في ذلك الحين.

[←38]

جون كالفن مصلح دينى سويسرى، قام يبشّر بإصلاح الكنيسة منذ سنة 1533. ويسمى المذهب الذي قام على تعاليمه بالمذهب البريسبيتيرى وهو قريب من المذهب البروتستانتي.

[←39]

ارجع الى صفحة 144 من الجزء الثالث.

[←40]

رئيس المجلس الذي كان يتولى إدارة شئون جمهورية (جنيف).

[←41]

جان روبير ترونشان، وهو غير « ثيودور ترونشان » الطبيب المشهور الذي ورد ذكره في الكراستين الثامنة والعاشرة، وكانا ابنيّ عمومة.

[←42]

الآنسة « فيل » كانت ممثلة في « الأوبرا » الفرنسية، ورد ذكرها في مواقع متفرقة من الأجزاء السابقة.

[←43]

صفحة 94 - الكراسة الثانية - الجزء الأوَّل من الترجمة

[←44]

كان « فوسيون » قائدًا وخطيبًا أثينيًّا في القرن الرابع قبل الميلاد. وكان داعية للسلام، بقدر ما كان جنديًّا باسلًا. وقد عُرف بإنكار الذات ولباقة الحوار، والقدرة على الافحام.

[←45]

كان الراهب « دى ما بلى » قد عرض على « روسو » مراجعة مؤلفات الأب دي سان بيير، واختيار أصلحها للنشر. ولكن « روسو » عمد - إلى جانب الاختيار - إلى تسجيل تعليقات وآراء ودراسات بصدد كتابات الأب دي سان بيير، ضمنها كتابيه: « العقد الاجتماعي » و « السلام الدائم ».

[←46]

في باريس، مع « الموسوعة الفلسفية » لفولتيير، وبنفس القرار المؤرخ في 19 مارس سنة 1765.

[←47]

وردت هذه المناسبة في صفحة 189 - الجزء الثالث.

[←48]

كانت محاكم التفتيش هيئات كنسية لقمع الزندقة، أُنشئت لأوَّل مرة في (تولوز) في سنة 1229، ثم انتشرت في القرون الوسطى في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا - بوجهٍ خاص - واستفحل نفوذها فكثر جورها، وغدت أداة سياسية أكثر منها دينية. وكانت محاكماتها تجرى سرية، وتستخدم فيها أبشع طرق التعذيب لحمل السجين على أن يقرّ بالذنب الذي يُتهم به!

[←49]

عقب روسو على هذا بقوله: « بدأت هذه الظاهرة المشئومة، منذ إقامتي في (ايفردون) اذ أن السيِّد الاقطاعي روجان توفى بعد رحيلي عن هذه المدينة بعام أو اثنين، فإذا أبوه الشيخ يجد من الأمانة ما يحمله على أن يخبرنى - وهو آسف - أنه قد ثبت من أوراق ابنه أنه قد اشترك في مؤامرة إقصائي عن (ايفردون) وولاية (بيرن). وقد دلَّ هـذا بجلاء، على أن المؤامرة لم تكن فرية - كما رغب الناس في أن يصدّقوا - وأنها كانت مجرَّد مظاهرة كاذبة، اذ أن الإقطاعي « روجان »، لم يكن بعيدًا عن التقـوى فحسب، وإنما كان يمعن في ماديته وكفره إلى درجة التعصب والتهوس. وإلى جانب ذلك، لم يكن في (ايفردون) مَن استولى على ودى، وغمرني بالمجاملات المفرطة، وبالملق والرياء، كما فعل الإقطاعي روجان المذكور. فكان وفيًا في اتباع الخطة المحببة لدى مضطهدى.

[←50]

.اسم ابتكره « رابيليه » للأرض التى أوت إليها حاشية البابا

[←51]

.من شعر لافونتين، ويقصد بالعمل الجديد.. عدم العمل

[←52]

Flora Petrinsularis